في صالون العقا د كانت لنا أيام



أنيس منصور



الطبعة الأولى

١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م

الطبعة الثانية

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

الطبعة الثالثة

١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٢٩٣٣٢
فاكس : ٣٩٣٤٨١٤ (٠٢) تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
برقيا : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE

إهـداء

الَى التي لولا تشجيعها ما كان السّطر الأول في هذا الكتاب ،

ولولا تقديرها ما اكتملت هذه الصّفحات ،

امتناناً عميقاً وحبّاً أعمق :

الى زوجتي ..

أنيس منصور



كلمة أولى[1]

عرفت الأستاذ عباس العقاد أكثر من غيره من كبار المفكرين والأدباء المصريين . ما الذى أعجبنى فيه ؟ ما الذى شغلنى به ؟ فقد كنت طالبا صغيرا لا أشترى مجلة « الرسالة » إلا إذا كانت للعقاد مقالة فيها ! وقد اكتشفت بعد ذلك أن هناك كتابًا آخرين على درجات متفاوتة من الجمال والروعة والأبهة المنطقية . ولكن فى مثل سنى الصغيرة ، من الصعب أن يكون الإنسان معتدلا وشابا فى نفس الوقت . أو من الصعب أن يكون معتزا بذوقه الأدبى ، وفى نفس الوقت واسع الصدر والأفق . ولذلك كنت أرى أن الكاتب هو العقاد . وأن المقال هو الذى يكتبه ، وأن مجلة الرسالة خالية إلا منه .. .

أعجبنى فى العقاد هذا الصفاء العقلى . وهذ الرواء الفنى . هذا الشموخ الهندسى فى مقالاته . هل كان العقاد ساحرا ؟ رأيته كذلك . فهو يخرج بالمعانى من المعانى ، ولا أعرف كيف . ؟ ثم هو قادر على أن يستدرجنا إلى ما لم يخطر على البال من نتائج . هل كان محاميا عظيما ؟ هل كان مهندسا فكريا جبارا ؟ كان كل ذلك ..

وفى مثل سنى الصغيرة كنت أريد أبا عقليا . ووجدته . وكانت لى أفكار صغيرة غامضة . وكان العقاد هو المصباح الذى هدانى . هل كنت مستعدا نفسيا لدراسة الفلسفة ؟ . أعتقد ذلك .. فقد كان من نصيبى أن أكون الأول على طلبة التوجيهية فى الفلسفة فى مصر كلها .

وكان العقاد يصدمنى أيضا . فقد كان يدين بفلسفة غير التى أدين بها . وأنا صاحب قلب . وهو صاحب عقل . أنا أتنقل وهو يتقدم . أنا أنبهر وهو يضىء . أنا أتغنى وهو يخطب . ولا أعرف كيف صدمنى العقاد فى أعز ما أملك : حبى الوجدانى للفلاسفة . أما هو فكان صاحب عقل كبير ، وكنت صاحب قلب صغير . وكنت أمسك فى يدى شمعة ، أما هو فيمسك النجوم والشموس فى يديه ..

وعندما انتقلت من المنصورة إلى القاهرة . انتقلت إلى جامعتين فى وقت واحد . جامعة القاهرة وجامعة العقاد . وكانت جامعة العقاد أقرب وأعمق وأعظم .

كنت واحدا من أصغر المترددين على بيت العقاد فى مصر الجديدة . البيت ١٣ شارع السلطان

سليم . وعرفنا أن العقاد على عكس خلق الله : يتفاءل برقم ١٣ .. ويتفاءل بالبومة . ولا يتشاءم من الكتابة عن الشاعر ابن الرومى الذى أهلك كل الذين كتبوا عنه ..

وكان صالونه الأدبى يوم الجمعة من كل أسبوع . وكانت الأعلام مرفوعة فوق ثكنات الجيش والمصالح الحكومية فى طريقنا إلى مصر الجديدة . وكنا نرى أن هذه الأعلام مرفوعة من أجلنا نحن الذين نتردد على بيت العقاد . فليس بعد ذلك شرف لأحد من الناس . كنا نركب المترو . أو بعضنا تدفعه الحماسة إلى أن يذهب ماشيا وكانت رحلتنا إلى بيت العقاد تبدأ يوم الخميس ، فنظل نتحدث عنه وعن ندوته السابقة ابتداء من يوم الخميس . ثم نمشى على أقدامنا إلى مصر الجديدة – تماما كما كان يفعل الحجاج عندما يسافرون من المغرب إلى الأراضى المقدسة . ويكون المشوار حديثا عن العقاد قبل أن نراه .

ونسارع إلى شارع العقاد . ولا نرى أى معالم لهذا الشارع . حتى إننا لم نعرف شكل البيت ولا المدخل ولا عدد السلالم التى نصعدها إلا بعد سنوات طويلة . فلم نكن نرى ولا نسمع . وإنما ندخر الرؤية للعقاد ، وندخر السمع لكلامه .. وقد كان رأسى مثل راديو صغير مضبوط على موجة واحدة . فالمؤشر لا يتحرك إلى محطات أخرى . فلا محطات أخرى . إنه العقاد : وهذا يكفى .

وبسرعة ندق الباب أو كنا نجده مفتوحا . وندخل . والغرفة صغيرة والهواء بارد لأنه يدخل من الباب ويخرج من النافذة . وكنا نراها واسعة – وعرفنا فيما بعد أنها ضيقة جدًّا . وكنا نرى المقاعد وثيرة . وفيما بعد عرفنا أنها خشبية جافة . وأحيانا كنا نرى تمثال العقاد النصفى أمامنا . وأحيانا نراه وراءنا . وعرفت فيما بعد أن التمثال لم يتغير موقعه من الغرفة قط . لقد كان فى أحد الأركان وراءنا !.

ولا يكاد الأستاذ يعرف أن زائرا قد جاء حتى يتقدم إليه . طويلا عريضا بالبيجامة والطاقية والكوفية . ونقف لتحية الأستاذ الذى يقف لتحية أى إنسان ، صغيرًا أو كبيرًا ، وبنفس الحماسة : أهلا يا مولانا ..

وكنا لا نرد على هذه التحية . أو لا نعرف ما الذى نقوله . إنه الأستاذ قد جاء . وقد جلس والآن له أن يقول . وهو يقول فى كل شىء . ويجىء عصير الليمون . وبعده القهوة . والأستاذ يتكلم . وينهض واقفا . ويقول : أهلا يا مولانا .. ومن بعد ذلك الليمون والقهوة .

وكنت أجلس إلى جوار الباب . فأنا لست إلا طالبا صغيرا . على الشاطئ . كأننى أتوقع أن أخرج أو يخرجنى أحد لأى سبب .. أو أننى على الحافة بين الجلوس فى الصالون والجلوس بعيدا عنه . أو أن الجلوس فى الصالون حسب الأقدمية ، فالأقربون إلى الأستاذ هم الأقدمون .. أما نحن الصغار الجدد ، فمكاننا بعيد عنه .. ولكن لن يمضى وقت طويل حتى نكون أقرب إليه ، فالذين كانوا

يجلسون بالقرب منه . بل يضعون أيديهم على كتفه وأحيانا على ساقه وهم يتحدثون إليه قليلون جدًا : عبد الرحمن صدقى وصلاح طاهر وطاهر الجبلاوى وزكى نجيب محمود وعلى أدهم .

أما نحن فالمسافة بيننا وبين الأستاذ بعيدة جدًا . فليس لنا حق أن نلمسه . ولا أن نقترب منه . فقط أن نستمع إليه .

وكان الأستاذ يعرفهم جميعا .. وله معهم قصص ونوادر مع زوجاتهم وأولادهم . وكان يضحك معهم ويروى لنا الحوادث الشخصية والقصص التاريخية .. وكان التاريخ والأدب والفن والفلسفة والسياسة والنكتة كلها أصابع بيانو يلعب عليها معا فى وقت واحد . وكنا أحيانا نسأله . ولم يكن السبب واضحا . إنما المهم أن يكون لنا دور . وأن نقترب منه بمجرد السؤال . لأن السؤال معناه أننا مثل هؤلاء الكبار . وأن السؤال سوف يجعل الأستاذ ينظر إلينا ويسمع . ويهتم ويرد . وربما كان السؤال إعلاء لقدرنا عنده . أو شعورا بالقرب منه .. أو أننا اكتسبنا حقا جديدا وموقعا فى صالونه الأدبى أو فى حياته ..

وكان الأستاذ يتركنا ليرد على التليفون . ويجيء صوته عاليا وضحكته عريضة من حنجرته ومن أعماقه أيضا . وكان مثل الفيلسوف أرسطو يمشى مسرعا ، ومثل الفيلسوف سقراط يسأل ويتساءل ..

وعندما كان يتغيب الأستاذ لحظات فى داخل الشقة ، نجدها فرصة للكلام على حريتنا ، وللنظر إلى ما حولنا .. وإلى رؤية الضيوف أوضح ، وأحيانا إلى التطلع إلى تمثاله وراءنا .. وإلى استهجان الأسئلة السخيفة التى نقولها له . أو استنكار مقاطعته . فنحن نريده أن يتكلم دون أن يتوقف عن الكلام . وكثيرا ما فعل ذلك ..

أما كيف تنتهى الندوة عادة ، فكانت بأن ينهض الأكبر سنا .. وبأن ينظر بعضنا إلى بعض . بما يؤكد أن الساعة قد اقتربت – دون أن ندرى – من الثانية . وأن هذا هو موعد تناول غداء الأستاذ . وبعد ذلك نومه ، ثم المشى فى شوارع مصر الجديدة . ثم العودة إلى البيت .

وفى الشارع بعد انتهاء الندوة يكون الحديث عن الأستاذ . ماذا قال . وماذا قال غيره . وماذا ينبغى أن يقال – أى أن يقوله أى أحد ..

وكنا نرى أن جلسات العقاد أسرار لا نبوح بها إلا للمترددين عليه فقط .. أو إذا أردنا أن نتباهى بذلك ..

وكان الأستاذ يشجعنا أكثر وأكثر على أن نضحك وعلى أن نروى أحدث النكت . وكان بعضنا يفعل . ولكن العقاد كان يقول : لا .. يا مولانا عندى نكتة أحسن ! ثم يروى النكتة وتكون ضحكته عالية .

ولا أذكر أننا عرفنا ملامح وجه الأستاذ العقاد أو لون البيجامة أو الشبشب أو الطاقية إلا بعد

وقت طويل . فلم نكن نرى ذلك بوضوح . إنما كنا نراه عموما ونسمعه خصوصا .

وفى أحد الأيام جاءت السيدة سنية قراعة . لا نعرفها . إنها سيدة بيضاء ممتلئة . قبل إنها صحفية . ويبدو أنها تعرف الأستاذ ، ومن العجيب جدًّا أننا وجدنا الأستاذ قد أجلسها إلى جواره . وليس على مقعد من المقاعد الأخرى .

وكانت هذه أول سيدة نراها فى صالون العقاد – كان ذلك سنة ١٩٤٤ . فقد كان من عادة الأستاذ أن يجلس على هذا المقعد الطويل وحده . لا يشاركه أحد .. وأغرب من ذلك أن السيدة سنية قراعة كانت تتحدث أكثر مما كان يفعل العقاد . وأعجب من هذا كله أنها عندما تتحدث إليه كانت تضع يدها على كتفه وأحيانا على يده .

وبسرعة تلاقت عيوننا استنكارا لذلك . إذ كيف تجرؤ هذه السيدة الغريبة أن تلغى المسافة بينها وبين الأستاذ الكبير . وهمس واحد فى أذنى : هل أقوم وأضربها وأطردها من صالون الأستاذ؟

ولم أرد عليه . فقد كان المنظر غريبا عجيبا . ولم نعرف كيف ينتهى . وبسرعة انتهى هذا المشهد الفريد الذى لم نره بعد ذلك فى عشرين عاما . خرجت السيدة سنية قراعة وودعها الأستاذ إلى الباب الخارجى . ولم يجرؤ واحد منا أن يستوضح الأستاذ كيف حدث ذلك .. كيف تجرأت سيدة أن تفعل ذلك .. أى كيف سمح لها بذلك – وهذا ما لم نقله له أو حتى لأنفسنا !

وجاءت سيدة لبنانية لا أعرف اسمها . لأننى لم أسأل أحدا . وحاول الأستاذ أن يجلسها إلى جواره فاعتذرت عن هذا الشرف العظيم . وسألها عن والدها . فقالت : تعيش أنت . وسألها عن زوجها فقالت : تعيش أنت .

فتضايق العقاد . ولم يشأ أن يسألها عن أحد من الناس . ولابد أنه نظر إلى ملابسها فوجدها ملونة فقال : لابد أن ذلك من وقت طويل .

وكان ردها الذى أسكته نهائيا : والله منذ شهرين !

ثم استأذنت ولم يرافقها الأستاذ حتى الباب الخارجى . ووجدنا فى ذلك عقابا تستحقه . فقد أخجلت الرجل من لهفته على أخبار والدها وزوجها . فقلت للأستاذ : لعلها تزوجت يا أستاذ !

فضحك وقال إن هناك عبارة شهيرة لأوسكار وايلد : إن سيدة ازدادت شفتاها احمرارا حزنا على وفاة زوجها ! .

وروى الأستاذ على أدهم قصة من التاريخ الإنجليزى بهذا المعنى .

وتحدث د . زكى نجيب محمود عن جريمة عاطفية قرأها أخيرا تنتهى بأن يعلن البطل ابتهاجه بوفاة زوجته ، فقد اكتشف فى أوراقها أنها كانت تتمنى وفاته ..

ولم نر بعد ذلك فى صالون العقاد سيدة واحدة . ولست الآن على يقين من ذلك .. فلابد أن

سيدات قد جئن فى صالون العقاد . ولكن شعورنا المعادى لهن ، بسبب الجلوس إلى جواره وإلغاء المسافة الواجبة بينهن وبينه ، قد جعلنا نتمنى ألا يجئن .. أو جعلنا ننسى أنهن جئن على الإطلاق ..

ولم يكن لاجتماعات العقاد يوم الجمعة موضوع محدد .

ولكنه كلام من وحى الساعة .. والأحداث .. أو تساؤلات الزوار . ولكن الأستاذ هو الذى يقول دائما .

وأصبح معروفا فى الجامعة أننى واحد من المترددين على صالون الأستاذ . وكنا نحن طلبة الدراسات الفلسفية ندور حول عدد كبير من العلماء الكبار .. حول عبدالرحمن بدوى ومصطفى عبدالرازق وإبراهيم بيومى مذكور ومنصور باشا فهمى .. ولكن الأستاذ العقاد كان له مقام خاص ..

وفى يوم تشجعنا أن ندعوه لإلقاء محاضرة فى الفلسفة . ولم نجرؤ أن نختار له موضوعا معينا . فقلت : ياأستاذ نرجو حضرتك أن تتكلم فى أى شىء . ونحن سعداء بذلك !

ولكنه فاجأنا بقوله : بل اختاروا أنتم الموضوع !

ولم نفهم المعنى بسرعة . فقد كان المعنى أنه يستطيع أن يتكلم فى أى موضوع . ولكن إذا اختار هو الموضوع ، فقد اختار شيئا قد درسه أو أعده .! أما إذا اخترنا له نحن ، فلا يخيفه شىء ، فهو قادر على أن يتحدث فى أى شىء .

واخترنا موضوعا شاقا علينا ، ونريده أن يدلنا على مفاتيحه . وكان الموضوع هو : « نظرية النسبية عند أينشتين ونظرية السببية عند الإمام الغزالى » .

وكان هذا الموضوع من العقد الفلسفية التى نعانى منها فى فلسفة العلوم وفى المنطق وفى الفلسفة الإسلامية . وقد جلسنا مجموعة من الطلبة حتى اخترنا له هذا الموضوع المتشابك . وتحدد موعد محاضرة الأستاذ العقاد . واحتشدنا طلبة من جميع الكليات . وضاق المدرج ٧٨ بكل نوعيات الدارسين والمعجبين ومحبى الاستطلاع ، إنه الأستاذ العقاد .

أما نحن طلبة الفلسفة فقد انتهينا إلى رأى واحد : لا قرأنا ولا سمعنا شيئا مثل الذى قاله الأستاذ . لقد كان عظيما فى شرحه وبيانه وإحاطته وتعمقه وإقناعه !

وطالت أعناقنا ، واستقر الأستاذ فى أعمق أعماقنا . ولم يكن مفاجأة لنا أنه قال ذلك . فقد استمعنا فى ندوته إلى عجائب الأفكار والآثار والنوادر فى كل فروع المعرفة الإنسانية !

• • •

وأحيانا كنا نرى الأستاذ يمشى فى شوارع القاهرة ، غريبة ! . لم نكن نتصور أول الأمر أنه يفعل ذلك ، ولكن اعتدنا على أن نراه هكذا عاديا .

وعرفنا أين يذهب كل يوم من كل أسبوع . وكنا نتعرض له . وقد أحكم طربوشه فوق رأسه . أما

الجاكتة فقد كانت طويلة جدًّا فى الأربعينات . والجاكتة والبنطلون لم يعرفا المكوى .

وكان يسرع الخطو ، ويمشى محنيا قليلا إلى الأمام .. أوكل جسمه إلى الأمام ، وهو برأسه يجر بقية أعضائه . وكان بعض الناس يعرفونه ويقولون : العقاد . وكان لا يأبه لذلك كثيرا ، أو يراه شيئا عاديا أن يعرفه الناس . فإذا ذهب إلى المكتبات التى نعرفها سارعنا بعد أن ينصرف الأستاذ . فنسأل ما الذى قرأ ؟ .. ما الذى اشترى ؟ .. ما الذى قال ؟

وكنا نتجرأ عليه أحيانا قليلة – فهو رجل لم يتخصص فى أى شىء .. لأنه يقرأ أى شىء ويفهم أى شىء . وعقله موسوعة . ولكننا نحن تخصصنا فى الفلسفة : الحديثة والقديمة الإسلامية والمسيحية واليهودية والمنطق وعلم النفس ومناهج البحث والفلسفة الوجودية ..

وكنا نرى أننا على قدر ما من المعرفة الفلسفية ، إن لم يقرب منه ، فهو أكثر قليلا . وسوف يزداد هذا الفارق بمرور الوقت . وكانت هذه الأفكار التى لا نجاهر بها نوعا من التطاول عليه . أو نوعا من تأكيد الذات فى مواجهته . فمن الصعب أن يتماسك أحد فى مواجهة العقاد . ولكننا تماسكنا ، فقلت له مرة : يا أستاذ ، إننى أقرأ هذه الأيام فى كتب الفيلسوف الألمانى هيدجر والفيلسوف الفرنسى سارتر وصديقته سيمون دبوفوار .. لقد اشتريت كل الكتب التى ترجمت للفيلسوف الألمانى .. وهو .. وهو .. إلخ .

وسألنى : كم كتابا له عندك يا مولانا ؟

فقلت له : كل الكتب التى ترجمت إلى الإنجليزية .. إنهما كتابان .

فضحك العقاد ونادى خادمه : يا إبراهيم . يا إبراهيم .. هات الكتب الملقاة على السرير .

وجاء إبراهيم بسبعة كتب للفيلسوف الألماني ، ولم أكن أعرف أن كل هذه الكتب قد ترجمت له !

وضحك الأستاذ ليقول : يا مولانا .. كل شىء موجود هنا .. إننى أطلب الكتب أحيانا وهى فى المطبعة !

ثم يروى كيف إنه عثر على كتاب عن أبى نواس ، وكان مايزال مخطوطا فى ايران . ثم طلب إلى أحد أصدقائه أن يترجم له هذا الكتاب من الفارسية . وكان الأستاذ فى ذلك الوقت يستعد لدراسة عن أبى نواس .

هذه الدراسة قال لى عنها طه حسين : إنها لا تعجبنى . لأن العقاد يطبق النظريات النفسية على الشاعر . ويضعه فى قوالب حديدية ..

فلما نقلت للعقاد رأى طه حسين قال ساخرا : هل لو وضعت الشاعر فى قوالب من الحرير يكون التفسير صحيحا ؟ ! . إن كل شىء له قواعد وله قوالب . وكل شىء محسوب فى هذا الكون ..

* * *

وكنت أتباهى بالفلسفة الوجودية الجديدة . وكان العقاد يكرهها . ويهاجمها بعنف . وكنت لا أقوى على المجاهرة بذلك . أما منطق العقاد فهو أن الفلسفة الوجودية إن لم تكن مريضة ، فهى من أعراض المرض . لأن المريض هو الإنسان الذى ليس معتدل المزاج . أو الذى ترتعش فى يديه وتتراقص أمام عينيه الأشياء .. فليس سليم النظر من يرسم الدنيا مرتجفة . فالكون ليس مرتعشا . وإنما المرتعش هو الإنسان .. والوجودية تبالغ فى مفهوم الحرية والقلق والموت عند الإنسان . وتعطى للانسان ما لا يستحق من الوزن ، وتسلب الكون ما يستحق من الوزن ..

ولم أكن أعجب كثيرا بما يقوله الأستاذ عن الوجودية التى تؤمن بها . ولم نكن نحب أن نناقشها معه ، حتى لا يصدمنا فى مشاعرنا .. أو حتى لا يصدمنا فيه . فنحن لا نريد أن نكرهه .. أو لا نريد أن نخسره .. أو لا نريد أن تكون المسافة بعيدة بيننا . فنحن سعداء به ، ثم إن لنا معتقدات خاصة ننميها سرا

وفى إحدى المرات كانت المناقشة مباشرة مع الأستاذ . فقلت : إن الفلسفة الوجودية هى تعبير عن مأساة العصر.. فنحن فى أعقاب انهيارات فكرية .. فالإنسان قد انهار أمام نفسه وعلى نفسه .. والفلسفة الوجودية تشبه قوس قزح الذى يرتسم على سحاب أسود .. أومثل العفن على جثة ميتة .. إنها نتيجة طبيعية لما أصاب الإنسان على يد الإنسان .. وبعض الفلسفات الوجودية ملحدة .. لأنها ترد نفسها عن الحكم فى قضية خطيرة مثل : من الذى خلق الكون .. وترى أننا بحواسنا لا نقوى ولا نقدر على الإحاطة بهذه القضية .. ولذلك فبعض الفلاسفة الوجوديين يرون أنهم ليسوا أهلا للحكم فى هذه القضية .. وبعض الوجوديين مؤمنون بالله واليوم الآخر ..

وأتذكر الآن أننى قلت كلاما مثل ذلك ..

ولكننى أذكر بوضوح ماقاله الأستاذ : وماهى الحواس التى لديك يامولانا لكى تعرف أن الشمس طالعة . وأنت تعرف أن فى الشمس فتحات صغيرة تتسع الواحدة منها لألف كرة أرضية ؟ .. وما هو مدى اتساع عينيك يا مولانا لترى من السماء مساحة يمكن قياسها بألوف الملايين من السنين الضوئية ؟ .. أنت لست فى حاجة إلى كف عفريت لكى تقيس الهرم .. ولست فى حاجة إلى عين فى اتساع المحيط لترى السماء .. فنحن ندرك كل ذلك بالعقل . وكذلك الله . ولكن الفلسفة الوجودية هى فلسفة عاجزة .. وتلامذتها من العجزة والكسالى والمغرورين الذين يرون أن قدرتهم هى منتهى القدرة . وإن عبدالرحمن بدوى بتاعكم هذا جاهل ..

فقلت ، ولا أعرف كيف تجرأت : لا أعتقد ذلك يا أستاذ .

فقال : تقول إنك لا تعتقد بالله ، ثم تعتقد بعبدالرحمن بدوى ؟!

وكانت هذه المناقشة الحادة العنيفة المباشرة أول تجربة لى فى الحوار مع الأستاذ . وأول خلاف

حاد . وأول سكين أغمده فى عقلى .. فلا أنا قلت إننى كافر ، ولا قلت إننى وضعت عبدالرحمن بدوى على عرش الله .. ولا حتى الأستاذ !

وكانت هذه هى المرة الأولى التى صدمنى فيها !

* * *

أما المرة الثانية فقد كانت بعد ذلك بعشرة أعوام عندما كنت محررا فى « أخبار اليوم » ، وعاتبنى الأستاذ لأننى رفضت نشر مقال كتبه الصديق عامر العقاد ابن أخى الأستاذ بمناسبة عيد ميلاده . وقلت للأستاذ : إن وجهة نظرى ...

ووجدت الأستاذ قد اتجه بناظره بعيدا عنى ، كأنه لا يريد أن يرى وجهة نظرى .. أو أن وجهة نظرى لا تستحق منه إلا أن يتجه بنظره بعيدا عنها ..

قلت : وجهة نظرى يا أستاذ أن الذى يكتب عن عيد ميلاد العقاد ليس ابن أخيه .. فعيد ميلاد العقاد ليس مناسبة عائلية ، إنما هو مناسبة أدبية قومية ..

فلم يسترح إلى ذلك ..

وعدت أقول له : ولكنى لست الذى منع نشر المقال .. إنما منعه سكرتير التحرير .. وليس من الضرورى أن يكون من قراء العقاد أو من محبيه !

ولم أعرف ما الذى قاله الأستاذ ، ولا كيف كان غضبه ، ولكن زملائى أخبرونى بعد ذلك كيف امتقع وجهه .. وكيف تراجع فى مقعده .. وتحولت كلماته إلى ذراعين تعلوان وتهبطان وتعتصران من الجو ما لا أعرف ولم يعرف أحد .. وكيف إنه قام وقعد ، وكل الذى أدركته من غضب الأستاذ قوله : إن صحيفة التايمس البريطانية قد خصصت عددا ممتازا لأديبها ريتشى ، مع أنه ليس إلا كاتبا متواضعا !

أى أن مقالا واحدا فى « أخبار اليوم » عنه ليس شيئا ، ولا شيئًا كبيرا لو أصدرت عددا ممتازا عنه . وأنا من رأى الأستاذ . لولا أن اعتراضى فى ذلك اليوم لم يكن على أن يكتب أحد عنه . ولكن أن يكتب ابن أخيه فقط .. وليس عشرات من الكتاب والنقاد الآخرين !

وعرفت بهذا الحوار شيئا جديدا عن طبيعة الجدال مع الأستاذ . وخطورة الدخول معه فى نقاش .. فهو عنيف ، وهو قادر على الإقناع بأى شىء . ثم إنه عصبى المزاج ، ولم يكن من الصعب أن يتأكد لنا ذلك من عشرات الأمثلة التى تقع فى كل جلسة معه . ولكن انشغلنا به عنه . حتى إذا كانت هذه الحادثة االأخيرة !

ومرة ثالثة فوجئت بأن مجلة « روزاليوسف » نشرت حديثا للأستاذ سنة ١٩٥٢ يقول فيه : من هذا الأنيس منصور ؟ !

ولم أصدق أن يقول عنى ذلك . فوقتها كنت محررا بأخبار اليوم .. أكتب باب الأدب ، وكنت محررا بروزاليوسف ، وقدمنى الصديق إحسان عبد القدوس فى مجلة روزاليوسف وفى مجلة الاثنين على أننى فيلسوف المستقبل .. وأن أسلوبى وتفكيرى مزيج من سارتر والعقاد وطه حسين والحكيم وشقاوة الشباب .. وقال مرة أخرى : انتظروا هذا الشاب ..

ولم يكن قد صدر لى كتاب واحد من كتبى التى بلغت الآن خمسة وستين كتابا ..

وكنت مدرسا للفلسفة فى الجامعة : ألقى محاضرات عن الفلسفة الوجودية وما بعد الطبيعة والفلسفة اليونانية وتاريخ الحضارة وفلسفة الجمال وعلم الأديان المقارن ..

ثم إن الأستاذ يعرفنى منذ أكثر من عشر سنوات ، أتردد بانتظام على صالونه الأدبى .. وهو الذى قرأ لى بعض المقالات . وأبدى ارتياحه إلى ذلك ..

وأظن أن حديثه فى روزاليوسف قد أجرته السيدة مديحة عزت .. ولما قرأت الحديث وجدت أن الأستاذ لا يعرف من أنا ، أو من أكون ، أو إن كان لى وزن أدبى أو حتى مستقبل !

ولا ألومه ، فلم أكن قد أصدرت عملا أدبيا أو فلسفيا – أى رأيا فى قضية متكاملة . إنما أنا « واحد صحفى » يكتب فى الأدب والفلسفة . فأنا أديب يشتغل بالصحافة أو فيلسوف يشتغل بالأدب – أى بالكتابة اليومية أو الأسبوعية فى موضوعات متنوعة !

ولكنى تضايقت جدا . ولم أعرف كيف أواجه إحسان عبد القدوس الذى تنبأ لى بأننى سوف أكون شيئا . ولا أعرف كيف أواجه الذين يعرفون صلتى بالأستاذ – أى صلتى من جانب واحد . هو جانبى وليس جانبه !

وسألت الأستاذ فى التليفون إن كان قد قال شيئا من ذلك ، فأنكر قائلا : إنهم أولاد الـ... بتوع روزاليوسف ..

ولكنى تأكدت أنه تورط فى هذا الحديث ، ولم يتصور أن أحداً سوف ينشره ..

فذهبت إلى روزاليوسف ، وكتبت ردا على الأستاذ فى مقال قصير بعنوان : عباس محمود العضاض .. وأذكر أننى قلت إن الأستاذ العقاد مثل كل جهاز ميكانيكى كبير له ماسورة عادم ضخمة ، وإن هذا الذى قاله عنى قد خرج من ماسورته .

ثم اعتذرت له فى التليفون قائلا : إنهم أولاد الـ... بتوع روزاليوسف ..

وكانت صدمة أخرى لم أنسها !

* * *

أما أول صدمة حقيقية أشكر الأستاذ عليها . ومن المؤكد أنه توفى إلى رحمة الله دون أن يدرى بها . فهى ليست إلا شيئا عابرا فى حياته ، خطيرا فى حياتى .

فى أحد الأيام كتبت مقالا فى جريدة « الأساس » سنة ١٩٤٨ . كان موضوعه : معنى الفن عند تولستوى ..

وصدر المقال يوم الجمعة ، أى يوم الندوة الأدبية . وسألت الأستاذ إن كان قد قرأ المقال .

قال : نعم يا مولانا وأعجبنى أسلوبه !

انتهى كلام الأستاذ . وبدأ الكلام والآلام فى أعماق . لقد أعجب الأستاذ بالأسلوب ! .. أسلوبى ! .. فقط الأسلوب ، لا الفكرة .. ولا القضايا التى أثرتها .. الأسلوب فقط ..

وأذكر أننى لم أسمع كلمة واحدة مما قاله الأستاذ فى ذلك اليوم . ولا أعرف كيف عدت إلى البيت .. ولا كيف ذهبت إلى مكتبى فى جريدة الأساس بشارع الشواربى لأمسك ورقة وقلما وأطلب من الأستاذ محمد صبيح سكرتير تحرير الجريدة إجازة أسبوعين . هل اعترض الرجل على هذه الإجازة ؟ .. هل قال شيئا غير أننا فلاسفة مجانين ؟ ..

لا أعرف . وهو عندما قال فلاسفة مجانين . فإنه يقصد عددا آخر من الزملاء خريجى قسم الفلسفة ، وهم : حمدى فؤاد نائب رئيس تحرير الأهرام ، وعادل مجدى نائب رئيس تحرير وكالة أنباء الشرق الأوسط ، ومحمد شرف وكيل وزارة الثقافة ..

وذهبت فى نفس اليوم إلى جريدة الإخوان المسلمين ، وسحبت قصيدة نظمتها فى « مولد النبى » .. وذهبت إلى إحسان عبد القدوس وسحبت قصة « وجودية » كان من المنتظر نشرها بعد أسبوع . وعدت إلى بيتى حزينا . لا أعرف ما الذى أستطيع أن أفعله ..

أما المشكلة فهى : أن الأستاذ العقاد قد أعجبه أسلوبى ..

وعدت إلى المقال أقرؤه من جديد ، لقد كان الأسلوب صعبا معقدا . أو هكذا تصورت .. وكان مليئا بالتراكيب الفلسفية . فقد كنت حديث التخرج فى الفلسفة ، وفى نفس الوقت مدرسا للفلسفة . فأنا لم أتخلص من المصطلحات الفلسفية بعد . وحزنت على نفسى حزنا شديدا . لقد أعجب الأستاذ بأسلوبى ، وأسلوب الأستاذ صعب . وأحيانا معقد . وليس من السهل فهمه . إذن فالأستاذ قد أعجبه أن يجد شيئا منه فى مقالى هذا .

ولا أزال أحتفظ حتى الآن بهذا المقال الذى أعدت كتابته ٣٢ مرة . وفى كل مرة أجرده من الكلمات الصعبة . وفى كل مرة أضع له بداية ونهاية مختلفة ، ولا أزال أحتفظ بهذه المقالات التى اعتبرتها عقوبة لنفسى ولقلمى .. والتى أعتبرها تقليمًا لأظافرى وتهذيبا لعقلى ونفسى .. وتذكرت الحيوانات التى يصيدونها بالفخ فى شمال أوروبا . فلا يكاد الحيوان يجد نفسه فى الفخ حتى يظل يقطع ساقيه بأسنانه وينزف دما ويبكى .. أملا فى أن ينجو بساق واحدة أو اثنتين !

ولذلك حرمت الدول الأوروبية والأمريكية صيد الحيوانات بالفخ ، حتى لا تتعذب .

وتذكرت ماذا فعل رائد الإصلاح الدينى مارتن لوثر ، عندما كان يترجم التوراة إلى اللغة الألمانية . فقد ظهر له الشيطان فألق عليه زجاجة من الحبر الأحمر . وظل هذا الحبر على جدران الغرفة عشرات السنين . ومضى مارتن لوثر يعيد الترجمة ، ويجعل العبارة أحسن وأجمل ..

وبعد أسبوعين عدت إلى الكتابة . وأحتفظ بأول مقال كتبته . وكان أول طريق فى الكتابة السهلة الواضحة . وحتى عندما كنت أدرس فى الجامعة كنت أشعر أننى لا أتحدث إنما أنا أكتب على مسمع من الطلبة .. فأنا أوضح نفسى لنفسى ، ولذلك كان أكثر الذين يترددون على محاضراتى من الكليات المختلفة . فقد كانت محاضراتى فى الفلسفة مزيجا من الأدب وعلم النفس والتاريخ والفكاهة . لقد خلعت الرداء الحديدى الذى يشبه ملابس فرسان العصور الوسطى .. لقد نزعت جلد القنفذ وأحجار السلاحف ..

مرة أخرى تذكرت عبارة العقاد هذه ، عندما فزت بجائزة الدولة التشجيعية فى أدب الرحلات عن كتابى « حول العالم فى ٢٠٠ يوم » سنة ١٩٦٣ . فى يوم جلست أقلب فى الطبعة الأولى لهذا الكتاب . فلاحظت أن فصوله غير مترابطة . وأن أحجامها غير متناسقة ولا متعادلة المسافات والأهمية . وشعرت بالخجل . وتذكرت الأستاذ . وقررت أن أعيد كتابته من جديد . وفى أسبوعين جلست أكتب الطبعة الثانية من هذا الكتاب فى ٨٠٠ صفحة . وهذه الطبعة الثانية لم أغير حرفا واحدا منها حتى الآن وقد صدرت أخيرا الطبعة الثامنة عشرة .

لقد أحسست أنه لو كان العقاد حيا لقال لى : لا يعجبنى هذا الأسلوب .

أى لا يعجبنى اختفاء المنطق والتسلسل فى هذا الكتاب !

وكانت هذه الصدمات المتوالية مثل دقات على مسرح حياتى ، وبعدها انفتح الستار أو ارتفع الستار .. مع أن الأستاذ لم يقل شيئا .. فقط عبارة . حتى لم أسأله عن الذى يقصده منها . إنما أنا الذى أحسست بشىء ما . فهل كان عندى استعداد لذلك ؟ .. هل لاحظت على نفسى مثل هذه القوالب اللفظية الفلسفية ؟ ربما .. غير أننى لم أفكر فى كيفية الخلاص منها ..

لابد أن إحساسا من ذلك كان فى أعماق ..

ولكن الأستاذ هو الذى نبهنى إليه دون أن ينتبه ..

وأذكر أن د . عبد الرحمن بدوى كان قد حضر مؤتمرا للمستشرقين فى ميونخ .. ولاحظ أن اليهود فى هذا المؤتمر قد هاجموا القرآن الكريم والسيرة النبوية ، فطلبت إليه أن يكتب مقالا لأخبار اليوم . وكتب المقال . وأعطيت المقال للأستاذ مصطفى أمين سعيدا – أنا الذى كنت سعيدا .. وقرأه مصطفى أمين . ولم يظهر على وجهه الارتياح . وعرفت أن المقال صعب العبارة .

وسألنى : لماذا لا تكتبه أنت بأسلوبك ؟

هنا تنبهت إلى كيف كان أسلوبي قبل أن ينبهني العقاد إلى ذلك. وكان عنوان مقال د. عبد الرحمن بدوى : المستشرقون يشككون فى صحة السور المكية والمدنية وفى سيرة « ابن هشام ». أما العنوان الذى كتبته وظهر باللون الأحمر فى الصفحة الأولى من أخبار اليوم فهو : مؤامرة على النبى محمد !

وعندما صدر كتاب الأستاذ العقاد عن « أبى نواس » طلب منى الأستاذ حلمى مراد صاحب مجلة « كتابى » أن ألخص كتاب العقاد ، فأنا أدرى الناس به . وسارعت إلى ذلك . وأعطيته تلخيصا لكتاب العقاد. وأعجب العقاد بذلك. وكاد يطلب منى الأستاذ أن أفعل ذلك فى كتب أخرى ..

ووقتها ساءلت نفسى : ولكن لماذا اخترت كتابا للعقاد لأعرضه بعبارتى السهلة ؟ .. هل لأؤكد للعقاد أن لى عبارة أسهل .. أو لكى أثبت لنفسى أننى قادر على ذلك .. أو لكى أقول إن العقاد لا يمكن فهمه إلا من خلالى . وإن للعقاد وجودين : وجوده هو ووجوده بقلمى .. أوكان ذلك التلخيص نوعا من التحدى ؟ ..

لا أعرف لماذا كان ذلك ..

وأذكر بعدها أن الأستاذ توفيق الحكيم كان يركب معى سيارتى. فقال لى : إن مؤلفات العقاد تشبه مؤلفات شكسبير.. فى حاجة إلى من يبسطها للناس ! أى أنها صعبة .. وأننى جعلتها أسهل . فلماذا لا أمضى فى ذلك ؟

وكان كلام الأستاذ الحكيم مثل حجر سقط فوق رأسى .. ما الذى يقصده الحكيم أو العقاد أو أى إنسان ؟ هل معنى ذلك أن أكون شارحا للعقاد .. أن أكون داعية للعقاد .. أن أعيش عمرى على كتب العقاد .. آخذا من عمرى وأضيف إلى عمره ؟ ! ..

هل كان الحكيم يقصد ذلك .. أى كان يقصدنى أنا بذلك ؟ .. أو هل كان الحكيم يعرض قضية ليتبناها أى إنسان غيرى ؟ .. هل كان توفيق الحكيم فى ذلك الوقت يعمل سرا فى تبسيط الكتب القديمة التى نشرها بعد ذلك ؟ .. لا أعرف ، ولكن الذى أحسست به فورا : هو خطورة أن أكون على هامش العقاد .. أو أى أحد !

وتذكرت أن شاعرنا الرقيق كامل الشناوى قد رفض أن يعيش يلقى قصائد أمير الشعراء .. فقط يلقى هذه القصائد ، ولا يلقى قصائده !

وربما كان ذلك أحد الأسباب التى جعلتنى لا أشارك كثيرا فى حفلات التأبين والتكريم للأستاذ العقاد ، فقد أحسست إحساسا مبالغا فيه أننى سوف أتحول إلى قارئ فى مأتم العقاد .. وأن قلمى أو حياتى الأدبية والفلسفية سوف ترتبط بالأستاذ العقاد .. كلما ذكر اسمه ذكروا اسمى .. كما حدث قبل ذلك للأستاذ سيد قطب أو سعيد العريان .. أو لعدد كثير من تلامذة العقاد ..

وقفز إلى رأسى ذلك المعنى الوجودى اللعين : أن هناك أنواعا من الناس مثل الزائدة الدودية .. إنهم زائدون فقط – أى زائدون على الحاجة . موجودون هناك دون ضرورة .. كالإصبع السادسة فى بعض الأيدى !

وكما أن هناك كتبا لها ملاحق ، فهناك أناس لهم ملاحق – أى أناس يضافون إلى أناس .. لست ذلك الذى يضاف إلى أحد من الناس . ولست ذلك الذى يلحقه أحد بأحد – أيا كان هذا الأحد !

ثم إن الأستاذ العقاد عندما تحدث عن الزعيم سعد زغلول قال : عندما خلقه الله قال له : اذهب فأنت غابة بأكملها ، وبقية الناس أعشاب بشرية !

وكان العقاد غابة .. ولم يقل لنا : أنتم أعشاب بشرية ! ولكننا خفنا على أنفسنا أن نكون كذلك !

ثم تساءلنا : هل كان العقاد غابة حقا ، ونحن أعشاب بشرية ؟ .. من المؤكد أننا كنا نراه كذلك ، ولايزال . ولكن لم نكن أعشابا بشرية ...

* * *

ولم أكن أفكر كثيرا فى ذلك الوقت إلا فى تنمية نفسى ورعاية قدراتى .. وكنت مبالغا فى خوفى .. ونسيت عبارة قالها الكاتب اللاتينى فرجيل : إن الإنسان لو أكل بقرة فلن يكون بقرة .. إنما سيظل إنسانا دائما . فلن أكون « عقادا » صغيرا أوكبيرا !!

ولكن شيئا قد أوجعنى فى نفسى .. وظل يوجعنى وقتا طويلا .. لقد تذكرت ما الذى فعله المكتشف البريطانى كوك ، وما الذى جرى له .. لقد اكتشف جزر هاواى . ووجده أهلها تجسيدا لأساطيرهم التى تحدثهم عن إله أبيض يجىء فوق جزيرة عائمة – أى فوق سفينة كبرى . ونزل كوك إلى الجزيرة وأذهلهم عندما أشعل سيجارا وأخرج الدخان من فمه وأنفه .. ورأى أهل هاواى فى ذلك معجزة .. فالدخان يخرج منه والرجل لا يحترق .. فسقطوا على الأرض ساجدين ..

ثم وضع يديه فى جيبى بنطلونه .. فانهاروا بين يديه .. فقد خيل إليهم أنه يضع يديه فى بطنه ويخرجها دون أن يسقط بطنه ..

ولكنه بعد ذلك كان عنيفا قاسيا غليظا . فجاوز بذلك احتمالهم ، فأطلقوا عليه – وهو الإله – سهما أصابه فنزف دمه ، وسقط على الأرض .

هنا أيقن هؤلاء البدائيون أنه ليس إلها . فتكاثروا عليه وقتلوه ..

لقد قتلوه فى نفوسهم قبل أن يقتلوه على الأرض ..

ولكنى لم أقتل العقاد فى نفسى ، ولا حاولت ذلك .. ولكنه أوجعنى وجعلنى سنوات أكتم آهتى ، وإن كنت أجاهر صادقا بعظيم احترامى له ! ..

كسر رؤوسنا ولم يحطمها !

هل كانت الدهشة هى التى تحرك كل حواسى ؟

هل هى الدهشة التى قال عنها أستاذنا أرسطو : إنها بداية المعرفة ؟ .. فالإنسان يندهش لما يراه ويسمعه ويحاول أن يفهم ، والذى لا يندهش لما يراه ويسمعه ، فهو ليس هنا وليس هناك .. إنه غائب عن الدنيا .. أو الدنيا قد غابت عنه ..

لم تنته هذه الدهشة فى صالون العقاد .. فنحن كل يوم نعطيه عيوننا ليجلوها ، وآذاننا وعقولنا وقلوبنا ، وننظر ماذا يفعل بها .

تماما كما يقول أستاذنا الفيلسوف الوجودى مارتن هيدجر . فقد كان يصف علاقته بالحقيقة الكونية فيقول « إنها معبودتى ، إننى أركع عند قدميها ، وأحنى لها رأسى وعقلى وأنتظر ماذا تجود به » ..

أحيانا أحس أننى فى لحظة تفتيش .. فالأيدى تمتد إلى كل حواسى .. هذه الأيدى تتلمس كل أعماق .. وتتأكد من استعدادى لهذه الرحلة الطويلة .. تماما كما يمتحن الذين يصعدون الجبال أو يغوصون فى الماء .. فهى رحلة عقلية وجدانية طويلة عريقة .. ويجب أن نتأكد من سلامة أجهزة الرصد والذاكرة ..

هل انشغلت تماما عن الاستمتاع بكل ما أسمع وأرى ، واكتفيت بأن أرصد وأحلل وأدخر؟ .. هل كنت فى ذلك الوقت متفرجا ؟ .. نعم .. هل كنت فى ذلك – فى الأربعينات أثناء دراستى فى الجامعة – حكما فى مباراة ليس لها كأس ولا دورى ؟ لا أظن أننى كنت كذلك . فلم أكن قادرا على أن أكون طرفا فى كل القضايا الفلسفية والأدبية والتربوية والسياسية التى كان يخوضها الأستاذ العقاد ..

إنما كان يقوم بدور الحكم أناس آخرون أكبر سنا وأكثر تجربة وأقوى علاقة بالأستاذ .. أما الشعور المؤكد الذى لازمنى فهو أن صالون العقاد قد امتلأ بالأحياء والأموات .. وبالأموات أكثر ، من عباقرة الفلسفة الإنجليزية والأدب الإنجليزى وبقية الآداب الأخرى . فقد كانت ثقافة الأستاذ إنجليزية . والإنجليزية هى لغته الوحيدة . وإن كان البحث فى اللغات يضطره أحيانا إلى قراءة مقارنة

لأصول الكلمات . وكانت له طريقة لطيفة فى نطق الكلمات الفرنسية . فهو لا يعرف كيف ينطقها . وكنت لا أجد فى ذلك عيبا ، فالأجانب لا يعرفون كيف ينطقون لغتنا . وكانت الكلمات الفرنسية التى يعرفها الأستاذ سليمة النطق صحيحة البناء . وكان حريصا جدا على أن يكون دقيقا فى كل شيء ..

وكنت من المتحمسين للفلسفة الألمانية والأدب والموسيقى واللغة ..

وامتلأ صالون الأستاذ العقاد بكثير من الحيوانات أيضا . فهو يجد متعة فى أن يقارن بين الحيوانات وبين تلامذته أو أصدقائه الكبار . فكل واحد منهم قد وجد له شبها بالحيوانات . ووجد لنفسه أيضا . هل كان يصف نفسه بأنه الزرافة ذات العنق الطويل ؟ ! .. إن المذكرات القليلة التى كتبتها واحتفظت بها منذ ذلك الوقت لا تجيب عن هذا السؤال . ولكن أصبح صالون العقاد حديقة حيوان العقاد . وكان كلما ذكر لنا ذلك تعالت ضحكاته . وكان لابد أن نفعل نحن كذلك — أو نجد أنفسنا ضاحكين معه .. هل كنا صداه ؟ ! .. إن المجاملة تقتضينا ذلك . ولا أظن أن كلمة « المجاملة » هى الكلمة .. إنما كنا نفعل ذلك دون أن نفكر .

وفى غيابه — أى عندما لا نكون فى صالون العقاد — فقد كنا نجرب لعبة الحيوانات .. أى يطلق كل واحد منا على نفسه وعلى غيره اسم حيوان . وقد ذهبنا إلى أبعد من ذلك . فأطلقنا على أنفسنا أسماء حيوانات مختلفة فى اليوم الواحد .. كان يصحو الواحد منا من نومه حمارا ، ثم يصبح حصانا ، وبعد ذلك جملا ، وأخيرا خنزيرا .. أو ينهض من نومه حمامة ، ثم يصير غرابا ، وفى الليل يكون بومة .. أو الإنسان المشتغل بالفلسفة قرد ، وبعد أن يتعمق فيها يصير قردا أعمى ، وقبل أن يموت يكون أعمى فقط : حمارا أو حصانا أو خنزيرا ..

وكنا نتذكر عبارة مشهورة تقول : إننى أفضل أن أكون سقراط الفقير على أن أكون المليونير روتشلد الخنزير ..

أى أننى أفضل الفلسفة مع الفقر ، على الثراء مع الجهل . ولم يخطر على البال ونحن نصوغ أفكارنا أو نتركها للعقاد يصوغها ، أن من الممكن أن يكون الغنى فيلسوفا أيضا . أو أن تكون للمال فلسفة ..

ولكننا كنا نرى مع الأستاذ أن الفلسفة هى الثراء . وأن العقل قد وضعه الله على كتفينا تأكيدا لأن العقل هو أعلى وأغلى من كل شيء .. وذلك درس تعلمناه من الأستاذ : أنه ليس أعظم من الإنسان ، وليس أعظم من عقل الإنسان .. وأن الإنسان يستطيع أن يقف فى وجه السماء ، ويرفض هذا ويقبل ذاك ..

وكان الأستاذ العقاد يزلزل وجودنا عندما يغضب من الدنيا فيقول : ما هذا الكون ؟ .. ما هذه الدنيا ؟ .. أعطنى المادة الأولية لهذا الكون وأنا أصنع لك واحدا أفضل منه !

وكنا نتصور أن السقف سوف يقع فوق رءوسنا .. أو ينهدم الكون لمثل هذه العبارة التى التى فيها

الغرور والغطرسة وعقدة العجز وضلال الغضب . من الذى يعطى الأستاذ هذه المادة الأولية : طين الكون أو عجينة الكائنات ! .. إن الذى لا يجد المادة الأولى التى يصنع منها الكون ، لعاجز تماما عن أن يفعل شيئا !

* * *

وقد خفت حدة مثل هذه العبارات عند الأستاذ يوما بعد يوم ..

وعندما قامت الثورة المصرية . كان يضيق بكثير مما يقال .. أو مما يقوله الرئيس جمال عبدالناصر بعد ذلك . فيوم الاعتداء على الرئيس عبدالناصر كان يصرخ عبد الناصر قائلاً : أنا الذى علمتكم الكرامة .. وأنا الذى علمتكم العزة ..

وكان العقاد يقول : إن شعبًا يسمع مثل هذه العبارة ولا يثور عليه ويشنقه فى مكانه ، لشعب يستحق أن يحكمه ويدوسه بالنعال مثل هذا الرجل .. إنه عندما قام بثورته هذه ، وجد البيوت والشوارع وملايين الناس والأهرامات والثورات .. والجامعات ومئات الألوف من الكتب .. لقد سبقه إلى الوجود كل هؤلاء .. وسبقته إلى القاموس كلمات أخرى غير العزة والكرامة : الغرور والغطرسة .. مثل هذه الغطرسة ..

وعندما قرأ الأستاذ العقاد أن السيد كمال الدين حسين أصبح رئيسا للجنة الطاقة الذرية ، ضمن وظائف أخرى كثيرة يقوم بها ، قال : يامولانا إن الله لن يحاسبنى على ما أفعل .. إذ كيف يحاسبنى وقد خلقنى فى عصر كمال الدين حسين وجمال عبد الناصر؟ !

وسمعت من الاستاذ عبارات فيها رائحة الإلحاد وطعم الرفض وشقاوة اللاعب الذى كلما جاءته الكرة ألقى بها خارج الملعب .. فليس لاعبا ماهرا من جعل الشبكة هى مقاعد المتفرجين ..

ولكن العقاد لاعب ماهر ، ويعرف الشبكة ويعرف الأهداف ، وهو حكم عظيم لأعقد مباريات الفكر الإنسانى . ولكنه كان يضيق باللاعبين والمتفرجين وقواعد اللعبة .. غير أن العقاد حتى عندما يعبث كان جاداً ..

فاللعب له قواعد وله أصول وله قوانين ، فعلى الرغم من أنه لعب ، فهو نشاط مدروس . وفلسفة حركية . وكان الأستاذ يلهو جادا ، ويعبث متفلسفا . وأعتقد أنه كان يضيق بنا أيضا ، وكثيرا ما تصورت نفسى جالسا فى مقعده . وأطالع نفس الوجوه .. ثم ما هذه الوجوه ؟ .

إنهم شباب بالقميص والبنطلون .. إنهم مساحات من الألوان البيضاء والصفراء والزرقاء تغطى مقاعد بيته الملون ، وتحجب الجدران ذات اللون الأزرق الباهت .. فالرءوس صغيرة والعيون لامعة .. كأنهم تماثيل نصفية فى متحف الشمع .. أما العقاد فقد جلس طويلا .. كأنه قد استقر واقفا على مقعده .. يرفع رأسه ويديه ويحرك عينيه .. ثم يزم شفتيه ، إن لم يكن هذا قرفا ، فهو نوع من

التعالى .. أو نوع من الإرهاق الفكرى . فلم يكن أمرا سهلا أن يظل يحملنا على كتفيه صاعدا هابطا .. ونحن إن لم نكن جثثا جامدة ، فنحن أحياء لا ينطقون ..

* * *

لابد أن أشعر بالقرف لو جلست مكانه .. أما سبب قرفى فهو أن أظل أتحدث وحدى . لا حوار . لا أحد يسألنى . لا أحد يقول لى شيئا ، وأظل أتحدث حتى لا أشعر بالوحدة أو العزلة أو الغربة .. ولكن من المؤكد أنه يجد متعة فى الكلام ، بقدر ما يجد متعة فى الاستماع . وكثيرا ما أحس الأستاذ أن صمتنا هو عظيم الاحترام لكلامه .. وأنه إذا كان الفم الوحيد فقد كنا آذانه العشرين . ولم نكن هكذا موتى ، إنما كنا أحياء ندخر هذا الكنز الفكرى فى أعمق أعماقنا .. ثم نروح ننشره ..

أكانت أحاديثه جلسات لتحضير الأرواح ؟ نعم . كانت شيئا كذلك . فهو يقلب كتاب الموتى من العظماء ، صفحة ونكتة وحكمة .. ثم يعيد ترتيب هذه الصفحات ، ويدور بنا وتدور معه رءوسنا .. وتمتلئ الغرفة الضيقة بالقديم والجديد ، والحى والميت ، والحيوانات والضحكات .. أكان صالوننا مصطنعا للآلهة التى تحدثت عنها أساطير الإغريق ؟ كان كذلك . وكان الأستاذ يقوم بدور الإله فولكان أى البركان — الذى يشعل النار ويضع فيها الحديد .. ويلين له الحديد سكاكين وسيوفا وسهاما ورماحًا .. وكان يسلحنا العقاد بكل ذلك . ثم يطلب إلينا أن نمضى فى الحياة .ولا أظن أننى امتشقت سيفى وخرجت من صالون العقاد أرهب الناس . إنما كنت أحس دائما أن صالون العقاد هو ثلاث غرف متداخلة بعضها فى بعض .. إنها .. النار والمطهر والجنة ، التى وصفها لنا الشاعر الإيطالى دانتى الليجيرى . فنحن نتقلب معه على النار ، ولكنه لا يحترق . ونتمرغ معه على المسامير ، ولكنه هو وحده الذى لا تنفذ المسامير إلى جلده .. حتى يتم تطهير النفس والعقل ، وأخيراً نطير معه إلى جنات الفلسفة والفن تجرى من تحتها أنهار الإعجاب والمتعة المؤكدة .

* * *

هل حقا كنت سعيدا بذلك ؟ !

لا أظن أننى كنت فى ندوة الأستاذ ذلك المحظوظ الذى يجىء إليه خفيف الوزن ، وأنزل السلالم طائرا .. إنما كنت أجىء خفيفا وأعود ثقيلا . مهموم الخاطر حزين القلب . أمشى إلى جوار الحائط .. ولو عدت إلى تصوير نفسى ذاهبا إلى الأستاذ لوجدتنى هكذا : أنزل من بيتى فى الزمالك ، ٣٨ شارع السلطان حسين .. البيت تملكه السيدة نعمت هانم يكن أخت عدلى باشا يكن .. وأبى يعمل عندها مديرا لتفاتيشها الزراعية ، إنه رجل شاعر رقيق .. ولم أفكر كثيرا فى الطريق الذى سلكه أبى الذى يحفظ القرآن ويرتله ويحفظ الموشحات ويغنيها وينظمها أيضا .. ثم إنه لا يفهم فى الحساب .. لا يحسب ما يأخذ ولا يحسب ما يعطى ، حتى كاد يدخل السجن بسبب هذا الإهمال أو العجز عن

الفهم أو التواكل على الله .. لولا أنه واحد من عباد الله الطيبين .. ولم أكن أقول لأبي أين أذهب .. فقد كنت أرى الذهاب إلى الأستاذ خيانة لأبي .. فقد كان أبي هو حبي الأول ، وجاء الأستاذ فأصبح حبي الثانى .. أو حبي الأول .. فقد وجدت رجلا أعظم عقلا من أبي .. وإن لم يكن أعظم منه قلبا .. ووجدت فى هذه الخيانة قرارا مستقلا .. فمع العقاد اتخذت أول قرار لتقرير المصير .. وقررت بالعقاد ودراسة الفلسفة والتفوق فيها ، أن أنشق عن الطريق المرسوم لأن أكون شيئا ، ولا أدعى أن هذه العبارة الأخيرة صحيحة . أو وردت على رأسى فى ذلك الوقت . فلم أعرف بالضبط ما الذى أريد أن أكونه . ولا كيف أكون . ولا ما هو العمل الذى سوف يعول أمى وإخوتى بعد وفاة والدى . لم أفكر فى ذلك . وهذا غريب حقا . وقد تكفل واحد من إخوتى بالإنفاق على كتبى الجامعية . هل تضحية منه ؟ .. نعم . هل كان ذلك ضروريا ؟ .. لم يكن . فقد كان علىّ أن أعول نفسى . وحاولت ولم أوفق . لماذا ؟ .. لا أعرف . وكانت محاولتى الأولى عندما كنت طالبا فى المنصورة الثانوية .. ولا أعرف كيف إن سيدة طيبة قررت أن تتبنانى . وبذلك توفر على أسرتى طعامى وشرابى . ومن الغريب أن هذا التبنى هو بداية أوجاعى المعدية والمعوية . فقد كنت أعيش مع السيدة وبين أولادها وعلى مقربة من حيث تسكن أمى وإخوتى .. ألبس وآكل وأشرب وأنام بصورة مختلفة . فإذا ذهبت لزيارة أمى وإخوتى وجدت أنهم لا يأكلون مثل طعامى .. ولا يرتدون مثل ملابسى .. فكنت بعد ذلك كلما أكلت طعاما وأحسست أن إخوتى لا يجدونه ، تمردت معدتى وأمعائى .. وهربت إلى أمى وإخوتى . وكنت أعرف جيدا ما الذى يشعر به الأستاذ العقاد عندما يضع يده على الجانب الأيسر من بطنه .. إنه هو أيضا يشكو من المصران الغليظ ومن المعدة . والمصران الغليظ من معالم المصريين ، وأوجاعه الشديدة من ملامح المتمردين .. ووجدت فى وجع العقاد تقاربا . فقد أحسست أننى أنتسب إلى مدرسة المصران الغليظ التى عاش بها ومات أستاذنا العقاد ..

ولا أظن أننى كنت أفتعل الألم عندما أضع يدى على جانبى الأيسر وأنا فى طريقى إلى الأستاذ ، ولكن كان فى حياة والدى بعيدا عن إخوتى فى المنصورة ما يجعلنى أتلمس الوجع فى هذا الجانب وفى ذلك الجانب .. ولكن لا أظن أننى كنت أتذكر هذا كله فى طريقى إلى العقاد . حتى كلمة « طريق » هذه ليست فى موضعها . فلم يكن هناك طريق إلى العقاد . فلم أكن أشعر به . إنما أجدنى أمام بيت العقاد . وكنت أحاول فى كل مرة أن أقاوم هذا الخداع الحسى – أى الإحساس باللهفة على الصالون الذى يجعلنى أنسى الشعور بالزمان والمكان ، فلا أدرى كم من الوقت أنفقت ، وأى طريق سلكت . لم أفلح فى معرفة ذلك إلا بعد وقت طويل ..

ولم نكن نفهم معنى ما كتبه الأستاذ عن سلالم بيته .

فلم نكن نحس بها . فقد كتب الأستاذ مرة عن كيف تقدمت به السن ، فقال : « لقد كنت

أصعد الدرج ثلاثا ثلاثا ، وصعدته اثنتين اثنتين ، وها أنذا أصعده واحدة واحدة .. كنت أصعده وبياض شعرى يتوارى فى سواده ، واليوم أصعده وسواد شعرى يتوارى فى بياضه » .

ثم أجلس مع الآخرين ، أو قبلهم ، ولا أذكر أننى وجدت أحدا قد سبقنى إلى صالون العقاد . فقد كنت أول الجالسين ، وأحيانا ثانيهم .

ولم أكن قد ركبت الطائرة ولا حتى الأتوبيس .. ولم أكن أعرف أنهم فى الطائرة يربطون الحزام أثناء صعودها ، ولم أكن أعرف أنهم فى الأتوبيس يتعلقون من سقفه أيضا .. حتى لا يقعوا . وكنت أحتاج إلى ذلك فى صالون العقاد بل كنت أحتاج إلى أنابيب الأوكسيجين أيضا .. هل كنت أحتاج إلى شىء آخر؟ .. نعم . كنت أحتاج إلى كثير من النوشادر أيضا ..

فقد توالت ضربات الأستاذ على أدمغتنا .. على دماغى أنا عندما كان يشيد بالأدب الإنجليزى والفلسفة الإنجليزية . ولكنه يضيق بالفلسفة الألمانية ، لا جهلا بها .. لكن تفضيلا لكل ما هو إنجليزى . وكان يقول : إن الأدب الإنجليزى هو أسلم أدب . لأن الإنجليز تجار بطبعهم . والتاجر أقدر الناس على فهم الناس . فالأدب الإنجليزى هو أدب الحياة .

ومن المؤكد عنده أن الشاعر شكسبير هو أعظم المواهب فى التاريخ ..

أما الشاعر الألمانى جيته فيرى أنه رجل عظيم ، ولكنه ليس إنسانا عظيما ، ولا ينسى العقاد ما فعله هذا الشاعر الألمانى بالفيلسوف الشاب فيخته . فقد كان فيخته فيلسوفا متطرفا . ولكنه وطنى . وكان الشاعر الألمانى وزيرا للمعارف . ورأى فى ثورة الشاب تمردا على النظام .. ففصله . وهذا قرار وزير ، ولكنه ليس قرار شاعر كبير . ولذلك لم يره العقاد إنسانا كبيرا – ومعه حق .

وكنت غارقا فى الفلسفة الألمانية والأدب والموسيقى .. ولم يكن العقاد كذلك .

فإن لم يكن هذا الذى يقوله الأستاذ محاولة عنيفة لتحويلنا ، فهو بالفعل نقطة تحول .. فلم أستطع أن أسايره ..

* * *

وعند الموسيقى والفلسفة بدأت أتشقق على نفسى .. وأنشق على فلسفته ..

فقد كانت لى حياة فكرية وفنية أخرى .. ولا أقول « حياة » .. فلم أعرف معنى لهذه الكلمة أثناء الدراسة ولا بعدها بوقت طويل . فإذا كان صالون العقاد قد امتلأ بالأحياء والأموات ، فقد كانت لنا فى الجامعة صالونات أخرى هى التى نسميها المدرجات .. أوكانت الجامعة هى الحياة الأولى ، وصالون العقاد هو الحياة الثانية .. أو ما بعد الحياة .

ففى ذلك الوقت لم أكن أذهب إلى العقاد وحدى ، وإنما من حين إلى حين أعرض عليه بعض الشخصيات الأخرى .. كأنها العملات الذهبية ، وأعرضها عليه خلسة . وكان أحيانا ينظر إليها

وأحيانا لا يفعل . فيقول : عبد الرحمن بدوى جاهل .. لويس عوض أجهل منه .. يا أخى لماذا لا تنظرون إلى صورة سارتر هذا وصورة ماركس .. وبدوى وعوض ؟ إنهم جميعا مشوهون ..

ولم أكن أراهم كذلك ..

وهذه نظرية أخرى عند الأستاذ : أن هناك تشابها بين أفكار الناس وأشكالهم .. ولذلك فحديقة حيوان العقاد ليست نكتة . إنما هى نظرية حقيقية ..

والأستاذ هنا يؤيد العالم الإيطالى لمبروزو . ويعلن ذلك كثيرا . فهذا العالم الايطالى يرى أن كل العباقرة شواذ ، أو أنهم مجانين .. ويرى أن المجرمين لهم معالم معروفة ، وأنه يكفى أن تنظر إلى واحد منهم لتعرف إن كان قاتلا أو لصا ..

ويقال إن أحد خصوم لمبروزو قد عرض عليه صورتين ، وطلب إليه أن يعرف المجرم بينهما ، فوضع يده على صورة أحد الأمراء . وقال : طبعا هذا هو اللص !

وظل لمبروزو طوال حياته يفسر ويبرر أن هذا الأمير إن لم يكن لصا الآن فسوف يكون ، أو لعله كذلك دون أن ندرى !

* * *

وكان العقاد فى ذلك الوقت يهاجم الشيوعية والشيوعيين والوجودية والنازية . ولا يجد خلافا بينها : لأنها جميعا تدوس كرامة الإنسان . أو لا تقيم وزنا أوحجما لحرية الإنسان ، فالشيوعية تجعل الإنسان حذاء للمجتمع ، والنازية تجعل الشعب حذاء للحاكم ، والوجودية تجعل الكون كله حذاء للإنسان . ويقول : ما الذى يساويه أى إنسان حتى يضع الكون كله فى جزمته ؟ ! قل لى يا مولانا ..

و « مولانا » مفروض أنه أنا .. ومادمت واحدا من الموالى ، فلا يحق لى أن أرد عليه ..

وكان د . لويس عوض يدرس لنا الأدب الإنجليزى . وكان يرأس جمعية اسمها « جمعية الجراموفون » — والجراموفون كلمة لم يعد أحد الآن يعرف لها معنى . ولذلك فلابد أن أقول : الجراموفون هو ذلك الجهاز البدائى الذى توضع فيه الأسطوانات الموسيقية .. أى أنه جهاز بدائى سابق على الريكوردر .. فحيث كنا نضع الأسطوانة نضع الآن الكاسيت .. وحيث نضع الآن البطارية ، كنا ندير الجراموفون ونملؤه باليد كالساعات غير الأتوماتيكية ، وإذا كنت قد أطلت فلأن هذا الجهاز والجمعية قد انقرضا . ثم إننى أعرف أننا نعيش فى عصر إذا سألت فيه طفلا : أين رأيت الابريق ؟ .. أجابك : فى التليفزيون !

وكان د . لويس عوض شيوعيا أو يساريا . ولم أكن أعرف معنى ذلك . ولكنه مختلف عن د . عبد الرحمن بدوى أستاذنا فى الفلسفة الوجودية . وعندما بدأت أستعير عينى العقاد وأذنيه وموازينه . . كنت أجد د . لويس عوض نحيفا قصيرا . أصلع الرأس . أحول مثل سارتر . يمشى كأنه

يقفز. يتكلم مع أى أحد. ويجلس على الأرض ويأكل معنا ساندوتشات الفول. ويسمعنا بيتهوفن وموتسارت واشتراوس. ويحدثنا عن ذلك، وكان أفراد جمعية الجراموفون من طلبة قسم الفلسفة بآداب القاهرة: محمود أمين العالم ومحمد شرف وعباس أحمد وبهيج نصار ومصطفى سويف ومحمد جعفر وبدر الديب.. أما عبد الرحمن الخميسى فمن قسم اللغة العربية.

وكانت للويس عوض قصيدة لا أعرف ماذا تقول. وكانت من الشعر الحر. يصف فيها غرام شابين. وينتهى هذا الغرام بأن يرتبط الاثنان بأن يضعا يديهما فى «سميطة». بدلا من أن يضع كل واحد منهما خاتما فى إصبع الآخر.. ولكن لويس عوض شاء أن يجعل الرباط خبزا وعيشا وعيشة!

وفى ذلك الوقت نشرت الصحف قصيدة لأحد الشيوعيين. سمعتها من الأستاذ، ولم أقرأها، مطلعها: إلى الذين ينامون فرادى فى المستشفيات!

يقول العقاد: ما الذى يريده أن يحدث فى المستشفيات؟.. أن ينام الناس بعضهم فوق بعض.. وإذا خرجوا وضعوا أيديهم فى السميط؟.. أهذا كل ما يرتبط به الآدميون؟! ألا ترون فى هذا شذوذا جنسيًا وجنونا؟.

وكان يطلب إلينا أن نستعرض كل الشيوعيين فى صف واحد. وننظر إليهم. سوف نجدهم جميعا من الشواذ جسميا وأخلاقيا. لأنه – كما يقول الأستاذ – لا يمكن لإنسان أن يرفض إنسانيته إلا إذا كان مختلا. وهم جميعا كذلك..

فماركس فيلسوف الشيوعية كان رجلا مخموراً بديناً لاخلاق له. وكانت زوجته كذلك. وقد انتحرت اثنتان من بناته.. واحدة منهما قد تزوجت عضوا فى الجمعية الوطنية الفرنسية، واتفق الاثنان على أن ينتحرا فى اليوم الذى لا يجدان فيه الطعام. وكان ينفق عليهما وعلى كارل ماركس أيضا صديقه المليونير الشيوعى فريدريش انجلز. وانتحر الزوجان، وبعد وفاتهما بساعة واحدة جاءتهما الفلوس – منتهى الجنون الموروث عن الأب العبقرى المخبول..

وأنظر إلى لويس عوض. فلا أجد شيئا من ذلك. بل إن لويس عوض مسئول عن تعديل مسار أفكارنا ونحن صغار. فقد كنا طيورا جارحة جامحة. ولكنه استطاع بالعقل والمنطق أن يجعلنا طيورا داجنة.. كانت السحب أرضنا، والسماء مسكننا.. فجعل الأرض أقرب والسماء أبعد.. لقد نزع الكثير من ريش أجنحتنا.. حتى تعثرنا بالأرض.. وتعثرنا به واصطدمنا أيضا. ولكن الذى فعله لويس عوض، هو نوع من «التشييء» – أى جعل الكثير من الأفكار شيئا ملموسا، فنقبله بوضوح أو نرفضه بوضوح.

ولا أنسى محاضرة للويس عوض ألقاها فى قسم الفلسفة. فلم يكن بعيدا عن الفلسفة، ولا كان طلبة الفلسفة بعيدين عنه.. كان موضوعها: التفسير المادى للأدب..

وسمعت ما لا يسرني ، ولكن ما لا أستطيع أن أنساه .

أما أستاذنا ومثلنا الأعلى فقد كان د . عبد الرحمن بدوى . وكان عبد الرحمن بدوى ينطبق عليه الوصف الذى قاله الفيلسوف أرسطو عن الله . لقد قال أرسطو : إن الله خلق الكون وأدار له ظهره ..

أى وضع له القوانين ولم يعد ينشغل به . تماما كما تدير سيارتك وتتركها ..

وكان عبد الرحمن بدوى كذلك .. فهو أسمر اللون كبير الرأس . أصلع قليلا . وكانت له عينان سوداوان لامعتان . وكانت له شفتان مزمومتان دائما . وكان يرتدى بدلة زرقاء . عرفنا فيما بعد أنها الوحيدة لديه – لا فقرا لكن بخلا وكان لديه قميص أزرق . وكانت كتبه كذلك ، غلافها أزرق وورقها أزرق .. وكانت لهذه الكتب رائحة متميزة . أو هكذا كان طعمها فى أنوفنا .. وكانت لهذه الكتب أحجام واحدة : نيتشه وشوبنهور واشبنجلر والفلسفة اليونانية .. وعندما زرته فى بيته ٩ شارع همدان بالجيزة . كانت له غرفة إلى جوار الباب . الغرفة مغلقة دائما . وهذا واضح من رطوبة الهواء ورائحة الجير على الحائط . وجدرانها زرقاء ، وفى أحد أركانها تمثال نصفى لفيلسوف الحضارة أوزفالد اشبنجلر .. الذى يرى أن اللون البنفسجى هو أرق الألوان جميعها .. وأن الإنسان لم يهتد إلى هذا اللون إلا متأخرا جدا .. وطبيعى أن يكون ذلك هو اللون المفضل عند د . بدوى .. ومن التراب على المقاعد ، ومن الالتصاق الشديد للأبواب والنوافذ . ومن الصمت الكامل فى البيت ، نحس أنه ليس هناك أحد ، أو أن أحدا لا يدخل هذا البيت ، أو لا ينبغى له – فعلا لا ينبغى . !

ولم يكن عبد الرحمن بدوى مثل لويس عوض هاشا باشا ، فإذا لقيت لويس عوض توقف عن السير ، دون أن يكون سبب لذلك . ولكنه مرتبط بالناس . وهذا الارتباط يجعله يتوقف فورا ويدخل فى حوار ..

أما عبد الرحمن بدوى فهو يمشى على عجل دائما . مندفع لا ينظر إلى أحد . وإذا نظر إليك فنظرة تقتحمك أو تكتسحك ، أى تذيبك تماما ليكون على راحته : ينظر إلى لا شىء .. لأنه لا شىء هناك .. لا أنت ولا غيرك .. وإذا حاولت أن تستوقفه لم يقف فى مواجهتك .. إنما يقف إلى جوارك ، وينظر إليك ببعض عينيه وبعض جسمه . ليس اجتماعيا ، ولا عنده أخوة ولا أبوة . ولا يعرف الحوار . وفى محاضراته كان يزرر جاكتته ويبدأ فى الكلام ذهابا وجيئة بسرعة ، وعلينا أن نتابعه . وفى المحاضرة التالية يبدأ من حيث انتهى . لأنه قد ذاكر محاضراته تماما . واستعد لذلك .. وكما يدخل يخرج . لا حدث أحدا ولا أحد اقترب منه . ولكن كنا نعجب بعلمه الغزير ، ونرى أن عيوبه هى عيوب العلماء . وأن الفلاسفة الألمان المثاليين هم سكان الجبال ، عباد الشمس ، يتخطون

بالسحاب ، وإذا صحوا ساروا على الجليد .. إنها القمم الباردة . إنها العظمة المنعزلة . إنهم أنصاف الآلهة ..

وقد تغير رأى لويس عوض فى الأستاذ كثيرا . ولكن الأستاذ لم يغير رأيه لا فى لويس عوض ولا كل الأدباء والشعراء والفلاسفة الشيوعيين . فلويس عوض رأى بعد ذلك أن العقاد أستاذ عظيم . وأنه قدم الكثير من النظريات والاجتهادات والإبداع أيضا . وأن العقاد هو رائد الفكر الاشتراكى ، والمدافع الأول عنه وعن حرية إبداء الرأى المخالف . وأنه لا يعترض على أن يكون الإنسان شيوعيا ، وأن يعلن رأيه . فلا حدود لحرية الرأى ، ولكن الحدود يضعها المجتمع عند الممارسة والإحساس بالضرر العام . ولويس عوض عندما حاول هو الآخر أن يبحث عن جذوره الفلسفية .. قال : إن العقاد قد حرث له الأرض .. وسلامة موسى قد بذرها ، وطه حسين قد هذبها ..

أما عبد الرحمن بدوى فلم يغير رأيه فى الأستاذ ، ولا غير الأستاذ رأيه فى عبد الرحمن بدوى .. وكثيرا ما أعلن الأستاذ أنه لا يقرأ له . وليس من الضرورى ذلك . ويقول : إن الإنسان يمضى عشرات السنين من عمره دون أن يرى أحدًا أعرج . فهل يخسر كثيرا ؟ طبعا لا يخسر .

ولكن عالما كبيرا ومفكرا جادا مثل عبد الرحمن بدوى ليس إنسانا أعرج . أو لم نكن نحن الطلبة الصغار نراه كذلك ..

* * *

ولم أكن قد رأيت طه حسين . وإن كنت قد استمعت إلى بعض محاضراته وقرأت بعض كتبه . وكل ما أتذكره فى ذلك الوقت : أن مذاقه مختلف . وأنه إذا كان العقاد يبنى بيوته من الأسمنت المسلح فى وضح النهار ، فإن طه حسين يبنيها من أغصان الشجر عند الغروب ، وأحيانا فى ضوء القمر ..

فالعقاد هو المهندس المعمارى ، وطه حسين هو الجناينى .. ولا أظن أن وقتى قد اتسع فى ذلك الوقت لأنجح فى وضع الحدود بين هؤلاء العظماء .. فإن العظمة تأخذك وتسلبك قدرتك على التمييز .. إنها مثل الشمس تشعر تحتها بالدفء ، وأحيانا تهرب منها إلى الظل . ولكن من الصعب أن تنظر إليها لتراها أوضح .. ولم يكن همى فى ذلك الوقت أن أرى الشموس أوضح ، إنما أن أشعر بالدفء . وكان الأستاذ كصانعى التماثيل يستخدم السكين فى تحديد معالم الشخصيات التى يحدثنا عنها ..

فكان الأستاذ يقول عن طه حسين : يسمونه عميد الأدب .. إنه ليس عميد الأدب .. إنه عمى الأدب !

وكان يقول إن د . محمد حسين هيكل باشا قد اصطدم به فى إحدى غرف المجمع اللغوى ، فقال له هيكل باشا :

– حاسب يا أستاذ .

– كيف أحاسب وأنا لا أراك ؟

وكان د . هيكل باشا قصير القامة !

• • •

وكانت له تعليقات كثيرة جارحة . وقد اعتدنا عليها . وكنا نضحك لها فورا ، ونفكر فيها بعد ذلك ، مثلا .. كان يقول : لقد سألنى كثير من الناس إن كانت المطربة أم كلثوم ما تزال آنسة . وكان يجيب : قلت لهم : أنا لا أعرف شخصيا . ولكن كل الذين تزوجوها قالوا إنها كذلك !

وكان يقول : كل إنسان اسمه مرسى أكبر دليل على أن أباه جاهل تماما .

وقبل أن نسأل الأستاذ : لماذا ؟

كان يمضى قائلا : لأن هذا الأب قد أطلق اسم مرسى على ابنه تيمنا بالشيخ المرسى أبى العباس فى الإسكندرية .. وهذا الشيخ اسمه المرسى لأنه ولد فى مدينة مرسية بالأندلس .. وهو لذلك اسمه المرسى ، أما الذى يسمى ابنه « مرسى » فلأى سبب .. إلا أن يكون جاهلا ؟ !

• • •

ولم يكن يشغلنى طه حسين فى ذلك الوقت إلا من بعيد .. فاسمه نذكره بالإعجاب والتقدير .. أو لابد أن تسبقه هالات من الإعجاب تبدو على الوجه وفى نبرة الصوت .. أو تجىء بعد ذكر اسمه .. وتكون هذه الهالات ألقابا صامتة ملونة مثل الألقاب فى ذلك الوقت : صاحب المقام الرفيع .. أو صاحب المعالى أو صاحب السمو التى تسبق أسماء الوزراء والأمراء ..

وكان طه حسين من أصحاب المقام الرفيع فى الأدب والفن ..

ولم يكن الأستاذ من أصحاب هذه الهالات . إنما كانت تسبق اسم العقاد كلمات أخرى كثيرة لها شكل الدفاع عنه .. أو لها شكل التحدى به ..

كأن نقول مثلا : ولكن الأستاذ العقاد ..

أو : صحيح أن العقاد لم يحصل إلا على الشهادة الابتدائية ولكنه ...

أو إن صفحة واحدة فى كتاب للعقاد تعادل مئات الصفحات فى كتاب لطه حسين ، ولكن طه حسين له شعبية وله نفوذ سياسى .. وهو عميد ومدير ووزير ، ولم يكن للعقاد شىء من ذلك كله ..

أى أن العقاد هو رمز لتحدى أشياء كثيرة فى آن واحد : فليس من الضرورى أن يكون الأديب أستاذا جامعيا ليكون شيئا ، وليس من الضرورى أن يكون قد سافر إلى أركان الدنيا ليكون عالما بها ،

وليس من الضرورى أن يكون أعمى أو أعرج ليثير عطف الناس . ويضاف هذا العجز إلى حساب عظمته .. لأن الناس يرون أن من الصعب على الأعمى أن يكون شيئا هاما ، فإذا تحدى هذا العجز وكان شيئا هاما . فهو عظيم لأسباب عديدة – وهى بعض المعانى المفضلة عند الأستاذ ! ! ..

أذكر أن د . طه حسين قال لى فيما بعد ، وآلمنى منه ذلك : ما الذى حصل عليه العقاد الذى يعجبك ؟ .. إننى حصلت على ست دكتوراهات !

وكان العقاد قد مات قبل ذلك بأربعين يوما !

* * *

أما توفيق الحكيم فقد اتخذ له فى صالون العقاد صورة كاريكاتورية . فكما أن العقاد تمثال للتحدى ، وطه حسين صورة كئيبة للمشايخ الذين تعلموا فى فرنسا وتسللوا إلى السياسة ، فالحكيم شخصية ظريفة فكاهية .. وكانت فكاهات العقاد عن بخل توفيق الحكيم وحرصه على تدبير المال . وكان الأستاذ يرى أن الحكيم حريص على تثبيت صورته الفكاهية عند الناس .. فهو يطيل شعره وهو يرتدى البيريه ، ويؤكد العقاد أنه أول من لبس البيريه وخلعه ، ولكن الحكيم قد استعاره منه .. وكان الحكيم يمسك العصا فى يده . وقد عرفت من الحكيم بعد ذلك : أن سبب اعتماده على العصا أنها تجعل خطواته منتظمة .. وهو يريدها منتظمة حتى لا ترتفع درجة حرارته فيسخن ويعرق . وهو يخاف من ذلك كله ..

ثم إن الصحف فى ذلك الوقت قد نشرت للأستاذ الحكيم صورة مع حمارة .. هذه الصورة نشرتها مجلة « الاثنين » .. وتبارى الكتاب فى التعليق على هذه الصورة :

قال العقاد تعليقا على هذه الصورة : يا حمارة الحكيم اذهبى إلى حماره ..

وقال كامل الشناوى : هذا إعلان عن كتاب توفيق الحكيم الجديد .

وكتب مصطفى أمين : اختبر ذكاءك .. أيهما توفيق الحكيم ؟ !

وكان الأستاذ يتحدث عن عيوب أخلاقية فى طه حسين والحكيم . فيقول إنهما لا يذهبان لحضور جلسات « المجمع اللغوى » ولكن يذهبان لحضور أية جلسات أخرى لأية هيئة أخرى !

توضيح هذه العبارة : أن الأستاذ يرى أنه مادام الإنسان يتقاضى أجرا ثابتا من المجمع اللغوى أو المجلس الأعلى للفنون ، فلابد أن يذهب . ولذلك لا يتخلف هو عن هذه الجلسات – إلا طه حسين والحكيم . أما اللجان الأخرى التى يتقاضى العضو فيها مكافأة كلما حضر ، فإنه عادة لا يذهب – على عكس طه حسين والحكيم !

ولم نفهم فى ذلك الوقت مناقشة دارت حول رأى الأستاذ أحمد أمين فى العقاد وطه حسين والحكيم وهيكل باشا – وهم جميعا قد ألفوا كتبا عن محمد عليه السلام .. فما هو الفرق بينهم جميعا ؟

قال أحمد أمين : إن هيكل باشا قد وقف إلى جوار الرسول يترافع عنه ، أما طه حسين فقد وقف وراءه يؤرخ له ، والعقاد قد وقف أمامه يرسم له الطريق ، والحكيم قد دار حوله يصفه من بعيد !

وكان إذا طلب إليه أحد منا أن يتحدث عن الحكيم فإنه يصف براعة الحكيم فى الحوار بأنها نوع من الغزل بالحرير .. أو التريكو ..

وكلمة « التريكو » ليست من الكلمات الدقيقة عند الأستاذ ، فقد أهدته واحدة من الفتيات اللاتى درن حوله ثم احترقن بعيدا .. « بول أوفر » وصفه العقاد فى إحدى قصائده . وقال إن فى كل شكة إبرة : فكرة .

أى أن هذه الفتاة التى أصبحت ممثلة معروفة الآن ، فى كل مرة تشك الإبرة وتعقد الخيوط معا ، تفكر فى الأستاذ ، ولك أن تتخيل ملايين الأفكار مع ملايين من شكات الإبر .. ولكن الذى لم يعرفه الأستاذ العقاد أن « التريكو » تقوم به المرأة – عادة – وهى تتفرج على التليفزيون وتقزقز اللب وتداعب كلبا صغيرا – كل ذلك فى وقت واحد . فالتريكو نشاط آلى لا تفكير فيه ! إنها غلطة ساذجة !

وكان الفيلسوف العظيم أرسطو يعتقد أن عدد أسنان المرأة . أقل من عدد أسنان الرجل ! !

فإن كان الأستاذ يقصد بهذا التشبيه أن الحكيم كان يفكر فى كل شكة إبرة . فهذا أقرب وصف لبراعة الحكيم !

ولم يكن توفيق الحكيم شاغلى فى ذلك الوقت . فأنا دارس الفلسفة الباحث عن موسيقى الكون ومعمارية الذوق وجلال العقل الإنسانى ..

وكان للأستاذ رأى فى الموسيقى والغناء لم نكن نفهمه بوضوح ..

فهو يرى أن الأستاذ محمد عبد الوهاب له صوت جميل وأداء جميل أيضا . ولكن محمد عبد الوهاب لم يتغير . فجميع ألحانه متشابهة ، والفرق بين اللحن الحزين واللحن المرح هو سرعة دوران الأسطوانة فى الجراموفون أو الفونوغراف – أرجو أن تعود إلى أول هذا الفصل لتعرف معنى هذه الكلمة التى انقرضت – فإذا أدرنا الأسطوانة بسرعة ، كان اللحن مرحا ، وإذا أدرناها ببطء كان اللحن حزينا . وكان يضرب لنا مثلا بأغنية : يا عزيز عينى وأنا بدى أروح بلدى ..

وكان يغنيها بسرعة وعلى مهل ليدلل على وجهة نظره ..

وعرفنا فيما بعد سر غضب الأستاذ على الموسيقار محمد عبد الوهاب ، فقد امتنع عبد الوهاب أن يغنى للعقاد واحدة من قصائده .. بينما كانت السيدة نادرة هى الوحيدة التى غنت له !

* * *

وتشجعت مرة فذكرت له أن الذى يحاضرنى فى علم الجمال ، أو فلسفة الفن ، هو : منصور باشا فهمى ..

فضحك العقاد طويلا حتى تراجع إلى الوراء .. ثم عاد يستأنف الضحك واقفا !

قال : يامولانا .. هذا رجل جاهل ..

وفى ذلك الوقت كنت طالب الامتياز الوحيد فى قسم الفلسفة . ولذلك كان لى أساتذة إضافيون : منصور باشا فهمى يدرس لى علم الجمال ، والأستاذ اليونانى بريستيانى يعلمنى : المجتمعات البدائية وقبائل الكيس كيز ، والسيدة برج تعلمنى اللغة الألمانية .

وقلت للأستاذ : أنا الطالب الوحيد ..

فانفتحت شهيته للضحك أكثر : وبذلك انحصر ضرره فيك .. أنت الآن موبوء يامولانا !

وعاد يضحكنا على منصور باشا فهمى ، فقال : اختلفنا فى « المجمع اللغوى » على تعريف الزمان والأبدية .. فقلت إن الزمن ضد الأبدية .. لأن الزمن محدود .. والأبدية غير محدودة . هل تعرف ماذا قال أستاذك منصور فهمى هذا ؟ .. قال : إن « الزمن » هو الوقت المحدود . أما « الزمان » فهو الوقت غير المحدود !

وضحك العقاد وضحك حتى امتلأت عيناه بالدموع . وقال لمنصور باشا فهمى : قل لى يا دكتور إذا كان الزمن هو الوقت المحدود ، والزمان هو الوقت غير المحدود ، فكم تقترح أن نمد حرف الألف الذى يفرق بين الزمن والزمان ؟ .. كيف نمدها فى الكتب ؟ .. كم يكون طولها ؟ ..

وتوقف العقاد فجأة وانطفأت كل الألوان فى وجهه وأنزل الستار ووقف لينطق بحكم الإعدام فى هدوء قائلا : انه جاهل يامولانا ! .

ولم أشاركه هذه النهاية الحزينة لأحد أساتذتى ..

وأذكر أننى اختلفت مع د . منصور باشا فهمى فى تعريف بعض الكلمات الفلسفية ، فاقترح أن أبعث بخطاب إليه على عنوانه بالمجمع اللغوى لمناقشتها وإقرارها هناك ، أما الكلمات فهى : الفرد والفردية ومذهب الفردية والفردانية ، والانفراد والانفرادية والتفرد والتفردية .. إلخ .

وبعثت بالخطاب . ولم أعلم بعد ذلك أن أحدا ناقش هذه الكلمات ، ولكن عندما لاحظت أن أستاذى منصور فهمى باشا لم يحاضرنى فى شىء محدد . اقترحت عليه أن يكون لدينا نص نناقشه . فترجمت كتابا اسمه « الخلاصة فى علم الجمال » لكاتب فرنسى اسمه رينيه لالو .. وأتيت بهذا الكتاب وجعلنا ندرسه معا .. ومن الغريب أننى فوجئت به يلقى بأحاديث فى الإذاعة من هذا الكتاب .. كتابى وترجمتى وتعبى وشقائى !! ويوضحه ويعارضه أيضًا ..

وتوقفنا طويلا عند معانى الكلمات وأصولها . وتساءل هو : إن كانت هناك علاقة بين الجمال

والجمل – حيوان الجمل . وإن كان العرب يجدون المثل الأعلى للجمال فى هذه الحيوانات .. وإن كان من الأفضل أن نطلق كلمة « الحسن » بدلا من الجمال ، فنقول « علم الحسن » . لأن الكلمة الأوروبية لعلم الجمال هى أقرب إلى علم الحسن ..

وطلب منى أن أبحث عن ذلك ..

وكانت هذه أول علاقة لى باللغة العبرية ، فقد قيل لى إن خير من يدلنى على ذلك هو د . فؤاد حسنين .. وهو الآخر يمشى بسرعة مثل عبد الرحمن بدوى ، ويمشى قفزا مثل لويس عوض .. وعلى الرغم من أنه تعلم فى ألمانيا ومتزوج من ألمانية فهو يتحدث باللهجة الصعيدية مثل أستاذنا د . أحمد بدوى مؤرخ المصريات الكبير الذى لم يترك لهجته الصعيدية ..

ود . فؤاد حسنين يرحمه الله صعيدى من أسوان .. ووجدته يمشى أو يجرى بين كليتى الحقوق والآداب . ولما استوقفته وقدمت له نفسى .. قال كلاما لم أفهمه فى ذلك الوقت ، ولكن عندما أعدت عليه هذا السؤال بعد عشرين عاما عرفت أن السؤال معقول ومقبول ، وأنه فى كثير من اللغات يستمدون الجمال والحسن من حيواناتهم وأشجارهم . وكان د . فؤاد حسنين يعرف عشرين لغة – أكثرها من اللغات السامية والحامية التى انقرضت .

وقيل لى فى ذلك الوقت : اذهب إلى المستشرق الألمانى باول كراوس !

وكان أستاذا ألمانيا يوغوسلافيا يلقى محاضرات عن ابن المقفع وأبى حيان التوحيدى وجابر بن حيان وابن الهيثم .

وأعجبت بهذا الرجل وتتلمذت عليه أدرس اليونانية القديمة والعبرية ، وأقارن بين أصول الكلمات ، وكان ذلك أول أستاذ يهودى أراه فى حياتى ..

وأذكر أنه حزن كثيرا جدا عند نهاية العام ، عندما طلب إلى أن أحضر فى اليوم التالى للامتحان .. وفوجئ الرجل بأننى لست من طلبته . إنما أنا أجىء لسماع محاضراته متطوعا إعجابا به . أما تلامذته فهم لا يحضرون عادة ، لأن هذا العلم الذى يدرسه لهم اختيارى ، وليس من الضرورى أن يمتحنوا فيه !

ووضع باول كراوس أصابعى كلها على أماكن كثيرة من فقه اللغات السامية والأوروبية .. وكان أول من دلنى على المعانى الأصلية للكلمات .. وأن اللغة لها عبقرية . وأنه يجرى على الكلمات تغيير مثلما يجرى على الناس ، فاللغة وسيلة مواصلات ، وقد تطورت وسائل المواصلات .. أو إن اللغة هى الزى الذى يبرز معالمنا ، أو يخفيها ، وقد تطورت الأزياء : الأزياء التى تبرز الصدور وتخفى الأرداف ..

* * *

ولما نقلت للأستاذ مناقشاتنا فى « علم الجمال » أفاض فى ذلك ، وكان رائعا حقا ، فهو شاعر رقيق

حكيم . وهو ذواقة للجمال : جمال المرأة والطبيعة والموسيقى وفن الكلام والرسم والنحت والتمثيل والغناء .. وكان من أحلام العقاد أن يؤلف كتابا عن « فلسفة الجمال » ولكنه لم يفعل .

وللعقاد آراء كثيرة فى الجمال والدلال والحس والحسن . ولكن لم يتسع وقته أو عمره ليكمل نظريته الشاملة لكل ذلك .

بل حدث أن بعث إليه الأستاذ مصطفى صادق الرافعى بكتاب له بعنوان « رسائل الأحزان » .. فنظر إليه العقاد . وقال : لا .. لن أتجاوز غلاف هذا الكتاب !

لماذا ؟ .. لأن تحت العنوان سطرا يقول : إنه دراسة فى فلسفة الجمال . وكان العقاد مشغولا بذلك . فلم يشأ أن يقرأ فيتأثر بما كتب مصطفى صادق الرافعى .

فكان الأستاذ يقول فى ذلك الوقت : إن الجمال هو الحرية .. فالجسم الجميل هو الجسم الذى تمشى فيه الحياة بحرية ، فلا تتوقف عند الصدر أو عند الأرداف .. إنما تمشى الحياة حرة دون أن يوقفها شىء .. والصوت الجميل هو الذى لا ينحاش فى الحلق .. والبشرة الجميلة هى التى تمشى على نعومتها الأصابع دون أن تتوقف أو تتعثر .

وعندما وصف العقاد جبهة الأديبة مى زيادة قال : إنها جبهة حرة !

أى فى منتهى الجمال ..

وفى ذلك الوقت ترجم زميلان فى قسم الفلسفة ، سوريان ، كتاب « خلاصة علم الجمال » للفيلسوف الإيطالى بندتو كروتشه . الزميلان هما المرحوم سامى الدروبى وبديع الكسم .

* * *

وأذكر بعد ذلك بوقت طويل أننى سافرت إلى نابلى فى إيطاليا . واتجهت إلى بيت الفيلسوف الإيطالى بندتو كروتشه الذى رفض أن يكون أول رئيس جمهورية لإيطاليا بعد موسولينى . ولقيت ابنته وقدمت لها نفسى ، ولم أكن شيئا .. ولكن كنت أحد الدارسين لفلسفة أبيها . وحدثتها كثيرا . ولكن الذى استوقفها أننى قلت لها إننى قرأت كتاب والدها فى « علم الجمال » وإننى أختلف معه ، فأنا أرى أن الجمال هو الحرية – ولم يكن هذا رأيى كما تعرف .

وسكتت ابنة الفيلسوف فى أدب وصبر ومجاملة ، وقالت : لكن هذا رأى والدى أيضا ، فهو يرى أن التاريخ كله ليس إلا الحرية .. وكل ما يفعله الإنسان فى تاريخه هو حرصه على أن يكون نصيبه من الحرية أكثر . وكثيرا ما أكلت حرية الفرد الواحد حريات الآخرين . وهنا تصبح الحرية قبيحة . ويصبح الحكم بشعا !

وبسرعة قلت لها معتذرا ومتقبلا هذه الإهانة : ولكن للحقيقة ليس هذا رأيى ، إنما هو رأى لأستاذ عظيم فى مصر ، وأنا لم أحسن التعبير عنه ..

ووجدت في انتحال رأى الأستاذ عقوبة فورية !

وللتاريخ وللحقيقة فإن رأى الأستاذ في الجمال والحرية ليس مأخوذا عن هذا الفيلسوف ، إنما هو رأيه هو واجتهاده هو .. ولكن ابنة الفيلسوف ترى في والدها أنه بداية ونهاية كل شيء ، وهي معذورة في ذلك !

وعندما أخبرتها أن كتاب والدها قد ترجم إلى اللغة العربية ، أمسكت ورقة وقلما ، وسألتني عن اسم المترجم واسم الناشر. ولم أكن أعرف السبب في ذلك الوقت ، وفيما بعد عرفت أنها تريد أن تحصل على نصيبها من حق الأداء العلني . ولا أظن أنها حصلت على شيء من ذلك ، ولا أحد من الذين ترجمنا أعمالهم في مصر !

وكانت هذه المرة الأولى التي أسمع فيها عن حق الأداء وعن حق المؤلف في نصيبه من بيع أفكاره في أية لغة أخرى !

* * *

ويكون الأستاذ في أشد حالات الغضب والعنف عندما يتحدث عن الساسة في مصر ، فهو يمسح بهم الأرض – أو السقف ، فقد كان سقف الصالون لا يختلف كثيرا عن الأرض في لونه الأغبر أو اختفاء اللون منه ..

ولا أدعى أنني كنت أعرف في ذلك الوقت سببا لكل ذلك ، عدا ما يقوله عن سعد زغلول ، فهو أعظم السياسيين عنده . ولذلك استحق من الأستاذ أروع كتبه في فلسفة التاريخ .. والأستاذ لا يتعب من الكلام عن رجلين : سعد زغلول وهتلر .. أما الأول فيحترمه كثيرا جدا . والثاني يشتمه كثيرا جدا .

* * *

والأستاذ هو أول من قال لنا أثناء انتصارات القوات النازية : إن هزيمة هتلر محتومة .. وكانت الأسباب التي يقدمها كثيرة . ولم يكن أحد يرى رأيه . وكان ذلك يضاعف تمسك العقاد بفلسفته .. وكان يقول : لو أن ألف أعمى قالوا إن الشمس غير موجودة ، وقال واحد مبصر إنها ليست كذلك ، فهل هو على خطأ وهم على صواب ؟ ..

ويقول : إن الناس ينظرون إلى ما أنظر ، ولكنهم لا يرون ما أرى !

والعبارة ليست للأستاذ ، ولكنها مشهورة وتناسب المعنى الذي يريده . ولكنه يوضح هذه العبارة أحسن وأجمل فيقول : إن الذي يقول عن هتلر إنه سوف يكسب هذه الحرب . فإنه يحكم على ذلك باللمس .. أي أنه يراه يتقدم فيقول إنه سوف يتقدم إلى النصر التام في النهاية .. فهو إنسان ينظر .. أو هو إنسان يتحسس التاريخ بأصابعه .. ولكن الذي يرى هتلر يتقدم وينتصر ، فيقول إنه سوف

ينهزم حتما ، فهو لا يتحسس التاريخ ، إنما هو يرى حتمية التاريخ . إنه يسبق هتلر ويقف فى مواجهته ويقول : ليس من الطبيعى أن ينتصر فى النهاية . بل هزيمته مؤكدة !

* * *

ومثل هذا المنطق فى دراسة التاريخ وتحليل شخصياته هو أسلوب العقاد فى سلسلة « العبقريات » التى كتبها ، وفى دراساته لابن الرومى وأبى نواس وشاعر الغزل وسعد زغلول وهتلر فى الميزان ..

بل هو أسلوب حياته ، وأسلوب فكره .. فحياته هى فكره الذى نقرؤه ، وفكره هو حياته التى نراها .

وعندما قلنا له مرة : إن أحد الزملاء قد باع أرضه لينفق منها على تعليم إخوته ..

سألنا : وهل يتعلم هو أيضا ؟

قلنا : لا

قال : كيف يضحى من أجل أن يتعلم إخوته ، ثم يضحى بتعليمه لنفسه ؟ .. إنه جاهل يتباهى بعلم غيره ، ويتقاضى ثمنا لذلك عطف الناس عليه ، قولوا له إن الأستاذ يصفه بأنه حمار .. إلا قليلا !

فلما دخل المدرسة . فرحنا لذلك ، وقلنا للأستاذ : لقد استمع إلى نصيحتك يا أستاذ ودخل المدرسة .

فسألنا بسرعة : وكم عمره ؟

قلنا : فى الخمسين ..

قال : قولوا له إن الأستاذ يقول لك : الآن قد اكتملت حمارا !

وغير ذلك كثير مما كان يهزنا من أعماقنا .. أو يجعل أعماقنا جلدا نحتمى به من وخز النقد وسياط المنطق .. ولم يكن الأستاذ يدرى بذلك ، إنما كنا نتوجع فى صمت .. ثم نأوى إلى عقائدنا الدينية والفلسفية تعصمنا من عواصف العقاد ..

* * *

وفى يوم فاجأنى الأستاذ بهذا السؤال المباشر الذى أربكنى : وكيف يلتقى الوجوديون والإخوان المسلمون ؟ ..

إذن لقد عرف أننى من جماعة الإخوان المسلمين فى إمبابة .. إذن لقد أصبحت هدفا لرصاصتين خرجتا فى وقت واحد .. ومطلوب منى أن أرد بسرعة : كيف أوفق بين الشيخ حسن البنا والفلاسفة الوجوديين الملحدين والمؤمنين ؟ .. وما الذى أجده فى الإخوان مكملا للوجودية ؟ .. أو ما الذى أجده فى الوجودية متمشيا مع الإخوان المسلمين ؟ ..

ثم أنقذنى هو من ورطتى هذه ، فتولى هو الإجابة العنيفة : لابد أنك وجدت شيئا ما بين البنا والبدوى والعوض – أى لويس عوض – ضع ثلاثتهم متجاورين . ثم قف بعيدا عنهم واحكم عليهم .. هنا فقط سوف تجد أن نظرية لمبروزو فى الشذوذ صحيحة مائة فى المائة ..

واستطعت أن أضعهم أمامى فعلا وهو يحدثنى ، وتجرأت على أن أنشغل عن كل ما يقول ، وقارنت بين ثلاثتهم .. فلم أجد تشابها .. إن ثلاثتهم ثوار مختلفون .. اثنان سياسيان ، والثالث ليس سياسيا هو عبد الرحمن بدوى ..

ثم أفقت من استغراق فى هذه المقارنة السريعة لأجد الأستاذ يقول : القاعدة واحدة يا مولانا .. من يأخذ منك حريتك فهو لص .. سواء كان يضع على رأسه تاجا من الذهب أو تاجا من الشوك أو عمامة بيضاء أو سوداء .. أو قفصا من السميط والبيض !

* * *

فما الذى أبقاه لنا الأستاذ من تماثيل العظماء ولوحاتهم التى علقناها على جدران حياتنا ؟ .. ما من أحد لم يرمه بحجر .. ما من أحد إلا وضعه مقلوبا .. ثم يؤكد لنا بالمنطق والحجة القوية : أن الحجارة لا يلقيها على هؤلاء الناس ، إنهم هم الذين يجذبون الحجارة إليهم ، لأنهم يستحقون الرجم .. وأن صورهم ليست مقلوبة ، إنما هى مشنوقة ، وأن هذا قدرهم الطبيعى .

ثم يقول : « والغريب ألا يكونوا كذلك » – وهذه من أحب الجمل عند الأستاذ ، وتجدها كثيرا فى حديثه عن التاريخ والعظماء والعباقرة ، فهو يراهم جميعا « ضرورة منطقية » و « حتمية تاريخية » ومن الغريب ألا يكونوا كما كانوا !

فهل الأستاذ قد هدم أصنامنا ، وأسقط علينا معابدنا ؟ ..

ربما حدث ذلك لبعض أعمدتنا الفكرية .

ولكن الأستاذ لم يكن شمشون الجبار ، الذى هدم المعبد عليه وعلى أعدائه ..

ولكن أعظم ما أعطانا الأستاذ : أنفسنا ..

(وفى أنفسكم أفلا تبصرون) – صدق الله العظيم ..

* * *

كان سقراط يبدأ التفكير بأن يعرف الإنسان .. وكنا نتعلم من الفيلسوف ديكارت أن نشك قبل أن نتأكد ، وكان الفيلسوف الغزالى يهزنا بأصغر كتبه التى ألفها .. أقصد كتابه : « المنقذ من الضلال » .

هل كان ضلالا ما كنا فيه ؟ .. نعم .

أهم ضالون الذين لم يجدوا شيئا أو أحدا ؟ .. لا .. بل كان ضلال الذين تكاثرت حولهم الأشياء والعلاقات والمبادئ والعظماء .. ثم كانت أيديهم قصيرة وعقولهم قاصرة .

ولكن شيئا آخر قد أعطانا الأستاذ : ألا نهاب العظماء

فليس أحد عظيما جدا ، وليس أحد صغيرا جدا — فق العظيم صغار ، وفى الصغير عظمة .. والشمس نفسها فيها بقع سوداء ، والذرة الضئيلة إذا انشطرت هدمت جبلا !

* * *

وقبل أن يموت الأستاذ جلست إلى جواره على سريره أقول له : يا أستاذ كيف تفسر لنا أن رجلا مثلك لديه أحدث كتاب عن الصواريخ . وعنده أول وابور جاز دخل مصر؟ !

ولم يقل كلاما مقنعا .. فالذى حمل على كتفيه جهازا جبارا مثل عقل الأستاذ ، لا يهمه كثيرا ما الذى يكون تحت قدميه .. أو فى قدميه !

جمعية للمفكرين الأحرار !

هناك أيام أخرى كانت تشغلنا تماما .

ولكن أخطر هذه الأيام وأعمقها هو يوم نلتقي الأستاذ في ندوته .. حيث الجمال والجلال معا . جمال العبارة وجلال الفكر . حيث الله والحب والخير والجمال في عبارة واحدة . وفي حكاية واحدة . ويقوم الأستاذ بوضع الحدود بين المعاني .. الحدود الحريرية ، والفواصل الحديدية .. فتلك مقدرته الفذة التي لم نجد لها نظيرا عند أحد من الذين نجلس إليهم أو نستمع إلى محاضراتهم ..

ففي يوم الأحد نذهب إلى « الدير الدومنيكي » في شارع مصنع الطرابيش بالعباسية . فالدير ليس إلا مكتبة كبيرة فخمة – أو هذا هو القدر المسموح به لنا .. وكنا ندرس الفلسفة المسيحية والإسلامية .. وكنا نجد كتب المسيحية والإسلام واليهودية في مكتبة هذا الدير .. ونحن نعرف الطريق جيدا إلى هذا المكان الذي لايجذب العين .. فالمبنى له شكل عادي .. الألوان باهتة .. ومثل مسوح الرهبان ليس له إلا لون واحد .. وإن لم يكن في مثل بياضها ونصاعتها .. وهناك بعض الأشجار ، أما الشيء الموجود بوفرة فهو : الهدوء .. والصمت .. والكتب .. والوقت ..

حتى الرهبان كانوا مشغولين بدراساتهم وأبحاثهم . ولم يكن أحد ينظر إلينا إلا باسما ومرحبا ، ثم يمضي لشيء يعمله .. وكنا نشم رائحة الطعام . وكان ذلك غريبا . إنه طعام آخر غير الكتب . ولابد أن للرهبان غرفا للنوم وأخرى للأكل . ولكن كان يدهشنا أول الأمر أن نجد الرهبان يأكلون ويشربون ، أو نجد راهبات يدخلن ويخرجن .. وقد اكتست الوجوه كلها بلون واحد : الهدوء والصفاء ، وأحيانا اللامبالاة .. والجميع يتحركون بسرعة . فما الذي يفعلونه هنا ؟ كيف يشغلون وقتهم ؟ . لاأظن أنني فكرت في ذلك كثيرا . فكل ماأعرفه هو أنني أذهب لقراءة الكتب الرائعة التي لاأجدها في أي مكان . وأجد الهدوء الذي لم أكن أجده في بيتي في إمبابة في ذلك الوقت.. ولا في كلية الآداب أو في مكتبتها العامة ، ولا في الطرقات بين الكلية والمكتبة .. أو الطريق بين الجامعة والبيت ، ولا غرفة المطالعة في شعبة « الإخوان المسلمين » بإمبابة ..

وكلما وجدنا أمرا صعبا استدرجنا الأستاذ ليوضح لنا ذلك . وكان يفعل ، وهو أول من قدم لأفكارنا اعترافات القديس أوغسطين .. ولا يفوته أن يضحك أيضا . فيقول : إنه كان في أسوان دير

للراهبات . وكانت الراهبة إذا ظهرت عليها أعراض الحمل نقلوها فورا إلى روما ..

وكان الأستاذ يقول : ولما كانت أسوان صغيرة . وكلنا نعرف ماذا يجرى فيها ، كنا نشعر باختفاء إحدى الراهبات . ونعرف السبب . ولذلك كان من عادتنا أن نمشى وراء الراهبات ونقول لهن : ألا تحبين أن تسافرى إلى روما يا أخت ؟!

وقبل أن نفرغ من هذه الصورة . ويدهشنا أن يكون أستاذنا العظيم ذلك الشاب الذى يعاكس الراهبات ، تجيء ضحكته عالية ، وضحكاتنا أيضا ، فتمسح هذه الصورة ..

ثم كما هى عادة الأستاذ يعود إلى أعماق الأشياء ، ويقول : ولكن القديس أوغسطين هو أعظم رجال الدين ، الذى بكى بغير دمع . فاعترافاته ليست إلا صورة مروعة لرجل أحب أمه وأحب دينه .. أو لأنه أحب أمه .. أحب كل الأمهات ، وتعذب لها وبها أيضا . والذين كتبوا اعترافاتهم بعد ذلك ، قد قلدوه .. وإن كانوا قد وضعوا قدرا كبيرا من السفالة حيث وضع القديس : الاحترام العميق والندم والتوبة !

ويضرب الأستاذ مثلا بالمفكر الفرنسى جان جاك روسو الذى كتب عنه د . محمد حسين هيكل باشا ، والذى فتن به كل الذين اشتغلوا بالسياسة والتربية والذين درسوا فى فرنسا . فيقول الأستاذ إن روسو هذا مفكر متوسط القيمة . ولكن آثاره أعظم بكثير منه . فالذى تركه فى الثورة الفرنسية ، أكبر بكثير جدا وأعظم وأعمق مما كتب . والذين يرونه عظيما يعكسون الأوضاع ، فهو ليس عظيما ، ولكن آثاره هى العظيمة .. وإذا صح أن يقال عن عود كبريت أحرق مدينة ، إن هذا العود أعظم من المدينة ، فكذلك يقال عن روسو .. فأفكاره أعواد كبريت ، ونتائجها حرائق وثورات ..

ولكن كما هى عادة الأستاذ ، فإن الذى يقوله أول الأمر ليس هو المقصود . إنما المقصود هو أن يقول إن روسو لم يكشف عن أعماقه ، إنما حاول إخفاءها .. فهو يقول مثلا : إن أطفاله قد بعث بهم إلى بيوت اللقطاء – أى على الرغم من أنه لم يتزوج فقد كان له أطفال كثيرون !

ثم يتراجع الأستاذ كما تتراجع البندقية التى وضعنا فيها الخرطوش فيطلق قذيفته : إن روسو كان عاجزا جنسيا . ولذلك فهو فى اعترافاته يؤكد أنه كان ذلك « الفحل » صاحب العيال الذين أخفاهم عن العيون فى الملاجيء !

وقال لنا الأستاذ : وكان من مظاهر شذوذه أنه إذا رأى الفتيات عند البئر ، فإنه يتعرى أمامهن ، فإذا صرخن كانت هذه متعته الجنسية الكاملة !

ولما وقعت أيدينا على اعترافات روسو بعد ذلك بوقت طويل ، لم نهتد إلى هذه الحوادث إلا بصعوبة .. فقد جاءت فى صفحات متأخرة من الاعترافات ، وجاءت سريعة .

فإن لم يكن المعنى الذى أراده الأستاذ هو أن نبحث عن الجوانب الإنسانية فى كل فلسفة ،

فلنبحث عن الجوانب المضحكة .. أو يجب ألا تهتز أيدينا وعقولنا ونحن نواجه الصروح الفكرية فى أى عصر أو فى أية لغة ..

وكان يقول : لو عرف القديس أوغسطين بعض الأعشاب التى تنمو فى أسوان بصورة شيطانية ، ما شكا القديس من الإمساك ولابكت عيناه فى كل مرة يذهب فيها لدورة المياه. فنى بعض الأحيان لانعرف إن كان القديس موجوع القلب أو موجوع المعدة ..

ثم يتلفت ناحيتى ويقول : إن هؤلاء الفلاسفة الوجوديين يامولانا ، ليسوا إلا جماعة نصابين قد أصيبوا بالأرق . وبدلا من أن يبتلعوا بعض الأقراص المهدئة ، فإنهم فرضوا الأرق فلسفة على الجميع .. اقرأ حياة هذا المختل سارتر .. وذلك المجنون كيركجورد .. وأنت تجد فيهما العجب من العلاقات الشاذة بالأب والأم .. إن قصة الفيلسوف الدانمركى كيركجورد وخطيبته رجينا .. وقصة سارتر ومعشوقته الكاتبة سيمون دبوفوار : واحدة .. وهما لايختلفان عن القديس أوغسطين . كل مالديهم أوجاع خاصة ، جعلوها عامة ، ومضايقات اجتماعية ، جعلوها فلسفة ..

وكان الأستاذ يقترب دائما من الفيلسوف الفرنسى فولتير ، عندما يرفض الكثير من الأفكار المألوفة . ويشكك فيها . ثم يضع أفكارا إيجابية . ولايفرض علينا شيئا ..

لقد عرض الكثير وقدمه لنا ونفض عنه التراب وغسل أيدينا ، ولم يبق إلا أن نتناول مانشاء .

• • •

وأمام مئات الألوف فى مكتبة الدير الدومنيكى ومكتبة الجامعة ، وضيق الوقت عن التفكير فى كل ماتجمع من معلومات ذهابا وإيابا بين الجامعة والدير . وبين أساتذة الفلسفة الإسلامية والمسيحية والرهبان ، كان من الصعب أن يكون لأحد منا رأى مستقل أو تفكير خاص .. فذلك مالم نكن نقدر عليه . لقد كنا أقرب إلى النمل ، وأبعد من النحل ، فنحن نكدس المعلومات ، ولانمتص رحيقها .. ولذلك احتشدت أبحاثنا الجامعية بالأسماء والمراجع ، واختفى منها الاجتهاد أو الرأى الخاص . وطبيعى ألا تكون للنكتة أو القفشة مكان فى هذه الصفحات الحزينة الشقية . فنحن أشقياء ندرس فلاسفة وقديسين قد أشقاهم التفكير فى الله والكون والنفس وهذه الحياة وما بعد الحياة . وكنا مثل هؤلاء القديسين .. الذين نحفظ صورهم : ليس من بينها وجه يضحك . فالضحك رذيلة . أو الضحك ترف لايقدر عليه إلا كبار الشكاك والمفكرين الإبداعيين من مثل الأستاذ العقاد – وما أندر صور الأستاذ التى يبدو فيها ضاحكا . فكل الصور التى التقطت له كانت فى ندوته وهو يتحدث .. أو فى المحاضرات العامة أو أثناء الأحاديث الإذاعية . وربما كانت أروع صور العقاد وأكثرها دلالة عليه ، صورته وهو فى طريقه إلى السجن .. كأنه ذاهب إلى لقاء محبوبته . وكأنه حاول أن يجعل لقاءه سرا . ولكن لم يفلح . فلما رآه الناس جميعا ، أخفى ضيقه فى فرحته بهذا التحدى للجميع ..

وكان الأستاذ يهتم بصوره . وأحيانا يغضب من الصور التى تنشر فى مقالاته . قال لى عندما كنت أعمل فى « أخبار اليوم » : يامولانا . أنا لا أفهم ماهو المقصود بأن تنشروا لى صورة ضاحكة والمقال جاد ، وصورة بالطربوش والمقال ضاحك ؟ .. لابد أن تنبهوا سكرتارية التحرير إلى هذا العبث !

ولكن الذى لايعرفه الأستاذ أن اختيار صورة من صوره لايخضع لهذه المقاييس ، إنما سكرتير التحرير يختار أية صورة للمقال . بل يختار « مساحة » فقط .. صورة على عمود واحد ، أو على عمودين – دون أن ينظر كثيرا إلى هيئة الأستاذ . وليس من الضرورى أن يقرأ سكرتير التحرير مقال الأستاذ أو أى أستاذ . إنه يهتم بالشكل العام لعنوان المقال والصورة التى توضع معه ولم أفلح فى إقناعه أن الكثير من الإخراج الصحفى ليس عملا عقليا . إنما هو عمل آلى ..

ولكن عقل الأستاذ لايقبل مثل هذه التفسيرات التى يجدها تبريرا وليست تفسيرا . وعقله لايقبل أن أحدا لايفكر بعقله ، وأن كل مايقوم به هو عمل واضح – تماما كما يفعل هو ..

مثلا : عندما أعددت لقاء بين الأستاذ وبين مذيعة التليفزيون أمانى ناشد ليذاع فى التليفزيون . تهيأت المرحومة أمانى ناشد لهذا اللقاء . ولكنى أمضيت وقتا طويلا فى تدريبها على لقاء الأستاذ وحفظ الأسئلة . وكانت المرحومة أمانى ناشد تلميذتى ، فقد درست لها الفلسفة فى الجامعة . وبعد أن تم تسجيل هذا الحديث سألنى الأستاذ عن ثقافة أمانى ناشد فقلت : تخرجت فى كلية الآداب قسم الدراسات الاجتماعية ، فقاطعنى قائلاً : ولكنها يا مولانا لا تعرف كيف تنطق الأسماء . فقلت : إنها تهيب الحديث إليك . . فقاطعنى : كيف تهيبنى وتأتى بفستان قصير كما رأيت ؟ فقلت : يا أستاذ إنها فتاة أولاً وأخيرًا . .

قال بسرعة ضاحكًا : إنها نصف فتاة ، لقد صبغت بالأحمر شفة واحدة !

ولم أكن قد لاحظت ذلك ! !

ثم نشرت صحيفة الأخبار : أن الأستاذ العقاد سوف يتقاضى عن هذا الحديث ٢٠٠ جنيه !

وفى اليوم التالى حدثنى الأستاذ عاتبا غاضبا : ماهذا الذى تنشرونه يامولانا ؟ . هل كثير على رجل كالعقاد قرأ ستين ألف كتاب وأصدر ستين كتابا وأفنى عمره فى عالم الفكر والفن ، أن يتقاضى هذا المبلغ ؟ .. إن مفعوصة مثل نجاة الصغيرة تتقاضى ماهو أكثر من ذلك فى عشر دقائق ! .. يامولانا إن بلدا يستكثر على العقاد مثل هذا المبلغ التافه ، لبلد تافه ، وصحافته أكثر تفاهة !

ولم أعرف ما الذى أغضب الأستاذ . واستأذنته فى أن أعود إلى قراءة الخبر . وقرأته . وطلبته تليفونيا : ياأستاذ قرأت الخبر . ولم أجد فيه مايغضبك ..

وازداد غضب الأستاذ قائلا : مامعنى أن توضع علامة تعجب فى نهاية الخبر ؟ . ماهو العجب فى

أن أتقاضى هذا المبلغ بينما يتقاضى طه حسين أضعاف ذلك دون أن يتعجب أحد ؟ .. ألا ترى أن هذا هو الذى يدعو إلى العجب ؟

ولم أفلح فى إقناع الأستاذ أننا كثيرا مانضع علامات التعجب دون سبب لذلك . وأن علامة التعجب ، مثل علامتى الاستفهام والتعجب معًا ليست لها دلالة خاصة . وأننا نسرف فى ذلك . تماما كما نسرف فى وضع النقط بعد كل كلمة .. وليس لذلك إلا تفسير واحد مؤكد .. هو أننا لم نتعلم قواعد الترقيم — نحن جميعا !

ولم يقتنع الأستاذ ؛ فكل شىء عنده بالعقل وبالفكر وبالحساب . وكل شىء عن قصد وقد اتهم سكرتارية تحرير « أخبار اليوم » بأنها من المؤكد تضم عددا كبيرا من الشيوعيين . لماذا ؟ لأنهم يضعون له صورة بالطربوش إذا كان مقاله ضاحكا هازلا ، ويضعون له صورة بالطاقية إذا كان المقال جادا . ولذلك فهم مخربون . وماداموا مخربين لمقال الأستاذ وصورته ، فهم إذن شيوعيون !

وقد حدث أن اتصل به الحاج عبد الرحمن السقاف ، وكان قادما من الملايو . وطلب إليه أن يزوره فى بيته . فأجابه الأستاذ : أهلا وسهلا فى الخامسة ..

وكان الحاج عبد الرحمن السقاف قد جاء يشترى من الأستاذ حق ترجمة سلسلة « العبقريات » إلى اللغة الملاوية . ويقال إنه سوف يدفع فى ذلك عشرة آلاف جنيه ، ويقال عشرين ألفا من الجنيهات .

وقبل الموعد بدقائق : ذهب الأستاذ إلى الصالون . مرتديا البيجامة والطاقية وقد لف الكوفية حول رقبته . وجلس ينتظر . وعندما لاحظ ان الساعة تدق الخامسة ولم يحضر أحد ، نادى ابن أخيه عامر العقاد قائلا : عندما يجىء هذا الرجل الملفوت فقل له إن الأستاذ قد خرج !

إنها الخامسة ولم يحضر الحاج عبد الرحمن . وكان لابد أن يذهب ابن أخيه ويغلق الباب . وعندما ذهب يغلق الباب وجد الحاج عبد الرحمن قد وصل ومعه ثلاثة آخرون . وفتح لهم عامر العقاد الباب ليجدوا الأستاذ يهم بالخروج من الصالون والانتقال إلى غرفة أخرى .

فبادره الحاج عبد الرحمن بقوله : نحن متأسفون ياأستاذ .. إلخ .

وكان رد الأستاذ : نعم هذه مسألة موجبة للأسف !

ومضى الحاج عبد الرحمن يقول : إن الطريق إلى مصر الجديدة طويل ومزدحم .. وهذه أول مرة أزورك فى بيتك . وقد ضللنا الطريق .. إلخ .

ولم يجد الأستاذ فى كل ماقاله الحاج عبد الرحمن سببا مقنعا .. إذ كيف يضل الطريق إلى بيت العقاد فى مصر الجديدة ؟ .. فمن الذى لايعرف العقاد أو بيته ؟ .. الخلاصة أن هذا إهمال وكسل واستخفاف بأقدار الناس . ولاشىء يساوى ذلك عند العقاد .. لاعشرون ألفا ولا عشرون مليونا !

وجاءت أكواب الليمون وفناجين القهوة . ولم تستغرق المقابلة سوى بضع دقائق . وخرجوا والأستاذ غاضب . ولم يتفقوا على شيء ..

وفى الليل اتصل بالأستاذ واحد من هؤلاء الذين زاروه مع الحاج عبد الرحمن ، وقال له : يأستاذ . إن الرجل قد جاءك من آخر الدنيا وهو من أشد الناس إعجاباً بك .. ثم إنه لم يتأخر عن الموعد سوى دقيقة واحدة .. ثم كانت مقابلتك القاسية .. إن الرجل حزين حقا ...

ولم يدعه الأستاذ يكمل عبارته ، فقاطعه قائلا : جرى إيه ياأخينا .. عندما تصل متأخرا عن موعدك ، وتشغل العقاد عن رياضته اليومية ، فما الذى تتوقعه منى ؟ هل أقيم لك حفلة تكريم ، لأنك جئت تشترى بعض كتبى ؟ .. ملعون أبوك وأبو ... إلخ ..

* * *

أذكر أنى اتفقت مع أحد الرهبان المصريين من الدير الدومنيكى وهو الأب قنواتى ، أن نلتق بالأستاذ . فقد كان من آمال الأب قنواتى أن يترجم بعض دراسات الأستاذ فى الفلسفة الإسلامية . واستأذنت الأستاذ ، فقال : الساعة الخامسة يامولانا .

ولم أتمكن من الذهاب إلى الأب قنواتى ، فقد تعطل الترام فى الطريق إلى العباسية .. واعتذرت للأب قنواتى عن التأخير . ووجد الراهب الجليل أن عذرى مقبول . وبعد ذلك سارعت إلى الأستاذ أنقل إليه عذرى . ووجدت باب شقته مغلقا . ولم أجرؤ على دق الباب . وفى اليوم التالى : لا اعتذرت للأستاذ ولاسألنى . ولكنه رأى أن القضية قد حسمت : أنا تأخرت عن الموعد فأغلق هو الباب !

وضايقنى سكوته . ففاتحته قائلا : يأستاذ . لم أتمكن من الحضور فى الموعد لأن ...

فضحك مقاطعا : يامولانا .. ألست مصريا ؟ طبيعى أن تفعل ذلك ، وغير الطبيعى أن تجىء فى موعدك .. ثم تعال هنا .. أنت من المنصورة يامولانا .. كان يجب أن تجىء فى موعدك !

وهو يقصد أن أهل المنصورة من أصول فرنسية وتركية !

أى أنه لم يقبل عذرى !

ومما هون على نفسى هذا الحكم القاسى ، أننى اقتسمت هذا اللوم العنيف مع كل المصريين !

* * *

وفى ذلك الوقت كنا نقف على الحافة .. الحافة بين الدين والخروج عليه ، وبين الإيمان والخوف منه . أو بين الفلسفة العلمية والدين غير المنطقى – كانت هذه هى التعبيرات المألوفة عندنا نحن الشبان الصغار من دارسى الفلسفة .. وكنا نحاول أن ننقل للأستاذ ترددنا وتردينا ، ومخاوفنا واجتراءنا على الحق ، وتأكيد الذات وتضخيمها ، وكان الأستاذ يعرف ذلك كله . ويراه طبيعيا . ويعبر عن ذلك

كله أحسن وأجمل عندما يقول : إننى أقول للحياة نعم .. ولكل شىء آخر لا .. وليس من الحياة أن نرفض الحياة . ولامن الحكمة أن نقول : لا .. دائما .. ولا أن نقول : نعم .. دائما .. ولكن يخطىء كثيرا من يقول : لا .. كثيرا ، ويخطىء قليلا من يقول : نعم .. كثيرا .

وكان يشرح قضيته . ويسعفه التاريخ والأدب والسيرة النبوية والسياسة والنوادر والنكت أيضا – كل ذلك فى جلسة واحدة وفى قضية واحدة ..

* * *

وفى يوم الثلاثاء أذهب إلى شعبة الإخوان المسلمين بإمبابة . وكنت وقتها أمينا للمكتبة . وكنا نلتقى طلبة فى الآداب والهندسة والطب والتجارة . ولم يكن بيننا سوى شىء واحد عميق ، هو : أنه لايوجد شىء واضح ولاطريق محدد . ولاهدف بارز . كأننا التقينا فى مخبأ أثناء غارة جوية . أوكأننا مجموعة من مهربى المخدرات التقينا فى نقطة بوليس .. هل اتهمنا أحد بشىء ؟ لم يحدث ! هل نبذنا الناس ، فاحتمينا فى جماعة الإخوان المسلمين ؟ من المؤكد أننا مسلمون نصلى ونصوم . ولكن فقط نريد أن نعرف . نريد أن نفهم . وكنا لا نجد من يقول . ولا من يدلنا على ماالذى يحيرنا .

أذكر أننى ألقيت قصيدة بمناسبة « مولد النبى » . وكان يجلس فى الصف الأول فوق سطوح هذه الجمعية الشيخ حسن البنا . لاأعرف السبب الحقيقى من نظم هذه القصيدة . ولاكيف ألقيتها أمام فضيلة المرشد العام حسن البنا . ولاأعرف كم كان عدد الحاضرين . لم يكن أحد من زملائى . . وبعد أن فرغت من إلقاء قصيدتى عانقنى المرشد العام ، ودعا لى بالخير والبركة . وسألنى : إن كنت مسيحيا ؟

وأدهشنى هذا السؤال . وأكدت له أننى مسلم .. وقد ظننت أول الأمر أنه استنتج ذلك من اسمى . فهو اسم يمكن أن يكون لمسلم أو لمسيحى . ولكن عندما عدت إلى القصيدة وجدت الكثير من تعبيرات الفلسفة المسيحية وبعض أسماء القديسين ، وأننى استخدمتها دون وعى منى .. وأننى فى ذلك الوقت لم أكن أحسن التمييز بين كثير من المذاهب الفلسفية الدينية المسيحية والإسلامية واليهودية والبوذية . وأننى فى ذلك الوقت كنت أرى أن الفروق قليلة بين الديانات . وكنت أعتقد أن الدين واحد ، ولكن رجال الدين جعلوه كثيرا . ورصفوا إليه طرقًا متعددة ، وأن الله واحد ولكن الناس على مدى التاريخ قد وجدوه كثيرا مختلفا ..

وفى إحدى المرات حسم الأستاذ هذه القضية عندما نبهنا إلى العبارة الأولى فى كتابه « الله » : إن الإنسان ترقى فى العقائد ، كما ترقى فى العلوم .

فقد عبد الشمس ، ثم اعتقد أن الشمس تدور حول الأرض ، ثم انتهى إلى أن الأرض هى التى تدور حول الشمس . .

ورغم ذلك فإن أحدًا لم ينكر وجود الشمس . .

فالشمس موجودة دائمًا ، وكل الاعتقادات صحيحة دائمًا . وصحتها مرتبطة بعصرها وظروفها .

وقد أكد لنا الأستاذ أن هذه العبارات التي جاءت في الصفحة الأولى من كتابه هذا ، هي أخطر ماجاء في كل الكتاب .. لأنه يريد أن يقول إن المفهوم الديني يتغير من عصر إلى عصر ، وهو صحيح في كل عصر .. فالذين آمنوا بأن الله صنم ، لم يكونوا على خطأ . فهذا أقصى مايستطيع العقل الإنساني أن يدركه في ذلك الوقت .. والذين يرون أن الله اثنان وثلاثة ، فهذا أيضا مايتفق مع قدرة العقل وطبيعة العصر والمرحلة التاريخية التي يعيشها هؤلاء المعتقدون .. والذين أنكروا وجود الله لابد أن لديهم أسبابا منطقية لذلك .. ومعنى الذي قاله الأستاذ : أن اعتقاد الشبان في مرحلة القلق والحيرة وتكوين الذات والاستقلال بالرأي ، مسألة طبيعية .. ولابد أن تتغير هذه الحالة النفسية أو اليقين الفلسفي ، إذا ماعرفنا أكثر ، وفكرنا أعمق . وهذا ماسوف يحدث لنا في مرحلة تالية ..

وأعتقد أن سبب فصلي من جماعة الإخوان المسلمين في إمبابة مع عدد آخر من الزملاء ، هو غموض موقفنا .. ولا أظن أنه كان « موقفا » – فالموقف رأي واضح ثابت في كل الظروف . والحقيقة أنني كنت أفتقر تماما إلى أن يكون لي موقف في ذلك الوقت . فأنا أمضي اليوم كله ماشيا على النيل بين إمبابة والزمالك والجيزة . وكانت أفكارنا مثل خطواتنا تضيق وتتسع . وكنا نمشي في كل اتجاه ، لأنه ليس لنا هدف واضح . وكانت رءوسنا تدور مع كل الرياح ..

ولكني اكتشفت فيما بعد أن السبب المباشر لخروجي هو أنني ألقيت خطبة في مسجد البراجيل بالقرب من إمبابة ، ولم أكن واضحا . أو عندما حاولت أن أكون واضحا ، لم تكن تعبيراتي مألوفة .. أو كانت اجتهاداتي خارجة على المألوف . ولست على يقين من ذلك .

ولكن الشيء المؤكد هو أنني عندما ذهبت ، كالعادة ، إلى شعبة الإخوان المسلمين متجها إلى غرفة المكتبة لكي أستذكر دروسي ، وجدت منشورا بفصلي أنا وزملائي .. وكان التوقيع : المرشد العام حسن البنا ..

أما التفسيرات التي قيلت لنا في ذلك الوقت فهي معقولة ولكنها ليست مقنعة . قيل إننا كنا نستهلك نورا كثيرا ، ثم إننا لاندفع اشتراك العضوية . وهذا صحيح ، فلم يكن لنا مكان نلتقي فيه ونتحدث ونذاكر أو نجلس دون أن يخالطنا أحد من بقية الأعضاء ، سوى غرفة المكتبة .. ولم يكن هناك أسف على خروجنا . لانحن أسفنا على ذلك ، ولا أحد . فقد مضينا في طريقنا ، أو في طرقنا نمشي بلا هدف ..

ولكن أسفي جاء بعد ذلك . فقد كان لي أصدقاء كثيرون ليسوا جميعا من الطلبة ولكن من المدرسين والمهندسين والشبان التجار . ولم أعد أراهم . هل هم كانوا حريصين على ذلك ، أو أن هذا

هو شعورى ؟ .. هل الذى باعد بيننا هو أن هناك « شبهة » فكرية ، أو أن السبب هو أن الدراسة فى الجامعة وهمومها وأعباءها قد عزلتني تماما .. وأصبحت أمشى فى نفق تحت الأرض ، لايرانى أحد ولا أراه ؟ ..

وكان من بين الإخوان أحد الموظفين فى محل شيكوريل ، قال لى : علاجك عندى ..

إذن فأنا مريض .. أو لعله لم يقصد أننى مريض عقليا أو جسديا .. إنما هو أراد أن يجعل لما سيفعله أو يقدمه أهمية خاصة .. وهمس فى أذنى : هذا الرجل الذى سوف أعطيك عنوانه قد قرأ الفلسفة .. كل المذاهب .. واهتدى إلى رأى .. وسوف يشرح صدرك تماما ..

سألته : من هو؟ من الإخوان ؟

أجاب : لا .. إنه يهودى ويعمل معنا فى محل شيكوريل .. اذهب إليه ، لقد حدثته عنك كثيرا . وهو ينتظرك غدا فى بيته بشارع محمد على ..

ولم أنم تلك الليلة . وكان أبى مريضا . وأخفيت أرقى فى الجلوس إلى جواره . ولم يكن شيئا غير عادى أن أكون هكذا . فأنا أحب أبى وأرى أنه أحد الشهداء .. شهيد مبادئ وأخلاقيات انقرضت — وكان يجب أن تنقرض . فهو إنسان طيب إلى غير حد . لم أسمعه يكره أحدا . أو يحقد على أحد . لم أره إلا ضاحكا ، ولم أر يديه تتخللان جيبه إلا تخرجان بشىء لأحد من الناس .. وعندما مات أبى أحسست أن وفاته مشيئة شعبية . فمثل هذا الرجل الطيب يجعلك تواجه وضعا غريبا : أن كل الناس كذابون . وأن كل الناس منحطون وأنهم بخلاء وأنهم خائفون من الفقر وأنهم خائفون من الفضيحة وأنهم لايؤمنون بالله .. إنه وحده الذى يعطى كل شىء ولايهاب أحدا ولايخاف من الأيام .. ولذلك كانت وفاته نتيجة لاستفتاء شعبى لأن الناس حريصون على القضاء على الذى يفضحهم ويكشفهم !

وقبل أن يطلع النهار ذهبت إلى شارع محمد على ، وعرفت البيت والشقة ، ووجدت النوافذ مغلقة . ورأيت فى البلكونة صناديق ومقاعد كثيرة ، وذهبت إلى أحد المقاهى ، وجلست ثلاث ساعات حتى حان الموعد المتفق عليه . ووجدتنى أدق الباب ، وينفتح الباب ويدفعنى هواء بارد . ولم تخرج من الباب أية رائحة : لاطعام ولاشراب ولا الرائحة المألوفة فى غرف النوم .

وكان الرجل نحيفا أبيض الوجه طويل الأنف صغير الشارب له أذنان مسحوبتان إلى الوراء . خاطبنى بالفرنسية قائلا : أنا جاك كوهين .. تفضل ..

وأشار أن أدخل ، وإلى مقعد بالقرب من المائدة . وجلست واختفى بضع لحظات ، وعاد بكتب صغيرة ، وكانت أمامى على المائدة كميات كبيرة من الفواكه — عرفت فيما بعد أنها صناعية — وكانت هذه هى المرة الأولى التى أرى فيها شيئا كهذا . وخرجت بعد دقائق والكتب فى يدى ، كأنها هى

الأخرى فاكهة جافة . فهى خلاصة الماسونية والبهائية . والكتب كلها قد اتخذت موضوعا واحدا هو « الحكمة الإلهية » . ولم أعد إليه كما وعدته . فلم أفهم من هذه الكتب شيئا . أو أن الذى فهمته ليس هو الذى أريده .. ولا أدعى أنى قد عرفت ما أريده بوضوح فى ذلك الوقت !

ولما سئلت بعد ذلك عن رأيى فى هذه الكتب الصغيرة ، لم أجد ما أقوله . ولكنى اتجهت إلى الأستاذ أستوضحه ، فقال : أنت وقعت فى يد ذلك النصاب — ثم ذكر اسم جاك كوهين ..

ومضى الأستاذ يقول لنا : إنهم جماعة من الماسون .. لاهى دين ولاهى فلسفة .. إنما هى جمعيات سرية تخدم أهدافا سياسية .. إنهم جماعة من الجواسيس فى كل بلد . ويتآمرون على البلد الذى يعيشون فيه ..

ثم ذكر الأستاذ عددا من كبار الساسة فى مصر . ثم قال : إن الواحد من هؤلاء عندما يحاول أن يتفلسف فإنه يلخبط الدنيا كلها ويعقدها ألف عقدة . ثم يحاول أن يحلها واحدة واحدة . فإذا عجز ، وهذا طبيعى ، اتهم الدنيا كلها بالغموض . ومادام العالم كله غامضا ، فليس غريبا أن يكون هو كذلك !

* * *

إن أستاذنا العظيم سقراط يحدثنا عن شىء من ذلك : وهو أن رجلا امتلأ جيبه بحبات القمح ، وحاول إحصاءها فلم يستطع . فملأ جيوبه الأخرى فى وقت واحد ليحصى ما فيها جميعًا !

وقال الأستاذ : لقد جاءنى هنا .. وهو الذى طلب مقابلتى عن طريق صديقنا الأستاذ المازنى . ولما استوضحت المازنى ، قال إنه لايعرف إلا أن هذا الشخص مفكر ومتعلم فى فرنسا سنوات طويلة . جاء هذا النصاب وسألنى وأجبته . ولكنى سألته : أنت عشت فى فرنسا طويلا . وتتكلم اللغة الفرنسية ولغات أخرى كثيرة . وعندك حل لكل مشكلة . ولذلك ترى أن فلسفتك هى أفضل الفلسفات . وأنت جئت تقنعنى دون أن تعرف فلسفتى .. ليكن . هناك طريقة واحدة لإقناعى وهى أن تجيبنى عن هذا السؤال ، فإذا اجبتنى وأقنعتنى سلمت لك بكل شىء .. ولقد رضى الرجل بهذا الشرط . وأسعده ذلك . فقلت له : كيف تفسر أنهم إذا خيروا أحد الآباء بين أن يكون ملكًا بشرط أن يذبح طفله ، وبين أن يظل على حاله ، فإنه يختار أن يبقى على حاله ولا يذبح طفله ؟

قال الأستاذ : أما الرجل فقد أسعده هذا السؤال . وقال : ليس كل الناس يا أستاذ ، أنا شخصيا مستعد أن أذبح كل أطفالى لكى أكون ملكا وأتزوج من جديد ويكون لى ماشئت من أطفال !

وكان رد الأستاذ : هذا ماكنت أتوقعه . فلم أكن أتوقع أن تكون انسانا ، ولذلك فيا حضرة الحيوان عندما تصير إنسانا ، فتعال إلى مناقشتى !

وعاتب الأستاذ العقاد صديقه المازنى الذى أرسل إليه مثل هذه العينة الفكرية الشاذة .. ومما قاله للمازنى وردده بعد ذلك كثيرا :

تقول إنه عاش فى فرنسا طويلا ؟ إن حياته فى فرنسا ليست دليلا على أنه أكثر الناس فهما لفرنسا والفرنسيين أو الفكر الفرنسى .. ولو صح أن المعاشرة والألفة هى وحدها التى تجعل إنسانا أكثر فهما للآخرين ، لكان حذائى هذا بحكم معاشرته لى .. أكثر فهما للفلسفة من كثير من أساتذة الجامعات !

وقد صدق هذا على كثير من الذين يعايشون الأدباء والفلاسفة . . فلم يحسنوا التعبير عن حياتهم . إنما كانوا يرونهم من زاوية خاصة ، زاوية الابن الجاهل ، او الزوجة الغاضبة ، أو الأخ الطامع . .

والشاعر العظيم شكسبير هو الذى قال : إن الملك لا يمكن أن يبدو ملكا أمام خادمه ! لأن الخادم يراه عاريًا حافيًا مريضًا غاضبًا . . أما الذين يرونه بالتاج والصولجان فهم الشعب ، أى أبعد الناس منه ! !

• • •

أما ترددى على « مدرسة الطائفة الإسرائيلية » فى أول شارع مصنع الطرابيش يوم الخميس من كل أسبوع فقد كان غامضا تماما . فلا أذكر فى تلك الأيام أننى لقيت أحدا أصبح صديقا فيما بعد . لا أحد ، إنما كل الذين يترددون على مدرسة الطائفة الإسرائيلية من الأطفال وبعض الحاخامات .. ولم نكن – اثنان آخران وأنا – نعرف من كل أدباء وفلاسفة اليهود سوى عدد قليل جدا . ربما كان أبرزهم جميعا الفيلسوف موسى بن ميمون ، الذى عاش طبيبا خاصا للسلطان صلاح الدين . وألف كتابا اسمه « دلالة الحائرين » . وقد كتبه باللغة العربية ولكن بحروف عبرية . وكان الكتاب ضروريا لنا فى ذلك الوقت ونحن نتعلم اللغة العبرية . ولا أظن أننا تقدمنا كثيرا فى دراسة اللغة العبرية . ولا حتى فى فهم موسى بن ميمون . فهو فيلسوف يهودى مشغول بأعقد القضايا التى جاءت فى التوراة والتلمود ، وله اجتهادات خاصة – أى تفسيرات جديدة فى الديانة اليهودية التى لم نكن نعرفها جيدا فى ذلك الوقت ..

وأسماء أخرى فى الفلسفة اليهودية كانت معروفة لدينا : الفيلسوف الهولندى اسبينوزا ، وفلاسفة أندلسيون مثل ابن جابيرول وهاليفى وسعديا وغيرهم ..

رجل واحد لاأذكر اسمه الصغير ، إنما أتذكر اسم عائلته ، إنه : روزنتال .. كان يسكن فى الزمالك . ربما فى شارع الكامل محمد ، ربما فى شارع أحمد حشمت . لست متأكدا الآن . والرجل لابد أنه من أغنى أغنياء اليهود المصريين الألمان . قابلته فى إحدى المكتبات . واتجه ناحيتى يسألنى : لقد رأيتك فى مدرسة الطائفة الإسرائيلية ، ما اسمك ؟ ..

وسألنى إن كنت من طائفة « القرائين » – أى من اليهود المصريين .. فقلت له : إننى أتردد فقط ولم أدرس شيئا بعد . فليس عندى وقت .

والحقيقة أنه ليس لضيق الوقت لم أدرس شيئا ، ولكن لأننى لم أعرف ماالذى يمكن أن أدرسه . ثم إن أحدا فى هذه المدرسة لم يوجهنى إلى شىء .. كما أننى ذهبت فقط لكى استطلع .. لعلى أعرف .

وأدهشنى مرة أخرى أن يكون اسمى مشتركا مع المسيحيين واليهود . ففى اليهود من طائفة القرائين أسماء مثل : عبد الرحمن وعبد العزيز .

كما أننى اكتشفت فيما بعد أن واحدا له نفس اسمى كان زوجا لشاعرة يهودية اسمها « جويس منصور » . أصدرت ديوانا بالفرنسية فى جزءين اسمه : صرخات . وهو شعر جنسى فاضح . وهى ابنة داود عدس .. وقد هاجرت من مصر إلى فرنسا ، وانضمت إلى الحزب الشيوعى ..

أما الذى أدخلنى هذه المدرسة فأحد أعضاء « جمعية المفكرين الأحرار » إنها جمعية ألفناها ونحن طلبة فى مدرسة المنصورة الثانوية . كنا ثلاثة : مسيحى ويهودى ومسلم . ولا أعرف الأسباب الواضحة التى أدت إلى تكوين جمعية غامضة الاسم ، وفى نفس الوقت فيها كثير من الادعاء : أنها جمعية فكر .. وأن هذا الفكر حر

ولكن ماذا تريد هذه الجمعية ؟ ماهى أهدافها ؟ ومن هم أعضاؤها ؟

لاشىء من ذلك يمكن الإجابة عنه . إنما هى جمعية تضمنا نحن الثلاثة . أما ماالذى كنا نقوله فى ذلك الوقت ؟ .. فالكثير جدا الذى نقوله لأنفسنا . فكل منا يقرأ كتابا أو يسجل شيئا من خواطره . ثم يقرؤه علينا . ولا أذكر أننا تناقشنا . إنما كنا نستمع إلى بعضنا البعض . وعندما نتناقش ففى موضوع واحد هو أملنا الوحيد : أن نكون من طلبة الأزهر الشريف . فقد أسلم المسيحى واليهودى – هكذا فجأة . ولم نتناقش فى أسباب ذلك . ثم تحول الاثنان إلى الشيوعية ، ولما دخلا الجامعة اتجها إلى الإلحاد . ولما تخرجا فى الجامعة آمنا بالله واليوم الآخر .. وواحد منهما الآن لايفارق مسجد سيدنا الحسين ..

* * *

وفى يوم ذهبنا متفرقين إلى الأستاذ .. وكنت قد دعوت الاثنين إلى ذلك .

وأذهلنى أنهما لم يجدا فى الأستاذ العقاد ماأجده أنا . سألت واحدا منهما : هل هذا الذى قاله الأستاذ عن معجزات الأنبياء ، وماقاله الأستاذ عن المرأة والفرق بين الحب والعشق ، والذى قاله الأستاذ عن الديمقراطية فى بريطانيا والفاشية فى إيطاليا وألمانيا وروسيا ، هل كل ذلك شىء مألوف ؟ .. هل هو مألوف بهذه البساطة ؟ .. هل رأيت رجلا تجمعت له العظمة والعزة والكبرياء والبساطة كما وجدت عند العقاد ؟

أجاب أحد الصديقين : إننى لاأجد الراحة معه .. إنه أب يركب كتفى مدرس ، ومدرس يركب كتفى فيلسوف . وفيلسوف يركب كتفى فقير هندى ، وفى يده كرباج يشوى به ظهور الجالسين جميعا وأنت منهم !

وقال الثانى : إننى أشعر ببرودة شديدة .. برودة الحديد والصلب .. ولكننى أفضل الذين فى مثل سنى ، وفى مثل بساطتى .. أو جهلى .. والذين إذا تكلموا تلعثموا .. وفكروا وترددوا .. وتحيروا .. ولكن العقاد لايتلعثم ولايفكر .. إنما الكلام يخرج من فمه ورقا مطبوعا .. ويدخل فى أذنيك دون إذن منك .. إننى تمردت على رجال الدين .. وتمردت على الشيوعيين لهذا السبب ، وكذلك على أبى وأمى ..

وكانت الزيارة الأولى والأخيرة لهذين الصديقين ..

ولاأدعى أننى كنت على مستوى الأستاذ أو قريبا من ذلك .. ولكنه أحد أعمدة النور فى طريق .. أحد رجال المرور إذا ازدحمت الرءوس وتوقف مسار الفكر فيها .. بل لم يكن فقط أحد رجال المرور ، بل إنه أحد الذين شقوا الطرق ورصفوها وأضاءوها . وهو عندما يحرك ذراعيه يمينا وشمالا .. فكثيرا ماارتطمت بوجوهنا .. وكان سوء الظن يجعلنا نقول : صفعنا .. وحسن الظن يؤكد أنه : شجعنا على المضى ..

وكنا نحسن الظن به دائما .. بل لم يكن هذا الذى نحس به فى حضرته ظنا ، إنما هو يقين وبرهان وبيان . أما الظن فقد كان زادنا اليومى فى كثير من المحاضرات الجامعية .. ثم كانت هذه « الدوخة » فعلا التى وصفها زميلى فى جمعية المفكرين الأحرار .

ففى مهب الأستاذ كنا نلملم أنفسنا .. كما يحدث فى مواجهة العواصف .. نزرر الجاكتة ونغطى الصدر والرقبة والرأس أيضا . ثم ننكمش ونتماسك ونتساند .. فما معنى ذلك ؟ معناه أن الإنسان عندما تهب عليه الريح فإنه يحاول أن يجعل « المساحة » المعرضة من جسمه أقل ..

أما البرودة التى تحدث عنها زميلى فى جمعية المفكرين الأحرار فسببها أيضا أن الأستاذ يجردنا ، بغير عنف ، من كثير من الأفكار الدافئة .. أى الأفكار التى نتغطى بها ونحس كأنها بشرة ثانية .. ومن بين هذه الأفكار أن تكون هناك جمعية للتفكير أو للتأمل .. إن الجمعيات تتنافى مع الفكر الحر .. وتتنافى مع الإبداع .. فالفكر عام والإبداع فردى .. والناس يتشابهون فى أفكارهم ، ولكنهم يختلفون فى أجسامهم .. يختلفون فى بصماتهم على الفكر وعلى العلاقات وعلى الأشياء .

والأستاذ من أشد الناس إيمانا بالمفكر الانجليزى توماس كارليل الذى يؤمن بأن التاريخ يصنعه الأبطال . وأن البطل هو القوة المحركة للتاريخ . وأكثر ماكتبه الأستاذ عن الأبطال أو عن العباقرة الذين هم نوعية فريدة بين الناس . . فالإنسان العظيم يظهر فجأة دون مقدمات وراثية أو اجتماعية

أو أخلاقية . . فالأستاذ نفسه شيء فريد فى أسرته وفى بلده . . ولذلك يسخر الأستاذ من الجمعية والجماعة والمدرسة الأدبية والفلسفية . . ويرى أن العبقرى ليست له مقدمات وليس له أتباع . . .

ولذلك فليس أدعى للضحك – يقول الأستاذ – من أن يكون الإنسان حرا وفى نفس الوقت حريصا على أن يكون عضوا فى جمعية ليكون له فكر مستقل عن الجمعية .. أى فكر حر..

ولم يدر الأستاذ أنه أجهز على الجمعية ودفنها فى أعيننا وبأعيننا ، وترك لنا مهمة السير فى جنازتها !

لم يبق بعد هذا كله إلا ماكنا نقرؤه ونتستر على الإعجاب به .. !

وَجَدتُها .. فوَجَدتني

كان لابد أن تكون لى علاقة بالقراءة والكتابة ، فقد فتحت عيني والكتاب فى يدى – ربما بدت هذه العبارة أكبر مما يحتمل المعنى ، ولكنها الحقيقة ، فقد كان الكتاب فى يدى ألعب به وأمزقه وألقى عقابا شديدا على ذلك . وكان الكتاب يختبئ معى تحت السرير . أمر بالقلم على سطوره أحاول أن أقلدها . وقد أفسدت كتبا كثيرة . وأكثرها ليست مما يملك والدى . فكل بيت كنت أذهب إليه أظل أبحث عن الكتب ، ثم أمسك واحدا ، وتفاجأ أمى بأننى والكتاب قطعة واحدة . ولابد أن الناس الذين نزورهم يجدون حرجا شديدا فى تخليص الكتاب من يدى . ولكن كنت أصحو من النوم والناس حولى كثيرون . فقد نمت وأيقظتنى أمى بعنف الخجل ، وضربتنى وسحبت الكتاب من يدى ممزقا ، وتستأنف ضربى فى البيت . وكان الذى يدهش أمى أننى لا أقرأ . فما الذى أفعله بالكتب ؟ ..

وقد تعودت ألا أتهيب الكتب . فقد كان أبى يقرأ كثيرا . وكنت أصحو من النوم لأجلس معه ، وألمس الكتب التى يقلبها . وأحيانا أنتهز فرصة أنه يصلى فأقلب الكتب .. بما فى ذلك القرآن الكريم ..

وفى كتاب قرية نوب طريف مركز السنبلاوين حفظت القرآن الكريم . ولكن هذه العبارة القصيرة استغرقت سنتين إلا قليلا . فلم يكن سهلا حفظ القرآن . ولكنى حفظته . لاأعرف كيف . كنا نردد القرآن الكريم آية آية ، وسورة سورة ، حتى ختمنا القرآن الكريم . ثم كان فى بيتنا احتفال كبير بهذه المناسبة . وفى ذلك اليوم ارتديت ثوبا جديدا ، جلبابا أبيض له خطوط حمراء . وطاقية من نفس القماش . وحذاء جديدا . وكان فى جيبى منديل حريرى ، وعرفت أن هذه الأوراق الصغيرة التى كان يضعها والدى فى جيبى هى آيات قرآنية . آية تقول : « فأغشيناهم فهم لايبصرون » – وهذه الآية الكريمة تمنع الحسد . . وعرفت فيما بعد أن أكثر الآيات التى كان يكتبها والدى ويضعها فى جيوبى هى قوله تعالى : « يانار كونى بردا وسلاما على ابراهيم » . فقد كنت شديد الحساسية للبرد والزكام ، أوكنت لا أعرف إلا البرد والزكام وارتفاع درجة الحرارة ، وكانت أمى كذلك ، فربما كانت هذه الحساسية وراثة عنها . ولما كبرت عرفت أن هناك أسبابا أخرى عديدة ، أحدها : أننا كنا نسكن فى الطابق الأرضى من بيوت كثيرة شديدة الرطوبة . . وعندما تخرجت فى الجامعة سكنت فى الطابق السابع فى بيت بلا أسانسير ، وكان رطبًا أيضًا !

لا أعرف تفاصيل ذلك اليوم الذى كرمونى فيه لأننى ختمت القرآن الكريم . ولكن أناسا كثيرين جاءوا الى بيتنا . وكلهم يبحثون عنى ويقبلوننى ويحتضنوننى ، ويدعون لى بالبركة : الله يفتح عليك ياابنى . . ونعم بالله . . من يحفظ القرآن يحفظه القرآن . . أنت تحمل كتاب الله .. والله أنت أحسن منا جميعا . .

ثم جاء من يقرأ القرآن ، وجلست إلى جواره ، وكنت أردد معه الآيات التى أحفظها . ونبهنى بعض الناس إلى أن هذا لايصح . أى لايصح أن أقرأ القرآن بينما رجل أكبر سنا يقرؤه . وكنت أبتعد عن الرجل ، وأختفى فى مكان بعيد لأردد معه القرآن . .

فإذا جلست على الأرض ألعب قيل لى : عيب . . كيف تفعل ذلك وأنت تحفظ كلام الله ؟ ! كيف تكذب وأنت تحفظ القرآن ؟ ! كيف تتسخ ملابسك وفى قلبك كلام الله ؟ ! أنت رجل الآن تحفظ كتاب الله ..

ولم أكن أدرى بالضبط ما الذى يصح أو لا يصح عمله . ولكن شيئا هاما جدا قد حدث فى حياتى : لم تعد أمى تضربنى ! إذ كيف تضرب من يحفظ كتاب الله . كيف تهين من كرمه الله . كيف تمتد يدها على من سيدخل الجنة قبلها . . أو من هو السبب فى دخول جميع أفراد أسرته الجنة . وكانت أمى تضربنى لأسباب كثيرة . وهذه الأسباب كثيرة لدرجة أصبح من الصعب على أن أعرفها . . ربما كنت مشاكسا وأنا صغير . هل كان صعود النخيل سببا ؟ هل كان صيد العصافير بالنبلة سببا ؟ هل لأن واحدا من أقاربى كان يلعب معى ثم غرق فى النيل ؟ هل لأن النار شبت فى غرفتى وأنا نائم ولم أتنبه إلى ذلك ؟ هل لأن والدى يقول كثيرا إنه سوف يجىء ثم لا يجىء ؟

ربما كان أحد الأسباب وأهمها أن أمى كانت تقيم فى بيت والدها . وكانت ظروفها النفسية معقدة والاجتماعية . ربما . وسوف أعود إلى ذلك عندما أتحدث عن اعتناق للفسلفة الوجودية ..

ولما كبرت وجدت لأمى ألف عذر ، فلم أكره أمى قط . وأحيانا كنت أكره ضعفى أمامها فقد تمنيت يومًا من شدة حبى لها وخوفى عليها . أن تموت هى قبلى ، حتى لاتتعذب من بعدى . وكانت هذه أمنيتها أيضا ، رحمها الله وأكرمها عندما اختارها : إن الحب العظيم لضعف عظيم . وإن الحنان الزائد جريمة بالغة – هذا إذا شئت أن تختار عنوانا لهذه العلاقة بين الذين يحبون أمهاتهم كثيرا ، أو يحبون كثيرا .

وعندما يصحو أبى من النوم يتوضأ ويصلى ويجلس يعد لنفسه الشاى بالنعناع ، هنا فقط تكون مكافأتى عن هذه اليقظة المبكرة . ومنذ ذلك اليوم ، وأنا أصحو مبكرا وعينى على كتاب ، وفى فمى شاى . . وفى هذه الساعات الصغيرة من كل يوم أستمع إلى أبى يرتل القرآن . وأحيانا يقول شعرا .

وكما حفظت القرآن وامتلأت أذناى بأجمل الكلام وقلبى ، حفظت الكثير من الشعر العربى القديم .. حفظت « البردة » للبوصيرى :

أمن تذكر جيران بذى سلم مزجت دمعا جرى من مقلة بدم ؟

وحفظت « لامية العجم » للشاعر الطغرائى التى تقول :

أصالة الرأى صانتنى عن الخطل وحلية الفضل زانتنى عن العطل
حب السلامة يثنى عزم صاحبه عن المعالى ويغرى المرء بالكسل
إن العلا حدثتنى ، وهى صادقة فيما تحدث ، أن العز فى النُّقَل
لو أن فى شرف المأوى بلوغ منًى لم تبرح الشمس يوما دارة الحمل
أعلل النفس بالآمال أرقبها ماأضيق العيش لولا فسحة الأمل
ترجو البقاء بدارٍ لاثبات لها فهل سمعت بظل غير منتقل ؟ !

وحفظت الهمزية النبوية :

كيف ترقى رقيك الأنبياء ياسماء ماطاولتها سماء ؟

وسمعت أول ماسمعت عن كتاب « أدب الدنيا والدين » . . ولم يكن فى استطاعتى أن أفعل بهذا الكتاب شيئا . فقد وجدت أبى يضعه إلى جوار سريره . وأحيانا يحمله مع المصحف فى يده . ويضعها إلى جواره عندما يصلى . .

وكان والدى رجلا لطيفا يحب الناس ويتحدث إليهم ويلتفون حوله . فعنده القصة والنكتة . وأحيانا كنت أسمعه يغنى أغنيات قديمة ، والناس أيضا . وأسمع أنهم يسافرون بعيدا ليسمعوا مغنيا أو مغنية . وكنت لاأجرؤ أن أقول له خذنى معك . فهم جميعا من الرجال الكبار الذين يذهبون ، ثم أعرف أنهم عادوا مع الفجر ..

وكان واحد من أخوالى جميل الصوت والصورة . وكنت أجدنى أتردد معه على بيوت كثيرة . أرى بعض الوجوه ، ثم أجدنى فى فراشى فى اليوم التالى . لابد أننى نمت وتركونى ثم حملونى . ولكنى كنت أذهب حيث يتلى القرآن الكريم ، أو حيث يكون الغناء . . أينما تكون الكلمة الحلوة ، فإننى أمشى وراء أذنى .. ولذلك فليس تعبيرا دقيقا أننى قلت فتحت عينى على الكتاب . ولكن الأصح أن يقال فتحت أذنى . فتحتها ولم أطبقها بعد . فلست من هؤلاء الناس الذين يعتمدون على عيونهم ؛ فأنا أقرب إلى الذين يمشون نياما ، ويجلسون نياما ، ويأكلون نياما . . إلا عند النوم . فأنا أقرب إلى اليقظان منى إلى النائم ، بل إذا كان النوم بحرا فأنا على الشاطئ . وإذا كان النوم شاطئا ، فأنا وضعت قدما فى البر والأخرى فى البحر . . وإذا كان النوم سلطانا فأنا أحد المطرودين من هذه السلطنة . وإذا كان النوم نعمة ، فإن الله قد أنعم علىّ بأشياء كثيرة ، ليس من بينها النوم .. والذين يقولون لى : غدا

سوف يطول النوم ، لاأجد لهذه العبارة أى معنى . فهم يقصدون أن الإنسان عندما يموت فسوف ينام إلى الأبد . . ولكن مادام الإنسان سيموت ، فلا معنى لشىء بعد ذلك . . لانوم لميت ، لأنه لا إحساس له . . وأنا واحد من الذين يلمسون الدنيا بآذانهم : الكلمة الجميلة ، والنغمة الحلوة ، وبسبب هذه الحساسية الشديدة فى أذنى ، كنت لا أنام بعمق . . وكنت لكى أرى الدنيا فإننى أغمض عينى وأفتح أذنى . وأتخيل ماأشاء .. ولذلك كان من المستحيل أن أكون طبيبا أو مهندسا ، فهم يعتمدون على عيونهم وأصابعهم كثيرا . وأنا لا أعتمد على عينى ولاأثق فيهما ، فهما ضعيفتان مثل عينى أبى . ولم أرث من أمى قوة نظرها . وكانوا يتحدثون عن أنها كانت تستطيع أن ترى النجوم ظهرا . وقد تراهنت مع إحدى قريباتها على رؤية نجمة نهارا . واحتكمت كل منهما إلى قريبة ثالثة أقوى منهما نظرا . وكسبت أمى الرهان وكان أسورة ذهبية . . وقد جربت ذلك بنفسى فقد كنت أسأل أمى عن الساعة ليلا ، وكانت ترفع الساعة فى الظلام وتقول : إنها كذا . . وكنت أفتح النور ، لأجد أنها كما ذكرت .

وتعلمت الخط الجميل . فقد كان أبى يكتب بخط فارسى – وكذلك كان الأستاذ العقاد . ولكن خط والدى كان أجمل ، فقد كان يتمهل ويتأنى ويتأنق فى الكتابة . وفى فترة من الفترات كنت أكتب اللافتات لباعة السودانى والترمس . . ولم يكن مما يتفق مع مزاجى أن أكون جميل الخط . فجمال الخط يحتاج إلى أن أكتب على مهل . ولكننى لا أستطيع ذلك . فأنا إذا كتبت أكون فى سباق مع نفسى . فأنا لا أستطيع أن أكتب على ورق خشن . لأن خشونة الورقة تعرقل تفكيرى . ولم أتمكن من أن أكتب بالقلم الحبر إلا مرغما . فالقلم الحبر يتعثر فى الورق . ولذلك كتبت بالقلم الرصاص ، وبعد ذلك بالأقلام الجافة . ومع السرعة الشديدة فى الكتابة تتساقط الحروف والنقط . ولم أفلح فى أن أعالج هذا العيب . ووجدت من يقول لى وأنا صغير إن العظماء جميعا من أصحاب الخطوط الرديئة ، ولم أتحقق من هذه العبارة . وقيل لى أيضا : إما الخط وإما الحظ . إما أن يكون حظك أحسن وخطك أسوأ ، وإما أن يكون خطك أحسن من حظك ، ولا أعرف من قالها ، ولابد أنه يبرر رداءة خطه . فى التاريخ عظماء من أصحاب الخطوط الجميلة . والأديب الفرنسى الكسندر ديماس الابن كان يعمل كاتب محام ، وكانت مهمته أن ينسخ المرافعات ، لأن خطه جميل وكانت هذه وظيفته الأولى . ولكنه كان يخفى موهبته وراء ذلك : موهبة الروائى القادر على رسم شخصياته بجمال وأناقة ، وكان ذلك قبل عصر الآلة الكاتبة . التى قضت نهائيا على ضرورة أن يكون للناس خط واضح أو يكون خطهم جميلا !

وفى إحدى المرات قدمنى والدى إلى خطيب المسجد وقال له : إن ابنى يحفظ « دلائل الخيرات » . فأجاب الرجل : هذا من دلائل الخيرات .

ويهزنى هذا التعبير . . أى أن من دلائل الخيرات أن أحفظ كتاب دلائل الخيرات . واكتشفت أن والدى يحب هذا التلاعب بالألفاظ . ويروى شعرا فكاهيا يتلاعب فيه بالألفاظ والمعانى . . فكان يقول مثلا :

الأم الأم فغضبها لا بد يخالفه الغم
يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مُ

أما النكتة فهى فى الشطرة الأخيرة التى هى « ويحل عليه عذاب مقيم » وهى آية قرآنية كريمة . . أو يقول :

رأيت غصنا على كثيب شبيه بدر إذا تلالا
فقلت ما الاسم؟ قال : لولو فقلت : لى . . لى . فقـال : لا . . لا

أويقول :

لقد دبت بجنح الليل رجلى على رجل ولم يك فى حسابى
فقال مهزئا : هل أنت أعمى ؟ فقلت : نعم ودواس الكلاب

أويقول :

خذوا بدمى ذات الوشاح فإننى رأيت بعينى فى أناملها دمى
ولاتقتلوها إن ظفرتم بقتلها ولكن سلوها : كيف حل لها دمى؟
فقالت لما وجدتك نائيا وكنت لى كفى وزندى ومعصمى
بكيت دما يوم النوى فسحته فابتلت بنانى من دمى

وكان يقول أبى ، وأظن أن هذا من نظمه ، عندما رأى الهلال فى السماء فقبل يده :

رأى الهلال فحياه بغير فم أحلى التحيات أخلاها من الكلم

ووجدت فى حفظ هذه الأبيات شيئا أتميز به عن غيرى من الأطفال ، إلى جانب حفظى للقرآن الكريم . ولكن الشعر الذى حفظته لم أعرف كيف « أستغله » كما يفعل أبى . . فهو يجمع الناس حوله ويظل يروى لهم القصائد والنكت البلاغية . . ولكنى لم أستطع أن أفعل ذلك . وأذكر أننى مرة واحدة كتبت أبياتا من الشعر فى موضوع الإنشاء ، فشطبها المدرس . هل ظن أننى نقلتها من كتاب ؟ هل رأى أننى نقلتها دون فهمها ؟ فقد كان موضوع الإنشاء أن والدى قد أهدتنى قلما ، ومطلوب أن أكتب موضوعا فى ذلك ، ولا أعتقد أننى قد أدركت النكتة فى هذا الموضوع : أن والدتى قد أهدتنى « قلما » . . لقد ضربتنى مئات الأقلام . فلست فى حاجة إلى هدية ؟ !

أما البيتان اللذان كتبتهما ، بعد شكر الوالدة على هذه الهدية فهما :

شكرت جميل صنعكم بدمعى ودمع العين مقياس الشعور
لأول مرة قد ذاق جفنى -على ماذاقه- دمع السرور !

فالقلم والدمع ولأول مرة ، كل هذه الكلمات والمعانى لم تخطر على عقلى الواعى ، ولكن عقلى الباطن هو الذى فتش عن هذه الكلمات لتكون نكتة أضحك لها فيما بعد ، أما البيتان فهما لحافظ إبراهيم .

وكان شطب المدرس لهذين البيتين نوعا من الاستكثار على مثلى أن يحفظ الشعر . ولم يكن يعرف كم من مئات الأبيات أحفظها . ثم إننى أحفظ القرآن الكريم والموشحات ودلائل الخيرات وعشرات المدائح النبوية . ولا أعتقد أننى استعنت بالشعر فى موضوع إنشائى بعد ذلك . .

وفى سن صغيرة بدأت أنقل يدى بين الكتب الدينية والدواوين فى بيتنا . . وبدأت أقارن بينها وبين كتب غيرها فى بيوت الآخرين . لم تكن دينية ولا أدبية . فهناك القصص البوليسية وروايات الجيب . وكانت كنزا . . بل كل كتاب هو بساط الريح ينقلنى إلى عالم آخر . لا أعرف كيف أمكن ترتيبه وتبويبه وتهريبه . . أو على الأصح كيف يستطيع مؤلفو هذه الكتب تهريبى أنا إلى عوالم أخرى . . أما الأسماء فأجنبية لا معنى لها عندى . وكثيرا ما ضايقتنى . ولكن المعنى . . الحكاية . . تختلف . شيء مختلف . وأحيانا أجد عبارة جميلة ، فتسبقنى يدى إلى القلم الرصاص أضع تحتها خطا ، ولا أعرف ممن تعلمت هذه العادة . ولا كيف عدلت عنها نهائيا . فأنا لا أضع علامة واحدة فى أى كتاب ، ولو وجدت مثل هذه العلامة فإننى لا أقرأ الكتاب .

هل أقول إننى قرأت كل روايات الجيب ؟ هل أقول إننى قرأت كل الروايات البوليسية ؟ لا أكون مبالغا إذا قلت نعم . ولكن هل أكون مبالغا إذا قلت إننى وعيتها تماما ؟ أكون مبالغا جدا فقد قرأت روايات كثيرة ، فلم أفهمها . ولم أستوعبها . ولكن شيئا هاما قد حدث ، هو أننى اعتدت القراءة . واعتدت أن أبحث عن الكتاب الجديد فى أى موضوع . قرأت كل ما وجدت . ولكن القليل مما وجدت ظل باقيا فى رأسى . .

وكان أستاذنا العقاد لا يحب كثيرا قراءة الروايات الأدبية . بل من النادر أن نجده قد امتدح روائيا أو تعرض له كثيرا . حتى عندما ترجم بعض القصص القصيرة . كان السبب ضغطا وإلحاحا شديدا عليه من الناشرين أو من تلامذته أن يفعل ذلك . ولكنه فعل ليؤكد اقتداره على الترجمة والفهم وهو كذلك . فأنا لا أذكر ما هى الروايات التى قرأتها . . لا أعرف . ربما كانت « مدام بوفارى » لأديب فرنسا جوستاف فلوبير . . ربما كانت رواية « الحرب والسلام » لتولستوى . ولست على يقين من أننى قرأت هذه الرواية بأسمائها الكثيرة جدا . ولا أظن أننى وعيتها . ولكن من المؤكد أننى

أما البيتان اللذان كتبتهما ، بعد شكر الوالدة على هذه الهدية فهما :

شكرت جميل صنعكم بدمعى   ودمع العين مقياس الشعور
لأول مرة قد ذاق جفنى   - على ماذاقه - دمع السرور !

فالقلم والدمع ولأول مرة ، كل هذه الكلمات والمعانى لم تخطر على عقلى الواعى ، ولكن عقلى الباطن هو الذى فتش عن هذه الكلمات لتكون نكتة أضحك لها فيا بعد ، أما البيتان فهما لحافظ إبراهيم .

وكان شطب المدرس لهذين البيتين نوعا من الاستكثار على مثلى أن يحفظ الشعر . ولم يكن يعرف كم من مئات الأبيات أحفظها . ثم إننى أحفظ القرآن الكريم والموشحات ودلائل الخيرات وعشرات المدائح النبوية . ولا أعتقد أننى استعنت بالشعر فى موضوع إنشائى بعد ذلك . .

وفى سن صغيرة بدأت أنقل يدى بين الكتب الدينية والدواوين فى بيتنا . . وبدأت أقارن بينها وبين كتب غيرها فى بيوت الآخرين . لم تكن دينية ولا أدبية . فهناك القصص البوليسية وروايات الجيب . وكانت كنزا . . بل كل كتاب هو بساط الريح ينقلنى إلى عالم آخر . لا أعرف كيف أمكن ترتيبه وتبويبه وتهريبه . . أو على الأصح كيف يستطيع مؤلفو هذه الكتب تهريبى أنا إلى عوالم أخرى . . أما الأسماء فأجنبية لا معنى لها عندى . وكثيرا ما ضايقتنى . ولكن المعنى . . الحكاية . . تختلف . شىء مختلف . وأحيانا أجد عبارة جميلة ، فتسبقنى يدى إلى القلم الرصاص أضع تحتها خطا ، ولا أعرف ممن تعلمت هذه العادة . ولا كيف عدلت عنها نهائيا . فأنا لا أضع علامة واحدة فى أى كتاب ، ولو وجدت مثل هذه العلامة فإننى لا أقرأ الكتاب .

هل أقول إننى قرأت كل روايات الجيب ؟ هل أقول إننى قرأت كل الروايات البوليسية ؟ لا أكون مبالغا إذا قلت نعم . ولكن هل أكون مبالغا إذا قلت إننى وعيتها تماما ؟ أكون مبالغا جدا . فقد قرأت روايات كثيرة ، فلم أفهمها . ولم أستوعبها . ولكن شيئا هاما قد حدث ، هو أننى اعتدت القراءة . واعتدت أن أبحث عن الكتاب الجديد فى أى موضوع . قرأت كل ما وجدت . ولكن القليل مما وجدت ظل باقيا فى رأسى . .

وكان أستاذنا العقاد لا يحب كثيرا قراءة الروايات الأدبية . بل من النادر أن نجده قد امتدح روائيا أو تعرض له كثيرا . حتى عندما ترجم بعض القصص القصيرة . كان السبب ضغطا وإلحاحا شديدا عليه من الناشرين أو من تلامذته أن يفعل ذلك . ولكنه فعل ليؤكد اقتداره على الترجمة والفهم . وهو كذلك . فأنا لا أذكر ما هى الروايات التى قرأتها . . لا أعرف . ربما كانت « مدام بوفارى » لأديب فرنسا جوستاف فلوبير . . ربما كانت رواية « الحرب والسلام » لتولستوى . ولست على يقين من أننى قرأت هذه الرواية بأسمائها الكثيرة جدا . ولا أظن أننى وعيتها . ولكن من المؤكد أننى

قلبتها . . ووجدتنى أتحدث عنها ، ولكن كان حديثى عنها خاليا من التفاصيل التى لا يقوى عليها إلا الذين قرأوها وقاموا وناموا على صفحاتها . ولا أظننى فعلت ذلك فى سن صغيرة . .

ولكن بهرتنى قصتان . لا أدرى اليوم كيف جمعتها الصدفة فى يدى . .

الرواية الأولى اسمها « زينات » لكاتب اسمه حسين عفيف . والرواية الثانية « الحب والدسيسة » للشاعر الألمانى شيلر . وهى مترجمة .

أما الرواية الأولى فهى قصة حب . العبارات ناعمة . وغنائية . ولكنى لم أفهم بالضبط ما الذى يجعل المعانى هكذا شفافة مشفوفة – أى حزينة مريضة . ولكنها شىء جديد . لم أجد له نظيرا فى كل الذى قرأت .

أما قصة « الحب والدسيسة » فالعبارة فيها أقوى وأعنف . وفيها جمل لها شكل الحكمة . وإن كان المعنى ليس حاضرا فى رأسى . مثل عبارة تقول : إذا باض الشيطان بيضة أفرخت بنتا جميلة !

لابد أن يكون لها معنى غامض عند شاب مراهق فى مثل سنى . ولكن لا أظن أننى وعيت هذا المعنى ، فأنا فى ذلك الوقت لا قابلت الشيطان ولا تعلقت عيناى ببنت جميلة . . وكنت أسمع فقط عن قصص لزملائى طلبة المنصورة الثانوية . . وعن « حب » وعن « غراميات » و « وبنت الجيران » – وكلها كلمات بلا معنى ولا مدلول . وكانت نوعا من الرفاهية . فقد كانت حياتى فى ذلك الوقت هى الحد الأدنى من الضروريات : المذاكرة ثم المذاكرة . . ثم مشاكل الأسرة . . وكان الطريق من البيت إلى المدرسة ضيقا خانقا . وكان أكثره اصطداما بالناس وأحيانا بالجدران ، فقد كنت أقرأ فى كتاب أو أفتح كراسة . . أقرأ فى النور وفى الدفء ، فالظلام والرطوبة فى البيت . .

أما ديوان الشعر الوحيد الذى اقتنيته وحفظته كله فهو « أغانى الكوخ » للشاعر محمود حسن إسماعيل . لقد كان حدثا أدبيا كبيرا فى حياتى . فلا أزال أذكر شكل الديوان : لقد كان من الورق الأبيض المصقول وكانت للشاعر صورة وعلى الصورة ورق شفاف . وكان الشاعر مصرى الملامح . شعره منكوش . وعيناه حالمتان ، وطالبا فى دار العلوم . ثم وجدت شيئا عجيبا . فالشاعر لم يشأ أن يجعل المقدمة فى أول الكتاب ، لقد أتى بها عند نهايته . . معلنا أنه يريد أن يكون للقارئ رأيه أولا ، وبعد ذلك فليعرف رأى الشاعر . . شىء غريب وعجيب لم أسمع بمثله من قبل . . وهزتنى التعبيرات الجديدة . . والضوضاء الصوتية واللونية . . مثلا يقول عن الفلاح المصرى ، وأنا لا أزال أنقل من الذاكرة :

تبكى سواقى الحقل أشجانه وما بكاه مرة شاعر
والبائس الفلاح فى ركنه عريان يشكو ضنكه خائر

* * *

بعثر عليه الدمع ، ما صفقت ... في قلبك الألحان يا شاعر
واحرق له الأجفان مامسها ... برح الأسى والحزن يا ساهر !

أو حين يقطف القطن يقول :

حين ذاب الظل في كاساتها ... لؤلؤا يجرى على كف الشعاع
لثمت خد الضحى ، وابتسمت ... كابتسام الطفل في عهد الرضاع
وبدت صفراء تحكى غادة ... ذبلت نضرتها يوم الوداع
وأتاها الصيف وهاج السنى ... يضرم الأنفاس نارا في البقاع
فارتدت برنسها من ذهب ... أبيض توج هامات الضياع
ذاك تاج النيل فاندب عنده ... أمل الفلاح والجهد المضاع
رقص الفقر على أكتافه ... وهو جاث بين ذل واقتناع
وسطا البؤس عليه ، فغدا ... زورقا في اليم محطوم الشراع !

أو يقول :

أبدا أجن إذا تحدر طيفها ... من عرشه السامى إلى محرابى
وأهم أرشف من منابع حسنها ... فيض الهوى المترقرق المنساب
من ثغرك الزاكى رشفت قصائدى ... ومن اللحاظ قبست ومض شهاب
ومن العيون الحالمات تعلمت ... عيناى سر الفتك بالألباب
في كل هدب رف من أهدابها ... رشد لقلب الحائر المرتاب
من راح يغويه الجمال ، فإننى ... ألهمت منك هدايتى وصوابى
قدست فيك الشرق . . فتنة منظر ... وجلال إيمان ، وقدس ضباب
ما النيل ؟ ما ماء الحياة به إذا ... أجرى الهوى من فيك شهد رضاب ؟
ما نفحة الفل المنور في الضحى ... إن فاح زهر عبيرك الوثاب ؟
ما خطرة الريحان يرفل مائسًا ... إن تاه عطفك من هوى وتصابى ؟
ما السحر ؟ ما تياره الخافى إذا ... همست شفاهك مرة بخطاب ؟
ما بهجة الدنيا وزينتها إذا ... أشرقت في دل وفي تلعاب ؟

ولا أعتقد أن قصيدة قد هزتنى وأدارت رأسى ومعها فيضانات من المعانى والاستطلاع والقلق والأرق والدهشة ، كما فعلت قصيدة له بعنوان الفستان الأحمر . .

يقول محمود حسن إسماعيل شاعر أحلامى وأوهامى ، وأكبر اكتشاف أدبى سرى في حياتى

المراهقة – فقد اهتديت إليه سرا ولم أشأ أن أدل أحدا من الناس عليه . . قرأته وحفظته وحافظت عليه :

إن تكن نارا فما أشهى خلودى فى سعيرك
أو تكن وردا فيا لهفة روحى لعبيرك
طرفك المفهاف يبدى لوعة خلف ستورك
ولمت روحى فطارت ترتوى من فيض نورك
تتمنى لو تهادت موجة فوق غديرك
أو خيالا من هواها سابحا طى ضميرك
ليت يا « فستان » . . لما لحت تزهو فى حريرك
كنت ذرا نابض الإحساس يجرى فى أثيرك
يلثم الحسن ويهوى فانيا بين عطورك !

وكان المرحوم محمود حسن إسماعيل يشمخ بأنفه ويرفع رأسه ساخرا عندما كانت الصحف تقول : إن نزار قبانى فى الستينات هو أول من استخدم كلمة « فساتين » فى الشعر الحديث ، مع أن قصيدة محمود إسماعيل هذه قد نظمها فى الثلاثينات . . ولكن محمود حسن إسماعيل كان طرازا غريبا فريدا من الشعراء ، كان يعتصم بأحد جبال الأوليمب . يرى ويسجل موسيقاه بعيدا عن العيون والآذان . . ثم يخلط الألوان والأصوات ، ويأتى بهذه الصور الجديدة المثيرة . وليس بين شعراء العربية أحد مثله !

وفى إحدى قصائد محمود حسن إسماعيل يصف حال إحدى بنات الهوى . ولم أكن أعرف فى ذلك الوقت معنى كلمة : بنت الهوى . . ولا معنى البغى . . ولم أكن أتصور أن الهوى له أبناء أيضا ، وليست بالضرورة بنات فقط . . ولكن محمود حسن إسماعيل قد صحح لى المعانى فى رأسى عندما قال :

ويقال فى حكم الهوى : سقطت. ونعم ! ولكن من خداعكم
لولا أذى الإنسان ما حملت إثم الهوى عذراء . ويحكم !

أى أن الخطيئة : رجل وامرأة : وليست دائما امرأة !

وفى الديوان : الغراب والضفادع والهدهد والبوم والعصفور وسنابل القمح وأزهار القطن والتوت . . والفراشات . .

وفى « الخاتمة » يقول الشاعر محمود حسن إسماعيل تجىء عبارة نقلها عن واحد من الفلاسفة :
إذا كان مخترعو الآلات قد أضافوا إلى النوع البشرى أشياء هى بمثابة الأعضاء المساعدة لجسمه ، فإن الشعراء قد منحوه منحة أسمى وأشرف : إذ فتحوا نوافذ جديدة فى أرواحنا .

كأنه يعتذر عن شعره الرائع الجميل بأنه هو أيضا أضاف شيئًا إلى وجدان الإنسان . . أى كما أضاف العلم إلى الإنسان « أطرافا صناعية » – فليست كل الأدوات التىابتدعها الإنسان إلا تطويرا مستمرا ليديه وقدميه وعينيه وأذنيه . . لأن الحضارة : هى فن صناعة الأدوات وتطويرها . . فبدلا من أن يأكل بيديه وأسنانه ويهضم بمعدته ، فإن العلم يعطيه الشوكة والسكين وأحيانا يقدم له أطعمة مهضومة . . بل إنه يدخل الطعام حقنا فى دمه ، فلا يمر على المعدة . . وكذلك وسائل المشى والكلام والصورة والصوت . .

ولا أظن أن كتابا قد أشعل النار فى خيالى وأحلامى ، وألصق أذنى بموسيقى سماوية وألوان جهنمية وفردوسية ، مثل ديوان « أغانى الكوخ » . .

وقرأت بعض « الشوقيات » لأمير الشعراء شوقى . . ولكنى لم أجد صلة تربطنى به . . إنه عظيم رفيع الشأن . . إنه صاحب السمو الملكى أو صاحب الجلالة . . إنه ست الحسن والجمال فى البلكونة وأنا فى الشارع ، أو من الواجب أن أتذكر ذلك دائما . أى لابد أن تكون هناك « مسافة ما » بين القارئ والشاعر !

ولم أفهم معنى هجوم الأستاذ العقاد على مسرحيات شوقى . . وكل ما أذكره هو حدة النبرة واستعداء القراء على الشاعر شوقى . . هل غضبت من الأستاذ العقاد فى ذلك الوقت ؟ هل وجدت فيه قسوة ؟ لا أظن أننى فكرت إلا فى أن الأستاذ هو الأستاذ الأول . . هو صاحب السيف الذى هو القلم أيضا . . وإلا أنه هو الأعظم طولا والأكثر عرضا ، والأبعد عمقا . . وإلا أنه الحاكم المطلق فى الفكر والفلسفة . . ولا صوت يعلو على صوته . . ولا أعرف كيف تجمع له ذلك .. ولم يعط أحد غيره ما أعطيه . . وأمامى مجلة « الرسالة » ومجلة « الثقافة » . . فلا أحد يكتب مثله . ولا أحد يكتب مقالا فيكون عمارة فكرية ، أو هرما منطقيا . إنه مختلف . إنه أفضل .

فى ذلك الوقت وقعت عيناى على كتب صغيرة جدا . يمكن أن تضعها فى جيبك . لها غلاف جميل . وملفوفة بالورق الشفاف . إنها فى التاريخ الإسلامى . من بينها كتاب عن « محمد » ﷺ وكلمة محمد اتخذت لها شكل البدر المضىء . . أو هو البدر انطبعت عليه كلمة محمد . أو لا فرق بين محمد والبدر . . أما المؤلف فهو : محمد صبيح . وكانت كتب محمد صبيح هذه اكتشافا وحدثا عميقا . فقد تجمع لكتبه : صغر الحجم ورخص الثمن وأناقة الغلاف وبساطة العبارة . . ولم أجد أحدا فى ذلك الوقت له هذه القدرة على سهولة العبارة . ربما لو كنت أقرأ الصحف ، لوجدت أن

عبارته صحفية . ولكننى لا أذكر أننى كنت من قراء الصحف . ولذلك لم أكن أدرى بالضبط ماذا يجرى فى مصر من أحداث . . هل كانت الصحف عسيرة المنال ؟ لا أظن ذلك . ولكنى لا أعيش بعينى . إننى أعيش بأذنى وبخيالى . ولذلك كانت مؤلفات محمد صبيح حدثا ونقطة تحول . . أى نقطة تحولت عندها إليه ، وإلى البحث عن بقية كتبه وهى كثيرة . . . وإن كنت أجد فيها بعض الكلمات الصعبة . ولكنها مثل الطوب أو الظلط فى طريق مرصوف . وليست شيئا نادرا فى أى طريق . . ولكن الإنسان إذا أراد أن يغنى : فهو محمود حسن إسماعيل . وإذا أراد أن يتكلم : فهو محمد صبيح ، وإذا أراد أن يفكر : فهو العقاد ، وإذا أراد أن يدخل الجنة : فكتاب الله . .

هل كان ذلك هو السبب فى أننى اتجهت إلى الغناء ؟ .. ليس من الناس أحد لم يغن لنفسه . وكنت أغنى لنفسى . حتى عندما كنت أتسلل إلى الأفراح لم يكن أحد يسمعنى . وحتى عندما كنت أدق أبواب البيوت المجاورة أسأل عن مقعد ، وكانوا يعطوننى لكى أجلس عليه ، لم يكن يسمعنى إلا زميل للدراسة كان يمسك هو الآخر عودا . . نحن فقط المطرب والمستمع . أما بقية الناس فلا يدرون بنا . ولكن شعورا عميقا لا زمنى ، وهو أن أبى جميل الصوت وكذلك خالى وإحدى خالاتى . ثم إننى استمعت إلى نفسى كثيرا . وتأكد لى أن صوتى جميل . هذا ما أقوله لنفسى ، ويقوله كل إنسان عن نفسه أيضا . ولكن صديقا لا أشك فى شجاعته قال لى : صوتك جميل جدا . هل كان ذلك هو السبب الوحيد الذى ربطنى به وإليه فى جمعية « المفكرين الأحرار » ؟ ربما كان أحد الأسباب . .

وكنت فى ذلك الوقت أغنى لمحمد عبد الوهاب . وكانت أحب أغانيه هى : خايف أقول اللى ف قلبى . . وأحدث أغانيه : انت وعذولى وزمانى . .

ولا أظن أن أغنية « خايف » كانت أحسن ألحان محمد عبد الوهاب . إنما كانت أقربها تعبيرا عن حالة نفسية – سوف أعود إلى تأصيلها فيما بعد . . وكنت أغنى : من زيك عندى يا خضرة . . وأغنى : يا جارة الوادى . . وأنا أنطونيو وأنطونيو أنا . . هذه هى كل أغنيات عبد الوهاب التى حفظتها وغنيتها فى ذلك الوقت ولم يكن أحد يسمعنى . ولكنى ظللت أغنى . والذى يدهشنى حقا هو أننى إنسان خجول جدا . وأهرب من مواجهة المجتمع . ولا أقوى على ذلك . ومن الغريب حقا أن أعمل بعد ذلك فى مواجهة الناس بالرأى أو بالمحاضرة فى الجامعة ، ولكن لا أظن أنها شجاعة أدبية . . ولكن فقط كنت أغمض عينى وأقول : متحدثا أو محاضرا أو مطربا . . كنت أضع على العالم حولى ستارا من الظلام ، وأقنع نفسى بأن أحدا ليس هناك . وعندما تخلو الدنيا من الناس ، أتصرف على هواى – كانت هذه المغالطة الساذجة هى المغالطة اليومية لكثير من تصرفاتى !

وعلى الرغم من أننى لم أكن جادا فى اتجاهى إلى الغناء ، فإن هذه الرغبة بقيت تروح وتجىء . تظهر وتختفى . ولكنها هناك فى أعماق . هل هى جريمة لم أكفر عنها ، فأنا أبحث عن عقوبة تخلصنى من عذاب الضمير؟ هل أنا كالذى وضع رجله على رأس ثعبان ، ثم تعبت رجلى فرفعتها فقفز الثعبان يهددنى ؟ هل هو من ذلك النوع من الثعابين التى تلتف حول الإنسان فتعصره وتتركه بعد ذلك دون أن تنال منه شيئا ؟ هل هذه الرغبة أحد جبال الجليد التى ظهر جزء منها على سطح الماء .. أما الباقى فتحت الماء ، فلايكاد يصطدم به أحد حتى يخرج كله من تحت الماء شيطانا جهنميا ؟ هل هى نوع من الأسماك الوحشية التى يجب أن أخرجها من الماء حتى تموت وأستريح ؟

فى الخمسينات كانت لنا فرقة مضحكة فى « أخبار اليوم » اسمها : فرقة البلابل .. ومن بين أعضاء هذه الفرقة عبد الحليم حافظ .. لم يكن معروفا . ولم نكن نجد فيه تفوقا علينا . إنه هو الآخر يغنى . ونحن كذلك . وكنا نغنى لعبد الوهاب ، وغيرى يغنى لأم كلثوم . ولا أعرف كيف قفزت فكرة أن نذهب إلى الأستاذ محمد عبد الوهاب لكى يسمع صوتى ، فإذا أعجبه تفرغت للغناء . أى تركت الصحافة والتدريس فى الجامعة معا . وكانت فكرة عبد الحليم حافظ . وذهبنا معا إلى الأستاذ محمد عبد الوهاب فى مكتبه . وهناك كان عبد الوهاب .. ولا تسعفنى المعانى لكى أصف لك شعورى أمام محمد عبد الوهاب .. إنه ذلك الكائن النورانى الملائكى الرقيق .. حتى كلامه غناء . حتى حركاته موسيقى . ليس كالناس فى شىء . إنه فريد . إنه محمد عبد الوهاب . وأمامه على الأرض جلست فتاة ريفية تغنى : عاشق الروح ..

وهو يصاحبها على العود . ولم يكن صوتها جميلا . كان صوت عبد الحليم حافظ الذى يلاحقها أجمل وأروع . وقال لها الأستاذ محمد عبد الوهاب : الله .. ياثلام – يقصد ياسلام – الله .. قومى وابقى هاتى معك بعض الفطير المشلتت ولا تنسى الجبنة القديمة وعسل النحل ! !

وكانت لحظة صحو : أى أننى صحوت على حقيقة مفزعة . ومن النادر أن يحدث لى ذلك .. فأنا أتزحلق على الحياة ، ولا أتوقف عند شىء . ولا أتشبث بشىء . وقد أخرجت للدنيا جيوبى حتى لاتضع فيها شيئا . فأنا لاأريد شيئا . تماما كما كان أبى ، مما أحزن أمى عليه ، وعلى مستقبلى من بعده .. وصحوت أقول لنفسى : صوتها قبيح . ويقول لها : الله .. إذن فلو سمع صوتى وقال لى : الله .. فأنا مثلها ..

وعرفت فيما بعد أن الأستاذ محمد عبد الوهاب هو من أئمة المجاملين ، إن لم يكن إمامهم !

وانتهت رغبتى فى أن أكون مطربا . وروى الأستاذ محمد عبد الوهاب هذه الحادثة فى التليفزيون .

وقال عنى مجاملاً : كان من الممكن أن يكسب الشرق مطربا عظيما لو أنه تفرغ للغناء ! !

وكان آخر عهدى بالغناء سرا فى أوائل سنة ١٩٦٠ ، وكنت رئيسا لتحرير مجلة « الجيل » وكنت

مدرسا فى الجامعة أيضا . فقد قررت أن أغنى لآخر مرة . وأتأكد ولو مرة واحدة ، إن كان صوتى جميلا أو أنه وهم طويل عشت فيه .. هل يدفننى هذا الوهم ، أو أدفنه أنا ؟ إما أن يكون مقبرتى أو أكون !

كان الفرح الذى ذهبت إليه فى شارع قصر العينى . صاحب الفرح شاب هو الآن وكيل وزارة ، ويتندر دائما بأننى غنيت فى فرحه .. ذهبت بالجلباب والجاكتة ، وصاحبنى صديق هو الآن رئيس إحدى المحاكم . وكان الفرح فوق السطوح . واتفقنا على خطة . . هو يصعد إلى السطوح ليعرف « الجو » ، وليعرف إن كان هناك مقعدان من الممكن أن نجلس عليهما .. وانتظرته أمام الباب فى الشارع . وكنت أرى الضيوف . ماالذى كنت أراه ؟ كنت أتساءل : هل سيرفضون السماع لصوتى ؟ هل من الممكن أن تتحول هذه الوجوه المرحة السعيدة إلى وجوه قاسية تقذف بى من فوق السطوح ؟ هل من الممكن ألا يضحك الناس لهذه المحاولة ؟ أفزعنى جدا أن يضحك الناس . أليس من هؤلاء الضيوف أب طيب أو أم حنون ؟ هل نقول لهم : إننا طلبة نكسب عيشنا بالغناء والموسيقى ؟ هل نقول لهم إننا مطرب وموسيقى على باب الله وإننا لانتقاضى أجرا ؟ هل نقول لهم : إننا أصدقاء البواب أو الطباخ ؟

لا أعرف كم مضى من الوقت عندما رأيت زميلى قد هبط ليقول لى ، وقد مط شفتيه بامعناه : تعال والسلام !

أى فلنصعد معا ، ونغن .. وأمرنا لله . وطلبت منه أن يوضح لى أكثر . فقال : الناس جالسون كأنهم فى مأتم !

فقلت : مارأيك ؟ .. هل ترى أن أقرأ لهم قرآنا ؟ أنت تعرف أننى أحفظ القرآن . وأننى رتلت القرآن كثيرا . وأننى أذنت للصلاة .. وأننى ...

وكان رد زميلى : قلت لك إنه فرح وليس مأتما . ولكنهم جالسون فى صمت كأنهم فى مأتم !

هل أشفق صديقى على حالتى ؟ .. ولكننا صعدنا . ووجدنا مقعدا . وسمعته يقول : المطرب الجامعى والشاعر الكبير.. ابن المنصورة ..

وكان التصفيق حادا . فقد كان أهل العروسين من المنصورة .. وأحسست كأننى وقعت فى مطب .. إنهم يسخرون منى .. وانتقلت الصفافير من أذنى إلى نيران فى عينى . . إلى أمطار غزيرة على جبهتى ، وتذكرت أعظم تعبير فى تاريخ الشعر العربى . . إن نفسى « طارت شعاعا » . . أى تحولت من مادة إلى طاقة . . إلى لا شىء . . إلى عدم . . وتذكرت ماأصاب الشاعر الفرنسى غليوم أبولولونير.. فقد كان مريضا فى بيته ، عندما سمع الجماهير تهتف : يسقط غليوم .. يسقط غليوم !

وظن الشاعر أنهم يهتفون بسقوطه بسبب ديوانه اللامعقول الذى صدر أخيرا . ومات الشاعر من

الفزع وهو لايعرف أنهم يهتفون بسقوط الإمبراطور غليوم الألمانى ، لأن ألمانيا أعلنت الحرب العالمية الأولى على فرنسا !

وتذكرت مدام كورى التى أحبت أحد العلماء وخطفته من زوجته .. وتحدثت باريس كلها عن هذه الفضيحة الأخلاقية لواحدة من كبار العلماء .. وقامت المظاهرات تهتف بسقوطها : إلى الأرض ياماري . . الى الوحل ياماري خاطفة الأزواج .. المرأة الأفعى التى تسللت إلى سرير الزوج وقتلت زوجته ..

فى هذه اللحظة كان الباب يدق بعنف .. لابد أنها الجماهير تريد الفتك بها . وسقطت مدام مارى كورى على الأرض .. وتكاثر الجيران وفتحوا الباب لكى يهنئوها بأنها فازت بجائزة نوبل فى الفيزياء !

وكلما حاولوا أن ينهضوها من الأرض ، كانت ترفض وتقول : لاأريد أن أرى أحدًا .. اخرجوا !

هل سقطت أنا من فوق المقعد ؟ هل غبت عن الوعى جالسًا أو واقفًا ؟

ونزلت إلى الطريق العام . وكان الهواء باردا . وكان زميلى يهزنى أثناء السير . وأقسم لى أننى كنت رائعا . وأنهم لم يصفقوا لى لأننى من المنصورة . ولكن لأن صوتى جميل حقا . ولكن مع الأسف لم أدرك شيئا من ذلك .. فقد كنت فى غيبوبة : من الخوف والقلق والخجل والإصرار رغم ذلك على أن أسمع واحدا يقول : الله . وليس على طريقة الأستاذ عبد الوهاب . ولم أسمعها !

فهل كنت حقا أريد أن أكون مطربا ؟

لا أظن ذلك ، إنما أنا تعلقت بالكلام الجميل ، أحفظه وأردده وأسمعه وأطلب منه المزيد . لقد ارتبطت بالكلام . وارتبطت بالورق والقلم . ووجدت الكتب فى كل مكان . هل كانت حقا فى كل مكان ، أو أننى لم أكن أرى غيرها . أعتقد أننى مثل سوسة الخشب ، لم تكن تجد إلا الخشب ، تولد فيه وتعيش وتموت .. إننى مثل دودة القطن ، لاتجد إلا سيقانه وأوراقه حياة وموتا .. لم أكن إلا سمكة فى ماء ، فيه تتنفس ، وفيه تولد وفيه تموت ..

وقد أحسست بهذه المعانى أكثر عندما ترددت على « جمعية الإخوان المسلمين » .. وعندما اشتغلت بالتدريس فى الجامعة .. لقد كنت أتحدث دائما . لم أكن أتحدث إلى أحد . إنما كنت أوضح نفسى لنفسى . فأنا أريد أن أكون قادرا على التعبير السهل . وكنت أجد أن محمد عبد الوهاب هو صاحب أسهل وأجمل عبارة موسيقية ، وكنت أتمنى لو كنت كذلك .. أو كنت قادرا على أن أفعل فى الفلسفة والأدب ، مافعله محمد عبد الوهاب فى الموسيقى والغناء .. وكنت فى الندوات الدينية أتحدث مستعينا بالشعر والقصة والنكتة والآيات القرآنية .. لم أكن أتحدث لأحد . فأنا لاأقوى على مواجهة الناس ، إنما كنت أتحدث مع نفسى أمام الناس . وكثيرا ماكنت أتحدث مع نفسى فى غرفة

مظلمة بصوت مرتفع ، متخيلا ماسوف أقوله . كنت أحفظه كلمة كلمة حتى لاأتلعثم . وفى الجامعة كانت محاضراتى فى الفلسفة أقرب إلى الأدب . وكانت محاضراتى عن قضايا ماوراء الطبيعة ، كأنها حكايات عن عالم الطبيعة والواقع .. كان مثلى الأعلى : أن أرى الأفكار .. أن أجعلها ملموسة .. أن أجعل كل فكرة « شيئا » تراه العين وتلمسه الأصابع .. ولذلك كنت أسرف فى استخدام كلمة « كأن » كثيرًا جدًا .

فأنا أحاول أن أجعل المعانى المجردة كالأشياء الملموسة .. كنت أحسد بنات « الجرجون » فى الأساطير الإغريقية ، اللاتى إذا لمسن شيئا تحول إلى حجر : المخاوف تصبح تماثيل حجرية . وكذلك السعادة والأمل واليأس .. وكنت أجد أن أصدق عبارة هى التى قالها ميكلونجلو عندما وصف براعته فى نحت التماثيل : إننى لاأصنع تمثالا .. إننى أنقب عنه فى الحجر .. إنه هناك . وأنا أكشف عنه الغطاء فقط !

أما أنا فكنت أريده أولا أن يكون حجرا ، ثم أفتش عنه بعد ذلك ..

وقد حاولت أن أتعلم العزف على أية آلة موسيقية ، فلم أفلح .. فلو كنت جادا فى أن أكون مطربا أو موسيقيًا لبرعت فى دراسة الموسيقى أو الغناء .. ولكنى لم أفعل . ولم أحاول ولم أندم . فقد كان أملى كله فى أن أجد المعنى الجميل والزى الجميل لهذه المعانى .

ولذلك فقد وصفت أسلوبى فى واحد من كتبى بعد ذلك ، بأن عبارتى « محزقة » أى أن ألفاظى مثل فستان يضغط على المعنى فيكشف مفاتنه ، أو يغطى عيوبه !

واستمرت هذا المعنى كثيرا . فكنت أقول : إن الأفكار مثل الأقمشة ، والأسلوب مثل التفصيل . والقماش فى متناول جميع الخياطين ، ولكن الخلاف بينهم فى تفصيل الزى المناسب ..

وبلغ من حماستى للدراسة فى الجامعة ، أننى نسيت أن أتقاضى مرتبى سنتين . ولم أتذكر ذلك إلا بعد خمسة عشر عاما . فعندما كنت مدرسا فى الجامعة كنت كاتبا أيضا . بل كنت كاتبا دائما . فأنا لاأتحدث إنما أتخيل أننى أكتب . وكثيرا ماأخجلنى أن يفضح الناس أمرى ، عندما يلاحظون أننى وأنا أتحدث إليهم أكون سارحا كأننى لاأخاطبهم ، إنما كأننى أتحدث إلى آخرين .. أو إلى نفسى . كأننى أكتب ..

* * *

وفى يوم من الأيام وأنا أتمشى فى شارع النيل فى المنصورة . وكنا نلتقى عند المكتبة العامة . وكان اسمها فى ذلك الوقت « المكتبة الفاروقية » نسبة إلى الملك فاروق . المكتبة لها سلالم . وكانت السلالم هى المكان الذى نلتقى عنده . وكنا نتباهى فى ذلك الوقت : من الذى قرأ أكثر من الكتب . وكنا ندعى جميعا ، ونحن صادقون ، أننا قرأنا كل الكتب الأدبية .. وأضفت أنا كلمة : والفلسفية ..

فى ذلك الوقت كانت عندنا مسابقة للفلسفة – هذه المسابقة لطلبة التوجيهية . ودخلت مسابقة الفلسفة ، وجاء ترتيبى الأول فى مصر .

ولكن قبل ذلك وجدت كتابا فى هذه المكتبة هو أيضا نقطة تحول نهائية . فبعد هذا الكتاب وبسببه ، أو بسبب استعدادى ومزاجى النفسى والعقلى والاجتماعى ، تحدد تماما أننى سوف أدرس الفلسفة . الكتاب اسمه « قصة الفلسفة اليونانية » تأليف الأستاذين أحمد أمين وزكى نجيب محمود . وعرفت فيما بعد من الأستاذ زكى نجيب محمود أنه هو الذى كتبه ، وأن الأستاذ أحمد أمين لم يكتب فيه حرفا واحدا . ولكن كانت الوسيلة الوحيدة لنشر هذا الكتاب هو أن يوضع اسم الأستاذ أحمد أمين ، لأنه هو صاحب المطبعة والناشر وصاحب مجلة « الثقافة » ..

فهذا الكتاب مختلف تماما عن كل كتاب قرأته عن الفلسفة اليونانية بعد ذلك . ولم تكن الكتب التى قرأتها كثيرة . إنها لم تتعد الكتاب المقرر علينا ، وكتابا آخر من تأليف الأستاذ يوسف كرم ، وبعض المقالات فى المجلات ، وبعض الكتب فى علم الكلام والتصوف ..

ولكن الكتاب مختلف فى كل شىء : ابتداء من الغلاف الأزرق إلى الصور والورق المصقول المتشابك بعضه فى بعض . والذى يجب أن أفصله بالسكين . ولكن الذى بهرنى هو الشىء الذى أبحث عنه : سهولة العبارة . الوضوح . الجمال . البساطة . الإقناع . لاأعرف كيف أصف فرحتى بهذا الكتاب . ولاكيف اكتشفت أن هناك أناسا آخرين غير الأستاذ العقاد عندهم هذه القدرة المتواضعة على الجمال والإقناع . وعرفت فيما بعد أن الكتاب قد اعتمد فى الدرجة الأولى على كتاب آخر هو « قصة الفلسفة » للكاتب الأمريكى ول ديورانت . وهو أقدر مؤلفى التاريخ الأدبى والفلسفى على التبسيط الجميل . بل لم أجد أحدا أروع منه .

وإذا كان الذى كتبه الأستاذ يوسف كرم فلسفة ، فإن الذى كتبه الأستاذ زكى نجيب محمود هو الأدب الفلسفى . أو هو تأديب الفلسفة . أى أنه من الممكن أن يكون الإنسان فيلسوفا وأديبا فى نفس الوقت . بل إن كل صاحب أدب هو صاحب فلسفة . وليس العكس . فليس أرسطو العظيم أديبا . إنما هو فيلسوف وله نظريات فى الأدب والنقد . ولكنه ليس جميل العبارة مثل أستاذه أفلاطون . ولابارع الحوار مثل أستاذهما سقراط ..

ولكن هل الذى وجدته فى كتاب الأستاذ زكى نجيب محمود هو بالضبط ماأريد ؟ لقد وجدتها – أى وجدت نفسى !

ولكن لاشىء يفسد أى كتاب مهما كان ممتعا إلا أن يكون مقررا عليك . أى إلا أن تجد نفسك مرغما على قراءته وعلى حفظه .. وهنا يكون الجمال قبحا ، وتكون العبارة السلسة سلاسل تقيد خيالك وتفسد عليك الدنيا .. لقد انبهرت بهذا الكتاب . ولكن لم أجد متعتى الحقيقية إلا بعد أن ذهبت إلى

الجامعة ، وإلا بعد أن اشتريت نسخة نظيفة ، وإلا بعد أن تفرغت تماما لقراءته فى جلسة واحدة ، تحت شجرة فى حديقة الأسماك بالزمالك ..

وبعد ذلك قرأت الجزءين الآخرين لكتاب : قصة الفلسفة الحديثة . وبهذه الأجزاء الثلاثة ، اكتملت متعتى . وتمت فرحتى . ووقفت أنظر ورائى فى سخط . فقد أحسست أننى تحيرت كثيرا . وضللت طويلا . وتوهمت أنه كان من الممكن أن أكون واحدا من رجال الدين . أوكان من الممكن أن أكون مهندسا زراعيا ، لأن أبى كان زراعيا ولم يكن مهندسا . أوكان من الممكن أن أتجه إلى الطب لعلى أداوى أبى وأمى . ولعلى أكسب مثل الذى يكسبه الأطباء من زيارة المرضى ، دون أن يكون هناك شفاء لأحد .. ولا كان صحيحا أننى كنت أصلح أن أكون من رجال الشرطة . فقد اكتشف أحد أقاربى أن تصرفاتى تدل على ذلك . فأنا اعترض السيارات فى الطريق العام وأسجل أرقامها وأقول : شفروليه .. فورد .. كاديلاك .

وكنت فوق العاشرة بقليل . لأن « الديك الفصيح فى البيضة بصيح » . وقد رأى قريبى هذا أن كل شىء يفصح عن أننى سوف أكون من رجال المرور أو من رجال الأمن .. ولم يكن ذلك هو السبب الحقيقى . إنما السبب هو أننى لاأعرف مااللذى أفعله .. ولاأعرف كيف أبدو هاما . أو أبدو عارفا . أوكيف أقوم بمعادلة صعبة فى داخلى . فقد كنت أذهب إلى المدرسة على قدمى . وكانت المسافة طويلة .. ولذلك كنت أغالب هذا العجز المادى ، بنوع من التسامى المعنوى .. فأقف كأنى عسكرى مرور . وكأن هذه السيارات ليست إلا ماركات وأرقاما . وليست أكثر من ذلك . وكلها مرصودة عندى فى كتاب .. وكان رجال المرور فى بعض الأحيان يتركون لى هذه المهمة فأسجل فى دفاترهم أرقام السيارات .. ولا كان من الممكن أن أصبح شابا رياضيا ، فقد تفوقت فى كل الألعاب الرياضية فى المدرسة . فكنت كابتن المدرسة وكنت الأول فى الفصل .. أى « أول » المدرسة .. لم أكن أصلح ان أكون واحدًا من هؤلاء .. لماذا ؟

لأننى كنت أتجه فى كل ناحية بنفس الحماسة . ولم أعرف لى اتجاها واضحا . وإن كان من المؤكد أن علاقة ماسوف تربطنى بالكتابة . وقد قضت أمى على كل محاولة من أبى لكى أقوم بأى عمل نافع غير الدراسة . ولاأعرف مااللذى دفع والدتى وهى سيدة أمية ، إلى أن تصر على ذلك . فقد كانت ترى أن المثل الأعلى فى أسرتنا هو إبراهيم باشا عبد الهادى . ولابد لجميع أفراد الأسرة ، والناس أيضا ، أن يكونوا مثله . وكنت أسمع اسمه كثيرا . ولاأعرف مااللذى يجب على أن أفعله .. ولكنه إبراهيم عبد الهادى وأسرة عبد الهادى المليجى والزهيرى والباز وأبو سمرة والعقدة وعبد المحسن .. فلا كانت تعرف بالضبط مااللذى يجب أن أعمله ولا أنا .. ولكن من المؤكد لديها أن كل شىء سوف يتحقق عن طريق التعليم ..

ويوم جاءت أمي تبحث عنى وأنا طفل أحفظ القرآن فى كتاب القرية . وكان الكتاب لابن خالتها . فوجدت أنه قد كلفنى بإطعام الدجاج ، بينا الصغار جميعا يحفظون القرآن ويكتبون الواجبات فى كراساتهم ، يومها غضبت أمي وثارت ، وضربتنى أمام كل الأطفال : لأننى لم أخبرها بأن ابن خالتها يضيع وقتى ومستقبلى هكذا ..

ولم أكن أعرف أنه من الواجب أن أقول لها : إننى أكنس البيت وأغسل الأطباق وأذهب إلى الحقل وراء الحمير التى تنقل السباخ . ومنذ ذلك الوقت ، وأمي تهتم بصورة غامضة بمستقبلى دون بقية إخوتى . لماذا ؟ لاأعرف . ولاأعرف أيضا لماذا كانت تصر على أننى ابنها الوحيد .. وأنه لاأمل فى أحد من أولادها .. أنا فقط ؟!

لم يبق إلا كتاب واحد من مئات الكتب التى تمسحت بها عيناى فى ذلك الوقت . إنه بعنوان « مطالعات فى الأدب والتاريخ والاجتماع » للأستاذ عباس محمود العقاد ، ولايزال الكتاب عندى كما هو بأوراقه الممزقة وجلدته القديمة ، وبخط والدى يرحمه الله . أما جلدة الكتاب فهى من كراسة رسم قديمة مكتوب عليها السنة المكتبية سنة ١٩٤١ - ١٩٤٢ . وهذا هو أول كتاب للأستاذ العقاد أقرؤه . وقرأته كثيرا وطويلا . فليس أدبا وفلسفة وتاريخا واجتماعا ، إنه دنيا جديدة . إنه دائرة معارف . إنه مجموعة من النوافذ انفتحت فى رأسى ليدخل منها هواء جديد . أوكسجين .. إننى كالذى هبط بمظلة واقية على كوكب آخر . وكان هذا الكتاب مثل كتب إرشاد السائحين إلى كل المعالم الأثرية والتاريخية . فمع الأستاذ العقاد لاتتعب ولاتضل . فهو يعرف كل شيء . وهو قادر على أن يعطيك « مفتاحا » صغيرا لأكبر القصور والمتاحف . ولم أجد بين كل الذين قرأت لهم رجلا يفوقه فى مقدرته على صناعة المفاتيح . وكلمة « مفتاح الشخصية » و « مفتاح الموقف » و « مفتاح الهداية » و « مفتاح الكون » من أحب الكلمات عند الأستاذ . وهو لايتهيب أحدا أو شيئا . إنه يقبل عليه . ويجلس إليه ويحاوره . وبسرعة يضع يده فى جيبه ويجد المفتاح الصغير الذى يشبه عبارة : افتح ياسمسم فى ألف ليلة وليلة . فلا تكاد هذه العبارة تقال حتى تنفتح الجبال .. وتتكشف الكنوز .

وفى كتب الأستاذ العقاد كلها تتناثر هذه المفاتيح ، دليلا على قدرته الهائلة على فك الطلاسم النفسية والعقلية . وقد لاتعجبك بعض المفاتيح ، ولكن من المؤكد أن الأستاذ قد تعب فى تكوينها وتشكيلها . ولكنه لايمن عليك إذا قدمها لك . ولايعرض عليك كيف تعب فى الاهتداء إلى المداخل الخفية للمذاهب الفلسفية والأدبية ..

مثلا .. الأستاذ العقاد عندما أراد أن يلخص كل حياة المرأة فى كل وقت وفى كل العصور قدم لنا هذا المفتاح : إن المرأة حيوان يتجمل ويتعرض وينتظر !

انتهى تكوين مفتاح شخصية المرأة . فهى حيوان كالرجل ، وهى تضع الأبيض والأحمر من وسائل الزينة والأزياء ، ثم تعرض كل ذلك على الرجال . وتنتظر ماالذى سوف يفعلونه !

هل يمكن أن يوصف كتاب الأستاذ هذا بأنه مغامرات عقلية ؟ نعم . فالفكر كله مغامرة ، أى اقتحام لشيء جديد جرى وراء المجهول . ففيه الخطر والانتصار والاستطلاع والمتعة . والذى لايخاطر فإنه يمشى فى طريق قديم . والذى لايمشى فى طريق جديد ، فإنه يكرر غيره . وليس التكرار فى الفكر إلا موتا له .. ولذلك فهذا الكتاب للأستاذ كان أكبر مغامرة فكرية صادفتنى . فى هذا الكتاب يتحدث عن أشياء غريبة تبدو متناقضة ولكنها ليست كذلك .. فهو يقول : إن الجمال هو الحرية . ولكنها حرية لها قيود . والدنيا هى الروح ولكن لكى تلمسها فلابد أن يكون ذلك عن طريق المادة . ويقول الأستاذ : إننى لست فى حاجة إلى أن يتكلم الناس عن عالم الروح أو الأرواح ، لأن فى الكون المادى روحانية كافية . والويل لهذه الدنيا كلها إذا لم يجد الناس فيها روحانية إلا عن طريق تحضير الأرواح !!

والعالم كله – فى رأى العقاد – مادة وروح لاتنفصلان .. فلا هو روحى مطلق ، ولاهو مادى جامد ..

شيء عجيب . وفكر غريب . وخبطات على الرأس ، وفتح لطاقات القدر فى كل اتجاه ، وفيوض من النور . وأسلحة حادة لامعة يستخدمها العقاد فى عملياته الفكرية : الجراحية والتشريحية والتجميلية ببراعة ورشاقة .

وكنت فى ذلك الوقت أكتب مذكراتى . أو ماأسميه مذكرات . فلا أعرف إلى من كنت أكتب ولا عن أى شيء .. إنما أجد الورق والقلم . وأكتب . وأتخيل أناسا حاورتهم وأناسا عاتبتهم . وأتوهم مشاكل نفسية وعقلية ، وأناقشها وأرد بها على نفسى . لم يكن ماأكتبه سوى محاورات أو تأملات أو انطباعات . وكنت جادا وحزينا ويائسا . وكنت مندهشا لأشياء كثيرة فى الحياة . وكنت أستخدم عبارات ضخمة مثل : ماأعجب الناس ! وماأتعس الناس وأشقانى بهم !

ولم أكن أعرف الكثير من الناس ولا الكثير من الدنيا . ولكن فى مثل هذه السن تكون العبارات ضخمة واللغة خطابية .. ويكون الشعور بالوحدة مقلوبا ، فبدلا من أن يشعر الإنسان أنه هو الذى انطوى وانزوى ، فإنه يخيل إليه أن الناس هم الذين دفعوه إلى ذلك .. فهو بالقوة قد انطوى وانعزل . مع أنه هو الذى اختار ذلك . أو وجد نفسه كذلك .

ولا أذكر أننى وجدت كلمة « حب » فى كل هذه المذكرات .. أو كلمة « فتاة » ، إنما وجدت كلمات ضخمة مثل : الله ، والقضاء والقدر .. والظلم .. والتاريخ .. ولو كان الأمر بيدى ؟!

ولم يكن كتاب الأستاذ هذا إلا الخطوة الأولى فى الطريق الذى طوله عشرون عاما انتهت يوم مات العقاد . ولكن مثل الأستاذ العقاد لايختفى يوم يموت . . فهو مثل الأنهار العظمى يظهر عشرين عاما ويختفى تحت الأرض عشرين أخرى ، ليفيض على سطح الأرض مئات السنين .

وكتب أخرى جعلت قلبى يقفز إلى ما فوق كتفى .. فأصبح قلبى يدق فى رأسى ! .

الأبطال صناعتهم التاريخ !

كأنى مشدود بخيط من المطاط إلى الأستاذ العقاد ، إذا ابتعدت عنه أو باعدت نفسى ، فإننى أرتد إليه بقوة .. كأنه هو جزيرة المغناطيس التى جاءت فى ألف ليلة وليلة ، ونحن ندور حوله تقاوم أن تنسحب منا المسامير والقوائم الحديدية ، فلا تبقى منا إلا ألواح خشبية .. كأن الاستاذ العقاد هو خط جرينتش ، ونحن نقع شرقا منه أو غربا .. أو كأنه مستوى سطح البحر ، ونحن فوق ذلك أو دون ذلك .. كأنه الغطاء الذهبي لكل مالدينا من عملات ورقية .. وكلها من ورق ، وهو وحده الذهب والفضة والماس .. كأننا أكوام من الأشياء التى لاوزن معروفا لها .. وهو الكيلوجرام الحديد ، وجرام الذهب ، وقيراط الماس .. كأنه أبونا آدم ونحن أولاده وأحفاده .. فمها اقتربنا منه أو ابتعدنا عنه فنحن آدميون ..

وأنا عندما أتحدث عنه ، وعنى ، فإننى أبدأ به .. بما قاله وأسحبه على كل حياتى ، أو أصف ماجرى لى وماجار على ، ثم أعود إليه أستعير مصباح علاء الدين ، وعصا موسى ، وبساط الريح ، وخاتم سليمان .. فلم يكن لنا منار سواه ، نهتدى به فى بحار الحياة الثقافية والتربوية والدينية والفلسفية ، وأحيانا السلوكية ، وإن كان هناك كثيرون سواه فإنه الأكبر . لماذا ؟ لاأدعى أن كل هذه المعانى كانت واضحة تماما فى رأسى . إنما كل ماكان عندى ، وأنا طالب فى المدرسة الثانوية ، هو إحساسى بعظمته .. فهل كان فعلا هو إحساسى بعظمته ، أو هو احتياجى إلى العظمة أقف على مقربة منها .. أو هو احتياجى للأب والأم والمدرس والمرشد والصديق ؟

ربما كان ذلك هو المعنى .. فلم يكن بيتنا إلا جدرانا باردة من اللامبالاة .. أو باردة لأنها غرف ومقاعد من اللامبالاة .. وقد اكتشفت فى يوم من الأيام حقيقة حياتى كلها ولسنوات طويلة ، وهى أننى أقيم فى كوخ ضيق بارد فى داخل بيتنا .. فأنا فى الطريق إلى البيت أتفادى الطريق العام . أهو الخجل ؟ أهو الشعور بأن ملابسى ليست كما يجب ؟ فقد حدث مرة أن اخترت حذاء أكبر إخوتى . أعجبنى . وضعته فى قدمى . نزعته فى الطريق عندما سخر منى زملائى . فقد كان كبيرا جدا . ولكنى لم أتنبه إلى أنه من الممكن أن يخرج من قدمى . وقد حدث ذلك مرة واحدة . ولكن هذه المرة لا أنساها ماحييت . وعندما رأيت غرفة نوم الأستاذ العقاد فى أيامه الأخيرة ، بهرنى هذا العدد الهائل من

الأحذية .. وعندما خرجت أصابع الأستاذ من تحت الغطاء وجدت أنها أصغر كثيرًا من أحذيته ..

إذن لقد كان يرتدى أحذية كبيرة لتريح أصابعه . ولكن لا أظن أنها كانت تنخلع عند المشى .. وعندما رأيت بيت الأديب الأمريكى همنجواى فى مدينة هافانا بكوبا . وجدت عشرات من الأحذية أيضا . والغريب أن الرجلين وضعاها فى غرفة النوم . وليس أمام الغرفة .. ربما كان السبب أن هذه الأحذية لكثرتها واتساعها ، لاتخرج منها روائح العرق بسبب السير الطويل ،ولذلك فلا ضرر إذا تركت فى غرفة النوم ..

إذن فلابد أن أكون إنسانا شديد الحساسية . إذ يكفى أن يقع لى حادث واحد فإننى لا أنساه . لم أنس سنوات طويلة ماحدث لى من سخرية زملائى عندما انخلع حذائى من قدمى . وقد تغيرت الأحذية وتلونت وطالت وقصرت . ولكن حادث الحذاء مازال خطرًا يهدد كل أحذيتى .. لقد ظللت أتوهم ذلك . ولم أجرؤ بعدها أن أمشى فى الشوارع العامة ، ومع زملائى من التلامذة .

إننى أنا الذى أفضل أن أكون وحيدا . ولذلك اخترت الشوارع الضيقة . والحارات النائية . وعندما أعود إلى البيت . كانت غرفتى التى بها مكتبى ، إلى جوار الباب . فإذا انفتح الباب اتجهت إلى غرفتى . والمكتب فى منتصف الحجرة . لأن الجدران باردة . والرطوبة تصل من الأرض إلى السقف . كأن الجدران سد تقف وراءه المياه . أما الجير الذى يهبط من السقف فهو مثل قطع الجليد . وكان لابد أن ألف حصيرا حول مقعدى . لكى يعزلنى عن الجدران . وأن أضع رأسى فى طاقية سميكة . وكذلك قدماى . وأظل أنكمش وأقرب رأسى من المصباح الغازى الذى يضىء ويدفىء فى نفس الوقت .. إننى إذن أقيم فى كوخ فى داخل البيت . أما بقية البيت فنائم . وإن كنت أسمع أمى تسعل . وأبى أيضا . أما إخوتى فنائمون ..

وتغيرت البيوت واتسعت الجدران وارتفع الطابق الذى أسكن فيه . ولكن هذا الكوخ حملته معى فى كل مكان .. تغيرت الحصيرة وتحولت إلى جدران خشبية متينة ، ولكنى حملت عزلتى معى . وأحيانا أحس أننى مثل القواقع ، وأحيانا مثل القنفذ . وأحيانا مثل أهل الإسكيمو .. وربما تبقى من هذه العادة القديمة أننى ماأزال أضع على نفسى أغطية ثقيلة صيفا وشتاء . هل هو الشعور بالبرودة حتى فى الصيف ؟ لاأظن ذلك .. ولكنه نفس الشعور القديم : أننى أحمل كوخى .. أحمل خيمتى .. وأنصبها فى مهب الريح .. سواء كانت هذه الريح حقيقة أو وهما ، فهناك رياح دائماً ، أو يجب أن تكون . لكى أضع هذه الأغطية ..

وعندما ذهبت فيما بعد إلى بلاد اليابان ، وزرت جزيرة ميكوموتو ذلك الرجل الذى ابتكر اللؤلؤ الصناعى أو اللؤلؤ المزروع . ورأيتهم يخرجون اللؤلؤ من قاع المحيط ، قلت دون أن أدرى : يا أنا .. ا فحيوان اللؤلؤ يعيش وراء جدران القوقعة . وهذه القوقعة تتعلق فى ماء المحيط .. ويفتحها الحيوان

قليلا ليتغذى . فتدخل مع الغذاء ذرات من الرمل . فإذا دخلت التصقت بلحمه الناعم الرقيق فتوجعه .. ولذلك فإنه يفرز مادة بيضاء عازلة .. وهذه المادة يلفها حول ذرة الرمل ليعزلها عن جسمه .. ويظل يعزلها يوما بعد يوم وسنة بعد سنة حتى تتخذ هذه الذرة شكل اللؤلؤة .. فليست حبات اللؤلؤ إلا دموعا لحيوان عاش هادئا معلقا فى المحيط .. إنه فنان انطوى . انزوى وبكى فنا .. فحبات اللؤلؤ دموع لامعة .

أما هذا الرجل اليابانى ميكوموتو فقد قام بتقصير فترات البكاء على هؤلاء الفنانين .. فأخرج القواقع من المحيط .. وبدلا من أن يضع ذرة رمل ، فإنه وضع حبة صغيرة من مادة المحار .. هذه الحبة فى حجم الحمصة الصغيرة . فإذا اقتربت من جسم الحيوان الرقيق ، راح يعزلها عن جسمه .. واستمرت عملية العزل الفنية الرائعة عاما أو نصف عام ..

ولكن مهما قصرت المدة فإنه يبكى !

ويوم رأيت ذلك فى اليابان كان سنة ١٩٥٩ ، ولم أكن فى ذلك الوقت قد أصدرت إلا خمسة من الكتب .. ولكنى كنت أعتصر نفسى ، وأنزف فكرا ، وأحترق أملا فى أن أكون شيئا قادرا على التعبير وعلى أن أستخرج بأظافرى أعمق أعماق ..

ويوم رأيت صورة الأستاذ لأول مرة كانت فى إحدى المجلات الفنية . ولم أكن قد رأيته قبل ذلك : الرأس كبير . الجبهة عالية .. الأنف كبرياء . والعينان سماويتان – أى تتجهان إلى السماء . أما الاكتشاف العظيم فهو أن الأستاذ كان يلف « كوفية » حول عنقه . ولما رأيت له صورا كثيرة وجدت هذه الكوفية صيفا وشتاء . إذن فلابد أنه هو الآخر يشكو برودة ما . ولابد أنه يتغطى كثيرا وكثيفا . ولابد أنه يسكن فى الطابق الأرضى أو الأول . ولابد أنه فى وحدة تامة من أجل أن يفكر . ومادام عظيما هكذا ، فهو مختلف تماما عن إخوته وأقاربه وعن أهل مدينته وعن كل الناس . وماعظمته هذه إلا كوخ من ورق أو من خشب .. ولكن مثل الأستاذ لايسكن كوخا إنما يسكن قصرا . فليست القصور للملوك إنما للفلاسفة والمفكرين العظام . و « الأبطال » ..

ولم أكن أعرف مامعنى كلمة الأبطال لولا أن دلنى الأستاذ على ذلك ، عندما كتب عن الفيلسوف الإنجليزى توماس كارليل . شىء عجيب ذلك الذى كتبه . فهو يرى أن التاريخ عربة . والعربة تجرها خيول . والخيول هم أبطال التاريخ .. أو أن التاريخ غابة . والغابة أشجار . ولكن شجرة واحدة ، لسبب ليس معروفا لدينا جميعا ، نجدها أطول وأعظم .

والتاريخ قطيع من الأغنام ، تجد واحدا منها يتقدمها دون سبب واضح . فإذا هاجمت الذئاب القطيع ، فإن هذا الذى يمشى فى المقدمة ، يواجه الذئاب ويموت دفاعا عن القطيع .. وتظل الشعوب نائمة ، حتى يوقظها بطل . وتظل الشعوب ضالة حتى يهديها بطل : فى السياسة وفى الدين

وفى الأدب وفى الفن .. والبطل هو القدوة وهو المثل الأعلى . وهو تجسيد لكل آمال وأحلام الشعوب .. إذن فالأستاذ العقاد هو البطل ..

وفى سذاجة الأطفال حاولت أن أبحث عن البطل بين المدرسين وبين زملائى من التلامذة . فكنت أجد مدرس الفلسفة بطلا . فنى وجهه ورأسه ومشيته مايؤكد لى أنه هو البطل . وفى إحدى المرات كتبت له هذه المعانى وقدمتها له . وقرأها أمامى . وضحك وأمسك أذنى . ومضى ولم يقل شيئا . فلاعرفت منه إن كان صحيحا ما كتبته . ولكن لابد أنه وجد فيا كتبت حسن ظن من واحد من تلامذته .. ولابد أنه قد اعتاد فى حياته الطويلة أن يجد مثل هؤلاء المعجبين الأبرياء .. إذن فلم يكن هو البطل ..

ورأيت فى مدرس اللغة الفرنسية مثل ملامح الأستاذ : الطول والرأس السامى ، والعينين الواسعتين ، والجبهة العريضة اللامعة ، والمشية السريعة ، وعطفه الشديد ، وتشجيعه المستمر .. ولكن لم أجد أكثر من ذلك .. إذن لقد جعلته بطلا فى خيالى ، مكافأة له على حسن تقديره لى ..

وفى حصة الرسم أطلت النظر إلى المدرس .. لقد كان يذهلنى ، فهو بسرعة يرسم الوجه والملامح ، كأن الوجه مطبوع على السبورة ، وهو يكشف عنه فقط – وعرفت فيا بعد أن هذا التعبير قد قاله ميكلونجلو عن نفسه .. وقاله الفيلسوف سقراط أيضا عندما أعلن : أن الطفل الصغير يعرف كل شىء . ويولد وفى عقله كل الحقائق ، والمدرس لايفعل أكثر من أن يذكره فقط بما هو موجود فى نفسه ..

ولم أكن أحسن الرسم . حاولت كثيرا . ولم أوفق . وفى إحدى الليالى كان من المفروض أن أرسم لوحة للعالم الإيطالى جالافانى . وأمسكت المسطرة والقلم ، وظللت أحسب ارتفاع الأنف عن الجبهة . ونسبة الشفتين إلى الأنف . والذقن والأذنين . وأمضيت ليلة كاملة أرسم هندسيا وجه هذا العالم الكبير . وأخفيت هذه اللوحة ضمن أوراقى . وفى حصة الرسم قدمتها للمدرس . ولكنه قلب الصورة . وأمسك القلم ورسم الوجه فى دقيقة واحدة . أوضح وأحسن ..

ووجدته ساحرا . ووضعته ضمن الأبطال المعدودين فى « مذكراتى » ..

وفى يوم كنت أجلس فى حديقة « شجرة الدر » . وكانت مظاهرة . وبين المتظاهرين زملاء المدرسة . ويتقدم المتظاهرين مدرس الرسم .. البطل .. والبوليس يمسكه من ذراعيه .. ولم أفهم كل الذى قيل لى فى ذلك اليوم . فواحد قال لى : إنهم ضبطوا فى بيته إحدى الطالبات .. وواحد قال لى : إنه كان يرسم فتاة عارية تماما .. لاأعرف ماذاحدث . ولكن الذى أحزننى على الرجل أنهم فضحوه .. ولم أعد بعد ذلك قادرا على أن أنظر إليه فى وجهه . فقد كنت أخشى أن يعرف أننى عرفت . مع أن المنصورة كلها قد عرفت ذلك . هل كنت أحس ذلك حقا .. أو أننى صدمت وخاب

أملى ؟ فأنا لم أعد أمام بطل إنما أمام أنقاض بطل .. أمام بقاياه .. ولم يسقط الرجل أمامى ، إنما سقط فى داخلى .. وأسقطنى معه .. فليست فضيحته إلا انهيارا لأحد الأوثان التى أقمتها فى معبدى ..

إنه فعل بنفسه مافعله تماماً فى لوحة العالم جالافانى ، فقد أمسك لوحته هو وبدلا من أن يرسم صورة أخرى فإنه قد مزقها .. ولكن بقيت الصورة فى عينى .. وظلت معلقة على جدرانى مقلوبة ، فالفضيحة بلغة المدرسين : صفر على عشرة .. وبلغة البوليس : سابقة .. وبلغة رجال الأخلاق : عار .. وبلغة أهل التربية : نموذج سيئ .. وبلغة الفلسفة : أن يكون الإنسان شيئا آخر أراده الناس ، وهو لذلك عاجز عن الدفاع عن نفسه . فقد أقام كل واحد منهم محكمة فى داخله ، وفى المحكمة قضاة وشهود . وحكموا عليه وأدانوه ، ورفعت الجلسة ، ولم يتمكن المتهم من أن يدافع عن نفسه ..

وكنت بهذه المعانى أقرب إلى التفسير الوجودى للأخلاق العامة . ولم أكن أدرى بذلك ! ..

ولم أذهب فى مفهوم البطل إلى أبعد من ذلك .. حتى وجدت كتاب « عبقرية محمد » للأستاذ العقاد . قرأته مرة واثنتين وثلاثاً . ولا أزال أحتفظ بهذه النسخة القديمة ..

وقد كتبت على الصفحة الأولى : عبقرية محمد من تأليف عبقرية العقاد . ثم هذه العبارة : إن عبقريا هو وحده القادر على أن يؤلف هذه العبقرية ..

ولم أشأ أن أقول لأحد إننى قرأت هذا الكتاب . فقد وجدت كتابا كأنه السحر . صدق رسول الله « إن من البيان لسحرا » . أما السحر فى هذا الكتاب فهو : أن الأستاذ قد أقام الدنيا كلها أمامه . وراح يقلب فى الشعوب فاختار شعب الجزيرة العربية . وراح يقلب فى القبائل فاختار قريشا . وراح يفتش فى بيوتها فاختار بيت عبد الله . وفى دراسة لعبد الله وزوجته آمنة وجد أن من الضرورى أن يكون لهما ولد . وأن يكون هذا الولد هو البطل . وأن يكون البطل فصيحا . وأن يكون الفصيح نبيا وأن يكون النبي محمدا . وأن يكون نبيا فى بيت عبد الله الذى هو من بيت قريش التى هى سيدة القبائل العربية ، وأن يولد نبيا فى مكة . وأن يعذبوه فيهاجر إلى المدينة ليعود إليها . ويكون أعظم الأنبياء وآخرهم ، وأن يختاره الفيلسوف كارليل أعظم الأبطال ! ..

وأن يختاره بعد ذلك سنة ١٩٧٩ كاتب أمريكى فى كتاب عنوانه « الخالدون مائة أعظمهم محمد رسول الله » . وقد نشرت هذا الكتاب بقلمى ..

ولا أنسى عبارة قالها الأستاذ فى الصفحات الأولى من « عبقرية محمد » . وهو يبرهن على أن النبي محمدا عليه السلام « ضرورة كونية » ، فيقول : « إن حوادث الكون أكدت أن الدنيا فى حاجة إلى رسالة .. وأكدت حقائق التاريخ أن محمدًا هو الذى يجب أن يكون صاحب الرسالة .. » ويقول الأستاذ أيضا : « العالم كله في انتظار رسالة .. وأحوال محمد ترشحه لهذه الرسالة .. وكان من الممكن

أن تتفق أحوال العالم وكذلك أحوال محمد ، ولاتتفق الوسائل التى تجعله يؤدى رسالته على أحسن وجه ، فكان من الممكن أن ينتظر العالم كله هذا الرسول ، ثم لايظهر الرسول .. وكان من الممكن أن يظهر الرسول فى البيت الصالح وفى البيئة الصالحة ، ثم لاتتوافر له الصفات التى تجعله قادرا على أداء الرسالة .. ولكن المعجزة هى أن محمدا استكمل الصفات الضرورية لنجاح أية رسالة عظيمة فى التاريخ . فكانت له الفصاحة واللغة .. وكانت له القدرة على تأليف القلوب والثقة به » ..

والشىء الباهر فى هذا الكتاب أنه يضع الدنيا كلها فى سلسلة واحدة .. أو أن الأستاذ قد أتى بالتاريخ من أوله لآخره ، ورسم له على الأرض طريقا محددا . وأنه وضع علامات للوقوف . وعلامات للسير . وأن التاريخ يمشى على هواه هو .. يمشى بقدميه ويرى بعينيه ويكتب بقلمه .. كيف ذلك ؟ لا أعرف ..

وفى هذا الكتاب يدافع عن الإسلام ، ويرد النقد العنيف الذى وجهه المستشرقون والملحدون .. وأخطر من ذلك أن الأستاذ يرى أنه لامستقبل للبشرية كلها إن لم يكن لها دين . والدين هو المستقبل . ولامستقبل بغير إيمان . ويجب أن يكون للإيمان مستقبل . وأن هذا هو طوق النجاة للحائرين فى كل العصور ..

ولا أدعى أننى فهمت كثيرا مما قاله الأستاذ فى هذا الكتاب . إنما كنت مبهورا بهذا القصر الرائع الذى أقامه . أراه من بعيد شاهقا . وأراه من قريب معجزة . وصعدت درجاته ودخلت غرفه ووجدت أشياء وأشخاصا ، لم أتبينهم بوضوح . ووجدت أسلحة ووجدت صراخا عاليا ومعارك ودماء وتهليلات وتكبيرات . ولم أدرك تماما ماهذا الذى حدثنا عنه الأستاذ ، ولكنى مأخوذ بالمقدرة والبراعة والسهولة ، وهذه الموهبة الخارقة على الإقناع ..

ولم أفهم فى ذلك الوقت معنى كلمة الشيوعية . ولكنها ترددت على مسامعى مع مط الشفاه ، بما يدل على أنها شىء ردىء ، أو أنها فكر ضار . وقرأت مقالا للأستاذ سيد قطب فى مجلة « الرسالة » يهاجم الشيوعيين . ويقول مامعناه أن الأستاذ العقاد قد أصدر العبقريات – محمد والصديق وعمر دفاعا عن الإنسانية . فالشيوعية لاتؤمن بالبطل . ولاترى للبطل أية ميزة خارقة . إنما ترى أن البطل هو مندوب المجتمع ، وهو من صناعة الجماهير . وهى التى رفعته على كتفيها ليهتف بأفكارها . وكما أن المجتمع قد أفرز واحدا ، فهو قادر على أن يفرز الكثيرين . وأن الشيوعية قد شوهت عظماء التاريخ جميعا .. وأن من الواجب الأخلاقى على عظماء المفكرين أن يردوا اعتبار العظمة والعظماء .. والأستاذ عباس العقاد يفعل ذلك . فهو عظيم يدافع عن أبناء جنسه من العظماء ..

وقرأت فى ذلك الوقت أن الأستاذ أحمد أمين قد عاب على الأستاذ أنه لايذكر إلا الصفات الطيبة للعظماء والعباقرة . ولما كان العظماء بشرا مثلنا فلابد أن لهم عيوبا . لايصح إغفالها . حتى

لايصور للناس أن العظماء ملائكة ، وأنهم فوق البشر. وأنه لاأمل عند أحد أن يكون عظيمًا ..

ولكنى لم أقتنع بما قاله الأستاذ أحمد أمين فى ذلك الوقت . ورأيت مايراه الأستاذ . فهم عظماء ولاعيب فيهم . وإلا لما استحقوا أن يكونوا أبطالاً .

وأحسست من هذا الكتاب أننى جعلت لكوخى بابا متينا . هذا الباب هو كتب الأستاذ العقاد . وأحيانا كنت أشعر أنه ليس بابا . إنما هو درع .. وأحيانا ليس درعا ، إنما هو عينان وأذنان وشفتان وعقل .. لقد أصبح الأستاذ أطراف الصناعية : نظارتى وسماعتى ومفتاح بابى وسلاحى السرى ..

هل تعلمت أن أقول : نحن .. قرأنا وكتبنا .. وفكرنا .. من كثرة قراءتى للأستاذ ؟ نعم . وقد نبهنى مدرس اللغة العربية إلى أن أحذف كلمة « نحن » وأن أقول كلمة : أنا .. فلاحق لى إلا أن أتحدث عن نفسى . ووجدت ذلك معقولاً ..

ولكنى عندما أتحدث عن أيامى فى صالون العقاد ، فلم يكن الصالون حديثًا بينه وبينى . إنما كان حديثا مع كثيرين . وكنت واحدًا منهم . وكثيرا ماكانت الأسئلة خاصة ، أما الإجابة فهى عامة عادة . وبعض هذه التساؤلات لم تكن لى وحدى .. ولا كانت الإجابة موجهة لى .وكان من الممكن أن أذكر عددا من أسماء الذين ترددوا على صالون الأستاذ ، لولا أن بعضهم لم ير فى ذلك شيئا كبيرا . أو رآه كذلك ، ولكن لا أثر له فى حياته الفكرية . فبعض الرواد كانوا أطباء ومحامين وقضاة .. وأقلهم من المشتغلين بالفلسفة والأدب ، مثل : وليم الميرى ، وعبد الفتاح الديدى ، وجلال العشرى ، وعامر العقاد ابن أخيه ..

وبعضهم كان يرى أن الأستاذ الحقيقى لهذا الجيل هو الأستاذ أمين الخولى ، أستاذ البلاغة . وأقرب الناس إلى الفيلسوف سقراط : لم يكتب حرفًا واحدًا ، ولكنه هز العقول لتكتب . فليست مؤلفات الأستاذ الخولى كثيرة . ولكن أثره كان عميقًا على تلاميذه : زوجته بنت الشاطئ .. وآخرين من الأدباء والشعراء ..

ولكننا – آخرين وأنا – كنا نرى أن الأستاذ هو العقاد .. لا أنسى له حكاية قالها .. هذه الحكاية عندما فكرت فيها وجدتها تفسيرا صحيحا لسلوكى ، عندما كنت تلميذا صغيرا قررت الانتحار . ولاأعرف من أين جاءتنى هذه الفكرة . لم أسمع عن أحد ، ولم أر أحدا قبل ذلك قد انتحر .. ولاكنت عرفت أن الأستاذ قد فكر فى الانتحار . وكاد ينفذ ذلك ..

ولاكنت عرفت أن الأستاذ قد اضطرته قسوة الحياة إلى أن يبيع كتبه . وقد بعتها . وحملتها فوق ذراعى كما تحمل أم طفلها . وتلقى به ملفوفا فى ملابسه ، بعد أن أرضعته ، أمام بيت من البيوت .. إنه ثمرة خطيئة . ورمز عار . ولكنه ابنها . لحمها ودمها تسعة شهور .. وحملت كتبى كأننى أم موسى عليه السلام . خافت عليه من فرعون . وكان فرعون هو الفقر . وخافت أن تلقى به فى البحر فيموت .

فوضعته فى سلة . وطلبت إلى أخته أن تراه من بعد . حتى إذا التقطته ابنة فرعون . تقدمت أخته تدلهم على من يرضعه . « فرجعناك إلى أمك كى تقر عينها ولاتحزن » – صدق الله العظيم .

وحملت كتبى ملفوفة فى فوطة نظيفة . وذهبت إلى بائع اللب ، كتبى مجلدة فى ورق شفاف . عليها اسمى ، واتخذ كل واحد منها رقا . وصففتها واحدا واحدا . ونفضت عنها التراب . ولم ألمسها بقلم . وأعطيتها للبائع واحدا واحدا . ولكنه مد يده وخطفها ووضعها على الميزان . وبسرعة أعطانى قروشا .. فلا رأى أصابعى ولارأى لهفى ولارأى دموعى .. ولارأى جنازتها التى مشيت فيها صامتا إلى البيت . وعندما عدت إلى البيت احتوتنى اللامبالاة ثم الحزن .. والحزن كالسحب يسقط منه المطر على خدى .. ولففت نفسى فى حصير وانكفأت على مكتبى أبكى .. وأغلقت باب حجرتى لأستأنف البكاء حتى لايسألنى أحد . ولم يسألنى أحد .. وعرفت أن مذكراتى التى سجلت فيها هذا الحدث الأليم هى أسئلة أتوهم أنها من أحد . ثم أرد عليها . فقد كانت مذكراتى حوارا مفتعلا ، ونوعا من المبالاة الزائفة ، أقاوم بها لامبالاة حقيقية .

أما الحكاية التى قال لى الأستاذ – لى أنا وليس لأحد من تلامذته : إن الفيلسوف الألمانى شوبنهور كان لايحب أمه . وكانت هى أيضا لاتحبه . كانت تحقد عليه . وكانت هى صاحبة صالون أدبى . وكان يتردد على صالونها أعلام الفلسفة والأدب فى عصرها . وفى يوم بعث ابنها بواحد من كتبه إلى أمير الشعراء جيته .. وانتظر رأيه . ولكن الشاعر الكبير لم يشأ أن يفعل . فذهب الفيلسوف الشاب إلى صالون والدته . ودون إذن سأل الشاعر عن رأيه فى الكتاب . فضاقت أمه بهذا السلوك غير المهذب فطردته من الصالون . وسارت وراءه حتى أسقطته من السلم . فقال لها صارخا : مهما فعلت . فسوف تعيشين وتموتين على أنك أم الفيلسوف شوبنهور ! ..

وصدق فى ذلك ..

ولكن الفيلسوف الصغير ظل منتظرا تحت الجليد حتى نزل أمير الشعراء . وسأله . فقال له جيته هذه الحكمة العظيمة : إذا أردت أن تجعل لحياتك معنى ، فاجعل للحياة معنى ! ..

وكان الفيلسوف متشائما . وكان يرى أن الإنسان بلا إرادة . وأن غريزة البقاء هى التى تدفعه إلى الحياة . وأن غريزة البقاء هى التى تزيف له كل المشاعر : الحب والغيرة والزواج . فالحب هو تعبير مهذب عن رغبة جنسية ، والغيرة هى خوف على الحياة أن يهددها شىء فلا تستمر بين رجل وامرأة .. وأن الزواج ليس إلا علاقة جنسية عادية ، ولكن المجتمع قام بتزييف دوافعها ! ..

والفيلسوف شوبنهور لم يجد لحياته هو معنى ، ففقدت الدنيا كلها أى معنى .. فكانت حياته انتحاراً بطيئاً !

ووجدت فى هذه الحكاية تفسيرا لما أصابنى قبل ذلك .. فلسبب ليس واضحا عندى تماما

وجدتنى مقبلا على الانتحار . لماذا ؟ فى ذلك الوقت كنت الطالب الأول فى المدرسة : فى الابتدائية والثقافة والثانوية العامة وفى جميع السنوات . هل أدى ذلك إلى عزلتى عن بقية التلاميذ ؟ ربما .

هل أدت هذه العزلة إلى أن أحاول أن أختار عددا من الأصدقاء فنكون « جمعية » فى مواجهة الآخرين ؟ ربما .

هل كانت « جمعية الكتب المقدسة » التى أنشأناها تفسيرا لذلك ؟ ربما . فقد كنا ثلاثة : يهوديا ومسيحيا وأنا المسلم . هل كانت لهذه الجماعة أهداف تدعو لها ؟ هل فكرنا فى شىء ؟ لا أظن . إنما ألفنا جمعية لنا نحن الثلاثة ، لنكون معا فى كل وقت . وأن نكون فى مواجهة الآخرين . وأن تكون عزلتنا قوية . فبدلا من أن نشعر أن الناس نبذونا ، نتوهم أننا نحن الذين نبذنا الناس . وأننا نحن الأفضل ..

هل خطر لنا أن هذه الجمعية رمز للتسامح الدينى ؟ لا أظن ذلك . فلم يكن أحد منا يعرف دينه أو دين الآخرين بوضوح . ولا كانت الفوارق بين الأديان معروفة لدينا . إنما نحن ثلاثة .. واحد فى مدرسة الفرير .. والثانى فى مدرسة الرشاد الثانوية .. وأنا فى مدرسة المنصورة الثانوية .. ولم يخطر على بال أحد منا أن هناك فارقا بين يهودى ومسيحى ومسلم .. ربما الأسماء فقط هى التى توهم هذا الخلاف .. وليست الأسماء دائما . فهناك محل لبيع الورنيش يملكه شخص اسمه : سعد يوسف ، وهو يهودى .. وهناك ترزى اسمه : يوسف يوسف ، وهو مسيحى .. وهناك مدرس للرسم اسمه : يوسف سعد ، وهو مسلم ..

ولا أذكر أننا كنا نتكلم عن أحوالنا الشخصية أو العائلية .. وإن كنت ألاحظ أن حذاء الصديق سعد اليهودى نظيف دائما لامع دائما . أما حذاء الصديق يوسف المسيحى فهو ليس كذلك .. وأحيانا كانت جوارب الصديق سعد نظيفة وجديدة ، كما أنه كان يخرج مناديل بيضاء جدا من جيبه ويمسح بها فمه أو جبهته .. أما الصديق يوسف فكانت ملابسه نظيفة ولكنها ليست أنيقة . وكان لا يستخدم المنديل كثيرا .. وإن كان يخرج المشط من جيبه ليسوى شعره الأسود الناعم الطويل . وإذا مشينا كان هو أكثر اهتماما بالفتيات .. وكن يضحكن له .. أما الصديق اليهودى فكان يشبه تمثالا إغريقيا رأيته فى كتاب للأستاذ درينى خشبة عن « أساطير الحب والجمال » ، وهو من الكتب التى هزت خيالى كله .. لا أعرف صاحب التمثال . ولكن لابد أن هناك تشابها ، فهو يهودى يونانى .. وكان لا يعبأ بما يحدث فى الشارع . وكنت مثله أيضا . هل كنا أصدقاء ؟ لا أعرف . إنما كنا نتجاور فى السير .. نمشى معا . وكانت المسافة بين ظروفنا ونفوسنا أبعد بكثير جدا مما نتصور .. أو كان هذا شعورى .. لقد أذهلنى أن وجدت أحدهما يخرج من جيبه رزمة من الفلوس . ولم يقل إن أحدا قد أودعها معه . أو حتى يفسر لنا ذلك . كأن وجودها معه شىء طبيعى . وعندما سافر إلى الاسكندرية بضع مرات ، لم

يشأ أن يذكر لنا أسباب سفره .. ولا عندما زارته أخته القادمة من لندن .. كيف هي ولا كيف كانت ولا لماذا ذهبت ..

حتى فى هذه الجمعية لم نكن معا ، إنما كنا متجاورين فى المكان .. نمشى معا ونسكن فى شارع اسمه شارع كوهين .. وفى مرحلة واحدة هى الثانوية .. وكنا متجاورين فى الزمان .. فقد ولدنا بالصدفة فى يوم ١٨ أغسطس من سنة واحدة فى مدينة واحدة .. ولكن إذا افترقنا كل يوم ، فليعود كل واحد منا إلى دنياه ..

ولما مرض صديق سعد ذهبت إلى بيته . وسألت . وفتحت الباب والدته . وأدخلونى غرفته كانت دافئة . نظرت إلى الجدران فلم أجد أثرا للرطوبة مع أنه كان فى الطابق الأرضى . ووجدت سريره ملاصقا للحائط . ووجدت المصباح الكهربى فى السقف . ورأيت لأول مرة فى حياتى مصباحا كهربيا على المكتب .. وجاءت أمه وأخته وأخوه . وجلسوا . هل كانت أمه بيضاء سوداء العينين ؟ هل كانت أخته كذلك ؟ هل سمعت كلمة « حب » ذهابا وإيابا بينه وبين والدته .. أى أنه يحبنى . ويراقى أعز الأصدقاء ؟ هل قالت أمه : إن الذى يحب ابنى ، يحبنى أيضا . أو أن الذى يحبنى هو الذى يحب ابنى ؟ هل سألتنى : ولماذا لاأقيم معه بعض الوقت .. فغرفته كبيرة .. والبيت به ثلاث غرف نوم ، وهم سوف يسافرون إلى القدس ؟ هل قلت شيئا ؟ هل وافقت ؟ . هل أسعدنى هذا العرض دون أن أوافق عليه ؟ هل هذه هى أول أسرة أجدنى مدفوعا إلى التردد عليها ؟ فقد كان من عادتنا أن نلتقى عند المكتبة الفاروقية فى شارع النيل .. فوجدت أننى أذهب قبل الموعد المحدد لكى أجد نفسى فى بيته مع أمه وأخته وأخيه .. ووالده أحيانا . ربما ..

أما صديق يوسف فكان هو الذى دعانى إلى بيته لتناول الغداء . وكانت المناسبة عيد ميلاده . أول مرة أشاهد فيها مثل هذا الاحتفال . وكان الحاضرون كثيرين . وقدمني لهم على أنني الأول في شهادة الثقافة العامة. ورأيت شمعة مشتعلة . ثم أطفأوها جميعا . وأكلوا وشربوا . وانصرفت . . وقبل أن أنزل قالت لى والدته : تعال مرة أخرى ياحبيبى . . إن يوسف يحبك جدًّا .

ودعانى صديق يوسف فى عيد ميلاد والدته .. ووجدتنى أعود مرة أخرى .. وأجلستنى إلى جوارها .. وأطفئت الشموع . وأكلنا وشربنا .. وعند الباب استحلفتنى أن أجيء إليها .. ويسعدها أكثر لو جئت مع والدتى لكى تعرفها .. لأن يوسف يمتدحها كثيرا ..

وفكرنا فى أن نذهب إلى القاهرة يوما ونعود فى اليوم التالى . ولم أكن قد رأيت القاهرة . ولم تكن هذه فكرتى . أما السبب فهو أن نزور الأزهر الشريف ونرى الأهرام . ووافقت ولكن لاأعرف كيف . وانحلت مشكلتى بأن صديقا لواحد منهما سوف يسافر بسيارته إلى القاهرة ويعود فى اليوم التالى .. وأسعدنى ذلك ..

ولكن عندما عدت إلى البيت وجدت أمي مريضة أكثر : ممددة على الفراش شاحبة تسعل دما . ونظراتها هي العجز عن النظرات . وليس من الضرورى أن تقول شيئا . فكل شيء واضح لمن يريد أن يعرف . وليس أبعد من كل شيء فى دنيانا : الطبيب بعيد .. والدفء بعيد .. والأب بعيد .. والشارع بعيد .. ومفتاح الفرج بعيد .. والصحة أبعد .. والسماء أبعد من كل شيء .. بل ليست لنا سماء ..

أشارت إلىَّ أن أجلس : فجلست . أشارت أن أقترب منها لتهمس فى أذنى .

وخرجت أبحث عن طبيب من أقاربنا . وفى الطريق إليه وجدت ابنته . . هى الأخرى تلميذة . ولكنها ليست مثلى فى أشياء كثيرة . وبسرعة نادت والدها . واتجهنا إلى البيت . وسألنى فى الطريق : ماتزال كما هى ؟ قلت : نعم ، وقال : ومايزال والدك مسافرا ؟ قلت : نعم .. قال : ألا توجد وسيلة لتغيير هذا السكن وأن تكون لكم خادمة ؟ ولم أجد ما أقوله . ثم سألنى : وأنت يا ابنى لماذا لاتبحث لك عن عمل مادامت الظروف لاتسمح ؟ تعال واشتغل عندنا فى العيادة ..

ولا أظن أننى رددت . وفى البيت أعاد هذا الذى قاله فى الطريق . ولكن ابنته التى لم أشعر بأنها جاءت معه اعترضت على ذلك ، وقالت : إنه أحسن تلميذ فى المدرسة . وسوف يكون له مستقبل ..

وقال أبوها ، ولم أفهم معنى ذلك : أنت وضعت عينك عليه ! ..

ولم أشاركها فى الضحك . ولكن عينى على يد الطبيب تقلب فى المريضة التى عجزت حتى عن كلمة الشكر .. وجلست إلى جوارها .. وأشارت أمى إلى أن أرافق الطبيب حتى الباب الخارجى . وعدت إليها لأقول إنه خرج . فأشارت أن أذهب إليه وأشكره .. وظللت أجرى يمينا وشمالا حتى وجدت الطبيب . وشكرته . وقالت ابنته : ألا ترى يا بابا كيف إنه إنسان حساس ؟! ..

أما بيتنا فصاحبه مدرس اللغة الانجليزية فى المدرسة . وأحمد الله أننى لم أكن من تلامذته . فأنا أتفادى أن أراه ، فنحن لاندفع الإيجار بانتظام . ثم إنه يضرب زوجته . وقيل إنها فلسطينية . ثم عرفت من صديقى سعد أنها يهودية . طويلة عريضة بيضاء طويلة الشعر سوداء العينين . وابنها كذلك . وهى لم تنجب أولادا من زوجها صاحب البيت . وكانت لها طريقة فى الكلام أجنبية . وهى عالية الصوت دائما . حتى عندما كان يضربها بالعصا ، كانت تصرخ . وكان السكان يقفلون الراديو ليسمعوا ماذا يقول الرجل وزوجته . وماهو السبب . وكنت لاأحب الرجل لهذه القسوة . ولاأحب خجلى منه وعجزنا عن سداد الإيجار ..

وفى إحدى المرات ذهبت أدفع الايجار ، بعد أن تأكدت من أن صاحب البيت قد خرج . فوجدت زوجته . وأعطيتها المبلغ .. ثمانين قرشا . دون أن أنطق بكلمة . ولكنها أصرت على أن أشترى به أدوية لأمى . وقالت إنها سوف تزورها بعد لحظات ..

وفى نفس اليوم الذى لاأنساه لحظة لحظة ، ذهبت إلى الأجزاخانة ، ولم أكد اقترب منها حتى وجدت صاحب البيت . فأعطيته مامعى من فلوس . فنظر إليها بسرعة ووضعها فى جيبه . أما الذى حدث بعد ذلك فلا أعرفه تماما .. كم مضى من الوقت ؟ .. ساعة ساعتين وأنا جالس على الأرض أمام الأجزاخانة . هل نمت ؟ كيف جاء أبى فى هذه اللحظة ليشترى الدواء وأعود معه إلى البيت ؟ إنها الصدفة السعيدة . .

لم يسألنى إن كنت قد نجحت وجاء ترتيبى الأول ، ولكنى أنا الذى قلت له . فوضع يده على رأسى ودعا لى بالنجاح .. ولم يسألنى إن كنت قد سددت الإيجار .. ولم أجرؤ أن أسأله كم يوما سوف يبقى معنا هذه المرة قبل أن يعود إلى عمله ؟ .. ولم أكن أعرف فى ذلك الوقت أين يعمل . لقد غيَّر مكان عمله كثيرا .. إنه أكثر إشراقا وأصبح جسدا . وأكثر امتلاء من أمى .. إنه يكبرها بثلاثين عاما . ولكنها تبدو كما لو كانت والدته .. لماذا لايأخذها معه ويتركنا وحدنا ؟ لقد جربنا هذه الحياة بضع سنوات قبل ذلك .. وكنا نسكن وحدنا أنا وإخوتى ، ثم نعود إلى أبى وأمى مرة كل أسبوع .. فى ذلك الوقت انسدت منافذ الحس عندى كلها . لم أعد أرى . لم أعد أسمع . ولم أعد قادرا على فهم شىء . فى ذلك الوقت أحسست أننى « مأخوذ » . هناك قوة خفية أخذتنى . غيبتنى . فأنا الحاضر الغائب . أنا الشبح الذى يروح ويجىء . ولم أجد ما أقوله عندما سألنى صديقاى سعد ويوسف : أما تزال والدتك مريضة ؟ لماذا لاتأخذها وتسافر بها إلى أسوان ؟! ..

وأيقنت أكثر أن المسافة بينى وبين هذين الصديقين أبعد مما تصورت .. والمسافات كلها بعيدة .. والدنيا كلها أصبحت صغيرة .. وهى لذلك حقيرة .. ولامعنى لشىء .. ولاحكمة لهذا الذى أراه ولا أفهمه .. وهذا الذى أفهمه ولا أرضاه .. ولاحتى هذا الذى أرضاه ، فإننى لم أختره .. بل ليس هناك اختيار لأى شىء .. من الذى اختار أباه وأمه .. وظروفه ؟ من الذى اختار الصمت الرطيب .. والرطوبة الصامتة ؟ ومن الذى اختار « الآهة » لحنا مميزا لحياتنا ؟ من الذى اختار لون الدم نزيفا ، والضعف زائرا ، وصاحب البيت مدرسا ، وسداد الإيجار عارا شهريا ؟ .. ومن الذى اختار أن أكون أكثر الإخوة اجتهادا ، أو أول الطلبة فى المنصورة وفى مصر ؟ ومن الذى اختار أن تكون نهاية العام الدراسى هى نهاية القراءة والكتابة ؟ فعند نهاية كل عام يجىء من يطلب إلى أن أبحث لى عن عمل .. ولابد أنه ينظر إلى أشياء كثيرة فى بيتنا ليجد أن هذا هو الحل .. أى الحل هو ألا أكون كما أريد .. أو أتمنى أن أكون .. وإن لم يكن واضحا عندى فى ذلك الوقت ، ماذا تعنى إرادة شىء .. فالإرادة كلمة غريبة .. فلم أرد شيئا . ولااخترت شيئا . إنما كل شىء موجود على أسوأ صورة . وهو كالجدران جامد فى مكانه . هل نحن سجناء ؟ نعم . فى سجن فى داخل سجن فى داخل لغز لاأعرف له حلا .. وإن كان الجميع يطالبوننى بالحل لكى نخرج جميعا من هذه السجون .. أنا من الرطوبة

وأمى من المرض .. أو لكى أخرج أنا من سجن الشك .. أو لم يكن ذلك شكا فهو سجن الشعور بأنه لامعنى لشىء .. ولا هدف وراء شىء .. ولاحكمة فى أن يكون أحد فى الدور الأرضى مريضا ، ويكون أحد فى الدور الأعلى يصرخ من الضرب بالعصا ..

فى ذلك اليوم الذى لا أنساه ذهبت إلى أمى ورحت أقبل يديها ، وأدعو لها بالشفاء .. ورحت أغسل الأكواب وأضعها إلى جوارها .. وذهبت إلى إحدى خالاتى وطلبت إليها أن تذهب إلى أمى .. وتقول لها : إننى ذهبت أبحث عن عمل . وإذا تغيبت أسبوعا أو شهرا فلا تحزن ..

واندهشت خالتى . ولكنها لم تستبعد أن يكون ذلك صحيحا . وعانقتنى وتمنت لى التوفيق . وكتبت خطابا إلى والدتى أقول لها: إننى عبء على الجميع ، وكما كانت حياتنا على هذه الأرض مصادفة .. فأنا بالصدفة ولدك وأنت بالصدفة والدتى. وكان من الممكن ألا نكون معًا ! ..

وأعتقد أننى استوحيت هذه العبارة من بحث قرأته فى مجلة « الرسالة » عن الفيلسوف الإنجليزى هيوم ..

وبسرعة اتجهت إلى الصديقين سعد ويوسف . وقلت لهما : سوف أسافر إلى الإسكندرية وحدى . ورجوتهما أن يزورا أمى كل يوم ..

وحملت ماتبقى لدى من كتب وذهبت إلى بائع آخر . وعندما أحسست بيده فى يدى عدت إلى البيت . وفى الطريق إلى البيت مررت بالفرن واشتريت خبزا وجبنا وبعض أقراص الاسبرين . وتركتها على إحدى المناضد . وكانت أمى نائمة . وخرجت . واتجهت إلى كوبرى المنصورة لكى ألقى بنفسى فى النيل ..

لا أعرف كم من الوقت مضى حتى بلغت الكوبرى . ولا كم من الوقت مضى حتى انتظرت أن يخلو الكوبرى من المارة . حتى لا يرانى أحد فأشعر أمامه بالخجل أو حتى يعرفنى فينقذنى .. هل كان الكوبرى خاليا حقا ؟ ولكن صوتا مألوفا ويدا امتدت إلى ذراعى ، ووجها بدأت أعرف ملامحه بوضوح .. كأننى أصحو درجة درجة ، أو كأن الوجه يقترب خطوة خطوة : ماذا تعمل هنا ياحبيبى .. وكيف حالها الآن ؟ ..

إنها السيدة التى تعطى لوالدتى الحقن . وكانت فى الطريق إليها . وكذبت عليها كثيرا فى عدد الزوار والأدوية وفى تحسن صحتها .. وأننى كنت فى الطريق إلى طبيب آخر .. ووجدتنى فى البيت أمام والدتى التى تدعو لى لأننى أحضرت كل هذه الكمية من الخبز والجبن والأسبرين ..

وأمامها أدركت جريمتى : إننى قررت أن ألقى همومى فى النيل ، ونفسى معها .. وكل خطيئة هذه السيدة والدتى أن لها ابنا لاتفهمه .. وليس من الضرورى أن تفهمه ، فهى لم تتعلم كما تعلمت .. ولادار رأسها وراح مع المذاهب والأسماء والمشاكل .. صحيح أننى ابنها ، ولكنها ليست أمى الفلسفية

أو الأدبية أو النفسية .. إننى لاألومها ، ولا هى قادرة على لومى .. وإذا كانت هى « العجز » نفسه ، فإننى « الشك » نفسه .. ولا أنا ضرورى لها ولاهى .. ولانحن جميعا .. ولاحكمة عندها ولاحكمة عندى .. ولاعند أحد .. ولما عدت إلى الحياة .. كأننى عدت إلى محطة قطار : الناس كثيرون .. والوجوه مختلفة والاتجاهات متباينة .. ولا أحد ينظر لأحد أو ينتظر أحدا .. والقطارات لها دوى وصفير .. ولو سقط أحد أو توقف قطار فلن يحدث فى الدنيا مايعطلها عن الدوران .

ولما جلست إلى جوار أمى قالت : الحمد لله أنك لم تكن هنا منذ ساعة ..

لماذا ؟ لقد جاء أحد أقاربها واقترح عليها أن يجد لى عملا . فطردته من البيت . لأنها تريد أن أكمل تعليمى ولو أدى ذلك إلى أن تتسول رغيفى وملحى ! ..

أى فى نفس اللحظة التى اتخذت فيها قرارا ، كانت هى أيضا قد اتخذت قرارا ..

ثم كانت هذه السيدة التى تعطيها الحقن قد تحركت من بيتها لتعيدنى إلى البيت ..

وأنقذتنى أمى من الموت .. وأنقذنى الأستاذ العقاد من التفكير فى الموت مرة أخرى . فقد هدانى إلى أعمق أعماق . . رغم أنه هو قد فكر فى الموت . ففى ذلك اليوم صدر عدد جديد من مجلة « الرسالة » يقول فيه الأستاذ فى حديث له مع عباس عبد البهاء ، زعيم الطائفة البهائية : إنه حيث يكون الماء يكون الشجر .. ولكن الأستاذ قال له : بل حيث يكون الشجر يجب أن يكون الماء ..

والفرق بين الرأيين : أن عباس عبد البهاء ، يرى أنه مادام هناك ماء ، فمن الطبيعى أن تكون حياة : أشجار وحيوان وإنسان ..

ولكن الأستاذ يرى أنه مادام الله قد قدر أن يكون إنسان وحيوان وشجر ، فلابد أن يأتى لها بالماء .. فالحياة إرادة كونية ، والماء ضرورة حيوية ..

وقال الأستاذ : وحيث تكون موهبة ، فلابد أن تكون لها حكمة من صنعها .. فالله لم يخلق موهبة عبثا ، ولاباطلا مصادفة ..

ولم أفهم ذلك . ولكنى بدأت أتساءل أنا أيضا ..

فهل كل هؤلاء الأحياء لهم رسالة ؟ . . هل هم جميعا من المواهب ؟ . . هل لوكنت مت ثم عاشت أمى ، فما هى رسالتها بالضبط ؟ . ما رسالة « أبو أحمدين » البواب وقد كان فى التسعين من عمره ، وله أولاد كثيرون يعيشون بعيدين عنه ؟ . . هل أقول إن أمى قد أنقذتنى هذه المرة ؟ .

لا أقول ذلك ، إنما هى أجلت هذا القرار ، فلم تنته صعوباتى النفسية . وكلها صعوبات فوق كتفى . . فى رأسى . . فلا الطعام ولا الشراب ولا السكن ولا الحذاء هى مشكلتى . .

وإن كنت لا أعرف بالضبط ما هى المشكلة . . إننى مثل إنسان ألقى فى الماء ، وهو لا يعرف السباحة . . او إنسان ألقوه من الطائرة بلا مظلة . . أوكانت عنده مظلة ثم نزل أرضا لا يعرفها . .

بلا خريطة فى يده . أو كانت فى يده خريطة أكبر من أن يستوعبها فقد كانت حروفها غير واضحة .

يقول ابن عربى الفيلسوف الصوفى الأندلسى : لقد خضت بحرا وقف الأنبياء على شاطئه . .

فهل أنا كذلك ؟ . . لا أظن ، ولكن المعنى أعجبنى لأن بى شيئا من ذلك . فلا أرى الراحة التى يراها زملائى . ولا الهدوء الذين يعيشونه ، ولا الأمل الذى زاد على حاجتهم فراحوا ينشرونه فى كل مناسبة . .

ولم أعرف من الأستاذ العقاد أنه انتحر أو حاول ، إلا مرة واحدة . وفى يوم سألته : يا أستاذ . . هل الذى ينتحر كافر ؟ . .

فأجاب ضاحكا : ماذا نسمى رجلا شرب أربعين كأسا من الخمر ثم جاء فى الكأس الحادية والأربعين وقال قبل أن يشربها : بسم الله الرحمن الرحيم ؟ ! .

ولم أفهم ، ولابد أن عدم الفهم قد بدا واضحا على وجهى ، فعاد الأستاذ يقول : إن هذا قرار يبلغ فيه الإنسان حالة الوعى واللاوعى معا . . إنه بمحض إرادته قرر أن يفقد الإرادة . إنه بمنتهى العقل اتخذ قرارا مجنونا . . إنه قرار لا يحسب حسابا لأى شئ آخر . . لا الدين ولا الفلسفة . . ولا أى أحد . . ربما اختار بعض المنتحرين أن تكون نهايتهم نوعا من الاحتجاج على السماء وعلى الأرض . . أو نوعا من التحدى لأى شىء . .

ثم روى الأستاذ كأنه يقرأ مذكراتى : يومها يا مولانا . . لم أجد شيئا يتفق مع عقلى . . وليس لى إلا عقلى . . لم أجد منطقا لأى شئ . . وجدت كل الناس مجانين . وأنا العاقل وحدى . . وجدت كل شئ قد اختلت موازينه . . بل انعدمت موازينه . . وأنا وحدى الذى أمسك ميزانا ، ما فائدته ؟ . . ما فائدتى ؟ . . إذن فليس مرغوبا ولا مطلوبا أن أعيش . أو حتى أن أكون . فقررت ألا أكون . . فإذا كان وجودى ليس باختيارى ، فليكن موتى باختيارى . .

وضحك العقاد ليشجعنى على أن أقول : إن هناك أساليب أجمل فى الانتحار . كأن ينتحر الإنسان فى حضن فتاة جميلة . . كأن يشرب الشمبانيا كما فعل الخديو إسماعيل فوضع فى فمه ثلاث زجاجات معا فمات . . كأن تنتحر على طريقة الرومانسيين . . تجىء محبوبتك وتقبلك ثم تخرج كيسا من السم من فمها إلى فمك . . فتتركك تموت وتتفرج عليك ، وتدعك تموت وحدك لتبكى عليك يوما وتتزوج هى فى اليوم التالى . . كأن تفعل مثل بعض الهنود . . يمشى عاريا فى أحد حقول القصب ويظل يطلق مزمارا باكيا ، فتخرج إحدى الأفاعى الضخمة ويجرى أمامها ، فإذا هى تسبقه وتلتف حوله وحول شجرة ضخمة فتعتصره حتى الموت . . أو تفعل كذلك الفيلسوف الشهير الذى ألقى بنفسه فى بركان إتنا . ونسى أن يخلع حذاءه . . فلم يسقط من فوهة البركان حتى أطار الهواء الساخن حذاءه . . فعرف الناس أنه مات . . لم تدل عليه فلسفته وعظمته وإنما دلت عليه جزمته . .

وبسرعة قال الأستاذ : هذه يا مولانا مناسبة جدا لكل أساتذة الفلسفة الجهلاء – هذا إذا كانت عندهم أحذية ! . .

أهانني الأستاذ دون أن يدرى . . ولكن الأستاذ قد فكر هو أيضا فى الموت . . ولابد أنه قد سخر من هذه الفكرة . ولم يعد إليها مرة أخرى . . لعله اكتشف أن للحياة معنى ، وأن له هو أيضا معنى . أو لعله أحس أن الحياة كالموت لا اختيار لنا فيه . . أو لعله عندما أحس بعظمته قرر أن يستمتع بها وأن يسجلها ، حتى لا يتعذب وهو حى ، لمجرد أن يتصور أن أحدا سوف يمسح به الأرض ، ويحرقه فى كل نار ، ويدوسه فى كل طريق . . إذن لقد قرر الأستاذ أن يعيش حياته ، وأن يسجل ما بعد حياته . . وأن يستمتع بما يراه ، وبما سوف يراه الناس بعد موته . .

وسوف أعود أنا إلى ذلك عندما أتحدث عن : الوجودية لماذا ؟ .

وكنت أتستر على محاولة الانتحار هذه ، لأنى رأيت الناس يصفون من يفعل ذلك بأنه مجنون ، أو بأنها من مظاهر الجنون . وأن الناس لا يفكرون عادة فى أسبابها ، فليس عند الناس وقت لذلك ، فماذا يحدث عندما يجد الناس أن سيارة قد داست واحدا من الناس ؟ . . إنهم يلتفون حوله . ويتقدم واحد يغطى وجه الضحية بصحيفة ، وبعد دقائق يمشى كل واحد فى طريق . . تماما كطوبة ألقيت فى الماء ، أحدثت اهتزازا فى السطح ، وسكن الماء واستقرت الطوبة فى القاع . . وفى يوم فوجئت بأن الأستاذ يقول لواحد جالس إلى جوارى :

ماذا بك يا مولانا ؟ . .

قال : والله تعبت يا أستاذ ! . .

سأله : ممن ؟ . .

– زوجتى يا أستاذ . .

– طلقها يا أخى . .

– وأولادى ؟ . .

– اترك لها الأولاد . . وأعطها راتبا شهريا . وإذا كان أولادك يهمونك إلى هذه الدرجة فمن الواجب أن تعيش وأن تعمل لتجعلهم أحسن حالا منك ! ! . .

فقال : تعبت والله يا أستاذ . .

قال : أعرف . ولكن إذا انتحرت فما هى القضية التى حللتها ؟ . .أرحت زوجتك وعذبت أولادك بفقدك . وعذبتهم مرة أخرى بالرجل الذى سترتبط به زوجتك . .

ثم ضحك الأستاذ قائلا : يا مولانا عندى حل أفضل . . اقتل زوجتك . . واتهمنى بأننى السبب . وسوف يسألوننى وأقول إننى شاركت بالرأى . ولن يعاقبنى أحد ، ولكن سوف يخففون عنك

الحكم لأن الجريمة اشترك فيها أكثر من واحد . . ولن يحاكمنى أحد كما حاكموا الفيلسوف سقراط الذى اتهموه بإفساد الشباب ، فقرر هو أن ينتحر بالسم حتى لا يقتله أحد . . أراد أن يموت بيده ليكون مثلا رفيعا لتلامذته ! .

إذن فالأستاذ أصبح يسخر من هذه الفكرة . أى أنه يسخر من أنه فكر يوما ما فى أن ينتحر . . ولذلك كثرت العقاقير فى بيته ، إذن فهو يريد الحياة . وتضاعفت مؤلفاته . فالمؤلفات هى الحياة بعد الحياة ، ثم إنه يضحك أكثر . لقد أضاف لدنياه لونا ورديا .

هل أقول إنه شجع الجالس إلى جوارى على الحياة ؟ هل أقول إنه أراحه ؟ . . لا أراحه ولا أراحنى ؛ فقد أصاب الأستاذ عصفورين بحجر واحد . . أصابنا معا . ولكنه لا يعرف شيئا مما أعرف . ولا يعانى مما أعانى . . غير أن الحق معه فى أن أحدا لا يفكر إن كان قتل النفس حلالا أو حراما . . إن قتل الغير حرام . ولكن قتل الإنسان لنفسه لا هو حرام ولا هو حلال . . إن كل إنسان قد أقام فى داخل نفسه محكمة ، هو القضاة والشهود ووكيل النيابة والمحامى ، ثم إنه هو وحده الذى يقول : محكمة . . حكمت المحكمة حضوريا بالإعدام شنقا أو حرقا أو غرقا . .

وفى لحظة واحدة تختفى المحكمة والمتهم والشهود والدنيا معه . . دنياه هو !

كانت طويلة جدا تلك الساعات والأستاذ يحدثنا عن أنفسنا . . جارى وأنا . . ولم يكن مألوفا أن يذكر أحد اسم شوقى أمير الشعراء . . فالأستاذ لا يطيقه . . ويسخر منه ويصف شعره بأنه مثل السبحة . . كل بيت له وجود مستقل . ولذلك يمكن أن يوضع البيت الأخير مكان البيت الأول . . ولكن القصيدة كما يراها الأستاذ مثل الكائن الحى . . العين فى مكانها والأذن والأصابع والقلب . إن القصيدة كائن حى . . وترابط الأبيات ترابط عضوى . . وليس كذلك شوقى والمتنبى وأبو تمام وشاعرى المفضل محمود حسن إسماعيل الذى كان يكرهه العقاد بصفة خاصة .. وكنت أجد فى حبى لمحمود حسن إسماعيل تمرداً على الأستاذ وخيانة يومية له !

ثم تشجع واحد فأنشد أبياتا من قصيدة نظمها شوقى عن الطلبة الذين ينتحرون بسبب صعوبة الامتحانات – ولست واحدا من هؤلاء ، وربما كانت مشكلتى أننى أنجح بتفوق دائماً . ولكنى ألقى ما يلقاه الراسبون الفاشلون : الكثير من الإهمال واللامبالاة . . ولست ألوم أحدا . فلا طاقة لمن حولى بهذه المعانى .

وقف جارى ولكن الأستاذ طلب إليه أن يجلس ، وإذا شاء أن يقف فليضع شوقى وقصيدته تحت قدميه ! .

ولكنه مضى يقول :

ناشئ الورد من أيامه حسبه الله ، أبالورد عثر؟

سدد السهم إلى صدر الصبا ورماه فى حواشيه الغرر
كل يوم خبر عن حدث سئم العيش ، ومن يسأم يذر
لامه الناس وما أظلمهم وقليل من تغاضى أو عذر
قال ناس : صرعة من قدر وقديما ظلم الناس القدر
ويقول الطب : بل من جنة ورأيت العقل فى الناس ندر
ويقولون : جفاء راعه من أب أغلظ قلبا من حجر
ليس يدرى أحد منكم بما كان يعطى ، لو تأنى وانتظر
رب طفل برح البؤس به مطر الخير فتيا ومطر
وصبى أزرت الدنيا به شب بين العز فيها والخطر
ورفيع لم يسوده أب من أبو الشمس ؟ ومن جد القمر ؟
فيم تجنون على آبائكم ألم الثكل شديدا فى الكبر
وتعقون بلادا لم تزل بين إشفاق عليكم وحذر ؟
قاتل النفس – ولو كانت له – أسخط الله ، ولم يرض البشر !

وكأن الأستاذ لم يوجعنا بما فيه الكفاية فقال : يامولانا إذا أردت أن تجد سبباً أحسن للموت وجدنا لك .. كل شىء موجود هنا يامولانا .

ثم ضحك عاليا ليقول : هناك شاعر أندلسى « هايف » قال مرة :

الحمد لله بلغنا المنى لاحد فى الخمر ولا فى الغنا
قد حلل القاضى لنا ذا وذا وإن شكرناه أحل الزنا !

وانتهت الجلسة هذه المرة ، وكأنها محكمة بلا قضاة ولا شهود ولا محامين ولا متهمين ، إنما كان الأستاذ كل هؤلاء ، وكانت ضحكته العالية مثل البرق والرعد معا . تسوق سحبا قاتمة فتمطر دموعا فى قلوبنا . ونزلت السلم الصغير . ويدى على قلبى يكاد يسقط منى . . وعلى غير العادة لم أمش عائدا إلى البيت فى إمبابة .. أتذكر كل ما دار فى هذه الجلسة . . إنما اتجهت إلى المترو يحملنى إلى حيث أجد شجرة فى حديقة الأسماك أنام تحتها . . ونمت لأجد النمل ، ككل مرة ، يسعى حيا نشطاً على ملابسى . . ومن حولى الأطفال الصغار يلعبون ويضحكون . إنهم آمال حية ، إنهم مفردات الحياة الجميلة ، إنهم التحدى الأبدى للموت .. وغدا يكبرون كما كبرنا . . ثم لا يعرفون ، ولكنهم سوف يستمرون . . أو تستمر بهم الحياة . .

وفى ذلك اليوم أيضا سمعت من أحد أقاربى : والله يا ابنى أنت موهبة .. أنت بطل ! ..
كل ذلك حدث وتزاحم واحتشد فى يوم واحد .
إذن فلابد أن شيئا آخر غير الموت فى قاع النيل ينتظر هذا الذى يسمونه موهبة .. ولم أكن أعرف ذلك ..
وكان لابد أن أنقذ نفسى من نفسى . ولا أدعى أننى استطعت ذلك ، ولكن كتبا أخرى تداولتنى . . فتنقلت معها وبها إلى حالات أخرى .. هذه الكتب ضبطت عدسة عينى على الخارج .. على خارجى .. بعيدا عن مخاوفى وهمومى ..

إنهـا أصداء الطُفولـة !

كنت أرى فى الريف من يمسك ورقة ويشرب وراءها كوبا من الماء أو الشاى .. أما الورقة فقد كتبت عليها آية من القرآن الكريم . أو حديث نبوى شريف . ويقال إنها دواء يشفى من ألف داء – والله أعلم – وكان الناس يجدون فيها الشفاء . فهل الورق دواء ؟ .. هل القرآن دواء ، أو هو الإيمان الذى هو دواء ؟ ..

لقد كان الإمبراطور الحبشى منليك الثانى إذا أحس بآلام فى بطنه ، فإنه يفتح الكتاب المقدس ويبتلع صفحات وأحيانا أسفارا كاملة .. وقد ابتلع سفر « أيوب » أكثر من أربعين مرة . ويقال إن ابتلاع أوراق الكتاب المقدس هو الدواء الحقيقى لكل آلامه ..

ولابد أننى أيضا أنتسب إلى هذه الفصيلة من الناس الذين يبتلعون الورق من كل لون وكل حجم . كنت ولا أزال . فقد أصبح واضحا الآن لى ، ولغيرى ، أن دنياى ورق فى ورق .. حدودها عند المكتبات .. وحراسها باعة الصحف .. وأعداؤها باعة الحمص والسودانى ، فقد رأيت كتبا كثيرة – ومن بينها كتبى – يلفون فيها بضائعهم ..

وعندما كانت توجعنى عيناى من القراءة .. أو من ضعف النور .. أو ضعف نور عينى ، كنت أتمنى لو أن الإنسان اخترع شيئا جديدا غير الورق .. واخترع الإنسان الأسطوانات ، وبعد ذلك الكاسنتات ، فهى كتب مسموعة .. ثم الأفلام .. وهى كتب مسموعة ومنظورة معا .. ولكنى لم أستطع أن أعتمد على أذنى كثيرا فى الثقافة العامة .. فعندى المقدرة على أن أعرف شكل الكتب وأحجامها وألوانها .. ونوع الخط ونوع الورق .. وقد تدربت عيناى على ذلك تدريبا طويلا .. فعندما أنظر إلى الكتب وقد تكدست بعيدا عن عينى .. فإننى أقول لنفسى قبل أن أبدأ فى البحث عن كتاب : إن كتاب « فلسفة الجمال » للفيلسوف هيجل هو من أربعة أجزاء .. ورقها أصفر ، والعناوين بالأزرق ، ومجلد بورق شفاف .. وكتاب « الفلسفة الغربية » لبرتراند رسل . مجلد واحد ، لونه بنى ، والعنوان أصفر .. وكتاب « الشيطان » للشاعر الايطالى بابينى ، له غلاف أسود ، والعنوان أحمر . ورواية « الإخوة كرامازوف » من مجلدين .. الغلاف أزرق ، والعنوان على مساحة بيضاء . وقد تمزق الغلاف فألصقته بصمغ أسود ردىء .. وهكذا .. ولاتزال عندى هذه القدرة أو هذه العادة أو هذه الفراسة ..

وعندى ما هو أكثر من ذلك أيضا . فقد قرأت من عشرين عاماً كتاب « تاريخ الفلاسفة السياسيين » لجورج كاتلين . وهو من أحسن وأمتع الكتب التى عشت معها طويلا . وكان مدخلى إلى كثير من فلاسفة السياسة . ومنذ سنوات زرت د . جورج بطرس طبيب الأذن والحنجرة المشهور ، وهو من أكثر الأطباء ثقافة ومرحا . وفجأة وجدت هذا الكتاب عنده . فنهضت واقفا . وقلت له : إننى أريد أن أختبر قدرة قديمة عندى .. فى هذا الكتاب وعلى الصفحة اليسرى وفى الهامش فى الفصل المكتوب عن الفيلسوف الايطالى ماكيافللى توجد عبارة . . إن موسولينى قد جعل موضوع رسالة الدكتوراه التى تقدم بها لجامعة روما عن الفيلسوف ماكيافللى .

وبسرعة التقطت الكتاب ، ونفضت عنه التراب ، وقلبت فيه ووجدت الصفحة ووضعت أصبعى على الهامش . وأسعدنى ذلك . ثم كافأت نفسى بأن أخذت الكتاب دون إذن من د . جورج بطرس الذى ضحك قائلا : والله انت شاطر مرتين .. مرة لأنك عرفت ما تريد وأين تريد ، ثم أنك استوليت على هذا الكتاب ! . .

ولم يكن اهتمامى بموسولينى فى ذلك الوقت .. إنما كان اهتمامى بأحد تلامذته : هتلر .. هل لأن هتلر أعظم ، أو لأن الألمان أروع من الايطاليين .. أو لأن موسولينى قد اقترن اسمه بهزائم متكررة للقوات الإيطالية .. أو لوحشيته فى ليبيا وفى الحبشة ؟ . . ولكن النازية بنت الفاشية وماكيافللى هو أبو السفالة السياسية فى عصر النهضة والعصور الحديثة . وفى ذلك الوقت وجدت كتابا بعنوان « الأمير – فلسفة الغاية تبرر الواسطة » من ترجمة عبد الله حسن .. ولا أظن أنه كان مترجما ، إنما كان ملخصا .وإن كانت قد بهرتنى العبارات الإيطالية واللاتينية فى هذا الكتاب . وكنت فى ذلك الوقت أدرس اللغتين الإيطالية والألمانية معا .. أما اللغة الايطالية ففى أحد الأقسام الليلية فى المدرسة الإيطالية بالمنصورة .. وأما اللغة الألمانية فقد كان يعلمنا إياها رجل ساعاتى اسمه « هيرش » – وكان لى صديق من أصل ألمانى .. أمه ألمانية . ولذلك كنت أشعر أنا وآخرون أنه أجنبى : أشقر والعينان زرقاوان والشعر ذهبى ، ثم إننا لا نجده معظم الوقت . إذ لابد أن يكون فى بيته فى أوقات منتظمة . لا أعرف لماذا . ولكنه طيب لطيف وأحببته – أو هكذا أحسست نحوه .

وكنت أحب أن أستمع إليه وهو يحدثنا عن الأدب الألمانى الذى لم أكن أعرف منه أو عنه شيئا كثيرا .. فهو أول من حدثنى عن مسرحية « فاوست » للشاعر الألمانى جيته .. وهو أول من حدثنى عن « هكذا قال زرادشت » للفيلسوف الألمانى نيتشه .. واهتديت إلى ترجمة د . محمد عوض محمد لفاوست .. وقرأت «آلام فرتر» لفاوست أيضاً من ترجمة أحمد حسن الزيات .. وإن كان عبد الرحمن بدوي قد ترجمها بعنوان «آلام الفتى فرتر» .. وبدأت الأسماء الألمانية تجري على لساني ، أو لساني يجري بها ووراءها .

ثم كان كتاب الأستاذ العقاد عن « تذكار جيتي » الكتاب صغير مثل مفاتيح الخزائن الكبرى . ولا يوجد كتاب للأستاذ العقاد لا يبدأ بعبارة تشبه هذا المفتاح . فعن طريقها تهتدى إلى أعماق الشخصيات التي يتناولها . وفلسفة العقاد تدور كلها حول الأشخاص ، لأن التاريخ يصنعه الأشخاص الممتازون . والممتازون متنوعون . وهم لذلك معقدون . وكل الأجهزة الدقيقة معقدة . والعقاد هو صانع المفاتيح الأولى فى الفكر العربى . ولذلك فكتابه عن الشاعر الفيلسوف جيته تحفة أدبية . وبعد أن قرأت كتاب الأستاذ ، رجعت إلى آلام فرتر وإلى فاوست .. ووجدت أن محمد عوض محمد قد ترجم جيته عن الألمانية . وترجمه شعرا أيضا !! وأن أحمد حسن الزيات قد ترجم « آلام فرتر » عن الفرنسية .. ولم أدرك الفرق فى ذلك الوقت ، إلا أن د . محمد عوض محمد قد ارتفع فى عينى ، واتجهت أبحث عن أعماله الأخرى فى المكتبات . ووجدت ترجمة له عن مدارس النقد الأدبى ، ولم أفهم منها شيئا .

وفى ذلك الوقت قرأت مقالا للدكتور محمد مندور فى مجلة « الرسالة » يصف الأستاذ بأنه جورجياس مصر .. ومن معلوماتى القليلة فهمت أن د . مندور يصف الأستاذ بأنه سفسطائى ومغالط مثل فيلسوف الإغريق جورجياس .. وقد ضرب د . مندور لذلك عشرات الأمثلة . أما الأمثلة فهى التى رأيتها حججا منطقية مقنعة .. أو رأيتها صروحا فلسفية وعمارات فكرية .. ولم أهتم كثيرا بما قاله د . مندور ، بل كنت كلما رأيت له مقالا زحفت عليه بعينى وتجاوزته إلى ما بعده من المقالات الأخرى . .

ولكن فى ذلك الوقت أيضا وجدت مقالات عديدة للدكتور محمد مندور ، ولم أجد من السهل أن أتجاهلها . قرأته مرة ثم عدت إليه . إنه مختلف عن الأستاذ فى الأسلوب وفى الثقافة .. وإذا كان أسلوب الأستاذ وابور الزلط ، فإن عبارات محمد مندور لها صوت ماكينة الخياطة .. فالعقاد يسوى الأرض بقوة . ومحمد مندور يغزل خيوط الفكر فى همس .. ولذلك طلع علينا د . محمد مندور فى ذلك الوقت بنظرية « الأدب المهموس » .. وقالوا المهموز .. وقال الأستاذ : بل الأدب المنحوس لأديب ملحوس ..

ويضحك عاليا ..

وكان من عادة الاستاذ أن يتلاعب بالأسماء أو يقلبها ويجعلها مادة للفكاهة . . فهاجم شخصية مسئولة عن الكهرباء أو إدارة النور فى مصر الجديدة ، اسمه : عصمت عكاشة .. فقال : يا مولانا هل من المعقول أن يكون مسئولا عن الإضاءة رجل : اسمه عصمت ، وهذا اسم تركى ، وأبوه اسمه عكاشة ، وهذا اسم فرقة هزلية ؟ ! . .

وتفسير ذلك أن كل هذه الأسماء التى تنتهى بتاء مفتوحة هى أسماء تركية : عصمت وعفت

ومدحت وعزت ورأفت . أما الشكل العربى لها فهو : عصمة وعفة ومدحة وعزة ورأفة .. أما عكاشة ، فهو يشير إلى فرقة عكاشة المسرحية الكوميدية ! . .

وغير ذلك من التفسيرات الغريبة المدهشة .. والتى تدل على أن الأستاذ يرى أن كل شىء لابد أن يكون منطقيا . وأن يكون كل الناس واعين بنفس درجته من الوعى .. وقد سئل الأستاذ عن كلمة « العقاد » ، فقال إن أجداده كانوا يعملون فى « عقد » الخيوط الحريرية .. وقال أيضا : إذا كان أجداده يعقدون الخيوط فإنه يحلها .

تماما كما كان سقراط يقول عن نفسه : إن أمه كانت مولدة .. وإنه هو أيضا يقوم بنفس العمل ، لأنه يولد المعانى من عقول الناس !

وهو من أجل أن يكسب قضية من القضايا فإنه يقلب الدنيا على رأس خصمه الفكرى .. ولعل ذلك هو ما يسميه د . مندور بالسفسطائية .. أى المغالطة فى التفكير . ولكن لم أجد فى ذلك الوقت أن الأستاذ العقاد كان كذلك .. أو لا أدعى أنى اهتديت إلى مثل هذه المغالطات التى يجعلها الأستاذ نكتة . والنكتة سلاح من الأسلحة . لأنك عندما تجعل إنسانا مضحكا أو مثيرا للضحك ، فقد جردته من كل مقومات الإنسان المحترم . وألبسته زى البهلوان أو الأراجوز أو الحيوان ..

وفى صالون الأستاذ العقاد التصقت صفات محددة بعدد من الناس .. لا يكاد يراهم حتى يذكرنا بأسمائهم فنضحك . حتى نسينا أسماءهم الحقيقية . وأصبحت الندوة حفلة تنكرية . هو يضحك ونحن أيضا . لقد انهزموا تماما أمامه ، ولكن رأوا فى هذه الهزيمة تصريحا لهم بأن يكونوا أقرب إليه ، وأحب أيضا !

ولا أعرف من الذى قال لى فى ذلك الوقت : إننى حزين .. وإننى أرى الدنيا بصورة جادة . وإن فى الدنيا مرحا وهزلا ولكنى لا أرى ذلك ..

ولا أعرف من الذى نبهنى إلى أننى ألف كوفية حول رقبتى تشبها بالأستاذ العقاد . وكنت أفعل ذلك دون سبب معقول . وبسرعة نزعت الكوفية ، فإلى جانب الأستاذ قد ظهر مؤلفون كثيرون مختلفون . وإن كان الأستاذ العقاد أعظمهم .. وبدأت ألاحظ أننى أقول : من رأيى .. وأنا شخصيا قد قرأت .. وأنا لا أتفق معه .. ولم يفلح فى إقناعى .. ولم أفكر فى هذا الموضوع كثيرا .. إلخ .

وإن كان لهذه العبارات معنى ، فهو أننى بدأت أختلف أو أحاول أن يكون لى رأى خاص . وأننى أخذت أضيق بمن يصفنى بأننى العقاد الصغير . هل أنا الذى أوهمت زملائى بذلك ؟ هل أنا الذى شجعتهم على أن يصفونى هكذا ؟ أعتقد أننى فعلت ذلك .. وإن كنت لا أدرى ما الذى يمكن عمله أو قوله أو كتابته أو قراءته لكى يكون الإنسان كالعقاد الصغير أو الكبير .. ولكن فى ذلك الوقت فى مدرسة المنصورة الثانوية ، كنت أرى بعض الزملاء بأوصاف مختلفة : هذا من يصفونه بأنه الشاعر

على الجارم الصغير.. أو شوقى الصغير، أو طه حسين الصغير.. أو المنفلوطى الجديد.. ولا أظن أننى كنت معروفا فى المدرسة بهذه الصفة. وكل ما أدركه بوضوح هو أننى كنت طالبا منتظما أو «نظاميا» مجتهدا..وعندما يجيء مفتش أو مدير إلى المدرسة فلابد أن يقدمونى إليه مع صفات كثيرة تخجلنى.. وإن كنت أشعر بالخجل لمجرد استدعائى ووقوفى أمام الزائر الكبير دون أن أعرف ما الذى أفعله أو أرد به على كلامه أو أسئلته.. وكانت هذه المقابلة الغريبة المفاجئة تنتهى عادة بعبارة لناظر المدرسة أو مدرس أول اللغة العربية أو الإنجليزية: بأن هذا التلميذ خجول جدا. ولكنه أحسن تلميذ عندنا!..

ولأسباب ليست واضحة عندى تماما أقبلت على قراءة سلسلة كتب عنوانها «جولة فى ربوع أوروبا» و«جولة فى ربوع أفريقيا» و«جولة فى ربوع آسيا» للأستاذ محمد ثابت.. هل أقول إنها بداية الانفتاح الفكرى فى حياتى كلها؟ هل أقول إن هذه الكتب قد غيرت مجرى حياتى؟.. هل هى المسئولة عن أننى قلبت عينى، فبعد أن كنت مسلطا على نفسى، أصبحت أتجه إلى العالم الخارجى.. وأصبح هذا الاتجاه أملا أو حلما؟.. هل صحيح أننى كنت أحلم فى ذلك الوقت بأن أرى الدنيا التى يتحدث عنها الأستاذ ثابت؟.. هل تمنيت أن أدور حول الأرض وأن أرى كل شيء بعينى وألمسه بيدى؟.. إن صور الأستاذ ثابت أكبر دليل على أنه ذهب ورأى وعاش ثم عاد فكتب..

لا أعتقد أننى تمنيت شيئا من ذلك.. ولا أعتقد أن هذا الكتاب قد بهرنى كثيرا. ولكنه غير مسارى الفكرى وجعلنى أتجه إلى قراءة الرحلات.. أو الجغرافيا أو تاريخ الشعوب..

فقد كان عالمى فى ذلك الوقت محدودا جدا. ولا أظن أننى كنت أضيق به. فأنا أمشى كل يوم فى شارع واحد لم أغيره.. بين المدرسة والبيت. وبين البيت والمكتبة الفاروقية على النيل.. ثم أتجه إلى حى توريبل وبعد ذلك إلى حى شجرة الدر، مارا على الكوبرى العلوى بجوار مدرسة البنات الثانوية.. وبعد ذلك أعود إلى البيت. ولا أعتقد أننى لاحظت الأشجار أو الحدائق أو البيوت الكبيرة.. أو نظرت إلى النيل أو رأيت الجانب الآخر منه.. فنحن، أنا وأصدقائى، نتكلم طول الوقت.. وتمر الساعات ونحن نتفادى الاصطدام بالناس أو بالعربات دون وعى كامل..

وفجأة ظهر لنا صديق جديد.. إنه مختلف تماما. إنه لا يقرأ إلا كتب التاريخ. وهو يتحدث عن مصر كثيرا. وعن محمد على والحملة الفرنسية وعن مذكرات شفيق باشا المصرى.. وعن عرابى باشا.. وعن شجرة الدر التى حكمت مصر والتى استخدمت القباقيب الخشبية أسلوبا فى القتل – وفى كل مرة نتحدث فيها عن أديب أجنبى، يتحدث هو عن أديب مصرى أو عربى.. هل لأن أباه مدرس اللغة العربية؟.. هل لأن أباه أزهرى وعمه ناظر مدرسة؟.. وكان الاستماع إليه متعة مضمونة.. فهو يعرف الكثير. وهو قادر على الإثارة وعلى أن يتكلم وحده ليلة كاملة..

وفجأة كنت أمشي وحدى على الكوبرى العالى ، فاقتربت منى فتاة . طالبة .. وسألتنى : كم الساعة ؟ ولم تكن معى ساعة . فقلت دون أن أراها بوضوح : السابعة ..

ومضيت .وسبقتها ، ولكنى كنت غير متوازن الحركة أو الخطوة .. فقد أحسست أنها فاجأتنى . أربكتنى . وأنها تمشى ورائى تنظر إلى .. وكان من عادتى إذا مشيت أن أكون مسرعا ، وألا أنظر يمينا أو شمالا .. كالألف .. أو كالسهم .. وربما كان تفسير ذلك أننى لا أريد أن أنظر إلى أحد .. أو أن ينظر إلى أحد .. فليست عندى هذه الشجاعة على المواجهة .. ولا القدرة على خلق صداقة جديدة .. لم أكن اجتماعيا .. فقد اعتدت على عدد من الأصدقاء ، لا أزيد عليهم ، ولا أخرج عنهم .. وكما اعتدت عليهم ، اعتدت أيضا على الحوار معهم فى موضوعات محددة ..

وظهرت هذه الفتاة كثيرا بعد ذلك .. ولم أستنتج من ظهورها أى معنى .. فقد كنت أراها بالقرب من بيتنا .. وفى طريقى إلى المدرسة ذهابا وإيابا .. ورأيتها تجلس على عتبة البيت الذى فى مواجهة بيتنا .. ثم رأيتها فى بيتنا .. وكان حادثا مروعا . كيف ؟ لماذا ؟ ولم أعرف ما الذى أفزعنى فى ذلك .. إنها هى الأخرى طالبة ، وتريد أن تستعيركتاب « عبقرية محمد » للأستاذ العقاد.. ولم أذهب فى استنتاجى إلى أبعد من أنها تريد كتاباً .. وعندما أعادت الكتاب وجدت خطابا منها .. كان مفاجأة .. لا أذكر شيئا الآن مما قالته .. ولكن بعد أن قرأته مزقته فورا . فقد استنكرت ذلك . ولكن بدأت أنشغل بالتفكير فيها بعض الوقت .. أما ملامحها : فهى سمراء سوداء العينين سوداء الشعر .. نحيفة .. إذا مشت كانت مثل البطة أو الاوزة أو راقصات الباليه . تتساند على الجانبين وتفتح القدمين .. ولم أعد أراها بعد ذلك .. وقيل لى فيما بعد إن هذا هو الحب – أى بداية الحب .. وإنها هى التى بدأت ، لأننى لم أحاول ذلك .. وإن هذه هى القاعدة : إذا أنت طاردتها هربت منك ، وإذا أنت هربت منها طاردتك .. ولم تكن هذه سوى عبارة ضمن عبارات كثيرة عن المرأة وعن العلاقة بين الشبان . أو بين الرجال والنساء ..

هل عندما رأيت فيلم « شمشون ودليلة » أعجبتنى البطلة هيدى لامار ، لأن بها شبها من هذه الطالبة ؟ تصورت ذلك بعض الوقت . اعتمادا على قاعدة فى السلوك الإنسانى أيضا : أن الحب الأول هو الحب المستمر أى الذى يظهر دائما . . وأن الوجه الأول هو الأول والأخير؟ . .

ولكن هذه الحادثة التى هزت هدوئى بعض الوقت لم تكن حبا ، ولا اهتماما . . إنما هى مفاجأة أدت إلى استطلاع – أى إلى رغبة فى أن أعرف من هى ؟ ولماذا ؟ حتى هذه الرغبة لم تتوافر . فلم أكن فى ذلك الوقت مفتوح العينين على الخارج ، لقد غرقت فى نفسى . . ومع نفسى ، فأنا لا أحتاج إلى عينين .. إلى أذنين فقط . . بل إننى مع نفسى بلا عينين ولا أذنين ! . .

هل عندما التقيت بالممثلة الايطالية اليانورة روس دراجو . بطلة أفلام كثيرة مثل : الجنس

والدب القطبي الشمالى ، كان اهتمامى بالكتابة عنها ، أنها شبيهة بتلميذة المنصورة ؟ لقد توهمت ذلك وأنا افتش فى أعماق عن الينابيع المتدفقة فى سلوكى الاجتماعى ومذهبى الفلسفى . لا أظن ذلك ، فليس بينهما شبه من أى نوع ، إلا أن التلميذة سمراء مصرية ، والنجمة الايطالية سمراء خمرية إيطالية .. وإلا أن المصرية قد اعترضتنى ومضت واختفت .. وأن الإيطالية كانت بطلة لأفلام من تأليف أدباء عظماء أعجبونى وشغلونى .. فليست هى التى تهمنى ولكن الذى تقوله ، والذى تعبر عنه ..

ولم تكن كتابتى عن وجوه الشبه بين وجه ظهر واختفى فى طفولتى ، وبين هذه النجوم العالمية اللامعة ، إلا افتعالا كبيرا وإلا تزييفا متعجلا لأصول الأشخاص والعلاقات والأفكار فى أعماقى .. وإلا محاولة مبكرة جدا لأن أفتش فى الماضى . فلم يكن الماضى ، يوم حاولت ذلك ، بعيدا سحيقا .. إنه بضع سنوات لا تصنع تاريخا لكاتب سوف يكون ! . .

ومن العبارات التى التصقت برأسى كثيرا عبارة عادية جدا تقول : إن التعلم فى الصغر كالنقش على الحجر ، والتعليم فى الكبر كالنقش على الماء ..

ولابد أن تكون هناك أسباب قوية لبقاء هذه العبارة المتواضعة التركيب زمنا طويلا فى نفسى ..

وأذكر أننى كنت أحاول فى ذلك الوقت من دراستى الثانوية أن أسجل « مذكراتى » - وهى ليست إلا حوارا وهميا مع آخرين . . أى مع نفسى . وفى ذلك الوقت وجدتنى أكتب حديثا أو نشيدا بعنوان : إليها ..

ومن الغريب أنه لم يكن هناك أحد فى حياتى - حتى كلمة « حياتى » هذه جوفاء من أى معنى . فلم تكن هناك حياة . إنما كلام فى كلام وانسحاب مع خوف شديد من البعد عن الكلام وعن الشارع الوحيد والأصدقاء الثلاثة . وعرفت فيما بعد أن كلمة « إليها .. » .. هذه مأخوذة من اسم مقطوعة موسيقية لمحمد عبد الوهاب .. فالكلمة مستعارة . .

وكان لى قريب أكثر شجاعة منى وأشد حيوية . وكان يحدثنى عن مغامراته فى الحب فهو يعرف - كيف ؟ - فتيات كثيرات . ويلتقى بهن . ويحب .. ويقابلهن سرا ، ويبعث إليهن بخطابات ، ويتلقى ردودا عليها - وكنت لا أجد لهذه « الأفعال » أى معنى . ولم أفكر فى ذلك . وقد عرفت فيما بعد ما أضحكنى : إنه هو الذى يبعث لنفسه بالخطابات الغرامية . والخطابات مكتوبة بحبر أخضر على ورق أزرق .. وكان يعرض علينا هذه الخطابات . ولم أتجاوز الدهشة من ذلك ولذلك ، إلى محاولة أن أعرف ..

هل تأثرت - لا شعوريا - بهذا الذى أسمعه أو أقرؤه . وحاولت أنا أيضا بصورة خجول أن تكون لى « واحدة » وأن أكتب إليها ؟ ! .. ربما كان ذلك ، وعندما عدت إلى ما كتبت وجدت أننى

ذكرت أسماء عدد كبير من الناس : بسمارك وهتلر ونيتشه والمتنبي وشوبنهور وماكيافللي والعقاد والعقاد والعقاد ومحمود حسن إسماعيل .. وفي استطاعتك أن تتخيل ما الذي يمكن أن يقال لفتاة وهمية إذا جاءت هذه الأسماء في خطاب غرامي إليها ! ..

في ذلك الوقت كنت أحاول كالأطفال الصغار أن تكون لي طريقة خاصة في الكتابة . فالأطفال الصغار إذا تعلموا كلمة جديدة . فإنهم يسرفون في استخدامها ثم يقلبونها .. وكذلك كثير من الكلمات .. إنهم يلعبون بمفرداتهم الجديدة .. وهم بذلك يؤكدون ذواتهم . وكنت أقول في مذكراتي : لماذا نقول إن مقالا قد نشرته مجلة كذا « بقلم » فلان ؟ .. لماذا لا نقول « بألم » فلان – أي أن المقال من واقع ألمه ؟ .. ولماذا نقول : تأليف فلان .. ولا نقول « تأليم » فلان – أي من واقع عذابه وألمه ؟ ..

هل سبب ذلك أن الحوادث التي تقع في الطفولة تبقى هناك ؟ نعم . وهذا هو الذي جعل كبرى مدارس علم النفس عندما تبحث عن عذاب الشباب والرجولة . تعود إلى التنقيب عن الذي حدث في الطفولة .. إنني أجد هذا المعنى ينطبق تماما على نفسي أو نفسيتي ، فالذي أوجعني في طفولتي انتعش في رجولتي ، وبنفس الحيوية . فإن كان إهانة ، رددتها حتى لو كان ذلك متأخرا .. وإن كان ذلك رغبة في شراء كتاب ، عدت إليه فاشتريته .. وأذكر أني اكتشفت في مرحلة متأخرة من حياتي أن أحد أقاربي قد أيقظني من النوم ليسألني عن كتاب أخذته من بيته دون إذن منه .. فتركته أمي ، يقلب في كل مكان في البيت . ويلقي بكتبي كلها على الأرض وملابسي . دون أن أتحرك من مكاني على السرير. ولم يجدوا الكتاب . وبعد أن يئسوا تماما من أن أرد عليه بكلمة واحدة أخرجته من تحت المخدة . ومنذ سنوات قليلة اكتشفت أن في مكتبتي تسع نسخ من هذا الكتاب : ثلاثا بالإنجليزية وترجمات فرنسية وإيطالية وألمانية وأسبانية .. ومن الغريب أنني اشتريت ترجمة عبرية ، رغم أن معلوماتي في اللغة العبرية متواضعة جدا .. أما الكتاب فهو « الأكاذيب التقليدية » للكاتب المفضل عند الأستاذ العقاد : ماكس نورداو ..

وعرفت فيما بعد أن سبب إعجابي بالممثلة النمساوية الأصل هيدى لامار والممثلة الإيطالية اليانورة روس دراجو ، كان لسبب آخر ، وهو سبب حقيقي ، فقد كانت لي أخت غير شقيقة . ماتت . وحزنت عليها بعد وفاتها لسنوات طويلة . فقد تمنيت أن تعيش . كانت سمراء طويلة جميلة ، وكانت تحبني كثيرا . وقد وعدتها وأنا في الخامسة من عمري أن أتزوجها إذا كبرت . وكانت تطلب مني أن أقول ذلك كثيرا أمام الناس ليضحكوا جميعًا ..

ووجدت في « مذكراتي » أيضا مثل هذه العبارة : من تعلم تألم .. أي التعليم تأليم .. ولذلك كان الألم نقشا على الحجر .. وهذا الحجر هو في أعماق كل واحد منا ..

مثلا : ولا ذنب للأستاذ محمد ثابت صاحب هذه الجولات فى كل ما حدث .. فى إحدى الحصص عندما تحدث المدرس عن سكان الحبشة قال إنهم : فى لون الكاكاو ..

وبمنتهى السذاجة وحسن النية طبعا ، سألت المدرس : ما معنى كاكاو ؟ .

وكان ضحك زملائى من التلامذة عشرات الصفعات على وجهى ، والدقات على رأسى حتى أحسست بغيبوبة تامة . ولم أكن قد رأيت الكاكاو .. فقد أكلت الشيكولاته ككل الأطفال . ولكن لم أعرف أن الكاكاو يدخل فى تركيبها ؟

وأعتقد أننى أمضيت عشرات السنين لا أذوق الشيكولاته وكنت لا أبدى سببا واضحا لذلك وكنت أقول إنها تسبب لى حساسية . ولم يكن ذلك صحيحا . إننى كرهتها .. ولم تكن الأسباب واضحة عندى طول الوقت ..

وبدون تفكير عندما وجدت كتاب « جولة فى ربوع أفريقيا » للأستاذ ثابت تركته ملفوفا فى ظرف أصفر سنوات دون أن أقربه .. ولكنى اتجهت إلى « جولة فى ربوع أوروبا » . هل لأننى كنت مشغولا بالفكر الأوروبى ؟ أو هل السبب هو أن الحديث عن أفريقيا هو عن أناس فى لون الكاكاو ؟ ربما كان السببان معا ..

ولابد أن دفاعى عن الأستاذ العقاد الذى لم يسافر إلى الخارج إلا ثلاث مرات : مرة لأداء الحج ، ومرة إلى فلسطين ، ومرة ثالثة إلى السودان .. سببه أننى لا أحب السفر . أو على الأصح لا أستطيع . ولذلك رأيت أنه ليس من الضرورى أن يسافر الإنسان ليعرف الدنيا. إنها تجىء إليه فى الكتب – وكان الأستاذ يردد ذلك . وكان يقول : لا يوجد شىء فى الخارج إذا لمسته الآن حلت فيك البركة والحكمة . من أين جاء سقراط بفلسفته وهو الذى لم يترك بلاده ؟ .. ومن أين أتى بها أبو العلاء المعرى وهو الذى لم ير بلاده .. وكذلك الشاعر الأعمى هوميروس ؟ ..

هل كنت مقتنعا برأى الأستاذ العقاد ، أو هل لأسباب عميقة كرهت السفر إلى بلاد أهلها فى لون الكاكاو . ثم كرهت السفر عموما ؟ .. ومن الغريب أننى جاهرت بذلك ، مع أننى لم أملك وسيلة للسفر .. فالإنسان يرفض ما يقدر عليه . ولا يرفض ما يعجز عنه .. فالإنسان يقول مثلا : لا أحب السفر . رغم أننى أستطيع ذلك .. ولكن لا يقول : لا أحب السفر لأننى عاجز عن ذلك ..

إذن فالألم فى الصغر كالنقش على الحجر . والألم فى الكبر كالنقش على الماء – هذه العبارة أقرب الآن إلى المعنى الذى أحاول أن أوضحه ..

وإذا كان « الجولات » الأستاذ محمد ثابت من أثر فى نفسى فلابد أن يكون هكذا : إنها رحلات غير مشبعة وغير مقنعة .. فهى مشروع مذكرات أو ملاحظات خاطفة لم تصبح كتابا بعد .. أو إن الرحلات يجب ألا يكتبها الإنسان هكذا ..

وأعتقد أن هذا المعنى هو الذى بقى فى نفسى بعد ذلك ، فأصدرت كتبا عن الرحلات هى أقرب إلى الأدب والتاريخ والفن والفكاهة والفلسفة والتحليل النفسى للشعوب .. ولم يكن الأستاذ محمد ثابت هو السبب المباشر.. إنما كانت الرحلات نفسها هى السبب .. وكانت مؤلفات كاتب أمريكى كبير هو « جون جنتر » .. فقد أصدر سلسلة من الكتب بعنوان « فى داخل .. أفريقيا .. وأوروبا .. وروسيا .. وأمريكا اللاتينية » وكان هذا المؤلف الأمريكى يجمع المعلومات والنوادر قبل أن يسافر إلى هذه القارات . فإذا سافر أضاف إلى المعلومات تجاربه الشخصية . فكأنه لم يكن مؤلفا واحدا ، إنما هو مؤسسة يشترك فى تأليف كتبه أناس كثيرون . فى حين أنه هو الذى ذهب ورأى وسجل ووقع باسمه فى النهاية .. إنه ماركة مسجلة مشهورة . ومن الممكن أن يضع هذه الماركة على أى كتاب ، وهو ضامن تماما أن يكسب من ورائه ملايين الدولارات .. وعرفت بعد ذلك كاتباً آخر هو جيمس متشنر. إنه ليس أديب رحلات فقط ، إنما هو روائى ومؤلف أفلام سينمائية . .

ولم يعجبنى فى ذلك الوقت ما كتبه د . محمد حسين هيكل عن ذكرياته فى السودان .. فقد كان جافا خشنا . ولا أعجبنى كتاب : الإنجليز فى بلادهم ، للدكتور حافظ عفيفى ، فقد أحسست أنه يتحدث إلى أناس آخرين .. بينما أعجبنى كتاب « تخليص الإبريز فى تلخيص باريز» لرفاعة الطهطاوى .. لقد كانت دهشته لا حدود لها ، ولكنه لم ينس مصر ، بل تمنى أن ينقل إليها كل شىء عجيب رآه فى فرنسا .. ابتداء من عربات الرش فى الشوارع والأكل بالشوكة والسكينة والملعقة وإلى أن يأكل كل إنسان من طبق واحد ، حتى الدستور الفرنسى الذى ترجم الكثير من مواده . . .

ولا هزنى كتاب المويلحى « حديث عيسى بن هشام » عن ذلك الرجل الذى مات ثم صحا ليرى الدنيا قد تغيرت .. تماما كأنه صورة حديثة لأهل الكهف الذين ناموا مائتى سنة ، وخرجوا من كهفهم ليذهلوا الناس بأنهم ناموا ولم يموتوا .. أو كأنه « لعازر» الذى أحياه المسيح بإذن الله ..

وفى المكتبات وجدت كتاب « ألف ليلة وليلة » ولم أصبر طويلا على قراءتها .. وإن كنت قد عدت إليها بعد ذلك .. هل لأن لغتها العربية ركيكة ؟ هل لأنها لا تشبعنى معانيها ؟ .. هل لأنها لا تحدثنى باللغة التى اعتدت عليها ؟ .. هل هو عيب فيها ، أو العيب فى أنا ؟ لم أناقش هذه القضية مع نفسى أو مع أى حد .. إنها لم تعجبنى ..

أما الذى ردنى إلى « ألف ليلة وليلة » فهو د . حسين فوزى .. فهو إسكندرانى عاشق للبحر . وهو عالم وأديب أحب السندباد البحرى .. ولذلك عاد إلى قراءة ألف ليلة وليلة ، باحثاً أثريا جغرافيا وعالما بالأحياء المائية .. ووجدت أحاديثه عن السندباد الحديث والقديم دعوة حارة إلى الحياة مع السندباد البرى والبحرى ومع شهريار وشهرزاد والحيوانات الخرافية من كل لون وحجم ..

وعلى الرغم من أن د . حسين فوزى كان عاشقا ولهان ، فإن العالم الكبير لم يسحق قلبه بعقله .. إنما كان هو العالم ذا القلب الرقيق .. أو هو العالم الشاعر الواقعى والرومانسى أيضا ..

لقد أعطانى د . حسين فوزى عددا كبيرا من مفاتيح المعرفة التاريخية والفنية والموسيقية .. أعطانى قلبا جديدا ، أحب به شيئا جديدا .

ومن حين إلى حين يظهر حولى اسم د . محمد مندور .. وفى مقال نشرته مجلة « الرسالة » يقول : إن الإنسان لا يبحث عن الأشياء حيث يجب أن يجدها ، ولكن يبحث عنها حيث يمكنه ذلك ، حتى لو لم يكن هناك أمل فى أن يجدها ..

وحكى أنه كان فى أحد كباريهات باريس ، فظهر على المسرح رجل مخمور يبحث عن مفتاح بيته .. واقترب منه أحد رجال الشرطة ليسأله : عن أى شيء تبحث ؟ فقال : عن المفتاح . وسأله الشرطى : وهل سقط منك هنا ؟ فقال : بل فى أول الشارع . واندهش الشرطى وسأله : ولماذا تبحث عنه هنا ؟ فقال الرجل المخمور : لأن المكان هنا مضاء ! ..

وفى الأسبوع التالى جاء رد الأستاذ العقاد : ان هذه النكتة التى رآها الدكتور فى باريس . قد ألفها السيد جحا التركى دون أن يكون فى حاجة إلى أن يذهب إلى باريس ... فالنكتة قديمة ! ..

ثم أشار الأستاذ إلى مصادر النكتة .. ولا أعرف ما الذى كان قد كتبه د . مندور . ليرد عليه الأستاذ فى مقال آخر : حتى هذه قديمة يا مولانا .. إنها موجودة فى التوراة . ويكفى أن تقرأ « نشيد الإنشاد » لتجد أن فتاة ترعى الغنم قد رفضت التاج والعرش ، لأنها تفضل راعيا اختارها فاختارته . أما سليمان فقد كرهته الفتاة لأنه اختارها ، ولكنها لم تختره . حتى قصتك هذه التى ذكرتها قديمة ! ..

والذى أثارنى فى ذلك الوقت أن هناك معارك كلامية وتاريخية ومنطقية .. وأن هناك بطولات ، لم ينفرد بها الأستاذ العقاد .. إنما ينازعه عليها كثيرون .. وأن هناك كتابا آخرين يجدون ما يقولون ، ويحسنون ذلك تماما . وأن هناك ثقافة إنجليزية وثقافة فرنسية ..

وأهم من ذلك أننى لم أكن أعرف « نشيد الإنشاد » هذا .. وعلى الرغم من حرصى على أن أعرف ، فقد وجدت نوعا من الخجل فى أن أسأل .. كأنه مفروض أننى أعرف كل شيء .. أو كأننى عندما قرأت كل الكتب الأدبية فى المكتبة العامة بالمنصورة ، فقد أتيت على كل ما فى الدنيا من كتب ..

ولم أجد إلا زوجة صاحب البيت ، وهى سيدة يهودية ، ولم أكد أسألها حتى اختفت لتعود بكتاب كبير جلدته سوداء وأطراف أوراقه حمراء .. وفيه شريط أخضر ليفصل بين الصفحات .. ثم أشارت إلى مكان « نشيد الإنشاد » من هذا الكتاب المقدس الذى رأيته لأول مرة .. لقد صدمتنى لغة الكتاب المقدس ، إنها ركيكة . وتراكيبها عجيبة غريبة . ولم أقلب فى الكتاب كثيرا . إنما بحثت

عن نشيد الإنشاد وقرأته مرة ومرة .. ان هذا النشيد على لسان فتاة تحب راعيا وتتغنى فى عينيه وشعره وطعمه وحلاوته .. وتقول إنه جميعا « مشهيات » .. وتطلب إلى بنات أورشليم ألا يوقظن الحبيب النائم .. وتقول إنها نائمة ولكن قلبها لا ينام .. وهى تطلب إلى بنات أورشليم أن يعذرنها فهى مريضة حبا .. وتطلب إلى حبيبها أن يجعلها خاتما على صدره .. على ذراعه حتى لا تفترق عنه .. وتقول له : إن الحب كالموت .. أى يفنى الإنسان فى الذى يحبه .. أو أن الحب هو نهاية كل حى ، تماما كالموت ..

ثم تصف شفتيه وطعم ريقه ، وصدره وبطنه ونهديها ، وكيف برح بها الحب .. أما مؤلف هذه الأناشيد فهو الملك سليمان الذى يملك مئات الزوجات . وأراد أن يضم إليهن هذه الفتاة بالقوة ، ولكن الفتاة رفضت الملك ، وراحت تبكى على الحب .. ربما أعطته جسدها ، ولكن قلبها ظل حزينا على راعى الغنم . هذه الفتاة اسمها شولاميت ..

هل الذى أعجبنى فى هذه الأغنيات التى كان يرددها اليهود فى أفراحهم ، أن فتاة رفضت ملكا ؟ أن فتاة تمردت على عرش .. وأن الملك مهما كان قويا فإن قوته تقف عند إرادة إنسان عنيد .. فلا الملك قوى جدا ، ولا الإنسان العادى ضعيف جدا ؟ .. أهى أول امرأة فى التاريخ رفضت سلطانا إلا سلطان الحب ، ورفضت عرشا إلا عرش القلب ؟

هل شولاميت هذه هى التى جعلتنى بعد ذلك أتوقف طويلا عند رواية « مدام بوفارى » للكاتب الفرنسى جوستاف فلوبير .. لأن البطلة قد رفضت أن تكون لها حياة ككل الناس ، فتعذبت وانتحرت ؟ ..

هل هذا الرفض هو الذى جعلنى أهتز طويلا جدا عندما شاهدت فيلم « غراميات كارمن » ؟ وكان أول فيلم رأيته فى حياتى بعد أن تخرجت فى الجامعة . وقد ظللت أكتب عنه كثيرا جدا ، حتى نبهنى أحد الأصدقاء إلى أن هناك أفلاما أخرى كثيرة .. وكنت قد تصورت أنه الفيلم الذى لا فيلم بعده ولا قبله .. لأن المعانى التى أثارها فى نفسى ، قد كانت نائمة .. أو كانت مجهولة الملامح ، فجاء هذا الفيلم وأثارنى بعضى على بعضى .. فعرفت ماذا يدور فى أعماقى .. إن الفيلم مأخوذ عن قصة للأديب الفرنسى بروبسر مريميه .. بطلة الفيلم ريتا هيوارث وبطله جلين فورد .. والبطلة غجرية تعيش على هواها . وتلعب بالرجال .. ولا يهمها إلا أن تكون كما تريد هى ، لا كما يريدون هم .. فهى نموذج لامرأة رفضت كل الناس ، لأن الناس رفضوها ، فهى غجرية .. تعيش على حافة المدن . وعلى حافة القانون أيضًا ..

أما هو فشاب من أسرة كبيرة ، وله مستقبل .. عرفها . أحبها . ارتبط بها . فعاش حياتها .. قاطع طريق .. غجريا ولكنه لم يجدها . فهى لا ترتبط برجل . ورغم أنه قد ضحى لها ، فإنها لا ترى هذه

التضحية شيئا كبيرا . وبعد صراع مرير مع زوجها ، قتل زوجها . ولكنه عرف بعد ذلك أن هذه الجريمة لا مبرر لها ، فقد كان من الممكن أن يشتريها من الزوج . فنساء الغجر للبيع . وأيقن أيضا أن حياته هذه لا ضرورة لها .. ثم إنه اكتشف أنه يعيش حياة لا يرضاها . حياة مظلمة . فهو ليس كما يراه الناس قاتلا غجريا . وصرخ يقول : : اللعنة على كل من يقول : إن الإنسان كما يعمل . فأنا أعمل ما لست أحب . وأعيش على غير ما أهوى .. إننى أحسد هذه الغجرية التى تعيش كما تحب وكما تريد . وإنها فى سبيل ذلك تدوس كل الرقاب وكل القلوب ! ..

وبعد هذا الفيلم كتبت كثيرا عن أبناء الغجر ، ورأيت أننى مثل واحد منهم ، فأنا أعيش وحدى بعيدا . وأتمنى أن أظل كذلك ، فلا يكون الناس عبئا على مشاعرى ، ولا تكون العلاقات قيودا على فكرى . وأن المفكرين والعلماء والفنانين وآلهة الإغريق مثل هؤلاء الغجر .. يعيشون بعيدا عن الناس .. إنهم طبقة مختلفة .. فئة من نوع خاص .. إن هؤلاء الغجر نموذج رائع لذلك المعنى الذى استولى على خيالى دون وعى منى : اللامنتمى .. ألا يكون الإنسان واحدا من كثيرين .. أو عضوا فى جماعة .. أو فى حزب ، أو مرتبطا بمذهب .. إنما أن يكون هكذا على حريته .. وليكن ما يكون ! ..

ومن الغريب أن أجدنى فى إيطاليا فى سنة ١٩٥٢ وأقرأ فى الصحف أن « ميمى » ملكة الغجر قد ماتت .. وأن جنازتها سوف تشيع فى مدينة « بورتو فينو » على ساحل الريفيرا الايطالية ..

وأعتقد أن ما حدث بعد ذلك كان من غير تفكير واضح .. فقد ركبت القطار إلى حيث ماتت ملكة الغجر . وكان ذلك قبل الجنازة بيوم . وسألت عن بيت جلالتها . وهناك وجدت أناسا ذوى شعور وعيون سوداء أيضا . إنهم ليسوا كالغجر المصريين .. إنهم غجر أوروبيون .. ملامحهم إسبانية أو مثل ملامح أبناء أوروبا الشرقية التى هى خليط من السلاف واللاتين .. ووجدت طابورا طويلا . وقفت فى نهايته وتحرك الطابور إلى داخل البيت وتحركت لألقى النظرة الأخيرة على جلالة الملكة ميمى اريناس السابعة عشرة . ولاحظت أن كثيرين ينظرون ناحيتى . وأدركت أن السبب هو أنهم جميعا قد ارتدوا الملابس السوداء والكرافتات السوداء وفى يد كل منهم وردة . أما أنا فقد كانت ملابسى فاتحة وقيصى أبيض وبلا كرافتة . وبلا وردة . ولكن كانت علامات الدهشة واصطناع الحزن واضحة على وجهى . ووجدت جوابا أرد به على من يسألنى : ومن أى البلاد أنت ؟ فأقول من مصر : ولم أسمع بهذا النبأ إلا منذ ساعات . ولذلك لم أتمكن من ارتداء الملابس السوداء ..

ومددت يدى إلى الأرض والتقطت وردة . ووضعتها على صدر جلالتها .. وخرجت إلى الشارع أتفرج على الطابور الغجرى الذى يضاف إليه أناس كثيرون . ثم جاء دور الجنازة . وحملوا جثمانها على سيارة . ومضت السيارات تتبعها . ووجدتنى جالسا فى إحدى السيارات ، ولم يسألنى أحد من أى البلاد ، ولكنى تطوعت فقلت . وكان قبرها فى أطراف المدينة . ولم أعرف إن كانت الصلاة عليها

مسيحية أو يهودية أو وثنية .. ولكنها مختلفة تماما عما توقعت . فقد ارتفعت الحناجر بالبكاء والدعاء معا . ووقف رجل يعزف على قيثارة تتمزق نواحا والجميع قد نكسوا رءوسهم . أما النساء فكن يولولن على فقدها ..

ولابد أن ميمى هذه كانت جميلة ، فلامحها رغم تجاعيد الزمن متناسقة وبشرتها رغم صفرة الموت ماتزال متوردة .

ويقال إنها كانت أحسن راقصة فى شبابها .. وإنها كانت مثل ملكة النحل ، قد تقاتل عليها الذكور فقضت عليهم جميعا ، فلم يبق إلا زوجها الشاب الذى يصغرها بثلاثين عاما ، رأيته ووجدت أنه لم يضيع وقته فى الحزن عليها ، فقد كان يعتمد على فتاة غجرية جميلة . لعلها كانت عشيقته والملكة ماتزال على فراش المرض . أو لعلها الملكة الجديدة ..

ثم كتبت كثيرا عن « الغجر » فى كل مكان .. وعن أننى واحد من هؤلاء ، وأننى لست وحدى . وإنما نحن كثيرون . وصدر لى كتاب بعنوان « نحن أولاد الغجر » ..

هل هذا العطف على الغجر هو الذى جعلنى أقدم مسرحية « المومس الفاضلة » .. للفيلسوف الوجودى سارتر ؟ .. إن هذه المسرحية ومسرحيات وروايات أخرى لسارتر تتحدث عن « بنات الهوى » وعن « الزنوج » — أى عن الأقلية المنبوذة .. فتيات الهوى منبوذات ، رغم أن الجنس ضرورة حيوية .. ولكن الناس ينشدون الجنس ، ويرفضون احترام اللاتى قدمنه لهم .. والناس يتحدثون عن المساواة ، ولكنهم يرفضون الزنوج ، الذين هم سجناء اللون ، الذى فرض عليهم .. فهو سجن أبدى .. وفى الأدب العالمى كله عطف على الغانيات وبنات الهوى .. وإحساس بأن هذا الطراز من النساء هو جناية اجتماعية ، أو هو ثمرة جريمة .. أى أنهن جميعا ضحايا . ولأن هذا النوع من الرجال والنساء لا أمل عندهم فى الخلاص ، ولا أمل فى أن يحترمهم الآخرون ، فهم لذلك ليسوا مقيدين بشىء .. إن الطبقة لا تقيدهم ، والفضيلة لا تقيدهم ، والعلاقات الاجتماعية لا تقيدهم .. ولذلك فهم أحرار تماما .. يضعون القواعد والأصول والمبادئ التى تعجبهم .. وليست التى يفرضها عليهم الناس .. وهم يتوهمون — عادة — أنهم الذين رفضوا الناس ، وليس الناس هم الذين رفضوهم .. وأنهم يحتقرون الناس ، وليس الناس يحتقرونهم .. وأنهم اختاروا الحياة على الهوامش ، وليس المجتمع هو الذى رماهم ، كما يرمى البحر الجثث الميتة على الشواطئ .. إنهم جميعا أضعف من الأغلبية ، أصغر من المجتمع ، إنهم مطحونون مسحوقون .. إنهم ضحايا بلا جريمة ، وسجناء بلا حيثيات حكم .. إلا أنهم ضعفاء ، ويرفضون ذلك .. أما ثمن الرفض فيدفعونه فى حياة بعيدة عن الناس ، كما يعيش الغجر فى الكهوف ، وكما تعيش الغانيات فى المواخير ، وكما يعيش العلماء فى المعامل ، والرهبان فى الصوامع ، والمفكرون فى الأبراج العاجية ، وآلهة الإغريق على جبل أوليمبيا ..

وربما سبب آخر أعمق من ذلك كله : البطل .. هذا المعنى الذى ترسب فى أعماق مما كتبه الأستاذ العقاد .. إنه ، وإننى ، تلك الأقلية المحكوم عليها بأن تكون أطول قامة ، والناس أقزام . وأن تكون أقوى بصيرة ، والناس عميان .. فإما أن يكون الإنسان ممتازا بطلا معتزلاً للناس ، وإما لابد أن يعتزل ليكون شيئا ممتازا ..

ويقول الأستاذ : ما من صاحب رسالة ، إلاوجد نفسه مضطراً ان يحملها ثقيلة على قلبه وعقله ، ثم انفرد بها بعيدا يتهيأ لها قبل أن يلق الناس ..

فكان للرسول عليه السلام : غار حراء .

إذن فليس عيبا أن يكون الإنسان بعيدا وحيدا وأن ينكر الناس ذلك .. أو لا يعجبهم ذلك . أو يتألمون ويتقولون . فالتاريخ – كما يقول الأستاذ – لا يعرف الكثير عن الذين أكلوا وشبعوا . ولكن يعرف الكثير عن الذين جاعوا وثاروا ، وصاموا وزهدوا ، من أجل أن يوفروا للأغلبية الهائلة سبيل الهداية إلى الطعام المادى والعقلى ..

فليس عجيبا أن تهزنى فتاة غجرية فى أول فيلم رأيته فى حياتى ، وأن يظل اهتزازى عشرات السنين بعد ذلك .

فلا يضيع صدى أى صوت قد مزق آذان الطفولة !

بَل هُوَ عَدوّ المَرْأة !

لا أعتقد أنى من الذين أحبوا طه حسين ، أنا معجب به فقط . حتى بعد أن عرفته شخصيا ، وبعد أن أثنى علىّ ثناء عظيما فى التليفزيون ، وكتب مقدمة رائعة لكتابى « حول العالم فى ٢٠٠ يوم » . فالرجل شخصية عظيمة ، وعقلية مثيرة ثورية . ولكنى لم أستطع أن أتخذه أبا أو أخا أو أستاذا أو هاديا . ولا عيب فيه . إنما اهتمامى يختلف عن اهتمامه . وأسلوبى فى فهم الأشياء والتعبير عنها مختلف . فأنا أقرب إلى المشتغلين بالفلسفة الأوروبية . وعلى الرغم من أنه أحد رواد الفكر الأوروبى ، وأن العقاد كذلك ، فإننى وجدت طريق بعيدا عنهما . وإن لم أرفع عينى عن العقاد ، ولم أسد أذنى عن طه حسين . .

ولكنى فزعت عندما وجدت طه حسين فى تعليق على كتاب « المطالعات » للعقاد يقول : لا أعرف العقاد . ولا أذكر أننى عرفته . أو استمعت إليه !

أى أن من الممكن أن يكون قد التقى به . . ولكنه نسى ذلك . . كأن لقاء العقاد يمكن نسيانه !

وقال : إنه يحتقر مذهب العقاد السياسى ، ويحتقر أنصاره ، ويحتقر الصحيفة التى يكتب فيها ، ثم إنه لا يقرأ ما يكتبه العقاد فى السياسة .

وأنا أعطيه بعض الحق فى هذا كله . . ولكن لا أعرف إن كان هذا نقدا وهل من النقد أن يرفض الإنسان كل شىء فى مقال واحد دون أسباب واضحة ؟

وقال طه حسين : إن مقدمة الكتاب غامضة تماما . وإن العقاد لو قرأ هذه المقدمة فإنه لن يفهمها .

وذهب طه حسين فى السخرية من العقاد إلى أبعد من ذلك ، عندما تساءل : إن كان العقاد قد تعلم اللغة الألمانية ؟ لأن اللغة الألمانية صعبة ، ولابد أنها تركت أثرها فى لغته . فلغة العقاد غامضة مثل اللغة الألمانية .

وقال طه حسين : إنه قرأ لعدد من الفلاسفة الألمان فلم يفهم منهم شيئا . وإن كان قرأ بعض شعرائهم مثل جيته وشيلر وهينه ، فأعجب بهم جميعا .

وطبيعى أن يكون طه حسين ابن الأدب الفرنسى متحمسا لأدباء وفلاسفة فرنسا ، وأن تكون

عبارته سهلة وجميلة . وأن يكون الوضوح هو مثله الأعلى .

واقترب طه حسين – وأنا مذهول جدا وكتاب « حديث الأربعاء » يرتجف فى يدى – من العقاد وقال : إن الإنسان يكون غامض العبارة إما لأنه جاهل وإما لأنه عالم جدا كالعقاد ، ولكن لغته لا تسعفه . . إلخ .

صحيح أنه قال : إن الأستاذ العقاد عالم جليل ، ومفكر كبير ، وإن شهرته فى ذلك الوقت أى فى العشرينات ، قد وسعت العالم العربى – ولعله يسخر من العقاد الذى يرد على رسائل القراء من جميع البلاد العربية .

ولا أعرف ماذا كان رد العقاد على طه حسين ! ويبدو أن هذا رأى طه حسين حتى الموت ، أى حتى موت العقاد وموته هو أيضا . فنى البرنامج التليفزيونى الذى أعددته لطه حسين ، وعدد من الأدباء المصريين فى الستينات قال لى : لم أفهم عبقرية عمر . وقال لى : إن حفيدى حائر فى فهم عبقرية عمر المقررة عليه .

ثم اقترح علىّ أن أعلن عن جائزة مالية لمن يفهم هذا الكتاب . . ولم يعجبه كتاب العقاد عن « أبى نواس » فهو لا يحب التفسير النفسى أو التحليل النفسى أسلوبا لفهم الأدباء والشعراء . ويرى أن هناك تفسيرات أخرى أدبية وبلاغية وتاريخية . .

واختلفت مع طه حسين ، وهاجمته ، وتجاوزت حدود الأدب اللائق بشخصه الكبير ، دفاعا عن العقاد الذى كان قد توفى قبل هذه المعركة بوقت قصير !

إذن فطه حسين يحتقر المذهب السياسى للعقاد ، وأسلوبه ، والمكان الذى يكتب فيه ، ولا يجد نفسه مضطرا إلى قراءته . . حتى كتاب « المطالعات » لم يقرأه كله .

وذاكرة طه حسين لا تسعفه إن كان قد التقى بالعقاد . ثم إنه يضع الأستاذ سلامة موسى قبله فى الترتيب . وهو لا يذكر إن كان قد التقى بالأستاذ سلامة موسى أيضا ؟ !

وقرأت مقالا لطه حسين هاجم فيه بمنتهى العنف الأستاذ مصطفى صادق الرافعى ، وقال إنه هو أيضا أشد غموضا من العقاد . وإذا كان لهذا الرجل فضل ، فهو أنه أكثر الناس علما باللغة العربية . أما أسلوبه فلا يستطيع أن يفهمه . وطه حسين له عذر فى ألا يفهم مصطفى صادق الرافعى والشاعر محمود حسن إسماعيل . لأن كليهما يعتمد على الصور . . على الضوء واللون والظل وخلطها جميعا وخلق صورة عجيبة غريبة . . ربما سيريالية . . أو انطباعية . ومن الصعب على طه حسين أن يرى ذلك . .

وقرأت مقدمة كتاب « المطالعات » للأستاذ العقاد مرة ومرتين ، ولم أجد أنها غامضة إلى هذه الدرجة . ولم أجد أن صاحبها يستحق كل هذا الاحتقار والازدراء . ولكن يجب أن أذكر فضلا لطه

حسين . فهو ابن المدرسة الفرنسية ، وهو ابن أعرق التقاليد الفكرية : فى أن يتخذ الشك طريقا إلى اليقين . ولابد أن يقترب الكاتب من أى موضوع دون خوف . وأن يتجرد من كل فكرة سابقة . وأن يبحث بنفسه . وأن يخرج بالمعنى الذى يريحه ، والذى يقدر على إقناع الآخرين به . . ثم إن طه حسين حر ويريدك أن تكون حرا ، ولا يهمك كثيرا ما يراه الناس ، فهو وجد العقاد غامضا ، فهو إذن غامض ، ولو قال كل الناس إنه كالشمس وضوحا وحرارة وعلوا . ثم إن طه حسين حر فى أن ينكر الشمس ، مادام لا يراها . إن حرية طه حسين أقرب إلى العبث - أى إلى أن تكون بلا معنى ، إنما هى متعة ممارسة كلمة : لا . . وقد قال : لا . . لأشياء كثيرة تقليدية فى الأدب وفى التاريخ وفى السياسة . .

وإذا كان أسلوب العقاد غامضا أحيانا ويحتاج إلى إيضاح ، فإن أسلوب طه حسين متكرر الألفاظ والمعانى وفى حاجة إلى اختصار . . فالذى يضاف إلى عبارات العقاد يجب خصمه من عبارات طه حسين . فأحدهما موجز أكثر مما يجب ، والآخر يستطرد أكثر مما ينبغى .

ولكن فى ذلك الوقت - فى الأربعينات وأنا طالب فى الجامعة - لم أكن أجد لطه حسين هذه العظمة الفكرية . فكل الذى كتبه عن الفلسفة الإغريقية والأدب الإغريقى لم يثرنى ولم يبهرنى ، ولا أذكره الآن . . فقد ذهبت إلى أبعد مما ذهب فى الفلسفة الإغريقية والإسلامية والأوروبية . أما هو فقد مر بها وتوقف بعض الوقت ، ومضى إلى أشياء أخرى . . إنه ترك بصماته وقال كلمته ومضى . .

ولكن جرأة طه حسين أعجبتنى . .

ومن الصعب عند قراءة طه حسين ألا يتذكر القارئ والباحث أشياء كثيرة : أن الرجل أعمى ، وأنه أزهرى . وأنه سافر إلى فرنسا . وتعلم اللغات الفرنسية واليونانية واللاتينية . وأنه تعمق الأدب والفلسفة . والقرآن . وأنه صدم رجال الدين ، وإن لم يصدم رجال الحكم . .

وأنه كان سياسيا فى الجامعة . وكان جامعيا فى السياسة ، وأنه كان يريد السلطة أى السطوة والقوة والحيرة بين المنصب والمال . .

وذهبت إلى إحدى محاضراته فوجدته يتكلم كما يكتب . فأسلوبه غنائى . وهو واحد من الذين يحببون إليك لغتك العربية . فهو ليس متحدثا ولكنه مطرب عاشق ولهان . ومحبوبته هى الكلمات . حتى عندما يتكلم بالفرنسية فهو عاشق أيضا . إنه واحد من دراويش البلاغة . .

وفى ذلك الوقت زار كلية الآداب كاتب فرنسا الكبير أندريه جيد . الفائز بجائزة نوبل فى الأدب . وجاء طه حسين وقدمه لنا فى المدرج ٧٨ . . وأندريه جيد قصير القامة نحيف جدا . وكانت قد ظهرت ترجمة لرواياته : « الأغذية الأرضية » و « الباب الضيق » و « السمفونية الريفية » . .

وتحدث أندريه جيد وصفقنا له . ولا أذكر من الذى قاله شيئاً كثيراً . ولكن د . عبد الرحمن بدوى هو الذى نبهنا إلى خبث طه حسين وجرأته فى نفس الوقت ، فقد قال طه حسين : إن أندريه جيد يحب الشباب ، ويحب أن يتحدث إلى الشباب ، ثم إنه كان وسوف يبقى شابا !

أما المعنى الخبيث الذى أشار إليه طه حسين فهو حب أندريه جيد للشباب – لأن أندريه جيد عنده شذوذ جنسى ! .

ولم أدرك فى ذلك الوقت ما هى علاقة هذا الشذوذ الجنسى الذى لا أعرفه ، بالذى قاله أو كتبه . .

ولكن فى صالون العقاد أصبحت أشياء كثيرة أوضح . قال الأستاذ : إن الشيخ طه يا مولانا ، رجل خبيث . . وهو رجل حاقد على كل إنسان . وهو ليس غريبا بين كل أصحاب العاهات . . ومن الغريب أنه يسرف فى استخدام كلمة : رأيت . . وشاهدت . . بل إنه يذهب يا مولانا لافتتاح معارض اللوحات والتماثيل . . هل هناك شىء أعجب من ذلك ؟ !

وقال الأستاذ : وما الذى يضايق الشيخ طه فى شذوذ الفرنسيين ؟ ! . . أليس « يرى » فيهم المثل الأعلى للفكر والسلوك ؟ ! أليس « يرى » أو يلمس أنهم سادة الفكر وأنه سفيرهم هنا فى مصر ؟ ! ثم إن الفرنسيين يتباهون بهذا الشذوذ الجنسى . . أندريه جيد كان قد ذهب إلى الاتحاد السوفيتى وضبطوه وفضحوه ، ولذلك هاجم الشيوعية وهاجمه الشيوعيون . .

واستعرض الأستاذ الشذوذ الجنسى عند كثيرين من الأدباء : أبى نواس وأوسكار وايلد وشيكسبير وسقراط والرسام ميكلونجلو . . ثم انتقل إلى الأدباء المصريين المعاصرين والمطربين والمطربات والوزراء وكبار الساسة ورؤساء الوزارات . .

وكأن الأستاذ عندما لاحظ ذهولنا ، لأننا صغار ، اتجه إلى شىء آخر فكأنه ضرب أدمغتنا فى الحائط لكى نفيق ، فقال : إن الشذوذ الجنسى قد أشار إليه القرآن الكريم . . قوم لوط . . وأشار إلى أن التوراة قد امتلأت بكل صور الشذوذ . . فالأب ينام مع إحدى بناته . . وهناك من يبيع ابنته . .

ثم قال الأستاذ : إن أمام القضاء الأمريكى رواية « عشيق الليدى تشاترلى » للكاتب الإنجليزى د . هـ . لورانس . وهو الآخر شاذ جنسيا ، بشهادة روجته الألمانية يا مولانا . . عندك خبر ؟

وبعض الحاضرين قالوا إنهم يعرفون ذلك . .

وقال الأستاذ : وهناك لورانس آخر اسمه لورانس العرب ، أكثر شذوذا من لورانس الأدب . . عندك خبر يا مولانا ؟

ولم يكن عندى خبر . .

وعاد يقول : إن عشيق الليدى تشاترلى قصة جنسية فاضحة . وقد رفضت الرقابة الأمريكية

نشرها . . تماما كما رفضت نشر رواية « لوليتا » للكاتب الروسى الأصل نابوكوف . . وكانت حجة الرقابة أن هذه القصة تفسد الأخلاقيات العامة . ولكن المحامى ساق حجة قوية لم تستطع المحكمة أن تناقشه فيها ، قال : أنا أحتكم إلى الكتاب المقدس . . فى هذا الكتاب قصص فاضحة ومخجلة ومهينة للإنسان . . فكيف تضعون مثل هذا الكتاب فى أيدى الأطفال والفتيات ، بينما رواية الليدى تشاترلى . ليست كتابا مقدسا . ولا يمكن أن تكون منتشرة مثل الكتاب المقدس . . فإما أن تفرجوا عن هذه الرواية ، وإما أن تصادروا الكتاب المقدس ، وأفرجت المحكمة عن الرواية !

وكان لابد للأستاذ أن يذهب فى النقد إلى أن يجد شيئا يبعث على الضحك . . فقال : رويت لكم كثيرا حكاية الفيلسوف الفرنسى روسو . الذى ادعى أنه أرسل أولاده إلى بيوت اللقطاء . وكان كاذبا . فقد كان عاجزا جنسيا . وفى الكتاب المقدس قصص أعجب وأغرب . . هناك حكاية شيشم الذى اعتدى على دينا ابنة يعقوب . . ثم ذهب يطلب أن يتزوج منها ، تكفيرا عن هذه الغلطة . فوافق الأب . ولكن بشرط أن تجرى عملية طهارة له ولجميع أفراد قبيلته . ووافق شيشم على ذلك . . وأجريت عملية الطهارة لكل الرجال . وبينما الرجال جالسون فى بيوتهم وعاجزون عن الحركة هاجمهم أهل دينا وقتلوهم جميعا . . ها . . ها . .

ثم يقول : أكثر من ذلك يا مولانا . . أن نجد فى سفر « الخروج » تحذيرا لكل رجل وكل امرأة تعاشر حمارا أو حصانا أو كلبا . . أما العقاب فهو قتل الرجل والمرأة والحيوان . . فما ذنب الحيوان ؟ ! هاها . . هاها . .

ثم حكى لنا الأستاذ أن أديبا معاصرا إذا بعث إلى إحدى الصحف بصورته كتب عليها : هذه الصورة أعطيت لفلان بناء على طلبه .

ولم يتركنا الأستاذ نستوضح ذلك ، فمضى يقول : لأنه يخشى أن يتوهم أحد أنه هو الذى أعطى الصورة لأحد من تلقاء نفسه . .

ولما لاحظ الأستاذ أننا لم نفهم قال : إنه مثل أندريه جيد يحب الشبان أيضا ! !

ثم روى قصة وزير خارجية مصرى رأى شابا وسيما ، فطلب إليه أن يعمل عنده سكرتيرا . ووسط الأستاذ كامل الشناوى . وتآمر الأستاذ كامل الشناوى وحفنى باشا محمود على هذا الوزير . وأقنعوه بأن هذا الشاب الوسيم قد أسعده أن يقع عليه هذا الاختيار ، وأنه سوف يذهب إلى المكتب غدا . .

وفى اليوم التالى دق وزير الخارجية الجرس ، فجاء شخص لا يعرفه . ثم دق جرسا آخر فجاء شخص ثان . وجرسا ثالثا فأتى شخص يعرفه . . فسأل : وأين السكرتير الجديد ؟ . . ففوجئ بشخص قبيح دميم الوجه قصير القامة غليظ المنظار . سأله : من الذى أتى بك ؟ فأجاب : سعادة حفنى باشا محمود !

وأدرك الوزير المقلب !

ولم يكتف الأستاذ بذلك فقال : إن أم كلثوم تقول عن نفسها إننى أكثر رجولة من المطرب فلان . . وقالت : إننى أتحداه أن يخلع ملابسه أمامى !

ولا أظن أننى كنت أضحك عندما يذهب الأستاذ من نكتة أدبية إلى نكتة جنسية ثم إلى نكتة عارية . . ولكنه يحب ذلك لأنه شخصية مرحة . ولأن النكت التاريخية منعشة ولأنها تغير ملامح الوجوه التى جلست فى صمت أمامه : تسمع ولا تتكلم . تهتز ولا تغير مكانها . وإذا جاءت القهوة أو الليمون ، فإن عددا قليلا منا يمد يده ليشرب . . فنحن نجد المتعة كلها فى أن نستمع ونعود إلى بيوتنا نستعيد ما سمعناه . أو نسجله ، وقد فعلت ذلك بعض الوقت !

وظهرت سيدة فى صالون العقاد . جلست إلى جوارنا . متوسطة القامة ، سمراء . حلوة الملامح ، ولكنها قرأت أكثر مما قرأنا . ثم إنها تقول كلاما كبيرا – أى أن كلامها أكبر منا ، أو أبعد من منالنا وأعمق من إدراكنا . تقول : كنت فى لندن . . وقابلت ت . س . اليوت . وقلت له : إن فى مصر كاتبا لو ترجمت أعماله إلى اللغة الإنجليزية لكان إلى جوار كارليل وهازليت . . ولو ترجم شعره لجلس على يمين شيكسبير . .

ولا تترك الأستاذ يسعد بذلك فتقول بسرعة : ولما قابلت طه حسين منذ أيام على عشاء مع لطفى السيد باشا تضايق تماما من كل كلمة قلتها . . وقال لى مستنكرا : وما الذى يمكن أن يترجم من العقاد إلى أية لغة ؟ إننى لا أجد له شيئا يستحق الترجمة !

لو أسعفتنى ذاكرتى الآن لوصفت وجه الأستاذ يتنقل بين ألوان علامات المرور : الأحمر والأصفر والأخضر . لقد أسعده ما قالته هذه السيدة . وضايقه ما قاله طه حسين ، وكان مثل هذا الكلام سببا كافيا للهجوم على طه حسين وعلى المشايخ وعلى خبث طه حسين وحقده . . وتحدث الأستاذ عن كتاب « الأيام » وعن « حديث الأربعاء » وعن « الشعر الجاهلى » وعن « أديب » و « من بعيد » وكلها كتب لطه حسين . . ولم يجد الأستاذ فى واحد منها « شيئا » يستحق عليه طه حسين أن يكون أديبا .

ويرى الأستاذ : أن طه حسين يعجب به الناس من باب الشفقة عليه ؟! فهم يستكثرون على شيخ أزهرى أعمى أن يكون عميدا . فإذا أصبح عميدا فهو إحدى المعجزات . ولو صح أن المرض مؤهل ، لكان أكثر الناس استحقاقا لعمادة الأدب وإدارة الجامعات : نزلاء مستشفى الأمراض العقلية !

وقال الأستاذ : إننا نعجب للطفل الصغير إذا نطق اسم والده . . فإذا نطق اسم والده قلنا له : اشتم أباك والعن أمك . . فإذا فعل حملنا الطفل إلى كل بيت ليشاركونا الضحك والتعجب لهذه

المعجزة الصغيرة . . ونحن نرى ذلك شيئا عجيبا لأننا نستكثر على الطفل أن يفعل ذلك . . ونحن أيضا نستكثر على الشيخ طه أن يتحدث فى الأدب الفرنسى والإغريقى واللاتينى . . ولذلك أعطيناه ما أعطينا الأطفال الصغار . وقلنا إنه معجزة .. فلو حدثت معجزة أخرى ووجد الشيخ طه نفسه مبصرا ، ألا يؤدى ذلك إلى فصله من الجامعة ؟ . . ها . ها . ها .

وأتذكر للأستاذ عبارات عنيفة فى ذلك الوقت . كان يقولها ، ولا أعرف معناها تماما . يقول : لو أن إلها إغريقيا نازعنى فى ذلك ، لوضعت أصابعى فى عينيه . . أو لنزلت على رأسه بحذائى هذا – مشيرا إلى حذائه ! .

أى أنه لا يقبل مناقشة فى ذلك . .

رحم الله أستاذنا د عثمان أمين ، فقد رد عليه قائلا : ولكن يا أستاذنا كيف ترفض أن يناقشك أحد الآلهة ؟ ! .

واتجه إليه الأستاذ ليقول : يا دكتور . إن آلهة الإغريق ليسوا آلهة . . إنهم صناعة بشرية . . فقد صنعتهم العبقرية الإغريقية . . إنهم ليسوا آلهة ، إنما هم حيوانات تتنكر فى ملابس الآلهة . . إنهم ممثلون يقومون بدور الآلهة . . وهذه هى عظمة الفكر الإغريقى . . والفيلسوف الألمانى نيتشه على حق عندما يرى أن الديانة المسيحية قد أفسدت الفلسفة الإغريقية . . ففى الديانة المسيحية نجد أن الله خلق الإنسان على صورته ، ولكن فى الفلسفة الإغريقية نجد أن الإنسان هو الذى خلق الله على صورته . . وأستاذكم أرسطو يقول : لو أن للجاموس إلها ، لجعلوا له قرنين . . فإذا لم أناقش إلها من هذا الطراز . . فهل أناقش شيخًا أزهريًا مثل الشيخ طه ؟ .. يامولانا إن المقاييس قد اختلت فى أيدى الناس ، إن الناس فى حاجة إلى أصابع دقيقة متزنة تتعلق منها الموازين . إن الناس فى حاجة إلى أناس ، والعقل البشرى فى حاجة إلى عقل جديد .

ولابد أن يكون د . عثمان أمين أستاذ الفلسفة الحديثة ، قد أخجله أن يحدثه الأستاذ أمام تلامذته بهذه اللهجة ، فقال معترضا وموضحا : لقد تعلمت فى فرنسا . وتعلمت أن النقاش أساسى . وأنه عن طريق النقاش والحوار تتولد المعانى . وإذا كان أستاذنا العظيم سقراط يهتدى إلى معانى الألفاظ عن طريق التساؤل عن معانيها ، وعن طريق حواره المستمر مع تلامذته ، فإن الفلسفة الفرنسية قد ذهبت إلى أبعد من الفلسفة الإغريقية . . فهى تناقش الكلمات . . ثم تزن معانيها ، وتناقش تركيب هذه المعانى . . ثم تزن الطريق إلى أهداف هذه المعانى . . فالمفكر جواهرجى . . يزن كل شىء بحساب . . وبغير ذلك لا يمكن أن نصل إلى الحقيقة . .

ولا يطيق الأستاذ صبرا على هذا الأسلوب فى الحديث . . أى لا يطيق أن يلقنه أحد درسا فى التفكير ، فيقاطعه قائلا : وهل شىء من ذلك فيما كتبه طه حسين ومحمد مندور ، وفى ترجمة لطفى

السيد لكتاب « الأخلاق » لأرسطو ، وفى هذيان د . زكى مبارك ؟ . . يا مولانا إن الإنسان ليس فى حاجة إلى أن يذهب إلى فرنسا ليكون واضح التفكير . . وليس الفرنسيون قد احتكروا صناعة الكتابة ولا أصول الفلسفة . . ولا أعتقد أنهم أقدر الناس على فهم الحياة أيضا !

وأروع ما فى هذه المناقشات ليس ما يقال فيها مباشرة ، ولكن الذى يجىء عن غير قصد . فالأستاذ يقارن كثيرا جدا بين الإنسان والحيوان . . أو بين السلوك الحيوانى والسلوك الإنسانى . ويرى الأستاذ أن الحيوانات هى « مسودة » الإنسان . . أى أن الحيوان مرحلة من مراحل التطور الإنسانى . وأن الإنسان حيوان تعلم أن يخفى مشاعره ، وأن الحيوان إنسان لا يقدر على إخفاء رغباته . . ولذلك فلكى نفهم الإنسان يجب أن نتجه إلى الحيوان أو الطفل أو المجنون . . وكان الأستاذ قد أولع بمراقبة الطيور فى أسوان . . الطيور المهاجرة من السودان . وكان يجرى وراءها ويحسب حركاتها . . وينتظرها . . ولديه أسطوانات بأصوات الحيوانات . . وكنا نجد ذلك عجيبا ! .

(ووجدنا لدى الأستاذ بعد وفاته ، أسطوانة مسجلا عليها صوت طفلة صغيرة . وكان قد سجل صوتها أثناء مرافقته لها فى المعرض الدولى . وأغلب الظن أنها هى الفتاة التى انتحرت يوم توفى الأستاذ . وقد لاحظ من كان يمشى إلى جوارى فى جنازة الأستاذ أن النعش يكاد يتراجع ويتجه إلى ناحية بيت الفتاة ؟ ! مع أن بيت الفتاة المنتحرة كان بالقرب من نفق مصر الجديدة . والجنازة كانت تمشى أمام نقابة الصحفيين – وسوف أعود إلى ذلك فيما بعد . .)

ومنذ ذلك اليوم وأنا أشد الناس حبا لكتب الحيوانات . . وأدين بالمتعة العظيمة لاثنين من المفكرين : العالم النمساوى لورانتس ، والعالم الإنجليزى دزموند موريس . .

وأصبح مألوفا لدينا : تناول طه حسين بعنف شديد . . هو يفعل ذلك . وطبيعى أن يتناوب الحاضرون الهجوم على طه حسين لأسباب مختلفة ، وأكثر الذين يهاجمون طه حسين هم من أساتذة الجامعة الذين يحضرون إلى صالون العقاد . ولكن اعتقدت بعد ذلك أن طه حسين اقترب من حقيقة العقاد . ولكنه لم يرها . أو غلبته الرغبة فى السخرية ، على لمس الحقيقة . فليس صحيحا أن العقاد قد تأثر باللغة الألمانية التى لا يعرفها ، ولكن من المؤكد أنه تأثر بالفلسفة الألمانية . . فهو قد تأثر بنيتشه وفكرة البطولة والإنسان الأعلى وصناعة التاريخ . . وحب العقاد للمفكر الإنجليزى توماس كارليل ليس إلا حبا للفلسفة الألمانية المثالية . ولكن بلغة أخرى . . كما أن الأستاذ قد تأثر بالفيلسوف الألمانى شوبنهور . فالعقاد متشائم ، رغم أنه ينكر ذلك . ورأى العقاد فى المرأة سيئ جدا . وهو متأثر فى ذلك بشوبنهور أعدى أعداء المرأة فى كل العصور . .

والأستاذ العقاد لا يحترم المرأة . أو على الأصح لا يعطيها أكثر مما تستحقه . إنما يعطيها ما تستحق . وهذا يغضبها . . فهو يرى أن المرأة لم تتفوق فى أى شىء ، فالمرأة تلد من مئات الألوف

من السنين ، ولكننا لم نعرف طبيبة مولدة بارعة . . أو عالمة اخترعت شيئا يخفف على المرأة آلام الولادة . . والمرأة تطهو ـ ولكن أشهر الطهاة رجال . . والمرأة تخيط ملابسها ـ ولكن أشهر مصممى الأزياء من الرجال . . والمرأة تبكى وتلطم ولكن أروع شعر المراثى هو الذى نظمه الرجال وليس الذى نظمته الخنساء ! ويرى الأستاذ أن أعظم عمل تقوم به المرأة هو أن تلد . وهو ما يعجز عنه الرجل . وإذا كانت المرأة هى التى تصون الحياة ، فإن الرجل هو الذى يطورها . . وإن عالم المرأة ضيق جدا : فهى تقارن الرجال بزوجها أو حبيبها أو ابنها . . وللتدليل على ضيق أفق المرأة فإنك تسألها : كيف حالك ؟ فتقول لك : إن الأولاد لا بأس بهم ، وإن زوجها مريض . . وإذا سألت رجلا عن حاله فإنه يحدثك عن عمله . . أو عن السياسة أو التطورات العلمية .

ويقول الأستاذ العقاد ، وهو يردد ما قاله شوبنهور : إن المرأة أقدر على معايشة الألم والعذاب . وليس سبب ذلك قدرتها على الاحتمال . إنما سبب ذلك بلادة حسها . . فالممرضة ترى أنواع العذاب والدماء والصديد وتسمع الصراخ والبكاء وتبلع ذلك . . لا لأنها ملاك الرحمة الذى يعمل على إنقاذ المعذبين ، ولكن لأنها بليدة الحس !

وكان الأستاذ يقول أيضا : إن المرأة قد وضع الله فى جسمها مكانا لكائن آخر . . ومن أجل سلامة هذا الكائن الآخر ، خصتها الطبيعة بالقوة . ولذلك فليس صحيحا أن المرأة جنس لطيف . بل هى جنس عنيف . . إذ كيف تقوى على احتمال هذه الآلام الشنيعة عند الحمل والولادة ؟ . . وفى كل مرة تحمل المرأة وتلد تقسم ألا تفعل ذلك مرة أخرى . . وتلد . . إن زوجة تولستوى عندما هددته بأن تترك له الدنيا لم يهتز . . وعندما هددته بألا تلد ، وهى تعلم حبه للأطفال ـ راح يصالحها ويرضيها . . وكانت ولاداتها جميعا عسرة . . ومع ذلك ولدت له ١١ ولدا . وفى كل مرة تقسم أن يكون وليدها هو الأخير . ثم ان الطبيعة قد عزلت الأم عن طفلها . . فأمراضها لا تنتقل إليه . .

ويقول الأستاذ : ولو لاحظت المرأة وهى نائمة عارية إلى جوارك لوجدت أنها عندما تتنفس فإن بطنها لا يعلو ولا يهبط . لماذا ؟ لأنه مطلوب ألا توقظ أو تزعج الطفل فى داخلها ؟ !

وليس هذا صحيحا . ولكن الأستاذ كان يردد مثل هذه الملحوظة الأخيرة ـ ولك أن تستنتج إن كان الأستاذ قد رأى ذلك حقا ؟ !

ولم يكن اسم الاستاذ توفيق الحكيم يتردد كثيرا فى هذا الصالون . فهو ليس سياسيا وليس خصما أدبيا . إنما هو ... والناس يضحكون فى كل مرة يجىء فيها اسم توفيق الحكيم فهو رجل ظريف . أو هو رجل ساخر . .

وكان بعض الحاضرين يتحدث عن الحكيم « عدو المرأة » . . وأنا أعتقد أن العقاد هو أعدى أعداء المرأة . ولكن عداوة الحكيم للمرأة هى سخرية منها أى أنه لم يجد المرأة التى تعجبه . وإذا أعجبته فإنها لا تصلح لما يريد . .

وفى يوم جاء زميل بمسرحية لتوفيق الحكيم ويبدو أنه كان مكلفا بعمل دراسة عنها . وأنه اختلف مع أستاذه حول معناها . وجعل يقرأ والعقاد يتململ . ويقلب وجهه بين الحاضرين . وكانت حركة عينيه أسرع من حركة عنقه . . وقبل أن يكمل الزميل قراءة المسرحية . قال الأستاذ : وماذا فى هذا الذى تقرؤه ؟ . إن الحكيم ذهب يعاكس إحدى الفتيات . ولما فشلت المعاكسة كتب هذه المسرحية . . إنها فتاة تبيع التذاكر فى شباك أحد المسارح . حاول معها . . وجدها غالية الأجر . . راح يساومها ، رفضته . . أليس هذا هو المعنى الذى أراد أن يقوله عدو المرأة ؟ إنه ليس عدوا . . إنه خائف منها فقط . . ولكن من المؤكد أنه يحبها . ولكن هذا الحب يكلفه مالا وطاقة ، ولا مال عنده ولا قدرة له على المرأة . . فهل تسمى نفسك عدوا للهواء لأنك عاجز عن الطيران . وتسمى نفسك عدوا للماء لأنك عاجز عن السباحة وتسمى نفسك عدوا للسم لأنك لا تبتلعه إذا وجدته . . وتسمى نفسك عدوا للملايين الجنيهات التى لا تجدها ، ويستحيل أن تجدها ؟ . . إن هذه تقاليع أخينا توفيق .

وفى المترو قرأت مسرحية « شباك التذاكر » . . أو بائعة التذاكر . . وأعجبنى الكلام . . الحوار . . إنه أسلس من محاورات أفلاطون . . وأيسر من محاورات العقاد فى كتابه « فى بيتى » . .

ولكن لم أستطع أن أدرك بالضبط قيمة توفيق الحكيم فى ذلك الوقت ، فلم أكن ذهبت إلى المسرح ولا عرفت معناه ومبناه . . ولا فهمت مدلولات العبارات التى تجىء وسط الحوار مثل : ويجلس على المقعد ، أو يفتح شباكا إلى اليسار . ويدخل الضوء من اليمين . أو يمشى إلى مقدمة المسرح . . أو ينزل الستار أو ينفتح . . وإن كانت هذه العبارات ليست لها دلالة كبيرة فى مسرحيات توفيق الحكيم . . بل تستطيع إغفالها تماما ، ويمشى الحوار السهل ، ويتدحرج القارئ إلى المصيدة التى ينصبها توفيق الحكيم للقارئ الذى يضحك عليه ويتركه .. ويهرب إلى مسرحية أخرى !

ولم يكن الأستاذ يحب المسرح أو التأليف الروائى ، ومن المؤكد أنه قرأ عن الأعمال الروائية الكبرى . ولكنه لم يعش معها طويلا . قال لنا ذلك . فهو كاتب مقال من الدرجة الأولى . ولذلك فهو صاحب منطق تحليلى . ومحاولاته فى الحوار ساذجة ، ومحاولته فى كتابة الرواية أيضا . . مثل محاولة طه حسين فى كتابة القصة القصيرة . . بينما توفيق الحكيم الذى اشتهر بالقصة القصيرة والرواية والمسرحية ، من أحسن مؤلفى المقالات ، رغم أنه لم يشتهر بذلك . .

وكان الأستاذ إذا تحدث عن طه حسين والحكيم يقول : طه حسين خبيث جرىء ، والحكيم خبيث

خائف . . ولذلك فطه حسين هو الذى يقود الحكيم . ولكن الحكيم أخبث من طه حسين ، لأنه يؤكد له أنه خائف ، وأنه لا يقوى على مواجهة النقد ، وبذلك يرضى غرور طه حسين ويتقى شره . .

ولا أعتقد أن الأستاذ كان يعرف القيمة الحقيقية لتوفيق الحكيم ، وسبب ذلك أن فن الحكيم لا يمتعه ، لأنه لا يحب هذه الأشكال الأدبية التى اختارها الحكيم : القصة والرواية والمسرحية : ثم إنه لا يحب الرمز . فى القصة والرواية والمسرحية « رمز » سياسى واجتماعى . ولأنه رمز فليست فيه المواجهة المطلوبة التى يتعرض لها الكاتب السياسى . فالحكيم يستطيع أن يهاجم السلطة ولا يهاجمها ، لأنه يشير الى ذلك رمزا . . والأستاذ يرى أن المفكرين السياسيين هم أشجع الناس . وهم ضحايا السلطة . وهم القوة الدافعة للتاريخ . . ولم يدخل السجن أديب أو شاعر إلا عندما كان صريحا فى تحديه للسلطة . ولكن إذا لجأ الكاتب إلى الرمز ، فقد اختار « التعمية » أو « الكاموفلاج » الذى تلجأ إليه بعض الحيوانات وهى تختفى بين الأشجار أو بين الرمال أو بين الصخور : حماية لها من عدوها وتربصا بفرائسها فى نفس الوقت . .

وعرفت فيما بعد ، أن هؤلاء الثلاثة : العقاد وطه حسين والحكيم ، لم تكن لهم صلة دائمة . وأنه قد تمضى السنوات لا يكلم واحد منهم الآخر . وإذا تلقى برقية تهنئة أو تعزية فإن ذلك يعتبر حدثا ينشط العلاقة الراكدة . . ثم يعود كل شىء إلى ما كان عليه : الانقطاع والعزلة والمتابعة فى الصحف والإذاعة . .

(وفى الستينات جمعتهم الثلاثة على خط تليفونى واحد . فكنت أسأل الواحد وأنقل الإجابة إلى الآخر . وكانوا ثلاثتهم يهاجمون بعضهم البعض وبعنف . ونشرت ذلك فى حينه !) .

وفى يوم سألت الأستاذ : يا أستاذ . إنى أتابع حالة شاذة فى مستشفى الأمراض العقلية . . إنها فتاة زفت إلى عريسها ، وفى اليوم التالى جمعت ملابسها متجهة إلى قصر عابدين ، لأن الملك فاروق قد طلب إليها أن تترك زوجها ، فقد اختارها ملكة لمصر !

فى ذلك الوقت كنا ندرس علم النفس . وكان أستاذنا د . يوسف مراد يطلب إلينا أن نذهب إلى مستشفى الأمراض العقلية ، وأن نجلس مع الأطباء وأن نراقب بعض الحالات المرضية . وأن نكتب ما سمعنا وما فهمنا . وكان من نصيبى أن أدرس حالة هذه العروس . ولم أهتد حتى الآن إلى فهم حالة هذه المريضة . . فكلامها معقول جدا ! فهى تقول إنها تزوجت بالرغم منها . . وقرأت فى الصحف أن الملك فاروق ساعد عروسا على طلاقها من عريسها الذى يكبرها بعشرين عاما . والذى « اشتراها » من والدها . . وإن هذه هى حالتها بالضبط . . وإن الملك فاروق كان يقصدها هى بالذات . .

وكان الأستاذ شديد الاهتمام . وكان يجد متعته الكبرى فى التحليل النفسى . ولم يدعنى أكمل

القصة ، إنما سبقنى إلى القول : أمامك مذهبان . . إما أن تحلل أحداث طفولتها ، وإما أن تعرف علاقتها بأبيها . . أما علاقتها بزوجها هذه فلا تهم . فالزوج قد ظهر أخيرا . . ولم يظهر فى حياتها ، إنما فى حياة أبيها . . فهو قد سقط فوقها وسقط بها بين يديك . . ولكن ما الذى يقوله أساتذتك حلاً لهذا الإشكال الذى أمامك ؟

قلت : إن هناك اجتهادات عديدة . . بعضهم يرى أن أهتم بحالتها الصحية . وبسبب حالتها الصحية ، تكون حالتها العقلية . . أى أن العقل السليم فى الجسم السليم . .

وغضب الأستاذ قائلا : إذن فلماذا لا ينتقل قسم الفلسفة بأساتذته إلى حديقة الحيوانات ، حيث الحيوانات أجسامها أسلم وأقوى ، ولابد أن عقولها أسلم أيضا ؟ . . يا مولانا . إن هذا الذى تدرسونه تخريف . . إن أساتذتكم أحق الناس بالذهاب إلى مستشفى الأمراض العقلية . . ثم ما الذى يمكن أن تستفيده من زيارة هذا المستشفى إذا لم تكن مسلحا تماما بنظريات كثيرة تساعدك على فهم ما ترى ؟ . . لا تذهب . . اقرأ وبعد ذلك سوف تجد من أساتذتك وزملائك ومن الملوك والرؤساء من هم أكثر جنونا من هذه العروس المسكينة . .

ولا أعرف من هو الزميل الذى لاحظ خيبة أملى وضيق الأستاذ بهذه الحادثة ، فاتجه إلى حادث جليل وقع قبلها بأيام . فقد نوقشت رسالة الدكتوراه المقدمة من عبد الرحمن بدوى . وكان موضوعها « الزمان الوجودى » وكان طه حسين عضوا فى لجنة الامتحان وكذلك الشيخ مصطفى عبد الرازق وعلى عبد الواحد وافى والمستشرق باول كراوس وعميد الكلية حسن إبراهيم ، وانتهت المناقشة بأن حمل الطلبة عبد الرحمن بدوى على الأكتاف . لا أظن أنهم فهموا شيئا من الرسالة . ولكن ضايقهم د . على عبد الواحد وافى أستاذ علم الاجتماع ، الذى لم يكن يطيق عبد الرحمن بدوى ولا فلسفته الألمانية ولا غروره وغطرسته . . أما على عبد الواحد وافى فهو من مدرسة علم الاجتماع الفرنسى ومن تلامذة العلماء : دور كايم وهلفاكس وأوجست كونت . . وغيرهم . .

وفى هذه المناقشة أعلن طه حسين أن عبد الرحمن بدوى هو أول فيلسوف مصرى . . وكان طه حسين قد أوفد عبد الرحمن بدوى ، وهو ما يزال طالبا ، فى بعثة إلى فرنسا . وفى هذه الرسالة ظهر اقتدار عبد الرحمن بدوى الفلسفى وتمكنه التام من الفرنسية والألمانية والايطالية والاسبانية واليونانية واللاتينية والعربية ، وقدرته الفائقة على نحت الكلمات الفلسفية التى ليس لها نظير فى اللغة العربية الحديثة . فرسالته ليست إلا محاولة لأن يكون له « مذهب » فلسفى . . رغم أن الوجودية ليست « مذهبا » لأنها لا تجيب عن كل الأسئلة الضرورية ، لأن المذهب .. هو التفسير الكامل لكل الألغاز المعروفة فى الفلسفة وهى : الله والكون والإنسان والقيم الأخلاقية والجمالية والحياة وما بعد الحياة . . إلخ .

هل أكمل هذا الزميل روايته لما حدث فى كلية الآداب ، وما الذى قاله طه حسين والمستشرق باول كراوس . وكيف إن عبد الرحمن بدوى اختلف مع د . على عبد الواحد وافى ، على نطق اسم العالم الكبير دور كايم ؟ - فعلى عبد الواحد ينطقه كما نكتبه هكذا . ولكن عبد الرحمن بدوى ينطقه دور كهايم - وكان هذا الخلاف الصغير يشير إلى خلافات أكبر لم نكن نعرفها فى ذلك الوقت .

ومن المستبعد تماما أن يكون طه حسين قد فهم رسالة عبد الرحمن بدوى ، لأن عبد الرحمن بدوى لا تنطبق عليه الشروط الضرورية ليكون الإنسان واضحا : فهو يعرف اللغة الألمانية جيدا ، وهو متأثر باللغة والفلسفة الألمانية المثالية المعقدة . . وقد اختار من بين الفلاسفة الألمان أصعبهم جميعا : مارتن هيدجر . وجعله مثله الأعلى . . وعبد الرحمن بدوى من الذين يعرفون الكثير عن أشياء كثيرة فى المذاهب الفلسفية فى كل العصور . إذن فعبد الرحمن بدوى نموذج لما يجب ألا يكون عليه الكاتب أو الفيلسوف من وجهة نظر طه حسين .

ولكن طه حسين يختلف عن العقاد فى أنه أستاذ . وأن لديه أبوة روحية لكثير جدا من تلامذته . ولذلك فقد أسعده أن يكون من تلامذته مثل عبد الرحمن بدوى الذى يحاول أن يكون له مذهب فى الفلسفة . وإن لم يفهم طه حسين مما يقوله سطرا واحدا . .

ولم يكن الأستاذ العقاد فى حاجة إلى أكثر من ذلك لكى يعصف بطه حسين وبدوى وتلامذة الفكر الفرنسى . فقال غاضبا : ما هذا الذى حدث عندكم يا مولانا ؟ أريد أن يدلنى أحد على معنى « الزمان الوجودى » قل لنا ياسيد أنيس . . إن معنى الزمان معروف ومعنى الوجود معروف . . فما معنى الاثنين معا ؟ . وإذا كان لهما معنى ، فهل يكفى ذلك لتفسير بقية مشاكل الكون والعلاقات الإنسانية ؟ . وهل فهم الشيخ طه شيئاً من هذه الفلسفة الألمانية التي تتحدثون عنها ؟ وهل هي التي ساعدتك أنت على فهم مشكلة هذه العروس ؟ أو هل تساعد أخانا الحكيم على اصطياد فتاة دون أن يدفع قرشاً أو يبذل جهدا لاحتضانها ؟

وضحك - وهو الوحيد الذى فعل ذلك - المرحوم د أحمد فؤاد الأهوانى قائلا : وهل من الضرورى يا أستاذ أن يساعدنا المذهب الفلسفى على أن نوقع فتاة فى غرامنا ؟ . . إن الإنسان ليس محتاجا إلى مذهب . إنما هو محتاج إلى شطارة وإلى بضعة قروش . . أو ربما إلى حيلة وخداع . . ولكن المذهب الفلسفى مثل المثالية والوضعية المنطقية أو حتى الوجودية ، يهتم أكثر بالقضايا العامة ، وليس بالسلوك الفردى للإنسان . . فقد أختلف معك يا أستاذ فى فلسفتك ، ولكنى لست فى حاجة إلى أى مذهب فلسفى لكى أناقشك إنما أحتاج إلى مبادئ الفكر العادية جدا . . وأنا شخصيا لا أفهم كلمة واحدة من جميع كتب عبد الرحمن بدوى . . رغم أنها ليست إلا تجميعا وتكديسا لمعلومات ومراجع لا أول لها ولا آخر . وليس له رأى شخصى فى شىء من ذلك كله . .

وكنا نعرف ما الذى يحدث عادة إذا تحدث أحد أساتذة الجامعة إلى الأستاذ الذى أكمل تعليمه الابتدائى فقط ، والذى لم يدرس فى الجامعة ولا دعاه أحد لإلقاء محاضرة فيها . . ولما قيل للأستاذ يوما إن الجامعة تفكر فى إعطائك الدكتوراه الفخرية . . غضب العقاد قائلا : ومن الذى يمتحن العقاد ؟

ولم يكن الأستاذ يعرف أن الدكتوراه الفخرية لقب وليست رسالة يقدمها ويناقشونها وبعدها يحصل على اللقب !

لقد كان الأستاذ يضيق بأساتذة الجامعات ، يضيق بالقوالب الفكرية التى عندهم ، ولا يطيق أن يكون هذا الكهنوت الذى يدعيه أساتذة الجامعة - وخصوصا طه حسين الذى إذا نطق كلمة « الجامعة » فإنه يعطش الجيم ويفخمها . .

وكذلك فعل أحمد لطفى السيد الذى كان رئيسا لجامعة القاهرة . . والذى أقام مجده على تشجيعه للروح الجامعية وحرية الرأى وترجمته لكتاب واحد للفيلسوف الإغريقى أرسطو . والكتاب اسمه « الأخلاق إلى نيقوماخوس » وقد ترجم هذا الكتاب عن الفرنسية . وأصبح لطفى السيد فيلسوفا . كما أصبح منصور باشا فهمى فيلسوفا أيضا . . وأخيرا أصبح عبد الرحمن بدوى فيلسوفا . وكان ذلك مما لا يستطيع الأستاذ احتماله . ولذلك توقعنا غضبا أحمر - أى غضبا يحمر له وجه الأستاذ ، أو يزداد احمرارا . فالأستاذ العقاد من أصل كردى ، مثل صلاح الدين الأيوبى . وهو عندما يتحدث عن احمرار بشرته وعن أصله فبشىء من الاعتزاز والخيلاء ، وهو فى ذلك تلميذ مطيع تماما للفلسفة الألمانية التى ترى تفوق الأجناس الآرية على غيرها . . والأستاذ من أصل آرى . .

وكل هذه المعانى تجمعت فى رأس الأستاذ بوضوح شديد عندما قال للدكتور فؤاد الأهوانى : نعم يا دكتور . . إن الإنسان محتاج إلى مذهب فلسفى لكى يحرك أصابع يده . . إن الفرق بين الحيوان والإنسان أن الإنسان قادر على تحريك أصابعه . . وضم أصابعه . . وهذه القدرة عند الإنسان هى التى جعلت الإنسان يصنع أدوات الصيد والبناء . . فالإنسان صنع طوب البناء وسهام ونبال الصيد . . والفيلسوف الألمانى اشبنجلر هو الذى قال إنه لولا مقدرة الإنسان على تحريك أصابعه ما كانت الحضارة الإنسانية كلها . . لأن الحضارة هى التطوير المستمر فى صناعة الأدوات . . صناعة الآلات . . ولكى يحرك الإنسان أصابعه احتاج إلى جهاز عصبى شديد التعقيد . . هذا الجهاز العصبى يقوم بضبط حركة الأصابع مع حركة العين والأذن والأنف وبقية الجسم الإنسانى . ولابد أن حركة الأصابع هى التى جعلت الإنسان يمد ذراعيه . . فيقف ويصلب عوده . . إن هناك نظرية تقول إن الزرافة طال عنقها لأنها عاشت فى منطقة غابات . . هذه المناطق جعلتها ترفع رأسها وتمد عنقها ألوف السنين . . فطالت أعناقها . . وهذا ما يصفه علماء الحياة بأن الوظيفة تخلق العضو . . فالوظيفة هى

أن تأكل وتحصل على قوتها . . ولأن طعامها بعيد عنها فكان لابد أن يلاحق العضو الطعام . . والعضو هو الفم الموجود فى العنق القصير . . فطال العنق ليعيش الحيوان . . وقد نصف تحريك الأصابع بأنه شىء يسير جدا . . وهذا ما يبدو . . ولكن الحقيقة أنه مسألة معقدة جدا . . إن أكبر مشكلة واجهت العلماء فى العصر الحديث هى بناء إنسان آلى . . من أجل أن يقوم هذا الإنسان بتحريك المواد المشعة فى الأفران النووية . . أى يمسك قضبان اليورانيوم المميتة . . ويدخلها فى المفاعلات النووية . . ولكى يتمكن الإنسان الآلى من مجرد إمساك هذه المواد المشعة ، كان لابد من خلق إنسان متكامل . هذا الإنسان المتكامل احتاج إلى ألوف العيون والزراير التى تحركه من أجل أن نصنع له أصابع فقط قادرة على دفع قضبان اليورانيوم داخل الأفران . . نعم يادكتور . . إن الإنسان فى حاجة إلى مذهب فلسفى لكى يشترى سميطة ويلفها حول ذراع محبوبته ويشعر أنهما عروسان ، كما يقول لويس عوض وغيره من الشيوعيين . فهو لم ير فى السميطة تلتف حول ذراعى اثنين من العشاق عملا بسيطا ، إنما يرى فيها تطبيقا لمذهب فلسفى ماركسى لنينى . . إن أساطير أهل هولندا تتحدث عن طفل وجد البحر يزحف على بلاده يكاد يغرقها . ولاحظ أن الماء يدخل من ثقب فى أحد السدود . فذهب الطفل ووضع إصبعه وأنقذ بلاده . . إن الذى عمله الطفل شىء صغير ولكن الدافع إلى ذلك جهازه العصبى الذى جعله يسد الثقب واحتاج إلى عقل يهديه إلى أن هذا هو السبيل الوحيد لإنقاذ بلاده . . واحتاج إلى عقيدة دينية أو سياسية لكى يضحى من أجل الملايين الذين لا يعرفونه ولا يرونه وهو يموت من أجلهم . . لقد شاهدنا فى الحرب العالمية الأخيرة ، كيف إن اليابانيين يركبون الطوربيد الانتحارى ويوجهونه إلى السفن الأمريكية . . فما الذى يجعل يابانيا لا يراه أحد ، يتجه بنفسه إلى السفينة ولا يتجه إلى البحر . . فيغرق إلى جوار السفينة المعادية التى تنقذه ويعيش أسير حرب . . ولكنه يسدد الطوربيد إلى الهدف . . ليحطم الهدف ويموت معه ؟ . . وهو يعمل ذلك دون رقيب من أحد ، ودون تصفيق من الجماهير . . إنما هو شهيد مجهول . . إنه احتاج إلى عقيدة لكى يصيب الهدف . . ولكى يصيب الهدف فلابد أن يضبط بأصابعه وبعينيه أجهزة دقيقة تجعل موته الانتحارى استشهادا وطنيا . . نعم يا دكتور . . نحن محتاجون إلى مذهب من أجل أن نعمل أتفه الأشياء . . وإلا كنا مجانين . . ولكن المجانين لهم منطق . . فالمرض ليس خلوا من المنطق . . إنما المرض نتيجة مقدمات منطقية . . ميكروب دخل الجسم ونشط .. قاومه الجسم . وقد يؤدى هذا المرض المنطقى الخطوات ، إلى أن يصاب الإنسان بالهذيان . . ولكن حتى هذا الهذيان ، أى الخلو من المنطق ، نتيجة منطقية لخطوات أخرى سابقة . . !

والمعنى أنه لا شىء بغير عقل . ولا شىء بغير منطق . وأن أكبر الأشياء مثل أصغرها لابد أن تكون منطقية مع تفكيرنا أو مع فلسفتنا . وهذا هو الخلاف الكبير بين الأستاذ وكثير من الناس . فهو

لا يتصور . ولا عقله يقبل . أن يفعل الإنسان شيئا أو يقول كلاما بغير حساب أو بغير عقل . .

وهو لذلك لا يستبعد مطلقا أن يكون أساتذة الجامعة الذين يترددون عليه . يؤكدون له بحضورهم وبمناقشاتهم واختلافهم معه فى الرأى ، أنهم جامعيون وأنه ليس كذلك . . ولأنهم درسوا فهم أكثر علما منه – وهذا يضايقه !

والأستاذ طبعا لا يدرك أنه يتفق مع الفلاسفة الوجوديين الذين يرون أن هناك طريقتين لقتل الفلاسفة : أن نقتلهم وأن نقررهم على طلبة الجامعات . . فالتدريس الجامعى قاتل للموهبة . أى قاتل لموهبة الأستاذ وموهبة الطالب معاً !

ولكن هذه « المرافعة » الطويلة لم تقنعنى بأن الأستاذ كان على حق . فأنا لست فى حاجة إلى مذهب فلسفى أو نظرية سيكلوجية لكى أحرك أصابعى أو يدى أو ذراعى كلها لكى أطرد ذبابة وقعت على يدى .. إننى فقط أقوم بطردها غريزياً . . وأفعل ذلك دون وعى منى . وأفعل ذلك وأنا مستغرق فى النوم ! !

ولا أعرف كيف انتهى ذلك اليوم . ولكنه انتهى . واختفينا بعيدا عن أساتذتنا . فقد أحرجهم الأستاذ وأخجلهم أمامنا . . ولم يكن يعنينا كثيرا ما يصيبهم . ولكن يعنينا أكثر ما يقوله الأستاذ وما يرضيه . . وأن نرضيه . .

وعند الخروج داعبنى الأستاذ قائلا : لا تذهب إلى مستشفى المجانين يا مولانا . فقد تعجبك العروس وتنسى سبب ذهابك إليها . . إن هذا يحدث كثيرا فى التحليل النفسى . . يحدث أن يتعلق المريض بالطبيب . ويتوهم أن عناية الطبيب به نوع من الحنان الخاص ، وليس الحنان المهنى . أى الحنان الضرورى لإعطاء المريض نوعا من الأمان تمهيدا لفهمه وعلاجه بعد ذلك . . حتى العالم الكبير فرويد قد وقع فى هذا المطب ، وأحب إحدى مريضاته . . ولكنها لم تحبه !

ولا أظن أن الأستاذ قد خفف عنى شيئا عندما قال لى ذلك . . وقد أحسست أن رأسى بالون منفوخ ومليء بالهواء الساخن . . وأنه منطاد . . وأنه يطير بى من فوق الأرض . . أريد أن أصل إلى حديقة الأسماك . . وأجلس فى الظل . وأستمتع بالسندوتشات والبرتقال . . ثم أنام ، وبعد ذلك أذهب إلى مدينة الملاهى . . لأغرق نفسى فى الضوضاء . . فقط فى الضوضاء دون أن أدعى أننى أرى أى شيء . .

فعندى طريقتان لأريح رأسى : أن أنام . إذا استطعت . . وأن أجلس فى الضوضاء فأجعل العالم كله يتزاحم فى المسافة التى بينى وبين نفسى !

ولا أظن أننى فى تلك الليلة قد وفقت إلى شيء من ذلك !

كنا نسميه : يوم القيامة ؟!

لم يكن أحد قد جاء بعد . فقد ذهبت مبكرًا . وجلست وحدى . ولم أتوقع أن يجيء الأستاذ بهذه السرعة . سمعت وقع قدميه . قبل أن يقترب من الغرفة كنت قد وقفت . وربما كنت قد مددت يدى . وجاء الأستاذ : أهلا يامولانا .. جئت مبكرا .. لابد أنك أيضا من الطيور المبكرة . إذن فأنت مثلى لاتعرف النوم الطويل .. أو لعلك لاتعرف النوم العميق .. أو لعلك تعرف النوم القليل العميق .. كان نابليون ينام على حصانه فى قلب المعركة .. وقيل إن القائد الألمانى روميل يستطيع أن ينام فى الدبابة والمعارك دائرة .. إنه قد أعطى التعليمات وفقا لتصوره .. ورأى بعد ذلك أنه قام بواجبه .. وعلى الآخرين أن يقوموا بواجبهم .. فنام ليسهروا هم أيضا .. والذين يقولون عن الذئب إنه ينام بعين واحدة ويصحو بالأخرى إنما يصورون كيف يكون الحذر ..

ثم سكت لحظة ومضى يقول : وهذا تشبيه صحيح لولا أن الذئب ينام بنصف عين .. أى بنصف نوم وبنصف يقظة أيضا .. ويوم يستطيع أحد أن يحقق راحة النفس وراحة الضمير فإنه ينام مثل عمر بن الخطاب . الذى وصفه أخونا حافظ إبراهيم فى قصيدته « العمرية » الشهيرة :

وراع صاحب كسرى أن رأى عمرا بين الرعية عطلا وهو راعيها

وعهده بملوك الفرس أن لها سورا من الجند والأفراس يحميها

رآه مستغرقا فى نومه فرأى فيه الجلالة فى أسمى معانيها

فوق الثرى تحت ظل الدوح مشتملا ببردة كاد طول العهد يبليها

فهان فى عينه ماكان يكبره من الأكاسر والدنيا بأيديها

وقال قولة حق أصبحت مثلا وأصبح الجيل بعد الجيل يرويها :

أمنت لما أقمت العدل بينهم فنمت نوم قرير العين هانيها

وأخونا حافظ إبراهيم كما تعلم يشير إلى المعنى الذى قاله سفير كسرى أنو شروان إلى عمر بن الخطاب : حكمت فعدلت فأمنت فنمت ياعمر ! ..

ولم يتوقع منى الأستاذ أن أرد على كل هذه التساؤلات . فأنا أعرف معنى ذلك .. إنه عادة لايسأل أحدا . إنما هو يتساءل أمامنا .. ثم يرد هو على الأسئلة .. وأعرف أنها عادة كثير من المتحدثين

والمفكرين أيضا . فوجودنا ليس فى الدرجة الأولى من شعوره .. إنما هو مثل وجود المقاعد على الأرض واللوحات على الجدران ، ومثل أصوات الباعة تجىء من الشارع .. أو جرس التليفون يدق بعيدًا أو صوت « وابور الغاز » فى المطبخ .. وليس فى ذلك امتهان لأحد .. إنما هو مشغول تماما بما يريد أن يقوله « بمناسبة » أننا هناك .. أعرف هذه المشاعر كلها وأجربها وأعانيها .. ويعانى منها الآخرون عندما يكتشفون فجأة أننى لاأقصدهم بالحديث . إنما أنا أتحدث إلى نفسى على مسمع ومرأى من الآخرين ..

وكل الذى أردت أن أقوله للأستاذ ، قلته فيما بعد فى « حديقة الأسماك » فى الزمالك عندما جلسنا تحت إحدى الأشجار .. وبدأ كل واحد منا يعرض على الآخرين ماذا حصَّل وماذا جمع .. تماما كأننا مجموعة من الصيادين .. كل واحد منا قد اتجه إلى ناحية . وغاب طول اليوم . وعند الغروب التقينا .. هذا كان يصيد الأسماك .. وهذا يصيد العصافير .. وهذا يصيد « الدبابير » .. ولم نكن فى أكثر الأحيان سعداء بما لدينا .. فنحن مرهقون بالقراءة والدراسة .. وطرقنا طويلة ، وساعات الراحة قصيرة .. ولاشىء يدهشنا جميعا إلا هدوء حى الزمالك .. وإلا الروائح الغريبة يأتى بها الهواء من البيوت .. روائح الطعام والشواء والعطور .. وهذه الروائح إذا نحن مررنا أمام البيوت ذات المداخل الفخمة ، فإنها تصبح دافئة وباردة فى نفس الوقت .. وتكون هناك أصوات هامسة وموسيقية مرافقة لها : كأنها زفة من العطور ، أو نسائم من الموسيقى .. وطبيعى جدا أن يخرج من هذه البيوت أناس مختلفون عنا .. كنا نرى الوجوه شاحبة ، والملابس نظيفة .. وكنا نجد فى هذا الشحوب والهزال تعويضا لنا .. فلديهم كل شىء إلا صحتنا . ولدينا كل شىء إلا طعامهم وشرابهم وموسيقاهم وعطورهم .. إنهم مغسولون فى النور ، ونحن مغمورون فى الطين .. لماذا ؟ لم يخطر على البال هذا السؤال .. فالذى على عيوننا وفى آذاننا يشغلنا كثيرا عن مثل هذه التساؤلات ..

وعندما تجىء الخادمات بالأطفال الصغار .. كل خادمة قد ارتدت زيا أنيقا ووضعت مريلة بيضاء .. ودفعت أمامها عربة بها طفل .. هو سيدها .. ولكن بعض الخادمات كن يتكلمن الفرنسية والإيطالية وأحيانا الألمانية ..

فى ذلك الوقت شاءت الصدفة أن ألتقى بصديقى الفنان حسن فؤاد .. تقابلنا قبل ذلك فى مدينة الملاهى .. وكان الجنس هو الموضوع . لماذا ؟ لأن الجو العام يوحى بذلك .. فنحن شبان وحولنا فتيات كثيرات .. فى الشوارع وفى البلكونات وعلى المقاعد جلس المحبون .. اثنين اثنين . وكان حادثا عجيبا عندما رأينا تصوير فيلم « دايما في قلبى » لعقيلة راتب وعماد حمدى من إخراج صلاح أبو سيف .. فقد نامت عقيلة راتب على الحشيش وإلى جوارها عماد حمدى وجاءت الأضواء القوية تكشفها أو تفضحها .. ووقفنا نتفرج : حسن فؤاد وأنا وعدد كبير من الخادمات والأطفال

والعشاق .. ولم أفهم بالضبط معنى ماحدث .. ولكن قيل لى إنه فيلم . ولم أكن قد ذهبت إلى السينما بعد . ولا أعرف معنى فيلم أو التمثيل على الشاشة أو على المسرح ..

وقد تذكرنا هذه الحادثة بعد ذلك يوم سافرنا معا على ظهر الباخرة « اسبريا » إلى أوروبا سنة ١٩٥١ . وكان عدد كبير من الفنانين : صلاح طاهر وحسين بيكار وكمال الملاخ وجمال كامل وعبد الغنى أبو العينين ولبنى عبد العزيز وحسن فؤاد ..

سألنى حسن فؤاد : هل تعرف كيف يتعانقون فى روسيا ؟

قلت : لا أعرف .

قال : هناك عناق اسمه : عناق الأفاعى .. وذلك بأن يتعلق الرجل والمرأة فى فرع إحدى الأشجار ويحتضن كل منهما الآخر بذراع واحدة .. ثم يسقطان على الأرض يكملان العناق ..

وأدهشنى ذلك . ولم أفهم ما الذى يدفع الناس إلى هذا العذاب العاطفى ، أو هذه المشقة الجنسية مادام فى إمكانهما أن يتعانقا على الأرض .. ولكن فهمت أن هذا نوع من الشذوذ الجنسى ، أو أنه نوع من الملل قد دفع إلى عمل شىء غريب .. شىء شاذ .. وأن هذا طبيعى عند الشعوب .. فعندما تضيق بالأشياء العادية فإنها تبحث عن الأشياء الشاذة .. وهذا الشذوذ هو الذى ينعش الإحساس ، لأنه يوقظ الغرائز التى نامت ..

ولا أعرف كيف تشجعت إحدى الخادمات ونحن فى حديقة الأسماك واقتربت لتشترك فى المناقشة فقالت : إننى رأيت الشبان فى نابولى يتقلبون كالأسماك فى الزوارق .. ولو نظر إنسان من بعيد لخيل إليه أن حوتين كبيرين فى حالة عشق عظيم ..

ولم يندهش زملائى لاشتراك هذه الخادمة فى الحوار . فهم على صلة يومية بها ، فهم يجيئون إلى حديقة الأسماك كل يوم .. ويبدو أننى أكثرهم دهشة . أو سذاجة . فقد ظهرت دهشتى على وجهى بوضوح فقالت لى : نعم .. قد سافرت إلى إيطاليا أكثر من مرة .. وأنا أعمل عند أسرة إيطالية . ولكننى تعلمت اللغة الإيطالية فى المدرسة ..

شىء غريب .. إنها سافرت إلى إيطاليا .. ولم تتعلم اللغة الإيطالية من السفر . أو من معاشرة الإيطاليين ، إنما فى المدرسة . فلماذا هى تعمل خادمة .. أو ترضى أن تكون كذلك ؟ .. وأسئلة أخرى طفت على لسانى وطافت برأسى .. ولم تكن لها أهمية كبيرة وهى لذلك لم تشغلنى .. ولم أتوقع من أحد أن يجيبنى عنها .. ولم يحدث أننى انفردت بهذه الخادمة . لارغبت فى ذلك ، ولارغبت هى أيضا ..

ولكن حدث بعد عشرين عاما . وكنت رئيسا لتحرير مجلة « الجيل » أن تلقيت دعوة إلى زفاف .. والدعوة عليها أسماء لأناس لاأعرفهم .. والدعوة نفسها غريبة .. فليس من المألوف أن

يدعونى أحد، لأننى عادة لا أذهب .. ولا أعتذر .. ولم أكن أعرف ماالذى يمكن عمله فى مثل هذه الدعوات .. هل أشكر الداعى ؟ هل أبعث له بورد ؟ هل أرسل له برقية ؟ . . حتى هذه الأسئلة لم تكن تخطر على بالى .. فأنا لاأذهب ، ولاأحد يلومنى على ذلك . فهم يتوقعون هذا الموقف ، أو انعدام الموقف .. ثم جاءت صاحبة الدعوة . إنها نفس الخادمة . وقبل أن أسألها كيف حدث ذلك . عرفت منها أنها إحدى بنات الصعيد ، أحبت شابا من غير دينها . وعلم أبوها . فأنذرها بالقتل . فهربت إلى مصر . وعملت خادمة . ولما مات أبوها تزوجت الشاب الذى أحبته .. ودعتنى وبعض زملاء الحديقة إلى زفافها . وذهبت .

ثم نسيت كل ذلك ..

إلى أن حضر إلى صالون العقاد ذلك الزوج . جاء وروى للأستاذ قصة حياته .. وكان الأستاذ مايزال يسترسل فى حديثه عن الذين ينامون بعمق .

وقلت أنا : أو لاينامون بعمق : إنهم أهل اليقظة العميقة .

وقلت : إن أى عمل عميق يقوم به الإنسان يريحه : فالنائم الغارق فى النوم ، كالساهر الغارق فى اليقظة .. ولاشىء يرهق الإنسان إلا أن يتغلب على النوم أو يتغلب على الأرق – قلت ذلك للأستاذ محاولا أن أتحدث عن نفسى .. ولم تكن لى قضاياه الفكرية أو السياسية .. إنما كل قضاياى هى : القراءة والفهم والقراءة والكتابة .. والطريق والطريقة .. ومرض أبى ومرض أمى .. وغرفة لى فى مدينة امبابة .. يتساقط من سقفها التراب كل ليلة .. فلابد أن أضع بينى وبين السقف صحيفة .. وأحيانا كنت أضع اللحاف على رأسى ، وأسحبه من فوق قدمى .. وكانت آمالى فى ذلك الوقت : أن يكون لى مسكن لاأسمع من جدرانه صوت الجيران .. ولاأسمع من سقفه صوت القباقيب التى تدق البلاط وتذيب السقف ترابا على رأسى .. ولاتدخل من النافذة رائحة وابور الغاز والهباب ..

ووجدت الأستاذ وهو يتحدث عن أنواع النوم ، لايعرف كيف يجىء النوم .. ولا كيف أتلقاه إذا جاء .. وكيف أكره النوم الذى أصحو منه مدفونا تحت التراب ، وكيف أكره اليقظة التى أسمع فيها الأنات المكتومة لأبى وأمى .. وكيف انهما يتنافسان فى إخفاء الألم ، حتى لايطير النوم من عينى ، وحتى لايعطلانى عن الدراسة .. وأكره النوم إذا جاء ، وأكره النهار إذا طلع .. فإذا طلع النهار كان لابد أن أهرب بسرعة عن عيون الناس .. فالبيت الذى كنت أسكنه فى امبابة جاء صاحبه وهدم الحائط المطل على الشارع .. فكانت غرفتى بثلاثة جدران .. وكثيرا ماكنت أصحو من النوم على صوت الكلاب والقطط التى دخلت غرفتى وراحت لأسباب لاأعرفها تتشاجر .. وأحيانا أرى « بنت آوى » تقفز من غرفتى إلى الأسطح المجاورة .. وكان لابد أن أصحو بسرعة وأرتدى ملابسى وأختفى عن عيون الشارع ..

ودون شعور مني أصدرت كتابا فيما بعد بعنوان « يسقط الحائط الرابع » .. وكان هذا الكتاب عن المسرح .. أو الحائط الرابع الذى هو يفصل بين الممثلين والجمهور ..

هل الحائط سقط بظهور المسرح الجديد أى « مسرح العبث » الذى يستنكر الحائط الرابع الذى يفصل الممثلين عن المتفرجين؟.. ويرى مسرح العبث أنه يجب أن تكون هناك صلة بين الممثل والمتفرج .. ولذلك وجدنا الممثلين يتحدثون إلى المتفرجين .. كأنه لايوجد فاصل وهمى .. إنما المسرح هو امتداد للحياة ، والحياة امتداد للكذب الفنى . فلا أحد لايكذب . ولا أحد لايصدق . والحياة مسرح الكاذبين ، والمسرح حياة الصادقين .. أو أننى عندما أصدرت كتابًا بهذا العنوان ، أردت أن أهتف بسقوط الحائط .. وقلت : يسقط الحائط الرابع ..

وبعد ذلك أصدرت كتابا بعنوان « الحائط والدموع » . ولم يكن هذا الكتاب إلا عن اليهود والصهيونية .. وهذا الحائط هو حائط المبكى الذى تبقى من معبد سليمان الذى انهدم مرات عديدة .. ثم أقيم ثم انهدم ولم يبق منه إلا هذا الحائط الغربى .. وإلا دموع اليهود عليه ..

وفى سنة ١٩٥٥ عندما ذهبت إلى القدس رأيت حائط المبكى ، وكان وقتها فى مدينة القدس العربية ..

ثم ذهبت إلى القدس سنة ١٩٧٩ ورأيت حائط المبكى الذى أصبح فى مدينة القدس المحتلة ..

ولم أكتشف أن سبب اختيار « الحائط » عنوانا لكتابين أن الحائط الذى سقط فى امبابة ، هو الذى مايزال عميقا فى نفسى الحزينة .. وأننى أرحت نفسى كثيرا عندما وجدت أن سقوط الحوائط : هو صميم فلسفة العبث .. وأن الحائط الباق من معبد سليمان هو أقدس مالدى اليهود من أقداس .. وأنهم بسبب هذا الحائط التف اليهود فى كل الدنيا حول المعبد الذى سقطت جدرانه وسقفه ، فأقاموا لهم معبدا من الورق هو : التلمود .. وأقاموا لهم محيطا من الدموع .. وبالدموع تسللوا من القارات الخمس إلى فلسطين . وأقاموا لأنفسهم فى كل بيت حائطا للبكاء .. ولكنهم استطاعوا أن يجعلوا من دموعهم أحجارا وجسورا فى الأرض المحتلة ..

فما الذى يعرفه الأستاذ وهو المقيم وحده فى بيت هادئ نظيف بسيط ، وقد امتلأ بالكتب والأصدقاء ، وأعطاه الله فضلا عظيما ؟ . . إن الأستاذ – هكذا كنت أتصور – يستطيع أن يقول للنوم : تعال .. فيجىء . ويقول له : اذهب .. فيذهب .. إنه قادر على كل المتاعب .. فالمتاعب ليست إلا أفكارا ، وهو سيد أفكاره ، وسلطان مشاعره ..

وقبل أن أبتلع ريقى لعلى أجد ماأقوله للأستاذ جاء هذا الصديق الذى تزوج خادمة كانت زميلتنا فى حديقة الأسماك ، وتحدث مقاطعا الأستاذ فأنقذنى فى نفس الوقت . . قال : زوجتى ياأستاذ ..

فقال الأستاذ ضاحكا : اشمعنى ..

قال ولم يضحك : تركت لها أهلى .. وتركت لها دينى .. وبعت كل ماأمامى وكل ماورائى من أجلها . ورفعتها هى وإخوتها من الأرض إلى السماء .. ولكنها يا أستاذ لا ترى أننى فعلت شيئا .. وأن الذى فعلته لم يزد كثيرا عما فعله البواب .. بل إن البواب أحسن بكثير .. وتقول إنها ترى البواب من النافذة فتجده ينتظر زوجته حتى تجىء فيأكل معها .. ثم إنه قد أجلس أطفاله على ساقيه .. ولايكف عن تقبيل الأطفال إلا ليأكل . ولايكف عن الأكل إلا لكى يقبل أطفاله .. وتقول إن البواب عندما مرضت زوجته راح يجرى كالمجنون بحثا عن أحسن الأطباء .. وإننى – فى رأيها – لاأفعل شيئا من ذلك .. إننى لم أنم ياأستاذ .. حتى جهاز التكييف الذى كنت لاأنام إلا على صوته وعلى هوائه .. لم أعد أطيق أن أسمعه أو أن أراه ..

وقلت لنفسى : إنه لايعرف كيف ينام رغم وجود جهاز التكييف .. ولاأعرف فى ذلك الوقت معنى جهاز التكييف . أو حتى رأيته . ولكن لابد أنه جهاز ينام على حرارته التى تتكيف حسب رغبات صاحبه .. رغم ذلك يقول : إنه لاينام !! ..

ولم يشأ أن يقول للأستاذ إن زوجته كانت هاربة إلى القاهرة وعملت خادمة فى بيت السفير الإيطالى وإنها سمراء اللون خضراء العينين .. جميلة الملامح .. وإنها هى الأخرى قد ضحت من أجله ..

ولكن الأستاذ سأله : وماذا قررت يامولانا ؟.. أنت لم تقرر شيئا طبعا وإلا ماشكوت هكذا .. وإلا ماكنت هكذا عاجزا عن اتخاذ القرار .. أهى الزوجة التى أعجزتك ؟ أهم الأولاد ؟ أهو الحب الذى لايزال فى قلبك لها ؟ أهو حسن نيتها فى كل ماتفعل ؟ أهو شعورك بالعزلة . . لأنها لاتفهمك ؟..

وبلهفة قال زميلنا الذى أصبح وزيرا للتجارة قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ : نعم هو هذا ياأستاذ .. إننى أشعر أنها ليست هناك .. أو أننى لست هناك .

وضحك الأستاذ ليقول له : اسمع يامولانا . إن كنت نبياً فلست أول نبى أهين فى وطنه .. أو فى بيته .. أو فى فراشه .. فادمت قريبا جدا ، فهى لاتراك .. فإما أن ترضى بأن تكون مجهولا فى بيتك ، وإما أن تترك لها البيت . أو تجعلها هى تتركه .. ولكن إذا شئت أن تصلح الكون ، فهذا أكبر مما تطيق .. فهذه طبيعة البشر يامولانا ..

وقال الأستاذ : إن أم الزعيم السوفييتى ستالين كانت تناديه بقولها : تعال ياسوسو .. اذهب ياسوسو .. لأن اسمه يوسف ستالين . فأمه لاتعرف أن ابنها يحكم نصف الكرة الأرضية . وأنه قد أعدم ملايين الأمهات والزوجات . ولما سألوها فى إحدى المرات إن كانت تعرف بالضبط ماالذى يفعله ابنها قالت : لاأعرف .. ولكنى لاأزال أذكر أنه عندما كان شابا هجم على إحدى عربات

البريد . وقتل سائقها . واستولى على مافيها من فلوس . وهو ناعم كالقطة لاصوت له فى البيت .. هذا هو رأى أم ستالين فى ستالين ثانى اثنين يحكمان الكرة الأرضية ! ..

وكان الأستاذ العقاد جاهزا فى حديثه عن الأقارب والمقربين وكيف يرون بعضهم البعض .. ووجد فى التاريخ الفلسفى والأدبى والسياسى عشرات الأمثلة .. ماالذى كتبه إخوة نابليون عنه ؟.. وماالذى قاله عشاق أخواته البنات ؟..

وماالذى قالته زوجة الفيلسوف سقراط ..

وزوجة الأديب تولستوى .

وزوجة الأديب د . هـ . لورانس .

وابن الشاعر جيته ..

وابنة الأديب أندريه جيد ؟..

وزوجة الفيلسوف كارليل كانت أعف امرأة . . فعندما مات كشفت للعالم كله : أنها ماتزال عذراء .. وزوجها هو الفيلسوف الذى تغنى بالرجولة والبطولة والفحولة .. وبسبب هذه الأناشيد الفلسفية الصارخة أحبته أجمل فتاة فى لندن .. وتزوجته .. ووجدته هو الآخر « عذراء » مثلها تماما .. ولم تشأ أن تقول أكثر مما قالت .. ولو شاءت أن تقول لأعطتنا صورة أخرى لفلاسفة القوة . أى الذين يبشرون بالقوة . ولايملكونها .. ودعاة العنف . وهم يعانون من العجز ..

وماذا قالت أخت الفيلسوف نيتشه .. وهو فيلسوف النازية . أو فيلسوف سيادة الجنس الآرى على كل الأجناس .. وهو نبى البطولة ؟.. إن ماكتبته أخته عنه إن لم يكن فضيحة وسفالة عائلية ، فهى لم تشعر بعظمة أخيها .. إنما شعرت بأنه مريض مجنون .. وأنها كثيرا ما نصحته أن يكف عن كتابة الفلسفة ! ..

وما الذى كان من الممكن أن يقوله أخو هتلر لو عاش .. أو ابنة أخته التى أحبها . فلما حملت قتلها ؟.. أو ماالذى قالته عنه زوجته إيفا براون لأحد قراء الكف عندما سألها : هل أنت سعيدة فى حبك ؟ فكان جوابها : هل يسعد من يعيش مع هتلر؟.. إنه رجل قليلا جدا . ولكنه طفل كثيرا جدا .. وهو زعيم دائما .. وأنا أستطيع أن أعُدّ المرات التى لمسنى فيها .. ثم قبلنى لينام . وكان ينام معظم الوقت على كتفى .. ويطير النوم من عينى وأنا أتأمل تعاستنا معا ..

ثم ماالذى قاله ابن شارلى شابلن وأخوه ؟..

وماقاله أخو أرنست همنجواى وبعد ذلك زوجته .. ثم ابنة أخيه ؟..

وما الذى قالته أم تنسى وليامز ، عندما كان الأديب الكبير يرتدى ملابس الفتيات ويتجمل

مثلهن ؟.. فى ذلك الوقت قالت أمه : إن ابنى يتحول من الرجولة إلى الأنوثة . لكى يزداد احتقارا للمرأة ..

ولم يحدث بين جميع أدباء هذا العصر أن استطاع مؤلف مسرحى أن يتناول الجنس بهذا العمق كما فعل أديب أمريكا تنسى وليامز .

وما الذى تقوله امرأة واحدة غانية غازية غاوية هى : « لو – سالومى » ؟.. هذه الفتاة اليهودية أحبها ثلاثة من عظماء العصر هم : الفيلسوف الألمانى نيتشه . وعالم النفس اليهودى النمساوى فرويد . والشاعر الألمانى التشيكى ريلكه .. أحبوها بجنون .. وكانت هى تعرف ذلك . ولايرضيها إلا أن تجمعهم معا وترى هوان القلب وعذاب العقل كيف يكون .. فركبت عربة وجعلت ثلاثتهم يتعلقون فيها ويجرونها .. أما هى فقد أمسكت الكرباج فى يدها .. ولم تكن فى حاجة إلى أن تضربهم .. فهذه الصورة فيها الكثير من الهوان والإهانة .. ولم يجد هؤلاء العظماء حرجا فى أن يفعلوا ذلك .. ولا هى دخلت التاريخ مثل هؤلاء العظماء الذين جعلتهم هكذا حقراء ! .

وماتت أديبة فلسطين ولبنان : مى زيادة . ولم تقل كيف أحبها كل عظماء عصرها .. ماذا قالوا لها .. فنحن نعرف بعض الذى قالوا .. أما ماذا قالت لهم . فنحن لا نعرف الكثير مما قالت ..

ولو شاءت مى زيادة أن تتخيل هى الأخرى عربة تتعلق فيها مثل هذه الخيول . أو أى حيوانات أخرى لكانت هكذا : هى تركب العربة دون أن تمسك كرباجا .. ويتعلق فى العربة : العقاد ولطفى السيد وسلامة موسى ومصطفى صادق الرافعى . ومطران خليل وطه حسين ومحمدعبد القادر حمزة .. ولكن الذى لم يشعر به هؤلاء العظماء . أن « مى زيادة » لم تكن هذه القادرة الفاجرة مثل لو سالومى .. إنما هى التى ألقت بنفسها تحت هذه العربة ليدوسها الجميع وتموت بجنون .. تتعذب بأنوثتها التى تدفقت فى الصحراء المصرية . فتساقط عليها الصقور والتفوا حولها .. فكانت عيونهم أقسى من أقلامهم : لقد كانوا جحيمها ..

تماما كما تقول الفلسفة الوجودية : إن الجحيم هو الآخرون .. عيون الآخرين .. أقلام الآخرين .. وقيود الآخرين ورغباتهم ونزواتهم والخوف منهم والخوف عليهم .. ثم الهرب منهم إلى الجنون ! ..

شيء غريب لاحظته على نفسى .. فقد أخذت حماستى تخفت .. لم أعد أتحمس كثيرا لصالون العقاد .. فقد كنت أضبط نفسى كثيرا بأننى نسيت أن اليوم هو الجمعة .. أى نسيت أن هذا هو يوم العقاد .. حدث ذلك أكثر من مرة ..

ولاحظت أننى أسرح كثيرا جدا حين يتكلم الأستاذ .. وكنت آمنا تماما .. فهو لايسأل أحدا . إنما نحن الذين نسأله .. كما أنه كان يكفينا هو هذه المشقة فيتساءل ويرد على نفسه . وهو بذلك يرد عنا

السؤال والإجابة .. ومرة أفقت من سرحانى على صوت الأستاذ وهو يقول ضاحكا : اسألوا أخانا أنيس . . قل لهم يامولانا ..

وأخفيت خجلى فى فزعى . وحشرت ضحكتى بين ضحكات الآخرين ..

ثم اتجه ناحيتى ليقول : قل لهم كيف ينام الروس معا .. رجالا ونساء .

وفجأة استرجعت ماسمعته من الصديق حسن فؤاد . وتذكرت أننى قد رويت هذه الحكاية للأستاذ وأنه علق عليها طويلا بما قرأه فى الروايات الروسية القديمة عند دستويفسكى وتورجنيف . وبوشكين وغيرهم ..

وبسرعة كأننى لم أسرح . أو لأدفع عن نفسى هذه التهمة قلت : ومذكرات ماريا بشكرتسف يا أستاذ ؟

فاندهش الأستاذ لهذا الاسم . وبدا عليه أنه لايعرفه وأنه يستنكر ذلك .. ولكنه بسرعة بدا عليه الارتياح لهذا المعنى : أن الذى لايعرفه شىء لايستحق الاهتمام به ..

وأحسست أنا أيضا أن هذا الذى ذكرته شىء تافه .. وأننى أيضا . ولذلك سارعت فقلت للأستاذ : إن مذكرات ماريا بشكرتسف قد ترجمها د . عبد الرحمن بدوى .. واتخذها نموذجا للتشاؤم والعذاب والرغبة فى الموت .. واختار أيضا الأديب الايطالى ليوردى والأديب الروسى لرمنتوف والشاعر الألمانى نوفاليس . . وأمير الشعراء الألمان هيلدرلن الذى عاش ثمانين عاما . نصفها فى مستشفى الأمراض العقلية ..

فهل كان السرحان نوعا من الهرب ؟.. هل هو بسبب الإرهاق ؟.. هل بسبب أن الأستاذ بدأ يكرر ماسبق أن قاله . وعلى ذلك أصبحت أعرف مقدما ماسوف يقوله ؟.. صحيح أنه يقول الشىء الواحد بأشكال مختلفة . ولكن المعنى واحد . ثم إنه لايضيف إليه جديدا فى كل مرة .. هل لأنه وصفنى فى إحدى المرات بأننى من « الفلاسفة الدراويش » ؟.. أى الذين اشتغلوا بالفلسفة فغابت عقولهم ، فهم يتفلسفون بغير عقل ، أو يتفلسفون لأن الناس قد اعتادوا عليهم ، وأننى مثل عبد الرحمن بدوى وسلامة موسى والمفكر اللبنانى الملحد شبلى شميل . وكذلك منصور فهمى .. وأذكر أن الأستاذ وصف هذا الطراز من المفكرين أو الأدباء بأنهم مظهر من مظاهر انحلال الفكر . أو شيخوخة العقل ..

ولكن عندما راجعت ذاكرتى وسألت زملائى عن الذى قاله الأستاذ بالضبط . وإن كان يقصدنى حقا . اختلفوا . .

بعضهم قال : إن الأستاذ قال إن هؤلاء الفلاسفة « بتوعك » ..

يقصدنى أنا . مع أنهم ليسوا « بتوعى » فهم كبار وأنا مازلت طالبا ..

وقال آخر : إن الأستاذ قال إن هؤلاء الأدعياء الذين يعجبونك .. ليسوا إلا دراويش « بريالة » أى يسيل لعابهم ويتوهمون أن هذا الذى يسيل عسل .. مع أنه بلاهة مادية ..

وإذا كان الأستاذ قد أشار بيده ناحيتى ، فلأننى كنت طالب الفلسفة الوحيد فى ذلك اليوم . ولو كان هناك طلبة آخرون أو أساتذة لوزع أصابعه علينا جميعا . إذن فالأستاذ لم يكن يقصدنى . وإن كان قد ضايقنى أنه فعل ذلك ثم أشار ناحيتى . فهل هذا هو السبب الحقيقى لضيقى بهذا الصالون ؟ ..

لاأعتقد أننى قد ضقت بالصالون أو بالأستاذ . ولكن همومى فى ذلك الوقت كانت أكبر منى — فقد اكتشفت فجأة أن الذى أدرسه لن تكون له أية نتيجة مادية . فماهو مصيرى بعد أن أتخرج فى الجامعة ؟. ماالذى فى نيتى أن أعمله ؟.. هل أمضى فى دراسة الفلسفة ؟. كيف ؟ ومن الذى يشترى لى الكتب ؟ ومن الذى يشترى الطعام والشراب ؟.. هل أصبح مدرسا فى الجامعة ؟ ولكن متى ؟ قيل لى فى ذلك الوقت إن هذا هو مصير الطالب المتفوق . وقد صرح لى أحد الأساتذة بذلك ..

ولكنى اكتشفت عجزى فى تلك الأيام عن عمل أشياء كثيرة .. إننى أمشى على قدمى ، ولا أركب الترام .. إننى أذهب إلى المكتبة العامة لأقرأ ماأتمنى قراءته من الكتب التى لا أستطيع شراءها .. إننى أنتظر طويلا حتى أحصل على ثمن دواء لأمى وأبى .. إننى لاأعرف متى يكون بناء « الحائط الرابع » .. أى متى تنسد هذه الفتحة . أو متى تتوارى هذه الفضيحة .

ومن الصدف الغريبة التى فاتنى أن أعرف معناها : أن الساكن فوقنا .. هو الذى أصبح الساعى الجالس أمام مكتبى يوم كنت رئيسا لتحرير مجلة « الجيل » .. وكان يقول للناس ذلك ، وكنت أردد مايقول — ثم أنسى المعنى الكبير لذلك ! ..

وعاد زوج الخادمة يقرر : أنه كان يوما نحسا يوم تزوجته .. لقد كان فى يوم ١٣ من يوليو .. وعندما انتقلنا إلى السكنى فى الزمالك كان البيت رقم ١٣ .. حتى الشقة كانت رقم ١٣ .. إنها مجموعة لايمكن أن تلتقى صدفة ياأستاذ .. إنه القدر قد رتب ذلك كله .. القدر ضدى يا أستاذ ..

ولم يجد الأستاذ صعوبة فى أن يقلب هذه الأوضاع ويخرج بالمعنى الذى يريد : لاشىء اسمه القدر يامولانا . وإذا كان هناك فالدور الذى يلعبه أخطر من أن تنتقل بين ١٣ فى الزمان إلى ١٣ فى المكان .. إننى أسكن فى البيت رقم ١٣ .. ألم تلاحظ ذلك ؟.. ولو استطعت لوضعت رقم ١٣ على باب الشقة وباب كل غرفة .. ولكنى وضعت على مكتبى تمثالا « للبومة » التى يتخذها الناس رمزا للنحس أيضا .. ولم أكتف بهذا فقد اتجهت إلى الأدباء الذين يصيبون بالنحس من يقترب منهم : ابن الرومى وشوبنهور وأبى العلاء المعرى .. أما لماذا اختار الناس رقم ١٣ فهناك قصص كثيرة لامعنى لها .. أو لها معنى آخر غير الذى قصده الناس .. يقال إن ١٣ جنديا كانوا معا .. فأصابت الرصاصة الجندى رقم ١٣ . وأخطأت الجنود الآخرين .. ويقال ذلك عن ثلاثة إذا احتاجوا لأن يشعل كل

منهم سيجارته .. فتجد أن واحدا قد أشعل سيجارة الثانى .. ثم يطفئ عود الكبريت .. ويشعل عودا جديدا ويقدمه للثالث .. أى أنه لايصح إشعال ثلاث سجائر بعود واحد .. ويقال إنه حدث ذلك فى إحدى الغارات الجوية ، فأصابت المدفعية الشخص الثالث .. يقال ! ..

ولكن الأستاذ كثيرا مايتحدث عن « المنطق الصارم » الذى يمسك الكون من أوله لآخره .. فكل شىء له مكان .. وكل شىء له معنى : أحقر الأشياء والمخلوقات وأعظمها أيضًا ..

وتناوبنا نحن جميعا هذه المعانى : وأنه لاتوجد صدفة . إنما يوجد ترتيب سابق . فليس من قبيل الصدفة أن يولد هو فى أسوان ، فى أقصى جنوب مصر .. وليس صدفة أن يكون من هذه الأسرة ، ولا أن يسكن فى مصر الجديدة التى تشبه فى ضوئها وحرارتها أسوان .. وليس من الصدفة أن يكون أطول إخوته .. ولامن الصدفة أن يكون زوج الخادمة قد ولد فى نفس البرج الذى ولدت فيه زوجته . بل هو قد ولد يوم ١٧ يونيو وهى أيضا .. وشهادة ميلاده تبدأ برقم ٢٢٧ وزوجته أيضا .. ولا أن يكون اسم والدته مثل اسم والدتها .. ولا أن يكون اسم المأذون هو الحاج يوسف عبد الرحمن .. وعبد الرحمن هذا . هو اسم أبيها ويوسف اسم أبيه .. إلخ ..

وهز الأستاذ رأسه بما معناه : يجوز أحيانا ..

أو لعل الأستاذ أراد أن يسلم له بشىء . إراحة لرأسه من النقاش .. أو أنه رأى أنه لاأمل فى إقناع هذا الزوج المسكين برأى آخر ..

ولكنى عرفت فيما بعد أن الأستاذ يؤمن ، أو على الأقل ليس له رأى واضح فى دلالة الأرقام عند خبراء التنجيم أو علماء الفلك أو قراء الطالع ..

وكنت أرى غير الذى يراه الأستاذ ، وكنت أول من أشار إلى أن السنة التى ولد فيها الأستاذ وهى سنة ١٨٨٩ قد ولد فيها : طه حسين وهتلر ونهرو وسالازار وشارلى شابلن واثنان من الفلاسفة الوجوديين : جبريل مارسيل ومارتن هيدجر ..

وولد الأديبان بول ناش وجان كوكتو ..

والمؤرخان الكبيران : عبد الرحمن الرافعى وأرنولد توينبى ..

وفى سنة ١٨٨٩ أقيم برج إيفل فى باريس .. واكتشف العالم الإيطالى سكباريللى أن هناك قنوات على سطح المريخ ، تؤكد أن هناك حياة . وأن هناك كائنات عاقلة تعيش فى الفضاء الخارجى ..

وقد ولد القائد الانجليزى ولنجتون فى نفس السنة التى ولد فيها نابليون .. وكان من نصيب ولنجتون أن يهزم نابليون فى موقعة ووترلو ..

وقد ولد سنة ١٩١٨ الرئيسان جمال عبد الناصر وأنور السادات والمستشار هيلموت شميت والأديب الروسى سولجنتسين ..

وفى سنة ١٦١٦ مات عظيمـان : الشاعر شكسبير والروائى الأسبانى سرفانتس .. فهل هى الصدفة وحدها التى شاءت أن يكون هذا العدد الكبير من العظماء قد ولدوا فى سنة واحدة فى أماكن مختلفة من العالم ؟ وهل من الممكن أن تجد شبها بينهم ، وأن هذا الشبه فى الملامح الجسمية والنفسية قد أدى إلى تشابه فى الدور الفكرى والفنى والسياسى لهم جميعا ؟ ربما ..

وعاد زوج الخادمة يلقى بآخر ماعنده من متاعب . وكأن الأستاذ لم يقل شيئا .. أو كأنه لم يسمع مما قلنا شيئًا .. ولاهو يدرى إلى أين أخذنى خيالى أو ألقى بى سرحانى الطويل ، فقال الزوج الغلبان : قل لى ياأستاذ .. إذن فما هو الحب ؟ ..

وتلك قضية مفاجئة تماما ولكن الأستاذ قد اعتاد على ذلك .. واعتاد على أنه لاشىء يمكن أن يكون مفاجأة له .. فكل شىء جاهز عنده . الأسئلة والإجابة . وليس عليه إلا أن يشير فقط . فتجىء الأفكار فى خيط واحد مثل حبات السبحة .. قال : يامولانا .. إن هذا ليس سؤالا ، إنها استغاثة غرقان .. وهذا الغرقان لايريحه وهو يغرق أن يأتى له إنسان بأنبوبة اختبار تقول له كم نسبة الملوحة فى ماء البحر .. أو ماهى أنواع السمك .. أو ماهى أعماق البحر .. أو مدى قربه أو بعده عن الشاطئ .. إنما هو يريد أن ينقذه أحد .. ولو كان الذى أنقذه حوتا من الحيتان التى حدثتنا عنها « ألف ليلة وليلة » : فقد غرق أحد البحارة فأوى إلى إحدى الجزر .. وفوجئ بأن الجزيرة تتحرك .. إنها حوت .. ولو ابتلعه الحوت مثل النبى يونس عليه السلام ، فلامانع عنده مادام بطن الحوت أسلم من بطن البحر .. يامولانا لقد حارت القلوب فى الحب . وحارت العقول فى تعريف القلوب .. ولكن الشاعر الصوفى ابن عربى يقول :

حـــار أربـــاب الهوى فى الهوى وارتبـكـوا !

ولاشىء يمكن أن يضاف إلى تعريف الهوى أكثر من ذلك .. فلاشىء أقل ولاشىء أكثر .. إن الهوى هو الهوى .. والشاعر أبو نواس قال أيضا :

يقول أناس لو وصفت لنا الهوى   فوالله ماأدرى الهوى كيف يوصف

إلا إذا أردت أن تتفلسف يامولانا . وأنت الآن أدرى بماذا جرته عليك الفلسفة ؟ ..

وتشجع أحد الحاضرين وقال : ولكن شوقى حاول أن يضيف إلى بيت أبى نواس بيتا آخر فكان ركيكا وسخيفا . لقد قال شوقى :

« يقول أناس لو وصفت لنا الهوى »   لعل الذى لم يعرف الحب يعرف

فقلت لقـد ذقت الهـوى ثـم ذقته   « فوالله ماأدرى الهوى كيف يوصف »

ولا أعتقد أن شوقى كان سخيفا . وإن كان الأستاذ قد انتهز هذه المناسبة العابرة ليهاجم شاعرية شوقى وعنصره التركى وادعاءه الوطنية . وادعاءه الابتكار ..

ويبدو أن الهجوم على شوقى قد شجع زميلا آخر ليستدرج الأستاذ إلى الهجوم على رجل آخر. فقال الزميل : والله ياأستاذ لم أجد أسخف فى تعريف الحب مماقاله مصطفى صادق الرافعى فى مقدمة كتابه « السحاب الأحمر » قال الرافعى :

الحب سجدة عابد ماأرضه إلا جبينه !
أفق الملائك نفسه فى البدء كان له لعينه !.

ثم قال : وليس أسخف من هذين البيتين إلا قول الرافعى أيضا فى نفس المقدمة :

يامن على البعد ينسانا ونذكره لسوف تذكرنا يوما وننساكا
إن الظلام الذى يجلوك ياقمر له صباح متى تدركه أخفاكا

وقد سعد الأستاذ بذلك كله ..

ولكنى لم أجد مصطفى صادق الرافعى سخيفا ولا ركيكا .. فأنا من المعجبين به والحافظين لكثير من تعبيراته الجميلة وتراكيبه البلاغية المبتكرة .

وأظن أننى الذى قلت تعليقا على ذلك بصوت مرتفع .. نعم بصوت مرتفع : ولكنه ليس سخيفا ..

وتشاء الصدفة أن تخرج منى هذه العبارة فى نفس الوقت مع زميل آخر قال : لا والله يا أستاذ ! ..

إذن فنحن الاثنان معا ، لانرى سخافة شوقى ولا ركاكة مصطفى صادق الرافعى .. أى أننا نختلف تماما مع الأستاذ فى كثير من فلسفته الأساسية فى الشعر والبلاغة وعلم الجمال . أى أننا كفرنا به وفى مواجهته ودون قدرة على إقناعه أو دون دليل نسوقه ونواجه ذلك الجيش الجرار من الحجج والبراهين التى سوف يطلقها الأستاذ علينا ..

وقد حدث ذلك ..

وكان هوْلا عظيما ..

ولا أذكر شيئا مما قاله الأستاذ غاضبا ..

وأعتقد أننى احتميت فى سرحانى . ولم أعد أتذكر إلا القليل جدا مما تدفق به الأستاذ .. وكأنه بركان يرمينا بالشرر والحجارة ..

وكنا نسمى ذلك اليوم ، ولسنوات طويلة ـ يوم القيامة : وكنا نقول فيما بيننا حدث ذلك : ق . ق .. أى قبل القيامة .. أو ب .ق .. بعد القيامة ..

ولم يخفف من أهوال القيامة أن قال واحد أكثر منا دراية بالأستاذ : إن أروع مايقال تعليقا على مأساة صاحبنا هذا (وأشار إلى زوج الخادمة ..) ماقاله الأستاذ فى كتابه « خلاصة اليومية » :

لاتحسدن غنيا فى تنعمه قد يكثر المال مقرونا به الكدر
تصفو العيون إذا قلت مواردها والماء عند ازدياد النيل يعتكر !

ومعنى ذلك أن هذا الزميل قد حسد الرجل التعيس بزوجته التى كانت خادمة . وأعطاها كل مالديه فلم ترض بشيء من ذلك .. بل إنها تركته لواحد من صغار الموظفين – وكان زميلنا هذا غنيا . وكان لديه موظفون ..

ولم يكن الأستاذ العقاد فى حاجة إلى مزيد .. فإذا كانت المرأة من قضاياه الهامة . فإن الحب ليس أعظم قضاياه ، ولكنها الخيانة .. إنه يرى المرأة خائنة بطبعها . هل هى المرأة خائنة له .. أو أن المرأة والخيانة توأمان ؟ إننا نجد أن المرأة والخيانة توأمان فى أحاديث الأستاذ .. وإن كنا نجد شيئا آخر فى شعره أو فى كتبه .. حتى قصة « سارة » التى ليست قصة من أى نوع .. إنما هى مجموعة مقالات تحليلية .. ومن الغريب أن الأستاذ فى رواية « سارة » هذه بعد أن يصل إلى نصفها يتساءل : من هى إذن سارة ؟ ..

وجواب هذا السؤال يكون عادة فى السطور الأولى للأحداث التى تبنى هذه القصة وهذه الشخصية . ثم إن سارة هذه حيوان ساذج شهوانى .. وطبيعى أن تكون خائنة ..

لقد كان ذلك اليوم هو أطول يوم فى تاريخ صالون العقاد .. فقد انقلبت الدنيا كلها على رءوسنا .. أو حطمت رءوسنا ..

ولا أستبعد أن يكون الأستاذ قد ضاق بنا فى ذلك اليوم .. فقد تجاوز بعض الزملاء حدود الأدب ، دون قصد منهم .. بل إن بعضهم أراد أن يستعرض حبه للأستاذ . فراح يروى مايحفظ من شعره دون أن يدرى ماالمعنى الحقيقى له .. ودون أن يدرك المواجع التى حركها فى قلب الأستاذ ..

فبعد أن تحدث الأستاذ عن خيانة المرأة وأن هذا طبع من طباعها . وهو قد تحدث فى ذلك كثيرا جدا .. حتى لو ظهرت امرأة أمامنا فجأة لهجمنا عليها وقطعناها لأنها خائنة . خائنة لأحد من الناس !

ولذلك لم تكن نظرتنا فيها احترام كبير لكل من نرى من النساء ، وخاصة اللاتى يجئن إلى صالون الأستاذ . وكانت حجتنا بسيطة : كيف تقبل امرأة أن يكون هذا رأى الأستاذ فى المرأة ثم تجيء إليه ؟. إذن فهى موافقة على كل ماقال . مادامت قد ترددت عليه ، وجلست إلى جواره وتحدثت باحترام شديد .. إذن فهى خائنة . أو سوف تكون كذلك ! ..

ومن غير مناسبة واضحة تحدث واحد من تلامذة الأستاذ القدامى ومن المقربين إليه .. ويقال إنه يتناول غداءه مع الأستاذ ، وهذا يفسر أنه يظل جالسا حتى بعد أن يصافحنا الأستاذ مستأذنين فى الخروج .. وكنا نجد ذلك شيئا عجيبا . فلم نكن نعرف تماما أن المسافة بين الأستاذ وبين أحد من

الناس من الممكن أن تكون أكثر من الجلوس فى الصالون ، والحديث والعودة إلى البيت على أمل اللقاء بعد أسبوع .. قال هذا التلميذ الذى سبقنا بسنوات طويلة إلى صالون العقاد .. قال وهو يهز رأسه يمينا وشمالا ويغمض عينيه : إن المرأة لاتستحق أكثر من أن يقال لها ماقلته أنت ياأستاذ :

تريدين أن أرضى بك اليوم للهوى وأرتاد فيك اللهو بعد التعبد ؟

وألقاك جسما مستباحا . وطالما لقيتك جم الخوف . جم التردد

إذا لم يكن بد من الحان والطلى ففى غير بيت . كان بالأمس معبدى !

ومعنى ذلك أن المرأة التى أحبها وعبدها ، قد أصبحت مستباحة لكل الناس .. وأنه لايستطيع أن ينتهك حرمات هذا الجسد المقدس . أو الذى كان مقدسا .. وإذا كان لابد من الجنس ، فليكن مع امرأة أخرى !

وعرفنا فيما بعد من هى التى نظم فيها الأستاذ هذه الأبيات – أو أن كثيرين قد ادعوا أنهم يعرفون من هى .. أى أن هناك حادثة خيانة معروفة ، وأن هذه الخيانة قد مزقت قلبه ، وحطمت كبرياءه . فكانت هذه الكلمات العنيفة . التى جاءت فى هذه الأبيات ، ورواها التلميذ القديم مغمض العينين ..

ولم يشفع له عند الأستاذ أنه اعتذر كثيرا وطويلا عن اختيار هذه الأبيات ! !

ولكن هذا التلميذ القديم لم أره بعد ذلك إلا فى جنازة الأستاذ . لقد اختفى أكثر من عشرين عاما ! ..

هل أقول إن ذلك اليوم الطويل قد انتهى كما هى العادة عند الساعة الثانية من بعد الظهر ؟.. لاأظن أن ذلك هو ماحدث .. فقد ظل اليوم وحشا مفترسا يأكل بقية الأيام الأخرى .. وأصبح شبحا نفزع منه كلما تذكرناه .. أو كلما حاول أحد منا أن يلوى الحديث فى صالون العقاد إلى هدف شخصى . لعل الأستاذ يخفف عنه مشاكله الخاصة ..

ولكن شيئا واحدا قد أصبح واضحا لنا تماما . ولم نكن نعرف ذلك : أن الأستاذ أكثر حساسية مما نتصور ..وأنه أقل قدرة على إخفاء مايضايقه .. وأن الكثير من فشله وخيبة أمله ومرارته . لايقوى على إخماد ناره وشراره ..

وشىء آخر : أنه أفضل له ولنا جميعا أن نتركه يقول .. وهو سيد الحديث . ولكنه ليس سيد الحوار ..

ولكن كان من الصعب علينا أن نتفادى الكلام عن طه حسين والرافعى ومحمد مندور والشيوعية والوجودية والدراسات الجامعية وأساتذتنا فى كل العلوم والفنون ..

إننى لاأزال أذكر اليوم وأفزع منه .. كأنه كان بالأمس ..

أذكر أن الأستاذ العقاد روى لنا كيف كان الروائى الروسى دستويفسكى عظيما وقادرا على التأثير على القارئ . قال الأستاذ : عندما قرأت رواية « الجريمة والعقاب » لدستويفسكى كنت أمسك أنفاسى .. فلما ذهب بطل الرواية وهو طالب جامعى واسمه راسكلينكوف وفى يده سكين يريد قتل صاحبة البيت .. وعندما فتح غرفتها واقترب ليقتلها كاد قلبى يقع بين ضلوعى ! ..

وأدهشنا ماقاله الأستاذ . فقد كان غريبا وعجيبا .. فلم يجرب أحد منا مثل هذه المشاعر التى « يندمج » فيها القارئ والكاتب معا ..

ولكن صدقت ماقاله الأستاذ ، عندما جلست أكتب أحداث ذلك اليوم : إنه أشق أيامنا فى صالون العقاد .. فقد صدمناه فصدمنا . وأوجعناه فأوجعنا .. ثم هو أودعنا الكثير من هموم الشباب وضلال المفكرين .. الحائرين بين الجامعة والمكتبة والشارع والبيت وصالون الأستاذ .

وَمَن الذي لا يُريد أن يكونَ قَويًّا ؟!

كان من عادة الأستاذ أن يقول لنا وهو شديد الاقتناع وعظيم الاطمئنان إلى كل النتائج التي وصل إليها بالعقل والتحليل والمنطق : ألم أقل لكم ذلك ؟ . لقد أثبتت الأيام صحة ما ذهبت إليه . جاءك كلامي يا مولانا ؟ !

فقد كان من بين الحاضرين من يحب أن يعرف رأى الأستاذ فى سير الحرب بين ألمانيا وأوروبا . وكان يحب أن يستمع إلى تعليقه على الأحداث . وكان الأستاذ يحب ذلك أيضا . فنحن نعلم أن له رأيا معروفا . فهو يعتقد : أن الحرب سوف تنتهى بهزيمة هتلر وموسولينى ، تماما كما انتهت بهزيمة نابليون قبل ذلك . ولنفس الأسباب .

فهو يرى أن نابليون مثل هتلر : كلاهما يحارب ويهدم ويقتل ولا يبشر بعقيدة أو دين .. وأن كلا منهما يملك جهازا حربيا جبارا . وأن كلا منهما على درجة كبيرة من الذكاء الشيطانى . وأنه بذكائه قد سخر مئات الألوف من مواطنيه ليحاربوا وليموتوا فى سبيله هو .. أو فى سبيل الوطن . مع أن الوطن لم يكن فى حاجة إلى كل هذه المعارك الدموية — لا فرنسا كانت فى حاجة إلى غزو روسيا ، ولا ألمانيا أيضا .

ولكن الأستاذ كان يتابع سير القتال ويحلل الأحداث . ويروى النوادر التاريخية ابتداء من حروب الرسول عليه السلام حتى حروب هتلر وموسولينى .. وكان من السهل عليه جدا أن يجد الدليل القوى على عبقرية محمد عليه السلام ..

وكانت عظمة الأستاذ العقاد تظهر بوضوح فى تحليل الأحداث وفى مقارنتها ، وكأن التاريخ كله مجموعة من الخدم يشير إليهم الأستاذ فيقفون صفا واحدا ينتظرون أوامره ..

* * *

ولم أكن فى ذلك الوقت أتابع أحداث الحرب العالمية الثانية .. فنحن غارقون فى الفلسفة . وإن كان إعجابنا بهتلر ليس إلا استمرارا فى الإعجاب بالفلسفة الألمانية والأدب الألمانى .. وصورة جديدة للإعجاب بالبطل والعظمة .. وكان مفهوم العظمة عندنا فى ذلك الوقت أن هتلر كل يوم فى دولة .. يجتاح دولة .. يستولى عليها .. يتجاوزها إلى دولة أخرى .. وكانت التعبيرات الشائعة فى ذلك

الوقت : أنه يمشي كالسكين فى الزبدة .. ولا أظن أن هذا التعبير كان مفهوما بوضوح لدينا . فلا أعتقد أن أحدا منا قد رأى زبدة يقطعها أحد بالسكين .. فالزبدة عندنا تظهر أحيانا على شكل كتل تسوى باليد ، ثم توضع فى إناء على النار لتصبح سمنة بعد ذلك .. ولكن كان يقال : إن هذا مايفعله الجيش الألمانى .. وقوات الرايخ الثالث . وفرق العاصفة وفرق الحماية – وكلها أسماء لشباب وسيم رشيق غاضب وقد وضع الصليب المعقوف على ذراعه ..

وكنا نرى الكثير من صورهم فى مجلة زراعية كانت تصدر فى مصر لرجل اسمه « ثابت ثابت » . وكانت هذه المجلة تتحدث عن نترات الجير الألمانى – وهو نوع من الأسمدة الكيماوية . . وقد احتفظت بكل أعداد هذه المجلة سنوات طويلة . فقد كانت وسيلتى الوحيدة لأزداد إعجابا بألمانيا .

أما ألمانيا فى ذلك الوقت فقد كانت الفلسفة والأدب وأسبرين « باير » وسيارات باير التى تعرض علينا الأفلام فى الشارع .. وكانت هذه السيارات معجزة العصر . فالسيارة نظيفة لامعة . وقد كتبت على جانبيها بحروف مضيئة كلمة : باير .. ثم إن لها ميكروفونا يذيع الأغانى المصرية : افرح ياقلبى .. لأم كلثوم ، وياجارة الوادى .. لعبد الوهاب .. وأغنية كان يخيل لنا أنها تقول : هاتوا براد شاى .. وبعد ذلك اكتشفنا أنها تقول : كوكاراتشى – أى الصرصور باللغة الأسبانية !

وسألت الأستاذ إن كان قد قرأ كتاب « أسطورة القرن العشرين » لفيلسوف النازية الفرد روزنبرج . فقال : قرأت عنه .. ولكنى لم أجده بالإنجليزية أو الفرنسية ..

ولم أكن قد قرأته . ولكن سمعت عنه من صديق يعرف اللغة الألمانية .. ومن صاحب محل الساعاتى « هيرش » فى المنصورة . وكان يعلمنى اللغة الألمانية مجانا . وكنا نردد وراءه نشيد : ألمانيا فوق الجميع ، فوق الجميع فى العالم .. الوحدة والعدل والحرية من أجل ألمانيا .. نبيذ ألمانيا ونساء ألمانيا .. من أجل الوحدة الألمانية ..

ولكن الأستاذ لم يعجبه ماجاء فى كتاب « أسطورة القرن العشرين » . لأن الكتاب يرى أن الجنس الآرى ، أى الجرمان ، هم سادة الأجناس .. وأنهم شعب الله المختار . وأنهم لذلك يجب أن يسودوا العالم وأن يحكموه .. وأن هذا بالضبط مايحاوله هتلر بالقوة ..

ويقول الأستاذ : إن هتلر يامولانا من رأيه أننا أحط شعوب العالم .. لالشىء إلا لأنهم من أصل آرى : الشعر ذهبى والعيون زرقاء والشفاه رفيعة والقوام طويل .. أى أن أى جاهل ألمانى أعظم وأحق بالبقاء من أى متعلم أسمر أو أصفر أو أسود .. فقط إنهم يمتازون عنا لأسباب لادخل لهم فيها . فهم بيض لأن أجدادهم كذلك .. والآخرون سود لأنهم ورثوا اللون .. وهذه مقاييس خاطئة .. وأفكار عرجاء .. والدفاع عنها حرب مجنونة .. فهو رجل مجنون واستطاع بذكائه أن يتسلط على الشعب الألمانى الذى يحب القوة ويمشى وراءها أعمى . فإذا كانت هذه هى عظمة هتلر . فهذا هو عيب

الشعب الألمانى ، ولكن الشعب الألمانى لن يتوب .. فسوف يبحث عن هتلر آخر بمواصفات أخرى ، وسوف يمشى وراءه .

ولم يعش الأستاذ ليرى أن النازية قد انتعشت فى ألمانيا بعد الحرب ، تريد أن تنتقم من الذين أهانوها ومسحوا بها الأرض . من الأمريكان واليهود أيضا .. بل إن النازية قد ظهرت فى أمريكا نفسها ، وفى أوروبا .. بل إن الأمريكان يريدون أن يخففوا الهجوم على ألمانيا النازية ، لأن الذى حدث فى عصر النازية ، إذا كان جريمة فليست ألمانيا مسئولة عنها دائما .. وإذا كان جيل هتلر قد أخطأ ، فليس معنى ذلك أن تظل هذه الخطيئة لاصقة فى كل الأجيال التى لم تر هتلر..

وأحس الشعب الألمانى أيضا أنه قد كفر عن خطيئة هتلر أكثر مما يجب .. وأنه دفع الثمن ماديا وأدبيا . وأن الحلفاء قد ارتكبوا جرائم دموية . وأنهم هم أيضا يجب أن يحاكموا على هذه الجرائم فإن لم يحاكمهم أحد فلا أقل من أن يكفوا عن « تجريم » الشعب الألمانى إلى الأبد ..

وكان يتردد على صالون الأستاذ رجل رقيق لطيف اسمه : اللواء شوقى عبد الرحمن .. كان الأستاذ يحترمه ويستمع إليه باهتمام . فهو ضابط عسكرى . وهو قد عاش فى انجلترا . قرأ كثيرا وطويلا فى التاريخ . ولذلك كانت المناقشات معه تأخذ مذاقا عسكريا . فاللواء عبد الرحمن يتحدث عن الحرب الحديثة . والأستاذ يتحدث عن الحروب الإسلامية . ويتحدث اللواء شوقى عبد الرحمن عن قوات المظلات التى أنزلها هتلر وراء خطوط الفرنسيين والروس والانجليز .. وكانت هذه القوات تقوم بالتخريب والإرهاب ، وتوهم القوات المعادية لهتلر بأن هناك قوات وراءهم .. فترتبك هذه القوات . ولا تعرف إن كان هتلر قد جاء من الأمام أو من الخلف ..

وكان الأستاذ يقول : بل حدث ذلك على أيام الرسول عليه السلام يامولانا . وكان الرسول أعظم وأبرع .. فقد بعث الرسول عليه السلام برسالة مع عبد الله بن جحش .. وبعث به وراء قوات قريش وأمره ألا يفتح هذه الرسالة إلا بعد يومين . فإذا عرف مافيها طلب إلى زملائه إن كان أحد يريد أن يكمل المهمة السرية الخطيرة . فقد كان الرسول عليه السلام لايحب أن يكره أحدا على الحرب أو على القتال .. وهذا مالانراه عند قوات هتلر أو نابليون .. فهم يجب أن يقاتلوا وأن يموتوا أرادوا أو لم يريدوا .. بل إن الواحد منهم إذا تردد فمن واجب زملائه أن يقتلوه !

والفارق بين قوات هتلر وقوات الرسول أن قوات هتلر لاتدافع عن دين . وقوات الرسول تدافع عن عقيدة . وقوات هتلر قد أعدت عشر سنوات قبل ذلك ليكون مانحارب عنه هو الدين .. ولكنه دين الكراهية والمرارة والرغبة فى الانتقام من الذين تآمروا على ألمانيا .. أما قوات الرسول فهى تدافع عن دين الحب والرحمة .. دين لايحارب إلا مضطرا .. فكل حروب الرسول كانت حروبا دفاعية .. ولم يستخدم الرسول السيف إلا عندما وجد نفسه مضطرا إلى ذلك .. فهو لم يحارب الرأى بالسيف ..

فقريش لم يكن عندها رأى .. إنما لديها عادات وتقاليد .. وهو لم يحارب بالسيف إلا الدول .. فالسلطة هي وحدها القادرة على مواجهة السلطة ..

وكان اللواء شوقى عبد الرحمن متوسط القامة أبيض اللون ممتلئا قليلا . وكان إذا تحدث مد رقبته إلى الأمام . وكان يحمل عددا من الكتب الإنجليزية دائما ، يضعها على ساقيه . وكان يتابع مايجرى فى داخل مجلس العموم البريطانى ويستمع إلى الإذاعات العالمية .. ولذلك كان حجة فى سير الأحداث ..

وفى بعض الأحيان كان يضيف شيئا على مايقوله الأستاذ ، لايعارضه ، إنما يؤكد صدق الأستاذ وحسن إدراكه .. وكان يتلفت إلينا ليقول : والله لو كان الأستاذ قد درس فنون الحرب وحارب فعلا ، ماكانت آراؤه أحسن ولا أفضل .. فهو عالم بتاريخ الحروب .. بل إن الكثير جدا مما يقوله الأستاذ ، يتفق تماما مع ماقاله المؤرخ العسكرى البريطانى الشهير ليدل هارت .. تماما .. بل إن نظريات الحرب للعبقرى الألمانى كلاوسفتس التى لايعرفها الأستاذ تماما .. تتفق مع كل تحليلات الأستاذ للمعارك العسكرية الإسلامية ..

وكنا نتطلع إلى الأستاذ فنجد السعادة واضحة على وجهه . ولم يكن اللواء شوقى عبد الرحمن ينافق الأستاذ .. إنما كان يقرر حقيقة . ولكن الأستاذ كان يفضل أن يعلق على ذلك أيضا .. فيقول فى إحدى الجلسات للواء شوقى عبد الرحمن : ولكنى أختلف مع أستاذك ليدل هارت يامولانا . فهو قد كتب منذ أسبوعين أن حرب هتلر سوف تنتهى بعد سنوات ولكن نتائجها سوف تبقى حتى نهاية القرن .. إن هذا الذى قاله ليدل هارت هو تكرار لما قاله هتلر نفسه .. فقد أعلن هتلر أن من يكسب هذه الحرب فسوف يبقى سيدا لأوروبا إلى الأبد .. والذى سوف يخسرها سوف يبقى عبدا لروسيا إلى نهاية القرن العشرين .. وقد أخطأ هتلر يامولانا .. كما أخطأ ليدل هارت .. لأن الحلفاء لن يدعوا روسيا تحكم ألمانيا . فهم يعلمون أن ألمانيا سوف تنهض بقوة .. وهم لايريدون أن تكون حربا عليهم ، بل حربا على روسيا . وسوف يساعدون ألمانيا ، لتكون قوية وتكون قوتها محسوبة . وتكون موجهة ضد روسيا . وكذلك اليابان .

* * *

وأعود إلى مذكراتى فأجدنى كتبت : « وفى ذلك اليوم كانت مقارنة رائعة بين حروب الرسول عليه السلام وحروب نابليون .. وكانت مقارنة بين عظمة عمر بن الخطاب وعظمة كثير من الساسة والقادة فى التاريخ .. إن الأستاذ يرى أن عمر بن الخطاب هو أعظم الساسة والمقاتلين بعد الرسول . ويرى أيضا أن صفات العبقرية كلها تنطبق عليه .. حتى يمكن أن يقال : إن عمر هو عبقرى

العباقرة .. وقد كانت مناقشات طويلة فى الحرب والسياسة ونظريات علم النفس ورأى الأستاذ فى المرأة ورأى عمر أيضا . وقال لنا إن امرأة كانت تغنى فى بيتها :

إن النساء رياحين خلقن لكم
وكلكم يشتهى شم الرياحين !

ويقال إن عمر بن الخطاب سمعها . فدق بابها . ودخله دون إذن وقال :

إن النساء شياطين خلقن لنا
نعوذ بالله من شر الشياطين !

ولا أظن أن عمر قد دخل دون إذن . وإن كان قد فعلها مرة واحدة فى حالة غضب .. ولا أظن أن عمر هو صاحب هذا البيت . ولكن هذا البيت لايختلف فى معناه عن فلسفة عمر وعن رأيه فى المرأة ..

وقال الأستاذ : إن العالم الايطالى لمبروزو .. كان يرى أن علامات العبقرية كثيرة .. ومتناقضة . فقد تجد العبقرى طويلا مثل عمر بن الخطاب أو قصيرا مثل أبى بكر ، أو تجده كثير شعر الرأس أو أصلع ، عصبيا أو هادئا .. اجتماعيا مسرفا أو انطوائيا متشددا ..

ومن العباقرة الطوال : الأستاذ العقاد .

ومن العباقرة القصار : الشاعر عبد الرحمن شكرى . فالأستاذ يصفه بالعبقرية .. ومن العباقرة ذوى الشعر الكثيف : العالم الرياضى اينشتين .. ومن ذوى الرءوس الصغيرة والشعر القصير : العالم الفيزيائى اوبنهايمر أبو القنبلة الهيدروجينية ..

وكان اللواء شوقى عبد الرحمن يخرج ورقة من جيبه قد ترجم فيها فقرات من كتب عن تاريخ الحروب أو عظماء الحروب . وكان يستأذن الأستاذ أن يقرأ . وكان الأستاذ يشير إليه أن يقرأ . فقرأ : يقول العبقرى كلاوسفتس فيلسوف العسكرية :

« إن القائد العظيم هو القادر على نفسه . قبل أن يكون قادرا على غيره » .

« فليس من الصعب أن يجد القائد ألوف الجنود تحترمه أو تحبه .. ولكن العظمة الحقيقية هى أن يكون هذا القائد قادرا على ضبط نفسه .. وحرمان نفسه من الراحة ، تماما كالجنود .. وحرمان نفسه من الطعام والشراب والنوم . تماما كالجنود . »

وراح اللواء شوقى عبد الرحمن يضرب أمثلة من التاريخ الحديث . وكان شديد الإعجاب بالاسكندر الأكبر ونابليون وروميل ثعلب الصحراء ..

ثم تحدث ضابط آخر هو اللواء سعد الدين حسن . أو حسان . لاأذكر الآن .. وكان أكثر اطلاعا على المعارك الإسلامية . وكان أشد الناس إعجابا بصلاح الدين الأيوبى وإبراهيم باشا . وكان

فى حالة دفاع دائم عن أحمد عرابى باشا . وكان يقول إن عرابى باشا كان وطنيا ساذجا . وكانت لديه حاسة عسكرية صادقة .. ولكن لم تتح له الفرصة الكافية لكى يكشف عن هذه « الفطرة العسكرية » .

ولم يسترح الأستاذ إلى ماقيل عن أحمد عرابى باشا .. ولكنه اتجه إلى ماقاله اللواء شوقى عبد الرحمن . فقال : يامولانا إننا قد اهتدينا إلى هذه المعانى فى سن مبكرة جدا . ولو عدت أنت إلى كتابى « خلاصة اليومية والشذور » الذى ألفناه من أربعين عاما لوجدت فيه : « أن القوة هى الفضيلة . فإذا كانت الحياة هى الصراع بين القوى والضعيف . فإن الإنسان يفضل القوة ويحبها ويحرص على المزيد منها .. والناس يكرهون الضعف ويحتقرون الضعيف أيضا .. فالصبر : قوة . لأن الإنسان الصابر هو الذى يتغلب على الصعوبات التى ينحنى أمامها غيره من الناس ، والرحمة : قوة . لأنها لاتجىء إلا من إنسان قوى . فالقوى هو الذى يرحم غيره من الضعفاء والكرم : قوة .. لأن الإنسان الكريم هو الذى يعطى ماعنده للآخرين دون أن يمن عليهم .. والقناعة : قوة .. لأنها تدل على أن الإنسان قادر على أن يمسك نفسه ويستغنى بما لديه عما لدى الناس .. والتواضع : قوة .. لأن الإنسان المتواضع هو الذى يشعر أن مكانته قوية وأنه قوى بنفسه . وأنه ليس فى حاجة إلى أن يظهر ذلك للناس .. والعفة : قوة . لأن الإنسان العفيف قادر على أن يمسك نفسه عن الذى لدى الآخرين . والحلم : قوة . لأن الإنسان الحليم لايغضبه أن يتطاول الناس عليه . ويرى أن الغضب ضعف . والحياء : قوة . لأن الحياء يحمى الإنسان من أن يتبذل ويترخص ويكون مستهانا به من الآخرين . والعفو : قوة . لأنه دليل على قدرة الإنسان فى مواجهة إساءة الناس كأنها لاشىء .. والعدل : قوة . لأن العدل معناه المساواة بين القوى الذى يخافه الناس والضعيف الذى يخاف الناس .. والصدق : قوة . فالإنسان لايحتاج إلى أن يخفى الحقيقة كالكاذب الذى يخشى الناس .. والزهد : قوة . لأن الإنسان الزاهد هو الذى يرفض مايجده . ولايمد يده إلى مافى استطاعته أن يأكله أو يشربه أو يتمتع به .. بل إن احترام ضعف الآخرين : قوة . لأن احترام الضعفاء مثل احترام الأقوياء ، فاحترام الضعفاء معناه أننا لانحترمهم خوفا منهم ، ولكن نحترمهم تقديرا لحالتهم التى لادخل لهم فيها .. أما الرذيلة فهى الضعف . لماذا ؟ لأن الرذيلة معناها أن الإنسان يختصر الطريق إلى مايريد ، وذلك عن طريق الكذب أو السرقة أو الخداع » ..

ثم يعتدل الأستاذ فى جلسته ويقول : من أجل ذلك يامولانا كانت سلسلة « العبقريات » الإسلامية .. فهى صور للقوة فى أعظم مراتبها .. ولابد من هذه الصور الرفيعة فى عصر الديمقراطية والنازية .. فالديمقراطية قد أفسدت قيم الناس . فقد توهم الناس أن المساواة أمام القانون معناها أن الناس جميعا متساوون .. والحقيقة أنهم ليسوا كذلك .. فهناك العظماء وهناك التافهون .. وهناك

الذين أعطاهم الله صفات عبقرية وقدرات إبداعية . والذين لم يعطهم الله شيئا .. فالديمقراطية قد أفسدت معانى العظمة . وأوهمت السذج والحاقدين أنه لافرق بين الناس . وكذلك الشيوعية قد أفسدت القيم الأخلاقية .. وأفسدت معانى العظمة أيضا ، فقد أقنعت الناس بأن العظمة هى من صنع المجتمع . وأن العظيم أو العبقرى أو البطل هو « مندوب » عن الجماهير . هى التى صنعته وهى التى تستطيع أن تهدمه .. ولكن أحدا من الشيوعيين لم يقل لنا من هى الجماهير التى خلقت لنا شكسبير .. أعظم الشعراء فى كل العصور ! .. وهل إذا أتى الشيوعيون بألف شاعر وحشدوهم فى معمل واحد وقالوا لهم : ألفوا لنا إحدى مسرحيات شكسبير .. فهل يستطيعون ؟ إن الشيوعية والنازية والديمقراطية قد اتفقت فى شىء واحد : إهانة العظماء واحتقار الموهبة . والاستخفاف بالعبقرية ..

ثم التفت إلى اللواء شوقى عبد الرحمن ليقول له : ربما كانت الحروب امتحانا عظيما لمعدن الرجال .. والذى يكون رجلا فى الحرب . هو الذى يكون رجلا فى السلام أيضا .. فإذا استطاع إنسان أن يضع يده وساقه فى النار ثم لايقول : آه .. حرصا على مشاعر جنوده وضباطه . وليكون مثلا رفيعا لهم فى تحمل الألم والتضحية ، فإنه يكون أقدر على تحمل الحياة العادية فى ظل السلام .. بل إن التاريخ قد حدثنا عن قادة تركوا الحياة العامة بعد أن انتهت الحرب .. إن تشرشل كان لابد أن يترك قيادة الحرب البريطانية بعد أن انتهت الحرب .. لأنه قائد مكلف بمهمة محددة . انتهت المهمة ، انتهى دوره . ولذلك فعندما لم يعد البريطانيون انتخاب حزب تشرشل . لم يكن ذلك نكرانا لفضل المحافظين .. إنما كان ذلك قرارا شعبيا بتغيير القيادة السياسية .. التى كانت قيادة عسكرية .. فهم لم يسقطوا بطلا ، إنما رفعوا بطلا جديدا لإدارة الحياة بعد الحرب .. أى بناء الذى انهدم بسبب الحرب . بل إن بعض القادة العسكريين قد ذهب إلى الحياة فى الأديرة .. كأنه قرر أن يعتزل الحياة كلها .. أى أن دوره قد انتهى كبطل . ولم يبق له إلا نفسه .

* * *

وأعود إلى « مذكراتى » وأجد الأستاذ يقول : ولكن يحدث كثيرا كما هو معروف فى التحليل النفسى ، أن يتعلق المريض بالطبيب وهذا طبيعى أول الأمر . فالمريض يجد الطبيب قد اعتنى به واقترب منه . وصارحه المريض بما لم يصارح به أحدا من الناس . وتوهم المريض بسبب خوفه ويأسه وعزلته عن الناس . أن الطبيب صديق أو أنه أخ أو أب . فتعلق المريض بالطبيب . ولو غيروا الطبيب لانزعج المريض . لأن علاقته بالطبيب أصبحت علاقة خاصة . ولذلك فالطبيب يجب أن يتخلص من المريض – أى يتخلص من هذه العلاقة العاطفية . حتى لاينتقل المريض من مرض قديم إلى مرض جديد . وقد أحب بعض الأطباء مرضاهم . وبعض الأطباء تزوج المريضة . وأحيانا تزوج الممرضة

لنفس السبب أيضا . فالممرضة قد لازمت الطبيب واهتمت به . وتوهم الطبيب أيضا أن هذه العناية الشديدة . ليست عناية مهنية . إنما هى عناية خاصة .. وبذلك يكون الطبيب قد وقع فى نفس المصيدة التى يريد أن ينقذ المريض من الوقوع فيها .. وكما يحدث فى حياة الأفراد ، يحدث فى حياة الشعوب .. فيتعلق الشعب بالبطل أو الزعيم . ولايرون الحياة ممكنة بغيره . ويرى البطل أو العظيم هذا الرأى أيضا . وهى غلطة مزدوجة من الحاكم والمحكوم . ولكن الشعوب الواعية ـ مثل الشعب البريطانى ـ هى القادرة على أن تنام بإرادتها وأن تصحو بإرادتها .. وإسقاط تشرشل ليس إلا إلقاء له من السرير حتى يفيق هو ، كما أفاق الشعب البريطانى ..

* * *

وكان يحدث فى صالون الأستاذ مايدل على أن مثل هذه القضايا الكبرى لم تشغل الكثيرين من الحاضرين .. فلم يكن بيننا ضابط أو مهندس أو طبيب أو وكيل نيابة أو قاض أو تاجر أو أجنبى .. إنما نحن جميعا ندرس الأدب والفلسفة والشريعة الإسلامية . وكان الأستاذ رحيما رقيقا . وكان يلمس مشاكلنا التى سمعها منا ، برفق شديد .. هل كنا نبدو أمامه زجاجا هشا ؟ هذا مؤكد . هل كنا نبدو عددا من « البلاليص » القناوى إذا ضرب واحدا بالآخر ـ تكسرنا بعضنا على بعض ؟ لم يكن هذا رأى الأستاذ فينا . إنما كان يخص بالتجريح والنقد الموجع بعض أعضاء مجلس النواب من الوفديين . والباشوات من أعضاء مجلس الشيوخ ..

وكان الأستاذ إذا أحس أن المناقشات ذهبت بعيدا فى التاريخ أو فى الحرب أو فى الفلسفة ، فإنه يهبط بالجواب إلى مستوى مشاكلنا الصغيرة . ولذلك كانت عنده هذه الأبوة وهذه الأستاذية التى تجعلنا نشعر أنه عظيم دائما : إذا تحدث عن التاريخ أو الكون أو إذا سألنى عن كيف كانت خطبة الجمعة الماضية ؟ ..

فقد لاحظ الأستاذ أننى تغيبت . ولما سأل زملائى قالوا : إنه ذهب ليلقى خطبة الجمعة فى مسجد « البراجيل » بالقرب من إمبابة ..

فسألنى الأستاذ : ماالذى قلته يامولانا فى خطبتك ؟ ! ..

فقلت : تحدثت عن عظمة الله .

قال : عن أى شىء ؟ .

قلت : عن الذباب .. أحقر الحشرات ، ولكن فى هذه الحشرة الحقيرة تكمن عظمة الله . كيف تطير .. وكيف تتوالد .. وكيف تنقل العدوى .. وكيف إننا لايصح أن ننبهر كثيرا بالطائرات التى صنعها الإنسان .. فالذى صنعه الله أعظم .. إنه خلق الإنسان الذى اخترع الطائرة .. ولكن الإنسان

أعجز من أن يصنع جناح ذبابة .. وإن الذباب إذا سرق منا شيئا فنحن لانقوى على استرداده — سبحان الله العظيم ..

فقال الأستاذ : وهل حدثتهم عن فلسفة أستاذك نيتشه . وعن أن الإنسان هو أعظم الكائنات ؟ ! .. هل قلت لهم ماقاله نيتشه : إذا كان هناك إله ، فإننى لاأطيق ألا أكون إلها .. فالإنسان إله إلا قليلا .. والآلهة بشر إلا قليلا ؟ .. هل قلت لهم شيئا من ذلك ؟ ! ..

قلت بمنتهى السذاجة : شيء من ذلك !

وضحك الأستاذ عاليا وتراجع إلى الوراء .. ثم ضحك ونهض واقفا .. وذهب ليرد على التليفون .. ولاأعرف إن كان زملائى قد ضحكوا أيضا . فقد أحنيت رأسى . وغرقت فى غيبوبة .. هل هو الخجل ؟ .. هل هو الغضب ؟ .. كم طال غياب الأستاذ – الذى يجيء صوته ضاحكا من بعيد ؟ . ومن المستحيل أن يكون الأستاذ يروى ماقلته لأحد ليشركه فى السخرية منى .. ولابد أن شيئا آخر أو أحدا آخر قد فعل مايجعله هكذا يضحك . هل تطلعت إلى الذين حولى ؟ .. لم أفعل . هل حاولت أن أفهم ماالذى أضحكه ؟ لم أفعل .

ثم جاء الأستاذ وقال : احمد ربنا يامولانا أنهم لم يفهموا شيئا مما قلت .. وإلا ضربوك وأنزلوك .. فهذا الذى قلته بحسن نية . ليس إلا الكفر فى أعلى درجاته .. فنصف خطابك إيمان بالله .. والنصف الثانى كفر به .. يامولانا مالك وما لهذا الطريق ؟ .. إنك لم تؤهل لذلك .. عد إلى كتبك .. إلى تأملاتك .. فإن كان الذى تفعله هو محاولة منك لأن تعبر عن نفسك . وتوضح نفسك لنفسك ، فاتجه إلى الندوات الأدبية أو إلى زملائك فى الجامعة وحدثهم .. وناقشهم وقل لهم ماتشاء !

وقد أصاب الأستاذ تماما .. أصابنى فى أعمق أعماقى .. فقد كنت أريد أن أعبر .. أن أتحدث .. فى مواجهة الآخرين . بالضبط هذا ما أريد ..

وكثيراً مابعثت بخطابات إلى زملائى . لعلى أتلقى ردودا منهم . فلم يفعلوا .. حاولت أن أكتب مقالات وأقرأها لزملائى ، ولكن لم أجد شيئا يريحنى ..

وفى ذلك الوقت كان يدرس لنا الشعر العربى القديم د . شوقى ضيف .. وهو رجل رقيق خجول . وكان يدخل القاعة بخطوات هادئة . وكان موضوعه هو الشاعر أبو تمام .. وكانت له طريقة خاصة فى نطق اسم الشاعر . وذلك بأن يضغط على حرف التاء وعلى حرف الميم .. ولكن كان مختلفا عن الأساتذة الآخرين . وكان مجتهدا . وكان يشجعنا على أن نفعل ذلك . ولم نكن ندرى ماالذى ينبغى أن نفعله .

واستجابة لنصيحة الأستاذ العقاد كتبت بحثا بعنوان « الذاتية والموضوعية فى شعر أبى تمام » . وقد طبقت الفلسفة الألمانية على شعر أبى تمام . فأخذت ماقاله الفيلسوفان فيخته وشيلنج فى التفسير الفلسفى

والوجدانى لقصائد أبى تمام .. وقرأت المقال على زملائى فلم يستحسنه أحد . وحملت المقال معى لكى أقرأه للأستاذ ، ولكن لم أجرؤ . وطويت المقال فى جيبى .. ثم قدمته للأستاذ شوقى ضيف ..

وفى اليوم التالى جاء الأستاذ شوقى ضيف ووزع المقالات على الزملاء ، مع ملاحظاته على كل واحدة منها . ولم يشأ أن يسفه ماكتبه أحد . إنما كان يعلن ملاحظاته وتوجيهاته فى رقة وأبوة ..

ثم قال : من الذى كتب مقال « الذاتية والموضوعية فى شعر أبى تمام » فهو لم يضع اسمه على المقال ؟ ..

ورفعت يدى . فقال د . شوقى ضيف : أهنئك على هذا المقال . وأتوقع لك مستقبلا عظيما فى الأدب والفلسفة .. فهذه أول محاولة لدراسة أبى تمام فلسفيا . وعندما تدرس وتتعمق فى الأدب والفلسفة فسوف يكون لك شأن كبير . أهنئك !

وكان ذلك أول تكريم علنى وأول نبوءة من أستاذ لتلميذه .

* * *

ومرة أخرى تغيبت عن الصالون وذهبت إلى مسجد سيدى إسماعيل الإمبابى لألقى خطبة الجمعة ، كما هى عادة بعض أعضاء « جماعة الإخوان المسلمين » .. وكان المسجد كبيرا والناس كثيرين . وذهبت إلى إمام المسجد . وقدمت له نفسى . وكان يعلم مقدما أننى سوف ألقى خطبة الجمعة وأؤم الناس للصلاة .. ودعا لى الرجل بأن يفتح لى الله كل الأبواب الصعبة .. وأن يبارك لى فيما أعطانى من عقل وإيمان .. ويبدو أن الرجل ذا اللحية البيضاء قد أشفق على .. فأنا ماأزال فى العشرين من عمرى . صغيرا أرتدى بنطلونا وقميصا وشديد الحياء ..

والله وحده يعلم ما الذى قلته . وما الذى جعل الناس يقولون : الله .. الله يفتح عليك يا ابنى .. الله يزيدك ..

ولكن واحدا من زملائى قال لى : إن بكاءك هو الذى جعل بعض الناس يبكي تأثرا ..

ولم أكن أعرف أننى بكيت ..

وكل ماقلته فى ذلك اليوم كان تفسيرا لبعض من الشعر الصوفى لابن الفارض .. وعن حكمته فى الزهد فى هذه الدنيا ..

كما وضعت فى خطبتى الطويلة أبياتا للشاعر الصوفى الشيخ عبد الغنى النابلسى . وطبيعى أن يجىء ذلك فقد كنت مشغولا بدراسة التصوف الإسلامى والمسيحى ..

وربما كان المعنى الذى هزنى حقا هو قول الشاعر النابلسى ، وقولى أنا أيضا فى خطبة الجمعة هذه وفى إحدى قصائدى أيضا :

أحن إلى ذاتى صباحا وفى المسا   وغاية قصدى فى العوالم : رؤيتى

أى أن أعرف نفسي وأن أراها شيئا واضحا .. أو معنى واضحا ، أو فى طريق واضح ينتهى إلى شيء ما .. ربما كان ذلك هو الذى شغلنى عن الناس كلهم سواء كانوا فى المسجد أو فى جمعية الإخوان المسلمين أو فى صالون الأستاذ .. أو على الأعشاب بالقرب من كلية الآداب وأمام المكتبة العامة .. أو « جمعية الجرامفون » التى يرأسها أستاذنا د . لويس عوض ..

وعاتبنى أحد الزملاء لأننى هاجمت أضرحة الأولياء ، ونسيت أن المسجد الذى اعتليت منبره به ضريح سيدى إسماعيل الإمبابى ..

ولاأعرف ما الذى دفعنى إلى ذلك ولكنى قد تأثرت كثيرا بالشاعر حافظ إبراهيم .. ذلك المسكين الفقير اليائس من الحياة والأحياء .. وهذا ماجعلنى أنقل عنه الأبيات التى نظمها عندما علم أن « صندوق النذور » لأحد الأولياء قد وجدوا به ألوف الجنيهات . بينما هو لايجد قرشا واحدا . قلت فى خطبة الجمعة : إن شاعرنا الغلبان حافظ إبراهيم قال حزينا على حاله وحال ملايين الفقراء :

أحياؤنا لايرزقون بدرهم وبألف ألف يرزق الأموات !
من لى بحظ النائمين بحفرة قامت على أحجارها الصلوات
يسعى الأنام لها ، ويجرى حولها بحر النذور ، وتقرأ الآيات !
ويقال : هذا القطب باب المصطفى ووسيلة تقضى بها الحاجات !

وقال لى أحد الزملاء أيضا إننى علقت على حكومة الوفد الأخيرة واستبداد الملك فاروق ، ولكن بمنتهى اللباقة ؟!

ولم أدر أننى قلت شيئا من ذلك . إنما كنت مبهورا بقصائد للشاعر حافظ إبراهيم أيضا . وكنت أقلدها فى قصائدى التى كنت أنظمها فى السيرة النبوية وفى مولد النبى وفى رأس السنة الهجرية ..

هل حدث ذلك دون وعى منى ؟ إن هذا يحدث كثيرا . وكثير من مشاكلى الأدبية والاجتماعية كان بسبب أننى أضغط على نفسى كثيرا . وأخفى مايضايقنى وأصبر وأتحمل . ولكن فجأة تتحرك أعماق . ويطفو عليها ، على الرغم منى ، كل مايعذبنى .. فهل كان هذا هو السبب فى أننى كررت ماقاله حافظ إبراهيم وهو يتحدث عن الشورى والديمقراطية فقلت فى خطبتى :

يارافعا راية الشورى وحارسها جزاك ربك خيرا عن محبيها
رأى الجماعة لاتشقى البلاد به رغم الخلاف ورأى الفرد يشقيها

ولابد أن تكون حداثة عهدى بشعر حافظ إبراهيم هى التى جعلتنى أتحدث عن زهد عمر بن الخطاب ، وكيف إن زوجته قد اقتصدت بعض المال لتشترى حلوى ، فرفض . وطلب إليها أن تعيد هذا المال إلى بيت المال ، لأنه فوق حاجتها . قال حافظ ، وقلت فى خطبتى :

يوم اشتهت زوجه الحلوى فقال لها :

من أين لى ثمن الحلوى فأشريها

مازاد عن قوتنا فالمسلمون به

أولى ، فقومى لبيت المال رديها

كذاك أخلاقه كانت ، وماعهدت

بعد النبوة أخلاق تحاكيها !

فى ذلك الوقت كان المرض قد اشتد على والدى ، وكانت دموعى عليه قريبة . وحزنى عظيما ولم أكن فى ذلك فى حاجة إلى مناسبة فى الطريق أو على المنبر لكى أجدنى باكيا عليه .. أو باكيا على نفسى معه ومن بعده ..

وكأن واحدا من الزملاء لم يسترح بأن يهتم بى الأستاذ ، فاستدرج الأستاذ إلى الاهتمام به وإلى الإجابة عن سؤاله . قال : وأنت ياأستاذ ماالذى يجعلك هكذا قويا لاتهاب أحدا .. وتدخل السجن لأنك هددت الملك بأنك قادر على أن تسحقه بقلمك .. من أين تأتيك هذه القوة . وكيف تواتينا نحن أيضا ؟ ..

فاتجه الأستاذ بكل جسمه ليقول له : أنت ذكرت الأسباب يامولانا .. من قلمى .. أو من عقلى الذى يحرك قلمى .. أو من كرامتى التى تحمى عقلى .. فليس أعظم من الإنسان .. وأعظم مافى الإنسان عقله وكبرياؤه .. من هو الملك يامولانا ؟ .. إن أكثر الملوك بلهاء يامولانا .. إنهم ملوك بالوراثة .. لافضل لهم فى ذلك .. ثم إن الملوك قد ابتلاهم الله بالعجزة والشواذ يحيطون بهم .. وعن طريق هؤلاء العجزة والخائفين والمنافقين ، يرون الدنيا .. فهم لايرون ولايسمعون ، وإذا رأوا لم يفهموا ، وإذا سمعوا لم يدركوا .. إنهم محرومون من الرؤية ، فلديهم الحاشية التى توفر عليهم استخدام العين والأذن والعقل .. وبعد ذلك مطلوب من هؤلاء الملوك أن يكونوا عقلاء وأن يكونوا حكاما حكماء .. من أين يأتيهم العقل ؟.. وكيف تجىء إليهم الحكمة ؟ .. وإذا حاولوا الحكمة لجأوا إلى الذين ليسوا ملوكا .. لجأوا إلى المفكرين والمشرعين والمخترعين .. إن الإسكندر الأكبر كان يتتلمذ على أرسطو .. إن أرسطو أعظم من الإسكندر بموهبته الفردية . ولكن الإسكندر أقوى منه .. ولكن أرسطو يصبح شاعرا حالما إذا لم تسانده القوة لتنشر آراءه ، ويصبح الإسكندر قوة غاشمة إذا لم يهده العقل ويسدد خطاه .. يامولانا ـ كما أن المرض يفرض الراحة على الجسم ، فإن السجن يفرض الراحة على العقل ..

ويضحك الأستاذ وكأنه يرد على سؤال لم يجرؤ أحد أن يوجهه إليه هو : ولكن مهما كنت قوياً فالملك قد أدخلك السجن . فيقول : «وإذا لم تكن قادرا على أن تنطوى وتنزوى لتفكر ، فإن العقل

يخطئ ويتعثر .. كأنه يريدك أن تدخل السجن ، ليسترد العقل قوته ويدفعك إلى التفكير فى عقلك وجسمك وشعبك ومستقبلك »

وكانت لفتة لطيفة من الأستاذ أن يطلب منى أن أكمل هذا المعنى فقلت : إن الذى يدرس حياة عدد كبير من المفكرين الذين دخلوا السجن ، يجد أن الأسباب ليست قوية .. وأنه كان فى استطاعتهم أن يتفادوا ذلك . ولكن يبدو أن السبب الحقيقى موجود فى أعماقهم .. أى فى رغبتهم الخفية فى أن ينسحبوا من الحياة . وأن يتخففوا من أعباء المجتمع والسلطة ، وأن يتحرروا من قيود السلطة .. سلطة القوة أو سلطة العقل .. فكأنهم استدرجوا أنفسهم إلى السجون .. كما تستدرج الراهب نفسه إلى الدير ، والعالم إلى الصومعة .. أو يلقى بنفسه فى غياهب الجنون — كثير من الشعراء والفنانين دخلوا مستشفيات الأمراض العقلية . وأكدت الدراسات التحليلية لهم أن عندهم رغبة قوية فى رفض الدواء .. أى رفض العلاج لكى يبقوا فى سجن الجنون .. وفى القصص الوجودية حديث عن نزلاء السجون عندما يتم الإفراج عنهم .. فإنهم يترددون فى الخروج ، وأحيانا يرفضون .. لأن السجين عندما يخرج من السجن فإنه يتسلم حريته : حريته فى أن يفعل هذا ولايفعل ذاك .. فى أن يأكل ويشرب ويعمل ويستأنف حياته ومشاكله القديمة . تلك المشاكل التى أراحه منها السجن وأعفاه من التفكير فيها ..

وبعد ثورة يوليو ١٩٥٢ ظل الأستاذ يهاجم السلطة .. وينتقد الرئيس جمال عبد الناصر ، ويرى فيه حاكما مطلقا . ويرى أن اختياره فى رجاله ليس اختيارا للموهبة أو الكفاءة .. إنما هو يختار الذى يريحه ، أو الذى ينحنى له .

ولاأعرف من الذى قال للأستاذ العقاد إن جائزة الدولة التقديرية قد أعطيت له مساواة بطه حسين .. وهو يرى نفسه أعظم من طه حسين . وأعظم المفكرين العرب ، ومن أعظم المفكرين العرب فى كل العصور .

ولذلك كان يقول : إن مصر يامولانا هى بلد العجائب .. إذا أرادوا أن ينشروا الإسلام طبعوا كتبى .. وإذا أرادوا أن يهاجموا الشيوعية طبعوا كتبى .. وإذا أرادوا أن يرشحوا أحدا لجائزة نوبل رشحوا طه حسين ؟!

وقبل أن يتسلم الأستاذ جائزة الدولة التقديرية أرسل لى الكلمة التى سوف يلقيها أمام الرئيس جمال عبد الناصر ، لكى نعيد كتابتها بالآلة الكاتبة . وقرأتها وانزعجت . فلم أجد بها كلمة واحدة عن الرئيس جمال عبد الناصر ، أو حتى عن الثورة — لا فى أولها ولا فى آخرها ، وتذكرت أن بعض الزملاء قد نبه الأستاذ إلى أن الهجوم المستمر على ثورة يوليو ، قد يضايق الحكومة فتضايقه هو أيضا .. ولا أعرف من الذى أفلح فى اقناعه بإلغاء اجتماعات يوم الجمعة .. أو كيف امتنع الزملاء عن زيارة

الأستاذ يوم الجمعة . إشفاقا عليه .. فإذا لاحظ أن أحدا لايجيء أغلق بابه وفمه أيضا ..

وذهبت إلى المرحوم كامل الشناوى أقول له : كارثة .. إن الأستاذ العقاد لم يقل كلمة واحدة تحية للرئيس عبد الناصر أو للثورة .. إن كلمته بحث علمى .. فما العمل ؟ .

ولم يعرف كامل الشناوى ماالذى يعمله . ولكنه أخذ الكلمة . ونزل من مكتبه واختفى ساعة . وعاد ليقول : انحلت ..

ولم يشأ أن يذكر كيف كان ذلك . وفى اليوم التالى ذهب الأستاذ العقاد وألقى كلمته ولم يكن صوته واضحا وتعالت أصوات الحاضرين فى قاعة الاحتفالات الكبرى بجامعة القاهرة . لاكان نطقه واضحا . ولاكان صوته مسموعا . أما الذى حدث فهو أن أحدا ما . أشار بأن يكون الميكرفون بعيدا تماما عن الأستاذ . فكان الميكرفون أمامه ولكنه لم يكن مرفوعا . فأحنى الأستاذ رأسه وراح يقرأ مالم يستطع أحد أن يتبين إن كان قد امتدح الرئيس عبد الناصر أو تجاهله .. أو حتى شتمه !

واكتشف الأستاذ هذا المقلب أو هذه « الحيلة » فتضايق وثار ولعن كل الناس .

وتشاء الصدفة وحدها أن يجيء إليه صاحب برنامج إذاعى اسمه « مع الخالدين » وسأل الأستاذ العقاد : كيف كان شعورك ياأستاذ عندما فزت بجائزة الدولة التقديرية ؟

هذا هو السؤال الذى كان الأستاذ ينتظره لقد حانت ساعة الانتقام .

فقال : إنه شعور بالامتنان . فقد أخذت الجائزة من الشعب على يد الحكومة !

ولم يتنبه صاحب البرنامج إلى هذه المعانى الخطيرة . فأذاع البرنامج . وعرف الناس ماالذى قصده الأستاذ وتساءلوا عن السبب .. وكان السبب هو أنه لم يشأ أن يمتدح الرئيس عبد الناصر كما فعل طه حسين وغيره . ولم يكن فى استطاعته أن يفعل ذلك لأن عبد الناصر يوم وقع عليه الاعتداء « المزعوم » فى الإسكندرية قال غاضبا جريحا : أنا الذى علمتكم الكرامة .. أنا . أنا ..

ووجد الأستاذ فى هذا التعبير إهانة لايستحقها الشعب المصرى ، الذى عاش قبل عبد الناصر ألوف السنين . يحارب الطغيان والاحتلال . ويبنى الحضارة ويدافع عن كرامته ..

وكان الأستاذ يقول لنا : مادمتم قد اخترتم الفكر فقد اخترتم الفقر أيضا .. إن فيلسوفا فقيرا خير من خنزير غنى ! وإذا كان الفكر هو الرأى فإن الكرامة هى العمود الفقرى . وإن ضايقتكم عبارة « العمود الفقرى » هذه فاجعلوها « العمود الفكرى » ! !

* * *

وكأننى كنت أنتظر الكثير مما قاله الأستاذ .. فبدأت أعمل شيئين فى وقت واحد : ألا أتردد على جماعة الإخوان المسلمين . وعلى صالون الأستاذ ..

وفى ذلك اليوم ذهبت إلى شبرا أسأل عن زميلى وليم الميرى ..إنه إنسان طيب صديق حقا ،وهو الآن أستاذ علم النفس بالجامعات الأمريكية . قلت ياوليم .. ماذا نفعل ؟

قال : فى أى شىء ؟ .

قلت : فى أنفسنا ..

قال : كنا نفكر فى ذلك مع زملائنا السوريين : بديع الكسم وسامى الدروبى وعبد الكريم زهور وعبد الله عبد الدايم ..

(أما بديع الكسم فهو أستاذ الفلسفة بجامعة دمشق ، وزوجته زميلتنا فى قسم الفلسفة درية فؤاد .. وأما د . سامى الدروبى فقد أصبح سفيرا لسوريا فى مصر ، يرحمه الله .. وأما عبد الكريم زهور فهو أحد أقطاب حزب البعث ، وأما د . عبد الله عبد الدايم ، فهو أيضا أستاذ الفلسفة بجامعة دمشق) .

ثم عاد الصديق وليم يقول : إن هؤلاء السوريين أحسن حالا منا .. إن أفكارهم أوضح وأهدافهم أقرب ولهم أساتذة كأنهم آباء ، أو آباؤهم أساتذة ..

وعاجلته بقولى : ولكن أعرف ذلك .. فلماذا لانمتنع نهائيا عن التردد على صالون الأستاذ وعن الدير الدومنيكى وعن مدرسة الطائفة الإسرائيلية وعن جمعية الإخوان المسلمين بإمبابة . وعن الجلوس على المقهى نلعب الشطرنج ، وعن النوم تحت أشجار حديقة الأسماك وعن ندوة الشيخ محمود عبد الرحمن الشاذلى الذى يعلمنا التصوف والزهد فى الحياة .. ماحاجتنا إلى كل هؤلاء ؟ .. إن أحدا منهم لايريحنا .. إن أحدا لايأتى لنا بالنوم كل ليلة . إننا نمشى فى الشوارع بين الجامعة وشبرا والمكتبة العامة ودار الكتب وبيت الأستاذ فى مصر الجديدة حتى تنفد كل قوانا ، فإذا جاء الليل كان النوم هو النسيان المؤقت لعذاب النهار ..

قال لى : لماذا لانبحث عن د . شوقى ضيف ؟ إنه يحبنا ويفهمنا . ثم هو قد تزوج إحدى زميلاتنا ..

قلت : ولماذا لانذهب إلى د . عبد الهادى أبو ريدة أستاذ الفلسفة الإسلامية الذى ترجم لنا أخيرا رسائل الشاعر الألمانى ريلكه بعنوان « رسائل مالته بريجه » ؟.. إنها مجموعة من النصائح الصعبة لشفاء المعذبين أمثالنا .. لقد تحدثت إليه فى الأيام الأخيرة . ورأى أن مانعانيه من عذاب هو بسبب الفلسفة المثالية الألمانية .. والفلسفة الوجودية ..

فقال : ولماذا لانذهب إلى د . عبد الوهاب عزام الذى ترجم دواوين الشاعر محمد إقبال .. وترجم غيره من الشعر الصوفى ؟ .. لقد تناقشت معه فى معنى الحياة . ولم أجد مايفيد ..

قلت : لماذا لانذهب إلى الدير الدومنيكى لآخر مرة ونتحدث إلى الأب قنواتى ؟ .. إنه رجل

لطيف .. ولونه وبشرته وابتسامته تؤكد لنا أن من الممكن أن يكون الإنسان مؤمنا وفى صحة جيدة . وأن الإيمان هو بالضبط ماينقصنا .

وسألنى : وهل نحن لانؤمن بشىء ؟

قلت : بل نؤمن بأشياء كثيرة . ولكن نحن لانعرف أيها أحق بالإيمان .. وأيها أقدر على أن يهبنا صحة الجسم وصفاء النفس ..

قال : ألم تلاحظ أننا نتناقش فى هذه القضية منذ شهور .. وأننا ندور حولها وحول أنفسنا .. وأننا لم نفلح فى أن نصل إلى حل ؟ .. إذن فلماذا لانأتى بكل الزملاء ونتناقش معا . وليكن لقاؤنا لآخر مرة فى جمعية « الإخوان المسلمين » ؟

* * *

وتغيبنا عن صالون الأستاذ شهرا أو أكثر. ولما عدنا معا سألنى الأستاذ : كنت مريضا يامولانا ؟ . لقد رآك زملاؤك وقد أطلقت لحيتك . ماذا جرى لك ؟ ..

ولاأذكر أننى أطلقت لحيتى . ولكن لاأستبعد أن أكون قد تركتها وأهملت ملابسى ، دون أن أتنبه إلى ذلك .. فقد كنت أمر بمحنة نفسية . وكان بعض زملائى أيضا ..

وقررنا أن نذهب معا إلى صلاة الجمعة فى مسجد « البراجيل » بالقرب من إمبابة .. ولم يكن من المفروض أن ألقى أنا خطبة الجمعة . ولكن زميلاً آخر قد تغيب دون سبب واضح . فارتقيت المنبر. وألقيت خطبتى . وصليت وتلفت ورائى فلم أجد واحدا من الزملاء .. ولقيتهم فى الليل على مقهى بجوار كازينو « الكيت كات » بإمبابة . وعرفت فيما بعد أنهم هربوا من المسجد خشية أن يعتدى عليهم الناس بالضرب ..

وعرفت أنهم لم يرتكبوا خطأ يستحقون عليه العقاب إلا أنهم جاءوا معى أما غلطتى فهى نفس الغلطة فى خطبة الجمعة السابقة : لقد تحدثت إلى الناس فى الفلسفة والتصوف وحيرة الشباب بين المذاهب والأئمة وبين المثل العليا فى التاريخ ..

وقالها لى الأستاذ حكمة بليغة وضعتها فى أذنى زمنا طويلا : إذا أردت أن تخطب فتحدث إلى الناس . ولكنك يامولانا أنت تتحدث إلى نفسك .. وليس إلى الناس .. أنت تبحث عن نفسك بين الناس .. والناس الجالسون أمامك يبحثون عن أنفسهم عندك ! فأنت لن تجد ماتبحث عنه . وهم لايجدون مايبحثون عنه .. فكأنك لاتكلمهم . وكأنهم لايسمعونك !

ثم التفت إلينا الأستاذ بكل قواه وكل حضوره العقلى : أبا وأستاذا وهاديا وطبيبا قائلا: « لاتقلق على نفسك .. امض فى قلقك وفى خوفك .. ففى ذلك راحتك .. وتذكر ذلك الامبراطور الرومانى أوتو .. الذى قرر أن ينتحر . فأتى بالسيف وراح ينظفه ويجدده .. ومر بأصابعه عليه .. ثم مر به على

عنقه وأيقن أنه عندما يضرب عنقه فسوف يطير رأسه ولن يشعر بالألم .. ولكن قرر قبل أن ينتحر أن يكتب وصيته وأن يورع ثروته بالعدل على الخدم والأصدقاء . وأرهقه كثيرا جدا حرصه على أن يكون عادلا . وحرصه على أن يبعث بتحياته إلى كل الناس .. وبلغ من شدة الإرهاق أن استغرق فى النوم .. ولما صحا من نومه عدل عن الموت .. فلا تخف .. سوف ترهق نفسك .. وسوف تنام وتغير رأيك فى كل شىء ! »

صدقت وشكرا يا أستاذ !

كلّ الطُرُق تؤدّي إليـهِ.. وَإلى لا شَيْءٍ !

كان الأستاذ ميناء هادئا ، وكنا زوارق صغيرة تلعب بها الأمواج والرياح والخوف والقلق . ولا نعرف من أين الأستاذ أتى بكل هذا النور الهادئ . أو الهدوء المنير.. وكنا نفتح له نفوسنا فى حذر ، ثم نعود ننطوى على أنفسنا نحاسبها ونحاكمها .. ثم لا نجد طريقا واضحا .. ونضيع فى طرق أخرى لنعود إليه بعد ذلك .

كان عقابا شديدا لأنفسنا أننا لم نر الأستاذ شهرا وزيادة . نقول لأنفسنا : إنها المذاكرة ! .

ونحن كاذبون . فلم يكن ذلك هو السبب الحقيق . إنما هناك أسباب كثيرة . أما أنا فأقول : إن فى داخلى ثورة عنيفة . لا أعرف ضد أى شىء أو من أجل شىء . إننى أتخيل نفسى مظاهرة صارخة .. وأتخيل أناسا كثيرين يخرجون من معدتى ومن قلبى ومن رأسى ويهتفون : يسقط .. يسقط .. ولا أعرف من الذى يهتفون ضده .

أنا أقول : يهتفون بسقوطى أنا .. لأننى جعلت من نفسى قاضيا . وأقمت محكمة . وجلست لأقول كلمة الحق والعدل . فلا قلت حقا . ولا كنت عادلا . فالمشاكل التى يجب أن أفصل فيها كثيرة !

ماذا أفعل فى الجامعة ؟ ماذا أفعل فى جماعة الإخوان المسلمين ؟ ماذا أفعل فى الجماعة الماسونية وفى الطريقة الشاذلية وفى الديانة البهائية ؟ . ولا أعرف كيف انزلقت إلى حضور جلسات جماعة « شهود يهوه » أو حراس الديانة المسيحية .. صحيح أننى لم أحضر مع صديقى وليم الميرى إلا مرتين ولكنى لم أعترض على هذا الذى سمعته . بل ذهبت إلى أن أطلب المزيد من الكتب . لعلى أعرف أكثر .. وتحيرت فى هذا الذى قرأت . ووعدت زملائى بأن أقرأ أنا وأشرح لهم بعد ذلك . فهى عادة عندى ، استرحت إليها . واستراحوا هم أيضا .. ولكن هناك الكثير الذى لم أفهمه ..

ثم انضممت أخيرا إلى جماعة إسلامية فلسفية عربية اسمها « جماعة إخوان الصفاء وخلان الوفاء » . وكان يرأسها الأستاذ محمد محمود خضيرى أستاذ الفلسفة الإسلامية . وكان رجلاً رقيقًا هادئًا . فهو يحاضرنا من كراسة . يقرأ ويشرح . فكأن هذه الكراسة هى ذاكرته أو هى عقله وهى مكتوبة بخط شخصى جدا ، فلا يستطيع أحد أن يعرف فك حروفها أو طلاسمها ..

وفى إحدى الليالى وضعت رأسى على المخدة . وكأننى وضعتها تحت عجلات القطار .. وعرفت

أننى مريض .. فقد أحسست بقطار حقيق يدوسنى .. وإذا تقلبت فى نومى . واسترحت إلى الجانب الأيسر . وجدت من يقطع لحمى ويرميه للكلاب .. وإذا نمت على جانبى الأيمن وجدت من يشوينى حيا .. وإذا أغمضت عينى وجدتنى فى جنازة غريبة : أنا الميت وأنا الذى يطل من النعش .. ثم إننى أمشى فى الصف الأول من المعزين .. وأغرب من ذلك أننى كلما نظرت إلى واحد من الناس حولى . وجدته صورة منى .. وأعجب من ذلك كله أنه عند نهاية الجنازة وجدتنى أنا الذى أحفر القبر .. أحفر قبرى .. ثم أدفن نفسى .. وأعود إلى البيت .. ويجىء النوم . ولا أعرف كيف . ويطحننى هذا الهذيان .. وأنام ؟ !

وقررت أن أذهب إلى الأستاذ .. وعلى باب البيت وجدت صديق وليم .. إنه هو الآخر قرر أن يذهب .. وضحكنا كيف إننا اتخذنا هذا القرار دون أن نتفق عليه معا . وكان ذلك دليلا على تقاربنا الفكرى وعلى حاجتنا المعنوية إلى الأستاذ . أما أنا فكان عندى ما أسأله عنه .. أما هو فلا أعرف ما الذى دفعه إلى هذا القرار . ولكن لابد أن لديه ما سوف يقوله . ولم يتسع وقتنا لكى نتساءل عن السبب القوى لتراجعنا عن قرارنا الغريب : بعدم الذهاب إلى صالون الأستاذ ..

فى ذلك اليوم وجدنا الأستاذ عبد الرحمن صدقى . الشاعر الكبير . وصديق الأستاذ . وهو رجل لطيف . وصوته غليظ . وإذا ضحك كانت ضحكته عالية . وكان حاضر النكتة . ويبدو أن الأستاذ كان يحبه كثيرا . وفى بعض الأحيان كان يقول له : وماذا يقول الطليان يا سيد عبد الرحمن ؟ . .

فقد كان عبد الرحمن صدقى عالما بالأدب الايطالى : شعره ونثره وموسيقاه . وكان عبد الرحمن صدقى جاهزا للإجابة عن مثل هذه الأسئلة . وكان يخلط الشعر بالنكتة .

وعندما طلب عبد الرحمن صدقى فنجان قهوة سادة جاءته القهوة بسكر زيادة . فتضايق . وسأله الأستاذ : يا مولانا . عندنا ما ليس عندكم فى إيطاليا .. تطلبها سادة تجىء زيادة . وتطلب شايا تجىء قهوة . وتطلب قهوة تجىء إليك جزمة ! . .

وحكى الأستاذ أن خادمه النوبى أحمد حمزة عندما طلب إليه الأستاذ فنجان قهوة فوجئ بالخادم يأتى إليه بالجزمة .. حاول أن يفهم من الخادم كيف حدث ذلك .. لم يستطع . وأخيرا اهتدى إلى أنه طلب منه جزمة لونها بنى – أى فى لون البن .. أو فنجان البن ! . .

ولكن عبد الرحمن صدقى قال : إن الموسيقار فردى عندما جاء إلى مصر أحب فتاة مصرية لا تعرف الإيطالية . وحاول أن يعلمها بعض الكلمات .. ففى إحدى المرات ترددت الفتاة فى أن تجيبه إلى طلبه .. وحاول معها . ولكنها رفضت . وأخيرا انحنى الموسيقار الايطالى على يدها يقبلها . فصفعته على وجهه . وانزعج الرجل تماما . وحاول أن يفهم .. ولكنه لم يستطع . وأخيرا عرف أن الفتاة قد اختلط

عليها : الكافيه – أى القهوة – والكف .. وبعض الكلمات الأخرى .. فبدلا من أن تأتى له بالكافيه . أعطته « كفا » على وجهه ! . .

وكان الأستاذ يجد متعة كبيرة فى أن يروى لنا نوادر الخدم والأطفال والحيوانات ، إنه حبه الدائم لهذا النوع من الكائنات التى يراها الأستاذ شيئا هاما . فهو يرى أن الحيوانات هى الإنسان بلا عقل ، وأن الإنسان هو الحيوانات بعقل .. وأن الأطفال وسط بين الانسان والحيوان .. وأن الناس الطيبين من الخدم هم وسط بين الطفل والحيوان .. ولذلك ينشغل الأستاذ كثيرا بمتابعة هذه الكائنات صحيح أنها تجعله يضحك بعض الوقت . ولكن سلوكها لا يغيب عن عينه التى تسجل كل شىء . وتفسره وتسوقه فى أبحاثه الإنسانية .

ومن الأستاذ تعلمنا هذا الأسلوب فى فهم الأشياء والحيوان والإنسان .. ولكن لم تجد ما يعيننا على فهم أنفسنا .. بل وجدنا أننا نتعذب كثيرا . وأن حيرتنا بين المدارس والمذاهب والجمعيات قد أنستنا : من نحن ؟ ولماذا نحن ؟ وما الطريق ؟ وما الهدف ؟ وما هى الحكمة ؟ وما هو الدين ؟ .

وفجأة وجدت صديقى وليم الميرى يعلق على ما يقوله الأستاذ : إن قصة من هذا النوع قد حدثت للسيد رسل مؤلف جماعة « شهود يهوه » .. فالجماعة قد تشكلت من حوالى مائة سنة .. وفى إحدى المرات جلس فى ندوة . وشرح رأيه فى الله والمسيح والعذراء ويوم القيامة .. وقال : إن الإنسان هو الحيوان الوحيد القادر على أن يجعل قيامته فى أية لحظة .. فالله قد أعطانا الحياة .. ونحن قادرون على أن نرد له هذه الحياة .. فإذا فعلنا ذلك كنا قد عجلنا بيوم القيامة ..وهنيئا لهم الذين استطاعوا أن يجعلوا قيامتهم سريعة ..

ولا أعرف كيف تجرأ الصديق وليم على أن يمضى هكذا طويلا فى الحديث . وكيف استطاع أن يفضحنا هكذا .. فقد كان ترددنا على هذه الجماعة سرا لم نبح به لأحد ..

ثم عاد يقول : وقد فوجئ السيد رسل هذا بأن واحدة من المستمعات قد نهضت بسرعة . وهى تقول : أريد أن أكون أسعد الجميع ! وفى المساء فوجئ أعضاء جماعة « شهود يهوه » بأن الفتاة قد شنقت نفسها .. مع أن المقصود بأن يعجل الإنسان بيوم القيامة ليس أن يموت أو ينتحر .. إنما أن تكون حياته الدنيوية أقرب إلى الموت .. أى إلى الزهد فى الحياة ..

وبسرعة قال الأستاذ : أنت وقعت يا مولانا فى أيدى هؤلاء النصابين .. إنهم مجموعة من المجانين يا مولانا .. إن « شهود يهوه » هؤلاء لا يمكن أن يكونوا مخلصين لأى بلد .. ولا لأى وطن .. ورغم أنهم يدعون المسيحية فهم ضدها وضد كل دين .. فهم فى البلاد التى تحارب دفاعا عن أرضها وحريتها . يطلبون إلى الناس ألا يدخلوا الجيش .. وفى البلاد المحتلة يطلبون إلى الناس أن يرضوا بالعذاب والهوان .. وفى البلاد الشيوعية ينادون بالرأسمالية سرا . وفى البلاد الرأسمالية ينشدون

الشيوعية . لا عندهم دين ولا عندهم إخلاص لشىء .. كيف وقعت فى أيدى هؤلاء يا مولانا ؟ ! . .
وأشار الصديق ولم ماحيتى وقال : إنه السبب ! !
ولم أكن السبب . فقد كان لنا صديق سودانى .. عاش بعض الوقت فى بريطانيا . وكان شاعرا رقيقا . وكان رساما . وكان متزوجا وله أبناء . رغم أنه كان فى العشرين مثلنا . ومن الغريب أنه بعد ثلاث سنوات من الزواج اتفق مع زوجته على الطلاق . قال لها : أنا أحبك ولكن لا أحب البيت . وأنت تحبين البيت ولا تحبيننى . فنحن نصلح عاشقين .. وأنت لا تريدين إلا أن تكونى أما . وأنا لا أريد أن أكون أبا .. وأنت تجدين الله فى كل شىء . وأنا لا أجده فى أى شىء . فكيف تكون علاقة حلال بين مؤمنة وكافر ؟ ! .
وتمّ الطلاق . وعادت الزوجة إلى السودان . وتزوجت والده . وبعد وفاة والده تزوجت عمه وأنجبت منه ولدا واحدا هو : تاج السر .. وهو اسم زوجها الأول ! . .
وحتى يوم كنا نمشى على النيل بين إمبابة والهرم قال لى تاج السر : هل تريد أن تعرف أناسا يفكرون بصورة محددة . مؤكدة . كل شىء عندهم واضح . تماما كالمعادلات الرياضية ؟ . ألا ترى أن هذه فرجة حقيقة ؟ . إن لديهم كل ما ليس عندك . فأنت لست على يقين من أى شىء . وهم على يقين من كل شىء . وأكبر دليل على ذلك : أنهم يضربون أرقاما قياسية فى النوم . الواحد يضع رأسه على المخدة فتكون هى ورأسه قطعة واحدة . بل إن جسمه يصبح مخدة طويلة من القطن أو من القش . المهم أنه لا شىء يتحرك من جسمه حتى الصباح . أليس هذا أعز أمانيك فى هذه الدنيا ؟ تعال . تعال ! . .
وفى مصر القديمة بالقرب من كنيسة « أبى سرجة » وهى الكنيسة التى اختبأ فى كهفها السيد المسيح والسيدة العذراء وخطيبها يوسف النجار – أى العائلة المقدسة . وقفنا أمام باب ضيق .. وصفق تاج السر بيديه ونادى : يا عبد المسيح .. يا عبد المسيح ..
وانفتح شباك وأطل وجه شاحب . خرج منه صوت يقول : من هذا الذى معك ؟ . قال تاج السر : إنه صديقى الذى حدثتك عنه ..
وانفتح الباب ولم نر أحدا . وكانت فتاة فى العشرين من عمرها مستديرة الوجه كبيرة العينين سوداء الشعر .. لم تكد ترانا حتى أحنت رأسها . وأغلقت الباب وراءنا . وكان البيت رطبا . والسلم مظلما . وهناك رائحة غريبة – كأن هذه الرائحة قد ماتت . . فالذى نشمه هو « جثة رائحة » – أى ما تبقى من رائحة شاى أو قهوة وملوخية وطباشير . وبحركة لا شعورية مددت يدى إلى قميصى وأحكمت زرايره .. وتقدمت الفتاة تسألنى إن كنت أنا فلانا . فقلت : أنا هو .. فقالت : لقد حدثنا عنك أونكل تاج السر ..

وفى الدور الثانى وجدت ستة من الشباب : أربعة شبان وفتاتين..

ووقف عبد المسيح يقدم الشبان : من كلية الهندسة .. ومن كلية الزراعة .. وهذا من كلية الطب .. أما الفتاتان فهما من كلية آداب القاهرة .. إحداهما زميلتك من قسم الفلسفة !

لم أتكلم فى تلك الليلة الطويلة . إنما أحسست أن كل الذى قاله عبد المسيح الشارونى - وهذا هو اسمه بالكامل - كان موجها لى أنا .. ومعنى ذلك أن صديق تاج السر قد روى له قصة حياتى .. أو قصة أفكارى كلها . هل شكانى له ؟ هل قال إننى مرض « الشلة » كلها ؟ - أى أنهم جميعا قد أصيبوا بى .. فأنا مصدر قلقهم وفزعهم .. وأننى الذى دوختهم معى .. فأنا أطوف بهم فى المذاهب الفلسفية وفى الأديان كلها .. وأنا الذى أترنح معهم بين الجمعيات الإسلامية والمسيحية واليهودية والإلحادية .. وأنا الذى أدور بهم على أولياء الله الصالحين .. وأنا صاحب فكرة أن نذهب يوما للسيد البدوى فى طنطا .. ويوما لسيدى إبراهيم فى دسوق .. ويوما لزيارة سيدى الباز ، الجد الأكبر لأمى فى كفر الباز .. وأنا صاحب فكرة الشموع فى كنيسة سانت تريزة .. وأنا الذى أقنعتهم بالذهاب إلى معبد بن عزرا عند الفجر .. ولم أكن أكثر بكاء منهم عندما ذهبنا إلى أحد مشايخ الطرق الشاذلية .. ثم كنت أسبقهم جميعا عندما جلسنا نشرب القهوة بالقرب من كازينو الكيت كات ، فكنت أقلب فنجانى وأقول ساخرا : يا قهوة يا شاذلية دليني على اللى فى النية !

ثم أخيرا جماعة « شهود يهوه » .. ويهوه هو الله .. أو هو الاسم الحقيق لله .. وهى كلمة عبرية .. أما كلمة «الله » فهى لقب من الألقاب .. مثل بقية الأسماء الحسنى : الرحمن الرحيم .. الغفور الصادق .. إلخ . فهى مثل : الرئيس والملك والوزير والقاضى .. أى أن « الله » لقب من الألقاب .. وهؤلاء الشهود .. هم الحراس للشريعة المسيحية .. أو اليهودية .. أو الماسونية أو الوثنية .. كما عرفت فيما بعد .. ويوم قرروا جميعا أن يلتحقوا بالأزهر الشريف ، ونحن طلبة فى الجامعة . كنت أول من دفعهم بعيدا عن هذا التخريب لحياتنا الجامعية .. فكان من رأيى أن هذه الفكرة قد تأخرت جدا . ثم ما الذى لا نستطيع أن ندرسه ونحن بعيدون عن الأزهر؟ .

ويوم احتكمنا إلى أستاذنا د . عبد الهادى أبو ريدة مدرس الفلسفة الإسلامية . ذلك المصرى القادم من غزة .. فقيرا جاء يطلب العلم فى مصر . ويكمله فى سويسرا وألمانيا .

قلت له : يا دكتور .. ما شفاء النفس ؟ .

قال : الإيمان .

قلت : أى إيمان ؟ .

قال : بالله ..

قلت : ولكننا نؤمن بالله ..

قال : هذا يكفى ..

قلت : وإذا كنا نتلوى ونتوجع ونحترق وتتمرد أحشاؤنا علينا .. ويكاد القلب يعصينا .. ويكاد العقل يضرب عن التفكير.. وكل نوع هو موت مؤكد.. فما العلاج يا دكتور؟.

قال : هل قرأتم « المنقذ من الضلال » للإمام الغزالى ؟

قلت : نعم ..

قال : فماذا وجدت ؟.

قلت : لم أجد شيئا ! .

قال : هل قرأت كتاب « مقال فى المنهج » للفيلسوف الفرنسى ديكارت ؟ . إنه صورة من كتاب الغزالى .. ولكن الغزالى سجل حيرته .. والفيلسوف الفرنسى خرج من الحيرة باليقين . ومن الشك بالراحة ، ومن العذاب بالطمأنينة ..

قلت : قرأته ودرسته ..

قال أحد الزملاء : إنه هو الكتاب الوحيد الذى جعل رأسى يستقر على كتفى . وهو الذى جعل قلبى يدق واثقا فى صدرى .. وجعل عقلى الحاكم الآمر الناهى . لقد سلمت قيادتى لعقلى . واسترحت .

وقال د . عبد الهادى أبو ريدة ما معناه إن العيب فينا نحن وليس فى الكتب .

وقالت زميلة من قسم اللغة الفرنسية ألمانية الأصل : إننى قرأت الإمام الغزالى وقرأت الفيلسوف ديكارت . ولكن معاملة الرجلين للمرأة جعلتنى أشك فى فلسفة هذين الرجلين .. إذ كيف يكون الإنسان فيلسوفا على هذه الدرجة الرفيعة ، ثم يكون إنسانا عاديا أو دون ذلك إذا التقى بالمرأة ؟ . إن الحرية لا تتجزأ .. والصدق لا يتجزأ ..

ولم يعرف د . أبو ريدة ماذا يقول . ولم نعرف نحن ماذا يمكن أن يقول . فلا أحد منا يعرف كيف كانت المرأة فى حياة الغزالى .. أما المرأة فى حياة الفيلسوف ديكارت فهى ملكة السويد التى كانت ترغمه على تعليمها الفلسفة فى ساعة مبكرة من كل يوم .. حتى أصيب الفيلسوف بالتهاب رئوى ومات . مات دون أن نعرف ما الذى كان يمكنه أن يقوله فى هذا النوع من النساء.. أو كل النساء ! . .

واتفقنا على أن نطلب إلى الاستاذ العقاد لقاء خاصا بنا نحن . ولا نظن أن الأستاذ سوف يسخر من أفكارنا أو من حيرتنا . هذا هو القرار. وهذا هو المخرج الوحيد من هذه الأزمة .. التى عرفها الأستاذ فى شبابه .. وهى أزمة الذين يعرفون ، وليست أزمة الذين يرفضون المعرفة .. إنها أزمة ثقافة وليست ثقافة أزمة . فنحن عاجزون عن الاختيار .. وليس اختيار شيء محدد هو الذي جعلنا في أزمة ..

فالذى نعانيه هو أزمة الثقافة ، أما الذى سوف أعانيه بعد ذلك فهو ثقافة الأزمة : أى الفلسفة الوجودية ..

ولكن عندما تذكرت أن الأستاذ قد سخر من التردد على جماعة « شهود يهوه » وسخر قبل ذلك من زميلنا حسين على القاضى الذى أصبح بهائيا بعد ذلك .. ومن زميلنا إبراهيم يوسف منقريوس الذى أصبح شيوعيا .. ومن صديقنا سامى فودة الذى أطلق لحيته وأصبح من الإخوان المسلمين ، أدركت أن هذا اللقاء من الممكن أن ينسفه الأستاذ بنكتة ، أو يحطمه بمنطقه العنيف .. وسوف تكون نتيجة هذا اللقاء : أن نصبح شظايانا .!

ولذلك قررت .. ثم قررنا ألا نذهب إلى الأستاذ . وأن نقيم لأنفسنا محكمة . وجلسنا عشرين شابا فى مكتبة جماعة الإخوان المسلمين بإمبابة .. وكان ذلك فى رمضان .. قبل السحور بأربع ساعات . وكما بدأنا المحكمة أنهيناها . أما الحكم فهو ببراءة الجميع .. ولم نسترح إلى ذلك ..

أما حكم الأستاذ العقاد على أسئلتنا الشائكة فهو : إن الذى تقولون يا مولانا تستحقون عليه الفصل من الجامعة .. فأستاذكم الشيخ طه يرى أن « مستقبل الثقافة فى مصر » هو أن يكون هناك أناس جامعيون نظريون .. وأناس جامعيون عمليون . لأن الحياة فكر وعمل .. ولابد من أن يكون كل شىء مفيدا ،فالذى لا فائدة منه ليس علما . أو لا يستحق أن يكون علما فى الجامعة .. فأنتم جميعا « مفصولون » بقرار من الشيخ طه ، فأنتم لا تعرفون لكم وجهة ولا هدفا .. فأنتم تسدون الطريق على أنفسكم وعلى غيركم .. ولذلك يجب طردكم من الجامعة ..

ولكن أحد الزملاء الذين يحبون طه حسين ويجاهرون بذلك ، ويخصه الأستاذ بكثير من الغمز واللمز قال : ولكن الدكتور طه حسين لا يقول ذلك يا أستاذ .. إنه يرى أن رجل الشارع عنده حس صادق بفائدة الثقافة .. فرجل الشارع يبحث عن الواضح والمفيد .. وهذا الذى يدركه رجل الشارع دون أن يذهب إلى الجامعة ، هو أسمى أهداف الجامعة نفسها : أن يتعلم الإنسان ليكون فكره واضحا ، وهدفه المادى واضحا .. أما الزملاء هنا فالفلسفة قد أكلت عقولهم ، ولم تترك لهم إلا هذا الأرق .. حتى أصبحت عقولهم محمومة .. مرتعشة لا يثبت عليها شىء ! . .

وكان ذلك أكبر من أن يحتمله الأستاذ . فهاجم طه حسين . ولم يكن ذلك دفاعا عنا . فقال : « .. الشيخ طه .. ما الذى لديه من الأفكار الواضحة ؟ . وما الذى لديه من الأهداف الواضحة ؟ أما أفكاره فليست واضحة .. وأما أهدافه فهى واضحة له هو وحده .. فهو يريد السلطة والأبهة .. وهو يلف ويدور من أجل ذلك ، مع الهوى ، مع كل هوى .. أهذا هو الذى يريده الشيخ طه لأمثالك من الشبان الصغار ؟ هل هو يريد لكم أن تكونوا واضحى الالتواء ؟ .. أن تكونوا صادقى الكذب ؟ . أهذا هو مستقبل الثقافة فى مصر ؟ .. إننى أفضل ألف مرة أن يكون الشبان حائرين فى

نبل وشرف ، على أن يكونوا قد استقروا على الكذب والنفاق وتخريب الثقافة المصرية . باسم ادعاء الثقافة الفرنسية ..

وجاء متأخرا إلى هذه الندوة رجل أبيض اللون شديد الاحمرار .. الرأس كبير والحواجب غليظة والعيون لامعة مركزة فى صفاء وفى غير قسوة والشفتان ممتلئتان والصوت ايضا .. وإذا ضحك كانت ضحكته فاضحة .. أى تفضح مكانه وشخصه .. أما ضحكة عبد الرحمن صدقى فهى ضحكة رأسية .. تخرج من حلقه إلى أعلى ، ويبدو أنه يسترجعها فيعيدها إلى حلقه ثم يطلقها مرة أخرى .. أما هذا الذى جاء أخيرا فقد عرفنا أنه الفنان صلاح طاهر أحد أصدقاء العقاد وهو الذى أقام له التمثال النصفى القابع وراءنا فى أحد الأركان . فكانت ضحكته عريضة .. وإذا ضحك فهو كالأستاذ يهتز كله .. أما صلاح طاهر فإذا ضحك فإنه ينطلق بكل قوته .. ثم يحنى رأسه كأنه يريد أن يطفئ هذه الضحكة ، أو يحول دون استمرارها ، وهو صديق حميم للأستاذ . وبينهما قصص كثيرة لا يصرحان بها . إنما يكتفى الواحد منهما بالإشارة إليها . سأله الأستاذ عن صديق لهما ، فقال صلاح طاهر : مسكين .. لقد تزوج يا أستاذ ! . .

وضحك صلاح طاهر وعبد الرحمن صدقى والأستاذ أيضا . ولكن الأستاذ بسرعة أطفأ ضحكته العالية ليقول : كنت أتوقع ذلك .. ولابد أن يتزوج امرأة لها قوة الرجال !..

وانفتحت شهية الأستاذ إلى الكلام عن المرأة . وضحك صلاح طاهر الذى يعرف الأستاذ جيدا فقال : تماما . إنها كذلك يا أستاذ ..

وقال الأستاذ : ربما كان هذا مقلبا يا مولانا .. لأن من الممكن أن تكون للمرأة ملامح الرجال . ولكنها تريد رجلا يتحكم فيها .. تماما كما أن أخانا هذا له ملامح الرجال . ويريد امرأة تتحكم فيه .. فكلاهما يريد رجلا ! . .

ومن بين الحاضرين يكون هناك من يحب أن يؤكد للأستاذ أنه قرأ فلسفته فى المرأة . وأنه مقتنع بها تماما . أما الكبار سنا فيعرفون آراءه القديمة ، أما الشبان فهم يحاولون ذلك .. أو يجتهدون فى أن يجدوا من آرائه الجديدة ما يشير إلى هذه المعانى .. أما عبد الرحمن صدقى فيروى شعره هو .. ثم يروى شعر الأستاذ ، ويقول عنه قبل أن نسمعه منه : منتهى العظمة وغاية الحكمة .. إن الأستاذ – وهو يلتفت إلينا جميعا – قد لخص كل صفات المرأة فى جميع العصور فى ستة أبيات .. إنها كل ما جاء فى كل كتب علم النفس وكل ما جاء فى دواوين الشعراء .. يقول الأستاذ :

خل الملام فليس يثنيها
حب الخداع : طبيعة فيها
هو سرها وطلاء زينتها

ورياضة للنفس تحييها
وسلاحها فيا تكيد به
من يصطفيها أو يعاديها
وهو انتقام الضعف ينقذها
من طول ذل بات يشقيها
أنت الملوم إذا أردت لها
مالم يرده قضاء باريها
خنها ! ولا تخلص لها أبدا
تخلص إلى أغلى غواليها !

ولا أظن أن واحدا منا كان يدرك تماما مثل هذه المعانى . ولكن الأستاذ وأصدقاءه كانوا يذكرون بعض الأسماء التى لا نعرفها . وأحيانا يشيرون إلى ذلك رمزا .. أى أن هذه الأبيات قد جاءت لسبب . وأن هذا السبب قصة غرام . وأن النتيجة مقنعة .

وكان عبد الرحمن صدقى هو أول من نبهنا إلى أن هناك « لوحة » غريبة موجودة فى بيت الأستاذ . وأن هذه اللوحة هى خلاصة رأيه فى المرأة . وأن هذه اللوحة قد رسمها صلاح طاهر . ولم تكن هذه اللوحة فى صالون العقاد .. والذين رأوها قالوا : إنها فى غرفة نوم الأستاذ ، ولم نكن قد ذهبنا فى داخل بيت الأستاذ إلى أبعد من الصالون . ولكن الأكبر سنا . والأقدم تلمذة وصداقة قد رأوا بقية غرف البيت ..

ومن كتب الأستاذ عرفنا كل جوانب البيت .. وإن كان الأستاذ قد ترك وصف البيت كما هو ، وراح يتحدث عن عيوبه ومزاياه .. أى لم يهتم كثيرا بمحتويات البيت . ولكن بمعنى كل شيء فيه. المكتب والمطبخ والطاهى والهواء والشمس والسلالم ورقم البيت .

وقد دلنا أحد تلامذة الأستاذ على هذه اللوحة . وقال إن الأستاذ قد وصفها فى أحد كتبه ، كما وصف بعض اللوحات الفنية الأخرى ..

وقد وصفها الأستاذ فى أحد كتبه بأنها فطيرة حلوة يشتهيها الجائع والشبعان . وعلى هذه الفطيرة صرصور وذباب . وإلى جوار الفطيرة برطمان عسل . وعلى العسل ذباب أيضا . وهذه الفطيرة بهذه الصورة ينفر منها كل إنسان . .

يقول الأستاذ فى وصف هذه اللوحة : إن فى هذه اللوحة كل تاريخ الفن وتاريخ الأديان ! . .

وعرفنا فيا بعد أن هذا الذى قاله الأستاذ كان إخفاء لحقيقة هذه اللوحة .. فلا هى تاريخ الفن ولا هى تاريخ الأديان . إنما الأستاذ جاء بصديقه صلاح طاهر وحكى له : أن فتاة كانت تتردد على

بيته . وأنه ساعدها ماديا وأدبيا .. وأن هذه الفتاة قد اختارت الأضواء .. أضواء السينما .. والتف حولها الناس .. وكان لابد أن يكون لها صديق يصورها . وصديق يخرج لها . وصديق ينتج لها ، وصديق يكتب عنها .. ولم يعد الأستاذ هو الرجل الوحيد فى حياتها .. وقد حاولت هذه الفتاة أن تستعيد مكانتها فى حياته . فرفض . وعندما كان يغلق الباب الأمامى فى وجهها كانت تدق الباب الخلفى وتبكى وإنها حاولت أن تستعطفه فكتبت له خطابا – أحتفظ أنا بهذا الخطاب – تعتذر عن الذى حدث ! . .

أما الذى حدث فلا يمكن الاعتذار عنه ، لأنها أصبحت مشهورة . وللشهرة ثمن ، والثمن تدفعه من جسمها ومن نفسها ومن مالها . وفى زحام الناس حولها اختنق الأستاذ . وهذا طبيعى ، ولكن الأستاذ قرر أن يعاقبها وأن يقضى عليها . فطلب إلى صلاح طاهر أن يعدمها فى هذه اللوحة . فجعلها « شيئا » وجعل هذا الشىء يقف عليه الذباب ،أو يعف عنه .. ووضع هذه اللوحة أمام سريره ، لتكون نظرته إليها كل يوم نوعا من البصق عليها .

ثم جعل من هذه اللوحة معنى دائما لا ينساه : هذه هى المرأة .. وكل امرأة ..

وحدث للأستاذ ما حدث تماما مع أستاذنا العظيم سقراط . فزوجة سقراط التى عذبت الفيلسوف . لعنها الفيلسوف فى كل كتاب .. ومشت من ورائه البشرية كلها ألوف السنين .. إنه عاقب كل النساء ، لأنه أراد أن يعاقب امرأة واحدة – منتهى الظلم العنيف ! .

وكأن عبد الرحمن صدقى لم يكتف بما أشار إليه .. وكأنه اعتاد على أن يروى شعر الأستاذ ، واعتاد على أن يرى الأستاذ مستسلما لعذوبة الشعر وعذابه ، فعاد يقول : إن الأستاذ – ويلتفت لنا – قد هدم المعبد على المرأة التى أحبها ، والمرأة التى أحببتها أنا أيضا .. وعندما تركت المرأة التى أحببتها لم أجد أروع من شعر الأستاذ فترجمته إلى الإيطالية . ولم تتحمل معانى هذه الأبيات فأرسلت لى صندوقا ظننته يحمل كل خطاباتى الغرامية إليها .. وأسعدنى ذلك .. فقد كتبت لها مئات الخطابات والقصائد التى اخترتها . وقررت أن أعيد نشرها فى كتاب .. ولكن عندما فتحت الصندوق وجدتها قد وضعت حذاء قديما .. إنه حذائى الذى لم يعجبها فى أول لقاء لنا ، فاشترت لى حذاء جديدا .. ولم أتلق فى حياتى إهانة أوجع وأوقع من هذه الإهانة الإيطالية ..

ويضحك عبد الرحمن صدقى وصلاح طاهر والأستاذ ، وبعضنا يسايرهم فى الضحك على هذا الانتقام الغريب .

* * *

وأعود إلى مذكراتى فأجدنى أقول : ولابد أن عبد الرحمن صدقى كان يعرف تماما ما الذى يسعد الأستاذ ، فراح ينشد قصيدة جميلة قالها الأستاذ فى هذه المناسبة – أى مناسبة احتقار هذه الفتاة التى

خانته أو تجاهلته .. أو لم تفهم هذه العظمة : أن يحبها الأستاذ .. وقال عبد الرحمن صدق وأنا أحاول أن أبحث عن قلم فى جيبى لأكتب هذه الأبيات .. ولكن لما وجدت بعض زملائى يهمسون مع عبد الرحمن صدقى أدركت أنهم يحفظون هذه الأبيات ، وإن لم يكونوا يعرفون المناسبة التى قيلت فيها .. قال عبد الرحمن صدقى وقد ذاب رقة وإيمانا بحقارة هذه المرأة ، وإيمانا بصدق كل ما قاله الأستاذ :

هونت خطبك جدا
وخلته لن يهونا
بدلت بالنار بردا
وبالهيام سكونا
إنى أمنت الفتونا
وأنت ماذا أمنت ؟
قد هنت والله هنت

* * *

خذى عشيقين مثلى
لا بل خذى الناس طرا
يلقاك هذا بليل
وذاك يلقاك ظهرا

ويقول صلاح طاهر وهو يختار الجانب الفنى من حب الأستاذ مؤكدًا ما قاله عبد الرحمن صدقى فيقول : بل أروع من ذلك تلك القصيدة التى نظمها الأستاذ عندما أهدته البلوفر .. أو الصديرى ..

وبسرعة يردد أحد الحاضرين تلك الأبيات التى يصف فيها الأستاذ كيف إنها صنعت له البلوفر أو الصديرى .. وهى تفكر فيه مع كل حركة إبرة أو مع كل عقدة خيط . يقول أحد الزملاء :

هنا مكان صدارك
هنا هنا فى جوارك

* * *

ألم أكن منك فكرة
فى كل شكة إبرة ؟
وكل عقدة خيط

وكل جرة بكرة ؟

* * *

هنا مكان صدارك
هنا هنا فى جوارك
والقلب فيه أسير
مطوق بحصارك

* * *

نسجته بيديك
على هدى ناظريك
إذا احتوانى فإنى
مازلت فى أصبعيك

والمعنى جميل رائع . لولا أن الأستاذ – كما ذكرت قبل ذلك – لا يعرف أن المرأة عندما تغزل البلوفر فإنها لا تفكر في أى شيء .. إنه عمل آلى تصنعه وهى تتكلم وتأكل وفي السينما .. ولكن هذه سذاجة العاشق الكبير ، فهو يتوهم أن كل ما يفعله الإنسان هو عمل عقلى .. فهى تغزل بالحب هذا الصديرى ، وهى تعقد خيوطه بالحب ، وتبدأ الصديرى وتنهيه بالحب للأستاذ ..

واستأذن الأستاذان عبد الرحمن صدقى وصلاح طاهر ..

ولم يبق فى صالون الأستاذ إلا بعض الشبان الصغار .. وقد بدا الإرهاق علينا جميعا . ولكن واحدا منا مايزال متحفزا يريد أن يسأل الأستاذ ، وقد شجعه على ذلك أن هذا الشعر الذى ألقى فى حضرته ، قد أنعشه وأسعده . وانتهزنا غياب الأستاذ يودع صديقيه عند الباب ، فتطلعت عيوننا إلى الجدران حولنا .. ولم نجد اللوحة طبعا . ولكن واحدا قال : إنها فى هذه الغرفة المجاورة تماما .. فهذه غرفة نوم الأستاذ ، فاللوحة فوق ، وتحتها كل أحذية الأستاذ .. إنه لم يشأ أن يضع الأحذية فى مكان آخر .. فالحائط يبدأ بالأحذية وينتهى بالذباب .. ولو وقعت هذه اللوحة لسقطت فوق أحذية الأستاذ .. وعندما جاءت هذه الفتاة لزيارة الأستاذ مع والدها من إمبابة .. قابلها بمنتهى الرقة والمرارة . واستدرجها مع والدها إلى غرفة النوم وقال لها : هنا .. وأشار الأستاذ إلى اللوحة بالقرب من السقف وإلى الأحذية .. وهو يقصد أن يقول إنها إذا سقطت على الأرض فسوف تتحطم ويستقر حطامها عند حذائه .. ولو كانت هذه المأساة قد انتهت من حياة الأستاذ كما يقول : فلماذا يضع هذه اللوحة .. أو هذه الإهانة .. أو هذه الشتيمة الملونة أمام عينيه قبل أن ينام وبعد أن يصحو من نومه ؟ .. إنها مأساة لم تنته .. فكأنه يعذب نفسه بها كل يوم .. أو كأنها ماتزال معروضة أمام

محكمته .. وهو لم يصدر حكمه النهائى بعد .. إنه أجل النظر فى هذه القضية .. فهل مايزال الأستاذ يحبها ؟ .. هل هو الحب الذى لم يمت ، أو هى الإهانة التى لم تمت ؟! ..

قال أحد الزملاء : إذن فالأستاذ ليس قادرا على أن ينهى عذابه .. أو ليس قادرا على أن ينسى الإهانة ..

قال ثالث : بل الأستاذ مثل الفيلسوف الألمانى كانت .. إنه كان يضع أمامه لوحة لبيت انهدم .. ويقول : إن فلسفتى كانت وسوف تبقى دائما كيف أبنى ما انهدم .. فلا شىء يغرينى بالبناء إلا رؤية مثل هذه الخرائب ..

وقال رابع : إن الأستاذ كأى واحد منا .. إن دبوسا يوجعه .. فلا أحد أقوى من الألم .. ولا أحد قادر على نسيان الهزيمة أو الفضيحة .. وهذه هزيمة للأستاذ ، وهو الذى جعلها فضيحة .. أى إهانة عرفها كل الناس .. ألم يعترف بها لعبد الرحمن صدقى وصلاح طاهر ؟ .. ماذا قال لها ؟ .. لابد أنه قال لها : إن هذه الفتاة خدعت عقلى وحطمت كبريائى ، ووجدت من هو أفضل منى .. ومعنى ذلك أن إهانة العظمة ، ليس من الضرورى أن تجىء من عظيم .. وإنما من الممكن أن تجىء من حقير .. وعندما أراد الأستاذ أن يعبر عن هذه الحقارة اختار الذباب ووضعه فى هذه اللوحة .. ولكن الذى لم يقله الأستاذ هو أن هذا الذباب كان أقوى منه .. وأنها هى اختارت الذباب وفضلته على صاحب العقل الجبار .. !

ولابد أن الأستاذ قد وجدنى أكثر الحاضرين تأثرا بما سمعت .. أو لعلى أردت من الأستاذ أن يستأنف مناقشته لكل الذى قيل .. أو لعلى أردته أن يوضح لنا لماذا هو شىء سيئ أن نلتقى بجماعة « شهود يهوه ». فلم نتعود من الأستاذ أن يصدر حكما ضد شىء أو ضد أحد دون « حيثيات » .. فهذا هو الذى يبهرنا فيه .. إنه يقول ويحلل ويقنع .. ويفتح رءوسنا ليطل عليها بنوره .. وحدث ما توقعت تماما ، فقال : مالك يا مولانا .. إنك كنت غائبا طول الوقت .. لابد أنك مشغول بهؤلاء النصابين الذين ادعوا أنهم من جماعة الفكر الحر .. وأنهم يرفضون كل القوالب الدينية .. إنهم كذابون يا مولانا .. فقد جاءنى واحد منهم هنا .. وكان يجلس تماما على نفس مقعدك .. وكان حاضرا أخوانا على أدهم وطاهر الجبلاوى ..

وضحك .. وهو يقصد أن الأستاذ طاهر الجبلاوى ، أقرب المقربين إليه ، وأكثرهم معرفة بحياته الخاصة ، لم يحضر لأسباب يعرفها هو .. ولا نعرفها . ولم يشأ أن يذكرها . فليس ذلك من شأننا . فهو أصدق أصدقائه .. إذن فهو لم يأت . ولم يكن الأستاذ فى حاجة إلى أن يستشهد بأحد فنحن نصدقه تماما .. قال : لقد وجهت إليهم سؤالا واحدا . واكتفيت بالإجابة عنه . سألتهم : إذا كانت جماعة « شهود يهوه » هذه مسيحية فهل هى اهتدت إلى صيغة أسهل فى فهم الديانة المسيحية .. وهذه

الصيغة تقنع المسيحى والمسلم واليهودى وتقنع الملحد ؟ .. فقط هذا ما أريد الإجابة عنه .. وحاولوا أن يوضحوا لى مذهبهم الدينى . ولكن أحدا لم يفلح فى إقناعى .. إذن فما دامت هذه الجماعة ليست أفضل من المسيحية أو الإسلام أو اليهودية ، ولا قادرة على أن تحول أحدا إليها ، فما فائدتها .. إلا أن تكون عبثا جديدا على العقل والوجدان .. وإلا أن يكون الداعون لها جماعة من النصابين .. أو من الجواسيس ؟ . إنهم كجماعة الماسون والبهائيين – أتباع عبد البهاء ، وهم الذين يحاولون أن يخرجوا بدين جديد مأخوذ عن كل الأديان – وبذلك يرضون كل الأديان . وفى الحقيقة لقد أغضبوا كل الأديان .. فهل يرضى المسيحيين أن تقول لهم إن الله واحد ؟ .. وهل يرضى المسلمين أن تقول لهم إن الله : هو الأب والابن والروح القدس .. أى أن الله ثلاثة ؟ .. ثم إنك لا ترضى اليهود أيضا . ولكنهم وجدوا جماعة من المغفلين . وهم كثيرون فى كل عصر .. كما ضحكت عليكم يا مولانا – ويشير ناحيتى – هؤلاء المشوهون الوجوديون فى ألمانيا والدانمرك وفرنسا ! . .

* * *

وكان بيننا صديق جاء لأول مرة .. ولم يتسع وقت الأستاذ لكى يسأله من هو .. وماذا يدرس .. فأشار إليه الأستاذ قائلا : وماذا ترى أنت يا مولانا ؟ . .

فقال : إن هذه الأمراض تحتاج إلى جالينوس . ذلك الطبيب الإغريقى العظيم .. أو إلى موسى الطبيب .

والتفت إليه الأستاذ بكل جسمه وقال : يا مولانا لقد أرحت نفسك تماما ، فجعلت كل هذه المذاهب المتضاربة مرضا جسميا .. ولم تجد من الأطباء المعاصرين واحدا قادرا على شفائنا منها .. ولذلك فضلت الطبيب جالينوس الذى مات .. كأنك قررت أن المرضى أحياء وطبيبهم الوحيد قد مات ! .. فلا علاج لأحد فى هذا العصر .. ومن هذا الطبيب الآخر ؟ ..

قال الزميل الجديد : إنه موسى الطبيب .. موسى بن ميمون ..

فاندهش الأستاذ قائلا : ولماذا موسى بن ميمون بالذات ؟ .. ألم تجد طبيبا آخر من عصر جالينوس حتى عصر موسى بن ميمون ؟ .. لعلك تشير إلى ما قاله الشاعر القديم ابن سناء الملك ..

فهز الزميل الجديد رأسه .. ولم يتركه الأستاذ يروى ما قاله ابن سناء الملك . فقال الأستاذ : إن الشاعر ابن سناء الملك قد قال يمدح هذا الطبيب اليهودى أبو عمران موسى بن ميمون القرطبى الذى كان يعالج السلطان الملك الناصر صلاح الدين وكان يعالج ولده الأفضل أيضا وقال :

أرى طب جالينوس للجسم وحده

وطب أبى عمران للعقل والجسم

فلو أنه طب الزمان بعلمه

لأبرأه من داء الجهالة بالعلم !

ثم التفت إليه الأستاذ ليسأله : وأنت يا مولانا ما الذى ألقى بك على الشاعر ابن سناء الملك ؟ .. إنه ليس أحسن الشعراء ولا أقربهم إلى همومك ومشاكلك .. إلا إذا كنت .. هل أنت يهودى ؟ !

والتفت كل الحاضرين ليسمعوه وقد احمر وجهه تماما يقول : نعم ..

وضحك الأستاذ من أعماقه : أنتم هكذا يا بنى إسرائيل .. تشمون رائحة بعضكم البعض .. فأنتم لا ترون إلا أنفسكم فى هذه الدنيا .. أنتم مشغولون بكل شىء له صلة بكم.. بل إنكم تحاولون أن تؤكدوا لأنفسكم ولغيركم أنكم مركز الكون .. أن كل الديانات خرجت من دينكم وخرجت على دينكم أيضا .. فأنت لا تحفظ من كل الذى قاله ابن سناء الملك ، إلا الذى نظمه مدحا فى الطبيب الفيلسوف ابن ميمون . شىء عجيب.. ربما سبب ذلك أنكم أقلية فى كل زمان . ولذلك تريدون أن تؤكدوا لأنفسكم أن الأغلبية مشغولة بكم وحاقدة عليكم .. وهى حاقدة عليكم لأنكم أفضل منها ، ولأنكم مصدر عقائدها وثرواتها .. كان لنا صديق قديم يهودى .. وكان يقول لنا إنه عندما كان فى بغداد كان يسعده تماما . أن الشمس قد طلعت على القدس قبل أن تطلع على بغداد .. ولابد أن تفعل ذلك .. فكنا نسأله : ولو أقمت فى القاهرة أو فى لندن لطلعت فى أوروبا كلها قبل أن تطلع على القدس ؟

ولكن هذا المعنى لم يخطر على باله ، وحاولنا بعد هذه الندوة أن نؤكد لصديقنا « شاءول هرارى » أن الأستاذ يداعبه .. وأنه لا يقصده وحده .. وأنه كثيرا ما شتمنا جميعا .. وهو لا يقصد إهانة أحد . إنما هو يسخف أفكارنا ، وليس أشخاصنا.. وهو يوقظنا بعنف .. وذكرت له أننى عندما علقت فى إحدى المرات على ما يفعله الأستاذ فقلت له : إنك يا أستاذ مثل الفيلسوف الوجودى كيركجورد الذى قال : إن مهمتى أن أقض مضاجع الإيمان فى كل مكان ! ..

فقال الأستاذ : ولكنه لم يفعل يا مولانا .. إنه راح يقض مضاجع الإيمان ، ثم استغرق هو فى إيمان عميق .. ولكن أنا الذى سوف أقض مضاجع هذا الفيلسوف وأتباعه فى كل مكان ! ..

يقصدنى أنا وزملائى من المؤمنين بالفلسفة الوجودية .. ولم أفلح فى التهوين عن شاءول أو تخفيف هذه الصدمة .. فقد اعتبرها إهانة شخصية . ورأى أنها إهانة مقصودة . فقد كانت هذه أول زيارة له . ولا يستبعد شاءول أن يكون أحد قد أخبر الأستاذ أنه يهودى . مع أن الذى أتى به إلى البيت إعجابه بالأستاذ لأنه يهاجم هتلر دائما !

وخرج شاءول هرارى ولم يعد . ورأيته بعد عشرين عاما عندما زرته فى مكتبه بالمركز الرئيسى للحزب الشيوعى بروما ..

وعندما رأيته صرخ قائلا : صدفة عجيبة . عجيبة . لقد كنت أفكر فى الأستاذ العقاد .. وأفكر فى ذلك الحوار بالذات .. وقد كنت طفلا ساذجا عندما تصورت أن الرجل قصدنى شخصيا بكلامه عن اليهود .. أما لماذا تذكرتك بصفة خاصة فلأن أخى قد اعتقله البوليس فى لندن بتهمة توزيع منشورات فى الكنيسة .. هل تعرف ما الذى تقوله تلك المنشورات ؟ .. لقد كان يدعو المصلين إلى ترك الديانة المسيحية والانضمام إلى جماعة « شهود يهوه » !

وَقْفَـةُ رَاهِب وَرَاقِصَـة ..

نوعان من الصدمات : واحدة تفتح الرأس ، وواحدة تفتح العقل .. وقد انفتح رأسي وعقلي .. وكان لابد من اتخاذ قرار يجيب عن هذا السؤال : إلى أين يذهب الذين يدورون حول نيران المعرفة ، ويرقصون على طبول الفلاسفة ؟ !

لم يكن الأستاذ العقاد رجلا سياسيا ، ولا كان طه حسين ، إنما كانا اثنين من المفكرين ، لها اهتمامات سياسية واجتماعية . فقد كانت السياسة – ولاتزال – امتدادا للحياة الشخصية ، وتوسعا فى النفوذ ، ومسرحا للقوة . ولذلك يمكن استبعاد كل ماكتبه الأستاذ العقاد فى السياسة ، وماكتبه طه حسين أيضا .

ولم يزد ماكتبه الرجلان على الذى كتبه توفيق الحكيم . فتوفيق الحكيم قد اختار لنفسه مكانا بعيدا عاليا وراح يتأمل فى عمق . فإذا أخطأ فى تأملاته قيل : إنه يعيش بعيدا عن الناس . . وإذا أصاب الحكيم قيل : طبيعى أن يصيب رجل على هذا القدر العظيم من الموهبة ..

أما العقاد فهو أحد المقاتلين ، والسياسة أحد مجالاته الفكرية . وكذلك كان طه حسين ، وربما كانت لطه حسين عبارات أجرأ وأعنف . ولكن أسلوب طه حسين كان يحميه من النقد ، أما العقاد فكان أسلوبه مباشرا ، ولذلك كان النقد الموجه إليه مباشرا أيضا . وطه حسين قال فى الأدب مايستحق عليه السجن ، ولو كان العقاد هو الذى قاله لاستباح الناس دمه ! فطه حسين أشار إلى أن القرآن الكريم « نص أدبى » يجب أن ندرسه بهذا المعنى ، ومن هذا النص نحكم له أو نحكم عليه – أعوذ بالله . ولكن طه حسين راح يلف ويدور ويطلع وينزل لكى يعلن عن هذا المعنى . ولو كان العقاد هو صاحب هذا الرأى لقاله هكذا : والقرآن هو قمة البلاغة . وهو نزل فى عصر البلغاء والشعراء ، ولابد أنه يرضي أذواقهم ، وإن كان قد نزل ليكون باهرا لكل العصور . . ولذلك يجب أن يفسره كل عصر على هواه أو قدر استطاعته . . ولذلك فسوف يختلف معناه عند المسلمين على أيام الرسول ، عن معناه عند المسلمين فى العصر العباسى ، وعند مسلمى اليوم .. إلخ . .

بل إن العقاد قال هذا المعنى فى الصفحة الأولى من كتابه عن « الله » . . فقال : ان معنى الألوهية يتغير بتغير العصور والظروف ! !

ولذلك كان من المألوف جدا فى ندوة الأستاذ عند مناقشة الأحزاب السياسية فى مصر أن تتحول المناقشة بسرعة إلى المذاهب المعروفة فى فلسفة التاريخ . وبنفس السرعة نعبر البحر إلى أوروبا ونجدنا جالسين على باب الباستيل وقصور الملوك الفرنسيين والإنجليز . فإذا عدنا إلى الواقع المصرى المعاصر ، كان شعورنا بالقرف قد بلغ أقصى درجاته . فالذى ارتاده العقاد فى فلسفة التاريخ يجعلنا ننظر إلى حوادث مصر على أنها عبث أطفال ..

* * *

ولم تكن حوادث مصر عبثاً . وإنما نحن كنا أطفالاً .. كنا أصغر من الأحداث ؟

وكان من أشجعنا وألطفنا جميعا الشاعر الرقيق صالح جودت يرحمه الله . قال للأستاذ : كيف يكون كل هذا الذى تعيشه تافها ، ثم ماتكتبه يصبح شيئا عظيما ؟ .. كيف يكون سعد زغلول تافها ، أو حتى رجلا عظيما خلقته ظروف تافهة ، ثم تكتب أنت عنه كتابا هو أحسن ماكتب فى اللغة العربية عن زعيم سياسى .. وهو فى نفس الوقت أحسن ماكتبت أنت ياأستاذ ؟ ! ..

ولم يقل الاستاذ إن كلامنا تافه . ولكنه احساسنا نحن .. واحساس صالح جودت الذى لم يختلف عن احساسنا جميعاً ! .

ولابد أن الكلمات الأخيرة من السؤال قد أسعدت الأستاذ تماما ، فجعلته ينظر إلى النصف الأول من السؤال بخفة ، ويترك السؤال ويتوجه إلى صالح جودت ، فقال : ياسيد صالح .. من الممكن أن تكون التفاحة التى يقال إنها سقطت من شجرة كان ينام تحتها نيوتن ، هى التى جعلته يكتشف قوانين الجاذبية الأرضية . . ومن الممكن أن يعرف طبيب من قطرة دم واحدة كل تركيب الدم وأسباب الأمراض والمقاومة التى فى الجسم الإنسانى للميكروبات .. فنحن لانستطيع أن نقول إن عالم الطفل تافه ، لأن الطفل نفسه صغير . إن عالم الطفل على قدره هو .. مثل ملابسه وأحذيته وأفكاره . . ولكن عالم الطفل هو بداية البدايات فى حياة الإنسان . وليس غريبا أن تكون المبادئ لعلم النفس التحليلى عند أصابع الطفل . . وتبدأ بتساؤلاته . . ولذلك فعلم النفس التحليلى بكل مدارسه لايمكن أن يكون شيئا هينا لأنه يبدأ من الحركات وردود الفعل الصغيرة عند الأطفال . .

ومعنى كلام الأستاذ الذى لم يقنع الشاعر صالح جودت : أن الحياة العامة فى مصر من الممكن أن تكون تافهة الأحداث ، ضحلة الأعماق . هزيلة الشخصيات . ولكن من هذا كله تتولد الأفكار العظيمة والمثل العليا . . .

ودون أن ينظر الأستاذ – عادة – إلى وجوه الجالسين ، فإنه يستدرجنا إلى إحدى القضايا المحببة إليه . وهى قضية النقد فى عصر من العصور . فهو يرى أن النقد ضرورى فى مثل هذه العصور . وأن النقد يشتد فى عصور الضعف والإفلاس الفكرى . فيكون بذلك نوعا من السلبية الصارخة . ومع

ذلك فالنقد أكثر ضرورة للشعوب فى مثل هذه العصور . لأن الناقد يجب أن يتقدم الجميع ، وأن يشير إليهم ويشير عليهم أين يذهبون . وإذا فعل الناقد ذلك فقد تجاوز السلبية إلى الإيجابية .. وانتقل من مقاعد المتفرجين على خيبة أمل عصره ، إلى مراتب الزعماء والأنبياء ..

وطلب الأستاذ إلى صالح جودت أن يلقى علينا أحدث قصائده . فكان شعر صالح جودت رقيقا ، ولكنه هو كان أكثر رقة من شعره . . فهو هامس الصوت ، غنائى الأداء ، وهو يذوب فيما يلقيه . . فيكون هو وشعره جسما واحدا يتمايل ، كأن الشاعر فى حالة اكتفاء ذاتى : يلقى شعره ويعجب به . وكذلك كان البحترى ، شاعرنا القديم ..

وهى إحدى الحيل التى يلجأ إليها الأستاذ تأدبا وترفقا بالتلامذة الصغار فى ندوته . فعندما يدرك أنه سوف ينشر جناحيه كنسر ضخم ويحلق بعيدا عنهم فى سحب الفلسفة . فإنه يكتفى بأن يكشف عن جناحيه ومنقاره ومخالبه ثم يجمع ريشه ويقرر البقاء معنا ..

• • •

وكان من بين زملائنا طالب أزهرى رقيق . إنه فضيلة الأستاذ عبد الرحمن إسماعيل الأحمدى وهو الآن من كبار العلماء . وكان الأستاذ يصفه بأنه الشيخ مصطفى عبد الرازق الصغير . وكان الشيخ مصطفى عبد الرازق رجلا أنيقا رقيقا . وكنا نستمع إلى محاضراته فى الفلسفة . وكان الرجل متميزاً فى صوته وشكله وحركته وأسلوبه وكلامه . وكذلك كان زميلنا الصغير شيئا من ذلك . أو هكذا قال الأستاذ . وربما كان عيبه الوحيد هو أنه حريص على أن « ينكش » الأستاذ ليهاجم طه حسين . وكان الأستاذ يفعل ذلك ، ولم يكن السبب واضحا عندنا . فكلاهما رجل عظيم . والعظمة مثل الجمال : ألوان ودرجات ، ثم إن الجمال نسبى أيضا . ومادامت قمم جبال الأوليمب قد اتسعت لعشرات الآلهة ، فكذلك كل القمم الضيقة الباردة . وليس كثيرا على عصرنا أن يكون فيه العقاد وطه حسين والحكيم وغيرهم . ولكن يبدو أن الأستاذ كان يشعر أن القمة ضيقة عليه وحده . وكذلك كان طه حسين . ولا عيب فى واحد منهما . فكل منهما قمة . وكان الأستاذ يعرف أن زميلنا الشيخ الأحمدى كان يخفى ورقة فى جيبه . . هل هو سؤال مكتوب ؟ .. هل هو مشروع قصيدة دينية ؟ .. لابد أن يخفى شيئا ما . وكان الأستاذ يتوقع منه ذلك . وهو أيضا يتوقع أن يسأله الأستاذ : وماذا عندك غير « شقاوة » أخينا صالح جودت ؟ . .

فكان الشيخ الأحمدى يحمر وجهه ويحنى رأسه ، لأن هذه المقارنة بينه وبين صالح جودت تضايقه . فشعر صالح رومانسى يتغزل فى جمال المرأة كثيرا . وجمال الطبيعة قليلا ، ثم نادرا مايكتب فى السياسة . . فإذا فعل فهو أحد الهواة أو الحواة . ونصف متاعب صالح جودت كانت بسبب أنه فنان دخل السياسة بشروطه ، فعاقبته السياسة بعيوبها .

وكان الأستاذ يشجعه : لابد أن نسمع .. ماذا عندك يا سيد عبد الرحمن ؟ ..

فيعتدل عبد الرحمن فى جلسته ، ويزم الجبة والقفطان ، ويشرق وجهه أكثر . ثم يخرج ورقة من جيبه قد طويت عشرين مرة حتى بدت كأنها حجاب ، ويقول : إنها بعض التأملات يا أستاذ .. من هنا وهناك .. وإن أذنت لى قرأتها دون أن يقاطعنى أحد من الزملاء ..

ويقول الأستاذ : حتى لو قالوا لك : الله ياشيخ عبد الرحمن .. أعد ؟ .

ويضحك الأستاذ عاليا . هو وحده . أما نحن فلا نضحك . لأننا نعرف أثر ذلك على الشيخ عبد الرحمن . ولكن عبد الرحمن يضع الورقة أمامه ، كأنه لم يسمع كلمة واحدة مما قال الأستاذ : اجعل سرك عند شخص واحد . واجعل مشورتك عند ألف شخص .. الصبر قبر للعيوب .. إذا أقبلت الدنيا على أحد من الناس سرقت محاسن غيره وأعطتها له ، وإذا هجرت الدنيا واحدا من الناس سرقت محاسنه هو .. أتعس الناس من زادت معرفته وعظمت ارادته . وصغرت قدرته .. جدك لا كدك ..

ثم يقول عبد الرحمن : الجد بفتح الجيم أى الحظ .. والكد أى العمل الشاق .. أى أن الحظ أهم من العمل .. والمثل الشعبى يقول : قيراط حظ أفضل من فدان شطارة .

وفجأة يسكت الشيخ عبد الرحمن ويطوى الورقة فى جيبه . ثم ينهض واقفا ويمد يده للأستاذ يصافحه . كأنه جاء فقط ليلقى هذه الكلمات دون أن ينتظر تعليقا من الأستاذ أو من أحد ...

وكان بعضنا يتطوع فيتحدث عن الشيخ عبد الرحمن الأحمدى . فيقول : إنه من أسرة غنية فى المنصورة ، لم يكن فى نيته أن يكون أزهريا . ولكن أمه نذرت لله إن عاش ولدها الوحيد أن تهبه لله .. فيتعلم أصول الدين ويكون من رجال الأزهر ..

ويقال : إنه الابن الوحيد بين ست بنات .. وهو آخر العنقود ..

وكنا ننظر إلى وجه الأستاذ ونلاحظ أنه يتابع باهتمام كل مايقال . ولابد أنه يريد أن يربط بين هذه الظروف كلها وهذا السلوك الغريب لهذا الشاب الطيب .. وعندما تنطفئ الأضواء على وجه الأستاذ ، نحس كأنه أعطى العقل إجازة مؤقتة . أو أنه اهتدى إلى رأى فى الشيخ عبد الرحمن ولم يشأ أن يذكره حرصا على حساسيته .. أو حتى لايكون مادة للفكاهة بين زملائه ، ولكن الأستاذ كان يعطف على الشيخ عبد الرحمن . ويرى أنه الملاك الوحيد وسط هؤلاء الشياطين — أى وسطنا جميعا .. أو أنه الكتكوت الذى ساقه سوء الحظ إلى قفص الديوك الشرسة . ولم نكن كذلك فى حضرة الأستاذ ، ولكن كنا أكثر من ذلك عندما نغادر بيت الأستاذ إلى الشارع أو إلى المترو أو إلى مكتبة الجامعة أو حديقة الأسماك ..

* * *

وفجأة تحدث صالح جودت وقال : هل قرأت ياأستاذ مانشرته الصحف اليوم عن الفيلسوف الوجودى سارتر ؟ ..

ورفع الأستاذ رأسه ، وضغط على شفتيه ومطهما إلى الأمام ، وظهر على وجهه الملل الذى تتحدث عنه الفلسفة الوجودية . وكان ذلك دليلا عمليا عفويا على مدى كراهية الأستاذ للوجودية أو للفلاسفة المعاصرين – ماعدا فيلسوفه المفضل برتراند رسل ..

ومضى صالح جودت يقول : قال سارتر . . لقد كانت فرنسا أحسن حالا فى عهد الاحتلال النازى . . وهو يقصد بذلك ...

وقاطعه الأستاذ : ماذا وجدت فى رجل يمجد الاحتلال النازى ؟ .. أنت تعرف أن سارتر هذا نصف يهودى . . وأن الفيلسوف الوجودى الألمانى هيدجر يهودى .. هل هناك مزيد من الخيانة الوطنية أكثر من ذلك ؟ .. ثم الأعجب من ذلك أن تجد أناسا فى مصر يطبلون ويزمرون لهذا القزم المشوه الذى يأسف على أن هتلر لم يحتل فرنسا كاملة .. وأن هتلر ترك فرنسا وترك ألمانيا أنقاضا فوق رأسه . . ولكنه مايزال يحتل عقول مثل هذا السارتر . .

وسكت الأستاذ فجأة ليتجه إلى التليفون يرد عليه . . ونظرنا إلى صالح جودت . فوجدنا أن فتاة كانت تجلس إلى جواره . ولم أكن قد لاحظت ذلك . فنحن عندما ندخل إلى الصالون نرى الأستاذ فنصافحه واقفا . ونجلس أمامه وعيوننا وآذاننا وعقولنا قد اتجهت إليه ، تماما كما تتجه البوصلة إلى القطب الشمالى . .

ولاحظت أن صالح جودت يتحدث إلى هذه الفتاة بالفرنسية ويقول مامعناه : إن الأستاذ لم يعطنى فرصة لكى أوضح وجهة نظرى . إنه بادرنى بالرفض . وقلب الدنيا فوق رأسى .. ولكن عندما يعود فسوف أشرح له ماقرأت ، وسوف أنقل إليه وجهة نظرك أنت أيضا . هل تريدين أن تسأليه عن شىء محدد ؟ ..

فقالت الفرنسية : أريد أن أسأله إن كان قد قرأ سارتر بالفرنسية ؟ . . وكم كتابا قرأ ؟ ..

وهنا فزع صالح جودت ليقول لها : هو عادة يقرأ بالإنجليزية . ولا أستبعد أن يكون قد قرأ كل ماترجم للفيلسوف سارتر .. هذا مؤكد . . ولكن لا أستطيع أن أسأله كم كتابا قرأ ؟ ..

وسألته الفرنسية : لماذا يثور على سارتر هكذا ؟ .. إذا كان سارتر لايتفق معه فى الرأى ، فهل من الضرورى أن يتفق معه كل الناس ؟ . . ألهذه الدرجة يضيق الأستاذ بالمذاهب التى تخالفه ؟ ..

وقال لها صالح جودت : إنه لايضيق بالآراء التى تخالفه . . ولكنه يكره هذا النوع من الفلسفات التى تشوشر على عقول الناس . . ويرى أن سارتر فوضوى أو هدام أو مهرج ..

وعادت تسأله : وأنتم لارأى لكم . . أو أن هؤلاء الشبان لا يعرفون شيئا من ذلك ؟ ..

وأشارت ناحيتى ، وكان يجلس إلى جوارى من تلامذة الفلسفة : وليم الميرى وعبد الفتاح الديدى ، ومن أساتذة الفلسفة : فؤاد الأهوانى ومحمد محمود خضير وعثمان أمين ..

ونظرت إلى الفتاة الفرنسية .. إنها نحيفة شقراء سوداء الشعر ترتدى بنطلونا أسود .. ورغم أن الجو بارد تماما ، فقد كانت بغير جوارب . . وكان حذاؤها مفتوحاً . . وكانت لها بلوزة مفتوحة . . ورغم أن التيار الهوائى من مكتب الأستاذ وبلكونة الصالون يجعل البلوزة تنفتح أكثر ، ورغم أنها كانت تسوى البلوزة بأصابعها .. فإنها لم تفكر فى أن تزررها – فهى تتعمد أن تجعلها مفتوحة . . وأن تلفت النظر إليها فى كل مرة يحركها الهواء .. وكانت فى جلستها تتراجع إلى الوراء ، ليبدو صدرها بارزا أكثر – وكانت تتصنع أنها لا تسمع بوضوح ، ليقترب منها صالح جودت فيهمس فى خديها علنا ، وأمامنا جميعا ..

وقبل أن يجلس الأستاذ تحدثت أنا أوضح الذى قاله صالح جودت ، فقلت : ياأستاذ إن هذه العبارة التى قالها صالح جودت ليست جديدة . . فقد نشرها سارتر فى بعض كتبه . . وهو لايحبذ الاحتلال الألمانى . . إنما هو يريد أن يقول : فى ظل الاحتلال لم تعد للمواطن الفرنسى حرية .. لقد أخذها الألمان . . ولم تعد للمواطن الفرنسى كرامة فقد داسها الألمان .. ولم يعد عند أحد أمل ، فقد أممه الألمان .. وعندما أعلن الألمان أنهم لن يهدموا المتاحف ، جعلوا ذلك شرطا لصمت الفرنسيين . . وفى « جمهورية الصمت » هذه كان المواطن الفرنسى حرا فى أن يفعل مايشاء . . فلا أحد يلومه على أى شىء . . فهو يستطيع أن يكون كلبا وأن يكون أسدا . . وأن يقبل اقدام الألمان . . وأن يسلم نفسه لهم . . لالوم عليه ، لانه ليس حرا وليس كريما . .إنه فجأة أصبح كأنه لا شىء . . إنها تشبه حرية الأشباح التى لم تعد لها أجسام . . فهى تنتقل من مكان إلى مكان دون أن يشعر بها أحد .. ودون أن تكون قادرة على فعل شىء . . ومادامت عاجزة عن فعل شىء ، فإنها لاتخطئ . . فالذى يخطئ هو الذى يعمل .. والأشباح لاعمل لها ، ولذلك لاخطأ لها .. هذا هو المعنى الوجودى لانعدام الإنسان أو انعدام حريته . والإنسان الذى لاحرية له لاوجود له .. فأنا بالضبط أساوى حريتى . . إن حريتى هى أن أختار هذا أو أختار ذاك . . أن أرفض هذا أو أرفض ذاك ..

وقد هز الأستاذ رأسه بقوة كأنه يرفض أو ينفض هذه الأفكار عن أذنيه . . وقبل أن يتهيأ للرد قال له صالح جودت : هذه الفتاة الفرنسية تدرس اللغة العربية فى السوربون . . وقد جاءت إلى مصر فى زيارة قصيرة . . وقد نقلت لها ملخص رأيك ياأستاذ فلم تسترح إلى شىء . . وتريد أن تسألك ياأستاذ .

فقالت بالفرنسية : ألست حرا تماما فى أن تتزوج أو تمتنع عن الزواج ؟ .. ألست عند امتناعك عن الزواج تستطيع أن تفعل ماتشاء .. أن تكون محبا وأن تكون عاشقا وأن تكون زاهدا أو تكف عن

الكتابة والقراءة ولا تفيق من الشراب . . وتستطيع أن تلقى بنا من فى النافذة فورا ؟ .. ألا ترى عندما وافقت على جلوسنا وانتظرت سؤالى هذا أنك اخترت ذلك ؟ .. قد يكون أدبا منك . وقد يكون حبا للاستطلاع . . وقد يكون ضيقا بهذا كله . ولكنك لا تحب أن يبدو عليك الضيق .. ألا ترى أن هؤلاء الشبان الذين جلسوا مبهورين بك ، من الممكن أن يكونوا أحسن الناس أو أسوأهم . . ومن الممكن أن يكونوا هداياك إلى الأجيال القادمة . أو ضحاياك ؟ . . ولو كان سارتر حاضرا هذه الجلسة ماقال غير الذى قلت لك . .

وحاول صالح جودت أن يترجم ذلك للأستاذ . ولكن الأستاذ أشار إليه أنه قد فهم ، وقال : أعرف ماذا قالت الآنسة الفاضلة .. وإلى أى شىء تقصد .. لاتقل لها ياسيد صالح إننى لم أشعر بوجودها إلا عندما نبهتنى هى نفسها فقد كانت « معدومة » منذ جاءت ، ولكن عندما تحدثت فقد أصبح لها وجود . . لاتترجم لها ذلك ياسيد صالح ! . .

وضحك الأستاذ عاليا . وقال : يامولانا . . هذه ليست الحرية . . هذا هو العبث بالحرية . . أو العبث الذى معناه : التفاهة . . أو انعدام المعنى .. إن الذين درسوا الفلسفة يعرفون أن أحد فلاسفة الإغريق كان ينكر أن الأشياء تتحرك . . وكان يقول : لاتوجد حركة .. إنما كل شىء ساكن جامد ، أما هذا الذى نعمله أو نراه فهو وهم مستمر .. ويضرب لذلك مثلا أنتم تعرفونه ، وهو أن الإنسان إذا أراد أن يخطو مترا مثلا ، فيجب أن يخطو نصف المتر . ثم نصف النصف .. ثم نصف ذلك . . ونصف النصف وهكذا إلى غير نهاية .. أى أنه لن يحرك قدما عن قدم .. وهذا الكلام عن الحرية هو أقرب إلى انعدام الحرية .. أو العبث بالحرية تمهيدا للقضاء عليها .. والرجل الذى يفضل الاحتلال الألمانى للإرادة الفرنسية هو رجل رفض حريته ، وهتف بحرية أعدائه أو جلاديه ..

ولم نتفق ، ولم يقتنع الأستاذ بما قيل له عن مفهوم الحرية الوجودية . وبدا القلق على وجه الفتاة الفرنسية .. ولم يسعفها أحد بالترجمة . . ثم إنها وجدت الاستاذ يتحدث عن فلاسفة آخرين غير سارتر الملحد نصف اليهودى . . وهيدجر الذى ليس يهودياً وإن كان ملحدا .

وعرفت ان الفتاة التى قدمها لنا صالح جودت كانت إحدى ممثلات الكوميدى فرانسيز ، وجاءت إلى القاهرة تقوم ببطولة مسرحية « جيجى » وهى قصة الأديبة الفرنسية كوليت . . وكان اسمها آنى فليبر .

وعندما زرت الأستاذ عبد الرحمن صدقى فى دار الأوبرا وكان وكيلا لها ، وجدت فى مكتبه الأديب صلاح ذهنى . وكان شابا لطيفا أنيقا . .

ووجدت هذه الممثلة آنى فليبر فى مكتبه . وقدمنى عبد الرحمن صدقى قائلا : إنه فلان رجل مهذب . ولكن لاتنسى أنه رجل ! .

ويجيء ضحكة عبد الرحمن صدقي التي هي أقرب ماتكون إلى الزغطة فهي تعلو وتهبط ، ويطلقها ثم يسحبها . . ويطلقها ويهتز لها . .

ويبدو أنها روت له ماحدث في صالون العقاد ، فقال لها : إنه صالح جودت الشرير هو الذى استدرج هذه الحمامة الوديعة إلى وكر النسر الكبير . . إن العقاد رجل واضح . . رجل منطق حديدى . . ولايفهم هذه التقاليع الفرنسية ! . .

قال لى صلاح ذهنى : كان فى نيتى أن أحضر ندوة العقاد هذه . . ولكنى يا أخى أخاف منه . . فعندى إحساس أننى إذا فتحت فمى ، فإنه سوف يضربنى بالعصا . . وإن كان عبد الرحمن صدقى يؤكد لى أنه يحب النكتة وأنه شخصية ممتعة وأنه ساحر إذا تحدث فى أى شيء . .سأحاول أن أحضر الجلسة المقبلة . . وأريد أن أسأله سؤالا محددا : ماالذى يعجبه فى الشاعر عبد الرحمن شكرى؟ . . لقد قرأت قصائده ووجدتها معقدة . . ولاأجد حرجا فى أن أقول إننى لاأفهم شيئا منها . . فهل لهذا السبب يراه العقاد عبقرى هذا الزمان؟! . .

وتزاحم الناس فى مكتب عبد الرحمن صدقى ، ووجدت نفسى أمام مكتبه دون أن أحذر صلاح ذهنى من مثل هذه الأسئلة الاستنكارية للعقاد . .

* * *

وأمام كازينو « الكيت كات » فى إمبابة جلسنا نراجع ما الذى قاله الأستاذ فى ذلك اليوم . فقد كان هجومه على الفلسفة الوجودية عنيفا . ولم يتمكن أساتذة الفلسفة الحاضرون من الرد عليه . . وإن كانوا جميعا ضد الفلسفة الوجودية . فعثمان أمين كان فرنسى التفكير ، ولكنه ينتسب إلى المدرسة العقلية . . مدرسة الفيلسوف ديكارت . وقد أمضى عثمان أمين حياته كلها يشرح فلسفة رجلين : ديكارت والشيخ محمد عبده . ولابد أن تكون العلاقة بينهما : الوضوح وقوة الحجة . وعندما حاول عثمان أمين أن يكون له « مذهب » فلسفى اختار مذهبا غير واضح اسمه : الجوانية . . أى الروحية أو الروحانية أو الوجدانية ، ويجوز أن يكون الوجودية . . ولكن لم يجد عثمان أمين تعريفا واضحا لكلمة « جوانى » وكلمة « برانى » . . أو لا هو جوانى ولا هو برانى . . أو جوانى وبرانى معا . . لقد ضحى عثمان أمين بالوضوح الذى هو معبوده العظيم ، من أجل أشد الكلمات غموضا : الجوانية . .

على انه ذهب فى توضيح مذهبه إلى درجة أن وصف رقص كاريوكا بأنه « جوانى » ورقص نجوى فؤاد بأنه برانى — أى كاريوكا تعبر عن معنى جميل ، ونجوى فؤاد تعبر عن جسم جميل !!

أما الأستاذ فؤاد الأهوانى فلم يكن له مذهب فلسفى ، إنما هو أستاذ فى الفلسفة ، بدأ فى المنصورة الثانوية ، وانتقل بعدها إلى الجامعة . وهو أقرب إلى الفلسفة الإسلامية منه إلى الفلسفة الأوروبية

القديمة أو الحديثة . . ومن أمتع الكتب التى ترجمها كتاب من تأليف ول ديورانت بعنوان « مباهج الفلسفة » . .

أما الأستاذ محمد محمود خضير فهو لم يخرج من الفلسفة الإسلامية القديمة ، ولا يريد ، وهو رجل متواضع إلى أقصى درجة . . فهو لا يعطيك انطباعا بأنه يجيد اللغات الألمانية والفرنسية واليونانية واللاتينية . . وربما كان التواضع جناية عليه . . فقد أخفى كل مزاياه . . فقد اكتشفنا أنه رجل ظريف لطيف . . وأنه فى غاية الأدب ، وأنه مجامل ، وأن لديه أبوة غامرة جاهزة لمن يطلبها ، وأنه يقبل أى عذر من أى طالب حتى لو كان كاذبا ، وكان يقول : يكفينى أن تعتذر . . وأن تعاقب نفسك أنت بعد ذلك . . إننى لا أعاقب أحدا . . فأنا أعتقد أن الجريمة : عقاب . . عقاب يتولاه الضمير نيابة عنا جميعا . . وهكذا فإننى أريح نفسى . ولا أحاسب أحدا ولا أعاقب أحدا . . وأحيانا أحس أن الجريمة يومية ، ولكن العقاب أسبوعى أو سنوى . . فقد يرتكب الواحد غلطة ، ويهرب من العقاب ، فيرتكبها مرة أخرى . . ويرتكبها بصورة أكبر وأخطر ، فيلقى عقابا عن كل هذه الأخطاء المتراكمة !

إذن كان لابد أن نجلس فى الليل ، وأن نرتدى تيجان آلهة الإغريق . ونلتف حول منضدة خشبية صغيرة ، ونحرص على ألا نقترب منها كثيرا حتى لا تتساقط أكواب الشاى والسحلب . وفى نفس الوقت نحاول أن نتقارب أكثر لكى نستطيع أن يسمع بعضنا البعض . . وأن نستخلص أصواتنا من بين ضوضاء الطاولة والدومينو والراديو ونداء الجرسون على طلبات الزبائن . .

ولم نكن جميعا من دارسى الفلسفة . . وإن كنا فى السنوات النهائية لكليات الآداب والحقوق والتجارة والفنون الجميلة . .

وبينما نحن جالسون دخلت المقهى فتاة سمراء كأننى رأيتها قبل ذلك . . إنها خطيبة زميلنا طالب الفنون الجميلة . . ولا أعرف لماذا برقت عيناى عندما رأيتها ، وكدت أمد يدى مسلما عليها . . وعندما فكرت فى هذا الذى كدت أفعله أدركت أنها شبيهة بطالبة المنصورة التى انشغلت بها بعض الوقت . . ثم فسرت اهتمامى بهذه الفتاة أن فتاة المنصورة ما تزال واقفة أو جالسة فى أعماق . . وأننى لم أصرفها بعد . . أى تركتها هناك دون أن أقول لها شيئا . وتضايقت من نفسى ، وغضبت دون أن يدرى أحد . ولما رأيت هذه الفتاة الشبيهة بها انتهزت هذه المناسبة لأقفل الباب فى وجه هذه وتلك . وأحسست كأننى نزعت الباب وأقمت بدلا منه حائطا . . وإن كنت بعد ذلك عدلت نهائياً عن الدخول من الأبواب العاطفية ، ورحت أقفز من فوق الأسوار أو من النافذة . .

وكاد الحديث يتحول إلى كلام عن الحب وعن المرأة ، وبعد ذلك عن الأغانى والمطربين والقصائد الركيكة التى ننظمها جميعا فى المناسبات الدينية . . فنحن جميعا من « الإخوان

المسلمين » . . رغم أن بيننا ثلاثة من الشيوعيين ، ولكنهم كانوا من جماعة الإخوان فى ذلك الوقت . .

وحتى لا تهرب أفكارنا كأغنام رأت ذئبا ، أوكذئاب رأت صيادا . أوكصياد فوجئ بأسد ، بدأت الكلام هكذا : ولكن من المؤكد أن الأستاذ لا يطيق الوجودية ، لأنه ينتسب إلى مدرسة فكرية أخرى . .

قال زميل : ولكن الأستاذ ليست له مدرسة . . ولا مذهب فلسفى . . إنه يرفض أن يحدد أفكاره فى إطار . .

قلت : والوجودية أيضا ليست مذهبا . . إنما هى « اجتهاد » فلسفى فى كل المذاهب . . ثم إن الحرية التى هى أساس لها ، ترفض أى قيد مذهبى . .

قال زميل : كلام فارغ . . مادامت ترفض المذاهب الأخرى ، فهذا موقف سلبى . وهذا الموقف مذهب . . وإلا فما الذى تقوله فى كل هذه القصص والمسرحيات والقصائد ؟ . . لا يمكن أن يكون كل ذلك رفضا لأية فكرة . . أريدك أن تتصور أن يظهر ثلاثة ممثلين على المسرح فيقول واحد للآخر : لا أريد أن أمثل ، ويرد عليه الثانى : ولا أنا . . أما الثالث فلا يقول شيئا ، إنما يختفى وراء الكواليس . . فهل هذه مسرحية ؟ . . إنها رفض لأن تكون هناك مسرحية . ولكن إذا فرضنا أن هذا رفض للمسرح أو للفنون المسرحية ، فيجب أن نسمع ونرى تفسيرا لذلك . . وما تفعله الوجودية هو تفسير لهذا الرفض وتبرير له أيضا . فهى مذهب ما فى ذلك شك !

وقال زميل : إننى أجد فى شعر العقاد معانى فلسفية وجودية . . بل إن الحساسية الشديدة التى عند العقاد بالنسبة لحريته ، هى قمة الوجودية . . وإذا تساءلنا ونحن قد فعلنا ذلك كثيرا : ما هى بالضبط فلسفة العقاد ؟ .. قلنا : إنها فلسفة الحرية ، فالرجل يقدس الحرية والكرامة . . وكل مشاكل العقاد عبارة عن إصابة مباشرة لحريته فى الرأى والكتابة . . والعقاد سياسيا هو رجل ليبرالى . . وإن كان فى بعض الأحيان يبدو متشددا أو متزمتا محافظا . . مواقفه من الشيوعية مثلا . من الممكن أن يرفضها ، وقد رفضها ، كثيرون . ولكن لماذا هو عصبى هكذا ؟ .. إن الشيوعية تمس العقاد فى مناطق حساسة من فلسفته . . هذه المناطق الحساسة هى حريته وإيمانه العميق . . ثم شىء آخر هو نوع من الغرور . . فالعقاد كان من الممكن أن يكون شيوعيا ، لو أن الشيوعيين ذهبوا إليه واستأذنوه فى دخول مصر . . إن العقاد لديه إحساس بأنه « والى مصر » وحارسها وراعيها . . وكل ما حدث هو أن الشيوعية دخلت مصر دون تصريح الأستاذ العقاد ! ..

وقال زميل لم تعجبه هذه السخرية من العقاد : إن الشيوعيين فى استطاعتهم أن يركبوا موجة العقاد فى هجومه على النازية والفاشية . . لولا أن العقاد يرى أن الشيوعية والنازية والوجودية مذاهب

هدامة . . الشيوعية تهدم الفرد لحساب المجتمع ، والنازية تهدم الفرد لحساب الدكتاتور ، والوجودية تفسد الفرد لأنها تدلله وتدوخه فلا يعرف له رأسا ولا ساقا ولا طريقا . . ثم تجعله بعد ذلك يجد اللذة فى العذاب ! . .

وقلت : أليس من الوجوديين فلاسفة مؤمنون ؟ . . هناك الفيلسوف الإسرائيلى مارتن بوبر . وهو أحد حاخامات المذهب الحاسدى . . والفيلسوف الروسى برديانف وهو أرثوذكسى . والفيلسوف الفرنسى جابريل مارسيل وهو بروتستانتى ، والفيلسوف الاسبانى أونا موتو وهو كاثوليكى . . وعبد الرحمن بدوى وهو مسلم . وله أشعار صوفية . . وعندما حاول أن « يتبذل » كتب قصة « هموم الشباب » بدأها جنسية ثم انتهى بها سياسية . . لقد كان فيلسوفا مراهقا فى الجنس وفى السياسة . ولم يذهب إلى أبعد من ذلك . . ولكن الجسور التى أقامها عبد الرحمن بدوى ، أكثر بكثير جدا من البيوت التى أقامها . . وعبد الرحمن بدوى فى الفلسفة مثل المرشدين السياحيين فى منطقة الأهرام والكرنك والقلعة . . إن مفهوم الحرية عندنا – أى الوجوديين – كالحرية التى يمارسها رجل فى جزيرة . . مثل روبنسون كروزو فى الرواية المشهورة من تأليف دانيل ديفو . . أو مثل حرية « حى بن يقظان » التى كتبها الفيلسوف العربى ابن طفيل نقلا عن الفيلسوف ابن سينا . . وحى ابن يقظان هذا خرج من تربة جزيرة « واق الواق » . . إنه ولد من عناصر الأرض. خرج منها ، كما خلق الله آدم من الأديم – أى من التراب . . ولما بدأ يحبو تبنته غزالة . . وأرضعته . . وظل يترقى فى إدراكه وإحساسه حتى أصبح عاقلا جدا . . وعندما أصبح عاقلا بدأ يتحرك على شكل دوائر ، تماما مثل حركة الكواكب . . فما هى حرية حى بن يقظان ؟ حريته هى أن يفعل أى شىء . . فلم ير أحدا قد سبقه إلى شىء . . ولو ترك الإنسان وحده لكان مثل حى بن يقظان . . ولكن الإنسان ليس وحده . . ولأن المجتمع قد سبقنى إلى الوجود بقواعده وقيوده وتراثه . . فالمجتمع قيد من القيود . . وحريتى هى أن أختار أخف القيود . . ولا أستطيع أن أهرب من قيود إلا لكى أدخل فى قيود أخرى . . فقيود المجتمع مثل جاذبية الأرض ، فأنا مشدود إليها سواء أحسست بذلك أو لم أحس . . وفى الحرب الأخيرة كان الألمان يلقون بجنود المظلات وراء خطوط العدو . . وهؤلاء الجنود معهم خرائط ، وهذه الخرائط تحدد وتسدد خطاهم فى أرض العدو . . ولكن مشكلة الإنسان الوجودى أنه كالذى سقط فى أرض معادية . وليست معه خريطة . . أنه يحاول أن يكتشف ذلك بنفسه . . ومن هنا كانت الحرية عبئًا ، لأنها قرار يومى . . قرار تتخذه كل لحظة . . ويكون هذا القرار مطلقا نهائيا . . نحن نختار ، ونحن نواجه المقاومة . . ونحن ندفع الثمن . . .

ولما وجدت أن الرءوس قد تباعدت . . أو أن حائط الإصرار على المناقشة قد تصدع ، وأن من الصعب علينا أن نتقارب أكثر ونفكر أعمق ، قلت مداعبا ، على طريقة الأستاذ العقاد ، وإن كنت

لا أستطيع أن أجاريه فى الضحك فقد كان الحزن والأسى والهم من معالمى . لماذا ؟ لا أعرف . .
قلت : ونحن أطفال كنا نذهب إلى حديقة فى عزبة الدكتور عبد الحى البرعى ، وهو أحد أقاربى . .
وكان مستأجر الحديقة يقول لكل منا : ادفع قرشا واملأ بطنك . . فكان الواحد منا يدفع قرشا . .
ويدخل الحديقة يختار أحسن أنواع الجوافة . . ويأكل ما يعجبه . . وهو بكامل حريته . . حريته فى اختيار أحجام الجوافة . . ولكن مهما أكل فهو محكوم بحجم معدته . . أى لابد أن يأكل ما تقدر المعدة على استيعابه . . قد يأكل خمس حبات جوافة . . أو حتى عشر حبات . . فهو حر تماما . .
ولكن حريته وقفت عند حد . . هذا الحد هو قدرة المعدة على احتواء هذا الطعام . . فلا توجد حرية مطلقة . . إنما الحرية محكومة بحدودى . . أو حدود الآخرين . . أو حدود جسمى . . أو حدود صحتى . . ويكون من صميم حريتى أن أعطى الرجل قرشا ، ثم أتمشى فى الحديقة دون أن آكل شيئا . . فكأننى عندما أعطيت حريتى ، ألقيت بها فى البحر . .

وظهر الإرهاق علينا تماما . أما ما الذى أرهقنا ؟ .. فهو التركيز الشديد هربا من الضوضاء . . وحرصا على إقناع أنفسنا بأننا على حق ، وأن الأستاذ لم يكن كذلك . ولكن من الذى ينقذنا . . أو من الذى يهدينا . وأعصابنا مرهقة ؟ فالامتحان قريب والوقت ضيق ، والحيرة أمواج هائلة تلقى بنا عند كل شاطئ . . وأحيانا نستسلم لها كأننا جثث لأناس ماتوا منذ وقت طويل . . وأحيانا نحس أننا زوارق هجرها أصحابها يأسا منها أو خوفا على أنفسهم . . وأحيانا نشعر أننا أمواج من الشك وأن الشاطئ هو اليقين . . ونحن نضرب الشاطئ ، ونرتد عنه لنعود إليه . .

ولما نهضنا يصافح بعضنا البعض استوقفنا أحد الزملاء قائلا : أصحاب السعادة والمعالى والفخامة أحرار مصر . . من الذى سوف يدفع الحساب ؟ ! .

ثم استأنف كلامه : آسف لهذا السؤال ، أنا الذى سوف أدفع . . أنا الذى أستحق هذا العقاب ما دمت أستمع إلى هذا الهذيان اليومى . . أنا الذى استأهل هذه العقوبة . حاضر.. سوف أدفع . بكامل حريتى . لأننى أستطيع أن أترككم لصاحب القهوة عم درويش . . وليس أقرب من جماعة الإخوان . . إلا نقطة البوليس ! . .

ولم يهتم أحد بما يقول ، فقد تعبنا ، وقد عودنا هو على أن يدفع ، فهو أكثرنا ثراء ، وهو من أكرم الأصدقاء وألطفهم ، ومن أكثرهم حساسية ، فهو كل يوم يقول : اليوم على حسابى . . فقد جاءتنى فلوس كثيرة من البلد ! . .

وكان ذلك ليلة مولد النبى سنة ١٣٥٦ هجرية ، وتوقفنا ونظر بعضنا إلى بعض ، ولم يسأل أحدنا أحدا . واتجهنا إلى شعبة « الإخوان المسلمين » لآخر مرة . . فقد أصدرت الشعبة قرارا بفصلنا جميعا بعد ذلك . وعلقت هذا القرار على الباب الخارجى . . أما السبب فهو أننا لا ندفع

الاشتراكات . وأننا نجلس ساعات طويلة فى المكتبة ونستهلك مئات الكيلوات من الكهرباء . . ثم إنهم لا يروننا نهارا . .

وقيل : إننا نتناقش بصوت مرتفع ، وإن بيننا عددا من الشيوعيين والمسيحيين . .

وقيل أيضا : إن بعضنا قد نظم زجلا فى السخرية من الشيخ حسن البنا . .

وفى تلك الليلة . . لم نشعر أنها آخر عهدنا بالجماعة . . وإن كان بعض الزملاء قد لاحظ أن على وجوه « الإخوة » ملامح مريبة . . وإن لم يكن أحد استطاع أن يفهم من ذلك شيئا . ويؤكد بعضنا أن حالتنا قد نقلت إلى الأستاذ المرشد أى الشيخ حسن البنا ، وأنه هو الذى اتخذ القرار . وقال إنه كان يعلم بذلك منذ وقت طويل . ولم يشأ أن يضايقنا وفى تلك الليلة وقفت فوق سطوح شعبة الإخوان المسلمين وألقيت قصيدة فى مدح الرسول عليه السلام ، وكانت الأبيات الستة الأولى من هذه القصيدة من نظم والدى يرحمه الله ، فأكملت القصيدة أربعين بيتا . أما المفاجأة الكبرى فهى أنى وجدت الأستاذ المرشد العام بين الحاضرين . ولم أصدق ذلك . فقد لاحظت عندما أواجه الناس ، فإننى لا أراهم ، إنما يتولانى شعور بالخجل أو بالخوف . أو يرتفع ضغطى أو ينخفض ، فأجدنى عاجزا تماما عن الرؤية . . فهل الذى سمعته فى ذلك الوقت كان تصفيقا أو صفيرا بسبب تصاعد الدم إلى رأسى ؟ . . هل ما أزال حتى ذلك الوقت أمشى كأننى نائم . . فأنا مشغول بما فى نفسى عن الذى فى خارجى ؟ . . هل كنت أدرى تماما معنى الذى جاء فى هذه القصيدة ؟ . . هل جاءت مصافحة الأستاذ المرشد العام فاترة كما أحسست ؟ . هل أنا الذى لم أدرك بوضوح ما الذى قيل وما الذى حدث ؟ . . لا أدرى . . هل كانت تلك الليلة نهاية حزينة حقا . . أو أنه الإرهاق والتعب والشقاء العقلى هو الذى جعل طعم الأشياء مرا ، وصوتها صفيرا ، وجعل المسافات بعيدة جدا . . فكل شىء ظهر صغيرا . . أو لم يظهر تماما ، كأن الأستاذ المرشد عندما نهض من مقعده واتجهت إليه العيون والآذان ، سحبها جميعا معه . . فلم تعد لأحد عين أو أذن . . إنما صمت وظلام ؟ . . نعم هذا ما أحسست به . وأحسست بالهواء البارد فوق السطوح . وضربنى الهواء وتحول العرق على وجهى إلى قطع من الجليد . . وأعتقد أننى ظللت أسعل وأعطس شهرا بعد ذلك . .

* * *

ثم هذا الحوار الطويل . . .

– ولدى

– نعم

– إلى أين ؟

– لا أعرف .

– ماذا تريد من هذا الذى تقرؤه أو تتعلمه ؟ . . ألم تفكر فيما سوف تعمل بعد ذلك ؟ . .

– لم أفكر . .

– إذن يجب أن تفكر من الآن . . إنك بعد شهرين سوف تتخرج فى الجامعة . فإلى أين ياولدى ؟ . .

– إلى أين ؟ إلى حيث ذهب الأستاذ العقاد وطه حسين والحكيم وعبد الرحمن بدوى وشوبنهور ونيتشه وهيدجر وأبو العلاء المعرى والإمام الغزالى والموسيقار بيتهوفن . .

– ومحمود أبو شادى

– من هو أبو شادى ؟

– إنه أعز أصدقائك الذى اختفى منذ سنة . .

– إنه سافر إلى أمريكا .

– هذه التى تسمونها أمريكا هى مستشفى الأمراض العقلية بالعباسية . .

– كيف ؟

– كما أقول لك ياولدى ! هل تعرف لماذا كانت الأديان ؟ .. لقد جعلها الله راحة من هذه الدوخة العقلية . . من هذه الدوامة المذهبية . . من هذه « الثأثأة » الفلسفية . . إنك لم تقارن بينك وبين كل زملائك . . إنك لست مثلهم . . إنهم جميعا من أولاد الأغنياء . . إنهم يجدونك « فرجة » وتسلية . أنت فقط حديث لهم . . فكل واحد يعود إلى أهله فيسألونه : ماذا قال فلان ؟ . . ويذهب كل واحد إلى فراشه وينام . . وتتجدد هذه التسلية كل يوم . . أما أنت فغير ذلك . . أنت مختلف يا ولدى . . إن الذى تتعلمه هو سلعتك الوحيدة . . من غيرها لا طعام . . ومن غيرها لا قدرة على مواصلة التفكير . . فالتفكير ضرورة . فإن لم تفكر فسوف تموت جوعا . . وأنت الذى قلت لى ذلك يوما . . ويبدو أنك نسيت . . أنت الذى قلت لى يوما إنك « فكرانى » – على وزن « فكهانى » أى تبيع أفكارا . . فما الذى سوف تبيعه ؟ .. وأين يا ولدى ؟ . . إن زملاءك ليسوا فى حاجة إلى أن يبيعوا . . فعند آبائهم الكثير الذى يغنيهم عن هذه الأفكار الشاقة المؤيدة .

هل قال لى أبى ، يرحمه الله ، كل ذلك ؟

هل أنا الذى تخيلت أن حواراً قد دار بينى وبينه ؟ . . اننى فى « مذكراتى » لم أوضح ذلك . . إنما سجلت هذا الحوار كأنه بينى وبين ضميرى . . وكانت هذه أول مواجهة بينى وبين نفسى ، فلم أكن قد فكرت مطلقا فيما بعد – أى فيما بعد التخرج فى الجامعة . . ما الذى أفعله ؟ . . ومن الذى

أذهب اليه ليدلني على ذلك ؟ . . فقد فوجئت بأن الدراسة انتهت . وأنني لا أستطيع أن أظل أدرس إلى غير نهاية . .

هل شاء الله أن يمد فى عمر والدى أربعين يوماً لكى أستمع منه إلى هذه النصيحة ؟ إن الأطباء قرروا أن ساعاته محدودة جدا . . ولكن إرادة الله قد جعلت هذه الساعات التى حددوها بالعشرات طالت إلى ألف ساعة بين النوم واليقظة . . أو بين اليقظة التى هى أقرب إلى النوم ، والنوم الذى هو أقرب إلى الموت . . وعند صحوة الموت سمعت منه هذه الكلمات . .

وأفقت تماما . وأفزعنى ذلك . . فقد كنت مثل الذى يمشى مغمض الجفنين ، أو معصوب العينين . وفجأة وجد نفسه أمام قرص الشمس . . فبهره الضوء فأصبح أشد عجزا عن الرؤية . ولكن انتهى عصر الظلام والصمت . . ليبدأ عصر آخر لم أكن مستعدا له تماما . .

وتذكرت رواية « تاييس » لأديب فرنسا أناتول فرانس . . فتاييس هذه راقصة فى الإسكندرية . تعبت من اللهو والسهر والرذيلة . . فقررت أن تدخل الدير . .

وفى نفس الوقت ضاق أحد الرهبان من حياة الزهد والتقشف والبعد عن الحياة وملذات الدنيا . فقرر أن يذهب إلى الإسكندرية يستدرك ما فاته . .

وفى منتصف الطريق التقت تاييس والراهب . .

ولم تكد تراه تاييس حتى انحنت عند قدميه تقول : اننى من أجل مثل حياتك النظيفة الشريفة ، هربت من وكر العار والحيوانية ، فأنت آخرتى . .

وقال الراهب : وأنا هربت من برودة الدير وظلامه ، وهربت من ارتكابى لجريمة يومية هى أن أقتل إنسانيتى . . إننى ذاهب لكى أراك فى الإسكندرية ترقصين وتشربين وأنا أيضا ، فأنت دنياى ! .

ولم تفلح فى إقناعه أن يعود ، ولا هو أفلح فى إقناعها أن ترتد . .

ووقفت أنا على باب الدنيا وقفة راهب وراقصة . . راهب يريد الدنيا . وراقصة تريد الآخرة . . ولم أكن مثل الراهب ، إنما كنت أقرب إلى الراقصة . . راقصة بدائية تدور حول النار ، وتتمايل على إيقاع الطبول . . ولم تكن هذه الطبول إلا مذاهب فلسفية . . ولم تكن النيران الا عشقاً للعلم والمعرفة . .

أو لعلى كنت راهبا راقصا . . فنحن فى ذلك الوقت كنا على هامش الحياة وعلى هامش الرهبانية . . على أطراف الحياة . . على أطراف أصابعنا نمشى ، وبأطراف أصابعنا نتحسس جدران الجامعة والاديرة والجمعيات والحدائق ومدينة الملاهى . .

فلا أنا الراهب الذى ضاق بالزهد . . ولا الراقصة التى ضاقت بالرذيلة . .

ولا حتى « رابعة العدوية » التى هجرت مواخير مدينة البصرة لتتوب إلى الله من خطاياها . . فقد كنا بلا خطايا . . إلا خطيئة التفكير . .

ومطلوب منا الآن : التكفير عن التفكير .

ولا أدعى أننى اخترت الفلسفة . . إنما وجدتنى كذلك ، لأسباب كثيرة !

وعلى بابه جلسنا نقرر نهائيا : نحن شيء آخر

لم نتعلم من الأستاذ العقاد شيئا كثيرا . . أوكان من الممكن أن نكون تلامذة أفضل مما كنا . فقد كنا نخاف منه على أنفسنا . . نخاف من ضوئه الباهر أن ينفذ إلى أعماقنا فيفضحنا أمامه . . أوكنا نخاف من عظمته أن تبدد أقدارنا المحدودة . . كان عقله كالشمس المتوهجة ، وكانت عقولنا لها طبيعة الشمع أو طبيعة الزبد ، وكنا نخاف عليها أن تذوب . . فلا نكون شيئا . . ولذلك كنا نجلس أمامه وقد انحنينا احتراما له ، وإخفاء لما عندنا وهو قليل ، ووقاية لقلوبنا وعقولنا وكنوزنا الفكرية . . لولا هذا الخوف على ما عندنا لانفتحنا له أكثر ، وتمددنا فى شمسه ونعمنا بظلاله . ولكن عذرنا أننا كنا صغارا . .

ولذلك كانت لنا أسرار نخفيها عنه. . وكانت لنا لغة خاصة . وكنا نعتقد أننا أبناء عصرنا ، أما هو فابن العصر الذى ذهب . . إذن فنحن أكثر ارتباطا بالحاضر والمستقبل من الأستاذ . وكان ذلك خطأ لم نكتشفه إلا فيما بعد .

فقد كان فهم الأستاذ للفلسفة التى ندرسها أحسن وأدق وأوضح . وكان مزاجه الفلسفى أسلم من مزاجنا . . ولم نعرف ذلك . أو لم نشأ أن نعرف . ولو عرفنا فلن نسلم له بذلك . وضاعت علينا هذه الفرصة . كما تضيع كل يوم ملايين الفرص على الأبناء وهم يستمعون إلى نصائح آبائهم . فكل حديث بين أب وابنه تبرز فيه شهادة الميلاد . فالابن يشعر أنه أصغر ، فهو لذلك على حق . وأن الأب أكبر فلم يعد له حق . وينسى الابن أن فارق السن هو فارق فى التجربة وحسن التقدير . . وأن شهادة الميلاد ليست مؤهلا . . فالأب الكبير كان صغيرا يوما ما . والابن سوف يصبح كبيرا يوما . فشهادة الميلاد هى تسجيل لنقطة البداية فى سباق طويل . . وليس الذين بدأوا أخيرًا أفضل من الذين بدأوا قبل ذلك . .

وكنا صغارا وكانت شهادة ميلادنا ذات ورق متين وحروف واضحة . . وكنا نتصور أن هذه الشهادة مثل قاعدة التمثال نقف عليها فنكون أطول وأعلى وأعظم . . لقد كان من الممكن أن نتعلم من الأستاذ أكثر وأعمق . . ولم نعرف هذه الخسارة إلا بعد ذلك . .

فعلى الرغم من أننا درسنا الفلسفة وتخصصنا فيها . وقرأنا أكثر مما قرأ ، فإنه كان أوضح وأسرع إلى

معرفة أعماق أى مذهب فلسفى . فقد قرأت فى الفلسفة الوجودية أضعاف أضعاف ما قرأ الأستاذ . لا شك فى ذلك . وقرأتها بلغات كثيرة لا يعرفها الأستاذ . ولكن يوم كتب الأستاذ عنها كان أدق وأعمق . ولكننى فى ذلك الوقت لم أتنبه إلى ما نشره الأستاذ تعريفاً بهذا « المذهب » الذى ليس سهلا . ولا وجدت الذى كتبه الأستاذ شيئا قيما . .

ففى أوائل الخمسينات أصدر الأستاذ أحمد الصاوى محمد مجلة « الشهر » . وكانت أكثر المجلات العربية فخامة وجمالا . والأستاذ الصاوى كان من أكثر الصحفيين « شياكة » فى العبارة . وهو صاحب الكتب الأنيقة التى بهرتنا بشكلها ومضمونها بعد الحرب العالمية الثانية وأثناءها . ولا أذكر بوضوح كيف كانت المجلة التى أصدرها بعنوان « مجلتى » . لم أتابعها ، فليس فيها ما كان يعجبنى من دراسات فلسفية جادة – يكفى أن الأستاذ العقاد لا يكتب فيها . وكانت للأستاذ الصاوى كتب ذات عناوين مثيرة مثل : الرقص على البارود . . أو الشيطان لعبته المرأة . . والمرأة لعبتها الرجل . . وكتب أخرى فى الأدب الفرنسى مثل رواية « تاييس » لأناتول فرانس . . أما هذه الكتب فكانت أنيقة الأغلفة ، جميلة الخط مصقولة الورق : تحفة أدبية . والأستاذ الصاوى كان له شعار تجارى فكاهى يقول : أنت مع الصاوى تكسب دائما . وهذا صحيح . وكان الصاوى يكسب دائما أيضا . أنت تكسب معلومات وأدبا وفنا جميلا . وهو يكسب مالا كثيرا . ولابد أن عشق الأستاذ الصاوى للسجاجيد العجمية ، هو الذى جعله يعشق الأغلفة الجميلة . فكما تتغطى الكتب بالأغلفة الجميلة ، تتغطى الأرض والجدران بالسجاجيد العجمية . .

وكان من المشاهد العجيبة فى القاهرة أن تجد رجلا كبير الرأس أصلع غليظ المنظار عريض الكتفين قصير القامة طويل السيجار ، قد انحنى على أرض شارع قصر النيل يقلب بأصابعه فى السجاجيد العجمية . . أو يزاحم الناس فى المزادات : إنه الأستاذ أحمد الصاوى محمد . .

وفى ذلك الوقت كنت محررا فى الأهرام ومدرسا للفلسفة فى الجامعة ، وكان الأستاذ الصاوى يكتب ثلاثة أبواب يومية فى الأهرام ، فى الصفحة الأولى « ما قل ودل » ، وفى الصفحة الثالثة : « إبر النحل » ، وفى الصفحة العاشرة : « زكيبة البريد » وكانت هذه الزكيبة تزدان برسومات كاريكاتورية بريشة كمال الملاخ .

وفى ذلك الوقت كنت أكتب كل يوم القصة القصيرة للأهرام . كل يوم لمدة ثلاث سنوات – أى أكثر من ألف قصة قصيرة دون أن يكون مسموحا لى بأن أوقع باسمى ، أو بحرف واحد أو حرفين . يكفى شرفا لأى أحد أنه يكتب فى الأهرام وأن الأهرام تنشر له . وفى ذلك الوقت كنت أترجم الرسائل التى تبعث بها مراسلة الأهرام فى باريس واسمها « أليس باخوس » . . أما رسائلها فكانت عن الأزياء . . وأنا أول من كتب عن موضة « نيولوك » لكريستيان ديور . . ولما انتشرت هذه الموضة فى

مصر. لم ألاحظ ذلك ! فأنا ترجمت ما قرأت . وتفننت فى توضيحه . وكان يراجع أسلوبى فى الكتابة شيخ أزهرى اسمه الشيخ أحمد العسكرى . وهو رجل قد وضع رجله فى الأزهر الشريف وكسروها لأسباب غير شريفة . ومع ذلك كان لابد أن يوقع باسمه على كل ما أكتب تصريحا له بالنشر. كيف ذلك ؟ لم يكن من حق أحد أن يسأل !

كنت هكذا ، وكان الأستاذ أحمد الصاوى محمد فى القمة الصحفية واللياقة الأدبية والوجاهة الاجتماعية . .

وفى يوم دعانى مع صديقين آخرين : هما الأستاذ الفنان عبد السلام الشريف ، والأستاذ الفنان حسن فؤاد . وكان الخبر سعيدا ، فقد قررت السيدة لطفية العبد أن تصدر مجلة شهرية . وقد كلفت الأستاذ الصاوى أن يكون رئيسا لتحريرها . ولا أدعى أننى أعرف من تكون هذه السيدة . إنما قيل لنا فى ذلك الوقت إنها ابنة الأميرة شويكار . يكفى أنها أميرة ابنة أميرة ،وأن الأستاذ الصاوى هو رئيس التحرير ، ومع الصاوى سوف أكسب دائما ، وأن المقالات التى سوف أنشرها سوف أضع اسمى فى أولها وفى آخرها . . ورغم أننى فى ذلك الوقت كنت محررا فى جريدة « الأساس » ومحررا مرموقا فى « روز اليوسف » وفى ذلك الوقت تنبأ لى الأستاذ إحسان عبد القدوس بأننى سوف أكون شيئا يجمع بين العقاد وطه حسين والحكيم وسارتر، ولكن أن يختارنى الأستاذ الصاوى لأكون المحرر الوحيد للعمل كان تكريما . وشىء آخر غريب قد حدث لأول مرة فى حياتى . . لقد سألنى الأستاذ الصاوى : كم تحب أن تتقاضى أجرا ؟ . .

لم أسمعها فى ذلك الوقت . ولم أعرف ما الذى يمكن أن أقوله . فنحن عادة نذهب إلى أية جريدة ونعلن رغبتنا فى العمل . ونترك التقدير المادى لرئيس التحرير . . إلا هذه المرة . وكان ذلك موقفا فلسفيا وجوديا : ما الذى أستطيع أن أقوله ؟ هل أقول ؟ هل أسكت ؟ هل أقرر مبلغا من المال يعادل مرتبى من الأهرام والأساس والجامعة وروز اليوسف ؟ . . هل أختار مبلغًا أكبر؟ . . هل هو يريدنى أن أتفرغ لهذه المجلة ؟ . . كان السؤال غريبا وكانت حيرتى أمامه طبيعية . .

ولكن الأستاذ الصاوى جردنى من كل هذه المزايا ،وحرمنى من الحيرة فى اتخاذ القرار . وقال: إنها مجلة شهرية . وأنت سوف تكتب مقالا واحدا . وتساعد زميليك فى الاتفاق مع عدد من الكتاب على المساهمة فى المجلة . فأنتم الثلاثة سكرتيرو التحرير . .

أى أن المبلغ ليس كبيرا لأن العمل قليل . . والأستاذ الصاوى يعرف المبلغ الذى أتقاضاه من الأهرام فى ذلك الوقت منذ سنة ١٩٥٠ . إنه لا يتجاوز الأربعين جنيها ثمنا لثلاثين قصة قصيرة أضيفت إليها « مذكرات روميل » التى نشرتها صفحة كل يوم لمدة ستة أشهر ، ثم المقالات عن الفساتين والموضات الباريسية . .

ولكن الأستاذ الصاوى الذى يكسب معه الإنسان دائما قدر مكافأة شهرية ضعف مرتبى فى الأهرام . وقبلت . وكانت لنا شقة صغيرة فى عمارة ايموبيليا قيل إنها كانت شقة خاصة لصاحب جريدة الأهرام السيد بشارة تقلا . وانتقلنا إلى الشقة الصغيرة وكانت من غرفتين . الغرفة الفخمة يجلس فيها الأستاذ الصاوى أو السيدة لطفية العبد إذا جاءت . أو زوجها . أما غرفتنا فقد كانت مثل غرف التعذيب أو الاعترافات فى مباحث أمن الدولة أو المخابرات . فأحد حوائطها به أربعون مصباحا تضاء فى وقت واحد . أما نحن فنعطى لهذه المصابيح ظهرنا وننكفئ على مكاتبنا . وكنت أحسن حظا من الزميلين عبد السلام الشريف وحسن فؤاد . فلم أكن فى حاجة إلى أن أبقى فى المكتب إلا ساعة من أى يوم . .

وبدأت عملى فى المجلة بأن ذهبت إلى الأستاذ العقاد . وطلبت منه مقالا عن « الوجودية » ووافق الأستاذ فورا . ثم قلت للأستاذ : أرجو أن يكون بحثا طويلا . .

ولو قلت للأستاذ : اجعله من عشرة سطور لوافق فورًا . ولو قلت له اكتبه فى عشرة آلاف سطر لوافق أيضا . وهو يحب أن يطلب منه الناس ذلك . لأنه لا شىء يحرجه . أو لا شىء يورطه ، فهو قادر على كل المساحات ، وكان يقول لنا : إن المذهب الفلسفى الصحيح هو كما وصفه أديب روسيا تولستوى . فقد قال تولستوى : إن المذهب الفلسفى الواضح هو الذى يمكن تحديده فى خمس دقائق . .

وأسعدتنى موافقة الأستاذ على المقال . وذهبت أزف هذا النبأ إلى زميلى . وبدأنا نتخيل مساحة المقال وموقعه من المجلة . ونقلت هذا الحدث الجليل إلى الأستاذ الصاوى . وبعد يومين تماما اتصلت بالأستاذ فطلب منى أن أحضر إلى بيته لكى أتسلمه ، وشكرت الأستاذ بسرعة . هل كان يريدنى أن أقرأه فى حضوره ؟ . . لا أعرف . ولو طلب منى ما استطعت . هل أراد أن يعرف رد فعل المقال على عقلى ، لأنه قد هاجم الوجودية بمنطق عنيف ؟ . . لم ألاحظ ذلك على وجه الأستاذ . ولا أظن أننى قد نظرت إلى وجهه بدقة . إنما نظرت إليه عموما وإلى يديه خصوصا وإلى المقال وشكرته وانصرفت . . وجلست فى مكتبى أقرؤه . ولم يعجبنى . ولكن هذا لا يهم . إن الأستاذ قد وعدنى ووفى بالوعد وأعطانى هذا البحث الذى لم أجده قيما – وكان ذلك حكما خاطئا . ولكننى مثل كل المحبين مصاب بالعمى . ومثل كل الدراويش فى غيبوبة لا أفيق منها . .

وصدرت المجلة وتناقشنا فى مقال الأستاذ . واتفقنا على أنه ليس جيدا . وتجرأ بعضنا فسألنى : كيف تنشر مقالا كهذا ؟ . .

كيف لا أنشر مقالا للأستاذ العقاد ؟ بل كيف لا أنشر أى شىء للأستاذ ؟ إنه مقال عظيم . قلت ذلك متحديا . وإن كنت أرى أنه ليس شيئا عظيما .

وبعد أيام اكتشفت أننا لم ندفع مكافأة للأستاذ على مقاله . . وذهبت إلى الأستاذ الصاوى الذى وعدنى بأن أتسلم مكافأة الأستاذ فى اليوم التالى . وكانت المكافأة ثلاثين جنيها . وقابلت الأستاذ فى إحدى المكتبات . وطلب منى أن أرافقه إلى البنك . وسرت معه . هو يمشى وأنا إلى جواره . . وهو لا يتكلم . وأنا أتخبط فى الناس . ووقفت أمام شباك البنك الأهلى . وقدم الأستاذ الشيك . وحدث شىء غريب جدا . لقد وقف الموظف وقد احمر وجهه . واعتذر للأستاذ أنه لا يستطيع أن يصرفه : مع احترامى العظيم لك يا أستاذنا العظيم . . أنا آسف . .

قال الأستاذ : لماذا يا مولانا ؟ . .

قال الموظف : لأن الشيك يا أستاذنا العظيم مع كل احترامى وتقديرى لك به شطب . . يبدو أن المبلغ كان عشرين جنيها ، ثم أدخل عليه تعديل . . فأصبح ثلاثين جنيها . . صحيح أن التعديل بنفس الخط . . ويوجد إلى جواره إمضاء يدل على إقرار كاتب الشيك بهذا التعديل . ولكنى لا أستطيع أن أصرفه . أنا آسف جدا يا أستاذنا العظيم . .

ولم أفهم شيئا من كل الذى قيل . فلم أكن قد ذهبت إلى أى بنك فى حياتى . وكل الذى فهمته بصورة صاعقة أن الأستاذ قد استرد الشيك ومزقه فورا . وتركه فى شباك البنك ! !

أما ما الذى حدث بعد ذلك . فلا أذكره مطلقا . كيف خرجت من البنك ؟ كيف إننى عندما أفقت لم أجد الأستاذ ؟ هل قال شيئا ؟ . . هل قلت شيئا ؟ . . كان يوما أسود . . أوكان يوما طويلا لا ليل له ولا نهار . . بل إن القاهرة فى ذلك الوقت قد خلت من الناس ومن الأشياء . . بل إن الهواء استرد ما به من أوكسجين . . ووجدتنى واقفا أمام محل « البن البرازيلى » والناس أمامى كأنهم فى حمام سباحة . . يعومون ويغوصون . . وكأننى أيضا تحت الماء . . وفى يدى فنجان قهوة . . كيف جئت إلى هذا المكان ؟ . . كيف يمكن أن يكون الإنسان هكذا موجودا ومعدوما فى نفس الوقت ؟ . . كيف يمكن أن يكون الإنسان هكذا فى غيبوبة ثم يمشى دون أن يصطدم بالناس أو تدوسه العربات . . ثم يهتدى إلى هذا المحل ويطلب قهوة باللبن بدون سكر ثم يدفع الثمن . . ويحمل الفنجان ويقف أمام الباب . . ويطلب إلى ماسح الأحذية أن ينظف حذاءه . . وأن يسمع دقات ماسح الأحذية بأن يضع قدما وينزل قدما . . ثم يخرج من جيبه بضعة قروش ويعطيها له ؟ . . ثم كيف اكتشف بعد ذلك أن عبد السلام الشريف وحسن فؤاد واقفان إلى جوارى ، وأننى أنا الذى دعوتهما إلى شرب القهوة . وأن واحدا منهما قال لى : إذن فما العمل ؟ . .

فقلت : فى أى شىء ؟ !

قال : فى هذه المصيبة التى تحدثت عنها . .

إذن فلقد تحدثت إليهما أيضا عن فضيحة الشيك . . كل ذلك دون أن أدرى !

وفى اليوم التالى طلب منى الأستاذ الصاوى أن أذهب إلى السيدة لطفية العبد . وأروى لها هذه القصة بنفسى . ولم أكن قد رأيتها . ولا أعرف ما الذى يمكن أن أقوله لها . ولا أعرف لماذا تركنى الأستاذ الصاوى أتولى الدفاع أو التفسير لما حدث . . ولكن الأستاذ الصاوى ساعدنى قائلا : إن العقاد أستاذك العظيم . . وأنت الذى طلبت إليه أن يكتب بحثا طويلا وليس مقالا قصيرا . . فهو لذلك يستحق مبلغا أكبر. قل لها كل ذلك . ولا تخف ! . .

ولا أخاف من ماذا ؟ ولكى أدفع الخوف أو الحرج أو النقد عن نفسى ارتديت بذلة وكرافتة - ومن النادر أننى كنت أفعل ذلك . وبذلك تفاديت أية نظرة منها أو من أى أحد تربكنى أو تلخبطنى . ثم اشتريت حذاء جديدا . ولسوء الحظ كان ضيقا . ولكنى حمدت الله أننى ذهبت إلى بيت الأميرة فى تاكسى . وأسلمنى سفرجى إلى سفرجى إلى سفرجى . وأدخلونى من غرفة إلى غرفة إلى غرفة . . لينفتح باب وأجدنى أمام عدد من النساء يضحكن . . وجاءنى صوت من جانب من الصالون الضخم الفخم لا أعرف من صاحبته ، ولكن عندما سمعت اسمى وأننى أعمل فى مجلتها الجديدة . وأننى مدرس الفلسفة فى الجامعة رغم صغر سنى . . فقد شجعنى ذلك على أن أسترد بصرى . . فقد خيل إلى وأنا أزيل عرقى أننى أزلت عينى وأذنى أيضا . وجاءت هذه الكلمات تصريحا بأن تكون لى عينان وأذنان . . وشفتان . وخيّل إلىّ فى تلك اللحظة أننى شخصية فى إحدى المسرحيات الوجودية . . وأن المؤلف قادر على استدعاء أشخاصه بكلمة واحدة . . فيقول لهم : تعالوا . . فيتزاحمون على قلمه . . إن هذه اللحظات الوجودية يحس فيها الكاتب أنه إله . . أو نصف إله . . والله سبحانه وتعالى يقرب هذه المعانى إلى عقولنا عندما يقول : « إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له : كن . . فيكون » وكذلك يفعل الوجوديون . . أو أننى توهمت ذلك .

ومع هذه الصحوة الوجودية قلت للأميرة : يا سمو الأميرة . . إن الأستاذ العقاد عندما ذهب يصرف الشيك رفضوه . فزقه . .ولو كنت مكانه لمزقته مرة أخرى يا سمو الأميرة، لأن المكافأة قليلة لا تتناسب مع مكانته العظيمة . .

وكانت الأميرة قد نسيت أن العقاد قد أخذ مكافأة . وقالت : إن الأستاذ الصاوى قال لى إنه كتب صفحة واحدة . .

أى أنها لم تقلب فى مجلتها . . وأنها أعطت الأستاذ مكافأة على صفحة . فالصفحة عندها تساوى ثلاثين جنيها . والأستاذ كان قد كتب عشرين صفحة . .

وأشارت إلى أحد ، لعله الجرسون أو السكرتير . إنه رجل أسمر أنيق يرتدى بذلة سوداء . . لم تقل له كلمة واحدة . . إنما أشارت بأصابعها . . فاختفى وأتى لها بصينية عليها دفتر شيكات وقلم . وانحنى واختفى . ومضت الأميرة تستأنف كلامها مع بقية السيدات . وكان الكلام باللغة الفرنسية .

أو بالتركية . . ولكن من المؤكد أن أكثر الكلام كان بالفرنسية . . ولما جاءت القهوة . واعتدلت فى مقعدى . تشجعت فنظرت إلى السيدات . . إنهن أميرات الأسرة المالكة . . هذا مؤكد . . ولكن لا أعرف واحدة منهن . . وفجأة سمعت اسمى . توقفت لتضحك السيدات الأميرات . فقد سقطت القهوة على ملابسى . وتزاحم الرجال ذوو البدل السوداء يمسحون البن . . أما الباقى فلا أعرف تفاصيله . . ولكن الشيء المؤكد هو أننى أخذت شيكا جديدا . وفى التاكسى قرأت الشيك عشرين مرة . لقد كان الشيك بحروف واضحة . . وكلمت الأستاذ تليفونيا وطلبت أن أجيء إليه فورا . ولم أمهل الأستاذ ليقول : لا . . أو نعم . .

ووجدتنى أدق باب شقته . . وأدخلنى الخادم إلى الصالون ، وجاء الأستاذ بسرعة . وسلم وجلس . وقال : خيرًا يا مولانا . .

ومددت يدى بالشيك . ونظر إليه الأستاذ بسرعة . ولم يبد الارتياح على وجهه ، فازدادت حيرتى . وقال الأستاذ : ما هذا يا مولانا ؟ . . ما هؤلاء المجانين الذين جمعهم أخونا الصاوى فى مجلة واحدة ؟ . . ثم كيف تريدنى أن أعمل مع هؤلاء الجهلاء الذين لا يعرفون أقدار الناس ؟ . .

ولم أستطع أن أستوضح الأستاذ . فأنا لم أفهم كلمة واحدة . . ولم أستطع أن أحكى للأستاذ مدى عذابى . ولن أقول له ذلك . فإننى أخشى أن يتصور أننى أنا الذى طلبت إليهم أن يغيروا الشيك أو يعدلوا المكافأة . ولكنه قال : ما هذا يا مولانا ؟ . . كيف يرتفع ثمن المقال عندهم بهذه الصورة العجيبة . . فنى مرة جعلوا المكافأة عشرين جنيها . . ثم شطبوها وجعلوها ثلاثين جنيها . . والآن جعلوها مائة جنيه ؟ . . إننى أفضل أن يعلقها الطلبة على الحائط فى الكلية ويقرأوها مجانا على أن أتقاضى عليها ألف جنيه من هؤلاء الأميين . .

ثم مزق الشيك . . وكأنه مزقنى معه !

أما مشاعرى بعد ذلك فهى صورة مكررة من كل ما وصفت قبل لحظات . . وقد أضاف إليها الأستاذ دويا فى أذنى . إن لم يكن صفعة على خدى فهى على قفاى ! .

ربما أدى ذلك كله إلى مزيد من ضيق بما جاء فى مقال الأستاذ العقاد عن الوجودية وأنصارها وخصومها . وإن كان الأستاذ فى مقاله هذا الذى نشرناه قال : إن أنصار الوجودية هم خصومها أيضًا . فهم مختلفون فى كل شيء فى المنهج وفى الأفكار وفى الأديان .

فما هى هذه الفلسفة الوجودية ؟ . . وصفها الأستاذ فى ذلك الوقت : بأنها فلسفة تستحق الاحترام ، ولكن ليس كل الاحترام ؛ لأنها تعبر عن حاجة العصر فى أوروبا إلى من يفسر لهم الشعور بالأسى والحزن والتضحية . فقد سادت أوروبا فلسفات تفرض الدولة على قلوب الناس ، وتفرض المجتمع على الفرد . . وتأخذ من حرية الفرد وتعطيها للحاكم . قد يكون الحاكم فردا . وقد يكون

الحاكم هو الطبقة العاملة ، وفى وجه هذا الطغيان الفردى أو الطغيان الجماعى كان لابد من صرخة ومن ثورة على هذه الأفكار الجماعية الساحقة . . أى التى تسحق وجود الفرد وحريته الشخصية ، فالوجودية – إذن – فلسفة تؤكد قيمة الفرد وحرية الفرد . وترى أن الوجود الحقيقى للإنسان الفرد . . أى لمحمد وعلى وإبراهيم ويوسف . . فالأفراد فقط هم الذين لهم وجود . . أما « المجتمع » وأما « الإنسانية » فليس لها إلا وجود فى عقولنا وخيالنا . .

ويقول الفيلسوف الأسبانى الوجودى « أورتيجا أى جاست » : إن النملة الصغيرة لها وجود حقيق مؤكد ملموس ، أكثر من وجود الإنسانية كلها . . فلا يوجد أحد اسمه الإنسانية . . ولا يوجد أحد اسمه المجتمع . . إنما الفرد هو الحقيقى وهو المؤكد . .

ويقول الأستاذ العقاد أيضا : إن الوجودية تجد لذة فى العذاب . . عذاب الضمير . . أو عذاب الذل والقهر . . وتحاول أن تخرج من هذا العذاب بأى معنى . .

ويقول الأستاذ : إن الفيلسوف الوجودى كامى يرى أن وجود الإنسان لا معنى له . . ولا هدف . . ولكن الإنسان رغم أنه يعلم ذلك فهو لا يكف عن محاولة الفهم . . وهو يضرب مثلا لذلك مأساة الفتى « سيزيف » الذى حكمت عليه الآلهة بأن يتعذب إلى الأبد . . وذلك بأن يرفع حجرا إلى أعلى الجبل فينحدر الحجر إلى السفح . . فيرفعه سيزيف مرة أخرى ويسبقه الحجر إلى الناحية الأخرى فيرفعه . . وهكذا إلى الأبد . .

ولكن الفتى سيزيف – أو الفتى الوجودى – لا ينتقل من عذاب سيزيف إلى ثورة الفتى « بروميثيوس » الذى تمرد على الآلهة وسرق منهم النار المقدسة وأعطاها للإنسان لكى يكون الإنسان ثائرا هو الآخر على الآلهة . . وعلى القدر . . فيكون سيد مصيره وقدره . . كأنه إله أو نصف إله ! . .

وينتهى الأستاذ العقاد من بحثه الطويل إلى أن الوجودية كالشيوعية تماما : كلتاهما مذهب متطرف المزاج ! فالوجودية تبلع حرية المجتمع ، والشيوعية تبلع حرية الفرد . .

ويقول الأستاذ : إن الاعتدال هو الفهم الصحيح والإدراك السليم ، فالفرد يرى أن المجتمع موجود . والمجتمع يرى أن الفرد موجود . وأن التعايش معا هو المنطق السليم . .

وفى عبارة أخرى قالها العقاد : إن الوجودية هى تمرد الفردية فى مواجهة « الزحامية » – أى الجماهير . .

وقد عبر توفيق الحكيم عن ذلك فيما بعد عندما دعا إلى منهج اجتماعى علمى أخلاق هو « التعادلية » أى توازن الأضداد فى الحياة . . الفرد والمجتمع . . السالب والموجب . . التجاذب والتنافر . . فقال الحكيم إن حياة الفرد هى أن يقاوم « الابتلاعية » – أى يقاوم أن يبتلعه الآخرون . . وفى هذه المقاومة والنجاح فيها يؤكد الانسان وجوده أو ذاتيته . . وبذلك تتعادل قوى المجتمع .

ويعتدل المجتمع . وليس ذلك عملا سهلا . إنه جهد شاق . ولذلك فلم تكن « التعادلية » عند توفيق الحكيم مجرد توازنات . .

والحكيم أقرب من العقاد إلى الفلسفة الوجودية . وإن كان الحكيم قد اقترب من الوجودية عندما ألّف مسرحيات لها معنى « العبث » – أى مسرحيات لا منطقية ، فالعبث معناه : أن يكون الشيء بلا معنى . . أو يشعر الإنسان بأنه لا معنى وراء الأشياء . . ولا هدف لهذه الحياة . . والعبث معناه أيضا ألا يتقيد الإنسان بالمنطق العادى للأشياء ، لأن فى حياتنا أشياء أخرى ليس لها منطق . وهى مع ذلك موجودة ومستمرة . فالإنسان لا يفكر بصورة منطقية ، وإنما تفكيره يذهب إلى الماضى ويقفز إلى المستقبل ثم يتخيل ما لا وجود له . كل ذلك فى لحظة واحدة .

والحكيم الفنان يقبل الوجودية . ولكن العقاد المفكر يرفضها – أو يرفض أكثرها . .

وكان من الممكن أن يكون الأديب زكى مبارك وجوديا . فهو رجل عاطفى شديد الحساسية لحريته وكرامته . ثم إنه ليس تقليديا فى أفكاره . بل إن الكثير جدا من اجتهادات زكى مبارك تجعله فى مقدمة النقاد فى الأدب العربى الحديث . ولكن السلوك الاجتماعى لزكى مبارك كان يجرده من كل ذلك . فقد كان رجلا عنيفا فى صداقته وفى عداوته . . فضاعت مزاياه الكثيرة وسط هذه « الخناقات » الشخصية . .

وكان من الممكن أن يكون مصطفى صادق الرافعى وجوديا . فهو رجل شديد الحساسية لما فى اللغة العربية من جمال . وليس له نظير فى الأدب العربى كله فى جميع العصور فى قدرته على خلق الصور وتوليدها بعضها من بعض . إن الذى فعله مصطفى صادق الرافعى فى كل مؤلفاته الشاعرية الوجدانية نوع من القيامة : فقد أمسك نفيرا وراح ينفخ فيه . . فقامت كل الألفاظ وكل المعانى والحيوان والإنسان والأشباح والأفكار . . والأضواء والظلال . . والنار والمطر . . والرعد والبرق . . وراح مصطفى صادق الرافعى بهدوء وصوفية وعشق ينظمها بعضها فى بعض . .

ولذلك كانت الأديبة مى زيادة أقرب فى مذاقها ومزاجها ، إلى مصطفى صادق الرافعى . أكثر من أى أديب آخر . . ربما كانت أقرب إلى فلسفة العقاد ، وأقرب إلى شاعرية جبران خليل جبران . . وإلى رقة إسماعيل صبرى . ولكن من المؤكد أن حساسيتها للكلمات كانت أقرب إلى مصطفى صادق الرافعى . . وهى أقرب إلى الفلسفة الوجودية من أية أديبة عربية – إلا أديبتين ظهرتا بعد ذلك فى الستينات هما : ليلى بعلبكى اللبنانية وغادة السمان السورية . .

ولابد أن يكون الشاعر محمود حسن اسماعيل قد تأثر كثيرا بمصطفى صادق الرافعى . .

ولابد أن كامل الشناوى أيضا قد تأثر بالرافعى ، ولكن كامل الشناوى كان أكثر ذكاء . ولأنه كان صحفيا فهو يعرف ملل القارئ ، ولذلك كانت عباراته فى النثر ذكاء لامعا وفكاهة خاطفة ،

وكذلك كان فى الشعر . ولو قدر لكامل الشناوى أن يختار مذهبا فى الفلسفة أو فى الأدب ما احتاج إلى أن يختار . ولكننا توجناه نحن لا أديبا وجوديا إنما شخصية فى مسرحية وجودية أو فى ديوان من الشعر الوجودى . يكفى أنه قال :

حطمتنى مثلما حطمتها

فهى منى وأنا منها شظايا !

وكنا نمضى الليل والنهار نختار من الأدباء والمفكرين من هو معنا ومن ليس معنا . ولم يكن من الضرورى أن نسأل أحدا منهم : هل أنت وجودى أو لست وجوديا ؟ ولكننا كنا نختار ونحكم على الآخرين بما يرضينا نحن .

وهكذا كانت الوجودية كالحب أعمى ، فالمحب لا يرى إلا محبوبته . ولا يسمع سواها ، ولكن المحب ليس أعمى تماما . إنه رأى محبوبته واختارها . واكتفى بها ولم يعد يرى سواها . . فهو مصاب بعمى الألوان فقط . لا يرى إلا لونا واحدا ، ومصاب بصمم جزئى أيضا : لا يسمع سواها .

واتسع أمامنا الوقت . . وانفتحت الشوارع أذرعا ممدودة . . ولكن هذه الأذرع لا تحتضننا . . وكبرت مدينة القاهرة . . وأصبحنا كالنمل يسرى فى جسدها . . وليست شوارعها إلا سراديب من الأسمنت المسلح . . وإلا سحبا من التراب . . وإلا موجات صارخة من الضوضاء . . إنها الضياع الذى لم نكن ندرى به . . لقد كانت الجامعة محدودة : المدرجات والممرات والمكتبات والشارع الذى يصلنا بالترام . والترام الذى يفرغنا فى مصر الجديدة أو العباسية أو مصر القديمة . . أو حديقة الأسماك . . أو الكيت كات . . أو المركز العام للإخوان . . أو جمعية الأرواح للأستاذ أبو الخير . . أو الطريقة الشاذلية . . أو ندوة البهائيين . . ضياع . . متعدد الألوان . . تماما كالسماء فارغة إلا من السحب المتدرجة الألوان . . ولكن لا حياة فيها . لا طائر ولا طائرة . . إنها اتساع هائل بعيدا عن أيدينا أو عن خيالنا . . إن القاهرة محيط . . والناس أمواج . . أو الهواء هو الأمواج والناس هم السمك أو القواقع . . والسيارات هى القوارب ، ومحل « البن البرازيلى » فى شارع سليمان باشا هو الميناء الذى نتزود عنده بالوقود الأسود المر . .

ولكن لا حل هناك لأى شىء . فالمشاكل كما هى . . إنها مثل « سنام » الجمل قد تكدست على أكتافنا . . ونجترها من حين إلى حين . . والذى يرانا نتكلم يخيل إليه أننا نقول كلاما جديدا . . تماما كالذى يرى الجمل يمضغ يخيل إليه أنه حصل على طعام جديد . . إنه طعام قديم ادخره ليعود إليه فيمضغه . . إننا نشبه الرجل البخيل يغلق بابه كل ليلة ، ويستخرج أمواله من تحت البلاط ، ويظل يعدها طول الليل . . فإذا طلع النهار خاف أن ينام فيسرقها اللصوص . . فكأنه يعدها ويتذكرها ويتعذب بها ، ويتعذب خوفا عليها ، ويتعذب أكثر عندما يتصور أن لصا سوف يسرقها ، وبعد أن

يسرقها اللص يتعذب أكثر لأنه أصبح مفلسا – مع أن شيئا من ذلك كله لم يحدث . . فلا طعام عندنا نجتره ، ولا فلوس عندنا نخاف عليها . . إننا أقمنا لأنفسنا غابة من أشجار كثيفة : بعدد أوراقها علامات استفهام ، أما جذوعها فعلامات تعجب . أما الطيور فهى نقط حائرة فوق الحروف . أما المطر فليس الا عرقا ودمعا ، أما هذا الزئير والعواء والمواء والفحيح والنباح والنعيب والنحيب فى داخل الغابة فليس إلا من صنعنا نحن ، نخيف بها الناس فلا يقترب أحد من هذه المملكة الوحشية الغامضة : الفلسفة الوجودية التى اتخذناها تعبيرا عن قلقنا وفزعنا وحيرتنا بين المذاهب .

ولكن واحدا من الزملاء ، وكان مهندسا لا يفهم إلا الأشياء التى فى وضوح الحساب والمعادلات الرياضية ، قد دعانا إلى بيته . ولم نكد نجلس قليلا حتى أغلق الباب . وقال : أيها الإخوان . . بمنتهى الصراحة . أنا دعوتكم لكى أنهى قضية معلقة . فإما أن تقنعونى وإما أن أقنعكم . أنا لم أدرس الفلسفة ولا أفهم فى الأدب . ولكن لابد أن كل صاحب مذهب دينى أو سياسى يهمه أن يقنع به الآخرين وإلا كان مذهبه هذا عصابة سرية . . ولا أعتقد أنكم تقصدون ذلك . أنا لا أسأل شيئا ولن أسأل أحدا من الناس . إنما سوف أردد عليكم نفس السؤال الذى قلته للأستاذ العقاد . وكان جوابه قاطعا . . طبعا أنتم تعرفون ماذا أريد أن أعرف ؟

قل لى : وأشار ناحيتى . واستأنف كلامه ليقول : أنا الآن مسلم تماما . وأريد أن أكون وجوديا . . فهل هذا ممكن ؟

قلت : ممكن .

قال : كيف . . إذا كانت الوجودية لا تؤمن بوجود إله . . ولا تؤمن لا بالقرآن ولا بالرسول ولا بأى شىء مما نعتقده ؟

قلت : الوجودى هو الإنسان الذى يحس أن كل قرار يتخذه هو مسئول عنه ، ولذلك فأنت حر فى أن تختار أى دين . وأنت ترى أننا نحن جميعا نصلى ونصوم .

قال : إذن فما هو الفرق بين المسلم مثلى ، والمسلم مثلك ؟

قلت : لا فرق . . إلا أننى فكرت فى ديانات كثيرة . . واخترت الإسلام عن اقتناع فلسفى .

قال : ولماذا أوجع رأسى بكل هذه الفلسفات والمشاكل وأتعذب وأتلوى وأتوجع وأمرض . . ثم أختار الإسلام ؟ أنا اخترته دون تعب . واسترحت إلى ذلك . .

قلت : أنت كالذى عثر على حقيبة ففتحها فوجد بها خطابا موجها إليه يقول : يا فلان الفلانى هذه الفلوس كلها لك . حلال عليك . . ولكن أنا وغيرى وجدنا أنفسنا ندرس الفلسفة ونناقش كل كلمة وكل فكرة . ونتقلب على بساط من المسامير كما يتقلب الفقير الهندى . . وندخل الأفران عالية الحرارة ونخرج منها لنلقى بأنفسنا تحت وابل المطر . وقد اعتدنا على ذلك . . ولا اختيار لنا فى هذا

الذى وصلنا إليه . . ثم إننا أيضا فى هذا الطريق الشاق وجدنا مثل حقيبتك . . وتشككنا فيها أول الأمر . . ثم لمسناها وتشككنا . . وفتحناها فى شك . . وقلبناها . . ووجدنا هذا الكنز وأغلقناها . . ثم عدنا ففتحناها بعد وقت وطويل لنجد مثل الرسالة التى وجدتها . . مع فارق واحد هو أن كل الذى فعلناه كان بعصير الإرادة ، وعرق الحرية ، وعذاب النفس . . النتيجة واحدة . هذا صحيح . ولكن الطرق مختلفة .

قال المهندس : يعنى أنا مسلم ببساطة ، وأنت مسلم بصعوبة ، أو أنا مسلم بإرادة الله . وأنت مسلم بإرادتك ، أو لأننى اخترت إرادة الله فقد أعفانى من عذاب إرادتى . . هل هذا كل الفرق بيننا ؟

قلت : هناك فروق كثيرة أخرى . . هل تقوى على تحملها ؟

قال : لا أقوى . . ولكن أريد أن أسأل سؤالا آخر . . هل من الممكن أن يكون الإنسان مسلما وبهائيا فى نفس الوقت ؟ . . هل من الممكن أن تكون وجوديا بهائيا . . أو وجوديا مسلما بهائيا ومن « شهود يهوه » ومعجبا بالأستاذ العقاد فى نفس الوقت ؟ . . اعذرنى. أنا أريد أن أعرف . . إننا عشنا معا سنوات طويلة . . وأنا أسمع ولا أتكلم . . والآن تخرجنا . . وجاء دور الذين سمعوا أن يقولوا . . ودور الذين قالوا أن يسمعوا . . قل لى . .

قلت : أن تكون مسلمًا وبهائيًا هذا غير ممكن . لأن البهائى هو الذى يؤمن بأن كل الأديان على حق فى كل شىء . وأنه يختار من كل دين ما يعجبه . . فإذا استطاع ذلك فهو بهائى . . مثلاً : الإسلام يقول إن الله واحد لا شريك له . وإن محمدا رسوله وخاتم الأنبياء ، ولكن البهائية ترى أن الله ليس واحدًا ، إنما الوحدانية هى إحدى صفاته ، وأن من الممكن أن يكون الإله واحدا وثلاثة وألفا . . وأن محمدا ليس خاتم الأنبياء . . إنما هو « خاتم » فى أصابع الأنبياء . . أى أنه زينة الأنبياء من قبله ومن بعده . . ولذلك يستحيل أن تكون بهائيا مسلما أو بهائيا مسيحيا أو بهائيا يهوديا . ولكن من الممكن أن تكون وجوديا بهائيا . أى تختار بإرادتك ما تراه من كل المذاهب . وتختار أن تغضب كل الأديان .

قال : عظيم . سؤال : هناك أشياء لا يستطيع الإنسان أن يختارها . . أو لا رأى له فيها . . فكيف يختارها ؟ وكيف يكون له رأى فيها ؟ . . مثلاً : أنا لم أختر أبى وأمى . . أنا لم أختر أن أكون مصريا . . أنا لم أختر لون بشرتى . . إذن فحرية الإنسان أو إرادة الإنسان محدودة ، وإن هذه الحرية أمامها شوارع مسدودة . وعلامات حمراء يجب أن تقف عندها فإذا وقفت لم تعد لك إرادة . ولم تعد أنت حرا . . ولا قادرا على أن تكون وجوديا . . ثم إنك لم تختر أن تشكو من مصرانك الغليظ وأن تصاب بضربة الهواء من أى نوع ولو كان الهواء عليلاً . . أى مكسرًا مكسحاً يتساند على الجدران والمقاعد لكى ينفخ فى أنفك فتعطس وتصاب بزكام . وإذا وجدت أننى تجاوزت حدود الأدب

فاعذرنى . . أنا مهندس وعقليتى رياضية وأبى مهندس وأمى مهندسة . ونحن جميعا أناس بسطاء كما تعرف . وإنما حبى لك وإشفاقى عليك هو الذى دفعنى لكى أنقذ نفسى من هذا الضباب . . وربما عن طريق إنقاذى يتم إنقاذك أيضا . . فربما اهتديت وأنت تفكر إلى شىء جديد . . فأنت كالفلاسفة الذين تتحدث عنهم . . تفكرون أثناء المشى وأثناء الكلام . ربما .

كان ذلك يوما عظيما لا أنساه . . فقد كانت محاكمة . وكنت أنتظر هذه المحاكمة لكى أثبت براءتى . أو أؤكد قدرتى على أن أكون محاميا أو قاضيا . لقد كنت فى حاجة شديدة إلى ذلك .

وأحسست كأننى فى حاجة إلى بعض الوقت . . ولاحظ صديقى ذلك فقال : إن شئت أجلنا كل ذلك لبعد الغداء . . أو بعد العشاء . . أو إلى غد . . فنحن لا نفترق . .

فقلت : بل الآن . . صحيح أن أحدا منا لم يختر والديه . . ولكن يمكن أن نعيد النظر فى كل الذى حولنا . فمن الممكن أن أكون ابنا طيبا . وألا أكون . ومن الممكن أن أبقى فى البيت أو أتركه . . ومن الممكن أن أذكر لها هذا الفضل فى وجودى أو تربيتى وأن أرفضه . . ثم من الممكن أن أغير اسمى وعملى . . وأن أترك هذه البيئة كلها وأذهب إلى مدينة أخرى . . أو أهاجر . . ومن الممكن أن أجعل أوجاع المصران أبدية ، وأن أعالجها . . وأن أهتم بطعامى وشرابى . . ومن الممكن أن أحترس فى مواجهة الهواء . . أو أن أترك نفسى له كما كان يفعل أبناء الرومان . . فإما أن أعتاد عليه وإما أن أروح ضحيته . . ومن الممكن أن يكون الإنسان أبيض اللون أو أصفر اللون أو أسود اللون . . وأن يعيش وراء سجن اللون . وأن يستسلم إلى الأبد . . ومن الممكن أن يقفز من وراء سجن اللون وأن يتفوق على أصحاب اللون الأبيض . . وليس هناك من تفسير لتفوق الزنوج فى الرياضة إلا رغبتهم فى التخلص من سجن اللون . . حتى ترك لهم البيض مجالات القوة . . وأصبح البيض سجناء اللون الأبيض الذى لا يتفوق فى كرة القدم أو الملاكمة أو المصارعة ، ثم استطاع أصحاب اللون الأسود أن يكونوا مثل « وخز الضمير » للرجل الأبيض الذى باعهم واشتراهم وسرقهم . . إنهم عذابه الدائم وعاره الأبدى .

ولم يقتنع صديقى المهندس عبد الله إسماعيل وجدى ، وهو من أصحاب الملايين فى البلاد العربية ، ورأى أن الذى أقوله : عذاب لا ضرورة له . .

والفرق بيننا أنه يرى الشجرة عموما خضراء عالية بها زهور وطيور . . وهذا يكفى . . ولكن الوجوديين كأنهم يريدون أن يوقعوا بأقلامهم على أوراقها واحدة واحدة . ليسمحوا لأوراقها وفروعها وسيقانها بالوجود . كأن وجودها فى حاجة إلى من يصرح لها بذلك !

واختلفنا كثيرا . والحق معنا نحن الاثنين . فنحن نصل إلى نفس الأشياء ولكن من طريقين . ولا عيب فيه ولا عيب فينا .

وكأنني لم أقل شيئا ولا تعبت فى التفكير أو فى الإقناع ، فقد عاجلنى صديق بقوله : إن الأستاذ العقاد ، أمامك ، وعلى مسمع منا جميعا قال : اختر ما يقنعك ويريحك . وكل المذاهب الفلسفية والسياسية والاقتصادية يجب أن تنتهى إلى هذه النهاية : أنها مقنعة وأنها مريحة لأنها نافعة أو لأنها تجيبك عن كل تساؤلاتك واحتياجاتك فى الدنيا والآخرة !

ولذلك يرى الأستاذ فى الفلسفة الوجودية – ومعه حق – أن الذين اعتنقوها قد تعذبوا ، وارتضوا هذا العذاب . ووجدوا متعتهم الكبرى فى التعبير عن ذلك ، ووجدوا فى التعبير عن ذلك تخفيفا وتفريجا لعذابهم ، ولكنهم لم يذهبوا إلى أبعد من ذلك . وقد ارتاح الأستاذ إلى سخرية الفيلسوف الانجليزى برتراند رسل ، عندما هاجم الوجوديين ووصفهم بأنهم أناس صحوا من النوم وساروا فى طريق وقالوا إنه مظلم . وإنه بغير نهاية . وإنهم على يقين من ذلك . إذن فهم ضائعون . والضياع هو الوجود ؟!

ولكن مهما بدا هذا منطقيا فلم يكن مقنعا تماما . فالأستاذ لا يعرفنا ولا يدرى من أين جئنا . ولا كيف كانت حياتنا قبله ، ولا حياتنا فى ذلك الوقت . فهو يفرض علينا التلمذة ويفرض علينا الصمت . ويفرض علينا التساؤل أحيانا . وتجيء الساعة الثانية تفرض علينا الانصراف . وتمضى ستة أيام . ويجيء يوم الجمعة فنتجه إليه . فهو لا يدرى ماذا يجرى لنا بقية أيام الأسبوع . . ولا يعرف من نحن : فلا يدل علينا صمتنا . ولا يدل علينا كلامنا دقيقة أو دقيقتين ، أو أن نضحك لما يقول ، أو نهز رءوسنا أو تلمع عيوننا دهشة أو فزعا . إننا نعرفه وهو لا يعرفنا . وإذا لم يكن الذى لدى الأستاذ هو الشعور بالضياع ، فهو حقيقتنا ، وإذا كان قد طرد القلق من حياته ، فحياتنا هى القلق ، وإذا كانت الأرض قد استقرت تحت قدميه ، فإننا نمشى بالقرب من سطح الأرض . إننا معلقون من شعورنا ومشاعرنا ، ثم إننا جئنا من الريف إلى القاهرة ، ولم يكن الطريق من الريف ولا فى الريف ولا إلى المدينة سهلا ، إنما فى هذا الطريق الطويل المعقد المتعرج التوت فى أيدينا وفى نفوسنا وعقولنا أشياء أخرى كثيرة . وإذا كان الخوف قد أصبح قلقا ونحن شبان ، فقد كان الخوف هواءنا وماءنا ونحن صغار – أنا مثلا . ولابد أن يقول كل واحد منا : أنا كنت . . أنا صرت . . أنا سوف أكون . . نحن فى مرحلة الأنا . . فى مرحلة البحث عن « الأنا » فى مواجهة مليون « أنا » أخرى لمليون إنسان . . وإذا كانت هذه المعانى قد وجدناها فى الفلسفة الألمانية . . فهى لم تعد ألمانية . . إنما أصبحت مصرية . . أو أصبحت إنسانية . . أصبحت جزءا منا . . تماما كما يجد الإنسان ما يناسبه من الملابس والأحذية . . أيا كانت البلاد التى صنعتها . . أو ما يناسبه من الطعام أيا كانت تربته أو مصانعه . . إننى وجدت ما أحتاج إليه . . والذى وجدته أقنعنى . والذى أقنعنى قد أراحنى ، أليس هذا هو الذى يراه الأستاذ مقياسا صادقا للمذهب الفلسفى أو المذهب الدينى ؟ فإذا كنت خائفا وقال لى أحد من

الناس : إن البيت الذى تعيش فيه تسكنه الأشباح . . فإن هذه العبارة المخيفة قد أقنعتنى ، لأننى على استعداد لتصديقها . وقد أراحتنى ، لأنها قد أكدت سلامة منطقى وصدق حجتى ، رغم أنها قد ضاعفت خوفى . . وإن كان من الممكن أن يصبح عذابى أكثر لو أننى ظللت خائفا ولم أجد تفسيرا لذلك . . فإذا واجهنى الناس بأنهم لا يصدقون ما أقول . ولا يفهمون ما أتحدث عنه . . فمعنى ذلك أننى معذب مرتين : مرة بخوفى ومرة أخرى بعدم تصديق الناس . وقد يؤدى ذلك إلى أن يصبح خوفى مطلقا . وبذلك يدفعنى الخوف إلى الجنون . فإذا انتهيت إلى الجنون لم يعد هناك أناس . . ولم يعد أحد يسألنى عن شىء ، فالجنون قد أدى إلى انعدام الحوار . . وذلك بانعدام الناس أيضا .

فكما أن الإنسان لا « يكون » مسلما ولا يكون مسيحيا ، وإنما « يصير » مسلما ويصير مسيحيا ، فكذلك الإنسان لا يكون وجوديا إنما يصير كذلك . .

ومعنى هذا أن الإنسان لا يكون مسلما لأن اسمه محمد أو حسن . لأن الإسلام إيمان . والإيمان عمل . فالإيمان هو الذى يحول الإنسان من مسلم اسما إلى مسلم فعلا ، ومن مسيحى اسما إلى مسيحى فعلا . . وإلى وجودى فعلا .

وعندما جلسنا فى أحد الأيام على عتبة بيت العقاد فى شارع السلطان سليم رقم ١٣ أحسست كأننا أبناء الثورة الفرنسية الذين جلسوا عند قصر الملك لويس السادس عشر أو عند سجن الباستيل أو الجمعية الوطنية الفرنسية . . وكأننا كنا نقول لأنفسنا : لن نبرح هذا المكان إلا على أسنة الرماح . .

أى لن نترك بيت العقاد أو فلسفة العقاد إلا بالقوة . . بقوة المنطق . . فنحن رعاياه أو ضحاياه . . رعايا مملكته العقلية وضحايا فلسفته المنطقية . . ولابد أن نبرح القصر والسجن . وأن نقرر ذلك على باب العقاد وأمام بيته . .

وفى غيابه أيضا ، فقد كان الأستاذ قد ذهب إلى أسوان ليقضى فصل الشتاء . وكنا ستة وكنا أصدقاء وكنا مختلفين . ولكن شيئا واحدا قد جمع بيننا : أننا حائرون وأننا اخترنا الأستاذ طريقا وهدفا !

وأحسسنا كأننا أبطال فى رواية « ديكاميرون » لأديب ايطاليا بوكاتشيو الذى عاش ومات فى القرن الرابع عشر . . ففى هذه الرواية التى تضم مائة قصة متداخلة حاصر الطاعون عددا من الراهبات فى مدينة فلورنسه . . فراحت كل واحدة تحكى قصتها . . وتجد فى هذه الحكاية تسلية من الخوف . . أو ارتفاعا بالفن فوق الفزع .. أو تحديا للموت بالفن . أو نوعا من الاعترافات على فراش الموت . أو أنها اعترافات من نوع آخر معناه : أن الإنسان لا يكون صريحا إلا إذا أحس أن هذه هى فرصته الأخيرة .. وأن من الممكن أن يكذب على الناس . ولكنه لا يكذب على الله .

وليس الطاعون إلا صورة من الموت ، والموت الذى لا يفرق بين الناس هو إرادة الله .

هل قررنا أن نعيد للأستاذ العقاد ما أخذناه منه ؟ . هل نحن جلسنا أمام مسجد أو كنيسة وقررنا أن نعترف لأنفسنا أننا أخطأنا أو أنه هو الذى أخطأ ، فإما أن نعود إلى الأستاذ . إلى فلسفة الأستاذ أو لا نعود ؟ . . هل كان الأستاذ العقاد هو « نوح » زماننا . . وكانت فلسفته هى سفينة الطوفان ؟ . . لقد ركبنا السفينة طويلا ، فهل نمضى بها . . أو نقفز منها مثل ابن نوح عليه السلام . . ولا يهم بعد ذلك إن كان مثوانا البحر ، أو كان مأوانا الجبل ؟ . . هل من الضرورى أن نقفز من أية سفينة . من أى مذهب ؟ . . هل من الضرورى أن نقول : لا . . حتى لو لم تكن هناك فائدة ؟ . . إن الأستاذ العقاد هو اختيارنا له . . فنحن الذين اخترناه ، ونحن الذين نريد أن نتخلص منه . . إننا لا نرفضه إنما فقط نريد أن نمشى بعيدا عنه . . أن نقيم إلى جوار قصره كوخا مستقلا . . إننا نريد أن نسبح على ألواح خشبية إلى جوار سفينته . . وأن نصرخ خوفا من الموج ومن الموت . . ويضيع صراخنا مع الرياح ، تماما كما ضاعت حياتنا مع القلق . .

من أجل ذلك قررنا أن نحاسب أنفسنا . وأن نبرر الذى اخترناه . ونوقع على هذا القرار النهائى هنا . . أمام بيته وفى غيابه . .

ونظر بعضنا إلى بعض : أينا يبدأ بالكلام عن نفسه . . وعن الطريق التى أتت به إلى القاهرة . ؟ وتجمدت الطريق عند هذه العتبة منذ أكثر من عشر سنوات . . ونظرنا جميعا إلى الباب الحديدى الخارجى . . ثم إلى الباب الخشبى . ثم إلى السلم المظلم . . ثم إلى بلكونة الصالون . . لم يكن بيت أستاذنا العقاد إلا مثل حاجز الأمواج الذى يقام فى الموانئ ليحمى السفن والناس من هياج البحر ، لم يكن الأستاذ نفسه إلا الفنار الذى يضيء والبوصلة التى تهدى ، ومحافظ المدينة الأدبية وسيد الإقليم الفلسفى وأستاذ الجميع . . ولكن قررنا أن نخلع جلدنا وأن نقص أظافرنا . وأن نرد إليه ما استعرناه منه . . ولكن هل صحيح أننا استعرنا العيون التى نرى بها ؟ هل صحيح أننا استعرنا الآذان أيضا ؟

إننا فى صالون العقاد كالذين كانوا يترددون على السينما المجسمة لأول مرة « السينيراما » فقد كانوا يوزعون علينا نظارات لكى نضعها على عيوننا ونحن نتفرج على هذه الأفلام ، فإذا وضعناها أحسسنا بها مجسمة ، فكانت القطارات تكاد تجرى فوق رءوسنا . . والوحوش تقفز من الشاشة إلى مقاعد المتفرجين . . وكانوا فى دور السينما يضعون الميكروفونات على جوانب الشاشة وحول المتفرجين لكى يشعر الناس بالصوت إذا اقترب أو إذا ابتعد . .

كنا هكذا تماما . .

أو كنا كالشخص الذى تحدث عنه الأديب الألمانى هوفمان فى قصصه المعروفة . . فإذا سقط المنظار عن عينيه أصبح كل شيء قبيحا ، وإذا وضعه على عينيه أصبح كل شيء جميلا . .

ولكن المشكلة التى أمامنا هى أننا لم نضع منظارا على عيوننا . . يمكننا أن نخلعه . . فقد وضع الأستاذ لنا عيوننا . . وهى عيوننا الآن . فكيف نخلع العين والأذن والأنف والأصابع ودقات القلب ؟

إن ما أعطاه الأستاذ لنا كان عظيما ، ولكن الأستاذ لا يعرفنا . . فنحن أدرى بأنفسنا منه . . بل إنه هو الذى سلحنا بالعدسات لكى نرى أنفسنا أوضح مما يرانا . .

فنحن دقائق فى ساعات من يوم من أيام حياته .. ونحن قليلون ضمن كثيرين .. ولكننا نحن كل شيء بالنسبة لأنفسنا . ونحن لنا قيمة مع الأستاذ وبغيره وفى مواجهته . وقد حانت ساعة المواجهة واختيار الوجهة واختيار أنفسنا مرة واحدة .. وإلى الأبد .

وسوف نفعل ما يفعله البحارة عند الخطر وفى عرض البحر .. إنهم يكتبون رسائلهم ويضعونها فى زجاجة . ويسدون الزجاجة ويرمونها فى البحر .. وقد يجدها أحد بعد عام أو بعد ألف عام .. لقد قالوا وقلنا .. واسترحنا .. أو توهمنا ذلك ! .

الوَجْه الآخَر لِوجُوهٍ كَثيرة !

فى تلك الليلة أنكرنا كل شىء ، وكل أحد .. ثم أنكرنا أنفسنا .. وتعارفنا حين اعترفنا .. وكانت لحظة نادرة فى حياة كل واحد منا .. ولم نكن ستة أشخاص ، إنما ستة نماذج من أبناء مصر من جيل واحد ..

لم يخطر على بالنا ونحن جالسون على الرصيف أمام بيت الأستاذ ، أن الذى نعانيه هو مسألة شخصية ، لا يدرى بها أحد سوانا ، لا الناس الذين ينظرون من النوافذ ينادون الباعة . ولا الباعة . ولا الأطفال يلعبون الكرة . ولا الرجل الذى جاء يجمع الزبالة ، وقد نظرنا إليه وإلى أنفسنا . وضحكنا . كأننا أحسسنا فى لحظة واحدة . أن أفكارنا زبالة – لا كل أفكارنا .. إنما بعضها .

ولكننا نحن الذين قمنا بتضخيم أفكارنا وويلاتنا . وتخيلنا جميعا أننا مثل مارتن لوثر الذى « احتج » على الكنيسة الكاثوليكية . ثم علق احتجاجه المكون من تسعين مادة على باب الكنيسة ، وانتظر غضب البابا وملايين الكاثوليك ..

أو كأننا جماعة من اليهود قد وقفوا عند حائط المبكى ، وحين تبركوا بأحجاره وبكوا ، وضع كل واحد يده فى جيبه وأخرج ورقة . ووضع هذه الورقة بين الأحجار . وفى الورقة شكواه إلى الله أن ينصره فى الدنيا – فليس عند اليهود آخرة .. أو كالمسلمين الذين إذا زاروا غار حراء ، فإنهم يعلقون مثل هذه الأوراق فى أغصان الأشجار على سفح جبل حراء .. يعلقونها ويتركونها ، أى أنهم نزعوها من أنفسهم ، واستراحوا عندما وضعوها بين يدى الله ..

أو كأننا « ست شخصيات تبحث عن مؤلف » – وهذا هو اسم مسرحية للكاتب الايطالى بيراندللو . والحقيقة أننا لا نبحث عن مؤلف . إنما نحن نريد أن نتخلص من المؤلف .. أو من الرجل الذى تدخل فى تكويننا وتأليفنا . لا نكرانا لفضله . لكن ضيقا بتسلطه علينا . وتأكيدا لروحنا المتمردة واستقلالنا الذاتى ..

وتمنينا لو أن شارع السلطان سليم هذا يصبح نهرا من أنهار الهند المقدسة ، فنلقى بأنفسنا فيه . وبعد ذلك نصبح أطهارا أبرياء كما ولدتنا أمهاتنا ..

وتمنينا إذا خرجنا من هذا النهر أن نمر بأحد المعابد اليابانية . فعلى باب المعبد اليابانى توجد مقشة

ضخمة . وكل من مر بهذا المعبد ، فإنه يهز المقشة . وبذلك تكنس كل خطاياه . بهذه السهولة وبهذه البساطة يتطهرون فى اليابان .

ولكننا نعلم أن الإنسان لا يمكن أن يتطهر تماما . إنما سوف يبق منه شيء . تماما كما فعلت أم الإله « أخيل » عندما أمسكته وألقت به عاريا فى النهر المقدس . فكل مكان من جسمه قد لمسه الماء أصبح منيعا لا تنفذ منه السهام ولا الرماح ، ولكن الأم نسيت شيئا . فقد أمسكته من قدمه . من كعب قدمه . فالكعب لم يبتل بالماء . ولذلك فنقطة الضعف فى ولدها أخيل هى هذه الكعب ، فمن أراد أن يقتله فليضربه فى كعبه .. وفى كل إنسان نقطة ضعف ، يحاول أن يخفيها عن الآخرين .. ونقطة ضعفنا لا يمكن إخفاؤها . فجلوسنا أمام بيت الأستاذ أكبر دليل على ذلك . فنحن مشدودون إليه . وفى نفس الوقت نريد أن نبتعد عنه . إنه الحب من طرف واحد . إنه العشق . إنها الدروشة . وقد جربنا الابتعاد عن عظمة الأستاذ الجليل . ولكننا لم نستطع . إلا هذه المرة . فقرارنا نهائى . ولكننا نحاول أن نجعل لهذا القرار معنى . وأن يكون المعنى له شكل أعياد الميلاد أو حفلات التأبين . فلابد من كلمة يلقيها أحد تحية لأحد ، أو ترحمًا عليه .. أو علينا !

قال أحدنا ونسميه « أبو زيد الهلالى » : أظن لا مانع عند أصحاب السعادة المعذبين فى الأرض أن ننتقل إلى مكان يليق بنا . وإذا خفتم أن تتغير المناظر . فلنعلق لافتة ونكتب عليها : رصيف بيت الأستاذ العقاد رقم ١٣ شارع السلطان سليم مصر الجديدة نهاية سنة ١٩٤٩ ميلادية . أما جدول الأعمال فهو : أين نحن من الأستاذ ؟ وأين نتجه بعيدا عنه ؟ .. وهل هى قطيعة إلى الأبد .. أو أننا سنعود إليه وإلى غيره من آبائنا الروحيين من حين إلى حين ؟ .. تماما كما أننا لا نرى آباءنا وأمهاتنا إلا أحيانا .. فقد كبرنا .. ويجب أن نكبر . وأن نغرس أنفسنا فى أرض بعيدة . وتكون لنا فروع وزهور وطيور وظلال ، وأن نستأنف العذاب الذى بدأه آباؤنا وتوقف عندنا ، وإنه لعار عظيم أن يتعذب آباؤنا ونظل نحن نلهو من رصيف إلى رصيف . ومن شارع إلى شارع .. واسمحوا لى يا إخوة .. إن لم يكن هذا تسولا فكريا ، فهو دعارة فلسفية .. وإننى أفضل أن أكون أبا زيد الهلالى والزناتى خليفة والمؤرخ عبد الرحمن الجبرتى والمؤرخ حبيب جاماتى الذى يكتب « تاريخ ما أهمله التاريخ » أو حسن الشريف مؤلف المحاكمات الكبرى فى التاريخ ، على أن أكون واحدا من هذه الكلاب الضالة التى ترفض هذه التسمية ، وإن كنت لا أجد بديلا منها .. فأنتم كلاب لا شك .. وأنتم ضالون لا شك أيضا . وأى صوت يرتفع هو نباح . وأكثر الكلاب تنبح دون أن يكون هناك لص ! .. إن نباح الكلاب يشبه دموع المرأة .. فالكلاب تنبح لأنه تنشيط لأحبالها الصوتية . والمرأة تبكى لأنه تنشيط لغددها الدمعية . فإن لم تعجبكم مثل هذه العبارات ، فنحن لم نتفق على أن يعجب بعضنا ببعض .. والآن أيها السادة العبيد .. فلننتقل إلى مكان آخر ..

وانتقلنا إلى بيت واحد من الأصدقاء . ولحسن الحظ كان أبواه فى السودان . فليس فى البيت سوانا ..

وكان المتحدث الأول هو « أبو زيد الهلالى سلامة » .. الذى أصبح فيما بعد أستاذا للتاريخ الحديث وعميدا لكلية الآداب .. قال : أريد أن أهون عليكم الموقف ، ولكن لابد من أن أضع تحت أقدامكم أرضا معروفة . حتى لا تمشى فى الهواء ، فإذا شاء واحد منكم أن يقيم لنا قصرا ، فليكن ذلك من مادة نعرفها وعلى أرض درسناها . ولا أظن أن واحدا منكم يريد أن يبنى قصورا فى الهواء . فمن أجل هدم قصور الهواء قد اجتمعنا . أنا شخصيا لا أبنى ولا أهدم . أنا مؤرخ . ألاحظ وأراقب وأحلل وأسجل . فأنا لست صانعا للتاريخ . إنما عسكرى مرور يقف فى شوارع التاريخ ، أسجل الأرقام والماركات والمخالفات .. فلا أنا راكب ولا أنا ماش . ولا أنا صاحب سيارة . إنما فقط أحمى الناس من الناس . حتى هذا لا أستطيعه . إنما فقط أنا مثل حكم فى مباراة : أجرى إلى جوار اللاعبين . كأننى لست موجودا . أنا ضمير الملعب . أنا ضمير الشارع . وليست عندى أية مواهب تجعل منى شيئا أكثر من ذلك . فأنا أعرف حدودى تماما . وراض عن نفسى . ولذلك فليست لى مشكلة . أنتم مشكلتى . لأننا أصدقاء . وإذا جاء أتوبيس ومرت عجلاته فوق أعناقكم . وخرجت ألسنتكم ، فسوف أكتب بحثا جيدا عن حوادث السيارات . وضياع المواهب تحت عجلاتها . ومن أشهر الذين داستهم السيارات مسيو كورى الذى هو أبو الإشعاع الذرى .. وكذلك مؤلفة رواية « ذهب مع الريح » .. والعالم الفرنسى بوانكاريه الذى اهتدى إلى أعظم نظرياته الرياضية على سلم الأتوبيس .. وكان من الممكن أن يكون عددنا خمسة .. لولا أن الله قد أنقذ واحدا منا . فألهمه أن ينتقل من سلم الأتوبيس إلى داخله ليصطدم الأتوبيس بالترام فيموت الشخص الذى وقف مكانه . وليس الفضل له . إنما الله قد أراد أن يؤجل وفاة والدته بعض الوقت »..

إنه يقصدنى . فقد حدث لى ذلك . فقد ذهبت أشترى دواء لوالدتى . ووجدت صاحب الصيدلية فى داخل الأتوبيس . فأسرعت إليه . وفى هذه اللحظة وقعت المأساة . مات الشخص الذى قفز إلى مكانى .

وعاد أبو زيد الهلالى يقول : ولننتقل الآن إلى أهم أحداث هذا العام : الرئيس الأمريكى ترومان أعلن مشروع النقط الأربع لإغاثة الدول المتخلفة – مصر مثلا . واتفق الغرب كله على إنشاء حلف شمال الأطلنطى . وإسرائيل دخلت الأمم المتحدة ونقلت عاصمتها من تل أبيب إلى القدس ، والملك عبد الله أعلن أن الأردن هى المملكة الهاشمية . وألمانيا الغربية أصبحت دولة عاصمتها بون . وألمانيا الشرقية أصبحت دولة . وانتهى الجسر الجوى بين ألمانيا الغربية وبرلين بعد أن نقل الأمريكان طعاما وشرابا إلى أهل برلين فى ربع مليون رحلة جوية . وأيرلندا أصبحت دولة عاصمتها دبلن . وتشانج

كاى تشيك هرب أمام الزحف الشيوعى إلى جزيرة فورموزا . ومحكمة العدل الدولية اتخذت قرارا خطيرا جدا . لقد أدانت دولة ألبانيا المسكينة لأنها اعتدت على بريطانيا العظمى . ومن المؤكد أن حكومة الوفد سوف تجيء إلى السلطة بعد يوم.. بعد شهر. لابد .. ماذا بقى بعد ذلك من أحداث هامة ؟ ..

« آه نسيت .. هناك أحداث أدبية وفلسفية وفنية .. أحداث الأدب العالمى : ظهر كتاب للكاتب الإنجليزى جورج أورول اسمه « سنة ١٩٨٤ » وهى السنة التى سوف تنقلب فيها الدنيا على رءوسكم إن شاء الله ليتحقق العدل .. ويتم شفاء البشر من أمثالكم من المصابين بالتهابات مختلفة فى عقولهم وقلوبهم .. كما ظهر كتاب للفيلسوف الإنجليزى برتراند رسل اسمه « السلطة والفرد » وقد حدثنا عنه الأستاذ ، ولا أستطيع أن أضيف سطرا واحدا إلى ما قاله .. فتكاد تكون فلسفة الأستاذ مأخوذة كلمة كلمة من هذا الكتاب .. أو أنه توافق فى الأفكار بين فيلسوف مصرى عظيم وفيلسوف إنجليزى أعظم .. وظهر كتاب للشاعر الإنجليزى الأمريكى الأصل ت . س . اليوت اسمه « كوكتيل » . ثم أصدرت الأديبة الوجودية سيمون دى بوفوار تحفتها الرائعة « الجنس الثانى » .. والكاتب الأمريكى الشيوعى اليهودى آرثر ميللر أصدر مسرحيته « وفاة بائع متجول » .. أما الذين انتقلوا إلى العالم الآخر فهم الموسيقار النمساوى ريشرد اشتراوس . والكاتب البلجيكى موريس مترلنك . نسيت أن أقول . وهذا رأى شخصى ، إن الناقد الفنى الإنجليزى سيركينث كلارك أصدر كتابا بعنوان « مناظر الطبيعة فى الفن » .. هذا الرجل هو أعظم ناقد فى كل العصور . لجمال عبارته ومعلوماته التاريخية الهائلة ، ولأنه جديد فى نظراته ونظرياته .. بقى خبر واحد أراه هاما ، وهذا رأى شخصى أيضا ، أن الإنجليز قد أصدروا الكتاب المقدس : « العهد الجديد » بلغة إنجليزية معاصرة .. وفى ذلك تيسير للدين وتبسيط للكتاب المقدس .. وتأكيد أن القداسة للمعانى وليست للعبارة الركيكة التى ترجم إليها الكتاب المقدس . ولم يبق عندى إلا تفسير واحد لاهتمامى الشديد بالتاريخ ، فوالدى مدرس تاريخ . ووالدتى قد توفى جدها فى الثورة العرابية . ولذلك فقد وجدت أكثر أهلى يتحدثون عن عرابى وعن سعد زغلول ، ويرون أن فى الحديث عن الجميع حديثا عائليا . أى أن جدى يرحمه الله كان واحدا من هؤلاء . ولكن لأنه مات شابا ، فلم يمهله القدر أن يكون عظيما مثلهم .. ولذلك يكره والداى ، وأنا ابنهما الوحيد ، أن أذهب فى دراستى للتاريخ إلى أبعد من القراءة . فلا أظن أن هناك ثأرا عائليا يجب الأخذ به . وأن هذا الثأر يحتم علىّ أن أشترك فى كل مظاهرة ، وأن ألعن كل غاصب انجليزى أو فرنسى فى أى مكان . فأنا محدود من جميع الجهات بحب أمى وأبى والخوف والقلق على حياتى . ولذلك فقد أوقفوا جميعا نموى وتقدمى . وربما كان ذلك هو الضيق الوحيد فى حياتى .. ولكنى راض تماما عن حياتى .. وحزين تماما على مصير أصدقائى .والسلام عليكم ورحمة الله . ولا أرانى الله

فيكم يوما أسود من هذا اليوم . وأفسح الله لكم مكانا بين عباده المغفلين فى الجنة أو فى النار ! .

* * *

ولم يجد واحد منا قدرة على أن يضحك أو حتى يبتسم . وكأن الأرض قد اقتربت من السماء ، أو السماء قد انطبقت على الأرض إلا قليلا .. فنحن نتحرك ونتنفس فى مجال ضيق خانق .. تماما كما فى الأساطير الإغريقية عندما حكمت الآلهة على شاب اسمه « تنتالوس » بأن يتعذب إلى الأبد . فأجلسوه على باب كهف . وراحوا يسقطون على رأسه قطعة هائلة من الحجر .. تنزل بسرعة ويراها ويصرخ . ولكنها تقف على بعد مليمتر واحد من رأسه .. ثم ترتفع لتعود إلى السقوط ، وهو إلى الصراخ ، وهكذا إلى الأبد ..

لقد كانت ليلة « الآلام الطويلة » .. أو كما يسميها الصوفية « ليلة الغراب الأسود » .. أو « الليلة الظلماء » .. أو ليلة « المحاق » .. أو « ليلة الصعق » — وكلها تعبيرات صوفية تدل على أنها سوداء صامتة قاتلة ولكنها كاشفة أو فاضحة لأنفسنا أمام أنفسنا ..

وقف الصديق الذى نسميه « الشيخ رضوان » — وكنا نتوقع له أن يكون شيخا للأزهر . وكنت من الذين يتمنون ذلك .. فقد عشت أحلم بأن يكون لى رواق فى الأزهر . وأن يكون لى عمود أسند ظهرى إليه وأقول وأقول فى الدنيا والدين والله والنبى والقيامة والحساب .. وكنت أحلم بأن تصبح الأرض تحتى سحابة ترتفع بى أنا وتلامذتى إلى السماء ، ولا نعود إلى الأرض .. لقد كانت أحلامى مزيجا من خيالات « ألف ليلة وليلة » التى وصفت لنا « بساط الريح » ، ومن خيالات المتصوفين .. وهلوسة السرياليين .. وهروب المعذبين نفسيا — ثم جلس الشيخ رضوان ، عندما نظر إلينا فوجد أن أحدا لا ينظر إليه .. أو كأنه أحس أننا نعرف ما الذى سوف يقوله مقدما .. ولكن ارتفعت رءوسنا واتجهت إليه . وكان ذلك إشارة له بأن يتكلم .

قال : الحمد لله الذى هدانا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله . إنكم يا إخوتى لا تعرفون نعمة الله عليكم . أنتم طيبون ومستقيمون ، بعضكم لا يصلى ولا يصوم . ولكنى أرى أنكم مؤمنون عصاة . ولكنكم مؤمنون بالله وكتبه ورسله . وفضل الله عليكم عظيم . وأرى أنكم أفضل من أناس كثيرين . أفضل من إخوتى . فنحن سبعة كما تعرفون . وأنا أصغر إخوتى ، وقد أضاعونى بين أيديهم وبين أقدامهم . فهم يسبقوننى إلى الطعام وإلى الشراب . وهم لم يتركوا لى مكانا فى جيب أبى أو فى قلب أمى . ولذلك فأنا أعيش بذراعى . وأحيانا بصراخى . وقد لجأت إلى الله ليحمينى من الإخوة الظالمين . ومن الظالمين الذين ليسوا إخوة .. فنحن اثنان فى بيتنا نعرف الله . أنا والسفرجى . أما أبى فقد تعلم فى الخارج وأمى كانت مسيحية وأسلمت . وتتشدد فى الدين الإسلامى . ولكن لا أحس أنها صادقة . إنما هى مضطرة إلى ذلك . وقد أكون مخطئا . بل إننى أستطيع أن أقول إننى المسلم الحق فى

بيتنا .. فى بيتنا جاهلية كاملة .. وأنا لا أعبد ما يعبدون . ولا هم عابدون ما أعبد .. لهم دينهم ولى دين .. وليس صحيحا ما سمعته منكم من أن الأستاذ العقاد كان مرشدا سياحيا يشير بأصابعه : هذا هو الهرم .. هذا هو أبو الهول .. هذه هى السماء .. وتلك هى الأرض .. ليس صحيحا .. لأن الأستاذ العقاد قد أرشدنا ، ثم أقام لنا بقلمه وعقله وإيمانه أهرامات لم نكن نعرفها .. ولم نجدها فى أى كتاب .. ثم إنه أقامها أمامنا حجرا حجرا .. إننا لم نر بناء الأهرامات .. ولا نعرف من الذى بناها ، ولا حتى لماذا بناها .. ومن هنا كانت معجزة هندسية معمارية فلكية .. أما أهرامات العقاد فهى ليست معجزة .. إنما هى قدرة فائقة . فهو أمام أعيننا أقامها .. وأقامها بسهولة .. ربما كانت هذه السهولة هى التى جعلتنا ندرك عظمة هذا الرجل . فهو لا يدعى قدرة خارقة .. إنما فقط قدرة على أن يجعل للشىء الذى أمامنا معنى آخر لم نكن نعرفه .. ولا أدرى ما الذى يضايقكم من الاعتراف للأستاذ بهذا الفضل . إنه علمنا وتركنا نتعلم . وهو مثل مدرس الجغرافيا والتاريخ والحساب . نحن لا نلعن الذين علمونا . بل إننا ننساهم .. إننا ننسى آباءنا وأنتم تنسون الذى خلقكم .. فهل تنسون الذى خلقكم بهذه السهولة ، ثم تعجزون عن نسيان العقاد ؟ ! .. أهو أعظم من الذى خلقكم ؟ .. أعوذ بالله ..

وإذا كان هناك شىء أعيبه عليكم فهو هذا الجبن . . هذا الخوف . . هذا الضعف .. لماذا لا تطلبون إليه جلسة خاصة تناقشونه فيها وتعلنون فى نفس الجلسة أنه قد أساء إليكم .. هذا إن كان قد فعل . . أو أنكم تريدون أن تعلنوا تمردكم عليه .. وانشقاقكم عنه ؟.. هذا إذا كان يشعر بكم .. وإذا لم يكن لديه هذا الإحساس فهى فرصة لمواجهته .. لتعرفوا بالضبط قدراتكم .. فيعرف كل واحد منكم حجمه ووزنه .. إن الأستاذ نفسه عندما ألف كتابه عن « الله » وعن « الشيطان » وعن « المسيح » قال لنا : إنه أراد أن يعرف حدود قدرته العقلية .. لقد جربها فى كل موضوع ومع كل عباقرة التاريخ .. فأراد أن يعرف كيف اقتداره وهو يتحدث عن الله .. وعن الشيطان .. والأستاذ نفسه هو الذى قال لنا ، رغم أنه يعيش على الطعام المسلوق ، فإنه بين الحين والحين يأكل « الملوحة » .. أى يتناول الأطعمة المتنوعة ، أى التى حرمها على نفسه .. لكى يعرف قدرة معدته على الطعام الذى يؤذيها .. فلماذا لا تجربون ذلك أنتم أيضا .. بدلا من أن تضربوا رءوسكم فى الحائط ؟ اضربوها فى رأسه .. لماذا لا تفعلون ما يفعله البقال عندما يعطيه أحد عملة فضية فإنه يلقى بها على الرخام ليعرف إن كانت فضة أو نحاسا ؟ .. إنه يعرف إن كانت زائفة من رنينها .. وكذلك اذهبوا بعملاتكم الفضية والنحاسية والذهبية وألقوا بها على « رخام » دكان الأستاذ .. لماذا لا تعرضون عقولكم وقلوبكم على أشعته .. فتعرفوا إن كانت صحيحة أو مريضة ؟ .. لماذا ؟ أنتم الذين جعلتم الأستاذ كبيرا ومخيفا . فكيف تخافون مما صنعت أيديكم ؟ .. إن كان الأستاذ صنما ، فأنتم صانعوه ..

فكيف يخاف المثال من الصنم الذى صنعه ؟.. أليس بينكم واحد مثل سيدنا إبراهيم عليه السلام الذى حطم الأوثان جميعا ثم علق الفأس على كتف كبير هذه الأصنام . فلما جاءه قومه يستنكرون ما فعل قال : بل اسألوا كبيرهم إن كانوا ينطقون – أى اسألوا كبير الأصنام ؟ ولكن العقاد صنم فكرى . وثن فلسفى ، وهو ناطق لا محالة .. وما من رجل عظيم العقل إلا هو عظيم القلب أيضا .. وما من عظيم القلب إلا عظيم الرحمة .. ثم إنكم أولاده أو أحفاده .. أرجو أن تعذرونى إذا ضربتكم فى كبريائكم وقلت لكم : بل أنتم أبناؤه غير الشرعيين .. فأنتم أبناؤه . نعم . وهذا ما تقولونه أنتم . أنتم تزعمون أنه أبوكم . وإذا هو ارتضى ذلك ، فلا ضرر أن يكون له أبناء وأحفاد . إن هذا يؤكد رجولته ويرضى غروره .. ولكنكم أبناء غير شرعيين .. أو أنكم لقطاء فلسفيا وأدبيا . ثم تريدون من هذا الأب الذى لا يعرفكم أن يتخلى عن هذه الأبوة .. ومن قال إنه أبوكم ! ؟ .. أنتم الذين تقولون .. فللعقاد ملايين مثلكم . ولكنهم سعداء من بعيد . أما أنتم فتعساء من قريب . وهى تعاستكم وليست تعاسته . ثم لا أعرف معنى للتمرد عليه هو بالذات .. إن الذين ساهموا فى تكوينكم كثيرون . والعقاد واحد منهم . أو هو واحدهم ..

وأنتم تعرفون أنى مسلم شيعى .. لست سنيا مثلكم .. إننى شيعى أعرف الفرق بين المذهب الشيعى والمذهب السنى .. وأنتم لاتعرفون .. فأنا أقرب إلى معسكرات الاحتجاج والرفض .. فأنا شيعى لأننى أرفض أن أكون .. دون تفكير ودون احتجاج ، من أهل البيت .. إننى أحس كأنى على بن أبى طالب .. وكأن إخوتى جميعا هم من أهل البيت .. هم يحصلون على كل شىء .. وأنا لا أحصل على أى شىء .. وكان من المفروض أن أكون أكثر حظا منهم : فأنا الوحيد الذى يصلى ويصوم . وأنا الوحيد الذى يحب أباه وأمه . وأنا الوحيد الذى أحمل اسما مسلما .. بينما أسماء جميع إخوتى من الممكن أن تكون مسيحية أو يهودية .. ولذلك فكأنى على بن أبى طالب ، وأفكارى كأنها أولاد على الذين قتلوا واحدا بعد واحد .. فحياتى هى جنازة فكرية ، واستمرارى هو احتجاج صامت على نصيبى فى هذا البيت .. وإذا كان لى من نصيحة فاذهبوا إلى الأستاذ . واشتموه أو اضربوه أو سامحوه . أو اركعوا عند قدميه . وسوف يزداد سعادة بذلك .. سوف يضحك لهذه المهزلة الصبيانية ، وسوف يفرح بأن يكون له وثنيون مثلكم .. ومن المؤكد أن الرجل سوف يغفر ويرحم .. وقد سمعت من الأستاذ أن أعظم حادثة تدل على الرحمة وسعة الصدر ماوقع للإمام على زين العابدين ابن الحسين بن على بن طالب .. فقد جاءته الخادمة بطعام يغلى وراحت تصبه فى إناء أمامه . واصطدم الإناء الساخن برأس الإمام فأحرقه وأسال دمه .. رأس الإمام زين العابدين ودم الإمام زين العابدين ، ورفع الإمام رأسه ونظر إلى الخادمة فعاجلته بكلام من كتاب الله فقالت : والكاظمين الغيظ ! .

فقال : كظمت غيظى .

قالت : والعافين عن الناس .

قال : عفوت عنك .

قالت : والله يحب المحسنين ..

قال : أنت حرة لوجه الله !

وجلس الشيخ رضوان الذى أصبح مهندسا معماريا متدينا ، وأول أعماله الهندسية أنه بنى عشرين مسجداً فى الخليج ، وأقام أحد الملاهى فى القاهرة .. وأصدر كتابا أنيقا بعنوان « تقويم الطريق القويم » . هذا الكتاب كانوا يضعونه مع كتب الأستاذ العقاد فى مساجد العراق وإيران ، إلى جوار القرآن الكريم .. وأحيانا يضعونه فوقه .. فهو كتاب فى المذهب الشيعى والدفاع عنه ! .

ثم وقف ثانية ليقول : نسيت يا إخوانى أن أقول لكم شيئا هاما جدا .. إننى أتفق معكم فى شىء واحد هو أن الأستاذ العقاد أميل إلى الشيعة منه إلى أهل السنة .. ولكنه لايجاهر بذلك .. وسوف أناقشه .. وسوف أحاسبه على أنه أخفى ببراعة شديدة تحيزه للإمام علىّ ، لأن الأستاذ هو الآخر مثل الإمام على .. إذا قورن بغيره من الأدباء من أمثال شوقى أمير الشعراء وطه حسين عميد الأدب والحكيم أبى المسرح ولطفى السيد أبى الفلسفة .. لقد كان نصيبهم من هذه الدنيا أعظم من نصيبه .. وهو أحق منهم جميعا بالإمارة والعمادة والخلافة !

وجلس ، ثم نهض ليقول : كلمة أخيرة يا إخوتى .. يجب أن نذهب إليه معا ، وفى يد كل منا رأى أو احتجاج عليه .. وأنا أذكر ماقاله السيد جمال الدين الأفغانى وهو يصف غزو الإنجليز لبلاده ، إن الشعب هو الذى قابلهم وهزمهم . وليس الجيش . لماذا ؟ لأن الجيش بعض الشعب ، وهزيمة الجيش هى هزيمة لبعض الشعب .. ولكن إذا الشعب كله قام . فالنصر للجميع ، ولا يمكن أن تكون الهزيمة للجميع . وقد قالها جمال الدين الأفغانى فى عبارة أجمل : حارب بكل الناس وبكل نفسك ، ولا تحارب ببعض الناس وببعض نفسك .. هذا إذا أردتم أن تجعلوها حربا ، وسوف أجلس ولن أقوم ! .

وثالثنا وليكن اسمه عبد البديع .. وكنا نسميه كذلك . لأنه يجد كل شىء فى هذه الدنيا بديعا . وقد توفى فى السابعة والعشرين من عمره ! ويعترف بأنه إنسان محدود القدرات .. وأنه ليس أكثر من نمل يزحف على الأرض . أو نحل يمتص رحيق الزهر .. وأن حياتنا من أولها لآخرها إما أناس كالنمل وإما أناس كالنحل .. ولكن جنون العظمة عند الإنسان هو الذى يجعله يتصور أنه أكبر من ذلك . وكان أخفنا دما وأكثرنا مرحا .

وقف يقول :

لست فى حاجة إلى أن أقول لكم إن الجو العام مثل جو المأتم .. وأنتم هكذا كعدد من الدكاترة قد التفوا حول جثة غريق .. وكل واحد يريد أن يعرف سبب الوفاة . وينسون أن أهل الفقيد يريدون التعجيل بدفنه .. لأن ستر الميت دفنه .. مع فارق واحد هو : أنكم أهل الميت والميت .. وأنا لست فيلسوفاً ولا أريد أن أكون .. أنا شاب عادى جدا . أقرأ المجلات الضاحكة وأقف طويلا عند الصور العارية . وأعاكس الفتيات . وأعرف الكثير منهن .. ووجدت بالتجربة التى لا تعرفونها أن الحياة أبسط مما ترونها .. وأن الدنيا تافهة جدا ، وأن أتفه ما فى هذه الدنيا هو الإنسان .. ولابد أن أضحك تماما عندما تبكون وأنتم تنظرون إلى آلهة الإغريق الذين سكنوا فى قمة جبال الأوليمب . إنهم لايفكرون فى أى شيء ، ونصف أساطير الإغريق عبارة عن قصص غرام وهتك عرض .. والعشاق هم الآلهة .. فهم يطاردون الحسناوات .. إنهم سعداء بحياتهم هناك .. أما هذا الكون وهؤلاء البشر فلا شأن للآلهة بهم .. بل إن الآلهة أحيانا يطاردون بنات البشر .. إنهم يغارون من الإنسان ويحقدون عليه .. مع أن الإنسان محدود ، أى لحياته بداية ، والآلهة لانهاية ولا بداية لحياتهم .. فهم تعساء بخلودهم ، أشقياء بأبديتهم .. ومع ذلك فأنتم تنسون أنكم بشر ، وأن الآلهة يحسدونكم على هذه النعمة .. هم سعداء وأنتم بلهاء .. وأنتم تعرفوننى .. ومثلى الأعلى هو ماقاله شاعرنا الوزير البهاء زهير .. وهو من الشعر القليل الذى أحفظه . يقول البهاء زهير :

قال لى العاذل : تسلو
قلت للعاذل : تتعب
أنكر العاذل منى .
أن قلبى يتقلب
أذكر اليوم « سليمى »
وغدا أذكر « زينب »
ليس فى العشاق إلا
من يغنى لى ، وأشرب
فلنعش أنا ألعب
ولنعش أنا اطرب !

وكل واحد منا قد اختار من هذه الدنيا جانبا .. وجلس فيه أو تفرغ له . ولذلك فنحن لانرى كل الدنيا . إنما نرى بعضها ، والذى نراه هنا ، نحاول أن نجعله قاعدة لكل ما هناك مما لم نر ولم نعرف .. أنا أرى أن الدنيا : امرأة جميلة .. امرأة وملحقاتها .. من الموسيقى والغناء والألوان والحب والزواج .. ونصف الأدب يتحدث عن جمال المرأة ، والنصف الثانى يتحدث عن خيانتها .. وكل ماكتبه

الأستاذ العقاد ليس فيه شيء جميل عن المرأة .. إنما الأستاذ يحلل المرأة كما يحلل القطط والكلاب والقرود والزهور والأحجار .. فالمرأة تحت ميكروسكوب العقاد : بقع وخطوط وخلايا تتحرك .. وخلايا المرأة لاتختلف عن خلايا الرجل .. وخلايا الحيوان لاتختلف عن خلايا الإنسان .. بل إن خلايا الحيوان لاتختلف عن خلايا النبات .. وعلى الرغم من أن هذه بديهية علمية فإن الأستاذ قد اهتم بالمرأة اهتماما بالغا .. فهو يتحدث عن « المرأة فى القرآن » ويتحدث عن المرأة الحيوان فى كتابه « هذه الشجرة » ثم يتحدث فى شعره عن المرأة الجاهلة والمرأة الخائنة .. وقصة « سارة » ليست عن امرأة معينة .. إنما عن كل امرأة .. بل إننا فى هذا الكتاب لانعرف من هى سارة ولا شكلها ولا لونها ولا مدى اختلافها عن أية امرأة أخرى .. ولو وضع الأستاذ العقاد شهادة ميلاد سارة التى هى لبنانية من عائلة « داغر » ، لما أضاف إلينا شيئا له قيمة .. لأن المرأة فى هذه الرواية هى أية واحدة ..

ثم إن للنساء عند الأستاذ صفة واحدة : حيوانات جاهلات غادرات . وهى حيوان لا تهتم بعقل الرجل ، وعالمها محدود وهى لذلك جاهلة ، ثم إنها غادرة لأنها خائفة ولأنها مثل كل العبيد في التاريخ تكره سيدها .. والرجل سيدها .. وهى تحب الرجل الذى يقوم بدور السيد وتقوم هى بدور العبد .. وتكره الرجل الذى يعطيها المساواة ، لأنها تكره المساواة .. لأنها حديثة العهد بالحرية . فهى ترفض الحرية التى تساويها بالرجل ، وتجعلها قادرة على اتخاذ القرار لأنها تريد أن يتخذ الرجل هذا القرار . وأن يكون هو المسئول عن الخطأ والصواب ، أما هى فلا تريد أن تكون مسئولة عن شيء .. وغير ذلك من الآراء المتضاربة عند الأستاذ والتى لم يناقشه فيها أحد ..

إن طه حسين قد أراح واستراح .. فهو لم يعرف إلا امرأة واحدة .. هى زوجته . وإن كان توفيق الحكيم يحكى أن امرأة فرنسية قد أعجبتهما معا .. ولكن طه حسين اختار المرأة التى اختارته ، وكان غريبا أن يتحدث طه حسين عن المرأة ، وإن كان طه حسين قد لمس المرأة من بعيد عندما تحدث عن زملائه من طلبة الأزهر الذين يذهبون إلى بيوت الدعارة فى شارع كلوت بك .. وكانوا يتلاعبون بالدين . إذ يكفى أن تقول المرأة للواحد منهم : قبلتك زوجا . فتصبح زوجته .. وبعد أن ينهض بعيدا عنها ويرتدى ملابسه يرمى عليها يمين الطلاق ثلاثا .. وهذا هو الحلال عندهم – أو التلاعب بالحلال عندهم . فلم يكن فى استطاعتهم أن يتزوجوا .. وهم يعلمون أن أبغض الحلال عند الله : الطلاق ، وأبغض الحلال عند الإنسان : الزواج .. ويوم روى الشيخ أحمد أمين أن سيدة فرنسية كانت تعلمه اللغة الفرنسية وهو يعلمها اللغة العربية ، فكانت لاتعرف أن تنطق حرف « العين » فكان يقول لها : إن عينك تعجبنى .. يومها ارتجفت الأقلام الأدبية فى مصر . إذ كيف يجاهر الشيخ أحمد أمين بأنه يعاكس امرأة فرنسية .. ولم نعرف بعد ذلك إن كانت

له غراميات .. أما توفيق الحكيم فقد جاهر بأن له غراميات . ولكن الحكيم كان يهرب من هذه الغراميات بأن يجعلها قصصا من الفشل .. فشله هو فى أن يكون عاشقا ، أو أنه لم يكن مشغولا بالحب . رغم أنه يتمنى ذلك ، إنما كان مشغولا بحب المعرفة والحقيقة والدراسة .. ولابد أن الأستاذ العقاد عندما أحب الآنسة « مى زيادة » قد أحب فيها مالا يجده عند النساء الأخريات .. ثم من هن هؤلاء النساء الأخريات ؟ .. إنهن اللائى يجئن إلى بيت الأستاذ ، أما هو فلم تكن له مغامرات .. فلم يكن فى استطاعته أن يجلس فى مكان عام .. أو يمشى مع فتاة فى الطريق .. فقد أحس بأنه كبير ، وأن أعداءه كثيرون .. فحرم نفسه وحرموه ، ورضى بذلك ، ثم إن غراميات الأستاذ ، إن كانت غراميات ، تذكرنا بقصة الأسد فى « كليلة ودمنة » . فعندما تقدمت السن بالأسد ، أصبح عاجزا عن أن يصيد الحيوانات .. ولذلك كان يأكل كل حيوان يزوره ، ويقال إن بعض الحيوانات عابت على الثعلب أنه الوحيد الذى لم يزر الأسد المريض . فوعد الثعلب بزيارته . ولكنه عندما اقترب من عرين الأسد لاحظ أن الأقدام كلها تتجه إلى الداخل فقط .. أى أن الذين يدخلون لايخرجون .. فالداخل مفقود .. والخارج مولود . وكلهم مفقودون . فقرر الثعلب ألا يزور الأسد .. وكان الأستاذ هكذا يحب اللائى يجئن إليه . ولذلك فالذين أحبهم نساء عاديات .. والوحيدة التى لم تكن عادية ، ولم يستطع أن يحبها ، هى الآنسة مى زيادة ، فلم تكن له وحده . فهى أيضا لاتستطيع أن تجلس إلى أحد فى مكان عام ولا أن تمشى معه ولا أن تختار واحدا دون آخر . فقد كان أعلام مصر جميعا يترددون على صالونها الأدبى .. وكانت تجاملهم ويرون فى المجاملة حبا شخصيا . لقد اكتووا جميعا بنارها ، ولكنهم أحرقوها بنارهم ..

ولن أطيل عليكم أيها الأعزاء .. فأنا واحد من فرسان العشق . وحياتى ولله الحمد مستورة . أبى تاجر غنى . وأمى فلاحة غنية . ولا علاقة له بالأدب ولا علاقة لها بالحب .. ولكننى هكذا مثل الأعشاب الشيطانية ظهرت فى بيئة بسيطة جدا .. وبلا مشاكل . وإذا كان هناك مبدأ واحد يجب أن يعيش من أجله الإنسان ، وأن يموت من أجله فهو : الحب .. أن أحب وأتمتع وأحارب من أجل هذه المتعة .. وأرى أن أعظم إنسان فى كل العصور هو : مجنون ليلى .. وأعظم من مجنون ليلى ذلك العاشق الإيطالى كازانوفا .. وأنا أفضل كازانوفا . وأرثى لحال مجنون ليلى وكثير عزة وروميو وجوليت .. فهم جميعا مراهقون ماتوا دون أن يتمتعوا بما فى هذه الدنيا من جمال . وأجمل ما خلق الله : المرأة . ولا شىء أحترمه فى آلهة الإغريق إلا أنهم يتركون عروشهم جريا وراء الجميلات .. وأنا أعرف بالضبط عذاب هؤلاء الذين أحبوا المرأة ولكنهم فقدوا نعمة البصر : هوميروس وأبو العلاء المعرى والأعشى وميلتون وطه حسين وبابينى وهكسلى وثربر .. وأرى يا أعزائى ، أنكم جميعا محرومون جنسيا . وأن هذا الحرمان هو الذى أعطاكم هذه الدفعة القوية لكراهية الحياة ، مع أنكم على

أول عتبة لها .. فكيف يكره الإنسان مالا يعرف ؟ وكيف يلعن الإنسان البحر وهو لم يركب موجة واحدة ؟ .. إن مثلى الأعلى قصة جاءت فى « الديكاميرون » أى العشريات . أى عشر قصص فى عشر قصص .. لأديب إيطاليا بوكاتشيو .. فقد التقى سبع فتيات وثلاثة رجال بالصدفة فى الكنيسة .. ورأوا أن يهربوا من الطاعون . واتفقوا على أن يكون كل واحد منهم ملكا لليلة واحدة ، يقول ويفعل مايشاء بالآخرين .. أما القصة التى أعجبتنى فهى أن أميرة أحبت شابا من عامة الشعب . ولكن والدها رفض ذلك . وفى يوم اختفى فى غرفة نومها ووجد الشاب يحملها إلى الفراش ، فهجم على الشاب وقطع رأسه ثم أخرج قلب هذا الشاب ووضعه على طبق . وإلى جوار الطبق وضع كأسا من النبيذ لتشرب ابنته تحية لانتصار والدها على حبيبها . وأمسكت الفتاة بالكأس وأضافت إلى النبيذ سما . وشربت السم ووضعت قلب حبيبها على قلبها .. وماتت . وانتصر الحب .. ولو قدر لى أن أموت لاخترت أن يكون ذلك من أجل التى احبها بشرط أن تموت هى قبلى .. وأن أقتلها أنا بيدى .. بصراحة فإننى أخشى إن مت قبلها أن تكتفى بالبكاء وارتداء الملابس السوداء .. والذهاب إلى الأستاذ تشكو له سفالة أحد تلامذته .. وتكون بعد ذلك واحدة من معشوقات الأستاذ – هكذا تعلمنا منه ! .

وجاء الدور على الخواجة وليم .. وهو متوسط الطول كبير الرأس .. ويتكلم بسرعة .. ويلف الكلمات بعضها فى بعض فلا تتبين بوضوح ما الذى يقول .. ومع ذلك لايتوقف لكى يوضح لنا ما الذى يقصده ، وهو يصف حالته بأنه وجد نفسه لاعباً فى فريق لكرة القدم . وأن أحدا لم يطلعه على أسرار هذه اللعبة . كل مايعرفه هو أن الكرة إذا جاءت إليه ضربها . خارج الملعب أو فى أى اتجاه .. أى المهم عنده هو أن يتخلص من الكرة .. وليس أن يسددها إلى الشبكة .. أو حتى يتعاون مع أحد من زملائه من أجل إحراز الهدف .. ولذلك فهو يرفض الكثير مما يقال .. وفى نفس الوقت ليست لديه أية أفكار بديلة .. وفى إحدى المرات سألته : قل لى يا وليم .. إذا لم تكن طالبا يدرس الفلسفة ، فأى شىء كنت تختار ؟ .. قال دون تردد ودون تفكير وبسرعة : كنت أعمل كناسا فى الكنيسة .. فبعد أن يخرج الناس من الكنيسة لا أجد إلا التراب وإلا الهواء الفاسد .. وإلا القناديل أنفخها لتنطفئ .. وإلا الرطوبة .. وإلا الصور الركيكة على الجدران .. وإلا قس الكنيسة قد خلع الملابس السوداء وراح يأكل الدجاج المشوى هو وأولاده .. وأجد أن هذه مناسبة عظيمة ليتأكد المعنى العميق فى نفسى : أن الدين تجارة .. وأن التجارة دعارة .. فكل شىء فيها يباع : السلع وصاحب السلع .. وأن التجارة سرقة .. وأن السارق فى حاجة إلى تغطية ، إلى تعمية تخفى ماخطفه من الناس .. وأن الدين أحسن غطاء وأحسن دواء .. وأن الناس لايفكرون فى ذلك كله ، فليس عندهم وقت ، ولوكان عندهم وقت ، فليست عندهم قدرة على التفكير ، ولا عندهم شجاعة على

أن يقولوا : لا .. لما سمعوه من الأب والأم والمدرس ورجال الدين – وأنا أعرف ذلك . فقد كان لى أخ قسيس ، وكان يضرب زوجته وأولاده . وفى نفس الوقت يعظ الناس بالرحمة والحب .. ولا أعرف كيف يقول ذلك .. بينا زوجته تنظر إليه من النافذة وتستمع إلى مواعظه ؟ .. بل أعجب من ذلك أنه كان يقرأ عليها مواعظه المكتوبة .. إذن لقد كان أخى قادراً على هذا الكذب اليومى أو الأسبوعى .. وكان يسعدنى فى كثير من الأحيان أن أكنس مواعظه من الكنيسة .. أكنس صداها .. وأكنس أوراقها المكتوبة .. كنت أمزقها وألقى بها على الأرض ، وأخلطها بمخلفات الناس ، وأحملها بعناية شديدة وأضعها فى صندوق الزبالة إلى جوار « طبلية » الملوخية التى كانت تحرص زوجة أخى على أن تضعها عند مدخل الكنيسة بعد أن يخرج الناس » .

وفى تلك الليلة وقف الخواجة وليم .. الذى أصبح مديرا لمعهد الدراسات النفسية فى البرازيل . وقال : أريد أن أوضح لكم منذ اللحظة الأولى أنكم جميعا لاتهموننى .. لا أنتم ولا هذه الآلهة .. لماذا ؟ لأننى قررت أن أترك هذه البلاد . فأنا هنا فى منطقة الترانزيت من المطار .. سوف أنتقل إلى بلاد أخرى .. وبصراحة .. لقد كفرت بالأستاذ .. كما كفرت بأشياء أخرى كثيرة .. فالأستاذ يعطيك انطباعا بأنه عالمى . وبأنه إنسانى .. وأنه فوق الألوان والأجناس والأديان .. ولكن اسمحوا لى يا إخوانى أن أقول لكم إن الأستاذ مسلم متعصب جدا ، وإنه عندما كتب عن « المسيح » ، لم يكن إلا مسلما ، وقد حاول الأستاذ بذكاء عظيم ألا يغضب المسيحيين . ولكن ماكتبه عن المسيح كان براعة رجل مسلم . فقد صنع للمسيح صليبا . وجعل اليهود يصلبونه . أو يتوهمون ذلك . ولكنه لم يشر إلى الديانة المسيحية .. ومع ذلك فلست مسيحيا مؤمنا .. ولا حتى مؤمنا .. فالرجل الذى أحرقنا حوله البخور ، وأقمنا له الصلوات فى أعماقنا ، كان يخوننا مع ديانة أخرى .. لقد توهمنا أنه مؤمن بكل القيم الإنسانية والأخلاقية .. ومؤمن بإله واحد .. أياً كان اسم هذا الإله .. ولكننى أرى الأستاذ قد خان الأمانة : فى الدين وفى المرأة .. فهو خائن بقدر ما المرأة خائنة عنده .. وهو الذى قال لنا : إن الإنسان يستطيع أن يحكم على مجتمع من المجتمعات إذا عرف نظرة الرجل إلى المرأة فيه . ونظرة الرجل إلى المرأة تدل على معنى الحرية عنده . والحرية تدل على معنى المسئولية ، والمسئولية هى الطريق إلى حماية الدين من الدنيا .. إلى آخر ماقاله الأستاذ .. ولكنى لا أريد أن أحاكم الأستاذ كما تريدون أنتم . فلا حق لى فى ذلك .. ثم إننى تارك لهذه الديار .. وأنتم وحدكم : القضاة والمحلفون والجلادون والمتهمون والمؤرخون والضحايا .. إننى كاليهود .. فهم ينضمون إلى كل جمعية دينية وإلحادية وسياسية وفوضوية وفنية .. لماذا ؟ لأنهم فى حالة قلق دائم . فى حالة فزع أبدى . ويظنون أن كل علم يرتفع قد يؤدى إلى خلاصهم ، ولذلك فهم يمشون وراء كل داعية ، ووراء كل نبى ، ووراء كل مجنون .. ولذلك كثر أنبياء بنى إسرائيل .. فالمجتمعات اليهودية تفرز الأنبياء وتفرز الإرهابيين .. والمحافظين

والمصلحين والمتحررين والمتحللين والوثنيين وتجار الذهب وتجار الرقيق .. وأنا وجودى من أول رأسى إلى قلمى .. لأننى أشعر بالغرابة والغربة ، وأشعر بالعلاقة العضوية مع كل الأقليات فى الدنيا .. الزنوج واليهود والغانيات والشواذ .. نحن جميعا صورة من صور الظلم الاجتماعى والاضطهاد الأبدى ..

وقد أكون مبالغا ، ولكن لاحيلة لى فى ذلك .. إنه شعورى .. فأنا لا أشكو نقصا فى المال أو فى الطعام ، ولا نقصا فى الأقارب .. قد أكون مريضا .. ممكن .. قد أكون مجنونا .. ممكن .. ولكنى مصر على أن أبدو كذلك .. لقد ولدت واسمى : « سعيد أمين » .. ولاحظت أن الناس يختلفون فى أمرى : إن كنت مسلما أو مسيحيا .. ولذلك غيرت اسمى عندما تركت سوهاج وجئت إلى القاهرة ، وجعلته كما تعرفون « وليم جرجس » حتى لا يكون هناك خلاف ، فأنا اخترت اسمى واخترت دينى ، رغم أننى لست متدينا ، واحتفظت بلهجتى الصعيدية . ورفضت مجتمعى . وقررت الهجرة من مصر .. وسوف أذهب إلى بلاد لا أشعر فيها بأى امتياز ، فكلهم على دينى .. وإن لم تكن لهم لغتى وبشرتى ، وتاريخى وفلسفتى ، فأنا قد صفيت حسابى مع الأستاذ ومع الجميع ، ولست فى حاجة إلى أن أواجهه .. ولو واجهته ماوجدت عندى ما أقوله له .. انتهى ما بيننا – أى ما بينى وبين الأستاذ وما بينى وبينكم .. ولو شئتم ، على سبيل المشاركة فى محاكمة الأستاذ ، أو التمرد عليه ، لسألته عن عشر صفحات جاءت فى كتابه عن « المسيح » وست صفحات جاءت فى كتابه عن « الشيطان » .. ولن أعلق بكلمة واحدة على ما سوف يقوله الأستاذ ! وباختصار يا أعزائى ، لست حزينا على شىء ، فهذه النبرة الحزينة قد ورثتها ، فأنا ، كما تعلمون ، من أسرة أكثر أبنائها قساوسة .. ولكنى أعلن لكم بكل وضوح أننى ميت أو أن الأستاذ هو الذى مات .. فإذا ماحاكمتمونى بعد وفاتى .. فأنا مثل كثيرين من رجال الدين قد لحقهم هذا الشرف العظيم .. فتوماس بيكت الذى عاش ومات فى القرن الثانى عشر كان كبير الأساقفة وكان أعدى أعداء التاج البريطانى . أعيدت محاكمته بعد ثلاثة قرون من إعدامه .. فأخرج هيكله العظمى وأدين بالإلحاد ، وأحرقت بقاياه .. ورجل الدين الشهير جون ويكليف الذى عاش فى القرن الرابع عشر حوكم بعد وفاته بخمسين عاما . وأدين بالإلحاد .. ويسعدنى قبل أن أغادر هذه البلاد هذا العام أو العام الذى يليه أن أسمع كلمة رثاء من أحد .. وإذا تفضل أحد بذلك . فسوف أجدنى فى قائمة العظماء الذين سمعوا نعيهم وهم أحياء .. فالمخترع السويدى الشهير الفريد نوبل قد قرأ نعيه فى الصحف الفرنسية .. فعندما مات أخوه ، ظن أحد الصحفيين أن الفريد نوبل هو الذى مات فكتب نعيا قال فيه : لقد مات تاجر الموت والدمار ، ولما قرأ الرجل أنه بهذه الصورة الوحشية اخترع جائزة نوبل للآداب والعلوم والسلام ! وكذلك الأديب الأمريكى مارك توين قرأ نعيه .. وكذلك الفيلسوف برتراند رسل قد مرض عندما كان فى الصين سنة

١٩٣٠ . ونشرت الصحف اليابانية أنه مات . وكان نعيه رائعا .. أما برناردشو فهو الذى كتب نعيه بنفسه .. وأما الأستاذ العقاد فقد كتب أبياتا من الشعر توضع على قبره .. إنه أراد أن يوفر على أصدقائه أو تلامذته أن يكتبوا عنه شيئا . وأنا لا أريد أن أوفر عليكم هذا العناء ، ولذلك فأنا حريص على أن أسمع منكم كلمة طيبة أو رديئة . قبل أن أغادركم بعيدا جدا .. إلى حيث لاتقوى أقدامكم على أن تحملكم إلى هناك .. وسوف ألقى بكل ما قرأت وتعلمت وتأملت فى المحيط الأطلسى الذى يفصل أفريقيا عن أمريكا .. وأنا لا أشكو أحدا ، لأننى لا أشكو من أحد . وإذا كان هناك مايوجعنى فهو هنا .. فى رأسى وفى قلبى .. وفى دمى .. وفى لون بشرتى .. وفى قريتى فى محافظة سوهاج .. وفى أسرتى من رجال الدين .. وفى كل الذى قرأته للأستاذ .. وفى هذه الصداقة التعيسة التى جمعت بيننا على مضض عشر سنوات .. وتوهمنا أننا نعيش فى ملكوت السماوات .. وأن هذه السماوات هى الأرض التى نمشى عليها .

أما أسعدنا جميعا فهو الصديق الذى نسميه كوكتيل .. لقد أصبح نائبا لرئيس إحدى الجامعات المصرية . فالرجل سعيد بحياته . فهو أجنبى تماما عنا .. أمه فرنسية وأبوه تركى . وليست له مشكلة مادية أو أدبية . ولكنه يجاملنا فقط . وكان يغضب عندما نروى له الحادثة التى وقعت بين الأستاذ العقاد والسيدة تماضر توفيق والسيد سعيد أبو السعد .. فبعد اغتيال محمود فهمى النقراشى باشا رئيس الوزراء كانت للأستاذ أحاديث فى الراديو عن « نفسية المجرم الإرهابى » .. وكانت تذاع على الهواء مباشرة . أى أنه لايسجلها ثم تذاع بعد ذلك . وفى أحد الأيام صعد الأستاذ سلما طويلا فى مبنى شركة ماركونى .. والسلم مرهق . وجلس الأستاذ وحده . وفجأة ظهرت السيدة تماضر توفيق . ولم يكد يراها المذيع سعيد أبو السعد حتى هلل ورحب بها : حمدا لله على سلامتك يا تومى .. أهلا يا تومى ..

ولم يلتفت الأستاذ سعيد أبو السعد إلى أن الأستاذ كان جالسا . فغضب الأستاذ ونزل . ولما جاء الموعد المحدد لحديثه . لم يجده سعيد أبو السعد . ولم يعرف ما الذى يمكن أن يفعله سوى أن يذيع بعض الأغانى أو الموسيقى ، وكان لابد من محاسبة السيد أبو السعد .. ولكن الأستاذ هو الذى غادر المكان دون سبب واضح . وقالوا لسعيد أبو السعد ، لابد أن تذهب وتعتذر للأستاذ العقاد .. لابد .. وإلا ..

وذهب واعتذر للأستاذ . وكان سعيد أبو السعد مذيعا مرحا خفيفا . وكان إذا تحدث فى الميكروفون فإنه يندفع بصوته كأن ثورة قد وقعت ، مع أن الذى سوف يعلن عنه هو أغنية من الأغانى ، وبعد أن اعتذر للأستاذ سأله : والآن يا أستاذ بعد أن اعتذرت لك وقبلت عذرى ما رأيك فى « أنا » ؟

وهنا قال الأستاذ عبارته الموجعة : رأيى فيك أنك رجل مقبل على الحياة بلا مبرر !

أعوذ بالله من قسوة هذه العبارة التى كنا نطلقها على صديقنا «كوكتيل» هذا .

ولكنه فى ذلك اليوم مسح كل آرائنا السخيفة عنه . قال : يا أيها الأصدقاء . يجب أن تشكروا الله سبحانه وتعالى أن خلقكم فى هذا العصر . فلو عشتم فى عصر الرومان لتركوكم فى العراء حتى الموت . لأنكم مرضى — جميعا . يستوى فى ذلك الذين يزعمون أنهم بلا شكوى ، والذين يزعمون أن لهم شكوى .. وأنا مندهش جدا لأسلوبكم فى التفكير ، لماذا لاتطبقون على الأستاذ ما يطبقه هو على نفسه وعلى غيره من الناس ؟ وسوف أضرب لكم مثلا واحدا ، ماكتبه الأستاذ عن كارل ماركس . إن الأستاذ عندما حلل شخصية كارل ماركس وجد أنه منافق ابن منافق .. فأبواه يهوديان ولكنهما اعتنقا الديانة المسيحية لكى يعيشا .. ثم إن كارل ماركس نفسه شاذ وفقير وحاقد ومفلس ولا يفيق من الشراب .. وأول الناس الذين ثار عليهم هم كل الذين أطعموه .. بما فى ذلك صديقه فريدريش انجلز . وهو توأمه الروحى . أو على الأصح توأمه المادى .. والأستاذ يرى أن رجلا بهذا الانحطاط والسفالة ، كيف يقبله العالم نبيا للعدالة والجنة على الأرض ؟ ! .. ثم ماذا حدث لابنتيه من بعده ؟ .. لقد انتحرت الأولى .. وانتحرت الثانية هى وزوجها معا ، لأن الفلوس التى كان يبعث بها فريدريش انجلز قد تأخرت عن موعدها .. إنها أسرة من الشواذ والمنافقين والمجانين .. فلماذا لاتطبقون هذا المنهج ، أى « التفسير النفسى للتاريخ » على الأستاذ نفسه ؟ أعيدوا النظر فى ظروفه الاجتماعية والتربوية والعنصرية وفى تكوينه الجسمى ومزاجه النفسى وتجاربه العاطفية الفاشلة ومخاطراته السياسية . وشعوره الدائم بأنه لم ينل مايستحق ، كما قال أحد الزملاء قبل قليل .. إذا أنتم فعلتم ذلك . وجدتم له عذرا ولأنفسكم أيضا .. حاسبوه بنفس الحساب . وكيلوا له بنفس الكيل .. ولو كنت القاضى فى هذه المحكمة أو هذه المحاكمة لحكمت ببراءة الجميع ، فلا أحد مخطئ .. والإنسان برىء إلى أن تثبت إدانته .. ولم تثبت إدانة أى واحد منكم .. فأنتم جميعا أبرياء .. ولذلك أرى أن نفتح الأبواب والنوافذ .. وأن ننهض فورا ، وقد انتصف الليل . وأن نعود إلى بيوتنا .. وإن كنت أرى أن أدعوكم جميعا إلى عشاء ، وإن كنت لا أتمنى أن يكون « العشاء الأخير » الذى خان فيه السيد المسيح واحد من تلامذته .. وأسلمه للرومان فصلبوه .. تعالوا جميعاً .. إلى عشاء .. إلى ليلة حمراء .. ولابد أن تكون حمراء .. لها لون الشمس عند الشروق وعند الغروب .. ولها لون جهنم التى استعجلتم عذابها وسعيرها .. ولها لون الشفاه والخدود والنبيذ .. ودم الأبرياء .. اختاروا لأنفسكم المعنى الذى يناسب هذا اللون الأحمر .. ولكني أرى أنه اللون الذى يساوى بين جميع الألـوان .. ويقضى عليها ويوحد بينها وينسينا أننا بشر .. ويجعلنا نحس أننا أصبحنا بلا بشرة .. أننا دم فقط .. صدقونى ، ولا أظنكم سوف تفعلون لاعتقادكم أننى تافه .. إن الحكاية لا تساوى شيئاً .. ثم إننى

لا أعرف ما هى الحكاية .. والله لا أعرف .. إنكم تحملون الكرة الإرضية على رءوسكم .. وعندكم فى الأساطير أن الذى يحمل هذه الكرة هو « الثور » . فيا معشر الثيران تعالوا إلى اصطبل آخر غير غرفة دفن الموتى الفرعونية التى جلسنا فيها منذ أول الليل .. قوموا قامت قيامتكم جميعا ! .

ولم يبق لأحد أن يقول شيئا سواى .. وأعرف أن شيئا صعبا جدا أن يجعل الإنسان نفسه « بكرة » خيط .. ثم يبدأها من أولها .. إنها ليست قضية شخص إنما أشخاص أو نوعية من أبناء الريف أو جيل من الذين تعلموا واستغرقهم العلم بعيدا عن السياسة . فأنا وغيرى ، نحن الوجه الآخر لعملات فضية ونحاسية وذهبية وورقية صحيحة ومزورة . وكان علينا أن نتحقق من ذلك بأنفسنا ولأنفسنا ، وبمعونة الآخرين وضدهم !

كيف تتحرر من حريتك ؟!

أكثر الناس إحساسا بالعذاب ، أشدهم إحساسا بما هم فيه .. أى بالحياة : طولاً وعرضًا .. ارتفاعا وعمقا . وكما أنه ليس بالأبوين يعيش الإنسان ، فكذلك ليس بأى أستاذ يعيش أى تلميذ ..

قال أديب روسيا دستويفيسكى : أحببت وتعذبت ، وكرهت وتعذبت ، ووقفت على الحياد بين العواطف وتعذبت .. ولكنى بسبب ذلك ورغم ذلك : عشت ! ..

هو الذى قال هذه العبارة . وعليه وحده أن يتقدم لنا بالدليل على ذلك .. ولكن كل ما أذكره من هذه العبارة أن العذاب موجود دائما بعد وقبل وأثناء كل عاطفة . فالعاطفة هى العذاب . وما دامت الحياة هى العواطف . فالحياة هى العذاب . وكما أن الحياة تختلف طولا وقصرا ، فكذلك العذاب .

هل أضع نفسى إلى جوار دستويفيسكى وأقول : آه ؟ .. هل أرتدى حذاءه وملابسه وأجلس إلى مكتبه وأضع عينى على الباب وأذنى على الشباك خوفا من الدائنين والمرابين والناشرين ، ثم أنهار على الأرض مصابا بالصرع لتصبح عبارته صادقة تماما ؟ لا أظن أن أحدا فى حاجة إلى كل ذلك ليتعذب ثم يهز رأسه بصورة قاطعة ويقول : فعلا إن الحياة عذاب ..

لقد روى كل واحد من الأصدقاء الخمسة كيف كان عناؤه ، أو كيف لم يكن .. وانتهى إلى رأى واحد : أن الحياة ممكنة من غير الأستاذ .. بل من غيره يكون الإنسان أكثر حرية .. ثم إن الإنسان تلميذ بعض الوقت ، كما أنه ابن بعض الوقت .. وبعد ذلك يجب أن يمشى على ساقيه هو ، وأن يرى بعينه هو .. وأن يواجه الدنيا ويصادمها ويصارعها .. وليكن بعد ذلك مايكون .. أى ليكن هو مايكون ، ولتكن الدنيا ماتكون .

لقد لاحظت أننى أنا وزملائى قد كشفنا أنفسنا ، فقد كان احتجاجنا وتمردنا عليه فضيحة أخلاقية . فقد حملناه أكثر مما ينبغى . وجعلناه مسئولا عن كل شىء فى تكويننا العقلى .. وجردنا أنفسنا من هذه المسئولية . ولذلك فعند الحساب أى حسابنا لأنفسنا . طلبنا إليه أن يدفع هو الحساب . وأن يحمل عنا الخطأ . وأن يبرئنا من الذنب ..

لقد نسينا عند أول امتحان لأنفسنا ـ أول ماتعلمناه منه : حرية الرأى . ومسئولية القرار . وأن

نواجه أى أحد . أيًا كان هذا الأحد .

فى اليوم التالى التقينا فى نفس المكان ، وأحسسنا كأننا شخصيات فى « ألف ليلة وليلة » ، وأن شهرزاد قد أدركها الصباح فسكتت عن الكلام المباح وغير المباح .. ثم صاح الديك لتتثاءب شهرزاد وتنام والملك شهريار إلى جوارها . وهذه هى النهاية التقليدية لقصص ألف ليلة . ولكننا فى تلك الليلة أتينا بالديك وذبحناه حتى لانسمع له صياحا . وذبحنا مع الديك كل أمل فى النجاة ..

وتذكرنا العبارة التى نقشها الشاعر الإيطالى دانتى الليجيرى على باب جهنم : أيها الداخلون .. اتركوا وراءكم كل أمل فى النجاة .

ولكن الفرق بيننا وبين الشاعر أن العبارة موجهة إلى الداخلين ، ولكننا خارجون .. فقد تركنا وراءنا هذه العبارة ، وتركنا وراءنا اليأس من النجاة . فليس أمامنا إلا الأمل فى نجاة أنفسنا .. من ماذا ؟.. من هذا .

ولم أكن فى حاجة إلى أن أقف لكى يعرف زملائى الخمسة أن دورى فى الكلام قد جاء . فدورى فى الكلام لم يتوقف لحظة واحدة . فإن الذى أقول بلسانى ولسان الآخرين .. وعندما يتعب لسانى ، فإننى أسحب ألسنة الآخرين . وأركبها فى فمى وأقول ..

ولكن وجدت أننى أشد الجميع حاجة إلى أن أتكلم عموما . وإلى أن أسابق الملل . فأنا أريد أن أتعمق مشاعرى . وأن أضعها أمامنا بسرعة دون أن أضيق بما أقول أو يضيق أحد ..

قلت : من أحب العبارات عند الأستاذ وهو يتحدث عن نفسه .. أو عندما يحاول أن يعطى « مفتاح شخصية » أى إنسان أن يقول : إن الإنسان عندما يتحدث عن نفسه ، فلابد أن يتحدث عن ثلاثة أشخاص آخرين .. فهناك « أنا » كما يراها الناس .. و « أنا » كما أرى نفسى .. و « أنا » كما أحب أن أكون ..

وكل ما أذكره من طفولتى هو أننى كنت أركب سيارة إلى جوار والدى ووالدتى .. وقد استقرت على ركبتى ساعة حائط .. عبارة عن صندوق له واجهة زجاجية . وتحت الواجهة توجد عقارب الساعة . وقد تدلى منها بندول .. وهذه الساعة هى أعز ما لدينا .. وكانت السيارة تنقلنا من مكان أعرفه إلى مكان لا أعرفه .. وكانت هذه الساعة تشبه التابوت . كأن الزمن مات وهذا هو نعشه تنقله من مكان إلى مكان . فإذا ذهبنا إلى بلد آخر أو بيت آخر دبت الحياة فى هذه الساعة ، واستقرت واقفة على الحائط تدق . ولسانها يتحرك إلى غير نهاية .. هل الزمن هام عندنا ؟ وما أهمية هذا الزمن ؟ وما أهمية أن تكون فى البيت ساعة حائط ؟ ومن الذى ينظر إليها ؟ وماذا يفعل لو نظر ؟ أو ماذا يحدث إذا لم ينظر أحد ؟ .. لا أعرف .. ولكن نعش الزمن نحمله ليلا ونهارا فى سيارة من بلد إلى بلد ..

فنحن دائما على سفر ..

وكنت أحيانا أنظر من النافذة إلى ما وراء السيارة .. وكنت أرى التراب يتعالى .. وكنت أرى فى هذا التراب صورا لكلاب وذئاب تجرى وراءنا .. وأحيانا كنت أرى أشخاصا أو أشباحا .. وأجد نفسى بين أمى وأبى . وأنظر يمينا وشمالا فلا أجد أحدهما يقول شيئا . ولكن هذا الصمت حزين فأبى قد انتقل من العمل فى مكان إلى العمل فى مكان آخر .. أهذه الرحلة جنازة سريعة ؟ هل هى حزن على الذى ذهب . وخوف من الذى سيجىء ؟ هل دائما كل الذى ذهب أفضل من الذى سوف يجىء ؟ ألا نعرف الفرحة بما هو آت ؟ ..

لقد اعتدنا على أن ننتقل فى سيارة من مكان إلى مكان . من شىء عرفناه وكرهناه إلى شىء لانعرفه ونخافه .. أو هكذا تصورت . ولم أجد أحدا يساعدنى على فهم شىء من ذلك . فهذا السفر يتكرر كثيرا ..

إن هذه الأسرة الصغيرة الحائرة أقرب إلى الرعاة . أو إلى البدو الرحل .. إنهم ينتقلون من مكان إلى مكان جريا وراء العشب . والعشب قليل .. والمثل اللاتينى القديم ينطبق علينا تماما : إن الحجر المتحرك لاينبت عليه العشب ..

العشب لاينبت علينا ، لأننا لانكف عن الحركة . ولكى ينبت العشب يجب أن نستقر لكى نتلق الماء والهواء ، ونعطى للبذور فرصة أن تنمو وتترعرع . ولكن مادام الحجر يدور ويتقلب فإن البذور تتساقط وكذلك الماء .

ولم تكن هذه السيارة وسيلة الانتقال من حالة إلى حالة .. إنما هى وسيلة الانتقال إلى أعماق حالة واحدة هى : القلق .. هى الخوف .. هى عدم الشعور بالأمان ..

وقد عرفت الإنسانية مرحلة الرعى وجمع الثمار قبل أن تعرف بناء الأكواخ والبيوت .. لقد عاش الرعاة على ظهور الخيل والإبل .. يحملون متاعهم الخفيف . ثم يهبطون بعض الوقت إلى جانب من الأرض . وبعد ذلك يرحلون .. وعرفت البشرية فى تاريخها الطويل كيف يهاجم الرعاة كل الناس الآمنين فى بيوتهم . ثم يهدمونها ويقيمون خيامهم . ويختفون ومعهم كل ما استطاعوا أن يسلبوه وينهبوه .

ولكننا جئنا متأخرين كثيرا جدا . فالرعاة هم الأقلية وسكان المدن هم الأغلبية الساحقة ونحن قافلة صغيرة حائرة أو أننا ظاهرة اجتماعية متخلفة . فنحن أقرب إلى الغجر . أو إلى عمال التراحيل .

وكما يحدث فى المدن الحديثة . فإنهم يوقفون مثل هذه الجماعات القلقة . عند الحدود الدولية . فلا يسمحون لهم بالدخول . وأحيانا يوقفونهم عند الحدود فقط . ولا أنسى ما رأيته فى مدينة سان سباستيان بين فرنسا وأسبانيا فقد وجدت نفسى وسط عدد كبير من السيارات . والسيارات قد تقاربت على شكل دائرة كبيرة ووسطها انتشرت مقاعد . لقد كان مقهى . وجاءت راقصة سوداء

الشعر والعينين . ورقصت وفى يديها صاجات من النحاس الرنان .. أو كانت يداها هما الصاجات . وكانت لأصابعها نغمة نحاسية مفزعة . ومن حولها الطبول مدوية . والناى حزين .. ومع كل دقة طبلة يتمزق جزء من فستانها . يسقط على الأرض والناى يبكيه . إنها جنازة موسيقية . ثم جاء الغناء ، لم أفهم منه كلمة واحدة . وهو أيضا إن لم يكن غناء فهو نواح . وأحسست أن من الضرورى أن أقف ، وأن أؤدى واجب العزاء . وبعد ذلك يجب أن أسأل عن هذا الذى مات . وجاء الطعام ولم أستطع أن آكل . ولم أستطع أن أمتنع عن الدفع . إنه مطعم غجرى . فلا جنازة ولا ميت . إنما هناك أناس يبكون حظهم . وأنا قد تسللت إليهم دون شعور منى . لسبب لايعرفونه . ولكنى أعرفه . هو هذا المعنى المشترك بيننا .. هذا المعنى العميق جدا .. إننى أيضا قد عانيت حياة الرعاة .. البدو .. الغجر .. فى العصر الحديث .. مع أن الغجر غرباء عن كل أرض فليس لهم وطن .. ولم أكن غريبا عن أرضى وعن بلدى وعن أهلى .. ولكننى كنت كالغرباء ..

ولاحظت أننى أسرفت ، فيما كتبته بعد ذلك . فى استخدام كلمات : الغريب والغرباء .. والغربة .. والاغتراب .

وأننى سبقت بذلك أستاذى عبد الرحمن بدوى فى تداول هذه المفردات .. أنا لا أزال أحتفظ بقصة قصيرة كتبتها وأنا فى الثانية عشرة من عمرى عنوانها : أغرب الغرباء . وكان موضوع هذه القصة أننا فى إحدى الرحلات المدرسية كنا لانعرف بعضنا البعض .. لقد كان كل واحد منا موفدا من مدرسة . وكنت أجدنى لا أشارك فى شىء مما يفعله الطلبة . وجلست وحدى أتفرج أو أتأمل أو أسرح .. وأن زملائى قد نهضوا إلى الأتوبيس . ركبوه . وتركونى وحدى . وصحوت من النوم . لأجدنى جالسا على إحدى الدكك وقد وضعت « ساعة الحائط » على ركبتى . انتهت القصة !

وعندما صدرت لى ثلاثة كتب عن الرحلات فيا بعد : بلاد الله خلق الله .. اليمن ذلك المجهول .. أطيب تحياتى من موسكو .. جمعتها فى مجلد واحد وجعلت عنوانه « غريب فى بلاد غريبة » ولم أكن أعرف أن هذه العبارة قد قالها موسى عليه السلام . فعندما ذهب إلى أرض كنعان قال عن نفسه إنه الغريب فى الأرض الغريبة . ورأى موسى أرض المعاد . ومات دون أن يدخلها . لقد ملأ بها عينيه ومات . أو دفنها فى عينيه . فماتا معا .. غريبا فى أرض غريبة ! ..

وقد كتبت كثيرا عن بعض المشاهد فى الأدب العالمى وكيف إنها هزتنى . مع أنها لم تهز أحدا . مثلا : فى قصة « مدام بوفارى » انتفضت عندما قرأت أن الطالب الصغير شارل بوفارى ذهب إلى المدرسة . وسأله المدرس : ما اسمك ؟ فقال : شال بوفارى .. فسأله المدرس أن ينطق اسمه جيدا . فقال : شال بوفارى : انتهى الحوار البسيط الذى أزعجنى . مع أنه لايزعج أحدا . ولكنى لأنى كنت أنتقل من مدينة إلى مدينة . ومن مدرسة إلى مدرسة . فلابد أن أجيب عن أسئلة كثيرة . كأن هذه

الأسئلة « تحقيق شخصية » أو « فيش وتشبيه » .. أو « بصمات » يجب أن أطبعها على أوراق منشورة أمام كل الناس . فقد ترسب عندى هذا الشعور بالذنب . فأنا غريب . والناس لايعرفوننى . ولذلك يجب أن يعرفونى . ولابد أن يسألونى . ولابد أن أجد أجوبة مريحة . ولكن أحدا منهم لايسأل أحدا غيرى . لأنهم يعرفون بعضهم البعض . فهم أبناء مدينة واحدة أو عائلة واحدة .. إلا أنا .

ولا أزال أذكر كيف إننى كنت فى جزيرة هاواى سنة ١٩٥٩ . وبدون مناسبة واضحة فى ذهنى فى ذلك الوقت . تذكرت محلا فى مدينة أبى حمص . ولما تذكرت هذا المحل . تذكرت « إمساكية شهر رمضان » التى كان يوزعها هذا المحل . وعلى هذه الإمساكية كان يوجد زجل يقول :

إن كنت رايح كفر الدوار
على الشمال زور أبو حمص
تلاقى محل عليه فنيار
فيه البضائع راحة ترقص !

وقد نشرت هذا الزجل فى هامش كتابى « حول العالم فى ٢٠٠ يوم » دون أن أجد تفسيرا لذلك . لقد تذكرته عندما كنت فى أجمل مكان فى الدنيا فى مدينة هونولولو بجزر هاواى .. هناك كنت وحدى فى الجنة .. ولكن يبدو أن الشعور بالوحدة فى الجنة . كالشعور بالوحدة فى جهنم . إنه شعور بالغربة ..

ولكن ما الذى جعلنى أتذكر هذا الدكان فى أبى حمص ؟ .

إن هذا الدكان كان يملكه جماعة من الإيرانيين : خمسة من الإخوة . وكانوا يقفون معا فى الدكان بملابسهم البيضاء وطرابيشهم الحمراء . الوجوه لامعة . والشعر أسود . والعيون سوداء ، وأهم من ذلك أنهم جميعا يقفون معا . هم وأولادهم . إنها أسرة واحدة ، إنهم دائما هناك . غرباء ولكنهم ليسوا غرباء .

وكنت أجد ذلك نموذجا لكل الذى أحتاج إليه . أسرة معلنة يعرفها كل الناس .

وكنت أسمع من أبى وأمى أن أسرتنا كبيرة . ولكن لا أملك الدليل على ذلك . فأبى من سلالة سيدى شمس الدين الشربينى من مدينة شربين . وأمى من سلالة سيدى الباز فى المنصورة . ولكن ليس فى يدى دليل على ذلك .. ولا أملك صورة فوتوغرافية لهؤلاء الأقارب ولا عندنا دكان نقف فيه معا .. ويكون هذا الدكان صورة حية للعائلة المستقرة ! .

ومثل سكان الكهوف كان ليلنا طويلا . فمع غروب الشمس نأوى إلى البيت . فليس لنا معارف ولا أصدقاء . وكأن الوقت المسموح لنا به هو من شروق الشمس إلى غروبها . فحياتنا صيام . فإذاغربت الشمس بدأنا نأكل أنفسنا .. عذابا وخوفا .. ومزيدا من الخوف . فلأن والدى كان يعمل

فى الزراعة كان بيتنا فى قلب المزارع وأحيانا فى وسط الحديقة . ومع الليل تجىء أصوات الحشرات ومواء القطط وعواء الكلاب والذئاب . فنحن نقفل الباب خوفا من الليل . ونقفل غرفة النوم خوفا من الفئران التى تقفز من فوق السطح تهجم على الدواجن .. وكثيرا ماسمعنا صوتا كأنه حجر سقط . ثم نجلس فى السرير . ولا يجرؤ واحد على أن يتنفس بصوت مرتفع . من الذى سقط ؟ أو ما الذى سقط ؟ وبعد ذلك نسمع صوت الدجاج .. إنه ثعلب .. جاء وخطف دجاجة .. ويطلع النهار لنعرف أنه ذئب أو أنه كلب . وكثيرا ماجلست على الأرض أذاكر .. وفجأة أحس بحركة إلى جوارى .. إنه فأر ، وأحيانا ثعبان .. وتعودت بعد ذلك أن أذاكر نهارا . أما الليل فإننى آوى إلى السرير لا أبرحه إلا إذا طلع النهار ..

والصورة فى أعماق هكذا : أننى خائف أن تتعرى أصبع من يدى أو من قدمى . ولذلك فلابد أن أختفى تماما تحت الغطاء الكثيف .. ثم إننى خائف أن أمد رجلى من السرير .. فإذا فعلت فإننى خائف أن أفتح الباب .. فإذا فعلت فإننى خائف أن أخرج من البيت .. وإذا خرجت فالمجتمع كله غريب والمدرسة أكثر غرابة .. وكثيرا ما أحسست أن السرير هو سفينة نوح التى أطفو بها فوق أمواج من الخوف .. وإذا لم تكن لنوح سفينة حقا ، فلابد أن تخترعها الإنسانية .. لأنها رمز لمحيط من الخوف . يتمنى الإنسان أن يطفو عليه .. يطفو فوق لوح خشبى أو فوق زورق .. وقد يكون هذا اللوح الخشبى هو الشجاعة .. وقد يكون الزورق هو الأمل .. وقد يكون هو الإيمان .. لكن لابد أن تكون هناك سفينة للنجاة من خوف عظيم ..

إننى أشبه تلك « العروس » الروسية التى يسمونها ماريوشكا : إنها عروس كبيرة فى داخلها عروس صغيرة .. ثم عروس أصغر .. ثم عروس أصغر .. عشرات العرائس .. كل واحدة منها تحتوى على واحدة .. وبعد ذلك لاشىء ..

أما أن النهاية لاشىء فليس صحيحا . إنما هناك القلق والعزلة والغربة .. والشعور بالذنب مع أنه لاجريمة هناك . ولكن يبدو أن الفقر جريمة . ولكنها جريمة من ؟ إنه عقاب غاشم يفرضه المجتمع على بعض الناس ، لا لشىء إلا لأنهم أحرار .. وكان أبى رجلا حرا .. لايحب أن يجلس إلى مكتب . وكان يفضل الجلوس تحت الشجر . وكان يفضل أن يكون رحيما وأن يكون متسامحا . وأن يكون محبوبا لامخيفا . ولكن عمله كمسئول عن ألوف الأفدنة ومئات الألوف من الجنيهات يحتم عليه أن يكون أكثر تشددا وأكثر قسوة .. ولكنه لم يستطع . وكان ذلك سببا كافيا لأن يترك كل يوم عملا بحثا عن عمل آخر .. ويتدحرج كأنه عملة رديئة . والعملة الجيدة تطرد العملة الرديئة ..

ولكن أبى كان هو العملة الجيدة . ولكن الأقلية الجيدة تطردها الأغلبية الرديئة !

ولم تكن للعلاقات الإنسانية معنى عندنا . من هو الصديق ؟ لا أعرف . من هو العدو ؟

لا أعرف . مامعنى الزمالة ؟ ما معنى العشرة ؟ ما معنى الأخوة ؟ ما معنى الجيران ؟ كل هذه كلمات لم أجدها فى قاموسى . فكل هذه العلاقات تحتاج إلى وقت لكى تنمو .. كما ينمو العشب فوق الحجر الساكن .. بل إن هذه العواطف قد أخافتنى .. فأنا خائف أن يكون لى صديق ثم أتركه .. وخائف أن أشعر بالمودة .. وأن أستريح إلى أحد . ثم لا أجده بعد ذلك .. وعندما كبرت كنت أخاف من الحب ..

فالحب : صداقة ورغبة فى الامتلاك .. ولكن كيف تكون صديقا لمن سوف تفارقه غدا ؟ وكيف تملك قلب شخص لن تراه بعد غد ؟ ..

هل انقلب الخوف من الحب ، إلى حب للخوف ؟ ربما ، فقد غامرت كثيرا حتى كانت مغامراتى نوعا من اللعب بالخوف . بعد أن كان الخوف هو الذى يلعب بى هل كنت قريبا بذلك إلى الانتحار ؟ ربما .. وإلا فكيف أفسر بعد ذلك أن أركب طائرات أعلم أنها قديمة وأنها سقطت قبل ذلك ؟ ففى سنة ١٩٥٠ ركبت طائرة تابعة لشركة جيبوتى . وهى طائرة لنقل الحيوانات .. وقرأت أنها سقطت فى الخرطوم . ركبتها إلى اليونان ولم تسقط . وفى سنة ١٩٥١ كان من المقرر أن أركب الطائرة التى سقطت بممثلة السينما كاميليا .. لولا أننى عدلت عن السفر فى آخر لحظة .. هل حب الخوف أصبح لعبة القدر أيضا ؟ ثم ما معنى أن أركب طائرة بمحرك واحد لأتفرج على بركان انفجر فجأة فى جزيرة « أواهو » إحدى جزر هاواى . وكان البركان يقذف الحمم . وكنت فى داخل الطائرة أشعر بالحرارة . وكان البركان قد غطى مساحة هائلة من المحيط الهادى والغابات ؟ وأعجب من ذلك أننى طلبت إلى واحد فى الطائرة أن يلتقط لى بعض الصور وتفضل الرجل مشكورا وفعل ذلك بإخلاص شديد . ولما اكتشفت أن الرجل الذى كان يلتقط الصور هو الطيار نفسه . لم أفزع . كأننى أردت أن يزداد شعورى بالخطر .. أو كأننى بعد أن اكتويت بالخوف أردت أن أسخر منه .. أو إذا كان الخوف الذى عرفته فى طفولتى كلابا وذئابا وغبارا . فلماذا لا أجرب الخوف الذى هو النار والشرار فى جزر هاواى ؟ .. وعندما هبطت الطائرة وجدنا قطعا من الحجارة الملتهبة قد مزقت جناحيها .. وقيل يومها إنه لو اقترب أحد هذه الأحجار سنتيمترا واحدا لجاء فى خزان الوقود .. وسقطنا معا قطعة من النار تضاف إلى جهنم !

ومع هذه التراكمات المكثفة من الخوف ظهرت أشياء أخرى .. هل هى نبتت من الخوف ؟ هل هى خرجت من أعماقى ؟ .. فقد سمعت من أبى أنه كان يسكن فى بيت وحده . وفى الليل أحس أن جسما مر بينه وبين الحائط .. أى أنه شبح أو عفريت .. وسمعت من والدتى أن إحدى قريباتها فى ليلة زفافها سمعت زوجها يصرخ عند منتصف الليل . ونهضت العروس لترى ماذا حدث . فقال زوجها . إن شخصا عاريا وطويلا قد صفعه على خده ..

وبعدها مات العريس فى ليلة زفافه .. إنه عفريت .. أو شبح ذلك الذى صفعه واختفى !

وسمعت أيضا « قصة نموذجية » – أى قصة موجودة فى كل الآداب والأساطير العالمية : أن بيتا « مسكونا » بالأشباح .. وهذا البيت مجاور لنا .. وأن أشباحا تلعب بالشوك والسكاكين وتجمعها ثم تلق بها على الأرض كل ليلة . وأن أحدا لايجرؤ على أن يقترب من هذا البيت ليلا .. ولذلك ظل هذا البيت مهجورا ..

وتذكرت قصة المحامى الرومانى بلينوس الذى كتب لأحد أصدقائه . من عشرين قرنا . أنهم استدعوه ليرى بنفسه مثل هذا الحادث . ولكنه رأى شخصا مربوطا بالسلاسل . وأن هذا الشبح يشير إليه أن يمشى وراءه .. ولكن المحامى بلينوس يقول إنه شخصيا لم يستطع أن يرى ذلك ، فاستدعى فيلسوفا معروفا هو ثيودوروس . وجاء الفيلسوف وطلب مقعدا وجلس عليه أمام البيت . وفى الليل سمع صوت الحديد يدق حديدا .. وفتح الباب وأمسك ورقة وقلما ليكتب ما الذى يراه . ووجد شبحا مربوطا بالسلاسل .. وأشار الشبح إليه أن يتبعه .. وتتبعه .. وأشار الشبح إلى مكان فى الأرض . ثم اختفى . وفى اليوم التالى ذهب الفيلسوف إلى المحكمة وروى للقاضى ماحدث . وطلب أن يساعده فى حفر الأرض عند المكان الذى أشار إليه الشبح . وحفروا الأرض ليجدوا بقايا إنسان . وهذه البقايا ماتزال مغلولة بالسلاسل . فلما أبعدوا السلاسل عن بقايا هذا الميت : اختفى الشبح تماما .. كأنه كان يطلب من يطلق سراحه !

وسمعت مثل هذه القصة القديمة . وعرفت عندما انتقلنا من هذا البلد إلى بلد آخر . أن البيت الذى كانت تسكنه الأشباح هو البيت الذى كنا نعيش فيه .. ولم أجرؤ بعد ذلك أن أفكر فيما كان يحدث لنا . كيف إننا كنا نجد الغطاء كل ليلة على الأرض .. أوكيف نسمع من لانرى وهو يطفئ مصباح الغاز .. أو من يفتح حنفيات الماء .. ثم يقفلها .. أو من يسحب السيفون .. عشرات المرات كل ليلة .. وكيف كانت أمى تغطى وجهى حتى لاأرى ولا أسمع .. ولا أعرف كيف كنا ننام حتى الصباح ؟ !

وعندما كنا نذهب إلى بيت جدتى كنت أنهض عند منتصف الليل لأرى إن كان صحيحا ماسمعته من الأطفال من أن هناك حمارا يكبر ويكبر حتى يصبح فى ارتفاع البيوت .. وأنه يفعل ذلك كل ليلة .. وأنه يستدرج الناس لكى يركبوه ، فإذا ركبوه ارتفع وارتفع وأسقطهم من فوق ظهره .. وكنت أرى ذلك كل ليلة .. أو أتوهم أننى قد رأيت .. وقد سمعت « النداهة » .. وهى عبارة عن شبح سيدة ترتدى ملابس سوداء وتنادى الناس بأسمائهم ، فإذا خرجوا ليردوا عليها ، لم يجدوها .. أو إنها تناديهم ثم تستدرجهم ليمشوا وراءها وليجدوا أنفسهم فى بلد آخر .. وقد رأيت ذلك بوضوح . أو توهمت .

امتلأت الدنيا خوفا ورعبا ..

وواجهت ذلك كله بالمصحف . فقد كنا نضع المصحف فى كل مكان . وفى جيوبنا .. وتركنا كل شىء على الله . وكانت هذه المعانى «كيمياء» جديدة .. لا أعرف كيف بدأت ولا كيف أتت بالشجاعة والنوم العميق .. ولكن ظل «الخوف العام» مثل العدسات الملتصقة بالعين .. أرى به .. وأرى من خلاله .. ولا أعرف إن كنت أنا الذى أرى .. أو هو الذى يرى ..

وأذكر ، وأنا صغير . أننى كنت أقف إلى جوار عساكر المرور أسجل أرقام السيارات وماركاتها .. ولم أكن أعرف أن هذه محاولة للتعالى والسمو فوق السيارة التى كنت أركبها ومعها الخوف والمجهول . وأذكر أننى كتبت موضوعا فى «الإنشاء» عن أمنياتى . وكان من أمانى أن أكون سائق سيارة – وكان ذلك شيئا غريبا . ربما كان السبب هو رغبتى فى أن أركب السيارة باختيارى . وأن أضع فيها أناسا آخرين . وأن أذهب بهم إلى حيث أريد . وإلى حيث أعرف وبلا خوف !

وعرفت فيما بعد أن ركوب الخيل والسيارات والطيارات متعة وأمل . ففى حركتها انطلاقة إلى الأمام .. وهذه الانطلاقة معناها : أن يتخلص الإنسان من جاذبية الأرض . ومن عجزه عن السرعة .

ولذلك فليس غريبا أن نجد عددا من الأدباء القدامى كانوا يركبون الخيل ويحاربون بها .. وأحيانا يلقون قصائدهم من فوق ظهورها .. وأن بعضهم كان يفضل أن يموت على حصانه على أن يموت على سريره .. بل إن عددا من الأدباء العالميين عملوا سائقين ، من مثل ، همنجواى ودوس باسوس وسومرست موم وجوليان جرين .. ومنهم من فضل الطائرة مثل : إكزيل مونته واندريه مالرو .. ومنهم من مات بالسيارة مثل الفيلسوف البير كامى ..

وعندما دعانى د . فاروق الباز إلى تناول الغداء مع رواد فضاء السفينتين «أبولو – سيوز» كان هذا اللقاء من أسعد ساعات حياتى . نظرت إليهم . وسألتهم عن الخوف والعزلة العالية .. فلم يرتفع أحد قبلهم إلى مثل هذا الارتفاع .. ولم يشعر أحد قبلهم بهذه العزلة الهائلة .. فليست سفينة الفضاء إلا قبرا علميا أنيقا . أو إن سفينة الفضاء مثل سيارة بعيدة عن الأرض .. وإنهم ليسوا أكثر من حيوانات ناطقة ربطوها بالسلاسل فى هذا النعش .. وإنهم ينتقلون من مجهول إلى مجهول .. وإن كل واحد منهم قد ربط على ذراعه وعلى صدره وعلى ساقه وعلى بطنه مالا نهاية له من الساعات .. وعلى حوائط السفينة ساعات أخرى تبرق وتصرخ ..

سألت : ما الخوف ؟

قالوا : إن الخوف ترف عظيم .. إننا لا نستطيع أن نشعر بالخوف أو بالأمان .. كل هذه المشاعر ماتت .. لقد أماتوها بالتدريب الطويل .. لقد أعطونا مواد كيماوية جعلتنا لا نختلف كثيرا عن هذه

الساعات التى فوقنا وحولنا ..

قلت : وهل طريق العودة مضمون ؟

أجاب د . فاروق الباز : لا يوجد أى ضمان ولا واحد فى المائة .. إنها مغامرة معقدة جدا .. فمن الممكن أن يحدث مليون خطأ . ومن الممكن إصلاحها كلها .. ومن الممكن ألا نفلح فى ذلك .. وليس هذا سرًا .. إن رواد الفضاء يعلمون تماما أنهم موتى . وأن موتهم مؤكد ، وأن نجاتهم صدفة . فهذا الهدوء الذى تراه على وجوههم هو الذى تنطبق عليه العبارة العربية القديمة : اليأس إحدى الراحتين . أما الراحة الأخرى فهى الموت . وهم يائسون من أية نجاة ومتأكدون من الموت . فهم على يقين من الموت لا مرة واحدة . ولكن ألف مرة ! وقد قتلنا فيهم الخوف والأمل والشجاعة . إنهم كائنات آلية – كانت قبل ذلك كائنات بشرية !

ولابد أن الإنسان فى حاجة إلى بعض ذلك حتى يقتل مخاوفه . ويقتل اليأس من علاجها .

ولكن أحسن علاج للخوف هو أن تلعب به .. وليست كل أنواع الرياضة إلا اللعب بالخوف : المصارعة .. الملاكمة .. الشيش .. ضرب النار .. الصيد .. السباحة .. كل أنواع الكرة .. كل ذلك هو اللعب بالخوف من الهزيمة .. أو بالخوف من الغرق أو السقوط ..

ولكن لابد أن يحيط الإنسان نفسه بعدد من الدروع الواقية .. من الملابس الثقيلة .. من الأفكار العازلة .. تماما كما يتغطى جسم السباح بالشحم حتى ينعزل جسمه عن برودة الماء .. وحتى تكون مقاومة جسم الإنسان للماء أقل .. إنه يقلد بذلك الحيوانات البحرية .. ذات البشرة الناعمة .. وذات « البطانة السميكة » من الشحم واللحم .. أو الطيور التى تغطى ريشها الناعم بطبقة من الزيت .. كل ذلك ليجعل مقاومتها أقل . وقدرتها على الانطلاق أكبر ..

ويوم ذهبت إلى شلالات نياجارا لم تفزعنى لعبة غريبة يلعبها الناس هناك .. فالواحد منهم يضع نفسه فى برميل من الخشب ويلقون به فى الماء .. ويدفعه الماء بقوة وعنف .. ويحاول هو ألا يصطدم بالأحجار أو بالشاطئ .. إنه يلعب بالخطر .. إنه يعبث بالخوف ..

ولم يفزعنى هذا المشهد . فقد وجدت أن شيئا من ذلك قد اهتديت إليه ..

ولكن عيب الذى اهتديت إليه أننى صنعت لنفسى بيتا كثيف الجدران ، وتغطيت فى داخله .. لقد وجدت لنفسى قوقعة .. وهذه القوقعة جدرانها مصنوعة من العزلة والانطواء .. والسير إلى جوار الحائط .. فإن لم يكن هناك حائط ، فلا داعى للسير .. أو إذا كان لابد من السير فلماذا لا أتخيل أننى أفعل ما هو أكثر من ذلك ؟ وقد وجدتنى أقرأ وأقرأ .. وكانت القراءة نوعا من الرحلات إلى كل الدنيا وكل النفوس وأنا قابع وراء قوقعتى . أوكانت القراءة نوعا من النظر من ثقوب أبواب كثيرة وأنا منكمش فى مكانى ..

وعندما زرت جزيرة مندناو الإسلامية فى الفلبين جلست فى مطعم على المحيط . وكان الطعام من الأسماك البحرية . وفجأة ظهرت من تحت الماء أمهات صغيرات يحملن أطفالا صغارا . وسألت وقيل لى : إن السائح يلقى لهن بالفلوس فى الماء . وبسرعة تغوص الأم هى وطفلها الرضيع وتأتى بالفلوس .. وكلما كانت الفلوس كثيرة فإن الأم ورضيعها يبقيان تحت الماء فترة أطول !

وتساءلت : أليس من الممكن إعطاء الأم فلوسا دون هذا التعذيب ؟

قالوا : إنهن يرفضن ذلك . فلابد أن يفعلن شيئا . وإلا كانت الفلوس بلا مقابل .. وكل أم ترفض أن تتسول طعامها !

والأم تعلم أن السياح لا يشفقون عليها هى . إنما على الطفل الرضيع الذى تهبط به تحت الماء . فالطفل أصغر من أن يتحمل هذه المشقة . ولكن الأم تعرف أن إشفاق الناس على طفلها هو الذى يدفعهم إلى أن يدفعوا أكثر .. فهى تثير فيهم الفزع والرعب . فإذا هم يتكاثرون عليها يرجونها ألا تفعل ذلك أمامهم . وأن تكف نهائيا عن تعذيبهم !

فهى أيضا تلعب بالخوف . بخوف الناس على طفلها !

فالذى تفعله هذه الأم بالغريزة هو ما يفعله مؤلفو أفلام الرعب . فهم يفزعون الناس ثم يأخذون فلوسهم . بل إن الناس يتزاحمون على أبواب سينما الرعب ومعنى ذلك أنهم بكامل قواهم العقلية وإرادتهم يدخلون ليخافوا . فهذه الأفلام هى تجارة الخوف الرائجة .

وأكثر مؤلفى قصص الرعب ، هم أطفال خائفون . ولكنهم تجاوزوا خوفهم . عندما ألفوه قصصا ، ثم باعوه خوفا عاما لملايين الناس !

وبذلك يكونون قد كسبوا مرتين : تخلصوا من خوفهم أولا . ثم باعوه بعد ذلك !

وإننى أتذكر القصة الوحيدة التى كتبتها الممثلة الفرنسية سارة برنار .. فقد كانت قصتها رحلة فى بالون ، ووصفا للطعام والشراب . وهى تجربة واقعية . ولكن الخوف والفزع على حياتها ، وفزع الناس أيضا ، هو الذى أسعدها فى النهاية . فعندما نزلت من البالون سألت واحدا من عشاقها : هل خفت ؟ قال : نعم . تصورت نفسى فى مكانك .. ثم تصورت نفسى من غيرك .. ثم تصورت شماتة الحاسدين لك والحاقدين علينا .. لقد كان خوفنا أكبر وأشد حرارة من هذا البالون !

وقالت سارة برنار فى قصتها : ما أروع أن يموت الإنسان وكل القلوب تتمزق من أجله .. ما أروع أن أغرق فى دموع الملايين .. ما أروع أن أحترق بزفرات الحاقدين !

ولم يجد النقاد فى هذه القصة عملا أدبيا كبيرا . إنما وجدوا أنها ممثلة عظيمة تريد أن تكون كاتبة عظيمة . لأن قدرتها الحقيقية هى « أداء » معانى الآخرين ، وليست فى « إبداع » معانيها هى . ولكن هذه القصة إذا كانت قد خرجت من مجال النقد الأدبى . فإنها استقرت مع الاحترام العظيم فى

سجلات علماء التحليل النفسى . ووجد بعض العلماء تفسيرا لذلك فقالوا : إن لديها لذة تعذيب الآخرين !

أى أنها تجد لذة فى أن تعذب الآخرين ، وأن تتعذب أيضا !

ولكن ليست هذه حالة فردية بين الناس .. فليس من الناس إلا واحد يعذب واحدا آخر.. وإلا واحد ينتهز الفرصة لكى ينتقم بيده أو بقلمه .. أو ينتقم له غيره .. وقد جربت سارة برنار كل أنواع العذاب .. عذاب الوحدة العظيمة والعزلة الرفيعة .. والمرض واليأس .. والحب الفاشل .. ورغم كل التصفيق لها داخلة وخارجة من المسرح ، ورغم أعمدة النور فى كل الصحف والمجلات ، فإن وحدتها كانت كاملة ، وخوفها كان شاملا .. وليست هذه القصة التى كتبتها وألوف القصص التى اخترعتها عن نفسها ، إلا نوعا من تحويل الخوف النفسى إلى خوف فنى ، وتحويل العيون عن الإعجاب بها فقط ، إلى البكاء عليها أيضا ، وإذا كان علماء النفس قد انشغلوا بقصتها ، ووصفوها بأنها مريضة إلى حد ما ، فليس من علماء النفس واحد ليس مريضا تماما .. وإذا نشرت صورة لعدد من المرضى وعدد من علماء النفس معا ، وقيل لك : اختبر ذكاءك .. أين هم المرضى وأين هم الأطباء ؟ .. فإنك لن تختار إلا الأطباء !

ومن بين القصص القصيرة التى كتبتها وتركتها ، فلم أجد لها معنى واضحا : أننى كنت أركب « النورج» الذى يستخدمه الفلاحون فى تحطيم سنابل القمح واستخلاصه بعد ذلك .. وغلبنى النوم . فسقطت . وصرخت . وكان الثور الذى يجر النورج مرهقا ، فظن أننى آمره أن يتوقف . فتوقف ، وأخرجونى ممزق الملابس والظهر . ونجوت من الموت بسبب أننى صرخت وأن الثور المرهق قد استجاب . انتهت الحادثة العادية التى وقعت للكثيرين من أبناء الريف . الذين عندما غيروا ملابسهم وجفت جراحهم . تلاشت آثار هذه القصة .

ولكن كان من المستحيل أن تتلاشى من نفسى ..

وحاولت أن أفسر لماذا وقف الثور ، وقلت إننى كنت أطعمه بينما كان غيرى من الأطفال يضربونه . أى أن حياتى كانت نتيجة لسلوك أخلاقى طيب . أحسنت إلى هذا الثور ، فأحسن هو إلى . امتنعت عن ضربه ، فامتنع عن قتلى .

والمعنى : أن الإنسان يجب أن يصنع خيرا لحيوان أو لإنسان !

والقصة كما تراها ساذجة ..

ولكن كنت أرى فى نومى قصة أخرى . فكنت أرى أن النورج يمر فوق رأسى .. وأن الثور يدوسنى بأظافره .. وأحيانا كنت أحلم بأن النورج مثل طائر هبط فوق رأسى .. ثم يقف الثور فوق النورج ، فأصحو من نومى فى حالة من الفزع .. وأحيانا كنت أختنق تحت أكداس من « تبن »

القمح .. ثم يجيء الثور يحملني على قرنيه .. وبعد ذلك ينطحني لأصحو أكثر فزعا !

واعتدت بعض الوقت على هذا الحلم . ولم أعد أجد فيه معنى كبيرا ، سوى الخوف القديم ..

ولما قرأت قصة للأديب التشيكي فرانتس كافكا .. كان يتصور فيها نفسه صرصورا .. وأن هذا الصرصور قد انقلب على ظهره .. وأنه يسمع كل ما يقوله الناس حوله . ولكن لا يقوى على فعل شيء .. إنه صرصور .. وإنه لم يعد إنسانا . وإنه قد انقلب على ظهره .. فهو لا يستطيع أن يهرب مما هو فيه .. لم يكن ذلك الحلم إلا صورة للهوان الذي يلقاه اليهود .. فهو يهودي ينبذه الناس ويحتقرونه في كل مكان .. فقد اجتمع عنده الخوف والاحتقار والمرارة والعجز والكراهية لكل الناس ولنفسه أيضا !

ومما رأيته في بيتنا أيضا ، وليس غريبا عن كثير من البيوت ، أن تجتمع سيدات كثيرات يقرأن الفنجان . هل كانت أمي في حاجة إلى مبرر لأن تكون في أي بلد ؟ . . هل هي في حاجة إلى أن تكون لها مزايا خاصة تجعل وجودها ضروريا ؟ أهو الاعتقاد بأن « الغرباء » و « الأجانب » أقدر على أشياء كثيرة من أهل البلد ؟ . . كانت النساء يجئن إلى بيتنا . وكانت أمي تقرأ لهن الفنجان . وكن يصدقنها . ووجدت سيدات كثيرات غيرها يفعلن ذلك . بل أصبح عادة عندي أنا أيضا أن أعطي لأمي الفنجان . وكانت أمي تقرأ الفنجان وأنا لا أفكر فيما تقول . فلا أعرف معاني كل هذه المفردات : ورقة . . نصرة . . سكة مفتوحة . . بعد نقطتين . . واحد كالثعبان . . ولكن سوف تدوسه بقدميك . . وسوف تنجح . . وسوف يجيء لنا ضيوف . . إلخ .

كل يوم نفس الكلام . ولكن المهم هو أن من الضروري أن أعطيها الفنجان لكي أحصل منها على « جواز المرور » . . أي على نوع من الأمان .

ولا يزال العالم كله يقرأ الفنجان والكف والرمل . . ولا تزال كل الصحف والمجلات تنشر « البخت » . . وقد عرف التاريخ عددا كبيرا من عباقرة الفلك يؤمنون بالتنجيم أيضا . . من مثل جاليليو . . وكبلر . . واينشتين . . بل إن العالم الإيطالي جاليليو عندما تنبأ لأحد الأمراء بالحياة الطويلة مات بعد أسبوع واحد ! .

والأديب الأمريكي مارك توين ولد يوم اكتشف الفلكيون مجموعة نجوم اسمها « هيلي » سنة ١٨٣٧ . وقال مارك توين : سوف أموت يوم تختفي هذه النجوم وسوف يولد في هذا العام أديب كبير . . وسوف يموت أديب عظيم !

واختفت هذه النجوم سنة ١٩١٠ . ومات مارك توين . . ومات أيضا الأديب العظيم تولستوي . وولد الأديب الفرنسي الكبير جان أنوي !

وغير مارك توين كثيرون جدا من المفكرين يؤمنون بأثر النجوم على حياة الناس . . ويؤمنون بأن

الله قد كتب أقدارنا على أكفنا . . .

وعندما جاء سومرست موم إلى القاهرة وكان مشلولا ، ذهبت مع المرحوم عبد الرحمن صدق نبحث له عن قارئة فنجان . . وذهبنا بها إلى فندق سميراميس . . وكنا نترجم له ما تقول . وكان الرجل يهز رأسه بما معناه أن ما تقوله هذه السيدة صحيح تماما !

وعندما اخترت أنواع الرياضة اخترت « البنج بنج » . . ربما كان سبب ذلك أن عدد اللاعبين والمتفرجين قليل . فلا يزال العالم الخارجي بكثرته وقسوته شيئا مخيفا .

وعندما كان لابد أن أتعلم الموسيقى اخترت الناى – وهو الآلة التي يستطيع الإنسان أن يمارسها وحده . . ولم أنجح لا فى الرياضة ولا فى الموسيقى . . ولاكان عندى استعداد لذلك .

وكان ترتيبى الأول فى جميع مراحل التعليم وكان ذلك نوعا من « العزل » المخيف ، فقد أحسست أننى « غير » الطلبة . . وأننى لا أشارك فى شيء ، لأننى أريد أن أتفوق عليهم . . وأننى لا أظهر فى الشارع لأننى أذاكر . . وأن عدم المشاركة معناه نوع من التعالى عليهم . . ونوع من الإدانة المستمرة لهم : فهم لا يتفوقون لأنهم يلعبون . . ويسهرون . . ويمشون فى الشوارع يدخنون . . لأنهم من أهل البلد . . لأنهم أصدقاء . . وأننى كما ظهرت فجأة سوف أختفى فجأة . . وفى ذلك راحة لهم . .

وكنت أعرف أننى سوف أختفى . . وأعرف أننى « غريب » عنهم لأسباب كثيرة . . ولا أعرف ما الذى يمكن أن أعمله . .

وفجأة وجدتنى أسكن فى بيت به شقق كثيرة ، فى قلب مدينة . ووجدت إحدى قريباتى تسكن فى نفس البيت . . انفتحت أبواب ونوافذ . . وطلعت ونزلت . . واختلطت بعدد كثير من الأقارب . . ونسيت مخاوفى . . ونسيت غربتى . . وطالت الإقامة فى هذا البيت الكبير . . وأحسست كأننى عربة مفككة قد أدخلت إحدى الورش الكبرى . . وأن تعديلات كثيرة قد أدخلت على تركيبى . . وأن قطع غيار جديدة قد وضعت . . وأن الضوضاء التى كنت أسمعها أثناء سيرى ليس لها إلا صوت وصدى فى داخلى أنا وحدى . . ولكن أحدا لا يسمع ما أسمع ، ولا يدرى بما أدرى . . وأننى حيوان برى وأن مخالبى أطول من أظافرى . . وأننى أغرسها كلها فى لحمى ودمى . . ثم أصرخ . . ونظرت إلى حياة الناس حولى ، إنهم بلا أظافر ولا مخالب ولا أنياب . . وليسوا فى حاجة إليها . . فلا شيء يخيفهم . . لا أشباح ولا ذئاب . . ولا يخلعون ملابسهم كل يوم ويتعرون أمام أنفسهم ، وينهالون على تاريخهم الشخصى يقلبونه ويحركونه ، وينصرفون تماما عن الشارع والمدرسة والملعب . .

إن الأديب النرويجى أبسن وهو يبحث عن ذاته فى مسرحية « بيرجنت » الشهيرة . . وجد أن

الإنسان أقرب شبها إلى « البصلة » . . طبقة فوق طبقة . كل يوم ينزع منها قشرة ويبكى . . ثم لا يبقى بعد ذلك أى شىء . .

ورأى الأديب ابسن أنه لابد من أن يكون هناك أناس آخرون . هؤلاء الآخرون هم الذين نتحدث إليهم . . ونعرف أبعادنا طولا وعرضا وعمقا بالمقارنة بهم . . فبغير الآخرين وضدهم ومعهم ، لا يمكن أن نعرف حقيقة أنفسنا . .

وفى إحدى المرات ذهبت مع أقاربى إلى حديقة شجرة الدر فى المنصورة . وحمل كل واحد طعامه . . ومن الغريب أننا كنا نأكل ما نجده . لا فرق بين الذى أتيت به أو الذى أتى به غيرى !

والأغرب من ذلك أن كانت بيننا فتيات . وكانت الفتيات يلعبن بالكرة . ويتضاحكن . ووجدت نفسى أقف إلى جوار إحدى الفتيات ندافع معا عن المرمى . ولاحظت أننى حريص على ألا تدخل الكرة . ولم تدخل مرة واحدة . وسمعت إطراء من هذه الفتاة ومن فتاة أخرى ، واشتركنا فى ألعاب كثيرة . وتكرر ذلك . . وجاءت رحلات مدرسية . . وفرق كشافة . . وجماعات دينية . ومسابقات مدرسية . . ومسابقات على مستوى الدولة . . وتفوقت .

حقيقة واحدة هى أننى لم أكن أفرح بما أصيب من نجاح . هل هو الخوف من أن النجاح لا يدوم ـ ككثير مما فى حياتنا . . أو أن الفرح غريب ـ لا يلبث أن يختفى . . وأن الحزن والأسى واليأس هو القائم والجالس والنائم معنا ؟ . . هل الخوف يشبه البيت الذى نسكن فيه بعض الوقت ثم لا تلبث أن نمضى ؟ . . ليس هذا صحيحا . فنحن لا نسكن بيتا من الحزن نتركه ونمضى . . هل نحن مثل السلحفاة التى تغطت بأحجار . . هذه الأحجار هى جلدها وهى بيتها . . وهى تحمل بيتها أينما ذهبت ؟ . . وكذلك الأسى والحزن نحمله فى كل اتجاه .

* * *

هل قلت بعض ذلك وجلست . أو قلته ووقفت ؟ . . لا أعرف تماما . ولكن أردت بذلك أن أبين الأعماق المظلمة المخيفة التى أعيش بها ، أو تعيش بى . . وكيف إننى عندما اتجهت إلى الأستاذ العقاد كاتبا ومتحدثا . كنت كالأشجار تتجه نحو الشمس . . وقد رأيت فى غابات الهند أشجارا تلتوى وتتداخل ثم تعتدل وتستقيم . . لماذا ؟ . . إن هذه الأشجار تحاول أن تشق طريقها إلى الشمس فتعترضها أشجار أخرى . فتدور حول أغصانها ثم تلتوى . ثم تجد لها منفذا إلى الضياء . . فترتفع عالية نحو الشمس . .

فعندما بدأت معرفتى بالأستاذ العقاد كاتبا . انبهرت بكل ما عنده وما ليس عندى . فكلماته شمس . وأفكاره مضيئة . وقلمه سيف لامع . ورأسه مرصد فلكى . والصفحة أمامه ليست إلا لوحة عليها ألوف الزراير يضغط عليها بسهولة فيكون له ما يريد من المعانى .

ثم إنه يحدثنى عن نفسى – هكذا أحسست – وهو الذى يشرح لى بالضبط ما معنى هذا الذى يملأ حياتى ولا أجد له معنى ، ولا لوجوده مبررا . إنه استخرج أعماقى ووضعها أمامى ، وقال : هذا خوف طبيعى . وهذا خوف صبيانى . وهذه أنانية لابد أن تخرج منها . وهؤلاء الناس لا حياة بغيرهم . فأنت جئت من آخرين . من أبويك . وأبواك جاءا من أبوين . . والمجتمع قد سبقك بقوانينه إلى الحياة ، وأنت مهما كنت قويا فأنت عابر . ولكنك تترك أثرا . وأنت رغم أنك واحد ضمن ملايين لكن لوجودك قيمة . . وإن من الممكن أن يرى شخص واحد الشمس ولا يراها مليون أعمى . فأنت رغم أنك وحدك ولن يصدقك أحد ، فأنت أصح من كل هذه الأغلبية العمياء . وكل أغلبية عمياء . والمفكرون والممتازون هم الأقلية الرفيعة التى على حق دائما ! وإن الإنسان يجب أن يأخذ من نفسه ومن غيره وأن يعطى . وإذا أعطى فليكن صادقا فى العطاء . وإن الإنسان يتخلف كثيرا إذا انكفأ على نفسه ، ويتخلف كثيرا إذا غرق فى خارجه . ولكن لابد من أن يكون له « داخل » ، وله « خارج » . . وأن يشترى ويبيع . . والناس يشترون ما يجدونه نافعا لهم ، ونحن نبيع ما نراه كذلك . . وبغير الناس فلا أدب ولا فلسفة ولا دين . . والذى اختار نفسه قد اختار سجنا انفراديا ، أو جنونا عاجلا . . والذى اختار غيره قرر أن يكون ظلا أو صوتا ، وشاء أن يكون « غانية » مبذولة لكل من يدفع ! .

ولا أعرف بالتحديد ما هى « المقالة » أو ما هو « الكتاب » الذى قرأته للأستاذ العقاد ، فوضعنى على الطريق المضىء . . ولكنى وجدت نفسى فى صفحاته . . وميزت صوتى وأنا أستمع إلى موسيقاه . . وعرفت شخصى وأنا أتطلع فى مرآته . . واكتشفت قدرات لم أكن أدريها . . واكتشفت صلابة لم أكن ألمسها . . واكتشفت أن لى معنى ، وكنت أومن بأننى بلا معنى ، ولا أهمية ولا ضرورة . . ولذلك كنت أرى قراءة الأستاذ تجديدا لميلاد أسبوعى أو يومى . . وأن الذين لا يقرأون الأستاذ لم يعرفوا سر الحياة . ولم أكن أسائل نفسى : إن كان الآخرون فى مثل ظروفى أو فى مثل حاجتى ، وإن كانوا يرون الأستاذ كما أراه . . وكنت أرى الذين يهاجمون الأستاذ ، لأى سبب مهما كان وجيها ، يعتدون على حرماتى ومقدساتى . وعلى البنك الوحيد الذى يعتمد أوراقى المالية . أو كأنهم يحاولون أن يقولوا إن الأستاذ ، وهو الغطاء الذهبى لعملاتى ومعاملاتى ، هو ذهب زائف . . أو هو نحاس له لمعان الذهب . وليس كل ما يلمع ذهبا !

وكنت أرى الأستاذ كالشبان الرياضيين : يمشى عارى الصدر والساقين لا يخاف الهواء ولا البرودة ولا ضربة الشمس . . وكنت أعجب لذلك . ولكن لا أستطيع أن أتعرض للهواء دون أن أصاب بالزكام والسعال . . ولا أستطيع أن أتعرض للشمس دون أن يتساقط عرق ، فإذا تعرضت للهواء انخفضت درجة حرارتى فأصابنى الزكام . إنه كذلك . . وأنا كذلك . وكل واحد منا يمشى على

ساقيه . إحدى هاتين الساقين هي تاريخ الإنسان النفسي والجسمي والاجتماعي .

ويوم وجدت أن فلسفة الخوف والموت والفزع والعزلة هي لسان حالي . أي « الفلسفة الوجودية » . كان الأستاذ يؤمن بشيء آخر . ومع إعجابي بعظمة الأستاذ وصحته العقلية والرياضية فإنني لا أستطيع أن أجاريه في هذه « الفتوة » الفلسفية . .

ولكن لأن الفلسفة الوجودية كانت عميقة مثل قلبي وأمعائي . وكان الأستاذ عاليا وعميقا مثل رأسي وعقلي ، فإن الصراع كان شديدا . . وكان الخلاص صعبا . وكانت هذه الجلسات الطويلة مع أنفسنا . . نحن الذين من كل لون سياسي وديني ومذهبي وفلسفي . .

وكان أقسى وأقصى قرار لنا في تلك الليلة : أن نذهب إلى الأستاذ عندما يعود من أسوان ، ونقول له كل ما نريد . .

واحد يقول : وجدتها . ولكن ليس عندك !

وثان يقول : الجلاء من أرضك . بالدماء !

وثالث يقول : لكم دينكم ولي دين !

ورابع يقول : سأرحل عن بلاد أنت فيها !

وخامس يقول : سوف أترك مصر ولكنها لن تتركني !

وسادس يقول : الحرية هدفنا . ولكن هل يستطيع الإنسان أن يتحرر من حريته ؟ . . هل يستطيع أحد ألا يكون حرا ؟ . . نعم يستطيع أن ينزل عن حريته بحريته . . تماما كما يدخل الإنسان حانة فيجلس ويطلب كئوسا من الخمر . . وبذلك يكون بكامل وعيه قد قرر أن يفقد وعيه . .

فلنذهب إلى الأستاذ . . وليكن ما يكون . . أي فليكن قراره وقرارنا ما يكون !

وَلكن طه حسين أراحنا أكثر

وكما اصطدمت الباخرة تيتانيك بأحد جبال الجليد فتحطمت وغرقت ، اصطدمنا نحن أيضا بالأستاذ .. فتفرقنا . ولم نتحطم . ولكن كل واحد منا قد طفا على « لوح خشبى » من أفكاره وإرادته فى أن يكون له رأى مستقل !

وافق الأستاذ فى التليفون على أن نزوره فى اليوم التالى . ولم نتفق على شىء محدد يمكن أن نقوله . تركنا ذلك للصدفة فقد تعبنا من ترتيب الكلام . وخشينا أن يقاطعنا الأستاذ فيرتبك كل شىء . ونصبح عاجزين جميعا عن «عرض حالنا» عليه . ولكن كنت قد قررت أن أتحدث وأقدم له زملائى واحدا واحدا . وقبل ذلك اليوم تخيلت حوارا بين الأستاذ وبينى . كأن أقول مثلا : لقد فكرنا كثيرا يا أستاذ قبل أن نجىء إليك . وعندنا مشاكل ومن بين هذه المشاكل هذه العلاقة .

وتخيلته يقول وقد رفع رأسه عاليا وأغمض عينيه : علاقة ماذا يا مولانا ؟ ..

فأقول : ... أننا تلامذتك ..

ثم عدلت عن هذا الجواب وقلت : ...أننا نتردد على هذا الصالون ..

ثم شطبت هذه الإجابة من خيالى وقلت : ... أننا تأثرنا كثيرا جدا بما تقوله لنا . وبما نقرؤه لك وعنك فى الصحف والكتب .. صحيح أننا جميعا لسنا متخصصين فى الأدب والفلسفة .. إنما من كليات متعددة . ويجمع بيننا أننا أصدقاء . ويفرق بيننا مدى تأثرنا بك .

وتخيلته يعتدل فى جلسته ثم يتراجع فى مقعده وينظر يمينا إلى حيث يوجد الخادم ويقول له شيئا فأجدنى عاجزا عن إكمال الحديث .. ثم يعود الأستاذ فيقول : ماذا تريد أن تقول يا مولانا ؟ .. هل جئت تشكونى إلى العقاد ؟ ..

ثم عدلت عن هذا الحوار وتخيلت أننى قلت له : بصراحة يا أستاذ أريد أن أتزوج ، ولكن المشكلة التى تواجهنى هى ...

ثم أتخيله يقول : تريد أن تتزوج فى هذه السن .. وبعد التخرج بأيام ؟ إذن لقد أصبحت شيخا يا مولانا .. كيف تفكر فى غيرك . أيا كان هذا الغير . قبل أن تفكر فى نفسك ؟ .. ثم كيف تستطيع أية فتاة أن تضحك عليك وتوهمك بأن التفكير فيها أهم من التفكير فى مستقبلك ؟ .. فإن كانت

تحبك حقا ، فمن الواجب عليها أن تؤكد لك أن مستقبلك هو مستقبلها .. إن هذا يذكرنا بابن الشاعر الألمانى جيته . جاءه يوما يقول له إنه قرر أن يتزوج فلانة .

فقال له أبوه : وهى وافقت أيضا ؟

فقال ابنه : نعم ..

فسأله أبوه : ألم تصارحك هذه الفتاة بشىء ؟

فقال الابن : نعم صارحتنى بحبها ..

وهنا قال له الشاعر جيته : إذن فلا تتزوجها ، فقد كذبت عليك .. لأنها صارحتنى أنا أيضا بحبها ! .

وتخيلت الأستاذ يضحك . ووجدتنى عاجزا عن الكلام . فليس صحيحًا أننى أريد أن أتزوج ، إنما فقط أن أبدأ أية قصة ليتناولها الأستاذ بالكلام . ومن هذا الكلام نعرض عليه جميعا مشاكلنا .

ثم تخيلت بداية أخرى للحديث مع الأستاذ كأن أقول : لماذا نحن مشكلة لكثير من أساتذتنا ؟ .. إنهم ينظرون إلينا على أننا شواذ مادمنا نتردد على ندوة الأستاذ ..

وتصورت الجواب الذى سوف يقوله الأستاذ : بل هم الشواذ يا مولانا . ألا تذكر الحادثة المعروفة للفيلسوف الألمانى شوبنهور ؟ .. كان هذا الفيلسوف يشكو من أن أساتذة الجامعات لا يحبونه . ويتهمونه دائما بالغموض . فكان يقول : لماذا كلما فتح أستاذ جامعى واحداً من كتبى ثم سمع حماراً ينهق ، يكون ذلك صوت المؤلف دائما ؟ ! .

ويعود الأستاذ يقول : إنه ليس صوت المؤلف .. إنه صوت القارئ الحمار .. صوت الأساتذة الحمير .. أى شذوذ يا مولانا فى أن يكون الإنسان مفكرا .. وأن يكون معتزا بعقله ورأيه .. وحريته فى أن يأخذ ما يقنعه . ويترك مالا يقنعه ؟ ..

وهنا رأيت أن أدخل فى الموضوع الذى جئنا له ، فتخيلت نفسى أقول : من أجل هذه الحرية جئنا إليك يا أستاذ .. فنحن نختلف معك فى كثير من آرائك ، مع عظيم الاحترام لك . وهذه مشكلتنا وليست مشكلتك .. ويعز علينا عندما نقرر ألا نتردد عليك بعد اليوم أن نتخذ هذا القرار دون الرجوع إليك .. أى أننا حتى عندما نقرر أن تكون بيننا « قطيعة » تكون أنت صاحب القرار .. فتكون الخصم وتكون القاضى .. فى وقت واحد .. فنحن نرى يا أستاذ أنك كنت سُلّما لنا ، فارتقينا أفكارك إلى السماء .. أو أنك كنت السلم الذى نزلنا به إلى أعماق الأرض .. ولكن ريشنا قد طال .. وعضلاتنا قد قويت .. ولنا أنياب ومخالب .. ونستطيع أن نهضم الحديد .. وأن نقول : لا .. لأى أحد ولأى رأى ولأى فيلسوف أو أديب .. ولا نستطيع أن نخفى عنك يا أستاذ أننا ذهبنا إلى د . طه حسين ..

ولم أكد أكمل هذه العبارة حتى تخيلت الأستاذ يقول : ذهبت تشكونى إلى طه حسين .. فما الذى يستطيع أن يقوله ؟ وما الذى يملكه لك أو لأى أحد ؟ .. إن شبابا مثلكم لا يستطيع أن يتخذ قرارا فى أعز ما يملك ، فما الذى يستطيع أن يقرره فى أى شىء آخر ؟ .. إن مثل هذا الاستفتاء أكبر دليل على ضعف الإرادة وسوء التقدير .. فهل لو كان رأى طه حسين مخالفا لرأيى ، ذهبتم إلى ثالث ؟ .. وهل إذا اختلفنا نحن الثلاثة فهل تذهبون إلى رابع ؟ .. وهل إذا اتفقنا نحن الأربعة ، يكون ذلك دليلا قاطعا على صحة ما نقول ؟ . قد يجمع الكثيرون على الخطأ يامولانا ، وينفرد واحد بالصواب . فما قولك لو ذهبت إلى أحد مستشفيات الرمد ووجدت مائة شخص لا يرون الألوان ؟ .. فهل معنى ذلك أنه لا توجد ألوان لأنهم مصابون بعمى الألوان ؟ .. وما قولك لو أن ألف أعمى سمعوا صوتك ولم يروك وقالوا : إنك عفريت ؟ فهل أنت حقا كذلك ؟ ..

وطردت مثل هذه المحاورات الوهمية من خيالى، واتجهنا إلى بيت الأستاذ وكان الباب مفتوحا . ودخلنا . وجلسنا . وجاء الأستاذ مسرعا . وصافحنا . ونظر إلينا وقال : لقد كان فى صحة جيدة . كان هذا بالأمس . ولم أعرف أحداً حريصا على طعامه وشرابه مثله .. وكنت أداعبه قائلا : أنت تريد أن يحتار الموت فى خطفك من هذه الدنيا .. إن الموت لا يدخل من الأنف أو الأذن أو العين .. إن الموت فى داخل الإنسان .. بل إن بعض علماء النفس يرون أن الإنسان إذا داسته سيارة فليس هذا قضاء وقدرا . إنما هو انتحار . فكل إنسان قبل أن يعبر شارعا يجب أن يتلفت حوله . فإذا لم يفعل فهو « لاشعوريا » قد أراد أن تدوسه السيارة . وكان صاحبنا – الله يرحمه – يمشى على الرصيف . ويتفادى السير تحت البلكونات . وأحيانا يبتعد عن أعمدة النور أو الأسلاك الكهربائية .. فهو بدلا من أن ينسى الموت ، فإنه كان يذكره دائما .. وكان يحترس منه .. ولابد أن اليقظة الدائمة ، أو هذا الخوف المستمر قد أرهقه . ومن نتيجة هذا الإرهاق أنه نسى عندما كان يعبر الشارع أمس كما كان يعبره أول أمس وكل السنوات الماضية ، أن يتلفت يمينًا وشمـالاً .. ولذلك يرى علماء النفس أنه قد اختار الموت فى الشارع تحت أسلاك الكهرباء وأعمدة النور وعجلات إحدى السيارات وهى تتفادى المترو ..

وكلام كثير عن الموت ..

إذن لقد تصور الأستاذ أننا جئنا نعزيه فى أحد أصدقائه ! .

وأحسست بمن يقرصنى فى ساقى . وفهمت أن من الواجب أن ننهض ، فقد قدمنا للأستاذ واجب العزاء . وقمنا . ونزلنا بعد نصف ساعة ...

وتبدد كل الذى أعددنا له أنفسنا . كم يوماً وكم ليلة جلسنا نستعد لهذا اللقاء .. ماذا نقول له ؟ وبماذا نرد عليه ؟ وهل نلق عليه الأسئلة ونهرب دون سماع الإجابة ؟ . أو هل نكون مثل حواريى

المسيح أو مثل تلامذة سقراط ؟ .

ولم يملك واحد أن يسكت عن هذا الذى حدث فقال تلك الأبيات التى نظمها أمير الشعراء فى الأديب مصطفى لطفى المنفلوطى .. فقد مات الأديب يوم أطلق الرصاص على سعد زغلول سنة ١٩٢٤ ، ففزعت الأمة كلها ، ونسيت أن تمشى فى جنازة مؤلف « النظرات » و « العبرات » قال واحد منا :

اخترت يوم الهول يوم وداع ونعاك فى عصف الرياح الناعى
من مات فى فزع القيامة لم يجد قدما تشيع ، أو حفاوة ساعى

أى أننا جئنا فى الوقت غير المناسب . فالرجل حزين على صديقه . وأسعده أن نذهب إليه لنخفف عنه . ولم يدر الأستاذ أننا جئنا لسبب آخر .

وقررنا زيارة د . طه حسين . ولم يستغرق هذا القرار إلا ساعة . كان لنا صديق فى كلية آداب القاهرة . رآنا فانزعج وقال : هل تقولون له إنكم من تلامذة العقاد ؟

قلنا : لا ، إنما نريد أن نأخذ رأيه فى قضية فلسفية .. هى قضية هذا الجيل من الشبان ..

سألنا : بالضبط ماذا تريدون ؟ ..

وكانت إجابات كثيرة . ولم تكن بينها إجابة واحدة « مضبوطة » . وكان ذلك أكبر دليل على أننا لا نعرف بالضبط ما الذى نريد أن نعرفه من د . طه حسين .. أو ما هو المطلوب منه ..

كان صديقنا هذا أسبقنا إلى معرفة المشكلة . قال : فهمت .. إنكم لا تعرفون ماذا تريدون . ولذلك .. تتوجهون إلى طه حسين ليقول لكم أنتم الذين تخرجتم فى الجامعة ، ماذا تريدون .. أى أنكم تطلبون إلى طه حسين الذى لا يعرفكم ولم يجلس إليكم ، ولستم تلامذته ، أن يدلكم على نفوسكم .. إذا كانت هذه رغبتكم فما الذى تعلمتموه حضراتكم فى الجامعة ؟ .. هل تتصورون أن طه حسين سوف يضرب لكم الودع أو يقرأ لكم الفنجان أو يستحضر لكم الأرواح ؟ .. ثم لماذا طه حسين هكذا فجأة ؟ .. ولماذا لم تسألوا العقاد ؟ .. لا أفهم موقفكم ! ..

وكان على حق . ولكنه حدد لنا موعدا مع د . طه حسين فى بيته بالزمالك . وذهبنا ، ووجدنا عميد الأدب العربى جالسا فى انتظارنا . وقدمنا أنفسنا واحدا واحداً .

فقال طه حسين رقيقا باسما : إذن فلنبدأ بدارس الفلسفة .

أى أراد أن يبدأ بى أنا ..

وقلت وكنت أكثر شجاعة : والله يا أستاذ نحن فى حيرة من أمرنا .. فقد قرأنا كثيرا وتناقشنا كثيرا . وتقلبنا على مدارس الأدب والفن والفلسفة وفلسفة التاريخ ومدارس علم النفس . ولم نسترح ، بينما

كل زملائنا أكثر استمتاعا بالحياة . وأفكارهم أكثر وضوحا . وأهدافهم أقرب إلى أيديهم ..

وكأن طه حسين قد سمع هذا السؤال كثيرا . فلم تتغير ملامح وجهه . ولكنه اهتز فى مقعده . ورفع رأسه ومد رأسه إلى الأمام وقال : هذا هو المطلوب يا سيدى . فليس للفلسفة من هدف إلا أن تحرك فيك الرغبة فى المعرفة . والرغبة فى التفكير وفى الشك ، وبعد ذلك تقودك إلى اليقين .. وليست راحة الناس دليلا على أنهم وجدوا مالم تجد . ولا قلقك دليلا على أنك لم تجد . إنما أنت الذى وجدت مالم يجدوا ! .. وأنت الذى ادخرتك الفلسفة لكى تقول شيئا .. لكى تضيف شيئا إليها وإلى نفسك .. إننى لا أراك يا سيدى غريبا .. بل تكون غريبا لو أنك فى هذه السن قد اهتديت إلى حقائق ثابتة .. أنت درست الفيلسوف رينيه ديكارت ورأيت كيف كان ديكارت يفكر ثم كيف وضع منهجا لنهتدى به إلى اليقين ..

وسكت لحظة وقال : وكيف كان الإمام الغزالى أيضا .. إنك إذن فى هذه المرحلة السابقة على اليقين .. المتقدمة على راحة البال ورسوخ القدم . إلا إذا كنت تتعجل النهاية . ولكن مثلك لا يملك ذلك .. فالنهاية التى تريدها لا تجىء فى يوم ، تماما كما أن القلق الذى يعتريك قد جاءك فى سنوات .. وقد تمضى العمر كله ولا تهتدى .. وفى النحو العربى أن واحدا ظل طول حياته يبحث فى حرف « حتى » . أوجع رءوسنا بذلك .. ولما مات قال : سأموت وفى نفسى شىء من « حتى » .. أى أنه لم يكمل هذا البحث .. وبعض المستشرقين يفنون أعمارهم فى البحث عن حرف .. إن واحدا منهم ، لابد أنك تعرفه ، قد حصل على الدكتوراه فى موضوع متواضع هو أن الحروف الهجائية لا تبدأ بالألف . إنما تبدأ بالهمزة .. وليس الألف إلا همزتين .. واحتاج منه ذلك إلى عشرين عاما ! .

لقد كان طه حسين ألطف وأرق . وأكثر تواضعا . وكانت الغرفة الصغيرة التى جلسنا فيها تدل على أن البيت « مسكون » بأناس كثيرين .. هذا رتب الكتب . وهذا وضع السجاجيد .. وهذا أتى بالورد . ثم هذه الروائح التى فى البيت تدل على أن أشياء كثيرة يجرى إعدادها : الطعام والشراب ونساء معطرات وسجائر .. وعلى أن الأبواب مغلقة والنوافذ كذلك .. أما الأضواء فهى أقرب إلى الظلال .. ثم إن هناك همسا . وهذا الهمس يدل على توفير الهدوء لصاحب البيت عميد الأدب ..

أما بيت الأستاذ فهو مفتوح الأبواب والنوافذ .. والهواء والضوضاء والضوء ترتاده من كل مكان .. إنه كالبيت « المهجور » . أو إن لم يكن مهجورا فليس فيه أناس كثيرون . والذين يسكنونه لا يهتمون بشىء مما تهتم به البيوت عادة .. فهو بيت مفتوح النوافذ والأبواب . ولكن زواره قليلون ، ثم إن البيت الذى يسكنه العقاد هو صورة ساذجة لخيال خادم أو سفرجى .. فليس يهم الأستاذ من هذا البيت إلا الكتب .. وإلا القهوة وعصير الليمون والطعام المسلوق .. وليس بيت الأستاذ صورة لعقليته ، فالبيت فوضى .. ولا بيت طه حسين صورة لعقليته : لأن البيت « مغلق » محكم .. فطه

حسين متفتح العقل مضيء الفكر .وإنما البيت صورة لما تراه زوجته .. فهى تريد البيت أن يظل بيتا وصومعة فى نفس الوقت ..

لم يقل لنا د. طه حسين شيئا يهزنا . ولكنه أراحنا . لأنه رأى فى « عرض حالنا » عليه شيئا طبيعيا .. فلا القلق مرض ولا الهدوء علاج .. إنما رأى القلق داء ودواء .. فلو كان القلق حبة قمح .. فإن الحبة تتحول إلى نبات صغير .. ثم إلى نبات كبير .. ثم تكون منها حبات فى سنابل عديدة .. إنها فى جميع الأحوال صور مختلفة لحبة القمح .. وكذلك كل أفكارنا تتطور لتكون صورا جديدة . ولكنها دائما أفكارنا ..

ونحن فى شوارع الزمالك قال واحد منا : ألم تلاحظوا أننا قد وجدنا فى صالون الأستاذ قميصا ملقى على أحد المقاعد ؟.. إن الخادم لم يتنبه إلى ذلك .. ولا حتى الأستاذ .. هل تعرفون بأى شىء يذكرنا هذه القميص ؟..

ولم يشأ أحد منا أن يرد عليه .. ولكنه مضى يرد على نفسه : إنه يشبه قميص يوسف عليه السلام .. عندما أعيد قميص يوسف إلى أبيه يعقوب عليه السلام فوضعه على عينيه فأبصر .. فلماذا لم يفكر واحد منا فى أن يسرق قميص الأستاذ ونرتديه وبذلك نشفى أنفسنا منه ؟..

وقال واحد آخر : بل يذكرنى ذلك بأبيات للشاعر إبراهيم ناجى . كان مريضا فأهدته محبوبته قميصا .. هل هو قميص له أو قميص لها . المهم أنه ارتدى القميص وشفى من مرضه .. وهو الطبيب . يقول إبراهيم ناجى :

يا ليلة سنحت فى العمر وانصرمت	هلا رجعت .. وهلا عاد أحبابى
لم أنس مهديتى جلبابها وعلى	جسمى من السقم منها ، أى جلباب
قميص يوسف رد العين مبصرة	ففاز بالنور ذاك المطرق الكابى !

وفى سيارة صديق لنا حشرنا أنفسنا . واتجهنا إلى حلوان .. ومررنا بمستشفى الأمراض العقلية . ولم يكن عن قصد أن توقفت السيارة . فنزلنا ندفعها إلى الأمام .

وحاول أحدنا أن يفلسف هذا المعنى ، ولكن شهيتنا كانت قد انسدت تماما . وقد حاول أن يقول شيئا . وقال : لماذا نسينا أن نذهب إلى د. بشر فارس .. وبيته جميل أمام السفارة البريطانية فى جاردن سيتى ؟.. إنه بيت عربى شرقى . وكل شىء فيه جميل واضح ، أو واضح الجمال ، وجميل الوضوح . إلا د. بشر فارس نفسه .. وأنا أنتهز هذه الفرصة لأعلن عن مكافأة مالية كبرى لمن يستطيع أن يفهم سطرا واحدا من كتابه المعروف باسم « جبهة الغيب » .. والعيب فى هذا الرجل إذا كتب ، ولكنه إذا تحدث فهو مثقف وهو قادر على إقناعنا .. ولا أستبعد أن يكون هذا الرجل اللبنانى

قد مر بهذه المحنة التى نحن فيها .. أو التى أنتم فيها ..

وكنا قد عرفنا د . بشر فارس فى مكتبة كلية الآداب .. إنه رجل قصير القامة . نحيف أسود الشعر . وهو يتركه يتدلى على قفاه . وإذا مشى فهو أقرب إلى الجرى . وإذا تحدث فهو أقرب إلى الشعراء . وإذا حاول أن يشرح فهو أقرب إلى القساوسة . وإذا رأى فتاة فهو أقرب إلى أولاد البلد .. وكانت عنده فى البيت خادمة ترتدى الملابس الريفية . وقد صبغت خديها وشفتيها وغطت ذراعيها بالذهب .. والذين رأوهما معا ، يقولون إنه هو الخادم وهى السيدة .. ويجدون لذلك تفسيرات كثيرة .. ليس من بينها أنه رجل يحب « الجو الشرقى » ويفضل من الجو الشرقى حريم السلطان . إنما هو رجل قد أعجزته الخمر عن أشياء كثيرة .

ولذلك شعرنا بالقرف من مجرد هذه الفكرة .

وبسرعة قال واحد منا : إذن فما قولكم فى أن نفاجئ أستاذنا د . مصطفى حلمى ؟ .

ورفضنا هذه الفكرة بسرعة .. فهو رجل لطيف . ودمه خفيف . ولكنه يسخر من تلامذة الفلسفة ويقول إنهم تلامذة السفه ! .

وتذكرنا النكت التى كان يهزنا بها أثناء دراسة التصوف . ففى إحدى المرات عندما شرح فلسفة « محيى الدين بن عربى » قال : إن هذا الفيلسوف المتصوف يبدأ تفسير الكون من الأرض إلى السماء .. ثم يبدأ من السماء لينزل إلى الأرض .. أى من تحت إلى فوق . ومن فوق إلى تحت .. إنه شكوكو الفلسفة الإسلامية ! ..

وكان د . مصطفى حلمى أستاذ الفلسفة الإسلامية ضريرا ، وكان يشبه طه حسين إذا تحدث إلينا . ولكنه كان أخف دما ، وكان أكثر حرصا على إنعاش تلامذته حتى لا يضيقوا بالفلسفة . وفى إحدى المرات وجد نفسه يقول كلاما موزونا ، دون قصد منه ، فقال : هذا شعر منثور ، ونثر مشعور . إن صح هذا « التعبور » ، ياأنيس يامنصور ! ..

ولذلك فنحن نعرف مقدما . ما سوف يقوله لنا ..

قال واحد : إذن نذهب للدكتور إبراهيم بيومى مدكور ..

ولم نكن نجرؤ أن نفعل ذلك ، فالرجل يحاضرنا فى فلسفة الفارابى ثم ينصرف . ولم يحدث أن جلس إليه واحد منا ..

فقيل : إذن نذهب إلى الشيخ حسن البنا .

وقلنا جميعا : مستحيل .

وقيل : فلتكن سهرتنا مع صاحب الفضيلة الدكتور يوسف عبد الرحيم الشاذلى .. فالسيارة معنا .. وبعد ساعتين نكون فى طنطا ونبيت هناك ..

ولم يكن فى حاجة إلى أن يسكت ، فلم يعلق أحد منا على ذلك بشيء . ووقفت السيارة أمام فيلا فى أطراف حلوان . وقال صاحب السيارة : السادة الأفاضل ينزلون .

ونزلنا . وأقفل أبواب السيارة . وأخرج من جيبه مفتاحا . وأشار إلينا أن ندخل . ودخلنا . واتجهنا إلى صالون إلى اليسار . واختفى هو فى داخل البيت .. ومددنا أرجلنا إلى الأمام . وبعضنا حاول أن يقلد صورة أمير الشعراء شوقى فيضع رأسه على كفه .. وبعضنا حاول أن يقلد تمثال الفنان « رودان » فيصلح حذاءه .

وفجأة ظهرت سيدة فى الثلاثين من عمرها : أهلا وسهلا .. لقد كلمنى عنكم .. كثيرا .. أهلا وسهلا .. أنتم شبان كالورد .. إنكم لستم كما وصفكم .. والنبى أشكالكم حلوة .. ألف واحدة تتمناكم .. أهلا وسهلا ..

وبين كل كلمة وأخرى لها ضحكة عالية طويلة .. وهى عندما كانت تصافحنا فإنها كانت تضغط على يدى .. ولابد أنها تفعل مع كل الآخرين .. فهى عادة عندها .. أو هى تريد أن تلغى فارق الدهشة بيننا .. ثم مفاجأة أخرى أنها قبلت واحدا منا .. إنها - إذن - تعرفه هو الآخر ..

لقد سبقها عطرها إلى الغرفة .. وامتدت يدها وفتحت النوافذ .. وانحنت إلى الأمام .. وعرفنا ما الذى تريد أن تلفت العيون إليه .. ظهرها وساقيها .. وفتحة الظهر . وأنها بلا جوارب .. وأنها بيضاء ممتلئة ..

وفجأة جاءت فتاة ثانية .. إنها متوسطة الطول . سمراء . سوداء العينين . ولم تكن فى حاجة إلى أن ترحب بنا مرة أخرى .. إنما دخلت ومدت يدها وصافحتنا وجلست .. وهى الأخرى قد ارتدت فستانا ضيقا قصيرا بلا أكمام ، وأخرجت من جيبها علبة سجائر . ومد واحد منا يده وأخذ سيجارة ، وأشعل لها سيجارتها واقفا ثم أشعل سيجارته جالسا . وامتلأت الغرفة بالدخان .

ومن قبل الدخان كانت الضحكات ، وجاءت فتاة ثالثة طويلة نحيفة . قدمت نفسها على أنها لبنانية . وأنها جاءت إلى مصر أخيرا . وأنها سوف تلحق بأسرتها فى البرازيل .. وكانت هذه الفتاة ذات معالم « محايدة » فهى لا تقبل علينا وهى لا تنفر منا .. وقد أعطتنا يدها .. ونحن الذى ضغطنا عليها . ووقفت فى منتصف الغرفة ودارت حول نفسها دون مجهود لنتمكن من مصافحتها . أما عيناها فلهما لمعان لا يدل على أى شيء . وجلسنا ، وجاء صاحبنا الذى اختفى فى داخل البيت بعض الوقت . وقد تغيرت ملابسه وملامحه .

وبسرعة قال : أيها السادة الأفاضل .. نريد أن نسمع وأن نقول كلاما فارغا . وإذا لم تكن لديكم هذه المقدرة فالفتيات الجميلات قادرات على ذلك .. وإذا كان الله قد حرمكم جميعا من

نعمة الضحك ، فقد أعطاهن هذه القدرة العظيمة . وإذا كان الله قد جردكم من نعمة النوم . فإنهن لا يعرفن شيئا سواه ! ..

وضحكت الفتيات . ولم يضحك أحد منا . ثم استأنف صاحبنا الكلام فقال : هذه هي الحيوانات الفلسفية التي أعيش معها .. طبعا قرأتن عن الآدميين الذين عاشوا مع الحيوانات .. فهناك الإنسان الذي أرضعته الغزالة .. والفتاة التي أرضعتها اللبؤة .. مع فارق واحد أنني لم أعد أرضع أفكار هذه الحيوانات .. لأن لبنها مغشوش .. لبنها مسموم .. ثم إنني قد فطمت نفسي .. والفضل كله يرجع إليكن ! ..

وضحكت الفتيات . وضحك هو . ولكن واحدا منا لم يضحك . كأننا مجموعة من التماثيل . أو كأننا منومون مغناطيسيا . أما نظرات الفتيات فهي تدل على أنهن ينظرن إلى مجموعة من المجانين .. وأن الجلوس معنا عذاب مؤكد .. كما أن الجلوس إلى صاحبنا هذا : متعة مؤكدة .

ثم أخرج من جيبه ورقة قائلا : أنا أعرف كيف أستدرجهم إلى الكلام . فقد أعددت نفسي لهذه اللحظة منذ أيام .. هذه الورقة فيها بحث ظريف . موضوع هذا البحث هو الآدميون الذين استطاعوا أن يعيشوا فى أحضان الحيوانات .. فكان ذلك دليلا على أن الحيوانات فيها إنسانية .. ولما عادوا إلى الحياة الإنسانية العادية ماتوا . وهذا دليل على أن الإنسانية لا تخلو من وحشية .. فهناك قصة رومولوس وريموس فى القرن الثامن قبل الميلاد . إنهما أخوان . طردهما عمهما من البيت . فذهبا إلى الغابات فاحتضنتهما ذئبة . وأرضعتهما ، وعندما اهتدى الناس إليهما ، أعادوهما إلى الحياة العادية . فأقاما مدينة روما ، ولذلك فرمز مدينة روما : ذئبة ترضع أخوين .. وفى ألمانيا فى سنة ١٣٤٤ عثر الصيادون فى إحدى غابات مقاطعة هسه على طفل عمره ١٣ سنة . كانت ترضعه الذئاب ، وعندما أمسكوا به . أعادوه إلى الحياة العادية الحضارية . ولم يقدموا له اللحوم النيئة . فأضرب عن الطعام حتى مات .. وفى لتوانيا سنة ١٦٦١ وجدوا شابا يعيش مع الدببة . وأمسكوه ، وأنقذوه من حياة الغابات . وأطلقوا عليه اسم يوسف أى أنهم أنقذوه مثل يوسف عليه السلام الذى ألقاه إخوته فى البئر . وظل يوسف يأكل الأعشاب ويمشى على يديه ورجليه . ولكنه لم يقو على هذه الحياة فمات .. وفى سنة ١٦٧٢ عثر الرعاة فى أيرلندا على فتاة تعيش مع الذئاب أيضا . ونقلوها إلى هولندا . وتفرغ لها د . تولب الشهير . ثم نقلوها إلى مستشفى الأمراض العقلية لأنها رفضت أن ترتدى أى نوع من الملابس . وأصيبت بالتهاب رئوى وماتت .. وفى سنة ١٨٦٧ عثروا فى الهند على شاب يعيش فى كهف مع الذئاب . وأخذوه بالقوة . وحاولوا أن يعيدوه إلى الانسانية . ونجحوا . ولكن الشاب أصيب بالتهاب رئوى . فقد أدمن أكل الجثث الميتة وأسرف فى التدخين .. وفى سنة ١٩٢٠ عثروا فى أحد كهوف الهند على أخ وأخت .. توأمين عمرهما خمس سنوات .. وأطلقوا عليهما اسم : أمالا

وكالا .. وبعد خمس سنوات مات التوأمان لأنهما رفضا أن يأكلا الخبز أو الأرز .. وفى سنة ١٩٣٣ عثروا على شاب عمره ١٥ سنة يعيش فى غابات السلفادور .. وأطلقوا عليه اسم « طرزان » .. وكان يعيش على الفاكهة وأوراق الشجر وبعض الحشرات .. وفى سنة ١٩٤٦ عثروا على حدود العراق وسوريا على الإنسان الغزال . وكان أسرع من سيارات الصيادين .. فأطلقوا الرصاص على إحدى ساقيه .. ولم يفلح أحد فى أن يعيده إلى الحياة الانسانية العادية .. تماما كما لم أفلح خلال أربع سنوات من صداقتنا هذه أن أجعل منكم آدميين .. يأكلون ويشربون ويرقصون ويضحكون . صدقونى إن أسخف كلام يقال هو الذى يدور بين الرجال .. وأتفه كلام يقال هو الذى بين النساء . ولكن أروع الكلام هو ما يدور بين الرجال والنساء .. فكل الأدب العالمى وكل الشعر وكل المسرحيات .. كلها تدور حول امرأة .. أى حول الجمال والجنس والفضيلة والحب والعشق والخيانة .. وليس لهذه المفردات معنى إلا إذا كانت هناك امرأة .. والله سبحانه وتعالى هو الذى قال عن نفسه « .. ما اتخذ صاحبة ولا ولدًا » .. الله وحده لا شريك له .. أما بقية المخلوقات العادية مثل حضراتكم فيجب أن تكون لهم شريكات وبعد ذلك أولاد – هذا إذا كنتم تتواضعون وترون أنفسكم بشرًا .. ولكن معرفتى الطويلة بكم – مع الأسف – قد أكدت لى أنكم أنصاف آلهة – أى أنصاف بشر وأنصاف حيوانات . والغلطة الوحيدة التى ارتكبتها الليلة هى أننى أتيت بكم إلى هنا . ولم ألق بكم فى مستشفى الأمراض العقلية المجاور لنا !!

وأعتقد أن بعضنا بدأ يضحك ، أما الفتيات فكن يضحكن أكثر ، وكان ضحكهن تشجيعا لنا على أن نذهب إلى أبعد من الضحك وذهبنا إلى أبعد من الضحك . وكان حوار عن كل شىء .. وكانت الإجابات مختلفة . وذابت الفوارق مع الليل الطويل . ولم يعد أحد منا يسمع الآخر فقد انشغلنا فى حوار عن أشياء كثيرة .. عن الأغانى والأفلام وعن المسرح وعن الراقصات وعن الشعر .. وعن السياحة . وعن الكباريهات . وعن الحب من أول نظرة . وعن الزواج . وعن الغيرة . وعن ماضى المرأة هل من الضرورى أن يعرفه الرجل . وعن الرجل الذى تفضله المرأة . والمرأة التى يفضلها الرجل وعن السن المناسبة للزواج . ولماذا لم يتزوج الأستاذ العقاد . ولم تتزوج الآنسة أم كلثوم . والأستاذ توفيق الحكيم .. وكذلك الكاتب الإذاعى الكبير فكرى أباظة .. وبرنارد شو .. والشاعر أبو العلاء المعرى . والفلاسفة شوبنهور ونيتشه وكنت والموسيقار بيتهوفن ..

وفجأة جاءت سيدة ترتدى ملابس بيضاء وقد لفت حول رأسها ما يدل على أنها قد حجت بيت الله . وقدمت نفسها على أنها أم الفتاتين .. وكلتاهما تعملان فى احدى شركات الطيران .. وفى نفس الوقت خالة صاحبنا هذا .. أما الفتاة اللبنانية فهى خطيبة ابنها الذى يعيش فى البرازيل . ولكنها سوف تعود به إلى مصر .

هل أقول كانت صدمة لنا ؟ .

نعم كانت كذلك . فنحن ذهبنا فى خيالنا بعيدا عن الواقع وعندما اكتشفنا هذه الحقيقة أصبحت الجلسة مملة . وعاد الكلام إلى سخافته . والحوار إلى بلادته وكل واحد منا قد زرر ملابسه ، وسد منافذه العاطفية . وأطبق شفتيه . وأحست الأم أنها قد « كتمت » أنفاس الحاضرين فانسحبت . ولكن انسحابها لم ينقذنا من الشعور بالضيق والرغبة فى العودة إلى القاهرة . وخرجنا ، لا أعرف كيف وانحشرنا فى السيارة وتساقطنا فى داخلها .. وانصرفنا دون أن يقول أحد لأحد شيئا . وكأننا شظايا قنبلة واحدة . انفجرت فتبعثرنا فى كل الاتجاهات .

ولكن حدث . كما يحدث فى كل مرة . أن نعود إلى بعضنا البعض ونتساءل : إلى أين اليوم .. أو غدا ؟ .

وأشار واحد منا أن نصلى الفجر فى جمعية « الشبان المسلمين » بالقرب من « الإسعاف » وذهبنا . وقال واحد : إن أول شيء فعلناه اليوم هو أن عهدا قطعناه على أنفسنا قد أبطلناه : فقد كان دورى اليوم أن ألقى لكم البحث الذى تعبت فيه أياما .. إن له معنى قريبا من الحالة التى نحن فيها .. وسوف أريحكم تماما . فلا تزال شهيتى مفتوحة للكلام . فقد نمت أمس جيدا . ولم يبق أمامى فى القاهرة سوى بضعة أيام وبعدها أسافر بعيدا عن وجوهكم غير المشرقة وأنظاركم الأكثر اشراقا .. أو إشراكا . ! أما الموضوع فهو أننى أبحث عن يوم فى التاريخ كنت أتمنى أن أعيشه تماما ، تماماً كما كنت لا أتمنى أن أعيش لأرى هذا اليوم الذى نحن فيه .. كنت أتمنى أن أرى نابليون العظيم أثناء دخوله أسيرا فى جزيرة سانت هيلانة سنة ١٨١٥ .. أو كنت أرى قبل ذلك سيدنا موسى وقد شق البحر بعصاه . أو كنت أرى انتحار الفيلسوف سقراط سنة ٣٩٩ قبل الميلاد . أو أرى حصار طروادة فيما بين سنتى ١١٩٢ و١١٤٨ قبل الميلاد .

ثم سكت وقال وهو ينظر إلينا بشماتة كاسحة : أو أرى كيف غرقت الباخرة تيتانيك سنة ١٩١٢ عندما اصطدمت بجبل من الجليد . تماما كما اصطدمتم حضراتكم بالأستاذ العقاد ! إننى أعلم يقينا أن دمى ثقيل . ولكن أرونى واحدا أخف دما !

وانصرفنا . وفى الطريق إلى البيت عرفت لماذا وضع الشاعر الايطالى دانتى عددا كبيرا من الفلاسفة والشعراء فى جهنم . فقد وضع الشعراء هوميروس وهوراس وأوفيد والفلاسفة سقراط وأفلاطون وابن سينا وابن رشد .. ولم ينس عددا من النساء أيضا : كليوبطرة وسميراميس وهيلين التى قامت من أجلها حرب طروادة ..

أما السبب فهو أنه محكوم عليهم بالافكار الشاقة المؤبدة فى الدنيا . وبالعذاب إلى غير نهاية فى الآخرة !

وعرفت لماذا كان الشاعر دانتى عندما يرى العذاب كان يغمى عليه إن هذا الإغماء يجعله يهرب من الألم : من رؤية المعذبين وسماع صرخاتهم . إن هذا الإغماء يشبه تثاؤب شهرزاد فى ألف ليلة .. إنها هى الأخرى تريد أن تستريح من حكاياتها وأن تعطى لنفسها فرصة لكى تفكر فى قصة جديدة .. وتمد فى عمرها يوما .. فقد كان شهريار يقتل كل ليلة امرأة انتقاما من زوجته التى خانته مع واحد من الخدم .. ولذلك فشهرزاد كانت قد اتفقت مع الديك أن يصيح كلما تعبت .. فالديك يصيح وهى تتثاءب والملك ينام ..

ولكن ليس واحد منا هو الشاعر دانتى فى « الجحيم » ولا واحد منا هو « شهرزاد » فى ألف ليلة وليلة . فعذابنا حقيق . ثم إنه تجاوز ألف ليلة وليلة . ولابد من أى حل .

ووجدت الحل .. ووقفت عند التليفون . وطلبت الأستاذ وقلت له : عندنا مسألة عاجلة . سوف نعرضها عليك . وأرجو أن تسمعنا . لأنها تتعلق بحياة أو موت .. حياتنا أو موتنا .. نحن الذين جئنا إليك لنشكو إليك وليس لنعزيك فى صديقك .

ولا أعرف إن كان قال : أهلا وسهلا يا مولانا .. أو لم يقل . إنما أنا الذى تخيلت ذلك . واهتديت إلى القصة التى سوف أحكيها وسوف يدور حولها الحوار . ولم أكن حريصا على أن يجىء كل الزملاء . بل تمنيت أن أكون وحدى . ورفضت فورا كل فكرة راودتنى بأن أسجل كلامى كتابة وأقرأه . ورفضت أيضا أن أخترع أية قصة . إنما قررت أن يكون السؤال مباشراً ، وكانت ترن فى أذنى وفى أعماق كل كلمة قالها طه حسين .

ثم ما هذا الذى نريده جميعا ؟

لا شىء أكثر من أن الأستاذ الذى سمعناه ألوف الساعات . يسمعنا ساعة . وألا يقول شيئا ولكن هل هذا ضرورى ؟ .. ليس ضروريا . إذن فلماذا ؟ .

لم أجد إجابة واضحة عن ذلك . إنما أن نشركه معنا ..

طرفا ؟ نعم ! .

شريكا ؟ نعم ..

ندا ؟ . ليس ندا .. ولكن فى هذه الحالة سوف يكون كذلك . ويكون هذا الحوار هو الأخير . تماما كالعشاء الأخير بين السيد المسيح وحوارييه . وبعده أسلمه واحد منهم إلى الرومان الذين صلبوه بعد ذلك .. أو تخيلوا أنهم فعلوا ذلك ! فليكن الحوار الأخير ..

وَجَلَسنَا حَولَ سَرِيرِهِ !

لقد أصبح كل شيء بعيدا تماما .. الدنيا كلها تراجعت إلى الوراء .. وأصبحت صغيرة .. البيوت والشوارع والناس .. فجأة وجدتنى وحدى . ولا أعرف كيف يسترجع كل شيء فى الدنيا حجمه ووزنه .. كيف يعود بعضنا إلى بعض .. أحسست كأن أصابع يدى تصلبت بعيدة عن بعضها البعض .. فلم أعد قادرا على أن أمسك شيئا .. وأحسست كأن عينى .. كل واحدة منهما تتحرك وتدور وترى شيئا آخر غير الذى تراه العين الأخرى .. وأن عقلى حائر بين هاتين العينين .. وكذلك بين الأذنين .. واحدة تسمع ما يقال لى . وواحدة تسمع ما قيل من أيام .. فهما تعيشان فى عصرين مختلفين .. وعقلى حائر أيهما يصدق ..

كان يوماً حزينا : مات أبى . وسرت فى جنازته وحدى . لم أشعر بأحد . ولا وجدت أن من الضرورى أن يكون أحد . بل إننى وجدت أن هذه الجنازة لا معنى لها .. فهو قد مات فى قلبى ودفنته فى نفس المكان .. ثم إن وفاته هذه مأساة خاصة .. مأساتى . ولذلك لم أشأ أن أخبر أحدًا من أصدقائى . ولم أفعل . ولكنهم عرفوا ذلك بعد وقت طويل . ولم يدهشهم أننى لم أطلع أحدا . فهم يعرفون رأيى . وتلقيت عزاءهم بعد سبعة شهور من الوفاة ..

ومن الغريب أننا لم نلتق فى اليوم التالى . دون أن نتفق على ذلك . إنما تعبنا . أو ضقنا بحالنا وببعضنا البعض . فقررنا فرادى أن ينصرف كل منا لحاله .. وانصرفت إلى البكاء على والدى وإلى دفنه وإلى الحزن عليه . والدى هو الذى اختار شكل الموت . واختار مكانه . واختار الصورة التى يموت عليها . سأل : إن كنت قد عدت من الجامعة ؟ فقيل له : نعم عاد . قال : أريد أن أراه .

ذهبت إليه . كان ممددا على سرير صغير فى « عوامة » فى النيل . لقد ازداد وجهه الأحمر شحوبا وازدادت عيناه صفاء . أما صوته فلم يبق منه إلا شهيق وزفير . هواء يخرج من صدره . ولكن كانت يداه أسبق من عينيه .. فقد مد يديه ناحيتى . ولما وجدنى بين ذراعيه فتح عينيه .. كأنه يعقوب عليه السلام وكنت ابنه يوسف الذى غرق فى بئر الدراسة والحيرة والقلق والحزن على مرضه والأسى على وفاته .. سألنى : نجحت ؟ قلت : الحمد لله .. سألنى : وكان ترتيبك الأول ؟ قلت : الحمد لله .. فقال : الحمد لله !

ومات .

وخرجت إلى الشارع أطلب الأستاذ العقاد فى التليفون : صباح الخير يا أستاذ .. أبى مات .

فقال الأستاذ : البقية فى حياتك يا مولانا . الآن تستطيع أن تكون رجلا . وهذه فرصتك لتثبت أنك قد كبرت . إن صوتك لا يعجبنى . تعال غدًا الخميس أجلس معك ، هون عليك يا مولانا . إن رجلا يحبه ابنه مثلك لا يموت . إنه سوف يبقى حيا فى حياتك . وسوف تتجدد ذكراه فى ذاكرتك . قد يكون أبوك قد مات لكل إخوتك ولكل أصدقائه . ولكن الحب الذى تكنه لأبيك يضيف إلى عمره أعمارا . فليحفظك الله كما حفظت أنت ذكر أبيك .. إن حديثك عنه يا مولانا . كان دائما أقرب إلى رثائه .. فكأنك قد سبقت الموت . وتصورت والدك ميتا . وجعلت تقيم له الحفلات كلما أتيحت لك الفرصة .. وإن وجدت نفسك الآن غير قادر على أن تشارك فى الجنازة . أو فى تلقى العزاء فتعال الآن .. وأنا أنتظرك ..

قلت : أشكرك يا أستاذ ..

وطلبت السيدة نعمت هانم يكن . وكان والدى يعمل مفتشا على أراضيها الزراعية . وقالت الخادمة : إن الهانم نائمة .. من أنت ؟ فقلت لها .. ثم كان صمت قصير . وجاء صوت الهانم : صباح الخير .. خير .. قلت : لا . إنما كنت أريد أن أعرف إن كان والدى موجودا .. فقد غاب أمس ولم يعد إلى البيت .. وكلام آخر كثير لا أعرفه بوضوح .. فقد ضايقنى صوتها . فقد توهمت أنه كان من الواجب أن تعرف من الحزن فى صوتى . والبكاء فى حنجرتى . أن حدثا جليلا قد أصابنى . وكان ذلك وهما . فلا أنا ولا أبى حيا أو ميتا نعنيها فى شىء . وأنا أعرف ذلك . ولكن اضطرابى وارتباكى وحزنى العميق قد ضاعف أوهامى . فتصورت أن حزنى هو احتجاج كونى .. أى احتجاج يعرفه الكون كله . فكيف لا تعرفه هى ؟ ! ..

وطلبت الطبيب الذى كان يعالج والدى من مرض السكر . وكان رد الطبيب : سمعت أنه امتنع عن تعاطى حقن الأنسولين .. وهذه غلطة ..

ولا أظن أنه أكمل هذه العبارة . فقد أنزلت سماعة التليفون . لقد أراد أن يقول إن أبى كان قد أخطأ . وهذه هى العقوبة كأنه لو ظل يتعاطى الأنسولين . فلن يموت .. ولكنهم الأطباء يرون الصحة مرضا يعالجونه . حتى يمرض الإنسان . فإذا مرض فهذا هو الإنسان الطبيعى . فإذا مات فلأنه لم ينفذ أوامرهم . ولم يبادرنى الطبيب بكلمة عزاء . ومن الغريب أننى لم أقبل فيه العزاء ولا أطلبه من الناس . وفى نفس الوقت إذا لم يعزنى أحد فيه . فإننى أرى ذلك إهمالا شنيعا . فكأننى أريد أن أسمع العزاء لكى ألقيه على الأرض . كأننى أريد أن يحزن الناس جميعا عليه . صادقين أو كاذبين ..

وكان لأبى صديق شاعر يقيم فى أطراف مدينة إمبابة تحدثت إليه فى التليفون . ففزع الرجل وقال : إنا لله وإنا إليه راجعون . هذا قضاء الله يا ولدى . وماذا ستصنع يا ابنى ؟ هل وجدت عملا ؟ إن لم تكن قد وجدت فلى قريب يعمل فى وزارة التربية والتعليم .. ومتى الجنازة ؟ والله إننى طريح الفراش .. ولكن سوف أجيء أنا وزوجتى وأولادى .. حتى لو مت فى جنازته .. هل أنت فى حاجة إلى فلوس ؟ قل لى يا ابنى .. إلخ .

ولا أعرف كيف انتهت هذه المكالمة .. وطلبت أناسا كثيرين . ولم أعرف ما الذى دفعنى إلى ذلك . هل أريد أن يعرف كل الناس ؟ هل أنا حائر فيما سوف أعمله . أو يجب أن أعمله ؟ .. هل أردت أن أهرب من الموقف المفاجئ . وأحاول أن أفعل أى شيء ؟ .. فقط أوهم نفسى بأننى أساهم بشيء . هل أنا هارب من وجوه لا أحب أن أراها من إخوتى وأقاربى ؟ .. هل ما سمعته بالأمس قد أفزعنى ؟ فقد قال واحد من إخوتى الأكبر سنا : أنت الذى قتلت والدك .

أنا الذى قتلته ؟ لماذا ؟ لقد كان أبى يحبنى أكثر من كل إخوتى . وكان مشغولا بى ، مشغولا فقط بنجاحى ومدى تقدمى . ولم أكن عبئا ماديا . إنما كنت عبئا عاطفيا – إن صح هذا التعبير . فهو إذا صحا من نومه سأل عنى . وقبل أن يستسلم للنوم أكون آخر الأسماء وآخر الصور . وعندما جاءته سكرة الموت كان يدعو لى . وكان دعاؤه : الله يفتح عليك . وينصرك على من يعاديك . وينجيك من نفسك ومن إخوتك . ويسترك دنيا ودينا . وسوف ينصرك الله ويسترك ..

ولم يكن لأحد من إخوتى نصيب من رضاء أبى .. فإن لم أكن أنا « بنيامين » أصغر أبناء يعقوب . فمن المؤكد أننى « يوسف » الذى ألقوه فى الجب .. وذهب أبناء يعقوب إلى أبيهم يقولون : إن الذئب قد أكله .. وبكى يعقوب حتى انطفأ نور عينيه ..

وقد حدث ذلك مرة . عندما قيل لأبى إن سيارة قد صدمتنى . وإن السيارة نزلت بى إلى النيل ، وإن ما تبقى منى قد تعلق بمحرك إحدى السفن النيلية . وإنهم لا يعرفون شيئا عن هذه السفينة ولا وجهتها . وإنهم قد سمعوا هذا النبأ بالتليفون . فقد حدث ذلك عند دمياط . واتجهت السفينة إلى البحر فى طريقها إلى أوروبا منذ الصباح الباكر ..

وأصيب أبى بالسكر حزنا على ولده يوسف .. وصدم أبى مرة أخرى عندما وجدنى حيا أمامه قد أحضرت له ما طلب من أدوية .. وقد تعبت كثيرا فى العثور على هذه الأدوية فى جميع صيدليات مصر . فقد مشيت فى ذلك اليوم من مطلع الفجر حتى منتصف الليل .

ولم يفلحوا فى إضحاك أبى . عندما قالوا له : إنها كذبة أبريل .. وإن صاحب الكذبة هو أحد أصدقائى .

ولم يكن ذلك صحيحا . فهى كذبة فقط ، ولا علاقة لها بأبريل !

وقابلنى واحد من أسرة « عزام » . وبسرعة عرف أن هناك كارثة . فقال : أنا ذاهب إلى د . عبد الوهاب عزام . ما رأيك ؟ ..

ولم أقاوم . وذهبت . ودخلنا على الرجل مكتبه . وكان رجلا رقيقا هادئ الصوت . واثق الحركة . واسع الصدر . وصافحنى بحرارة الأب ورعاية الأستاذ . وسألنى : من أنت ؟

فأجبت قائلا : لقد نصحنى د . شوقى ضيف أستاذى أن أجىء إليك لعلك تجد لى عملا فى جريدة « الأساس » ..

وهى الجريدة التى تصدرها الهيئة السعدية ..

وأدهشنى أنه قال : ولكنى سمعت من أستاذك هذا أنك تريد إكمال دراستك ، وأنك اخترت رسالة الماجستير.. ولكن هل يمكنك العمل بالصحافة وبالفلسفة فى وقت واحد ؟ ..

وأشار صديقى إلى أن حادثا عائليا قد حتم على أن أختار لى طريقا آخر بسرعة . وأبدى د . عزام أسفه ، ولكنه عاد يقول بواسينى : إذن فلن تختار الطريق الشاق الذى اختاره أستاذك العقاد .. إنه شاق . ولكن العقاد صلب وعنيد .. وقدوة .. إننى أزداد إعجابا بهذا الرجل . إنه يذكرنى بحكماء الحضارات القديمة . إنه تفرغ للفكر ونسى أن يكسب من وراء ذلك شيئا .. فهو قد ارتضى الطعام والشراب والمأوى الذى يمكنه من التفكير والكتابة .. لقد كان الشاعر إقبال ينصح تلامذته بقوله : الناس نوعان .. نوع إذا أحس بالدفء قفز إلى السرير ونام . ونوع إذا أحس بالدفء قفز إلى الورق وكتب .. والعقاد قد اختار دفء الورق والقلم .. فأى أنواع الدفء قد اخترت يا ولدى ؟ ..

ولما لم يجد عندى رغبة فى الإجابة . أو قدرة عليها .. قال : سوف أفعل إن شاء الله عندما أعود من السفر بعد أسبوعين ..

ولا أعرف كيف قفز إلى ذاكرتى ، رغم هذا الحزن العميق ، أننى قد قابلت د . شوقى ضيف . وأنه هو الذى وجهنى إلى أن أعمل فى الصحافة . بشرط أن أظل على علاقة بالفلسفة والأدب . وهو لايعرف أن الصحافة غانية مستبدة ، لا تريد أن يشركها بها أحد . فالذى يعشقها يتفرغ لها ، ولا يسألها إن كانت هى الأخرى قد أخلصت له ..

ولكن معنى ذلك أن فى أعماق كل إنسان قوة أخرى لا تريده أن يغرق . لا تريده أن يحزن على أحد ، حتى الموت ، وأن فى أعماق كل إنسان قوة المقاومة ، وإرادة الحياة . وأن ينهض واقفا ، وأن يقفز من الفراش . وأن يجفف دموعه ودماءه . وأن يستأنف السير فى الطريق .. أى طريق .. وأدهشنى جدا أننى عندما تركت د . عبد الوهاب عزام ، انشغلت بمستقبلى ما الذى سوف أفعله الآن ؟ .. ففى ذلك الوقت كان أخى الأصغر ، هو الذى يتكفل بالإنفاق على .. إنه لم يكمل دراسته . لم يستطع . فليس لديه هذا الاستعداد . فاتجه إلى الحياة العملية . ومضيت أنا فى الدراسة . وفجأة

وجدت أن الوقت قد حان لأعمل . وليكف أخى عن مساعدتى . أو لعلى أكون قادرا على مساعدته وتعويضه . واستراح ضميرى بعد ذلك . فقد أعطيته وعوّضته أضعاف أضعاف ما قدم لى .

ولم أجد عندى رغبة فى أن أتحدث إلى أحد عن والدى – إنه والدى أنا ولا يعنى أحدا من الناس . ووجدتنى أتحدث عن نفسى ، ورغم أن نفسى وهمومى لاتهم أحدا . فلقد وجدت من الصعب ألا أشرك الناس فى التفكير معى . وكان أقرب الناس : أصدقائى . فهم أيضا فى نفس المشكلة . لولا أننى بادرت برفض الكثير من الاحتمالات التى وجدتها أمامى .

فالأستاذ فى اليوم التالى قال لى : أفضل أن تبيع الحمص والسودانى على أن تعمل مدرسا . إنها مهنة الأنبياء والشهداء . إنه الإنسان الذى اختار أن ينفخ فى قربة مقطوعة . اختار أن ينقش على الصخر وعلى الماء .. وأن يعيش كريما بين تلامذته . وأن يموت تعيسا بين أولاده وزوجته .. لقد جربت التدريس . وجربت كراهية أن يكون الإنسان مملا . وأن يكون ثورا فى ساقية . وأن يكون بعد ذلك حيوانا مظلوما لا يدرى إن كان ثورا أو حمارا أو خنزيرا .. إنه يدور ويدور .. ولا أنصحك أن تكون مدرسا فى الجامعة يا مولانا .. وقد تتوهم أن مدرس الجامعة أحسن حالا .. إنه ثور أيضا ولكنه يدور فى ساقية كبيرة .. ومجال سير الثور أكبر حتى ليخيل إليه أنه يمشى فى طريق مستقيم .. ولكنه فى الحقيقة قد اختار مدارا واسعا . والفرق بين ثور الجامعة وثور المدرسة أن أحدا لا يضرب ثور الجامعة بالكرباج .. وأنه يستطيع أن يتوقف عندما يريد .. ولكن لابد أن يدور .. حتى إذا شاء أستاذ الجامعة ألا يدور .. وأن يتوهم أنه حر .. فإن الأستاذ الجامعى قد حصر نفسه فى قوالب حديدية .. هذه القوالب هى مناهج الدراسة .. والمحاضرات .. وأن يواجه من لا يعرف من الطلبة .. مئات الطلبة .. هو يقول وهم يستمعون .. كأنه يتحدث فى الميكروفون .. لاصلة إنسانية .. إنه مثل « يوحنا المعمدان » الذى وصفته الكتب المقدسة بأنه « الصارخ فى البرية » أى الذى يصرخ فى الصحراء فلا يسمعه أحد .. وأن الذى يقوله لا يدرى به أحد .. وأن هذا الذى يفعله إن لم يكن جنونا . فهو أقرب إلى ذلك .. ولما حاول هذا الصارخ فى البرية أن يصرخ فى المدينة .. أنت تعرف ماذا حدث له ، قطعوا رقبته وقدموا رأسه على طبق من الفضة لامرأة الملك التى كان يوحنا يتهمها بالزنى . لأنها قتلت زوجها وتزوجت أخاه – وهذا ينافى التعاليم اليهودية .. ثم كوفىء الأخ بأن رقصت له سالومى عارية . وسالومى هى ابنة أخيه .. أى أنه قتل أخاه وتزوج أرملته . ثم عشق ابنة أخيه . وارتضت الأم قتل زوجها وسفالة ابنتها .. فما أقسى العقاب . وما أفدح التضحية .. فلا تكن صارخا فى البرية .. حتى لو كانت هذه البرية اسمها جامعة .

أما أصدقائى فهم يعرفون مقدما وبوضوح ما الذى سيفعلون . إنهم : طبيب ومهندس معمارى وصيدلى ووكيل نيابة ورجل أعمال ..

ودون اتفاق بيننا وجدنا أنفسنا فى حديقة الأسماك بالزمالك - إلى هذه الدرجة من التفاهم والتقارب كنا نحن الأصدقاء ، وجلسنا . وأخرج كل منا ورقة ملفوفة . ورحنا نأكل السندويتش . وكأننا فرقة صغيرة بمسرح العرائس . نفعل نفس الشىء فى نفس الوقت . دون أن نعرف ما الذى يحركنا ومن الذى يوجهنا . هل نضحك على أنفسنا ؟ حاول واحد منا . ولكن الآخرين لم يشجعوه على ذلك ، سأل واحد منا إن كنا قرأنا الصحف ؟ وكان الجواب : لا .. إن كنا قد شاهدنا أحد الأفلام المخيفة ؟ ولم يجد أحد رغبة فى أن يرد . ووقفنا الواحد بعد الآخر ، ورحنا ندور فى داخل حديقة الأسماك . وقد تغيرت معالمها . أو برزت معالمها أوضح من أى وقت مضى .. فأسوارها باهتة الألوان ، وأشجارها ذابلة الأوراق . وطرقاتها قد تعرت من الرمل الأصفر . والجالسون على المقاعد ليسوا جميعا من الخدم والخادمات ولا حتى من الأطفال . هل تغير كل شىء فى عيوننا فجأة .. أو أنها كانت كذلك طوال السنوات الماضية . ولكن أحدا منا لم يرها بوضوح ؟ بل إن واحدا منا قال : إن عدد الأسماك فى هذه الحديقة لا يزيد على تسع أسماك كبيرة . وعشرين صغيرة - إن حديقة الاسماك بلا أسماك .. فلماذا لا يطلقون عليها اسم : «كانت حديقة الأسماك» .. أو «حديقة الأسماك سابقا» ؟ .. أو نظرا لهؤلاء الناس المساكين الذين يأكلون ويشربون وينامون تحت أشجارها وجميعهم من الفقراء ، فلماذا لا يسمونها حديقة «الأسمال البالية» .. أو ما دامت هذه الحديقة حريصة على أن تحتفظ بالاسم ، وليس بالأسماك فلماذا لا يسمونها : صديقة الأسماك ؟ !

وأغرقت همومى فى أحزان أصدقائى .. فقد تصادف أن مرضت أم واحد من الأصدقاء فجأة أمس .. وواحد آخر كان يسكن بمفرده فهبط عليه عدد من أقاربه ، جاءوا لزيارة سيدنا الحسين .. وواحد آخر فوجئ بأن والدته تعرض عليه بصورة حادة أن يتزوج ابنة خالته ، وهو يجدها غنية ولا يشعر نحوها إلا بأنها أخت غير شقيقة .. ووجدنا جميعا فى هذه الأحداث صدفة غريبة تجعلنا نفكر فى معناها ودلالتها ، ولم يعد واحد منا إذا نظر إلى الباقين ، يسأل : ما معنى هذا الحزن .. أو إن كانت هذه الصدف قضاء وقدرا .. وإننا إلى هذه الدرجة مرتبطون ؟ فإذا كان حالنا كذلك .. فكيف نفترق ؟ .. ولابد أن نفترق .. فإذا حدث ، أفلا يؤدى ذلك إلى «فك» النحس عنا جميعا ؟ إذن فهذا النحس سوف ينتهى بعد يوم .. بعد شهر .. بعد سنة .. لا محالة . إذن فلنرض بما قسمه النحس لنا ، لأننا سوف نفارقه ، وسوف يفارقنا ..

قال أحد الأصدقاء : أعتقد أنكم جميعا فى الحالة التى تناسبنى تماما . فسوف تنفذون بالضبط ما آمركم به .. فأنتم منومون مغناطيسيا . ولذلك فامشوا ورائى . لا مناقشة . لا معارضة . فما يزال أمامنا متسع من الوقت . ولا أظن أحدا منكم يريد أن يفعل شيئا . هذا ما أراه .

وكان استنتاجا صحيحا . ومشينا فى الزمالك . واقترحت أن نمشى فى شارع الأمير حسين . سألونى

لماذا ؟ لم أشأ أن أجيب . ففى هذا الشارع أقمت سنتين . فهناك تسكن السيدة نعمت هانم يكن . وهنا كان يقيم أبى . وكنت أقيم معه . وعندما كان زملائى فى كلية الآداب يعرفون أننى أسكن الزمالك .. يندهشون . كيف كنت أركب الترام ! فالزمالك هو الحى الذى يسكنه الباشوات والأمراء . ويدهشهم أكثر كيف أذهب إلى الجامعة سيرا على الأقدام .. وتدهشهم أشياء أخرى كثيرة يمنعهم الحياء من ذكرها . ولكنى كنت أسكن فى الزمالك . وفى هذا الشارع . وفى هذا القصر .. وفى هذه الغرفة التى أصعد إليها بدرج خشبى بالقرب من الباب بعيدا عن سلالم القصر .. وكانت القوات اليوغوسلافية الملكية تسكن الطابق الأرضى من القصر .. وكنت أجد متعة فى الحديث إليهم بالانجليزية والفرنسية . ولا أظن أننى كنت أقول شيئا . إنما هو كلام ومداعبات .. أو هو تدريب على اللغة ، أو إحساس بالاختلاف والتميز عن بقية سكان البيت من الطباخين والبوابين والسفرجية وموظفى التفتيش من الكتبة والموظفين .. وكان والدى سعيدا بذلك ، وكان يطلب منى أحيانا أن أتحدث إليهم عن تقدمى فى الدراسة وعن المستقبل الباهر الذى يتوقعه أو يتمناه والدى وأساتذتى وأقاربى .. وكنت أنقل إليهم ذلك دون أن أشعر بالحرج أو بالخجل من هذه الصفات التى أقولها عن نفسى .. ولكننى كنت أطيع والدى فقط وأسعده بذلك .. ومررنا على البيت . وتوقفت أمامه طويلا . فسألنى أحد الأصدقاء : هل هنا بنت الجيران .. حبيبة القلب ؟ ..

إنهم لا يعرفون .. وكان من الممكن أن تكون هناك حبيبة للقلب . فقد رأتنى إحدى الفتيات . ثم نظرت إليها . وأظن أنها ابتسمت . وأننى فعلت ذلك . ولكن أحسست بسرعة أن الاستمرار فى ذلك أكذوبة . فلست من سكان الزمالك مثلها ، ولست صاحب البيت . وإذا تحدثت إليها ، أو رأيتها ، أو قابلتها فما الذى يمكن أن أقوله لها ؟ هل أقول إن أبى موظف .. وإننى أعيش معه بصفة مؤقتة . وإنه لن يمضى وقت طويل حتى تجىء أمى وإخوتى من المنصورة لنسكن فى مكان آخر ؟ .. وإذا كان حب ورغبة فى الزواج فما الذى أفعله .. وأنا طالب بصعوبة – أى طالب فى ظروف صعبة ؟ .. بل إن حياتى كطالب كانت مهددة بالانقطاع منذ مراحل التعليم الأولى .. فقد كان من المفروض أن أذهب إلى مدرسة الكونستبلات .. أو إلى مدرسة الزراعة المتوسطة .. أو أن أكون موظفا بوزارة الصحة .. ولكن شاءت إرادة الله ، وإصرار أمى ، ألا أكون شيئا من ذلك . إنما أن أكمل تعليمى مهما كانت الظروف ..

وأحسست أيامها أننى ذهبت بعيدا جدا فى خيالى . وفى إحدى المرات وجدت هذه الفتاة نفسها وقد حملت زجاجات اللبن والخضراوات وتقول بأعلى صوتها : حاضر يا ستى !

لقد كانت خادمة . إلى هذه الدرجة لم أكن قادرا على الرؤية الواضحة ، أو على التمييز بين الذين أراهم من الرجال أو النساء . فقد كنت فى حالة من الحرج الدائم ، ومصدر هذا الحرج هو أننى فى

غير موضعى . وأننى لذلك فى ضيق مما أنا فيه . ولا أعرف كيف الخلاص . إننى « يوسف » مرة أخرى ، فى بئر عميقة .. وكلما رأيت شعاعات النور ظننتها خيوطا أو حبالا رفيعة فأمد إليها يدى لكى أنتشل نفسى من نفسى ، ويكون اليأس من النجاة هو شعورى الباقى بعد كل محاولة ..

ومضينا فى شوارع الزمالك حتى وجدنا أنفسنا بالقرب من بيت د . طه حسين مرة أخرى .. ونظرنا إلى البيت الهادئ الصامت .. الذى أعطى المنطقة هدوءا . أو أعطته المنطقة هدوءا عميقا .. احتراما لساكنه ، وامتنانا له أنه اختار هذا الشارع سكنا مختارا يشير إليه الناس ذهابا وإيابا .. ثم تجاوزنا بيت طه حسين إلى كلية الفنون الجميلة .. وجدنا أنفسنا قد دخلنا منومين وراء أحد الأصدقاء .. ووجدناه يسأل بعض الطلبة .. ثم أشار إلينا أن نبقى حيث نحن .. وبقينا ننظر إلى طلبة الفنون الجميلة .. إنهم طراز غريب من الطلبة .. أكثر مرحا .. وأكثر غرابة .. الملابس عجيبة الألوان .. والشعور واللحى طالت .. وفى أيديهم أوراق كبيرة ومساطر وأقلام .. وأصواتهم عالية وضحكاتهم مدوية ، وأكثرهم يدخنون ، وعددهم قليل ، ولكنهم جميعا قد احتشدوا فى مكان واحد دافئ .. وعلى الرغم من أن الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة فإن أحدا منهم لا يترك المكان إلى قاعات المحاضرات .. وجاء صديقنا . وأشار إلينا أن نتبعه . وسرنا وراءه . ودخلنا إلى قاعة كبيرة .. وقد انشغل عنا الطلبة برسم صور عارية .. على اليمين وعلى اليسار .. وفجأة وجدنا أمامنا فتاة عارية تماما .. تماما . ولم تكد ترانا .. حتى شعرت بالحرج الشديد .. وحدث همس واتجهت إلينا العيون .. وقالت : أنا تعبت .. أريد أن أستريح ..

وفهمت فيما بعد أن الفتاة « الموديل » تقف أمام الطلبة بالساعات يرسمون جسمها من جميع الزوايا . وأنها قد اعتادت على ذلك : اعتادت على أن تراهم ، واعتادوا على أن يروها . وأصبحت العلاقة بين الجميع هى أنها « تمثال حى » أى أنها « شىء » وأنهم يرسمونها .. وأن الإحساس الجنسى ميت بينهم جميعا .. وأن هذا الإحساس يموت بالتكرار .. وأنهم يدفنونه نهائيا إذا عرفوا أنها مسكينة ، وأنها جاءت تتعرى مقابل مبلغ تافه من المال .. وأنها تبيع النظر إلى جسمها ، وليس جسمها .. ولذلك فهناك فنانون آخرون ، أكثرهم أساتذة ، يرسمونها فى استوديوهاتهم الخاصة ، ليساعدوها على مواجهة الحياة .. وإن فى كلية الفنون الجميلة عددا من الموديلات من أسرة واحدة تعيش فى إمبابة ..

يرفع هذا الفستان .. وبعد ذلك يتصور كل إنسان ما يعجبه .. وفى أساطير الإغريق أن « الحقيقة » جاءت للناس عارية ، فنفروا منها ، فذهبت وتغطت فأقبل الناس عليها .. وفى التوراة أن بداية الجاذبية الجنسية كانت عندما تغطت حواء . إنها – إذن – كالحقيقة العارية لا تجذب الناس . ولكن الحقيقة إذا تغطت وأخذت تعرى صدرها وساقيها ، فإن العين تتعلق بفستانها ، والخيال بأوراق

غير موضعى . وأننى لذلك فى ضيق مما أنا فيه . ولا أعرف كيف الخلاص . إننى « يوسف » مرة أخرى ، فى بئر عميقة .. وكلما رأيت شعاعات النور ظننتها خيوطا أو حبالا رفيعة فأمد إليها يدى لكى أنتشل نفسى من نفسى ، ويكون اليأس من النجاة هو شعورى الباقى بعد كل محاولة ..

ومضينا فى شوارع الزمالك حتى وجدنا أنفسنا بالقرب من بيت د . طه حسين مرة أخرى .. ونظرنا إلى البيت الهادئ الصامت .. الذى أعطى المنطقة هدوءا ، أو أعطته المنطقة هدوءا عميقا .. احتراما لساكنه ، وامتنانا له أنه اختار هذا الشارع سكنا مختارا يشير إليه الناس ذهابا وإيابا .. ثم تجاوزنا بيت طه حسين إلى كلية الفنون الجميلة .. وجدنا أنفسنا قد دخلنا منومين وراء أحد الأصدقاء .. ووجدناه يسأل بعض الطلبة .. ثم أشار إلينا أن نبقى حيث نحن .. وبقينا ننظر إلى طلبة الفنون الجميلة .. إنهم طراز غريب من الطلبة .. أكثر مرحا .. وأكثر غرابة .. الملابس عجيبة الألوان .. والشعور واللحى طالت .. وفى أيديهم أوراق كبيرة ومساطر وأقلام .. وأصواتهم عالية وضحكاتهم مدوية ، وأكثرهم يدخنون ، وعددهم قليل ، ولكنهم جميعا قد احتشدوا فى مكان واحد دافئ .. وعلى الرغم من أن الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة فإن أحدا منهم لا يترك المكان إلى قاعات المحاضرات .. وجاء صديقنا . وأشار إلينا أن نتبعه . وسرنا وراءه . ودخلنا إلى قاعة كبيرة .. وقد انشغل عنا الطلبة برسم صور عارية .. على اليمين وعلى اليسار .. وفجأة وجدنا أمامنا فتاة عارية تماما .. تماما . ولم تكد ترانا .. حتى شعرت بالحرج الشديد .. وحدث همس واتجهت إلينا العيون .. وقالت : أنا تعبت .. أريد أن أستريح ..

وفهمت فيما بعد أن الفتاة « الموديل » تقف أمام الطلبة بالساعات يرسمون جسمها من جميع الزوايا . وأنها قد اعتادت على ذلك : اعتادت على أن تراهم ، واعتادوا على أن يروها . وأصبحت العلاقة بين الجميع هى أنها « تمثال حى » أى أنها « شىء » وأنهم يرسمونها .. وأن الإحساس الجنسى ميت بينهم جميعا .. وأن هذا الإحساس يموت بالتكرار .. وأنهم يدفنونه نهائيا إذا عرفوا أنها مسكينة ، وأنها جاءت تتعرى مقابل مبلغ تافه من المال .. وأنها تبيع النظر إلى جسمها ، وليس جسمها .. ولذلك فهناك فنانون آخرون ، أكثرهم أساتذة ، يرسمونها فى استوديوهاتهم الخاصة ، ليساعدوها على مواجهة الحياة .. وإن فى كلية الفنون الجميلة عددا من الموديلات من أسرة واحدة تعيش فى إمبابة ..

يرفع هذا الفستان .. وبعد ذلك يتصور كل إنسان ما يعجبه .. وفى أساطير الإغريق أن « الحقيقة » جاءت للناس عارية ، فنفروا منها ، فذهبت وتغطت فأقبل الناس عليها .. وفى التوراة أن بداية الجاذبية الجنسية كانت عندما تغطت حواء . إنها - إذن - كالحقيقة العارية لا تجذب الناس . ولكن الحقيقة إذا تغطت وأخذت تعرى صدرها وساقيها ، فإن العين تتعلق بفستانها ، والخيال بأوراق

التوت أو أوراق التين .. وليست صناعة القماش والأزياء والتفصيل وعروض الأزياء واختيار المانيكانات إلا تطويرا مستمرا لورقة التوت ، وقد برع الإنسان فى تغطية جسم المرأة والتفنن فى إبراز مفاتنه .. فالفستان قادر على أن يجعل للمرأة نهدين وردفين ، مع أن شيئا من ذلك ليس هناك .. فكأن الفساتين تبرز أكثر مما تخفى .. وصناعة الفساتين مثل صناعة الأدب والشعر .. كلها فنون جميلة ، وجمالها هو فى قدرتها على تغطية الحقيقة وكشفها وتعريتها بحساب وبراعة ..

ولو ذهبت « الموديل » أى هذه الفتاة العارية وركبت الترام وارتدت فستانا « محزقًا » . وكشفت عن ساقيها ، لخرجت النيران من العيون . . وقد يكون من بين الذين ينظرون إليها واحد من الطلبة الذين رأوها عارية تماما . . والمرأة تعرف بغريزتها أن العيون تأكلها إذا تغطت ، والعيون تسقطها إذا تعرت . . والذين اخترعوا أزياء المرأة من الرجال يعرفون ما الذى يعجب الرجال وما الذى يعجب النساء أيضا . . فالحذاء ذو الكعب العالى يجعل المرأة ترتفع عن الأرض بضعة سنتيمترات ، وفى نفس الوقت يجعلها تميل إلى الأمام . . ولذلك تحاول المرأة ألا تميل إلى الأمام . إنما تتوازن على الكعب العالى ، فإذا هى تميل بجسمها كله إلى الأمام . وينقسم جسمها نصفين . . نصفها العلوى يتراجع إلى الوراء ليبرز صدرها . . وبقية الملابس تضغط على الصدر وعلى الأرداف . . فكل معالمها تدعو إلى لفت العين . .

وفى الريف نجد منظرا مألوفا عندما تذهب الفتيات يملأن البلاص من الترعة أو من الطلمبة . . نجد الواحدة قد رفعت ثوبها من جانب ليبدو بعض ساقها . . ثم إنها تعمدت أن تسقط الماء على صدرها ، فإذا سقط فإنه يبلل الثوب فيلتصق بالصدر ويبرز دورانه . . فيقوم الماء بدور السوتيان — كل ذلك تفعله المرأة الريفية بغريزة الإحساس بالإغراء . وإحساس الرجل بالجمال الذى يغريه . . إنها لعبة بين الرجل والمرأة . كل منهما يعرف قواعدها ولكنه يتجاهلها . . أو لا يصرح بذلك حتى لا يبدو أنه هو الذى يقوم بدور الإغراء ، وأن الآخر يقوم بدور الضحية التى وقعت فى مصيدة الفتنة . كل ذلك يروح ويجىء فى رأسى . . ثم رأينا رجلا يقف عاريا . . الرجل كبير فى السن . . وقد أشعلوا إلى جواره مدفأة حتى لا يصاب بالبرد . وقد انشغل الرجل عن النظر إلينا ، بدا كأنه نائم واقفا . . أو كأنه سرحان لا يشعر بأحد . .

واقترب منا الصديق الذى أتى بنا إلى كلية الفنون الجميلة وقال : هل تعرفون أن أحد الأساتذة قد تزوج واحدة من الموديلات ، وأنها بعد ذلك اختفت تماما . حتى لم يعد يرسمها نهائيا ؟ لقد سحبها وحبسها فى البيت . . ولم يعد يسمح لأحد من تلامذته أو زملائه بأن يراها . .

إنها إذن قصة الفنان « بيجماليون » الذى صنع تمثالا لامرأة جميلة . . ثم راح يتوسل للآلهة أن يجعلوا هذا التمثال كائنا حيا . وأشفقت عليه الآلهة ، وأصبح التمثال امرأة جميلة . وتزوجها الفنان .

إنها من صنعه ولم يذكر لنا التاريخ إن كان الفنان قد سعد بهذا الزواج الذى صنعه من خياله . فكان حبه للتمثال حبا لنفسه مرة أخرى . .

إن هؤلاء الفنانين الصغار ينظرون إلى هذه الموديلات الحية ، على أنها تماثيل بلا حياة . . وهم مشغولون تماما بخطوطها ومنحنياتها ومدى الاقتراب منها . . لتكون اللوحات مطابقة للأصل . . وحتى الذين تزوجوا هذه الموديلات ، حولوها من تماثيل ميتة . إلى كائنات حياة . . وأحبوها . وكان الزواج نوعا من « التوبة » — أى أنها تابت عن التعرى لكل الناس ، لتتفرغ لرجل واحد وقلب واحد . .

ولكن صديقنا هذا لم يشاركني هذه المعانى التى دارت فى رأسى ، والتى حاولت أن أتظاهر بأنها هى التى تدور فى رأسى . ولأنها تدور فى رأسى ، فأنا لا أرى ما يرون . . ولا أعتقد أننى كنت صادقا فيما أقول . ولكنى كنت أحاول ذلك ، فقد كانت حالتى النفسية سيئة ، وهمومى مثل غربان سوداء وقفت على كتفى . وأحسست لأول مرة فى حياتى أنى الآن أقف عند مفارق الطرق . وأننى وحدى ، وأننى يجب أن أفعل بسرعة أى شىء ، وأن أحزانى يجب أن تنتهى بسرعة ، أو يجب أن أنحيها فورا ، وأن أستعيدها عندما يتسع الوقت لذلك ، وأن المرأة سواء كانت موديلا أو مانيكانا ليست هى التى يجب أن تشغلنى . و « الأستاذ » معه حق عندما بعث إلى أحد تلامذته الذى تزوج أخيرا ، ببرقية يقول فيها : أهنئ أحدكما بهذه النهاية السعيدة ! .

فواحد فقط هو الذى يستحق التهنئة ، وواحد آخر هو الذى لا يستحقها !

وتحت شباك مكتب د . طه حسين وقفنا معا . ودار بيننا هذا الحوار :

— هل من الضرورى . . . ؟

— ليس من الضرورى أن نذهب للأستاذ العقاد .

— إذن فكيف تصورنا طول هذه الفترة الأخيرة أن لقاءه ضرورى . . وأنه إذا لم يكن له رأى ، فلا رأى لنا ؟ ألا تجدون فى ذلك مخالفة لأول مبادئ حرية الفكر ؟ . . ألا تجدون فى ذلك عبودية وتبعية ؟

— نعم . نحن الآن نجد ذلك . ولكن كنا نريد أن نعرف رأيه النهائى . فى قرارنا النهائى .

— وما قيمة هذا الرأى الذى قررتم رفضه قبل أن تسمعوه ؟

— لكى نرفضه مرة أخرى .

— فماذا استفدتم من ذلك ؟

— لا شىء إلا أن نقول : لا . . لمن كنا نقول له : نعم .

— فلماذا لا تقولونها الآن ؟ . . لماذا لا نقوم بتمثيلية سريعة . أقوم فيها بدور الأستاذ . . أو بدور

الشيطان ، ثم ترمونني جميعا بالجمرات . . وأكون بذلك ضمن شعائر الحج ؟ . . إنني أقبل ذلك . . إذا كان ضربي بالطوب أو حتى بالجزم سوف يريحكم مما أنتم فيه ، والله موافق أخرجوا ما في نفوسكم وارموه فوق دماغي . . وأنا فداء لكم . . إنني - لا تؤاخذوني - لا أعتقد أنكم صادقون . . أنتم كاذبون . . أنتم تمثلون دور « الابن الضال » للأستاذ . . أو دور الابن غير الشرعي ، الذي يحاول أن يقنع نفسه وغيره بأنه ابن شرعي . . وعلى ذلك فلا بد أن يستأذن أباه . . وأنتم . . ما الذي تريدون أن تستأذنوا أباكم فيه ؟ . إنكم تستأذنونه في معصيته . . تقولون له : اسمح لنا أن نعصيك وأن نلعن أباك . . أنا أرى أنها قلة أدب . . وأكذوبة رخيصة أنتم اخترعتموها ، ثم صدقتموها . . وتريدون أن تخدعوا الأستاذ ليصدقها هو الآخر . . أو أنتم قد أضعتم سنوات من أعماركم في مدرسة الأستاذ ، ثم تريدون أن تحملوه هو تبعة هذا الضياع . . لا ياسادة . . أنتم ضائعون تائهون حائرون بائرون منذ عرفتكم . . أنتم لقطاء أيها الإخوة . . إن اليهود يقولون : إن الإنسان متأكد من أمه فقط . . ولذلك فبعض اليهود يمشي في جنازة أمه . ولا يمشي في جنازة أبيه . . أما أنتم فقد عكستم الأوضاع . . متأكدون من أبيكم . . أو من ألف أب بالإضافة إليه . . فكيف تسمون هذه أبوة أو بنوة ؟ . كيف تسمون هذا « الإنتاج المشترك » ؟ . . أنتم إنتاج اشترك فيه ألف أب . . وليس منهم أب واحد تعترفون به . . أو يعترف بكم . . ومع ذلك تسمون العلاقات بغير أسمائها : تسمون أنفسكم أبناء العقاد . . أبناءه من أية أم ؟ من أي فراش ؟ . . إن الفيلسوف الوجودي سارتر يسمي هذه الحالة التي أنتم فيها : بالموت السكري . . أي كما يموت الذباب في العسل . . فالذبابة تسقط في العسل الذي تحبه . فإذا سقطت فإنها لا تعرف كيف تفلت منه . . فهي تموت أحلى ميتة . . وأنتم ياسادة ذباب قد مات في أحلى نعش . . ثم إنكم جميعا « أولاد الحرام » . . فالعقاد رأيتموه حلالا . وهو الآن حرام . . كذلك طه حسين وعبد الرحمن بدوي وبوذا وكونفوشيوس والشيخ حسن البنا والشيخ الشاذلي . . وعباس عبد البهاء . . إلى آخر هذه الأسماء التي جعلتم منها صلبانا ثم تعلقتم عليها . . ودق كل واحد منكم المسامير في يديه وقدميه . . وتوهمتم أنكم جميعا : المسيح الذي صلب ظلما بسبب قضية خاسرة . . أنتم الذين صنعتم الصلبان ، وأنتم الذين تعلقتم منها ، وأنتم الذين اخترعتم القضية . . وأنتم الذين أعلنتم خسارتها . . هل بعد ذلك ماتزالون تريدون أن تذهبوا للدكتور طه حسين ؟ . . على كل حال . . الرجل في انتظاركم . . فالبحر أمامكم والعدو وراءكم - قالها طارق بن زياد ، عندما عبر المسلمون مضيق جبل طارق ، ثم أحرق السفن وراءهم . أي أنه أراد أن يقول إن الأندلس هي أرض اللاعودة - فإما أن يصبح جنوده أحياء عند ربهم يرزقون ، وإما أحياء عند عدوهم في السجون !

ثم عاد هذا الصديق السليط ليقول ، ونحن لا نرد عليه : وحتى لا تشعروا بالغرابة . . فإني أقترح

عليكم أن تقفوا إلى جوار الحائط . . وأن تفتحوا عيونكم على آخرها . . وتنظروا لى بعيون واسعة دون أن يبدو عليها أى معنى . . تماما كما فى المسرحيات « الوجودية » . . وسوف أحتار أنا فى تفسير معانى هذه النظرات . هل تكرهوننى ؟ . . هل تحتقروننى ؟ . . هل تحقدون على مرحى ، بسبب عجزكم عن المرح ، وعن الموقف الأليم الذى أنتم فيه ؟ هل عبرت أنا عن أفكاركم التى تخفونها عنى . . فلما صارحتكم بها شعرتم بالخجل . . لأننى كشفتكم . . فضحتكم . . ولما فضحتكم أحسستم كأنكم « موديلات » عارية ، لم يعد لديكم ما تخفونه عنى ، ولذلك استسلمتم لى تماما . . كأى لص أمسكه البوليس ، فلم يملك إلا أن يعترف وإلا أن يستسلم ؟ . . ولكى أنهى هذا المشهد الوجودى . . فاسمحوا لى أن « . . . » على وجوهكم — أو لا داعى لأن أستخدم الكلمة النابية التى يسرف الفيلسوف الوجودى سارتر فى كتابتها !

ووجدنا أنفسنا فى مكتب طه حسين . . ولكنه لم يكن هناك . واستطعنا أن ننظر إلى جدران الغرفة التى تغطت بالكتب . . وأن نمر بأصابعنا على المقاعد اللينة الناعمة . . وأن نتوقف عند الورود التى برزت من الآنية الزجاجية . . وإلى صورة له ولزوجته معا . . وإلى صورة لابنته أمينة وابنه مؤنس معا . . أما الكتب على الجدران فهى عربية كلها . . ويبدو أن الكتب الأجنبية فى مكان آخر . . وعلى منضدة زجاجية أمامنا توجد علب السجائر الفرنسية وعلب الكبريت . . وعلى الأرض سجاد أحمر وأزرق ، قال أحدنا : إنه سجاد عجمى غالى الثمن جدا . .

وكان جرس التليفون يجىء هامسا من بعيد . . إنه لا يقفز على الأذن . . إنه يستأذن لكى يدخلها . . أو إنه الهواء الساكن هو الذى ينقل الصوت ببطء شديد . . أو إن الصوت والروائح وطه حسين يتحركون جميعا على مهل . .

وجاء د . طه حسين ومعه سكرتيره ، وتقدمه وصافحناه . وجلس هادئا قائلا : أهلا وسهلا . . إذن . . لم أقنعكم بما قلت فى المرة السابقة . . وأنا أحب ذلك . فقد كان لنا شيخ أزهرى يقول : من سمع محاضرتى ولم يصبه أرق بالليل ، فليس منى . . كان يجب أن نفكر فى الذى يقول ، ونعود إليه فى اليوم التالى نسأله . وكان يسعده ذلك تماما . . والمعنى هو الذى قصده الشاعر الفرنسى فرلين عندما وصف محبوبته فقال : يعجبنى فيها أنها لا تعجب بى . . وهو لا يقصد ذلك تماما ، فلو أنها لم تنظر إليه ولم تسترح إلى الحديث معه ، ما كانت بينهما صداقة ومحبة . . ولكنه يقصد أنها تناقشه ولا تأخذ قضاياه على أنها حقائق لا تقبل المناقشة . .

قال أحدنا : يا أستاذ . .

قال طه حسين : نعم .

قال أحدنا : وأنت تتحدث عن الثقافة ومستقبل الثقافة فى مصر ، قد كنت صاحب ثورة هادئة

لا فى التعليم والتربية ولكن فى الفكر . . فأنت ترى أنه لا توجد عقلية مصرية وعقلية فرنسية . . إنما العقل واحد . . ومبادئ الفكر واحدة . . ولكن هناك عقلا فى ظروف فرنسية وعقلا فى ظروف مصرية . . وهذا هو الفارق . . فلماذا تقول إن هناك عقولا صغيرة وعقولا كبيرة . . عقول طلبة وعقول أساتذة ؟ . . ولماذا نوسع هذه المسافة بيننا جميعا . . فلا نجد وسيلة للانتقال من مرحلة إلى مرحلة إلا بالانتحار - أى بأن يلقى الواحد منا بنفسه فى هذه الهوة بيننا وبينكم ؟

قاطعه طه حسين : بيننا وبينكم ؟ بين من ياسيدى ؟ ومن الذى يقول ذلك ؟ . . أو من الذى تتقولون عليه أنه قال ذلك ؟ . . إن كنت تقصد أننى قلت شيئا من ذلك فأرنى أين قرأته ؟ . . وإن كنت تريد أن تقول إن أحدا غيرى قد قال ذلك . . فمن هو ؟ . . وإن لم تشأ أن تعلن ذلك ، فهذا شأنك . . ولكن القضية هى : أنه فعلا لا فارق بين العقلية المصرية والعقلية الفرنسية . . وأن الذين يخلقون هذه الفروق ، هم الذين يحتقرون الفكر المصرى والثقافة العربية . . وهم يفعلون ذلك عجزا واحتقارا لأنفسهم . . وأهم من ذلك أنهم مخطئون . . وأنه لابد لنا أن نجرد ثقافتنا المصرية من مثل هذه الأخطاء التى شاعت وشاهت . فإن كنت تقصد ذلك فإننى معك . ولكن العذر معكم أيها الشبان إن أدى هذا الخلاف فى الفهم إلى الغضب . . ولكنى تجاوزت مرحلة الغضب عند الإحساس بالخطأ . . فأنت مثلا إذا أجريت عملية حسابية فأنت لا تفعل ذلك بوجدانك . . إنما بعقلك . . فإذا أخطأت فليس معنى ذلك أنك محب فاشل ، أو أنك مؤمن عاص . . ولكن معنى ذلك أنك تعجلت الجمع والضرب والطرح . . وأنه يمكنك أن تعيد هذه العمليات الحسابية فقط . . ولا أدعى أننى لم أكن مثلكم فى شبابى . كنت مثلكم . ولكن عندما كبرت أصبحت مشاكلى الوجدانية نفسها ، عملا عقليا ، أو عمليات حسابية ، ولا لوم عليكم ، فسوف يصيبكم ما أصابنى أو يعتريكم من البرود ما اعترانى . وإذا اختلفت معكم الآن فلا أنكر مشاعركم ، فقد كانت مثل مشاعرى ، ولا أظن أنكم تنكرون مشاعرى ، لأنها سوف تكون مشاعركم فيما بعد . . فما الذى أتى بكم اليوم ؟ . . هل غابت عنكم المشاكل والهموم أو أنتم الذين غبتم عنها ؟ . . إن الناس صنفان : واحد يأتى بالمشاكل ، وواحد يذهب إليها . . والإنسان يذهب إلى المشاكل ، ثم تأتى إليه بعد ذلك . . ولكنه يكون أضعف فى الحالة الأولى ، وتكون هى أضعف فى الحالية الثانية . . ففى أى الحالتين أنتم ؟ . . إن الناس صنفان : أناس ابتعدوا عنها ، ولكنهم يتعطشون إليها ، وأناس عاشوا فيها ، ولكنها ابتعدت عنهم . . إن أجمل صورة قريبة من هذا المعنى تلك الأبيات التى تبادلها شوقى وحافظ . . هل تعرفونها ؟ لقد كان شوقى فى المنفى . .

ولم ينتظر أن يقول أحد إن كنا نعرفها . فأنشد طه حسين بصوته الجميل الجليل . . إنه أحب صوت إلى من يحب اللغة العربية ، بل إن صوته يحبب إليك هذه اللغة الجميلة . . قال طه حسين :

حدث ذلك منذ ما يقرب من ثلاثين عاما .

كان شوقى فى الأندلس فكتب لحافظ إبراهيم يقول :

ياساكنى مصر إنا لا نزال على عهد الوفاء – وإن غبنا – مقيمينا
هلا بعثتم لنا من ماء نهركم شيئا نبل به أحشاء صادينا
كل المناهل بعد النيل آسنة ما أبعد النيل إلا عن أمانينا

ورد عليه حافظ إبراهيم بقوله :

عجبت للنيل يدرى أن بلبله صاد ويسقى ربا مصر ويسقينا
والله ما طاب للأصحاب مورده ولا ارتضوا بعدكم من عيشه لينا
لم تنأ عنه وإن فارقت شاطئه وقد نأينا وإن كنا مقيمينا !

ولم يكن المعنى الذى أراده طه حسين قريبا من هذه الأبيات . . فهل أراد طه حسين أن يسمعنا شعرا . . وأن يختار شعرا لشوقى الذى لا يحبه العقاد ؟ . . هل أراد فعلا أن يقول لنا إن حافظ إبراهيم لم يكن أحسن حالا من شوقى . ومع ذلك فكلاهما قد اشتاق إلى مصر التى عذبته . . فواحد ابتعد عن العذاب ويريد أن يسعى هو إليه ، وواحد عاش ومات فى العذاب ، ويطلب المزيد منه ؟ . . هل شوقى الذى يشكو الغربة فى الأندلس أحسن حالا من حافظ إبراهيم الذى يشكو الغربة فى مصر؟ . . كلاهما غريب سواء أقام فى مصر أو ابتعد عنها . . هل أراد طه حسين أن يقول إن « الغربة » وإحساس الإنسان بأن الدنيا بعيدة عنه أو ابتعدت عنه فجأة ، هو الشعور الطبيعى عند الفنان أو المفكر؟ . .هل هو فقدان شىء هام ، هو الذى يميز أصحاب الهموم الكبرى . . كأن يفقد طه حسين نعمة البصر ، ويفقد شوقى حسن النطق ، ويفقد حافظ ابراهيم ضرورات الحياة . . ونفقد نحن الراحة بعيدا أو قريبا من الأستاذ . . أو أى أستاذ ؟ . . لعل طه حسين أراد برقته وأبوته أن يقول شيئا قريبا من ذلك . .

وانفتح باب المكتب . . وتقدم الخادم يشير إلى أن ضيفا قد جاء . وكانت المفاجأة أنه د عبد الرحمن بدوى . دخل بسرعة وانحنى على يد طه حسين . ونظر إلينا وقال ضاحكا ساخرا : أوه . . إنهم تلامذة العقاد ! ما الذى أتى بهم إليك ياأستاذنا ؟ . .

قال طه حسين : أعرف أنهم تلامذة وكفى ! . .

قال بدوى : وأكثرهم تلامذتى أيضا . .

ووقفنا . . ولكن د . بدوى نسى فى حديثه واهتمامه بطه حسين أن يصافحنا ، وكان قد جاء يهدى

واحدا من كتبه لأستاذه طه حسين . . أو الرجل الذى لقبه « أول فيلسوف مصرى » . .

ولقيني بعد ذلك فى برنامج تليفزيونى : أحسن قارئ فى مصر . .

واتجه إلينا طه حسين يقول . كأنه لا يريد أن يشجع عبد الرحمن بدوى على أن يمضى فى حديثه الجاف الخشن : إنهم تلامذة . يطلبون العلم ، وأقلقهم العلم ، كالذى أقلقه العشق . . ولم يعرفوا طريقهم كما عرفت أنت . . ولو كنت فى مكان العقاد لأسعدنى أن أجد بين تلامذتى هذا التفكير الدائم ، وهذا الشقاء المتجدد . . وهذا العذاب النبيل . . إن العقاد يرى التصابى والتظاهر بالعلم مما يوجع القلب . ولا أرى فيكم ولا أسمع منكم شيئا مثل ذلك . . فأستاذكم العقاد هو الذى قال :

ليس أضنى لفؤادى
من عجوز تتصابى
ودميم يتحالى
وعليم يتغابى
وجهول يملأ الأر
ض سؤالا وجوابا !

وقال عبد الرحمن بدوى : ولكن هذه الصفات كلها تنطبق على العقاد . . فهو أكثر الناس غرورا وادعاء . . وهو لا يفقه أى شىء لا فى الدين ولا فى الفلسفة . . ولكنه سليط اللسان فقط . والناس يتحاشونه لذلك . . والذى يقرأ كتب العقاد فى الفلسفة الإسلامية يجدها مليئة بالأخطاء ، والذى يقرأ السلسلة المسماة بالعبقريات يجدها مليئة بالمغالطات والسفسطة . . ولذلك فالذين يترددون على صالونه لا يذهبون إلا مرة واحدة . وبعد ذلك يهربون منه !

ولم يسترح طه حسين إلى مثل هذه العبارات الجارحة . وظهر الضيق على وجهه . وبدأ يتراجع فى مقعده ، ثم يعود فينحنى إلى الأمام . ويمط شفتيه ، ثم قال : لا . . لا . . يا عبد الرحمن . . إنك تظلم الرجل . وتعطى لتلامذتك نموذجا سيئا للنقد . . أو للحكم على الرجال . . إن العقاد يا سيدى ، رغم ما بيننا ، أكثر الناس علما بعلوم القرآن واللغة . وأقدر مفكرينا على خوض بحار اللغة والنجاة منها ثم العودة إلينا بصيد سمين ثمين . . لقد ظلمته يا عبد الرحمن . . إن العقاد قاس فى أحكامه . . ولكنه يأخذ نفسه أيضا بالقسوة ، تماما كما يأخذ غيره . . والعقاد لا ينقل شيئا إلا إذا كان متأكدا من ذلك . . وهذه خصلة أحترمها فيه . . وهو لا يدعى رأيا لنفسه . وإذا عرض رأيا فإنه ينسبه لصاحبه . . إنه أحيانا يعرض الرأى بصورة ضعيفة ، وبذلك لا يحتاج منه الرأى إلى جهد كبير لكى يهدمه على صاحبه . . ولكنه فى هذه الحالة لا يكون ناقدا ، إنما يكون كالمحامى يضعف حجج خصمه ليكسب القضاة إلى جانبه فى النهاية . . وليس من النقاد من لا يتصف بصفة المحامين أيضا . أما أنه

جاهل ، فإنى أخالفك تماما . . وأما أن رواده قليلون . . أو إذا زاروه مرة لم يعودوا إليه ، فذلك ما لم أعرفه عنه .

ومضى عبد الرحمن بدوى يقول : ثم إن شعره سخيف . ومع ذلك فهو لا يرضى عن شعر أحد من الناس . . هل من المعقول أن رجلا يرفض شعر شوقى كله ، وبعد ذلك يسمى نفسه شاعرا أو ناقدا ؟ . .

قال طه حسين فى هدوء : ولكنه ياعبد الرحمن ، لم يرفض شوقى كله . بل لقد سمعته يتغنى بأبيات كثيرة لشوقى . . إنه يرفض من شعر شوقى ما أرفضه أنا أيضا . . هو يرفضه لسبب . وأنا أرفضه لسبب . . هو يرفضه لأسباب فنية ، وأنا أرفضه لأسباب فكرية أو سياسية . .

وازداد إعجابنا بطه حسين . ولم يكن هذا الشعور الذى رافقنا ونحن نخرج من بيت طه حسين إلا الندم على أننا عرفناه متأخرا . . فالرجل أستاذ وأب ، ثم إنه رقيق ، وهو أقرب إلى أفكارنا وهمومنا من الأستاذ ومن عبد الرحمن بدوى . . ومن الغريب حقاً أن يكون عبد الرحمن بدوى تلميذا لطه حسين ، مع أنه أقرب إلى طبيعة العقاد . وكان من الممكن أن يصبح أنجب تلامذة العقاد . .

ثم التفت إلينا د . بدوى ليسألنى : ما الذى أتى بك إلى هنا ؟

وقبل أن أجيب سبقنى أحد الأصدقاء قائلا : إننى جئت أستاذن أستاذنا د . طه حسين فى الزواج من إحدى تلميذاته .

قال طه حسين : ومن تكون ؟

قال الزميل : إنها « . . . »

قال طه حسين : على بركة الله . . لقد أحسنت الاختيار . وأحسنت هى أيضا .

– شكرا ياأستاذ

– لكنها ما تزال فى السنة الثانية .

– سوف تكمل دراستها . وبعد ذلك نتزوج . ولكن والدها يرى أن نتزوج فورا . والأمر متروك لنا . . أن تكمل دراستها أو لا تفعل . وقد علمت من والدها أنه استشارك فى ذلك ياأستاذ . وأنك أشرت بالزواج فقط . . أى إما الزواج وإما الدراسة . وجئت أسمع منك ياأستاذ . .

قال طه حسين : ولكن أحدا لم يستشرنى فى ذلك . ولو كان لى رأى لأوصيت بالدراسة والزواج معا وهذا ما فعلته أنا . والأمر متروك لكما .

قال زميلنا : ولكن الأمر أخطر من ذلك ياأستاذ . . فهى قد تزوجت قبل ذلك . وعندها أطفال . وهى من غير دينى .

فقاطعه طه حسين قائلا : نعم . . الآن تذكرت . . بل إننى اعترضت على هذا الزواج . . وأرى

أنه غير متكافئ . فهى أكبر منك سنا . . وهى أكثر منك مالا وولدا . . وزواجها منك محنة عائلية . . وأسباب أخرى كثيرة أنت تعرفها . . فإن كنت قد جئت بزملائك ليشهدوا على ما أقول . فإننى يا سيدى لا أقر هذا الزواج ولا أنصح به لو كنت ابنى أو لو كانت هى ابنتى . . وهى محقة تماما أن ترفض الزواج من شاب يتوهم أنه إذا تفرغ للأدب والفكر فسوف يصبح قادرا على نفقات الحياة . . إن هذه البداية ياسيدى ليست صحيحة . فقد انتهى عصر الأديب الذى يأكل من قلمه . . إن مثل هذا الأديب ينتهى عادة بأن يغمد قلمه فى قلبه . . ويموت الاثنان معا : القلم وصاحبه . . هذا رأيى !

ورفع رأسه وعاد إلى الوراء . وأحسسنا أنه أطبق شفتيه ، عندما انفتح الباب لكى نخرج . . والحقيقة ان الباب انفتح لمجىء ضيف جديد . . ولم يكد الضيف يدخل حتى تجهم وجهه . وأشار إلى الزميل « العريس » بأن يجلس ، فأشار إلينا أنه سوف يبقى . وخرجنا وعرفنا فيما بعد أنه والد « العروس » .

ومن بعدنا خرج د . بدوى ، واتجهنا بسرعة إلى شارع ضيق مجاور حتى نتفادى الحديث إلى د . بدوى . . فالذى قاله عن العقاد لا يمكن احتماله . ولا يقوى أحد على مناقشته دون تهور — نحن الذين سوف نتهور فى الحديث إليه ، والدفاع عن الأستاذ . .

وفى سيارة أحد الأصدقاء اتجهنا إلى مصر الجديدة . وتوقفت السيارة أمام بيت الأستاذ العقاد . وصعدنا الدرج . ووجدنا الباب مفتوحا . وكان الأستاذ ينتظرنا فى غرفة نومه . وكان الأستاذ مريضا . ولكن لم يشأ أن يعتذر بسبب ذلك ، ودخلنا ، ووجدنا المقاعد حول السرير . وكان الأستاذ قد تمدد وأسند ظهره إلى عدد من الوسائد . وتسابقنا فى الاعتذار له . ولكنه سبقنا إلى القول : إننى مريض . . نعم . . ولكن ليس إلى الدرجة التى أعجز فيها عن الحوار ساعة أو ثلاثا ! .

إنهـزمْنَـا.. إنهـزمْنَـا !

كان الأستاذ شاحب الوجه . وقبل أن نسأله عن مرضه سبقنا هو إلى الحديث عن أوجاع المصران الغليظ . وعن أخطاء الدكاترة فى تشخيص المصران . وكيف إن أعراض المصران تختلط بأمراض أخرى .

وكنا نلاحظ أن الأستاذ إذا جلس كان يضع يده من تحت البيجاما على الجانب الأيسر من البطن . وكيف إن بقراط الحكيم نفسه كان يشكو من المصران الغليظ ، وإنه كان ينصح الناس جميعا بأن يتفسحوا وأن يناموا وأن يضحكوا علاجا للمصران الغليظ ، وكيف إنه نسى أن يفعل ذلك . وكيف إن الشاعر الألمانى جيته كان يكتب واقفا . وسبب ذلك أن مصرانه الغليظ منتفخ ، وأن هذا الانتفاخ يضايقه إذا جلس إلى المكتب . وكيف إن الشاعر قد أخطأ فى تشخيص مرضه . فقد كان الشاعر يأكل كثيرا فى ساعة متأخرة من الليل . ثم ينام . والأكل والنوم بعده ، مع الإسراف فى الخمور والهموم ، كافية لأن تجعل المصران الغليظ قطعة من النار .. فالطعام المتخمر والخمور كلها تنفخ المصران الغليظ وتلسعه ، يضاف إلى ذلك أن الشاعر كان عصبى المزاج ، ولكن الأستاذ يقطع بأن جيته كان موجوع المصران وليس موجوع المعدة أو القلب . ويقول الأستاذ : لأنه لو كان يشكو من معدته ، للاحظ الناس ذلك وهو يأكل أو وهو يشرب .ولكن شكوى الشاعر كانت تجيئه عادة عندما ينام ، أو عندما يصحو من النوم ، أو عندما يجلس إلى مكتبه ..

قال أحدنا : والله يا أستاذ إن كان فى الدنيا مكتب يوجع المعدة أو المصران أو القلب فهو مكتبك .. إنه صغير جدا ، ثم إنك تنحنى عليه .. أو تتكسر عليه .. لقد نسيت يا أستاذ أن تغير هذا المكتب . ونسيت أن من الممكن أن يكون هو السبب الحقيقى فى أوجاع المصران .. لأن الجالس إلى هذا المكتب يجب أن يكون مشدود البطن ، وليس مسترخيا .. لقد كان والدى يشكو من مصرانه . ولكنه اهتدى إلى أن المكتب هو السبب . فغير المكتب والمقعد ، واعتدلت جلسته واسترخت عضلات بطنه .. ومن يومها وهو لم يعد يضع يده على الجانب الأيسر من البطن ..

لقد أراد زميلنا هذا أن يؤكد للأستاذ أنه هو أيضا مثل بقراط ، يصف الدواء للناس وينسى أن يداوى نفسه .. وحاول أن يؤكد للأستاذ صحة هذا الرأى ، عندما حكى أن والده قد جرب ذلك . أى أنه يتحدث عن تجربة . وقبل أن يتهيأ الأستاذ للرد عليه ، قال صديقنا هذا : إننا لم نسمع ولم نلاحظ أن طه حسين يشكو من المصران الغليظ . فهو رجل مفكر . وهو عصبى المزاج أيضا . ولكن لأنه لا يجلس إلى مكتب صغير أو كبير ، فإنه أكثر هدوءا .. ولو كان طه حسين يجلس إلى مكتب ، مع حساسيته الشديدة . لكان شخصا لا يطاق .. وقد زرناه منذ أيام يا أستاذ ..

ثم تلفت حوله بسرعة ..

وعاد يقول : كان بيته نظيفا . وفراشه أنيقا . إن هناك كثيرين يفكرون له . ويريحونه من عناء الاهتمام بالأشياء الصغيرة .. ولكنك يا أستاذ تعيش هنا وحدك . لا أحد يفكر لك .. ويبدو أنك لا تريد أحدا . أو لا تطيق ذلك ..

وعلى غير ما توقعنا ضحك الأستاذ بصوت عال : ماذا جرى لك يا مولانا ؟ .. أنت تريد أن تردد ما قاله أخونا عبد الرحمن صدقى .. لقد قال إن الأستاذ العقاد لو شاء أن يتزوج نفسه لفعل .. إنه يريد أن يكون فى غنى عن الناس .. أو مستغنيا بنفسه عن كل أحد .. ولكن السيد عبد الرحمن صدقى رجل خبيث ..

ويضحك الأستاذ عاليا ، دون أن نعرف أو يدلنا هو على خبث هذه العبارة . ولكن الأستاذ يتحول بسرعة عن هذه المعانى أو هذه القضايا التى فهمنا جميعا أن صاحبنا يريد أن يستدرج بها الأستاذ إلى قضايا نعرفها تماما ، وعلى استعداد لمناقشتها . ولكن يبدو أن هذه القضايا ليست جديدة على الأستاذ . ولذلك فقد انصرف عنها ، واتجه مباشرة إلى الكلام عن الطب الحديث . فقال : « إن الحكيم بقراط بأفكاره وأسلوبه فى العلاج يعتبر سابقا لعصره . فهو يرى أن العلاج حوار . فكان يدخل فى حديث مع المرضى . وكان يطيل الحديث ، ثم يعطى المريض كوبا من الماء الدافئ . وكان المريض يشعر بالارتياح . ولم يشأ أن يصدم بقراط معاصريه فيقول إنهم أناس تافهون . أو إن أمراضهم وهمية . ولكنه مضى يعالج الناس على طريقته . ومات دون أن يضع نظرية لذلك . ولكن المعنى الذى أراده بقراط عرفناه بعد ذلك . فهو عندما يتحدث إلى الناس يخفف عنهم . ويعالجهم نفسيا . فإذا استراحوا إليه ، قبلوا أى دواء يقدمه لهم . وبدلا من أن يعانقهم أو يضع يده على أكتافهم ، فإنه يعطيهم أى شىء .. ماء ساخنا .. وأحيانا ماء معطرا . ويتوهم الناس أنه أعطاهم دواء سحريا .. واليوم نجد أن معظم الأطباء يدرسون علم النفس .. حتى أصبحت عندنا فى الطب عدة مدارس : مدرسة ترى أن المريض : « نفسية » مريضة .. ومدرسة ترى أن المريض : « جسم » مريض ..

والمدرسة الأولى تعالج المريض بالحبوب المهدئة والمنومة .. وتفرض عليه الراحة والفرفشة ، وبعد ذلك تعطيه الدواء العادى .. أو أى دواء .. والمدرسة الثانية ترى أن المريض جسم مريض .. والعقل السليم فى الجسم السليم ، أو الجسم السليم هو الذى له عقل سليم .. وعلى ذلك تعالج الجسم بالعقاقير .. وهذه العقاقير هى وحدها القادرة على علاج الجسم ، فإذا عولج الجسم استراح العقل أيضا . وأنا أميل إلى المدرسة الأولى . وأرى أن هذا هو الفارق الوحيد بين الطب البشرى والطب البيطرى .. فالطبيب البيطرى يعالج الحيوان كما يعالج الميكانيكى سيارة . وأرى أن هذا خطأ لأن الحيوانات أيضا تنفعل .. وتغضب وتخاف وتفرح .. بل إن العلوم الحديثة أثبتت أن النباتات أيضا لها مثل هذه المشاعر .. وكما أن هناك كلابا تمتنع عن الطعام إذا غاب أصحابها ، وتضرب عن الطعام حتى الموت إذا مات أصحابها ، فإن هناك نباتات تذبل وتزدهر حسب الحالة النفسية لأصحابها .. بل إن بعض الذين يراقبون نباتات الزينة ونبات الظل يرون حالتهم النفسية قد انعكست على أوراق النباتات وعلى زهورها .. بل إن بعضهم عندما ينظر إلى النباتات ، كمن ينظر فى فنجان أو كف يستطيع أن يقرأ الطالع – إلى هذه الدرجة يرون أن النباتات هى الأخرى ليست كائنات خرساء .. إنما لها مشاعر ، وهذه المشاعر لا يدرى بها إلا من تربطه بهذه النباتات صلة الصداقة أو الحب أو العبادة . وفى الأحاديث النبوية ما يدل على أن الرسول عليه السلام كان يفهم النخل .. أو يطلب إلى الصحابة أن يترفقوا بالنخل .. ولعله يشير بذلك إلى أن هناك لغة كونية تجمع بين الإنسان والحيوان والنبات .. وبعض مؤلفى قصص الأشباح يرون أن الجماد له لغة . وأن له إحساسا ، وأنه يعكس هذا الإحساس على الناس .. ويرون أن البيوت توحى إلى الناس بالمعانى المخيفة أو السارة .. وأن هناك بيوتا مقبضة .. وبيوتا مريحة .. وأن الشعور بالانقباض أو بالسرور مصدره الجدران والأبواب والنوافذ . أو المنظر العام لهذه الأشياء معا » .

ولم نكن فى حاجة إلى أن يحدثنا الأستاذ عن أثر البيوت والجدران فى نفوسنا . فنحن نعرف ما الذى نحس به فى بيوتنا. وبسببها . وما الذى نشعر به عندما نجيء إلى بيته هو . وعندما ذهبنا إلى بيت طه حسين .. ولا عندما جلسنا إلى لطفى السيد أو الشيخ مصطفى عبد الرازق ، أو عندما ذهبنا إلى د . منصور فهمى .. ولكن ليس مثل بيت طه حسين بيت فى مصر كلها .. فلطفى السيد له بيت جدرانه عالية صماء . جامدة باردة . ترفضك إذا اقتربت منه أو منها .. ومصطفى عبد الرازق له بيت وقور يرحب بك . وكل شيء فيه يدل على أن كثيرين جاءوا . وسوف يجيئون . وأن آثارهم على المقاعد وأغطيتها وعلى المناضد وفى النظرة المحايدة للخدم فى بيته .. ففى عيونهم عدم اهتمام شخصى بك . فقد رأوا الكثيرين ضيوف صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر . وهذا يكفى .. وفى بيت منصور فهمى رائحة الرطوبة والتراب ، مما يدل على أن الغرف مغلقة عادة . وأنه لا يلقى الناس كثيرا فى بيته . إنما يلتقى

بهم خارج البيت .. ويقولون إنه من أشهر البخلاء فى مصر إننى أذكر حادثة واحدة . فقد كان د. منصور فهمى يدرس لى وحدى علم الجمال .. أو فلسفة الفن . وقد اختار موضوعا صعبا . مع الأسف كنت أنا صاحب فكرة هذا الموضوع : ميتافيزيقا الموسيقى .. واقترح د. منصور فهمى أن نستمع إلى مقطوعة موسيقية لبيتهوفن . واقترح أن ينقل البيانو الموجود فى نادى كلية الآداب إلى بيته ليعزف لنا اللحن مسيو باترى ، وهو أستاذ اللغة اللاتينية . وتطوع مسيو باترى أن يعزف وأن يشرح لنا معنى ميتافيزيقا الموسيقى ، أى المعانى الفلسفية للموسيقى .. وكيف إن الكون كله لحن موسيقى . وإن العازف هو الله .. وفى ذلك الوقت كان يعزف على البيانو الطالب عبد الحميد توفيق زكى الذى اصبح ملحنا فيما بعد . وكان عضوا بارزا فى جمعية « الجراموفون » التى يرأسها د . لويس عوض أستاذنا فى الأدب الإنجليزى . ولسبب لا أعرفه رفض عبد الحميد توفيق زكى أن يخرج البيانو من النادى إلى بيت منصور باشا فهمى . ولكن الباشا أصر . ولا أعرف لماذا استسلم عبد الحميد توفيق زكى . ونقل البيانو إلى بيت الباشا . وكانت المفاجأة : رفض الباشا أن يدفع للسعاة أجر نقله إلى البيت.. ودفعت أنا . ولم تكن الخمسون قرشا بالمبلغ القليل فى ذلك الوقت .. ولما حاولت أن أخبر الباشا أننى دفعت ، لم يهتم كثيرا لذلك .. ولكنه اهتم جدا أن يتقاضى مكافأة عن المحاضرة التى لم يلقها عن الموسيقى والفلسفة ؟ ! ولم أذهب بعد ذلك إلى بيت الباشا . وكنت كلما مررت به أحسست بوخز فى مصرانى الغليظ .. وقد أمضيت سنوات طويلة لا أعرف معنى اسم بيت الباشا . فالبيت اسمه « مورد اليمن » – وقد ظننت أول الأمر أنه يورد البن اليمنى .. ثم ظننت « مورد » . . بكسر الميم كلمة فرنسية ، ومعناها قبيح . ثم قلت لنفسى بل إن « مورد اليمن » مثل العلمو تورن – أى أنه مورد أليم .. أو « أليمن » . وإن كان لهذه المحاولات من معنى ، فهو ضيق ببيت منصور باشا فهمى . الذى معناه : مصدر الخير والبركة !

أما بيت د . عبد الرحمن بدوى فهو البيت المهجور .. فهو الظلام والرطوبة .. والحبر الأزرق على الجدران .. وبيت د . بدوى يستنكرك ويرفضك .. فليس من أجل استقبال أحد من الناس قد كان هذا البيت .. ولم أعرف أن أحدا قد دخل هذا البيت . أو إذا دخله أحب أن يعود إليه .. فالبيت صورة من صاحبه . إنه صاحب نافر ومنفر أيضا ..

أما بيت الأستاذ العقاد فهو أقرب إلى الميادين .. أو أقرب إلى البيوت التى لم تركب لها الأبواب والنوافذ بعد .. ثم إن أحدا لا يسكنها. فليس فيها دفء.. وليس فيها شيء خاص.. فالباب مفتوح لك وللقطط والكلاب والهواء والذباب والتراب .. وكذلك النوافذ .. أو البيت مكتبة عامة .. والأستاذ ليست له صفات السكان ، إنما عنده صفات حراس البيت .. وهو فى حالة انتظار دائم لشيء أو لأحد.. أو انتظار لأحد أن يقول له اترك البيت فورا مادمت لا تدفع الإيجار .. أو مادمت لا تحتفظ بعقد .. وليس كذلك بيت طه حسين . فالأبواب مغلقة حتى يستأذن أحد . ولكى يستأذن

فلابد أن يدق الجرس ، وينتظر .ويجيء الخادم يسألك إن كان لك موعد . وقد يتأكد من اسمك ، فلديه معلومات سابقة أنك سوف تجيء . ثم يتركك واقفا بالباب حتى يستأذن . ثم بعد ذلك يجيء إليك . ويفتح لك بابا كان مغلقا . ثم يدخلك غرفة . ويغلق عليك الباب . ثم يفتح الباب ليدخل د. طه حسين الذى جاء ليتحدث إليك وحدك وبصفة خاصة .. فكل شيء فى بيت طه حسين بحساب ، وبإذن وموعد سابق .. حتى الهواء لا يدخل إلا إذا فتحوا له الباب أو النافذة . وفى بيت طه حسين لا يسمحون للهواء أن يدخل حتى لا يأتى معه بالضوضاء التى تزاحم صوته إلى أذنك أو إلى قلبك .. وطه حسين يختصر بأسلوبه غير المختصر ، كل الطرق التى تؤدى إلى أذنك ثم إلى قلبك .. إنه يتجه إلى أعماقك مباشرة ..

دارت هذه المعانى برأسى عندما جاء الخادم يشير إلى أن أحدا يريد الأستاذ بالتليفون .. حتى التليفون لا ينتقل إلى حيث الأستاذ . يجب أن يذهب إليه سواء كان مريضا أو صحيحا . ونسى الأستاذ أن يطيل سلك التليفون عشرة أمتار ، كما نسى أن يطلب إلى الخادم أن يغسل أغطية السرير ، وينفض التراب من فوق المناضد ، وأن ينقل عشرات الأحذية التى تكدست وراءنا . إلى خارج الغرفة ، وأن ينقل المكنسة من أحد الأركان إلى دورة المياه .. وبين الأحذية توجد لقمة عيش تزاحم عليها نمل كثير. إن النمل عاجز عن تكسيرها أو نقلها عبر هذه الأحذية . إذن فالأستاذ مريض منذ أيام عديدة . ولم يشأ أن يجعل الخادم يدخل هذه الغرفة .. ولو كانت فى حياة الأستاذ سيدة . للاحظت أن زراير البيجاما ليست من لون واحد !

وعاد الأستاذ ثقيل الخطوات ، ونظر ناحيتى وقال : أين كنت يا مولانا ؟ .. لقد استغرقك هم ثقيل .. إننى أراك شاردًا ..

فحاول أحد الأصدقاء أن يخفف الحوار المنتظر ، وفى نفس الوقت أن يستدرج الأستاذ إلى الحديث عن بعض الذى يريد ، فقال : إنه يحب يا أستاذ .. إحدى زميلاته من قسم الفلسفة . وكتب فيها شعرا . وهى أيضا قالت فيه شعرا ..

فاندهش الأستاذ قائلا : هى قالت شعرا ؟ ! .. ماذا قالت ؟ .. هل تحفظ شيئا لهذه الفيلسوفة العاشقة ؟ ..

قال صديق : ليس هو وحده الذى يحب .. إن أكثرنا يا أستاذ .. بل إن بعضنا قد تجاوز الحب إلى الزواج . أو الزواج بغير حب .. المهم يا أستاذ أننا وجدنا الوحدة صعبة .. فألقينا بأنفسنا على أول فتاة قالت : أوافق على الزواج ..

وكأن الأستاذ استمع إلى نكتة بايخة .. فلم يشأ أن يقول شيئا ، وهز رأسه ، واتجه ناحية أخرى .. ولكن واحدا منا قال بسرعة : لو أننا طبقنا ما تقوله يا أستاذ عن المرأة لشككنا فى أمهاتنا ..

فنحن قرأنا وفكرنا . ولكن أحسسنا أن ما تقوله عن المرأة يا أستاذ يجردها من كل شيء جميل فيها .. ولكننا بجهلنا أو سذاجتنا أو احتياجنا إليها ، نراها مخلوقا جميلا .. وربما اكتشفنا بعد ذلك أنها ليست كذلك . ولكن الإنسان يصنع أوهامه وأصنامه ، ثم يكفر بها ويحطمها بعد .. فلنستمتع بالوهم وليكن ما يكون .. ونحن يا أستاذ نأكل ونتقاتل على الأكل والشرب ، وسوف نعرف فيما بعد أن الدنيا لا تساوى كل هذا العذاب .. ولكن لماذا نقفز إلى هذه النتيجة دون أن نستمتع بالأوهام السابقة عليها ؟ . .

والآن أصف لك الأستاذ ..

لقد اعتدل فى جلسته تماما .. وأحس كأنه صياد ، بدلا من أن يطلق النار على الفريسة ، فإنها قد سقطت عند قدميه .. أو كأنه مهاجم فى كرة القدم انفرد بحارس المرمى الذى سقط على الأرض أو مات ، فلم يجد نفسه فى حاجة إلى أن يضرب الكرة ، إنما تركها تدخل المرمى .. أو كأنه محام ذهب إلى المحكمة ، ولم يكد القاضى يراه ويعرفه حتى حكم له . فلم يفتح المحامى فمه أو ملف القضية .. أو كأنه إنسان جائع لم يكد يجلس إلى المائدة حتى وجد الدجاجة قد قفزت إلى طبقه بعد أن تخلصت بسرعة من العظام والجلد ، ثم قطعت نفسها قطعا وقفزت إلى جوارها الشوكة والسكين .. ثم قفزت الشوكة باللحم إلى فم الأستاذ يستأذن فى الدخول .. إننى أحاول أن أصف لك كيف إن صديقنا هذا قد استدرج نفسه إلى يدى الأستاذ وقدميه ومخالبه وأنيابه .. فقد برقت عينا الأستاذ . ولم نكد نراه كذلك حتى أحسسنا بالارتياح . فنحن نريد ذلك من وقت طويل .. ومن المؤكد أن الأستاذ لم يتصور لحظة واحدة ، أننا نحن الذين لففنا حوله كل هذه المصيدة من الخيوط .. صحيح أنه أسد .. ولكنه الآن قد دخل فى المصيدة .. إن هذه الحبال يمكن أن تكون فى لحظة واحدة مثل نسيج العنكبوت . ولكن لا يهم ما الذى يفعله بها . المهم أنه الآن سوف يتحدث فيما نريد .. وسوف ننقله من موضوع إلى موضوع .. فنحن الذين اخترنا القضايا هذه المرة .. لقد تحدث الأستاذ كما يريد عن المرض والأطباء .. ولكن الآن نحن الذين وضعنا له علامات الطريق .. فليقل ما يشاء .. فسوف نقول نحن ما نشاء أيضا ..

قال الأستاذ : ولكنك أنت أيضا يا مولانا تخطئ فى الفهم .. فبعض الناس يتصور أننى جردت المرأة ، وأننى لم أترك لها ميزة واحدة .. وأن المرأة أقل من الرجل .. أو كما يقول الفيلسوف شوبنهور إنها من فصيلة أخرى غير فصيلة الرجل .. وإن الرجل تلفت حوله فلم يجد بين إناث الحيوانات سواها ، فاتخذها زوجة له وهى مختلفة عن الرجل تماما ، حتى ليمكن أن يقال إنها من أصل آخر غير أصل الرجل ! وشوبنهور يبالغ فى ذلك . ولكنه لا يبعد عن الحقيقة .. فأنت ترى المرأة بالعين المجردة . وتراها تحت الميكروسكوب .. وترى أحشاء المرأة أثناء عملية جراحية .. وتراها عند الحمل والولادة

والرضاعة .. وأنت فى كل هذه الأحوال ترى أشكالا مختلفة للمرأة .. وإذا سألت الرسام عن المرأة حدثك عن خطوط الاستدارة حول النهدين والردفين والوجنتين والحاجبين ، وإذا سألت الشاعر حدثك عن عينيها ولمساتها وآهاتها ، وإذا سألت ذئب النساء حدثك عن قبلاتها وأحضانها وعن الذوبان بين ذراعيها ليلة أو ليلتين ، ثم حدثك عن امرأة ثانية وثالثة . وإذا سألت شهريار عن شهرزاد قال لك : إنها قصة وقبلة ونوم عميق وليلة تمضى .. وإذا سألت عالم الحياة فإنه يحدثك عن خلاياها وغددها وعن أمراضها الشهرية .. وإذا سألت الزوج وإذا سألت الابن والأخ .. فكلهم يقولون أشياء مختلفة .. وكلهم صادقون وكلهم كاذبون أيضا . فالمرأة ليست تمثال الرسام ولا قصيدة الشاعر ولا خلايا الطبيب . ولكن أصدق هؤلاء جميعا من يراها ويقارنها بالرجل .. وهذه المقارنة بالرجل هى التى تعطى للمرأة حقها ، وتعطى للرجل حقه .. وأنا أرى أن الذى يصارح المرأة بحقيقتها يخدمها أكثر.. والذين يجاملونها وينافقونها ، يسيئون إليها .. ونحن يا مولانا لانتهيب المرأة فننافقها ، ولا نراها شيئا كبيرا تمكن الإساءة إليه .. فهى دون ذلك كثيرا ..فكل شىء فى المرأة لابد أن نقارنه بالرجل .. وهى فى حياتها تعتمد عليه .. بل إن كل ذوق المرأة وقيمها الأخلاقية ليس لها وجود مستقل .. إنما ذوقها هو الذى يعجب الرجل . ولذلك ترى المرأة التى ترتدى الفستان الأحمر طول حياتها ، تخلعه فورا إذا كان لا يعجب الرجل الذى تحبه .. فهى حتى فى ذوقها تعتمد على إرضاء الرجل .. والمرأة ليست عندها أخلاق مستقلة .. فالحلال والحرام والحياء هى ما يراه الرجل .. فالمرأة تقول للرجل : إننى حافظت على شرفك وعلى سمعتك .. أى أنها عندما لم تخن الرجل ، فليس لأنها تكره الخيانة ، ولكن لأن الخيانة تغضب رجلا ، ولأن الأمانة ترضى رجلا .. بل إن المرأة لا تحب النظافة الجسمية .. فهى لا تستحم ولا تتجمل لأنها تحب ذلك .. ولكن تفعل ذلك من أجل الزوج أو من أجل العاشق .. ومن المألوف أن تظل المرأة يوما أو يومين أو شهرا دون أن تفكر فى أن تسوى شعرها وتصبغ وجهها إذا كان رجلها غائبا .. فإذا أعلن أنه سوف يجىء ، استعدت المرأة بكل وسائل التجميل لهذا اللقاء .. فكأن التجميل والزينة ليست لأنها تحب ذلك ، ولكن لأن رجلا يحب ذلك .. وأحيانا تسمع زوجة تعاتب زوجها فتقول : عندك موعد غرامى اليوم ؟ ويكون سبب هذا السؤال أنها لاحظت أن زوجها قد أطال الوقوف أمام المرآة .. ولا يكون عند الرجل أى سبب غير أنه يريد أن يسوى شعره ويحلق لحيته .. فقط لأنه يريد ذلك .. ولكن لأن المرأة لا تفعل ذلك عادة إلا من أجل الرجل ، فهى تقيس تصرفات الرجل على تصرفاتها هى .. والمرأة تدخل الحمام عارية تماما أمام عدد من النساء ، ولا تجد فى ذلك حرجا .. كما أن المرأة تطلب إلى خادمتها أن تساعدها على الاستحمام ولا تجد حرجا فى أن ترى الخادمة كل جسمها .. ولكن ليس بين الرجال واحد يتعرى أمام الرجال .. إلا إذا اضطر إلى ذلك ، كما يفعل الرياضيون أو الجنود . فالرجل يشعر بالخجل أن يقف

عاريا أمام رجل آخر . ولكن المرأة لا تشعر بهذا الحياء أمام امرأة أخرى . لماذا ؟ لأن المرأة ترى أن لجسمها معنى ودلالة أمام الرجل فقط .. فهى تكشفه وتداريه عن عينى الرجل . فالرجل هو الذى يهم . والرجل هو الهدف .. والمرأة ترتبط حياتها تماما بإرضاء الرجل أو إغوائه .. ولذلك فالمرأة تتجمل وترتدى أجمل ما لديها . لكى يرى الرجل ذلك ، ثم تنتظر فى صبر طويل كيف يكون أثر ذلك فى الرجل . فإذا تقدم إليها الرجل كان تقدمه لها أعظم تحية لقدرتها على اجتذابه وإغرائه . والمرأة لأنها ضعيفة فهى خائفة وهى حريصة . وهى تخفى مشاعرها وقد اعتادت المرأة فى ألوف السنين أن تخفى احساسها ، لكى تستدرج الرجل إلى اكتشافها . فإذا اكتشفها وفاز بها شعر الرجل بالنصر لأنه فاز بها بعد مجهود كبير . والمرأة يسعدها أن يطاردها الرجل . وأن يتعب فى ذلك لتستسلم له فى النهاية . والمرأة تجد لذتها الكبرى فى أن تستسلم للرجل القوى .. أو الرجل الذى يقهرها أى الذى يسلبها إرادتها . فتكون لذتها مضاعفة : أنها فازت وأنها استسلمت له . وأقوى صورة للذة والألم معا هى لحظة الولادة فالمرأة إذا حملت تأكدت أنوثتها . وإذا ولدت تأكدت قدرتها على العطاء . والذى يرى عذاب المرأة عند الولادة يخيل إليه أنها لن تلد مرة أخرى .. ولكنها تلد بعد ذلك مرات عديدة . لأنها تجد اللذة والعذاب معا . وهى قادرة على أكبر لذة وأعظم عذاب .. ففى طبع المرأة هذا التناقض الشديد .. والذين يجدون فى تناقض المرأة دليلا على أنها كائن غير مفهوم ، لا يفهمون المرأة . ففى المرأة كل صفات الإنسان الضعيف والمستعبد والذليل والطفل . إنها تنتظر . وقد علمها الانتظار الصبر . وقد علمها الصبر أن تفكر وتدبر وتخطط . وقد لا تفكر المرأة فى شىء من ذلك ، ولكن الغريزة التى هى حصيلة التاريخ الطويل ، تهديها إلى ما يمكن عمله فى مواجهة الرجل . وقد علمها الضعف أن تكذب على نفسها وعلى غيرها . هل هناك كذب أوضح من الزينة التى تضعها على وجهها . والشعر المستعار على رأسها .. والسوتيان تشد به صدرها .. والكورسيه تشد به ردفيها .. والحزام تخنق به خصرها .. والكعب يرفعها عن الأرض ويرجرج جسدها ؟ .. والمرأة لا تستعير الشعر فقط .. بل إن المرأة من الممكن أن تستعير مجوهرات غيرها .. ولا تجد المرأة فى ذلك كله شيئا غريبا .. إنها تكذب وتمضى فى الكذب .. وتصدق كذبها .. وكل هذه الزينات الكاذبة تؤكد أن المرأة ضعيفة ، وأنها فى حاجة إلى أسلحة كثيرة مستعارة لتواجه الرجل .. والمرأة مخادعة بطبعها .. لأن المخادع هو الذى لا يقدر على المواجهة . ولذلك يدور ويلف . والخداع من صفات الضعفاء والعبيد . والمرأة كانت كذلك . وليس صحيحا أن المرأة تحب الحرية .. إنما تحب الحرية عندما لا تجد الفرصة السعيدة لأن تكون عبدا وتابعا لرجل تحبه .. وفى استطاعتك أن ترى ذلك بنفسك .. فسوف تجد أن الفتاة التى تحبها على استعداد لأن تغير كل عاداتها من أجل إرضائك .. وأن تعطيك زمام حياتها .. وهى سعيدة بأن تمشى وراءك .. ولكن أتعس الزوجات أو العشيقات من وضعت رأسها برأس

الرجل .. إنها جردت نفسها من أنوثتها .. أو لعلها وجدت أن الأنوثة ضعف . وأنها تكره الضعف وتنسى هذه المرأة أن الطبيعة هي التي جعلتها أقل من الرجل . وجعلت المرأة فى ظل الرجل ، يحميها ويحقق أنوثتها ، ويمد عن طريقها الحياة . والمرأة تفضل رجلا يضربها بالكرباج على رجل يضربها بوردة .. فهو لا يضربها .. لأن الرجل الذى يضرب المرأة بالكرباج غيرة عليها ، أو تحكما فيها ، أفضل من الرجل الذى يهملها ولا يشعر بها . وليست من النساء امرأة واحدة لم تقل للرجل الذى تحبه : أتمنى أن أعيش معك وحدنا فى خيمة وسط الصحراء . وتذهب أنت تصيد الغزلان وأظل أنا هنا أتضور جوعا وعطشا فى انتظارك . حتى إذا جئت .. شربت معك وأكلت معك .. أو شربت ما تبقى منك وأكلت فضلات طعامك .. وليست من النساء امرأة واحدة لم تقل لرجل : أتمنى أن تكون لى غرفة واحدة معك .. أغسلها وأكنسها وتقفل الباب بالمفتاح .. ثم تعود لتجدنى فى انتظارك .. أو تلقى بالطعام من تحت الباب .. لا يهم .. المهم أننى أحبك .. وأننى لك .. وأنك لى . مع الأسف يا مولانا لقد حرمت المرأة من هذا كله .. إنها تريد أن تكون فى الشارع أو فى المكتب .. لا لأنها تحب ذلك ولكن لأن الرجل يريد ذلك .. فالرجل أعطى المرأة الحرية ، فأحبت الحرية التى أحبها الرجل .. ولكن الطبيعة لم تجعل المرأة حرة . لأنها لا تستطيع أن تروح وتجىء وهى حامل ..وهى ترضع طفلها . . وهى تربيه . والطبيعة جعلت المرأة فى البيت أو الكهف .. ولذلك يرى بعض فلاسفة الحضارة أن الرجل صياد ، وأن المرأة هى الفلاح .. فالرجل يفضل الحياة فى الغابة يطارد ويصيد .. والمرأة تفضل البقاء فى البيت تشغل وقتها بزراعة الأرض .. أى بوضع البذور وانتظارها حتى تكبر.. تماما كأن الأرض هى الأخرى امرأة تحمل وتلد .. ولا أرى أن ما قلته عن المرأة هو إهانة لها .. وأمامنا تاريخنا .. وهى محدودة القدرات الإبداعية .. لأن المرأة مهمتها أن تحفظ الحياة ، أما الرجل فهو الذى يطور لها الحياة ..فالمرأة لم تتفوق فى أى شيء .. فالمرأة تلد من مئات الألوف من السنين ، وليست من النساء طبيبة ولادة عبقرية .. والمرأة ترتدى الأزياء وتخلعها ، ولكن أشهر مصممى الأزياء من الرجال .. والمرأة تحكى لطفلها الصغير القصص ، وليس أعظم مؤلفى القصص من النساء .. والمرأة تبكى وتلطم خديها بسبب وبغير سبب ، ولكن أعظم المراثى فى الشعر العالمى للرجال .. والمرأة تطهو ، ولكن أشهر الطهاة الرجال .. والمرأة تكذب وتخدع وتتآمر ، ولكن أعظم الأكاذيب والخدع والمؤامرات والانقلابات قام بها الرجال ! حتى الانتحار .. وهو أقرب إلى طبيعة المرأة ، لأن الانتحار نوع من الهرب .. وهو فى نفس الوقت نوع من الاحتجاج الفردى على الرجل . لم تجد المرأة وسيلة جديدة أو مبتكرة فى الكيفية التى تموت بها .. فكليوبطرة عندما انتحرت تجملت وارتدت أجمل أثوابها . واختارت ثعبانا يلدغها .. تماما كما تختار الآن حقنة مسمومة .. فماتت دون أن ينثنى لها ثوب ، أو يتطاير لها شعر .. فكأنها شاءت حتى عندما تموت ، أن يكون موتها أقرب إلى

النوم . وأن يكون موتها جميلا . وأن يبدو موتها مثل انتظار طويل لشخص أحبته ، فلما تأخر عن موعده ، قررت أن تنام . فإذا جاء أيقظها ليجدها جاهزة بين ذراعيه .. ولكن وجدنا من يلقى بنفسه فى البركان مثل أستاذك الفيلسوف الإغريقى .. أو من يلقى بنفسه فى البحر ليلا دون أن يراه أحد مثل أستاذك الشاعر ايكليس .. لقد تناول عشاءه وشرب خمره وأمضى ساعة فى أحضان محبوبته .. وألقى عليها قصيدة جميلة يقول فيها : سوف ألقاك غدا جسما أو اسما أو ذكرى . وسوف أكون إلى جوارك حتى الموت . ومات هو ، ولكنه قبل أن يموت قرر أن يحتل خيالها .. ويظل مسيطرا عليها .. وارتضت ذلك . وعاشت تصون ذكراه .. ثم إنه ظل يقاوم الموج فى ضوء القمر .. حتى رأى موجة عالية ، فتمدد فى زورقه واستسلم لها لتدفنه الموجة فى أعماق البحر .. ولما حاول بعض الصيادين البحارة إنقاذه قاوم الحياة وألقى بنفسه فى عباب الموت ..

ماذا بقى عن المرأة لم أقله يا مولانا ؟ ..

ولم يكن قد بقى شىء . ولكن سارعت فقلت : لم يبق إلا أبياتك هذه يا أستاذ :

خل الملام فليس يثنيها	حب الخداع طبيعة فيها
هو سرها وطلاء زينتها	ورياضة للنفس تحييها
وسلاحها فيما تكيد به	من يصطفيها أو يعاديها
خنها ولا تخلص لها أبدا	تخلص إلى أغلى غواليها ..

يا أستاذ .. إذا كان هذا هو رأيك فى المرأة وفى الرجل ، فما الذى بقى للإنسان يعيش به ويعيش من أجله ؟ .. وإذا كانت المرأة بهذه التفاهة .. وإذا كانت بلا أخلاق ولا ذوق ولا رأى ، فكيف لا تسمى نفسك عدوا للمرأة .. أو أنك عدوها الأوحد ؟ .. وهل هذا هو الذى جعلك لا تتزوج ؟ .. أى تحبها من بعيد وتتعذب بها .. وشعرك ملىء بكل أنواع العذاب.. ثم ترى أن الاقتراب منها ليس شيئا كبيرا ، والابتعاد عنها ليس خسارة فادحة .. ولكن فى نفس الوقت ترى أن الارتباط بها ضرورى بشرط أن تحتفظ لها بهذا الاحتقار العظيم ، وأن تظل فى حالة حرب معها .. نهاجمها فإذا فزنا بها ألقيناها بعيدا . وإذا ألقيناها بعيدا فهى سعيدة بهذا الإهمال أو هذا العقاب .. ونحن نؤكد رجولتنا باحتقارها ، ونؤكد أنوثتها حين نغرقها فى الشعور بالعذاب والهوان .. إذا كانت هذه هى الحياة فأين هى الراحة ؟ .. لا راحة إلا فى الوهم .. هى تتوهم أن هذه طبيعتها . ونحن نتوهم أن هذه طبيعتنا .. وبذلك يكون لقاء بين اثنين من اللصوص ، أو السفاحين أو المقاتلين .. وفى لحظات الاستراحة يحدث الحمل ويجىء الأطفال.. والله لا أعرف يا أستاذ كيف تكون حياتك لو أنك تزوجت سيدة إنجليزية ، وعبد الرحمن صدقى تزوج إيطالية ، والشاعر عبد الرحمن شكرى تزوج ألمانية ؟ .. لا أعرف كيف

يكون شكل هذا البيت ولا نوعيات الضيوف ولا موقفك السياسى إذا كانت زوجتك من سلالة شكسبير أو فيلسوفك المفضل توماس كارليل ؟ .. ولا ماذا كنت تقول إذا خانتك زوجتك ، أو خنتها أنت ؟ . ولا ماذا سيقال فى الأدب المصرى ، إذا كانت هذه الزوجات جميعا خائنات ؟ .. إننى أستطيع أن أتصور ما الذى يمكن أن يعمله . أما الزوجة الفرنسية فسوف تقتل المرأة الأخرى . وأما الزوجة الايطالية فسوف تقتل زوجها ، وأما الإنجليزية فسوف تحزم أمتعتها وتعود إلى بريطانيا ، وأما الألمانية فتنسحب لتؤلف كتابا عن الخيانة الزوجية .. ولكن من المؤكد أنهن كأوروبيات سوف يأسفن لما حدث . وسوف يتسلين بحب جديد .. ويكون الحب الجديد انتقاما من حب قديم .. ثم قبل ذلك كله ما الذى يمكن أن تقوله يا أستاذ لتلامذتك ؟ . . هل ترى أن يفعلوا مثلك . . ونحن لا نعرف بالضبط ماذا تعمل ؟ . . إنك فى شعرك تقول إنك كنت تحب .. وأنت الآن تعيش على تجارب قديمة .. وإن المرارة فى شعرك سببها ما كان فى شبابك .. ولا يمكن أن يكون سعيدا من ينظم شعرا مريرا عنيفا انتقاميا هكذا .. فهل ترى يا أستاذ أنك أنت النموذج لنا جميعا ، وأن بقية خلق الله عاشوا وماتوا بالغريزة ؟ .. بغريزة البقاء طاردوا المرأة . وبغريزة البقاء قاومت ثم استسلمت . وبالغريزة الجنسية استمرت الحياة .. فما الذى نفعله إذن بكل روائع الأدب والفن ؟ ما الذى نفعله بكلمات الحب العذرى والعشق والغزل ؟ .. وماذا قلته أنت يا أستاذ فى وصف الجمال والدلال ؟ . . وما قلته عن الصبر وعن اللقاء ؟ .. أين الصواب وأين الخطأ ؟ .. أين الذى نأخذه وأين الذى نتركه ؟ .. إننى أسمع الأغانى ويسعدنى ذلك .. وأقرأ لشوقى وأطرب .. وأتأمل ما يقوله مصطفى صادق الرافعى ، ويعجبنى ذلك .. إن واحدا من هؤلاء لا يرقى إلى قدرتك يا أستاذ .. ولكن ماذا تقول إذا كنت أجد هذا الكلام الغامض جميلا . وأجد الشقاء فى صور الأشعة واللوحات التشريحية لجسم المرأة والرجل ، ولأعماق المرأة والرجل ؟ .. إن الأطباء الذين يفتحون بطن المرأة . والفلاسفة الذين يقلبون فى قيمها ، لا يجدون سعادة الفنان ولا نشوة الشاعر .. وأنا أفضل أن أكون نائما سعيدا ، على أن أكون يقظان شقيا .. إننى أفضل أن أطبق عينى بيدى وأحلم ، على أن أفتحها وأصرخ .. وإذا سمحت لى يا أستاذ .. إن الله قد خلق للعين جفنا لكى تغمضه فتنام .. ولو شاء جعل لنا عيون الطيور والزواحف .. عيونا بلا أجفان .. وأقصى درجات العذاب الوجودى أن تظل عيوننا مفتوحة بعضها على بعض .. فنرى أنفسنا دائما ونحسب حركاتنا وسكناتنا .. ونظل فى حالة « محاكمة » مستمرة . نحن نحاكم الآخرين وهم يحاكموننا . وما أتعس هذه الحياة إذا كانت « محكمة » منعقدة إلى الأبد .. قضاة ومتهمين ومحامين .. وتصدر فيها الأحكام دون أن ترفع الجلسة ، ثم تستأنف الأحكام وتصدر أحكام جديدة وتستأنف .. إلى الأبد .. ونكون فى ذلك أقرب إلى الفتى الإغريقى « سيزيف » الذى عاقبته الآلهة بأن يدفع أمامه حجرا إلى أعلى الجبل . ويهبط الحجر ووراءه سيزيف ليرفعه من جديد ..

ويهبط الحجر مرة ثانية وثالثة .. وإلى الأبد .. ويتوهم الفتى سيزيف أنه أقوى من القدر عندما يظل يدفع الحجر رغم أنه يعلم أنه لا أمل فى نهاية .. فهل هذا هو المقصود من العلاقة بين الرجل والمرأة ؟ أنها حرب بلا هدنة ولا وقف إطلاق نار . . ثم لا سلام بعد ذلك إلا بالانتحار أو الموت . . أو فقدان الشعور بهذه المعركة .. ثم يتوهم الإنسان أنه أعظم من الطبيعة عندما يستسلم لهذه المعركة . ويرى أنه لا أمل معها فى سلام .. هل الزواج المسيحى مثلا ، الذى لا طلاق فيه ، هو قمة الحلول السعيدة .. عندما يتزوج الإنسان مرة واحدة ، ويقبل كل عيوب الزوجة ، ثم يعطى لنفسه وللزوجة حق الخيانة ؟ .. فإذا كان هذا هو المطلوب فلماذا الزواج ؟ وإذا كان الزواج هكذا فلابد من الحب بلا زواج .. وإذا كانت المرأة لا تعرف إلا الكذب وإلا الخيانة وإلا الغدر وإلا أن تكون عبدا ذليلا للرجل ، فما اسم هذه العلاقة بين السجان الذى يتزوج السجينة ؟ .. وهل هذا الذى قلته يا أستاذ كان سرا غير معروف عند أحد من الأدباء والشعراء والفلاسفة الذين تزوجوا ، وعلماء النفس الذين تزوجوا وأحبوا وخانوا وفشلوا ؟ .. لم يكن كله سرا ، فكيف نفسر غراميات الشعراء والفلاسفة وعلماء النفس ؟ . هل كل ذلك كذب .. فى كذب ؟ .. إننى لا أدافع عن موقف خاص ، فأنا لا أحب يا أستاذ .. ولا أدافع عن زملائى .. ولكن أتساءل بالعقل فقط .. ولا أعرف ما الذى سوف أفعله .. وقد أكون أتعس الأزواج ، وأشقى المحبين .. وقد أومن بما قاله الفيلسوف شوبنهور من أن المرأة ليست هى والرجل من أصل واحد . قد أومن بذلك . ولكن ما الذى سوف أفعله بعد ذلك . إذا وجدت أن من الضرورى أن أحبها ، رغم ذلك .. وأن أتزوجها رغم عقلى .. وأن أخونها رغم قلبى .. وأن ألعن هذه الحياة . وأتطلع إلى حياة أخرى ؟ ..

وأعلن الخادم أن الأستاذين عبد الرحمن صدقى وعلى أدهم فى الطريق إلينا .. وأن الخادم قد سبقهما على السلم ..

وكنا فى حاجة إلى هذه الاستراحة .. وكانت استراحة ممتعة . فعبد الرحمن صدقى شخصية مرحة . وعنده نوادر وحكايات كثيرة . ومن النادر أن يعلن رأيا دون أن تكون له قصة مضحكة . وبسرعة عندما نظر عبد الرحمن صدقى إلينا قال : طلبة فلسفة .. لابد أنهم أوجعوا رأسك يا أستاذ ..

ودون أن يعرف ما الذى كان يقال التفت إلينا جميعا قائلا : ليس بينكم واحد يحب .. لا أعرف .. ولكن الهيئة تدل على أنكم على باب الله .. اذهبوا .. وأحبوا .. الجامعة مليئة بالفتيات .. والله يا أستاذ جاءتنى فتاة جامعية أمس تبحث عن عمل فى دار الأوبرا .. نظرت إليها طويلا .. وقلت لها : مكانك على المسرح .. أو فى سرير مصنوع من خشب الورد اشتريته من الأزبكية .. هل تتزوجينى ؟

فقال الأستاذ بسرعة : طبعا قالت أتزوجك وعشرة معك !

وضحك عبد الرحمن صدقى ليقول : لا .. والله يا أستاذ .. إن نظرتها قد مسحت بى الأرض كأننى صرصار !

قال الأستاذ : معنى ذلك أنها إذا تزوجتك فلابد أن تضم إليك مليون صرصار ها .. ها ..

وعاد عبد الرحمن صدقى يقول : إن الشاعر الايطالى دانتسيو، وهو أعز أصدقاء موسولينى، كان يحب فتاة . وقابلها سرا . واتفق معها على الزواج .. لا على أن يتزوجها هو ، إنما على أن تتزوج هى .. ثم يقوم بدور العاشق .. لسبب بسيط أنه لا يستطيع وحده أن يشبع امرأة !

وضحك الأستاذ قائلا : إنه شاعر عبيط .. لقد أراد أن يتفقا على الخيانة . وهو عبيط لأنها كانت ستفعل ذلك حتى إذا تزوجته .. ولكنه أراد أن يكون الخائن وليس الزوج المخدوع .. ها .. ها ..

ومضى عبد الرحمن صدقى يقول : ولكن اللطيف فى هذه القصة .. أن الفتاة تزوجت فعلا طبيبا . وهذا الطبيب هو أعز أصدقاء الشاعر .. وتضايق الشاعر جدا . لا لأنها اختارت شخصا لا يستطيع أن يخونه معها .. ولكن لأنها تزوجت الرجل الوحيد الذى يعرف أنه عاجز جنسيا .. وسأل حبيبته إن كانت تعرف هذه الحقيقة ؟ فقالت إنها تعرف ذلك .. وفضلت أن تعيش معذبة مع رجل تحبه .. على أن تعيش معذبة مع رجل لا تحبه !

ثم عاد عبد الرحمن صدقى يقول : الآن يا أستاذ فهمت .. فالشاعر كان كثير الحديث عن القبلات الطويلة . إما لأنه لا يملك إلا القبلات .. وإما لأن من الصعب على أية واحدة أن تقبله طويلا ، فقد كانت لفمه رائحة كريهة !

وضحك عبد الرحمن صدقى ليقول : هذا يذكرنى يا أستاذ – لا مؤاخذة .. بأبيات لك وأبيات لمصطفى صادق الرافعى ..

ونحن نعلم أن عبد الرحمن صدقى يعتذر عن ذكر اسم مصطفى صادق الرافعى ، لأن الخصومة بين العقاد والرافعى معروفة وبشعة الألفاظ .. وكان الرافعى سليط اللسان ..

قال عبد الرحمن صدقى : مصطفى صادق الرافعى يقول :

يا من على البعد ينسانا ونذكره　　لسوف تذكرنا يوما وننساكا
إن الظلام الذى يجلوك يا قمر　　له صباح متى تدركه أخفاكا

فمصطفى صادق الرافعى يدعو عليه أن يطلع النهار ليختفى .. فالمحبوب ليس لامعاً إلا لأن الدنيا مظلمة .. أما الأستاذ فيقول :

يا من إلى البعد يدعونى ويهجرنى　　أسكت لسانا إلى لقياك يدعونى
أبا الجمال تناديني وتجذبنى　　وبالمقال تجافينى وتقصينى ؟
أعصيك أعصيك لا آلوك معصية　　ولست أعصى جمالا فيك يحيينى

والأستاذ هنا عنده ذوق الرجل الذى يحب .. فكل شيء فى جسمها يناديه ويدعوه .. ولكنها هى التى ترفضه .. جسمها يقول : نعم .. ولسانها يقول : لا .. وهو على استعداد لأن يعصيها هى ، ولكنه لا يقوى على عصيان جمالها .. والأستاذ يعلم أن المرأة عندما تقول : لا .. فهى تعنى : نعم .. ولذلك فبعملية حسابية بسيطة : إنها جميعا تناديه .. وهو ضامن أنه سيفوز فى النهاية .. كانت لى صديقة إيطالية جميلة .. ومن المدهش حقا أننى كنت أقول لها : أعطنى قبلة . فكانت تقول : لا .. وأظل أقبلها وهى تقول : لا .. وكنت أسألها : ما معنى كلمة لا هذه إذا كنت أقبلك طول الوقت ؟ فتقول : لا معنى لها .. ولكن أحب أن أقول : لا .. وأفضل أن أقول أنا : لا .. وتقول أنت : نعم .. على أن أقول أنا : نعم .. وتقول أنت : لا ! هل تذكر يا أستاذ السيدة « س ... » عندما كنت أحبها كنت أقول لها : أنت رجل فى تصرفاتك .. وكان يسعدها ذلك .. وكانت تضيق جدا إذا قلت : لا فائدة .. أنت امرأة .. وكنت أقصد بذلك أنها شجاعة كالرجل ، كاذبة ككل امرأة .

وكأن الأستاذ لم يكمل حديثه عن المرأة ، أو ما يزال لديه ما يريد أن يقوله ، فقال : إن المرأة ليست شجاعة .. ولكنها متهورة عادة .. إذا كان المقصود هو أنها تريد أن تعرف .. فحب الاستطلاع عند المرأة والطفل والضعفاء ، يجعلها تستهين بالخطر ولا تهاب أحداً . . ولذلك فهى تندفع .. وحين يكون الرجل والمرأة فى مكان بعيد عن الناس فإننا نجد الرجل يتلفت حوله بينما المرأة لا تفعل ذلك .. فهو خائف .. ولكنها تنسى الخوف إلى جواره .. وتنسى الخوف لأنها تريد أن تعرف .. وتنسى الخوف لأنها سيئة التقدير ... واختلاط المرأة بالرجل جعلها تنسى متى تكون رجلا ومتى تكون امرأة .. فالمرأة تستعير أساليب الرجال فى الحياة وفى أسلوب الكلام والتعامل ، لكى تأمن شرهم .. ولكى تغطى نقطة الضعف عندها .. ولكى تجعل المسافة بينها وبينهم أضيق .. ولكنها لا تنسى أن الذى استعارته من الرجل ليس ملكا لها .. ولذلك تحاول المرأة أن تؤكد لنفسها وللرجل أنها تدخن مثله ، وتتحدث بصوت مرتفع مثله ، ولا تخاف أن تجلس إليه وحدها ، وأن تسهر وتشرب مثله .. وقد تتوهم المرأة أن إلغاء المسافات بين الرجل والمرأة معناه أنها تساوت به .. وقد تصدق ذلك .. ولكن بسرعة تكتشف فى جسمها ألف دليل على أنها ليست رجلا ، ومستحيل أن تكون .. وقد تمسك المرأة سيفا ، وتذهب لتقتل ، فتصطدم أصبعها فى السيف فينكسر واحد من أظافرها .. فتحزن أنه انكسر وأنه شوه جمال أصابعها ، وقد تبكى من الألم ! انظر إلى صديقتنا « س ... » هذه .. إنها امرأة .. بكل معالم جسمها .. وتحاول أن تكون رجلا ، فهى قد أنقصت وزنها .. وهى ترتدى البنطلون .. وزوجها قد امتنع عن التدخين والشراب ، ولكنها تسرف فى السجائر والخمر .. وهى منذ الزواج رفضت أن تأتى له بالأطفال ، لأنها لا تريد أن تكون حاملا .. فلا هى رجل ولا هى امرأة .. ولكنها جميلة الملامح ، مشرقة الوجه ، لها ابتسامة سعيدة ، ثم إنها ذواقة للشعر والفن ..

ولم يكمل الأستاذ عبارته حتى أعلن الخادم أن السيدة « س ... » قد وصلت ..

وضبطت الأستاذ وقد سوى ياقة البيجاما .. ثم مد يده إلى غطاء السرير فسواه أيضا .. ونادى الخادم أن يجمع هذه الأوراق التى سقطت على الأرض .. وكانت هذه الأوراق ساقطة منذ وصلنا .. ثم أشار الأستاذ إلى الخادم أن ينقل الأكواب والفناجين .. وأن يأتى بمقعد من المكتب .. ثم قال ضاحكا : لا تأت بالمقعد المكسور ..

وقال عبد الرحمن صدقى : إنها تسكن بالقرب من هنا .. وسوف تصل بعد دقائق .. إنها ترسم اللوحات الفنية ... ولم تتشجع لتقيم لها معرضا خاصا . وقد حاولت أن أقنعها . ولكن لم أفلح .. فأقول لها : هل نسيت أنك رجل ؟ فكانت تقول : إلا فى الفن ..

وأعلن الخادم أن السيدة « س ... » وصلت . وأشار الأستاذ أن تدخل ، ووقف عبد الرحمن صدق وعلى أدهم ونحن أيضا . ومد لها الأستاذ يده . وجلست . إنها بيضاء ممتلئة . وليست نحيفة كما تصورنا . وقد ارتدت فستانا أحمر وتدلى من عنقها الكثير من العقود .. ومن أذنها تدلى قرط طويل كبير . ولها عطر قوى ، وشعرها أصفر ذهبى .. ووضعت الكثير من الأصباغ على وجهها . ثم وضعت ساقا على ساق .. وشدت ثوبها إلى فوق فبدت ساقاها .. ثم شدت ثوبها إلى تحت فبدا صدرها .. وفتحت حقيبتها وأخرجت علبة سجائر وولاعة ذهبية .. وكانت عيوننا على عين الأستاذ .. تغيرت النظرة واختلف اللمعان . وأشرق وجه الأستاذ . وحاول أن يستأنف الكلام الجاد . كأن حضورها لم يغير من الموقف شيئا .. ومع أن الأستاذ كان يتحدث عن المرأة ، ربما عن هذه المرأة بالذات .. أو عن أخريات مثلها ، فقد تحدث عن الجو اليوم .. الخ . .

أما عبد الرحمن صدق فقال : ما هذا الجمال ؟ .. إنك أصغر سنا من الأسبوع الماضى .. إنك تصغرين بمعدل عام كل أسبوع .. بينما أنا أكبر بمعدل سبع سنوات كل يوم ..

وضحكت بصوت مرتفع وقالت : إذن فقابلنى الشهر القادم يا نونو يا نونو ..

ثم نظرت السيدة إلينا وسألت : من هؤلاء ؟ .. شكلهم غريب علىّ ..

قال الأستاذ . إنهم شباب جامعى ، جاء يحاكم العقاد عن أقواله فى المرأة !

قالت : سوف تتعبون جدا . أنا لم أستطع إقناعه بأن يغير رأيه فى شىء .. أنا لم أستطع ، فكيف تستطيعون أنتم ؟ .

قال عبد الرحمن صدق : لماذا لم تحاولى إقناعى بأن أغير رأيى فى المرأة ؟ ..

قالت : أنت ليس لك رأى .. أنت تغير رأيك مع كل فستان !

هل كان مجىء هذه السيدة إشارة إلى أن ننهض .. ونترك المجال للكبار ؟ .. هل « الجرعة » التى قدمها لنا الأستاذ اليوم أكبر وأقوى من أن نحتملها ؟ .. هل الذى أجلسنا ، وأعجزنا عن القيام ، هو

هذا الإرهاق .. أو هو المزيد من أن نسمع ، أو المزيد من أن نقول ؟ .. هل لدى الأستاذ ما هو أكثر مما جاء فى كتبه وفى ندوته فى السنوات الماضية ؟ .. إن عبد الرحمن صدق يختلف عن الأستاذ فى كثير من آرائه فى المرأة .. ولكنه أكثر مرحا .. أو إنه يردد آراء الأستاذ ضاحكا .. وليس عبد الرحمن صدقى وحده . ولكن أصدقاء كثيرين للأستاذ لا يتفقون معه فى الرأى .. وليس من الضرورى ..

فإن كانت هذه السيدة هى « المرأة النموذجية » أو هى « النمط » الذى أقام عليه الأستاذ فلسفته ، فنحن لا نعرف هذا النوع من النساء .. فنحن لم نعرف إلا الزميلات وإلا بنات الجيران . ولم يتسع الوقت لنعرف أو لنفهم أو لنجرب أو نحلل .. والأستاذ يقول إنه يجرب أولا ، ويفهم بعد ذلك .. ولكن من المؤكد أنه يدعونا إلى أن نفهم أولا ثم نجرب بعد ذلك . ولكن الذى يفهم المرأة ، لا يقرب منها ، والذى يقرب منها لا يحبها ، والذى يحبها فبعض الوقت وليس كل الوقت .. والمرأة عند الأستاذ لا يقرب منها الإنسان إلا بحذر ، وإذا لم يحذر عوقب على ذلك .. وإذا كان القرآن يقول إن المرأة « سكن » للرجل .. والأستاذ يرى ذلك .. فإن الاستاذ يرى أن المرأة سكن «مسكون » .. أى بيت فيه عفاريت . ومع العفاريت لا أمن للرجل ولا أمان للمرأة ! وهذا النوع من النساء الذى نعرفه ، لا يعرفه الأستاذ ، فلا كان تلميذا فى الجامعة .. ولا أظن أنه عرف واحدة منهن ..

ولكن ليست فتيات الجامعة طرازا مختلفا عن الفتيات الأخريات . فالمرأة واحدة . ومفتاحها واحد . والمفتاح فى جيب الأستاذ . وهو صاحب قدرة رائعة على صناعة المفاتيح . ولكن هل من الضرورى أن يكون للإنسان مفتاح واحد ؟ هل للإنسان مدخل واحد ؟ وإذا كان له مدخل ، فهل لا يوجد أكثر من مفتاح ؟ .. من المؤكد أن هناك مفاتيح كثيرة .. هذه المفاتيح هى النظريات العلمية العديدة للعلماء ، وللفلاسفة والشعراء والفنانين والساسة ورجال الدين ..

وبدأ الحديث يدور حولنا ، ولا يتجه إلينا .. فالسيدة « س ... » تتحدث إلى الأستاذ .. ثم تدير رأسها لتتحدث إلى عبد الرحمن صدقى .. وبعد ذلك إلى على ادهم .. ثم إلى صلاح طاهر الذى جاء أخيرا .. وكأننا قد خرجنا .. لم يعد لنا وجود .. ولا أعرف كيف كانت تنعقد مجالس تلامذة سقراط حوله .. أو تلامذة بوذا .. أو أتباع المسيح ؟ .. كانوا يلتفون حوله ليروه من جميع جوانبه .. وكانوا سياجا لحمايته .. أو كانوا مثل أبناء وادى النيل وقد ناموا على صدر تمثال النيل الشهير .. ولكننا خرجنا ونزلنا إلى الشارع .. وقبل أن نتفق على شىء واحد . كأن نلتقى مباشرة على غداء أو على عشاء — أو لا نلتقى — قال أحدنا : انهزمنا ..

قال آخر : لا يهم .. مادام الأستاذ سوف يرانا غدا .. إن معنى ذلك أنه أحس أن هؤلاء الذين جاءوا قد عطلوه عن متابعة التفكير والحوار معنا .. لقد قلنا . وناقشنا . واعترضنا . وعارضنا . ولم يعجبه ما قلنا . وسوف نستأنف مناقشة القضية الثانية فى جدول الأعمال ..

قال واحد : ولكنه لم يقطع بأى رأى . إنه كرر ما كتب .. ثم لم يرد على اعتراض واحد مما قلنا .. إنه ألغانا تماما .. كأنه لم يكن لنا وجود .. كأنه تلقى رسالة من قارئ ، ثم رد عليها دون أن يراه .. أو يلمسه .. إنه ظل طول الوقت يتابع عنكبوتا فى السقف .. أنا تابعت هذا العنكبوت .. ومن العجيب أن العنكبوت كأنه أحس بأنه موضع اهتمام الأستاذ .. فوقف فى مكانه .. لعلها أنثى العنكبوت . والأستاذ– على فكرة – يعجب بأنثى العنكبوت ، لأنها تأكل زوجها بعد عملية اللقاح .. ويستنتج من ذلك إن الذكور لا ضرورة لهم عند الأنثى إلا أن يكونوا مصدرا لزيادة النسل .. فنحن لم ننهزم .

– بل انهزمنا .

– أنت وحدك الذى انهزمت .

– انهزمت على مسمع ومرأى منكم .. فهل تقدم واحد لإنقاذى ؟ .. لم يتقدم أحد .. أنا حاولت .. ولكنكم استسلمتم بلا مقاومة .. إن هذه السيدة كانت أشجع .. إنها قاومت ..

– هى قاومت ؟ إنها استسلمت قبل أن تجىء .. استسلمت كثيرا جدا.. ألم تر ما الذى قالوه عنها واحدا واحدا ؟ .. لقد كان الأستاذ مثل حكم فى مباراة غريبة .. إنه يعرف نتائجها من أول لحظة .. فهى مباراة ليس لها حارس مرمى .. ليس لهذه السيدة حارس مرمى .. ثم إنها « النموذج » الذى دخل معمل الأستاذ وأجرى تجاربه عليه .. إنها مثل القردة والفئران والأرانب والكلاب التى ينتقلون من ملاحظتها وإجراء التجارب عليها ، إلى تكوين نظريات جديدة عن الإنسان .. فهى الفأر أو القط أو الأفعى – ولكنها ليست المرأة التى نعرفها ..

– وأنت .. من هى المرأة التى تعرفها ؟ .. إن علاقتنا بالمرأة سينمائية .. أو مسرحية .. نراها من بعيد ، ونحبها أو نخافها من بعيد .. إننا انهزمنا .. قلها ولا تخف . أما تزال تكابر أنت أيضا ؟

– انهزمنا ! استرحت ؟ !

– استرحت .. لأن الهزيمة هى إحدى الراحتين : الفشل والموت !

لَسْتَ سَعِيدًا وَأَنتَ السَّبَب !

تحسنت صحة الأستاذ العقاد . وكان أكثر مرحا . ولم نكن كذلك . وقد جلسنا حول سريره . وكنا أقرب إلى السرير كأننا أردنا أن نحاصره ، أو نتوهم ذلك . وكنا جاهزين للمناقشة . فلن يكون هناك جديد لا نعرفه . ولن تكون هناك مفاجأة . فكل ما سوف يقال ، قلناه لأنفسنا . وأشرنا إلى واحد منا أن يتكلم . وكان زميلنا هذا يشكو من البرد . وكان ملتهب الأنف والعين والحنجرة فأخرج منديلا من جيبه . ولم يكد يصل المنديل إلى شفتيه حتى ألصق المنديل وسد فمه ولم ينطق بكلمة . ولكن الذى نطق هو الأستاذ ونظر ناحيتى وقال : أيكم الشيوعى ؟.

فقال أحدنا : أنا .

وقال : أيكم الوجودى ؟.

فقلت : أنا.

وقال : أيكم الملحد ؟.

فقلنا : هو.

وأشرنا إلى صاحبنا الذى مايزال المنديل ملتصقا بفمه ثم عطس .. وعطس .. وخرج من الغرفة ليعود بعد لحظات .. ويبدو أنه كان فى نية الأستاذ أن يعلق على أن يكون المصاب بالزكام هو الملحد الوحيد بيننا . ثم عاد يقول : وأيكم المسيحى ؟.

فقال أحدنا : أنا .

وعاد يسأل : وبينكم واحد بهائى ؟

قلنا : نعم .

وسأل : وأين هو؟

قلنا : سوف يجىء ، فاليوم عندهم صلاة . والمحفل البهائى ليس بعيدا من هنا . ولكنه حريص على أن يشترك فى المناقشة .. وكان المفروض أن يكون أول المتحدثين .

ثم التفت الأستاذ وتساءل : والأخت ؟

وكانت زميلة لنا قد درست الفلسفة . وتخصصت فى الفلسفة الهندية وعاشت مع والدها سنتين

فى الهند والصين واليابان . وهى تحسن الكلام بإحدى اللغات الهندية . وكانت هذه زيارتها الأولى للأستاذ . هل كان من الخطأ أن تجىء فى هذا اليوم ؟ هل نحن المسئولون عن أنها لم تحسن اختيار ملابسها ؟ لقد ارتدت القميص والبنطلون ، وكان شعرها قصيرا . ثم إنها استأذنت الأستاذ فى أن تدخن . ولما أذن لها وضعت ساقا على ساق . هل كان من الضرورى أن ننبهها إلى أن طريقتها فى النظر إلى عيون الناس تضايق الناس ؟ .. هل كان فى استطاعة أى واحد منا أن يطلب إليها أن تكف عن النظر إلى كل شىء فى الغرفة ، حتى لا تكون نظرتها هذه نوعا من الإدانة أو الاتهام ؟ هل كانت مظاهر القرف على وجهها ، حكما نهائيا على أن الأستاذ وبيته وحياته تبعث على القرف ، وأنه ليس النموذج الذى يجب أن يحتذيه كل الشبان ؟ هل معنى ذلك أن أملها قد خاب فينا ، وأنها فضحتنا جميعا ، فلم يبهرها الأستاذ كما بهرنا ؟ .

يبدو أن هذا ما انتهت إليه فى لحظات . ولما سألها الأستاذ قالت : أنا يا أستاذ ..لا شىء ..

فقال ضاحكا : عدم .. هل أنت عدم ؟

ولم ترد . فعاد الأستاذ يقول : إذن فأنت نصف الفلسفة الوجودية .. فالوجودية نصفها كلام عن الوجود ، والنصف الثانى عن العدم . بل إن العدم أهم من الوجود عند هؤلاء الوجوديين .. اسأليه !

وأشار ناحيتى . وضحك الأستاذ وحده ولم نضحك . ولم تهتز هذه الزميلة ، إنما وضعت السيجارة فى فمها ، وتركتها طويلا ، ثم أخرجت دخانا بطيئا من أنفها ومن فمها . هل أخفت ضيقها فيما نفثته من الدخان ؟ .. وتضايقنا جميعا من هذا السلوك الذى لم نكن نتوقعه ، فهى فتاة لطيفة . ليست جميلة . ولكنها مهذبة ورقيقة . فما الذى أصابها ؟ لماذا اتخذت موقف التحدى من الأستاذ وفى بيته ، وعلى مسمع ومرأى منا ؟

وهمس فى أذنى واحد من الزملاء : ما رأيك ؟ هل أخرجها من هذه الغرفة ؟ إنها قليلة الأدب !

ثم خرج الزميل من الغرفة . ونادانى . وسارعت إليه ووجدته غاضبا ثائرا : ما هذه الوقاحة ؟ من الذى أتى بها ؟ لابد أن نلقى بها خارج البيت حالا .

ولم أقتنع . ولا وجدت ذلك مناسبا . ودخلنا معا ، ومن ورائنا دخل زميلنا البهائى . واعتذر عن التأخير . وقال للأستاذ : أستاذنا العظيم .. أرجو ألا تكون قد قلت شيئا أندم على أننى لم أستمع إليه ..

ثم نظر إلينا . لنقول له : إن الأستاذ لم يتكلم بعد .

فأسعده ذلك . وجلس قائلا : أستاذنا .. إن صحتك اليوم أحسن .. ولو كنت فى مكانك يا أستاذ لرفضت مقابلة هؤلاء الغجر ، واكتفيت برؤية هذه الفتاة الجميلة التى تختلف معنا فى كل شىء ..فلا يعجبها ما نقرأ ولا ما نكتب .. وربما لا يعجبها أن تجىء إليك.. فهى تجد السعادة كلها

بالقرب من رجل هندى يمشى نصف عريان ..

وقاطعه الأستاذ ضاحكا : هل لهذه الأسباب جاءت ربع عريانة ؟ !

وبسرعة نظرنا إليها ، فقد كانت عارية الذراعين فقط ، أما بقية جسمها فقد تغطى ببنطلون محزق .

ومضى زميلنا اليهالى يقول : ولكنها من الناحية النفسية ثلاثة أرباع عريانة .. إن لم تكن عارية تماما .. وأنا آسف إذا كنت قد تحدثت بالنيابة عنها ، فهى قادرة على أن تعبر عن نفسها بخمس لغات .. فى وقت واحد .. فلسانها طويل جدا . وأنا أجد صعوبة فى التفاهم معها . وأعتقد أن أكثرنا لا يستطيع ذلك .. ألم تتكلم هى حتى الآن ؟

وكأنه لم يقل شيئا ، لقد حاول أن يحرك الجمود الذى لاحظه بذكائه السريع . فنحن جالسون وعيوننا وآذاننا عليه . والزميلة ماتزال تنفخ الدخان وتنظر إليه .. تجلس فوق السطوح وليس حولها أحد من الناس .. وكأن الأستاذ ليس ممددا على السرير ..

ولكن الأستاذ بسرعة اتجه إليها قائلا : وماذا وجدت فى الفلسفة الهندية ؟ ما الذى أعجبك أو ما الذى أراحك ؟ .

قالت وهى لم تغير وضعها ، ولا رفعت السيجارة من فمها : فى الهند كل شىء منسجم ، فهم يفكرون ويعيشون دون أن تكون هناك مسافة كبيرة بين الفكر والحياة . بل إنه فى اللغة الهندية نجد أن التفكير والحياة كلمتان مترادفتان .. فأفكارهم قد التصقت بحياتهم . تماما كما يلتصق الثوب بالجلد ، ويكون الثوب بشرة ثانية ، فأفكارهم على قدر حياتهم . وحياتهم لا تخرج عن أفكارهم . وأعتقد أن هذا أعظم ما يتمناه المفكر أو النبى .. تماما كما نقول نحن فى اللغة العامية فى مصر .. فنحن نقول عن الخبز إنه : العيش .. والعيش هو العيشة .. وهذا يدل على أن الخبز حيوى فى مصر .. وأنه هو الحياة .. والنقد الذى يوجه للفلسفات المثالية : أنها أفكار بعيدة عن الواقع .. أى أن هناك مسافة كبيرة بين المذهب وأسلوب الحياة . أما فى الهند فشىء آخر . والإنسان العادى جدا قد لا يقرأ ولا يفكر .. ولكن حياته العادية فلسفة . إنه يمشى عاريا ، لأن الحياة لا تساوى .. ويأكل أى طعام ، لأن الطعام ليس هو كل ما فى الحياة .. ويجىء الموت فلا يكون مفاجأة له ، لأن حياته أقرب إلى الموت .. فقد اختار الموت عندما اختار الحياة . ولذلك فكثيرا ما رأيت الناس فى الهند وهم يمشون فى الشارع ذهابا وإيابا إلى مكاتبهم ، يمشون بهدوء وصمت ، كأنهم يمشون فى جنازة ،، مع أنهم يتسابقون إلى العمل .. إلى الحياة ..

قال الأستاذ : وماذا أخذت أنت من هذه الحياة الهندية ؟

فنظرت بسرعة إلى ملابسها : وبسرعة وضعت ساقا إلى جوار الأخرى . وانتابتها هزة عصبية ،

وقالت : لا تنظر إلى ملابسى الآن يا أستاذ . فعندما كنت فى الهند . كنت أرتدى الملابس الهندية ، وكنت لا آكل إلا النباتات ، وكنت لا أطيق أن أرى الدم .. ولا أذوق اللحم حتى الآن .. فأنا أرى أن أكل اللحوم وحشية .. كيف يعيش أناس على جثث حيوانات اخرى ؟ ! وأرى أن الحروب قمة الوحشية ، إذ كيف يعيش الإنسان على جثة الإنسان ؟ ! .. وأرى أن الزواج وحشية أيضا .. لأننى لم أجد زواجا ناجحا . إنما رأيت رجلا يكذب على امرأة ، حتى إذا حملت وولدت اتجه إلى امرأة أخرى .. فتكون النتيجة أن تعيش امرأة معذبة بطفلها . وكل جريمتها أنها صدقت رجلا بارعا فى الكذب .. وأرى أن تعدد الزوجات هو جريمة مضاعفة .. وأرى أن المجتمع قائم على النفاق . لأنه يعطى للرجل ما لا يعطى للمرأة ، ويسمح للرجل بأن يخطئ كما يشاء . ولا يسمح بنفس القدر للمرأة ، حتى لو تساوت معه فى التعليم والوظيفة .. وأرى أن طلبة الجامعة فى مصر نموذج سيئ لما لايصح أن يكون عليه المواطن المثقف .. فهم حائرون . وهم خائفون ..

وأشارت إلينا بيديها ، ودخان السيجارة يمشى وراء يديها ، كأنه مظاهرة رقيقة تؤيد وجهة نظرها ..

وابتلعت الدخان ونفخته يمينا وشمالا ، واعتدلت لتقول : إنهم فى الهند لا يعرفون الحيرة . لقد اهتدوا ، لا يعرفون الموت . فالموت نفسه لا يخيف ، والحياة كلها لا تهم ، عندما تهون الحياة فلا معنى للموت . وعندما لا يكون هناك خوف من شىء أو على شىء فالهدوء هو طابع الفكر والحياة .. ولذلك فأنا أرى أن الحياة فى الهند هى أعظم ما عرف الإنسان من حياة .. وليس صحيحا ما يقال إن الحياة الهندية هى نصف الطريق إلى الموت . بل إن الحياة الهندية هى كل الطريق إلى السلام .. وأدباء الغرب والمستشرقون قد بالغوا كثيرا فى وصف حياة الرهبان الهنود والصينيين فى قمم الجبال .. فلا رهبان فى قمم الجبال . لم أر أحدا من ذلك . إنما هو خيال الخواجات .. فقد توهم هؤلاء الناس أن الإنسان لكى يعيش حياته كاملة نقية طاهرة ، فلابد أن يهجر الناس . وأن يهرب من المدينة . وأن يتعلق فوق إحدى الأشجار كالقرود . أو ينام فوق إحدى القمم كالنسور .. وهناك وسط هذا الفراغ الأبدى والصمت الدائم ينعزل وينطوى ويتأمل . وبعض الفلاسفة فى الغرب يسمون ذلك « حالة العدم » أو حالة الإعدام أو الانعدام .. وفى اللغة الهندية يسمونها « النرفانا » .. ويقصدون بذلك أن الإنسان ينصب لنفسه مشنقة من : الوحدة والصمت والزهد .. ويتعلق فيها حيا كأنه ميت .. ليس هذا صحيحا . فى استطاعة الرجل الهندى أن يحقق كل ذلك وهو جالس على الأرض .. على الرصيف .. إلى جوار الحائط .. والإنسان يرى ذلك المنظر القبيح ولا يشعر بعظمة هذا الرجل العريان الفقير الجالس على الطين .. إنه ليس عريانا ، إنه اختار من الملابس ما يريد .. وليس فقيرا ، لأن الذى يقنع بما عنده ولا ينظر إلى ما عند الناس ، هو إنسان غنى بنفسه عن الآخرين .. وليس جالسا

على الطين ، إنما هو مادة تجلس على مادة .. ولا يهم إن كانت الأرض من طين أو من ذهب .. فالذهب طين أصفر جاف لامع .. والطين ذهب أسود لين .. والطين والذهب مادة . والإنسان مادة عاقلة .. فإذا كان هذا الهندى قد جلس على الأرض فإن العين تقول إنه استقر على الطين – ولكن هذا ما تقوله العين . ولكن العقل يرى أنه جالس على القمة .. وأنه أغنى من الأغنياء . وأنه أقوى من كل ما حوله . لأنه يملك أن يرفض كل شيء ، وأن يزهد فى أى شيء .. وليس غريبا أن يتجه العالم كله إلى حياة الهنود ، ضيقا بحياتهم وراحة من أفكارهم ، وتيسيرا على أنفسهم .. ولكن الغرب لا يستطيع أن ينعم بهذه السعادة النفسية .. فليس عندنا وقت لكى نفكر .. وليست عندنا الحرية .. لا حرية لى فى أن أمشى بملابس هندية ، ولا احترام لحريتى عند الناس . حتى أنت يا أستاذ لم تحترم حريتى ، ولا زملائى .. لقد استنكروا أن أجيء بالقميص والبنطلون .. ورأيت فى عينيك أنك لم تسترح إلى أننى وضعت ساقا على ساق .. وقد شعرت بالحرج أمام عيونكم جميعا . فماذا فعلت ؟ .. أخرجت علبة السجائر وتوكأت على سيجارة .. وجعلت من دخانها حبالا واهية أتعلق بها .. مع أننى لا أدخن يا أستاذ . وقد أسعدنى جدا أننى حبست سعالا مع كل مرة أبتلع فيها الدخان .. فهذه أول سيجارة فى حياتى .. ولكن الذى أسعدنى أننى طبقت التعاليم الهندية فكتمت السعال مرة بعد مرة .. هذا هو التحكم فى الجسم والنفس .. قمة الإرادة وضبط النفس .

ولأول مرة نسمع من الأستاذ مثل هذه العبارة : أحسنت والله يا آنسة أحسنت !

وسكت الأستاذ ، ثم اتجه إليها بكل جسمه وقال : إننى لا أختلف معك فى شيء كثير . لولا أننى أرى أن الفقير الذى لا يملك إلا الرغيف لا يوصف بأنه زاهد فى لحم الديك الرومى .. ولا أرى أن الذى لا يملك إلا الجلوس على الارض ، زاهد فى الجلوس على العرش .. ولا أرى أن الذى لا يجد إلا ثوبا واحدا ، زاهد فى ارتداء البدلة « السموكنج » .. فالإنسان يزهد فيما يجد . ولكنه لا يزهد فيما لا يجد ولا يملك .. وأنا معك فى أن الإنسان ليس فى حاجة إلى أن يبعد عن الناس ليكون زاهدا ، بل إنه يستطيع أن يكون زاهدا وهو بينهم .. ووجود الإنسان بين الناس ، ثم الزهد فيهم ، هو الأمر الصعب .. تماما كما يكون الإنسان صائما فى رمضان وهو يعمل فى أحد المطاعم .. إن وجوده بين المغريات ، هو الامتحان الصعب .. ولكنى أختلف معك فى أن الهنود الذين تتحدثين عنهم هم أهل الفلسفة والدين .. بمعنى أن حياتهم هى أفكارهم . وأن أفكارهم هى حياتهم . لا أظن ذلك . ولكن يمكن أن يقال ذلك على رجل مثل غاندى فقط .. فهو رجل يستطيع أن يرتدى ملابسه كاملة . ويستطيع أن يرتدى حذاء ، ولكنه فضل أن يكون عاريا حافيا . واختار أن يجر معزة وراءه .. وهذه الصورة البسيطة لغاندى ، هى قمة العظمة الإنسانية .. فهو الذى تجرد من كل شيء . ولكن إذا سار الناس وراءه ، فلكى يكرروا مثلهم الأعلى غاندى .. ولكن عامة الناس الفقراء لا عندهم فلسفة

ولا عندهم اختيار لهذه الحياة . إنهم يعيشون هكذا ، لأنهم لا يستطيعون أن يعيشوا على نحو آخر .. ولكن الأوروبيين إذا كفروا بمذاهبهم الفلسفية والدينية والسياسية واختاروا حياة الهنود ، فهذا هو النموذج ، وهذا هو الاختيار ، وهذه هي التحية التي يوجهها الغرب إلى الشرق . وهذه هي إدانة كاملة للحياة الغربية التي تعقدت واضطربت ، وأصبح أبناؤها لا يطيقونها .. وهذه هي بداية الرومانسية الجديدة .. فالرومانسية القديمة في القرنين الماضيين كانت تدعو إلى أن يهرب الناس إلى الشرق البعيد ، وإلى الحياة البدائية الساحرة ، وإلى حياة الغريزة . بعيدا عن حسابات العقل ومنطق الكيمياء والفلك .. ولذلك تخيل الفلاسفة أن تكون المجتمعات النموذجية في جزر بعيدة .. أو أن يعيشوا وحدهم كما عاش روبنسون كروزو في جزيرة نائية ، وحتى تكون المقارنة واضحة بين حياة روبنسون كروزو والبدائيين ، كان لابد أن يظهر شخص بدائي .. فظهر شخص اسمه « جمعة » لأن العثور عليه كان في يوم جمعة .. ومن حياة جمعة هذا وحياة سيده روبنسون كروزو نعرف ما هي الحياة التي يريد أبناء الغرب أن يحيوها ، بعد أن ضاقت بهم حياتهم ، وبعد أن ملوا أفكارهم وكفروا بمذاهبهم الفلسفية والدينية ..

ثم سكت الأستاذ ، واعتدل ونظر إليها بعينين نافذتين قائلا : أنت تزوجت ..ولم تكوني سعيدة في هذا الزواج ؟.

وكان تحولا غريبا في الحوار . وكان مفاجأة . واضطربت الزميلة . وأنزلت ساقا ووضعت ساقا . وهربت من نظراته تبحث عن مطفأة للسجائر فلم تجد . وخرجت من الغرفة لتطفئ سيجارتها ، وعادت لنجد وجهها شاحبا . وبعض قطرات العرق على جبهتها ، وجلست كأنها إنسان آخر . وزادت دهشتنا وحيرتنا ولم يشأ الأستاذ أن يتركها تمتص هذه المفاجأة ، ولكنه بسرعة قال : لاحظت ذلك في يدك اليسرى . فما يزال أثر الخاتم غائرا في أصبعك . وهذا يدل على أنك كنت أكثر امتلاء .. ثم نقص وزنك .. كما أن بعض الترهل عند خصرك كما أرى من قيصك .. ربما حملت وأجهضت .. أو أن لك عددا من الأطفال .. وربما دفعك اليأس إلى أن تهملي نفسك .. كما هي عادة المرأة حين لا يكون في حياتها رجل . ثم إن المرأة عندما تضيق بالرجال فإنها تهمل نفسها كثيرا .. وأحيانا تذهب إلى تعذيب نفسها .. وأحيانا تذهب المرأة إلى تحقير نفسها ، حتى لا يقترب منها رجل .. بل إن المرأة أحيانا تروى القصص التي تسيء إلى سمعتها ، حتى تخيف الرجال .. لأنها تريد أن تكون بعيدة عنهم ، فتروى عن نفسها ما لا يشجع أحدا على أن يتقدم لها .. ثم تندم على أنها أساءت إلى نفسها .. ولا أستبعد أن تكون فلسفتك الهندية قد جاءت بعد الزواج وليس قبل الزواج .. فالإنسان لا ينشد العزلة والوحدة والزهد لأنه ناجح في حياته .. ولأن له زوجة وأولادا .. ولكن فقط عندما يكون الإنسان فاشلا أو تعسا ، فإنه « يفلسف » هذه التعاسة .. ويختار لها من

« الأزياء » الفكرية والأدبية ما يناسبها .. ولا يناسب التعيس أن يرتدى أحسن الأزياء ، ولا يناسب المرأة التى هجرها زوجها أو خانها ، أن تضع أجمل الحلى ، وأن تقف طويلا أمام المرآة .. إنما هى تكره جسمها الذى كانت تراه مصيدة للرجل .. وتكره فساتينها التى كانت تجذب عينيه .. وتكسر زجاجات عطرها التى كانت تملأ أنفه .. إن المرأة التعيسة تشعر أنها لم تعد امرأة .. لم تعد أنثى .. لم تعد تملأ عين أحد ، أو تريح أذنه ، أو تدفئ حضنه .. إن المرأة التعيسة هى امرأة لم تعد امرأة .. إنها لم تعد شيئا .. إنها لا شىء ، كما تقولين ..

وفى نبرة حزينة ، وصوت منكسر مهزوم قالت : نعم يا أستاذ . كنت قد تزوجت . وتركت مصر وعشت مع أبى . وشاء الله أن يموت طفلاى .. فقد ولدت توأمين .. وماتا بعد أربعين يوما ، واختلفت مع زوجى . واعتقد هو أننى قتلت الطفلين ، لأننى لا أريد أن أرتبط به .

ولم نكن نعرف أنها تزوجت ، ولم ينظر واحد منا لا إلى إصبعها ولا إلى أى مكان آخر من جسمها .. بل الأعجب من ذلك أننا لم نلاحظ أن الأستاذ قد نظر إليها .. بل إنه كان يتجه ناحيتنا ويحرك رأسه يمينا وشمالا دون أن يتوقف عند واحد منا .. ولكن كيف لاحظ إصبعها وبطنها ؟ وكيف اهتدى إلى كل ذلك ؟ .. نحن لا نعرف .. ولكنه الأستاذ القادر على الملاحظة ، وصنع « مفاتيح الشخصية » بسرعة هائلة ..

ولكن الأستاذ قد شعر ناحيتها بكثير من الاحترام لها ، والعطف عليها .. بل إنه كان يتجه إليها كثيرا عندما يتحدث ، حتى لو كان يرد على واحد منا .. وقد لزمت الزميلة الصمت . ثم تجمدت على مقعدها ، بل أكاد أقول إنها لا تتنفس . فلم تعد تدخن . وقد ألصقت ساقيها الواحدة فى الأخرى .. وقد مال رأسها إلى الأمام قليلا . وأصبحت نظراتها أقل اجتراء . وظهر عليها الملل . كأنها تريد لهذه الجلسة أن تنتهى . وقد عرفت منها فيما بعد أنها تمنت أن ننصرف جميعا ، وأن تجلس هى مع الأستاذ ، وأن تلقى بنفسها على صدره وتبكى حتى الموت . فقد رأت فى عينى الأستاذ أبوة كاملة .. رغم أن عباراته كانت خشنة ، لأنه رجل يجلس إلى الرجال طول الوقت .. ولو عرف مجالس النساء ، لكان أنعم وأرق .. وهى قد اكتشفت فيه ، بغريزتها الأنثوية ، أنه أرق رجل عرفته فى حياتها ؟ ! .

وفجأة تحدث زميلنا الشيوعى . وكان عصبيا غليظ الصوت . إذا تحدث كان أقرب إلى الخطيب ، وإذا سكت تكون أنفاسه مسموعة ، قال : هذا مرض يا أستاذ . هذا الذى تحدثت عنه الزميلة مرض اجتماعى اسمه : السلبية ، فهى لأنها غنية تحب أن ترى منظر الفقراء ، وتحاول أن تجد لأسلوب حياتهم تفسيرا ، لأن المنظر يعجبها . ولا تريده أن يتغير . فهى لا تريد أن توجع دماغها ، ولكن فى نفس الوقت إذا طلبنا إليها أن تمشى عارية وتجلس على الرصيف فإنها لا تفعل . وكل

الأغنياء كذلك . إنهم يحاولون إقناع الفقراء بأن الفقر هو السعادة . وأن الصمت هو الحكمة . وأن الرضا بالقليل . هو قمة التحكم الإرادى .. تماما كما نذهب إلى حديقة الحيوانات ونتفرج على الحيوانات فى الأقفاص . لابد أن نضعها فى الحديد ، لكى نكون نحن فى مأمن منها .. والحديد الذى نضع فيه الفقراء هو : الدين .. هو تخويف هؤلاء الفقراء من نار جهنم ، إذا هم سرقوا أو قتلوا .. فالدين هو الذى يحمى الأغنياء من غضب الفقراء .. والدين اخترعه الأغنياء حماية لأنفسهم .. فالأغنياء يسرقون ويقتلون . ويرون ذلك حلالا لهم ، حراما على غيرهم . . وإذا كان الأغنياء لديهم الحراس يقفون على أبوابهم ، ولديهم الأسوار العالية ، ولديهم البوليس والجيش ، فكل هذه القوة يوجهونها فى الوقت المناسب ضد الفقراء .. ثم إن الأغنياء لم يكتفوا بذلك بل غرسوا الضمير حارسا لهم أيضا .. إن الضمير الذى لا يعرفه إلا الفقراء . هو حارس فى قلب كل فقير .. وهذا الحارس قد وجه فوهة بندقيته إلى القلب الذى استقر فيه .. فالضمير هو حارس لا ينام . وهو الذى يقول للفقير : لا تسرق .. لا تقتل . حتى لا يعذبك الله يوم القيامة .. والأخت عندما أعجبتها حياة الفقراء الهنود لا أعرف إن كانت أعجبها أن ترى الرجال عراة أيضا .. فهل هى معجبة بأجساد الرجال . ولكن ليست عندها الشجاعة أن تعترف بذلك ؟ .. فإذا كان هذا هو الذى أعجبها ، فلابد أن يعجبها الرجال العراة على الشواطئ .. ولكن هناك فارقا بين الذى يمشى عاريا على البلاج . وبين المتسولين العراة على البلاج أيضا . فهذا عريان باختياره ، وهذا عريان رغم أنفه .. إن فى الهند أناسا قد ثاروا على الفقر والعرى .. ولم يكتفوا بالثورة على هذه الحياة السلبية . إنما وضعوا أمام الملايين نماذج لحياة أفضل . هذه الحياة الأفضل تبدأ برفض هذه الحياة . والثورة عليها . تمهيدا لتغيير هذا الفقر والسلبية .. إننى شيوعى هذا صحيح . ولكنى أؤمن بالله . وبأن الله هو خالق الكون . وأن الله قد بعث بالرسل . وأن الرسالات السماوية قد جاءت تتمشى مع بعض العصور ، ولكن يجب أن نفعل ما هو أفضل ، وما هو أفضل يختلف من عصر لعصر . ولا يناسب عصرنا هذا إلا أن نقلب الأوضاع . فنجعل عاليها سافلها ، وسافلها عاليها .. وأن نمحو بالقوة كل هذه الأفكار الخادعة الكاذبة التى تجعل الفقير سعيدا بفقره ، وتترك الغنى ليزداد غنى وسفالة ..

ولم يتغير وجه الأستاذ . وإن كنا نحن قد اقتربنا من سرير الأستاذ أكثر ، فقد بدأ التأثر يظهر على وجه الأستاذ . وأخذ صوته يضعف قليلا . وإن كان الضيق والقرف والاحتقار الشديد قد تمكن من كل كلمة يقولها ، ومن كل حركة من يديه . ولا أعرف إن كانت الصدفة هى التى أخرجت قدمه من تحت اللحاف لتتجه دون قصد منها إلى وجوهنا .. وقد لاحظت أن هناك علامات حمراء عند جانبى القدم .. وكنت أظن أن أحذية الأستاذ كلها واسعة .. ولكن يبدو أنه ارتدى واحدا ضيقا قبل أن يمرض .. ومن المؤكد أن فى باطن القدم أثرا لمسمار كان فى الحذاء .. وبكل ما لدى الأستاذ من

احتقار للشيوعية والشيوعيين ، ورغبة قوية فى أن ينسف هذا الزميل الذى كرر كلاما يعرفه الأستاذ تماما . وناقشه كثيرا فى كتبه .. ثم يفاجأ بمن يردده مرة أخرى أمامه ، كأنه لم يقرأ ما كتب الأستاذ ، أو كأنه قرأ ولم يقتنع ، أو كأنه انتهز فرصة الرد على الزميلة فتهجم على الأستاذ فى بيته ..

قال الأستاذ : عجيب أمرك يا مولانا .. تقول إنك شيوعى ، ثم تدعى أنك مؤمن بالله .. أى إله هذا يا مولانا ؟ ! .. وأية شيوعية هذه التى تتحدث عنها ؟ ! من هو هذا الإله ؟ أهو كارل ماركس ؟ أهو لينين ؟ أهو ستالين ؟ إن كنت تؤمن بالله فلا يمكن أن تكون شيوعيا .. وإن كنت شيوعيا فلا مكان فى هذا المذهب للروح .. وإذا لم تكن هناك روح فلا ملائكة ولا شياطين ولا حياة بعد الموت . ولا إله .. لأن الشيوعية هى التفسير المادى للحياة . فالحياة أولها مادة وآخرها مادة . والمادة عندكم : هى التى كانت ترابا وماء ونارا ، ثم قفزت وحدها وخلقت من نفسها ضفدعة . وجعلت الضفدعة حوتا وجعلت الحوت إنسانا .. كيف تتحول المادة وتتطور وحدها ؟ .. ثم ما هى هذه المادة ؟ .. إنها ملايين الأشجار والطيور والزواحف والأسماك وألوف الملايين من البشر .. من العلماء والفلاسفة والرسامين واللصوص والهدامين .. كل ذلك فعلته المادة وحدها ! .. كيف ؟ ما هى قواعد تغير المادة ؟ .. كيف تبيض الضفدعة ضفادع ولا تبيض طيورا أو أشجارا ؟ .. كيف لا يلد الحوت إنسانا ؟ كيف لا يلد الإنسان حماراً ؟ .. من الذى يتحكم فى نمو الخلية ؟ من الذى يهديها السبيل إلى أن تكون كما كان أبوها وأمها ؟ .. كيف تفسر لى أن الطفل عندما يولد تكون له صفات الأب والأم وأحيانا صورة الجد الذى لم يره ؟ أو صفات الأب الذى مات ولم يره الطفل ، فكانت عاداته فى الأكل والسير تشابه والده كأنه عاش معه ؟ .. كل ذلك يحدث من تلقاء نفسه ؟ .. إننى لا أذهب إلى الكون الفسيح .. وأسأل من الذى خلق الكون كله ؟ .. ولكن سأكتفى بالحديث عن الذباب .. ما هذه الذبابة ؟ .. كيف تعيش ؟ وكيف تتكاثر ؟ .. وكيف تكون لها كل هذه الأعضاء الدقيقة المعقدة ؟ .. من الذى يحرك الخلية الحية فتكون متنوعة إلى هذه الدرجة ؟ .. كل ذلك فعلته المادة من تلقاء نفسها ؟ .. فلماذا لا نقوم نحن أنفسنا بعملية من هذا النوع .. فنضع ترابا فى صندوق وننتظر أن يخرج منه ببغاء أو قرد أو إنسان ؟ .. إن المادية الماركسية لا تجد إلا مادة تتطور من مادة صماء إلى مادة عاقلة .. كيف ؟ ثم كيف ظهرت الحياة ؟ ستقول ظهرت فجأة . كيف ؟ إن الماء والتراب والنار قد اختلطت ونضجت فى فرن الأشعة الشمسية والأشعة الكونية فتطورت المواد إلى حيوانات وطيور .. هكذا ؟ إذن فلماذا لا تتطور الآن مرة أخرى وعلى مرأى منا جميعا ؟ وإذا كانت المادة قادرة على أن تخلق بنفسها وأن تتحول من حمار إلى فيلسوف ، فما هو الدور الذى يقوم به الله فى هذا الكون ؟ .. ما ضرورته ؟ بل أنتم الكذابون المخادعون .. أنتم كفرة ملحدون .. ولكن ليست عندكم الشجاعة أن تواجهوا الناس بذلك .. فأنتم تؤكدون للفقراء أنكم مؤمنون مثلهم ، لتسايروهم نصف الطريق ..

وبعد ذلك تؤكدون لهم مرة أخرى أن الدين هو المسئول عن فقرهم . وأنهم يجب أن يخلعوا رداء الدين لأنه من صناعة الأغنياء، ولابد من قتل الأغنياء وتجريدهم مما يملكون.. دون أن يسأل واحد منكم نفسه : أليس من الأغنياء واحد قد عمل ونجح واستحق بعد ذلك أن يكون غنيا ؟ إنكم لا تسألون أنفسكم عن سبب ثراء أى إنسان . إنما ترون أن كل غنى لص ، وكل من يملك ما لا تملك ، فقد سرقه منك .. ولذلك فأنتم تحقدون على كل إنسان له موهبة .. على الفنان العظيم والشاعر العظيم والمهندس العظيم .. وترون أن الجهلة ، لأنهم أغلبية فهم أحق الناس بكل شيء .. وأن الكسالى ، وهم الأغلبية ، هم أفضل الناس .. ولذلك فالإنسان النشيط لص ، والإنسان الغنى سارق ، وصاحب الموهبة شخص فردى وليس جماهيريا .. ومعنى ذلك أن كل إنسان عبقرى يجب أن يقدم اعتذارا مكتوبا لكل الجهلاء والكسالى .. تماما كما يعتذر الإنسان الطويل القامة لكل الأقزام فى العالم . ويصبح الطبيعى أن يكون الإنسان قزما ، فإذا كان عملاقا ، فيجب أن نشطره قطعتين : ليكون اثنين أو ثلاثة من الأقزام .. وفى الدنيا ألوف الشعراء . ولكن ألف شاعر لا يمكن أن يعادلوا شكسبيراً واحداً.. فالعبقرية صفة فردية أو ميزة شخصية .. وليس لها تفسير واضح . فليست من صنع المجتمع ، بل إن المجتمعات هى التى يصنعها ويوجهها أصحاب المواهب .. تماما كما أن ماركس هو الذى مهد الطريق إلى الحكم الأعظم لينين .. ولينين فرد يقود مئات الملايين من الفقراء الكسالى الحاقدين الملحدين .. وأنت ؟ أنت ما شكواك يا مولانا ؟ ..أنت ما الذى فعلته فى هذه الدنيا لتحمل ساعة ذهبية فى يدك .. وتنتظرك سيارة أمام البيت ؟ .. إن هذه حصيلة عمل رجل تحتقره أعظم الاحتقار .. إنها فلوس أبيك الذى عمل وتعب .. فماذا كانت النتيجة ؟ لقد جئت إلى هنا تنقل إلى وإلى زملائك احتقارك الشديد لمن تعب من أجلك .. ولمن اختصر عليك العناء والشقاء .. هل من أجل هذا يستحق أبوك هذا الازدراء ؟ . . إن كان هذا رأيك فأنت أحق الناس بأن تمشى عاريا . . فأنت لم تفعل شيئا لتحصل على ثوب . أو ساعة من ذهب . أو سيارة . أو مصروف فى جيبك .. فلماذا لا تكون قدوة حسنة .. فتعطى لوالدك كل ما أعطاك .. وتبدأ تتسول رزقك .. أعطاك الناس أو لم يعطوك؟ ثم تقول إنك تؤمن بالله ؟ . أى إله هذا الذى يطلب من الابن أن يتنكر لأبيه ؟ .. ثم تطلب إلى كل الأبناء أن يشنقوا آباءهم لأن الآباء أغنياء . . إنهم فى روسيا لا يفعلون ذلك ، لسبب بسيط جدا . أن الشيوعية لا ترى أن الإنسان له أب أو أم .. إنما الأم هى مثل حوض الزهور . قد وضعت فيها بذرة فنمت . وانتهت مهمة حوض الزهور . ولم يكن فى استطاعة هذا الحوض أن يرفض البذرة . ولم يكن فى استطاعة البذرة إلا أن تتغذى من التربة والماء والهواء والشمس . وعندما كبرت البذرة لم تعد لهذا الحوض أهمية ! انتهى دوره . فكل شيء مرحلة . الأب مرحلة والأم كذلك . والطفولة مرحلة . والرجولة مرحلة . وكلها حلقات متشابكة . لا تربطها بعضها ببعض إلا الضرورة .

فإذا كان الطفل فى حاجة إلى أمه ، فالأم فى حاجة إلى الطفل ، لأنها إذا لم ترضعه فإن اللبن فى ثدييها يؤلمها . فهى لكى تتخلص من هذا اللبن فلابد أن ترضع الطفل . ثم إن الحمل يرضى غرورها . فمعنى ذلك أنها أغرت رجلا وأقنعته بأن يكون زوجها ورجلها . وعندما حملت فهذا يرضى غرورها مرة أخرى : إنها أنثى خصيبة . وعندما ولدت فإن الطفل يربط بينها وبين زوجها ، فلا تجد نفسها مضطرة إلى البحث عن رجل آخر . ويرضى غرور الرجل أيضا أنه قادر على أن يكون أبا . وفى بعض الدول الشيوعية ، يقطعون هذه العلاقة التى تربط بين الطفل وأبويه . لأنها علاقة معطلة للإنتاج . فالأم تجلس فى البيت . وهذا يعطلها عن العمل . وكما أن هناك مدرسين ومهندسين ، فيجب أن تكون هناك مربيات .. لأن الأم ليس من الضرورى أن تكون أحسن المربيات . فالتربية علم وفن . ولذلك يجب أن يتركوا تربية الأولاد لغير الأب والأم . وعلى ذلك أصبحت مهمة الأب والأم أن يشتركا فى إنتاج طفل – والطفل هو أداة إنتاج صغيرة .. موتور صغير .. سيارة صغيرة .. يساهم مع والديه فى العمل والإنتاج . ألا ترى أن هذه حيوانية ؟ .. وفى نفس الوقت تدعون كذبا أنكم حريصون على الفقراء ، وأن قلوبكم تتمزق حزنا عليهم .. أى قلوب هذه ؟ وأى حزن ؟ وأى فرح ؟ وأية عواطف ؟ كل هذه كلمات فارغة .. مادمتم قد أفرغتم هذا الكون من الله .. وأفرغتم هذا الجسد من الروح ، وأفرغتم هذا السلوك من القيم ، وأفرغتم هذه العلاقات من الإنسانية .. هل تغير من رأيك فى الماركسية لو قلت لك إن كارل ماركس نصاب أفاق .. وإنه يهودى غير دينه إلى المسيحية ليعيش ، ثم تمرد على المسيحية ليعيش مرة أخرى ؟ .. هل لو قلت لك إنه لم يفلح فى إقناع زوجته وبناته بأهمية الحياة فانتحرن : الواحدة بعد الأخرى ؟ هل لو قلت إنه كان لصا .. وإنه أصيب بالزهرى مرتين ؟ .. ألا ترى أن صاحب أية « دعوة » يجب أن يكون مثاليا ؟ أى يجب أن يبدأ بنفسه أولا ، ثم بعد ذلك بالناس .. فيكون أحسن شيوعى ، ليكون الناس مثله .. إنه لم يكن كذلك .. هل هذا يغير من رأيك فى الشيوعية ؟ .. هل لو علمت أن والدك يعطيك المال ، لأنه يعلم أنك لص .. أو أن والدك لص وأنه يسرق لك هذه الأموال لكى تبدو وجيهاً بين الناس .. هل يغير هذا من رأيك فى أبيك ؟ .. وإذا تغير رأيك فما هو سبب هذا التغيير ؟ قل لى . اريد أن أعرف منك حالا .. حدثنى عن والدك ..

قال : لا أعرف ما الذى أستطيع أن أفعله يا أستاذ الآن .. لقد قلبت الدنيا كلها فوق رأسى .. من المؤكد أننى سأرفض فلوس أبى إذا كان يسرقها .. أو إذا كان يظن أنه إذا لم يعطنى هذه الفلوس فسوف أسرقها منه ..

قال الأستاذ : ولكن .. لماذا ؟ لأنك ترى أن السرقة عيب . وأنها عيب لأنها حرام . فأبوك يأخذ ما لا يملك ويعطيه لمن لا يستحق .. فما هو العيب ؟ وما هو الحلال والحرام ؟ ومن الذى قال إن هذا حرام ؟ ومن الذى قال إن هذا حلال ؟ من الذى شرع ذلك ؟ .. هل إذا عرفت أن الطبيب يغش فى

الدواء ، وإذا عرفت أن الطبيب لا يعقم الأدوات الجراحية ، فماذا يكون رأيك فى هذا الطبيب ؟ وهل تعرض نفسك عليه ؟ .. وإذا أعطيته أجرا ، هل ترى ان هذا الطبيب يستحق الأجر ؟ .. وإذا عرفت كل ذلك فما الذى سوف تفعله ؟ .. هل تسكت على الطبيب ، وعلى ابيك ، وعلى كارل ماركس ؟ وإذا لم تسكت فما الذى تقول ؟ أو ما الذى تفعل ؟ وإذا عرفت أن هذا الطبيب لأنه فقير يريد أن يكون غنيا ، فهل ترى أنه على حق ؟ وإذا عرفت أنه يحقد على طبيب موهوب عظيم أصبح غنيا ، فهل ترى أن الغش والسرقة والخداع هى الطريق المشروع لأن يكون الإنسان غنيا ؟ ما هو الصواب ؟ وأين الخطأ ؟ ما هى الرذيلة ؟ وأين الفضيلة ؟ . ما الذى يحمى الناس من الناس ؟ .. إنه ليس القانون .. إنما هو قانون آخر .. إنه الدين الذى يقوم على أن هناك إلها . وأن الإله عادل . وأن الإله سوف يعطى ويمنع من يشاء .. وأنه سوف يحاسب الجميع .. وأن الدين كان موجودًا دائما منذ أقدم العصور وبأشكال مختلفة . فالإنسان حيوان متدين . أو هو حيوان مؤمن .. حتى الحيوان الشيوعى متدين ومؤمن .. فأنت تدافع عن « المقدسات الشيوعية » كأى إنسان يدافع عن دينه – فكما أن للمسلمين قبلة ، فللشيوعيين الكرملين .. وكما أن للمسلمين قرآنا ، فللشيوعيين كتاب « رأس المال » لكارل ماركس أو « البيان الشيوعى » .. وكما أن للمسلمين نبيا ، فللشيوعيين ماركس ولينين . وكما أن للمسلمين قيامة وحسابا وجنات تجرى من تحتها الأنهار ، فكذلك للشيوعيين : نهاية للتاريخ ، وعند هذه النهاية لا يكون حاكم ولا محكوم ولا غنى ولا فقير ، إنما حياة تتوقف فيها الحركة وينتهى الصراع بين الطبقات وتكون الشعوب إنسانية واحدة .. وسوف يبقى دائما هذا السؤال : من الذى خلق الإنسان والحيوان والنبات والكواكب والنجوم ؟ .. تقول : إنه الله .. أقول لك : أنت كذاب .. هل تقسم بالله ثلاثا فتقول : والله العظيم ثلاثا أقول الحق ، أقول لك إنك كذاب ثلاث مرات ، لأن معنى القسم أنك تقول : أقسم بالله الذى لا وجود له ! وتؤكد ذلك ثلاث مرات – كأن مرة واحدة لا تكفى !

وسكت الأستاذ ليلتفت إلى الزميلة فقال : بل إننى أستريح إلى ما قالته السيدة الفاضلة . فهى لا تدعى أنها صاحبة مذهب اقتصادى أو دينى . إنما هى فقط قد رأت أسلوبا فى الحياة ، أو أسلوبا يريحها من أعباء الحياة . تماما كما يستريح الإنسان إلى رياضة المشى أو رياضة السباحة .. ثم إنها لا تزعم أن الإنسان يجب أن يأكل ماشيا ، وأن ينام عائما .. فهى لم تقل إن أحسن ما فى الحياة أن يكون الإنسان عاريا دائما ، ولكن بعض الوقت ، فهى قد مرت بحالة نفسية ، ووجدت فى الحياة الهندية حلا مؤقتا لذلك . ونحن نفعل ذلك كل عام عندما نذهب إلى الشواطئ . أو إلى مصحات المياه المعدنية .. فهى إيجابية ، إنها اختارت حلا . واستراحت إليه . ولكنك أنت رفضت كل المشاكل ، ووجدت أن الرفض هو الحل .. وتوهمت أنك إذا رفعت صوتك ، فأنت على حق .. إن

أكثر المحامين صراخا فى المحكمة ، هو أبعدهم عن الحق .. وأنت لكى تقول إن ٢ + ٢ = ٤ لست فى حاجة إلى أن تصرخ . ولكنك فى حاجة إلى إن تصرخ وتتشنج إذا حاولت إقناعى بأن ٢ + ٢ = ٧ .. وأنت تصرخ لأنك لاتجد أحدا يلتفت اليك أو يريد . وأنت فى حاجة إلى أن تصرخ لتدفع عن نفسك تهمة الجهل ، أو الجنون . ثم عليك أن تقنعنا بذلك إن استطعت !

والتفت الأستاذ ناحية الزميل البهائى ، وكان الأستاذ يستلطفه جدا . لأنه إنسان دمه خفيف ، ولأنه مهذب ولأنه أنيق . ولأنه يرفض أن يوجع دماغه فى القضايا الفلسفية . وكان يقول : يا أستاذ .. حضرتك تعرف رأيى . أنا إنسان عادى جدا . ولا أريد أن أدخل فى مشاكل ..

وضحك الأستاذ قائلا : أنت من مدرسة « العجة » أى كسر كل البيض من كل لون وحجم بما فى ذلك بيض الدجاج والغربان والثعبان .. ها .. ها .. لأن الديانة البهائية تخلط اليهودية بالمسيحية بالإسلام بالبوذية .. وأنتم لا تريدون أن تغضبوا كل الأنبياء ، فتكرهونهم على المصالحة .. هاها .. هاها .. يا مولانا .. مادمتم تحبون « البيض » إلى هذه الدرجة ، فلماذا لا تأكلونه مسلوقا دون أن تكسروه ؟ .. وإذا كان لابد من كسر البيض .. فلماذا لا تصنعون « العجة » من بيض الدجاج فقط أو من بيض الغربان فقط ؟ .. هاها .. هاها ..

والأستاذ يشير إلى أن المذهب « البهائى » يقبل كل الأديان .. ويحاول أن يوفق بينها . مثلا عندما يتحدث المذهب البهائى عن الرسول عليه الصلاة والسلام ، يرى أن الرسول « خاتم » الأنبياء .. ولكن كلمة « خاتم » هذه ليس معناها أنه : « آخر » الأنبياء ولكن معناها الخاتم الذى تزدان به أصابع النبوة – فهو ليس آخرهم .. ولكنه زينتهم .. إلخ .

وعاد الزميل البهائى بروحه المرحة يقول : هذا صحيح يا أستاذ .. نحن أصحاب مذهب متواضع .. إننا نريد أن نخفف الصراعات العنيفة بين كل الأديان .. ونقول إنها جميعا صحيحة . فلماذا الحروب الصليبية ؟ ومادام الله واحدا ، فلماذا لا نكتفى بهذه الحقيقة والإيمان بها ؟ .. فهذا أهم ما فى أى دين .. أما بقية أساليب الحياة الفردية والاجتماعية ، فيمكن أن تختلف على التفاصيل ..

وضحك الأستاذ قائلا : يا مولانا .. مادامت البهائية مذهبا صغيرا هكذا فلماذا لا تفكر على قدر حجمها ؟ .. أنتم كالرسام الذى ذهبت إليه جميع الألوان تشكو من هذه الفوارق بينها .. فلكيلا يغضبها ألقاها جميعا فى إناء واحد .. فانعدمت الألوان . لماذا ؟ لأنه لا يريد أن يفضل لونا على لون .. هاها .. هاها ..

ولم أنتظر حتى يسألنى الأستاذ إن كان لى رأى ، فقلت : إننى أعرف حدودى العقلية . وأعرف ما الذى أقدر عليه . وما الذى لا أقدر عليه . ولذلك فمن الأخطاء الكبرى أن نتعرض إلى قضايا يصعب فهمها أو اتخاذ قرار بشأنها . مثلا : لو فرضنا أننا قررنا الآن أن نعرف مساحة السماء هذه .

وأن الوسيلة الوحيدة هي الشبر .. أي يجب أن نقيس السماء بالشبر . فهل نستطيع ؟ قد نحاول . ولكن هل نحن جادون ؟ .. أعتقد أن العقل الإنسانى محدود تماما ، كما أن الإنسان محدود .. ولذلك فمحاولة قياس السماء ، مثل محاولة وضع البحر فى زجاجات مدرجة لنعرف حجم الماء .. صحيح أننا لجأنا إلى وسائل أخرى لمعرفة مساحة السماء والمسافات بين النجوم والكواكب .. فاستخدمنا الشعاع . استخدمنا المسافة بين الأرض والشمس . كوحدة لهذا القياس .. فإذا كانت المسافة بين الأرض والشمس هى الشبر ، فنحن نقيس ما نرى وما نعرف من هذا الكون بهذا الشبر الجديد ، فهل استطعنا ؟ لم نستطع .. أريد أن أقول : كما أن اليد الإنسانية عاجزة ، فإن العقل الإنسانى عاجز أيضا عن أن يحكم فى قضية هذا الكون : كيف ظهر ؟ .. وإلى أين يذهب ؟ وإذا حاول أن يفكر فى ذلك ، فإن ألوف الملايين من الناس ليست عندهم هذه القدرة . وليس عندهم وقت . ولا من الضرورى أن يعرف كل إنسان كيف نشأ الكون ، ولا كيف نشأت الحياة ولا كيف تطورت .. وإذا كان هناك بعض الناس يهتمون بذلك ، فليكن . ولكن أغلب الناس لا يهمهم ذلك . وإذا « همهم » أو « أهمهم » فإنهم غير قادرين على أن يصلوا إلى رأى .. فلماذا نرغم الناس على التفكير فى القضايا الفلسفية مادام الفلاسفة أنفسهم عاجزين عن ذلك ؟ .. وأنا أرى يا أستاذ أن أكثر القضايا الفلسفية يجب ألا نفكر فيها .. لأننا عاجزون تماما عن فهمها أو استيعابها . وليس من الحكمة أن نبدد العمر ، وهو قليل . فى القضايا التى لا جدوى من ورائها .. والذى يجب أن يعنينا هو هذه الحياة . هذا الوجود .. وجودى أنا والآخرين ، حياتى أنا والآخرين .. عذابنا جميعا . وكيف نخفف منه ، وشقاؤنا كيف نتخلص منه .. والإنسان نفسه مشكلة لنفسه . فحياتنا تعب . وحياتنا مع الآخرين : جهنم نفسها . وأعباء هذه الدنيا أكثر من أن يحتملها إنسان وحده ، فنحن فى « محكمة الفلسفة » لنا أوضاع غريبة . إننا لسنا متخصصين ولا قادرين ولا فاهمين . فكيف نتوقع أن يكون الحكم فى قضايا الفلسفة صحيحا إذا كان القاضى مهندسا لم يدرس القانون ، وكان وكيل النيابة طبيبا بيطريا ، وكان المحامى أحد رواد الفضاء ، أما المتهم فهو طفل رضيع ، أما شهود المحكمة فهم جميعا من الموتى ؟ .. ما هذه المحكمة ؟ ما هذه القضية ؟ وما الذى نتوقعه من مثل هذه المحكمة ؟ وأين هو الصواب ؟ وأين الخطأ ؟ . وإذا كنا عاجزين جميعا ، فكيف يكون الحكم صحيحا ؟إن المعنى الذى أريد ان أصل إليه يا أستاذ هو : أننا يجب أن نرد أنفسنا عن نظر قضية ليست من اختصاصنا ، لسبب بسيط جدا : أننا لم ندرس ملف هذه القضية . فنحن عاجزون تماما عن فهم القضية . ولذلك فلسنا قادرين على تكييفها .. مثلا : الروح .. هل نبحث هذه القضية ؟ رأيى ألا نبحث عن ذلك ، لأننى لا أعرف كيف أفكر . ثم ما هو الفرق بين الروح والنفس ؟ . . وأحيانا نستخدم القلب بمعنى الروح .. وأحيانا نستخدم العقل بمعنى النفس .. فما هو الفرق بين كل هذه الكلمات « الأدبية » ؟ نحن

لا نعرف .. مثلا : الموت .. لا أعرف ما هو .. وإن كنت أعرف أنه نهاية ، وأنه مصدر لفزع الإنسان . فالإنسان لا يحب أن يتصور نفسه وقد أصبح لا شيء .. كل ما فعله وكل ما تعب فيه . وكل ما دافع عنه ، كل ذلك يصبح لا شيء .. فلماذا تعب ؟ ولماذا تذرع بالمبادئ والقيم ؟ .. لماذا أكل وشرب وقاتل من أجل أن يكون أكثر وأفضل ، ثم ينتهى كل شيء إلى لا شيء ؟ .. ثم ما هى الحكمة من هذه الحياة إذا كانت هذه هى النهاية ؟ ثم من هو الذى قال إن هناك « حكمة » لهذه الحياة ؟ إنه الإنسان نفسه . إنه هو الذى جعل لنفسه قيمة . ولحياته معنى . ولطريقه هدفا . ولهدفه سببا قويا لأن يتعذب . وإذا كانت هذه الحياة بلا حكمة ، فهل يسعده أن تكون هذه هى الحقيقة ؟ هل الإنسان لكيلا يضيق بهذه الحقيقة فإنه يتخيل نهاية أفضل ، وحياة أطول بعد هذه الحياة ؟ وإذا كان من رأى أى انسان أن هذه الحياة هى الحياة الوحيدة . وليست بعدها حياة ، فهل يسعده أن يكون وحده نغمة نشازا فى هذه الدنيا ؟ أى يكون هو الكافر الوحيد بالحياة الأخرى ، بينما كل الذين حوله يستريحون إلى أن هناك حياة بعد الحياة ، وإلى أن هناك عدلا بعد هذا الظلم ، وأن هناك جنات الغد بعد جحيم الأمس ؟ من المؤكد لا يسعده ذلك . فالناس أقوى من هذا الفكر النشاز ، لأنهم أكثر ولأن الدين عميق فى تاريخ الإنسانية . وأن الإنسانية عندما تتخلص من دين فلكى تعود إلى دين آخر .. تماما كما تقول يا أستاذ بأن الشيوعيين لهم صفات المؤمن بالأديان مع فارق واحد ، هو أنهم بغير إله .. إنهم وثنيون يعبدون المادة التى لها شكل ماركس ولينين ، إننا أشقياء بالإنسان يا أستاذ . إننا تعساء بأنفسنا يا أستاذ ، فلم تؤد الفلسفة إلى راحة الرأس عند النوم . ولا راحة الضمير عند اليقظة . إننا عذبنا أنفسنا بأنفسنا . ولن يريحنا إلا أن يجىء حاجب المحكمة وينادى علينا بالاسم ثم يطردنا خارج القاعة ويقفل الباب . هنا فقط نحس أننا لا قضاة ولا متهمون ولا محامون ولا محلفون ..

ولم يدعنى الأستاذ أكمل كلامى .. فهو يعرفه أيضا . وكانت لنا مناقشات طويلة . لا أقنعته ولا أقنعنى .. قال : اسمع يا مولانا .. تعال نتفق على معانى الكلمات . أنت تقول : الوجود الإنسانى .. يعنى وجودى أنا ووجودك أنت . لا بأس . ما هى مشكلة وجودى أنا فى هذه الدنيا ؟ إن مشكلتى هى مشكلة كل الناس : إننى أريد أن أعرف وأريد أن أفهم .. لأن الذى أفهمه سوف يساعدنى فى حياتى . ما الذى أريده من حياتى ؟ أريد أن أعيش منسجما مع الناس . وهذا الانسجام مع الناس يقلل لحظات الصدام والصراع . وأنا لا أريد الصدام . لأننى يجب أن أعمل وأنا مستريح . وأريد أن أستريح نفسيا أكثر. ولذلك أريد أن أعرف معنى هذه الدنيا التى أراها ، ومعنى هذه الدنيا التى لا أراها . وأريد أن أهتدى إلى أحسن السبل إلى العالم الآخر. لكى أنعم بالجنة بعد ذلك . وأنت عندما تمشى فى طريق ، فالطريق ليس سجادة تطويها أولا ، ثم تنشرها أمامك وتمشى فوقها بعد ذلك .. إننا نعرف الطريق إلى العالم الآخر بالعقل وبالوجدان . ونمشى بحرارة الوجدان على ضوء

العقل ، أما أنت وزملاؤك فماذا تريدون ؟ أقول لك ماذا تريدون ؟ .. أنتم ترون أن الحياة سخيفة . وأن الدنيا لا معنى لها . وأن العذاب الإنسانى لا ضرورة له . وأن الظلم والفقر والجهل والمرض والتعاسة لا يمكن أن تكون لها حكمة . فالرجل الأعرج والأعور والمريض والفقير ، لا يريحه أن يقال له : إن من الضرورى أن يكون إنسان بساق واحدة وإنسان بساقين ، وإنسان بعين واحدة وآخر بعينين ، وإنسان سليم وآخر مريض ، وواحد غنى وواحد فقير.. ويكون جوابه هو : لماذا لا يكون كل الناس بساقين وعينين وفى صحة جيدة ولهم ثراء عظيم ؟ والرد على ذلك أن الناس مختلفون فى الوراثة ومختلفون فى المواهب والقدرات . وبسبب هذا الاختلاف كانت حياتهم مختلفة . ونصيبهم من الدنيا مختلفا .

قلت : لا يا أستاذ .. إنك تترك الكثير من القضايا دون أن تناقشها . إنك تقفز فوقها قفزا . ولكن يجب أن نتساءل : ماهذا الطريق ؟ .. ماطوله ؟ .. ماعرضه ؟ .. ماأوله ؟ ماآخره ؟ .. وهل هو طريق حقا . أو أنه من صنع الخيال ؟ .. هل هو طريق نراه ، أو نتوهمه ؟ .. هل العقل الإنسانى هو الذى يفرز الطرق والقواعد وعلامات المرور ؟ هل العقل الإنسانى مثل العنكبوت يفرز خيوطه التى يجعلها مصيدة لطعامه ؟ .. هل العقل الإنسانى مثل دودة القز التى تفرز نعشها من الحرير ثم تموت فيه ، فإذا صحت كانت حشرة أخرى ؟ .. هل العقل الإنسانى مثل حيوان اللؤلؤ الذى يهبط الى قاع الماء ثم يفرز حباته بعيدا فى صمت ؟ .. وما حبات اللؤلؤ إلا دموع حيوان اللؤلؤ عندما تسللت إلى لحمه ذرة من الرمل فراح يعزلها عن جسمه بهذا السائل الفضى اللامع .. هل العقل الإنسانى يبنى عشه ثم يهرب لينام فى أوكار الطيور الأخرى .. أو المذاهب الفلسفية الأخرى ؟ .. إننى أرى ، أو نحن نرى . أن العقل الإنسانى طموح جدا . ولذلك يحاول أن يحل مشاكل الدنيا .. أو هو يربطها ويعقدها أولا ليجد متعة فى حلها بعد ذلك .. تماما كما يفعل رجال السيرك الذين نربطهم بالسلاسل ، ثم نتركهم يحلونها . ويجىء الحل دليلا على القوة العضلية ، أو على خفة اليد ، والقدرة على خداع الناس .. والحقيقة أننا لانخدع أحدا سوانا . فنحن نعقدها ونحن نحلها .. تماما كالفوازير أو الكلمات المتقاطعة أو القصص البوليسية .. نحن الذين نصنع الفزورة ونحن الذين نخفى معالم الجريمة ، لنجد متعة فى البحث عنها .. والاهتداء إليها ..

قال الأستاذ : لا أختلف معك يامولانا ، لولا أننى أسجل عليك عجزا . هو أنك تقف عند تشخيص المرض أو التعب . ولا تذهب إلى أبعد من ذلك .. فكل الفلسفة الوجودية تختار أمراضها بعناية فائقة . ثم تعكف عليها تشخصها وتحللها ، بمنتهى البراعة والذكاء والجمال أيضا . ولكن ماذا بعد ذلك ؟ لا شىء .. بل إننى أتهم الوجودية بأنها تضاعف أمراض الناس. لأنها تجعل المرض جميلا . حتى يحبه الناس . وهى ترى فى المرض والاستسلام له ، موقفا إيجابيا . ربما كانت الميزة الوحيدة

للفلسفة الوجودية أنها تحاول أن تفهم عذاب الإنسان فى القرن العشرين ، بعد أن خاب أمله فى كل المذاهب السياسية والاقتصادية ، هذه ميزة . ولكن يجب أن يتقدم أحد ليعالج هذا المرض ويصلح هذا الخلل النفسى والاجتماعى . ولكن أن يعجب الإنسان بمرضه ، فهو يشبه ما يقوله أخونا الشيوعى هذا من أن الأغنياء يريدون أن يظل الفقراء على ما هم عليه . بل إنهم يحاولون إقناع الفقراء بأن يرضوا بما هم فيه . وبذلك لايثور الفقراء ولايقلبون الدنيا فوق رءوس الأغنياء .. فالوجوديون أقرب إلى الشيوعيين فى هذا الموقف . لولا أن الوجوديين يقدسون الحرية الفردية ، بينما يزيلها الشيوعيون من الوجود . فلا حرية ولافردية . والوجوديون يرون أن الإنسان هو «الله» يمشى على الأرض ، بينما الشيوعيون يسحون به الأرض !

ثم سكت الأستاذ . وأعاد النظر إلينا جميعا . وكان واضحا أنه يشفق على زميلتنا . ثم قال مبتسما لها : إذن فأنت الوحيدة الملاك بين هؤلاء الشياطين .. فلا خلاف بين الشيوعى والملحد ، فكلاهما يحتقر الإنسانية .. ولافرق بين الهندى وبين البهائى ، فكلاهما يريد حياة هادئة ، دون أن يغضب أحدا . ولا فرق بينكم جميعا وبين الوجودى فهو يقف طويلا أمام عذاب الإنسان ، ويرفض هذا العذاب ويرى أن الحياة أقصر من أن تضيع فى التحليل والتعليل . ولكنك أعقلهم جميعا لأنك لا تدعين الفلسفة ، ثم أنك وجدت أساليب أبسط فى الحياة للراحة من الحياة ذاتها ..

وأحسسنا جميعا أن الأستاذ يريد أن ينهى الجلسة ، عندما لخصها . أو عندما حاول أن يربطنا جميعا بخيط واحد . أو عندما رأى وجوه الاختلاف والاتفاق بيننا . ولكنه بسرعة غريبة خارقة التفت إلى صديقنا الشيوعى والى الزميلة ، ثم قال :اسمع يا مولانا .. ليس أمامك إلا طريق واحد ، لكى ترجع عن أفكارك السلبية والسخيفة .. هو أن تعيش على طريقة الهنود .. وإلا أن تتزوج هذه السيدة الفاضلة !

وكانت المفاجأة . لقد احمر وجه الزميل ، واصفر وجه الزميلة . وقالت : شيء مذهل يا أستاذ .. أنت رجل خارق .. هل تعلم يا أستاذ أننا اتفقنا على الزواج فعلا .. وأن أحدا من الموجودين لا يعرف ذلك ؟ !

العفاريت والنازية والصهيونية !

لأول مرة أشعر بالغربة فى صالون العقاد .. فقد مضت عدة أسابيع لم أره .. انشغلنا . وبعد ذلك أصبح الانشغال عن الأستاذ قاعدة لحياتنا اليومية . فنى ذلك الوقت كنت أعمل محررا فى جريدة الأهرام ، ومعيدا فى الجامعة . وأعمل فى نفس الوقت فى مجلة « روز اليوسف » وفى جريدة « الأساس » وفى مجلة « النداء » وفى مجلة « الاكتواليتيه » الفرنسية .. وما تبقى من الوقت فإنى أقسمه بالعدل بين القراءة والوقوف على باب محل « البن البرازيلى » فى شارع سليمان باشا ..

وكان الذين سبقونى فى ذلك اليوم إلى صالون الأستاذ كثيرين . لقد جئت متأخرا . وفهمت من أول لحظة أن الأستاذ يكتب ، وأنه لم يستقبل زواره بعد . وأدهشنى ذلك . وفى نفس الوقت أسعدنى أيضا . فهذه أول مرة لا يستقبل فيها الأستاذ تلامذته . كما هى عادته . لابد أن شيئا غير عادى قد منعه من أداء هذه الحفاوة الرقيقة .. وأسعدنى أن شيئا لم يفتنى من حديث الأستاذ مع أحد من الحاضرين . وأكثرهم لا أعرفه . وإن كانوا يعرفون بعضهم البعض ولذلك لم أستبعد أن يكونوا من المترددين على الأستاذ فى غير يوم الجمعة . أو أنهم أقارب .. لم أهتد إلى تفسير هذا الذى أراه .. ولاحظت أن بعضهم يتكلم لغات أجنبية .. كالفرنسية والألمانية .. ولكن ضربت أذنى عبارة أعرفها .. هذه العبارة أحفظها جيدا .. فقد جاءت فى كتاب « دلالة الحائرين » للفيلسوف اليهودى موسى بن ميمون طبيب صلاح الدين الايوبى . . إذن فهؤلاء الخمسة من اليهود : رجلان وسيدتان وفتاة صغيرة .. أما الباقون فهم من المترددين على مسافات متباعدة ..

وسألت جارى : الأستاذ طبعا يعلم بوجودكم من الصباح الباكر ؟ .

قال : نعم . وسوف يحضر بعد نصف ساعة .

واستأنف الحاضرون مناقشة كنت قد قطعتها أنا ، عندما دخلت وصافحتهم جميعا . ولأول مرة أفعل ذلك . وعندما جلست اكتشفت أننى صافحتهم خجلا أو حرجا . فقد أحسست أننى غريب عنهم . ومددت يدى أتقى نظراتهم ، وأخفف من توترى المفاجئ لوجودى بين أناس لا أعرفهم . وربما أدت هذه المصافحة إلى أن أشعرهم بأننى من « أهل البيت » . وأن السلام على الضيوف واجب .. وأننى فعلت ما سوف يفعله الأستاذ عندما يجىء ..

ويبدو أن أحدا لم يتوقع منى أن أفعل ذلك . فأنزلوا ساقا من فوق ساق . واطفأوا سجائرهم . ونهضوا واقفين. ولاحظت أن السيدتين لم تقفا ، أما الفتاة فوقفت وأحنت ساقيها ، كما يفعل طلبة المدارس الأجنبية ..

وفجأة استأنف أحد الحاضرين الكلام ، كأن شيئا لم يحدث ، فقال : ... قبل ذلك بسنة ذهبت إلى نفس البيت . وأشعلت الأضواء . وفتحت النوافذ .. ونظرت إلى الأرض جيدا . ونظرت إلى السقف . وذهبت إلى المطبخ فوجدت الأكواب والشوك والسكاكين فى موضعها . وصورة أخى الذى قتل فى العام الماضى .. الصورة فى موقعها . ولمست بأصابعى المناضد كلها . لاحظت أن عليها ترابا ولما وجدت أعصابى مضطربة قليلا ابتلعت حبة منومة . ولكنى وضعت المسدس تحت المخدة . وقررت ألا ينام أحد فى البيت سواى . قلت للخادم لاتأت إلا فى الصباح . قلت لإخوتى إننى سوف أنام فى أحد الفنادق ، توسلوا إلى جميعا ألا أدخل هذا البيت وحدى لأن العفاريت لا تتركه لا ليلا ولا نهارا . وأن الناس قد لاحظوا أن النوافذ تنفتح وترتد إلى مكانها بسرعة هائلة طول الليل . وأن الشوك تتطاير ، وأن السكاكين تتساقط . وأن جميع الأطباق قد تحطمت تماما .. وأن المخدات قد اشتعلت فيها النيران .. ولكننى لم أجد أى أثر لذلك . ولا أدعى أن الخوف لم يهزنى من أعماقى . ولكن أنا مع الأسف . أنتسب إلى هذا النوع من الناس الذى لا يصدق إلا ما تراه عيناه .. وأنا عندما قرأت ما نشرته صحف اليوم عن الذى حدث فى أحد بيوت منطقة شبرا ، لم ألاحظ أن واحدا من الذين سألهم البوليس كان موجودا أثناء ظهور النار من نوافذ هذا البيت « المسكون » بالعفاريت .. ثم إن بعضهم ليس على يقين من الشقة التى خرجت منها النار ، فبعضهم قال فى الدور الثانى ، وبعضهم قال فى الدور الثالث .. وبعضهم قال إن البيت على اليمين ، والبعض قال إن البيت على اليسار .. وربما كان الخوف هو الذى جعل الناس يرتبكون فى رواية ماذا حدث بالضبط .. وقد تركت كل الأضواء ، وجعلت السرير فى منتصف الغرفة ، بدلا من مكانه ملتصقا بالحائط .. وتغطيت ونمت .. أما لماذا أخذت الحبة المنومة ، فلكى تكون أعصابى أهدأ ، ولكى تكون الصدمة أقل وقعا على نفسى .. ولا أعتقد أنى قد نمت يومها . إنما أكاد أكون قد أغفيت عندما أحسست أن الغطاء الخفيف الذى وضعته على جسمى ينسحب برفق شديد ، وبسرعة يتكوم على الأرض .. ومسحت عينى وصحوت تماما . ومددت يدى إلى الغطاء ووضعته على جسمى .. ونمت مفتوح العينين .. ولكنى رأيت الغطاء ينسحب ويتكوم تحت رأسى .. جلست فورا وسط السرير . هذه واقعة صحيحة . وقلت لو حدث هذا لأى إنسان فسوف يصاب بالجنون ، ولذلك لا أستبعد أن يحس أن الدنيا كلها قد اشتعلت نارا ، وذلك بسبب قلبه الذى يدفع الدم بقوة إلى عينيه فيرى كل شىء أحمر .. والذى يدفع الدم إلى أذنيه فيسمع هذه الدقات كأنها طبول بدائية .. وقد يصبح دوى الطبول مثل نوافذ

تنفتح بقوة . أو أبواب تتصدع . أو أطباق تتحطم ، ممكن جدا أن يحدث ذلك .

وأعتقد أن زوارا قد جاءوا ولم نشعر بهم .. وقد نقلوا مقاعد « السفرة » الى الصالون .. وأخرج الرجل منديلا من جيبه ومسح العرق . وبعضنا فعل ذلك فى نفس الوقت .. ثم عاد الرجل يقول : وفجأة وجدت كومة من التراب قد سقطت من السقف .. ووجدت سحب التراب قد ملأت جو الغرفة ، وكدت أختنق ، وأخفيت عينى ، ووضعت يدى على فمى وأنفى .. وأغمضت عينى تماما .. وعندما فتحت عينى ورفعت يدى لم أجد أثرا للتراب فى الغرفة .. ولم يكن صوت تراب أو حجارة قط .. إنما صوت تراب وحجارة وزجاج وشوك وسكاكين وملاعق وحلل .. كلها سقطت أمامى .. أو حولى .. أو فوق دماغى .. لا أعرف بالضبط .. ولم يعد عندى أى شك فى هذا الذى حدث . وفزعت تماما . وأمسكت مسدسى .. ودخلت غرف البيت واحدة واحدة .. ووجدت غرفة نوم مجاورة كانت مغلقة عندما ذهبت للنوم .. وجدتها مفتوحة ومضاءة . ووجدت على السرير شخصا نائما .. وقبل أن أحرك المسدس ، لقد كان أخى .. وناديته .. لقد كان أخى حقيقة .. كان هادئا تماما . سألته كيف جاء .. وعرفت منه أنه أشفق على أن أبيت وحدى ، فتسلل إلى الشقة سرا ودخل ونام . والغريب أنه لم يسمع كل الذى سمعت ! .. ورويت له ما حدث ، فقفز من الفراش ، وأصر على أن نذهب إلى أى فندق فى هذه الساعة المتأخرة من الليل . لابد أن ننزل فورا . .

ولاحظت أن أحد الزملاء القريبين من الباب قد نهض . فقد جاء الأستاذ . واعتذر عن التأخير . فهو يريد أن يكمل كتابا لأن الناشر يتعجله . ولكنه قال : إننى ألاحظ أنكم استمتعتم بالحديث معا . . فما الذى شغلكم اليوم ؟ ماذا كانوا يقولون يامولانا ؟ . .

وكان الأستاذ قد اقترب منى ليصافحنى : ماذا قالوا ؟ . . إننى لم أسمع لك صوتا . لابد أنه حوار لايعجبك . أو أنهم لا يعطونك فرصة للكلام . .

ثم اقترب الأستاذ من هؤلاء اليهود الذين جلسوا متجاورين ، وقال بصوت مرتفع ضاحك : كيف حالك يامولانا ؟ . . اما تزال تحمل لقب « اليهودى الخائب » ؟ . . أنت يامولانا أعجوبة القرن العشرين . . يهودى فقير ! يهودى عبيط ! ها . . هاها . . ها . . إننى أريد أن أقترح عليك شيئا يامولانا . . اذهب إلى حاخام اليهود فى مصر أو فى أى بلد وقل له : كم تدفع لى شهريا حتى لا أسىء إلى الشعب اليهودى وأعلن للعالم كله أننى فقير؟ ! . . فأنت يهودى فقير . وأنت يهودى عبيط . . وأنت إساءة إلى بنى إسرائيل . . أنت تعرف نكتة اليهودى الذى ذهب إلى بابا الفاتيكان فى العصور الوسطى . . ففى العصور الوسطى كان البابا يبيع الجنة بالمتر للأغنياء . . ويبيع لهم الغفران أيضا . . أى يتقاضى منهم مبلغا من المال ، لكى يغفر لهم خطاياهم . . أى يشترى ذنوبهم ثم يبيع لهم مساحات من الجنة ، على قدر فلوسهم . . وفى ذلك الوقت ظهر رجل يهودى ، يهودى حقا ، وليس يهوديا خائباً

مثلك . . وذهب إلى البابا وقال : بكم تبيعني جهنم ؟ وضحك البابا لسذاجة هذا اليهودى ، وسأله : وماذا تفعل بجهنم ؟ قال اليهودى: لا شيء . .ولكنها نزوة . . فقد مضى وقت طويل لم أشترشيئا ، ولم أبع شيئا . ولذلك لم أكسب شيئا . . وفى ديانتنا هذا حرام . لأنه لابد أن نبيع ولابد أن نكسب ! ولم يكتف هذا اليهودى بذلك ، بل انحنى يقبل قدمى البابا ويبكى . وأشفق عليه البابا ، وباعه جهنم بمبلغ رمزى . . وراح البابا يحكى هذه القصة عن جنون اليهود بالبيع والشراء . وقد طلب اليهودى من البابا أن يكتب أن « عقد البيع » لجهنم ، يعطى لليهودى الحق المطلق فى التصرف فى جهنم . . ومضت سنة ، وتذكر البابا حكاية الرجل اليهودى ، فبعث فى طلبه . وسأله : ماذا فعلت بجهنم ؟ فظهرت السعادة على وجهه وقال : حمدا لله وشكرا . . فكل شيء على مايرام . . لقد كسبت كثيرا جدا . وسأله البابا : وكيف ؟ فقال اليهودى : لا شيء . إننى ذهبت إلى كل الناس أسألهم هذا السؤال : كم تدفع إذا لم تدخل جهنم ؟ ووجد البابا أنه أمام مشكلة دينية فريدة فى التاريخ : هناك أناس اشتروا الجنة ، وهناك آخرون لن يدخلوا الجنة ولن يدخلوا النار أيضا . فأين يذهبون ؟ حاول أن يساوم اليهودى مرة أخرى . . ولكنه رفض . . ولذلك أرى يامولانا أن تساوم أقاربك وتقول لهم : كم تدفعون ثمن التستر على هذه الفضيحة . . وعلى هذا العار القومى ؟ . . فأنت إهانة لليهود الأذكياء الأغنياء . . ولا تنس نصيبى من « العمولة » فإننى الذى أعطيتك هذه الفكرة ! !

وضحك الرجل اليهودى وقال : لو اشتروا هذه الفكرة فسوف أعطيك عمولة ياأستاذ . .

وضحك الأستاذ أكثر وقال : ستعطينى عمولة لأنك يهودى عبيط . . ولو كنت يهوديا ذكيا لهددتنى قائلاً : كم تدفع لكيلا أقول للناس إنك صاحب هذه الفكرة ؟

ولم يضحك إلا الرجل والسيدتان والفتاة وبعضنا الذى أدرك هذه النكتة . . ثم التفت الأستاذ يمينا وشمالا يسأل عن الذى شغلنا قبل مجيئه . ثم عاد يوجه حديثه إلى الأسرة اليهودية فقال : طبعا أنت الذى كنت تتحدث ياهرارى . . فالكلام وصناعة الكلام مما يشغلك . . بينما أقاربك كلهم يعملون فى صمت . . وأنت تعرف ماذا يعملون . .هاها . . هاها . .

وكان السيد هرارى – وهذا اسمه – هو الذى يتكلم . هل هو يوسف هرارى أو يومى هرارى أو يوشع ؟ . . لست على يقين الآن . . فقد كنت أنا أيضا أعرف بعض أفراد هذه الأسرة . كانوا زملائى فى الدراسة . . وبعضهم كان تلامذتى فى الجامعة . . وكانت من بينهم سيدة غريبة وعجيبة . عرفتها فى مكتبة « زلزل » بالقاهرة . وهى مكتبة يملكها لبنانيون مسيحيون . . وقد باعتنى بعض كتبها . . ربما ٤٠٠ كتاب بالفرنسية والايطالية . وكلها كتب قديمة عن التاريخ اليهودى . . ولم أجد متعة فى قراءتها ، ولا أعتقد أننى استفدت منها شيئا كثيرا . فقد كانت جميعا عن اليهود المصريين « القرائين » – أى الذين يقرأون التوراة فقط ، ويرونها كتابا مقدسا . ولا يجدون ذلك فى التلمود .

ولهذا السبب فاليهود من كل المذاهب الأخرى ينظرون إلى القرائين المصريين على أنهم ليسوا يهودا .. وربما كفرة ، أو ربما مسلمون أو مسيحيون .. إنهم خارجون عن المذاهب اليهودية التى تقدس التلمود أكثر من التوراة !

وقال هرارى : أنت تعرف يا أستاذ ابن عمى سيمون ، كان يعمل فى السحر ..

وقاطعه الأستاذ قائلا : إن ابن عمك هو الآخر أعجوبة بشرية .. إنه تاجر ناجح جدا .. وله اختراعات علمية .. وله آراء سياسية نافذة .. ولكنه فى نفس الوقت يشتغل بالتخريف والأساطير .. ولا أعرف كيف يضع كل هذه الاهتمامات مرتبة منتظمة فى رأسه .. لا أنسى ما قالته زوجته استير .. كانت تقول لنا إن زوجها بعد أن يعود إلى البيت يجلس يحسب ما الذى أنفقه وما الذى كسبه .. ثم يمسك الحذاء ويضرب به كومة الفلوس التى كسبها .. إيمانا منه بأنه إذا داسها بحذائه ، فإنها لن ترتفع عن الأرض .. أى لا تهرب منه إلى جيوب الآخرين .. إنما تتكاثر فقط .. وكان يؤمن بذلك ! وإذا جلست إليه تناقشه فى القانون الدستورى الفرنسى أو البلجيكى فهو حجة فى ذلك .. ولكن هذه قضية أخرى !

ويبدو أن السيد هرارى كان يعرف هذه المتناقضات ، وأنه سمعها من الأستاذ كثيرا . فرفع السيد هرارى رأسه ونظر إلينا جميعا ، ثم قال : كنت أحكى قصتى التى تعرفها يا أستاذ .. عن بيتنا فى المحلة الكبرى .. بيت العفاريت .. وذلك بمناسبة ما نشرته الصحف اليوم عن بيت شبرا .. والله يااستاذ أنا حائر تماما فى هذا كله . فهل هذا يحدث لشخص دون شخص ؟ .. فأخى كان معى فى نفس الليلة ونفس الشقة ، ولم يسمع ولم ير ما رأيت . فكيف يكون ذلك ؟

ونظر الاستاذ إليه متسائلا : من هذه السيدة الفاضلة ؟

قال هرارى : السيدة ؟ نعم .. فاضلة ؟ نعم .. لأن جميع النساء قد سافرن وهى « اللى » فاضلة .. ها ها .. وهذه اختها .. وتلك الصغيرة ابنة زوجتى !

فضحك الاستاذ قائلا : هذه هى المرة الوحيدة التى تكون فيها يهوديا .. فأنت لم تشأ أن يكون لك أبناء من زوجتك ، حتى تهرب منها عندما تشاء :

وتحدثت الزوجة بسرعة دون أن تضحك : إنه هارب دائما ياافندم . والمجىء إلى هنا هذه فكرتى أنا . فقد جئنا لتحيتك قبل سفرنا إلى أمريكا نهائيا !

قال الاستاذ : منتهى العبط .. هل تترك بلدا قد ملأه الله بالمغفلين لتذهب إلى أمريكا ؟ .. إذا كنت لم تستطع أن تكون غنيا فى مصر فهل تكون فى أمريكا ؟ .. إن الأمريكان تلامذتكم وقد تفوقوا عليكم .. يا مولانا أنت كل يوم تؤكد لى أنك «إهانة » تمشى على قدمين .. إهانة للعقلية اليهودية !

ونهضت أسرة هرارى ، وقد اعتذر يوسف هرارى عن عدم الاستماع إلى حديث الاستاذ

الممتع . وقال إنه متجه الآن إلى الاسكندرية ليسافر بحرا إلى إيطاليا ومنها إلى أمريكا ..

وكان الأستاذ رقيقا جدا . فصافحه طويلا ، وكذلك زوجته وابنتها وأختها ، وتمنى لهم التوفيق فى حياتهم الجديدة . وطلب إليه أن يبعث بأخباره وأن ينقل تحياته إلى الخواجة ساسون والخواجة زنانيرى وأسماء أخرى لا أذكرها . وكلهم من يهود مصر . كان يعرفهم الاستاذ .

وذهب الاستاذ إلى الباب الخارجى . وعاد وقد تغير لون وجهه . واتخذ اللون الجاد العادى . واعتدل وأعاد طاقيته إلى الأمام وقال : ليست هذه هى الحادثة الوحيدة .. فهناك حوادث كثيرة من هذا النوع فى كل العصور ، مما يدل على أن هذه « الأرواح الخبيثة » بليدة غبية لم تأت بجديد .. فكل التاريخ يضيف حوادث « نمطية » .. اصوات وطوب وزلط .. وحرائق .. ولمس للأجساد البشرية . دون أن تفلح هذه الأرواح فى أن تفعل شيئا أكثر من ذلك .. لماذا ؟ لا نعرف ! ماذا تريد أن تنقل إلينا ؟ لا نعرف !

ولا أعرف لماذا كنت أتصور أن الاستاذ سوف يسحق فكرة أن هناك أرواحا ، وأنه سوف يستخدم منطقه القوى فى تبديد مثل هذه الخرافات . ولكنه لم يفعل . فالذى قاله يؤكد أن هناك عفاريت وأشباحا وأرواحا . وأن من الطبيعى أن تفعل ذلك . وإن كنا لا نعرف لماذا ؟ وأن هذه الأرواح لا تعرف أيضا . . فهى جاهلة ، ونحن أكثر جهلا . وإن كان الإنسان يحاول أن يهتدى إليها ، ولكنها لم تحاول أن تهدينا إليها .

ثم قال الاستاذ : إننى يا مولانا ، أرى أن العالم فى الأصل : ليس مادة . فهل هو نور ؟ .. هل هو طاقة ؟ هل هو روح ؟ .. إن العلوم الحديثة تحول كل المواد إلى طاقة .. إلى كهرباء .. إلى ذرة .. ثم تقيس حركتها . وإذا نحن أعدنا التفكير فى معانى الطاقة والكهرباء والموجات والضوء ، فأنت أمام معنى .. ومع تقدم العلم الحديث فسوف تكون المادة صفة من صفات ما ليس مادة .. من صفات الروح أو الفكر أو العقل أو الإحساس .. ونحن إذا نظرنا إلى حياتنا العادية .. بل إلى هذا التفكير الجماعى .. أى ونحن نفكر معا .. فما الذى بيننا ؟ .. إننى لا أضع فمى فى أذن كل واحد منكم ، ولا أنتم تفعلون نفس الشىء .. ولا أنا أضع أفكارى فى عقولكم .. إننا نفكر .. وعملية التفكير هذه ليست مادية .. والتجاوب الفكرى ليس تجاوبا ماديا .. صحيح أن لنا أجساما . ومن نشاط هذه الأجساد يكون الفكر والشعور .. أى لابد من وجود جسم إنسانى ، ليكون لنا تفكير إنسانى .. ولابد من جسم حيوانى ، ليكون هناك سلوك حيوانى .. وإن الفكر ليس له وجود مستقل بغير الجسم .. وهذا رأى بعض الفلاسفة ، ولكن أعتقد أن هذا ليس صحيحا . فقوانين المادة موجودة فى المادة . أو سابقة على وجودها .. فمثلا قوانين الجاذبية الأرضية قد عرفناها من دراسة المادة .. فأين توجد هذه القوانين ؟ .. ان قوانين الملاحة موجودة فى السفن .. وكل قوانين الطيران موجودة فى الطائرات

والقذائف والصواريخ .. هذه القوانين قد أودعها الله سبحانه وتعالى فى الكون لتنظيم الوجود والحركة .. ولم يكن الصوفيون مخطئين عندما كان الواحد منهم يقول عن نفسه : أنا الله . . والله أنا .. وهو لا يدعى الألوهية . إنما يريد أن يقول إنه جزء من الكون الذى نلمسه .. وهذا الكون هو صورة من صور الله .. أو قدرة الله . فالله فى كل ذرة مادية . . والله هو القانون وهو القدرة .. وإذا كان هذا ما نقوله فى الله ، أو فى القوانين الالهية .. فأصل كل شىء ليس ماديا . . إنه فكرة . إرادة . حكمة . قانون . غاية .. ومن يدرى ربما كانت « الروح » هذه هى « منظم » الجسم الإنسانى .. وهذه الروح تترقى مع الإنسان .. فهى موجودة فى البذرة .. وهى موجودة فى الحيوان المنوى .. وهى موجودة فى النجوم والأفلاك .. فكل شىء حى .. وكل شىء روح .. وكل شىء هو الله .

ومن أقصى اليمين فى الصالون كان المتحدث شابا معمما ، لم أكن قد لاحظت أنه هناك .. وهذا ما يحدث عادة فى صالون العقاد : فنحن لا نرى سواه ..

قال الشاب المعمم : أعوذ بالله يا أستاذ .. والله لا أعرف إن كان الذى قلته يا أستاذ هو الإيمان بعينه أو هو الإلحاد بعينه .. فإذا كان الله وراء كل مادة ، فلماذا لا يظهر لنا ؟ .. لماذا لا تظهر لنا إلا هذه الأرواح ، وهى أرواح خبيثة عادة ؟ . ألا توجد هناك أرواح طيبة ؟ . . ألا توجد ملائكة ؟ .. ألا توجد أرواح الأنبياء والأولياء ؟ .. إننى لم أسمع يا أستاذ عن روح طيبة واحدة . هل ظهور الروح مرادف للشر ؟ وهل اختفاؤها مرادف للطيبة ؟ .. وهل لهذا السبب لا يتجلى الله لأحد ؟ .. وقد تجلى لموسى عليه السلام .. ولم يظهر لأحد من الأنبياء ، حتى الرسول عليه السلام ، لم ير إلا مبعوث الله جبريل عليه السلام ..

قال له الاستاذ : يا مولانا .. لا أختلف معك . فالروح تتدرج فى وعيها ونضجها مع الجسم الذى تعيش فيه .. أو توجد به .. والهنود ، يا مولانا ، عندما تحدثوا عن تناسخ الأرواح .. كانوا يرون أن من الممكن أن تنتقل روح إنسان إلى جسم حيوان ، وعكس ذلك صحيح أيضا .. ولكن الفكرتين صحيحتان معا .. فتكون الروح جاهلة كأنها روح حيوان وذلك عند الطفل الصغير .. ثم تنضج هذه الروح مع نضج صاحبها ، فتكون عاقلة .. وتكون الروح بلا عينين ولا أذنين ولا ساقين عندما تفارق الجسد .. أى تكون روحا بلا أدوات للمشاركة الاجتماعية أو الوجدانية أو العقلية .. وأضيف إلى ذلك يا مولانا أن هناك محاولات علمية لفهم هذه الظواهر غير العلمية .. أى الظواهر التى لم نفلح بعد فى حسابها أو قياسها أو رصدها .. وإن كان علماء كبار مثل السير أوليفر لودج العالم الجليل ، قد أكد أنها صحيحة . وقد غامر بسمعته العلمية العالية .. ولا يمكن أن يكون الرجل قد قفز إلى الهاوية .. إنما هو حاول بكل ما يملك من وسائل علمية أن يبين أن تجاربه فى عالم الروح . هى مسائل إن لم تكن علمية اليوم ، فسوف تكون غدا .. كما أن العقل الإنسانى لم يهتد إلى الكهرباء وإلى الطاقة النووية إلا

بعد مئات السنين من البحث والملاحظة ، فليس مستحيلا أن يهتدى إلى أقرب الأشياء : نفسه وروحه ، بعد ألوف السنين المقبلة أيضا . فالرحلة طويلة يا مولانا .. ولا يمكن حل هذه المعضلات بسرعة . بسبب أن الإنسان قد ضاق بها . كأن ضيق الإنسان أو شعوره بالملل كاف لأن تكشف الألغاز الكونية عن نفسها لعله يستريح .. وكأن الكون من أوله لآخره « خادم » للإنسان الذى ليست له أية أهمية كونية .. إنما أهميته لدى الانسان نفسه فقط !! ها ها .. هل تعرفون أن السيد هرارى هذا ينتسب إلى مجموعة بشرية تعتقد أن الدنيا ملك لها .. وأن الله قد اختارهم .. واختارهم وحدهم بدين خاص ورب خاص . ليستولوا على العالم كله ؟ .. ألا ترون ذلك شيئا مضحكا ؟ .. وكذلك الإنسان نفسه عندما يتصور أنه سيد الكون أو سيد الأكوان .. من قال له ذلك ؟ إنه هو الذى يقول ذلك .. صحيح انه أعقل سكان الأرض . . ولكن كم فى الكون من كواكب شبيهة بالأرض .. وعليها حياة أعقل أو أعظم من التى على الأرض ؟ .. وليس مستحيلا عقليا أن يتصور سكان كل أرض ، أنهم سادة أرضهم والكون كله أيضا !

ونهض الاستاذ ليرد على التليفون .. ثم عاد ليرد عليه مرة أخرى .. ولينهض بعض الحاضرين دون أن يتمكنوا من مصافحة الاستاذ ..

ولما عاد إلى مقعده لاحظ أن جماعة خرجوا فلم يسأل عنهم . ولا ظهر عليه أنه يريد . وجاء شاب بقميص وبنطلون، وسلم وجلس، واخرج ورقة وقلما . وقال : سمعت جانبا من المناقشة يا أستاذ وأنا واقف فى الخارج .. فهل تعتقد يا استاذ أن أهم حوادث العام هى عفاريت شبرا ؟ .. صحيح ما هى أحداث العام الماضى يا أستاذ ؟ . . إننى مكلف بأن أسألك أنت وعددا من كبار الأدباء عن أهم ما حدث فى العام الماضى .. فماذا تقول يا أستاذ ؟ .. أنا آسف لأننى نقلت الحديث إلى موضوع آخر .. ولكنى صحفى تحت التمرين . وهذه أول مهمة يكلفوننى بها .. والله العظيم أقول الحق .. فأرجوك يا أستاذ ..

أحس الاستاذ أنه لا مفر . وهو رجل مجامل . وهو يقدر مثل هذه المواقف . وقد رأينا الصدق واضحا على وجه هذا الشاب الأصغر سناً منا .

ووضع الأستاذ يده على رأسه .. ثم أرجع الطاقية إلى الوراء ، ثم أعادها إلى الأمام ، وظهر يفكر بتركيز شديد فقال : ربما كان سقوط بن جوريون بعد أن سحب الكنيست الثقة به بسبب المشاكل التى تتعلق بالتربية الدينية .. ومجىء تشرشل إلى الحكم بأغلبية للمحافظين ، وفوز الديجوليين فى الجمعية الوطنية الفرنسية بأغلبية ضئيلة ، فقد حصلوا على ١١٧ مقعدا بينما الاشتراكيون حصلوا على ١٠٤ والشيوعيون على ١٠٧ والمستقلون على ٩٩ والراديكاليون على ٩٥ والجمهوريون على ٨٦ .. وكذلك من أهم الأحداث أن محكمة العدل الدولية حكمت لصالح بريطانيا ضد تأميم إيران لشركات .

البترول البريطانية .. كما أن أمريكا حاولت التوسط بين الدولتين .. وكذلك عقد صلح بين أمريكا واليابان حضره ممثلو ٤٩ دولة ، وقاطعه الاتحاد السوفيتى والدول الشيوعية الأخرى .. وأعيد انتخاب بيرون رئيسا للأرجنتين .. كما توفى أديب فرنسا أندريه جيد والزعيم العمالى أرنيست بيفن والقائد الفرنسى بيتان .. وفى عالم الفلسفة والأدب ربما كان صدور كتاب الفيلسوف سارتر عن « سيكلوجية الخيال » وأظن مسرحيته المسماة « الرجيم والرحيم » أو « الشيطان والله » . وكذلك كتاب لريمان اسمه « الجماهير المنعزلة » .. وأهم من ذلك وضع حجر الأساس « للمسرح القومى » فى لندن .. وإن شئت فأضف إلى ذلك إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ بين مصر وبريطانيا .. هل هذه إجابة كافية يا مولانا ؟ . . أو هل سيبعثون بك مرة أخرى لأن المطلوب هو أهم الأغانى والأفلام ؟ !

وقال الصحفى الصغير دون أن ينتبه إلى السخرية فى رد الاستاذ : لقد عرفت يا أستاذ أهم الافلام والأغانى والكتب التى صدرت باللغة العربية ..

ثم قفز الصحفى الصغير إلى خارج الصالون ، ليدق جرس التليفون وينهض الاستاذ للمرة الثالثة .. ويسودنا جميعا ويتغلب علينا الصمت والضيق لأن قضايا اليوم لم تتم مناقشتها كما هى العادة .. فالقضايا متناثرة .. والحديث متقطع .. والوجوه غريبة .. والصالون قد بدأ متأخرا .. وعاد الشاب المعمم يقول جادا وعصبيا بصورة واضحة : يا أستاذ .. إننى ألاحظ شيئا غريبا .. فعلى الرغم من أنك أكثر يقينا من أستاذنا طه حسين .. فأنت تسرف فى استخدام ربما ولعل .. بينما طه حسين الذى يجب أن يتشكك فى كل شىء أقل استخداما لمثل هذه الكلمات .. والحقيقة أننى لم أفهم دلالة ذلك .. دلالته النفسية .. فاليوم يا أستاذ قرأت مقالك .. والغريب فيه أنك تقول عن اكتشاف خريستوف كولمبوس لأمريكا إنه ربما كان أول مكتشف لها .. مع أننا نعلم علم اليقين أنه وحده الذى اهتدى إلى ذلك .. فإن لم يكن هو المكتشف حقا ، فلماذا لا تقول لنا ، بدلا من أن تشككنا فى معلوماتنا .. أم أن استخدام « ربما » هو عادة لم تفلح فى التخلص منها يا أستاذ .. ولعلها بقايا ما كان لديكم يا أستاذنا العظيم من الإلحاد والكفر بالله وكتبه ورسله ؟

كأن ثعبانا لدغ الأستاذ فى قفاه .. ثم عاد فلدغه فى جانبه الأيسر . ثم لدغه فى أصابع يده اليمنى التى استقرت على ساقه .. ثم قفز الثعبان فلدغنا جميعا واحدا واحدا ، وتهيأ الأستاذ بسرعة ليصعق هذا الشاب الجرىء . ولكن بنفس السرعة أمسك الأستاذ نفسه تماما ، فقد وجد الشاب أعمى ، ولكنه مع ذلك قال : الغريب ألا أكون كذلك يا مولانا .. فأنا لا أكتب إلا عن الشىء الذى تأكدت من صحته .. ولكن عندما لا أكون على يقين من شىء فإننى أصرح بذلك .. إنها عقدة الوضوح الشديد .. فأنا نشأت فى أسوان بلد النور والوضوح .. أما أخونا طه حسين فلأنه ليس على يقين من شىء ، فهذه عقدة عنده . ولذلك يسرف فى اليقين بلا سبب معقول . فإذا أنا شككت فى

شيء ، فلكثرة ما لديّ من يقين .. وهو إذا أسرف فى اليقين فلكثرة ما لديه من أمور مشكوك فيها .. ولكنى مع ذلك لا أجدنى أسرف فى استخدام « ربما » أو « لعل » أو « يجوز » .. وإذا كنت اليوم قد شككت فى أن يكون خريستوف كولمبوس قد اكتشف أمريكا فى سنة ١٤٩٢ ميلادية ، فلأن هناك كثيرين قد سبقوه إلى ذلك .. فالصينيون يؤكدون أن أحد بحارتهم قد اكتشف هذه الأرض التى عرفناها باسم أمريكا قبل الميلاد بستة وعشرين قرنا .. هذا البحار اسمه هسى .. والهنود يقولون إن فوتان اكتشفها قبل الميلاد بثمانية قرون .. ثم عاد الصينيون يقولون إن هور شون قد اكتشفها فى القرن الخامس الميلادى .. والايرلنديون يقولون إن القديس برناردان قد اهتدى إليها وسجل ذلك فى مذكراته فى القرن السادس الميلادى .. ويقال إن بحارا نرويجيا اسمه هريلفسون قد وصل إلى أمريكا فى القرن العاشر الميلادى ، ثم إن بحارا آخر نرويجيا اسمه اريكسون قد وصل أمريكا فى القرن الحادى عشر . ويقال إن أميرا من ويلز قد اكتشف أمريكا فى القرن الثانى عشر الميلادى .. بل إن الملك أبا بكر الثانى أحد ملوك مالى قد بلغ الشواطئ الأمريكية فى القرن الرابع عشر الميلادى .. ويقال إن بحارين أحدهما دنمركى واسمه سكولب والثانى برتغالى واسمه خاوريل قد اهتديا إلى أمريكا . بعد اتفاق بين الملك كريستان الأول ملك الدنمرك والملك الفونسو ملك البرتغال . فوصل هذان البحاران إلى الشواطئ الأمريكية سنة ١٤٧٦ أى قبل أن يصلها كولمبوس بستة عشر عاما .. ألا ترى يا مولانا بعد ذلك أن من الحكمة ومن الاختصار أيضا أن أستخدم كلمة « ربما » ؟ .. إننى يا مولانا لا أقول كلاما هكذا بغير حساب ..

قال أحد الحاضرين وهو طالب فى كلية الآداب قسم التاريخ ، وهو الآن عميد فى إحدى الجامعات : ولكن يقال ياأستاذ إن هتلر كان يهوديا . . هل هذا صحيح ؟.

وضحك الاستاذ وأشار ناحيتى وقال : أجب يامولانا.

فقلت : لم يكن يهوديا . ولكن اليهود ربما قالوا ذلك . . أو لأنهم يعتقدون أن كل عظيم يهودى الأصل . . ثم لأنهم يريدون أن يقولوا إن تعذيب هتلر لهم مسألة عائلية . . وإنهم قد أخطأوا فاستحقوا العقاب . . وجاء العقاب من واحد منهم . . تماما كما عاقبهم ولعنهم نبيهم ونبينا موسى عليه السلام . . ولكن إذا قال اليهود إن هتلر واحد منهم ، فهم لم يبتعدوا كثيرا عن الواقع الذى ينتظرهم . . فاليهود قد فرضوا على العالم كله أن يكرههم وأن ينبذهم وأن يتربص بهم . . وهم الذين اخترعوا العداء لهم . . وليس صحيحا مايقال من أن العالم عدو لهم ، لأنه يحقد عليهم . . إنهم قد انقسموا على أنفسهم . . دون أن يتدخل أحد بينهم . . ثم إنهم اليوم مقسمون وممزقون ، ويكفى أن ينطوى اليهود فى كل مكان على أنفسهم وعلى عاداتهم وتقاليدهم وعلاقاتهم السرية . وغريزة التجسس التى عندهم ، وعزيزة الكسب فى كل الظروف . والولاء المزدوج للدولة التى يعيشون فيها

ولدولة إسرائيل . . أو الولاء الوحيد لإسرائيل . . بينا هم يعيشون ويكسبون من الدول الأخرى ، لكى يضيق بهم الناس . . فإذا ضاقوا بهم أصبح المجتمع معسكرين : معسكر اليهود . . ومعسكر غيرهم . . وليست الأغلبية هى التى تعادى الأقلية ، ولكنها الأقلية هى التى تستفز الأغلبية لكى تدينها ، ولكى تتاجر بهذا الظلم ، ولكى تثير الشفقة عليهم . . فلم يحدث فى التاريخ كله أن باع أحد دموعه بأغلى مما فعل اليهود الذين يجمعون ألوف الملايين من فلوس الأمريكان والأوروبيين ليبعثوا بها إلى دولة اسرائيل . . والصهيونية التى هى مذهب سياسى لجميع اليهود فى أرض واحدة . . هى تشبه شركة تبحث عن رأس مال قديم ، ثم تعلم أن أكثر رأس المال قد تبدد ، وأن الذى تبقى منه يوشك أن يضيع أيضا . . وأنا مؤمن بأن الصهيونية سوف تقضى على اليهود . . فاليهود بتكوينهم متناقضون وهذا التناقض الشديد جعل حياتهم أمرا عسيرا . وجعل حياتهم مع الآخرين أصعب ، وهم لايريدون أن يعيشوا بين الشعوب الأخرى ، فإذا عاشوا انعزلوا . . وعندما قرروا أن تكون لهم دولة فقد انعزلوا مرة أخرى . . انعزلوا عن يهود العالم وانعزلوا عن العرب والدول الأخرى . . وهم غير راضين عن حياتهم التى تعيش على المعونات الأجنبية ، وغير راضين بأرضهم الضيقة القليلة الموارد ، وغير راضين على أن يكونوا فى حالة حرب مستمرة فى كل مكان . . فهم ينشرون فى الدنيا كلها أن أكثر الممتازين من بينهم . . أى أنهم الأقلية التى يحسدها الناس ، يحسدون مواهبهم العظيمة العبقرية . . ولكن لاأرى ذلك . . فأكثر المواهب ليست يهودية ، حتى المواهب اليهودية متوسطة القيمة ، ولكنهم هم الذين ينفخونها . . ثم إن اليهودى الفرنسى إذا كان عبقريا ، فليس لأنه يهودى ولكن لأنه فرنسى مثل برجسون . أو ألمانى مثل اينشتين . أو نمساوى مثل فرويد ، وغيرهم كثيرون . بهذا المعنى وعلى هذا الشرط . . ثم إنه لاتوجد حركة فى الأدب أو فى الفلسفة أو فى علم من العلوم ، سواء كانت علمية أو فوضوية ، إلا سارع اليهود بالانضمام إليها ، لأن القلق والفزع والخوف من الوقوف وحدهم ، هو الذى يجعلهم يقفون تحت أى علم . . ثم يحاولون . وحبذا لو كانت هذه الحركات معادية للمجتمع ، أى معادية للأغلبية التى تعادى اليهود ، أو يعتقد اليهود أنها تعاديهم . . حتى العلماء الكبار منهم متعصبون . . فأينشتين صاحب نظرية النسبية الذى عرضوا عليه أن يكون أول رئيس لدولتهم كان صهيونيا « متعصبا » ! والوجودية هذه .. مذهب ينادى بحرية الفرد ، ولكنه يحطم الفرد ويجعله غريزة حيوانية . . وزعيم الوجودية سارتر نصف يهودى . . ومقدمات الوجودية قد دعا إليها فلاسفة يهود من مثل أدموند هوسرل وسيمون فرانك وجان فال وغيرهم . وكذلك مارتن بوبر الاسرائيلى المتعصب . . وكثيرون من الصهاينة الذين يسجدون لله شكرا على قيام الدولة ، يسجدون لله سرا أن يهدم هذه الدولة . لأنها ضاعفت العداوة العالمية لليهود . . ويرون أن أسعد أيام اليهود هى التى ذهبت . . أيام كانوا يعيشون فى كل دولة دون أن يدرى بهم أحد . . وبعض اليهود

يرون أن إسرائيل دولة قد ولدت من تحت ، ولم تهبط من السماء مع المسيح الذى سوف يخلص اليهود من التشتت فى كل أرض . . ولذلك فقد جاءت ولادتها « مبتسرة » أى سابقة لأوانها . .

قال أحدنا : أنت يا أستاذ ضد النازية وضد الشيوعية وضد الصهيونية وضد الوجودية .

قال الأستاذ : وضد الفوضوية وضد البهائية والبوذية والسريالية . . والسبب واحد بسيط جدا ، هو : أنها تمتهن حرية الإنسان . . فالنازية هى حكم الفرد على بقية الأفراد بأنهم حيوانات . . والشيوعية إنكار للفرد وتحقير للإنسان . . والصهيونية مؤامرة عالمية على كل إنسان من أجل مجموعة من المتعصبين المتهوسين تربصوا بالعالم واستولوا بالحيلة والخديعة على كثير من وسائل المال والإعلام . . وضد الوجودية لأنها تدعى احترام حرية الإنسان ولكنها تنحط به إلى مستوى الحيوان . وضد الفوضوية لأنها تنكر منطق الأشياء ، وتمزق العلاقات الإنسانية وهى الجانب الإيجابى من الحياة الاجتماعية . . وضد البوذية لانها لاتجيب عن كل تساؤلات العقل الإنسانى ولاتريحه عندما يتساءل عن بداية ونهاية العالم ، ثم إنها لاتعرف الله والروح . وضد السريالية لأنها تشويه للذوق السليم فى الأدب والفن . وتجعل الذوق المريض هو القاعدة ، والهذيان هو المنطق ، والجنون هو العبقرية . . وضد البهائية لأنها ليست دينا أحترمه ، ولكنها « صلطة » أو « عجة » أو لخبطة صبيانية . . ولكنى لاأرفض مايقنعنى . وأنا لايقنعنى إلا الذى يريح عقلى ، ويجعلنى أطمئن على مقاييسى الفكرية ، وعلى موازينى الجمالية . . وكما أننى أرفض حكم الفرد ، فإننى أرفض أن هناك شعبا أفضل من شعب . . الجنس الجرمانى أو الآرى أو « الشعب المختار » . . إننى أومن إيمانا مطلقا بأن الشعب اليهودى هو شعب انتحارى . وأنه ليس فى حاجة إلى أن يقضى عليه أحد . ولكنه هو الذى يتكفل بذلك . . والسبب هو بناؤه النفسى والاجتماعى ، تماما وبالضبط كما قال السيد أنيس . . ارجع إلى تاريخهم فى العراق وفى مصر وفى غيرهما . . لا أمان معهم ولا أمان عندهم ، ولادخل لأحد فى ذلك . . إنهم هم — وهذا قدرهم . ومصيرهم . ونهايتهم !

ولم يعرف الفكر الصهيونى كاتبا معاديا لهم فى مصر ، مثل الأستاذ . . ولكنه ، وهو يقرر ذلك ، لم يكن فى حالة غضب أو انفعال . . إنما هو يستعرض التاريخ ويستحضر حوادثه ، ويرى ذلك بوضوح شديد . .

ثم يضحك الأستاذ وهو يتجه بخطابه إلى زميلنا المعمم : فى هذه الحالات يامولانا ، لست فى حاجة الى أن أقول ربما أو لعل . . فالتاريخ أمامنا واضح تماما . والنهاية أعنف من البداية . . ويكفى أن تقرأ ماقالوه عن أنفسهم فى التوراة ، أو ماقاله القرآن الكريم ، لتعرف ماهو مصيرهم على هذه الأرض وبين الناس . . هل تعرف السيد هرارى الذى كان هنا وسافر إلى الاسكندرية ؟ . . إن له رأيا مشابها . وهو من المؤمنين بأن أكبر غلطة وقعت فيها الصهيونية والأحزاب الدينية هى إقامة الدولة . .

فمن المستحيل أن يكون سلام بينهم وبين جيرانهم العرب . إن اليهود يرفضون السلام وسوف يرفضونه . لأنه يجردهم من أهم أسلحتهم : حقد العالم عليهم . وكراهية الشعوب لهم . والظلم الإنسانى الواقع عليهم . . فإذا جردناهم من أن يثيروا شفقة العالم فسوف يخسرون ماديا وأدبيا . وهم لايعيشون إلا على بيع دموعهم بأغلى الأسعار . .

وقاطعه أحد الشبان بصوت بالغ التأثر قائلا : أنت لاتعرف ياأستاذ معنى أن يكون الانسان يهوديا . أنت لاتدرى معنى أن تكون مكروها منبوذا بغير سبب . . وأن تساوم الدنيا كلها على أن يكون لك حق البقاء – لمجرد أنك يهودى . وأن يرفض الناس هذا الحق لمجرد سماعهم أنك يهودى . . إننى على يقين من أن نظرة كل الحاضرين هنا سوف تتغير عندما يعلمون أننى يهودى . . وأننى تخلفت لكى أسافر غدا مع أسرة هرارى ، فأنا واحد منهم . . ولكنى لم أطق أن تكون آخر الكلمات التى أسمعها من بلدى مصر هى هذه الشتيمة والإهانة للمصرى اليهودى . . إننى أفضل أن أموت هنا ، على أن أترك مصر وهذه الكلمات لاصقة فى أذنى . . ومن المؤكد أن اليهود فى كل بلد قد لحقهم نفس المصير.. لا لشىء إلا لأنهم يهود .. وأنا قد ترددت على هذه الندوة أكثر من عشرين مرة فى السنوات الأربع الأخيرة . . ولم ألق معاملة من نوع خاص ، لأن أحدا لم يعرف من أنا . . ولو قدر لى أن أبقى هنا يوما واحدا، فسوف تفسرون كل شىء تفسيرا غريبا . مع أننى كما ترون أرتدى نفس الزى ، ولى نفس الملامح . وأتكلم نفس اللغة . . ولكن يهودى ! وأنا قرأت مقالاتك عن الصهيونية العالمية . . أؤكد لك ياأستاذ أننى لم أترك أحدا لم أسأله إن كنا نحن هكذا وحوشا ضارية أوكنا هكذا سفلة بلا قيم ولاأخلاق ولادين ، وإذا كنا أقلية فى أى مكان ، فأنت تعرف سلوك الأقلية . التماسك بسبب الخوف من الأغلبية . . وإذا كان الخوف قد علمنا اللف والدوران ، وإذا كان التنقل من بلد إلى بلد علمنا ألا نشترى أرضا أو بيتا ، لأننا لانستطيع أن ننقلها معنا .. وإذا شعرنا بأننا أغنياء الدنيا ومع ذلك فلاأحد يحترمنا ، فهل غريب أن نتصور أو نتوهم أن العالم كله قد رفضنا ، وأن الله وحده هو الذى اختارنا ؟ وإذا عيرتنا الشعوب بأننا بلا أرض ، فهل تحرم علينا الشعوب أن نحلم بأى أرض ؟ . . إن الشعوب التى ليس لها مستقبل تتباهى بأن كان لها ماض . . والشعوب التى ليس لها ماض تحلم بأن يكون لها مستقبل . كالأمريكان مثلا . . وهل يمكن أن تأخذ شعبا كاملا بسبب جريمة ارتكبت من ألوف السنين ؟ . فالمسيحيون يلعنون اليهود فى صلواتهم ، لأنهم من عشرين قرنا صلبوا المسيح . . فهل لأن اليهود فى ذلك الوقت قد صلبوا المسيح . يستحق كل اليهود أن تلعنوهم فى كل العصور ؟ ! إننى لاأدافع عن حماقات يرتكبها اليهود . ولاعن مؤامرات ولا عن تخريب فى كل وقت وفى كل مكان . . إن التخريب لايصح أن أدافع عنه . . ولكن ماالذى يفعله المظلوم والمحتقر والموعود بأرض فيها عسل ولبن ، وصاحب هذا الوعد هو الرب ؟ . . قد يقال إنه لايوجد دليل على أن الرب

قد وعد بذلك . فليكن . ولكن الحرمان الطويل والظلم الأبدى ، قد جعل اليهود يحلمون ويتوهمون أن أحلامهم حقيقة . فهل هذا مخالف لطبيعة الأشياء ، أو طبيعة الإنسان ؟ . . ثم إذا اتجهت كل أفكار اليهود ومعنوياتهم إلى خراب العالم وهدمه ، فهل غريب أن يفعلوا ذلك فى عالم لم يعطهم مايستحقون ؟! .

وانتقل بسرعة زميلنا المعمم من الجلوس إلى جواره ، وجلس على مقعد آخر قريب من الباب . وتحولت كل النظرات إلى هذا الشاب . وأحسسنا أن الأستاذ قد وقع فى « مطب » ولانعرف ماالذى سوف يقوله . . ولكن قد اعتدنا على مثل هذه المواقف . . فكم من المرات هاجم الشيوعية . وبيننا شيوعيون لايعرفهم ، وكم مرة هاجم تلامذة طه حسين ، وكانوا بيننا . ولم يعتذر الأستاذ عن هجومه على مصطفى صادق الرافعى ، عندما قال : إنه أطرش الزفة ! ثم عرف بعد ذلك أن أحد زواره هو من أقارب هذا الأديب الكبير !

وفى إحدى المرات قال الأستاذ : والله إن هذه الراقصة تعجبنى . والذى يعجبنى فيها هو ماتعرضه علينا . وهى تعرض لحمها تهزه وتشده وتسحبه . . كأنه موضوع فى كيس من القماش . . فهى لاتدعى أنها فنانة . . إنما فقط أنها لحم كثير تعرضه على الذئاب الجائعة . فهى تعرف بالضبط مالديها . وتعرف بالضبط مالدى المتفرجين : أنها فريسة ثم أنهم ذئاب . . أو هى فراش وهم أناس عندهم أرق . . هى « لحاف » وهم يريدون الدفء ! وإذا برجل مصبوغ الشعر والشارب يرفع يده وقد امتلأت بالخواتم الذهبية فيقول : نصحتها كثيرا ياأفندم . . ولكن لم تسمع كلامى . . وهددتها بالطلاق فجاءت وقبلت قدمى . وتأثرت لذلك جدا . ولكننا الآن نعيش منفصلين تماما !

ولم يشأ الأستاذ أن يعلق على ذلك . إنما تركنا لدهشتنا وحيرتنا . فلم نرقبل ذلك أحدا من الوسط الفنى . ولم نفهم ماالذى اعترض عليه من كلام الأستاذ !

ومن الواضح أن الأستاذ قد تأثر بكلام هذا الشاب من أسرة هرارى . ولكن تأثر الأستاذ لم يدم طويلا . ثم انفجر ضاحكا وقال : اسمع يامولانا . أنت ماتزال صغيرا . وأهلك الكبار فى السن يعلمون أن الحل الوحيد لكل المشاكل التاريخية هو ألا يكون لكم تاريخ بعد اليوم . . لن يقتلكم أحد ، ولايستطيع ، ولكنكم سوف تقتلون أنفسكم . إن الذى فعله هتلر ليس إلا ماسوف تفعلونه بأنفسكم على فترات طويلة ! . على كل حال ليس هذا العام ولاحتى هذا القرن . . فإن الذين استطاعوا أن يتماسكوا كل هذه القرون مايزالون قادرين على البقاء قرونا أخرى . . ولكن ليست كثيرة . . !

هل حاول الأستاذ أن يمنع الشبان الموجودين من مغادرة الصالون بعد أن عرفوا أن هذا الشاب يهودى ؟ هل خرجوا اقتناعاً بما قاله الأستاذ أو خوفاً من أن يقنعهم هذا الشاب الحزين ؟ . .

أما زميلنا المعمم فكان أسبقنا إلى الخروج . . ولم يبق فى صالون العقاد إلا نحن . وفى يدنا دعوة للأستاذ أن يشهد زفاف الزميل الشيوعى والزميلة التى تأثرت كثيرا بالحياة الهندية .

إنهما الآن أسعد الأزواج . ولا أعتقد أن الذى يجمعهما هو التعادل بين الفلسفتين . . إنما هو نسيان هاتين الفلسفتين تماما . . فصديقنا الشيوعى قد أصبح غنيا بعد وفاة أبيه وعمته . . وزميلتنا هذه سعيدة تماما بابنها الأستاذ الجامعى النابه . .

ولكن النهاية جاءت غير متوقعة تماما . فقد أخرج الشاب هرارى كتابا من مظروف فى يده . وطلب الى الأستاذ أن يوقع عليه . أما الكتاب فهو « الصهيونية العالمية » . من تأليف الأستاذ . وضحك الأستاذ وأمسك قلما ، وكتب بسرعة : « أرجو أن تعود إلى مصر ، فسوف تكون أطول عمراً من الصهيونية العالمية ! » .

هاها . . هاها – إنه الأستاذ يضحك بأعلى صوته ومن كل قلبه !

حولَ الميكروفون.. ولكنها غير مذاعة !

ذلك اليوم كأنه شم النسيم ، لأن قصان الحاضرين حمراء وخضراء وزرقاء . . وكأننا فى سيرك : فقد كنا قصارا وطوالا .. وكانت شعورنا من كل لون : أسود وأصفر وأبيض . . أما ذلك الشىء الذى يتلوى وسطنا فلم يكن ثعبانا ، ولا كان ذلك الرجل الملىء بالمرح حاويا هنديا .. إن هذا الشىء الذى يتلوى هو سلك الميكروفون .. وذلك الحاوى هو الشاعر اللبنانى صلاح الأسير .. إنه رجل لطيف مرح ملىء الصوت كبير الرأس .. ويبدو أنه كان صديقا للأستاذ .. ولم أجرؤ أن أسأل الأستاذ : ما الذى سوف يجرى هنا ؟ . .

لقد تغيرت أشياء كثيرة فى صالون الأستاذ .. أول شىء : أننى أستغرب الكثير من الوجوه .. وأستغرب الكثير من العادات .فلم تعد القهوة تجىء ولا عصير الليمون .. بل إننى نسيت أيهما يجىء الأول ، ولم أحاول أن أصحح هذه المعلومات الهامة جدا فى طقوس صالون الأستاذ ، بل وجدت شيئا عجيبا .. أن سيدة قدمت للأستاذ سيجارة . أشعلتها ثم أعطتها له .. أى وضعت السيجارة فى فمها وأشعلتها وعليها بقايا أحمر الشفاه ، ولم يتردد الأستاذ لحظة فى أن يضعها بين شفتيه شاكرا .. ووجدت العيون كلها تتجه إلى شفتى الأستاذ . ولم يقل أحد شيئا . ولا حاولت أن أعرف ما الذى لم يعجبنى . ولا اتسع وقتى لأن أجد جوابا عن ذلك . انشغلت كثيرا عن أشياء كثيرة فى هذه الدنيا .. أخذتنى الحياة العملية . وسلبتنى الأستاذ .. أوقامت الحياة الجديدة بتهريبى من صالون الأستاذ إلى أماكن أخرى كثيرة .

ولم أجد عندى رغبة فى أن أسأل أحدا : ما هذا الذى نراه ؟ .. ميكروفون .. ومقاعد قد التفت حول الميكروفون ؟ . .

وقبل أن استوعب المكان والحاضرين والمعنى والتغيرات التى حدثت فى صالون الأستاذ وفى الأستاذ نفسه ، وجدنا الشاعر صلاح الأسير يقف قائلا : اليوم .. فى هذا المكان العظيم الأثر فى التاريخ .. أرى هذه الوجوه الحلوة .. وهذه العيون الجميلة . وهذا الشباب المقبل على الحياة ..

وهذا المقعد الذى كنت أجلس عليه ويهتز من تحتى .. هل كان المقعد يهتز حقا ، أو أن هذا هو شعورى ؟ .. أو هل الأستاذ العقاد قد اختار لى هذا المقعد لأظل أرتجف فى حضوره ؟ ..

وضحك الأستاذ عاليا . وكذلك بعض الحاضرين . ومضى صلاح الأسير يقول : إن كان المقصود أن أرتجف ، فإننى أرتجف قبل أن أجىء إلى هذا المكان التاريخى .. كما ترتجف إبرة البوصلة وهى تتجه نحو القطب الشمالى .. أوكما ترتجف أوراق الشجر فى مهب عواصف الحكمة والعظمة .. أوكما تهتز أجهزة اكتشاف الكذب ، عندما تضبط كاذبا .. ولكن ارتجافى الشديد أكبر دليل على أن الكذابين هنا ، بحمد الله ، أغلبية ساحقة !

وضحك الأستاذ وضحكنا . فقد كان الشاعر اللبنانى خفيف الدم ، وكانت لهجته اللبنانية غريبة على الأذن ، وفى نفس الوقت مضحكة . عاد يقول : يا أستاذنا .. إن الفرنسيين قد سبقوك إلى ذلك . فعندما أقاموا مقبرة نابليون العظيم .. جعلوا المقبرة فى مكان منخفض . وجعلوا الزوار يقفون فى شرفة عالية . فإذا أرادوا أن ينظروا إلى المقبرة كان لابد أن يحنوا رءوسهم .. احتراما لإمبراطورهم العظيم .. ولابد أنك اخترت كل المقاعد « مخلعة » ليظل الإنسان يخشى السقوط فيقع على الأرض يقبلها ، ويقبل قدميك . فإن كان هذا هو المعنى المطلوب .. فوالله ياسيدنا أفعل ذلك فورا .. ولا داعى لأن يتمزق بنطلونى من المسامير .. وأخرج إلى الناس بهذه الصورة . ولو سألنى أحد أين كنت ؟ . . فإننى سوف أصون كرامتى ، وأحمى شرفك ياأستاذ !

وخرج الحاضرون عن الهدوء والوقار ، وسقط أحد الموجودين من فوق المقعد — إلى هذه الدرجة يمكن التأثير على بعض الشبان الصغار . فقد اكتشفت وأنا أحاول أن أرده إلى مقعده ، وهو غارق فى الضحك ، أن مقعده سليم تماما !

ثم طلب الأستاذ من صلاح الأسير أن يمضى فى برنامجه ، وأشار الأستاذ إلى خادمه أن يرد هو على التليفون . ولم يكن يفعل ذلك قط . . ووقف الشاعر اللبنانى يقول : لا أعرف ما الذى أقوله أمام هذه الوجوه الحلوة ، والعيون التى توجع القلب . . إنك ياأستاذنا أعظم حظا من سقراط ، فلم تكن له تلميذات جميلات هكذا ..

وأشار إلى بعض الطالبات .. فى جانب من الصالون . . . شقراوات وذهبيات الشعر وزرق العيون .. يبدو أنهن لبنانيات أوسوريات ..

ومضى يقول : ولا كان المسيح عليه السلام .. فقد كان له حواريون من الرجال .. ربما كان القديس فرانشسكو أسعد حالا ، فقد كان له أتباع من الحيوانات والطيور . . وعند الإغريق كان رجل حلو الملامح يمسك مزمارا . . فإذا نفخ فيه فإن الطيور والحيوانات والأسماك والأطفال والأجنة فى بطون الأمهات . . تمشى وراءه مسحورة مأخوذة . . ولا شىء أتمناه فى هذه اللحظة إلا أن أكون

مثل هذا الزمار الإغريقى ، لأقفز من النافذة وأنتم جميعا ورائى . . وأريح الأستاذ من هذه الوجوه الجميلة ! ! إننى أعرف مشاعركم الطيبة نحوى . . أنتم جميعا تريدون أن تطلقوا على الرصاص ، لكى تستمتعوا بالحديث إلى الأستاذ . . أو بحديثه إليكم . ولكنى جئت من بيروت لكى أنكد عليكم عيشتكم . . وأحرمكم من هذا الرجل العظيم الذى هو حق للأمة العربية كلها وليس لمصر وحدها . . اليوم إجازة من العقل .. وإجازة من القلب أيضا . . اليوم جئت أجرى هذه التجربة : هل من الممكن أن يكون الإنسان سعيدا ولو ساعة واحدة ؟ . هل من الممكن أن يواجه الواحد منا رجلا عظيما ، وينشغل عنه تماما ؟ . . هل من الممكن أن يكون الإنسان فى ضوء الشمس ثم لا يراها . بأن يضع يديه على عينيه . . أو يخفى رأسه كله .. أو يفتح عينيه ثم يقول لنفسه : لن أرى الشمس ، ولن أشعر بوجودها ، رغم أنها هناك ؟ . . هل هذا ممكن ؟ . . أعتقد أن هذا ممكن . فأنا أتكلم منذ عشر دقائق ، لم يشعر فيها واحد منكم بأن الأستاذ موجود .. لقد نجحت . . ونجاحى هذا يدفعنى إلى أن أذهب إلى أبعد من ذلك . . ولو كنتم تعرفون اللغة الفرنسية ، لسمعتم العجب .. فمعى صديقات من لبنان قادرات على فعل السحر . . ولكن سوف نرى ما الذى يمكن عمله ..

ووقف رجل لبنانى آخر . . هل هو مطرب ؟ . . هل هو شاعر ؟ . . وطلب إلى صلاح الأسير أن يجلس ، وإنه سوف يقوم بالواجب . . وكرر كلمة الواجب هذه .. ومايزال الأستاذ يضحك سعيدا تماما .. وفجأة انتقلت سيجارة أخرى إلى شفتى الأستاذ . .

وكان الموقف كله أكثر من أن أحتمل ما فيه من غرابة وغموض . . فاتجهت إلى وجوه الحاضرين . . كان من بينهم الأستاذ طاهر الجبلاوى . . وهو من أعز أصدقاء الأستاذ . ومن أقرب الناس إليه .وقد وصفه فى كثير من كتبه . وهو رجل متوسط القامة أحمر اللون . هادئ . إذا جلس كان مشدود الظهر مرفوع الرأس . وكان طربوشه يشبه طربوش الأستاذ . وكان الضيق واضحا على وجهه . فهو لا يحب أن يحاط الأستاذ بهذا التهريج . ولكنه يعرف أن الأستاذ فى حاجة إلى أن يضحك . أو أنه مجامل إلى حد بعيد . .

وكان الأستاذ نظمى لوقا ، وهو متوسط القامة ملىء الجسم كبير الرأس . وهو من أقرب الناس إلى الأستاذ . وقد اكتسب الأستاذ نظمى لوقا الكثير من عادات الأستاذ فى الكلام . وفى حركات اليدين . وأحيانا فى الضحك . وفى السخرية عموما . وكان الأستاذ محمد خليفة التونسى .. وهو أكثر الناس هدوءا ووقارا . وله لهجة صعيدية تجعله أقرب إلى طريقة الأستاذ فى الكلام . وهو متمكن من آداب اللغة العربية . ويتذوق الشعر وينظمه أيضا . ويقيم ندوة فى بيته لتلامذة العقاد أيضا . ويكون الأستاذ العقاد – عادة – هو موضوع هذه الندوة ، فهى ملحقة بندوة العقاد ، واستمرار لها . ومحمد خليفة التونسى هو الذى ترجم « بروتوكولات حكماء صهيون » وهو ذلك الكتاب العجيب الذى يقال

إن يهود العالم قد كتبوه سرا ، وجعلوه دستورهم للاستيلاء على العالم كله . وقد قرأت هذا الكتاب . . ووجدت فى مقدمته أن كل من ترجمه قد قتلوه أو نسفوا المطبعة التى تطبعه والدار التى تنشره . وقد حصلت على نسخة من هذه « البروتوكولات » من الأستاذ محمد صبيح ، سكرتير تحرير جريدة « الأساس » . وهو حصل على هذه النسخة من صحفى ألمانى بولندى الأصل اسمه هيتريش كاستر . . وكان يطمع فى ترجمته إلى العربية ، وذلك بعد قيام دولة إسرائيل بشهور . . وظهر ملخص لهذا الكتاب فى مجلة « روزاليوسف » . وظهرت إشارات له فى الصحف المصرية والصحف العربية كلها . . وأصبح هذا الكتاب شاغلا للناس . فقد وجدوا فيه إجابة عن المفاجأة الكبرى : قيام دولة إسرائيل ، وطرد ملايين الفلسطينيين من بلادهم ، واكتشف آخرون أن هذه البروتوكولات هى التى استوحى منها الفرد روزنبرج فيلسوف النازية كتابه « أسطورة القرن العشرين » وسيادة الجنس الآرى على بقية الأجناس . فكأن الجنس الآرى هو شعب الله المختار . .

وكان صلاح طاهر له ضحكة مجلجلة . . ضحكة فاضحة – أى تفضحه أينما يكون . ويبدو أنه الوحيد الذى كان يعرف الشاعر اللبنانى . .

وجاء الأستاذ على أدهم ، وجلس قريبا من الباب . . وكانت ضحكته خافتة ، ولكنه إذا ضحك كان يهتز . وكان قصير شعر الرأس . وكان طربوشه من الممكن أن يسقط لأى اهتزاز . لأنه كان قصيرا وكان صغيرا . وكان يستقر فوق الرأس ولا ينحشر فيه الرأس .

ثم كانت مطربة معروفة قد جلست إلى جوار باب الصالون . إنها كانت هادئة وكانت مجاملة . ولكن لم ترفع عينيها عن الاستاذ . أو هكذا تصورت . ثم عرفت فيما بعد أنها لا تقوى على النظر فى كل الاتجاهات . إنما « تسرح » ولا تركز على أحد بالذات . ولو حرك أحد المقعد الذى تجلس عليه إلى ناحية اليمين ، لاتجهت عيناها ناحيتى أنا . مع أنها لا تقصدنى . وقد توهم بعضنا أنها لا ترى . ولكن وجدناها تنزل السلالم وحدها . وتقف على السلالم . وتخرج علبة السجائر ، وتشعل لنفسها ولأى واحد قريب منها ، دون أن تسأله إن كان يدخن !

وكان إلى جوارى شاب سودانى ، يدرس فى كلية الحقوق . وكان إذا ضحك وقف ثم انحنى يغطى وجهه . ويعود إلى الجلوس مرة أخرى . .

– والآن . . والآن . . والآن . .

إنه صوت الشاعر اللبنانى : والآن نبدأ البرنامج الذى اتفقنا عليه . . قل لى يا أستاذ . . الآن يتكلم أستاذنا العظيم العقاد . . إنه فى الستين من عمره . . أو أكثر قليلا . . ولكن يبدو كما لو كان قد بلغ الثلاثين مرتين . . اللهم صل على النبى . . إنه يرتدى بيجاما مخططة . . والخطوط زرقاء سماوية . . وكذلك الطاقية . . وفى قدميه شبشب بنى اللون . . وتحت البيجاما يرتدى . . والله ما أعرف . . لابد

أنه يرتدى شيئا .. لقد نسى الإغريق أن يقولوا لنا إن كان آلهتهم يمشون عراة حفاة .. أوكانوا يرتدون أفخر الثياب .. إن الأستاذ يرتدى نوعا من الملابس ، وأفضل من هذه الملابس المتواضعة . ألا يرتديها الإنسان .. ولو شاء الأستاذ أن يرتدى الحرير المذهب ، لأشار بإصبع واحدة لتجيء هذه الملابس الفاخرة من الذين يقرأون ما كتبه عن على بن أبى طالب وبنيه .. إنهم فى إيران والعراق ولبنان ينتظرون إشارة منه .. إن هؤلاء الشيعة يضعون كتبه فى المساجد .. والآن . . قل لى يا أستاذ .. الآن نحن جادون تماما . إنه سؤال واحد يجب أن ترد عليه : قل لى يا أستاذ .. من الذى تحب أن تلتقى به من كل الناس العظماء الذين خلقهم الله ؟ .. الأستاذ يتكلم .. اسمعوا .. تفضل ..

واتجهنا إلى الأستاذ الذى تغيرت ملامحه تماما . وعاد إلى الجدية التى نعرفها ، ووضع يده اليسرى على الجانب الأيسر من البطن فوق المصران الغليظ الذى يوجعه والذى مات به ، ورفع رأسه وزم شفتيه وقال : أحب أن أرى أبانا آدم عليه السلام .. وعندى له بعض الأسئلة .. وأن أرى نبينا محمدا عليه الصلاة والسلام .. وأرى عمر بن الخطاب .. وأرى فيلسوف الإغريق أرسطو .. وأرى العالم الكبير دارون صاحب نظرية التطور .. وأرى العالم الكبير نيوتن صاحب قوانين الجاذبية .. وأرى أعظم الشعراء شكسبير .. وأرى القائد العبقرى نابليون .. ولا يفوتنى أن أرى الرجل الذى أهدى لنا صلاح الأسير ..

وصفق صلاح الأسير وقال : شكرا ياسيدنا . . والله إننى لا أختلف معك فى شىء . . إلا فى الأمنية الأخيرة ، فإننى لا أحب أن أرى الرجل الذى أخطأ مرتين : بأن عاش ، وبأنه عندما عاش تزوج .. الله يرحمه والدى ! والله عيب يا أستاذ أن أقف هنا وأدير جلسة فى بيتك . . يجب أن تتكلم أنت يا أستاذ .. فأنت أدرى بتلامذتك وبماذا يفكرون . . إننى لا أعرف إلا بعضهم . . تفضل يا أستاذ ..

ووقف أحدنا واقترب من الميكروفون ، وكأن أحدا سأله ، قال : أما أنا فأحب أن أرى كارل ماركس . . ذلك العبقرى ، بل هو أعظم المفكرين السياسيين .. وهو آخر الفلاسفة العظام فى تاريخ الفكر الإنسانى . . أريد أن أجلس إليه ، وأن أطلب إليه حلا .. أن يهدينا سواء السبيل .. فإننى قرأت الكثير مما كتب . . ولم أعرف كيف يمكن أن أحل مشكلة الفقر فى مصر .. إنه يتحدث عن الفقر العالمى .. أنا لا يهمنى أن يموت الروس جوعا ، وأن يموت الأمريكان من كثرة الطعام .. وأن يموت الفرنسيون من عنف القبلات .. وأن يموت اللبنانيون من كثرة الرقص .. أنا أريد أن يدلنى على « وصفة سحرية » لعلاج الفقر المصرى .. إننا شعب فقير يا أستاذ .. وأنا أجد المتعة الكبرى فى الجلوس إليك وسماع أروع أحاديثك .. ولكنى لا أتصور كيف تمضى الساعات فى هذه الندوة ، لا ترد فيها كلمة رغيف للجياع ، وحذاء للحفاة ، ودواء للمرضى ؟ .. كيف يمكن أن ينسى الإنسان

أنه أمام بيتك يا أستاذ يوجد ثلاثة من الشحاذين ؟ . . أنا وحدى الذى أدفع لهم فى كل مرة .. وهؤلاء تلامذتك أصحاب القلوب الرقيقة أو العقول الجبارة لا يهتزون ولا يدفعون .. ولكى أكون منصفا فإنى رأيت الأستاذ نظمى لوقا قد أخرج قروشا من جيبه وأعطاها لهؤلاء الشحاذين .. وحاول إقناعهم أن يبعدوا عن بيتك .. فقط أن يبعدهم عن بيتك .. وبعد كارل ماركس أريد أن أرى كيف قامت الثورة الفرنسية .. يوما واحدا .. أرى يوما واحدا من أيام الثورة .. ولا أريد أن أسمى هذا اليوم ..

وجلس ، وأصبحت بعد ذلك الحركة تلقائية . فذهب الذى إلى جواره واتجه ناحية الميكروفون وقال : إن ما كتبه الأستاذ عن شعراء الغزل ، يجعلنى أتمنى أن أجلس إلى عمر بن أبى ربيعة . . وأجلس مع محبوبته . . فوالله لا شىء فى هذه الدنيا أجمل من أن يحب الإنسان دون أن يعرف ما الذى يحبه . إننى أحب فتاة . إننى مشدود إليها . أفكر فيها ليلا ونهارا . وأجدنى مشدودا من رموش عينى ، ومن طبلة أذنى ، ومن حبال صوتى ، ومن شرايين قلبى . . حتى أراها . . وحتى أسمعها . وأتمنى لو يختفى الناس من الدنيا فلا يبقى سوانا ..وأن تختفى الدنيا كلها فنطير معا إلى السماء ونهبط إلى القمر ونموت معا فى حضن واحد .. فليس أصدق من المحبين . وليس أكذب من السياسيين . . ورجال الدين أيضا .. إلا إذا كان الحب دينا . فهو أصدق الصدق . والرسول يقول : من أحب فكتم فعف مات شهيدا .. والله إننى ذلك الشهيد .. هل هناك شىء أعظم من أن يجد العاشق الولهان أن محبوبته أهم وأعظم من كل ما فى الدنيا ؟ .. إنه جعلها أكبر من الدنيا ، إنه جعل لحظة من لقائه بها تساوى الأبدية والخلود . إنه عابد لله عندما يفنى فى إحدى مخلوقاته .. ففى كل مرة يرى فيها محبوبته ، تكون نظراته صلوات لله يشكره على أنه خلق واحدة بهذا الجمال ، وخلق قلبا بهذا الوفاء .. إننى واحد من هؤلاء الذين لم يشغلوا تفكير الأستاذ سوى أيام .. إننى أمشى فى طابور طويل يضم هؤلاء الذين احتقرتهم الإنسانية فوصفت عشقهم بالجنون . وليس هذا إلا رد فعل للإنسانية كلها على أننا نظرنا إليها فلم نجدها .. لقد احتقرنا كل الناس إلا من نحب ، وأعدمنا كل الوجود إلا وجود من نحب .. إن الإنسانية لم تعرف عاشقا مجرما ، ولا محبا قاتلا .. إن المحبين يقتلون أنفسهم ولا يقتلون غيرهم .. إننا ضحايانا . . نحن قتلانا . . نحن عباد أنفسنا ، لأن أنفسنا هى الله .. ولأن الله هو الحب !

وصفق الشاعر صلاح الأسير ، وصفقت الفتيات الأربع واقفات .. وصفق الأستاذ أيضا ، وصفق الفنان صلاح طاهر قائلا كلمته التقليدية : مدهش .. من أروع ما يمكن ..

ثم اتجه صلاح طاهر إلى الميكروفون يقول : أروع ما سمعت هو الذى قاله الشاب المحامى حسان الشوربجى .. أروع ما سمعت .. ولا أستطيع أن أضيف شيئا .. وإذا كان لابد فإننى أقول : إن الله قد

كتب جماله وحكمته باللون والضوء .. وجعل السعادة كلها فى أن يهتدى الإنسان إلى الموسيقى اللونية ، والخطوط الأوركسترالية التى أقام بها الله عرشه .. وعرش الله ليس فى السماء .. إنما فى كل شجرة .. فى كل حشرة .. فى كل نظرة عين لعاشق ولهان .. فى كل لمسة أصبع لعباد الجمال والجلال .. إذا كان العاشق يتغنى .. فإن الرسام أيضا يتغنى بفرشاته على الورق .. أو يعزف بأصابعه على الطين والصلصال والأحجار .. ولا فن بغير حب .. ولا حب إلا لله .. والله هو هذا الكون .. هو أجمل ما فى الكون .. وكما أن هناك عيونا مفتوحة ولا ترى ، وآذانا صاغية ولا تسمع ، فإن هناك قلوبا جامدة رغم أنها تدق .. إنها لا تدق ، إنما هى « تضخ » الدم إلى العروق .. ولكن بغير إحساس جميل !

ووجدت الأستاذ يصفق أيضا ، لم أجده أسعد منه فى ذلك اليوم . . ولا حتى قبل موته بأيام ، يوم كان ممددا على سريره ونحن حوله . وهو يتكلم عن آماله فى تفسير القرآن . وعن آماله فى تأليف كتب عن « علم الجمال » الذى قرأ فيه كثيرا ، ولم يكتب عنه إلا قليلا . بينما كتب مصطفى صادق الرافعى انطباعات عن فلسفة الفن والجمال . ولم يقرأها الأستاذ . وكان الرافعى أكثر حساسية للجمال ، وكان الأستاذ أكثر فهما له . . كأن الرافعى قلب الجمال ، وكأن الأستاذ عقله . . وكان الأستاذ فى أيامه الأخيرة سعيدا . وتلفتنا لنقول فى وقت واحد : هل هى صحوة الموت ؟ .

ثم وقف واحد غاضبا حزينا ، ومسح بيده قطرات العرق على وجهه ، ثم مسح لحية لم يحلقها . ورفع بنطلونه إلى أعلى . وعاد ومسح شعر رأسه . إنها لحظة الحرج التى يحس بها الإنسان عندما يقف وسط أناس ينظرون إليه ويترقبون ما سوف يقول مختلفا عن الذين سبقوه .. ثم نظر إلى الأرض كأن ملابسه قد سقطت منه ، وبسرعة رفع بنطلونه إلى أعلى ونظر إلى الأستاذ ، وكان الأستاذ ينظر إليه . . ونظر إلى السقف واقترب من الميكروفون ورفع سلك الميكروفون – وأذهلنى ما رأيت بسرعة . لقد كان سلك الميكروفون مقطوعا . . أى لم يكن مرتبطا بأى جهاز تسجيل . . شىء غريب ! لم أفهمه . وقال : أستاذنا . . زملائى . الأخ اللبنانى الشاعر صلاح . . لا أعرف معنى لهذه « الهيصة » . . ولكن مادام الأستاذ قد وافق عليها ، فلابد أن يكون لها معنى . . وإن لم أجد لها معنى واضحا . فنحن نتكلم . . أنتم تكلمتم وجاء دورى . . هل هو امتحان الثانوية العامة ؟ . . هل هو امتحان لاختيار أحسن الممثلين أو أقدر الناس على الكذب . . على الصدق . . على ادعاء الحب وادعاء الكراهية ؟ . . لا أفهم . اعذرونى . فقد تعلمت من الأستاذ أن يكون لكل شىء معنى . ولكل شىء هدف . وأنا لم أفهم كلمة واحدة من كل الذى قاله الفنان العبقرى صلاح طاهر . . والله ولا كلمة . . ولا حرفا واحدا من كل الذين سبقونى بالكلام . . ولا كلمة . ولا يمكن أن أكون غبيًا وأنتم جميعا أذكياء ، كما أننى لست الذكى الوحيد فى الصالون . . أنا عندى مشكلة . . الأستاذ يعرفها .. ولم يتمكن الأستاذ من حلها ، وعندما تركنى أحلها بنفسى لم أستطع . ولا تزال المشكلة قائمة كما هى

أعنف وأقسى . . هل أجلس يا أستاذ ؟ . .

وأشار إليه الأستاذ قائلا : يامولانا . . أنت شتمت الجميع ، وشتمت نفسك . . بقى أن تقول لنا لماذا . أنت تشتم نفسك أنت حر . ولكن أن تشتم غيرك ، لابد أن تقول لهم لماذا . بل إنك مادمت قد شتمت نفسك أمام زملائك ، فهذه قضية . يجب أن تقول لهم : لماذا تطوعت فأهنت نفسك هكذا . لابد أن يكون هناك سبب . . إلا إذا كان من رأيك أن يفعل زملاؤك نفس الشىء .. فينهض هذا ويصفعك على قفاك ، وهذا يركلك بقدمه . . فإن قبلت ذلك ،فلا داعى لأن تتكلم . وإن لم تقبل الإهانة من أحد ، فكيف تقبلها من نفسك لنفسك ؟ . . تحدث يامولانا . . قل ما تشاء . .

واقترب من الميكروفون ، ورفع سلك الميكروفون المقطوع دون أن يلتفت أحد إلى ذلك : ياأستاذ .. إن أفكارى لا تسعفنى عندما أريد أن أعبر عن الذى أريد .. أحيانا أجد الافكار تهبط فوق دماغى مثل طائر أبى قردان ، ثم تكوى الناس بالبراز الذى تسقطه فوقهم .. وأحيانا مثل الغربان تكاثرت على فأر ميت . . ومن النادر أن تكون أفكارى مثل الحمام يحوم حول الأبراج ، ثم ينزل فى هدوء .. ولكن أفكارى معظم الوقت تكون فى حالة هبوط اضطرارى فوق دماغى .. فهى تضربنى وتسحقنى .. ولذلك لا أستطيع أن أعبر عن الذى يدور فى نفسى .. وأنت تعرفه يا أستاذ ..

ثم توقف عن الكلام ، ولكن الأستاذ بدا عليه الضيق والإشفاق فى نفس الوقت . وأحنى رأسه . ثم أشار إليه أن يكمل قائلا : ولكنك يامولانا تحسن التعبير .. أنت تضيق بكل شىء .. هذا المعنى قد أبدعت فى التعبير عنه .. ويبقى أن تقول ما الذى تضيق به .. فقط .. حاول كما حاولت فى شعرك فكان رائعا .. أجمل ماسمعت من شاعر يضيق بالشعر ، ويضيق بالجمال والموسيقى ..

قال : يا أستاذ .. لا معنى لأى شىء .. لا معنى لكل الذى سمعت .. إنهم لا يعرفون ما يقولون . . لا معنى . . لا حكمة .. لو وجدت طريقة أخرى للتعبير غير الكلام لفعلت .. إن الحيوانات والطيور والحشرات قد وجدت طرقا أخرى غير الطرق التى يستخدمها الإنسان فى التعبير عن الذى يريد .. ولكنى لا أريد شيئا . ولا أريد أن أعبر عن أى شىء . لأنه ماقيمة أن أريد ؟ ماقيمة أن أعبر ؟ . . ما قيمة أن أقول ؟ . . ماقيمة أن يسمع أحد ؟ . . أو ما قيمة أى أحد فى هذه الدنيا ؟ . . إننا نغالط أنفسنا ياأستاذ . . إننا مخلوقات لا نعرف لماذا جئنا . . ولا لماذا نحن هنا . . إلا إذا كان هناك أحد يسخر من وجودنا . . إننا موجودون للتسلية . . إننا مهزلة . . إننا أضحوكة . . وماهذه العلاقات الإنسانية إلا كالأقفاص الحديدية التى تمسك حيوانات السيرك حتى لا تهرب . . فالحب والإخلاص والوفاء والفضيلة . . كل ذلك وغيره من القيم الأخلاقية ، ليست إلا سلاسل لكى نظل معا ، لتضحك علينا السماوات والأرض . . فقط نحن أضحوكة . . نحن مهزلة . . ونحن هنا فى بيتك مهزلة ياأستاذ .. أنظر إلى الميكروفون . . إنه يوهمنا بأن كل ما نقول هو شىء مسجل لكى يذاع ، مع

أنه وهم .. الميكروفون .. ليس إلا خازوقا تجلس عليه أفكارنا .. مهزلة .. وهو أصدق تعبير لحالنا فى هذا الصالون وفى هذه الدنيا .. إنها أكذوبة علمونا أن نصدقها . وصدقناها . ونسينا أن الذى صدقناه هو أكذوبة من صنعنا .. وأننا تسترنا عليها ، تسترنا على هذه الفضيحة الكونية ، والمهزلة الأخلاقية .. وأنت ياأستاذ واحد من الذين يعرفون الحقيقة ، ثم لا يقوى على أن يصارحنا بها .. أنت تخاف أن تصدمنا . ومن هنا كانت تعاستك يا أستاذ .. أنت لست سعيدًا بنفسك ولا بأحد ياأستاذ .. كيف تكون سعيدا وأنت على يقين من أن كل ما تقول : كذب ؟ . . وكيف يسعدك أن تستخدم منطقك فى إقناع هؤلاء الشبان الطيبين بأن الذى تقول هو الصدق ؟ . . كيف يستريح ضميرك وأنت ترانا نتساقط . . وانت جعلتنا فراشا يلتف حول نورك ؟ .. إننا لا نحترق ، ولكننا نتلوى ..إن الفراش حول نورك ياأستاذ ، قد أصبح من ذوى العاهات المستديمة .. انظر إلى تلامذتك .. هل هذه وجوه سليمة ؟ .. هل هذه أجسام صحيحة ؟ .. هل هذه قلوب واعية ؟ .. هل هذه عقول مستنيرة ؟ .. إن صالونك ياأستاذ أصبح مثل متحف الشمع .. إنه أصبح مثل الحديقة اليابانية فى حلوان .. إنه مثل المتحف الزراعى .. أو المتحف الحربى –كل هؤلاء موتى إلا قليلا .. والسلام عليكم ورحمة الله .

ثم نهض بسرعة : بل لاسلام ولا رحمة ولا أى شىء آخر !

وأخرج منديله ، ومسح العرق من كل مكان فى رأسه ووجهه ويديه وذراعيه .. ولم يكن ذلك عرقا .. لقد كان جسمه يبكى بعضه على بعض ! .

وتمنيت أن يكون هذا هو الختام . لقد هزنى وأفزعنى وأحزننى . إنه أعز أصدقائى . وأكثر أفكاره هى بعض أفكارى . ولكنه كان أشجع . وأحسست أنه ليس ضحية الأستاذ ولكنه ضحيتى أنا . وتمنيت لو سقطت ميتا .. فلم أتصور لحظة واحدة أن يكون أعز أصدقائى ، جثمانا يمشى إلى جوارى .. شبح إنسان .. عقوبة مستمرة .. خطيئة حية .. إننى المجرم الذى يدور حول جريمته ، بل أعايشها . وأحرص عليها .. فأحرص على تعذيب نفسى .. ولا أعرف كيف أدير رأسه وأعيده إلى ماكان عليه قبل ذلك .. ثم إننى لا أعرف كيف كان . إنه واحد من عشرة من الأصدقاء .. شاءت أيام الدراسة أن نكون معا .. وأن يختفى الواحد تحت جلد الآخر . . فالذى كان من الإخوان المسلمين أصبح من الإخوان الشيوعيين ، والذى كان من الإخوان الشيوعيين أصبح من الإقطاعيين .. والذى عاش للحب مات فى عصابة للسطو . . والذى تغنى بالتجارة أصبح من أكبر عشاق الجمال . . والذى هاجر إلى أمريكا ، والذى مايزال يمشى فى طريقه الذى بدأه معيدا فعميدا فرئيسا للجامعة . . والذى يجلس فى الأزهر الشريف يدعو إلى سبيل الله بالموعظة الحسنة ، وكان ملحدا . . سبحان الله . . فليس الطريق واحدا لكل واحد منا . . وليس كل ما نريد هو الذى وصلنا إليه ، وليس كل ما وصلنا

إليه هو الذى توقفت عنده همومنا . . إلا هذا الصديق الكافر بكل شىء .. إنه الآن د . أسامة عبد اللطيف الشنوانى ، أحد علماء الكيمياء الحيوية فى الجامعات الأمريكية . . شىء عجيب أن يصبح المثل الأعلى فى حياته هو الوضوح الرياضى . . أى وضوح المعادلات الرياضية . . وأن تصبح العلاقات بين الناس هى التفاعلات الكيماوية . . وأن يسمى الصداقة والحب والكراهية والتضحية . . وكل المعانى فى حياتنا : كيمياء . . تفاعل مواد مع مواد بنسب مختلفة . . فكما تتفاعل المعادن والأحماض تكون العلاقات بين الناس . . وهو يرى أن أعمق الأحاديث النبوية التى تدل على عبقرية الرسول عليه الصلاة والسلام هو قوله : إن الناس معادن .. فالناس معادن إذا وضعت فى درجة حرارة واحدة اختلف أثر النار فيها ، وإذا وضعت فى أحماض مختلفة تباين أثر الاحماض فيها – ويقول فى رسالة بعث بها أخيرا : إن الإنسان ليس إلا وعاء من السوائل والأحماض والمعادن والكهرباء وأشياء غامضة أخرى .. كلها تتحرك وتتجاذب وتتنافر .. وتكون لها حرارة وكهرباء وإشعاع ! .

ولم أسترح من هذا العذاب الدائم إلا بعد أن هاجر هذا الصديق . . وإلا بعد أن عرفت أنه كان على حق . فقد كان معدننا شاءت الظروف أن تضعه فى درجات حرارية عالية ، ثم ألقى فى أحماض غريبة ، فكانت النتيجة أن أصبح إنسانا آخر .. أخيرًا جاءت براءتى من جريمة « صلبه » فكريا وتعليقه على كتفى : مسيحا يلعننى مدى الحياة !

وتلقيت خطابا من زوجته السويدية تقول فيه : أريد منك ردا سطرا واحدا . إن زوجى يدعى أنه كان يقول شعرا . وأنا أصدقه ، ولكن أريد أن أعرف منك اسم هذه الأحجار الكريمة التى كان يتغنى بها ! !

إنها لا تصدق أن لزوجها قلبا .

وتقول : إن أسماء بناتنا : فيروز وزمردة وعقيق ، أما الولد فاسمه : ذهب ! ألا ترى أنه شاعر رقيق ؟ !

وأتذكر . فى إحدى المرات ذهبنا ونحن شبان إلى أحد المساجد ، وكانت فضيحة وكارثة .. لقد اتجه صديق هذا إلى القبلة ، ثم أدار لها ظهره وحاول أن يصلى .. وبسرعة قلنا للناس : إنه يفقد قدرته على الإبصار أحيانا .. ورغم أنه مفتوح العينين ، فإنه فى حاجة إلى أن نوجهه !

وهربنا من المسجد دون صلاة !

وفى يوم ذهبت إليه فى بيته فوجدت أنه قد صنع لنفسه « مشنقة » . .ووجدته يكتب وصيته على شكل خطاب يبعث به إلى . وفى آخر الخطاب يقول : إننى على يقين من أنك سوف تلحق بى فى أسرع وقت . إلى اللقاء ! .

وفى ذلك اليوم فى صالون الأستاذ تمنيت ألا أراه .. وألا يرانى أحد ، وقد أصبحت مركزا للأرض .. فهى تدور حولى .. وكل الحاضرين .. وأعتقد أن الأستاذ أيضا قد تضايق . فكثير من أفكارنا قد بدأ بها الأستاذ حياته ، وإن كانت حياته الآن قد اختلفت ، أقصد حياته الفكرية .. أو أفكاره الحية ..

ولم ينقذنا جميعا من الدهشة والوجوم إلا الشاعر اللبنانى الذى نهض بسرعة ، وأمسك الميكروفون وأدناه من شفتيه ، كأنه ميكروفون حقيق ، وقال : أعوذ بالله من غضب الله .. لقد بدأ اليوم ربيعا تفتحت فيه الأزهار ، وأشرقت فيه الوجوه الحلوة ، ولمعت العيون الجميلة ، وانفتحت القلوب على مصراعيها .. وأحسسنا جميعا أن الدنيا لها طعم .. وأن الإنسان يستطيع أن ينسى أى شىء إذا أراد .. وأن الإنسان لا يستطيع أن يضحك وحده ، ولكن إذا وجد نفسه مع الناس .. مع الشباب .. مع الأمل .. ولكن لا أعرف أن الجو من الممكن أن ينقلب بهذه السرعة فى مصر .. إن بلدكم هو بلد الربيع الدائم .. صحيح أن هناك بعض أيام الخماسين .. ولكنها ذر للرماد فى العيون .. حتى لا يحسدكم على هذه النعمة أحد من البلاد الصحراوية الرملية ، والصحراوية الجليدية ، وبلاد الجبال بلا وديان ، وبلاد الوديان بلا شعب عظيم .. ولكن هذا ماحدث .. وكما تذهب الخماسين أرجو أن يساعدنى الله على تنقية هواء هذه الغرفة بسرعة .. فإننى لن أنام الليل إذا أحسست لحظة واحدة أننى كنت سببا فى غضب إنسان أو ضيق فنان ، أو تعاسة شاب .. إن معى صديقا سعوديا .. هو شاعر أيضا .. ولنا مشكلة واحدة : هو يتحدانى كل يوم أن أفلح فى إغضابه ، وأعترف لكم أننى حاولت ذلك ست سنوات ليلا ونهارا ، وأعلن أمامكم فشلى .. إنه لا يضحك .. ولكنه يبتسم دائما .. انظروا إليه ..

وأشار بيده إلى ركن فى الغرفة فوجدنا شابا أسمر . اسمه الأمير : ع ... وجهه هادئ . وجلسته متزنة . وعيناه واسعتان سوداوان ، وشفتاه غليظتان . وابتسامته قد ارتسمت واستقرت فى مكانها كأنها رسمت بأزميل فرعونى على تمثال لأحد الملوك ..

ولكن الأستاذ لم يشأ أن تمضى الندوة من ضحك إلى غم ثم نعود إلى الضحك مرة أخرى . إنما تحدث فى مكانه ، فقال : من علامات الشباب أنهم يمسكون جانبا واحدا من كل شىء . فالشباب متفائل أو متشائم .. وجدانى أو عقلى .. شيوعى أو مثالى .. وجودى أو فوضوى .. وبعد ذلك يتشبث بهذا الرأى . ولذلك فالشباب بتكوينهم النفسى متطرفون ، وعندما يتطرفون فإنهم يرون أن غيرهم على خطأ وأنهم على صواب . وعيب هذه النظرة الشابة أنها لا ترى كل الألوان فى اللوحة .. ولا تدرك كل الفوارق بين الألوان ، أو حتى فى اللون الواحد .. ولو أن شابا اختار من الألوان لونا واحدا وراح يرسم لوحاته من الأسود الثقيل ثم الأسود الخفيف .. ثم الأسود الأخف ، فهل يكون

قادرا على التعبير عن كل المعانى التى يراها فى وجه أى إنسان . . أو فى أية زهرة أو عصفور ؟ . . أو لو أن كل عازف للموسيقى اختار نغمة واحدة ، يرفعها ويخفضها ، فهل نجده قادرا على التعبير فيكون جميلا أو ممتعا أو يجد له مستمعا . . ولو اكتفى بآلة موسيقية واحدة ؟ . . إن من الأسهل أن يقول الإنسان : لا . . ولكن من الصعب أن يقول : نعم .. وأنا أقول للحياة : نعم .. وأقول للكون كله : نعم . . لأننى أريد أن أراه وأن أعرفه وأن أفهمه .. وأن أوظف حواسى كلها فى التعبير عنه . . ولكن مع تقدم السن ، وكثرة التجارب ، واعتدال الموازين والمقاييس فى ايدينا ، فإننا نعرف كل الألوان ، ونفاضل بينها . . كما نفاضل بين الأطعمة والروائح والملابس ، وبين الأصدقاء والأعداء .. فليس كل ما فى الدنيا : شرا وقبحا ومرضا وفقرا وكراهية . . وليس كل ما فيها : حبا وجمالا ودلالا وجلالا . . وليس إدراكا سليما للأشياء أن نفرغ الكون من كل ما فيه ومن فيه ، فلا يبقى إلا المحبوب وإلا الشجرة التى يجلس تحتها ، ومن بعيد تبدو السماء زرقاء . . لمجرد أن تكون فى الخلفية والمحبوب فى المقدمة . . فيكون المحبوب كل شىء ، ويكون كل شىء آخر لا شىء . .

ثم اتجه إلى صديق وقال : واذا كانت العين لا تصدق ماتراه ، ولا الأذن ماتسمعه . . فكل الأشياء كذب ووهم ، وكل الأصوات شوشرة أو دوشة ، وكل المعانى فارغة ، وكل تفكير هذيان . . فما هو البديل عن ذلك كله ؟ ما هو الصحيح إذا كان هذا هو الخطأ ؟ وما هو العقل إذا كان هذا هو الجنون ؟ وإذا كانت الشجرة الطويلة العريضة بما عليها من الأوراق والزهور والطيور والظلال والغابات والحدائق وهما ، فالبذرة : وهم . . والنحلة والفراشة والحمامة أوهام وخرافات طائرة . . لأنه مادام الشىء الكبير وهما ، فالشىء الصغير وهم أيضا . . والإنسان أكذوبة أو خداع حسى .. إذن فعلينا أن نثبت لأنفسنا ما هو الصحيح . . فهل أخونا هذا هو نفسه حقيقة أو خرافة ؟ . . هل تكلم فعلا . . أو لم يتكلم ؟ وإذا كان تكلم فهل يريدنا أن نفهمه . . ويريدنا أن نأخذ برأيه ؟ .. ومعنى ذلك أنه تكلم لغة مفهومة . وهى مفهومة لأن الكلمات التى استخدمها لها نفس المعنى عندنا . إذن فنحن متفقون على معانى الكلمات . وعلى أنه تكلم . وعلى أنه متحمس ، وعلى أن عنده أملا فى أن نفهم ، وإذا فهمنا أن نقف إلى جواره . إذن فليس واهما .. إنه على يقين من معانى الكلمات ، وعلى يقين من أن لدينا قدرة على الفهم ، وأن لديه قدرة على الإقناع ، وأن لديه أملا فى أن نأخذ برأيه . . إذن فهو ليس متحدثا ، إنما هو مفكر وصاحب دعوة .. وكل هذه المعانى ليست وهما . إنما هى حقيقته هو ! وهو متأكد من كل الذى قال ، كما أنه متأكد من أن ألوان ملابسه منسجمة بعضها مع بعض . فالقميص سماوى والبلوفر أزرق والبنطلون كحلى والحذاء أسود والجورب رمادى .. ومنديله الذى أخرجه عليه الحروف الأولى من اسمه ، وهى مكتوبة باللون الأزرق أيضا . . ولا يمكن أن تكون هذه الملابس قد ألقيت عليه . . إنه اختارها ، ونظر إلى نفسه فى المرآة . ثم وثق من أن المرآة

لا نكذب عليه ولا نخدعه ، وعندما استراح إلى هذه القصيدة اللونية ، خرج من بيته . . وعندما تحدث رتب أفكاره أيضا ، وجعلها منسجمة لكى تكون مقنعة .. فهو ليس بهذه الصورة التى حاول أن يصورها لنا .. إنه ليس فوضويا . . وليس « لا أدريا » – أى كالذين يقولون : لا أدرى .. لا أدرى .. إنما هو يدرى ، وله دراية فى التعبير الجميل عن المعانى القبيحة !

وسكت الأستاذ ليقول : شباب ! ! كل ما يحتاجون إليه هو الوقت !.

وقد صدقت فراسة الأستاذ . فمع الوقت أصبح صديق عالما رياضيا كيميائيا دقيقا آليا . . ميكانيكيا . . عاشقا لكل ما هو مادة .. بل إن المادة هى الصنم الذى يعبده من دون الله .. أو هى الله الذى ينحنى أمامه علماء الفيزياء والكيمياء .. ويرون أن الله خلق المادة ، ثم ألقى بها فى الماء وفى النار ونفخ عليها الهواء ، فتطورت المادة إلى حياة ، ولا تزال الحياة تتطور .

ومن اللوحات التى حملها صديق هذا من القاهرة لوحة عليها هذه الآية القرآنية : « وجعلنا من الماء كل شىء حى » . ثم كتب تحتها ترجمة إنجليزية . وهو يقول لزملائه من العلماء الأمريكان : إن هذه الآية التى أنزلها الله على رسوله محمد عليه السلام من ١٤ قرنا ، تكفى لأن تجعل أى عالم ملحد مسلما مؤمنا !

وتقدم صلاح الأسير ، وبخفة دمه قال : يا أستاذنا .. إننى لبنانى .. ولا أطيق هذا الجو الخانق .. إننا نغنى ونرقص ونشرب ونحب الحياة .. وإننى أقرب إلى الإغريق وإلى العرب فى الجاهلية ، إننى أرقص فى المعابد وأعربد أيضا .. وإذا كان بيتك هذا معبدا ، فإننى أخلع حذائى عند بابه ، ثم بعد ذلك أضعه على رأسى وأرقص .. وأكون سعيدا لو شاركنى كل الحاضرين فى رقصة دبكة لبنانية ..

وسكت . ولم نعرف بالضبط ماذا يريد . ولا الأستاذ أيضا . ونظر إلينا شاعر لبنان .. وكأن عينيه الواسعتين قد مرتا على بلاط بارد .. فلم يجد فى وجوهنا ما يشجعه على الاستمرار فى الحديث .. ثم أشار إلى إحدى الفتيات وقال : يا أستاذنا . هذا صوت جبلى من لبنان . سوف تغنى لك إحدى قصائدك .. ولا تسلنى لماذا اخترت هذه القصيدة بالذات .. ولكن سوف أقول لك عندما ينفض هذا المولد كله .. اتفضلى .. تعالى هنا ..

ووقفت فتاة بيضاء واسعة العينين .. ذهبية الشعر .. ويبدو أنها تدربت على هذه الجلسات .. أو على الغناء فى أى وقت . .. ثم عادت فجلست فى مكانها .. واتجهت إلى الأستاذ .. أما صوتها فجميل حقا . الصوت قوى . النبرات واضحة . وفى صوتها « بحة » مثيرة . . واعتدلت المطربة التى لم يشأ أن يعلن عن اسمها ، وإن كانت هى أعلنت عن جسمها عندما وقفت واستدارت وزمت حزامها وأبرزت صدرها وردفيها .. ثم رفعت رأسها وكشفت عنقها .. وعادت فكشفت كتفيها .. وأخرجت منديلا كأنه كومة من أوراق الورد .. وحاولت أن تنظر إلى وجهها فى المرآة .. وبعد أن أخرجت المرآة

أعادتها .. ولما سقطت منها سيجارة على الأرض ، امتدت الأيدى تعيدها لتقول لهم : مرسى ..
قالت من شعر الأستاذ :

أجل : تلك خباياها وهاتيك خطاياها
فهل تدرين ماذا ك الذى يدعى مزاياها؟!

* * *

ثناياها ، ثناياها وهل ذقت ثناياها ؟
وعيناها ، ويا للقلب كم تسبيه عيناها

* * *

وتلك القامة الهيفا ء زانتها زواياها
إذا ما جار ردفاها أقام الجور نهداها !

« وتلك القامة الهيفا » . . وراحت تكرر هذا البيت ، كأنها تشير إلى نفسها . . وكأنها تلفت عيوننا إلى ذلك .. وكان صوتها جميلا ، وأداؤها أجمل من قوامها ، وسعادة الأستاذ أعظم ما فى ذلك اليوم ..

ووقف الأستاذ أمام الميكروفون يقول ضاحكا : صحيح أن هذا الكلام لم يسجل على شريط . . ولكن الكلام لم يضع فى الهواء . . وأخونا صلاح لبنانى مائة فى المائة . . لم يشأ أن يفسد رغبته فى المتعة ، ويقول منذ البداية إنه لا تسجيل . إنما هى تمثيلية . . فأضحكنا .. ولا يسعنى فى نهاية هذه الندوة إلا أن أشكره على هذه الساعات البديعة . وقد استعد أخونا صلاح الأسير لكل شىء . . فهذا السلك المعلق قد أتى به لكى يلفه حول عنقه إذا أحس أنه قد ضايق أحدا . . فإنه لا يستطيع ذلك حتى لو أراد .. إنهم أهل لبنان محبون للحياة . . فيهم صلابة الجبال وسمو أشجار الأرز . . وضحكاتهم تجلجل فى الوديان وبين الصخور .. وإذا كنا نحن نقدس الموت ، فهم على خلاف معنا . . إنهم يقدسون الحياة والأحياء . . وهم أقدر منا على جعل الوهم حقيقة ، وجعل الحقيقة تمثيلا . . فهذا الميكروفون رمز للتمثيلية التى صنعها على عجل صلاح الأسير بذكاء وخفة . فكانت حقيقة . . إن لم تكن هى الحقيقة . . فحياتنا تمثيلية ، وكل واحد منا له دور . . فهذا يمثل ، وهذا يخرج ، وهذا يؤلف ، وهذا يتفرج ، وهذا يضيق بكل شىء .. فالحياة هى أن نتقبل أدوارنا ، وأن نندمج فيها ، وننسى أننا نمثل . . تماما كما نسيتم أنتم . . أما أخونا الغاضب الحزين فهو الوحيد الذى أحس أنها تمثيلية . . وهذا الذى ترنمت به الأخت كان من الأفضل أن يجىء فى البداية .. ولكن

صلاح الأسير قد قلب الأوضاع .. ثم راح يدعونا إلى الضحك .. هاها .. هاها .. شياطين هؤلاء اللبنانيون ..

وبدأ الحاضرون ينصرفون إلا بعضهم بقى فى مكانه . ولابد أن الأستاذ قد دعاهم إلى الغداء معه طعاما مسلوقا .. وتبعت الأستاذ إلى داخل الشقة لأقول له : يا أستاذ ..

– نعم يا مولانا ..

قلت : أخونا هرارى ..

– ماله ؟

– انتحر !

– لماذا ؟ لم يلحق الباخرة ؟

– لقد حاولت فى الأيام الأخيرة أن أخفف عنه . ولكن لم أستطع . فأنت صدمته تماما . فهو يهودى صهيونى . ولكنه لم يكن يتوقع أن تهدم المعبد فوق رأسه . فقد كنت أنت معبده . وكان يرى أن الذى كتبته عن الصهيونية ليس إلا غضبا على قيام الدولة ، وليس إلا تعاطفا مع ملايين اللاجئين الفلسطينيين .. ولكن ليس هذا رأيك . فلا يمكن لرجل يكره النازية ويكره الاستبداد ، أن يرضى بهذه المذابح الدموية لليهود فى ألمانيا وبولندا .. وقد وجد عبارة واحدة فى كتاب « عبقرية محمد » تكفى لأن تجعلك أعظم حاخام يهودى فى كل العصور .

قال : وما هى هذه العبارة ؟

قلت : لا أعرفها . ولكنه قالها ساعة بكائه . ولم أشأ أن أسأله أين هذه العبارة ..

قال : إلى هذه الدرجة أسىء فهم بعض ما جاء فى هذا الكتاب ؟ .. إننى على استعداد لحذفها فورا .. أو توضيحها .. ولكنه نموذج لليهودى فى كل العصور .. إنه يتعلق بعبارة .. بكلمة .. برمز .. إنه يتعلق بعصا موسى ، ليشق بها البحر من أرض الهوان إلى أرض الأمان .. ولم تكن سيناء أرض أمان ، إنما أرض ضياع أربعين عاما .. فقد تركهم الله لأنفسهم ، فاختلفوا وأضاعوا الطريق وعبدوا الذهب من دون الله .. وأنقذهم موسى ، وهداهم إلى أرض « كنعان » ومعنى كنعان أى الأرض الواطئة ، ورآها ولم يدخلها .. أدخلهم ولم يدخلها .. أو أدخلهم ولكنهم ضاقوا به أو ضاق بهم .. فافترقوا عندها .. ولكن صاحبك هذا صغير . وليس صهيونيا بدرجة كافية .. فلو كان صهيونيا حقا ما قتل نفسه .. يكفى ما فعله هتلر بهم .. إنما كان من الواجب أن يحرص على نفسه مهما كانت الظروف . وهذا ما سوف يفعلونه فى أرض فلسطين التى اغتصبوها .. ولكن هل يستطيع اليهود أن يغتصبوا أرضا وأن يعيشوا عليها دون قتال ؟ .. وإذا قاتلوا فكيف لا يموتون ؟ .. إذن فهم حين يحرصون على الحياة بالقوة ، سوف يموتون بنفس القوة .. وإذا كانوا قد شقوا طريقهم إلى فلسطين

بالحيلة ، فسوف يقون عليها بالموت ..

قلت : يا أستاذ .. إنه فعلا صغير .. وله قصيدة أحب أن تسمعها منه فى مدحك .. وقد ترجمها إلى ثلاث لغات . إنه يرى فيك نبيا من أنبياء الإنسانية .. اتسع وقتك لكل شىء ، إلا لدراسة التاريخ اليهودى .. ويرى أن هذه مشكلة كل أنبياء بنى إسرائيل .. لم يتسع وقتهم لكى يكونوا أنبياء .. كانوا بشرا وكانوا محاربين .. ولم يفكروا بدرجة كافية .. وعندما حاولوا أن يفكروا وجدوا أمامهم عشرات المذاهب الفكرية التى فرقت بنى إسرائيل فى كل العصور .. وكان يتمنى لو أنك أصدرت كتابا عن النبى موسى عليه السلام .. فهو أيضا عبقرية مصرية فرعونية .. فدينه مأخوذ من ديانة إخناتون .. وقد سمعت أن بعض الناشرين اليهود قد اتفقوا على أن يبعثوا إليك بمئات المراجع التاريخية والدينية لكى تكون تحت عينيك إذا قررت أن تؤلف كتابا عنوانه « عبقرية الكليم » – أى موسى كليم الله . وإذا شئت أن تكتب عن موسى الرسول أو موسى بن ميمون الفيلسوف . فعندهم اقتراح بأن يكون كتابك القادم « عبقرية ابن ميمون » . وسوف يترجمونه إلى عشرات اللغات فى وقت واحد ..

قال الأستاذ : سمعت هذا من أصحاب مكتبة الأنجلو .. وجاءنى صديقك لطف الله سليمان صاحب « الكاتب المصرى » . وأنت تعرف أنه قبطى مصرى وزوجته يهودية من العراق .. وهو شيوعى من أتباع تروتسكى .. والحقيقة أنه ليس مصريا ولا قبطيا ولا حتى يهوديا .. ولكنى أرفض هذه الشروط كلها .. فإنها لا تغرينى .. إنما تغرينى أن أتحدث عن المؤامرة الصهيونية العالمية لاستدراج الكتاب بالمال ووسائل النشر لكى يقولوا شيئا آخر .. أتراهم يوافقون على أن أجرد موسى الأمير الفرعونى من أصله العبرانى ؟ .. لقد فعل ذلك العالم اليهودى فرويد .. فماذا كانت النتيجة ؟ لقد لعنوه وأدانوه . ولكنهم لم يستطيعوا أن يحذفوه من تاريخهم ، لأنه شخصية عالمية عظيمة .. ولكنهم وجدوا له عذرا .. فأنت تعرف أن فرويد كان مصابا بالسرطان فى شفتيه وفى حلقه .. وأجريت له أكثر من عشرين عملية جراحية .. لقد اهتدوا إلى طبيب كذاب ، هذا الطبيب وجد تفسيرا نفسيا لاضطرابات فرويد العقلية . . ومن مظاهر هذه الاضطرابات ماكتبه عن موسى وعن ديانة التوحيد . أى انهم جعلوا فرويد مجنونا . . وبعضهم حاول أن يجد تفسيرا نفسيا للخلل العقلى عند فرويد . . لقد ادانوه بفلسفته . . وحاكموه بدستوره هو ، وأرجعوا اضطرابه الفكرى إلى عقد جنسية وفشل عاطفى .. فقد كان فرويد يحب امرأة لعوبا يهودية اسمها : سالومى . . ولكن هذه المرأة اليهودية اكتفت بعذابه هو وآخرين .. ولم تطاوعها غريزتها الشهوانية أن تقبل فا مصابا بالسرطان .. ووجد اليهود العقدة التى هى أم كل العقد عند فرويد . . ولو لم يكن فرويد يهوديا عظيما ، لأطاحوا به وأخفوا كتبه .. فهل يقبلون أن أحكى هذه القصة ، ثم ينشروها فى العالم ؟ . . لا أظن ذلك . .

فصاحبك هرارى هذا شاب صغير .. مسمار صغير فى جهاز الصهيونية العالمية العتيد .. أما إذا كان قد انتحر ، فربما لسبب آخر .. هو أنه تعهد بشىء لهم ، ثم فشل فى ذلك .. هاته غدا أتحدث إليه .. هاته ..

ثم قلت : إننا ندعوك إلى فرح غداً .

قال : أعرف .. ولكن لماذا لا يأتى العروسان إلى قبل أن يقضيا شهر العسل ؟ . .

ولم أكن قد فكرت فى ذلك . وقلت : هذا أفضل . سوف أفعل ذلك ..

وتذكرت أن الأستاذين مصطفى أمين وعلى أمين قد طلبا منى أن أسأل الأستاذ إن كان من الممكن أن يكتب مذكراته . وأسعدنى ذلك .

وقالا : إن وافق الأستاذ العقاد فاطلب إليه أن يمر علينا لنتفق معه على ذلك !

وأسعدنى أن أذهب إليه . وأن أراه يكتب مذكراته فى صحف « أخبار اليوم » . ولكن وجدت صعوبة فى أن أقول له : اذهب أنت إلى مصطفى أمين وعلى أمين ..

هو يذهب إليهما ؟ وفى نفس الوقت لم أفكر مطلقاً فى أن يذهبا هما الاثنان إليه . فاتجهت إلى الصديق عبد الرحمن صدقى أسأله النصيحة . فكان من رأيه أن أقول للأستاذ : وأنت فى طريقك إلى مكتبة الانجلو ، توقف عند أخبار اليوم ، وسوف تجد الأخوين مصطفى أمين وعلى أمين فى انتظارك .

وأعجبتنى الفكرة ، وذهبت إليه . وبسرعة قال لى : ولماذا لا يأتيان هنا ؟

قلت : سوف أخبرهما بذلك !

ولم أكن أتوقع هذا الرد . وذهب إليه مصطفى أمين وعلى أمين . واتفقا معه على ان يكتب مذكراته .. وكتبها .

وذهبت إلى هرارى . ووجدت الحزن الصادق على وجهه . . وقد قرر أن يؤجل سفره إلى ايطاليا ، رغم أنه لا يملك إلا قيصا وبنطلونا وبضعة جنيهات ، كل ذلك أقنعنى بأنه لا يمثل ولا يكذب ، ولكنه مقهور على أمره . . إلى غير حدود .

قلت له : الأستاذ يريدك غدا . يريدنا معا ..

ولكنه لم يهتز لهذه الفكرة ، مع أنه هو الذى طلب منى أن أقترح على الأستاذ هذا اللقاء . قلت : هل غيرت رأيك ؟

قال : نعم .

قلت : ماذا قررت ؟

قال : لا أريد أن أسمع الأستاذ يسترضينى . كأننى طفل . ثم يمسكنى من أذنى كأننى كلب ، أو حتى يقول لى : ياهرارى .. شبيك لبيك .. عبدك بين يديك .. إننى نادم على كل ماقلت ..

فأرجو أن تغفر لى خطيئتى .. أنتم أعظم شعب .. وأنتم أحسن الناس .. وإنه مكتوب لكم أن تملكوا الأرض ومن عليها .. إلى آخر ما يمكن أن يقوله الأستاذ . وهو لن يفعل . وأنا أرفض أن أتخيل أننى أستمع إلى شىء من ذلك .. وإذا كان أجدادى قد خرجوا من مصر .. طردوا من مصر .. فإننى أشعر أننى طردت وحدى للمرة الثانية .. ومن الذى طردنى ؟ فرعون الأدب العربى : عباس العقاد .. إننى تمنيت أمس لوكان اليهود فى العالم كلهم شخصا واحدا . وكان هذا الشخص هو : أنا .. فيلقوا هذه الإهانة مرة واحدة .. ليعرفوا أن العرب لم يقتلونا كما فعل هتلر ، ولكن بعض العرب من المصريين من الممكن أن يفعل ما هو أسوأ من هتلر ، لوكان يملك سلطة .. لوكان الأستاذ ملكا على مصر .. فرعونا على هذه البلاد .. لاحتجنا إلى ألف موسى لكى نخرج من مصر !

وذهبت الى الأستاذ فقال : لم يشأ أن يجىء معك .. إننى توقعت ذلك يا مولانا .. هل تعلم من الذى طلبنى اليوم ؟ .. إنه السيد هرارى الذى كان هنا من أسبوعين .. لقد سمع بكل ما دار بينى وبين صاحبك هذا .. إنهم هكذا متشابكون متماسكون .. وسوف يعلم كل يهود العالم بهذه القصة .. وسوف يقيمون عليها أفكارا ومذاهب ونوادر وحكايات .. وقد تؤدى هذه القصة إلى أن يرفض بائع فى البرازيل أن يبيع صندوقا من البن لواحد عربى ، دون أن يفسر له السبب .. أو يقوم واحد إسرائيلى بقتل طفل عربى وجده فى الطريق ، أما السبب فهو هذا الذى دار بينى وبين صاحبك هذا .. إننى أعرفهم جيدا ..

وعندما نهضت من مكانى وجدت الباب ينفتح ويدخل الزميل هرارى .. وقابله الأستاذ ضاحكا قائلا : كنت أتحدث عن أجدادك يا مولانا .. إنك أحسن حالا منهم .. تعال أخفف عنك قليلا .. إن المسألة ليست سهلة .. إنها معقدة .. والطريق أمام أهلك صعب جدا فى هذه المنطقة من العالم .. لابد أن تجدوا لكم حلا لكى تعرفوا طعم الأمان .. إذا كان الذهب الذى تملكونه أرضا ، فأنتم فى حاجة إلى سقف .. وإذا كان هذا الذهب سقفا ، فأنتم فى حاجة إلى أعمدة تحمل هذا السقف .. وإذا أنتم جاهرتم بأنكم سادة الشعوب ، فقد ضايقتم كل الشعوب .. وإذا قلتم إنكم مختلفون وحريصون على الاختلاف ، فأنتم الذين قسمتم الدنيا نصفين : أنتم فى جانب صغير ، والعالم الواسع الهائل فى الجانب الكبير .. أنتم عشرة ملايين ، والعالم ألفان من الملايين ! إننى أتمنى لك أن تحقق بالعقل وبالقلب ، ما عجز أجدادك عن تحقيقه فى الدنيا كلها .. إن دينك يسمح بأن يظهر واحد مثلك فى آخر العالم يهدى اليهود والبشرية كلها .. أرجو أن تكون أنت .. وأكون أنا أول من تنبأ لك بذلك .. فلا تنس نصيبى من الجنة يامولانا .. هاها .. هاها ..

ثم عاد يضحك أكثر ويقول : على فكرة ياسيد هرارى ليس فى دينكم جنة ولا نار .. هاها .. هاها ..

ولم يتكلم الزميل هرارى ، إنما مد يده وأعطى الأستاذ خطابا مقفلا .. واندفع إلى الباب دون أن يقول كلمة واحدة ..

ولما نزلت وراءه إلى الشارع . وجدته قد استقل سيارة تاكسى .. وانطلق إلى الإسكندرية .. إلى أمريكا !

وكان يمشى ورائى شاب يحمل الميكروفون المقطوع . .ولم افهم ما هذا الذى حدث فى بيت الأستاذ . .

وكنت أتلقى من الصديق هرارى رسائل تشير إلى هذه المناقشات مع الأستاذ .وأحيانا كان يقول : اعترف لك بأن الأستاذ كان على حق أحيانا ..

ولـم أعرف ما الذى قاله الأستاذ وكان على حق . . إنه لم يشأ أن يحدد لى ذلك . . ورفض أن يترك عنوانه . . ولذلك لم أعرف كيف أجيب الأستاذ عن سؤاله المتكرر : ألم يقل لك ما هى هذه العبارة التى أستحق أنا من أجلها أن أكون الحاخام الأكبر؟ !

إذا كان الزّواج مَرضًا فليس لهُ عِلاج !

كنت أول من ذهب إلى بيت الأستاذ . الباب مفتوح . دخلت وجلست . ويبدو أن أحدا لم يتنبه لدخولى . ووجدتنى وحدى . أما السبب فهو أننى مشيت على أطراف أصابعى . وجلست . ولأول مرة أجدنى أنظر إلى كل شىء فى الصالون على راحتى . وتمنيت ألا يجىء أحد . ولا حتى الأستاذ . .

أما أرض الغرفة فبلا لون . ولا أعرف إن كان الذى تتغطى به أرض الغرفة هو من السجاد القديم . . أو هو نوعا من الخشب تصلب على البلاط . . أو أنه « اتحاد عام » بين البلاط والتراب والخشب والخيش . أما المقاعد فلا لون لها أيضا . خشبها كان أصفر أوكان أبيض ، أما الآن فهو : انسحاب الألوان من الخشب ومن القماش . . والذى أراه هو بقايا الألوان أو هو مخلفات الورنيش والبوية . . وهذه الفتحات الصغيرة كانت مقرا للمسامير . . ولا تزال فى بعض هذه المسامير بقايا خيوط . . فقد علقت ببنطلونات وجاكتات الزوار . وبقيت الخيوط دليلا على ذلك . أو لكى تحذرنا عند الجلوس . . والمقاعد نفسها ليست من لون واحد أو شكل واحد . . فبعض المقاعد أصبح غائرا من كثرة الاستعمال . . وبعضها قد ضاق بالجالسين ، فانكسر تماما ، لعل أحدا يترك هذه المقاعد حتى لا يسقط من فوقها . . أما الجدران فقد كان لها لون أزرق . . وهذا واضح فى الجدار الذى لا يتعرض كثيرا للضوء . . وهو الجدار الذى يبدو من وراء الأستاذ عندما يجلس . ومن النادر أن نرى ذلك الجدار والاستاذ يتكلم . إنما نراه عندما يقف ، أو عندما يتركنا ليرد على التليفون . . ثم هذا المقعد الكبير يجلس عليه الاستاذ . . فهو ما يزال يحتفظ بألوانه . فالقماش أخضر وبنى وبعض البقع الحمراء . والخشب له لون بنى غامق . والمسامير فى أماكنها وقد دقت رءوسها فى الخشب . والمكان الذى يجلس عليه الأستاذ هو الذى انحنى تحته ، أما المكان المجاور له فما يزال مرفوعا عاليا ، وأما السقف فهو أبيض ، وكان أبيض . وبه بقع صفراء . هل هى بقايا الماء تسرب من الطابق الأعلى . . أو هو تعرى من الطبقة الجيرية ؟ أما الباب فهو رمادى اللون . والباب من لونين . الذى يبدو لنا فاتح ، والذى لا نراه غامق . والجدران عالية والسقف بعيد . أما البلكونة فهى صغيرة وبلاطها أبيض وأحمر . والنافذة من الخشب . تعلو وتهبط حسب الطلب . ولكنها دائما مرتفعة . وفى ركن من الغرفة تمثال للأستاذ . وكان الأستاذ يكرر نكتة يقولها الشاعر الألمانى هينريش هينه عن الشاعر العظيم جيته . فقد

زاره يوما فوجد شبها كبيرا بينه هو وبين تمثاله !! وكان الأستاذ يضحك . ولكن يبدو أن الأستاذ قد نسي . فليس الشاعر هينه هو الذى قال ذلك . إنما هو رجل آخر . وقد جاء ذلك فى كتاب للأستاذ عن الشاعر جيته اسمه « تذكار جيتى » – وهو يكتب جيته بالياء وليس بالهاء . وهو تذكار لأن الاستاذ قد ألف هذا الكتاب سنة ١٩٣٢ بمناسبة مرور مائة عام على وفاته !.

ولكن التمثال ليس إلا لحظة صمت للأستاذ .. ولم نر الأستاذ صامتا ، بل إننا لا نحب ذلك ..

ويدخل هذا الصالون هواء يجيء من الداخل . فكتب الأستاذ فى الناحية الأخرى من البيت . والهواء يجيء من هناك باردا . ولكن لا شيء يدخل من هذه النافذة إلا أصوات الباعة .. ونحن نعرف أصواتهم جميعا . وهم حريصون – وهذا ما نتوهمه نحن – أن ينادوا على سلعهم أمام بيت الأستاذ . مع أن هذه السلع لا يشتريها أحد . ولكنهم يريدون أن يسمعوه أصواتهم ، فهذا بائع الخيار . وذلك الذى يشترى الزجاجات الفارغة ، وينادى باللغة الايطالية فيقول « بوتيلسيا » . . . وثالث يقول « روبابيكيا » – وهى فى الأصل كلمتان إيطاليتان بمعنى الملابس القديمة : روبى فيكيا ..

ومن النوادر التى يرويها الأستاذ كثيرا عن خفة دم أولاد البلد : أن الواحد منا يذهب إلى بائع البطيخ مثلا . فيفاصله . ثم يتركه دون أن يشترى . ولا يكاد يترك البائع حتى يجده يقول : خيار « القشة » يالوبيا .. هاها .. ها ها .. أى أنه يريد أن يقول لنا : إننا لا نقدر على شراء البطيخ . إنما الذى يناسب ذوقنا ومقدرتنا المالية هو الخيار !

وشيء آخر يقوله الأستاذ وهو يتحدث عن « الأسرة المصرية » .. فيلاحظ أن البائع المتجول يضع أولاده على العربة .. وأن زوجته تمشى وراءه .. إنها أسرة متحركة . فالبيت ومكان العمل لا ينفصلان .. وهذه طبيعة مصرية صميمة ..

ويروى الأستاذ أنه رأى من النافذة رجلا ذهب يشترى بطيخا . وكان البطيخ غالى الثمن . واختلف مع البائع . وتضايق البائع . فما كان منه إلا أن ألقى البطيخة على الأرض وقال بصوت مرتفع : خذى يا بنت يا كايداهم .. جحا أولى بلحم ثوره ! هاها .. هاها ..

وكايداهم هذه هى ابنته الصغيرة التى لا تفهم شيئا مما حدث !

ومن النافذة جاء صوت محمد عبد الوهاب فى برنامج ما يطلبه المستمعون : خايف أقول اللى فى قلبى ..

وهى من أحب الأغنيات إلى أذنى ، وإلى عقلى وقلبى أيضا . لماذا ؟ هل لأننى استمعت إليها كثيرا وأنا صغير؟ هل لأننى غنيتها كثيرا فى المناسبات الاجتماعية ؟ – أنا الذى غنيتها دون أن يطلب منى أحد ذلك .. هل لأن اللحن سهل وبسيط وحزين ؟ . . هل لأن « الخوف » من أهم معالم طفولتى النفسية والاجتماعية ؟ ولم يكن خوفى ماديا أو أدبيا .. إنما كان خوفا غريزيا . فقد خفت من الذئاب ، وخفت

من الكلاب . فقد تهجم كلب مريض على واحد من إخوتى ، وفجأة لم نجد أخى ، فقد نقلوه إلى قصر العينى بالقاهرة . ولم أذهب إلى القاهرة ، ولكن بعد شهرين عاد أخى مريضا نحيفا يحكى قصة الحقن التى علقوها على الحائط أياما وأدخلوها فى بطنه .. وحكى قصة أوجعته وأوجعتنى أكثر من أى شىء آخر .. كيف إنه كان يقضى فترة النقاهة فى بيت أحد أقاربنا . وكانوا يغلقون عليه الباب لعله ينام ، ثم يتناولون عشاءهم .. حتى لا يقدموا له عشاء .. فبعث لى بخطاب يحكى هذه القصة الحزينة ، فكتبت إليه أقول : اهرب . . . وتعال ماشيا حتى لو مت فى الطريق !

ولا أظن أننى فى تلك اللحظة التى استمعت فيها إلى هذه الأغنية كنت أعرف مكان قلبى أو عقلى أو معدتى .. ولا عرفت ما الذى يدخل هنا ويخرج من هنا . فأنا مهموم جميعا ، وأنا مشغول بصورة شاملة .. وقد لاحظت أننى عندما أنام ، فإننى كثيرا ما أجد قدمى فوق المخدة . أى أننى أترك المخدة وبدلا من أن أضع عليها رأسى فإننى أضع قدمى . . هل هى الحيرة بين الرأس والقدمين . . أو أننى كنت فى ذلك الوقت لا أعرف لى رأسا من قدمين ؟ . . هل هى دراسة الفلسفة التى جعلتنى أحس أننى أمشى على رأسى . . على أفكارى .. وأن الدنيا كلها مكتوبة على الأرض ، ولكى أقرأ هذه الكتابة بوضوح يجب أن أمشى بعينى على هذه الأرض ؟ .. إن الفلسفة قد علمتنا أن كل شىء بالعقل .. وأنه لا يوجد شىء بلا سبب ، إنما كل الأسباب معقولة – ولذلك لم نر من هذه الدنيا شيئا .. لقد أغمضنا عيوننا وواجهنا كل شىء .. فلم نر بوضوح ، ولم نسمع بوضوح .

وبقى أن نعتدل .. أى أن نتمشى على الأرض بأقدامنا .. وأن نجعل رءوسنا فى الناحية الأخرى .. وقد تعلمنا فى الفلسفة أيضا أن سقراط هو الذى أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض .. أو أنه هو الذى جعل الفلاسفة ينشغلون بمشاكل الناس والحياة . ولذلك كانت فلسفة سقراط وتلميذه أفلاطون وتلميذه أرسطو : الحوار مع الناس .. مع الواقع .. أما نحن فقد استغرقتنا الفلسفة الألمانية المثالية التى تجعل الله فى قمة الكون . وتجعل الطريق إلى الله بالعقل . وتجعل السلالم إلى السماء مصنوعة من أفكارنا . وتجعل الحبال التى تربطنا بالناس هى المنطق .. أما كل شىء آخر فلا قيمة له .. ولا يصح أن تكون له قيمة ..

ولابد أن يكون هذا هو الذى بهرنا فى الأستاذ . فهو مثل النسر .. طار بعيدا جدا . ورأى ووصف . ثم عاد الينا حمامة وديعة .. ثم صار إوزة طويلة الرقبة . وأثار تراب الأرض ، ثم ضرب بمنقاره إلى أبعد من السطح .. ثم انقلب إلى نسر جارح .. إنه يتغير ويتقلب كما يشاء ، ولم يثبت على حالة واحدة . ولكنه فى كل هذه الأحوال يرى بوضوح . ويقول بوضوح . ولا شىء ولا أحد يخيفه أن يقول ما فى قلبه أو فى عقله .. وإذا كان للأستاذ قلب فليس هذا القلب إلا مكانا متواضعا جدا فى عقله الكبير .. إن قلبه مثل تمثاله ، إذا قورن بمساحة الغرفة أو مساحة البيت كله ..

هل جاء الأستاذ بسرعة عندما أحس بوجودى ؟ .. لا أظن أننى فعلت شيئا يلفت أذنه . وربما عطست بسبب تيار الهواء البارد . وعندما انتقلت من مكانى لأتوارى فى أحد الأركان ارتطمت بالمنضدة فوقعت على الأرض ..

– أهلا يا مولانا ..

– أهلا يا أستاذ ..

– منذ متى جئت ؟ .. كيف لم تنبهنى ؟ . . آه أنت انتقلت بعيدا عن التيار . . أنت من المنصورة وتخاف الهواء البارد ؟

– لأننى من المنصورة يا أستاذ . . فقد أصبت به كثيرا .. ولم أفلح فى أن أجد وسيلة للوقاية منه .. فأنا أصاب به لكى أصاب به مرة أخرى . . ولا أذكر يا أستاذ متى لم أكن مزكوما فى حياتى ..

– ها ها .. ها ها .. إن لى صديقا تزوج فى سن صغيرة جدًا . وهو يقول دائما : لا أذكر متى لم أكن متزوجا ! ولأنه كان يسافر كثيرا فكانت زوجته تلد فى غيابه .. ولذلك كان يقول : ولا أذكر متى لم تكن زوجتى حاملا ! وعندما تزوجت أولى بناته وحملت وذهبت إلى المستشفى لتلد كاد يفقد عقله ، فلم يكن يتصور آلام الحمل والولادة .. ولما طلب إليه الطبيب أن يخرج حتى تكون ابنته على راحتها وهى تصرخ ، رفض . وأخرجوه بالقوة .. وأمام باب غرفة الولادة وجد زوجته .. ولم يجد الدموع فى عينيها .. وسألها : كيف ؟ قالت له الزوجة : أنا كنت أصرخ ، مثلها ، ولكنى لم أجد أحدا يبكى إلى جوارى كما تفعل الآن . . ويقول : إنه لم يجد زوجته فى يوم من الأيام سعيدة كما كانت فى ذلك اليوم ، فقد أحست بالشماتة فى زوجها .. وقالت له فى ذلك اليوم : لم تشعر أنك أب فى يوم من الأيام ، والآن أريد أن أراك كيف تكون جدا لأول مرة ! . . . أهلا وسهلا ..

ونهض الأستاذ ، فقد بدأ يتوافد الضيوف واحدا واحدا واثنين اثنين ..

ونهض الأستاذ وهو يقول : أهلا .. يا مولانا .. أهلا يا عروسة .. مبروك .. لا والله لقد أحسنت يا عريس الاختيار.. ها ها .. وهل أحسنت أنت يا عروسة الاختيار؟

إنهما العروسان . هى زميلة تخرجت فى قسم الفلسفة وهو رجل اقتصادى شيوعى قد تغيرت أفكاره تماما فى وقت قصير.

– أهلا وسهلا .

ونهض الأستاذ . وتقدم العروسان يشيران إلى أن هذا والدها .. وهذا والده .. وبدت الدهشة على وجه الأبوين . كأنهما صدما من الصالون الصغير. لابد أنهما سمعا العجائب عن الأستاذ . ولكنهما لا يعرفان طبعا ، كيف يتحول هذا الصالون مرة إلى قاعة محاضرات ومرة إلى معمل للتجارب .. ومرة إلى غواصة فى أعماق البحر.. ومرة إلى بالون يطير فى الهواء .. إنه الأستاذ قادر

على أن يفعل بهذا المكان الصغير ما يشاء .. ولكنهما معذوران . إنهما لم يرياه ، إنما سمعا عنه .. ولا أعرف إن كان الذى قاله الأستاذ فى ذلك اليوم قد « صدمها » صدمة عنيفة - أعتقد أنه فعل ذلك بمنتهى العنف .

- أهلا يا مولانا . ماذا جرى لك أمس ؟ .. لقد انشغلت عليك !

ونهض الأستاذ . وجاء زميل شاحب الوجه . فقال . أحسست يا أستاذ بآلام شديدة فى بطنى . وقىء وإسهال . واستدعيت طبيبا . ولم أسترح إلى الدواء . ولكنى أخذت قرصا منوما .

قال الأستاذ : لابد أنك تناولت العشاء فى بيت حماتك .. إنها غلطة تكتيكية . كيف تتشاجر مع ابنتها . ثم تذهب إليها برجليك وتأمن إلى طعامها ؟ .. ها ها .. ها ها .. لاتصدق أن الأم من الممكن أن تختلف مع ابنتها كثيرا وتقف معك ضدها .. هذا يحدث بعض الوقت . إرضاء لك فقط .. ولكنهما امرأتان . وهذه قصة رجل بين امرأتين .. بل من الممكن أن تتفق حماتك مع زوجتك على هذا الموقف .. وقد تدعوك الحماة إلى أن تقسو على زوجتك ، لأنها لا تستطيع أن تعاقبها ولا أن تضربها بيدها . فتضربها بيدك ، وتقسو عليها عن طريقك .. فوقعت أنت فى هذه المصيدة .. وكنت الضحية .. ولكن لابد أن تسأل من الذى وضع لك السم فى الطعام .. أهى حماتك أم هى زوجتك ؟ .. ها ها .. ها ها .. ماذا أخذت من العقاقير يا مولانا ؟ ..

وتحدث الزميل عن الأقراص والشراب الذى تناوله ثلاث مرات فى اليوم . ولكن الأستاذ قال غاضبا : من هذا الحمار الذى قرر لك هذه الأدوية .. يا مولانا إن هذا الدواء يلهب جدران المعدة . فإذا ألهبها فإنها ترفض الطعام .. وهذا السائل إذا دخل الأمعاء فإنه يقتل ما فيها من بكتريا ، ثم إنه لا يمتص الغازات ولكن يطلقها .. وبذلك تلتهب جدران المعدة ، وتتعرض أكثر للأحماض القوية التى بها .. فيكون عندك « حرقان » . .

ويقول الزميل : هذا ما حدث يا أستاذ ..

ويعود الأستاذ : ويكون عندك مغص بسبب التخمرات الكثيرة فى الأمعاء وبسبب الانتفاخ مما يؤدى إلى ضيق النفس وإلى العرق .. وإلى عجزك عن النوم على أى من جانبيك ، مما يضطرك إلى استخدام المنوم ..

ويقول الزميل : هذا ما حدث يا أستاذ ..

وعاد الأستاذ ليقول : وإذا كانت حالتك عصبية ، فإن الاضطراب العصبى يشبه النار أو الكهرباء التى لابد منها فى التفاعلات الكيماوية .. وشاعرنا ابن الرومى هو أول من وصف الأحوال النفسية بأنها « كيمياء » - وهذه عبقرية فذة من الشاعر القديم .. هل معك ورقة وقلم يا مولانا ؟ .. أريد أن أكتب علاجا فى كلمة واحدة ..

وتسابقت الأيدى تقدم للأستاذ ورقا وقلما .. وكانت هذه أول مرة نرى فيها الأستاذ يمسك ورقة وقلما . وقد وضع الورقة فى باطن الكف .. ثم رفع رأسه إلى أعلى ليرى بوضوح ما سوف يكتبه .. إذن فالاستاذ عنده « طول نظر » .. ولا يقرأ إلا بمنظار .. ثم إنه كان يمسك القلم مائلا بين أصابعه كأنه يكتب ببطن القلم وليس بسن القلم ..

وتقدم الزميل يأخذ الورقة ، وقال له الأستاذ : ثلاث مرات يوميا !

وبدت الدهشة على وجه الزميل . ولم يشأ أن يقول شيئا ، فطلب إليه الأستاذ أن يقرأ ما فى الورقة . فقال : برسيم !

وضحك الأستاذ . وضحك بعضنا دون أن يفهم . وقال الأستاذ : هذه ليست لك يا مولانا .. إنها للطبيب ! ها ها .. ها ها !

ووجدت والدى العروسين يضحكان وينظران إلينا . ولكن لم يبهرهما الأستاذ . فقد تحدث كثيرا عن الزواج وعن الحموات ..

– أهلا وسهلا .. ما الذى أدخلك فى هذه المشكلة يا مولانا ؟

وكان القادم واحدا من الصحفيين من تلامذة الأستاذ .. وكان ينحنى أكثر منا عند السلام على الأستاذ .. فقال : أنت يا أستاذ .. أنت هاجمت النحاس باشا .. وأنا عندى ثأر قديم . فانتهزت الفرصة ! صحيح أنت أطلقت عليه الرصاص ، ولكننى اكتفيت بأن رميته بحجر ، كما قال السيد المسيح عندما استنكر أهل القدس أن يروا مريم المجدلية تمشى وراء السيد المسيح ، فقال يومها : فليرمها بحجر من كان منكم بلا خطيئة .. والكتاب المقدس يقول لنا إن أحدا لم يجرؤ أن يرميها بحجر ، لأن الناس جميعا غارقون فى الخطايا .. ولكنى رميته بحجر لأنه هو الغارق فى الخطأ والخطيئة ..

فقال : هذا الرجل العبيط ..

وتوقف الأستاذ، فقد لاحظ أن أحدا لم يدرك من هو هذا الرجل ..

فقال الزميل : النحاس باشا ..

استأنف الأستاذ : أنا اعترضت عليه عندما تزوج فتاة جميلة أصغر منه بعشرين عاما . وأنا اعترضت على ذلك لأسباب قومية ، فهو شخصية عامة . وحياته كلها تهم الناس . وتهم الناس لأن لها أثرا على حياة الناس .. فإن كان مقامرا فقد تدفعه المقامرة إلى الاستدانة أو السرقة .. والذى يعطيه المال هو القادر على أن يتحكم فيه .. وإن كان يقامر بفلوسه وفلوس غيره ، فقد يقامر بمستقبله هو وبمستقبل مصر .. وإذا هو تزوج فتاة صغيرة ، فإن هذه الفتاة الصغيرة من الممكن أن تلعب به ، وتلعب بالسياسة . ومن الممكن أن يتسلل إلى حياتها أو قلبها شباب الحزب أو شبان السياسة .. فإذا تسللوا إلى قلبها ، فسوف يتحكمون فيها ، وسوف تتحكم هى فى زوجها الشيخ الكبير .. وبذلك تكون

هى التى تملك وهى التى تحكم . ولم يكن اعتراضى على ذلك لسبب شخصى إنما لسبب عام . والجهلة هم الذين قالوا : ماشأنى .. إنه حر ! .. لا بل هذا شأن كل مواطن .. وهو حر ف أن يفعل بنفسه ما يشاء ، ولكن ليس حرا أن يفعل بنا ما يشاء .. وإذا خرج من الحكم وتزوج فهو حر .. والحزب يجب أن يؤاخذه .. ولكن إذا جاء إلى الحكم لم يعد حرا .. وفى التاريخ أمثلة لهذا الانحراف وسوء تقدير الأمور . فبعد الحرب العالمية الثانية انكشفت قصة غرام أيزنهاور بفتاة بريطانية كانت تقود سيارته الجيب اثناء المعارك . وكان من الممكن ان تحطم حياته السياسية ، لولا انه احتمى فى « بطولته » للحرب العالمية الثانية .. والرئيس ترومان فضحته قصة للممثلة لورين باكال التى ظهرت لها صور كبيرة وقد جلست فوق البيانو وكان يعزف لها ، ولم يرفع عينيه عن ساقيها .. لولا أن إحدى خادمات البيت الأبيض أكدت أنه عاشق لزوجته بدليل انه فى احدى الليالى قد سقط من تحتهما السرير .. ولم يكن ذلك بسبب شجار بينهما .. فقد لاحظت الخادمة انها عندما اتت لها بطعام الافطار وجدت زجاجتى شمبانيا فارغتين .. والرئيس الامريكى بوكانان كان الأعزب الوحيد . ولكن كانت له قصة حزينة . أحب فتاة . ورفض أهلها ان يتزوجها . وانتحرت الفتاة . ومنعوه من السير فى جنازتها . وكان أسفه عليها عظيما .. وكان اثر هذا الحزن قوياً فى كثير من قراراته الاجتماعية .. والرئيس رذرفورد هيز كان يحب أخته .. وهو الحب الوحيد فى حياتها . وعندما تزوج كانت أخته تعيش معه . وعندما تزوجت اخته اعترفت بأنه كان الرجل الوحيد فى حياتها !! ولحسن حظه ماتت هذه الاخت قبل أن يصبح رئيساً لأمريكا بوقت طويل .. وانتم تعلمون ان هتلر احب ابنة اخته .. ثم قتلها عندما تحدثت عن هذه العلاقة .. اما الرئيس الامريكى هاردنتج فهو اعجوبة الكائنات البشرية .. وهو يستحق دراسة علماء النفس والاجتماع ووظائف الأعضاء ، فقد كان مسرفاً فى الجنس . وكانت الى جوار مكتبه غرفة مظلمة خانقة قذرة . وكان يلتقى فيها بمعشوقة له . تصغره عشرين عاماً . وكان يقضى معها دقائق قبل اجتماعه بالوزراء او المستشارين . ولم تكن تفزعه الحالة الاقتصادية للبلاد ، بقدر ان تعرف زوجته هذه العلاقة .. اما الرئيس الامريكى جورج واشنطون فقد تزوج . ولكنه كان يفضل الشبان .. اما الرئيس جيفرسون فقد انجب ١٤ طفلا .. ولابد ان يكون لهذه الزيجات أثرها فى حياة الرئيس والزعيم الذى هو قدوة الناس فى الرأى والقرار والتضحية .. والذى اختارته عناية الله ان ينفذ ارادة الله فى مخلوقات الله .. ومن المؤكد أن هذا « الرجل العبيط » قد ضحكوا عليه .. وأنتم تعرفون النكت التى أطلقها المصريون على هذا الزواج .. وهى أصدق حكما من كل المقالات التى ناقشت هذا الموضوع من قريب أو من بعيد ..

وأعتقد أن والدى العروسين قد انشغلا كثيرا بما يقوله الأستاذ . وكذلك العروسان . وعاد الأستاذ يقول : إن فى التاريخ نماذج عكس ذلك .. فهناك من تزوج من هى أكبر منه سنا .. وكان ذلك

سببا فى التوازن العائلى .. وكان ذلك دليلا على احترام المرأة بغض النظر عن سنها .. بل كان ذلك دليلا على أن الرجل قد اختار « الشخصية » ولم يختر « الأنثى » .. مثلا : كانت الملكة كاترين أكبر من زوجها هنرى الثامن بست سنوات .. وكانت الملكة مارى الأولى التى يسمونها « مريم الدموية » بلودى مارى » أكبر من زوجها فيليب الثانى ملك أسبانيا بإحدى عشرة سنة .. وكانت مارى ملكة اسكتلندا أكبر من زوجها فرنسوا الثانى ملك فرنسا ، بست سنوات .. والسيدة آن هيثواى أكبر من زوجها الشاعر العظيم شكسبير بسبع سنوات .. وكانت جوزفين أكبر من نابليون بست سنوات .. ومارى لويس أكبر من زوجها السياسى العتيد دزرائيلى باثنى عشر عاما . . والراقصة ايزادوره دنكان أكبر من زوجها إيسنين بعشرين عاما .. وكانت السيدة فريدة فون ريشتهوفن أكبر من زوجها الأديب ر .هـ. لورانس بست سنوات .. ها ها .. ها ها .. صحيح لا يهم كم تكون سن هذه السيدة فريدة ، فزوجها لا تهمه المرأة لأنه مصاب بالشذوذ الجنسى !

وجاء الخادم يطلب الأستاذ ليرد على مكالمة تليفونية .. وخرج الأستاذ . ولا أظن أننى قادر على وصف الآثار الموجعة لهذا الحديث على وجه العروسين أو وجه والديهما ، ولا أظن أن العروسين قد استمتعا بهذا الحديث . فقد جاءوا للتحية . وقد أتى العروسان بوالديهما ليريا الأستاذ ويجلسا إليه . ويكون ذلك مشاركة منهما فى الإعجاب بالأستاذ .. ولا أظن أن الوالدين قد اعجبتهما هيئة الأستاذ : أى الأستاذ بملابسه البسيطة .. وهؤلاء الطلبة الصغار قد جلسوا حوله .. وهو يقوم ويجلس تحية لأى واحد .. وتبدو البيجاما مكسرة .. وأحيانا تستغرقه المناقشة فتبدو يده وقد دخلت فى ملابسه تضغط على جانب من البطن .. ولابد أنهما كأبوين مشغولين بأثاث بيت العروسين ، قد نظرا إلى أثاث بيت الأستاذ . ولابد أنهما خشيا ألا يتمسك العروسان بأثاث جيد ، أو أثاث أفضل من أثاث هذا البيت . . ولابد أن الأبوين قد لاحظا أن الحاضرين جميعا من الناس العاديين ، من أبناء الطبقة الفقيرة أو المتوسطة .. ولذلك فهم معذورون إذا رأوا بيت الاستاذ قصرًا عظيمًا ! . ولا كذلك يراه هذان الأبوان . . ولا كذلك يحبان للعروسين بيتا متداعى السقف باهت الجدران متآكل الأرض مخلوع المقاعد . . ولا أن يكون العروسان بلا عمل مثل الأستاذ .. ثم إنه ليس متزوجا ولابد أنه يدعو إلى عدم الزواج . ولابد أنهما يحمدان الله كيف أفلت العروسان من نظرية الأستاذ التى تقول : أفضل للإنسان أن يموت فى الهواء الطلق ، على أن يختنق وراء الجدران .

ولا أظن أننى سمعت منه هذه العبارة أو قرأتها فى أى من كتب الأستاذ . ولكن والد العروس أكد لنا أثناء غياب الأستاذ أنه قرأ هذه العبارة . وسألنا إن كنا نحن أيضا قد قررنا أن نموت من البرد ، على أن نموت من شدة حرارة الحياة الزوجية !

ولم يكد الأستاذ يعود حتى استأذن الأبوان . وقال أحدهما : شرف عظيم يا أستاذ ، ونحن نرى أن

العروسين سعيدان اليوم وكل يوم بالجلوس معك .. وقد جئنا نتشرف بالمعرفة يا أستاذ .. سلام عليكم ..

وخرجا . ولم يكد الأستاذ يقول : وأنت يا مولانا .. (يشير إلى زميلنا الصحفى) ما الذى كتبته اليوم عن زواج هذا « الرجل العبيط » ؟ .. نسيت ان أسألك .. أنت لم تحفظ الدرس جيدا .. أنت خلطت تماما بين كل المعانى .. أهلا وسهلا ..

قالها طويلة رقيقة .. واتجهنا بعيوننا إلى الباب .. إنها سيدة .. وقال أحد الحاضرين .. إنها ممثلة معروفة .. ولم أكن أعرف ذلك .. فأنا حتى ذلك الوقت لم أشاهد فى حياتى إلا فيلما واحدا هو « غراميات كارمن » بطولة ريتا هيوارث وجلين فورد عن قصة الأديب الفرنسى ميريميه ..

لقد صافحت الأستاذ ثم قبلته على خده الأيسر أو الأيمن ، ثم عادت فقبلته على الخد الآخر .. وقالت : تسمح ؟ ..

وجلست إلى جواره . رغم أننا جميعا أفسحنا لها مكانا .. بل إن واحدا منا قد ترك لها مقعده .. وخرج ليأتى بمقعد من الصالة .. وتهامس الزملاء وقالوا : ممثلة ..

من الممكن أن تكون ممثلة .. لم أرفع عينى عنها .. فقد كانت قبلتها للأستاذ طويلة مرتين وأمامنا .. وقد أعطت الأستاذ بعض ألوان شفتيها وخديها : احمر وجهه .. وأعطت عينيه لمعان الماس فى أصابعها .. وارتفعت رقبة الأستاذ كأنما يبحث عن مرآة ليرى وجهه .. وخلع الطاقية ووضعها فى جيبه .. وبدت جبهته العالية .. وشعره الرمادى .. وقطرات العرق . إذن لقد أحس الأستاذ بحرارة مفاجئة رغم أن الهواء بارد يندفع من الداخل إلى الخارج .. وكأن الأستاذ خشى أن يذهب به التغيير الواضح لنا ، إلى أبعد مما كان يقول ، فعاد إلى حديثه . ونظر إلى زميلنا الصحفى قائلا : انى لم أقل هذا الذى نقلته عنى .. يا مولانا نحن نفرق بين العشق والغزل ..

وضحكت الممثلة ، كأنها تعرف هذه القضية أو كأنها سمعت ذلك من قبل . أو أنها تتوقع هجوما على المرأة . ولكنها على يقين من أن هذا الهجوم سوف يكون أقل حدة ، بسبب وجودها بيننا وإلى جواره .. وبسبب أنها قبلت خديه .. فإن لم تكن هذه القبلات ضغطا جميلا ، فهى عينة أو هى رشوة .. أو هى وعد بما هو أكثر من ذلك ..

وجاء الخادم مرة أخرى . وبدا على وجه الأستاذ أنه لا يريد أن يرد على التليفون ، ولكن إلحاحا صامتا من الخادم ، أكد له أن من الضرورى أن يرد على هذه الشخصية الكبيرة . ولابد أنها كبيرة لأن الأستاذ قد انتزع نفسه من المقعد وذهب مسرعا .

والآن أستطيع أن أنظر إلى هذه الممثلة : جميلة .. الوجه بيضاوى أسمر .. والعينان سوداوان واسعتان .. والشفتان مليئتان منفرجتان .. وحول عنقها عقد أزرق وحباته درجات لونيه : أزرق قاتم

وأزرق فاتح .. ويتعلق وسط هذا العقد قلب أحمر فى إطار من ذهب .. وعنقها طويل مرفوع .. وأذناها صغيرتان .. وقد سحبت شعرها إلى الوراء ، ليبدو القرط وقد رسم حرف « ع » .. هل هو الحرف الأول من اسم الأستاذ .. أو رقم (٤) ؟ .. لا أعرف .. ولكن يبدو كما لو كان حرفا .. وفستانها أزرق وله حزام أبيض .. والفستان طويل .. وهى لم تشأ أن تضع ساقا على ساق .. إنما جعلت ساقيها مضمومتين .. وأخرجت مرآتها .. ونظرت وأدارتها لترى جانبي الوجه وكحل العينين .. ولم تجد ما يستحق أن تسويه .. فكل شيء فى مكانه أو فى ألوانه .. ولم تنظر إلى واحد منا فى وجهه... إنما بسرعة اكتسحت الحاضرين ونهضت واقفة : أهلا أهلا .. أنت مالك ؟..

وكان ذلك زميلنا المريض ..

وقالت : والله لم أعرفك .. أنا آسفة جدا .. سلامتك .. الأستاذ قال لى إنك مريض ، وقال إنها حماتك ..

إنها صديقة للأستاذ . وهذا الزميل يعرف هذه العلاقة . ونحن لم نرها قبل ذلك فى الصالون . إذن فالتليفون بينهما . أو أنهما يلتقيان فى غير يوم الجمعة . أو فى غير هذا البيت ..

وبسرعة نظرت إلى العروسين . وقالت : عروسان ؟

فجاءت أصواتنا تقول : نعم .

– ألف مبروك .. العريس وسيم ، والعروس جميلة .. ألف مبروك .. حياة سعيدة إن شاء الله .

– شكرا ..

وقال المريض : لم يبق إلا أن نفرح بك أنت !

قالت : تفرح « بى » أو تفرح « فى » ها ها .. والله الزواج قسمة ونصيب .. ولا أظن أنى أفكر فى الزواج الآن .. ما يزال أمامى طريق طويل .. أنت تعرف .. حياتنا .. وأنت تعرف المتزوجات كيف كانت صعوبة الجمع بين العمل والزواج .. ثم إن الذى يعرف الأستاذ .. كيف يتزوج ؟ . ها ها .. ها ها .

ونظرت إلى العروسين : من تلامذة الأستاذ طبعا ؟

قلنا : طبعا !

قالت : إلا فى الزواج . وإلا فى الهجوم على المرأة .. والله حرام عليه .. والله حرام !

قال الزميل الصحفى الذى يبدو أنه يعرفها هو أيضاً : أشكرك على أنك جئت اليوم .. فقد أنقذتنى من هجوم عنيف كان سيشنه الأستاذ على ما كتبته اليوم .. ولكن الله ستر وسلم .. وفى استطاعتك أن تصرفيه عنى .. اصرفيه عنى الله يخليك .. فأنا مريض وقد جئت لتحيته قبل سفرى إلى الإسكندرية ..

قالت : حاضر.. من عيني !

وأشارت بيدها إلى عينيها فعلا – وهى حركة بنات البلد.. ولاتتناسب مع هذه الأناقة الصارخة.. وبدت لنا أكثر شبابا وأكثر حيوية.. كم يبلغ عمرها ؟.. ليس لها عمر.. لا أحد يعرف بالضبط.. إن كانت عيناها فهى طفلة صغيرة ، وإن كانت شفتاها فهى سيدة مثيرة ، وإن كان نهداها فهى أنثى ناضجة.. وإن كان أسلوبها فى الكلام فهى قد تدربت على الحديث ومسايرة الرجال ، وإن كان جلوسها إلى جوار الأستاذ ، فهى قريبة جدا منه ، وعلى صلة أقوى وأعمق.. ولابد أنها تعرف مكانتها عنده.. أو تريد أن تعرف مكانته عندها.. فقد مدت يدها.. وحاولت أن تسوى المكان الذى كان يجلس عليه الأستاذ.. ثم وضعت أصابعها على طرف المقعد.. فارتسم أصبعها على طبقة رقيقة من التراب. ومطت شفتيها بما يدل على أسفها لذلك. ولكنها فى نفس الوقت ترى أن هذا طبيعى ما دام البيت بلا امرأة.. فما الذى يتوقعه الرجال ، إذا لم تكن هناك امرأة ؟ سوف تبقى البيجاما القديمة الباهتة الألوان التى لم تعرف المكوى ، ويكون التراب على المقاعد والمناضد ، ويكون البلاط العريان ، وتكون الألوان الكالحة فى كل مكان..

وكانت تنقل منديلا من يد إلى يد.. وكانت تضغط على المنديل ثم تمر بالمنديل وراء أذنيها.. وكأننا مجموعة من البلهاء أو البدائيين نتفرج على إنسان متحضر لأول مرة. ولم نحاول أن نفكر ، إنما كنا نريد أن يجيء الأستاذ بسرعة ويقول ما معنى كل هذا الذى نراه.. ولابد أن هذه السيدة قد لاحظت السذاجة والعبط فى عيون الحاضرين.. ولابد أنها أشفقت على هؤلاء الشبان الذين سلبهم الأستاذ عقولهم ، فلا يعرفون من الدنيا إلا ما يقوله هو.. فإذا لم يقل فسوف يبقون فى أماكنهم ، على جهلهم ، أو على سذاجتهم..

وجاء الأستاذ ، وشدت فستانها وضمته إلى جسمها ، لكى تفسح للأستاذ مكانا أكبر.. مع أن المكان واسع وليس فى حاجة إلى هذه « الحركة ».. ولكنه الاحترام الذى تستطيعه ، أو الذى تريد أن تؤكده له أو تدلنا عليه.. وقالت هى : إنه مريض.. كما قلت (واشارت إلى زميلنا الصحفى الذى كان مريضا هو أيضا.. والذى تجاهلته عندما جاء).. ولكن ليس بالصورة التى وصفتها.. لقد بالغت كثيرا.. ها ها.. ها ها..

فقال الأستاذ : بل لم أبالغ فى كلمة واحدة.. ولو أنك قرأت الذى نشره اليوم ، لأيقنت أنه مريض حقا..

قالت دون أن تعرف أن الأستاذ قد استدرجها إلى ماكان يريد أن يقول قبل حضورها ، وإلى الذى حذرها منه صديقنا الصحفى : لم أقرأ شيئا..لقد نهضت من النوم متأخرة.. وخفت ألا أجيء إليك فى موعدى..

قال الأستاذ : يا مولانا .. وكأنها ليست موجودة إلى جواره ، فاتجه إلى صديقنا الصحفى : أنا سوف أختار لك مثلا قريبا .. هناك نوعان من الناس .. واحد يأكل كل طعام تقدمه له .. لا يرفض شيئا .. فهو لا يجد متعة فى كل طعام .. ولكنه يأكل أى شىء .. أى يملأ معدته بما يجده .. وهناك شخص لا يأكل إلا طعاما واحدا .. أو إلا الطعام المسلوق .. فأى هذين الرجلين يكون ذواقة للطعام ؟ .. من المؤكد أن الذى لا يرفض أى طعام ، لا يتذوق أى طعام . إنه يفعل كل شىء دون تفكير .. وكذلك الذى لا يأكل إلا طعاما واحدا لا يمكن أن نأخذ رأيه فى مزايا الأطعمة . فكلاهما لا يصح أن نرجع إليه . وكلاهما ليس مقياسا ولا حكما جيدا فى دنيا الطعام ، إنما الذى نأخذ رأيه هو الذى يختار من الطعام ما يعجبه .. ما يرضى ذوقه .. فهو صاحب ذوق .. وهو صاحب رأى .. وكذلك فى الحب والجنس يا مولانا .. فهناك الرجل العاشق .. وهو الذى يعشق امرأة واحدة ولا يرى فى الدنيا غيرها .. مثل مجنون ليلى وكثير عزة وجميل بثينة . وروميو وجوليت .. وكل واحد قد تفرغ لواحدة ، وعاش ومات من أجلها . فهو لم ير ولم يسمع ولم يتعذب إلا بواحدة . فهذا العاشق هو كالمصاب بعمى الألوان . ولذلك فهو الشخص غير المناسب إذا حاولت أن تعرف رأيه فى الحب والجمال والجنس .. أما الرجل الآخر فهو رجل الغزل ، هذا الرجل الذى يقبل على كل النساء من كل نوع .. فهو لا يرى إلا الأنثى .. أو الأنوثة .. وكل واحدة تلفت نظره .. وكل واحدة تشد أذنه .. وكل واحدة يتغزل بها .. وهو ليس مخلصا لأية واحدة .. إنما فقط عندما تكون معه أو أمام عينيه ، أو على مقربة منه .. فإذا انصرفت اتجه إلى غيرها بنفس الدرجة من الحرارة والشوق .. وقد تعرضت أنا بالدراسة لجميل بثينة ، نموذجا للعاشق .. ولعمر بن أبى ربيعة ، نموذجا لشاعر الغزل .. وكلاهما ليس مقياسا فى الحب أو الذوق السليم .. وليس معنى ذلك أن الرجل الذى « يتغزل » فى كل امرأة . لا يتذوق الجمال . بل يتذوق الجميلات .. وليس صحيحا أن الذى « يعشق » امرأة واحدة لا يتذوق الجمال ، بل يتذوق جمالها وحدها . ويقف عند ذلك !

وتوقف الأستاذ لينظر إلى السيدة الجالسة إلى جواره ، فقد فتحت حقيبة يدها وأخرجت عطرا ووضعت منه فى منديلها وحول أذنيها وفى صدرها .. ونظرت إلى الأستاذ ضاحكة كأنها قالت شيئا .
وقال الأستاذ : أعرفه !

وكادت تقول شيئا أو تفعل شيئا ولكنها أدركت أننا هناك .. وبدا الامتنان على وجه الاستاذ ولم يقل شيئا . إنما هى التى قالت : طلع العصفور على الشجر وبكى له دمعتين !

وضحك الأستاذ وهى أيضا . وصاحبنا الصحفى الذى قال : ياه .. إنها أغنية صعيدية قديمة جدا .. وقد حاول بعض الخواجات أن يصنعوا لنا عطرا فى الصعيد يقدمونه للعروس .. وكان هذا

العطر يجيء من باريس .. وكنا نجد بالحروف اللاتينية هذه الكلمات : طلع العصفور على الشجر وبكى له دمعتين ..

وضحكت هى لتقول : أنا لم أقل ذلك .. إنه هو ..

(أشارت إلى الاستاذ) الذى قال : إن كل شىء عند العرب صابون ، وكل عطر عند الصعايدة اسمه : طلع العصفور على الشجر وبكى له دمعتين ..

وأحنى صديقنا الصحفى رأسه وقال : والله فضحتنى يا أستاذ ..

وعاد الأستاذ إلى حديثه : فأنت يا مولانا عندما وصفت زواج النحاس من زينب الوكيل قلت إنه عشق – كما قال لنا الأستاذ .. صحيح أننى تكلمت عن العشق ، ولكن بالمعنى الذى شرحته الآن .. أما زواج النحاس باشا فلم يكن عشقا ، لأنه لم يكن « مجنونا » بها ومنشغلاً عن كل الفتيات أو كل الأرامل فى مصر – لم تكن هناك علاقة من أى نوع .. ولو كان عشقا لوجدت للرجل عذرا . فهو أحب ولم يقو على أن يسيطر على نفسه . وفى التاريخ عشاق كثيرون مقهورون . بل كل العشاق مقهورون . ولكن زواج هذا الزعيم السياسى العبيط ، هو أنهم زوجوه .. أما الذى قالوه له فهو شىء يبعث على الضحك .. ثم إنك تظلم هذه الفتاة التى تزوجته إذا قلت إنها اختارت الأبهة والسلطة .. لا أظن أنها هى التى اختارت ، إنما أهلها قد اختاروا لها أيضا . فقد زوجوها . فهو زواج « مزور » – زوروا لها رجلا ، و « زيفوا » له فتاة ! وبقية الفضيحة تعرفها مصر ..

ثم التفت إلينا جميعا : أليس فيكم أحد وفدى ؟ !

وقالت هى بسرعة : أنا

فقال الأستاذ : ما هو شعورك لو وجدت نفسك زوجة للنحاس باشا ؟

فردت عليه بسرعة : ساعتها سأفقد شعورى !

وتشجع العريس فى ضيق شديد وقال : يا أستاذ : ولكن لماذا لا نفرض أنها أحبته .. أو أعجبت به .. أو أن زواجها منه مثل زواج بنات الريف .. أن تتزوجه اليوم وتحبه غدا ؟ .. ثم إنه زعيم وعظيم وشخصية .. وترى فيه ومعه مستقبلها .. ومستقبل أسرتها .. وتكون كأنها ملكة .. ولا توجد امرأة ترفض الجلوس على العرش .. ولو كان العرش من المسامير .. والذين رأوا المسيح مصلوبا ، قالوا : صحيح أنه مصلوب .. ولكن المهم أن يكون الإنسان عاليا .. ولو كان مشنوقا .. والناس يقولون : إنه أفضل للإنسان أن يكون سيدا فى جهنم ، على أن يكون خادما فى الجنة .. فمن يدرى ربما أرادت هى أن تكون سيدة فى جهنم .. أو لعلها وجدت فيه نوعا من الأبوة .. والأستاذية – نحن لا نعرف يا أستاذ .

قال الأستاذ : أنت لاتعرف يامولانا . . معك حق . . ولكننا نعرف الرجل ونعرف قدراته . .

ونعرف آفاقه . ونعرف من الذى يدفعه إلى الأمام . ومن الذى يدير رأسه ويلعب بقلبه وعقله – إن كان له عقل . .

وعاد العريس يقول : أكنت ترضى عنه ياأستاذ لو بقى بلا زواج ؟

قال الأستاذ : لا . . بل كنت أحاسبه : لماذا لم يتزوج النحاس باشا ؟ . . لأنه إذا لم يتزوج فلابد أن له حياة أخرى . ولابد أن هذه الحياة الأخرى تلوى قراره ، ولابد أنها تستغرق وقته الذى يجب أن يكون مخصصا لإدارة شئون الدولة . . بل لابد أن يطمئن الشعب على حاكمه إن كان رجلا سويا أو رجلا شاذا . . لا لأننا مهتمون به شخصيا ، وإنما نحن مهتمون به سياسيا وحاكما .. أى مهتمون بانفسنا !

قال العريس : إذن ياأستاذ فهو إذا لم يكن متزوجا فالشعب يفرض عليه الزواج . . أى أننا نحن الذين سوف نزوجه . . فإذا تزوج هو من تلقاء نفسه ، اتهمناه بأنه تزوج من تلقاء غيره . . مع أننا فى الحالتين نطلب اليه أن يتزوج ، لالشخصه ، ولكن باعتباره حاكما . . أى يتزوج من أجل أن يرضى عنه الناس . . فأين هى إذن حرية الإرادة ؟ . . كيف يكون الحاكم مسئولا عن الذى يفعله ، إذا نحن جردناه من الحد الأدنى من الإرادة ، وهو إرادته الشخصية ؟ . . كيف نطالب بحريتنا ، ونأبى عليه حريته ؟ . . كيف يكون المحكوم هو الحاكم ، ويكون الحاكم محكوما ؟ . . إننى لاأفهم ياأستاذ . . إن تجربتى فى الدنيا صغيرة . ولكن أنت تعرف زوجتى . . إنها أمامك . . جلسنا معا قبل أن نصارح أبوينا . وتساءلنا : هل أنت راضية عن هذا الزواج ؟ . . هل ضحكت عليك فى شىء ؟ . . هل خدعتك ؟ . . هل ضغطت عليك ؟ . . هل تعرفين صعوبات الحياة الزوجية التى سوف تتضاعف صعوبتها بمرور الوقت ؟ . . هل أنت على يقين من قدرتك على احتمال مشاكل حياتنا بعد ذلك : حياة كلها عمل .. وتعب من العمل ثم تعب من أنفسنا ؟ . . وكانت إجابتنا نحن الاثنين : نحن نعرف ذلك بوضوح . . ونحن نتوقع كل هذه النتائج وأسوأ من ذلك . . ولكنها كانت أخبث أو أذكى منى حين سألتنى : كيف تكون من تلامذة الأستاذ ثم تختار الحياة الزوجية التى يأباها على نفسه ؟ . . كيف تتزوج والأستاذ لم يتزوج ولن يتزوج ؟ . . ولم أعرف مااللذى أقوله لها ياأستاذ ، فهل تقول لها ؟!

والآن أصف لك مااللذى أحدثه هذا السؤال فى الحاضرين جميعا . . وفى الأستاذ أيضا .

إنه شعور بالفزع وحب الاستطلاع : كيف جرؤ صاحبنا على هذا السؤال ؟ مااللذى يمكن أن يقوله الأستاذ ؟ . . هل سيقول فى حضور هذه الممثلة وهذه العروس ؟ .. إن الذى قاله اليوم يكفى جدا . . واللذى قاله لنا ، والذى جاء فى كتبه . . فليس الأستاذ فى حاجة إلى أن يضيف شيئا . . ثم إنها مناقشة مروعة فى حضور ، أو بمناسبة ، هذين العروسين . . إنها بداية فظيعة لحياة جديدة . .

فبعد أن هنأ الأستاذ العروسين ، عاد فلعن الزواج والحب . .

وكل مايحضرنى الآن هو بعض أبيات قالها شوقى فرحا بانتصار كمال أتاتورك ، ثم حزنا بعد ذلك لأنه قد ألغى الخلافة الإسلامية . . وألغى الإسلام كدين رسمى للدولة . . يقول شوقى وهو ينعى الخلافة الإسلامية :

عادت أغانى العرس رجع نواح
ونعيت بين معالم الأفراح
كفنت فى ثوب الزفاف بثوبه
ودفنت عند تبلج الإصباح !

فقد أقام الأستاذ مأتما للحب وللزواج فى أولى ساعات شهر العسل لهذين الشابين . . ولم يبق إلا أن نسمع من الراديو المارش الجنائزى . . وقد أحسست أن صالون الأستاذ ليس إلا « غرفة الدفن » فى الهرم الأكبر . . وأن الأستاذ هو نهر النيل العظيم ، وأن هذه هى عروس النيل التى يجب أن نلقى بها حية فى أحضانه ليفيض بالماء الذى تعكرت به حياتنا الفلسفية !

واستأذنت الممثلة . وقد تعلق مسمار فى جوربها فترك أثرا على بشرتها . . وقد لمست ذلك بأصابعها فالتفتت عيوننا إلى بشرتها السمراء ، ولم يلتفت الأستاذ . . ثم أشارت إلى العروس وطلبت أن تتحدث إليها على انفراد . . وخرجت العروس . وبدا الارتياح على وجه الأستاذ أول الأمر . ثم بدا عليه الضيق بعد ذلك . . ولكنه تراجع إلى الوراء كالذى يمسك سيفا أو رمحا ، وذلك لكى يتمكن من الإصابة ، أو كالذى تراجع إلى الوراء ليقفز فوق ترعة صغيرة . أما العريس فقد شعر بشىء من الارتياح . . واتسعت المسافة بين ساقيه . . وفتح زراير الجاكتة . . وأحس كل الحاضرين بالراحة لاختفاء المرأة من هذه المناقشة . . وكان هذا الشعور بالارتياح أكبر دليل على أن الأستاذ يشعر بالحرج فى حضور المرأة . وأنه يفضل أن يكون صريحا فى غيابها ، على أن يكون صريحا فى حضورها . . مع أن من الضرورى أن تكون المرأة موجودة باعتبارها طرفا فى النقاش أو فى الخلاف كما هى طرف فى الحب والحياة . .

قال الأستاذ : المألوف فى حياتنا هو أن نجد « المتزوجين » : امرأة إلى جانب الرجل ، ونحن ضحايا هذا المألوف . ولكن ليس من المألوف أن نجد رجلا ممتازا أعزب أو عالما كبيرا ، أو قائدا عبقريا . . ليس هذا مألوفا . فلماذا لا نألف أن يكونوا بغير زوجة ؟ . . فهؤلاء قد امتازوا من الناس وعنهم لأسباب كثيرة . هذه الأسباب تجعل الحياة الزوجية عبئا عليهم . وتجعل هذا النوع من المشاركة قيدا على قدراتهم . . والمرأة يبهرها الرجل الممتاز ، ويدفعها حب الاستطلاع أن تكون قريبة منه . ويدفعها ضعفها إلى أن تحب سيطرته عليها . . وقد يكون الرجل الممتاز قبيحا . وقد يكون قزما . وقد

يكون فقيرا . ولكن المرأة تفضل أن تكون لرجل يشير إليه الناس فيشيرون إليها أيضا . ولكن عندما يعودان إلى البيت ، تنسى المرأة الأسباب التى جعلتها تتزوج رجلا ممتازا . ولاتذكر إلا أنها زوجة دون بقية الزوجات . فهى لاتجد زوجها هذا ممتازا فى كل شىء : إنه ممتاز فى القتال . ولكنه ليس كذلك فى الحديث إليها ، وقد يكون أعظم طيار ، ولكنه أسوأ من يمشى إلى جوارها . وقد يكون زوجها أعظم اقتصادى . ولكنه لايحسب المسافة بين المكتب والبيت . . أو يذكر كل أرقام الميزانية وينسى عيد ميلادها . . إنه أمر شاق تماما أن يكون الإنسان حرا وزوجا فى نفس الوقت . . إن أكثر العباقرة الذين تزوجوا ، نسوا بعد ذلك أنهم تزوجوا . . ولم تنس لهم زوجاتهم هذا الإهمال . وكان فشل الزوجات عقابا لهن على هذا الاختيار وليس معنى ذلك أن الممتازين جميعا لايتزوجون . كثيرون قد تزوجوا ، ولكن المشكلة ليست الزواج . وإنما الاستمرار . بل قد يكون استمرار الزواج دليلا على الاستسلام والخوف من الفضيحة . . أو الخوف من الشعور بالهزيمة ، فكل منهما يتمسك بالآخر ، حتى لايقال إنه فشل أو إنها فشلت . . واستمرار الزواج لايدل على نجاحه . وإلا كان استمرارنا فى الحياة دليلا على أننا سعداء بها . . وانا أجد نفسى أقرب إلى الفيلسوف الألمانى «كانت» الذى فكر فى أن يتزوج ثم نسى ذلك تماما . . وإلى الموسيقار بيتهوفن الذى فكر فى الزواج ، وحاولت بعض النساء أن يجذبنه إلى الزواج . ولم تفلح واحدة . ولم يفلح هو أيضا . فقد كانت حياته عنيفة صاخبة فلم يطق أحد أن يقترب منه . . وقد زارته امرأة فوجدت البيت فوضى . . فالأرض قد تغطت بالورق والآنية الفارغة . . ولم تقف عينها عند الرأس الضخم والشعر الفخم ، وأضواء العبقرية تتطاير من عينيه . . ولكنها توقفت عند أظافره . . لقد كانت متسخة تماما . فقد نسى أن يغسلها أياما — كما نسى أشياء كثيرة ، وقالت لإحدى صديقاتها : كيف أستمع إلى موسيقاه بعد ذلك وقد رأيت أظافره ؟ ! وهذه نظرة «أنثوية» صحيحة . . ولا يوجد رجل عظيم لاتستطيع المرأة أن تجد فيه مكانا متسخا فى أصابعه أو نفسه أو فى عقله أو فى علاقاته الاجتماعية أو الفكرية . . ثم كيف تطيق ذلك ؟ . . وأجدنى أيضا قريباً إلى الفيلسوف الألمانى شوبنهور . . بل أكاد أرى المرأة بعينيه لولا أنه أحيانا يصف لنا المرأة وهو مغمض العينين لأنه يحفظها تماما . . وإن كنت أرى فى بعض الأحيان أنه يثق فى عينيه أكثر مما يجب . . ثم إنه عاشق فاشل . . أحب وفشل . فكانت كراهيته لكل النساء . كما كان سقراط يفضل الشبان ، فكانت كراهيته لزوجته ليست إلا كراهية لكل النساء ولكل الزوجات أيضا . . وشوبنهور ينظر إلى المرأة على أنها أنثى حيوان آخر انقرض ، فلم تجد إلا الرجل فكانت أنثى له . . يريد بذلك أن يقول إن الخلاف بينهما كبير . . وكل محاولة للتقريب بينهما فاشلة . . وإن كانت المرأة تؤكد لنفسها وللرجل أنها سوف تنجح حيث فشلت كل بنات جنسها . . ولذلك نجد أن العاشقات يقلن : إن حبى من نوع جديد . . حبى ليس له نظير فى الدنيا . . إننى أحبك أكثر من أى أحد . . أكثر من

أمك وأكثر من أختك . . مع أنها لم تعرف إلا حبها هي ولم تعرف حب أمه له . . ولكن هذا الوهم أو هذا الغرور هو الذى يجعلها تتصور أنها قادرة على أن تحقق المعجزة . . والمعجزة أن تكون زوجة وأن يكون زواجها سعيدًا . . وهذا الأمل هو الذى جعل المأذون شخصية شعبية . . ولكنه أمل المرأة وليس أمل الرجل . . وليس أمل الرجل الممتاز الذى يرى أن حريته هى أعز ما يملك .. والذى قال إن وراء كل عظيم امرأة ليس رجلا . . انما هى امرأة .. وإذاكانت هذه العبارة قد نسبت إلى رجل ، فلا بد أنه قالها قبل أن يموت بلحظات . أى عندما هانت عليه الدنيا بما فيها من صدق وكذب . .

وعادت الممثلة وكأنها استمعت إلى الذى قاله الأستاذ . وحاولت أن تخفف من وقعه العنيف على العريس أو على العروس إن كانت هى الأخرى قد سمعت شيئا من ذلك . . قالت الممثلة : ألست صاحب هذه الأبيات :

زرقة عينك لا صفاء
فيها ، ولكنه فضاء !
خمرة خديك لا حياء
فيها ، ولكنه اشتهاء !

* * *

قوامك الرمح لا اعتدال
فيه ، ولكنه اعتداء !
حبك لا نعمة أراها
فيه ، ولكنه جزاء !

* * *

يا جنة حسنها عقاب
يا خمرة عذبها عذاب !
متى متى ينطوى الكتاب
متى فراق بلا لقاء ؟ !

وكان برنامج ما يطلبه المستمعون قد أوشك على الانتهاء . . وكان له لحن مميز فى ذلك الوقت هو موسيقى زفة العروس : اتمخطرى ياحلوة يا زينة . وأحسست بالفارق الرهيب بين الذى يتردد صداه فى الشارع والذى يتردد صداه فى الصالون . . ولكن الأستاذ طبيب . . أو هو جراح . . ولأنه جراح فهو لا يشعر بأوجاع مرضاه .. لقد سمعها ألوف المرات . . ويعرفها مقدما . . وإذا لم يتوجع مريض فإن هذا هو الشيء الوحيد الذى يدهشه . . ولو رآنا جميعًا نتوجع ورأى واحدا قد كظم غيظه ،

لاستدعاه ليعرف كيف إنه هكذا غريب عنا . . أو غريب عن الذى يتوقعه . .

وكما أن فى الطب مدارس ، فكذلك فى التحليل النفسى . . فهناك مدرسة ترى أن من الضرورى أن يصارح الطبيب مرضاه بأمراضهم . . ولا يخفى عنهم شيئا . . وقد يكره الناس هذه الصراحة .

وهناك مدرسة ترى أن تخفى عن المريض أوجاعه مهما كانت خطيرة . فهذه المدرسة ترى أنه ربما حدثت المعجزة ويشفى المريض . . وقد وقعت المعجزة كثيرا . وترى هذه المدرسة أن مصارحة المريض بخطورة مرضه قد تضعف مقاومته للمرض . . وهذه المدرسة ترى أن الحياة إرادة والصحة إرادة والمرض إرادة أيضا ، فعندما ييأس المريض من الشفاء ، فإنه يريد الموت ليستريح من هذا العذاب ، ولذلك يرى هؤلاء الأطباء أن يتركوا شيئًا لله . . فكثيرا ما تدخلت إرادة الله وأنقذت المريض . . رغم عجز الأطباء .

أما مدرسة الأستاذ فى تشريح الحب والجنس والزواج والمرأة وعلاقتها بالرجل فهى مدرسة ثالثة : فهو يرى أن للمرأة طبيعة معقدة ، لأنها محكومة ولأنها ضعيفة ولأنها آخر العبيد الذين لم يحررهم الرجل . ولأنها هكذا فهى تلف وتدور وتتحايل وتتآمر على الرجل وهى تخدع وتكذب . . والطفل يفعل ذلك والضعيف أيضا . . والطبيعة قد أرادت المرأة لشىء آخر غير الذى أرادته للرجل ، فالمرأة تنضج مبكرا جدا ، تصبح جاهزة لأن تكون أما ، فهى تتزوج فى سن صغيرة . ولكن الرجل لا يكون جاهزا للزواج فى سن المرأة ، ولا يكون ناضجا جسميا أو عقليا أو نفسيا . . ومعنى ذلك أن الطبيعة أرادت للمرأة أن تلد قبل أى شىء آخر . . ولم ترد للرجل أن يكون أبًا . . إنما أعدته لشىء آخر هو أن يطور الحياة وأن يدفعها إلى الأمام . . وليس هذا إلا واحدا من عشرات الاختلافات والخلافات بين الرجل والمرأة – كل ذلك قاله الأستاذ ، وهو يحاول أن يقفل باب المناقشة . . وقد أقفل الباب فعلا ولكن على أصابعنا وعلى ألسنتنا فأوجعنا فى كل مكان . . ولكنه لا يبالى ، فهو يصارح المريض بمرضه وفى نفس الوقت يؤكد له أنه لا أمل فى الشفاء ، وأن على الإنسان أن يقبل هذا الخلاف الحاد بينه وبين المرأة ، وعلى الرغم من أن الإنسان يعرف ذلك تمامًا فإنه يقدم عليه . . أما سبب ذلك فهو نفس الوهم الذى تعيش به المرأة فهو يؤمن بأنه سوف يكون مختلفًا عن كل إنسان . وأنه وحده الذى سوف يصلح ما أفسده الدهر فى كل العصور . .

وعاد الأستاذ يقول : ولكننا يامولانا نعرف حدودنا . . فلست قادرًا على أن أغير طبيعتى ، ولا قادرا على أن أغير طبيعة المرأة . . ولا أنا واحد من الأبطال فى معركة التفوق على المرأة . . ثم إذا تفوقت فما هو الشىء العظيم جدًا الذى أفوز به ؟ . . ما هى المكافأة ؟ ومن الذى يعطينى إياها ؟ . . فإذا كانت هذه المباراة معروفة النتائج مقدمًا فلماذا أتجاهل ذلك وأفترض أن معجزة سوف تقع ؟ . .

هل تمنيت أن ينهدم البيت فوقنا جميعًا ؟ . . إن نظرة إلى وجه العروسين تدعونى إلى ذلك .. فقد تغير لون العروس من الأحمر الوردى إلى الأصفر . . بل إن منديلها قد مسح جانبًا من كحل العينين . . هل كانت تبكى ؟ ربما . . ولكن الأستاذ لم يشأ أن يجامل أحدًا على حساب أفكاره . . إنه طبيب . . وهؤلاء مرضاه . . وصارحهم بالداء . . فإذا حدثت المعجزة فهو لا يؤمن بالمعجزة . إنما هى حادث نادر الوقوع . . أو هى أمل الناس جميعًا فى أن تقع . .

ومن المؤكد أن الأستاذ كان صادقا مع فلسفته فى كل الذى قاله . . إنه يفكر بصوت مرتفع ، وهو يكرر ما سبق أن قاله عشرات المرات . . . ولكن عندما وقف العريس اقترب منه الأستاذ وصافحه ووضع يده على كتفه وقال : يا مولانا . . إننى أعيش على الطعام المسلوق . . فإذا استطعت أن تأكل الطواجن ثم لا تشكو من معدتك فهنيئا لك . . وأنا أعيش على المسلوق فى الطعام وفى أشياء كثيرة . فلست أحسن المقاييس فى تذوق الطعام ؟!

وكان ذلك اعتذارًا جميلاً رقيقا . . فالأستاذ لم يعرف امرأة تغريه بأن يتزوج . . والذى يقرأ شعر الأستاذ ويقرأ النماذج التى يدرسها ويحللها ، يجد أنه جراح عظيم . . ولكن مرضاه من الذين يقعون تحت عجلات السيارات أو القطارات .. وليس هذا هو « النموذج الرفيع » لكل المرضى وكل المصابين.

ولم يكتف الأستاذ بذلك ، بل عاد يقول للعروس الجميلة وقد ضمها إلى صدره : لقد أسعدنى هذا الحوار الذى دار بينكما . . أقصد الذى دار بينك وبين زوجك ، وليس الذى دار بينك وبينها (وأشار إلى الممثلة) فإننى أعرفه مقدمًا ، ولكن حديثك إلى زوجك يدل على ذكائك وحسن تقديرك للأمور . وهى بداية نادرة لزوجين فى مثل هذه السن الصغيرة . . وهى فى نفس الوقت بداية النجاح إن شاء الله . .

وبعضنا يؤكد أنه رأى الدموع فى عينى الأستاذ ، وبعضنا يقول إن الدموع كانت فى عينى العروسين . . أما الممثلة فقد نزلت الدموع على خديها وعانقت العروسين . .

ورأيت هنا حنان الأستاذ يذوب بعضه فى بعض ، وفى الشارع وجدت العروسين . وبادرنى العريس قائلا : ألم أقل لك إن الأستاذ فى غاية الرقة ؟ . .

– هذا إحساسك ؟

– نعم . . شىء عجيب أن الرجل يخفى رقته .. ويرى أن الرقة ضعف .. وأن الأبوة عجز .. خسارة .. كان من الممكن أن يكون ألطف الازواج وأرحم الآباء ..

وأحسست أن البيت كله يتهاوى ويتساقط وتساندت على الجدران . .

وصافحت الأستاذ ، وحتى لا أسقط على السلالم مسحت دموعى ، وعدت إلى البيت . . كأننى نائم أمشى فى ليل لا نهار له !

أين هي الجنّة يا أستاذ ؟!

فى ذلك اليوم اكتشفت عدم قدرتى على الضحك والفرفشة . فقد أصر الأستاذ الموسيقار حسن الشجاعى على أن يستدرجنا إلى شارع محمد على وكان من رأيه أننا مجموعة من الخنازير ، تتكلم عدة لغات . ونردد عددا من الأسماء الأجنبية . وأننا لا نفهم إلا قليلا من كل شىء . . وأنه خير لمصر وللجامعة ألا يكون فيها مثل هذه الكائنات الممسوخة . ويؤكد لنا دائما أننا لا شىء .

مثلا . . ما الذى نعرفه عن الفنون المصرية ؟ لا شىء . . هل جلسنا إلى شاعر الربابة ؟ هل سهرنا ليلة كاملة مع إحدى الراقصات ننتقل من شارع إلى شارع ومن زفة عروس إلى طهور طفل إلى عيد ميلاد إلى خناقة بالطبول والصاجات والمزمار البلدى . ثم يجىء المأذون فى النهاية لكى يتم طلاق الراقصة من زوجها الذى هو أحقر وأضعف إنسان فى فرقتها ؟ هل عرفنا الخمر ؟ هل ذقنا رائحة الحشيش ؟ هل قررنا ولو مرة واحدة ألا نعود إلى البيت . وأن ندافع عن هذا الموقف أمام أى أحد ؟ هل ذهبنا فى عنادنا ألا نعود إلى البيت لدرجة أننا قررنا البقاء خارج البيت حتى الموت . وكان هذا الموقف نوعا من الاحتجاج . أو هو الاحتجاج الأول فى حياتنا . ولما نجح هذا الاحتجاج قررنا أن تكون حياتنا احتجاجا بعد احتجاج ؟ هل فكر واحد منا فى ريعان شبابه أن ينتحر ويكون انتحاره احتجاجا من الأرض على السماء ؟ هل فكر واحد منا فى أن يتزوج راقصة وأن يضع تحت قدميها كل كتب الفلسفة والأدب والفن . لا لحقارة هذه الكتب ولا لعبقرية هذه الراقصة . إنما لأن هذه الكتب قد صرفتنا عن الحياة . ولأنها لا تساوى وزنها ترابا . . ولأن الحياة ، التى لها شكل الراقصة أو الغانية . أعظم وأروع وأمتع من كل الكتب ولو كان ورقها من الحرير ؟

ولما لم يجب واحد منا نحن الأربعة عن هذه الأسئلة التى ضربنا بها الأستاذ الشجاعى . أحس هو أنه انتصر . وأننا على خطأ . وأنه صاحب الفضل الأول فى دفعنا إلى الحياة بقوة الشباب . وصلابة التجربة – شبابنا وتجربته . واعتذر لنا بأن وقته ضيق . وأن هذا الذى سوف نراه قد شبع منه . وأن مجيئنا إلى هذه الدنيا – دنياه هو – قد كان متأخرا . . ولا نلوم إلا أنفسنا ثم إننا سعداء لأننا التقينا به صدفة فى صالون الأستاذ . وأنه هو الذى توسم فينا الذكاء والموهبة . . فمن يدرى ؟ ربما كان صاحب فضل علينا جميعا أو على بعضنا : ربما كان من بيننا فيلسوف أو شاعر أو فنان أو ثورى أو فوضوى . .

وهو يحب الإنسان الفوضوى ويكره الثوريين . . لأن الثورى هو رجل يتعامل مع الحديد : إرادة حديد ومنطق حديد ، فإذا حكم الناس وضعهم فى الحديد . . وإذا فشل فهو الذى سوف يموت « على الحديدة » ، ولأن الثوار أنصاف آلهة ، أو أنهم أنصاف أنبياء . وهو لا يقدس إلا البشر . . ! أما الفوضويون فهم أناس يتوهمون أنهم فلاسفة ، وليسوا كذلك . . وأنهم شعراء وليسوا كذلك ، وأنهم مصلحون والحقيقة أنهم مفسدون . . وأنهم مؤمنون بالحرية ولكنهم يحررون الناس من قيود العقل ، ومن التزامات القلب ، ومن شرف المواطن ، ومن كرامة العاشق ، ثم إنهم فى النهاية يعجزون عن كل ذلك . فلهم شرف الاحتجاج على كل شىء . . ويكون الفشل نصيبهم فى النهاية . فلا يرثى لحالهم أحد . . وأخيرا هو الشخص الذى يقتل ويمشى فى جنازة القتيل . ويكون هو القاتل والقتيل !

ولم نكن فى حاجة إلى تفكير طويل عميق لندرك أن الأستاذ الشجاعى فيه الكثير مما يقول . ولكن الرجل ليس فوضويا . فهو رجل قد درس الموسيقى الغربية وفهمها . ثم إنه يقود فرقة موسيقية . وهو عالم وهو ذواقة . ولكنه أخذ من الأستاذ الكثير من صفات السخرية . وهو قصير القامة كبير البطن . عريض الكتفين . غليظ الذراعين . وهو بتكوينه كرجل كان رياضيا ، ثم توقف فجأة . امتلأ كل سنتيمتر فى جسمه ولم يعد متناسبا . وكأن جسمه قد تمرد عليه . حتى إحدى عينيه كانت بها حركة عصبية تضايق من ينظر إليه . وتشتت انتباهه . ولذلك فن الأفضل أن تسمعه ولا تراه . وهو عندما يقود الفرق الموسيقية ، فإننا لا نرى إلا ظهره وقفاه . ولا أعرف كيف ينظر إليه العازفون يتابعون تعليماته – أعتقد أنهم ينظرون إلى يديه . وكان فى صوته الكثير من السخرية . ثم إنه لا يضحك . لم أسمعه إلا باعثا على الضحك . ولكنه هو شخصيا لا يعرف الضحك . وكان صوته قريبا فى نبرته الخافتة الناعمة من أصوات أولاد البلد الذين تعلموا كثيرا وندموا على ذلك .

فكان يقول لنا ونحن لا نفهم : إن هذا الرجل قد ضحك على مصر كلها . فليست عنده جملة واحدة من تأليفه . . إنه يخطف من هنا وهناك . . من القديم والجديد . . والناس جهلة . وهم يصفقون له كما لو كان زعيما سياسيا . . وقد أفلح فى أن يكون هو الآخر زعيما غنائيا . .

إنه يقصد محمد عبد الوهاب ، ولا نفهم معنى الذى يقول . ولا أحد يناقشه ، ثم إنه يذكر عدداً من الكلمات الأجنبية ويستعيد بعض الألحان الأوروبية التى خطفها أو « لطشها » محمد عبد الوهاب . للتدليل على صحة ما يقول . والأستاذ يوافقه على ذلك . ويعود الشجاعى فيقول : أنتم ما تزالون صغاراً ، ثم إنكم غير متخصصين ، ولكن سوف تعرفون أن هذا النوع من الناس هم جماعة من اللصوص الظرفاء مثل أرسين لوبين وحافظ نجيب .

وأرسين لوبين هو بطل قصص الكاتب الفرنسى موريس لبلان ، أما حافظ نجيب فيقال لنا إنه

لص ظريف . وإن حياته ونوادره كان من الممكن أن تكون روايات ممتعة لولا أن أحداً لم يلتفت إليه . وقال لنا الشجاعى إنه عرف حافظ نجيب ، الذى قدم له فتاة لطيفة وقال له إنها أخت أم كلثوم . واندهش الشجاعى فلم يعرف أن لأم كلثوم أختا شقراء . . فقد كانت ملامحها تشبه ملامح أم كلثوم تماماً . قصيرة القامة مشدودة العنق وفى صوتها بحة ونبرة ريفية . وكانت إذا جلست تمسك المنديل . وإذا وقفت تمسك المنديل أيضا . وكانت تفهم فى الموسيقى والغناء . . وإذا بحافظ نجيب يقول للشجاعى : بصراحة إنها رأتك وسمعت عن مواقفك البطولية وشجاعتك وروحك الممتعة . وأنك على باب الله مثلها ، ففضلت أن تتزوج رجلاً له رأى على أى رجل لا رأى له فما رأيك ؟

يقول الشجاعى : أكبر مفاجأة فى حياتى . . ولكن أريد أن تعرفوا حلاوة وجمال أولاد البلد . . فقد تقدمت الفتاة وهى تقول لى : إننى لم أخبر أختى أم كلثوم بذلك . . وأنت تعرف أن ذوقها شرق مائة فى المائة . وأريد أن أدخل الثقافة الغربية فى أسرتنا . . وأنت وحدك القادر على ذلك . . وقد أذهلنى ما تقوله هذه الفتاة . . ونظرت إلى حافظ نجيب فلم أجده . . لقد أحنى رأسه وأخفى وجهه كأنه يستسلم لهذا الموقف الدرامى . . أوكأنه أراد ألا يؤثر على قرارى . . أو أنه أخفى رأسه أو أخفى قراره . . أو اختفى نهائياً ليتركنى معها . . ووجدت الفتاة التى أمامى كأنها ألف فتاة . إنها أغلبية . وأنا أقلية . . فعيناها جميلتان ، ووجهها صبوح ، وشعرها حرير ، وذراعاها ، وهذا ما يعجبنى فى المرأة ، ملفوفتان ، وكتفاها رمانتان . . كل كتف نصف رمانة . . ونهداها أرنبتان . قد شدتهما إلى صدرها ، ويهتزان عند كل حركة منها كأنهما يهددان بالقفز والهرب . . وكلما أدرت رأسى يمينا وشمالا وجدتها تهمس فى أذن حافظ نجيب ، ورأيت شيئا أحبه جداً فى المرأة . . رأيت كعبها . إنه نصف فحل بصل . . كل كعب كأنه بصلة لم يتم تقشيرها . ولكنه شديد اللمعان . . شىء رائع . . تحفة فنية . . فقلت لها : أتزوجك . وهنا وقف حافظ نجيب وقال : أخرج أنا . . فأنتما زوجان . . والبيوت أسرار . . وخرج وتركنى وحدى معها . وإذا بالحوار يتخذ شكلا آخر ، وفجأة وبسرعة كأنها انقلبت إلى امرأة أخرى قالت : والبيت ؟

قلت : جاهز

– والشبكة ؟

– جاهزة .

– والفرح ؟

– ضرورى ؟

– طبعا . ولابد أن أدعو أختى وأن تغنى فى فرحنا .

– أختك ؟ من هى ؟

– نسيت؟! إنها أم كلثوم . والمدعوون ؟
– لا أعرف فهذا أمر ثانوى جدا .
– لا طبعا . لابد أن يعرف كل الناس . ولابد أن يكون شاهد زواجى العقاد وطه حسين والحكيم ولطفى السيد وفريد أبو حديد وأحمد أمين والشيخ محمد عبده . .
– الشيخ محمد عبده ؟ لقد مات . .
– إذن فالشيخ المراغى .
– وأنت كيف عرفت كل هذه الأسماء ؟ وما أهميه كل هؤلاء ؟ إننى سوف أتزوجك أنت . . وما دخل الأسماء سالفة الذكر ؟
– لادخل لهم . ولكن أهل الفن كذابون ونصابون كما تعرف . . وأنا فى حاجة إلى شهود . .
– شهود على زواجنا ؟ . . الأستاذ العقاد يكفى . . وإذا أردت رجلا آخر أتيت لك بالأستاذ عبد الرحمن صدقى . . وإذا أردت سيدة أتيت لك بالمطربة نادرة . .
– وأختى أم كلثوم ؟ . .
– أهلا وسهلا . . تشرف . .
– وسوف أرقص فى فرحى . . أنا أرقص أحسن من بديعة مصابنى . . هل تحب أن ترى ؟ . .
ولأول مرة يضحك الشجاعى وهو يروى لنا هذه القصة ، فيقول : وفجأة سقط فستانها عنها . . لا أعرف كيف بهذه السرعة . . وإذا هى أمامى عريانة تماما . وإذا بحافظ نجيب قد دخل من الباب ومعه غطاء حلة وعدد من الملاعق ، ويدق لها لترقص على إيقاع موسيقى زفة العروس ، وكانت ضحكات هذه الفتاة مثل كرابيج البرق . . وكان وجهى مثل السحاب يتساقط عرقاً . وإذا بها تقول لى : وأنت ؟ هل صدقت أننى سوف أتزوجك يا غلبان يا ندمان يا خيبان ؟ . أنا أتزوج رجلا قرفان الملامح ، منفوخ البطن ، وليس منفوخ الجيب ؟ لماذا ؟ . . هل جننت ؟
وقضى الشجاعى ساعة يشرح لنا خفة دم أولاد البلد وبنات البلد . . ويقول إنه أصبح صديقا لهذه الفتاة التى هى راقصة معروفة . . ولم يشأ أن يذكر اسمها . وكان سعيداً بخفة دمها ، وبخفة دم حافظ نجيب . وكان الأسف واضحا على وجهه . إنه يأسف على حالنا ، فليس فى حياتنا شىء من ذلك . وليس على يقين من قدرته على أن يلق بنا فى بحر شارع محمد على . وكلما تعالت الضجة فى شارع محمد على كان الشجاعى يقترب منا أكثر . . ولم أشعر بغرابة المكان أول الأمر . فقد مضى على جلوسنا على أحد المقاهى أكثر من ساعتين ، وكنا قبل الظهر بقليل ، وكان أكثر الذين يرون الأستاذ الشجاعى يصافحونه ويقبلون يده ويتحدثون عن هذا الشرف العظيم : أى أن يجىء إليهم ويجلس معهم . وكان الإرهاق والشحوب بادياً على وجوه جميع العاملين فى هذا المقهى والمقاهى المجاورة ،

إنهم يسهرون الليالى . . ويبدو أننا جئنا مبكرين ، وكان الأستاذ الشجاعى يسأل كثيرا عن الأسطى فيقال له بهزة من الرأس والابتسام مع الاحتشام : الأسطى بالسلامة نائمة . . . فى تاسع نومة . . والنوسية كحلى اليوم . . فقد كانت حفلة الأمس كلها فرفشة ودندشة . . ولا أظن أننى فهمت مثل هذه العبارات ، ولا أظن زملائى أيضا ، ولكن الأستاذ الشجاعى كان يفهم ذلك ، أو لم يفاجأ بهذه التراكيب اللفظية . .

وفجأة قال لنا : أيكم يعيش قصة حب ؟

فلم يرد أحد . .

وعاد يسأل : أيكم له رفيقة ؟

فلم يرد أحد . وعاد يقول بشكل أكثر وضوحاً : أليس بينكم واحد يعيش فى بيت واحدة أحبها وأحبته ؟ . . ولا يهم من تكون . . خادمة . . أو أرملة .. أو غسالة . . أو فلاحة .

فلم يرد أحد . وسألنى : عندك كم سنة ؟ فقلت : ٢٥ عاماً . .

– هل رأيت بديعة مصابنى ؟

– لم أذهب إلى كباريه قط . . .

– ولا رأيت نبوية مصطفى ؟

– قلت لم أذهب إلى أى كباريه .

– أقصد لم ترها على الشاشة ؟

– لم أر فيلما واحداً .

– من أى بلد أنت ؟

– من المنصورة .

– ألا توجد عندكم دور للسينما ؟

– توجد أربع دور . ولكن لم يتسع وقتى لكى أرى السينما أو أى شىء آخر غير المدرسة وغير المكتبة العامة . .

– يعنى نور الله فى برسيمه . . ما شاء الله . . ومطلوب منى أن أقوم بمحو أميتكم جميعاً . . والله الأستاذ له نوادر عجيبة !

أى أن الأستاذ هو الذى طلب منه أن يلقى بنا فى شارع محمد على وأن يهرب منا . ولكن لماذا ؟ ما الذى رآه الأستاذ وأشفق منه علينا ؟ أهذا كل ما ينقصنا ؟ أهو أراد أن يضحك على ما سوف يحدث لنا ؟ هل أراد أن يجعل منا مادة للفكاهة .. تماماً كهؤلاء السذج الذين يجيئون إليه من حين إلى حين ؟

نظرت إلى زملائى فى دهشة والتقت عيوننا . ولكن استبعدنا أن يكون ذلك هو الهدف . قال أحد الزملاء : هل الأستاذ هو الذى طلب إليك أن تأتى بنا إلى هنا ؟

فأجاب الشجاعى : لا والله . . ولكنى أردت أن أؤدى لكم خدمة . . فأنا لا أحب أن يكون الإنسان مغلقا . . ضيق الأفق . . لا يرى من الدنيا إلا شيئاً واحداً . . شارع الجامعة أو شارع محمد على . . إنما أن يرى هذا ويعيش ذاك . . أو أن يعيش بعقله هنا وبقلبه هناك . . أو أن يتعايش فيه الفن والحياة . . وفى هذا الشارع أعظم وأروع معادلة فى الدنيا : الفن حياة . والحياة فن . . صدقونى !

– ماذا تصنعون هنا ؟ ها ها . ها ها . . وتلفتنا وراءنا لنجد الشيخ عبد اللطيف السلامونى . . قد سحب مقعداً واقترب منا . . ومضى يقول : لقد لمحت الأستاذ الشجاعى من بعيد . . فنزلت من الترام ، ولابد أنها جلسة لذيذة . . فلديه قصص وحكايات ونوادر عجب . . لابد أنه قال لكم حكاية أخت الست أم كلثوم . . ورأى على وجوهنا ما يدل على أننا سمعناها منه . ولابد أنه قال لكم إنها خلعت ملابسها ووقفت عارية وقالت إنها زليخة زوجة حاكم مصر وهو يوسف الصديق . . طبعا لم يقل لكم ما الذى روته هذه الفتاة عندما ذهبت إليه فى بيته . . وكررت نفس المنظر . ولكن الأستاذ الشجاعى لم يتحرك !

– اخرس يا كلب . .

– خرست . . صباح الخير . . صباح الفل . ماذا شربتم ؟ هات لى شيشة يا ولد !

أما الشيخ عبد اللطيف . . فهو شاب لطيف مرح متحرر . . ولا نعرف أين يدرس . ولا شىء يدل على أنه رجل دين . . وإن كان حريصاً على أن يرتدى ملابس رجال الدين . . وعرفت فيما بعد أنه واحد من أبناء الذوات . . وأنه طالب فى الأزهر . . ولكنه لا يتردد عليه إلا نادراً . . وملابسه هذه هى وسيلة لابتزاز أموال والدته التى عملت بوصية أبيه أن يكون ابنها الوحيد من رجال الدين . . فقد نذرته لله . أما هو فقد نذر نفسه للشيطان .

وجاء الجرسون يهمس فى أذن الأستاذ الشجاعى والشيخ عبد اللطيف . وظهرت الفرحة على وجه الأستاذ الشجاعى . . وبدت عليه حماسة مفاجئة . وامتدت يده إلى قميصه تزرره . كأنه يعرف أن هناك زرارا قد أفلت من القميص . ولم يشأ أن يسويه . . ولكن عندما علم أن « الأسطى » قد صحت من النوم ، وأنها سوف تنزل لتتناول قهوة الصباح معنا أسعده ذلك . . ويبدو أنهم أيقظوها ؛ فليس من عادتها أن تصحو فى الواحدة بعد الظهر . . إنما تصحو عند المغرب . . وتتناول إفطارا وتظل توقظ أعضاءها واحداً واحداً بالقهوة السادة ، فإذا صحت كلها راحت تنومها واحدا واحدا بأنفاس الشيشة ، ثم تعود توقظها . . أو على الأصح « تضبط » إيقاع النوم واليقظة فى جسمها . . مرة بالقهوة

ومرة بالحشيش ومرة بالكونياك وأخيرا بالأفيون . . وهنا تصل إلى مرحلة « السلطنة » أى أنها أصبحت سلطانة على عرش الليل والفرفشة . .

ووقف الأستاذ الشجاعى وانتفض الشيخ عبد اللطيف . . ونهضنا أيضاً ، وهجمت على الأستاذ الشجاعى تقبله . . أما الشيخ عبد اللطيف فقد لكمته فى صدره وسقطت عمامته على الأرض . . وأقسم الشيخ عبد اللطيف أن يترك هذه العمامة فى مكانها قائلاً : هذا هو مكانها الطبيعى . . وخير لها أن تدفن نفسها حية . على أن تظل على رأسى . .

وضحكت الأسطى لتقول : والله العمامة محترمة ، انما أنت رجل مسخرة ، إنها تبوس رجلك أن تطلق سراحها . . إنى أتشاءم كلما رأيتك ، شكلك كالحانوتى .

ونظرت الينا وقالت : كيف حالكم يا أولاد ؟

ونظرت إلى الأستاذ الشجاعى متسائلة : هل سيعملون معنا ؟

قال بسرعة : لا . . لا . . إنهم تخرجوا فى الجامعة . .

– أفندية يعنى ؟

– نعم .

– وماله ؟ . . إنت أفندى وتشتغل فى الفن . .

– ولكنهم مختلفون عنى كثيرا . .

– هل أتيت بهم لكى أتفرج عليهم ؟

– جاءوا يتفرجون عليك أنت . .

– أهلا وسهلا . . وماذا يريدون أن يتفرجوا عليه ؟

– عليك أنت شخصياً .

– تفرجوا يا أولاد . . املأوا عيونكم على الآخر . . بحلقوا . . اشربونى . . ابلعونى . . أذوب أنا . . اهضمونى . . أموت فيكم . . موتونى فيكم ! .

– اسمعى يا أوسطى . . . حاسبى . . إنهم صغار . . لحمهم طرى جدا . . إننى لم آت بهم إليك لكى أفقدهم من أول لحظة . . إنهم فى بعثة دراسية . . وأنا أقوم بدور المرشد السياحى فأقول لهم . . هنا الهرم . .

وتراجعت إلى الوراء جداً ، وكانت لها ضحكة طويلة : الهرم ؟ أين الهرم ؟ هل رأيتم الهرم ؟ . . أحب أبو الهول . . هاها . . هاها . .

وكانت هذه أول مرة نكون فيها على مسافة قصيرة من راقصة أو من عالمة . . فالمسافة لا تزيد على نصف متر . . أو لم تكن هناك مسافة على الإطلاق . . فالعطور التى وضعتها تجتاز هذه المسافة وتدخل

فى أنوفنا . . ودخان الشيشة يلتف حولنا ويشدنا إليها . وقد تصبب العرق من وجوهنا جميعاً . كأننا خرجنا من الحمام . ثم لففنا بشكيراً واحداً حولنا ، وراحت تدور بنا يمينا وشمالاً . فهى كثيرة الحركات . تتحدث إلى كل الناس يمينا وشمالا . . . وكانت ممتلئة اللحم . . بيضاء ، وفستانها ضيق أحمر . كأنها ملفوفة فى قطعة من جهنم ، وصدرها عريان وكتفاها . . وقد وضعت ساقا على ساق . . وكلما تذكرت ذيل فستانها فإنها تسحبه إلى أعلى لتبرز ساقاها الممتلئتان . . أما وجهها فستدير . وعيناها واسعتان ليس فيهما أى معنى . . إنهما مفتوحتان وتنظران إلى الواحد منا فى عينيه . . إنها لا تريد أن تعرف شيئا . . . إنما هى فقط تجعلك تحس أنك شىء صغير . وأنها تراك ضمن أشياء كثيرة حولك . . كالمقاعد والمناضد والأرض المفروشة بالرمل . . والعربات . . فلست وحدك المقصود بالاهتمام ، فأنت لست صغيراً جدا لدرجة أنها تتجاهلك ، ولست كبيرا جدا لدرجة أنها تخصك بالنظر . . أما الحديث الذى بينها وبين الأستاذ الشجاعى فأكثره لا نفهمه . فبينهما كلام كثير وقصص وأسماء ورموز وضحك طويل وقصير ، وضحك يرميها إلى الوراء . وضحك يسقطها إلى الأمام لكى تتمكن من لمس يده أو صدره . واقترب منها الجرسون ، وقدم لها شنطة بها عدد كبير من المفاتيح . . وأخرجت المفاتيح ، ووضعتها على المنضدة ، ثم أخرجت المرآة وأدوات التجميل . وبسرعة رسمت خطا على الشفاه شديد الأحمرار ، ووضعت كرة مستديرة على الخد . . وشدت خطا أسود تحت العين . . وخطًا غليظًا على الحاجب . . ويبدو أنها رأتنا نبحلق فيها ، فقالت : يا أولاد . . ألا تفعل ماما شيئا من ذلك ؟

وصرخ الشجاعى : حاسبى . إنهم من الزجاج . . كلمة من هنا وكلمة من هنا . حاسبى عندك . إنهم فى سنة أولى حياة . . إنهم لم يدخلوا مدرسة « الهلس » بعد . . فى عرضك . . إنهم « عهدة » فى ذمتى . .

– كتاكيت ؟ وأول ما تشطح تنطح ؟ . . اذهب بهم إلى الكيت كات . . كتاكيت الكيت كات . . حلوة . هاها . هاها . يا حبايبى عندما تحصلون على الشهادة أهلا بكم فى شارع محمد على شكلهم حلو جدا . . والله زمان إننى لم أر هذا النوع من مخلوقات ربنا من سنين طويلة . . كل الذين أراهم ذئاب وكلاب . . والكلاب أكثر . . ربنا يكملكم بعقلكم ويوفقكم . . طيب الهلس لا . والكلام العادى لا أيضا ؟

قلت : شكرا على شعورك الرقيق . .

قالت : الله . . إنه يتكلم . . اللهم صل على النبى . . اسم الله . . شعورى الرقيق ؟ والنبى كلامك حلو . وكلهم مثلك يتكلمون أو أنت الوحيد الفصيح الغلباوى ؟

ونهض الأستاذ الشجاعي . . ونهض الشيخ عبد اللطيف . . . وتلفتت الأسطى إليهما وقالت : ماذا جرى ؟ .

ولم يرد أحد عليها . وفجأة ظهر الأستاذ من بعيد . . إنه فى طريقه إلى إحدى المكتبات فى شارع محمد على . . ونظرت الأسطى وقد وضعت منديلاً أحمر له شراريب نزلت على وجهها . ونظرت بجانب وجهها فوجدت الأستاذ ، فقالت بمنتهى الهدوء : هل هذا هو الأسطى بتاعكم ؟ . . أعرفه . . إنه الرجل الذى يشتم كل الوزراء . . والله رجل . . لا مانع عندى أن أتزوج رجلاً كهذا . . طويل عريض ويضربنى كل يوم علقة . . والله لن أقول له كلمة واحدة . . رجل ملء هدومه .

ودون أن يقول الأستاذ الشجاعى لهذه السيدة كلمة واحدة . . ولا الشيخ عبد اللطيف . اتجهنا جميعا إلى حيث ذهب الأستاذ . لقد أعدوا له مقعدا . وأعدوا له ترابيزة صغيرة . وجاء كل من فى المكتبة يصافحون الأستاذ وينحنون على يده . . وبعضهم قبل يده .. ويعترض هو على ذلك . وجلس الأستاذ بالقرب من الباب . ولم يكد يرانا جميعا حتى قال : أهلا يا مولانا . . أنت موجود هنا ؟ أفهم ذلك . . ولكن هؤلاء المساكين ما الذى أتى بهم هنا ؟ . . هل أفهمت الأسطى أنهم أولادك من زوجتك الأولى التى ماتت فى حادث طائرة فوق جبال الهملايا ؟ . . ها ها . . هاها . . ألم يقل للأسطى هذه القصة ؟

فقال الشيخ عبد اللطيف : لم أسمع منه ذلك . . ربما حكى لها هذه الأكذوبة قبل مجيئى . اسألهم يا أستاذ ! .

فقلنا : لم نسمع يا أستاذ .

قال الأستاذ : إنها إحدى قصص أخينا الشجاعى . . فهو يوهم كل واحدة أن زوجته الأولى قد ماتت فى حادث . . وعندما يحكى هذا الحادث يزعم أن خلافا فنيا حادا هو السبب ، فهو يفضل السمفونية التاسعة لبيتهوفن ، بينما هى تفضل السمفونية الخامسة لأن ذوقها شعبى . . ولأنها تحب ما يحبه الناس . . فليس لها ذوق مستقل . . وعندما يصدق الناس هذه الأكذوبة يضع العراقيل أمام المرأة حتى لا تتزوجه مطلقا . . أو تفكر فى ذلك . فهو يعطى انطباعا بأنه فنان مجنون ، وأن ذوقه حاد . . وفى نفس الوقت غير مفهوم ، ثم إن لديه أولادا كبارا وهم أحق منه بالزواج . . والغلطة التى يقع فيها الشجاعى هى أن الأولاد الذين يدعى أنهم من زوجته يكونون فى أسنان متقاربة . وأحيانا من سن واحدة . . ثم إنهم ليسوا متشابهين ، وليس أسهل على المرأة من أن تدرك ذلك . . وتقتنع كل امرأة بأن الشجاعى رجل مجنون ، يبعث على الشفقة . ولكنه لا يبعث على الإعجاب والتضحية من أجله . . وهنا يحس أخونا الشجاعى أنه انتصر وأنه فى مأمن من الزواج . هاها . . هاها . . ولكنك يا مولانا لا تستطيع أن تضحك على الأسطى . . فإذا كنت حاويا فهى أم الحواة . . فلديها عدد من

البنات الصغيرات تقدمهن للناس على أنهن أخواتها . . ولكن ليس من الصعب أن تكتشف أنهن بناتها من أزواج مختلفين . . ولكنها لا تريد أن تبدو عجوزا . . أو صاحبة تجارب فى الزواج الفاشل . . إنما يسعدها أن توهم كل إنسان أنه هو وحده تجربتها الأولى فى الحب وربما فى الزواج . . هاها . . هاها . .

ويضحك الأستاذ الشجاعى ويقول : والله كادت تفترس هؤلاء الشبان . . ولكن الله قدر ولطف . . أنت جئت فى الوقت المناسب يا أستاذ لإنقاذنا .

وضحك الأستاذ : هذه المرة جئت فى الوقت المناسب . ولكن كم عدد المرات التى لم أجىء فيها ؟ . . هاها . . هاها . .

قال الشجاعى : إنها تريد أن تستشيرك فى بعض أمورها .

قال الأستاذ : أنا موافق تماما .

قال الشجاعى : ولكنك لا تعرف ما الذى سوف تستشيرك فيه يا أستاذ .

قال : أعرف يا مولانا . . إنها سوف تسألنى إن كنت تصلح أن تكون زوجها وأنا موافق مع تعديل بسيط . . هو أن تتزوجك أنت وفرقتك الموسيقية . . أو أن تتزوج الفرقة وتبقى أنت فى مكانك تمسك العصا وتقود الجميع . . هاها . . هاها . .

ووقف الأستاذ يصافح شابا أزهريا صغيرا وانحنى الشاب يقبل يد الأستاذ . وأشار إليه الأستاذ أن يجلس . وقال متلطفا معه إلى أقصى درجة : ماذا فعلت يا مولانا ؟ هل وجدت الكتاب يا مولانا ؟ .

فقال الطالب الصغير : تعبت يا أستاذ ، وذهبت إلى ابن عمى فى الزقازيق ، ولكن لم أجده . وهو كتاب قديم ونادر فى المكتبات .

فضحك الأستاذ وقال : قديم يا مولانا ؟ . . صدر منذ أكثر من ألف عام ؟ . . سوف أعطيك نسخة من الكتاب على أن تردها بعد أسبوع . .

قال الطالب الصغير : بل بعد يوم واحد . . إننى أريد فقط أن أعرف هل كان الشيخ الذى وقف على باب بيت « الندوة » فى مكة إبليس نفسه أو واحدا من الشياطين الصغار ؟ .

واندهشنا لهذه المشكلة . . ولكن الأستاذ لم يشأ أن يصدم الطالب الصغير ، إنما قال له : يا مولانا . . لقد حدث عندما قرر الرسول عليه السلام أن يهاجر من مكة إلى المدينة أن انتظر حتى يأذن الله له . . ولم يبق معه إلا أبو بكر وإلا على بن أبى طالب . . وحتى عندما حاول أبو بكر أن يهاجر طلب إليه الرسول أن ينتظر لعله يجد رفيقا . . وكان الرسول هو الرفيق . . ويقال ، وهذا فى « تاريخ الطبرى » . . إن أهل قريش اجتمعوا فى بيت الندوة ، ليتخذوا قرارا ضد الرسول

ودعوته . . ووجدوا على الباب شيخا معمما . فسألوه : من أى البلاد ؟ فقال إنه من نجد وإنه جاء يعينهم على التخلص من الرسول . ودخل معهم الندوة وسمعهم يفكرون فى وسائل القضاء على الرسول . . فبعضهم اقترح سجن الرسول ووضعه فى الحديد ، كما وضعوا قبل ذلك الشاعرين زهيرا والنابغة . ولكنهم خافوا أن يؤدى السجن إلى المقاومة وإلى ثورة المؤمنين بالإسلام ضد أهل قريش . . ولكن أبا جهل اقترح أن يجيء عدد من الناس من كل قبائل العرب ويمسكوا سيفا واحدا ويضربوه مرة واحدة . . وبذلك يتفرق دمه فى القبائل . . وبذلك تضيع معالم التهمة . . ورأى إبليس أن هذه هى أحسن نصيحة . . ولكن جبريل عليه السلام طلب إلى الرسول أن يهاجر فورا . . وقال له : لا تبت هذه الليلة فى فراشك . وفى الليل اجتمعوا أمام باب البيت وطلب الرسول إلى على بن أبى طالب أن ينام فى فراشه وأن يتغطى بما كان يتغطى به الرسول . . وخرج الرسول وأمسك حفنة من التراب وراح ينثرها على رءوسهم وهو يتلو هذه الآيات من سورة يس « يس . والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم » إلى قوله تعالى « وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون » .

قال الطالب الصغير مقاطعا : إن والدى يقرؤها عادة عندما يزورنا أقاربنا . . ويقول إن هذه الآيات تمنع الحسد . . وأنا أومن بذلك .

وضحك الأستاذ وقال : اسمع يا مولانا . أولا . . إن القصة التى يرويها الطبرى لا تختلف إلا فى تفاصيل صغيرة عن الروايات الأخرى . فما الذى تريد أن تصل إليه يا مولانا ؟

قال الطالب الصغير : إن الذى دخل الندوة لم يكن إبليس نفسه . إنما هو واحد من الشياطين الصغيرة . . وهذا الشيطان قد تصرف من تلقاء نفسه . . ولم يستأذن إبليس . . لأن إبليس على أيام الرسول قد يئس من الكفر . وقد آمن بالرسول عليه الصلاة والسلام . . لقد آمن به الإنس والجن والطير والشجر .

قال الاستاذ : الآن فهمت . أنت إذن قرأت ذلك البحث الذى كتبه المستشرق الألمانى نيلدكه . . والذى نشرته إحدى المجلات العراقية . . أليس كذلك ؟

قال الطالب الصغير : بلى . . والبحث فى جيبى .

ثم أخرج ورقة قد طواها فى جيبه . . ونشرها أمامنا . . وكان قد وضع خطوطا حمراء تحت كثير من السطور .

ولم يشأ الأستاذ أن ينظر إليها . إنما قال : قرأتها يا مولانا . ولكن يجب ألا نأخذ ما يقوله المستشرقون على أنه قضية صحيحة . . إنهم أجانب مسيحيون ويهود . . ولا يحسنون فهم اللغة العربية . . وهم يشغلون أنفسهم بقضايا لا تفيد أحدًا . . وهذه واحدة من القضايا . . ولكن لا مانع

من أن تنشغل بها . . على سبيل الرياضة العقلية . . وعلى سبيل تدريب قدراتك على البحث ، وتدريب نفسك على الصبر . . تماما كما يحاول الإنسان أن يضرب بيديه كيسا من الرمل . . كنوع من التدريب على الملاكمة . . أوكما يحطم الصخور تدعيما لعضلاته . . أوكما تستغرقه تمرينات الكلمات المتقاطعة . . وهى ذات فائدة مؤقتة . . ولكنها لا تجدى . .

قال الطالب الصغير . وقد بدا على وجهه الصدق والاستغراق التام وهو يسأل أيضا إن كان صحيحا أن جبريل عليه السلام كان يرتدى ثوبا من قطعة واحدة أو من قطعتين . . أوكان أبيض تماما أو أبيض وبه خطوط خضراء . . أو زرقاء . .

قال الأستاذ : يا مولانا . إنها نفس القضية التى لا أهمية لها وإن كنت ترى أن هذا البحث يشحذ همتك وينشط عقلك ، فافعل . . إن هذا الشاب الصغير مشغول بإبليس الذى لا يعرفه . . بينما أنت تعاشر إبليس طول حياتك ولم تفكر لحظة واحدة يا شجاعى إن كان يمسك عصا أو يمسك سيفا .

وبسرعة رد الشجاعى قائلا : إبليس الذى أعرفه يمسك الكأس فى يد والصاجات فى اليد الأخرى . . ولكن لا أشغل نفسى كثيرا إن كانت الكأس فى اليمنى أو اليسرى . . هاها . . هاها . . لقد فاتنى أن آخذ هذا الطالب النجيب إلى الأسطى ليغمى عليها حين ترى هذا الشاب المؤمن يسأل عن جبريل وإبليس . . ولا ينظر إليها ولا يهمه ذلك . .

ثم اتخذ الشجاعى شكلا جادا وقال : ولكننى يا أستاذ لا أومن بأن هناك شياطين . .

وقاطعه الأستاذ : إذن فأنت لا تؤمن بنفسك . . هاها . . هاها . .

ووقف بباب المكتبة جرسون المقهى . وقد حمل صينية عليها ثلاثة فناجين من القهوة وكوبان من الماء . وقال : الأسطى تسلم على الأستاذ . تفضل . . اختر ما يعجب مزاجك . . هذه قهوة سادة . . وقهوة مضبوطة . . وقهوة زيادة . . وكوب ماء من الحنفية . . وكوب ماء مثلج . . تفضل يا أستاذ . . أى خدمة . . محاسيبك يا أستاذ . . منور الشارع كله يا أستاذ .

وكأن شيئا لم يحدث ، فقد اندفع الطالب الصغير وأخرج الورقة من جيبه . وقال للأستاذ : هل تذكر المقال كله يا أستاذ ؟

قال : نعم يا مولانا . .

قال الطالب الصغير : إذن فأين توجد الجنة يا أستاذ ؟ . . إن كاتب المقال يقطع بأنها جنوبى العراق .

فضحك الأستاذ قائلا : كاتب المقال يقول مايعجبه ! ولكن كيف يقطع يا مولانا ؟ إنه لا يوجد شعب لم يقل فى تاريخه ولم يجد أدلة تؤكد لنا أن الجنة سوف تكون على أرضه . . ولو عدنا إلى التوراة

فإننا نجد أنهم وضعوا الجنة شرق عدن . . ثم عادوا ووجدوا آيات تقول إنها جنوبى العراق عند أرض سومر . . وآيات تقول بل شمالى العراق فى أرمينيا . . وفى التوراة آيات تقول إنها فى مصر . . وإن النيل هو نهر الجنة . . وهناك من يقول إنها فى شرق أفريقيا . . وفى سنة ١٨٩١ عثروا على أقدم هيكل عظمى للإنسان فى جزيرة جاوة بأندونيسيا ، فقالوا إن آدم وحواء عاشا هناك . أى فى الجنة . . وفى القرن الماضى اهتدى أحد العلماء إلى أن هناك قارة غارقة فى المحيط الهندى اسمها ليموريا . . وأن حيوان الليمور كان يسكنها . وأن هذه القارة كانت الجنة . كما أن أحد علماء الحياة الإنجليز قد آمن بأن إحدى جزر سيشل هى المكان الحقيقى للجنة . . هذا الرجل هو تشارلز جوردون . . وقد بهرته الأشجار والثمار والطيور والزهور . . والعالم المعروف برنسلى ترنست يعتقد أن الآيات التى جاءت فى التوراة ليست دقيقة . . ولذلك فالأنهار الأربعة التى تحدثت عنها التوراة لا توجد إلا على المريخ . . فالمريخ هو مكان الجنة التى هبط منها آدم وحواء إلى كوكب الأرض . . والأمريكان قد وجدوا أن الجنة عندهم . كأنه يعز عليهم أن يوجد شىء فى أى مكان آخر ليس له نظير فى بلادهم . . فقد أعلن أحد القساوسة أن النهر الذى تحدثت عنه التوراة موجود بالقرب من مدينة بريستول بولاية فلوريدا . . فالنهر اسمه ابلا شيكولا . . وله أربعة فروع . . ثم إن هذه المدينة هى المدينة الوحيدة فى أمريكا التى تنمو بها أشجار الكافور . وقد بنى نوح سفينته من خشب الكافور . وذهب قسيس أمريكى آخر إلى أن جنة عدن كانت بين نهر المسيسبى وجبال روكى . وأن الطوفان عندما جاء دفع سفينة نوح شرقا حتى وصلت إلى جبل ارارات فى ارمينيا . ولو تركنا الموقف يفلت من أيدينا فإن أخانا الشجاعى سوف يؤلف كتابا ويرسم فيه خريطة للجنة . ولا أستبعد أن يختار لها هذا المكان الذى تقف أنت عليه الآن . . هاها . . هاها . . إن الجنة يبدأ الطريق إليها من هنا . . من القلب يا مولانا .

ولم يضحك الطالب الصغير . ولكنه ازداد هما . ثم انصرف دون أن يصافح الأستاذ أو يصافح أحدا منا . . وظللنا نتابعه بعيوننا نشفق عليه من الترام أو مما سوف يفعله بعد ذلك من القراءة أو الكتابة . .

ونهض الأستاذ . وتلفتنا لنرى من الذى وقف لتحيته . لا أحد . لقد استأذن الأستاذ وصافحنا وانصرف . .

وبصورة واحدة . وبدرجة واحدة ، وكأننا أعضاء فى فرقة موسيقية تنفسنا فى وقت واحد . . ارتفعت صدورنا وهبطت معا ونظر إلينا الأستاذ الشجاعى وقال : مساء اليوم فى الساعة العاشرة هنا .

وأشار إلى المقهى ، وتركنا دون أن يصافحنا . وكان من الممكن أن يذهب مع الأستاذ لو أن

الاستاذ طلب إليه ذلك أو سأله أن يرافقه . ولكن الأستاذ لم يشأ ولا الشجاعى أراد ذلك . . وتفرقنا . . نحن سرنا معا وراء الأستاذ الشجاعى ، دون أن نلحق به حتى لا نبدو كأننا نسير معه . . أما الشيخ عبد اللطيف فقد أمسك عمامته فى يده وعاد إلى المقهى دون أن يدعونا إلى الجلوس معه . . لقد انصرفنا . . انفرطنا . . كأننا كنا مربوطين بخيط ممزق . . ولسبب لا نعرفه انقطع الخيط ، فتناثرنا فى كل اتجاه . .

وعاد الشارع إلى الحياة . . إلى الوجود . . لقد كان غائبا عن عيوننا وعن آذاننا ، فالشارع ضوضاء : الترام والعربات والمشاة . والضوضاء لها رائحة الشواء والملوخية والسمك والشيشة والتراب . . وبدت الألوان كلها باهتة . . الأرض سوداء شاحبة . . ولا تلمع عليها إلا أغطية المجارى وقضبان الترام . . والصاجات النحاسية للموازين على العربات الكارو . . وبعض الآلات الموسيقية قد تعلقت على الأبواب . والملابس القديمة المغسولة تدلت من النوافذ والبلكونات . . وعدد هائل من المكسحين والشحاذين والذين يتساندون على العصا ويتشعبطون فى الترام والعربات . . والراديوهات مفتوحة على الأغانى والموسيقى .

وسكتنا عن الكلام بينما كل شىء فى الشارع يتكلم . . وتلاشينا بين كل شىء وكل أحد . . وكأننا سددنا آذاننا حتى لا نسمع أى كلام آخر . . وحتى لا تفوتنا كلمة أو عبارة أو معنى أو علامة استفهام أو تعجب . . فإذا خلونا إلى أنفسنا سجلنا بعض الذى سمعناه . لنعود إلى مناقشته فى لقائنا الأسبوعى أمام محل « البن البرازيلى » فى شارع سليمان باشا .

فشَـل الحُبّ وَحُبّ الفَشَـل !

بدأ كل شيء دردشة . كلمة من هنا ورد عليها من هناك .. وأحيانا تكون الكلمات مثل ضرب الطوب . وأحيانا تكون مثل قزقزة اللب .. نسمعها ولا قيمة لها . أو نراها ولا هدف لها . . وكان الوقت يمشي ثقيلا .. كأنه مقشة تزحف على الأرض وتثير غبارا . . ولو اتجهت هذه المقشة إلى إزالتنا نحن أيضا ، لما اعترض أحد على ذلك . . وقد رأيت واحدًا من الجالسين يتثاءب مع أنه لم يمض على لقائنا سوى نصف ساعة . ووجدت من ينظر إلى ساعته ، رغم أن الأستاذ كان يتحدث فى السياسة والتعليق على ما جاء فى الصحف . وعلى المقارنة بين د . على إبراهيم الجراح الشهير وأطباء آخرين . .

وفى كل مرة يتحدث فيها الأستاذ عن الأطباء ، يشير إلى رجل قصير القامة نحيف امتلأت عيناه بالحيوية والحيرة . فقط عيناه .. وله شفتان مستديرتان .. كأنهما شفتا طفل .. كأنه يريد أن يبعث بقبلة فى الهواء ، ولم يجد أحدا ! . إنه د . إبراهيم ناجى الطبيب الشاعر الرقيق . ولكنه لم يشأ أن يرد بكلمة عن كل الذى قيل نقدا وهجوما عنيفا على الأطباء . وكان الأستاذ يتنقل بنظراته بين الحاضرين ، فلم يجد واحدا يحادثه أو يبارزه ..

ثم قال : ما رأيك يا سيد حمام ! ..

إنه الشاعر اللطيف محمد مصطفى حمام . وهو رجل كبير الرأس كبير الكرش منفوخ العينين . ليس فى حاجة إلى أن يضحك لأى سبب ، فهو دائم الضحك جاهز النكتة ، وله قدرة هائلة على تقليد الأصوات . فكان يقلد مصطفى النحاس باشا وهو يخطب ، وإبراهيم باشا عبد الهادى ، والصحفى الكبير توفيق دياب صاحب جريدة « الجهاد » . . وكان بعضنا يضحك لذلك – أى هؤلاء الذين يعرفون أصحاب هذه الأصوات . وكان الأستاذ يطلب إليه أن يؤذن وأن يقرأ القرآن فيقلد صوت الشيخ رفعت والشيخ على محمود وغيرهما .. وأغرب من ذلك أنه كان يقلد الأستاذ نفسه فى الحديث وفى الغضب وفى السخرية ..

ولم نر الأستاذ يضحك بهذه القوة حتى نزلت الدموع من عينيه إلا هذه المرة . فقد جلس الأستاذ حمام ووضع يده اليسرى فى داخل البنطلون . كما يفعل الأستاذ . وقال فى صوت الأستاذ ونبرته وملامح وجهه ، وبالغ فى القرف على شفتيه والغضب فى عينيه : إن الطريق إلى السماء صعب .

ولا يوجد طريق لا يمر بهذا البيت . وأنا لا أبرح هذا البيت . إذن فكل طريق الى السماء يجب أن أدرى به . وإذا دريت به وضعت له القواعد والأصول . ولا توجد قواعد لا تتفق مع عقلى ، وما فى عقلى هو فى عقل الله أيضا .. لأن الحكمة الإلهية واحدة ، وما دامت واحدة فإن الذى أراه صوابا هو ما يراه الله أيضا .. ولو جاءنى واحد من الملائكة وأنكر ما أقول أو خالفنى فيه فعندى تفويض إلهى بأن أضع أصابعى فى عينيه لأنه كافر بالله الذى وضع المنطق فى عقلى . ومنطقى ليس إلا علامات المرور فى كل طريق من الأرض إلى السماء .. ولذلك يا مولانا ...

ولم يكمل . فقد تعالى الضحك والتصفيق للأستاذ محمد حمام . وكان الأستاذ أكثرنا ضحكا . وطلب إليه أن يعرض أمثلة أخرى . وطلبنا نحن أيضا . فاعتدل الأستاذ حمام وراح يفكر بسرعة ، ثم وضع طربوشه فى مقدمة الرأس ، وظهر القرف على وجهه . وقال ضاحكا : لتكن أنت طه حسين وأنا الاستاذ العقاد . وأشار إلى الشاعر الرقيق صالح جودت . فهو شاب أسمر اللون نحيف . وهو الآخر له رأس قد خف شعره وثقل وزنه على الكتفين . فهو يلقى برأسه إلى الوراء قليلا . ثم يتركه هكذا دون أن يحركه حتى عندما يضحك . وله عينان واسعتان حالمتان لامعتان . ولا يرفع السيجارة من شفتيه . وكان يتابع الأستاذ حمام دون دهشة . كأنه يعرف كل ما قال وما سوف يقول . ولما أشار إليه الأستاذ حمام قال له صالح جودت : لا . بل أفضل أن تقلد طه حسين .. حكاية المركوب يا حمام .. المركوب ..

قال الأستاذ حمام : إذن فأنت تريد منى أن أقلد طه حسين . . سوف أقلد لكم طه حسين ..

وأخرج منظارا أسود من جيبه . وهبط برأسه قليلا . ومده إلى الأمام . وقال : إذا كنت راكبا حمارا ، فأنا راكب والحمار مركوب . ولما كان المركوب هو الذى نلبسه فى القدم ، ولما كان الحمار لا يلبس فى القدم فالحمار ليس مركوبا . ولما كنت راكبا . ولم يكن الحمار مركوبا . فلا أنا راكب ولا الحمار مركوب .. ولا عرف أبو العلاء هذا النوع من المراكيب .. فهناك أكثر من مركوب . فالمركوب الذى يلبس فى القدم ، من الجلد الميت .. ولما كان الحمار له جلد ليس ميتا . ولما كانت له أربع أرجل وذيل وأذنان .. فلم يعرف أبو العلاء هذا النوع من المراكيب .. إذن فأى أنواع المراكيب كانت شائعة على أيام أبى العلاء ؟

وتضاحك الحاضرون جميعا . وكان الأستاذ عالى الضحك ، وكان الأستاذ عبد الرحمن صدقى يضحك ويقف ، ثم يجلس ويقف ويقول : تماما كما لو كان طه حسين هو أحد هذين المركوبين ! ها ها .. ها ها .

ولم يضحك أحد لهذه العبارة الغليظة !!

وعاد الأستاذ حمام يقول : لو أن الأستاذ العقاد هو الذى يريد أن يتكلم عن المركوب لقال ..

وعاد الأستاذ حمام إلى هيئة العقاد فى وضع اليد والجلسة والطربوش ومعالم القرف والجدية والتعالى والغرور والنظر بعيدا عن كل الحاضرين ، ثم يجىء الكلام من حنجرته وليس من شفتيه . يقول الأستاذ حمام : لقد جاء وقت على العرب لم يكونوا يفرقون فيه بين أن يركب الإنسان حمارا وأن يركب حذاء أو برطوشة قديمة . ولذلك وجدنا فى القاموس كلمة واحدة للحمار والبرطوشة . وهى كلمة : مركوب . وفى ذلك دليل على عبقرية اللغة العربية واختلافها عن بقية اللغات السامية . والإنسان عندما يركب الحمار ، فإنه يعلو عن الأرض . وعندما يركب البرطوشة فإنه هو والبرطوشة يكونان ملاصقين للأرض . فإن ركوب البرطوشة أكثر دلالة على الركوب . لأن الحمار يعلو براكبه عن الأرض . ويحمل العبء كله .. أما البرطوشة ، وهى تحمل صاحبها أيضا . فإنها لا تبعد عن الأرض . إنما تجعل الأرض شريكا فى هذا العبء . ولذلك فقد عرف الإنسان الواقعية والقرب من الأرض يوم تعلم لبس البرطوشة . وكان مبالغا مسرفا عندما ركب الحمار وأكل فوق ظهره . وحمل أولاده وزوجته أمامه ووراءه . وليس من قبيل الصدف أن نجد الفراعنة فى الأسرة العشرين يمشون حفاة . فلا هم ركبوا الحمار ، ولا هم ركبوا البرطوشة .. إنما التحموا بالأرض . وفى اللغة الفرعونية القديمة : أن الالتحام معناه أن يأكل الإنسان اللحم . وأن يركب البرطوشة . وليس بعيدا عن العقل أن تقول إن اللحم فى الأسرة العشرين كان أقرب إلى البراطيش .. ولذلك قويت أسنان الفراعنة . ولم يعرفوا طبيب الأسنان .. وفى كتاب .. نقرأ أن واحدا من الأرواح عندما ذهب إلى عالم الموتى . وجد الآلهة قد علقت أحد المجرمين على الحائط . . لم يعلقوه من حبل تدلى من السقف . إنما وضعوه على الحائط . وفى ذلك إشارة إلى أن هذا الرجل إما أنه كان برطوشة .. وإما أنه كان صانعا للبراطيش .. وإما أنه كان جزارا .. والرأى عندى أنه كان واحدا من حزب الوفد له خال أو عم شيوعى . . فرأسه مثل القوالب الخشبية التى يضعونها فى الأحذية لتجعل الحذاء مشدودا . . فإذا أصبحت مشدودة أخرجوا منها القوالب .. ووضع الشيوعيون رءوسهم فيها .. وليس غريبا أن الشيوعى تروتسكى عندما ألقوا القبض عليه أمسك الحذاء فى يده وهددهم .. إنه لم يهددهم . إنما الحذاء هو أحد الشعارات الشيوعية .. ولما كان الشيوعيون يمشون على رءوسهم أى على عقولهم ، أى على أفكارهم .. فرءوسهم تحت . وأرجلهم فوق .. ولما كان الشيوعيون حريصين على رأس الفكر وليس رأس المال ، فإنهم يضعون رءوسهم فى أحذية فلسفية .. فى براطيش مذهبية .. ولو نظر واحد منكم إلى الطريقة التى يرتدى بها النحاس باشا طربوشه . وكيف إن الزر والطربوش يتحركان يسارا دائما ، لأدرك أن هذا الرجل ، إن لم يكن شيوعيا ، فلديه ميل طبيعى لذلك .. وشوقى شاعر الخديو .. ها ها .. ها ها .. ها ها ..

كان الأستاذ أكثر الحاضرين ضحكا متواصلا ، وكثيرا ما قاطع الأستاذ حمام ..

وبعد ذلك راح يقلد النحاس باشا وخطبه المعروفة فى ذلك الوقت .. ولا أذكر أننى استمعت إلى واحدة منها .. ولكن استمعت عرضا إلى ما يذيعه الراديو .. قال حسام وقد دفع طربوشه إلى الوراء . ووقف وسوّى الجاكتة . ونظر حوله بانفعال وقال : أين مكرم ؟ . .

يقصد مكرم عبيد .. الشخصية الثانية فى حزب الوفد ..

وعاد الأستاذ حسام يقول : اسمع يا مكرم .. أين فؤاد ؟

يقصد فؤاد باشا سراج الدين نجم الوفد الساطع اللامع .. وعاد الأستاذ حسام يقول : كلهم موجودون .. ولقد مررنا بالقطار على المدن التى بها محطات والمدن التى ليست بها محطات . وعلى المحطات التى بها قطارات ، وعلى القطارات التى لا تقف فى المحطات .. وعلى المحطات التى تزاحم فيها الناس يهتفون بحياة زعيمهم المفدى صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا زعيم الشعب غير منازع .. وعلى المحطات التى تزاحم فيها الناس وبحت حناجرهم فلم يتمكنوا من الهتاف لنا .. ولكن همساتهم كانت مثل الرعد والبرق ، وقد انتقلت من قلوبهم إلى قلوبنا .. بل انتقلت قلوبهم إلينا .. وسوف تعمل حكومتى على تركيب قلوب صناعية لكل هؤلاء المواطنين الشرفاء ، حتى تتمكن حناجرهم من الهتاف لنا عند عودتنا من الإسكندرية إلى القاهرة فى معيّة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول حفظه الله ليبقى فى الحكم إلى أبد الآبدين .. تصفيق .. تصفيق حاد .. أين مكرم ؟ أين الهلالى ؟ موجود .. أين فؤاد ؟ أشعل سيجارك يا فؤاد فقد انطفأ .. أنا أعرف جيدا الولد الذى يبيع لك الكبريت .. إنه من الهيئة السعدية . أعرفه .. أمسكوه .. تصفيق حاد ..

وبعد ذلك راح يقلد صوت إبراهيم باشا عبد الهادى . وكان صوته نحيفا أو نحيلا كما يقول طه حسين .. وكان يضغط على الحروف ويخرجها بالتوازى من الأنف والحنجرة فى وقت واحد .. ولذلك فصوته خليط من القوة والنعومة . ومن العصبية والغنائية . وكان أنيقا ، فالأستاذ حسام قد وقف واستند بيديه إلى المقعد الذى دفعه أمامه . ثم زرر الجاكتة وأخرج منديلا من جيبه . وتلفت حوله فى أناقة وثقة بالنفس !

وفجأة سكت الجميع

لقد استهلكنا الأستاذ حسام الذى يبدو أنه اعتاد على إشاعة المرح فى كل مكان .. وعرف متى يتكلم ومتى يسكت .. ومتى يجلس ومتى ينهض . فقد نهض فى نفس اللحظة التى فيها نريد منه أكثر . وعندما وقف الأستاذ حسام بدا ممتلئا وبدت كرشه رجراجة . وبدت جيوبه منتفخة بالأوراق والمناديل والملبس والشيكولاتة الصغيرة ، وانحنى على يد الأستاذ . وتبعه صالح جودت وإبراهيم ناجى . ولكن الأستاذ استوقف واحدا بجفاوة شديدة ، وطلب إليه أن يبقى لأنه يريد أن يتحدث

إليه . ولكن الرجل لم يشأ أن يرد بكلمة واحدة ، ولم يجد الأستاذ بدًّا من أن يقول له : أريد أن أراك يا شكرى . .

إنه إذن الشاعر عبد الرحمن شكرى . إنه شاحب اللون . قصير القامة . وقد صبغ شعره الذى بدا من تحت الطربوش بلون الحناء . حتى هذا اللون بدا باهتا . ولكن طربوشه قصير ، ومنظارة ملتصق بالعينين غائر فى الأنف ضاغط على الأذنين . وعندما كان الأستاذ يتحدث إليه كان عبد الرحمن شكرى قد شد نفسه بعيدا عنه . كأنه قرر أن يخرج ، ولم يتوقع أن يتحدث إليه الأستاذ . أو حتى إذا تحدث إليه فهو لا يريد أن يسمع أحدا . . وأغلب الظن أنه لم يستمع إلى أحد . ولا أضحكه شيء . إنما كان مثل مريض ذهب إلى عيادة طبيب . ولما وجد الطبيب مشغولا قرر أن يبرح المكان ، وعلى وجهه التعب والمرارة واحتقار الطب والأطباء . وكانت حركته السريعة إلى خارج الصالون شيئا حاسما . كأنه قرر أن يعالج نفسه دون حاجة إلى الأطباء ، وذلك بأن يلقى نفسه من أعلى السلم ، أو يرمى نفسه تحت عجلات المترو . ولما خرج وصفه الأستاذ بأنه : شاعر عبقرى . وقال الأستاذ : عبقرية شكرى ترجع إلى عمق فلسفته وقوة بنائه الشعرى . ولكن شكرى لا يعرف مدى عظمته . . فهو كالإنسان القوى الذى يرفع كرة صغيرة بقوة . . فهو لا يعرف أنه ليس فى حاجة إلى مجهود كبير لكى يرفع الكرة . وفى نفس الوقت لا يعرف أن هذه الكرة أخف وأصغر من أن تحتاج إلى كل قوته . . فهو إذا تحدث إلى طفل فهو سقراط . . وإذا تحدث إلى سقراط فهو الله نفسه . . ولذلك كان شعر شكرى قويا عميقا . وهو يشبه بركانا له عقل . ولكن هذا العقل مختل . . فالبركان يرمى الأعشاب والأشجار الصغيرة بالحمم الهائلة . بقصد أن يقضى عليها . . ولو أدرك البركان أن هذه الأعشاب والنباتات من الممكن أن يقضى عليها زفيره فقط ، لما وجد داعياً لأن يبذل هذا الجهد الهائل فى القضاء عليها . . إن بعض الساخرين بفلسفة سقراط كان يقول : إن سقراط مشغول بمدلول الكلمات لدرجة أن أحدا لو قال له صباح الخير يا سقراط . . لأجابه : فما معنى الخير؟ . . وتبدأ المناقشة الفلسفية . . ولو أن أحدا قال لشكرى : صباح الخير ، كما قلت الآن . لسكت شكرى طويلا حتى يتساءل عن الغرض من هذه العبارة ، والهدف وراءها ، وما دلالة نبراتها . وما قيمة أن تقال أمام الناس ، ثم يرد على ذلك فى قصيدة من مائة بيت !

وجاء صوت عبد الرحمن صدقى مثل ضفيرة من النبرات الغليظة والنحيفة والحشرجة والسخرية يقول : إنه يشبه شخصيات هوميروس فى الإلياذة . . إن شكرى كالذى أسرف فى تعاطى الأعشاب والمخدرات التى كان يتناولها آلهة الإغريق . . فهو غائب عنا وحاضر فى أماكن أخرى . . فهو يستمع إلينا ولا يرانا ، أو يرى آخرين لا يسمعهم . . وهو كالذى خرج من بيته إلى السوق ليشترى طعاماً يسويه عندما يعود وهو غالبا لا يطبخ الخضراوات الطازجة . . إنه يخرج المخزون من اللحوم

والخضراوات .. وهو طباخ ممتاز ولكن طعامه « بايت » .. أذكر أننا اختلفنا فى إضرابه عن صوم رمضان إذا جاء فى الصيف ، فقال لى : إن المطلوب أن أصوم ثلاثين يوماً .. فى الوقت الذى أراه مناسبا لى .. وحكى فى ذلك حكم أهل الإسكيمو إذا أسلموا .. فظلامهم دائم وشتاؤهم دائم .. وكل شهور السنة متشابهة . ولذلك فهم يصومون فى أى وقت . لأن الأوقات متشابهة .. ويقول : لابد أن نتفق على معانى الصوم .. فالذى يدخن يرى أن التدخين أهم من الطعام .. والذى يشرب الخمر يراها أهم من التدخين ، والذى يلعب القمار يراه أهم من الخمر والسجائر والطعام .. ولذلك – هذا رأيه – يجب أن يصوم الإنسان عن الذى يحبه أكثر من أى شيء آخر . ويقول شكرى : إنه لا يدخن ولا يشرب ولا يلعب القمار وليست له قدرة جنسية . ولا قدرة على الطعام العادى ، فعن أى شيء يصوم ؟ .. إن الأمر متروك له وحده . ولا تظن أن هذا تقشف من جانبه .. إنما هذا هو القدر القليل جداً من الحرية التى منحها الله لبعض عباده ..

– اسمع يا صدق ..

والتفتنا نرى الأستاذ محمد حسن الشجاعى . لقد ارتدى ملابس أنيقة . وسوى شعره . وكأنه نام الثلاثة الأيام الماضية . فوجهه مشرق . وبشرته اشتدت احمرارا . أما قميصه فانفتحت زرايره وظهرت كرشه .. وأدخل طرفاً من الكرافتة فى القميص وتعالت ضحكات الأستاذ كثيراً جدا ، وتراجع إلى الوراء .. وقال : يا مولانا .. أين كنت أمس ؟

فضحك الأستاذ الشجاعى . ولم يقل شيئاً . وقال عبد الرحمن صدق : كان فى بيت .. أى بيت .. ها ها .. ها ها ..

وضحك الأستاذ قائلا : أنا أقول لك أين كان .. إنه ذهب إلى واحد من هذه البيوت .. ووضع فردة حذاء تحت المخدة لكى تذكره بشيء ما .. ولما راحت عليه نومة ارتداها بسرعة .. ولم يتذكر لماذا وضعها تحت المخدة .. ثم انطفأ النور .. فنزل بسرعة . فارتدى فردة أخرى .. فالتى ارتداها نهاراً كانت سوداء .. والتى ارتداها ليلا كانت بيضاء .. انظر !

ولأول مرة نكتشف جميعا أن الأستاذ الشجاعى قد ارتدى حذاء من لونين مختلفين .. وضحك الحاضرون ..

وصرخ عبد الرحمن صدق : إنه ارتدى الحذاء الأسود لينسجم مع الجاكتة . والحذاء الأبيض لينسجم مع البنطلون .. أو إنهما يرمزان لليل والنهار .. أو إن الحذاء الأبيض ينفع فى اليوم الأسود .. وإنه تدرب على كيف يكون عادلا إذا تزوج اثنتين .. إنه يتدرب على العدل من فوق لتحت . أما تحت فما أسهل ذلك .. أما فوق فما أصعب ذلك .. إن العدل الوحيد الممكن هو ألا يفعل شيئا . ها ها .. ها ها ..

وكأن الأستاذ الشجاعى لم يسمع شيئا أو لم يجد القدرة على الضحك ، أو أنه انصرف بتركيز شديد إلى ما سوف يقول .. تماماً كما يحدث عند قيادته للفرقة الموسيقية : فالعازفون جميعا يضبطون اللعب على الأوتار والنفخ فى الآلات النحاسية ودقات الطبول .. وفجأة يضرب بعصا المايسترو بما يدل على أن موعد العزف قد بدأ ..

فرفع الأستاذ الشجاعى يديه عاليتين كأن العزف قد بدأ ، وتكون ذراعاه مثل جناحى طائر كبير قرر الطيران .. ويكون طيرانه نوعا من المعجزة ، لأن جسمه أضخم وأثقل من أن يقوى الجناحان على احتماله .. فهو بذلك أقرب إلى الأوز منه إلى النسور .. أو أقرب إلى النعام منه إلى الحمام . وسكتنا لنسمع ما سوف يقول ، لأنه قد أشار إلينا جميعا أن نسكت . وجاء صوت الأستاذ ضاحكا ، يرفع أصبعه كأنه طالب صغير فى فصل ، ودون أن يعطيه الشجاعى الإذن . قال الأستاذ : طيب .. يا أستاذ هل من الممكن أن أقول أشهد أن لا إله إلا الله . وأن محمدا رسول الله ؟ .. ها ها .. ها ها ..

ولم نضحك ، إنما اتجهنا إلى الوجه الجاد وإلى الجهامة المكثفة .. فهذه هى الملامح التى اعتدنا عليها فى الصالون .. وهى انعكاس للمزاج العام ، وهى مستعارة من وجوهنا واهتمامنا ، فقد ضحكنا كثيرًا ، وكان ذلك إنعاشا لنا ، وفى نفس الوقت تبديدا لطاقتنا وتسريبا للكهرباء من أسلاكنا إلى الحائط أو إلى الأرض . أو ترويراً لرغباتنا الحقيقية ، فقد جئنا لنفكر ونتأمل ونتناقش بعد ذلك ..

وكأن الأستاذ قد أحس فجأة بأن تلامذته قد كبروا .. وتمردوا عليه ، فهو فى ناحية وحده ، وهم فى الناحية الأخرى مع الأستاذ الشجاعى . وكأنه رفض هذا الاستفتاء الحر على الرغبات ، فقال الأستاذ مخاطباً الشجاعى : أعرف أنك سوف تتحدث عن الليلة الحمراء .. التى بدأت حمراء وانتهت سوداء .. أو التى أردت أن تسجلها على الأرض .. فارتديت لها حذاء أبيض وآخر أسود .. أعرف ذلك يا مولانا .. فلا تبالغ فى دورك وبطولاتك .. وأنا أعرف أنك تبدأ عادة عنتر بن شداد فى الساعة الأولى من الليل . وعند طلوع الفجر تكون ليلى الأخيلية .. ها ها .. ها ها ..

وضحكنا مع الأستاذ الشجاعى الذى جاء ضحكه على شىء لا نعرفه ، ولكن يعرفه الأستاذان العقاد وعبد الرحمن صدقى .. ثم اتجه الأستاذ إلى سيدة كانت تجلس فى مقعد فى أحد الأركان ، ولكن بحيث لا تبدو بوضوح ، وهى لم تفتح فمها ولا رفعت رأسها ، إنما كلما اتجهت العيون خلسة إليها ، أخفت عينيها فى صدرها . وقال عبد الرحمن صدقى : إنها هى وحدها التى تعرف .. وما دامت هنا فهو لا يستطيع أن يكذب علينا أو عليها .

ورفع الأستاذ الشجاعى يديه فى يأس ولكن فى إصرار على أن نسكت ليبدأ الكلام ، قال : ولكن الأخ صدقى ظالم .. وهو دائما ظالم ومقاييسه جهنمية ، فأنا أجد فى شعر شكرى نعومة

وعذوبة .. صحيح ، كما قال الأستاذ ، إن فى شعر شكرى جهودا مضنية .. تضنيه هو وتضنى من يسمعه .. ولو نظم شكرى قصيدة فى مدح الرسول ﷺ لأدخله سيدنا رضوان جهنم ، لأن الطريق إلى جهنم محفوف بالنيات الطيبة ، كما يقول الرسول عليه السلام .. فسوف تكون هذه القصيدة عميقة المعانى قبيحة المبانى ، ولكن ما رأيك يا صدق أننى سمعت منذ يومين بعض أبيات لشكرى يغنونها فى الأفراح ؟ .. والله العظيم فى فرح .. وجدت رجلا قد أمسك عودا وغنى أبياتا لشكرى من مقامات الصبا والبياتى والحجاز .. والله العظيم هذا حدث .. وعندى شهود ..

وأشار ناحيتى أنا ورجل آخر ، ثم استدرك وأشار إلى السيدة الجالسة فى أحد الأركان ، لتحنى رأسها ويبدو قرطها الذهبى على شكل مخرطة الملوخية ، وهى صورة حية لظلم أكبر من ظلم شكرى الشاعر العبقرى ، فهى صغيرة السن ولكن ملابسها كثيبة الألوان . والماكياج الذى تضعه على وجهها يشبه كشطا فى شهادة ميلادها ، ووضع أرقام أخرى .. وعندما تنظر إلينا فى المرات القليلة التى لاحظتها تكون كمن يرانا من وراء شيش ، وهذا الشيش هو رموش عينيها والكحل الأسود القاتم الغليظ .. كما أنها هى الأخرى قد ساهمت فى تثبيت النظر إليها ، فقد علقت ذهبًا فى عنقها وفى أذنيها وفى ذراعيها وفى أصابعها وفى أسنانها ، كأنها خافت أن تترك كل هذه الثروة فى البيت ! وهى تذكرنى بما سبق أن فعله الإغريق عندما أتوا بفتاة جميلة وغطوا جسمها كله بالذهب . وأشعلوا النيران فكانت بشرتها نارا ذهبية .. ثم ماتت آخر الليل ، ولم يعرف الإغريق السبب ، وعرفنا فيما بعد أن سد مسام الجسم يؤدى إلى التسمم والموت ، فقد ماتت مسمومة . وكان سمها ذهبًا . وكذلك هذه الفتاة .. لقد تغطت بالذهب ، وكان الذهب سما سرى فى ألوانها الشابة ، فقفز بعمرها عشرين عاما .

وعاد الأستاذ الشجاعى يقول : اسمع يا صدق .. قال الرجل ، واسمه إبراهيم عكاشة ويبلغ من العمر ستين عاما وأعجبنى جدا :

نفد الدمع على طول البكا
فاستعار الحب لحمى ودمى
أنا والآلام تستهلكنى
نادم لو كان يغنى ندمى
قد كرهت النوم حتى إننى
لو أتانى طيفكم لم أنم

وسكت الشجاعى . ثم تساءل :

ألم يحدث ذلك ؟

وأشار إلينا وإلى السيدة ..

ثم عاد وقد ابتهج وقال : أكثر من هذا يا أستاذ . . أكثر من هذا يا صدق . . هذا الرجل عكاشة . . لم يكتف بذلك . . إنما نكد علينا سهرتنا عندما شتمنا جميعًا فأمسكت عنقه .. ولكن رفعت يدى عن قتله عندما عرفت أن هذه الأبيات التى شتمنا بها من نظم شكرى أيضاً . . والله العظيم هذا حدث يا أستاذ . . . قال عكاشة :

كلكم كاذب حقود
يشعل يأسى وحسرتى
أين الألى قربهم شفاء
يكشف غمى وكربتى
ما العيش عيش إذا تناءوا
وصرت أبكى لوحشتى
كيف أرجى بكم شفائى
وأنتم أصل علتى
كأننى بينكم غريب
أندب حظى وغربتى

صحيح أن هذا ليس من أجمل شعره . . ولكن أليس شيئا عجيبا حقا أن نذهب فى حفلة طهور لابن أحد تجار الفاكهة فأجد رجلا يغنى لشكرى ؟ . . لو عرف شكرى ذلك لشفى من كل أمراضه . .

قال صدق : أبداً . . . لو عرف ذلك للعن الأيام التى يغنى فيها الناس شعره فى حفلات طهور الأنجال ولا يغنونها على مسرح الأوبرا وتكون أنت قائد الأوركسترا . ثم يتهم الأستاذ العقاد بأنه هو الذى منع أغانيه من الظهور على المسرح ، حتى لا تكسف وتخسف شعر العقاد . . أو العقاد نفسه .. هاها . . هاها . .

قال العقاد فجأة : أتريد أن تقنعنى بأن هذا كل ما كان فى ليلتك .. ولم يكن هناك شىء آخر . . لا بطولات . . ولا فحولة . . ولا حتى فحولة لفظية ؟ . . هاها . . هاها .

وضحك الحاضرون إلا زميلاً جالسا إلى جوارى كان بادى القلق والضيق من أن يتحول صالون الأستاذ إلى مقهى بلدى ، فقال كأنه كان نائما طوال الساعتين الماضيتين : ولكن يا أستاذ ، ما الذى منعك من أن تتزوج الآنسة مى ؟ . . هل لأنها كانت أكبر منك فى السن ؟ . . كانت أكبر بثلاث سنوات . . أو هل لأنها مسيحية ؟ . . إن الرسول عليه السلام قد تزوج مسيحية ويهودية أيضاً . أو هل

لأنها لم تكن لك وحدك . . إنما كانت لرجال كثيرين . . أقصد كانت تهتم بآخرين . . أو كان هناك آخرون يهتمون بها . . أو أنك لا تحب أن يكون هذا الطراز من النساء زوجة لك . . . أو أنك تحب المرأة الزوجة وليست المرأة الزميلة أو الرفيقة ؟ . . ولكن عرفنا فى الأدب أن أديباً تزوج أديبة أو عالما كبيرا تزوج عالمة أيضا . . . أو هل كان الحب من طرف واحد . . طرفها أو طرفك ؟ وهل لو تزوجتها كان من الممكن أن يكون هذا الصالون الأدبى ؟ . .

وجاء من النافذة هواء بارد تماماً . . . ومد الشاب يده إلى جيبه وأخرج منديلا ومسح قطرات العرق . . واتجهت كل الوجوه إلى الأستاذ الذى بدت الحيرة عليه . . ويبدو أن الأستاذ عبد الرحمن صدق حاول أن يخفى معالم هذا السؤال الذى بدا كأنه جريمة . . فقد كانت الأسئلة مثل طلقات الرصاص على الأستاذ . . صحيح أنها لم تصبه وإن كانت قد أحدثت دويًّا . . أو أنها أصابته تحت الجلد ولكن لا نرى ذلك بوضوح .

قال صدق ضاحكا : هذه أول مرة أشم فيها رائحة الملوخية تجىء من هذه الناحية . . إن أحداً يصنع التقلية ، ولا أعرف كيف يكون الكلام عن الحب والملوخية تأخذنا جميعا بالأحضان ؟

وأدركت أنا ما أحس به عبد الرحمن صدق ، فدفعت الأستاذ نهائيا إلى جانب آخر . . إلى جانب يستفز الأستاذ ، وقد نجحت ، فقلت : لقد قرأت مقالا لطه حسين يسخر فيه من أن بعض النقاد قد اكتشف أن سبب تشاؤم أبى العلاء ليس مزاجا نفسيا ولا فلسفة إنما لأنه كان يسرف فى أكل العدس . . فالعدس كان يصيب معدته بالالتهاب وأحشاءه بالمغص . . فجاءت فلسفة التشاؤم عند المعرى لأسباب معدية أو معوية . . أو مادية . . ثم ان الأستاذ قال لنا مرة إن الألمان يصفون فلسفتهم بأنها فلسفة البيرة ، ويتحدث الناس عن سبب الاستسلام فى مصر ، على أنه بسبب الفول والطعمية .. فالإنسان عندما يأكلهما فإنه يصبح شوالا ألقى على الأرض إلى جوار الحائط لا يهش ولا ينش . . ولو اختفى الفول من مصر لثار المصريون من ألوف السنين ، ولكن شريرا قد هرب الفول إلى مصر كما هرّبوا الأفيون إلى الصين . . وأذكر أيضا أن الدكتور طه حسين قد هاجم أستاذه الشيخ محمد بخيت وكذلك الإمام محمد عبده لأنهما أسرفا فى تفسير القرآن الكريم تفسيرا علميا ، فأكدا أن الأرض كروية وأنها تدور حول نفسها ، واعترض طه حسين على هذا الأسلوب . . لأن الحقائق العلمية تتغير. فماذا يحدث للشيخين بخيت ومحمد عبده لو أثبت العلم الحديث أن الأرض ليست كروية وأنها لا تدور حول نفسها ؟ . . ثم ماذا يحدث لو عاد العلم فأثبت أنها كروية أحيانا وتدور أحيانا ؟ ويرى طه حسين أن القرآن يجب أن يكون بعيداً عن هذه التفسيرات التى تتسم بحسن النية وبالجهل أيضاً . . وقال يجب أن يكون القرآن بعيداً عن أثر الفول والطعمية .. والملوخية ! .

وقال واحد : ولكن من المؤكد أن للطعام أثراً فى حياة الإنسان . . كما للخمر والحشيش . .

وهتلر هذا السفاح يفعل ذلك لأنه إنسان نباتى ، فليته أكل الحيوانات فداء للإنسان ، لكنه لم يفعل .. فالذى فاته على المائدة استدركه فى ميادين القتال ..

وقال آخر : ولكن الفراعنة كانوا لا يأكلون اللحوم ، ولم يكونوا وحوشا .. والزعيم الهندى غاندى نباتى وهو صورة للرحمة والسلام .

وقال ثالث : والكاتب الكبير برناردشو نباتى .

وقال رابع : ولكن برناردشو يكاد يأكل لحوم البشر . . فهو طويل اللسان قاتل الكلمات . فإذا كان قد فاته هو الآخر أن يأكل البقر فلم يفته أن يأكل البشر .

وأشار الأستاذ الشجاعى إلى السيدة فقال : إن لديها الحكم النهائى فى هذه القضية . .

قالت الفتاة : كان أبى يأكل اللحوم . . وزوج أمى الآن نباتى . . . وكان أبى يضرب أمى وإذا ضربنى كان يعضنى ، ولكن زوج أمى كلامه رقيق وفى قلبه رحمة . . . وهو لا يضرب ولا يشتم ولا يرفع صوته . . . ولا يشعر به أحد .

وبسرعة قال الشجاعى : عندى لك هدية يا صدقى . كتاب اسمه « الروض العاطر ونزهة الخاطر » هذا الكتاب لشيخ تعمق فى الهلس ، اسمه الشيخ النفزاوى ، وهو جزائرى . . وقد ترجمه إلى الإنجليزية المستشرق الإنجليزى ريتشرد برتون ، وهو الذى ترجم ألف ليلة وليلة . وهو يتحدث فى هذا الكتاب عن الأوضاع الجنسية بكل أنواعها . . ولكن أهم ما فيه مناقشته للأوضاع الجنسية والعلاقات التى تناسب الذين يأكلون اللحوم والذين لا يأكلونها ، وهو يرى أن أكلة اللحوم هم أفضل العشاق . . أما الذين لا يعرفون طعم لحم الحيوان فهم لا يستطعمون لحم الإنسان . .

واعتدل عبد الرحمن صدقى ليتخذ شكل رجال الإفتاء ، وقال : لا أظن هذا الكتاب يرتفع إلى مستوى سفالة الكتاب الهندى الشهير « كاما سوترا » فهذا هو الكتاب الأم . . فكل الكتب الأخرى أولاده وبناته ، أوكل الكتب مسروقة منه . فالهنود أقدر الناس على فنون الجنس .. إذا كان الفرنسيون أقدرهم على فن الحب .. فالهنود أقدرهم على مزاولة الحب !

ونظر إلى الفتاة ، ولم يجد حرجاً فمضى يقول : وأظن أن للأستاذ رأيا آخر . أحب أن أسمعه . . فقد كنا نتناقش فى ذلك منذ يومين ، وتمنيت أن أعرف رأيه . . وقد انتهزت صداقتى للأستاذ وتحدثت على لسانه بأشياء كثيرة لو عرفها لأقام لى تمثالا هنا . وطلب من الجميع أن يرجمونى بالجزم . . هاها . . هاها . .

لقد أفلحوا فى أن يغيروا الحديث ، وأن يدفعوا الأستاذ إلى جهة أخرى ، وأن يستفزوه ، ولم يبق إلا أن يبتلع الأستاذ هذا الطُعم . وابتلعه . وأعتقد أنه كان يرغب فى ذلك ، فلم يكن سعيداً بالإجابة عن الأسئلة المفاجئة عن علاقته بالآنسة مى زيادة المسيحية الفلسطينية السورية اللبنانية الأصل ،

والتى كتب فيها نثرا وشعرا ، والتى كانت نهايتها فى أحد المستشفيات العقلية : جريمة شارك الأستاذ فيها بقصد أو دون قصد !

وتحدث الأستاذ ليصحح مسار الحديث عن الجنس والحب ، فقال : لقد برع الهنود فى وصف الجنس . وأوضاع اللقاء بين الرجل والمرأة وبين الرجال والنساء والحيوانات الأخرى ، كما أنهم برعوا أيضا فى وضع قواعد الزهد فى الطعام والشراب ، فهم قد وصفوا الطريق إلى الجنس والطريق الذى ينقذ من الاستغراق فيه .. ولكنى لا أظن أن الفرنسيين قد برعوا فى الحب فقط ، فإنهم قد تفوقوا فى الجنس أيضا . ويكفى أن تقرأ مؤلفات الماركيز دى ساد أو بعضها لتجد أن هذا الرجل الشاذ جنسيا قد تعمق فى فنون الجنس .. بل إنه فيلسوف الجنس ، فقد كتب يقول : إن الفلسفة تبدأ بالله ، وتنتهى بالإنسان ، وبالطريق الذى رسمه الله للإنسان لكى يعيش . وهو يحدد معنى العيشة هذه بأنها الجنس ، ولا شىء إلا الجنس ، كل أنواع الجنس المريض والعنيف . وأهم من الجنس كله أن يتجرد الإنسان من الضغط والكبت والعفة ، وان يترك نفسه بلا ضابط ولا رابط . . وأفكاره الجنسية لا تخلو من لمحات ذكية ومن عبارات « دينية » كما يقول أديب روسيا تولستوى . وهو يدهشك بهذا الإلمام بكثير من التفاصيل العجيبة الغريبة . . فله كتاب اسمه « ١٢٠ يوما فى مدينة سودوم » إنه أقرب شبها بمجموعة قصص الديكاميرون للأديب الإيطالى بوكاتشيو . الذى يحكى عن عشرة أشخاص هربوا من الطاعون وعكفوا على الحب والجنس . فالماركيز دى ساد قد انفرد بأربعة من الرجال بعيدا عن السياسة فى عهد الملك لويس الرابع عشر . وعكفوا على كل أنواع الجنس والشذوذ . . وكان هناك رجال يقومون بتمويل هذا المشروع . . أو على الأصح بتموين هذا التفرغ الجنسى . فيأتون لهم بالغلمان والفتيات الصغيرات والعذارى وأصحاب الشذوذ الجنسى من كل نوع . . و « سودوم » هى أخت المدينة الأخرى « عمورة » التى تحدثت عنها التوراة وأن الله قد خسف بالمدينتين بسبب انحلال أهلهما من قوم لوط عليه السلام .. وكذلك له رواية اسمها « جستنين » أو « فلسفة غرفة النوم » . . كلها تدل على تعمق لا نظير له فى كل الآداب الأوروبية . . والذى قاله الماركيز دى ساد علنا يخجل أن يقوله كثيرون سرا . ومن أجل ذلك استحق الرجل ، إن كان رجلا ، تعظيم المدارس الفلسفية والنفسية الحديثة ، لأنه كشف أعماق الإنسان دون حياء أو خجل . أما ما تقوله عن كتاب سيدى محمد النفزاوى فهو صورة متواضعة وساذجة ، فهو يرى أن الأوضاع الجنسية بين الرجل والمرأة ٢٥ وضعا ، أما أخونا السيد دى ساد فيرى أنها ٢٣٧ وضعا ، يصفها ويفلسفها ، أما الهنود فقد جعلوها ٤٢٠ وضعا جنسيا . والكتاب الشائع عندنا باسم « رجوع الشيخ إلى صباه » ليس إلا صورة ممسوخة لكثير من الكتب العربية والهندية .

وقاطعه الأستاذ الشجاعى ليقول (وأشار إلى السيدة الجالسة فى الركن) : إنها ترجمت بعض

مؤلفات الماركيز دى ساد ، بل إنها ألفت كتابا صغيرا بعنوان « أعجبنى ولم يعجبنى من الماركيز دى ساد » .

وأدهشنا ذلك ، ونظرنا إليها ، وتساءلنا عن هذه الفتاة العجيبة التى لم تتكلم إلا دقيقة ، والتى يلفها الخجل والحرج والحياء ..

وعاد الأستاذ الشجاعى يقول : إنها تخرجت فى كلية الطب ، وعاشت فى باريس وإيطاليا وألمانيا .

وعدنا ونظراتنا تختلط بالدهشة والاحترام . إذن فهى باحثة وليست واحدة من الفتيات إياهن اللاتى كن مع الأستاذ الشجاعى فى حفلة الزفاف الأخيرة ..

ولم يتركنا لذهولنا ، إنما اقترب منها أكثر ، أى من التعريف بها ، فقال : وهى الآن مشغولة بموضوع غريب ، هو : « الهياج الجنسى فى مستشفى الأمراض العقلية » .. ولها وجهة نظر هى أن الإنسان يكون على طبيعته عندما يكون طفلا أو حيوانا بدائيا أو مجنوناً . ولذلك فصور الهياج الجنسى أو الظمأ الجنسى تكون عند المرضى أوضح منها عند العقلاء .

وكان ذلك تصريحا لها بأن تقول . فقالت : اليوم كنت أزور أحد المرضى فى المستشفى ، إنه أصيب بالجنون فى يوم زفافه . . وقد أكد لى أن هناك شبها كبيرا بينى وبين عروسه ، وأن الفارق الوحيد هو أننى لا أضع الأقراط والعقود والغوايش والخواتم . ولذلك وضعت له كل هذه الحلى بهذه الصورة المبالغ فيها . . بل إنه فرض على أن أسرف فى الأحمر والأبيض والكحل وإلا فلن يحدثنى بشىء . . والذى سمعته منه اليوم قبل أن أجىء إلى هنا يؤكد . . .

وتوقفت لتبتلع ريقها ، ونظرت إليها فوجدت أنها قد نزعت كل هذه الحلى ووضعتها فى حقيبتها ، ثم إنها مسحت الكثير من الماكياج الذى أسرفت فيه ، فاستردت شبابها وشهادة ميلادها الحقيقية . لقد استعادت نفسها ، ولم تعد تحنى رأسها خجلا من الشخصية الأخرى التى انتحلتها لأسباب تتعلق بمهنتها . وبدت أجمل وأرق وأكثر احتراما ، واتجه إليها الأستاذ وكل الحاضرين بتقدير عظيم .

وعادت تقول لنا . ولم تكن فى حاجة إلى أن تبرر شيئا . قالت : ما سمعته يؤكد ما قاله الأستاذ ، كل ما قاله الأستاذ عن المرأة وعن علاقة الرجل بالمرأة ، رغم أن الأستاذ ليس طبيبًا بشريًا ولا طبيبًا نفسياً ولم يدخل مستشفى للأمراض العقلية ، من أن الحب يفسد الجنس ، والجنس يفسد الحب ، وأن الطريق السليم فى العلاقات الإنسانية ليس سليما ، فلا يوجد حب بلا جنس ، ولا يوجد جنس ليس فيه حب . . وأنا أختلف مع الأستاذ فى شىء واحد . وهو خلاف أقرب إلى الطلاق فيما بيننا .

ضحك صدقى قائلا : إذن لقد كان هناك زواج ونحن لا نعرف . .

وعادت د . إجلال – وهذا اسمها الصغير – تقول : إن الأستاذ يأخذ ما قاله الفيلسوف الألماني شوبنهور عن المرأة على أنه حقيقة . وهو بالفعل كذلك . . . ولكن لابد أن نعود إلى حياة هذا الرجل . . فلا هي حياة عادية ولا هو سليم الأعضاء ، لقد كان يشكو من عدم إفراز الغدة الكظرية وهي الغدة فوق الكلية ، وهذا يجعله خامدا خاملا بليدا ، وهو في نفس الوقت يسرف في الشراب ، وهذا يجعله كسولا أيضا . . ثم إنه رجل غني ، وهذا لا يجعله محتاجاً إلى البحث عن وظيفة . . ولم تكن له تجارب كثيرة مع المرأة .. إنما تجربة واحدة فشل فيها ، واكتفى بهذا القدر من المغامرة ومن الجري وراء المرأة ، حتى المرأة التي جرى وراءها ، كان يسابقه إليها كثيرون . . لقد كانت امرأة بين رجال كثيرين . . إنها أقرب إلى أن تكون مثل مي زيادة .

وحدثت همهمة . . وتحركنا على مقاعدنا . لقد انزلقت الطبيبة النفسية دون أن تدرك ذلك ، أو لعلها تدرك ذلك . فليس معقولا أن تكون على هذا القدر من العلم الكثير ولا تعرف ما الذي تقوله عن الأستاذ في حضوره . .

واستأنفت واستدركت في نفس الوقت وقالت : وإن كانت الفتاة التي أحبها الفيلسوف شوبنهور تختلف عن مي زيادة . . فالفيلسوف لم يحاول أن تكون له صلة قوية بها . . إنه رآها . ولم يتحدث إليها . . وعكف على نفسه يفتش في أعماقها . . فلما وجد اهتماما بهذه الفتاة . . ووجد أن هذا الاهتمام ليس منطقيا ، أحس أنه كمن ضبط لصا في فراشه فحبسه في إحدى الغرف وراح يلقى له بالطعام من تحت الباب . . لا هو عاقبه ولا هو أطلق سراحه . . ولكن مي زيادة كانت على حوار مع الجميع ، وكانت لطيفة مع الجميع . . فهي امرأة للكل وليست امرأة لأحد . . ولا حتى لنفسها . . فهي لم تعرف بالضبط ما الذي أصابها . إنها أقرب إلى التي غرقت في حوض من الشمبانيا ، الكل فتحوا الزجاجات فصبوها على رأسها وليس في حلقها .. ثم وضعوها بالقرب من النار . . ولما ماتت استراح الجميع ، لأنها لم تكن لواحد منهم . فكان حرمان الجميع منها نوعا من العدل بينهم .. إنه العدل العنيف . . هل ظلموها ؟ . . هل ظلمت نفسها ؟ . . هل كان جنونها في النهاية كمن حاول أن يمشي على الحبل فاختل توازنه فسقط .. وكان الأسف على سقوطه معادلا للإعجاب بتوازنه على الحبل قبل أن يسقط ؟ . . إن كل الذي قرأته عن الآنسة مي زيادة كان مثل الإعجاب بسيدنا ابراهيم الذي دخل النار ولم يحترق . . لقد كانت النار بردا وسلاما على إبراهيم ، وكانت نار أقطاب الأدب والفكر والسياسة بردًا على « مي زيادة » ولم تكن سلاما لها . . إنها لم تحترق ، إنما فقدت عقلها فقط . . والفيلسوف شوبنهور ليس مقياسا للحب والجنس يا أستاذ . . إنه رجل بارع ذكي عبقري كرجل رأى امرأة واحدة .. فهو عبقري المرأة الواحدة ، أوكالذي قرأ كتابا واحدا . والمثل يقول : احترس من صاحب الكتاب الواحد ، لأنه يعرفه ويحفظه تماما ، ولا يمكن لأحد أن يجاريه في

ذلك . . ولكن يعيبه أيضا أنه توهم أن فى الدنيا كتابا واحدا أو امرأة واحدة . .

وكان عبد الرحمن صدقى أصدق فى التعبير عنا جميعا عندما صرخ وقال : يا بنت الايه . . كل هذا يخرج منك وأنت لم تنطق بكلمة واحدة منذ جلست ؟ ! . . إن كيدهن عظيم – صدق الله العظيم . . أنت الآن قد جعلتنا جميعا نحس أننا عراة . . ولم تكتفى بذلك ، إنما أخذت ملابسنا وتغطيت بها كلها . . ومن المؤكد أن الشجاعى الآن ليس عاريا فقط ، إنما لابد أنك أعدته إلى بطن أمه . . فهو وكل ما يعرف ليس إلا طفلا يلعب فى الحارة أمام فيلا أنيقة .. وأنت هذه الفيلا الأنيقة يا دكتورة ! . .

وأحسسنا أن الأستاذ عبد الرحمن صدقى قد أنهى المناقشة ، ودفع بعقارب الساعة بسرعة فجعلها الثانية بعد الظهر ، ولما أدركنا ذلك لم نعد نشم رائحة الملوخية ، ولم يبق إلا أن نمد أيدينا إلى الأستاذ الذى سبقنا إلى الوقوف . وكان وقوفه نوعا من استعجال الخروج ، وجاءت دعوته لعبد الرحمن صدقى والشجاعى ود . إجلال لتناول الغداء امتنانا لهم ، لأنه لم يجد لديه الرغبة فى أن يستحضر الماضى ، ليتحدث عن مى زيادة التى كانت : قصة فشل فى الحب . أو .. إنها حب الفشل الذى لم يفض إلى زواج !

حَكَمَت المحكَمَة غيابيًا !

قبل أن يتوقف المترو بلحظات فأجانا الكمسارى : تذاكر .. تذاكر يا أفندية !

وكان فى نيتنا أن نغادر المترو دون أن ندفع .. ولكننا لا شعوريا مددنا أيدينا إلى جيوبنا وأعطيناه . ودون اتفاق فيما بيننا ، ظللنا راكبين محطة أخرى .. كأننا أردنا أن نقول له إنه لم يكن فى نيتنا أن ننزل دون أن ندفع ، وإنه لم يضبطنا ، إنما هو أدركنا ونحن نقترب من الباب استعدادا للنزول فى المحطة التالية ..

وفجأة وجدتنى أقول لصديق : أنا قلت لطه حسين .. ولكنه لم يصدقنى .

– طه حسين ؟ من هو طه حسين ؟

– عندما اختلفت معه فى تفسير كتابه الشعر الجاهلى . وكان من رأيه هو أن هذا الكتاب هو أجرأ أعماله الأدبية . وإن لم يكن أعظمها . ولكن قلت له : بل أنت شخصيا عمل أدبى جرىء .. لأنك لست كاتبا ولا متحدثا فقط .. بل أنت نموذج لما يجب أن يفعله المفكرون الأحرار فى مصر .

– ماذا تقول ؟ ..

– ....

– ماذا تقول ؟ ..

ولما لاحظ أننى لم أرد عليه ، أدرك أننى كنت أدارى خجلى من الكمسارى ، بأن أوهمه بأننى مثقف ، وأننى أعرف طه حسين شخصيا ، وأننى جلست معه واختلفت فى الرأى .. أى أننى لست من هذا الطراز الذى يهرب من الكمسارى .

ومضيت أهذى وأقول : أما أنا .. فعندما سمعت الباب يدق .. قلت : ادخل .. فلم يدخل أحد .. فصرخت بأعلى صوتى : ادخل .. قلت لك ادخل يا حمار .. وكانت المفاجأة .. لقد كان لطفى السيد باشا ، وفى يده عبدالرحمن الجبرتى ، وفى يد عبدالرحمن الجبرتى مؤرخ الإغريق هيرودوت .. بالأحضان يا رجّالة .. يا محاسن الصدف ..

لقد كان يقاطعنى بالسخرية .. ولكنى لم أكن على استعداد لذلك .. ومضينا على أقدامنا إلى بيت الأستاذ دون أن نتكلم .. وذهبنا متأخرين عن الموعد أكثر من نصف ساعة . ولما دخلنا صالون

الأستاذ كان ممتلئا .. ووجدنا لنا مقعدين متجاورين . أحد المقعدين مكسور ، فأسندته إلى الحائط ، وأحسست أن إحدى ساق هى فى نفس الوقت الساق الرابعة للكرسى ، ولاحظت شيئا غريبا . فقد كان وراء المقعد قفص كبير به نسناس . وقبل أن أسأل الوجوه عن صاحب القرد وعن المعنى ، وجدت واحدا من الزملاء من كلية الزراعة : لن تصدقنى .. لقد أتيت بهذا القرد لأنه شاهد فى قضية . الأستاذ يقول إن هذا النوع من القرود يجب أن تكون له بقعة بيضاء عند ذيله .. وأنا تحديت الأستاذ قائلا : لابد أن تكون أصابعه هى البيضاء . ولما عدت إلى البيت وعدت إلى المكتب .. لم أصدق عينى . فقد كان الأستاذ على صواب . ولما ذهبت إلى حديقة الحيوان وأنت تعرف أن والدى هو أحد أطباء الحديقة .. وناقشت والدى . أكد لى أن الأستاذ على حق . وأتيت بهذا النسناس برهانًا حيًا على أننى غلطان

قلت وأنا أنظر إلى القرد الصغير فى القفص : ولكن أين هى النقط البيضاء ؟ ..

واقترب الصديق وفتح باب القفص ، وبسرعة وجدنا النسناس قد قفز فوق تمثال الأستاذ ، وجلس فوق رأسه . وحمل ذيله يمسح وجه الأستاذ .. وأحيانا يدخل فى أنفه ، وأحيانا فى أذنيه .. ثم قفز على النافذة .. وتعلق من الستائر القديمة .. ثم عاد برشاقة تامة وجلس فوق التمثال .. وقفز على كتفى الصديق الذى أخرج له قطعة من الموز ووضعها فى فمه .. ثم قلبه على ظهره لنرى النقط البيضاء فى الذيل .. ونقطة بيضاء أخرى فى بطنه ..

وسألته : وما هى القضية ؟ ماذا قلت أنت ؟ وماذا قال الأستاذ ؟ ..

قال : الأستاذ من رأيه أن بعض أنواع القرود لها عادات جنسية غريبة .. فمن بين هذه العادات أن الذكر لا يقترب من الأنثى إلا إذا كانت لها علامة بيضاء فى ذيلها ، وأحيانا فى بطنها .. ومن العجيب أن هذه العلامة لا تظهر إلا عندما تكتمل أنوثتها .. ويقول الأستاذ : إن بعض الإناث تقوم بعملية تزوير غريبة .. فتذهب الأنثى إلى بعض الأشجار ، وتظل تخربش هذه الأشجار حتى تفرز لبنا أبيض ، وتجىء الأنثى إلى هذا اللبن الأبيض وتغمس فيه لسانها وقدميها .. ثم تدهن بهذا اللبن ذيلها وبطنها ، وأحيانا وجهها ، فإذا رآها الذكر أقبل عليها ..

ويقول الأستاذ إنه ذهب إلى حديقة الحيوان ليتأكد من ذلك بنفسه فى موسم الإخصاب .. وإنه استأذن أحد أطباء حديقة الحيوان فى أن يجرى هذه التجربة بنفسه ، فأتى بإناء من القشدة وأدخله قفص القرود .. فما كان من صغرى الإناث إلا أن هجمت على القشدة وراحت تدهن جسدها كله .. وبعد لحظات هجم عليها أحد الذكور .. ويقول الأستاذ إن إناث القردة تفعل تماما ما تفعله إناث الإنسان .. فالطفلة تدخل غرفة أمها ، وتمسك أقلام الشفاه والبودرة ، وتضع قدميها فى حذائها ذى الكعب العالى .. وترتدى قبعتها .. إنها تريد أن تختصر سنوات الطفولة وتقفز إلى الأنوثة بسرعة .. إن

هذا فى عالم الحيوان ممكن .. لأن طفولة الحيوان أقصر كثيرا من طفولة الإنسان .. وقد اندهش أطباء الحديقة عندما وجدوا الأستاذ يدخل أحد أقفاص القرود دون خوف .. ولكنه قد استعد لذلك بالجزر والموز والسودانى وصفارة صغيرة فى فمه يطلق منها صفيرا هادئا .. وكان والدى واحدا من الذين شاهدوا ذلك .. ولم يشأ أن يسأله عن الحكمة فى استخدام هذه الصفارة ، وقد طلب إلىّ أن أسأله عن ذلك .. وعندما يعود ...

– يعود من أين ؟

– إنه نزل إلى الطبيب .

– ماذا أصابه ؟

– لا أعرف .. يقولون مغص .. ويقولون إسهال ..

ضحك أحد الحاضرين وقال : إنه « المرض الشهرى » – هاها .. هاها .

ولما لم يضحك أحد من ذلك ، عاد يوضح لنا : الأستاذ هو الذى يسميه المرض الشهرى .. فالأستاذ يأكل المسلوق .. ولكنه مرة واحدة فى الشهر يأكل طعاما ثقيلا .. يتناول كل الذى حرّمه على نفسه .. وأحب هذه المحرمات هو الفسيخ والسردين والملوحة والبصل الأخضر والشطة .. إنه يجرب مدى احتمال معدته ولو مرة واحدة كل شهر .. وهو يتعب كثيرا من هذه الوجبة .. ولكن يصر عليها ، لأنه لابد من امتحان المعدة لمعرفة مدى قدرتها على التحمل ، ولابد من اختبار المعدة والأمعاء والكبد ، ومعرفة مدى قدرتها على التكيف ومواجهة هذا الغزو الشديد الملوحة .. وكيف يقوم الجسم « بتحييد » هذه الكميات الهائلة من الحموضة !

سألت : أنت طبيب ؟

قال : نعم .. ولا أعرف من أين أتى الأستاذ بهذه الوصفة العنيفة .. إن فيها شيئا كثيرا من الصحة .. ولكن فى مثل سن الأستاذ لا يصح أن يغامر الإنسان بجدران معدته ، وغزارة ما تفرزه الكبد والمرارة .. وأنا أتمنى أن أعرف ما الذى قاله الأستاذ للطبيب .. وليس ما الذى قاله الطبيب للأستاذ .. لأننى ناقشته كثيرا ، فكان هو الذى يوضح لى .. كأننى أنا المريض وهو الطبيب .. وأعترف أنه هو الذى يكسب فى النهاية ! .

وسكت الطبيب ليقول : ولكن أعتقد أن الطبيب هو الذى سوف يتكلم هذه المرة .. فقد لاحظت تورما خفيفا تحت عينى الأستاذ .. وظهور بثور على شفته العليا .. ولاحظت أيضا أنه يضغط بيده اليمنى على يده اليسرى .. وأنه نظر عدة مرات إلى أصابعه .. كأنها تورمت هى الأخرى .. أعتقد أنه جاء دور الأستاذ ليكون مريضا . بعد أن ظل طبيبا طول حياته .. طبيبا لأصدقائه وطبيبا للأطباء أيضا .. وعندما قلت له إنه يذكرنى بتشرشل الذى يصر على أنه رئيس الوزراء ورئيس الأطباء وعميد

المرضى .. وأنه كثيرا ما حذف وأضاف فى روشتات الأطباء .. ولكن الأستاذ قال لى : ولكن تشرشل أخطأ ثلاث مرات .. فقد تصور أنه مصاب بالإسهال بينما كان مصابا بالدوسنتاريا .. وهذه الدوسنتاريا قد أخذها من مصر .. ثم إنه شخص ضيق النفس ، على أنه بسبب الإسراف فى التدخين ، ولكن عرف أنها الحموضة الشديدة بسبب تغييره لنوع السيجار الذى يدخنه ، ثم إنه شخّص عدم تجلط الدم فى ساقه بأنه مصاب بالسكر .. وقد وافقه الأطباء على ذلك .. ولكن الأستاذ قرأ أن تشرشل أكل نصف تورتة فى عيد ميلاده الأخير .. ولم تشر الصحف إلى أنه مصاب بالسكر أو أن أحدا نصحه بالامتناع عن الطعام .. ولوكان مصابا ماأتوا له بالتورتة أصلا .. ولذلك استنتج الأستاذ أن تشخيص تشرشل والأطباء كان خاطئا . وعلل الأستاذ سيولة الدم هذه بإسراف تشرشل فى تعاطى الأسبيرين – وهذا صحيح مائة فى المائة . شىء عجيب وغريب هذا الأستاذ العقاد ! !

ثم سكت والتفت الطبيب إلى صاحب النسناس وقال له : ولكن أعتقد أن الأستاذ قد أخطأ فى حكاية القرد هذه .. فليس اللون هو الذى يثير الذكور .. إنما هى رائحة اللبن .. فالقرود مثل حيوانات كثيرة ليست عندها القدرة على تمييز الألوان .. إنما هى الرائحة التى تفرزها الأنثى .. وهذه الرائحة القوية هى « نداء الجنس » . ويحدث كثيرا أن تفرز الأنثى سائلا مكثفًا . هذا السائل قد يجف أو يمتصه التراب .. فهى فى حاجة إلى سائل آخر ليذيبه .. وأهم هذه السوائل هى التى تحصل عليها القردة من بعض أنواع الشجر .. مثل شجر الجميز الذى يفرز لبنا أبيض .. وأحيانا بعض أشجار الصمغ .. وأعجب من ذلك أن بعض الأمهات تساعد ابنتها على ذلك فتحتك بها .. فتنتقل هذا السائل منها إلى ابنتها .. تماما كما نجد الأم عندنا تزوق ابنتها ، وتضع لها الأحمر والأبيض ، وتعطيها بعض حليها وحذاءها ذا الكعب العالى ، لتجعلها أنثى قبل الأوان .. وهذا يحدث فى الريف أكثر مما يحدث فى المدن .. وقد لاحظت فى الهند أنهم يزوجون الفتاة وهى فى التاسعة .. وأحيانا دون ذلك .. وأذكر أننى رأيت فى بيتنا وأنا طفل فتاة صغيرة ، وقد أسرفت فى وضع الأبيض والأحمر ، وكان الخجل واضحا عليها تماما .. بل كانت تلعب مع الأطفال أمام البيت ..ولكن يجىء من يشخط فيها ، ويطلب إليها أن تدخل البيت .. هى دون بقية الأطفال .. وكانت تدخل وهى تبكى .. وعرفت فيما بعد أنها زوجة .. زوجة جدى الذى يكبرها بأربعين عاما ! .

وجاء بعض زوار الأستاذ : رجل وزوجته وابنته وكلب صغير على صدرها .. وفجأة قفز النسناس ليمسك الكلب من عنقه .. وخشينا أن يخنقه .. ولكن صاحب النسناس وضعه بسرعة فى القفص ، فقد تدرب على ذلك تماما . وكان الضيف لبنانيا . التفت إلى كل الحاضرين وحياهم جميعا .. ولكن بكثير جدا من المجاملة قال لى : أهلا بالنحيف ذى العينين اللامعتين ..

– أهلا وسهلا ..

– أهلا بالشعر الكستنائى الذى أحسده عليه ..

وكان الرجل اللبنانى أصلع تماما . ولذلك أطال سوالفه وشاربه . وأضاف إلى الشارب لحية صغيرة . ثم كشف عن صدره ليبدو شعر طويل .. ولابد أن يكون من أمانيه أن يعيد الله توزيع شعره على جسده ، فيكون لرأسه نصيب .. ولابد أنه يشكو من سوء توزيع الشعر فى جسده .. وكأنه يعرف هذه المعانى التى دارت فى رأسى : هذا ما ورثته عن أبى يا أستاذ .. ورثت وجه أمى وشعر أبى .. وتمنيت لو ورثت شعر أمى ووجه أبى .. ولا شىء يخيفنى فى هذه الدنيا .. لأن الذى يخيفك هو الذى يجعل شعر رأسك يقف . وهذا هو المستحيل فليس عندى شعر يقف .. عندى شعر يتساقط ! ها ها ! .

قلت : الإنسان يخاف دون أن يقف شعره .. يجف ريقه ، يضطرب قلبه ..

وأحسست كأننى أفسدت النكتة . ولاحظت أن زملائى كلهم يتكلمون مثلى . أما سبب ذلك فهو أنه فى غياب الأستاذ نشعر جميعا أننا كبار .. إن لم نكن فى مثل حجمه ، فنحن أصغر منه . ولكن أكبر من أى أحد .. وخصوصا إذا كان هذا الأحد زائرا جديدا . كأننا نريد أن نقول له : إذا غاب الأستاذ العقاد ، قام من تلامذته ألف عقاد ! . .

وهى مواقف « تعويضية » تشبه بالضبط سلوكنا فى المترو ، عندما ضبطنا الكمسارى متهربين من شراء التذاكر : فقد حاولنا أن نسجل عليه الإهمال . كأنما كان من الواجب عليه أن يعطينا التذاكر قبل أن ننزل . إنما هو بإهماله قد أدركنا قبل نزولنا بمحطة واحدة .. والذى أغاظنا أن كل هذه المعانى لم ترد على بال الكمسارى . فقد اعتاد على المتهربين ، واعتاد على أيدى الناس ، دون النظر إلى وجوههم . واعتاد على الدوشة ، فلا يسمع ما يقولون .

واكتشفت ابتسامة مبهمة على وجهى كلما تذكرت حكاية الكمسارى هذه . ولكن لم أفهم لماذا هذه الابتسامة ؟ أهو الخجل الذى أداريه بالضحك ؟ تماما كما يحدث لنا فى الشارع : فكثيرا ما تباغتنا سيارة . فنقف ونضحك . ما الذى يضحكنا ؟ ما الذى يجعلنا نقف وننظر إلى السائق الذى يصرخ ويشتمنا .. ولكننا ماضون فى الضحك أو الابتسام العريض ؟ .. أما سبب ذلك فهو إحساسنا بالخطأ . فقد كاد السائق يدوسنا دون أن ندرى ولكى نداري الشعور بالخطأ الذى يؤدى إلى الخجل ، فإننا نبتسم كأننا نريد أن نقول : صحيح أننا نسينا ، وصحيح أننا أخطأنا ، ولكننا فى نفس الوقت لا نهتم كثيرًا بما حدث .. كأننا أردنا أن نجعل السائق يحس هو أيضا كأننا نحن الذين كدنا ندوسه وليس هو . وهو موقف تعويضى أيضا .. تماما كما تضرب طفلا ، فبدلا من أن يرد عليك بالضرب ، فإنه يضرب الأرض . أو يحطم لعبة أو يضرب نفسه . فالذى فعله الطفل هو نوع من التعويض . أو توجيه رد الفعل إلى ناحية أخرى ! . .

أما الابتسام فكلما تذكرت واقعة الكمسارى ، اكتشفت أن له معنى آخر. فنحن عندما درسنا فلسفة « هيوم » الفيلسوف الإنجليزى العظيم . كان من رأيه أن من الممكن أن تقع حوادث الواحدة وراء الأخرى . وليس من الضرورى أن تكون الأولى سببا والثانية نتيجة : فالديك يصيح . وبعده يطلع الفجر.. فلا يمكن أن يكون صياح الديك هو السبب فى طلوع الفجر.. لأن من الممكن أن يصيح الديك فى أى وقت .. ثم إن الفجر سوف يطلع والشمس سوف تشرق دون صياح الديك .. وعندما كتبت تفسيرا جديدا لنظرية « السببية » عند هيوم ، ضربت مثلا آخر : بصفارة كمسارى الترام .. فالكمسارى يصفر والترام يقف .. والكمسارى يصفر والترام يسير.. ومن الممكن أن ينطلق الترام وأن يتوقف دون صفارة .. وقد اندهش البروفيسور لامونت أستاذ الفلسفة الحديثة لهذا المثل الذى استشهدت به . ووجد فى ذلك تجديدا وإضافة إلى الأمثلة الفلسفية التى توضح هذه النظرية . هل بالغ فى ذلك ؟ طبيعى أن يبالغ الأب والأستاذ فى تقدير أولاده .. أو هل لأن الأستاذ لامونت لا يركب الترام أو الأتوبيس ؟ ربما . وعندما ابتسمت كان بسبب الخجل من الكمسارى ، وبسبب الامتنان له ، لأنه ساعدنى على أن تكون لى مكانة خاصة عند أستاذ الفلسفة الحديثة !

ودخل صالون الأستاذ المرحوم حسن أحمد حسن المدرس بكلية الفنون الجميلة يحمل لوحة رسمها للأستاذ . اللوحة كبيرة . وعندما دخل الصالون رفع اللوحة لكى نراها جميعا . ثم راح يدور بها علينا . ثم وضعها فى البلكونة لكى نراها جميعا . وواضح أن بها شبها كبيرا بالأستاذ .. وإن كان بعضنا قد سأله : هل قصدت أن ترسم الأستاذ ؟

– بل هو الأستاذ

– ليس هو.. الجبهة ضيقة .. والشفتان منفرجتان .. والأنف أصغر مما يجب .. إن الأستاذ لا يميل برأسه إلى جانب من الجسم .. إنه يميل به كله إلى الوراء .. بل يميل بالرأس والعنق أيضا ..

– ثم إن الأستاذ ليس أحمر اللون إلى هذه الدرجة ..

قالت السيدة اللبنانية : والله أجمل ما فى هذه اللوحة هذه الوردة الصفراء التى تدل على الغيرة .. وأجمل ما فى الوردة أن كل ورقة من ورقاتها عليها صورة امرأة جميلة .. ولكن ما معنى ذلك ؟ .. هل الأستاذ يشم الغيرة .. أو يجد متعة فى أن يحرق قلوب النساء ؟ .. او هل المرأة تتسرب إلى الأستاذ من كل طريق .. من الباب والشباك .. ومن الورد الذى يشمه ؟ .. هل لو أنك اكتفيت بالوردة الصفراء دون أن ترسم عليها هذا العدد من النساء ألا يدل ذلك على أن إنسانة مجهولة تغار على الأستاذ ؟ .. لا تؤاخذنى .. إنى أرسم وأنحت ، ولذلك فأنا أعرف بالضبط مقدار الذى عانيته فى خلط الألوان .. وأرى كيف إنك نجحت إلى أقصى درجة فى رسم الذكاء والتعالى فى عينى الأستاذ وشفتيه .. ولكنك بهذه الخطوط الرقيقة والملامح الدقيقة ، قد جردت الأستاذ من رجولته الطاغية .. فهذا من أهم

مميزاته .. فالأستاذ رجل .. ورأيه فى المرأة رأى رجل .. وشعره فى الغزل هو إحساس رجل بأنثى . ورغم التعبيرات الجميلة المبتكرة عند الأستاذ ، فهو ليس محبا . أى ليس « دون جوان » إنما هو «كازانوفا » .. هو عاشق للمرأة .. وليس لامرأة واحدة ، إنما للأنثى أينما تكون . ولو عرف الأستاذ امرأة واحدة تملأ رأسه ، لوجدنا بعض الاحترام للمرأة فى كتبه وفى قصائده . ولكن الأستاذ لم يجد إلا « الضرورة » .. أى المرأة الضرورية له كرجل .. فهى مثل الرغيف ومثل اللحم والفاكهة .. من الضرورى أن يتناولها الإنسان ليعيش .. ولكنه لم يجد المرأة التى يضعها ويتفرج عليها ، ويحبها من بعد ، ويشتاق إليها . ثم لا يجدها ، لأنها شخصية قوية مثله ، تقاومه وتتأبى عليه .. وترفضه .. وتقول له : لا .. ولكن الأستاذ إذا كان قد وجد كثيرا من الرجال يقولون له : لا .. فإنه لم يجد إلا القليلات من النساء يقلن له : لا .. كلهن قلن : نعم .. ولذلك احترم الرجال .. ولم يحترم النساء ..

وقال أحدنا : بل فى حياة الأستاذ نساء قلن له : لا .. وإن كان من الصعب على أية امرأة أن تقول له : لا ..

قالت السيدة : ولماذا لا يقلن له لا ؟ .. صحيح أن الأستاذ مفكر عظيم ، وشاعر أعظم .. ولكن كل هذه العظمة قد لا تهم طبيبة عظيمة .. أو مهندسة عبقرية .. أو قد لا تهم خادمة أو غسالة .. وحتى لو قلن له : لا .. فإن كبرياء الرجل تمنعه من أن يذكر ذلك .. ويأبى إلا أن يكون هو الذى قال لكل النساء : لا .. إن الشاعر الانجليزى بيرون عندما تمنى أن تكون كل النساء فما واحدا لكى يقبله ويستريح ، إنه يريد واحدة فقط تقول له : نعم ، بدلا من أن تقول له هذه : لا .. وتلك تقول : نعم .. إنه لا يريد التجربة .. إن هذه العبارة ليست دليلا على أنه يحب المرأة ، إنما هو يحب النساء .. يحب الأنثى .. يحب كلمة نعم على شكل شفتين .. ويستريح بعد ذلك .. والأستاذ لا يختلف عن الشاعر بيرون . إنه يقول لكل النساء : لا .. أى يقولها لألوف النساء ، لأنه يرفض هذه الكثرة . ويريد أن يكتفى بواحدة بالنيابة عن الجميع ، فهو لا يريد أن يكون موضع امتحان ، أو يكون قائمة لاستفتاء حر .. إنه هو الأستاذ الكبير الذى لا خلاف عليه .. أو الذى عليه خلاف عند الرجال ، لأنهم رجال ولأنهم يفكرون ، ويرفض أن يكون عليه خلاف عند النساء ، لأنهن لا يفكرن ولا يستطعن ، وإذا استطعن فإنه لا يحترم شيئا مما يقلن .. هذا هو الأستاذ ! ..

وحاول زوجها بالنظرات والهمسات واللمسات أن يوقف تدفقها . ولكنها قالت له : إنهم شبان يدرسون .. ولا حياء فى العلم .. وأنا قد تابعت كل ما كتب الأستاذ . وألقيت عنه محاضرات فى جامعة بيروت ، وفى جامعات أمريكا وكندا والبرازيل . فإن لم يكن كارها للمرأة ، فهو شديد الاحتقار لها .. وإذا كان الأستاذ لا يقبل إلا ما يقول به العقل .. فكيف يقبل عقله مثل هذا الموقف الذى ليس عقليا .. بل ينطوى على الشماتة أو على الثأر العظيم ؟ .

وكانت نبرتها عالية .. أعلى من أن يحتملها تلامذة العقاد .. فقد جاءت تشتمه فى بيته ، وأمامهم . وفى غيابه ..

وأحس الزميل الرسام أنه هو الذى أثار كل هذا الجدل . وأن الجدل قد ذهب إلى بعيد .. وكأنما أراد أن يكون هو مركز دائرة الحوار . كما كان منذ دقائق . فقال : ولكن هذه اللوحة هى « تصورى » للأستاذ .. فقد رأيت الأستاذ وجلست إليه .. واستعدت بعض صوره .. ولكن أراه مختلفا عن الصور وعن الطبيعة .. إنه رقيق ، وهذا ما أردته بالألوان الهادئة .. وهو معتز بأصله الكردى ، وهذا ما جعلنى أجعل بشرته شديدة الاحمرار .. ثم إن الأستاذ ليس عادلا تماما .. إنما هو ككل إنسان له عواطف وشديد الحساسية . فإنه يميل إلى جانب دون جانب . وقد سألته فى ذلك . وأقرنى على هذا الإحساس .. أى أنه مال إلى وجهة نظرى .. ثم إن من الصعب أن يكون الإنسان رجلا أوذكرا وهو يفكر .. إن التفكير يسمو بالإنسان على غرائزه .. وأنا قد رسمت الإنسان فى لحظة تفكير .. وأنا أختلف مع السيدة فى قولها إن الأستاذ يحتقر المرأة .. ولكنه يحتقر نوعا من النساء ، كما يحتقر نوعا من الرجال .. ولكنى أتفق معك فى أن محاولة الأستاذ أن يتعالى على المرأة مضحكة .. فهو لا يتعالى عليها .. إنما هو يتعالى على احتياجه إليها .. تماما كما يلاحظ الإنسان عندما يأكل لابد أن يحنى رأسه .. فهو يضيق بهذا الانحناء .. فإذا حاول أن يأكل وأن يشرب دون انحناء ، سقط عليه الطعام والشراب .. والأستاذ يحاول ألا ينحنى « للضرورة » .. فلا يستطيع ، فيضايقه هذا العجز . إن آلهة الإغريق أنفسهم كانوا ينحنون أمام هذا العجز . بل إنهم كانوا يجدون حريتهم فى ذلك .. فالإله يعجب بالفتاة ، ويتقرب منها ، فترفضه ، فيتحول إلى شاب وسيم ، فتقبل عليه الفتاة .. أى أنها رفضته إلها ، وقبلته إنسانا .. وعندما تكتشف الفتاة أنه إله ضحك عليها ، فإنها تقلب نفسها كلبة ، فيقلب نفسه كلبا .. وتكون انحناءة الآلهة أمام الضرورة . هى الحرية الوحيدة التى عن طريقها تكون المتعة الإنسانية التى افتقدتها الآلهة ! بل أكثر من ذلك .. أنا رسمت لوحة للآنسة مى زيادة التى ماتت سنة ١٩٤١ ، فى نفس السنة التى مات فيها الفيلسوف برجسون والأديبة فرجينا وولف . وعلى الرغم من أن عمرها كان ٥٥ سنة . فقد رسمتها طفلة صغيرة .. مع أننى لم أرها لا صغيرة ولا كبيرة .. ولكن من الذى قرأته عنها رسمت لها هذه اللوحة .. واللوحة لم تعجب الأستاذ .. ولكنها تعجبنى .. فقد جعلتها تنام على المسامير .. كفقراء الهنود .. وجعلت للمسامير شكل الأقلام .. ثم جعلت حولها عددا من الشيوخ راحوا ينفخون عليها النار .. ولم تكن هناك نار إلا أنفاسهم .. وقد رسمت جانبا من جسدها قد تفحم .. ولكن أحدا لم يتوقف عن النفخ .. كأنهم يريدون إحراقها أو شواءها تماما .. وإن هذه اللوحة أقرب إلى المعنى الذى أردت .. وإلى المعنى الذى يريد الأستاذ إخفاءه والتستر عليه .. فلم يكد الأستاذ يرى هذه اللوحة حتى ضاق بها ، كأنها صحيفة اتهام .. أوكأنها إدانة دامغة

له ولغيره .. وفهمت ذلك .. ولم أعد أحدثه عن هذه اللوحة ..

وكأن واحدا من الزملاء ينتظر هذه اللحظة ، فقال موجها خطابه إلى السيدة اللبنانية : هذه هى المرأة الوحيدة التى أحبها الأستاذ واحترمها .. وهى التى قالت له : لا .. أول الأمر .. ثم قال لها الأستاذ : لا .. بعد ذلك ..

فقالت السيدة : ولكن ما الذى قاله لها ؟ ما الذى قاله عنها ؟ لا شىء يبعث على الاحترام . على احترامه هو لها .. وإن كان كل الذى نظمه الأستاذ أو قاله نثرا يبعث على الاحترام .. ولكن أين هى من فكره ؟ أين هى من رأيه فى المرأة ؟ لا وجود لها .. ومستحيل أن يكون لها وجود ..

واعتدلت انا وكأننى قاض فى محكمة استعد تمامًا لمثل هذا اليوم : أنا أتفق مع السيدة الفاضلة . فعلومات الأستاذ عن مى زيادة أو غيرها ، لا تختلف عن معلوماته عن هذا النسناس .. إنه يعرف عنه الكثير .. وحماسة الأستاذ سببها أنه يريد أن يعرف شيئا جديدا .. وإخلاص الأستاذ هو فى البحث والدراسة والوصول إلى نظريات جديدة .. وحب الأستاذ هو حماسة لهذا النسناس حتى يعرفه ، فإذا عرفه انصرف إلى غيره .. وأنا أكاد أعتقد أن الآنسة مى زيادة هذه لم يكن لها وجود .. إنها خرافة .. أسطورة .. اشترك فى تأليفها كل أدباء ومفكرى العصر .. إنهم عرفوها ، وتعاونوا على إخفائها تماما . فقد تعددت صورها ولوحاتها .. فكل واحد منهم رسام .. وكل واحد منهم مصور .. ومفكر وشاعر .. ولو وضعنا اللوحات التى رسموها بأقلامهم الواحدة إلى جوار الأخرى لكانت مائة لوحة لشخص واحد .. وليس بينها شبه .. إنهم شوهوها وزيفوها .. وأخفوها عنا .. وفى إخفائها إخفاء لفشلهم أيضا .. وفى تصويرها وتشويهها إيهام لنا بأنهم لم يكونوا يهتمون بها .. ومن الغريب أنهم افترضوا من البداية أنها ليست موجودة .. أو أنها ماتت .. أو يجب أن تموت .. ولذلك كان الحكم عليها غيابيا . حاكموها غيابيا .. وعندما توالت المصائب عليها بوفاة أبيها ثم حبيبها الشاعر جبران خليل جبران ثم أمها . ثم الورثة .. ثم دخولها مستشفى الأمراض العقلية فى لبنان .. ثم جنونها الكامل وسيرها فى شوارع القاهرة تحمل الخضراوات وتحمل كل ملابسها ، وإرجاعها الخطابات التى بعث بها المعجبون إلى اصحابها ، ومن بينهم الأستاذ ، وإحراقها بعض الرسائل والمقالات ، كل ذلك ساعد على « تجهيل » هذه الآنسة مى .. ولنعد إلى صورتها التى رسمتها أنت .. ولنفترض أن عشرين رساما تكعيبيا وتعبيريا وانطباعيا وسيرياليا قد رسموها معا .. أى رسموا لها لوحة واحدة .. كيف تكون هذه اللوحة فى النهاية ؟ وكيف تكون صورة مى زيادة إذا رسمها الاستاذ شبلى شميل الملحد ، والأب انستاس الكرملى القسيس المؤمن ، وكيف يتناوب الفرشاة كل من العقاد ومصطفى صادق الرافعى وطه حسين وسلامة موسى ولطفى السيد وولى الدين يكن وإسماعيل صبرى ومصطفى عبد الرازق وأنطون الجميل وأحمد شوقى ونقولا فياض وشبلى الملاط ؟ !. إنهم جميعا اقتربوا منها وابتعدوا

عنها .. سلامة موسى هو الوحيد الذى عرف كيف يصف ملامحها ، وهو رجل ليس عاطفيا .. ولطفى السيد أرسل لها خطابا يقول فيه « إننى طماع ولكن عذرى أننى صادق فى إحساسى » أى يريد أن يقول لها إنه معجب بها أو يحبها أو يشتهيها ، ومادام هذا الإحساس صادقا ، فهذا يكفى لأن يحصل على ما يريد . تماما كما يقف إنسان أمام مطعم ويخطف رغيفا . وعذره أنه جائع . إن هؤلاء الكبار جعلوها أسطورة .. جعلوها مثل بنات الأمازون .. وبنات الأمازون يكرهن الرجل .. ويكرهن احتياجهن إلى الرجل . ولذلك قطعت كل واحدة ثدييها حتى لا تبدو أنثى ، وحتى إذا ولدت لا ترضع طفلها .. ويقال إنهن قطعن أثداءهن حتى إذا أمسكت السهم والرمح فإن حركته على صدرها لا تعوقها الأثداء .. والأمازون كلمة يونانية معناها : التى لا ثدى لها .. ومعنى أسطورة الأمازون أن المرأة يجب أن تتجرد من أنوثتها لتكون قوية .. فإذا تجردت من أنوثتها ، فإن الرجال ينفرون منها .. فالرجل الذى لا ينال من المرأة ما يريد فإنه يجردها من الأنوثة .. أى أنه هو الذى رغب عنها ، وليست هى التى زهدت فيه .. وكذلك فعلوا بالآنسة مى زيادة .. تحدثوا عن أدبها وفكرها وعقلها . فقط . أى أنها ليست أنثى . وإذا قال واحد منهم إنها أنثى ، عاد وقال إنها أنثى لآخرين .. وهو لا يحب أن يكون شريكا لأحد فى أنوثتها .. مع أن أحدا من كل هؤلاء الادباء ، لم ينل منها شيئا . ولم يعترف بذلك إنما جعل العيب فيها هى .. كأنه هو الذى قال : لا .. وليست هى التى قالت .. أما أكثر الناس تغزّلا فيها ، فهو أبعدهم عنها .. ولذلك كان أكثرهم ادعاء عليها .. إنه مصطفى صادق الرافعى .. كان حجة فى الأدب وفى اللغة وفى صناعة الكلام .. ولكنه كان أطرش .. وكان من الطراز الذى لا تحبه .. وقد ضاقت به . وكادت تستدعى له البوليس .. لقد كانت مى زيادة الصورة الأخرى للأديبة جورج صاند .. لقد كانت جورج صاند ترتدى ملابس الرجال علنا .. وترى أنها أكثر رجولة من كثير من الفنانين الناعمين الذين سقطوا فى غرامها .. أو أسقطتهم الواحد بعد الواحد ، فقد اعتدت جنسيا على الموسيقار شوبان وعلى الأديب الفريد دى ميسيه وعلى غيرهما من الأدباء والأغنياء .. كانت هى أشبه بملكة النحل ، وكانوا هم الدبابير يطيرون وراءها حتى يتساقطوا من الإعياء ، ولا يبقى إلا أطولهم نفسا وأكثرهم فحولة .. ولم تفلح مى زيادة فى أن تكون مثل سالومى التى أحبها العالم فرويد والفيلسوف نيتشه والشاعر ريلكه .. وجعلتهم يتعلقون فى عربة واحدة ، وتلهب ظهورهم بالسياط .. ولم ينلها أحد منهم ، إنما غرست بأظافرها اليأس والمرارة والاحتقار العظيم للمرأة عند هؤلاء العباقرة . وأعتقد أن مى زيادة قد اتخذت هذه المكانة الكبيرة فى الأدب لا لأنها أديبة كبيرة .. إنما بسبب هؤلاء الأدباء الكبار حولها .. فقد كانت مى زيادة فتاة حساسة شديدة الاضطراب النفسى والتناقض ، تنحت التعبيرات الجميلة فتصيب وتخيب ، ولكنها ليست أديبة كبيرة . ولا هى واحدة من المفكرين .. إنما هى الضوء الذى يدور حوله الفَرَاش .. ولم

يكن ضوؤها قويا لدرجة تحرق الفَرَاش . إنما هو الفراش الذى أطفأ نورها ، وأحرق أعصابها ، وأخرجها من مصر وأدخلها مستشفى العصفورية بلبنان . وعندما أحبت فقد اختارت واحداً غريبا مثلها ، مريضا مثلها . إنه الشاعر جبران خليل جبران .. كانت تسأله أن يعد لها دقات قلبه .. وبقايا السجائر .. أما أدباء مصر ومفكروها فكانت تتحدث إليهم وتجاملهم .. وتسلط عليهم غريزة المرأة ، ويذهب كل واحد إلى بيته ليبعث لها برسالة خاصة شديدة الحذر .. فإن لم يبعث بهذه الرسالة فإنه يكتب عنها مالم يقل وما لم تقل .. وأحسن نموذج لذلك مصطفى صادق الرافعى ، فى كتبه : السحاب الأحمر وأوراق الورد ورسائل الأحزان ... ولم تكن مى غانية تتحدث فى الأدب ولا كانت أديبة تعرف الفجور .. وإنما أوقعتها الصدفة فى أحد أوكار الذئاب الفكرية فى مصر .. حتى طه حسين هو الآخر قد جرب حظه معها .. طلب إليها أن تراه . فاعتذرت أول الأمر .. وقالت : لا أجلس إلى أحد وحدى ، إلا إذا كان قديساً ، وقال لها طه حسين : أنت تطلبين المستحيل .. وانتهى الحديث بينهما .. ولم يزرها طه حسين .. ولم يقل لنا أحد ما معنى القديس أو معنى القداسة . وما الذى تخوفت منه .. وما الذى استعصى على طه حسين .. أما الأستاذ فقد رآها ورأته .. بل كانت تفزع من مقالاته السياسية العنيفة ، وكانت تطلب إليه أن يترفق بالناس . فهى تخشى عليه السجن أو ما هو أكثر من ذلك .. وكان الأستاذ يستجيب لرجائها . ورسائله إليها ورسائلها إليه مزيج كبير من الرمزية والحذر .. فهى ترمز إلى أشياء كثيرة . وتخاف أن تقع هذه الرسائل فى صندوق أحد .. إنها تخشى الفضيحة .. وخوفها من الفضيحة أصبح خوفا من كل أديب ومن كل رجل . ومن حياتها ومن مستقبلها . وهذا الخوف جعلها تكره أنوثتها .. وتفكر فى الهرب .. فهل الجنون الذى أصابها كان قمة الرغبة فى الهرب التى بدأت منذ خروجها من مدارس الراهبات ومجيئها إلى مصر .. إن الشاعر الانجليزى شيللى ارتبطت حياته بالماء .. وكان ينظر إلى وجهه فى الماء .. وكان يصنع الزوارق من الورق ويلقى بها فى الماء .. وزوجته الأولى غرقت فى الماء .. ثم غرق هو فى النهاية .. فكأن الموت قد أراد أن يهون عليه هذه النهاية عندما جعل القرب من الماء أحد معالم حياته ، وكذلك مى .. فهذه الفتاة المسكينة لكثرة ما قالوه عنها .. لم تعد تعرف من هى .. فكل أبناء عصرها يرون أن من العيب ألا يعرفوها ، وإذا عرفوها ألا يزيفوا حبها لهم ، هى أحبتهم وهم أحبوها . وفى نفس الوقت يعز عليهم أن تكون لواحد آخر ، ولذلك تعاونوا — دون اتفاق مكتوب — على أن يقضوا عليها ، فلا تكون من نصيب أحد . وقد كان لهم ذلك .. إن مى زيادة صورة جديدة لتنتالوس الإغريقى الذى حكمت عليه الآلهة بأن يقف فى بحيرة من الماء العذب تحت أشعة الشمس ، وكلما اشتد عطشه ارتفع الماء حتى يبلغ شفتيه ، فإذا انحنى عليه يشرب ، هبط الماء حتى ساقيه ، ثم يرتفع حتى شفتيه .. وهكذا إلى الأبد . ويظل تنتالوس عطشان والماء تحت شفتيه .. ثم عادت الآلهة فترفقت به وغيرت هذا العذاب .. فوضعته عند مدخل

كهف وجعلت حجرا يسقط من أعلى الكهف ويكون له دوى عنيف ، ثم يقف الحجر عند حافة شعر رأسه دون أن يصيبه .. ويرتفع الحجر ويهبط هكذا إلى الأبد .. ثم جعلوا مى زيادة مثل برومثيوس الذى تنهش النسور قلبه .. ثم ينبت له قلب جديد .. فتجيء النسور وتنهشه من جديد .. وهكذا إلى الأبد . أو أن هؤلاء الأدباء قد جعلوا مى زيادة مثل بنات الجرجون . كل شيء ينظرن إليه يصبح حجرا .. وبذلك تصبح الدنيا كلها متحفا جامدا لا حياة فيه حتى لا يفوز بهن أحد .. أو إنهم جعلوها مثل الساحرة كيركا التى إذا نظرت إلى إنسان أصبح خنزيرا .. وهكذا رأت مى زيادة أن كل الذين حولها خنازير وأحجار وعذاب ، فكان جنونها من الجميع اتهاما فاضحا لكل أدباء ومفكرى مصر ولبنان .

قالت السيدة اللبنانية : أوافقك على كل الذى تقول . ولكن اسمح لى أن أخالفك فى شيء صغير .. عندكم فى مصر أغنية تقول : كلنا نحب القمر والقمر بيحب مين .. حظنا منه النظر والنظر راح يرضى مين .. هذه الكلمات تنطبق على الآنسة مى زيادة .. والأستاذ العقاد هو الذى وصف مى بقوله : إنها حصن محاط بخندق !! فما معنى الحصن ؟ .. وما معنى الخندق ؟ .. أى أنها بعيدة ومنيعة إلى درجة فظيعة .. وينطبق على الآنسة مى قول الشاعر القديم .. وهو يصف الفتاة التى أحبها فأحبت غيره . وأحبته واحدة أخرى ولكنه لا يحبها . يقول الشاعر :

جُنِنَّا بليلى وهى جنت بغيرنا
وأخرى بنا مجنونة لا نريدها

وسكتت لحظة لتقول : ومن المؤكد أنهم أحبوها . ولكن لم يفلح أحد أن يجعلها له .. ومن المؤكد أنها أحبت الشاعر جبران خليل جبران .. ولكن كل هؤلاء المترددين على صالونها لم يعرفوا ذلك .. بل إننا لم نعرف إلا بعد أن ماتت .. ربما عرفنا قصة أخرى لو أن رسائلها ورسائلهم قد بقيت دون أن تحرقها ..

قلت : نحن لا نعرف من هى مى زيادة .. إننا أمام جماعة من كبار الرسامين ، كل واحد رسمها بالصورة التى يحبها أو التى يكرهها .. فكل صور مى زيادة ليست إلا صورة لأعماق مضطربة متوهجة .. أعماق العصر الذى عاشت فيه ، وأعماق شوامخ ذلك العصر .. لقد ظلموها جميعا .. والمحب يظلم .. والجريح يظلم .. والمهان يظلم .. والفاشل يظلم . والأنانى يظلم – وكل هذه صفاتهم ، وفى كل هذه الألوان غمسوا فرشاتهم ، ولم يكتفوا بذلك إنما أشعلوا دمها وأحرقوها فى جلدها . ثم حاكموها بعد وفاتها وأدانوها ، فكانت إدانتهم لها أكبر دليل على طغيان القضاة وعلى غياب القانون . لقد أدانوا أنفسهم . لقد ظلمها عصر . وإن لم يكن هذا الظلم كبيرا فقد أعطاها العصر أكثر

بما تستحق ، فهى ليست كبيرة إذا نظرنا إليها وحدها . إنما هى كبيرة لأن عددا من العمالقة قد وضعوها على رءوسهم .. لقد طالت جدا ، ولكنها طالت بهم ، وجاء الموت فجردها من كل شيء إلا وزنها وحجمها .. ولم يحدث أن كتب أحد عنها إلا في صالونها أو في جنازتها . لم يكتب عنها أحد وهو جالس معها وحدهما ، إنها مثل شمعة في زجاجة تحترق وتبكى على نفسها .

وجاء صوت الأستاذ عبدالرحمن صدقى من الداخل . ولم نكن قد رأيناه ، قال : أنا عرفتها ولكن لم أعجب بها كما تقول .. ولكن في ذلك العصر كان ظهور فتاة جميلة الملامح وإن لم تكن فاتنة .. ذكية تعرف عدة لغات .. ولها محاولات في الأدب وفى الخطابة ، كان شيئا فريدا ومثيرا أيضا .. وكل هؤلاء الرجال حولها يرون أنها سقطت عليهم من السماء . وأنها من نصيب واحد منهم ، وهى مغفلة حقا .. لأنها لو كانت أعطت لنفسها بعض الحرية وارتضت رجلا واحدا لانصرف عنها كل هؤلاء .. وأنا شخصيا كنت أفضل لها طه حسين .. كان سيعجب بها .. بصوتها ورقتها وثقافتها الفرنسية .. ولكنها هى العمياء . وقد تناقشت مع الأستاذ في شأنها كثيرا .. ولم يوافق على أن أكتب رأيه فيها .. وهو رأى أقرب إلى تشريح حيوان : كلب .. قط .. قرد .. ولا أعرف لو كانت مى زيادة هذه قردة . مثل هذا القرد ، لتعلمت من القرود متى تضع العلامة البيضاء ومتى تخفيها .. ولكنها مغفلة ، قد جاءت من لبنان ووضعت عشرات العلامات البيضاء ... فتكاثر عليها القرود .. هاها .. هاها ..

ودخل الأستاذ ونحن نضحك .

ووقفنا جميعا ، واختفت الضحكات بابتهاجنا بعودته .. وبأنه ليس شاحب الوجه كما قيل لنا .. وجلس الأستاذ . ثم نهض ليصافح الضيوف اللبنانيين ويصافحنا جميعا .. وتقدم منه صاحب القرد يقول : معك حق يا أستاذ .

قال الأستاذ : آه .. أين وجدت العلامة البيضاء يا مولانا ؟ ..

– وجدتها كما قلت يا أستاذ ..

– وهل اقتنع أبوك أخيرا ؟ ..

– تماما يا أستاذ ...

قال الأستاذ : أريد أن أتحدى والدك مرة أخرى يا مولانا .. كنت أناقش مع الأطباء البيطريين الآن .. في مشهد غريب في حديقة الحيوان أيضا .

ولما رأى رغبتنا في أن نعرف أكثر .. عاد يقول : لم أكن مريضا .. إنما هو النسناس الذى يقتنيه أخونا د . صبرى كان مريضا .. وذهبت أتفرج على عملية جراحية يجرونها له .. وقد أعجبتنى براعة الطبيب وحسن تشخيصه لهذا النسناس .. وأبوك يرى أن القرد هو أكثر الحيوانات إسرافا من الناحية

الجنسية .. ودليله على ذلك ما يفعله القرود صغارا وكبارا حينما تعلو الذكور ظهور الإناث .. وأحيانا حين تعلو الإناث ظهور الإناث أيضا .. ولكنى أختلف يا مولانا فى تفسير ذلك .. فهذا الذى نراه فى أقفاص القرود سببه الخوف .. فالقرد لا يكاد يرى الناس يتصايحون ويقذفونه بالسودانى أو بأى شىء آخر ، حتى يخاف .. الإناث تخاف .. وهى تأوى إلى الذكور وتطلب الحماية . ومن شكل الحماية أن تستسلم له . أى أنها تعطيه ثمن الحماية مقدما .. الإناث تفعل ذلك عندما تخاف من الناس أو تخاف من القرد .. فإذا أنت قذفت للقرد بعض الموز ، فقفزت إحدى الإناث وأكلته قبل أن يستطيع الذكر أن يصل إلى الموز ، فإنه قد يضربها بعنف . ولكنها خوفا منه تستسلم له .. وهذا الاستسلام يؤدى إلى تخفيف توتر الذكر . وفى نفس الوقت يقلل من سلوكه العدوانى .. وقد يفعل الذكر ذلك كثيرا ، والأنثى أيضا .. وقد يفعل الذكر نفس الشىء مع الذكر . والأنثى مع الأنثى .. والسبب ليس الإسراف الجنسى . إنما هو الخوف . ومن المعروف يا مولانا أن القرد يقذف مليارا ونصفا ، بينما يقذف الإنسان نصف مليون فقط فى المرة الواحدة .. وقد لوحظ أن القردة فى حالة الخوف لا تكون لها حيوانات منوية .. إذن فليست هى الرغبة الجنسية ، إنما هى الرغبة فى تهدئة الأعصاب فقط .. وقد اختلفنا .. وكانت صدفة عجيبة أن يحضر هذه العملية جراح فى الجيش البريطانى حصل على الدكتوراه فى « العقم عند القرود » فإذا به يؤيد نظريتى .. فعليك يا مولانا أن تنقل لوالدك هذه النظرية .. وأن تقول له أيضا إننى أقبل التحدى فى كثير من النظريات عن سلوك الحيوان فى حديقة الحيوان . أوفى الغابة ..

وقاطعه الأستاذ عبدالرحمن صدقى قائلا : اليوم كانت محاكمتك غيابيا يا أستاذ .. ما شاء الله . إن أكثر الحاضرين من أكلة لحوم البشر .. إنهم تلامذتك يا أستاذ .. ولكن أنيابهم ومخالبهم حادة حقا ..

قال الأستاذ : وبماذا أداننا السيد أنيس منصور ؟

قال عبدالرحمن صدقى : بل إنه أمر بالإفراج عن المتهم عباس العقاد لعدم توافر الأدلة ضده .

– ماذا كانت التهمة يا مولانا ؟

– مى .. يا أستاذ ..

– وأنت الذى قرأت صحيفة الاتهام يامولانا ؟ .

وأشار إلى أحد الزملاء الذى كان قد أثار قبل ذلك حكاية مى زيادة وعلاقتها بالأستاذ ..

وجاء الخادم يحمل صينية عليها كومة من الفستق .. واندهش الأستاذ لهذا الذى حمله الخادم . وتلفت يعرف . وعندما تركزت عيناه على الأسرة اللبنانية . قال : شكرا .. يبدو أنه فستق جيد .

فقال الأب : إنه فستق حلبى ..

تساءل الأستاذ : تقول حلبي ؟ لا أظن ذلك لأن الفستق الحلبي هو العريض قليلا والأميل إلى البياض .. وهو الذى يتفتح وهو أخضر ثم تنمو الحبة بعد ذلك ..

قالت الزوجة : تمام يا أستاذ . إنه ليس من حلب .. إنه من جبل لبنان ، وهو لا يقل جودة عن فستق الشام ..

ثم قال لصاحب النسناس : أعط النسناس .. أعطه كمية كبيرة وأنت ترى كيف يجلس ويمد يده ليلتقط واحدة واحدة .. أعطه ..

وتقدم صاحب النسناس يعطيه ..

ولكن الأستاذ ضحك وتراجع إلى الوراء .. ومسح دمعة من إحدى عينيه .. وقال : كفى يا مولانا ..إنه لا يريد الفستق .. إنه خائف .. ألا ترى أنه قد أدار ظهره إلينا .. هاها . هاها ! .

مَى .. "زيـادة" عَن اللّـزوم !

وفى أذنى بقايا صراخ وطبول الأمس ، جلست أهز رأسى يمينا وشمالا لعل شيئا من ذلك يسقط على الأرض .. وفى بعض الأحيان أحس أن هذه الأصوات العنيفة التى عصرتنى أمس فى حفلة الزار بالمعادى ، مثل ذباب يطير حولى .. وكلما حاولت أن أقتله لم أجده .. بل إن الصور العنيفة الدموية التى شهدتها قد التصقت فى عينى . فلم أعد قادرا على رؤية شىء أو أحد .. لقد أحسست أننى محاصر تماما – حصار صوت وصورة . فالذى رأيته كان شيئا وحشيا بدائيا ..

وعلى الرغم من أن زملائى قد لاحظوا أن هناك نساء جميلات .. ووصفوا ملامحهن بدقة ، وملابسهن .. وأثر أصابعهن على خدودهن وصدورهن .. وسيقانهن .. فإننى لم أر شيئا من ذلك .. إنما انشغلت بالألحان والصرخات والطبول وبالبحث عن معنى كلمة « زار » .. فلم أهتد إلى معنى هذه الكلمة ومن أين جاءت .. هل هى كلمة أجنبية قد صاحبت الغجر فى تجوالهم بين أفريقيا وأوروبا ؟ .. هل كلمة « الزار » مأخوذة من الفعل العربى : زار يزور زيارة ؟ .. وذلك عندما تحل الروح فى جسم واحد من الذين يرقصون .. فيقولون : زاره .. زاره .. أى الروح زاره . أو العفريت قد حضر ..

ثم هذه السيدة الحبشية – وهى عادة حبشية ، يقال لها : الكودية .. فمن أين جاءت هذه الكلمة ؟ هل هى تحريف لكلمة قائدة .. كائدة .. أو هى من كلمة اسبانية غجرية . فيقال : « كوديو » أى القائد .. و « كوديا » أى القائدة ؟ .. لأنها تقود الطبول والناى والصاجات ، وترقص أكثر من الجميع حتى تدخل النساء جميعا فى حالة الاندماج .. أو الهيستريا ..

واللاتى يحضرن الزار يصرخن ، يمزقن ملابسهن وشعورهن حتى يتساقطن من الإعياء .. وفى هذه اللحظة تقوم الكودية بذبح الديوك والخراف والغربان والعصافير والهداهد .. ثم تدهن الوجوه والأيدى بالدماء الحارة .. وتظل النساء ملقيات على الأرض ساعة أو ساعتين ..

أما هذا الهدوء على الوجوه بعد ذلك فسببه الإرهاق الشديد .. أو الراحة التامة ، بعد أن أطلقت كل واحدة ما لديها من أوجاع مكتومة .. وبعد أن انتقمت من كل الذين عذبوها ، فضربتهم ولعنتهم

واستعدت عليهم الأرواح والشياطين .. وهى لا تدرى طبعا أنها ضربت نفسها ومزقت ثوبها ولطمت خدها وأوجعت أصابعها رأسها .

هل الذى فى داخلى ، ولم أعرف كيف أتخلص منه ، هو الذى جعلنى أشعر أن صالون الأستاذ كان مختلفاً فى ذلك اليوم عن أى يوم سابق ؟ .. هل ضاقت الغرفة أكثر مما يجب ؟ .. وهل زحفت المقاعد بعيدا عن الجدران ؟ .. هل الذين حضروا فى ذلك اليوم لم يسبق لهم أن جاءوا معا قبل ذلك ؟ .. وهذا مألوف جدا .. ولكنى أحسست أن شيئا غريبا من الممكن أن يقع .. أو من الممكن أن يقال لتكون له نتائج سيئة ..هل هى نبوءة : أن الأستاذ سوف يفقد أعصابه ؟ .. كان عندى شعور عميق بذلك ، ولكن لم أجد له تفسيرا واضحا .. هل سبب هذا الشعور أننى عندما طالعت الوجوه أدركت أن بعضها فى حالة تحفز للأستاذ .. أو أن بعض الحاضرين قد جاءوا ليتكلموا وليس ليسمعوا ، وأن إحساسهم بكثرة الحاضرين وضيق الوقت يجعلهم حريصين على الكلام بعنف لينفردوا باهتمام الأستاذ .. أو بغضبه أو ثورته عليهم ؟ ..

فإلى جوار الباب جلس أستاذنا د . عثمان أمين . إنه رجل قصير القامة أحمر الوجه كبير الرأس والمنظار .. وهو إذا جلس وحده تراه يهز رأسه يمينا وشمالا . كأنه يستمع إلى أحد ويوافقه على كل ما يقول ..

وجلس الأستاذ محمد محمود خضيرى . وهو رجل هادئ دائم الابتسام . وهو لا يتكلم إلا لكى يصحح شيئا . وهو يفعل ذلك فى غاية الرقة والتواضع .. ولا أظن أنه قد جاء مع د . عثمان أمين ، فالذى بينهما ليس اسمه الصداقة أو الزمالة ..

أما الفنان صلاح طاهر ، فلأنه من « أهل البيت » فهو يقوم ويجلس ويدخل ويخرج ، ولا يتوقف الخادم عن الهمس فى أذنه .. وأحيانا يضحك عالياً . ويكون السبب شيئا يقوله الخادم ، أو يقوله هو لأحد .. وأظنه هو الذى قال بصوت مرتفع : خسارة كبيرة للعالم كله .. فقد توفى العالم الرياضى الكبير البرت اينشتين ، وقبله بأسابيع توفى مكتشف البنسلين الكسندر فلمنج ، وبعده بأسابيع أخرى توفى الأديب توماس مان .. كل هؤلاء فى هذا العام .

وقال أحد الحاضرين : صحيح ماتوا .. ولكن لابد أن عباقرة آخرين قد ولدوا فى نفس العام أوفى نفس اليوم .. إن هؤلاء العباقرة قد سقطوا من قطار التاريخ .. وسوف يمضى القطار .. ثم من قال إنهم ماتوا ؟ .. إنهم كأجسام ماتوا .. ولكن أعمالهم هى امتداد أقوى وأعمق من أشخاصهم .. إنهم قد توقفوا عن التنفس .. أما الحياة فلم تعد فى أيديهم إنما فى أيدينا نحن ..

قال له صلاح طاهر : أنت متفائل .

وأنت متشائم ..

– صحيح !

وكانت الشاعرة الرقيقة روحية القليني .. سمراء قصيرة القامة ، كانت قد ألقت بعض قصائدها على الأستاذ فى جلسات سابقة . ويبدو أنها أتت بقصيدة جديدة لكى يسمعها الأستاذ . قالت لنا : هو الذى طلب منى ذلك .. إننى أستحى أن ألق شعرى أمامه .. بل أرتعد خوفا . ولكنه هو الذى أصر على ذلك ..

وأشارت إلى أحد الزملاء تستشهد به ، فهز رأسه بأن ما تقوله صحيح . واستراحت الآنسة روحية القليني إلى ذلك .. ووضعت القصيدة فى حقيبة يدها ..

أما الصديق حسن . ا . ف .. فأنا أعرف مقدما ما سوف يقول .. فقد تناقشنا فى ذلك كثيرا .. عندما ذهبنا منذ أيام إلى مجلة « الرسالة » والتقينا بالأديب أحمد حسن الزيات .. وكان رجلا رقيقا شديد التحفظ .. لم يتسع صدره لما قلنا . ولكنه لم يضق أيضا . فقد كان حوارنا معه نوعا من الجرأة والغرور . فقد سألناه كيف ترجم « آلام فرتر » للشاعر الألمانى جيته ، وهو لا يعرف الألمانية ؟ .. وكان رده : إن الشاعر جيته قد أعجبته الترجمة الفرنسية . وكتب فى مقدمتها يقول لو أنه كتبها باللغة الفرنسية لما فعل أفضل من ذلك .. بل إنه قال أيضا إن الترجمة الفرنسية قد وضحت له بعض المعانى الناقصة فى تفكيره هو .. فكأن المترجم لم ينقل النص الألمانى إلى الفرنسية ، إنما شرحه أيضا .. إذن فن الأفضل ترجمتها عن الفرنسية وليس عن الألمانية ..

وعلى الرغم من أننا فى ذلك الوقت لم نكن نجيد الألمانية أو الفرنسية ، فقد رأينا أن الواجب ترجمتها من لغتها الأصلية . ولم يشأ الأديب الكبير أحمد حسن الزيات أن يناقشنا . فقد وجدنا صغارا . أو وجدنا مراهقين أدبيا .. ولكنه غضب منا عندما قال له الزميل حسن : ولكن يا أستاذ ما قيمة هذا الكتاب الذى يدعو إلى السلبية وإلى التشاؤم وإلى الانتحار ؟ .. كيف تنقل إلى العربية هذا المرض ، ثم تظل مستريح النفس هكذا ؟ ألا ترى أن هذه جريمة .. أو دعوة لوقوع جريمة ؟ .. ثم كيف يكون شعورك إذا علمت أن قارئة قد انتحرت بعد أن فرغت من قراءة هذا الكتاب ؟ .. هل ترى أن هذا الانتحار هو تحية عظيمة للمؤلف الألمانى ، أو للمترجم المصرى ؟ .. صحيح أننا لم نسمع عن أحد قتل نفسه . ولكن ترجمة الكتاب ونشره والتعليق عليه فى مجلتك « الرسالة » هو تحريض على ذلك !

ونهض الأستاذ الزيات بهدوء شديد وأحكم زراير جاكتته وأطبق شفتيه أكثر ، واقترب من الباب وفتحه .. بما معناه أن نخرج فورا . وخرجنا . ولم أفلح فى إقناع الزميل حسن بأنه كان قليل الذوق ، ولكن كان رده : لا حياء فى العلم . فن الضرورى أن نحاسب هؤلاء الناس ، وأن نحاسب أنفسنا على أننا سكتنا عليهم .. يجب أن يحاسب بعضنا بعضا .. وألا نقف متفرجين على الذين يضعون

السم فى العسل ، ويقدمونه مع ابتسامة كاذبة إلى الناس . وهذا الرجل واحد منهم .. وهو أيضا !

قلت : هو من ؟

قال : هو ..

قلت : الأستاذ العقاد ؟ !

قال : نعم !

ويمضى نقاش حاد بيننا ولا نتفق عادة ، ثم نرجئ النقاش العنيف إلى أن تهدأ أعصابنا ، ثم نعود إليه بعد ذلك .. ونذهب إلى صالون الأستاذ . واشترطت عليه ألا يتكلم إلا إذا أشرت إليه . فقد كان ينطلق صاروخا من تلقاء نفسه ، ويكون انطلاقه صاخبا صارخا مثيرا للأعصاب وغضب الأستاذ والحاضرين جميعا . وفى مرات كثيرة سحبته بعد نصف ساعة من حضورنا إلى أقرب مقهى ونكمل الحديث الذى كان يحب أن يستمع إليه الأستاذ ..

ثم اتفقنا على أن يجىء كل واحد منا منفردا حتى لا تؤدى انفعالاته إلى إحراجى ثم خروجى من الصالون ..

.. إلا فى ذلك اليوم ، فقد جئنا معا . وكانت سهرة الأمس قد حطمت أعصابنا وعظامنا .. وفى الطريق إلى الاستاذ لم يدر بيننا كلام . فلم يكن بيننا ما يقال .. أو إننا مشغولون بما فى رءوسنا .. أو إننا نريد أن نسمع شيئا يكنس ويغسل ويذيب ما فى آذاننا ويمحو ما فى عيوننا ..

وإلى جوارى جلس زميلى فى كلية الآداب الأستاذ رأفت ... وهو مدرس الأدب اليونانى واللاتينى . وهو يرى الدنيا كلها بدأت وانتهت عند الإغريق . فلم يضف أحد إلى الحضارة الإغريقية شيئا . وأن عباقرة الإغريق هم العباقرة . وليس عباقرة الحضارات كلها إلا صورا من أساطير وفلسفة الإغريق .. وهو يؤكد لنا أن الأستاذ ليس إلا تجسيداً وبعثا جديدا لعدد من مفكرى الإغريق .. وفى بعض الأحيان يشبهه بالإله فولكان أو الإله بركان وهو « حداد الآلهة » الذى يصنع لهم السيوف وآلات القتل وآلات الحصاد .. وهو الذى يهز الأرض ولا يهتز ..

وعندما تقدمنا إلى صالون الأستاذ وقف وصافحنا . وقدمت له زميلى حسن .. الذى يعرفه تماما . ولم يكد يراه حتى قال له : نريد تفسيرا ماركسيا لهذين الحادثين : الرئيس خوان بيرون اعتزل .. وخرج من بلاده .. والرئيس ايزنهاور أصيب بأزمة قلبية .. ثم انسحاب فرنسا من الأمم المتحدة بسبب موقفها من الجزائر .. عندى تفسير واحد يا مولانا .. هو : أن الرئيس بيرون قد وضعوا له صرصورا فى الزبادى .. وأرغموه على أن يأكله وإلا ... ففضل أن يترك البلاد .. أما أيزنهاور فقد ضايقه ذلك ، ولما رفض أيزنهاور أن يشترى دواء فرنسيا انسحبت فرنسا من الأمم المتحدة . ولذلك انعقد مؤتمر للشباب الشيوعى فى وارسو .. هاها .. هاها ..

وقدمت له صديقا التقيت به منذ أيام فى محل « البن البرازيلى » بشارع سليمان باشا ، قلت : إن اسمه غريب يا أستاذ .. وهذا هو الشيء الوحيد الغريب .. اسمه سوريل عاصم ..

قال الأستاذ : سوريل وليس سوريال ؟ ! ..

قلت : إنه مسلم يا أستاذ ..

قال : هل هو زوريل ؟ .. هل هو زوريلا ؟ ..

قلت : أما أسماء أخواته البنات فأعجب من ذلك : امبالا .. وهيرولا .. وأخوه سونى .. أو سنى ، وأخوه الأصغر اسمه عرابى .. أو عروبى ..

قال الأستاذ وقد أرجع الطاقية على رأسه إلى الوراء قليلا : غريبة .. وليست غريبة .. فإذا كان نطقها الصحيح : زوريلا وامبالا وسونى وعريبى ، فهى ليست غريبة .. فهى تدل كلها على أن والده قد عاش فى أواسط أفريقيا .. وأن له اهتماما بالحيوانات ..

فقلت : أبوه طبيب بيطرى . ولكن لماذا ؟.

وكان رد الأستاذ بسرعة : لأن سوريل مأخوذة من زوريلا ، وهو نوع من القطط المتوحشة التى تعيش على الجبال فى أواسط أفريقيا .. وهى طويلة الشعر ومخططة بالطول ومن أكلة اللحوم .. أما الأسماء الأخرى فهى أسماء لأنواع مختلفة من الغزلان : هيرولا .. وامبالا .. والغزال العربى وسونى .. أليس كذلك يا مولانا ؟ !

واندهش صديقى سوريل ، لأن ما قاله الأستاذ صحيح تماما . وأعتقد أنه ظل مذهولا طوال هذه الجلسة . ولم يفتح فمه إلا بعد ذلك .. ولأننا تعودنا على مثل هذه المعلومات الغريبة التى لدى الأستاذ ، فلم نندهش لذلك .. إنما الذى يبعث على الدهشة حقا . هو ألا يعرف الأستاذ مثل هذه المعلومات عن عالم الحيوان والحشرات والكواكب والنجوم ..

وإلى جوارنا جلس زميل شديد الخجل . ولذلك فالأستاذ عندما يتحدث إليه ، فإنه يكون شديد الحذر لكل كلمة يقولها . ولم يكد الأستاذ يجلس ويتطلع إلى وجوهنا ويحيى الأساتذة الكبار .. حتى وجدت جارى الخجول قد أخرج ورقة من جيبه .. والورقة ترتجف فى يده .. إنه هو الذى يرتجف . ثم أخرج منديلا ومسح عرقا وابتلع شيئا توقف فى حلقه . ووقف ، مع أن هذا ليس مألوفا ، وقال : يا أستاذ .. لقد تكلم (وأشار ناحيتى) فى الجلسة الماضية ولم تكن موجودا ، عن مواصفات وصفات الآنسة مى زيادة .. وقال إنها خرافة .. لا وجود لها .. فهى صناعة أدبية .. أنتم الذين صنعتموها وزيفتموها .. وضللتمونا وضللتموها .. ولم نعد نعرف عنها شيئا .. وهى مختلفة تماما عن تصورها لنفسها .. فهى تقول عن نفسها يا أستاذ (وأمسك الورقة المرتجفة وأدناها من عينيه وقرأ) : إذا أراد أحد أن يعرف ملامحى الجسمية والنفسية فأنا أدلكم على ذلك : هات فتاة سمراء كالبن أوكالتمر

المندى . كما يقول الشعراء ، أوكالمسك كما يقول عاشق العامرية . وضع عليها لون الدم ، وكثيرا من الوجد والعشق والذهول والجوع العقلى والعطش الروحى ، واستعداداً كبيرا للطرب والسرور ، واستعداداً أكبر للشجن والحزن والألم : هذه جميعا هى مى ».. هذا كلامها عن نفسها ، وهو لا يتفق فى شىء مع كل الذى قيل عنها فى حياتها أو بعد وفاتها .. بل إننا لا نعرف بالضبط ما لون عينيها .. وهى تصف العيون فتقول : ألا تدهشك العيون .. العيون الرمادية بأحلامها .. والعيون الزرقاء بتنوعها .. والعيون العسلية بحلاوتها .. والعيون البنية بجاذبيتها . العيون التى تشعر والعيون التى تفكر والعيون التى تتمنع والعيون التى تترنم ؟ .. (ويخرج ورقة أخرى من جيبه ويقرأ) : وإذا شئت أن تعرفنى – أنا المجهولة – فتفرس فى حدقتيك تجدنى فى نظرك على الرغم منك ».

وتشجعت الآنسة روحية القلينى ، وقالت : كانت لنا ندوة يا أستاذنا عن أدب مى .. وتبارينا فى إعادة تلاوة ما قيل فيها من رثاء .. وأنا أحفظ كل الذى قيل .. ولكن أروعه ما قلته أنت يا أستاذ فى رثائها .. أنت تقول :

أين فى المحفل مى يا صحاب ؟
عودتنا ههنا فصل الخطاب
عرشها المنبر مرفوع الجناب
مستجيب حين يدعى ، مستجاب
أين فى المحفل مى يا صحاب ؟

من جناها كل حسن نشتهيه
كل نبت يافع ينجب نبتا
من لغات طوفت فى الأرض حتى
لم تدع فى الشرق أو فى الغرب سمتا
وحواها كلها اللب العجاب

حى « ميا » إن من يتبع ميا
منصفا ، حيا اللسان العربيا
وجزى حواء حقا سرمديا
وجزى ميا جزاء أريحيا
للذى أسدت إلى أم الكتاب

أتراها بعد فقد الأبوين
سلمت فى الدهر من شجو وبين
وأسى يظلمها ظلم الحسين
ينطوى فى الصمت عن سمع وعين
ويذيب القلب كالشمع المذاب ؟

رحمة الله على « مى » خصالا
رحمة الله على « مى » فعالا
رحمة الله على « مى » جمالا
رحمة الله على « مى » سجالا
كلما سجل فى الطرس كتاب

تلكم الطلعة مازلت أراها
غضة تنشر ألوان حلاها
بين آراء أضاءت فى سناها
وفروع تتهادى فى رجاها
ثم شاب الفرع والأصل وغاب

وتمضى روحية القلينى : والشاعر الرقيق جدا ، وهو أحب الشعراء إلى قلبى : إسماعيل صبرى باشا ، عندما تخلف عن زيارتها فى صالونها يوم الثلاثاء بعث إليها بيتين يقول فيهما :

روحى على دور بعض الحى حائمة
كظامئ الطير تواقا إلى الماء
إن لم أمتع بمى ناظرى غدا
أنكرت صبحك يا يوم الثلاثاء !

أو الذى قاله طه حسين فى رثائها . وقد اختار أبياتا للشاعر ذى الرمة الأموى فقال :

خليلى عدا حاجتى من هواكما
ومن ذا يواسى النفس إلا خليلها ؟
ألما « بمى » قبل أن تطرح النوى

بنا مطرحا أو قبل بين يزيلها
فإلا يكن إلا تعلل ساعة
قليلا ، فإنى نافع لى قليلها !

ثم أعاد هذا البيت الأخير أكثر من مرة .. كما أن فضيلة الشيخ مصطفى عبدالرازق عندما وصف صالون مى استعار صفات الجنة ، كما جاءت فى القرآن الكريم . قال الشيخ مصطفى إنه لا يسمع لغوا ولا تأثيما .. والله يقول عن الجنة « لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما إلا قيلا سلاما سلاما » .

هل كانت حركة الأستاذ على مقعده نوعا من محاولة الاختفاء فى المقعد ؟ هل هو يدور حول نفسه فى مقعده ، كأنه « بريمة » تريد أن تثقب المقعد ليختفى تحته أو تحت الأرض ؟ ربما كان ذلك ..

أما الذى قاله د . عثمان أمين فكان شيئا عجبا . قال دون أن يلتفت إلى الحرج الذى يعانيه الأستاذ فى كبرياء وصمود : لقد اكتشفت أن أجمل ما قيل فى الآنسة مى هو أكذبه أيضا .. والعرب يقولون : أكذب الشعر أعذبه .. أو أجمل الشعر أكذبه .. فكل الذى كتبه مصطفى صادق الرافعى عن مى من خياله .. أو إنها حركت فيه بركانا يتدفق بالمعانى الجميلة ثم تركته يحترق .. ولكنى وجدت رسالة بعثت بها الآنسة مى .. وبالصدفة أحتفظ بها الآن معى ، لأننى جئت أستوضحك يا أستاذ بعض ما جاء فيها ، وما جاء فى كتب الأستاذ مصطفى صادق الرافعى .. (وأخرج الرسالة من جيبه وقرأ) ولكن أهم من هذه الرسالة .. أن الأستاذ الرافعى لو كتب رسالة إلى مى منتحلا أسلوب مى ماكتب غير ذلك .. فهناك تشابه عجيب جدا بين أسلوبها وأسلوبه .. ولولا أن هذه الرسالة بخطها الذى أعرفه . لقلت إن الأستاذ الرافعى هو الذى كتبها لنفسه .. وأنا كنت فى شبابى أشكو من عدم إقبال البنات على الجلوس معى .. بينما يجلسن مع شبان جهلاء .. فكنت أكتب الرسائل إلى نفسى وأوقعها بأسماء الزميلات والجارات .. هاها .. هاها .. (يقرأ) : أتذكر إذ التقينا فجلسنا مع الجالسين لم نقل شيئا من أساليب الحديث ، غير أننا قلنا ما شئنا بالأسلوب الخاص باثنين فيما بين قلبيهما ؟ وشعرنا أول اللقاء بما لا يكون مثله إلا فى التلاقى بعد فراق طويل . كأن فى كلينا قلبا ينتظر قلبا من زمن بعيد .. ولم تكد العين تكتحل بالعين حتى أخذت كلتاهما أسلحتها .. وأثبت اللقاء بشذوذه أنه لقاء الحب ! وقلت لى بعينيك : أنا ... وقلت لك بعينى : وأنا ... وتكاشفنا بأن تكاتمنا .. وتعارفنا بأحزاننا كأن كلينا شكوى تهم أن تفيض ببثها .. وجذبتنى سحنتك الفكرية النبيلة التى تضع الحزن فى نفس من يراها ، فإذا هو إعجاب ، فإذا هو إكبار ، فإذا هو حب ؟ وعودت عينى من تلك الساعة كيف تنظر إليك . وجعلت أراك تشعر بما حولك شعورا مضاعفا ، كأن فيه زيادة لم ترد .. وكان الجو جو قلبنا .. وتكاشفنا مرة ثانية ، فكان تكاتمنا مرة ثانية » .. ليس أروع من هذا الكلام . أن يدور حديث صامت بين اثنين يفكران على نحو واحد .. ويتفقان على ألا يتكلما ..

والذى أدهشنى حقا هو أنهما يتكلمان لغة واحدة .. هل هى ضاقت به لأنه يشبهها ؟ . هل هو سعيد بها لأنها تشبهه ؟ .. وهل كان أسعد لأنها حرمته وعذبته ورفضته .. فكان الرفض تصريحا لموهبته بطوفان من العطاء ؟ .. إن هذه حالة عجيبة فى الأدب العربى الحديث .. فنحن نعرف عاشقات فى الأدب .. ونعرف عشاقاً .. ونعرف صاحبات أندية أدبية .. ونعرف شاعرات وناثرات .. منذ العصر الجاهلى ولكن ليس هكذا !

قال د . محمد محمود خضيرى : فى نفس الوقت كان الصالون الأدبى للأميرة نازلى .. وكان يحضره سعد زغلول وقاسم أمين والشيخ محمد عبده والشيخ جمال الدين الأفغانى وغيرهم . وكان هذا الصالون فرصة عظيمة للعلماء أن يتناقشوا فى كل القضايا .. وكذلك كان صالون الآنسة مى .. لولا أن مى كانت أميل إلى تنشيط الفكر .. بينما صالون الأميرة نازلى كان إصلاحيا ثوريا .. وكان ذلك عجبا أن تكون هى من الأسرة المالكة ويكون روادها من يشكو من الأسرة المالكة .. ولابد أن تكون هذه الأميرة شخصية عظيمة ، وإلا ما أحس هؤلاء المصلحون بالأمان عندها .

وعاد د . عثمان أمين يقول : لقد عرفنا ندوة هند بنت الحسن المعروفة باسم الزرقاء ، وكذلك ندوة جميلة بنت حابس وكانت من مشاهير الخطباء فى الجاهلية .. وكذلك كانت هناك نساء يجلسن لسماع الشعر ومناقشة الشعراء ونقدهم .. فكانت أم جندب زوجة الشاعر الجاهلى امرئ القيس .. وهى التى فضلت شعر علقمة على شعر زوجها ! وكذلك كانت عائشة زوج الرسول عليه السلام تحفظ الشعر وتناقشه وترويه ، وكانت تناقش فى الدين حتى إن هناك حديثا نبويا ينصح بأن نأخذ دينا عنها .. وكانت هناك ندوة « خرقاء » وندوة عمرة زوجة أبى دهبل .. وكذلك ندوة السيدة سكينة بنت الحسين بن على .. والمؤرخ ابن خلكان يروى لنا نوادرها وأفكارها الذكية .. ووصفها بأنها أفضل نساء عصرها .. وربما فازت ولادة بنت المستكفى بالنصيب الأعظم فى كتب التاريخ لأنها جميلة ولأنها متحررة .. وكان الجميع يطمعون فيها .. وكانت تشجعهم على ذلك .. فجعلوها بطلة وأسطورة حتى أحبها الشاعر الأندلسى ابن زيدون وقال فيها شعرا كثيرا .. أجمله قصيدته التى مطلعها :

أضحى التنائى بديلا من تدانينا
وناب عن طيب لقيانا تجافينا

واهتز د . عثمان أمين وهو يقول : ولأن الآنسة مى لم تكن لواحد من أدباء زمانها ، فلم تفز بهذه الشهرة الجارحة الفاضحة التى فازت بها المحبوبات مثل ليلى والمجنون ، ولبنى وقيس ، وليلى الأخيلية وتوبة ، وعزة وكثير ، وبثينة وجميل ، والزلفاء والمؤمل ، وأسماء ومرقش ، وعفراء وعروة ، وهند

وابن عجلان ، ولذة والمهذب ، ومية وذى الرمة ، ومنية وقابوس ، والحجلاء والسعدى ، وثريا وعمر بن أبى ربيعة ، وسلامة والأحوص ، وفوز وابن الأحنف ، وأمامة وأبى الشيص ، وغيرهن كثيرات .. وفى الأدب العربى شاعرات أيضا ولهن عشاق : عنان جارية الناطق ، وجنان محبوبة أبى نواس ، وفى الأندلس نجد نزهون الغرناطية وولادة وحمدة خنساء المغرب .. وغيرهن كثيرات .. وهناك أدباء وشعراء اشتهروا بالعشق .. ولو كان للأديبة مى زيادة عاشق واحد ، لاسترحنا ولسهل أمر الباحثين والمؤرخين . ولكنها كانت مضطربة .. ولذلك لم نعرف لها قلبا من رأس .. وكان يدخل بيتها من هب ودب .. كل هواء وهوى هب ، وكل كاتب وقارئ دب .. وأنا أريد أن أسأل الأستاذ لا عن العلاقة التى كانت بينه وبينها .. فقد حضرت الندوة التى أشارت إليها الآنسة الشاعرة ..

فقالت أصوات : روحية القلينى ..

واستأنف د . عثمان أمين يقول : فأنت حر فى أن تقول ما تشاء .. وقد قلت ما هو أجمل مما سمعناه من الآنسة الآن .. ولكن الذى قلته ليس كافيا فى التدليل على من تكون هذه الأديبة وأنا أصبحت أميل الى ما قاله تلميذى أنيس منصور .. وكما أن لدى الإغريق أن فنانا راح يضحك حتى مات ، فإن هذه الأديبة راحت تبكى حتى ماتت .. إنها مثل الشاعرة القديمة الخنساء ، بكت على إخوتها وعلى أولادها حتى ماتت .. وما مات شعرها ، فقد تلاشت عيونها ، أما دموعها فهى أبدية ..

وكان الزميل رأفت قد انتظر هذه اللحظة طويلا ، فقال : إن الذى ضحك حتى مات اسمه كالخاس ، فهو قد عاش ومات من ثلاثين قرنا .. إنه الرجل الذى صنع حصان طروادة .. الذى وضعوا فيه الرجال ثم أدخلوه الحصن وخرج الرجال ليستولوا على الحصن .. هذا الرجل كانت له حديقة مزروعة عنبا .. وتنبأ له واحد بأنه لن يذوق النبيذ المعصور من هذا العنب .. وأنه سوف يموت دون أن يذوقه .. تماما كما مات موسى عليه السلام وهو يرى أرض المعاد ولم يدخلها .. وعندما عصر النبيذ من هذا العنب دعا الرجل الذى تنبأ له بأنه لن يذوقه . وقدم له كأسا وملأ لنفسه كأسا ، وأدنى الكأس من فمه ، وراح يضحك على صاحب النبوءة .. وظل يضحك حتى مات .. ولم يذق النبيذ ! فصدقت النبوءة !! وحدث نفس الشىء مع الرسام الإغريقى زويكسس الذى رسم لوحة لفتاة جميلة وفى يدها عنقود من العنب وكان متقن الالوان حتى توهمت الطيور انه عنب حقيقى .. فجاءت الطيور تنقر العنب ، فظل الفنان يضحك حتى مات .. ولكن لا أفهم كيف يقولون إنها كانت حزينة ، وإنها كانت تبكى حتى ماتت .. فهل هى التى كانت تبكى ، وهم الذين كانوا يضحكون ؟ .. ما سبب موتها ؟ .. وما سبب الذين ماتوا عشقا لها ؟ .. لا أفهم .. إن الأمر يحتاج إلى توضيح .. وهذا هو الفرق بين الأدب العربى والأدب الإغريقى ، حتى الألغاز عند الإغريق لها معان واضحة .. نسيت أن أقول إن مؤلفا شهيرا اسمه فيلمون .. كان يكتب المسرحيات المضحكة .. وفى

إحدى المرات بعد أن كتب فصلا من المسرحية ، راح يقرؤه من جديد .. وقد أضحكه المشهد وما يقوله الممثلون .. وظل يضحك حتى مات .. فكان هو القاتل والقتيل ! .

وعاد د . عثمان أمين يطلق حكما نهائيا على كل الذى قيل ، كأنه رئيس لجنة مناقشة رسالة للماجستير أو الدكتوراه فى كلية الآداب ، فقال : يمكن أن يقال إنها فتاة متحررة ومعقدة فى نفس الوقت وعندها شجاعة أدبية . أما بقية الصورة أو الصفات فقد خلقها أدباء عصرها .. وإذا كان يقال إن وراء كل امرأة عظيمة رجلا ، فإن هذه المرأة قد وقف وراءها وإلى جوارها وأمامها وضدها كل عظماء عصرها .. ولم يسكتوا عن وصف وتزييف ذلك الحدث الأدبى فى زمانهم . هذه هى خلاصة الرأى فى حكاية الآنسة مى زيادة ..

ثم سكت كأنه أصدر حكما ، وعلى ذلك يجب إغلاق باب المناقشة .. والانصراف ..

ونسينا الأستاذ .. أو انشغلنا عنه ، أو كأننا - لا شعوريا - رفضنا أن ننظر إليه وهو فى هذا الحرج أو الضيق .. أو الانتظار .. هل هو أراد أن يعرف جانبا من الندوة التى انعقدت فى صالونه وفى غيابه ، وكان الحكم عليه غيابيا .. تماما كما هو حكم غيابى دائما على الآنسة مى ؟ .. هل هو أراد أن يرى كيف أثمرت البذور التى وضعها فى عقول تلاميذه ورواده ؟ .. هل هى لحظة استمتع فيها الأب بنضج الأبناء ؟ .. هل هى لحظة تاريخية يعرف فيها ما سوف يقال عنه فى غيابه ، عندما يغيب تماما ؟ .. هل عودته إلى الكلام بعد هذا الصمت الطويل ، مثل عودة الروح فى حفلات الزار ؟ .. فقد كانت المناقشة الحادة نوعا من الزار : كلمات عاوية وطبول مدوية ، وأنياب وأظافر تمزق جثمان « مى » وروحها وتاريخها .. ثم جاء الأستاذ من بعيد روحا تتلبس الحاضرين أو المكان كله .. هل كان صوته ضعيفا كما أحسست . أو إنه الإرهاق الذى أضعف طبلة أذنى فلم تعد تسمع بوضوح ؟ ..

وكما يحدث فى جلسات تحضير الأرواح تخيلت أننى أسمع الوسيط يقول : أنا عباس محمود العقاد .. أنا الذى أحب مى .. ولكن لم أستطع أن أبوح بذلك .. فكان شعرى رمزا ، وكان نثرى حذرا شديدا ..

لقد كان صوت الأستاذ عندما تكلم شبيها بذلك .. والذى يقرأ رسائل الأستاذ إلى الآنسة مى يجدها تتطور كلما اقترب منها .. فهى بدأت هكذا : سيدتى . ثم سيدتى الآنسة .. وسيدتى الآنسة العزيزة .. وسيدتى الآنسة الفضلى .. وسيدتى الآنسة النابغة مى .. وأخيرا صديقتى العزيزة ..

وعندما أعادت الآنسة مى خطابات الأستاذ إليه .. أعاد إليها معظم الخطابات التى كتبتها إليه .. واحتفظ ببعضها .. وأوصى أن تظل هذه الخطابات بعيدة عن العيون وعن النشر أيضا .. وعندى واحد من هذه الخطابات إليه ، لا أستطيع نشره .. فهو يبعث على الألم ، ويكشف جانبا موجعا من

حرمانها الشديد وحيرتها وخوفها من كل شيء بعد ذلك ..

وكأن أحدا لم يقل شيئا قبل ذلك ، فتحدث الأستاذ قائلا : ليست الشجاعة هى أهم صفاتها .. فمن الممكن أن يكون الإنسان شجاعا بلا موهبة .. ومن الممكن أن يكون صاحب موهبة وليس صاحب شجاعة .. ومن الممكن أن يكون الإنسان شجاعا فى الدفاع عن رأى لا يؤمن به .. تماما كالمحامى الذى توكله فى قضيتك .. فرأيك الشخصى لا يهم ، ولكن المحامى يجتهد فى فهم القانون لصالحك .. ومن الممكن أن تلتقى الشجاعة والانتحار أيضا .. فبعض المؤرخين يرون أن جوردون باشا كان شجاعا ، ولكنه كان شاذًا جنسيًا يريد أن يموت .. وكذلك الأميرال نلسون .. لقد طلبوا إليه أن ينزل من فوق ظهر السفينة ، ولكنه لم يشأ .. وعرفنا فيما بعد أن حالته النفسية وغرامه الفاشل وديونه المالية ، كلها دفعته إلى الانتحار ، وكذلك ت . أ . لورانس صديق العرب شاذ جنسيًا ويريد أن يموت .. والآنسة مى كانت متدينة . وأمها أيضا . ولم تفقد إيمانها لحظة واحدة . ولكن دينها لم يكن مثل الماء الذى نزل بردا وسلاما على إبراهيم .. إنما كان ماء قليلا على نار كبيرة ، فلم يسعفها دينها ، ولا أنقذتها كبرياؤها .. وكانت متعصبة أيضا لبنات جنسها .. وكانت تناقشنى كثيرا فى الذى أكتبه عن المرأة .. وكانت ترى ضرورة دخول المرأة فى الانتخابات ودخول البرلمان .. وتطلب منى أن أدعو إلى ذلك ، فكنت أقول لها : إن المرأة لا تحب الديموقراطية .. إنها تحب الدكتاتورية .. لا تحب الرجل الذى يعطيها حريتها ، ويلقى بالعبء على عقلها لكى تفكر وتختار .. إنها تفضل الذى يختار لها ويرغمها على ذلك .. ثم إن المرأة لا تحسن الحكم على الأمور .. إنها تحكم على الأمور بظواهرها .. ومرة سألتها : إن كانت تعطى صوتها لمرشح يمشى حافيا أو لمرشح يركب سيارة .. ولم تشأ أن ترد ، إنما أمها هى التى اختارت صاحب السيارة .. ولم يكن من السهل إضحاكها ، فهى مكتئبة المزاج عموما ، واستعدادها لذلك قديم . ربما كانت النشأة الدينية .. وربما كانت الشعور بالغربة فهى فلسطينية سورية لبنانية مصرية .. ثم هى عالمة أيضا ، وهى تشعر بالغربة اللغوية أيضا .. فهى حريصة على اللغة العربية ، ولكنها حريصة على الفرنسية والإيطالية والألمانية ، وتؤلف وتنظم شعرا بها جميعا ، ولأنها على مقربة من بلدها فهى ليست مثل أدباء المهجر الذين يعيشون فى أمريكا .. ولذلك كان أسلوبهم رمزيا غامضا ، وأسلوبها رمزى ولكنه واضح .. أو إنها حريصة على أن تكون كذلك .. ثم إنها مثل القطط التى تحدثت عنها التوراة .. والتى أحرقها شمشون الجبار ثم أطلقها فى حقول القمح لتشتعل فيها النار .. فهى مشتعلة ولكنها فى نفس الوقت تحاول المستحيل : أن تظل هى مشتعلة دون أن تحترق .. ودون أن تحرق أحدا ! وكانت حريصة على أن تبدو مختلفة .. فأسلوبها مختلف ، وطريقتها فى النطق والكلام .. وطريقتها فى مصافحة الناس والحفاوة بهم .. حتى الماء الذى تقدمه فى صالونها لم يكن شيئا مألوفا .. إنه مثل أسلوبها ، قد وضعت فيه خلاصة الورد . فإن لم يكن حلوا فهو معطر .

وإن لم يكن باردا فهو لذيذ الطعم .. إنها تحاول أن تكون غير مألوفة .. وربما هذا هو الذى جذب إليها الكثير من الناس ..

واندفعت الآنسة روحية القلينى كأنها وجدت مخالفة قانونية صارخة .. أو كأن الأستاذ قد ألقى بيتا مكسورا ، أو أنه أخطأ فى النحو .. قالت : ولكنك يا أستاذ نظمت فيها أجمل الشعر ، ووصفتها بأروع النثر ، فكيف تفسر هذا الجمال فيما كتبت ، ثم تجردها من كل ذلك فى هذا الذى تقوله لنا يا أستاذ ؟ .. إذا كنت نسيت الذى نظمته يا أستاذ ، فأنا أحفظه تماما .. وإذا أذنت لى فإننى أحتكم إلى كل الحاضرين من أساتذتى وتلامذتك ..

قال الأستاذ : ولكن يا مولاتنا إننى عندما أتحدث عن مى .. فإننى أصف شخصيتها .. وشخصيتها أجمل كثيرا وأعمق من الذى تكتبه الآنسة مى .. ومع الأسف فإن الكثير جدا مما قالته لم تكتبه ولم تسجله .. فأنا لم أفلح فى إقناعها بأن أسلوب الأديب غير أسلوب الكاتب السياسى .. أو أن الأديب نفسه يختلف أسلوبه إذا كتب فى الأدب وإذا كتب فى السياسة . لأن الاختلاف سببه : من الذى يتوجه إليه الكاتب .. فأنا إذا تحدثت إلى أطفال صغار ، أقول شيئا مختلفا عن الذى أقوله لآبائهم .. مع أننى الذى يتحدث فى الحالتين .. ولكن الآنسة مى ترى أن الإنسان لا يختلف .. فكنت أسألها : هل تستحمين بملابسك ؟ .. وكانت لا تفهم النكتة بسرعة . فأعود أقول لها : إن الإنسان يقف تحت الدش عاريا .. ويرتدى بعض ملابسه فى الحمام ، وملابس أخرى فى البيت ، وملابس غيرها فى الشارع .. وملابس غير ذلك للرياضة .. مع أنه هو نفس الشخص .. فالإنسان يرتدى لكل مناسبة الزى الذى يناسبها ، وكذلك تستخدم الألفاظ والعبارات المختلفة فى المناسبات المختلفة .. ولكنها تكتب بأسلوب واحد . لأنها تتوجه بالحديث إلى شخص واحد ، أو نوع واحد من القراء .. أو هى على الأصح تتحدث إلى نفسها .. فالقارئ والكاتب عندها شخص واحد . ولذلك لا تختلف أساليبها فى جميع الأحوال ..

وسأل د . محمد محمود خضيرى : أهذا يدل على أنها كانت « نرجسية » — أى مجنونة بنفسها ؟ .. واذا صح ذلك كان معناه أن الصالون الأدبى الذى أقامته قد فشل تماما .. لأن هذه اللقاءات معناها أن الإنسان يحاول أن يجعل الناس يدخلون فيما بينه وبين نفسه .. يباعدون بينه وبين نفسه .. يشغلونه بغيره عن نفسه .. ولكن ما دام هذا الصالون لم يحقق شيئا من ذلك ، فإن ندواتها كانت نوعا من الفشل المتكرر .. لا أراحت أحدا ، ولا أراحها أحد .. ولم يرحها أحد لأنها لم تشأ ذلك .. حاولت ففشلت .. ولذلك كان جنونها فى النهاية نوعا من الشعور بالاضطهاد .. والفكرة المتسلطة عليها من أن العالم كله يعذبها !

ورفع الأستاذ رأسه ليقول : يا مولانا أنت قلت كلاما طيبا .. صحيح ما قلت لولا أن الآنسة مى

كانت تجد لذة فى الحديث ، أكثر مما تجد فى الكتابة . وكان صالونها يستغرقها تماما . بل كانت أحرص عليه من كل زوارها .. وكانت تجلس فى الصالون كما لو كانت ضيفا إنها لا تتصدره إنما تجلس فى جانب منه .. كأنه يسعدها أن تتحرر من فكرة أنها صاحبة البيت ومركز الندوة ، وبطلة الجلسة ، وأنها وحدها المقصودة بالزيارة وبالكلام .. وكان إذا طلب أحد شيئا تشير إليه أن ينهض ويحضره .. كأنها تقول له : إنك أنت صاحب البيت ولست أنا ..

– يا أستاذنا .. يا أستاذ العقاد . أرجو أن تسمعنى ..

وضحك الأستاذ قائلا : إننى أسمعك دون حاجة إلى إذن يا مولانا .. ومذ متى كنت تستأذن ؟ ..

وكان المتحدث هو الصديق حسن . ف .. ولم أكد أراه وقد اقترب حاجباه وتشددت شفتاه .. واندفع إلى طرف المقعد .. وراح يرفع كتفا ويخفض أخرى ، حتى أدركت أن ساعة الانفجار قد حانت .. وأننى لا أستطيع أن أتدارك شيئا .. ومعنى ذلك أنه استراح بما فيه الكفاية ، وأنه استرجع شهيته للحوار . وأن الله وحده هو الذى يعلم إلى أين ينتهى هذا النقاش العنيف الذى سيهب على صالون الأستاذ .. وأنا أعرف مقدما أن كلمة واحدة من الممكن أن تجىء على لسان أى واحد دون أن يقصد معنى سيئا ، قد تستفزه .. وإذا سمعها فإن الكلمة تسد أذنيه وعينيه ، فلا يسمع غيرها ولا يرى سواها . قال : أرى يا أستاذ أنك انشغلت بمعنى بعض الأسماء الغريبة ، وبسرعة اهتديت إلى أنها أسماء قطط وحشية أو غزلان جبلية أو برية .. لا أعرف .. وإذا دل هذا على شىء ، فعلى أن معلوماتك غزيرة يا أستاذ .. وإذا كان قد فاتنا أن نصفق لك .. فالوقت لم يفت .. وسوف أصفق لك الآن وحدى (وأخذ يصفق بشدة) هل يرضيك هذا يا أستاذ ؟ .. وإذا كنت تريد منى أن أزغرد فسوف أفعل .. ولو شئت تعلمت ثم جئت أزغرد فى الندوة القادمة .. ولكن الذى يضايقنى حقا أكثر من غيرى هنا .. ولست على يقين من أن أحدا هنا قد تضايق .. إذن فما يضايقنى أنا يا أستاذ هو أنكم جميعا نظرتم إلى اسم الآنسة « مى » .. على أنه اسم عربى أصيل .. واسمها الحقيقى مارى واختصرته إلى مى .. ولأن اسمها مارى زيادة فقد اتخذت اسما آخر هو مارى كوبياس ، وكلمة كوبياس لا تينية بمعنى : زيادة .. هكذا قرأت ، وقد أكون مخطئا .. بل أنا مخطئ ولذلك أعتذر مقدما للأخ هنا الذى تخصص فى اليونانية واللاتينية ، ولا أريده أن يتكلم الآن . يا أستاذ أنتم جميعا ذبحتم هذه الفتاة .. أو أعطيتموها مخدرًا حتى عاشت ميتة .. أو أنها ماتت وغابت .. وما تزال غائبة عن مصر منذ جاءت إليها .. كيف حدث ذلك ؟ .. أنتم السبب .. وقد تحاول يا أستاذ أن تعيدها إلى الحياة أو تستحضر روحها .. فإذا فعلت فالناس سوف يصلون على عودة الروح إليها .. وفى التاريخ تجد الشعوب إذا مات حاكمها أو قتل ، فعلى سبيل الوفاء له تقول : إنه اختفى .. أو راحت عليه نومة فى أحد الكهوف .. ولا يلبث أن يظهر مرة أخرى .. قالوا ذلك عن هتلر وعن شرلمان وعن باربا روسا

ذى اللحية الحمراء .. ومن يدرى ربما كانت فكرة الإمام الغائب عند الشيعة شيئا من هذا القبيل .. فالإمام نائم فى أحد الكهوف مثل أهل الكهف ، ولا يزال نائما ، وسوف يصحو فى نهاية العالم ليملأ الدنيا عدلا بعد أن امتلأت ظلما . فهل أنت تريد أن توقظ الآنسة مى يا أستاذ .. أو أنها نامت إلى غير يقظة ؟ .. وحتى إذا صحت من نومها .. فما الذى تقوله لنا ؟ ما الذى قالته وهى حية لتكمله عندما تعود إلى الحياة ؟ .. يا أستاذ .. أنا لا أفهم كل هذا الذى سمعت .. لا مؤاخذة .. إنه كلام فارغ من المعنى .. إن البراعة فى نظم هذه المعانى أو نثرها ، مثل صناعة العلب الفارغة وتزويقها وتجميلها ، ولكنها فارغة ، مهمسا زيناها من الخارج ومن الداخل .. فهى كلام فارغ ما دام لا يضيف جديدا إلى حياة الناس .. وما دام لا يساعد الناس على احتمال الحياة ، وما دام لا يساعد الناس على اكتشاف علاقات جديدة توفر لهم الراحة .. الراحة فى إيجاد الطعام واللباس ، أو على أن يكون لديهم الأمل فى الحصول على ذلك .. فالأديب الذى لا يغير الحياة ليس أديبا ، والعلب لو كانت مصنوعة من ذهب ، وفارغة من المعنى ، فهى علب ورق .. ومهما بلغت براعة الشعراء فى التعبير عن الحياة وعن أجمل ما فى الحياة . ولا تؤدى إلى شىء ينفع الناس ، فهى كلام فارغ — والشاعر والمفلس والمتفرجون والحونة متشابهون تماما . أريد أن تدلنى على معنى واحد يا أستاذ من كل الذى قيل اليوم ، أو قيل هنا كثيرا ، يعطينى أملا واحدا ..

قال الأستاذ كأنه اعتاد على ما يقوله صديقنا ، وعلى غيره من الشبان الساخطين : ربما درس واحد يامولانا ، هو ألا تكون مثلها .. ألا تقف متفرجا .. ألا تعطى إرادتك لكل إنسان . ألا تستعير عيون الآخرين وتنظر بها إليهم وإلى نفسك .. ألا تتصور أن إرضاء كل الناس هو الصحيح ، وإغضاب كل الناس هو الخطأ .. فأنا لا يهمنى كم من الناس أرضيت ، ولكن يهمنى أى نوع من الناس أقنعت .. والآنسة مى قد اختارت الصعب وهو الخطأ أيضا ، فقد كان لديها شعور بأنها « أم البشرية » وما دامت أما .. فكل الناس أولادها .. تقبل منهم ما تقبله الأم من أبنائها الأطفال .. ولا توجد من تتردد لحظة واحدة — أين صاحبنا دارس الأساطير الإغريقية ؟ .. آه .. لقد نهض — فالأم لا تتردد فى أن تقطع لحمها وتسويه لأطفالها يأكلونه .. أو تغلى لهم دمها يشربونه ، أو تكون غطاءهم من الشمس ومن البرد .. وكانت الآنسة مى تفعل ذلك .. فإن لم تكن حياتها عبرة لأحد ، فلا معنى لقراءة حياتها .. هذا من الناحية التربوية .. ولكن من الناحية الجمالية ، فإن ثقافتها الواسعة ومزاجها الحزين ، قد جعل لأسلوبها مذاقًا خاصًا .. وهذا الأسلوب لا يجىء إلا من الثقافة المتنوعة .. فأسلوبها مثل باقة من الورد .. وردة من هنا وزهرة من هناك .. وسوسنة .. وقرنفلة .. كل ذلك مختلف ومتنوع ، ولكن الخيط الذى يشدها بعضها إلى بعض هو ذوقها .. هو شخصيتها .. هو أفقها الواسع .. أضف إلى ذلك نشأتها الدينية ومدارس الراهبات ، وأنها مسيحية وأنها فلسطينية تنتقل من

بلد إلى بلد فتكون أقلية فى أى بلد .. ثم أنها فتاة ذكية حساسة ملتهبة المشاعر .. تجعلها شمسًا تأكل نفسها ، وتحترق بنارها ، وتختنق بدخانها .. تضيء وتحترق ، ودموعها تخمدها .. فهى كتلة من المتناقضات : الحرمان الملتهب والدموع الساخنة والتكتم والوضوح ، والعالمية والتقوقع .. وتستطيع أن تستخرج من هذه المعانى ما يفيدك عندما تقرأ وعندما تكتب . وعندما تقرأ فلابد أن تعلم أولادك وزوجتك أن الحب ممكن .. وأن الزواج ممكن .. وأن الفشل كالنجاح ممكن .. ولا يوجد شيء مضمون تماما فى هذه العلاقات الإنسانية .. وهذه غلطة الآنسة مى .. أنها لم تكن صاحبة تجارب .. وعلى الرغم من أنها من أصل فينيق تجارى ، فلم تكن ذات عقلية تجارية .. فهى لا تفاصل فى الحب .. إنما تريد أن تكسب فى كل صفقة .. وتريد أن تشترى من أول نظرة .. وهذا هو التناقض فى سلوكها .. فهى لا تريد أن تجرب وفى نفس الوقت تريد أن تكسب دون تجربة .. فهى تخاف من التجربة .. وتخاف من الفشل .. أى أنها قررت أنها فاشلة مقدما ، ولذلك فلا داعى للتجربة .. وليست حياتها من أولها لآخرها إلا دليلا على ذلك .. والموقف الصعب الذى يواجه من يتحدث إليها : أنه يجب أن يقنعها تماما أنه إنما ينصحها لوجه الله ، وليس لكى يفوز بها فى النهاية .. ولكن إذا أضفت إلى خوفها الشك العميق الذى هو أخص خصائصها ، وجدت أن الحديث إليها صعب جدا .. فهى تخاف أن تتحدث إلى أحد منفردة به ، أو منفردا بها .. ولذلك كان حديثها إلى الناس على مسمع من الناس ، أو كانت رسائلها التى هى نوع من الحديث الخاص الذى لا يقاطعك أثناءه أحد .. ومن الغريب أن طه حسين عندما زارها لأول مرة ، لم يشأ أن يكون وحده معها .. كان معه السكرتير .. والعجيب أن ذلك كان بناء على طلب منها هى ؟ !

وعاد الصديق حسن . ف يقول : هل أغضبتك يا أستاذ عندما قلت إن كل الذى قيل كلام فارغ ؟ .. اعذرنى .. لم أكن أعرف أنك سوف تفسر لنا هذا السلوك العجيب منك ومن أدباء عصرك ..

قال الأستاذ : نعم غضبت ..

قال حسن : ولكن الغضب لم يظهر على وجهك يا أستاذ ..

قال الأستاذ : لأننى رأيت وجهك ، فخفت على نفسى أن أبدو هكذا مزيجا من القرود والحمير يا مولانا !

قال حسن : إذن فأنت غضبت جدا يا أستاذ .. ولكن لا أظن أن الذى قلته شتيمة .. فأنت ترجمت كتابا عن « يوميات حمار » .. إنه حمار مثل كل الحمير .. فلعلك تقصد أننى مثل هذا النوع الذى يفكر وليس من الضرورى أن يتفق معك فى التفكير .. أما القرود فأنت ترى يا أستاذ أنها المحاولات الأولى للطبيعة لكى تخلق إنسانا .. فالقرود تشبه المحاولات الأولى للكاتب أو الفنان .. وإن

اختلفت مع محاولاته الأخيرة ، فهي من ضنعه أيضا .. ولذلك لا أرى أنني أغضبتك يا أستاذ .. وهذا يدعوني إلى أن أحاول مرة أخيرة .. يا أستاذ .. ألا ترى أن كل الذي قيل عن الآنسة مي ليس إلا تكرارا الحكاية « مرارة العنب » .. وأنت تعرف قصة الثعلب الذي حاول أن يأكل عنقود العنب ، فلما لم يستطع أن يبلغه قال : ولكنه مر ! فلو كانت مي زيادة هذه نامت في حضن واحد منكم ماكان هذا رأيكم فيها .. إنها نامت في حضن مي زيادة .. احتضنت نفسها ، وسحقت ضلوعها بذراعيها .. واعتصرت حرمانها بجوفها .. وماتت .. أو فضلت أن تموت مستورة ، على أن تعيش مهجورة .. ولذلك فأنتم عندما كتبتم عن مي فضحتم أنفسكم يا أستاذ فليس بينكم إلا ثعلب وإلا ذئب .. وإلا عنقود عنب بعيد المنال . ما رأيك يا أستاذ ؟ ! ولا داعي لأن تجيب يا أستاذ .. فقد عرفت إجابتك مقدما .. إنك هذه المرة سوف تضمني إلى فصيلة الحمير فقط أو القرود فقط .. لا يهم يا أستاذ .. إنما أردت أن أنقل إليك غضبي النبيل .. إنني شريف الغضب يا أستاذ .. ولا أحب أن أكون صورة منك ، ولا أن أقوم بدور الصدى لصوتك ، أو الببغاء .. ثم إنني لا أعرف كيف لا تضيق إذا وجدت كل الذين حولك يتكلمون مثلك .. ويرون أنني حمار ، تماما كما رأيت أنت .. ألا ترى أن هذه عزلة فظيعة تعيشها يا أستاذ ؟ ! .. إنك كالذي وقف بين مجموعة من المرايا .. شفافة وصفراء وحمراء ومقعرة ومحدبة . ومصغرة ومكبرة .. وكل الذي حولك هو صورتك التي تختلف من مرآة إلى مرآة .. إنني لا أحب ذلك يا أستاذ .. إنما أفضل أن أختلف وأن يكون لي رأي خاص حتى لو كان خطأ .. بل إنني الآن حريص على أن أكون حمارًا من أصل قرد ، أو قردا من أصل حمار ، لسبب بسيط جدا يا أستاذ .. هو ألا أكون مثل هذه الببغاوات .. هل تعرف يا أستاذ أنني عندما وجدت أبي شديد التمسك بالإسلام وأمي وإخوتي .. فإنني اتجهت إلى البوذية .. ولما وجدت البوذية منتشرة بين بعض موظفي السفارة الهندية ، فأنا أعمل بالسفارة الهندية ، اتجهت إلى مذهب « الزن » ؟ .. وديانة الزن تدعو إلى التأمل ، وتدعو إلى أنه ليس من الضروري أن يتلقى الإنسان الحقيقة عن طريق الكتب السماوية ، إنما يمكن أن يصل إليها عن طريق الإحساس المباشر .. ولذلك فالذي أصل إليه عن طريق التأمل هو الحقيقة ، والذي لا أصل إليه ، لا أصل له .. ولذلك فقد أسقطت مي زيادة من حسابي .. لأنني لم أهتد إلى حقيقتها ، بسبب التضليل المستمر من كل الذين حولها .. وسوف أبرح المكان قبل أن تجردني من شرف أن يكون لي أب أو أم من القرود أو الحمير .. والسلام عليكم ورحمة الله .

وخرج حسن . ف .. وكأن الأستاذ لم يستمع إلى شيء .. فقد اعتاد على ذلك من الأدباء الشيوعيين .. ومن الصديق حسن . أ . ف بصفة خاصة .. وعاد يقول : ولكن أخانا هذا أسوأ مما تصورت .. فهو أيضا مشغول بنفسه .. وحبيس في نفسه .. ولذلك فلن يتعلم كثيرا من الخارج . إن

ديانة الزن التى يتحدث عنها ليست كذلك .. إنها تطلب من الإنسان أن يتجرد من كل مالديه من معلومات .. وأن يترك لقلبه ووجدانه أن يتصيد له المعانى واللمحات .. أو « الفيوضات » كما يقول المتصوفة .. ولكنه يدخل هذه التجربة ولديه كل أفكاره ، فهو يطبق عينيه ليستعرض شيئا يعرفه .. تماما كالذى رأى فيلما سينمائيا ثم أغلق عينيه ليستعيده .. فهو لن يتوقع الجديد ، إنما هو يستعيد القديم الذى يعرفه .. ثم إنها مغالطة وخداع أن يجلس الإنسان ويحاول أن يتجرد من كل الذى كان يعرفه .. مستحيل ذلك تماما .. نحن نفكر بلغتنا العربية .. وبقدراتنا وبتاريخنا .. ولكى يعرف الإنسان شيئا جديدا تماما يجب أن يقوم بالتجربة الغريبة التى حاولها الملك الفرعونى أبسماتيك الأول .. فقد أتى بطفلين صغيرين ، ورباهما منعزلين تماما ، دون أن يتدخل أحد ليعلمهما شيئا . وكان هدفه أن يعرف ما هى اللغة التى يتكلمها الإنسان لو تركناه وحده .. وهى تجربة عبقرية حقا . ولكن نتائجها كانت خاطئة ، فقد أوهمه الكهنة أن الطفلين تكلما إحدى اللهجات الفرعونية .. وبعد الملك أبسماتيك الأول بألفى سنة حاول الملك جيمس الرابع أن يقوم بنفس التجربة .. ويقال إن الطفلين تكلما اللغة العبرية .. أى لغة الكتاب المقدس .. أى لغة الله ، فى ظن اليهود !

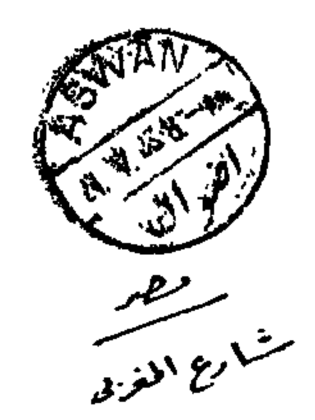
واعتذرت للأستاذ ، عن هذا الذى فعله صديق حسن ، وقلت : إنه إنسان طيب جدا . ولكن عنده مشكلة .. فهو الوحيد غير المتدين فى أسرته .. وهو الوحيد الشيوعى من أسرة غنية .. وهو الوحيد الذى لم يكمل تعليمه .. وهو الذى باع نصيبه من الأرض ومن البيوت وفضل أن يعمل ، مع أنه لم يكن فى حاجة إلى عمل ..

قال الأستاذ : يا مولانا .. لقد حدثنى فى التليفون بالأمس .. وظل يتكلم ساعتين . وعطلنى عن القراءة والكتابة .. واقتسمنا الوقت .. هو تكلم ساعتين ، وأنا رددت عليه فى دقيقتين .. وحاولت أن أقنعه بوجهة نظرى المتواضعة . فلم يقتنع . قلت له : يا سيد حسن . أنت « حومار » .. وإن لم يكن أبوك كذلك ! وضحك .. وظن أننى لا أقوى على مناقشته .. وقال لى إنه أقنعك يا مولانا بوجهة نظره .. وإنكما سوف تجيئان اليوم لإقناعى . لإقناعى بماذا ؟

وأكدت للاستاذ أننا لم نتفق على شىء من ذلك .. وأنه إنسان حساس وعصبى . ورغم ذلك فمن السهل إقناعه جدا ..

ودخل الخادم يحمل ورقة ليضحك الأستاذ عاليا : معك حق يا مولانا .. من السهل إقناعه .. لقد اقتنع .. ها ها .. ها ها .. وأعطانى الورقة لأجد الصديق حسن كتب يقول له : فعلا .. أنا كما قلت يا أستاذ !





مصر

شارع المغربى

حضرة الكاتبة الفضلى الآنسة مارى الياس زيادة

بالمنزل رقم (٢٨) شارع المغربى

صندوق البريد رقم (٥٠٤)

أسوان في ٢٧ ابريل ١٩٢٤

سيدتي الآنسة

كنت أود أن أجادل حبا في الجدل كما قلت في خطابي الأول ولكن يخيل إلي أننا تقاربنا أو أننا نقول شيئا واحدا بأسلوبين مختلفين. فالآنسة تقول إن المعاني الرمزية تأتي عفوا ولا تقصد قصدا، وأنا أقول إن المعاني الرمزية لا تجب لذاتها وإنما تقبل حيث لا يكون للكاتب بد منها. وهي لا تكون كذلك إلا حين يستعان بها على الاختصار أو على تقديس البساطة التي لا يؤبه لها أو تقريب الحقائق العظيمة الغامضة التي لا يلم بها الفكر إلا عن طريق الرمز والإيحاء — على أن كتابا يسترسلون في الرموز بلا جدوى ليوهموا العمق حيث لا عمق أو ليخيلوا المعنى البعيد حيث لا معنى ذا طائل تلمحه البصيرة في البعد أو في القرب، وهؤلاء حكمهم واحد عند الآنسة وعندي بلا ريب

وقد نتفق على أن الرموز في الفنون كالرموز في الديانات، وذلك أن الكهان المتواطئين لا يتعاطون الرموز فيما بينهم للإبانة عن أسرار هياكلهم

التى يعرفونها على بساطتها المجردة ولكنهم يدخرون هذه الرموز لمخاطبة زمرالعباد
الذين لا يشاركونهم الاعجاب بما للبساطة من جلال وروعة . وربما اتخذ الكبار منهم
انفسهم لغة الرموز فيما بينهم ولكن فى أى شئ ؟ فى الاشياء التى يخفى عليهم جميعا
سرها وتحتجب عنهم ملامحها فيتعللون منها بما يشبه الظلال الليلية اذ تلقى
الى الناظر شبحا غامضا من كل شئ ذى صورة وملامح . ولو انهم وجدوا
وسيلة الى رسم هذه الملامح واضحة مميزة لما اكتفوا من الصورة بظلالها ومن
الذوات باشباحها . ففى هذه المعارض التى تفوق ذرع الفكر ولا ترتفع عنه
أعمق اغوار النفس لا اعتراض على الرموز ولا انكار لها بل لا غنى عنها . لأن
المعترض عليها اما ان يحتمى بالسكوت (وليس السكوت من الغموض فى شئ) واما
ان يتطوح فى التعبير عنها موضحا مبينا وهو لا يستطيع

ولعلنا ننصف البحث اذا رجعنا الى منشأ الملاحظة التى أبديتها
الآنفة وهو الرأى او المشورة التى أشرت بها فى خاتمة مقالى على
كتاب « المواكب » . ففيه كله - اى فى المواكب - يشكو المؤلف مدنية الانسان
ويجعل الغاب رمزا الى المثل الأعلى الذى ينشده الساخطون على المدنية
ومؤذياتها ويعتقد العدل فى شريعة الغاب وأنه لا جور ثمة ولا تعصب
ولا غرور ولا شئ مما يشين المدنية ويضيق صدر جبران . ولو أننى
أردت أن أشبه مذهب المؤلف فى هذا القول تشبيها أتوخى فيه الحقيقة
ولا اطاوع المغالاة لشبهته برجل يشكو أضراسه وأسنانه فينزعها

الاضراس والاسنان جملة ويصب جام غضبه على خلقتها وتركيبها ويتمنى لو
جعله الله أسدا او ضبعا لأن الأسود والضباع لا أسنان لها ..! أليست
هذه بعينها هي خلاصة شكوى المراكب؟ أليس من يقول ان الأسد لا أسنان
له كمن يقول ان الغاب لا ظلم فيها؟ نعم ان الرجل متألم وان الشكوى من
الألم جائزة ولكننا اذا سمعنا متألما يتمنى على الله أن يخلع الاسنان كلها
لأن واحدة منها أضجرته فهي سابقة فضلا عليه ولم يرها من فائدة فاكبر
ظني (وظن الآنسة أيضا) اننا لا نؤلف من صرخاته هذه مذهبا في طب
الاسنان او فلسفة خاصة في علم وظائف الاعضاء، وليس لنا الا ان
نقول له ان وجع الاسنان صعب في الواقع ولكن صاحبنا لم يحسن الشكوى!

واني ليسرني ان ترى الآنسة في كلامي ما يعد رمزا ترضاه. وهذا
خليق أن يحولني الى صفها ويجعلني من رأيها ويلزمني الدفاع عن الطريقة
الرمزية في بعض الاحيان ولكن ألا يبيحني ذلك أيضا ان انتقد الرموز
التي أجد لصاحبها منه وجه عذر؟ فأنا أتعاطى الرموز مع انتقادي لها
دليل على انني اوثر من هذه الرموز ما يلجأ اليه الكاتب مسوقا ولا
يتوخاه مختارا. وهذا هو الملتقى الذي يتقابل فيه رأي الآنسة
ورأيي في هذا الموضوع

∴

ولقد حملتني الآنسة تحية الى أسوان الخالدة فحملتها وأديتها
ولو جاز لي أن أنوب عن هذه الربوع التي مرت بها الدهور وهي
باقية لأبلغتها عنها تحية عاطرة من كل هيكل فيها يزيده النسيان

جلالاً وطهراً ومن كل شعاع في سمائك الصافية ومن كل حجر من محاجرها
التي صاغتها للعظمة أناملك الصامتة الناطقة في معابد مصر الخالدة ومن
كل نافذة في قصورها وكل باسقة في جزائر النيل . بيد أنك أبيت علي
أن أنوب عنك فلابد أن تأذني لي أن أزجي إليك أطيب تحياتي . فتقبليها وتفضلي
بتبليغ سلامي واحترامي إلى الوالدين الكريمين مع

المخلص

عباس محمود العقاد

أسوان في ٢٠ مايو سنة ١٩٢٤

سيدتي

كان رمضان رفيقاً لي فمر وما شعرت به! وطلع هلاله
والعيد في ليلة واحدة فكأنما أجدر بهما حين أن يترافقا. ولو أنه
جاء والصائم في أبان الصيام لدعاه على نسكه وعدم المعرفة
بقدر ما يزداد من سطوره وأحرفه. لأنه تزداد شهوده من غذاء
النفس. ولا شك أن الجسوم أيضاً بحاجة إلى تزكية النفوس

تسألني الآنسة هل يعرفني قومي كما ينبغي أن يعرفوا؟ ويودي
أن أقول نعم ولكني لا أستطيع أن أقولها. حتى الآن قومي جدول من
العواطف متسرب مطرد، لا أزال أرسل فيه دم حياتي وعصارة أملي
ولا يزال يذهب مني ولا يعود إلي ولا أدري إلى أين يذهب، فلعله
يجف في بعض الطريق! تبتلعه مغاور العالم السفلي أو تحتسيه
ريح السموم ... ولكن هل آسى على ذلك؟ أما مختاراً فلا وأما
مكرهاً في الحياة فيما تساق إليه سوقاً! على أن العطف يا سيدتي
كآثار الفنون يقاس بالجودة لا بالعدد ويروع بعلوه لا بمساحته
ورب صورة واحدة مجتمع المحاسن تفضل الوفا من الصور التي
تتفرد فيها محاسنها الصغيرة، ورب نفوس عطف من نفس زكية

تتجه باللطف من نفوس شتى لا يجمع بيننا وبينها غير دفات
الصحائف. نفوس لو التقينا بها في كون آخر لما عرفنا أنها
من كوننا بعلامة واحدة من علاماتها ولما ظننا أنها خطرت
فيه مرة ولو خطرة العابر. فإذا كان هذا من آثاره ما
تجود عليه الآنسة بساعات من وقتها ونفحات من عطفها فهل
آسى على العطف من جمهور يحرمونه فلا يرثى لحرمانهم ويغبطون
فلا يغبط صاحب الحظوة بينهم؟

أما المقالة الجديدة فأصارحها فإني أحب أن أستقصي
أسبابها، وشكرًا للآنسة على تفسيرها البديع للطبيعة. ولكنها
بين طبيعة الآنسة من لا طبيعة المواكب! وحسبها كرمًا أنها
تجود على غيرها بطبيعة كاملة من تصويرها وخلقها- هذا
كرم الآلهة وليس لأحد أن يحاسب الآلهة على صفاتها. فإذا كان
لا بد من كلمة تقال فهي كلمة أضيفها وهي أن في هذه الطبيعة
معاني من المثل الأعلى لجلال الحياة ولا أظن الآنسة تقصد
الطبيعة بهذا التفسير جميع معاني المثل الأعلى كما وردت في
المواكب. لأن الراحة ليست غاية من غايات الحياة وإنما هي المرحلة
التي لا بد لنا من الوقوف عليها في طريقنا إلى تلك الغاية،
أليس مثلنا الأعلى في الحياة أن نكون كالآلهة التي لا تطلب
راحة لأنها لا تحس تعبًا؟ غير أني لا أنسى أن الراحة قد
تكون مثلًا أعلى من طريق القلب والخيال وإن لم تكن كذلك
من طريق الغريزة والوجدان

سأصل إلى القاهرة بعد وصول خطابي هذا بأيام
وسأعد نفسي لجميع مخالفات الآنسة السعيدة المرحة، وسلام
وشوق واحترام إلى الملتقى

المخلص

عباس محمود العقاد

صديقتي الآنسة

شكراً للآنسة على الهدية النفيسة . إني الآن أجد في صحراء مادة جديدة للقراءة وقل أن يوجد في الصحراء إلا كل قديم معاد

ليس كل ما في الكتابة جديداً علي ولكنه هذه الأيام أول عهدي بما فيها من العبارات والأفكار . فقد قرأت أكثر ما احتوته من قبل وكنت أفرغ من قراءة البقية الآن ، ولكن الجديد منها والقديم ينتهيان بي على السواء إلى عالم واحد وروح واحدة : هو عالم الآنسة مي ، الرحب المونق وروحها اللطيفة السمحاء

فأما عالمها الذي أوثر وأحب أن تراه جميعاً فيعرفونه فماذا عساي أن أصف ؟ أصدق ما أقول فيه - كما يتمثل لي - إنه يرينا هذه الدنيا كأنها متحف من متاحف الفن الجميل كل ما فيه رائع شيق أو جميل مهذب . نعم وما هذا العالم إلا دنيانا هذه بعينها معادة على أنظارنا ولكن على صورة يرضاها الذوق المرهف ويستريح إليها النظر الوادع . فحتى المناظر الشائنة التي نراها في دنيانا نبحث عنها في هذا العالم فإذا هي لا يجفو عليها بالإطار الجميل والغطاء الثمين ما ! وحتى القديم المحطم هو جديد هنا في الفناء الموشى والرواق المنظم ، وحتى زوايا الظلال لها نصيبها من أشعة النور البنفسجي

وأما الروح فهي تلك التي تليق بأن تكون سيدة هذا العالم وهي التي يشف كل حرف عما أودعته من غزير العطف والسماحة . تعطف على المواخذ والمخالف وتبتسم للمعيب والمخطئ ، وربما كانت ابتسامتها

هذه مما يحبب الخطأ إلى أهله فيتعمدونه ليفوزوا بالسخط ... ولا أخشى
أن أقول إنها تشف أيضاً عن قلة مبالاة في غير قليل من المواضع - ولا أخشى
أن أقول ذلك لأنني أقرأ ما وراء المعاني فأعلم أن قلة المبالاة لم تأت إلا
من المبالاة بما هو أجل في النفس وأولى باشتغال الخاطر. ومثلك في ذلك
مثل من يترك الأطفال يحلون ما بينهم من الخلاف على أي وجه يشاءون
وهو هو الذي يعنيه معنى الفكر بما يدبر لهم من وسائل الحياة والخير. ولم
تعل نغمة الغضب بعض الشيء في صفحات الكتاب إلا قليلاً ولا عجب كان ذلك
ولكن آه يا سيدتي! لو ترك الأمر لي لوضعت في موضع كل حرف من تلك
التعليقات الشافية سوطاً من نار ثم لرأيت نفسي راضياً لا غاضباً

وفي هذا قد هذه الروح وبين جوانب هذا العالم، أقضي الآن ساعات
من أمتع أوقات الفكر والشعور وأعوض ما يفوتني من مجالس الشعر وما يشبهه
المجالس التي لا تحدها أيام ولا أماكن. وأقرأ ما لم أقرأ وأعيد ما قرأت فأعلم
أنها فاكهة من فواكه الجنة التي لا ينقصها الجني ولا يشبع منها المتناول وأتطلع
إلى الشجرة فأسأل الله المزيد من البركة وأطلب لها السلامة من الأيدي التي
لا تعرف أنها تجني حتى ترجم .. وأرجو أن أوفق بعد استيعاب ما في
الكتاب النفيس إلى التعبير عما في نفسي من الشكر والتقدير

المخلص

٢٠ فبراير ١٩٢٤ — عباس محمود العقاد

وَخَرَجَت السَّماء وَلَم تَعُد !

كانت سلالم بيت الأستاذ على غير العادة نظيفة .. غسلوها .. ووضعوا عليها رملا أصفر وأحمر .. شىء غريب . هل مات أحد فى البيت ؟ .. ولاحظت أن على السلالم بقايا أوراق خضراء .. حتى الدرابزين كان مبللا .. والهواء باردا منعشا .. وبسرعة وجدتنى أمام باب الشقة .. إنه مفتوح الضلفتين .. وكان البلاط مغسولا ولا يزال مبللا .

ونظرت إلى ساعتى فوجدت أننى جئت قبل الموعد بقليل .. لابد أن الأستاذ قد أتى بخادم جديد من أسوان .. ولن يمضى وقت طويل حتى يعود التراب إلى السلالم .. وكذلك أوراق الصحف وقراطيس اللب .. وسوف نجد باب الشقة مغلقا أو نصف مغلق .. وسوف نضع أيدينا فى جيوبنا نخرج المناديل ونتفض بها التراب من فوق المقاعد .. ثم ننحنى على المنضدة الخشبية نضعها فى منتصف الصالون حتى لا يصطدم بها أحد .. ثم نهبط بالشيش إلى نصف النافذة المطلة على البلكونة .. وسوف نعيد أصص الورد التى وضعت فى البلكونة إلى مكانها إلى جوار المقاعد فى الصالون .. وبسرعة شممت رائحة الفنيك ، ووجدت زجاجة الفنيك تحت أحد المقاعد ، ونقلتها إلى داخل الشقة إلى جوار الحائط .. ثم رفعت فوطة صفراء كانت قد وضعت فوق تمثال الأستاذ .. وبسرعة جاء الخادم الجديد ، كما توقعت ، وهز رأسه معتذرا عن وجود الفوطة ، ثم قدم لى عصير الليمون ، إنه على خلاف المرات السابقة كان مركزا . ولكن طعم الليمون قد أفسده السكر الكثير الذى وضعه .. وشكرته ، وتمنيت له التوفيق فى بيت الأستاذ .. وأتى بالقهوة . وكانت باردة . . وجاء الأستاذ . وبسرعة قال لى الأستاذ : مالك يا مولانا ؟ .. إن حالك لا يعجبنى ! ماذا يشغلك ؟ هل تحب يا مولانا ؟ ..

فقلت : لا والله يا أستاذ .

قال : لا والله ماذا ؟ لا تحب .. أولا تحب أن تحب .. أو ضياع الوقت أن تحب .. أو إنك ترى الحب أتفه من أن يكون مصدرا لهمك وقلقك .. أو إنك تخاف أن تحب ؟ .. هل تعرف ماذا قال

الهنود للإسكندر الأكبر؟ .. جاءه أحد الأغنياء خائفا ومعه فتاة جميلة . وقال له : هذه الجميلة هدية لك .. فقال الإسكندر : لا أريدها .. وخرج الرجل الهندى ومعه الفتاة الجميلة .. ولما سألوه لماذا عادت الفتاة معك؟ قال : لا أعرف .. إنه لا يريدها .. هل هى ليست جميلة؟ .. هل هو لا يحب المرأة الهندية .. أو لا يحب المرأة؟ .. أو هل هو سيئ الظن بالرجال .. أو بالنساء؟ .. أو هل أتى بفتاة أخرى من بلاده؟ .. لا أعرف . ولكن الهنود سألوا هذا الرجل الغنى قائلين : ولكنك أنت الذى رأيت والذى سمعت .. وأنت الذى تحدثت إلى رجال الإسكندر فما الذى فهمت؟ .. يقول المؤرخون : إن الرجل الهندى أطرق طويلا ، ثم قال : الرأى عندى أن الإسكندر ليست له قدرة جنسية ! ها ها .. ها ها ..

وأحس الأستاذ أن هذه النكتة غليظة جافة .. أو لعله أراد أن يضحكنى فجاءت هذه القصة على ذاكرته فأطلقها لعله يفتح شهيتى للكلام أو للضحك .. ولذلك عاد بسرعة يحاول إضحاكى فقال : ويبدو أن قضية الحياة الجنسية عند الإسكندر أو فحولة الإسكندر قد شغلت المؤرخين .. فهم يعتقدون أن أى بطل ، مثل الإسكندر أو نابليون ، من الضرورى أن يكون بطلا فى كل شىء آخر .. فإذا كان قائدا عظيما يجب أن يكون فيلسوفا أعظم ، وإذا كان شاعرا كبيرا يجب أن يكون فحلا أكبر . ومن الممكن أن يكون زعيماً عظيماً ولا يكون زوجاً قديراً .. ولذلك - وهذه نكتة أو فضيحة تاريخية - احتفظت الأجيال بخصلة من شعر نابليون وبعضوه الجنسى .. وكذلك الإسكندر الأكبر .. ومن العجيب أن نابليون كان أصلع .. وهذا معناه أن المؤرخين رفضوا أن يصدقوا أن له عيوباً .. مع أن نابليون كان قصير القامة ، وكان وجهه مليئا بالدمامل .. وكان لا يستحم إلا قليلا جدا .. ولذلك كانت رائحته كريهة .. وكانوا يسخرون منه قائلين : إن الإمبراطور يجب أن تكون مسافة بينه وبين الناس .. ولذلك فهو مثل الثعلب يطلق الروائح الكريهة حتى لا يقترب منه أحد .. ولا تزال قصة يوليوس قيصر الشهيرة هى أحسن نموذج . فقد أجلس واحداً من أطفاله فى حجره . وتبول الطفل على ملابسه فانزعج رجال الحاشية فضحك قائلاً : اتركوه .. معه حق .. فأنا أحكم العالم وأمه تحكمنى وهو يحكم أمه . فليفعل ما يشاء مادمت هكذا ضعيفاً !

ولما أدرك الأستاذ أن هذه القصة لم تفتح شهيتى لشىء .. ووجدنى شاردا قال : لم يبق إلا أن ندغدغك يا مولانا .. بالمعنى الفصيح وبالمعنى العامى .. ها ها .. ها ها .. قرأت مقالك اليوم يا مولانا .. إنه كلام طيب .. العبارة مشرقة .. والتسلسل منطقى . والمعنى جاء طبيعيا .. ولكن لا أظن أنك كذلك يا مولانا .. فأنت تقول إن الرهبانية هى أن يعكف الإنسان على شىء واحد . ويرضى به من الدنيا كلها .. وتقول إنك كذلك .. إنى أختلف معك يا مولانا .. لأن الرهبانية والإدمان هنا بمعنى واحد .. فالذى يدمن المخدرات لا يرضى عنها بديلا .. والذى يدمن الخمر . والذى يدمن

العقيدة أيضا .. فهم جميعا قد عكفوا على شيء واكتفوا به . ولكنهم جميعا ليسوا من الرهبان .. فأنت ،يا مولانا ، تقرأ الفلسفة ، وتقرأ الأدب ، وتنظم الشعر ، وتنشغل بالمرأة ، وتضيق بمشاكل الحياة .. أو ترهق نفسك بالبحث عن الحقيقة . فأنت يا مولانا تأخذ من كل شيء شيئا .. تماما كما تجد أمامك وليمة .. فتأكل الكثير من السمك ، والقليل من الأرز ، والكثير من السلطة ، ولا تأكل الفاكهة فى نهاية الطعام ، ثم لا تشرب القهوة خوفا من الأرق .. فأنت هنا تحب السمك .. وتفضله على اللحوم ، وتفضل الأرز على المكرونة ، وتحب السلطة ولا تحب الطماطم وحدها والخيار وحده والخس وحده .. فأنت هنا لست راهبا ولا زاهدا .. إنما راهب الطعام هو من يكتفى بالخبز والملح والماء ، وراهب الدين من لا يقرب الدنيا ، وراهب الفلسفة من لا يقرب الدين والشعر والحياة الاجتماعية . وكان النقاد يسمون الخيام راهبا . فإذا كان الخيام راهبا فأبو نواس أيضا .. فالخيام كان يعكف على الخمر ولا يفارقها ، وأبو نواس كان يعكف على الخمر والغلمان أيضا .. وإذا كان سقراط راهبا ، فإنى أرى كارل ماركس أيضا .. فسقراط فيلسوف من رأسه إلى قدمه ، وكارل ماركس كذلك .. ولكن كلا منهما قد اختار صومعة من صنعه ، وأغلق بابها ونافذتها ووضع المفتاح فى جيبه .. يخرج منها عندما يشاء ، ويدخلها مع من يشاء من النساء والغلمان .. ولا أظن أنك راهب بهذا المعنى يا مولانا .. إنما أنت تريد أن تكون كذلك .. وأنت قد استشرتنى .. هل نسيت ؟ .. طلبت أن تتفرغ للفلسفة .. ولكنك لم تستطع .. فقد جاءت وفاة والدك قرارا إلهيا بأن تكون صحفياً .. وأن تسرع فى ذلك .. وأنا رأيت هذا الرأى أيضا . وكنت تحب أن تتفرغ مثلى .. ولكننى تعبت كثيرا .. ثم تعودت على هذا التعب .. فكان لابد أن أختار بين حريتى وبين الجاه والسلطان والمال . واخترت حريتى .. وأنت لا تستطيع أن تختار حريتك .. إنما أنت تختار بعض قيودك .. ولم أندهش عندما اخترت أنت الفلسفة الوجودية مع أنك رجل منطق .. ولست « مفلوتا » ولا منحلا .. بل أنت رجل أخلاق تقليدى .. وحفظك للقرآن الكريم وافتخارك بذلك .. وترددك على الجمعيات الدينية .. كل ذلك يدل على أنك تريد أن تختار أفضل القواعد ، أو أفضل المبادئ .. أى أفضل القيود .. أى أنسب الصوامع لرهبانيتك .. ولأنك لم تتردد على المذاهب السياسية : الشيوعية .. أو الفوضوية .. أو الجمعيات السرية الغيبية ، فذلك يدل على أنك ، يا مولانا ، ترفض الفوضى ولا تطيق الغموض .. واختيارك للوجودية دليل على تقديسك للحرية .. ومن الممكن أن يقدس الإنسان الحرية ، ولكنه يرضى بالقليل منها .. تماما كما يؤمن الإنسان بالإسلام ، ولكنه لا يصوم ولا يصلى .. إنه اختار الدين ، ولكنه لم يطبق تعاليمه .. فأنت اخترت الوجودية ، لتقديسك للحرية ، ولكنك لا تقوى على تطبيق كل تعاليمها ..

ونظر الأستاذ إلى وجهى بإمعان شديد ، كأنه يريد أن يتأكد إن كانت حالتى المعنوية أفضل .. فلما

تأكد من ذلك بذكائه النافذ ، انتقل إلى شيء آخر . وكان اهتمامي الشديد المتجدد لما يقول ، أو ما سوف يقول . هو الموافقة مقدما على أي حوار بعد ذلك .

قال الأستاذ : وكنت أختلف مع الآنسة مى .. فقد كانت تعجب ببعض الأدباء والشعراء ، وكنت أرى فى ذلك مخالفة تامة لطبيعتها ، وكنت أقول لها : أنت تعجبين بهؤلاء إعجابك بمن يخالفك فى الرأى والمزاج ، فأنت تعجبين له ولست تعجبين به .. هى تعجب بالرجل الذى يتزوج عشرين امرأة .. وتعجب بالرجل الذى يصبر على الألم ساعات .. وكانت ترى أن أيوب عليه السلام هو أعظم الصابرين .. وأن سفر أيوب فى التوراة هو أروع كتب العذاب فى التاريخ القديم والحديث .. وكل ذلك يختلف عنها تماما . فهى لا تقوى على الصبر . وهى لا تقوى على العذاب . وهى تحترم العلاقات بين الرجل والمرأة . وترى أن المرأة للرجل والرجل للمرأة حتى الموت . أى الزواج المسيحى الذى لاطلاق فيه .. فهى معجبة بمن يختلف عنها .. تماما كما ترى رجلا يبتلع إوزة .. شىء غريب .. ولكنك لا تفعل ذلك .. أو ترى رجلا يمشى على الحبل .. وتحرص على أن تراه مرة بعد مرة .. ثم إنك لا تحاول أن تفعل ذلك .. فأنت معجب بما لا تحب أحيانا وبما لا تستطيع .. وأرى أنك ياسيد أنيس قريب من هذا المعنى .. وأنك .. أهلا .. وسهلا .. أهلا .. أين أنت ؟ ! ..

وكان القادم الشاعر الرقيق كامل الشناوى .. إنه قصير القامة مستدير البطن والرأس والعينين والشفتين .. غليظ الصوت .. لامع الوجه والكرافتة والحذاء والزراير .. والدخان يتصاعد من بين أصابعه ..

قال كامل الشناوى ضاحكا ، وهو دائم الضحك والإضحاك أيضا : أخطأنا يا أستاذ فى العنوان .. إننا نتحرك بين شوارع مصر الجديدة من السادسة صباحا .. فأنا أعرف أنك تصحو فى الرابعة وتفكر من الرابعة إلى الخامسة فى هل تنزل من البيت أو لا تنزل ؟ .. ثم تقرر أن تنزل ، وفى الساعة الخامسة تماما تعود إلى التفكير فى أى الشوارع تمشى بها .. هل الشوارع التى تخترقها أشعة الشمس من الشرق إلى الغرب .. أو هى الشوارع التى إذا سرت فيها وجدت نفسك أمام بيت النحاس باشا فى جاردن سيتى مارا بضريح سعد زغلول ؟ .. وفى السادسة تقرر أن تمشى فى الشوارع التى تراها الشمس عندما تشرق .. وتظل كذلك حتى الساعة السابعة . ها ها .. ها ها .. وفى السابعة .. ها ها .. ها ها .. وفى السابعة تماما تتساءل : لو فرضنا أن الشمس لم تطلع اليوم .. ويجىء رنين التليفون يقطع تفكيرك .. فتفكر من جديد إن كنت ترد على التليفون .. فإذا كان النقراشى باشا فلماذا ؟ وإذا كان على ماهر باشا فما السبب ؟ .. وإن كان صادق الرافعى فهل تقفل السماعة فى وجهه ؟ .. وإن كنت تستبعد أن يكون الرافعى ، فليس عنده ما يقوله لك .. وفى الثامنة تتأكد من أن التليفون لم يدق .. إنما أنت قد توهمت ذلك .. وفى الثامنة تسرع إلى إنهاء التفكير والاستعداد

لاستقبال ضيوفك .. والحمد لله أنني لم أطلبك أمس وأقول إنني سوف أجيء .. وإلا شغلت وقتك بالتفكير فى أسباب هذه الزيارة التى جاءت بعد زيارة طه حسين وفؤاد باشا سراج الدين وإلا كنت ما تزال تفكر من التاسعة إلى العاشرة .. ها ها .. ها ها ..

قال الأستاذ : لا تزال كما أنت ياكامل .. لست صغيراً ، ولا تريد أن تكون كبيراً ..

وعاد كامل الشناوى يقول : لقد جئت بالتاكسى مع الآنسة روحية القلينى ، واختلفنا أين يكون البيت . وقلت لها : أنا أعرف بيت الأستاذ .. ودخلنا فى شوارع لا أول لها ولا آخر .. ولمحت الأستاذ على أدهم فسرت وراءه حتى جئنا معا إلى هنا .. لقد كانت غلطتى أننى قلت للسائق : بيت السلطان سليم شارع العقاد رقم ١٣ .. وتركتنى روحية القلينى بخبثها المفاجئ .. ولم أعرف أن البيت هو رقم ١٣ شارع السلطان سليم إلا عندما دخلنا هذا الشارع .. إن مشكلتنا أسهل من المشكلة التى سيواجهها الجيل الجديد .. سوف يحجون إلى هذا البيت ، وسوف يلعنهم سائقو التاكسى .. لأنهم سوف يقولون : بيت العقاد ١٣ شارع العقاد .. ها ها .. ها ها ..

ومن بعيد جاءت ضحكة عالية أنثوية .. فوقف العقاد .. أو حاول ذلك .. ثم تركنا وخرج ..

وكان فى استطاعة كامل الشناوى أن يدير صالونا أكبر من صالون العقاد ، وأن يتحدث وحده لا شريك له .. وأن يأتى بالنكت والفكاهة فى الأدب والسياسة .. وكان يضحك أكثر من كل الذين حوله .. لأنه يضحك بكل جسمه وملامح وجهه .. وكانت لديه القدرة الهائلة على أن يجعل كل الحاضرين طرفا فى أية حكاية .. فعنده لكل واحد منا قصة .. وبيت من الشعر .. ولذلك فهو قادر على أن يضحك حتى على نفسه .. ويبكيك أيضا .. وهو يجرح ويداوى ، ويوجع ويواسى .. وهو صديقك بعد لحظات ..

ثم نظر إلى الشاعرة روحية القلينى وقال لها : تريدين أن تحكى إلى الأستاذ ؟ .. موافق .. إن شعر الأستاذ فلسفى فى أعماقه .. حتى الغزل عند العقاد فلسفى .. ولذلك فهو محروم من التجاوب .. فالتى يتغزل فيها لا تفهمه ، ولا ترقى إلى مستوى عبقريته .. فهو كالصوت الجميل بلا صدى .. وكالمطرب الساحر بلا جمهور .. ولكن من المؤكد أنه شاعر عظيم وفيلسوف عظيم ومطرب عظيم .. والعيب فى المعشوقة وفى الجمهور أيضا ..

وجاءت فتاة سمراء ممشوقة شابة حلوة .. كل شىء فيها مغسول بالنور : الوجه لامع ، والأسنان والعينان ، وأحمر الشفاة أيضا ، وأصابعها وجوربها ، والسلاسل الذهبية فى صدرها . وكان الحرج الشديد الذى أحست به عندما دخلت فوجدت كامل الشناوى ، فخلعت منظارها الأسود ، وراحت تنظر إليه بعينيها .. كأنها أرادت أن تضيف سلاحا قويا إلى بقية أسلحتها لتواجه كامل الشناوى .. وعلى الرغم من أن كامل الشناوى كان أول من وقف وأول من مد يده ، فقد صافحتنى أنا الذى لا أعرفها

ولا تعرفنى ، ثم الأستاذ على أدهم .. ثم سيدة قد دخلت وجلست بالقرب من الأستاذ .. ثم صافحت الآنسة روحية قائلة : أهلا يا قمورة !

قالت روحية القلينى : أنا قمورة ؟ إذن ، أنت سيدة الأقمار السبعة .. أو الشمس التى يختفى فى نورها أجعص قمر !

ثم صافحت شابا أزهريا صغيراً قد ارتدى عمامة بيضاء أنيقة ، وداعبته وهى تقول : سألناك الدعوات ياعم الشيخ عبد السميع .. والله العظيم والمصحف الشريف لقد وضعت الحجاب الذى اشتريته لى فى حقيبة يدى وهنا .. (فى صدرها) .. ومفعوله أكيد ، وأنا محتاجة إلى حجاب آخر أكبر .. لأن عندى مشكلة كبيرة جدا .. وسوف أحدثك عنها ..

آه . . لهذا غسلوا السلالم والبيت . .

ثم صافحت كامل الشناوى ولكن بغير حرارة . وتضايق كامل الشناوى . وجلس وازداد وجهه سمرة واصفرارا .. وأخرج علبة السجاير .. ولم تكن السيجارة بين أصابعه قد احترقت تماما .. وأشعل سيجارة جديدة .. وراح ينظر إلى الأرض حين عاد الأستاذ وقال له : ماذا كنت تقول يا مولانا فى غيابى ؟

قالت روحية القلينى : إنه يا أستاذنا خلاف تقليدى .. فقد كان العرب يقولون هذا أحسن بيت شعر .. وهذا أجمل بيت شعر .. وأحسن ما قال المتنبى .. وأجمل ما قال البحترى .. وأسخف ماقال ابن الرومى .. واختلفنا ..

أما كامل الشناوى فقد استدعى كل ذكائه الاحتياطى ، وأسلحته السامة ، فقال بسرعة مذهلة : أنا والله يا أستاذ خطر لى الآن أن أجيب عن مثل هذه التساؤلات .. فسألت نفسى : يا ترى ما هى الأبيات التى تجمع كل فلسفة العقاد فى الحياة .. والحب .. واليأس .. والتشاؤم .. والعظمة .. والكبرياء .. واحتقار أجمل ما فى الحياة : المرأة .. والحب .. واحتقار ضعف الإنسان أيضا .. ان أعظم وأروع ما وجدت فى شعرك يا أستاذ تلك الأبيات التى تحكى عن تعبدك لامرأة ثم ترفعك عنها بعد ذلك .. كنت تراها مسجدا ، فأصبحت كباريه .. ولما عرضت عليك نفسها رفضت أن تعربد فى المكان الذى كنت تعبده .. تقول يا أستاذ .. وما أروع ما قلت :

تريدين أن أرضى بك اليوم للهوى
وأرتاد فيك اللهو بعد التعبد
وألقاك جسما مستباحا وطالما
لقيتك جم الخوف جم التردد
رويدك .. إنى لا أراك مليئة

بلذة جثمان ولا طيب مشهد

جمالك سم فى الضلوع وعثرة

ترد مهاد الصفو غير ممهد

إذا لم يكن بد من الحان والطلا

ففى غير بيت ، كان بالأمس مسجدى !

وكان كامل الشناوى يلقى أبياته ويراقب أثرها فى عيون الحاضرين .. أما الأستاذ فقد امتقع لونه ، وراح ينظر كثيرا إلى السمراء التى جلست ملتصقة به .. والتى أعادت منظارها الأسود إلى وجهها .. أما الأستاذ على أدهم فقد تصبب عرقا .. وانسحب بمقعده إلى الوراء ، كأنه يتوقع شيئا سوف يسقط من السقف أو من المقعد المجاور للأستاذ .. أو لعله أراد أن يتساند على الحائط ..

وخرجت السيدة السمراء .. ووراءها الأستاذ . ووراءه الأستاذ صلاح طاهر .. إذن فلقد حدث ما كنت أتوقع .. أو لعل هذه هى البداية .. وفزعت الشاعرة روحية القلينى وقالت لكامل الشناوى : ماذا جرى لك يا كامل بك ؟ .. ماذا أصابك ؟ .. ألا تعرف من هذه ؟ .. إنها موضوع هذه الأبيات .. مصيبة سوداء ..

ولكن كامل الشناوى قد طعنها بسكين ساخنة بأعصاب باردة .. وجعل موتها فخما أنيقا .. كأنما قتلها ثم شيعها بأداء جميل وعلى مسمع من القاتل والقتيل والشهود . لم أر فى حياتى انتقاما أجمل وأعنف وأسرع من ذلك . وإن كنت لم أفهم ما الذى بينهما . ولماذا بهذا العنف .

وأطفأ كامل الشناوى سيجارته التى لم تحترق ، وأخرج ثالثة . واعتدل فى مقعده . وحاول بصعوبة شديدة أن يضع ساقا على ساق .. ثم تمكن من ذلك فى النهاية . وهذا هو الشىء الوحيد الذى يحسد عليه أصحاب الأجسام النحيفة : أنهم قادرون على أن يجلسوا على حرف المقعد ، وأن يضعوا ساقا على ساق ، وأن يأكلوا خروفا فى الوجبة الواحدة ، ثم لا يصدقهم الناس إذا اعترفوا بذلك .. بينما كامل الشناوى لو أقسم على المصحف أنه لا يأكل أكثر من عصفور فلن يصدقه الناس !

هل هدأت الأصوات تماما عندما خرج الأستاذ مع السيدة الجميلة ؟ أو هل ما يزال كامل الشناوى يتحدث فى أى شىء ، ولكن لم نكن قادرين على الاستماع إليه .. أو إننا لا نريد .. أو إننا فى فزع مما سوف يحدث ؟ .. وإن كان الأستاذ عادة يزداد رقة مع ضيوفه كلما تورطوا فى شىء .. إنه على يقين من شىء واحد يغفرلنا كل شىء آخر : أننا معجبون به وأشد الناس حبا واحتراما له !

ولم يكد كامل الشناوى يشعر باقتراب الأستاذ حتى أسرع برفع الحرج عن الأستاذ وعن الجميع ، ومضى يتكلم وكأنه لم يقل شيئا . وهو يبذل جهدا كبيرا فى إخفاء معالم الجريمة التى ارتكبها ، فقال : ولكن رأيى النهائى أن أعظم ما قال الأستاذ . أو ما قاله أحد فى هذه الدنيا ، بيتان ونصف . ثلاثون

كلمة جمعت كل الفلسفة والحكمة والعدم .. فإذا كانت هناك فلسفة « وجودية » (واتجه ناحيتى) فهناك فلسفة « عدمية » .. وقة العدمية هى التى جاءت فى قول العقاد :

يا شمس ما ضرك لو لم تشرق
يا روض ما ضرك لو لم تعبق
يا قلب ما ضرك لو لم تخفق
سيان فى هذا الوجود الأحمق
من كان مخلوقا ومن لم يخلق !

ثم ضحك كامل الشناوى قائلا : فهل يا ترى سيان عندك أننى جئت وأننى لم أجئ .. أو من كان موجودا فى هذا الصالون أو من لم يوجد ؟ .. هاها .. هاها .. إننى يا أستاذ أنتسب إلى مدرسة فى الفلسفة اسمها الماليشية .. أو الماليشيدية .. وقد فكرت أن أشرح مبادئ هذه المدرسة .. إنها لا تذهب أبعد من المعنى الذى جاء فى هذين البيتين والنصف .. وفى كثير من شعرك يا أستاذ ..

قال الأستاذ على أدهم : ولكن يا أستاذ كامل .. أنا لم أقرأ عن هذه المدرسة ..

وضحك كامل الشناوى : عجيب .. رغم أنها كانت على أيامك .. هاها .. هاها .. بل ربما كانت هذه هى أقدم مدرسة فى الفلسفة .. ومن أجل هذه المدرسة وبسببها ظهرت كل المدارس الفلسفية لتعترض عليها ..

قال الأستاذ : تقول النيتشية ؟ إن الشيخ أحمد أمين يفضل أن يسميها النيتشية ولا يقول النيتشوية نسبة إلى الفيلسوف نيتشه . . . أو لعلك تقصد المانيشية .. وهى فعلا مذهب فلسفى .. نسبة إلى الفيلسوف الفارسى مانى ؟ .. وقد حاول هذا الفيلسوف الفارسى أن يكون مسيحيا أيضا . ولكنه لم يفلح .. بل رأينا القديس أوغسطين يعتنق هذا المذهب الفارسى المسيحى . ثم عدل عن هذا الرأى بعد ذلك .. ثم قضت محاكم التفتيش على « المانيشية » فى العصور الوسطى .. وأنت الآن تفتح باب الانضمام إليها .. ولكن يا سيد كامل أنا لا أرى وجهة نظرك .. ولا أعرف إن كنت على علم كامل بهذا المذهب .. إنه قائم على أن هناك صراعا بين النور والظلام .. بين الخير والشر .. وأن هذا الصراع أبدى .. وأحسن وسيلة للخلاص من هذا الصراع هى الانسحاب .. أو هى التفرج عليه . وألا تكون طرفا فيه .. ولذلك فالفيلسوف مانى أو الرسول مانى يدعو إلى الزهد التام .. والامتناع عن أكل اللحوم .. وأنت تأكل اللحوم .. وأنت قاهر الظلام ، فأنت تنام نهارا وتصحو ليلا .. ولعلك ما تزال نائما ، ولعل الذى تراه أضغاث أحلام .. وأنك لا تدرى تماما ماذا تقول ؟!

لعل الأستاذ يقصد أن كامل الشناوى لا يدرى ما الذى قال ، وأنه كان يهلوس ، وأنه يهذى كما يهذى النائم عندما تلا تلك الأبيات التى أطاحت بالسيدة السمراء ! .

وأدرك كامل الشناوى هذا المعنى الذى أراده الأستاذ فقال : ولكن يا أستاذ .. المذهب الماليشى أو الماليشيدى هذا هو من اختراعى أنا .. وأساسه أن الإنسان أضعف من كل هذه المسائل والقضايا والمذاهب .. وصراع الجنس والحب والمال والسلطة .. وأن أفضل طريقة يعيشها الإنسان هى ألا يبالى بشىء .. لأن الإنسان لا قيمة له .. ولا أحد يشعر به إذا هو كان يبالى أو لا يبالى .. فنحن جميعا نحب الحقيقة التى لا تحبنا ، ونموت من أجلها وهى لا تموت ولا تدرى ولا تمتن لأحد .. ولا يهمها كثيرا إن عشنا أو متنا كما تقول فى شعرك يا أستاذ ..

ثم ضحك كامل الشناوى وقد وقف يستأذن فقال : إن المذهب الماليشى أو الماليشيدى هو اختصار للشعار الذى اتخذته فى حياتى ولحياتى ولكل الفنانين أيضا .. « فالماليشيدية » هى اختصار لكلمتين : ماليش دعوة ! هذا كل ما هناك .. هاها .. هاهاها ..

وضحك الأستاذ وصافحه . وخرج كامل الشناوى . وحاول الأستاذ جاهدا أن يبدو عادياً .. ولكنه لم يفلح فى ذلك . وحاول الأستاذ على أدهم ، أن يغير إيقاع الحوار ومضمونه ، واستدرج الأستاذ إلى الحديث عن الكتب الجديدة .. وعن جائزة نوبل فى الأدب .. وعن التافهين الذين ينالونها كل عام .. وأن هذه الجائزة أصبحت سياسية ولم تعد أدبية .. وأن الدول قد اشترت أكاديمية نوبل .

وظهر بوضوح على الأستاذ أنه مشغول بهذا الموضوع أيضا .. ولكن ببراعة وذكاء استطاع أن يجمع بين هذا الموضوع ، وموضوعات أخرى أثيرت قبل ذلك . فقال مستأنفا ومستدركا ومستردا كل لياقته العقلية والنفسية : ولكن مولانا السيد الشناوى قد لمس شيئا طيبا . ولكنه مر به ولم يتوقف . وهو غير قادر على أن يتوقف .. إنه سريع خاطف .. إنه يجلس طول الوقت ، ولكن تفكيره يتمشى طول الوقت .. يتصعلك على المذاهب الأدبية ، والأندية الاجتماعية ، ويتلصص على الشخصيات المعروفة .. وكامل الشناوى ليس بدينا .. فجسمه ليس إلا لسانا طويلا قد تلوى وتكوم وتكدس .. إن جسمه مثل إعلانات كاوتش ميشلان .. مثل خراطيم المطافئ .. لولا أنه لا يطفئ .. إنه يشعل النيران ويتفرج عليها ويهرب ليحكى قصتها . وتكون القصة عادة مضحكة وهى لذلك غير صحيحة .. وهذا هو أجمل ما فيه .. إنه يفرج عنك .. ولا أعرف إن كان يجد أحدا يفرج عنه .. إن مثل هذا النوع من المحدثين الظرفاء لا يعطون فرصة لأحد يتحدث .. ولذلك فهم محرومون من المشاركة .. فهو كالذى يظهر على المسرح يمتع الناس .. ولا أحد يمتعه فى النهاية .. وليست سخرية كامل الشناوى إلا ضيقا بالحياة ، بحياته هو وبحياة الناس أيضا .. وهو لا يصبر على الملاحظة العميقة .. فهو قد لاحظ بسرعة مذهلة وجه الشبه بين الشعر الذى اختاره لى .. وبين المذهب الفكاهى الذى اختاره .. إنه لا يختلف كثيرا عن الذى قلت .. وقال غيرى . لولا أنه لاحظ بسرعة

ومثى .. وأنا لاحظت على مهل وتعمقت .. والملحوظة واحدة ..

ثم سكت الأستاذ وبدأ يعصر رأسه ويرجع الطاقية إلى الوراء وقال : ... وأستطيع أن أجرى تجربة صغيرة للدلالة على هذا المعنى الذى أراد والذى أردت .. مثلا لو تساءلنا : ما وجه الشبه بين هؤلاء العباقرة : تولستوى وجوركى وتشيخوف وهاردى ومارك توين وهربرت سبنسر واسترندبرج وريلكه وفرويد وبروست وفاليرى وكروتشة وهـ.ج. ويلز وسومرست موم وفتزجيرالد .. فليس من الصعب أن تقول إنهم جميعا من المفكرين أو الفلاسفة أو الشعراء .. ولكن الإنسان يحتاج إلى ذكاء كامل الشناوى ليقول : إنهم جميعا قد تقدموا لجائزة نوبل ولم يفوزوا بها ؟ بينما أعطيت هذه الجائزة لعدد كبير من التافهين فى عصرهم ! !

وجاء الخادم يقول بصوت مسموع لنا جميعا : المطربة قادرة .. أو نادرة ..

فضحك الأستاذ قائلا . هى فعلا كذلك .. نادرة وقادرة ..

وخرج الأستاذ لتتجه الآنسة روحية القلينى إلى السؤال عن معنى أقلقها ، فسألت الأستاذ على أدهم الذى اتجه برأسه ناحية أخرى ورفع رأسه وعينيه إلى أعلى . قالت : ولكن ما هو وجه الشبه بين هذه السيدة الجميلة التى كانت هنا .. والسيدة سارة والآنسة مى .. أنا أعرف السيدة سارة . فقد رأيتها ورأيت عددا من أقاربها ، وهى لا ترق إلى جمال وحلاوة السيدة التى كانت هنا .. وقرأت عن مى .. ولا أجد أى شبه بينها وبين سارة .. فما الذى وجده أستاذنا العقاد من تشابه بينهن ؟ ..

ولم يفلح الأستاذ على أدهم وكذلك الحاضرون فى إخفاء ضيقهم من مثل هذه الأسئلة التى تقتحم خصوصيات الأستاذ . فقال مدافعا عن الأستاذ : والله يا آنسة .. لا أعرف واحدة من هؤلاء .. إنها مسألة مزاج نفسى . . وليس من الضرورى أن يكون هناك تشابه .. كنت أقرأ فى الأيام الأخيرة التقرير الذى كتبه العالم الأمريكى الفرد «كنزى» عن السلوك الجنسى عند الرجل وعند المرأة فى أمريكا .. وهو يقطع بالأرقام واستطلاعات الرأى أن الرجل من الممكن أن يحب أكثر من امرأة وليس بينهن شبه واحد .. بل قد يحب المتناقضات .. وهو يخالف النظرية القديمة التى تقول إن الإنسان يحب امرأة واحدة .. أو صفات امرأة واحدة .. فإذا أحب ألف امرأة فلأن بينهن جميعا تشابها .. أى كأنه يحب المعنى الواحد الذى يمكن التعبير عنه بعشرين شكلا مختلفا ..

وكأن الأستاذ على أدهم قد وجدها فرصة ليرد على النقد العنيف الذى وجهه له د . محمد مندور . فالدكتور مندور يرى أن الشخصية كلمة يصعب تحديدها . وعاد الأستاذ أدهم يوضح قائلا : وكلمة «شخصية» فى اليونانية واللاتينية معناها القناع الذى يضعه الممثل على وجهه .. فالقناع الضاحك يدل على الممثل الكوميدى ، والقناع الباكى يدل على الممثل التراجيدى .. والتمثيل معناه التشخيص .. وكلمة شخصية معناها الصفات الثابتة عند أى إنسان .. فأنت تحبين اللون الأزرق

والجزمة السوداء والقهوة السادة ، وأم كلثوم والعقاد ودافنشي .. كل هذه خطوط ثابتة لشخصيتك .. وهذا معناه أن الإنسان له صفات ثابتة .. أو مزاج واحد لا يتغير .. وكذلك فى الحب .. أى أن من المنطق أن يكون للإنسان لون وخط ونغمة واحدة يحرص عليها .. ولذلك فلابد أن تكون هناك صفات واحدة تعجبه فى أكثر من امرأة .. وهذا يؤكد أن شخصيته متماسكة أو متكاملة . ولكن يبدو أن هذا هو الفهم القديم .. أما الفهم الجديد ، فهو أنه ليس ذلك ضروريا .. فالشخصية قناع شفاف يتغير ويتلون ويتبدل . . .

وسكت الأستاذ على أدهم . ولم تسكت الآنسة روحية القلينى ، إنها تريد أن تستوضح أكثر . ولكن لم تجد استعدادا لدى الأستاذ أدهم . ووجدت الاستعداد قائما والشهية مفتوحة عند الآنسة التى قدموها لنا على أنها الآنسة شريفة .. هى أيضا أديبة وإن لم تشارك فى أية مناقشة .. قالت الآنسة شريفة : كلما فكرت فى حياة مى الأديبة أدركت صعوبة أن تحب أو أن يحبها أحد .. ولا أعرف هل كان من الممكن أن يكون لها صالون أدبى لو كانت متزوجة . أو حتى أرملة ..

وهنا وجد الأستاذ على أدهم ما يقوله بعيدا عن المساس بشخص الأستاذ ، فقال : بل هذا حدث .. فقد كانت أم الفيلسوف الألمانى شوبنهور صاحبة صالون أدبى .. وكان يلتقى عندها أعلام الفلسفة والأدب والموسيقى .. وقد اتسع صالونها لكل الناس ولكنه ضاق عن ابنها .. ولذلك كرهها ابنها كثيرا .. كما أنها كرهته لأنها كانت تغار منه .. فقد أخذ الناس يتحدثون عن فلسفته الشابة .. وأخذوا يشيرون إليها على أنها أم الفيلسوف الشاب .. ولا يشيرون إلى أمه على أنها راعية الآداب والفنون .. وكذلك وجدنا السيدة جورج اليوت .. كانت صاحبة صالون أدبى جميل .. وكانت هى نفسها جميلة .. كانت لها عينان وصفها المؤرخون بأن الله قد فرغ من إبداعها أخيرا جدا .. وكانت لا تتحدث كثيرا . وإنما زوجها الأديب هو الذى يتحدث . وكان يصغرها بعشرين عاما .. وكانت ملكة الحياة الأدبية فى لندن .. وكان يتردد على صالونها عمالقة العصر مثل أديب روسيا تورجنيف والفيلسوف الإنجليزى هربرت سبنسر والأديب الأمريكى اميرسون والموسيقار الألمانى فاجنر .. وكانت تتحدث إليهم قليلا . وكان صوتها ساحرا .. ولكن زوجها كان أكثر الناس حديثا .. ولم يمنع وجود الزوج من أن تظل جورج اليوت متوجة على عرش الندوات الأدبية فى القرن التاسع عشر .. لا أظن الآنسة مى كانت تستمتع بهذا الصفاء أو الهدوء فى حياتها الأدبية أو حياتها الخاصة .. إن الذى أصابها مثل الذى أصاب أديبة بريطانيا فيرجينيا وولف التى توفيت من ١٥ عاما .. فقد أصيبت بالجنون وبدأت ترى أشباحا وتسمع أصواتا .. ولكن القليل من العقل الذى تبقى لديها جعلها تضع حجرا كبيرا بين ملابسها ثم تهبط به إلى النهر وتموت ، حتى لا يكون جنونها مثيرا لضحك الناس أو حتى إشفاقهم عليها .. وكانت الآنسة مى فى آخر أيامها تمشى نصف عارية وحافية فى شوارع القاهرة ! .

وجاء الأستاذ ، وجلس بسرعة يريد أن يكمل ما بدأه ، فقال : يا مولانا أدهم .. لعلك كنت تقول شيئا .. ماذا قلت ؟

قال الأستاذ أدهم ، وهو يريد أن يبعد قليلا عن الأمور الشخصية للأستاذ : كنا نفاضل بين أن يموت الأديب مجنونا أو يموت منتحراً ؟

ضحك العقاد : فى الحالتين .. جنون يا مولانا ! هاها .. هاها .. كيف وصلتم إلى هذه النتيجة فى الدقائق القليلة الماضية .. أنتم تستعجلون النهاية . لماذا ؟ سوف تجيء النهاية التى لا نعرفها ، سواء أردناها أو لم نردها .. شيء عجيب حقا .. إننى فى التليفون قد سمعت عن فتاة كان من الممكن أن تكون مطربة .. ولكنها قد استعجلت هذه النهاية .. فبعد أن غنت فى حفلة مدرسية أمس ، ذهبت إلى بيتها وانتحرت .. وكتبت قبل وفاتها عبارة أقرب إلى السخرية منها إلى الاعتراف .. كتبت تقول : بيدى لا بيد عمرو .. أى بيدها هى ماتت وليس بيد عزرائيل الموت .. مسكينة .. إنها لا تعرف أنها فى الحالتين : بيد عزرائيل ..

ثم جعل الأستاذ طاقيته تهبط قليلا على جبهته العالية العريضة ليقول : ولكن الإنسان يا مولانا يقضى العمر كله يحاول ألا يكون مجنونا .. تماما كما يتعلم الإنسان المشى .. إنه يحاول ألا يقع .. فإذا تعلم المشى فهو يحاول ألا يوقعه أحد .. ولا يوجد عاقل فى الدنيا لم يكن مجنونا دقيقة أو عشرات الدقائق فى كل يوم .. أو يوجد مجنون لا يكون عاقلا عشرات الدقائق فى أى يوم .. ولا توجد ساعة واقفة ليست مضبوطة مرتين فى اليوم .. فإذا كانت الساعة قد وقفت عند الثانية والنصف .

ونظرت فى ساعتى بسرعة فوجدتها كذلك .

ورمقنى الأستاذ ومضى يبرهن على وجهة نظره قائلاً : فإن هذه الساعة تكون مضبوطة تماما فى الساعة الثانية والنصف صباحا .. وفى الساعة الثانية والنصف مساء .. والإمبراطور الرومانى كاليجولا كان سفاحا وكان مجنونا .. وفى إحدى المرات طلب إلى الشعراء أن يتباروا فى إلقاء القصائد بين يديه .. وكان يحكم على الشاعر الذى لا يعجبه بأن يقفز من الجبل .. فكان الشاعر يلقى القصيدة ويهز كاليجولا رأسه بما معناه أن الشعر لم يعجبه .. فيقفز الشاعر ميتا .. حتى قضى على ثلاثين شاعرا .. وأخيرا أخرج من جيبه قصيدة كان قد نظمها هو .. ووضع التاج على المقعد الذى كان يجلس عليه .. واتخذ مواقف الشعراء وراح يلقى قصيدته .. ثم سكت .. ونظر إلى التاج قائلا : ما رأيك فى هذه القصيدة ؟ .. ولما لم يرد التاج طبعا قال الإمبراطور كاليجولا : إن السكوت دليل على الرضا .. ثم وضع التاج على رأسه وجلس سعيدا .. لقد كان مجنونا حقا فى إعدامه للشعراء ، وكان عاقلا فى إبقائه على نفسه !

وسادت لحظة صمت فقلت : بل كنا نتحدث .. أو كانوا يتحدثون إن كان الإنسان إذا أحب

أكثر من واحدة ، فهل من الضرورى أن تكون بينهن صفة واحدة .. أى أن الإنسان يحب مرة واحدة .. ولكن بصور مختلفة .. أى أن الحب مثل اللحن الواحد الذى يمكن توزيعه موسيقيا على عشرين طريقة ! ! . إننا نلاحظ يا أستاذ أن الرسام يرسم وجوها كثيرة ، ولكن فى كل هذه الوجوه نجد ملامح متقاربة .. كأن الفنان قد احتفظ فى عينيه وفى أصابعه بخطوط محددة .. وهو عندما يريد أن يفلت منها ، فإنه يجد نفسه سجينا لحب واحد .. وامرأة واحدة .. أو هل ترى يا أستاذ أن الفنان الذى يحب الكثيرات هو كشاعر الغزل .. يتغزل فى أكثر من واحدة ولا يكتفى بواحدة .. على عكس الشاعر العاشق الذى يعيش ويموت من أجل واحدة يرى فيها كل الجمال وكل الأنوثة ؟ ..

وقد أحس الأستاذ أننى قطعت تفكيره وتسلسله الفلسفى ، وأننى ابتعدت كثيرا عن الذى كان فى نيته أن يقوله . وكان إصرارا منى ومن أكثر الحاضرين على أن أقترب من الأستاذ أكثر ، فأقول له : لم نجد وجها للشبه بين مى زيادة وسارة والسيدة السمراء التى كانت هنا .. ولا حياء فى العلم . وأنت قد عودتنا يا أستاذ ألا نخجل من الحقيقة ..

وكأنى أريد أن أبرر هذا الانحراف أو المطب المفاجئ فى الحديث بيننا ، فقلت : ثم إنها فرصة يا أستاذ أن توضح فلسفتك ، وأن تدافع عن نفسك أمام التاريخ .. فليس بعيدا أن نكتب سيرتك .. وأفضل أن نسمعها منك ، وأن نتفق وأن نختلف عليها معك وأمامك . .

فضحك الأستاذ قائلا : وهل تظن يا مولانا أن الذى سأقوله الآن هو الذى سوف يرضى به المؤرخون بعد ذلك أو أن الذى يقنعك الآن ، سوف يبقى كذلك بعد أن تكون أنت قد جربت الحب ؟ .. أو الذى يرضيك أنت هل يرضينى ؟ .. إنها مسألة نسبية .. وتبقى حقيقة واحدة فى النهاية : رأى الذين أحبوا .. وقد يختلف المحبون .. كما يختلف الناس عليهم .. ولكن سوف تبقى حقيقة مؤكدة هى أنهم أحسوا وعبروا .. صدقوا أو كذبوا .. قد يصدق التعبير وقد يكذب .. ولكن الذى لا يحتمل الصدق والكذب هو أنهم جربوا .. ومادامت التجربة شخصية جدا ، فلا أمل فى أن يكون التعبير عنها صحيحا .. إننا لا نعرف ما حقيقة مشاعر العشاق والعاشقات فى التاريخ .. إن الخيال والتلفيق من الممكن أن يكون لهما الدور الأكبر .. ولكن الذى لا خلاف عليه : أن واحدا على الأقل قد أحب واحدة .. أو واحدة أحبت واحدا ! والحقيقة تعتمد على كل هذه الأطراف وتضيع بينها أيضا .. إن صديقك الغزالى ..

فقلت : من هو يا أستاذ ؟ ..

قال : الإمام الغزالى ..

يشير الأستاذ إلى أننى كنت دعوته إلى إلقاء محاضرة فى كلية الآداب عن العلاقة بين فلسفة الغزالى وفلسفة العلوم الحديثة .. أو عن نظرية « السببية » عند الغزالى ونظرية « النسبية » عند اينشتين ..

ووافق الأستاذ . فكانت محاضرته من أروع ما سمع طلبة قسم الفلسفة فى ذلك الوقت .. لقد بهرنا الأستاذ بإحاطته بالفلسفة الإسلامية ، وتعمقه للفلسفة الحديثة ..

ثم استأنف الحديث بعد أن تأكد من أننى تذكرت تماما ما أراد : الإمام الغزالى كانت له نظرية بسيطة .. ظاهرها طيب ولكن باطنها ساذج .. كان يقول إن الجنين مرتبط ببطن أمه وهو يتغذى عن طريق الحبل السُّرى ، لأنه عاجز عن الحصول على الطعام بنفسه .. وبعد أن ينزل من بطن أمه فإنه يظل عاجزا ، ولذلك ربط الله الأم بطفلها عن طريق الحب .. فالأم تحب طفلها وتخاف عليه ، فالحب مثل الحبل السُّرى الذى يتغذى منه الطفل .. والفكرة لا بأس بها ، لولا أن الإمام الغزالى لا يذهب إلى أبعد من ذلك .. فهو يريد أن يقول إن الناس يعتمد بعضهم على بعض .. والناس مترابطون متشابكون .. وكل شىء يعتمد على شىء آخر .. وكل إنسان يعتمد على إنسان آخر .. والذى تعتمد عليه ليس من الضرورى أن يعتمد عليك ، فالطفل يتغذى من أمه ، والأم لا تتغذى من طفلها .. والطفل إذا كبر واستقل عن الأم ، فسوف يبدأ الاعتماد على غيرها .. وغيره يعتمد عليه .. وهكذا .. وعيب نظرية الغزالى هو عيب النقاد الذين يدرسون قصص الحب والعشق .. فالغزالى يدعو الناس إلى « التواكل » .. أى لابد أن يعتمد الإنسان على الإنسان .. لأن الله قد خلق الناس هكذا .. وبناء على نظرية الغزالى هذه ، فإن أحسن من يتحدث عنك : أمك وأبوك وأخوك .. وأحسن من يتحدث عن الأم والأب : واحد من الإخوة . ولا أظن أن هناك خطأ أفدح من هذا الخطأ .. فالابن ليس أكثر إنصافا لأبويه ، كما أن الأبوين ليسا أكثر نزاهة فى الحكم على ابنهما .. وهكذا بين الإخوة .. وهكذا بين العشاق .. فلابد لمن يريد أن يرى أوضح ، أن يبعد قليلا لكى يرى أشمل .. ولكى يسمع أدق وأصفى ..

قلت : إذن فمعنى ذلك أننا لا يصح أن نسألك يا أستاذ .. ولكن إذا ذهبنا فى استنتاجنا خطأ ثم أطلعناك عليه ، أفلا ترى أن من الضرورى تصحيح ذلك .. أو أنك تفضل أن نفعل ما نشاء وأن نذهب نحن إلى أبعد من الحقيقة ، دون أن يهمك ذلك ؟ .. وإذا كان هذا يهمنا نحن ، أفلا يهمك أنت أيضا .. حتى بعد أن اعترفنا لك بحرصنا على حقيقة هامة فى حياتك يا أستاذ ؟ . .

ولما لم أجد أثرا على وجه الأستاذ ، حاولت أن أنقل إليه أفكارى على شكل مظاهرة عدائية فقلت : أمس كنا عشرين من دارسى الفلسفة وعلم النفس ومن عشاق طه حسين وكارل ماركس ومن الوفديين أيضا .. وكان لنا سؤال واحد ، ولا نعرف من الذى يجيبنا عنه .. وعذرنا أنك شخصية عامة يا أستاذ ، وأنه ليس فى حياتك شىء خاص .. إلا ما أخفيته أنت .. ولم نفهم كيف إنك يا أستاذ تجاهر بالحب والعشق ، وبعد ذلك تكون لك كل هذه الدراسات الدينية العميقة .. سلسلة « العبقريات » .. والإعجاز فى القرآن والحجج التى تبطل الادعاءات الكاذبة ضد الإسلام ! .. أى

كيف تكون شاعر الغزل والعشق والشيخ من بعده فى نفس الوقت – أو بعض الوقت – .. أما أنا فقد توليت تفسير ذلك .. وأرجو أن تصحح لى هذا التفسير يا أستاذ .. أنا قلت إن من الممكن أن تكون للإنسان وهو طفل صور يبدو فيها كما لو كان فتاة .. فشعره طويل وليس له جلباب إنما هو فستان .. ومن الممكن أن يكون له اسم فتاة أيضا .. وكلما كبر الإنسان تغيرت الصور والأزياء والملامح .. وقد يكون الإنسان ضابطا فينادونه برتبته ، وقد يكون سجينا فينادونه برقم زنزانته .. والشخص هو هو فى جميع الأحوال .. إنها مراحل من الحياة العقلية والجسمية والوجدانية لشخص واحد هو أنت يا أستاذ .. لولا أن الشاعر أو الفنان لا يستطيع إلا أن يكون إنسانا .. ولا يستطيع إلا أن يبوح .. لأنه لابد أن يقول للناس .. وليس الشعراء أكثر الناس عشقا ، ولكن أقدرهم على التعبير عن ذلك .. ففى كل الآداب العالمية شعراء أحبوا وتعذبوا .. ولم يتزوجوا .. ونحن نعرف عنهم كل كلمة وكل نبضة .. والتعبير الجميل هو الذى أطال ظلالهم .. ولكننا لا نعرف مئات الملايين من الذين أحبوا وتزوجوا .. وتزوجوا عدة مرات .. ثم عاشوا وماتوا دون أن نعرف عنهم شيئا .. لأنهم لم يقولوا .. ولم يكن قولهم خالدا .. وربما كان الدور الذى نطلبه منك يا أستاذ هو أصعب من ذلك كثيرا . فأنت بعد أن أحببت وعبرت وقلت نطلب إليك أيضا أن تكون ناقدا ومؤرخا للعقاد الأديب والشاعر والعاشق والمؤرخ والفيلسوف الإسلامى .. ربما كان سبب ذلك يا أستاذ هو أننا نراك كل هؤلاء وأكثر..

واستراح الأستاذ إلى الذى قلته ، فهز رأسه وضغط على شفتيه وتنفس بصوت مرتفع وأرجع رأسه إلى الوراء . وكانت ابتسامته مضيئة .. كما تضيء الصالة فى السينما إعلانا عن نهاية العرض ، وتصريحا بخروج الناس .. فقد اقتربت الساعة من الثالثة مساء .. فقال : بارك الله فيك يا مولانا .. أنت الآن أحسن مما كنت .. أنت الآن أقرب إلى طبيعتك . وفى الصباح كنت بعيدا عن نفسك .. إذن فأنت يا مولانا دواؤك وداؤك واحد : الفلسفة .. وأستاذك أرسطو كان يقول : إذا أراد أحد أن يفكر فسوف يتفلسف ، وإذا أراد أحد أن ينكر التفكير فسوف يتفلسف مرة أخرى ..

لم يشأ الأستاذ أن يقول شيئا عن مى زيادة .. ولكن الذى أخفاه ظهر بعد ذلك . فرسائله التى كتبها لها ، ورسائله التى أعادتها إليه فيها الكثير جدا من الحب الحذر ، والهيام المتكبر – وقد اطلعت عليها سرا فى ذلك الوقت .

مثلا عندما نسيت الآنسة مى أن تهدى إلى الأستاذ كتابها الجديد . فبعث هو يهديها كتابه الجديد « مطالعات » ويقول : إنه مثل القربان يقدمه الإنسان ولا ينتظر أو يتوقع أن يكون له مقابل .. ويرجو الأستاذ أن تكون الآنسة قد عاقبته بعدم إهدائها الكتاب الجديد ، فالعقوبة أهون كثيرا جدا من الإهمال ..

ثم يذهب الأستاذ إلى أعمق من ذلك فى شعوره نحوها فيقول : إن إهداءها كتابه الجديد هو

دليل يتقدم به طائعا راضيا لانهزام الرجولة أمام الأنوثة المقدسة ، التى نحبها ونحترمها !

وفى خطاب لها تسأله : إن كان المصريون يعرفون قدره الأدبى العظيم ! ..

ويقول لها الأستاذ : نعم . ولكن لا أستطيع أن أقولها ..

وفى نفس الوقت يشعر بالضيق والمرارة التى يحس بها الأدباء الكبار . فهو يعلم أن بينه وبين الناس نهرا ، وهو يلقى فى هذا النهر بدمه وخلاصة آماله .. ويمضى النهر إلى الناس ولا يرتد عليه .. والنهر يتعرج ويختنق ويجف .. ولكنه يمضى .

وعندما يعتذر عن عدم زيارة صالونها الأدبى فإنه يمشى وحده فى الصحراء حيث يستطيع أن يراها فى خياله .. ومن وحى الصحراء والوحدة وصورتها معه يبعث إليها بهذه القصيدة التى تنشر لأول مرة . يقول فى مطلعها :

حياك يا « مى » ما غنى وما عبقا

وفاض حولك بشرا : كل ما شرقا

وفى آخر القصيدة يقول عن نفسه :

وفى الصدور التى تهفو القلوب بها

قلب يناجيك ما استحيا له رمقا

يحيا على النور من عينيك مقتبسا

من ومضة فرحا أو غمضة شفقا

أتعلمين به ؟ بل أنت عالمة

بالود فى هذه الدنيا إذا صدقا

طوبى له – ألف طوبى إن وثقت به

فإنه بك ، دون الناس ، قد وثقا

أى ما أسعده إذا وثقت به ، وما أسعدها إذا كان هو على خلاف الناس جميعا ، يثق بها ..

وأخيرا يبعث إليها بخطاب وأبيات أربعة ، ولا يعرف إن كانت توافق مزاجها ، أو لا توافق .. فإذا لم توافق فإنه سعيد بحظ هذه الأبيات ، يكفى أنها قد قرأتها .. يقول الأستاذ الكبير والطفل الخالد الذى يحب أن يأمر ، وأن يؤمر أيضا ، يقول .. ونحن ننشر الأبيات لأول مرة :

أكبروا شأنى ولكن دللوا

فىّ طفلا خالدا لا يكبر

وأعينونى فإن أسعدتكم

بعدها ، فارضوا وإلا فاعذروا

واعذرونى .. ولكن جربوا
لذة الطاعة عندى ، وانظروا
أنا بالطاعة أحيا ، فإذا
لم أجد أمرا فإنى آمر ! !
(إنه الجمال والجلال : الطاعة .. أن تطيعه وأن يعطيها !) .

وفى الليل عدت إلى الأستاذ أحمل إليه بعض الكتب الجديدة كان قد طلبها من إحدى المكتبات .. ودخلت إلى مكتبه ووجدته يقرأ . فقدمت إليه الكتب ، فشكرنى ، واعتذرت عن قبول الشكر وعن إفساد خلوته الفكرية .. فاستوقفنى ضاحكا : يا مولانا .. جئت تسأل العقاد عن سارة وعن مى .. ولم تطق أن أخفى القليل القليل من حياتى .. وأنت الذى أخفيت عنى الكثير؟ .. فما هى حكايتك مع سيلفانا يا مولانا ! هاها .. هاها ..

ولم أجد ما أقوله .. ولا أعرف كيف وجدت نفسى فى المترو . وجعلت أسترجع بسرعة ما كان فى الصالون ..

وضحكت فى نفسى : هاها .. إن الأستاذ هو الآخر قد صدق أنى أحب فتاة إيطالية اسمها سيلفانا .. إنها إحدى بنات أفكارى .. وبطلة إحدى قصائدى اخترت لها اسما أجنبيا .. لعلى أوهم نفسى أنى زاهد فى بنات مصر.. أو أننى بعد أن ضقت بهن اتجهت إلى بنات أوروبا .. وكما أننى غريب العقل ، فإننى غريب القلب أيضا ! هاها .. هاها ..

يستحيل أن تكون فيلسوفاً طول الوقت!

هل قرأت يا أستاذ ما نشرته الصحف اليوم؟ . . إن رجلاً قد وجد شجرة ورد فى حقل كبير . وقد لفت نظره أن لونها مختلف عن بقية الحقل . ولما اقترب من الشجرة وجد أنها تختلف طولاً وعرضاً عن بقية الأشجار ، وأدهشه ذلك . ولما اقترب أكثر . . راح يقلب فى الورود فوجد أن بها عدداً كبيرا من الألوان . . وهذا مختلف تماماً عن طبيعة الورد . . فالورد فى كل شجرة له لون واحد . . وهذا اللون متدرج . . ونشر فى الصحف صورتها وطلب من علماء النبات أن يدلوه على أصلها وكيف جاءت إلى تلك البلاد من قارة استراليا . .

قال الأستاذ : لم أقرأ يا شيخ عبد السميع . .

والشيخ عبد السميع طالب أزهرى مشدود القوام حتى فى جلسته ، أما بشرته فشدودة لامعة شابة ، ولأنها مشدودة فقد أفلحت أن تخفى كل معانى الدهشة أو القلق أو الجدية . . إن صفة واحدة يمكن أن تطلقها عليه دون أن تخطئ . . إنه لوح من الجليد الأبيض ، وعلى جانبيه عينان سوداوان كأنهما قطعتان من الزجاج . . أما أذناه فصغيرتان جداً . . وربما كان هذا هو السبب فى أنه يشدهما دائماً بحركة عصبية كأن أحداً قد أخبره أن من الممكن أن تطولا وتكبرا وتتناسبا مع ضخامة الرأس وطول العنق وعرض الأكتاف . . أو لعل أحداً نصحه بأن يكون طالبا أزهرياً ليتوضأ كثيراً ويغسلهما كثيراً . . فقد كنا نسأله : لماذا الأزهر بالذات ؟ .

وأبوه رجل صاحب مطعم يقدم المشروبات الكحولية ، ووالدته من أصل يونانى ، وكان أبوها من أشهر أصحاب الحانات فى المنصورة ، وأخوه الأكبر قد قرر أن يعيش فى كريت ، يعمل فى صناعة الحانات والبارات . ولم يكن الشيخ عبد السميع يجد ما يقوله : وانما يكتفى بأن يقول وهو صادق تماماً : إن الهدى هدى الله . . لقد شاء الله أن أكفر عن كل سيئات وسوءات أسرتى أبا وأما . . وأن أكون عكس القاعدة التى تقول : يخرج من ظهر العالم فاسد ، فكنت العالم الذى خرج من ظهور فاسدة . .

وكان الشيخ عبد السميع يجد ذلك تفسيراً معقولا . وكان لا يشجعنا أن نذهب إلى أبعد من هذا . . وكان الأستاذ يقول له : لولا أن عصر النبوات قد مضى وانقضى يا مولانا ، لكانت هذه

المؤهلات تجعلك نبيا أو خير من يؤمن بأى نبى . .

وكان الشيخ عبد السميع يقول له : بل كنت أول من يؤمن بالرسول عليه الصلاة والسلام . فأبى اسمه محمد وأنا اسمى محمد . . لقد أصرت أمى على أن يكون إسمى هو عبد السميع « تيمناً » باسم السفرجى . . واسم السائق أيضاً . . وهذا الاسم قد فرضته فرضاً منذ سنوات . . وذلك عندما وجدتنى قد اتجهت إلى الدين . . وذهب أبى وغير اسمى . . فبدلاً من أن يكون اسمى محمد محمد . . أصبح الآن عبد السميع محمد . . ولم يكن موقف أمى إلا نوعاً من التحقير لشأنى والاعتراض على سلوكى الدينى . . فقد كان من أحلامها أن أكون مهندساً زراعياً أهتم بالأرض وبتربية الأبقار وزراعة العنب . . ولكن لأسباب صحية كرهت ذلك . . فقد أصابتنى الملاريا أكثر من مرة عندما عشت فى الريف . . ومن العجيب أن أمى قد هيأتنى تماماً لأن أكون مهندساً زراعياً . . فعندما ولدت وضعونى على كوم من عناقيد العنب . . واللوحات التى فى غرفتى لعناقيد العنب . . وعصير العنب هو أول ما شربت إلى جانب رضاعة اللبن . . والآن لست أكره أكثر من العنب وعصير العنب والنبيذ والريف . . إنهم فى جزيرة كريت يفعلون ذلك عندما يولد أى طفل . . وتمشياً مع تقاليد اليونان حاولت أمى بكل ما فى أعماق من دماء إغريقية أن تقوم « بتصنيعى » فلم أطاوعها . . فأنا صورة للفشل . واستثناء فى قانون الوراثة . .

وعاد الشيخ عبد السميع يقول : وفوجئ صاحب المزرعة الاسترالى بأن قارئاً من أصل عربى يكتشف أن الوردة مكتوب عليها كلمة : الله . .

قال الأستاذ : بأية لغة يامولانا ؟

أجاب عبد السميع : بالعربية يا أستاذ . . ويقال إنهم وجدوا كلمة : محمد . . أيضاً . . ألا ترى فى ذلك معجزة يا أستاذ ؟ . . هل الإنسان فى حاجة إلى دليل أقوى من ذلك على وجود الله ؟ . . سبحان الله . . ما شاء الله . .

قال الأستاذ : يا مولانا . . وهل نحن فى حاجة إلى أن نقرأ اسم المهندس الذى أقام الهرم الأكبر لنعرف أن مهندساً كبيراً قد أقامه ؟ . . إن فى قيامه وبقائه هكذا أكبر دليل على أن عقلية جبارة وراءه . . ولا تنتهى كتب الأثريين وعلماء الفيزياء والفلك من دراسة الأهرام . . هرم خوفو بصفة خاصة . . حتى جعلوا أسرار الكون كلها فى هذا الهرم . . أى الهيئة الهندسية والمعمارية والفلكية له . . بل فى إحدى غرفه . . ولا نعرف أين هذه الغرفة السرية . . هل هى فى منتصفه . . أو هى تحته ؟ . . وحتى إذا لم يجد الناس كلمة الله أو محمد على هذه الوردة ، فنحن لسنا فى حاجة إلى دليل على تنوع القدرة الإلهية فى إبداع الكائنات . . النباتات والحشرات والحيوانات والإنسان والنجوم والكواكب . إن بعض الناس يتصور أن هناك طيوراً تقول لا إله إلا الله . . ولكن إذا كانت هذه أدلة على وجود

الله ، فإن الذى لا يعرف اللغة العربية لا يجدها كذلك . . ثم إن هذه الطيور أو هذه النباتات إذا كانت موجهة إلى كل البشر فلا ينبغى أن تكون بلغة واحدة . . إنما تكون بلغة كل دولة . . ولكن هذا خطأ فى فهم قدرة الله . . فالله فى كل لغة له كلمة . وكل كلمة لها تاريخ . . فالكلمات وأصولها لا تهم . . ولكن المعانى هى التى تهم . . فالله معنى وقدرة مطلقة لا أول لها ولا آخر . . وهذا المعنى هو الذى عبر عنه الإنسان من نصف مليون سنة . . ويظهر هذا المعنى على أدوات الطعام والعمل والعبادة فى كل مكان عاش ومات فيه الإنسان . . فى الديانة الهندية نجد أن . . .

– من الذى يتحدث عن الهند ؟ . . إن هذه نبوءة . . إنها توارد وخواطر يا أستاذ . إنها قراءة لأفكارى . . إنها الرؤية والإحساس من بعد يا أستاذ . .

وكان ذلك صوت الأستاذ عبد الرحمن صدقى من داخل بيت الأستاذ . . ثم دخل الأستاذ صدقى ضاحكاً . . وضحكنا نحن أيضاً . فقد كان الشعر مصبوغاً بنياً ، وكان القميص أصفر والكرافتة حمراء والجاكتة مربعات والبنطلون أيضاً . والجزمة من لونين ، ويقال إنها الموضة فى ذلك الوقت . . أما المنديل الذى خرج من جيب الصدر فقد كان أزرق غامقاً متدلياً بعض الشىء . .

أما السيدة التى معه فهى زوجته الإيطالية التى حدثنا عنها فى إحدى الجلسات . . لقد تزوجها عندما كان يصطاف فى مدينة جنوة . . كانت زوجته الأولى قد توفيت . وقد نظم فيها أكثر شعره . ولم ير فى حياته امرأة تتذوق الشعر وتحتمل حياة الشعراء . وهو بصفة خاصة ، مثل هذه الزوجة الطيبة الجميلة . . أما زوجته هذه فقد رآها صدفة على بلاج جنوة . . لقد لاحظ أن كل النساء يتمددن على الرمل أو يلعبن أو يسبحن . . إلا هذه فقد وجدها تقرأ كتاباً . وأعجبه ذلك . وبهره . واقترب منها . وقال لها : هل تتزوجيننى ؟ . . وفوجئت بالسؤال . . ونظرت إلى صاحب السؤال : طويل أسمر . . وأنفه طويل كبير . . وحاجباه مرفوعان كأنهما رمحان مكسوران ، وصوته أجش . . إذا خرج من حنجرته كان وسطاً بين الحشرجة والسعال . . أوكأن صوته يزحف على ملح اختلط بالزجاج المكسور فوق جلد طبلة بدائية . .

وفوجئ الأستاذ صدقى بأن هذه الفتاة الإيطالية تقول له : موافقة !

وانتهت دهشته عندما عرف أنها فتاة يتيمة الأب والأم . وأنها ككل الفتيات الأوروبيات مغامرة . فلا مانع عندها من أن تذهب فى المغامرة إلى الحب بلا زواج ، أو الزواج بلا حب . . ثم اكتشف الأستاذ صدقى بعد الزواج أن الكتاب الذى فى يدها كان عن الطهى – ولم يكن شعراً ولا نثراً كما توهم !! ثم إنها بعد ذلك لم تضق بشىء فى حياتهما أكثر من ضيقها بالكتب ، وبذكرى زوجته الأولى . ولكنها كانت أحسن طاهية لطعام إيطالى أو مصرى . .

إنها نحيفة قصيرة القوام رأسها صغير . . شدت شعرها إلى الوراء فظهرت جبهتها المستديرة

الصغيرة . وعيناها الواسعتان وشفتاها الرقيقتان وعنقها النحيل . . أما بقية ملامحها فإيطالية : الصدر ممتلئ مستدير ، والخصر مخنوق بحزام من حلقات ذهبية ، والأرداف مستديرة ، والساقان مستقيمتان جميلتان . . وهى تعرف ذلك ، فكان أول ما فعلته عندما جلست أن وضعت ساقاً على ساق . . ومدت الساقين إلى الأمام ، وسحبت فستانها الطويل إلى أعلى ، فقد كانت الموضة فى ذلك الوقت هى فساتين النيولوك – أى التى تنزل إلى مابعد منتصف الركبة . . وكان القماش الموضة هو «أفرجليز» أى ذلك القماش الذى له نقط بارزة . .

وتقدمت زوجة صدقى تقول للأستاذ : إن ابرامان – أى عبد الرحمن – قد أتى لك بقارئ الكف الهندى علشان تكون مبسوطة (أى مبسوط) .. لازم تكون مبسوطة . .

ثم أشارت إلى رجل هندى أسمر أصفر ، وله عمامة بيضاء تدلت لها «عذبة» طويلة على ظهره ووضع على أنفه منظاراً غليظاً . وتلفع بشال ضخم أخفى أكثر وجهه .. وأمسك فى يده كتاباً صغير الحجم كثير الصفحات . .

ثم عادت تقول للأستاذ أيضاً : لقد قرأ كف كثير من زوجات الباشوات . . وقال لسليمان نجيب إنه سوف يموت قريباً . . وقال لشكرى راغب . . إنه سوف يبكى بكاء مراً على بيت سوف يحترق . . وسوف تجف دموعه بعد ذلك . . وقال لى : إننى سوف أرث عبد الرحمن . .

وضحك الأستاذ صدقى ، وقال إن بنت الـ . . . هذه توفر فى كل المصروفات . . إنها لا تريدنى أن أنفق كثيراً حتى لا أتركها على الحديدة . .

ووقفت زوجة الأستاذ صدقى لتقول : أريد أن أعرف إن كان هذا الساحر الهندى يفهم فى قراءة الكف أكثر منى . . تذكر يا أستاذ أننى قرأت كفك . . وتنبأت لك بما حدث . . بمرض والدتك . . وقلت لك إنها لن تعيش طويلاً . . وقلت لك إنه كان من المقرر لك أن تموت غريباً عن مصر . . وأنت اعترفت لى بأن طعاماً فاسداً قد أوجع معدتك فى السعودية . . وأن ثعباناً ضخماً كاد يلدغك فى السودان . . وأن أول أزمة معوية قد أصابتك كانت فى السجن . . وأنه كان من الممكن أن تموت فى هذه الظروف . . لولا أننى رأيت أخيراً شيئاً فى يدك صارحت عبد الرحمن به ، واليوم سوف أعرف إن كان هذا الساحر الهندى سوف يعرفه . . وقد راهنت عبد الرحمن صدقى ، ولن أعدل عن الرهان . .

وضحك الأستاذ صدقى يقول : إن بنت الـ . . . مصرة على هذا الرهان . وأنا أقول لها لا حاجة بك إلى الرهان ما دمت فى النهاية سوف ترثين كل ما أملك دون رهان . . لو كنت أعرف أنها بهذه الواقعية ما تزوجتها . . ولكنها ضحكت على . . أو لأننى حمار أفلحت فى خداعى . .

وقالت : إننى لم أفهم من كل الذى قاله عبد الرحمن إلا كلمة «حمار» فهل هو يقصدنى أنا . .

أو يقصد نفسه ؟ . إن كان يقصدنى ، فسوف أثبت له عكس ذلك . وإن كان يقصد نفسه ، فأنا أؤيده فى ذلك !.

وسحب الرجل الهندى مقعداً واقترب من الأستاذ ، دون أن يكون الأستاذ قد أبدى رأيه فى قبول ذلك أو رفضه . وأحسسنا جميعاً بأن أكفنا «تأكلنا» . كأننا أردنا أن نعطيه أيدينا ، ليحدثنا عن مستقبلنا . . ويبدو أن الساحر الهندى قد طلب من الأستاذ أن يبعد به عن الحاضرين . فضحك الأستاذ قائلاً بالعربية ثم بالإنجليزية : ليس فى حياتنا سر يا مولانا . . ولن تقول لى شيئاً جديداً . . أما الماضى فأعرفه . . وأما الحاضر فكذلك . . فلا يبقى إلا المستقبل ولا أظنه طويلاً . . فإن متاعبى ومشاغلى وأمعائى ليست مما يدل على طول العمر . . وإن كانت أمى قد طال عمرها . . فإليك يدى . . اقرأ وارفع صوتك حتى يعرف الجميع إلى كم سنة سوف تظل هذه الغرفة مفتوحة للزوار . . هاها . . هاها . . وإننا نحمد الله أن أحداً من رواد هذه الغرفة الصغيرة منذ انفتحت ، لم يمت . .

قال الساحر الهندى بلغة إنجليزية ذات لهجة هندية . . فهو يخطف الحروف ويلويها ويلقيها حواليه ويهز رأسه . للدلالة على وضوح وصدق ما يرى ، قال : أنت عصبى جداً يا أستاذ . . وربما كانت هذه الحالة العصبية هى سبب كل أوجاعك الجسمية . . وليست فى حياتك امرأة . . ودور المرأة فى حياتك ليس كبيراً ولا هاماً . . وليس عندك أولاد . . ولكن فى حياتك أطفال كأنهم أولادك . . أنت تنفق على أطفال وعلى فقراء . . إن الأموال ليست كثيرة فى كفك . . ولكن القليل تنفقه على الكثيرين . . سوف تقوم برحلة إلى الجنوب . . وبعد هذه الرحلة تعود إلى هذا البيت . . وتنام فى سريرك طويلاً جداً . .

قال الأستاذ صدقى : يا سيد شادرى قل كلاماً واضحاً . . ما معنى هذه الرحلة إلى الجنوب ؟ . . هل هى إلى السودان ؟ . . هل هى إلى جنوب أفريقيا ؟ . . هل هى إلى أسوان ؟ . .

والتفت الساحر الهندى إلى الحاضرين واحداً واحداً . . ثم طلب إلى الأستاذ أن يدخل إلى غرفة أخرى بعيداً عن آذان الحاضرين . ولكن الأستاذ لم يطاوعه ، فقال الساحر الهندى : إذن فسوف تسافر إلى الجنوب . . فى هذه البلاد وليس خارجها . . وسوف تدور بينك وبين أهلك خناقة . . هذه الخناقة سوف تكون نقطة تحول فى حياتك الصحية . . وسوف يكون من نتائجها أن تمرض . . ويطول مرضك . . ربما متنا نحن الاثنين فى سنة واحدة أو فى شهر واحد أو فى يوم واحد . .

وضحكت زوجة عبد الرحمن صدقى ، وقالت له بالإيطالية : ألم أقل لك . . ليس أمامه إلا عشر سنوات ؟ . . لابد أن آخذ الرهان . .

وضحك الأستاذ قائلاً : إذن فلابد أن تجىء إلى هنا . . إلى هذا البيت ، قبل اقتراب الأجل . وأنا كفيل بأن أقتلك فتصدق نبوءتك . . ولكن لا أعرف كيف تؤدى وفاتك إلى وفاتى . . إلا إذا

أعدنا حكاية كليوبطرة فتأتى معك من الهند باثنين من الثعابين . . وتلف واحداً حول عنقك والآخر حول عنق . . ولكن كيف نضمن أن هذين الثعبانين لن يهربا معاً إلى خارج البيت ويفضلان الحياة معاً ، على موتنا معاً . . ومتى ستموت يا مولانا ؟ . .

قال الساحر : إذا لم أخطئ في الحساب . . .

قال الأستاذ : ولماذا لا تخطئ ؟ . . بل الأفضل أن تخطئ فى عشرين أو ثلاثين عاماً . . إن الخطأ هو نعمة لك ولى . . ها ها . . ها ها . .

قال الساحر الذى لم يفهم النكتة . . ولا يتقبلها : بعد عشر سنوات و ٢٣ يوماً و ١١ ساعة و ٥ دقائق ! !

قال الشيخ عبد السميع : أعوذ بالله . . هذا كفر . . إن الله وحده الذى يعرف ماذا نكسب غداً وفى أى أرض نموت . . إنه وحده عنده علم الساعة . . ساعة يموت كل إنسان . . وساعة يبعث البشرية كلها . . أنت « هندوكى » كافر . . أعوذ بالله . . أعوذ بالله . .

وسارعت سيدة بيضاء قصيرة القامة ذهبية الشعر المصبوغ . . ذهبية الذراعين فقد غطتهما بالأساور ، وأعطته يداً وردية قصيرة الأصابع . . واعتدل الساحر الهندى ، وأدار ظهره للأستاذ ، دون أن يتنبه إلى ذلك ، وقال لها : تتزوجين ثلاث مرات . . ولكنك تفشلين فى كل مرة . . تموت والدتك أو أختك فى الزواج الثانى وبسببه . . يموت لك طفل عند الولادة . . قريباً . . أى حدث ذلك قريباً ، أو سوف يحدث . . الفلوس كثيرة جداً فى حياتك . . ولا تعادل كثرة الفلوس إلا كثرة الهموم . . ليس عندك قلب . . لم تحبى قط . . ولكن كثيرين أحبوك . . أحد الذين أحبوك خدعك . . فقد كان يحب أختك . . أو ابنة خالتك . . وسوف يتزوجها ، أو هو تزوجها . . وكان فى حياتك شخص عظيم . . طويل القامة . . سياسى أو أديب . . ولكن ليس عنده مركز فى الحكومة . . وليست عنده فلوس . . ولكنه لا يفكر فيك . . ولن يفكر فيك . . فحياته زحام شديد من الناس . . الرجال والنساء والمشاكل . . وصحتك جيدة . . ولكن سوف تصابين بالسكر . . لابد من الإصابة بالسكر ، فأسرتك كلها قد توارثت هذا المرض !

ولم تعلق السيدة س ... بكلمة واحدة . . . وكان لونها الشاحب والعرق المتصبب من كل وجهها دليلاً على الفزع الذى أصابها . . وهمست فى أذن الأستاذ صدقى تؤكد أن كل الذى قاله الساحر الهندى صحيح تماماً . .

وبسرعة تقدم شاب صغير من المعهد الرياضى ، وقدم له كفه ، واعتدل الساحر الهندى واتجه إلى أحد الأركان وأدار ظهره للجميع . وقد سكتنا ، ولم يفلح أحد فى أن يشغلنا عن هذا الشىء الغريب فى صالون الأستاذ . .

وكانت هذه المرة الوحيدة التى ظهرت فيها ابتسامة غريبة ذابلة على وجه الساحر الهندى ، وقال للشاب : ولكن خطوطك كلها انتهت . . لا أعرف . . هذه هى أول مرة فى حياتى أرى شيئاً كهذا . . وأريد أن ألتقط صورة لكفك النادرة . . هذا شىء نادر !

ثم أخرج ورقة بيضاء ووضع عليها حبراً أسود . . وطلب إلى زميلنا أن يضغط بكفه على الورقة . . ثم عاد فطلب إليه أن يضغط بكفه مرة ثانية على ورقة بيضاء . . وكان الساحر سعيداً جداً بهذا الذى رآه . .

وسأله الأستاذ صدقى تفسيراً لذلك . فتردد الساحر الهندى شادرى بوهار الذى استدعاه إلى القاهرة عثمان محرم باشا وزير الأشغال الوفدى . . ويقال استدعاه أحمد عبود باشا مرتين قبل ذلك ، وهمس فى أذن الأستاذ صدقى بشىء ، وبدا الضيق على وجه الأستاذ صدقى الذى همس فى أذن الأستاذ ، فتضايق ولكن هز رأسه بما معناه أنه لا يصح أن نكون جادين فى مواجهة هذه « الظنون » وخفة اليد الهندية . .

* * *

وقد أندهش الاستاذ بعد ذلك عندما نقلنا إليه أن زميلنا هذا الرياضى قد توفى فى حادث سيارة بالطريق الصحراوى ، فانزعج الأستاذ وامتقع وجهه وتغيرت نبرة صوته . وقال : شىء عجيب . . إن هذا الساحر الهندى قال ما معناه . . أن حياته قد انتهت . . وأنه كان من الضرورى أن يموت منذ وقت قريب . . وأنه لا يعرف كيف هو حى الآن !

وقد أخبرنا أحد الزملاء بأن صديقنا الرياضى هذا كان قد صعقه التيار الكهربائى قبل أسبوعين . . وأنه سقط على الأرض مغشياً عليه . . وكان من الممكن أن يموت ، لولا أن الصدفة ، أو القدر ، ساق إليه أخا طبيباً قد أنهى إجازته قبل موعدها بيومين . . وأدركه فى آخر لحظة . .

ولابد أن يكون الأستاذ قد بدأ يسترجع كل ما قاله الساحر الهندى عن صحته ومستقبل حياته . . وعن موته القريب . .

وقد عرفنا فيما بعد أن سفر الأستاذ إلى أسوان وعودته غاضباً إلى القاهرة ومرضه الطويل ، قد انتهى إلى الموت بعد عشر سنوات تماماً من ذلك التاريخ ! .

وبعد ذلك بسنوات احترقت دار الأوبرا وبكى عليها الأستاذ شكرى راغب مديرها ، كما لم يبك على وفاة أعز الناس لديه ؟ !

وخرج الأستاذ صدقى وزوجته والساحر الهندى .. ولكن لم يكن الصالون بعدهم كما كان قبل ذلك . فقد نسينا ما الذى كنا نتحدث فيه .. والأستاذ هو الآخر قد نسى .. فقد اجتاحتنا جميعاً موجة سوداء عاتية .. وأحسسنا جميعاً كأننا أحجار على الشاطئ .. وأن هذه الأحجار قد

سحبتها الأمواج إلى البحر .. أو سحقتها على البر .. والذى ضايقنا حقاً هو أن هذا الساحر الهندى قد أفسد علينا المناقشة .. أو مستقبل المناقشة التى بدأت بالكلام عن المعجزة الإلهية .. ولا أحد يعرف إلى أين كانت تتجه .. ثم إن هذا الساحر الهندى قد سرق منا الهدوء والراحة واللون الأحمر في وجه الأستاذ .. واللمعان فى عينيه .. والشهية المفتوحة للمرح والفلسفة .. ثم إنه أفزع زميلنا الشيخ عبد السميع وأوجع قلب السيدة س ... وأعدم صديقنا الرياضى ..

أما الزملاء الشيوعيون فلم تفتهم هذه المناسبة ليسألوا الأستاذ كأنهم يتهمونه الواحد بعد الآخر: ليس بعيداً الكلام عن الدين من هذه الخرافات الهندية يا أستاذ . .

وقال آخر : إن فى الكتب السماوية أشياء كثيرة أقرب إلى قراءة الكف . . وذلك فى الحديث عن القيامة والجنة والنار . .

وقال ثالث : إننى أفهم يا أستاذ أن تهتم المرأة بهذا الذى حدث ، فالمرأة بسبب عدم شعورها بالأمان تبحث عن كل شىء يطمئنها . . وهى لا تريد الطمأنينة فى الدنيا أو الآخرة . . إنما فقط الطمأنينة مع زوجها أو مع حبيبها . . ليس أكثر من ذلك . . ولكن عقلى يا أستاذ لا يتصور أن عقلاً عظيماً جباراً مثل عقلك يهتز لهذا العبث الذى قام به الأستاذ صدق الذى يعرف عنك كل شىء . . ولعله قد أطلع هذا الهندى على كل حياتك قبل أن يجىء إليك . . أو لعل هذا الرجل الهندى الذى جاء إلى مصر كثيراً قد عرف عنك كل شىء . . أو لعل خصومك السياسيين قد ساقوه فى طريقك تخويفا لك . . إننا نسمع عن خصوم سياسيين يلجأون إلى السحرة فيصنعون «العَمَلات» ويضعونها فى بيوت أو مكاتب أعدائهم السياسيين . . فهم يستخدمون كل وسيلة مشروعة وغير مشروعة ومعقولة وخرافية لكى يكسبوا المقاعد فى البرلمان أو فى الوزارة . . ولكنى لا أغفر لك يا أستاذ ، لا مؤاخذة ، أنك تشارك فى ذلك . . أو تجامل . . أو حتى تسكت على هذا العبث والتخريف . .

ورد عليه أحد الحاضرين وهو من الإخوان المسلمين واسمه خالد . ج : ولكنك رأيت أن الأستاذ قد فوجئ به . . والأستاذ رجل مهذب ومجامل . . ثم إنهم ولم يستشيروه . . لقد هبطوا عليه من السماء . . أو انشقت عنهم الأرض . .

– لا تقل شيئاً سخيفاً كهذا . . إن الأستاذ يحسب كل شىء . . ويفكر فى كل شىء . . ويستطيع أن يتحكم فى تنفسه . . وأنا أرى أنه يتحكم فى تنفسه ، فهو فى أعقاب كل رأى يهدم به رأياً آخر يسحب الهواء من أنفه ويزم شفتيه ويرفع رأسه إلى الوراء . . كأنه سحب الأوكسيجين من الغرفة فلم تعد لأحد قدرة على التنفس بعد ذلك . . تماماً كما يفعل الأستاذ صلاح طاهر . . وكما كانت تفعل محبوبته السمراء . . إنهما قد سرقا من الأستاذ هذه الحركة العصبية . . أو الحركة الإرادية التى تدل على أن الأستاذ قد تفوق على أهل اليوجا الذين يتحكمون فى التنفس وفى ضربات القلب وفى

حركات الأمعاء وفى الهضم أيضاً . . فالأستاذ قدوة لنا جميعاً . . وكان من الممكن أن يعتذر عن هذا التهريج بنفس الأدب . . ثم إن الأستاذ فى أحيان كثيرة يكون عنيفاً معنا . . وهو لا يجامل فى الحق أحداً هنا أو فى أى مكان آخر . . ولوكان الأستاذ مجاملاً ، لاستراح وأراح كثيراً وكثيرين . . ولكنه ليس كذلك . . فلا عذر له ، واللوم عليه . .

وقالت السيدة س ... وقد لاحظت انسداد نفس الأستاذ عن الكلام ، وانطفاء الأضواء على وجهه وفى عينيه : تعرف يا أستاذ . . إن فراستى لا تخطئ . . إن هذا الرجل الهندى ليس رجلاً . . إنه عندما أمسك يدى أحسست أنه ليس رجلاً . . أو أنه رجل شاذ . . وقد لاحظت أن وجهه ناعم وأنه لا مكان لشعرة واحدة فوق شفتيه أو فى لحيته . . ولا حتى فى ذراعه ، مع أن الهنود مشهورون بالشعر الأسود الغزير . . ثم إن ضيق كتفيه وارتفاع صدره كل ذلك يؤكد أن تركيبة جسمه لامرأة وليست لرجل . . أراهن على ذلك وأنا هنا أستخدم غريزة الأنثى . . ثم إن لى فراسة لا تخطئ . .

قال أحد الشيوعيين الثلاثة : ولكن هذا لا يقلل من مسئولية الأستاذ . . سواء كان هذا الساحر رجلاً أو امرأة ، فإن اعتراض الأستاذ واستنكاره كان ضرورياً .. ومن أول لحظة . .

قالت السيدة : فماذا فعلت أنت استنكارا ؟ إننى رأيتك تزحف وراء الساحر الهندى ، ولو طلب إليك أن تعطيه يدك لأعطيته اليدين . . أنا رأيتك . .

فرد عليها : صحيح . . كنت أريد أن أعرف على سبيل الاستطلاع . .

قالت : نحن جميعا فعلنا ذلك ولنفس السبب . . والأستاذ أيضا . . وقد جاء إليه هنود كثيرون . . أعطاهم يده . . وأنا أذكر من عشر سنوات أن أحد رجال السفارة الهندية فى القاهرة كان خبيرا فى قراءة الكف ، وقال للأستاذ فى إحدى المرات . حمدا لله على سلامتك . . لك عمر . . وسأله الأستاذ : ماذا تقصد ؟ فأجاب الرجل : أنت تعرف ما الذى أقصده . . ألم تحاول الانتحار للمرة الثانية ؟ وكان ذلك صحيحا . . وإذا كان الأستاذ قد فعل ذلك مجاملة أو مداعبة . . أو للتسلية . . فهو لم يكفر . . ولنفرض أنه أراد ذلك يا أخى ، فأى حق لك فى أن تحجر على حرية الأستاذ فى أن يكون هازلا ولو مرة واحدة ؟ ! . . إن آلهة الإغريق كانوا يهزلون . . وهم آلهة . . إن الحيوان فقط هو الذى لا يعرف الضحك . .

ورد أحد الشيوعيين فقال : هل تعرفين أن هذا الذى يعترض على قراءة الكف يقرأ الفنجان ويقرأ الكف . . وأننا على خلاف معه . . ولكن لم نفلح فى أن نجعله يعدل عن ذلك رغم أن عقليته اقتصادية مادية إلحادية مائة فى المائة ؟ ! . .

وضحك الأستاذ ، وبدأ النور يلمع خجولا فى أماكن متعددة من وجهه . . ثم عاد بسرعة إلى ما كان عليه : هل تعرفين أن إحساسك لم يخب ؟ . . لقد كان فتاة . . ثم أجريت له عملية فأصبح

رجلا . . أو هكذ قال لى الشيطان عبد الرحمن صدقى . . هاها . . هاها . . أنا لا أعرف من أين يأتى عبد الرحمن بهذه النوعيات الغريبة من الناس . .

وكانت السعادة واضحة على وجه السيدة س . . . وقالت : فراستى لا تخطئ . .

وقال أحد الزملاء الشيوعيين : لا يهم إن كان شاذا أو سويًّا ، فالذى يفعله شيء شاذ . لعله ساحر عبقرى . . ثم إن الشذوذ قد رافق عددا من العباقرة ولم يعيبهم ذلك : سقراط ، والشعراء : شكسبير وفرلين وأودن وأبو نواس ، والموسيقار تشايكوفسكى ، والرسام ميكلونجلو . .

قال الأستاذ : تكاد تقول يا مولانا إنهم عباقرة بسبب شذوذهم . . بل هم عباقرة رغم كل شيء آخر . .

قالت السيدة : ولكن لماذا نهتم نحن بالشذوذ الجنسى عند هؤلاء وغيرهم ؟ . . لماذا لا نهتم فى الدرجة الأولى بإبداعهم الفنى . . لماذا لا نقول أديب يحب المرأة ، وأديب يحب الغلمان . . لماذا نقول أدب رجالى ، وأدب نسائى ؟

وقد كان حديثها مفاجأة . . فقد حولت الكلام بسرعة إلى منحدر عنيف : المهم هو أن يكون الذى أمامنا أدبا أو فنا ، أو ليس أدبا أو فنا . . إن هناك كثيرين أسرفوا فى الجنس ، ولم يكن لهم أى أثر فى التاريخ . . وأناس لم يعرفوا الجنس وهزُّوا التاريخ من أوله لآخره ، إن الفيلسوف الألمانى العظيم «كنت» مات ولم ير امرأة واحدة . . والعالم الكبير نيوتن ، مات دون أن يعرف امرأة واحدة . . وبرنارد شو ، رغم لسانه الطويل ، لم يعرف امرأة واحدة حتى مات . . لقد صدمته امرأة وهو فى الخامسة والعشرين من عمره . . ولذلك لم يكتب عن الجنس إنما كتب عن « الذكورة » و « الأنوثة » . . وهتلر لم يقرب امرأة واحدة . . إن الفتاة التى حاول الاقتراب منها ، كانت ابنة أخته . . فقد حاول أن تكون له صلة ما . . أى صلة بفتاة لا يتصور أحد أن تكون بينهما صلة جنسية . . أى أنه أراد أن يتوارى فى قرابته لها . . ولما حاولت أن تتحدث عن هذا الشيء الحرام ، قتلها . . وزواجه من إيفا براون قبل انتحاره تحت أنقاض برلين ، لم يكن إلا ستارا لعجزه الجنسى التام . . وعالم النفس الكبير هافيلوك أليس ، عاش ومات دون أن يمس فتاة واحدة . . وهؤلاء قد هزوا الأرض . ولا يمكن أن تكون ثورتهم الفلكية والعلمية والسياسية بسبب عجزهم الجنسى . . أو حرمانهم من الحياة الجنسية الطبيعية . . بل قد يكون العجز الجنسى قيدا عنيفا على حياتهم . . ولذلك يحاولون تحطيم هذا القيد . . ولكن تحطيم هذا القيد سوف يضعهم أمام مشكلة كبيرة هى : كيف يكون الواحد إنسانا عاديا ، وهو ليس كذلك ؟ . . إن هذا العجز يجعله يكره الرجال الذين هو دونهم ، ويكره النساء اللاتى لا يقدر عليهن . .

قال الشيخ عبد السميع : ولكن يا أستاذ . . إن من الممكن أن يكون الإنسان عفيفا . . يتقى

الله . . وهذه التقوى ليست سجنا ولا قيدا . . إنما هى الشروط الضرورية التى تجعل الإنسان قادرا على التأمل ، وقادرا على أن يسلك الطريق إلى الله . . فالطريق إلى الله يبدأ بضبط النفس ، وتقييد الجسد ، وإطلاق الخيال ، والاتصال المباشر بالله . . إن الشهوات مثل الضباب الذى نجده على زجاج النوافذ . . إنه يحجب الرؤية الواضحة ، والاستماع الصافى ، والتفكير السليم . . والله إننى لأحسد السيارات يا أستاذ عندما أرى « ماسحات المطر » فى مقدمتها . . فهى تجلو الزجاج بسرعة . . والله إننى أتمنى ذلك كثيرا . . أتمنى لو أننى أملك شيئا كهذا أضعه على عقلى وعلى إرادتى وعلى مشاعرى نحو الآخرين . . ولكن – مع الأسف – لا أجد شيئا من ذلك . . ولا أمل فى أن يتحقق فى داخل الإنسان ، واحد على ألف مما يحققه الإنسان فى خارجه . . وأظن أن العلماء لو نجحوا فى اختراع ماسحات للمطر ندخلها فى عقل الإنسان ، لأفسدوا علينا معنى هاما من معانى الصوفية : مجاهدة النفس . . لابد من مقاومة رغبات النفس ، لابد من التعذب ، ولابد من النصر بعد ذلك على أنفسنا . . إننى لا أنسى عبارة قرأتها للإمام الغزالى يتحدث عن الدوخة العقلية ، والورطة الوجدانية ، والشوشرة الفلسفية التى وقع فيها الإمام ، قبل أن يشحذ عقله ، ويسدد إرادته ، ويضبط خطوته ، وينعش همته متجها إلى الله . . إلى اليقين يا أستاذ . . قال الغزالى – هل من الممكن أن أقرأ بضعة سطور ؟ – يقول الإمام : إن اختلاف الخلق فى الأديان والمِلَل ثم اختلاف الأئمة فى المذاهب : بحر عميق . غرق فيه الأكثرون وما نجا منه إلا الأقلون . . هل تسمح لى يا أستاذ أن أقرأ لمدة دقيقة واحدة . . يقول الإمام الغزالى : « ولم أزل فى عنفوان شبابى ، أقتحم لجّة هذا البحر العميق ، وأخوض غمراته خوض الجسور ، لا خوض الجبان الحذور . وأتوغل فى كل ظلمة ، وأتهجم على كل مشكلة ، وأتقحم كل ورطة ، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة ، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة ، لأميز بين محق ومبطل ، ومتسنن ومبتدع ، لا أغادر « باطنيا » إلا أحب أن أطلع على بطانته ، ولا « ظاهريا » إلا أريد أن أعلم حاصل ظهارته . ولا « فلسفيا » إلا أقصد الوقوف على كنه فلسفته ، ولا « متكلما » إلا اجتهد فى الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته ، ولا « صوفيا » إلا أحرص على العثور على سر صفوته ، ولا متعبدا إلا أترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته ، ولا زنديقا إلا أتجسس وراءه للتنبه لأسباب جرأته فى زندقته . . وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور ، دأبى وديدنى ، من أول أمرى وريعان عمرى ، غريزة وفطرة فى جبلّتى ، لا باختيارى وحيلتى ، حتى انحلت عنى رابطة التقليد ، وانكسرت العقائد الموروثة ، على قرب عهدى بسن الصبا والشباب » . . فهذا الذى فعله الإمام الغزالى كان قمة العذاب العقلى والوجدانى . . أى المجاهدة السامية التى لا يشعر معها الإنسان أن له جسما أو يدا أو ساقا . . ويروى عن الإمام الغزالى أنه عندما كان يخلو إلى نفسه كانوا يقدمون له الطعام وينبهونه إلى ذلك . . فكثيرا ما وضعوا الطعام إلى جواره

دون أن يشعر به . . وفى إحدى المرات قيل له : أمدد يدك . . وتناول طعامك . . وقال الغزالى : ولكن ليست لى يد ! وهذه هى قمة الانشغال بالعقل والقلب عن كل احتياجات الدنيا . . لقد نسى أن له يدا . . أو أنه عجز عن تحريكها . . فقد انصرفت كل قواه إلى شىء آخر . . إلى معنى آخر . . إلى مسالك أخرى – كما يقول الصوفية – . وفى هذه الحالة تلتقى قمة القدرة وقمة العجز . . فهو قادر على نفسه ، قادر على أصعب ما فى النفس ، وعاجز عن أتفه ما فى الحياة . . فهو يكبح غرائزه ، وفى نفس الوقت لا يستطيع أن يمد يده ، ولا أن يفتح عينه . . فإذا هو أقبل على الله ، فليس سبب ذلك أنه عجز عن بلوغ الدنيا . . فقدرته ليست بسبب العجز . . فهو ليس كهؤلاء الذين سمعت عنهم الآن . . كل مشاكلهم أنهم عاجزون . وأنهم بسبب هذا العجز غاضبون أو كارهون أو منتقمون . . وأن عظمتهم وعبقريتهم هى بسبب نقصهم فى ناحية . . فكأنهم قد وفروا طاقتهم . . وما توافر لهم وجهوه إلى ناحية أخرى . . ولذلك يقولون إن كل ذى عاهة جبار . أى أن الذى لا يرى يسمع أقوى ، والذى لا يسمع يرى أوضح . . والذى لا يرى ولا يسمع يفكر أفضل . . وليس هذا صحيحا . وإلا كان أصحاب العاهات هم العبقريات التى حركت قوى التاريخ . . إن أخى له ساق واحدة ، ولا يمكن أن يقال إنه أسرع الناس جريا أو أقدرهم على السباحة . . وكذلك كل من فقد شيئا ، ليس من الضرورى أن يكون أقدر من الناس جميعا فى ناحية من النواحى . .

قال الأستاذ وقد استراح إلى ما سمعه من الجميع ، ولابد أنه أعد لكل ذلك « تكييفا » فلسفيا أو ردا مقنعا : والله يا مولانا الشيخ عبد السميع قد قلت كلاما طيبا . . إن الله قد فتح عليك . . لولا أننى أتفق معك فى شىء وأفترق عنك فى شىء . . وكذلك مع إخوان ماركس . . هاها . . هاها . . فما أكثر التناقض فى سلوك كارل ماركس . . وما أكثر المزايا العقلية أيضا . . ولكن ليست عبقريته الفلسفية بسبب إدمانه لشراب البيرة . . وإدمانه للديون . . أو اعتماده الشائن على صديقه فريدريش انجلز . . أو بسبب إحساسه إنه من أصل يهودى ، وأن والديه قد تحولا إلى المسيحية خوفا وطمعا فى المنصب والمال . . ولا بسبب مرض جلدى لم يفارقه طوال حياته . . هذا المرض كان يجعله يهرش بصورة فاضحة حتى إن بعض أصدقائه كان يعتذر بالنيابة عنه ، وفى أحد المؤتمرات الدولية توقف كارل ماركس عن المجادلة العنيفة ، بأن راح يهرش بشكل عصبى . ويقال إنه كثيرا ما وجد ملابسه غارقة فى الدماء بسبب الدمامل التى لا تجف . ولا يمكن أن تكون عبقرية فرويد سببها أن عشرين عملية جراحية أجريت له فى فمه ، بسبب سرطان فى الفم واللثة والحلق . . ولكن لا يمكن أن تكون هذه العيوب الخِلْقية أو الأخلاقية بغير ألم . . ولا يوجد ألم بغير تعبير عنه . . أو بغير مجهود كبير فى إخفائه والدوران حوله . . وسيرة العظماء لا تكشف لنا أعماقهم دائما ، انما تخفى أعماقهم أيضا . . وإذا كان بعض المشاهير يعانون من انحراف جنسى . فليس ذلك أمرا سهلا . . فلا يمكن أن يقال إنهم

حذفوا الجنس الآخر من حياتهم ، وعلى ذلك فهم لا يتعاملون إلا مع الرجال . . ليس بهذه السهولة تماما . . كما يقال مثلا إن فلانا منعه الأطباء من التدخين ، فيحذف من حسابه شراء السجائر . . ويوفر فلوسها لشراء الأحذية أو لشرب الخمور . . ولكن مثل هؤلاء العظماء بسبب حساسيتهم الشديدة وبسبب قوتهم وحبهم للسيطرة يستشعرون العجز والنقص . ومن هذا الشعور بالعجز والنقص ، تتولد عندهم المرارة والكراهية والرغبة فى الانتقام من الآخرين . . فيقال مثلا إن ملك سيام كانت له سبعة آلاف زوجة . . وكذلك ملك أوغندا الذى يسمى موتيسا ، والملك سليمان كانت له سبعمائة والملكة كاهنة المغربية كان لها ٤٠٠ زوج . . وكان ملك سيام هو الذى نقش بيده أنه تزوج هذا العدد الهائل . . ولكن بعد أن مات اكتشفت الأسرة المالكة أنه كان عاجزا جنسيا . أما الملكة المغربية المسماة كاهنة فهى التى أعلنت عن عدد رجالها . . ولكن عرفنا فيما بعد أنها كانت تجعل الرجال يخلعون ملابسهم وتتفرج عليهم ثم تلقى بهم فى الماء المغلى .. وهكذا . . فلم تكن لها حياة زوجية . . وقد أثبت المؤرخون أنها من الناحية العضوية كانت رجلا وامرأة ، وأنها أخفت ذلك عن الجميع . .

وقال واحد من الإخوة الماركسيين فى رقة وأدب كلاما كان كالسم تماما . . وقد اندهش الأستاذ كيف يستطيع إنسان أن يكون قاتلا بنعومة ، ثم ساما بحلاوة . . قال الزميل : أستاذنا العظيم .. إنى أفهم تماما كل ما تريد أن توضحه وتقنعنا به . . فأنت ترى أن العبقرية ليست فى حاجة إلى نقص لكى تشتعل نارها ، ويقوى أوارها . . بل إننا يجب أن نغفر للعباقرة بعض عيوبهم . وإن كانوا هم أنفسهم لا يغفرون للسماء أنها حرمتهم من أشياء هامة وحيوية . . هل ترى يا أستاذ ، ودعنى أنقل الكلام إلى معنى قريب . . هل من الضرورى أن يتزوج العبقرى ؟ . . أنت لم تتزوج . . مثلا ، كما فعل طه حسين والرافعى والحكيم والمازنى وشوقى وشكسبير وابن الرومى وسعد زغلول ... وكارليل الذى تزوج فتاة جميلة ظلت عذراء إلى يوم وفاتها . . وهل من الضرورى أن يتزوج العبقرى أو الموهوب أو حتى النبى مئات من النساء ، كما فعل الملك سليمان .. أو عشرا ، أو إحدى عشرة كما فعل الرسول عليه الصلاة والسلام ؟ . وهل إذا كان ناجحا فى زواجه أو كان فاشلا ، يكون ذلك بسبب عبقريته أو رغم عبقريته . . أى لأن العبقرية تتنافى مع الزواج ، ومع الحياة العائلية أو مع السعادة الزوجية ؟ . . لا أظن أنك يا أستاذ لو تزوجت ، كنت تفلح فى حياتك .. لا أعرف ما الذى يمكن أن يدور بينكما .. أنت وزوجتك إنك يا أستاذ تتساءل عن الذباب وعن صناعة الأحذية وعن الإمساك ، وعن الزهرى ، وعن الوحى ، وعن الغش فى الامتحانات ، وعن تزوير الانتخابات ، وعن الإمام المنتظر ، وعن انتحار بنات كارل ماركس ، وعن الكلبة التى كانت تملكها ابنة الأديب توماس مان وعلمتها كيف تكتب على الآلة الكاتبة .. وتمجد الحرية ، وفى نفس الوقت

تمجد العزلة فى داخل السجن . وترى أن العزلة فى داخل السجن لها مذاق مختلف .. فهم قد وضعوك بين الجدران .. وضعوا جسمك .. أما خيالك وعقلك فلا جدران لها .. إنهم ضيقوا دنياك ، فوسع خيالك الأرض والسماء .. إنهم أرادوا أن يهينوك ، فأعليت أنت قدرك .. سجنوك فكان لهم الجسم الذى أرادوا ، وكانت لك الإرادة والثورة التى أردت .. إنك تكره أن يسجنوا قلمك .. وسجنوه ، ولكن عقلك طليق .. إنك تكاد ترى أن السجن ضرورة .. السجن باختيارك وبغير اختيارك .. فهناك أناس أبدعوا فى السجون مثل فولتير الذى ألف تحفته « هنرياد » وسرفانتس الذى أبدع رواية « دون كخوتة » وجون كليلاند الذى ألف رواية « فانى هيل – مذكرات غانية » ودانيل ديفو مؤلف رواية « روبنسون كروزو » قد نظم فى السجن أروع قصائده .. ونهرو كتب « لمحات من تاريخ العالم » وهتلر ألف « كفاحى » .. والرحالة الايطالى ماركو بولو أملى « مغامرات ماركو بولو » .. وكذلك نظم أوسكار وايلد أروع أغانيه وكتابه « من الأعماق » والاديب الأمريكى أو . هنرى انطلق خياله فى أروع قصصه القصيرة .. ولكن الذى يحيرنى فيك ياأستاذ : هذه الثورة على التقاليد .. وفى نفس الوقت هجومك على من يتهجم على التقاليد أيضا . فأنت تريد التجديد والإبداع والاستقلال فى الرأى .. وفى نفس الوقت إذا حاول الشعراء أن يثوروا على الشعر « العمودى » هاجمتهم .. وإذا ثاروا على النظم الرأسمالية العالمية التى امتهنت كرامة الإنسان ، اتهمت الجميع بأنهم شيوعيون وأنهم لذلك شواذ منحرفون .. ويوم سألوك عن الكتب العشرة التى ترى أنها غيّرت وجه التاريخ كان اختيارك عجيبا ورائعا أيضا .. فأنت اخترت كتاب « الأمير » لميكيافللى وكتاب « دورة الأفلاك السماوية » لكوبرنيكوس و « المبادئ » لنيوتن و « زيادة السكان » للأب مالتوس ، و « ثروة الشعوب » لآدم سميث و « أصل الأنواع » لداروين ، و « رأس المال » لكارل ماركس ، و « تفسير الأحلام » لفرويد ، و « النسبية » لأينشتين و « كفاحى » لهتلر .. وهذه الكتب جميعا تدل على عقلية علمية ماركسية ، ولكنك ضد الماركسية ، وضد كل من يفكر فيها أو تسول له نفسه ذلك .. فكيف يستقيم كل ذلك مع زعامتك لمدرسة التجديد فى الشعر والنقد ودراسة التاريخ واعتقالك لكل فكر يخالفك ، واستعدائك للسلطة على كل هؤلاء المخالفين المارقين . مثلنا نحن الثلاثة وآخرين من المترددين على هذا الصالون ؟ ..

ظهر الإرهاق على وجه الأستاذ ، فقد استمع كثيرا . وتوزع الحديث فى كل اتجاه وكل موضوع .. ثم إنه تقطّع عدة مرات .. ثم إن الرد على هذا الزميل قد جاء فى مناسبات عدة .. فليس الإرهاق الذى ظهر على الأستاذ إلا لأنه سوف يقول ما قاله مرة أخرى .. ولكن قد اعتاد الأنبياء والزعماء والمطربون أن يكرروا ما يطلبه المستمعون .. فهم فى كل مرة يقولون يقفز إلى ألسنتهم شىء جديد .. معنى جديد .. نور جديد .. حجة غائبة .. وهذا هو التعويض الوحيد الذى يجدونه

فى كل مرة يقولون ما سبق أن قالوه . . قال الأستاذ : لعلك تعلق ياخبيث على ما نشرته منذ أيام عن زواج الرسول عليه السلام . . أو تعدد زوجات الرسول . . وهو الموضوع الذى يتناوله كثيرا أعداء الإسلام ، ويجدون أن الرسول عليه السلام كان مزواجا ، ويندهشون كيف يكون صاحب دعوة ضخمة ، وفى نفس الوقت لديه هذا العدد الكبير من النساء . والرد على ذلك بسيط يامولانا . . فالرسول عليه السلام لم يختر امرأة واحدة جميلة . ولم يتزوج إلا من عذراء واحدة هى عائشة بنت صديقه أبى بكر . . وكان زواجه من خديجة وهو فى الخامسة والعشرين وهى فى الخمسين ، لأخلاقه الحميدة . . ومعظم زوجات الرسول كن أرامل . فالسيدة سوْدَة مات زوجها وهو ابن عمها بعد عودتها من الهجرة إلى الحبشة ولا مأوى لها . . والسيدة هند بنت أبى أمية مات زوجها عبد الله المخزومى وكان ابن عمها أيضا . مات فى الحرب . قال لها الرسول : سلى الله يؤجرك فى مصيبتك ، وأن يخلفك خيرا . فقالت : ومن يكون خيرا منه ؟ وكان الرسول يعلم أن أبا بكر وعمر قد خطباها فاعتذرت . فطيب الرسول خاطرها وأعاد عليها الخطبة فقبلت . . والسيدة رملة بنت أبى سفيان تركت أباها وهاجرت مع زوجها إلى الحبشة ، فتنصر زوجها وفارقها فى غربتها ، فأرسل الرسول إلى ملك الحبشة يطلبها لينقذها من الغربة ومن أهلها إذا عادت . . والسيدة جويرية بنت الحارث كانت من السبايا فى غزوة بنى المصطلق فأكرمها الرسول حتى لا تكون ذليلة كالأسرى ، فتزوجها وأعتقها . وخيَّرها أبوها وهو سيد قومه ، بين العودة إليه والبقاء عند رسول الله ، فاختارت البقاء فى حرم رسول الله . . والسيدة حفصة بنت عمر ، مات زوجها فعرضها أبوها على أبى بكر فسكت ، فعرضها على عثمان فسكت ، وبث عمر أسفه للرسول ، فلم يشأ أن يضن على صديقه ووليه بالمصاهرة التى شرف بها أبا بكر قبله . وقال الرسول : يتزوج حفصة من هو خير لها من أبى بكر وعثمان . . والسيدة صفية اليهودية بنت سيد بنى قريظة ، فقد خيَّرها الرسول بين أن يردها إلى أهلها ، وبين أن يعتقها ، أو يتزوجها . فاختارت البقاء عنده . وكانت قصيرة القامة . وكانت صاحباتها يعبن عليها ذلك . وقد سمع الرسول واحدة تعيبها فقال لها ما معناه : إنك قلت كلمة لو أُلقيت فى البحر لكدرته . فقد طيب خاطر الأسيرة الغريبة ، والسيدة زينب بنت جحش ، ابنة عمته ، فقد زوَّجها من زيد بن حارثة ، وهو الذى تبناه الرسول . فنفرت منه ولم يفلح زوجها فى ترويضها . فأذن له الرسول فى طلاقها . وتزوجها الرسول لأنه هو المسئول عن زواجها ، وما كان جمالها خافيا عليه ، منذ البداية ، فهى ابنة عمته يراها فى طفولته ، فلم تكن جميلة ولا كان جمالها مفاجئا له . . إنما هى الظروف التى جعلتها فى طريقه . . والسيدة زينب بنت خزيمة مات زوجها عبد الله بن جحش فى غزوة أُحد ولم يكن أحد من المسلمين قد تقدم لخطبتها ، فتكفل بها الرسول . . وقد ضاقت نساء الرسول بقلة الطعام فى بيته . . واتفقت النساء على أن يطالبنه بذلك . . فلم يجد الرسول بُدًّا من أن يطلقهن جميعا . . وأن يهجرهن

شهرا . . ثم يخيرهن بعد ذلك بين الحياة معه أو الحياة بعيدا عنه . . كانت الحياة شاقة . . وكان فى استطاعته وهو سيد المسلمين أن تكون له الحياة الرضية الهانئة . . ولكنه غير ذلك . . غير ما تصوره أعداء الإسلام وأعداء كل دين . . فليس الجنس هو الذى أراده الرسول . . إنما كان الزواج منهن حلا لعقدة نفسية أو اجتماعية أو أخلاقية . . وهنا لا يمكن أن تقول إننى أدافع عن تعدد الزوجات ، وفى نفس الوقت لا أتزوج . . فالمعنى هنا مختلف تماما . . فنحن لسنا أمام رجل عظيم عبقرى قد أسرف فى الزواج ، وأمام عباقرة آخرين لم يتزوجوا ، لأنهم غير قادرين على ذلك . . إنما زواج الرسول له معنى ، وعجز الآخرين عن الزواج له معنى مختلف . . ولا وجه للمقارنة بين الرجل الكامل الذى هو الرسول عليه السلام ، وبين هؤلاء العباقرة الناقصين المنحرفين . . أما أنك تقول إننى لا أستطيع أن أكون زوجا ناجحا فالحق معك ، فإذا كنت تتصور أننى طول الوقت أتحدث هكذا فإن هذا يجعل أية زوجة تهرب من أول ساعة . . ولكنى يا مولانا أضحك كثيرا وأقول النكت وأبحث عنها . . وأسابق إلى جمعها من أفواه الناس . . وأحيانا أضحك وحدى . . ثم إننى أحسن الحديث مع الطباخ ومع الساعى ومع الباعة . . وكذلك مع عمال المطابع وباعة الصحف . . وقد يدور الحديث بيننا ساعات . . ولا يمكن أن يكون الحديث من هذا النوع فلسفة أو أدبا . . فأنت يا مولانا لا ترى إلا جانبا واحدا من جوانب متعددة . . ولا أعتذر عن شىء . . فأنا لا أقصد أن أقول إننى أصلح للزواج ، وإن المرأة هى التى لا تصلح للزواج . . إنما أنا الذى لم أستطع أن أتخذ قرار الزواج . . وهو قرار لا يكون نتيجة تفكير طويل . . إنما يحدث بسبب الإرهاق الذى يصيب الإنسان من كثرة التفكير . . ولذلك فأخطر ما يصاب به الشيوخ هو أنهم أسرع الناس إقبالا على الزواج لهذا السبب . . أى بسبب الإرهاق فى التفكير . . ولذلك يستسلمون ، والحقيقة أنهم استسلموا مرتين : مرة للإرهاق . . ومرة للنشاط العقلى الفائق عند المرأة التى يتقدمون للزواج منها . . فهم — إذن — يستسلمون لضعفهم ثم يستسلمون لقوتها . . وليس من الضرورى أن يتزوج الأديب أديبة أو شاعرة . . بل إن مثل هذا الزواج لا يكون ناجحا أو موفقا . . فالمرأة لا تفضل أن تتزوج زميلا ، إنما تفضل أن تتزوج أستاذا . . فإذا تزوجت أديبا مثلها ، انقلبت هذه العلاقة إلى زمالة وليست إلى أستاذ وتلميذة . . وفى كل الأدب العالمى صور للفشل العظيم فى كل هذه الزيجات الأدبية . .

قال زميل : هل تريد أن تقول إن هذا هو السبب فى أنك لم تتزوج الآنسة مى يا أستاذ ؟! . .

قال الأستاذ : لم يكن هناك تفكير قط فى الزواج . . لا أنا فكرت . ولا كانت هى قادرة على ذلك . . ولكن الناس يتعجلون النهاية عادة . . ومن الغريب أن أحدا لم يتصور أن أنفر منها أو تنفر هى منى . . وأنهم لم يتعجلوا نهاية الخلاف أو القطيعة بيننا . . وهذا يعيدنى إلى ما قاله مولانا الشيخ عبد السميع وآخرون هنا من أن الجنس أو حتى الحب ، ليس هو الشرط الأساسى فى النجاح أو فى

الفشل . . ولكن من الممكن أن يكون واحدا من شروط هامة ضرورية . . ثم إننى أعود إلى إخوة ماركس فأقول إن العقل يعمل فى اتجاهات كثيرة . . ولكن هل صحيح أن الإنسان مفكر أو شاعر أو فيلسوف أو زعيم أو نبى فى كل ما يفعله ؟ . . هل أنت كذلك وأنت تأكل وأنت تتخلص من الطعام مختارا أو مكرها ؟ . . هل أنت واحد من هؤلاء وأنت رجل إلى جانب امرأة ؟ . . هل أنت واحد من هؤلاء وأنت تشكو مغصا فى البطن أو تشنجا فى المصران أو حموضة فى المعدة أو ألما فى الضرس ؟ . . إن الإنسان ليس فيلسوفا طول الوقت . . فمن الممكن أن يلعب الإنسان بحجر فى الطريق . . ومن الممكن أن تمضى الساعات فى تدليل كلب . . وكنت أفعل ذلك . . أو تترك طفلا صغيرا يركبك ويهز رجليه . . وكان الرسول عليه السلام يترك الحسن والحسين يفعلان به ذلك . . فليس شيئا عجيبا أن تقرأ أنت الكف أو الفنجان . . أو تلهو بذلك . . ومن العجيب أن عددا كبيرا من الملوك والعظماء كانوا يؤمنون بالتنجيم وبالسحر ، لماذا ؟ . . لأنهم يريدون أن يسبقوا الأحداث فيعرفوها ، وأنهم يريدون المزيد من الأمان . . أو أنهم يريدون أن يلقوا العبء النفسى على غيرهم من الناس . . وكثيرا ما وجدنا هتلر يقول للرجل الذى كان يعمل فلكيا له : قل كل شيء . . ولكن لا تقل ما يضايقنى . . فهو يريد أن يسمع ما يسعده . . سواء من الفلكيين أو من غيرهم . . وهو فى هذه الحالة ليس زعيما فقط ، بل هو زعيم وهو إنسان . . وهو طفل . . وهو نموذج للقوة المطلقة التى بلغت درجة الحيرة المطلقة أيضا . .

* * *

وجاء الخادم يطلب من الأستاذ أن يرد على التليفون . . وسمعنا صوت الأستاذ وهو يضحك عاليا .. متواصلا ! . . وعاد الأستاذ وهو يضحك ويقول لنا يمينا وشمالا : إن عبد الرحمن صدق شيطان . . وزوجته شيطانة أيضا . . ما رأيكم دام فضلكم فى أن الرجل الهندى لم يكن إلا حسام ابن صديقنا أحمد صلاح الدين وأنه رئيس فريق التمثيل فى المدرسة ؟ . . هاها . . هاها ! . وأنه قام بالأمس بدور سيدة دعيت إلى فرح ولم تستطع سيدة أخرى أن تكتشف أنه رجل .. إنهم شياطين ! .

هُوَ.. وَالأربعُونَ طَالبَة !

كان الصالون قد امتلأ بتلميذات المدارس . وقد جلسن على المقاعد ، والتصقن بالأستاذ . ووقفت إحدى المدرسات تلتقط الصور . وتنظم المناقشة . وكان الأستاذ سعيدا حقا . وجهه مشرق . وضحكته صافية . ويداعب هذه ويمسك أذن تلك .. ويدعوهن جميعا إلى الاقتراب منه . وكان يهمس فى آذان التلميذات بما يجعلهن يضحكن . ولم أتبين بالضبط ما الذى كان يقول . وكانت المدرسة تنبه الطالبات إلى ضرورة التزام الأدب واحترام المكان . وكانت تقول للأستاذ : لو أن حضرتك شجعتهن على ذلك فسوف تتعالى أصواتهن وضحكاتهن .. وأنت سيد العارفين ..

ولكن الأستاذ لم يكن يعلق على ذلك . فهو سعيد بهذا الزحام ..

وفجأة قالت المدرسة : بنات .. كفى .. والآن يا أستاذ لن يطول بقاؤنا هنا .. سوف تسأل حضرتك كل واحدة سؤالا واحدا .. ويشرفنا أن تجيب عن هذه الأسئلة .. فأنت يا أستاذ لا تعرف مدى سعادة المدرسة كلها عندما أعلن أن حضرتك قد وافقت على مجىء الطالبات إلى بيتك .. ونصف هؤلاء الطالبات مايزلن فى الأتوبيس أمام البيت .. وبعد أن تجيب حضرتك عن الأسئلة سوف نجىء بقية الطالبات. فأرجو أن تقبل عذرى وعذر الست الناظرة .. فأنت طبعا لا تعرف هذا الصخب .. فنحن نعرف أنك تحب الهدوء والنظام .. ولكن أنت سيد العارفين يا أستاذ ، أنه من الصعب أن نتحكم فى أربعين طالبة فى هذه السن .. وأنت تقدر الظروف يا أستاذ .. فالتلميذات من أشد المعجبات بك .. ثم إنهن مثل بناتك يا أستاذ .. بنات .. يا بنات .. كل واحدة تتقدم بسؤال للأستاذ ..

وكأن الأستاذ لم يستمع إلى كلمة واحدة مما قالته المدرّسة . فلم يكن فى حاجة إلى اعتذارها . إنه سعيد مادامت الفتيات سعيدات . ثم إنه لم يتوقف عن مداعبة الفتيات واحتضانهن وتقبيلهن . بل إن طفلة صغيرة قد أجلسها على ساقيه ، وكلما داعب واحدة امتدت يده إلى يدها وقبلها .. وكلما حاولت المدرسة أن تنزلها من فوق ساقيه رفض ذلك .. وكلما حاولت المدرسة أن تمنع الطفلة من فك زراير البيجاما ، منعها الأستاذ . وقد أضحكت هذه الطفلة جميع الحاضرات عندما قالت له : يا جدو .. هيه البيجاما دى لونها إيه ؟ ! ..

لقد ضحك الأستاذ وقال : من أجل هذا يجب أن تعيشى معى .. فأنا لا أستطيع أن أسأل الخادم عن اللون السابق لهذه البيجاما .. فقد كان لها لون من الخطوط الزرقاء والحمراء . ووضعها فى الماء المغلى فانتقلت ألوانها إلى المناديل .. هاها .. هاها .. والله لو حاولت أن أصف لك لونها لعجزت تماما .. والذى يحدث للبيجاما يحدث للطعام أيضا . فنحن هنا يا سيدتى لا نسأل كثيرا .. فالذى نظنه « فول مدمس » يكون فاصوليا .. والذى نأكله على أنه فاصوليا نكتشف أنه فول أخضر .. أما اللبن فهو خليط من الشاى والبن والصلصة .. تعالى وعيشى مع جدو واطبخى وأشرفى على غسيل الملابس ..

الطفلة : أنت مش متجوز ؟ ..

قال : لا ..

الطفلة : ليه ؟ ..

قال : عندما تكبرين فسوف أتزوجك ..

الطفلة : اتجوز ماما ..

قال : ولكن ماما تزوجت بابا ..

الطفلة : ولكنها بتتخانق معاه كتير .. ويسيب لها البيت ..

المدرسة : يا بنت اختشى ..

قال : يمكن ماما لا توافق ..

وسكتت الطفلة بعض الوقت ثم قالت : ماما مش حتوافق علشان مامتك عايشة معاك .

قال : ماما ليست هنا .. إنها تعيش فى أسوان .. بعيدا جدا عن القاهرة ..

الطفلة : ومش حتيجى خالص خالص ؟ ! ..

قال : لا ..

الطفلة : يبقى حتتجوزك .. أقول لها يا جدو ..

قال : لا تقولى لها حتى لا تضربك ..

الطفلة : ولكنها تضربنى دائما ..

قال : أنت إذن لا تسمعين كلام ماما ..

الطفلة : أبدا .. هى دايما تقول لى : أنت شبه بابا ..

قال : يبقى بابا شكله جميل جدا ..

الطفلة : آه .. بابا عنده شنب وماما ماعندهاش .. وأنت ليه ماعندكش شنب ؟ ..

المدرسة : يا بنت عيب .. اسكتى ! ..

قال : المرة القادمة سوف يكون لى شنب ..

المدرسة : لا تؤاخذها يا أستاذ .. لم يكن فى حسابنا أن تجىء هذه الطفلة . ولكنها ظلت تبكى، وأصرت على المجىء فجاءت مع أختها.. لا مؤاخذه يا أستاذ .. يا بنات .. الآن كل واحدة بالترتيب توجه السؤال المكتوب على الورقة إلى الأستاذ .. ابدئى .. أنت ..

تلميذة : الذى يقرأ كتبك يا أستاذ يلاحظ أنك تهاجم المرأة . فهل أنت تكره المرأة .. أو أن لك تجربة فاشلة مع المرأة ، فجعلتك هكذا عدوا لها ؟ ..

قال : هذا سؤال وجيه . ولابد أن يجىء من امرأة ، أو من الجنس الآخر . لأن المرأة لا تحب من يصارحها بحقيقتها . وليست المرأة وحدها هى التى تكره الحقيقة ، إنما الرجل أيضا . والإنسان يفضل أن يعيش فى وهم سعيد ، على أن يعيش فى قلق حقيقى . وما قلته أنا عن المرأة ليس إلا مصارحة لها بطبيعتها . ثم ما الذى قلته عن المرأة ؟ .. قلت إنها إنسان ضعيف . وهى لذلك فى حاجة إلى حماية الرجل .والرجل الذى يقدر على حمايتها هو الرجل القوى بشخصيته أو بسلطته أو بفلوسه . ثم إن الرجل القوى هو الذى يقنع المرأة بحبه أو الزواج منه . والمرأة تفضل الرجل الذى يقهرها . أى الذى يجعلها تحس أنها مغلوبة على أمرها معه . فتختاره حاميا لها ولأولادها بعد ذلك .. وهذا بعض ما قلت يا ابنتى .. ولكن هناك من يقول لها : إنك أجمل وأرق وأقوى وأعظم مخلوقات الله .. وإننى على استعداد لأن أظل خادما مطيعا وعبدا ذليلا . إذا ضربتنى على خدى ، أدرت لك قفاى ، وإذا ضربتنى على قفاى قلت لها : الله .. كمان .. أعيدى .. وإذا أوجعتك يدك فاضربينى بالجزمة .. وإذا تمزقت الجزمة فاضربينى بالقبقاب .. هل هذا هو الرجل الذى يحب المرأة ويتغنى بقوتها وضعفه ؟ هل لو قال طبيب لمريض إن هذا الشحوب فى وجهه بسبب الضعف الحاد ، أو بسبب أن كريات الدم البيضاء تأكل الحمراء ، يكون عدوه ؟ .. هل حبيبها هو الذى يقول لها : إن شحوبك مثل ذبول أوراق الشجر ، وفى لون القمر ، وإنك تزدادين قوة كلما ازددت ضعفا ؟ .. أيهما صديق المرأة وأيهما عدوها ؟ .. لو جاء واحد وقال لى إن لون البيجاما هذه هو أروع الألوان .. هل هو رجل صادق فيما يقول .. أو الذى يقول ما قالته هذه العفريتة الصغيرة من أن هذه البيجاما كان لها تاريخ ملون ، ثم انعدم اللون تماما ؟ .. إذا كانت المرأة تفضل من يكذب عليها ، ولا تحب من يصدقها ، فأنا أقف إلى جانب الحقيقة ولو خسرت كل نساء العالم ..

طالبة : لماذا لم تتزوج يا أستاذ ؟ .. هل لأنك لا تحب المرأة .. أو لأنك لم تجد المرأة التى تناسبك ؟ ..

قال : إن الذين يحبون المرأة والذين يكرهونها يتزوجونها . فالزواج ليس دليلا على الحب .. كما أن الطلاق ليس دليلا على الكراهية .. والعزوبة ليس معناها أن يتساوى لدى الإنسان أن يتزوج

وألا يتزوج .. فلوكان الزواج قائما على الحب ، ماكانت هذه الاختلافات العنيفة بين الأزواج .. إنها تصل إلى درجة الفضيحة وإلى المحاكم وإلى القتل وإلى الخيانة .. ولكن الزواج هو اتفاق فى وجهات النظر وفى المصالح . ويجىء الحب مأذونا .. فالزواج يتم على يد مأذون بعد مأذون .. فالمأذون الأول هو الحب .. والمأذون الثانى يوثِّق العقد الذى اتفق عليه الرجل والمرأة فيا بينهما .. فلا يبقى إلا الاتفاق النهائى أمام الناس .. ولابد أن يكون أمام الناس .. لأن الزواج علاقة اجتماعية ، فالذى يحب إنما يحب شخصا . والذى يتزوج إنما يتزوج شخصا من عائلة لتكون له عائلة هو أيضا .. وإذا كنت لم أتزوج حتى الآن ، فقد أتزوج غدا .. ولكن أطلب إليك أن تدخلى بيتى وتتفرجى على غرفه واحدة واحدة ، إن وجدت أن هذا بيت يناسب الحياة الزوجية فسوف أتزوج فورا ..

طالبة : أنا مستعدة أن أتزوجك يا أستاذ ! ..

قال : هاها .. هاها .. أنا موافق بشرط واحد .

طالبة : ما هو ؟ ..

قال : أن تقيم معك فى هذا البيت كل زميلاتك ! ..

طالبة : أنا سمعت من بابا .. أن نابليون تزوج فى جزيرة سانت هيلانة طفلة عمرها ١٦ سنة .. أى فى مثل سنى .. وكان نابليون سعيدا جدا .. ولابد أن تكون عروسته هذه سعيدة حين يكون زوجها الامبراطور العظيم نابليون .. وأنهما يعيشان وحدهما فى جزيرة بعيدين عن الدنيا كلها ..

قال : ولكنى لست امبراطورا .. ولست فى جزيرة .. ولن أكون سعيدا معك ..

طالبة : لماذا يا أستاذ ؟ ..

قال : لأننى لا أحب أن تكون امرأتى جميلة جدا .. ولا أحب إذا سرت معك فى الشارع أن يتوجه الناس إليك جميعا بالكلام ويتركونى واقفا كأننى شبح .. فإذا جاء بائع الورد قال لى : وردة لبنتك الجميلة .. وإذا جلسنا فى مكان عام جاء ألف شاب يطلبون يدك منى .. وإذا أحس أحد أننى تزوجتك قالوا : هذا رجل مجرم .. لقد استغل فقر هذه الفتاة فاشتراها بفلوسه .. أين القانون فى هذا البلد ؟ .. كيف يسمح القانون بهذا « الاغتصاب الشرعى » ؟ ..

طالبة : لن أخرج من البيت ..

قال : أما أنا فسوف انتقل بين الصحف وبين دور الكتب وبين الناشرين .. وسوف أبحث لى عن شقة أخرى لكى أقرأ وأكتب فيها ..

طالبة : ولماذا تترك البيت يا أستاذ ؟ ! ..

قال : البيت ضوضاء .. وصديقاتك كثيرات .. ثم إننى لا أقوى على رؤية كل هذا العدد من الطالبات اللائى جئن لتعزيتك فى شبابك وفى خيبة أملك .. وفى زواجك من رجل لا هو نابليون ،

ولا بيته جزيرة فى المحيط ، ولا الذى جمع بينكما هو الحب .. إنما هو حب الاستطلاع من جانبك وسوء التقدير من جانبي .. هاها .. هاها ..

طالبة : ما هى فلسفتك فى الحياة ؟ ! ..

الأستاذ : أن أقول للحياة نعم ..

طالبة : ما معنى ذلك يا أستاذ ؟ ..

قال : إننى لا أرفض الدنيا .. أقبلها بكل ما فيها من عيوب وحسنات .. لأن من الطبيعى أن يكون هناك الأبيض وهناك الأسود والألوان الأخرى .. وأن تكون الصحة والمرض ، وأن يكون الصدق والكذب .. وأن يكون الشباب والشيخوخة .. ولكن الذين يقفون عند الشباب ويتمنون أن يبقى إلى الأبد فلا يبقى يلعنون الحياة .. أما أنا فأقبل كل ما فى هذه الحياة على أنه ضرورة .. ومادامت ضرورة ، فهى تستحق الاحترام .. وإذا لم تعجبك هذه الحياة ، ثم لم تجدى حلا لمشاكلها ، فأنت حرة فى أن تبقى على قيد الحياة ، أو تكسرى القيد فلا تكون لك حياة .. ولكن أجمل ما فى الحياة هو أسوأ ما فيها أيضا . فأسوأ ما فى الحياة مشاكلها ومتاعبها ، وهى أجمل ما فى الحياة لأننا يجب أن نقبل على المشاكل ، وأن نفهمها وأن نحلها وأن نسعد بذلك .. وأن ندفع بالحياة إلى الأمام .. ندفعها ونندفع معها أيضا . هذا هو التقدم . وهو أحد معالم الحضارة الإنسانية . وكل الذين أضافوا إلى حضارة الإنسان شيئا جديدا هم الذين قالوا للحياة : نعم .. فأمسكوا الحديد وجعلوه قطارات وطائرات .. وأمسكوا الماء وجعلوه دواء وشفاء .. والتفتوا إلى الجمال فجعلوه لوحات وقصائد .. وكان الإحساس بالجمال هو التعويض الحقيقى عن كل متاعب الدنيا .. فلولا الجمال والإحساس به لكانت دنيانا ورشة أو اصطبلا أومستنقعا .. ففى أساطير الإغريق أن فتاة جميلة رفضت شابا غنيا أن يكون زوجا لها .. وظل يطاردها وتهرب منه .. حتى انفرد بها وقرر أن يقتلها . فطلبت إليه أن يمهلها بعض الوقت لكى تسوى شعرها وترجج حاجبيها وترسم شفتيها وتصبغ أظافرها وتضع بعض العطور فى صدرها ووراء أذنيها وبين أصابع قدميها وأن تتمضمض وأن تملأ أنفها أيضا . ثم قالت له : تعال واقتل أجمل امرأة فى الدنيا .. ولما اقترب منها قالت له : ولكنى لا أحب أن يكون قاتلى قذر الأظافر والأسنان .. وأن تكون لحيته منكوشة ، ولا أن تكون رائحة عرقه مثل رائحة الأغنام .. اذهب واستحم وارتد أحسن ملابسك .. فتكون أنت آخر شىء أراه فى هذه الدنيا .. وذهب الرجل وعاد إليها أنيقا نظيفا مشرقا .. قالت له : الآن تستطيع أن تقتلنى .. ويسعدنى أن يكون قاتلى هو الرجل الذى أحبنى حتى الموت .. حتى موتى أنا .. ولو كنت أعلم أن أصابعك بهذا الجمال لتزوجتك .. لم أتصور أن أصابعك رخامية ناعمة وأظافرك أكثر لمعانا من عينيك .. ولكنى لم أرك .. أما الآن فأنا شديدة الندم على فقدك .. وتمددت على الأرض وأغمضت عينيها .. وجاء النسيم يكشف ثوبها

ويلعب بشعرها ، فرآها أجمل وأروع .. فألقى بالسيف بعيدا .. وراح يقبل يديها وقدميها .. ونهضت الفتاة وقالت : الآن عرفت لماذا لا أتزوجك .. ولماذا ماكان ينبغى أن أتزوجك .. إننى لا أتزوج رجلا لا يشعر بجمالى إلا إذا دللته عليه .. إننى لا أتزوج رجلا أعمى ، وأكون أنا الذى فتحت له عينيه .. أنت لم ترنى ، ولذلك لم تحبنى . إنما أنت أردت أن تمتلكنى وأن تتباهى بذلك بين أصدقائك .. لقد كنت أنا على حق يوم رفضتك .. وكنت أنت على غير حق يوم امتنعت عن قتلى .. عد أنت إلى كلابك وخيولك وأغنامك فأنت لا تصلح إلا أن تكون راعيا للحيوانات .. فدنياك هى المراعى والمستنقعات والزرائب وسوق البهائم .. ودنياى هى الجمال والحب والرحمة .. ومن الغريب أن هذه السيدة الجميلة قد تزوجت أقبح مخلوقات الإغريق .. وكلما اندهش الناس لذلك قالت : ولكننى أراه جميلا . وأجمل مافيه أنه شديد الامتنان .. أردته عاشقا فوجدته عابدا ، أردت أن أكون زوجة له ، فجعلنى إلهة عليه ..

طالبة : ما هى مواصفات الزوجة التى تحبها يا أستاذ ؟

قال : يجب أن أسألها هى أيضا ما هى مواصفات الزوج الذى تحبينه ؟ .. قد تعجبنى ، ولكنى لا أعجبها ..

طالبة : أريد أن أعرف ما هى الشروط التى إذا وجدتها فى امرأة تقدمت لطلب يدها . . أو قبل أن تطلب يدها تفكر فى أن تتزوجها . . أو تقول لنفسك : لو كانت ترضى بى زوجا . . ألم يحدث أن قلت ذلك لنفسك يا أستاذ ؟ . .

قال : لابد أن تكون ذكية وأن تكون جميلة . . وإن كان الجمال نسبيا . . فالذى أراه جميلا ، قد لا يراه غيرى كذلك . . والذى كنت أراه وأنا شاب ، غير الذى أراه وأنا رجل ناضج ، وغير الذى سوف أراه وأنا شيخ . . والذى أراه وأنا مطمئن الخاطر ، غير الذى أراه وأنا فى محنة نفسية أو مادية . . ولكن حدث مرة أو مرتين . . خطر لى ماذا يحدث لو كنت تزوجت كليوبطرة . . إنها ليست امرأة جميلة كما يتوهم الشعراء . . بل كانت أقرب إلى القبح ؛ فهى قصيرة القامة صغيرة الرأس ، وهى امرأة متقلبة . . ولأنها فى حالة خوف وعدم شعور بالأمان كانت تلعب بأعصاب الرجال حولها . . وكانت ترى فى الإيقاع بين أصدقائها وخصومها أمانا لها . . فهى تكره أن تجد اثنين صديقين . . ولكنها كانت بارعة فى أن تربط الناس . . كل واحد فى خيط . . وهذه الخيوط متفرقة . ولكننى وجدت عندها نقطة ضعف . . أنها تحب الرجل الذى لا يناقشها . إنما يفرض رأيه عليها . وأحيانا كانت تحب الرجل الذى لا يقول شيئا فى حضورها . . وكانت تضيق بهذا النوع من الرجال . . وكان واحد من حاشيتها يغلب عليه النوم فى حضورها . . وكانت تبحث من يتجسس عليه فى بيته ، فيعود الجاسوس ليقول لها إنه لم ينم إلى الصباح . . وكانت بذكائها تستنتج أنه يتظاهر بالنوم

حتى لا يقول رأيا . . ووجدت أن هذه لعبة نفسية ممتعة . . وتخيلت نفسي ، وكنت ماأزال فى العشرين من عمرى ، زوجا لها . . يتحدث إلى كل النساء فى حضورها . فإذا انفرد بها لا يحدثها . . وهذا يعذبها كثيرا ، إذ كيف أكون هكذا لبقا لطيفا مجاملا جذابا لكل الفتيات ، فإذا انفردت بها لم أنطق بكلمة ؟ . . ولابد أنها سوف تقول لنفسها : إنه لا يطيقنى أو لا يجدنى جميلة . . أو أن كليوبطره لا تجدنى أنا قادرا على فهمها . وبعد ذلك أنتقل إلى المرحلة الثانية فأتقدم إلى خطبة واحدة من صديقاتها بعد أن أتأكد تماما من أنها تحبنى . وهذا يعذبها أكثر . فتحاول أن تقلل من أهمية موقفى . فإذا فعلت ذلك فأنا أنتقل إلى الخطوة الثالثة فأطلب منها أن تخطب لى هذه الصديقة . وهذا يوجعها أكثر . ثم أجعلها هى التى تتقدم لتخطبنى . وفى هذه الحالة أنهى قصتى الخيالية بأن أطلب إليها أن تكون زوجة فقط وأكون ملكا على عرش مصر . . ولم تعجبنى هذه الفكرة ، ولذلك فكرت فى أن أجعل النهاية مختلفة تماما . فتخيلت أننى قلت لها لنكن ملكين على مصر : أنت تحكمين النساء وأنا أحكم الرجال . وجعلتها تسألنى هذا السؤال : وإذا اختلفنا نحن معا فإلى من نلجأ ؟ وتخيلت أننى قلت لها : لابد أن تأخذى برأيى أنا . . وإلا فلا داعى لهذا الزواج ، وسوف أذهب إلى صديقتك أقبل الأرض تحت قدميها لكى تقبلنى زوجا لها . . هاها . . هاها . . كان ذلك عبث شباب ! . .

المدرسة : أسئلة أخرى يابنات غير الحب والزواج . . تعرف ياأستاذ لو تركنا الطالبات يتكلمن عن الحب ، فلا نهاية للأسئلة العامة والشخصية . . وأنت سيد العارفين ياأستاذ . . إنها سن المراهقة والأحلام الكبيرة المجنونة أيضا ! . .

طالبة : إنها تقول دائما إننا مجانين ياأستاذ . . فهل نحن حقا مجانين ؟ . . إننا لم نسأل إلا عما يدور فى نفوسنا . . وإذا لم نجد إجابة عن هذه الأسئلة عندك ياأستاذ فأين نجدها ؟ . . ولكن ياأبلة الأستاذ لم يتضايق من هذه الأسئلة . .

ودخل الخادم بصينية عليها أكواب الليمون .. ولكن واحدة لم تمد يدها . . إنما أشرن إليه جميعا أن يخرج . . وأن يجىء فيما بعد . . فقط المدرسة هى التى مدت يدها وشربت . واحتفظت بالكوب فى يدها . . فقد أخلى الصالون من المناضد لتقف الطالبات فى مكانها . .

الطفلة : أنت عندك أولاد ؟ . .

قال : عندى أولاد كثيرة جدا .

الطفلة : فين هم ؟

قال : فى المدرسة . .

الطفلة : فى مدرسة واحدة ؟ . .

قال : فى مدارس كثيرة .

الطفلة : مفيش حد منهم فى الجامعة ؟ . .
قال : بعضهم فى الجامعة .
الطفلة : وأنت تحبهم كلهم . .
قال : أحبهم كلهم . .
الطفلة : ولا تضربهم ؟ . .
قال : لا أضربهم . . . .
الطفلة : ولكن أنت مش متجوز . .
قال : هاها . . هاها . . ياعفريتة . . ولكنى سوف أتزوج .
الطفلة : هم لهم كم ماما ؟ . .
قال : لهم أربع أمهات . .
الطفلة : وكل ماما عندها كام ولد ؟ . .
قال : أربعة . .
الطفلة : كلهم أولاد ؟ .
قال : نصفهم أولاد ونصفهم بنات .
الطفلة : وأنت تحب البنات أكثر ولا الأولاد أكثر؟ . .
قال : كلهم زى بعض : .
الطفلة : يعنى لما تجيب فستان لدى ، تجيب فستان لدى . . ولما تجيب جزمة لدى تجيب جزمة لدى ؟ . .
قال : وأشترى لهم اللعب أيضا . . وأوزعها عليهم . . كل واحد له لعبة . .
الطفلة : حتى اللى فى الجامعة تشترى لهم لعب ؟ . . معقولة دى ؟ ! . .
قال : هاها . . هاها . . أنت عفريتة خالص . . هاها . .
الطفلة : ومن اللى بينام معاك فى السرير؟ . .
قال : أصغر واحدة . .
الطفلة : وهيه بتنام فى الوسط . . ولا بتنام فى الطرف ويقع من فوقها الغطاء . ويمكن تقع من فوق السرير . . أنا مرة وقعت من فوق السرير . . وبعدين ماما خلتنى أنام مع اخواتى . .
قال : أنت تحبين أن تنامى فى الوسط ؟ . .
الطفلة : آه . .
قال : تعالى نامى جنبى فى السرير . . تعالى نامى فى الوسط .

الطفلة : ماما مش حتوافق .

قال : لماذا ؟ ..

الطفلة : هيه مش بتحبنى ..

قال : إنها تحبك كثيرا .. لابد أنها اشترت لك هذا الفستان الجميل .. وهذه الأسورة الذهبية .. ووضعت لك هذه الوردة فى شعرك الذهبى .. أنت جميلة ..

الطفلة : غلط .. كل حاجة غلط .. الفستان اشتراه بابا .. والأسورة بتاعة أختى كاميليا .. والوردة أنا أخدتها من دولاب ماما .. أنا اللى خدتها .. هيه مارضيتش .. هى مش بتحبنى ..

قال : إذن فمن هو الذى تحبه ماما من إخوتك أكثر؟ ..

الطفلة : عادل .

قال : من هو؟ .

الطفلة : أخى .. أنا سمعتها بتقو له : أنت راجل .. وهو مش راجل علشان ما عندوش شنب .. من السنة اللى فاتت ..

لا أعرف كم عدد المرات التى ضحك فيها الأستاذ أو قبّل يدى هذه الطفلة .. ولا كم مرة احتضنها إلى صدره .. ولا كم من السنوات استطاعت هذه الطفلة أن تحذف من عمر الأستاذ لتعيده شابا صغيرا .. ثم إنه لا شعوريا ، فك ضفيرتها وراح يلويها بعضها فوق بعض .. ثم شد شعرها إلى الوراء .. ثم أنزل خصلة على جبينها .. ووضع الوردة على جانب من الوجه .. ثم سوّى فستانها .. وأصلح ياقتها .. ثم نزع حذاءها ومسحه لا شعوريا فى بنطلون البيجاما .. ثم ألبسها جوربها الصغير .. وأمسك قدمها الصغيرة وقبلها .. ثم أجلسها على المنضدة وركع على ركبتيه يشد ملابسها الداخلية .. وينفض التراب من حذائها .. وقال لها : أنت الآن ملكة .. أنت أجمل واحدة فى الدنيا .. إن ماما تحبك جدا وبابا وكل إخوتك ..

الطفلة : بابا بيحبنى .. لكن ماما لأ .. أنا عارفة .. وعلشان لما أكبر حاقول لبابا يالله نعيش لوحدنا ونسيب ماما ..

قال : وتتركين ماما وحدها ؟ . .

الطفلة : معاها عادل . . هيه مش بتقول إنه راجل ؟ . . والله مش بيعرف ياكل . . الأكل بيقع على هدومه . . امبارح وقعت البطاطس على لبس المدرسة . . وماما ما ضربتوش ولا حاجة . . وادته عشرة صاغ كمان . .

قال : لكن ماما قالت لى إنها تحبك أكثر . . أنا سمعتها بنفسى . .

الطفلة : لكن انت ما تعرفش ماما . . وأنت مش عاوز تجوزها . . طيب ماما اسمها إيه ؟ . .

واقتربت طالبة وهمست فى أذن الأستاذ فقال لها : ماما اسمها عنايات

الطفلة : صح . . أنت بتحبها ؟ .

قال : نعم .

الطفلة : أنت أكثر ولا بابا ؟ . .

قال : بابا يحبها أكثر . .

الطفلة : غلط . . بابا لو كان بيحبها كان ينام معها فى نفس الأوضة . . بابا بعد احنا ما بنام . . يخرج من الأوضة على طراطيف صوابعه وينام مع إخواتى . . أنت مسلم ؟ . .

قال : نعم .

الطفلة : الظهر بيدن وأنا ما صلتش . . بابا لما بيسمع الأذان مش بيصلى . . مفيش حد عندنا بيصلى . . الطباخ عم عبده بس . .

ومن الممكن أن يبقى الأستاذ فى حديث مع هذه الطفلة وأية طفلة يوما كاملا . ولا يضيق بالأسئلة ولا بالمناقشة . ولا بالإجابة عن أى سؤال . . ولا نهاية لمرحه وبهجته . .

وجاء الخادم وفى يده كيس امتلأ بالبسكويت والشيكولاتة واللبان والملبس ، وقدمه الأستاذ للطفلة . ولم تشأ أن تمد يدها وقالت : مش عاوزة . قال : لماذا ؟ .

الطفلة : علشان ماما بتشترى الحاجات دى لعادل . . أنا مش باحبها ! .

المدرسة : تعالى هنا ياجميلة . . كفاية لعب . . أنت ضايقت الأستاذ . . تعالى هنا . . يا الله يا بنات . . أسئلة جادة . . كفى كلاما عن الحب والزواج . . طالبات أدبى . . طبعا فيه أسئلة كثيرة . . قولى أنت . .

طالبة : ما هى أوجه الشبه وأوجه الخلاف بين الديانات السماوية الثلاث ؟ ولماذا اخترت الإسلام يا أستاذ . . أو انك مسلم بالوراثة ؟ . . فأنت مسلم لأن والديك مسلمان . . أكثرنا كذلك . . ولكن لابد أن تكون أنت يا أستاذ مختلفا عن بقية الناس . لأنك مفكر ولأنك عبقرى . .

قال : كم عدد المسلمات هنا ؟ .

المدرسة : المسلمة ترفع يدها . . إحدى عشرة مسلمة . . والمسيحيات ؟ ثلاث مسيحيات . وواحدة يهودية هى ليلى أو ليليت عبد العزيز . . اسمها غريب ! .

قال : ليس غريبا . . أنت من اليهود القرّائين . .

قالت : نعم يا أستاذ . .

قال : إنهم اليهود المصريون . . وهم الذين يؤمنون بأن الكتاب المقدس هو التوراة . . فقط ، ولا يؤمنون بالتلمود . . بينما بقية المذاهب اليهودية الأخرى ترى أن التلمود أهم بكثير جدا من

التوراة . . ففى التلمود كل التعاليم والاجتهادات فى شرح العقيدة . . بل إنهم يذهبون إلى أن الله نفسه يقرأ التلمود . . ولذلك فبعض المذاهب اليهودية ترى أن القرّائين كفرة . . طبعا أنت يهودية بمفهوم خاص يختلف عن اليهود الآخرين . .

وسكت الأستاذ . كأنه يقوم بتغيير لموجات الإرسال . . وليس ابتلاعه لريقه ، وسعاله المفاجىء واعتداله فى مقعده واحتضانه الكامل للطفلة التى يبدو أنها نامت على صدره ، إلا محاولة مستمرة لأن يعود إلى حالته الطبيعية الجادة . . ثم اكتشف أن زراير الجاكتة كلها قد عبثت بها الطفلة الصغيرة ، فأعادها إلى ما كانت عليه . . ورفع رأسه إلى الوراء وضم شفتيه وقال : إن هذه الديانات السماوية الثلاث تنادى بالله الواحد . . اليهودية توحد الله والمسيحية توحد الله أيضا وترى لها مدلولات أو هيئات أخرى هى : الأب والابن والروح القدس إله واحد . . والإسلام هو دين الوحدانية الكاملة . . وقد جاء ترتيب هذه الديانات على هذا النحو متمشيا مع قدرة العقل الإنسانى على قبول المعنى المجرد . . أى على قبول الإله الواحد . . وفى الديانة اليهودية يرون الله واحدا . . ولكنهم يجسدونه فى بعض الأحيان ويرونه ، وكتبهم تقول إن بعض الحكماء كانوا يناقشونه وأحيانا يلومونه بعنف . . وهذا يدل على أن العقل الإنسانى ليس قادرا على تصور إله ذى قوة مطلقة حاضرة حضورا مطلقا عالمة علما لا نهائيا . والمسيحية ليست إلا اليهودية الجديدة . . ولذلك نجد الكتاب المقدس قسمين : العهد القديم وهو التوراة ، والعهد الجديد وهو أناجيل تلامذة السيد المسيح . . وليس أحد يشك فى أن هذه الكتب حرفت تحريفا كاملا . بل إنها جميعا ليست كتبا سماوية نزل بها الوحى من الله على نبيه . . إنه القرآن وحده هو الكتاب الكامل الذى لم يتغير ولم يتبدل ، ونزل على رسوله محمد عليه السلام . والديانة اليهودية تضم ديانات أخرى كثيرة وأحيانا خرافات وقصصا شعبية . بل إن أسفار التوراة قد اقتبست من كل الديانات السابقة عليها . واستطاع علماء اليهود وقضاتهم وحكماؤهم أن يهضموا كل ذلك . . أى يتناولونه ويمضغونه ويبتلعونه ويخرجونه شيئا مختلفا تماما وينسبونه إلى أنفسهم ، بما فى ذلك ديانة اخناتون . . أما الأناجيل المسيحية فقد سجلها الحواريون فى سنوات متباعدة جدا بعد صعود السيد المسيح . . إلا القرآن الكريم فقد أنزله الله وحفظه للمسلمين وحفظه المسلمون ، والنقص الذى أحس به اليهود فى التوراة قد أكملوه فى كتب أخرى أهمها التلمود . . والمسيحية دين السلوك الأخلاقى والاجتماعى . وليس فى المسيحية تشريع للمعاملات بين الناس . . والإسلام كان أكمل الديانات وأشملها وأصلحها لكل إنسان وكل زمان . .

طالبة : إننى لم أدرس ديانتنا اليهودية جيدا يا أستاذ . . ولكن لم أفهم لماذا يوجد هذا العدد الهائل من الأنبياء ؟ . . حتى قيل لنا إن جميع الأنبياء والرسل من اليهود . .

قال : صحيح . . إلا محمدا عليه السلام . وكان لى حديث طويل معروف مع المرحوم حاييم

ناحوم رئيس الطائفة الموسوية فى مصر وعضو المجمع اللغوى . . وكان رجلا لطيفا ويعرف عشرين لغة معرفة تامة . . وكان يجيء على قدميه إلى المجمع اللغوى لأن جلسات المجمع كانت تنعقد يوم السبت ، وهو يوم مقدس ، وحرام على أى يهودى أن يفعل شيئا فى ذلك اليوم . بما فى ذلك ركوب السيارة . . وقد انشغلنا بعض الوقت فى تفسير ما جاء فى القرآن الكريم عن معنى كلمة « النبى الأمى » أو « فى الأميين رسولا منهم » . . وكان يرى أن كلمة أمى ليس معناها أنه لا يقرأ ولا يكتب ، ولكن معناها أن الرسول عليه السلام من « الأميين » أى من الشعوب الأخرى غير اليهودية . . وعلى ذلك فهو النبى الوحيد الذى ليس يهوديا . . وقد يكون هذا التفسير مقبولا ، لولا أنه ينفى عن الرسول صفة أنه كان لا يقرأ ولا يكتب . . والرسول كان حكيما عظيما . وليس من مظاهر عظمته فقط أنه لا يقرأ ولا يكتب . . فمن الممكن ألا يقرأ الإنسان ولا يكتب ويكون عظيمـا ، مثل أبى العلاء المعرى ومثل هوميروس .

طالبة : وطه حسين . . والشيخ محمد رفعت . .

قال : ولكن عظمة الرسول فى صفات أخرى شخصية وخلقية وجسمية ونفسية وعقلية .. ولا ينقص من قدر الرسول أنه كان لا يقرأ ولا يكتب . فالقراءة والكتابة ليست ميزة كبيرة عند الذى لا عبقرية له . . ففى الدنيا مئات الملايين يقرأون ويكتبون ، ولكن ليس فى الدنيا إلا عشرات من العباقرة من بين هؤلاء القادرين على القراءة والكتابة أما كثرة الأنبياء عند بنى إسرائيل فتدل على القلق والحيرة وعدم الشعور بالأمان . . ولذلك احتاجوا إلى من يطمئنهم على أن الله معهم . فقد بدأت الديانات اليهودية بأن نودى إبراهيم عليه السلام إلى الخروج من أرض العراق لينقذ أولاده وأحفاده . . وكان بينه وبين الله عهد . . هذا هو العهد القديم . والعهد هو أن يتعهد إبراهيم بأن يعبد الله وحده ، وأن ينقل رسالته إلى العالم ، فإذا وفّى بهذا العهد ، أعطاه الله أرض كنعان . وكانت الديانة اليهودية أول الأمر دعوة لكل الناس . لكن بعد ذلك جعلها اليهود دعوة فيما بينهم . فاليهودية دين خاص . دين « ملاكى » من اليهود إلى اليهود . ولذلك فلا تبشير فى اليهودية ، كما هو فى المسيحية والإسلام . . وعندما أوحى الله إلى موسى أن يخرج من مصر إلى سيناء ، تجدد العهد بينه وبين الله . . وانتقال اليهود وهجرتهم من مكان إلى مكان احتاج إلى من يرشدهم . وظهر كثيرون واختلفوا وتقاتلوا . . فظهور الأنبياء مثل ظهور الأطباء لا يدل على الصحة . . إنما يدل على انتشار المرض . . ومرض اليهود هو الخوف بسبب عدم الشعور بالأمان مع أحد ، أو أمان أحد معهم . .

طالبة : ما هى الديانة البوذية يا أستاذ ؟ ولماذا لم تنتشر فى مصر مثلا ؟ وهل هى تتنافى مع الإسلام ؟ .

قال : البوذية ليست ديانة بالمعنى الذى نقصده عندما نتحدث عن الإسلام والمسيحية واليهودية .

إنما البوذية هى « آداب السلوك » وهى منسوبة إلى رجل طيب اسمه بوذا ، عاش فى الهند فى القرن السادس قبل الميلاد . كان شابا غنيا مترفا . وفى يوم واحد رأى إنسانا فى صحة وعافية ثم رأى إنسانا مريضا ثم رأى جثة .. كل ذلك فى يوم واحد . وأحس أن هذا الحادث ليس إلا رسالة موجهة له .. أى عليه أن يفعل شيئا . فأحس أن هذه هى الحياة : ولادة وعذاب وموت .. وأنه لا راحة فى الدنيا . فمادام للإنسان جسم ، وللجسم مطالب .. ومادام هناك أناس آخرون ولهم مطالب أيضا . فلابد أن تمتد أيديهم فى وقت واحد على الشىء الواحد . ويكون الصراع هو النتيجة . إذن فلا راحة فى هذه الدنيا إلا لمن يريح نفسه من مطالب الجسم ومن أسباب الصراع والقتال والقتل .. فانسحب من الدنيا . وعاش زاهدا . ولكنه وجد أن الزهد لم يحل القضية . فهو لا يزال فى حاجة إلى من يقدم له الطعام والشراب .. أى ليكون زاهدا ، فلابد من آخرين ليسوا زاهدين . ولذلك اهتدى إلى الحل الوسط .. وهو أن يعيش فى الدنيا على أطرافها .. أى أنه يرضى منها بالقليل الذى يجعله قادرا على البقاء حرا من قيود الجسد ، ومن ضغط العلاقات الاجتماعية .. والديانة البوذية ليس فيها إله .. لا أحد يعبد أحدا . إنما الكل يمشى فى طريق . هذا الطريق هو نفس الطريق الذى سلكه بوذا . وهم يعيشون على التسول . ويطلبون من الناس أن يعطوهم ، أو أن الناس تتطوع فتتصدق عليهم . أما نهاية الطريق ، أو منتهى الطريق أو غايته فهى حالة يسمونها « النرفانا » – أى انعدام الإحساس بكل شىء .. ولنضرب لذلك مثلا : أنت فى بيتك تقفلين الراديو وتقفلين حنفيات المياه .. ثم تقفلين النور وتقفلين باب غرفتك وتطبقين عينيك وتسحبين الغطاء عليك .. فلم يبق من كل ما فى البيت أحد أو إحساس أو وعى .. إلا وعيك أنت .. وبعد ذلك تسدين أذنيك .. وتطردين كل رغبة عندك فى الأكل أو الشرب أو لقاء من تحبين .. هنا فقط يمكن أن توصف حالتك هذه بأنها حالة « النرفانا » أى الحالة التى تنعدم فيها كل مشاعر الإنسان فلا يبقى عنده إلا هذا الصفاء التام .. وهو صفاء لأنه لا توجد رغبات عاجلة .. إنما يوجد إحساس بأن الإنسان فوق جبل عال .. أو هو فوق الدنيا كلها .. وهذا هو الإحساس الذى يقضى على كل إحساس آخر .. أو هو الإحساس الأسمى من كل إحساس .. ومثل هذه التجارب قد عرفها الصوفيون فى كل الأديان .. فى الإسلام وفى المسيحية .. أما فى اليهودية فهم أناس عقلاء وعمليون .. فهم لا يزهدون فى الدنيا ، لأن الديانة اليهودية ليست فيها آخرة ولا جنة ولا نار .. هذه الحياة فقط .. حياة واحدة ، ومادامت واحدة فليس من الحكمة أن يزهد الإنسان فيها .. أو يؤجل الاستمتاع بها إلى حياة أخرى – مادامت لا حياة أخرى هناك ! .

طالبة : يا أستاذ هل آمنت بالبهائية ؟ . كيف تكون بهائيا ومسلما فى نفس الوقت .. مع أن البهائية ضد الإسلام ، ويعبدون إلها آخر غير الذى نعبده ؟ .

قال : سوف أرد على سؤالك وعلى سؤال الآنسة التى سألتنى إن كنت مسلما بالوراثة أو أنى مسلم

بالدراسة .. أنا أسلمت بالوراثة ، طبيعى . ولكن بعد ذلك أسلمت بالدراسة . واعترانى من القلق والحيرة ما أصاب كل الذين يفكرون فى القضايا الكبرى . فقد عصفت بى المذاهب الدينية والسياسية والفلسفية ، وتوقفت طويلا عند الملحدين . ولكنى توقفت عند المؤمنين أكثر .. وأنا قلت للإسلام نعم . وقبل أن أقول للإسلام نعم . قلت للإيمان نعم . أى أنه من المعقول أن يكون الإنسان مؤمنا بالله وبعد ذلك مؤمنا بكتابه وماجاء فيه . وهذه رحلة طويلة شاقة ومعقدة ، وليس من الضرورى أن يمشيها كل إنسان .. تماما كالسباحة فى المحيط .. فقد يتفوق الإنسان فى حمام السباحة ، ولكنه ليس كذلك فى النهر .. ولا كذلك السباحة وراء سد أسوان مثلا .. والذى يسبح فى النيل ليس بالضرورة قادرا على السباحة فى المحيط .. ثم إذا كان فى استطاعته أن يعبر المحيط فى سفينة ، أو يعبره فى طائرة ، فلماذا يصر على أن يعبره سابحا من شاطئ إلى شاطئ .. أو على ألواح خشبية ؟ . إنهم قليلون الذين داروا فى سفن شراعية حول الأرض .. وإذا نجحوا فليس فضل ذلك يرجع إلى هذه السفن المتواضعة ، ولا أن المحيطات كانت أمواجها أصغر ، وكانت أعماقها أقرب .. ولكن إلى موهبة وعبقرية عند هؤلاء الرحالة المغامرين .. أما بقية المذاهب الدينية ، غير الإسلام ، فدونه بكثير ، فالإسلام أعمق وأشمل وأعظم . وبعض الناس يتصور أن « البهائية » لأنها استطاعت أن يكون لها أتباع فى العصر الحديث ، فلابد أن تكون ديانة متطورة . وإلا فكيف يؤمن بها أناس فى القرن العشرين .. ولكنى أرى أن هذه مغالطة .. فالقول بأن أهل القرن العشرين يحتاجون إلى ديانة متطورة خطأ . فليس كل الذين يعيشون فى القرن العشرين متطورين مثل الألمان والأمريكان .. بل إننا نجد فى الريف من لا يزال يدور حول الأضرحة ويطلب المعجزات .. أو الذين يعبدون الأبقار فى الهند .. أو يعبدون النار فى إيران . . وهم جميعا يعيشون فى القرن العشرين . ثم إن الديانة البهائية قد اتجهت إلى أبناء إيران . لأنها ديانة نشأت فى إيران فى القرن الماضى . وقد قابلت « الباب » أى كبير البهائية ، واسمه عباس أفندى عبد البهاء .. أى عبد بهاء الله مؤسس الديانة البهائية . وكان لنا حديث طويل . أما أسس البهائية فهى أن تقوم بعقد صلح بين الأديان كلها .. أى « توفق رأسين فى الحلال » . . هذا إذا كان الخلاف بين اثنين ، فكيف توفق فى الحلال بين عشرين رأساً ؟ ! هاها .. هاها .. وقد تعهدت الديانة البهائية بأن تصالح اليهودى على المسيحى ، والمسيحى على المسلم ، والمسلم على البوذى ، والبوذى على الكونفوشى ، والكونفوشى على الزرادشتى ، والزرادشتى على المورمونى ، والمورمونى على الماركسى . ولا أعرف لماذا ؟ وما المعنى ؟ وما الحكمة ؟ وما هو الهدف ؟ ثم ما هو الحل الذى تقدمت به ؟ إننا لو وضعنا البصل والورد والخوخ والجوافة والقطن والأرز فى علبة واحدة . فوجودها معا لا يدل على أن خلافاتها قد زالت .. ولو وضعناها فى إناء واحد يغلى ، فإن النتيجة سوف تكون انعدام خصائص الجميع . فما قيمة هذا الدين الذى تنعدم فيه كل خصائص الأديان الأخرى ؟ ! إن

البهائية عبث .. ولابد أن الذى يؤمن بها يكون بهذا القدر التافه من التفكير العقلى والتذوق الوجدانى .. وقد قلت لعباس أفندى عبد البهاء : ما رأيك لو قمنا بتجربة واحدة بسيطة وتركنا للناس فى أى بلد أن يحكموا لك أو عليك ؟ ! .. أن تحلق لحيتك وشاربك .. وأن تلبس سوتيانا وترتدى بنطلونا أزرق وأن تضع أحمر شفاه وأن تمسك مدفعا رشاشا .. وتمزج اللبن بالخمر بالفنيك ، وأن تتكلم من أنفك ثم تبصق على وجه كل من يقترب منك ، ماذا يقول عنك الناس فى أى مكان ؟ .. إننى أرضى هذا الحكم .. وأرضى به حكما فاصلا بين البهائية وأى دين آخر .. هاها .. هاها .. لم يوافق . ولكننى قلت تخفيفا عنه .. ولكنى أحترم رغبتك فى إزالة الخلافات الحادة بين الأديان .. ربما كانت هذه نية طيبة .. ولكن النية الطيبة ليست شيئا كبيرا . إنما هى رغبة فى عمل شىء ، ثم لا نعمله ..

المدرسة : كفى يا بنات .. والله يا أستاذ أنا لا أعرف كيف أشكرك .. ولا أعرف كيف أعتذر لك .. فلا تزال هناك عشرون فتاة فى الأتوبيس . أرجو يا أستاذ أن تعذرنى .. فانت تعرف .. يا الله يا بنات .. خروج .. يا الله ..

وخرجت الفتيات .. وهب الهواء باردا من البلكونة .. وقد وقف الأستاذ يصافح الفتيات ، بينما حمل الطفلة الصغيرة التى صحت من نومها .. حملها على صدره .. ثم حملها على كتفه وقد وضعت رأسها على رأسه وراحت تشير بيدها مودعة زميلاتها .. وظللنا نحن واقفين فى الصالة .

وسألنى الأستاذ : ماذا تفعل مع تلميذاتك فى الجامعة يا مولانا ؟ ! .

قلت : شيئا مثل هذا .

وسألنى : هل تجد متعة فى ذلك ؟ .

قلت : أجد هذه المتعة .. ولكن بصورة أخرى .. فالمتعة هى أن أجدنى أقول وأوضح أفكارى لنفسى على مسمع من الآخرين ..

قال : إذن فأنت لا تتحدث مع أحد ..

قلت : إن حديثى مع نفسى لاينتهى ..

قال : هذه هى البداية عادة .. أن تتحدث إلى نفسك ، وبعد ذلك تتحدث مع الآخرين فى حضور نفسك ، ثم إلى الآخرين فى غياب نفسك .. فأنت عندما تحدث نفسك فأنت فيلسوف ، وعندما تتحدث إلى نفسك فى حضور الآخرين فأنت مثل الذى يسبح ورأسه فوق سطح الماء ، أما الذى يتحدث إلى الآخرين فى غياب نفسه ، فهو كالذى يغوص فى البحر وقد ارتبط بأنبوبة أوكسجين من إحدى السفن ، فهو آمن تماما مهما نزل إلى الأعماق .. والفكر الفلسفى يبدأ بالحديث إلى النفس ، ثم إلى الآخرين ، ثم الاستغراق فى الآخرين ، هذه هى السياسة .. والزعيم السياسى مثل المطرب ، مثل وسيط تحضير الأرواح .. فالوسيط يستمد المادة الضرورية لكى تحل به الروح من

أجساد الذين حوله والذين يلمسهم بيده .. وكذلك المطرب يستمد حيويته من حضور الآخرين ومن تصفيقهم ، وكذلك الرجل السياسى .. إن تشرشل عندما قررت الملكة أن تجعله عضوا فى مجلس اللوردات قال : أختنق .. من الهواء النقى ومن الهدوء .. إن حياتى هى مجلس العموم حيث الهواء فاسد وكل الناس أيضا !

وجاءت دفعة أكبر سنا من الفتيات . وتزاحمن على الأستاذ . واندهشن عندما وجدن الطفلة الصغيرة على كتف الأستاذ .. وأشار إليهن أن يدخلن ..

وفجأة أمسكته الطفلة الصغيرة من أنفه ومن أذنه .. ثم خلعت الطاقية من فوق رأسه وقالت له : عاوزة أروح التواليت ..

وتطوعت إحدى الطالبات أن تساعدها . ولكن الأستاذ رفض . وأخذها إلى الداخل . وبعد لحظات عاد ضاحكا يقول : عفريتة .. والله حاولت أن أكون أبا أو أما أو خادما مطيعا .. طردتنى .. إنها المرة الأولى التى أتشرف فيها بمثل هذا العمل الجليل .. هاها .. هاها ..

ثم عاد يشرح ضاحكا : أدخلتها .. ووقفت لحظة أطمئن عليها .. فقالت : عيب .. أنت مالقيتش حد يربيك .. أما تكون واحدة فى التواليت لازم تقفل الباب ووشك فى الأرض .. هاها .. هاها ..

وتقدمت المدرسة تقول : يابنات .. يجب أن نتقدم بالشكر للأستاذ العظيم عباس .. عباس العقاد لأننا أخذنا منه وقتا كثيرا .. ولابد أن نعتذر لتلامذة الأستاذ عن هذه الفوضى والضوضاء .. ولكن الأستاذ قد عودنا كل سنة أن نجيء لزيارته .. وهذا كرم منه .. وهذا استغلال سيئ لهذا الكرم .. وإذا كان عند أية طالبة سؤال .. فلتتقدم به .. ولكن ليكن معلوما أن الأستاذ قد سئل عن الحب والزواج والطلاق والدين .. فإذا كانت لدى أية طالبة أسئلة أخرى فلتقلها بسرعة .. وإلا فنكتفى بصورة تذكارية مع الأستاذ ..

ثم جاءت الطفلة الصغيرة . وتقدمت ورفعها الأستاذ إلى صدره وأجلسها على ساقيه عندما قالت له : لقيت صرصار ..

وضحك الأستاذ وقال : إنه ذهب يبحث عن أمه ..

الطفلة : غلط .. الصرصار هو اللى ماما .. وكان وراءها صرصار صغير .. ومفيش عندك سيفون ..

قال : موجود .. ولكن لأنك صغيرة لم تستطيعى أن تصلى إليه بيدك ..

الطفلة : يبقى أنت ماعندكش أولاد صغيرين .. أمال كانوا حيشدوا السيفون إزاى ؟ . أنت بتضحك على ..

ووسط الضحك وشد شعرها وإمساك أذنها .. ودغدغتها ، كان الأستاذ سعيدا عالى الصوت كثير الحركة يقوم بها ويقعد ثم يضعها مرة على ساقيه ومرة على صدره .. وهددها بأن يضعها فوق رأسه وسألها إن كانت تستطيع ذلك فقالت : زى بتوع السيرك .. هوه أنت بتشتغل فى السيرك ؟ .

فقال الأستاذ ضاحكا ، ثم مقطبا وجهه واتجه إلى الفتيات وقد أصبح إنسانا آخر : أنت وجدت التعبير الصحيح .. إننى أشعر بذلك فى أحيان كثيرة .. وأشعر أن الذى أعمله يرهقنى ولكنه لا يضحك أحدا من الناس .. إنه يرهقنى لأنه مرهق بالفعل ، ولأننى أكرره يوما بعد يوم .. وأننى إذا كنت استطعت ذلك يوما ، فلأن عضلاتى كانت أكثر مرونة .. أما الآن فالعضلات قد تصلبت ، والريق قد جف ، وكذلك الماء الذى بينى وبين الناس أصبح جليدا .. فالمسافات قد ابتعدت ، وإن كانت النهاية قد اقتربت .. وأصبحت أقول كثيرا مثل الذى كانت تقوله الملكة فيكتوريا .. لقد عاشت هذه الملكة حياة جافة قاسية مضطربة محرومة .. فكان رئيس الوزراء يحاول أن يدخل السرور على نفسها فيأتى لها بمهرج يروى لها النكت ويتشقلب والحاشية تضحك ضحكا مكتوما لأنهم يرون الملكة لا تضحك .. وعندما يفرغ هذا البهلوان من أداء مهمته التى لم تؤد إلى إضحاك الملكة ، كانت الملكة تقول له : ولكننا لم نضحك ! وأنا أقولها الآن قبل أن يقولها الناس : إننا لم نعد نجد المتعة فى الحديث إلى الذين لا يفهمون ولا يحسنون تقدير العمل الأدبى أو الاجتهاد الفلسفى .. إننى أحس أن الدور الذى يقوم به الناس أصبح مملا . إن دورهم واحد هو دور الأعمى والأصم .. وأنا أقوم بدور الغلباوى أو الأراجوز . .

قالت طالبة : لو طلبت إليك يا أستاذ أن تصف هذا اللقاء معك ، وطلبت إليك أن تجعل ذلك الوصف فى كلمة واحدة فماذا تقول ؟ .

أجاب : شباب .

– وفى كلمتين ؟ .

– مرح الشباب ..

– وفى ثلاث كلمات ؟ ..

– بداية مرح الشباب .

وإذا قلت لك يا أستاذ اختر لك عروسا من بيننا ، فمن التى تختار ؟

– أختار التى تختارنى .

– وإذا لم تخترك واحدة منا ؟ .

– فإننى لا أختار واحدة .

– وإذا كان لابد ؟ ..

– اخترتك أنت ! .

– لماذا ؟

– عقابا لك ! .

طالبة : عندما تقول الملامح المصرية ، فما الذى تقصده أنت بذلك ؟ . إنك رأيت اليوم أربعين طالبة . هل يمكن أن تشرح لنا ماهى الملامح المصرية ؟ .

أجاب : لا توجد واحدة لها ملامح مصرية تماما .. البيضاء ليست مصرية والذهبية الشعر ليست مصرية وملونة العينين والطويلة .. وإذا طلبت من غير المصريات أن يخرجن من هذه الغرفة فلن تبقى واحدة .

– ولكن يبقى واحد .

– من ؟ .

– أنت يا أستاذ !

– ولا حتى أنا .. فأجدادى من أصل كردى .. من شمال العراق . . وقد هاجروا إلى أسوان فى أيام إبراهيم باشا .. وبعضهم كان يرتدى العمامة الخضراء .. فقد كانوا من الأشراف أى من بيت رسول الله .. وأول واحدة كانت تسبقنا إلى الخروج من هنا .. هى الآنسة اليهودية .. فرأسها كبير وشعرها أصفر مجعد وعيناها زرقاوان وشفتاها ممتلئتان ووجنتاها ناتئتان .. وأذناها بارزتان .. وكتفاها عريضتان .. وهى خلاصة عشرة شعوب على الأقل . ثم إن صوتها جميل ونطقها للغة العربية سليم وبديع أيضا .. وعيناها تنظران إلى محدثها مباشرة فى فهم وفى غير جرأة .. وهذه الشيطانة التى على كتفى ليس فيها شىء واحد مصرى .. فذكاؤها هو خبث الأنثى المبكر . . ربما كانت عيناها فرعونيتين تماما .. مثل عينى نفرتيتى .. وعيون الفتيات عازفات الناى المشهورة فى المتحف المصرى ..

طالبة : لقد تزوج طه حسين سيدة فرنسية . . فلو كان من الضرورى أن تتزوج فمن أى شعوب الأرض تختار زوجتك يا أستاذ ؟ .

قال : المرأة هى المرأة . . مهما تغير لسانها ومكانها . . فالذى يتزوج فإنه يتزوج امرأة . . أو يتزوج الأنثى أو حواء .. سواء كانت حواء تطابقها كلمة : إيفا . . أو إيفيتا أو إويفون . . إنها واحدة ! .

طالبة : إذا كان لابد أن تختار واحدة غير مصرية .. فمن التى تختارها ؟

قال : أختار ألمانية تعرف الإنجليزية لكى تساعدنى على فهم الفكر الألمانى .. وأساعدها على فهم الفكر العربى ..

طالبة : أسألك عن الزوجة وليس عن السكرتيرة ..

قال : إذن أنت تبشرين بتعدد الزوجات .. تريدين منى أن أتزوج واحدة ، فأوافق بصعوبة على

ذلك .. ثم إذا بك تقنعينني بأن تكون لى سكرتيرة أتزوجها أيضا .. هاها .. هاها ..

طالبة : أنت هربت من الإجابة يا أستاذ ..

قال : مع المرأة .. الهرب خير وسيلة للدفاع .. هاها ..

طالبة : إننى أنظم الشعر يا أستاذ ..

قال : أسمعينى شعرك ..

قالت : إننى أحب الليالى المظلمة ، ففى هذه الليالى تلمع النجوم .. أما الليالى المقمرة فلا يظهر فيها إلا الطرقات ، أما النجوم التى أحبها فتختفى .

قال : معنى طيب .. أسمعينى ..

قالت :

لا أوثر القمراء فى حسنها .

على الدجى ، والطرف فيه يحوم .

سناك يا بدر يرينى الثرى

وظلمة الليل ترينى النجوم !

وضحك الأستاذ وضحكت الطالبة وقالت : طبعا هذا شعرك أنت يا أستاذ ، إنما أردت أن أسمعك كيف أحفظ الشعر وكيف ألقيه على مسمع من صاحبه .. ولكنى أخجل أن أسمعك شعرى يا أستاذ .. إن جسمى كله يرتجف لمجرد أننى فى حضرتك .. أراك وأسمعك وأتحدث إليك ..

وسكتت الطالبة وقالت المدرسة : إنها أحسن طالبة فى المدرسة وهى رئيسة جماعة الشعر .. وهى تنظم القصائد الدينية وتؤلف الأغانى والفوازير .. لولا أنها تضايق أساتذة اللغة العربية .. وكانت لها فى الأسبوع الماضى خناقة .. ولا أعرف إن كانت قد أسفرت عن شىء ..

الطالبة : ليست خناقة يا أستاذ ، إنما اختلفت مع الأستاذ .. لقد كتب على السبورة أبياتا من الشعر يقول إن صاحبها قرر أن يتوب عن شرب الخمر .. وأنا أرى عكس ذلك .. والأبيات أمامنا .. بل إننى كدت أقول إنه يريد المزيد من الخمر .. أولعل الخمر التى يتحدث عنها هى الحب .. أو العشق .. أى أن الخمر لها معنى مجازى .. أورمزى ..

قال : وما هى الأبيات يا آنسة ؟ . .

الطالبة : يقول الشاعر المجهول :

عجبت لمن يقول ذكرت ربى

ومضى الأستاذ يكمل الأبيات :

فهل أنسى فأذكر ما نسيت ؟!

أموت إذا ذكرتك ثم أحيا
ولولا حسن ظنى ما حييت
فأحيا بالمنى وأموت شوقا
فكم أحيا عليك وكم أموت
شربت الحب كأسا بعد كأس
فما نفد الشراب ولا رويت

يا آنستى الحق معك .. إنه من الشعر الصوفى . . والخمر والكأس والشراب الذى لا يرويه هو حبه لله سبحانه وتعالى .. فهو يشرب خمر الصالحين ، ولا يرتوى ، ولا يريد أن يرتوى ، ويستحيل ذلك ! والحق معك ! .

المدرسة : يا صفاء .. وهل هذه هى الخناقة الوحيدة ؟ . . لقد تشاجرت أيضا مع مفتش اللغة العربية .. إنها عصبية جدا يا أستاذ وقد رفعت صوتها فطردها المفتش من الفصل ..

أما السبب فهو أنت يا أستاذ .. صفاء هى التى تقول لحضرتك .. قولى للأستاذ .

الطالبة : كان الحديث عن الشعر السياسى .. واختار المفتش قصيدة لك .. وقال إنها ألقيت أمام الملك فؤاد بعد خروجك من السجن .. وأنا قلت إن هذا غير معقول وغير صحيح .. وهو يقول إن السراى قد اشترت الأستاذ العقاد .. وأنا قلت إن هذه الأبيات قالها الأستاذ العقاد أمام ضريح سعد .. هل أذكرك ببعض ما قلت يا أستاذ ؟ . .

خرجت له أسعى وفى كل خطوة
دعاء يؤدى ، أو ولاء يؤكد
لأول من فك الخطى من قيودها
أوائل خطوى يوم لا يتقيد
وكنت جنين السجن تسعة أشهر
فها أنذا فى ساحة الخلد أولد
ففى كل يوم يولد المرء ذو الحجا
وفى كل يوم ذو الجهالة يلحد
وما أفقدتنى ظلمة السجن عزمة
فما كل ليل حين يغشاك مرقد
عداتى وصحبى لا اختلاف عليهم
سيعهدنى كل كما كان يعهد !

طالبة : هل ستدخل الجنة أو النار يا أستاذ ؟ .

قال : والله لا أعرف يا آنسة . ولكن إذا كان فى استطاعتك أن تتوسطى لنا ، أكون شاكرا ! هاها .. هاها ..

طالبة : أنت فى حاجة إلى واسطة لتدخل الجنة ، إذن فأنت ستدخل النار يا أستاذ ..

قال : الله سبحانه يقول : « وإن منكم إلا واردها » .

طالبة : لوكانت لك ابنة فبأى شىء تنصحها ؟ .

قال : لا أستطيع أن أنصحها .. ولا يصح أن تقبل منى النصيحة .. لأن الرجل الذى ينجب هو الرجل الذى تزوج .. والذى تزوج هو الرجل الذى لم يتعلم من مصائب الآخرين ، فلم يستمع لنصيحة أحد .. فكيف أنصح ابنتى وأنا لم أستمع إلى نصيحة أحد ؟ . كيف أطلب منها أن تتعلم منى ، وأنا لم أتعلم من أحد ؟ .

طالبة : أرجو أن توضح لنا ذلك يا أستاذ .

قال : الزواج غلطة . والزواج الذى يأتى بالأولاد غلطة أخرى .. وتربية الطفل وحضانته هى تكفير عن هذه الغلطة .. ألا تعرفين أن هناك أحكاما بالسجن مع الأشغال الشاقة ؟ . فالزواج هو السجن ، وتربية الأطفال هى الأشغال الشاقة ..

طالبة : إذن فكيف تصف الأبوة والأمومة ؟ . وكيف تفسر حنان الأب والأم على صغارهما ؟ . هل هذه السعادة الغريزية أشغال شاقة ؟ . هل الزواج هو الخطيئة الأولى ، وما جاء بعد ذلك هو الخطيئة الثانية والثالثة ؟ . هذه قضية عاطفية وأخلاقية وتربوية ودينية أيضا يا أستاذ .. وأنا لا أستطيع الآن أن أعود الى البيت .. فأنا جئت وصورتك تملأ الدنيا أمام عينى ، وتمثالك أحد أعمدة الحكمة .. ولا أعرف ما الذى أفعله وأنت تقوم يا أستاذ بتمزيق صورتك وهدم هذا المعبد فوق رءوسنا ؟ . إن أبى قد علمنى شيئين : أن أحترمه وأن أحبك .. فهو شاعر ، ويتلو القرآن ، وقد تعلم الهندسة فى أمريكا .. وهو يحسدنى لأننى جئت إليك .. وأنا أنتهز هذه الفرصة يا أستاذ لأستاذن فى حضوره إليك وأنا معه .. يوم الجمعة القادم يا أستاذ .. وأنا لا أريد أن أنفرد بكل الوقت اليوم .. فزميلاتى لديهن أسئلة كثيرة ..

قال : أحسنت التخلص من هذه المشكلة الكبرى ..

طالبة : هل أتزوج ابن عمى يا أستاذ ؟ .

ضحكت الطالبات والأستاذ ونحن أيضا ، ولكن المدرسة أسكتتها وطلبت إلى أخريات أن يوجهن أسئلة سريعة ، فالساعة قد قاربت الثانية مساء ، وقالت : هذا موعد غداء الأستاذ وموعد نومه .. وبعد ذلك موعد رياضة المشى فى شوارع مصر الجديدة .. إننا نراك كل يوم يا أستاذ .. ونحن

نضبط الساعة على مواعيدك .. فأنت فى الرابعة تماما تبدأ المشى ..

وتقدمت طالبة للأستاذ بعلبة صغيرة وهى تقول : هذا دواء جديد يا أستاذ للمصران الغليظ .. لقد بعث به والدى إليك .. وهو طبيب عاد أخيرا من لندن ..

وشكرها الأستاذ ، وبسرعة فتح العلبة ، وأخرج الورقة التى تتحدث عن تركيب الدواء وطريقة استعماله . ولم يستطع الأستاذ أن يقرأ بدون منظار .. فاتجه الى مكتبه . وعلى كتفه الطفلة الصغيرة ..

وتهامست الفتيات . واتفقن على سؤال واحد توجهه إحداهن .. وبعده ينصرفن جميعا . وقالت المدرسة : أريد أن أعرف السؤال .. يجب ألا يكون مكررا أو شخصيا .. عن أى شىء هذا السؤال ؟ . . قالت واحدة سوف أسأله : عن أحب الأطعمة لديه .

وقالت ثانية : سوف أطلب أن يرينى واحدة من بنات الأسرة ، لأرى كيف تكون فتاة شبيهة بالأستاذ .. يعنى لوكانت له بنت فكيف يكون شكلها ؟ . . وقالت ثالثة : سوف أطلب أن نجلس إليه هو وطه حسين فى وقت واحد ونراهما معا وهما يجيبان عن نفس الأسئلة .. إنها فكرة رائعة .. جنونية .. وقالت رابعة : أريد أن أسأله إن كانت للآنسة مى صورة فى هذا البيت .. أو ما هى الصور التى يحتفظ بها فى هذا البيت .. أو ما الذى يحب أن يراه عندما يصحو من نومه .. قالت طالبة خامسة : أريد أن أهدى إليه طقما للصالون أحسن من هذا .. وتضاحكت الفتيات وقلن : ليكون إعلانا عن ورشة والدك .. هاها .. هاها .. وقالت سادسة : أما أنا فسوف أحدثه فى موضوع خاص .. سوف أقول له إن خالتى تحبه جدا .. وهى أرملة وأصغر من الأستاذ بعشر سنوات وتتمنى أن تتزوجه .. والله العظيم إنها جادة فى ذلك .. إنها الآن تعيش مع أخيها السفير فى بلجيكا .. ولكن إذا وافق فسوف أبعث إليها ببرقية وسوف تحضر ومعها فستان الفرح .. والله العظيم ..

وجاء الأستاذ ضاحكا وفى يده الطفلة الصغيرة وقال : الآن لقد وقعت فى مطب لا أستطيع أن أخرج منه .. هذه الشيطانة تأكدت بنفسها من كل غرف البيت .. فلم تجد سريرا لطفل أولزوجة ..

المدرسة : لا أعرف كيف أشكرك ياأستاذ على سعة صدرك . ولم يبق غير سؤال واحد فى كلمة ونصف .. قولى أنت يادرية .. لا تريدين .. إذن فقولى أنت وبسرعة ..

الطفلة : دى أختى الكبيرة .. وماما مش بتحبها .. وبتقول لها أنت زى أبوك .

الأستاذ : وأنت تحبين أن تكونى مثل بابا أومثل ماما ؟.

الطفلة ، بعد تفكير وبعد أن أدارت وجهها إلى كل الطالبات ثم نظرت إلى أختها ، وقالت : لا . أحب أن أكون زيك أنت ..

وعانقها الأستاذ وقبل يديها ورأسها ..

ولكن الطفلة عادت تقول : بس بيتك وحش ! .

الأستاذ : لماذا ؟ ! .

الطفلة : علشان مليان أبواب .. ومفيش حتة ألعب فيها ..

المدرسة : السؤال ياأميرة .. بسرعة ..

طالبة : اتفقنا على سؤال واحد .. ولكن عندى سؤال آخر لا أعرف هل يصح أن أوجهه إليك .. ولكن أدبك وأبوتك لنا وحبك للمعرفة وتشجيعك هو الذى يغرينى بأن أسأل عن أى شىء ..

المدرسة : جرى إيه .. لقد اتفقنا على سؤال . لاداعى لإضاعة الوقت .. بسرعة ..

طالبة : رأيتك تمشى الآن يا أستاذ فوجدت أنك تحرك ذراعك اليمنى .. أما ذراعك اليسرى فلا تتحرك .. لماذا يا أستاذ ؟ هل لذلك علاقة برئتك اليسرى كما يقال .. أو بمصرانك الغليظ ؟. . إننى أرى بعض الفتيات يفعلن نفس الشىء ولكن لسبب آخر هو أننا نعلق شنطة اليد على الكتف اليسرى ولذلك نضع أذرعنا عليها .. أو نمسك الشنطة فى الذراع اليسرى وعادة لا نحرك هذه الذراع فاعتدنا على ذلك .. حتى مدرسة الألعاب الرياضية عندنا لديها هذه الصفة .. فما تفسيرك يا أستاذ ؟ . .

الأستاذ : كلام طيب يامولاتى .. لا يوجد سبب غير عادى لذلك .. فأنت تعرفين أننى أجلس إلى المكتب وأستند إلى ذراعى اليسرى ساعات طويلة .. أما اليمنى فهى التى تتحرك .. واليسرى هى تكأة لكل جسمى .. وقد مضت سنوات حتى اعتادت اليسرى ألاتتحرك .. وربما كان الوصف المناسب لذلك أنها عيوب المهنة .. أوتشوهات المهنة .. فللمهنة لها عيوب جسمية ولها عيوب فى السلوك .. فالحداد تجدين له ذراعا واحدة قوية .. وبائع العرقسوس يتراجع بظهره إلى الوراء .. والسقا الذى يحمل القربة على ظهره ينحنى إلى الأمام .. وراقصة الباليه تمشى منفرجة الساقين .. وهناك أيضا تشوهات فى السلوك : فالحلاق يجد نفسه ينظر إلى رءوس الناس .. والترزى ينظر إلى ملابسهم .. وصانع الأحذية يعرف أقدار الناس من نوعية الحذاء . . وكان الأديب الإنجليزى هـ . ج .ويلز يعمل فى أحد المحلات تحت الأرض .. ولم يكن يرى من النافذة التى على سطح الأرض سوى أحذية الناس .. وطبيب العيون ينظر إلى عيون الناس ونظاراتهم .. وهكذا .. قرأت قصة ألمانية تقول إن الملك قد عين جلادا جديدا .. فماكان من الجلاد إلا أن طلب من الملك أن يرى الشعب كله .. فوافق الملك .. فكان الجلاد يتحسس بيده أعناق الناس .. ليعرف إن كان سيجد صعوبة فى ضربها بخبطة واحدة .. ومن الغريب أن هذا الجلاد لم يتصور لحظة واحدة أن من الممكن ألا يحكم الملك على أحد بالإعدام .. ولكن مهنته أنسته مفهوم العدل والظلم .. وجعلته يتذكر شيئا واحدا هو : مدى صلابة أعناق المحكوم عليهم بالإعدام ..

وشكرا يا أستاذ .. شكرا يا أستاذ .

وخرجنا جميعا ، وكانت أسبقتنا إلى الخروج تلك الطفلة الصغيرة ، وحاول الأستاذ أن يصافحها .. أن يقبلها .. أن يلحق بها .. فلم يستطع .

وقال ضاحكا وهز رأسه ورفع يديه : إنها كالدنيا .. رائعة .. فاتنة .. عابرة . « قل متاع الدنيا قليل » صدق الله العظيم .

إحدى الليالي الطّويلة

لم أنم الليلة الماضية . ليس بسبب أن والدتى كانت مريضة فقط . ولكن لأنى كنت أيضا مريضا . ولم يكن مرضى جسميا . إنما كان نفسيا . ولم أفكر فى ذلك إلا بعد أن قرأت ديوان الشاعر الفرنسى بودلير « أزهار الشر » .. وإلا بعد أن قرأت « أقاصيص هوفمان » .. وبعد أن قرأت ديوان « أغانى الكوخ » للشاعر محمود حسن إسماعيل .. أما « أوراق الورد » لمصطفى صادق الرافعى فقد قلبت فيها كثيرا . وتعجبت له ، ولكننى لم أعجب به كثيراً . فهو يبذل جهدا هائلا فى تجميل تعبيراته . ويكون ذلك على حساب المعنى . فهو يسرف فى تزويق عرائسه ، ويضع الأصباغ والمساحيق والذهب والماس فى أصابعها وصدرها وأذنيها .. حتى تنشغل العين عن النظر إليها هى .. وهو لا شك فن صناعة الجوهرات.. ولكنه فى نفس الوقت فن دفن العرائس فى أجمل الأزياء ..ولذلك عدلت دور الازياء عن الاستعانة بعارضات جميلات حتى لا تشغل العين عن النظر إلى الفساتين فتحملق فى العارضات الفاتنات !

إننى لا أحب المعانى العارية . ولكن هناك أجساما كثيرة يبدو جمالها إذا تعرت . واجساما تزداد جمالاً إذا ارتدت ملابسها .. ولكنى لا أرى مصطفى صادق الرافعى مريضا . إنما أراه مرهقا — بفتح الهاء وكسرها أيضا . أما ديوان شعر بودلير فهو الذى أوجعنى فى أماكن كثيرة من نفسى .. إنه ليس شعرا ، إنما هو نوع من الكيمياء ، يدخل الأذن فيدير فيها الأسطوانات والأغانى والصرخات والضحك القليل والعويل الكثير . ولابد أن يتساءل القارئ : من هو الذى مات ؟ ولماذا ؟ وما الذى نفعله نحن ؟ أما المعانى فمخيفة ، أما الموسيقى فحزينة ، أما الضحية فهو القارئ . أما القاتل فهو الشاعر .. ولكن لماذا ؟ ..

فى الشعر وفى الرسم وفى الموسيقى وفى الدين : لا تسأل كثيرا عن الأسباب .. إنما المطلوب هو أن تؤمن أو لا تؤمن . أن تحب ما تراه أو لا تحبه .. أن تسعد بما تسمعه أو لاتسعد .. وقد تكون اللوحات كلها من اللون الأسود القاتم والأسود الرمادى والأسود الضبابى والأسود الخيالى . ومع ذلك فأنت سعيد بالجمال الذى تراه . وكثير من الشعراء الرومانسيين كانوا يذهبون إلى الجنازات وإلى زيارة القبور . فقد كانوا يرون المرأة إذا ارتدت السواد ازدانت وازدادت جمالا .. وبودلير يقول : لم تكن هى فى

حاجة إلى ألوان أخرى : فالزرقة الصافية : عيناها .. والنبيذ : شفتاها .. والتفاح : نهداها .. والعاج والنور والأمل : أسنانها وأصابعها وساقاها . وقد أكسبها الموت شاعرية نحسدها عليها ! ..

وجان جاك روسو فى اعترافاته يصف سيدة ماتت ، فيقول : لم تكن عندى إلا أمنية مجنونة واحدة ، وهى أن أدفن معها فى كفن واحد .. وفى مقبرة واحدة .. ونتلاشى معا تحت الأرض ! ..

وقد تكون لوحة صارخة الألوان .. فقط صارخة ولا شىء بعد ذلك . تماما كما يناديك إنسان بأعلى صوته . ثم لا يكون لديه ما يعادل هذا الصراخ . إنه إنسان قوى الحنجرة واسع الصدر ، وجد رغبة فى أن يصرخ فصرخ . ولكن لا شىء بعد ذلك . واللوحات الصارخة الألوان تشبه « المومسات » كل شىء فيها يناديك .. وهذا سبب مبالغة الغانيات المومسات فى كل ألوانهن : فعيناها تدعوانك بلا خجل . وأصباغها تدلك عليها ، ثم أثوابها العارية إن لم تكن دعوة فهى بضاعة معروضة فى الطريق . والغانية تفسد متعة الإنسان الذى يريد أن يعرف وأن يستكشف ، ولكن لأنها « مبذولة » الألوان والأثواب والمعانى ، كانت رخيصة .. لاسر وراءها .. ولا شىء يغريك بأن تغامر وتحاول .. لتفوز بها فى النهاية .. وكذلك مثل هذه اللوحات الدموية الألوان الجريئة الخطوط . وقد وصفها فيلسوف فرنسا ووزير ثقافتها أندريه مالرو بأنها : هتك عرض فى الطريق العام ! ..

ولما قلبت طويلا فى أقاصيص هوفمان كان الليل ميتا حولى . فقد كان البيت الذى أسكنه مغلق النوافذ والأبواب . ولم أحاول أن أفتحها . ولا أعرف لذلك سببا ، ربما لأن فتح النوافذ والأبواب يجعلنى أبدو أو أظهر أو يرانى أحد .. ولم أناقش نفسى مرة واحدة : وماذا لو ظهرت فى النافذة أو فى البلكونة ؟ . . إن صورتك منشورة فى الصحف والمجلات .. ما الذى يخيفك أن يقوله الناس ؟ .. أنك تسكن فى هذا المكان ؟ .. كثيرون يعرفون ذلك .. هل سبب ذلك أنك تريد أن تبدو بعيدا حتى لا يراك الناس بوضوح ؟ .. وماذا لو رأوك بوضوح ؟ .. ماذا سيقولون ؟ .. أنك أكبر أو أصغر مما تبدو فى الصحف ؟ . . وماذا فى ذلك ؟ ! إن الأستاذ نراه ونناقشه ونختلف معه .. ولم يحدث أن نظرنا إلى ملابسه أو إلى أصابع قدميه التى تخرج من الشبشب .. ولا حتى إلى أسنانه التى بدأت تتآكل .. ولا إلى الصابون الذى كثيرا ما بدا جافا حول أذنيه . . وإلى الجروح التى تسببها أمواس الحلاقة . . ولا نعرف إن كانت هذه الجروح سببها أن الأستاذ يستخدم أمواسا قديمة أو يستخدمها بسرعة .. وما الذى يجعله يستعجل فى ذلك . . أو حتى ما الذى يجعله يحلق لحيته نهائيا .. ورأينا الأستاذ قائما وجالسا .. ورأينا الأستاذ ذاهبا إلى التليفون وخارجا من الصالون . فيبدو بنطلون البيجاما مكسرا وأحيانا مبقعا . ولا نتساءل : لماذا ؟ فنحن نجد له عذرا . ومعنى ذلك أننا لا نرى فيه عيبا . وإذا كان هناك عيب ، فعظمته تغطى على كل العيوب .. بل إننا نضحك كثيرا ونقول : إن عيوب الأستاذ مثل « البقع الشمسية » .. مهما كانت هذه البقع ، فإن الشمس أعظم وأروع . .

وهذه البقع الشمسية فى حياة الاستاذ ، ليس لها أساس . إنما هم النقاد الذين ينظرون إليه وإليها .. فهم لا يرون إلا أنفسهم . . إلا عيوبهم . . إلا أحقادهم ! .

ومع ذلك فلا أظن أننى فتحت النافذة أو البلكونة .. وكثيرا ما أحس أن بيتى هذا ليس فوق الأرض إنما هو تحتها . وليس تحتها إنما هو قلب الأرض .. والقلب شديد الظلام : ويتفجر بالدم .. ولكن ظلام القلب هو مصدر النور والحب والبهجة فى هذه الحياة ، والدم الذى يدفعه القلب هو مصدر الرحمة والحنان ..

وفى الليل وفى الهدوء وفى الوحدة أشعر كأننى جنين فى بطن الكون .. وأن الكون يمد لى ثديا لا يجف من القلق والخوف واليأس والكفر بأشياء كثيرة ..

ولم أكن عابثا عندما قلت للأستاذ يوما : من أين يأتى النور يا أستاذ ؟

قال : من النجوم يامولانا ..

قلت : وإذا كان هذا النور فى عقلى وفى قلبى .. فمن أين يدخلنى النور يا أستاذ ؟ . .

قال : من النجوم يامولانا ..

قلت : أى نجوم هذه ياأستاذ ؟ . .

قال : الإيمان بأن شيئا : حق وصدق وخير وجمال ..

قلت : وكيف رآه طه حسين يا أستاذ ؟ . .

قال : إنه نور لا تراه العين يا مولانا ..

قلت : أليس يمكن يا أستاذ أن نقول إن هناك رؤية وهناك رؤيا .. وإن الذى تراه العين هو الرؤية ، والذى نراه بغير عين هو الرؤيا .. وإن الهداية الحقة هى أن نرى بالعين ما لا تراه العين . أى أن نرى النور الصادق الحق الجميل الخير فى أعماقنا بوضوح كأننا نراه بالعين .. فهل الحب كذلك يا أستاذ ؟ .

قال : كلام طيب يامولانا الذى قلته .. لولا أنك أتيت بالحب فى نهاية كلامك . فالحب لا يرى يامولانا . الحب له عينان ولكنه لا يرى . والحب له أذنان ولكنه لا يسمع . والحب له عقل ولكنه لا يفكر. بل إن الحب له قلب ، حتى هذا القلب لا ينفعل ولا يدق ..

قلت : لم أفهم يا أستاذ ..

قال : يا مولانا أنت تتحدث عن المعانى الصوفية فى أعلى صورها .. فإذا شئت أن تتحدث عن الحب ، فلابد أن يكون ذلك هو حب الله .. وليس حب عباد الله .. فأنت عندما تحب الله ، فليست بينك وبينه مسافة . فأنت لست فى حاجة إلى ذراع تمدها ، أو شفة تفتحها ، أو عقل تدرك به ، أو قلب يخفق لكل ذلك . إنما أنت تجد نفسك وجسمك وحياتك وقوتك قد ارتطمت بشىء

كبير. ثم تهشمت وتحطمت وانسحقت ولم تعد شيئا .. وحين تنعدم تماما ، فأنت قد « أعدمت » نفسك ، لكي توجدها فى شىء آخر .. وأنت لا ترى لأن نور الله باهر ، وأنت لا تسمع لأن صوت الله قد دخل أذنك فملأها وملكها أيضا .. أما الذى يحب عباد الله فهو الذى يرى بعينيه ويسمع بأذنيه ، ولابد أن تمتد منه أطراف كثيرة لتصل إلى المحبوب ..

قلت : فإذا لم يكن كل ذلك يا أستاذ ؟ . . وإذا كان الذى أراه يشبه نور السماء قبل الشروق وبعد الغروب .. أو يشبه الضياء الذى ينفذ من السحاب الكثيف ، وأراها جميعا من وراء منظار طبي غليظ قد تغطى بالتراب .. فما الذى أفعله لكى أرى أوضح .. أرانى أوضح .. أو أكون أوضح ؟ . .

ويومها سكت الأستاذ كأنه حزين على ما أصابنى ، أو على ما أصابه هو ، وتلفت إلى زملائى إن كانوا جميعا مثلى ، فقال واحد : هو وحده كذلك يا أستاذ .. ونحن نطلق عليه اسم القرن التاسع عشر.. أو الثامن عشر.. عصر الرومانسية المريضة .. عصر الأدباء خريجى المستشفيات العقلية .. عصر الشعراء خريجى المستشفيات الصدرية . عصر النساء خريجات بيوت الدعارة .. عصر الفنانين البلطجية الذين يعيشون عالة على الملوك والأمراء .. عصر السفاحين من النقاد الذين يجدون متعة فى ذبح الشعراء والفنانين وملايين العمال والفلاحين .. وعصر تجار المخدرات والمدمنين للغيبيات الفلسفية والدينية والمغيبات الجنسية . . عصر الزهرى والسيلان والتشوهات الخلقية والإجهاض .. عصر البراغيث والقمل والتيفوس والطاعون .. عصر العفاريت التى اسمها الحرية الفردية والإنسان سيد الأكوان . والجنة تحت أقدام الأمهات .. ومن المضحك أن هذه العبارة قد آمن بها كل اللقطاء الذين لم يعرف لهم التاريخ أبا ولا أما . . فأمهات القرن التاسع عشر هن الفلسفة المثالية الألمانية والرومانسية الفرنسية وحرب التحرير الأمريكية والثورة الصناعية البريطانية والوحدة الوطنية الإيطالية .. وعصر الأرض التى هى مركز المجموعة الشمسية التى هى مركز الكون أيضا . فالأرض تتوسط الكون مثل الماسة الشهيرة « كوهينور » التى تتوسط التاج البريطانى ..

وقد تضايق الأستاذ من هذه الإهانة والإدانة المنظومة فى عقد ملعون والتى أدانت الأستاذ أيضا . وكأنه يعرف كل ذلك . وكأنه قد أداره فى رأسه وأدانه هو أيضا مرات كثيرة . فأحسسنا كأن هذا الطعام قديم ، وكأنه استفزاز بلغ درجة التطاول على الأستاذ .. أوكأنه نوع من زواج الوقاحة والصراحة فى عبارة واحدة ..

ثم نظر الأستاذ إلى بقية الزملاء ، فقفز واحد آخر يقول : يا أستاذ لا يصح أن نتهجم هكذا على الواقع .. ولا أن نذهب فى تبسيط المسائل إلى درجة تشويهها .. فليكن الذى سمعناه صحيحا . فواجبنا بعد ذلك أن نفهم لماذا .. وأن نفسر وأن نبرر . ليكن أى إنسان مريضا أو مجنونا .. أو أنه يجد لذة فى ذلك ..إنه لشىء مضحك حقا أن يجىء فى القرن العشرين واحد يرى أن نتهجم على المريض

فنضربه بالعصا على سبيل العلاج . . لأن المرض معناه أن أرواحا شريرة قد سكنت المريض .. ولابد من طرد هذه الأرواح بالضرب . . تماما كما يحدث في حفلات الزار . . فالزار ليس إلا ضربا للمريض بعنف . . ويكون هو الضارب والمضروب .. ولكن إذا صح هذا فى حفلات الزار ، فلا يصح فى ندوات الفكر والتأمل والتصوف . . إن زميلنا هذا قد أهاننا جميعا ، ولكنه أهان نفسه . فهو يتظاهر بالعقل والمنطق .. ولكن الذى قاله لنا الآن : إهانة لنا وإدانة له . . فقد ظهر أمامنا متعصبا مريضا .. لأنه لا يطيق أن يجد أحدا يخالفه . وهو فى نفس الوقت قد فتح المستشفيات الجسمية والعقلية وبيوت الدعارة على أوسع أبوابها : فقط ليدخلها ويخرج منها كل من ليس ماركسيا مثله .. إنه رفض أن يدخل المستشفى ، ولا يدل على أنه سليم .. إنما يدل على أنه يرفض أن يكون هناك مرض ، وأن يكون هناك داء ودواء .. وإذا لم يكن ذلك مرضا جديدا ، فلا أعرف ماذا يكون ..

فى ذلك اليوم تحدث الأستاذ كثيرا وطويلا . وكدت أصدق أن الأستاذ هو الآخر مازال يعانى . وأن الذى يعانى منه هو أن الضوء فى طريقه ليس كافيا . وأنه مايزال فى حاجة إلى مزيد من المصابيح لكى يرى .. وفى حاجة إلى أن يفتح عينيه أكثر ليرى أشمل . . وأننا معا على طريق واحد . . هو يتقدمنى كثيرا ، ولكنى وراءه .. قد يبدو الأستاذ أوسع خطوة وأطول قامة .. ولكننى أمشى إلى جواره وأحيانا أتقدم عليه .. وأحيانا أتوقف .. ولكننا نمشى فى طريق واحد .. ثم إن هذه الطلقات النارية التى نسمعها تصدر من مدافع واحدة .. هذه المدافع هى بطاريات المذاهب السياسية والفلسفية والدينية المعادية لنا .. ومن هنا اكتسبت الفلسفة طعم المعارك ، واندفاع المغامرة ، وصداع القلق ، ومرارة اليأس من الراحة والخلاص من كل شىء ..

وعندما أخذت أقلب فى « أقاصيص هوفمان » ذلك الأديب الألمانى الحشاش الذى راح يتخيل عالما من صنعه ، فهو ينتقل من الدنيا إلى الآخرة ، ومن الفقر إلى الغنى ، بمجرد أن يضع قناعا على وجهه . . أو بمجرد أن يضغط بإصبعه على أذنه . . والحقيقة أن هوفمان وبودلير معا قد جربا طعم الحشيش والأفيون . . ومن بعدهما جربه الأديب جوليان هكسلى . . ومن بعدهما اكتشف أمير الشعراء الانجليز روبرت جريفز أن كل أساطير الإغريق ليست إلا خيالا لمجموعة من الحشاشين . . وأن الإغريق قد تعاطوا أوراق اللوتس . . وأن عصير هذه الأوراق هو الذى صنع المتحف الخالد للآلهة والأبطال ..

هل استغرقتنى هذه القصص ؟ أعتقد أننى فى أحيان كثيرة تمنيت لو أن عندى هذه القدرة .. فأرتاد مستشفيات العالم كله لعلى آتى لأبى وأمى بأعظم الأطباء .. وأسرع دواء . وكم صحوت من النوم أشعر بالبرودة ، فقد كنت أرى فى الحلم أننى دخلت إحدى خزائن البنك الأهلى وحملت

ما أستطيع من الفلوس ، وفجأة أغلق باب الخزانة الحديدى البارد .. فأصحو بسبب ذلك .. أى بسبب أن الباب الحديدى قد أغلق على إصبعى ، وبسبب أن الخزانة باردة .. وأن هذا الكابوس بسبب أننى اشتريت زجاجة من الدواء لوالدتى .. وأننى ظللت أجرى طول الطريق .. وتساقطت فى إحدى الحفر . وتحطمت الزجاجة . وليسامحنى الله . فقد كنت حسن النية . فخلعت حذائى وصببت بقية الزجاجة فيه . وعدت إلى البيت حافيا . صحيح أننى قرأت بعد ذلك وسألت كثيرا ماذا يحدث للدواء الرثة إذا التصق به تراب الأرض ورائحة الجلد ؟ وأكد لى الأطباء أنه لا ضرر من ذلك .. وكان ذلك فى إحدى ليالى الشتاء . ولا أعرف إن كنت فى ذلك اليوم قد أصبيت احدى ساق بالروماتيزم . وأنها ما تزال توجعنى حتى هذا اليوم . فإن كان ذلك عقابى ، فأنا راض به . ولكنى كنت خالص النية ، وكنت أحب أمى حتى الموت – أى حتى موتها وحتى موتى ..

كان ليلى طويلا . . ساعاته لا عدد لها .. وكان عريضا فقد كنت أتحرك على السرير .. وأنزل من السرير وأتقلب على الأرض .. ثم أصعد فوق السطوح وأجلس .. وأتلفت يمينا وشمالا فلا أجد أحداً فأتراخى وأتمدد على السطح .. وعندما أتذكر القطط والكلاب وبنات آوى وهى تقفز من الأسطح المجاورة أهبط السلم إلى أرضية الغرفة إلى السرير.. وإلى الجلوس فيه وانتظار طلوع الشمس ..

أما الذى كتبته فى تلك الليلة فشىء كثير . فقد قررت ، فيما بينى وبين نفسى وبعيدا عن زملائى ، أن أقدم للأستاذ صورة لأعماق .. إنه لا يعرفنى جيدا . هذا إحساسى . فالأستاذ لا يعرف إلا أننى واحد من كثيرين ، أقرأ وأناقش وأفكر وأعود إليه .. واحد ضمن آخرين .. شاب حائر بين المذاهب الفلسفية والدينية والسياسية .. ومن أحلامه أن يتفرغ للعلم .. فقط للعلم . ولكنه لا يستطيع ، ويبدو أنه لن يستطيع .. وقد حاولت ذلك فى بيت أحد أصدقائى بالمنصورة . فهو من أسرة عريقة . وعندهم قصر كبير . وقد أقنعته أو أننا اقتنعنا معا بأن نعيش فى غرفتين فوق السطوح : نقرأ ونتأمل .. ثم نلتقى بعد الغداء نتمشى . أو نختفى تماما فوق السطوح ، وقد حملنا طعامنا وشرابنا .. هو يقرأ فى التاريخ المصرى والإنسانى ، وأنا أقرأ فى الفلسفة .. ووافق صديقى على ذلك . وحملت متاعى القليل وكتبى الكثيرة ، وأخبرت والدتى أننى مسافر إلى القاهرة ، ووافقت والدتى . ودعت لى بالخير . ولم تشأ أن تقول لى إنها مريضة . وإنها تخشى أن يداهمها المرض فلا تجد أحدا يعالجها . . وكنت قد عملت حسابى لذلك : بأن ألتقى بإخوتى سرا وأسألهم عن صحة والدتى .. ولم يمض سوى يومين اثنين . وفجأة وجدت من يدق الباب ، فأفتح له فيقول لى : سعادة الباشا يريدك .

والباشا هو والد صديقى . وارتديت ملابسى ولكن الخادم الذى جاء ينادينى دخل الغرفة وراح يجمع أمتعتى وكتبى .

وقال لى الباشا : اسمع يا ابنى أنت شاب طيب . وأنت جاد . وأنا أعرف عنك ذلك . ولكن ابنى

قد خدعك . وهو ولد سافل . لم أفلح فى تربيته أنا وأمه . . وقد أوهمنا أن الفتيات اللاتى يصعدن إليه ، إنما يجئن لك أنت .. وأنك أنت الذى خدعته . . إنه كاذب . أنا أعرف ذلك يا ابنى .. وأنا أخاف عليك ..

ولا أعرف ما الذى قاله الباشا بعد ذلك .. ولكن عندما رأيت ملابسى وكتبى مع الخادم . لم أكن فى حاجة إلى أن أتكلم . وفشلت تجربة « الرهبانية العلمية » و « الصومعة الفلسفية » و« العزلة المقدسة » . . و« النرفانا » — أى حالة عدم الشعور بالدنيا عند قمة جبال الهملايا أو الألب .. أو جبال الأوليمبيا التى سكنتها آلهة الإغريق ..

وسجلت هذه المعانى فى قصيدة .. ليست من الشعر الجيد .. وفى قصة قصيرة .. وفى مسرحية من فصل واحد .. وظللت طول الليل أكتب وأعيد كتابة ذلك كله .. وأملى الوحيد : هو أن يسمع الأستاذ هذا الإنتاج الأدبى ويقول رأيه .. وتمنيت لوكتب الأستاذ تقديره ، أيا كان ، لهذه الأعمال الأدبية .. التى وجدت أنها « أوراق اعتماد » أتقدم بها فى عالم الفلسفة والأدب ..

ولم أكن خائفا من حكم الأستاذ على هذه الأعمال الأدبية المبكرة . لأننى أعرف مقدما أنها ليست أحسن ما عندى . ولم يكن عندى شىء كثير . ولكن كنت على يقين أننى سوف أكتب ما هو أفضل وأجمل وأعمق .. وأن الأستاذ سوف يقول كلاما مشجعا .. وترددت فيما بينى وبين نفسى .. هل أقول : أنقذنى بأقسى ما تستطيع يا أستاذ ؟ . .

ولكنى لا أعتقد أنه سوف يفعل ذلك . إنما هو سوف ينقد قليلا ويشجع كثيرا : إنها الأستاذية والأبوة ..

* * *

وذهبت فى الثامنة صباحا . ووجدت الباب مفتوحا . وضربت يدى فى باب الصالون . ثم زحزحت مقعدا وكذلك المنضدة . وجاء صوت الأستاذ من الداخل : يا إبراهيم .. أمازال هناك ؟ .. ألم أقل لك اشتر صحف الصباح والمجلات ؟ ..

ورددت عليه قائلا : أنا ياأستاذ .. يبدو أن إبراهيم قد نزل وترك الباب مفتوحا ..

وجاء صوت الأستاذ : أهلا يا مولانا .. سوف آتيك حالا .. استرح ..

ومشيت على أطراف أصابعى . وأغلقت باب الشقة ، حتى إذا جاء أحد من الزملاء مبكرا مثلى ، ووجده مغلقا فسوف يعود ليقف أمام الباب الخارجى ..

وسمعت الأستاذ قادما . وكان من عادته أن يزحف بالشبشب على الأرض .. لا أعرف إن كان سبب ذلك أنه لا يقوى على ثنى ركبتيه . ولذلك فهو يمشى مفرود الساقين .. ربما كان ذلك ، فقد لاحظت فى مرات سابقة أن الأستاذ يقوم بتدليك ركبتيه كثيرا أثناء الجلوس ..

قال الأستاذ ضاحكا : أهلا يا مولانا .. إن قول الشاعر ينطبق على تماما هذه الليلة .. فأنا لم أنم .. والشاعر يقول :

لم يطل ليلى ولكن لم أنم
ما أطول الليل على من لم ينم !

ثم سكت ونظر بعينيه النافذتين إلى وجهى . ورأى فى عينى ما رأيته فى عينيه : وأنت يا مولانا لم تنم .

قلت : بلى يا أستاذ .

قال : ماذا أصابك ؟

قلت : بعض ما أصابك هو بعض ما أصابنى .

قال : أما الذى أصابنى فأعرفه ، أما الذى أصابك فما هو؟ . .

قلت : أمى مريضة يا أستاذ .

قال : شفاها الله . ماذا بها ؟ ..

قلت : بها الكثير يا أستاذ ..

قال : والذى بك أكثر.. فما حاجة الناس أمثالك إلى أبناء ، إذا كانت أمهاتهم مصدرا لعذابهم . . لقد نصحت إحدى الأمهات مرة أن تكف عن الإتيان بالأطفال . وكانت حجتها : أنها أم قبل أى شيء آخر . وهى على حق فى ذلك . ثم قالت : ولابد أن أنجب أطفالا لأعرف كيف تعذبت أمى . فيزداد امتنانى لها . . فقلت : هنا أختلف معك . . لأنك لا تنجبين أطفالا لكى تعرفى عذاب أمك وفضلها عليك . إنما أنت تنجبين أطفالا لأنه لا حيلة لك فى ذلك . هذه ضرورة حيوية . ولأنك تريدين ذلك . ولأن غريزة البقاء كما يقول الفيلسوف شوبنهور تقوم بتسخير الإنسان والحيوان إلى أن يمد فى الحياة .. فالحياة هى التى تستدرج الأحياء ليضاعفوا عدد الأحياء أيضا .. وسوف يؤدى أطفالك إلى انشغالك بهم عن كل الناس وكل شىء ، وعن أعز الناس لديك : أمك وأبيك .. ثم هناك مشكلة سوف تعرفينها : أن أمك تراك طفلة أبدية ، مهما تقدمت سنك ومهما زاد عدد أطفالك .. وهى تعاملك هكذا .. وتنتظر منك الحب والطاعة .. ولكنك تشعرين أنك كبرت وأنك أصبحت أما ، وأن دور أمك قد انتهى ولاحق لها عليك أو عندك .. وأنه إذا كنت فى يوم من الأيام تعتمدين على أمك ، فهناك أطفال يعتمدون عليك ولم تعودى فى حاجة إلى أمك .. وهذا هو صراع الأجيال .. وهذه الأجيال يتولد بعضها من بعض ويقضى بعضها على بعض .. وأحسن مثال لذلك ماقاله قبل مائتى سنة الفيلسوف الألمانى هيجل وسرقه الماركسيون منه : نحن نضع البذرة فى الأرض .. ومن البذرة تخرج النبتة .. وخروج النبتة يلغى البذرة شكلا ودورا . . ومن النبتة تتولد

الشجيرة ومن الشجيرة تتولد الشجرة . . وكل مرحلة تعتمد على المرحلة السابقة وتعارضها وتلغيها وهكذا . . فالأجيال يتوالد من بعضها البعض ، وتعارضها وتناقضها وتقضى عليها . . فالأمومة تلغى الأمومة السابقة . . فالزوجة التى تنجب طفلة أصبحت أما ، ولم تعد ابنة لأم أخرى .. وسوف تكون الطفلة أما . . وهكذا ..

أما المغالطة الأبدية عند الرجل والمرأة فهى أن يتصور كل واحد أنه سوف يكون مختلفا عن كل الناس فى حبه وفى زواجه وفى أبوته وفى بنوّته .. ولذلك يقبل الناس على الحب وعلى الزواج . . ولكنهم يكتشفون عادة أنهم مثل كل الناس : خادعون ومخدوعون ، أبناء وآباء .. ولكن مثلك يا مولانا ، وقد امتلأ بالفلسفة وخفق قلبه بالقلق ، وانتفض عقله بالحيرة . . سوف يكون أتعس الآباء ، لأنه أتعس الأبناء . . فلن ينسى ما حدث وما يحدث . ولن يقع فى الوهم الأبدى بأنه سوف يكون قادرا حيث عجز الناس ، ويكون طبيبا حيث مرض الناس ، وتكون سعادته تحديا لكل قوانين المجتمع والأخلاق والدين والتاريخ .. إن المؤرخ عبد الرحمن الجبرتى يحدثنا أنه فى أيام الثورة على نابليون توهم المواطنون أنهم إذا غسلوا وجوههم وملابسهم وأحسنوا الوقوف بين يدى نابليون ، ففى استطاعتهم أن يخرجوه بخيوله من مصر . وكانوا على نفس الدرجة من الوهم . فذهبوا إليه . ولقوا نفس النتيجة من الرفض والطرد .. بل إن نابليون فى مذكراته قد أدرك هذا المعنى ، فحكى أن أحد شيوخ الأزهر قد ذهب إليه وطلب أن ينفرد به هو والمترجم ، وراح يرتل على مسامع نابليون آيات من الأناجيل ، فسأله نابليون : هل جئت لتعدل عن إسلامك إلى المسيحية ؟ . ففزع الشيخ قائلا : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . وسأله نابليون بذكاء شديد : إذا كانت هذه الآيات لم تقنعك ، فكيف جئت تقنعنى بها ؟ . فقال له الشيخ الطيب : إنما قالوا أيها القائد العظيم إنك تحب من يخالفك الرأى . وتحب من يجادلك . فجئت إليك أجرب مالم يجربه أحد . وكنت على يقين من إقناعك .. وسأله نابليون : ومن أين جاءك هذا اليقين ، وأنت لم تعرفنى ؟ قال الشيخ الطيب : لقد فعلت ذلك كثيرا . وسأله نابليون : هل فى مصر أوفى العالم أكثر من نابليون ؟ وخرج الأزهرى الوطنى المخلص قائلا هذه العبارة الحكيمة : فى السياسة كما فى الزواج ؛ كل واحد يتصور أنه أقوى الرجال . ولكن أقوى الرجال وأغناهم لم يفلح فى أن يقنع امرأة القاضى عبد الجبار حسنين ، ألا تتزوج الخادم الذى كان يسحب حصانه فى حوارى القاهرة ! ..

ثم سكت الأستاذ ليقول : إنه نفس الشىء يامولانا ..

ثم توقف عن الكلام تماما . وسحب الطاقية إلى الأمام ، وتلفت يمينا وشمالا كأنه يبحث عن أحد غيرنا فى الغرفة . ثم أيقن أنه لا أحد سوانا . وقال : إذن فأنت يا مولانا امتداد لوالدتك .. هى تمرض وأنت تقول آه .. هى تقول : آه وأنت تبكى .. هى تبكى وأنت تتفلسف .. هى تقترب من الموت

وأنت تتعلق بنعشها .. وقد تموت هى يا مولانا ، فتأبى إلا أن يكون قبرها قلبك .. الآن فهمت من أين كل هذا الحزن العميق فى أفكارك .. وفيا تكتبه أيضا .. ومنذ أيام قرأت ما تقوله عن وفاة واحد من أصدقائك .. وأنت لم تشأ أن تنعى الصديق .. إنما أنت نعيت الصداقة .. نعيت نفسك إلى الناس .. ألا ترى أن هذا الموقف يجعلك تراجع بعض أفكارك فى الفلسفة الوجودية ؟ . . فأنت تقول فى مقالك الذى نشر أخيرا فى « روزاليوسف » إن الموت شخصى .. وهذا صحيح . فكل شخص يموت . ولا أحد يموت لأحد .. أى أن موت الأم ليس فداء للابن .. وإن كانت الديانة المسيحية وكثير من الديانات القديمة ، ترى أن المسيح تعذب فداء للبشرية .. ولكن البشرية تعذبت ولاتزال .. بل إن البشرية قد عاشت تتعذب ، لأن العذاب إنسانى ، سواء كان الناس يدينون بالمسيح أو يدينونه .. ولكن الموت ليس شخصيا يا مولانا كما تقول .. فأنت الآن تتعذب لأمك وبسببها مع أنها لم تمت . فإذا ماتت ، فسوف تقيم لها جنازة يشاركك فيها الناس . . وبعد أن تنتهى الجنازة سوف تجد نفسك تمشى وحيدا فى جنازتها . . ثم تقيم الجنازة فى أعماقك . . صحيح أنها انخفضت شخصيا ، ولكن هذا ما يراه أو ما لا يراه الناس .. ولكن موتها قد جعل الموت يزحف على حياتك . . أو يزحف ليكون حيًّا فى تفكيرك . . فالموت مثل ظاهرة المد والجزر . . إذا ارتفع دفع الأشياء إلى الشاطئ ، وإذا انخفض سحبها معه ..

وسكت الأستاذ لأقول : لقد حدث ذلك فعلا يا أستاذ . . لقد أدخلت تعديلا على هذا المعنى . . من واقع تجربتى . . هل أقرأ لك ما كتبت يا أستاذ ؟ . . فقد جئت أعرض عليك بعض نفسى . . أو لعلى جئت أتعرض أمامك يا أستاذ ..

وأخرجت ورقة من جيبى .. ونحيت القصيدة وطويت المسرحية الصغيرة .. وأمسكت ورقة وقلت : ليست طويلة يا أستاذ .. إنما هى مشروع مقال أو بحث فلسفى .. فإن كان الإرهاق واضحا ، فسبب ذلك أننى كتبتها فى حالة من الضلال الوجدانى والتيه العقلى .. وإذا كانت الحروف غير واضحة ، فقد توهمت أن الليل جدار كثيف ، فأسندت الورقة إليه ورحت أكتب .. وإذا كان المعنى ليس واضحا ، فقد كانت أصابعى ترتجف وأفكارى أيضا .. فقد كنت مثل الذى يمسك كوبا ويمشى به فوق ظهر سفينة فى بحر هائج .. لقد حاولت أن أكون متزنا ، وقد أعيانى ذلك .. ولكنى حاولت .. وأنا لا أريد يا أستاذ أن أتقدم بالأعذار لعلك تخفف الحكم على هذا العمل الأدبى .. ولكنها الحقيقة .. هل أقرأ يا أستاذ ؟ . .

ولم أكن فى حاجة إلى أن أستاذن الأستاذ مرة أخرى .. ولكن عندما وجدت الخط غير واضح ، أردت أن أعطى لنفسى فرصة أن أقرب الورقة من عينى لعلى أتمكن من قراءتها .. وقلت : والله يا أستاذ .. انظر .. لا أعرف ما الذى أصاب السطور .. إنها ذابت .. ساحت .. تداخلت .. هل هو

الحبر؟. . هل هو الورق ؟ .. هل هو العرق ؟ .. هل هذا يرمز إلى حقيقة مشاعرى ؟. . ولكنى سوف أحاول يا أستاذ ..

وأطرق الأستاذ وبدا الاهتمام والهم الشديد على وجهه ، ورفع رأسه إيذانا لى بأن أقرأ واستعدادا منه لأن يسمع ..

وقرأت : . . . ونظرت إلى جسدها الشاحب الذى امتص الليل لونه .. والميكروب قوته .. وكانت نائمة .. وأنا وحدى الذى أعرف أن نومها زائف .. فهى قد نامت بفعل الأدوية .. وتذكرت تماثيل مدينة بومبى الإيطالية .. فعندما ثار بركان « فيزوف » راح يلقى بالحمم الملتهبة على البيوت والأحياء .. فتحولت الأحياء والبيوت إلى طينة واحدة .. لقد أصبحوا جميعا من التماثيل .. وكان التمثال والكفن والنعش والغضب صمتا بارزا .. وكانت أمى هى هذا الصمت المصنوع من القطن والصوف .. فاللحاف والبطانية وجسمها كانت شيئا واحدا .. أما التنفس الذى أسمعه عاليا ، فلم يكن من أنفها ، إنما كان من أنفى . . فإذا كان صدرها يعلو ويهبط ، فهو صدرى .. وإذا كان فى الدنيا ظلم فهو مرضها ، وإذا كان هناك سبب للانتحار فهذا الموقف كله .. إن الانتحار فرار من الدنيا . . ولكنه فى نفس الوقت رفض للأرض والسماء معا . لوكانت أمى تموت وهى نائمة ، فلا تدرى أنها نامت وماتت . . وأن نومة راحت عليها .. إنها كانت تدعو الله ألا تعيش بعدى دقيقة واحدة .. حتى لا تكون بعدى – فليس بعدى شىء . . وكنت أداعبها وأقول لها إنك ستعيشين بعدى دقيقة واحدة .. وكانت تفزع وتتركز كل قواها فى ذراعيها المرفوعتين إلى السماء وتقول : ولا ثانية يارب ! .. ولم أعد أداعبها بهذه الصورة المفزعة .. وعرفت بعد ذلك مامعنى أن تموت قبلى وأعيش بعدها » .. كفى يا أستاذ .. وبقية المقال على هذا النمط .. ثم إننى لا أقول شيئا عنها .. إنما أقول عنى ، فى مواجهتها .. أو بمناسبتها .. أو على مقربة منها .. فأنا هنا أداوى نفسى ، ولا أداويها .. ألا ترى أننى قد تحالفت مع العجز والأنانية وتوهمت أن هذا هو الحب ؟ . .

وأنت الذى قلت يا أستاذ :

يا سائلى أين السعا
دة ؟ أين صفو العيش أين ؟
إن السعادة لن ترا
ها فى الحياة بمقلتين
خلقت لأربع أعين
تحلو بها ولمهجتين
فاعذر بها أو .. لا .. فلا

تغنيك عنها ألف عين

لك مقلتان ومهجة

أترى السعادة شطرتين؟ !

إنك صدقت يا أستاذ ، فلا توجد إلا عينان فقط هما عيناى .. ولذلك لم تكن هناك سعادة .. بل إنه لا سعادة مع وجود عينين أو أربع يا أستاذ .. فلكى يكون الإنسان سعيدا يجب أن يغمض عينا أو عينين .. فلا يرى ما يوجعه أو ما يضايقه من أحب الناس إليه .. بل السعادة ألا تكون هناك عيون ياأستاذ .. إنما أن يتقبل الإنسان دنياه وكأنه لا يراها .

والشاعر كثير عبد الرحمن بن جمعة هو الذى قال :

ومن لا يغمض عينه عن صديقه

وعن بعض ما فيه يمت وهو عاتب !

ومن يتتبع جاهدا كل عثرة

يجدها ، ولا يسلم له الدهرَ صاحب !

فنحن إذن يا أستاذ الذين نغمض عيوننا بأيدينا .. نغمضها لكى نرى أجمل وأفضل .. لولا أن الحزين يا أستاذ لا تغمض له عين إلا انفتحت له عيون أخرى فى أعماقه .. فهو حزين لما يراه . وحزين لأنه يتخيل ما لا يراه وما لا يحب أن يراه ..

قال الأستاذ ، وكل كلمة من كلمـاته منديل منشور أراد أن يجفف به دموعى أو يغطى به عينى ، أوكأن منديله بساط ريح يريد أن يجلسنى عليه . وتحملنى الريح بعيدا بعيدا إلى حيث لا أعود ، قال : لقد أثقلت على نفسك يا مولانا .. وأوجعتها ، ومثلك لا يحتاج إلى من يخلصه من نفسه . . فافعل أنت ذلك . . وعليك أن تتقبل هذا الواقع .. المرض واقع .. والموت واقع . . والحياة واقع . . ولا تتعجل الموت ، سوف يجىء فى موعده . . فلا تعش ميتا وأنت حى . ولا تعش مريضا وأنت سليم ، ولا تمت وأعز الناس عليك هو الذى يموت . . ولا تكن على هامش أحد . . أيا كان هذا الأحد . . فالله لم يعطك الحياة لتزهد فيها ، أو لترفضها . . أى لترفض دورك ونصيبك من هذه الدنيا . . لا تكن كالذى اختاروه بطلاً فى إحدى المسرحيات فقفز إلى صفوف المتفرجين . . ربما كانت مقاعد المتفرجين مريحة .. ولكن الذى له دور ، وهو الواقف على خشبة المسرح ، غير مستريح .. هنا مكانك فوق .. فأدرك نفسك قبل أن يفوتك كل شىء .. وسوف أروى لك يوما قصتى مع إحدى قريباتى التى ماتت .. وقررت ابنتها أن يدفنوها معها .. ووافقنا على ذلك .. وإذا بها تطلب أن يفتحوا لها فى القبر طاقة صغيرة لعلها تستطيع التنفس .. وكان ذلك تورطا وتراجعا . وساعدتها على ذلك . . وذهبت معها إلى القبر .. وقلت إن الفكرة نبيلة .. وإن أحدا لم ير الملائكة

عندما يحاسبون الموتى .. ثم قلت لها : إن القبر مهجور منذ وقت طويل ولذلك فقد امتلأ بالصراصير.. وكانت تخاف الصرصور .. فعدلت عن فكرتها .. ولا أظنك قد قررت شيئا من ذلك .. ولا أظنك فى حاجة إلى أن نضع لك صرصورا فى أى مكان لعلك تعدل عن قرارك . . وإن لم يكن قرارا بأن تكون حزينا ، إنما هى حالة تشبه القرار .. ولو قدر لوالدتك أن تصحو فجأة . ورأت الدموع فى عينيك لاستنكرت ذلك تماما ..

قلت : حدث كثيرا يا أستاذ ..

قال : أنا على يقين من ذلك .. ولكن الذى يجعلنى لا أقلق عليك أنك لست حزينا تماما على والدتك .. إنما أنت تريد أن تعرف عمق هذا الذى فى داخلك .. ومن أين يجىء..فأنت تشبه أجهزة رصد الزلازل .. أوكالذى يغطس فى الماء ، ليعرف ما هى الحيوانات التى تعيش فى الأعماق .. فجزء من المحنة تجربة .. وجزء منها تعاطف وتجاوب .. ولا أقول إنك مثل المراصد والترمومتر . . أوكاميرات الغواصين .. فأنت لست غارقا . إنما أنت غواص . . ولست مرصدا تحطم . ولكنه اهتز بعنف . . وهى حالة ضرورية لمن يدرس ويتعمق الأمور . . وهى لذلك حالة سوف تزول وتنتقل من دائرة الضوء إلى دائرة الظل . . وقد قابلت واحدا من زملائك أمس فى مكتبة « الأنجلو » وأخبرنى أنك قررت البحث عن سكن جديد .. وتستعد للسفر ولإصدار كتاب جديد .. وأنك ذهبت للترزى لشراء بدل جديدة .. وكل ذلك يدل على أنك انشغلت وانصرفت إلى نفسك .. وهذا أفضل ..

وكلام كثير قاله الأستاذ . وكثير قلته أيضا . وقمت وفتحت النافذة . وتطوعت وفتحت الباب الخارجى . وذهبت إلى أعماق شقة الأستاذ أنبه الخادم إلى أن يعد الليمون والقهوة للضيوف — ولا أظن أننى فعلت ذلك من قبل .. ولكنها حاجتى إلى أن أفعل وأشارك وأنشغل . ولما دخلت الصالون وجدت الأستاذ قد انحنى على مفرش الترابيزة وقلبه بسرعة .. ودون أن أفكر امتدت يدى إلى المفرش فسويته .

وهناك ضحك الأستاذ قائلا : تمام ! ..

فقلت : ماذا ؟ ..

قال : إنها نظرية المدرسة الجديدة فى التحليل النفسى .. فهم يرون أن أكبر دليل على أن الإنسان إيجابى بطبعه هو أنه يسوى المقاعد والمفارش . . . تماما كما فعلت دون تفكير.. وهذا ما فعلته أنت تماما . وإن لم يكن لهذه المدرسة من قيمة عاجلة إلا أنها قد جعلتنى أطمئن عليك ، فيكفيها ذلك برهانا على صحة ما تقول . وما تنادى به . . أهلا .. أهلا يا مولانا .. أين كنت ؟ .. عريس وتزور الناس ؟ . . ألا تنتظرهم حتى يجيئوا إليك ؟ . . هل أكلت كل عسل شهر العسل فى وجبة واحدة ؟. . هاها . . هاها ..

وكان ذلك صديقا قد أنهى دراسته فى الخارج وتزوج منذ أيام . ولم أتمكن من الذهاب إليه . ولكنه جاء هو وعروسه لزيارة والدتى . فحماته صديقه لأمى . ولكن عندما جاء هو وعروسه لم يتمكنا من الحديث إليها ، فقد كانت نائمة .. وسعدت بذلك . فأمى لا تكاد ترى عروسا أو تسمع عنها ، حتى تستعجلنى أن أتزوج لعلها ترانى وترى أولادى .. إلى آخر ما تقوله الأمهات ..

قال له الأستاذ : ماذا فعلت بالعسل يامولانا ؟ . .

قال العريس : والله لم يكن هناك عسل يا أستاذ .. لقد تشاجرنا من أول يوم !

– لماذا ؟ ..

– هى تريد أن تعيش أمها معنا ، وأنا أريد أن تعيش أمى معنا ..

– القرار هو ألا تعيش الاثنتان معكما ! ..

– أنا ابنها الوحيد .. وهى ابنتها الوحيدة ..

– الحل أن تعيش السيدتان معا . وكل واحدة هى وشطارتها .. من فيهما أسرع فى القضاء على الأخرى ! ..

– لقد وجدنا حلا آخر ياأستاذ .. فقد عدت إلى أمى ، وعادت هى أيضا إلى أمها ..

– وبعد ؟

– وسوف يكون « بعد » مثلما كان « قبل » : الطلاق يا أستاذ !

– إذن فلماذا لا تقيم كل أم أسبوعا أوشهرا عندكما ؟ . وإن لم يكن هذا حلا سعيدا ، فهو جزء من الحل وبعض من السعادة ! ..

قال الأستاذ يخاطبنى : أرأيت يامولانا ماالذى يعانى منه الأبناء إذا كانت أمهاتهم فى صحة وعافية ؟ .. عندى حل يامولانا .. اذهب إلى السفارة الهندية أنت وزوجتك ، واطلب الحصول على الجنسية . . وسوف يطلبون إليكما أن تسافرا إلى الهند خمس سنوات .. بعدها تحصلان على الجنسية .. فإذا أصبحت هنديا ، حكمت عليك التقاليد ألا تسمح بدخول حماتك بيتك .. لأن الحماة والفقر زوجان .. أو أن الحماة والنحس توأمان .. هاها .. هاها ..

وجاء الخادم يستدعى الأستاذ ليرد على التليفون .

قال زميل : إن الأستاذ يفسر العبقرية بأنها الحالة التى تبدو صفاتها متناقضة عند الناس .. فأنت ترى العبقرى عظيما وتراه طفلا .. وتراه عميقا وتراه تافها .. ألا تلاحظ أن الأستاذ يحاول أن يكون لطيفا فلا نجده إلا سخيفا ؟.

– يا أخى إنه يحاول أن يساعدك .. إن مشكلتك هى التى تبعث على الضحك ..

– ولكنه لا يساعدنى إذا سخر منى ورفضها .

– يا أخى أنت تضع على أكتاف الأستاذ أكثر مما يطيق .. إن اتساع صدره قد شجعنا على أن نكون فى غاية السخافة والتفاهة . . وليست غلطته أن يكون متسامحا ، ولكنها غلطتنا أن نكون سخفاء وسفهاء .. إنه فى الأسبوع الماضى قد أعاد زميلا إلى زوجته بعد خلاف دام ثلاث سنوات .. فقد كانت مشكلتهما معقولة . . وكان لديهما استعداد لأن يساعدهما أحد .. ولكن لم تكن لدى واحد منهما الشجاعة فى أن يخطو نحو الآخر .. وساعدهما الأستاذ على الخطوة الأولى والقبلة الأولى ..

ودار كلام كثير حول هذه القضية وضدها ومعها واستبعادها .

ثم جاء الأستاذ ليقول للعريس : وجدتها يا مولانا .. إنها زوجتك التى طلبتك الآن .. وأنا أقنعتها يا مولانا .. فسوف تعيش أمها معها .. أما أمك فسوف تعيش فى الشقة المجاورة هى وأخواتك البنات ..

قال : ولكن هذا مستحيل . . إن أمى ترفض .

قال الأستاذ : يا مولانا لقد أقنعت أمك أيضا . . ووافقت .

وضحك الأستاذ وهو يقول : عندنا هنا كل شىء . . الزواج ممكن .. والطلاق ممكن .. والزواج مرة أخرى ممكن .. شىء واحد ليس ممكنا هو أن نضمن نوع العسل للأزواج . ونوع البصل للهاربين من الزواج .. هاها .. هاها ..

ولا أعرف من الذى قال بصوت مرتفع ونحن نهبط الدرج : منتهى قلة الأدب ..

ولم يكن ذلك إلا استنكاراً لسلوك بعض تلامذة العقاد نحوه .. واستخفافهم بمحاولته أن يكون هاديا لهم ووالداً للجميع ! .

وأحسست وأنا أهبط السلالم ، أننى فى البئر التى ألق فيها يوسف عليه السلام . وأننى أهبط أعمق وأعمق .. أو أننى دخلت بطن الحوت الذى ابتلع النبى يونس عليه السلام .. وتذكرت قوله تعالى : « وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه ، فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين . فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين » . والنون فى اللغة العبرية معناها الحوت . وذو النون هو صاحب الحوت يونس عليه السلام .. ولم يكن الفيلسوف الوجودى ألبير كامى مبالغاً عندما وصف الوحدة الموحشة أو الوحدة المتوحشة بأنها مثل يونس فى بطن الحوت : أى فى الظلام والوحدة والموت ..

فاللهم نجنى من الحوت الذى هو ظلام الوحدة المميتة أو الموت المظلم الموحش .. أو الوحشة السوداء المهلكة .. آمين .

وَجلَسنَا نُعَذّب أنفُسَنَا !

سؤال : هل تؤمن بالله ..؟

– ما هذا السؤال ؟ .. هل من الممكن أن يجيء هذا السؤال عن الدين هكذا ؟ كأنك ضربت « يافوخى » بشاكوش .. ألا يوجد لديك أسهل وأبسط من هذا ؟ .

– كل الأسئلة متشابهة الصعوبة . بل ليس أسهل من الأسئلة .. مثلا كم عدد الرمال على شاطئ المعمورة ؟ . كم عدد الذكور والإناث بين أسماك المحيط الهادى ؟ . هل أنت ابن شرعى لوالديك ؟ .

– أريد أن أعرف كم عدد الأسئلة لكل واحد منا .. وهل سيجيء دورنا لكى نسألك أنت أيضا .. وإن كنت أجد أن من الظلم أن نسألك عن الذى دار بينك وبين طه حسين والحكيم والزيات أول أمس ..

وما دار بيننا جميعا أمس .. وقبل أن أجيب عن هذا السؤال أجدنى مشغولا باختيار عنوان جذّاب لهذا الحوار .. مثلا : صالون العقاد فى غياب العقاد .. أو .. بجوار العقاد وليس معه .. أو .. على مقربة من العقاد .. أو على مرأى من العقاد وليس على مسمع منه .. أو .. مهما حاولنا أن نتحلل منه ، ارتبطنا أكثر .. أو .. أنت مع العقاد تتعب دائما .. ما رأيك ؟ ..

– أجب عن السؤال : هل أنت مؤمن بالله . ؟

– ولكن ما علاقة هذا بالأستاذ العقاد ؟ .

– كل شيء له علاقة بالعقاد . أجب !

– نعم .. وأرى أن هذا هو الفارق بين الانسان والحيوان ..

– وأنت ؟

– لا ..

– وأنت ؟

– بالله ؟ نعم . ولكن ليس من الضرورى أن أومن بكتبه ورسله .

– وأنت ؟

– بأنه الأب والابن والروح القدس إله واحد آمين .. ولكنى أرى فى الإسلام مزايا لا أجدها فى ديننا ..

– وأنت ؟ .

– أرى أن السؤال لا معنى له .. لأنك تسأل عن شيء لا وجود له .. فالله ليس إلا الأب أو شيخ القبيلة أو الحاكم وقد أطلنا عمره ملايين السنين وأطلنا ذراعه ملايين الكيلومترات .. ووضعناه فى السماء لكى يسيطر على الأرض وسكان الأرض .. ولذلك فليس غريبا أن نجد فى الديانات القديمة أن الإله هو الأب .. وفى العصور الحديثة أن الزعيم هو أبو الشعب .. وأن الأب هو « رب » العائلة .. فليس الإله إلا صورة مكبرة للأب .. وكما أن الأب يحمى الأسرة ويخيفها ويخيف أعداءها أيضا ، فالإله هو الأب الذى يحمى ويخيف .. أو هو الذى نعتقد أنه يفعل ذلك .. لا لأنه بالفعل كذلك إنما لأننا نريده أن يفعل ذلك .. فهو صورة لآبائنا .. وتجسيد لأحلامنا .. وهو أيضا القوة الكبرى التى تخيف وتعاقب وتعذب . ونحن الذين صنعنا الخوف والعذاب والعقاب .. ولكى نجعل كل هذه المخاوف منطقية فإننا أعطينا لهذا الإله كل اختصاصات الأب والمدرس والجندى والعمدة والامبراطور .. وهو يكبر معنا .. فعندما كنا صغارًا كنا نرى الجندى هو أقوى رجل فى العالم أى فى عالمنا نحن الأطفال .. وعندما نكبر نرى أن العمدة أقوى من الجندى .. وبعد ذلك نرى المحافظ والوزير ورئيس الوزراء .. والملك .. أو رئيس الجمهورية .. ثم نرى أن بلادنا هى أجمل وأعظم البلاد .. وأن شعبنا هو أحسن وأطيب وأذكى وأعظم شعب – أى أننا أعظم الناس .. وأن كل واحد منا هو أحسن من كل الآخرين فى أى بلد .. ومعنى ذلك أننا نعطى كل العظمة للإله ، ثم نسحبها منه ونوزعها على أنفسنا .. وكل ذلك من اختراع مصالحنا ومخاوفنا وأوهامنا .. وهذا السؤال هو واحد من عشرات الألوف من الأسئلة الوهمية الخرافية ..

– وأنت ؟

– أنت تعرف رأيى .. فأنا أكثركم تواضعا . وإن كنت أقلكم راحة للنفس والعقل . فأنا لم يتسع وقتى لكى أفكر فى كل هذه القضايا ، وليس معنى ذلك أننى أؤجل النظر فى هذه القضية الخطيرة .. إنما أنا لا أنظر فيها مطلقا .. لسبب بسيط جدا هو أننى لست مؤهلا عقليا ودينيا لدراسة مثل هذه القضية الخطيرة .. وأنا لا أعتقد أن المحامى الذى إذا طلبوا إليه أن يعالج مريضًا ، فاعتذر ، يكون جاهلا أوكافرا أو رافضا .. إنما لديه سبب معقول وهو أنه ليس متخصصا فى علاج الأمراض ، كما أن الطبيب ليس متخصصا فى المرافعة أمام المحاكم أو الجلوس للقضاء .. فأنا فقط لا أدفع ببطلان القضية .. إنما أنا أدفع ببطلانى أنا محاميا وقاضيا .. وقد استرحت إلى ذلك .. فأنا أومن بالله ،

معتمدا على وجدانى .. وعلى شيء فى أعماق يقول إنه موجود .. وإن وجوده يحتمه العدل .. أى العدل الذى سوف يعاقب الظالم والقاتل واللص ..

سؤال آخر : هل ترى أن الزواج ضرورى ؟

– لا أراه كذلك .

– وأنت ؟ .

– أرى أن الحب ضرورى . ومن الممكن أن يكون زواج بغير حب ، ويكون حب بغير زواج .

– وأنت ؟

– لماذا لا تضع السؤال بصورة أحسن يا أخى ؟ .. لماذا لا تقول : إن الزواج ضرورة حيوية بين رجل وامرأة . ومادامت هذه الضرورة موجودة ، فالزواج نتيجة طبيعية لذلك ؟ .. تسألنى بعد ذلك وما هى الضرورة ؟ فأقول لك إنها : المصلحة .. المنفعة ! وأنا مستعد أن أدوس بجزمتى كل ماقاله ويقوله الشعراء عن الحب من أول نظرة .. والزواج من أول لمسة .. وكل هذا الكلام الفارغ الأنيق فى الشعر العربى ، بل الشعر الإنسانى كله .. فإذا كنت أنا أريد أن أتزوج كاميليا .. وأنتم تعرفونها .. فالأسباب واضحة جدا .. فنحن متفاهمان تماما .. هى عندها بيت وأنا عندى قطعة أرض .. وهى تعجبنى شكلا وعقلا . وزواجنا لن يكلفنا مهرا ولا شبكة .. إنما أن تنتقل هى إلى شقتى .. أو أنتقل أنا إلى شقتها .. ونؤجر الشقة الأخرى مفروشة . وهذا دخل لا بأس به .. وهى تريد أن تسافر إلى الخارج تكمل دراستها .. وأنا أيضا . وهى لا تؤمن بما لا أومن ، وتؤمن بما أومن .. وإذا كنتم ترون أننى على قدر لا بأس به من السفالة فهى أيضا .. يكفى أنها قبلت أن تتزوج واحدا مثلى .. وإذا لم تتصل بى تليفونيا لا أحاسبها ، وإذا لم أسأل عنها يوما وثلاثة قالت : لعله مشغول .. سوف يتصل لأن لدينا أمورا معلقة لابد من حلها قبل أن نبلغ أهلنا بزواجنا .. انتهى كل الذى بينى وبينها . وهذه أسباب معقولة للزواج ! ..

– وأنت ؟

– لا أعرف سببا معقولا للزواج .. وإن كنت أعرف أن الجنس غريزة .. ولكن الزواج ليس غريزة ، بدليل أن ملايين الناس ليسوا متزوجين .. الأطفال والشيوخ وملايين من الرجال .. ولكن الزواج عادة .. وجدنا آباءنا وأمهاتنا يعيشون معا .. وكما تعلمنا من آبائنا وأمهاتنا أن نقلدهم .. وبعد ذلك أن يكون لنا تفكير مستقل ، فكذلك تعلمنا منهم الزواج .. وتعلمنا منهم أن نشكرهم كثيرا على ماقدموه لنا .. وحين نشكر آباءنا على ذلك ، ننسى أننا ندين بعظيم الشكر للعلاقات التى جعلت حياتهم معا شيئا ممكنا ، ولولا ذلك ما كان لنا وجود .. فنحن حين نقول شكرا لآبائنا ، نقول شكرا للزواج أيضا .. ونقول : سمعا وطاعة للمجتمع الذى احترم الزواج .. وللدين الذى جعل الزواج

علاقة مقدسة لا يصح أن يمسها أحد .. مع أن كل ويلات الإنسانية سببها الزواج الذى نريده ، أو الزواج الذى نريد أن نتخلص منه ، أو ضرورة الإخلاص للزواج ، أو حتمية الخيانة الزوجية .. وعندما نتحدث عن الزواج نتحدث أيضا عن المال .. وضرورة أن نحصل عليه . وأن نحسد الذين يملكونه بينما نحن لا نملك .. والذين يعلمون أولادهم بينما نحن لا نقدر على ذلك .. كل مصائب الدنيا سببها هذا الزواج ، أو هذه العلاقة التى ولدنا بسببها ، والتى أقيم المجتمع وتماسك ثم انقض بعضه على بعض ، بسببها أيضا .

– وأنت ؟

– أرى أن العذاب فى الدنيا كثير . وأنه ليس من الضرورى أن أضيف له عذابا جديدا .. وليس أقسى من أن يجد الإنسان نفسه مرتبطا أو مربوطا بإنسان آخر .. ثم يجد نفسه مضحكا : هو يطالب بالحرية لكل الناس ، ثم يرفضها لنفسه .. هو يطالب باستقلال الرأى ، ثم يجد نفسه اختار من يحول بينه وبين رأيه .. هو يطالب بالعزلة النبيلة ، ثم يضع فى فراشه وعلى مائدته وفى طريقه قاطعا للطريق باسم المشاركة الوجدانية والوجاهة الاجتماعية ، وسنة الله ورسوله .. وأنا أطلب من الله شيئا واحدا ، هو أن يعطينى قوة إضافية .. أو يدخر لى عنده بعض القوة خصما من نصيبى وحسابى ، هذه القوة يعطينى إياها عندما أعجز تماما عن الحياة بسبب المرض أو الفقر أو اليأس .. أما ما الذى أفعله بهذه القوة .. فهى أن أقضى بها على نفسى حتى لا أجدنى فى حاجة إلى ابن أو ابنة أو أخ أو أخت أو صديق أو عدو ينقلنى إلى مستشفى أو مقبرة أو يمشى فى جنازتى .. أو يتصدق علىّ بكفن أو يبكى علىّ .. فالناس جميعا كاذبون . وهم لا يحبون أحدا ، وأنا لا أحب منهم أحدا .. ولا حتى أبى ولا أمى .. فقد وجدت فيهما ، أسوأ صورة للرجل والمرأة ، والأب والأم ، والشريكين فى فراش واحد وغرفة واحدة وبيت واحد .. وأسوأ نموذج للظلم ، فهما لا يعدلان بين الأبناء .. ولم يجف لهما لسان عن نهش أعراض الناس .. ولهما الفضل الوحيد فى أننى كرهت حياتى ، وكرهت أن أكون أبا وزوجا !

– وأنت ؟ .

– جاء هذا السؤال متأخرا جدا .. فأنا وجدت نفسى متزوجا . ولا أقول محبا عاشقا .. ففى بلادنا يقولون : فلان لفلانة عندما يكبران .. وأنا مخطوب لابنة خالتى .. وسوف أتزوجها .. ولا أعرف كيف ! وسوف تقولون عنى : حيوان .. نعم أنا حيوان . وأنتم أيضا . وتقولون : جبان .. نعم وأنتم أيضا . فليس الجبن هو أن أهرب من اتخاذ قرار ، إنما أن أتخذ قرارا اهرب به من مواجهة الواقع .. وتقولون : إننى رجل قدرى متواكل أو متوكل على الآخرين وعلى الله .. وأعتقد أننا جميعا كذلك .. فليس بيننا واحد ليس متواكلا ومتوكلا على آخر .. سواء كان هذا الآخر هو موسى وعيسى ومحمد

أو ماركس أو المجتمع أو المصلحة أو الفلوس .. ثم ان الذى يتزوج سوف يقاوم الزواج ، والذى لن يتزوج سوف يقاوم الزواج .. تماما كما نمشى على الأرض .. فالذى يمشى على الأرض يقاوم الجاذبية ، والذى يقفز فوقها يقاوم الجاذبية ، والذى يطير يقاوم الجاذبية .. فنحن جميعا فى حالة استسلام عنيف أو استسلام لطيف لجاذبية الأرض .. نبعد عنها لكى نرتد إليها .. وكل الأديان والقوانين ليست إلا جاذبية المجتمع .. فهى التى تمسك المجتمع كما تمسك الدبابيس الورق .. إن هذا السؤال لم يعد له معنى .. فأنا فى حكم المتزوج .. ولم أفكر لحظة واحدة أننى أعزب .. بل لا أعرف معنى لهذه الكلمة .. لهذه النعمة التى لا تشعرون بها أنتم !

سؤال : هل ترى أن الأستاذ عبقرى ؟

– نعم أراه العبقرى الوحيد فى تاريخ الفكر العربى والإسلامى الحديث ..

– وأنت ؟

– أرى أنه مفكر عظيم . ولا أراه فيلسوفا . وإنما أراه متفلسفا . لأن الفيلسوف هو الذى نجد عنده تفسيرا متكاملا لكل مشاكل الكون والإنسان .. ولكن لدى الأستاذ نظريات واجتهادات فى كل القضايا الفكرية . ولوكان الأستاذ بعيدا عن السياسة . لكانت له فلسفة إنسانية أو فلسفة جمالية .. ولو ابتعد الأستاذ عن الأدب والنقد والشعر لكان فيلسوفا سياسيا . وربما كان فيلسوفا إسلاميا .. لأن الأستاذ مصرى عربى إسلامى قبل أن تكون له أية صفات أخرى .. ولكن إحساس الأستاذ بأنه لم يكمل تعليمه ، جعله يتجه إلى تعليم كل الناس ، وفى مقدمتهم المتعلمون والجامعيون وأساتذة الجامعات مثل طه حسين وأحمد أمين وزكى مبارك ولطفى السيد ومنصور فهمى .. وإحساس الأستاذ أنه لا يعرف إلا لغة واحدة . جعله يتحمس للأدب الانجليزى ، وفى نفس الوقت يتحمس للفكر الألمانى .. ويبرر أن حماسته للأدب الانجليزى ليست بسبب أنه لا يعرف إلا الإنجليزية ، ولكن لأن الأدب الانجليزى أسلم مقياسا وأصح فهما للحياة .. أما حماسته للفكر الألمانى فهى مسألة مزاج .. ومزاج الأستاذ هو الإيمان بالبطولة والفردية والحرية ، وعن طريق الإيمان بالحرية رفض المرأة .. لأن المرأة ليست مساوية للرجل فى الموهبة . ولذلك فهى لا تستحق الحرية ولا تستحق المساواة . وهى لا تستحق المساواة لأن الله خلقها مختلفة وغير مساوية للرجل .. وهى أيضا ترفض الحرية . وتعبد القيود . خاصة إذا كان الذى يقيدها هو الشخص الذى تحبه . فهى لا تحب الحرية من قيود العاشق لها .. ولذلك لم يجد الأستاذ نفسه بعيدا عن فيلسوف البطولة والسوبرمان : نيتشه ، وليس بعيدا عن فيلسوف التشاؤم شوبنهور .. واختيار الأستاذ للشاعر ابن الرومى هو اختيار لشاعر يتفق مع مزاجه فى فهم الشعر وفى سوء الظن بالإنسان واحتقار المرأة ، أى ضعفه أمام المرأة .. وابن الرومى مثل العقاد متفلسف ، وليس فيلسوفًا .. وكلاهما عبقرى !

– وأنت ؟

– إذا كانت العبقرية معناها أن يعيش الإنسان فى عصر من العصور.. ثم يفهم هذا العصر ويحسن التعبير عنه ويتقدم معاصريه ويهديهم سواء السبيل .. وكلما أحس بأنه تقدم عليهم عاد إليهم وواجههم وصفعهم وبصق عليهم وعارضهم ثم سار الناس وراءه ، وإذا ابتعد عنهم كثيرا لم يتراجع ولم يرجع إليهم ، واكتفى بأن لفت خطواتهم إلى الطرق الممهدة التى شقها فى الظلام والضباب والغموض ، فهذا هو العبقرى .. والعقاد من هذا الطراز .. ولكن مأساة العقاد هى مأساة كل الآباء والأمهات . إنه يحس أنه أعطى كثيرا . وأنه لذلك يستحق عظيم الامتنان له . ولكن الأبناء كلما كبروا تضاءل امتنانهم لأحد . حتى تجىء لحظة يحسون فيها أن أحدا لم يلدهم . إنما ولدوا أنفسهم . وأنهم « عصاميون » .. ولدوا أنفسهم أو خلقوا أنفسهم . وأنهم إذا شكروا أحدا فلأن فى اللغة فعلا اسمه : شكر يشكر شكرا .. فقط .. أى أنها ممارسة لغوية .. والأستاذ لديه هذا الإحساس بالأبوة الفلسفية والدينية والنقدية .. فقد أعطى كثيرا . ولكن أحدا لا يذكر له هذا الفضل .. إنه مثل الأب الذى اشترى لأولاده كل ما يحتاجون إليه .. فلما تزاحموا عليه صرخ فيهم فتساقطوا بعضهم فوق بعض .. وجاء سقوطهم تحت مائدة الطعام فنزل الطعام الساخن فوقهم فصرخوا مرة أخرى .. وعلى الرغم من أن الأب قد صالحهم وقبلهم واعتذر لهم ووزع عليهم كل ما طلبوه منه ، فإنهم قد نسوا ما أعطاه لهم الأب ، ولم يعودوا يذكرون إلا أنه شخط فيهم وأوقعهم بعضهم على بعض أو أوقع بينهم .. وأوضح صورة لذلك فى حديث العقاد عن المرأة .. فهو يرى أن المرأة لا تساوى شيئا كثيرا .. إنه يتفضل عليها كثيرا إذا جلس إليها أو نام معها أو أحبها أو نظم عنها شعرا .. ويرى أنه هو الذى يستحق الامتنان لما بذله من جهد معها ومن أجلها .. ولكن المرأة ترى أنها قد أعطت كما أعطى .. ولكن مشكلة المرأة مع العقاد مثل مشكلة الرجل أيضا : أنها لا تعرف تماما ما يدور فى رأسه .. وإذا كان العقاد يتعالى على الرجال أو الزعماء أو الفلاسفة ، فإنه أكثر من ذلك تعاليا على المرأة .. بل إننى أكاد أقول إن العقاد تطاول على الله أيضا .. فهو عندما كتب العبقريات الدينية والتاريخية والفلسفية ثم ألف كتابا عن إبليس ، لم يسترح إلا بعد أن ألف كتابا عن الله أيضا .. وفى أول سطور هذا الكتاب يؤكد المعنى الذى أخفاه بعد ذلك فى كل صفحات الكتاب . فهو فى أول سطر يقول : إن الله قد تطور معناه من عصر إلى عصر.. وتطور مع الشخص نفسه فى كل مراحل عمره .. أى أن الله هو أيضا ، مثل كل المعانى الأخرى ، ليس نهائيا . إنما هو قابل للتطور .. أى قابل لتطوير الإنسان له .. أى أن الله من صنع الإنسان .. يصوره ويطوره على هواه الدينى أو الفلسفى أو السياسى أو الشاعرى .. فالعقاد هو ابن هذا العصر الذى بدأ من القرن الثامن عشر ولم ينته بعد .. وهو عصر التهجم على كل المعانى وفهمها وإدراكها وإلقائها على رءوس الناس .. ثم ترك الناس يلهثون وراءه .. ليعود إليهم ويؤدبهم

على جهلهم وعلى عدم الامتنان له .. ثم يمضى بعيدا حتى يغيب عن العيون .

– وأنت ؟

– العقاد هو واحد من عظماء المدرسين فى عصرنا .. وكل مفكرينا مدرسون ماعدا أحمد شوقى وتوفيق الحكيم ومحمود حسن إسماعيل وزكى مبارك والزيات .. فطه حسين أستاذ وعميد ومدير ووزير .. وكذلك لطفى السيد وسلامة موسى وأحمد أمين ومحمد عوض محمد وإبراهيم مدكور وعبدالرحمن بدوى وزكى نجيب محمود ولويس عوض وعثمان أمين وأحمد فؤاد الأهوانى ومحمود خضير وعلى عبدالواحد وافى ويوسف مراد ويوسف كرم وتوفيق الطويل وجميل صليب وحافظ إبراهيم ومصطفى صادق الرافعى ورفاعة الطهطاوى ومصطفى كامل والشيخ محمد عبده ، وكونهم مدرسين لا يعنى أنهم كانوا فقط يتولون التدريس فى المدارس والجامعات ، وأن هذه المهنة أو هذا الطابع قد غلب عليهم ، إنما كانوا ينقلون الأفكار من الغرب إلى الشرق .. كانوا مترجمين .. كانوا « تراجمة » .. كانوا مرشدين سياحيين لكل الحضارات القديمة والحديثة .. كانوا جسورا كبرى لنقل الفكر الإنجليزى أو الفرنسى أو الألمانى أو العربى القديم .. وكان الأستاذ واحدا من هؤلاء... وربما كان تجديد الأستاذ فى الشعر وفى النقد أعظم آثاره على الإطلاق .. ولأن شعر الأستاذ ليس معروفا ، أو أن الأستاذ ليست له شعبية كشاعر فالدور الهام الذى قام به الأستاذ فى الشعر والنقد ليس معروفا تماما .. فنحن نعرف شخصا آخر غير العقاد .. أو نحن نعرف أهون وأيسر ما فى شخصية العقاد .. أى العقاد المدرس .. تماما كالمازنى المدرس وعبدالرحمن شكرى المدرس وعلى أدهم المدرس وعبدالرحمن صدقى المدرس أو مدير الأوبرا .. ولا شك فى أن النهضة الأوروبية قد بدأت بهؤلاء المدرسين ينقلون الأدب الإغريقى والرومانى القديم إلى العصور الحديثة .. أى أنهم يعرضون أفكارا قديمة ، فى إطارات جديدة .. أو أنهم يفتحون العيون على ينابيع فنية جديدة وغابات فلسفية عذراء ، ولم يكن شوقى مبالغا عندما قال : كاد المعلم أن يكون رسولا . فالرسل أيضا معلمون للشعوب .. والمعلمون رسل للشعوب .. ولكى يكون المعلم ذا طابع مقدس ، فإن كل هؤلاء المدرسين قد انشغلوا بالقضايا الدينية .. فأكسبهم الاهتمام الدينى شعبية عربية واسعة .. حتى الملحدون منهم قد تناولوا الدين .. أى لم يكن فى وسعهم أن يتجاهلوا الدين .. فالأستاذ هو واحد من كبار المعلمين ، هداة النهضة فى الشعر والنقد والتاريخ الإسلامى أيضا ..

– وأنت ؟

– لا أعرف بالضبط معنى كلمة العبقرية هذه إلا أنها نسبة إلى وادى « عبقر » الذى كانت تسكنه العفاريت .. ولذلك فالرجل العبقرى مثل العفاريت قادر على أن يفعل الأشياء الخارقة .. وأرى أنه لا انفصال للعبقرية عن الجنون أو قليل من الجنون .. فأكثر العباقرة مجانين .. ولم أعرف عن الأستاذ

شيئا شاذا أو أن له عادات غريبة . فهو رجل معقول . منطقى . ومنطقه من حديد . وهو قد رتب حياته ترتيبا نهائيا . فهو سيد نفسه . وسيد مصيره . وهو أقرب إلى العسكريين منه إلى المدنيين .. وأقرب إلى العسكرية البروسية الجرمانية المتطرفة . وأعظم مثال لذلك الفيلسوف الألمانى كانت .. الذى يزن ملابسه وطعامه . والذى يخرج من بيته ويعود إليه فى ساعات محددة تماما . ويقال إنه عندما جاءه شبح الموت ، أسرع إلى الساعة وقربها من عينيه وقال : لم يتأخر إلا دقيقة ! فقد كان يتوقع أن يموت فى الساعة الخامسة و ٣٤ دقيقة صباحا ، فأحس باقتراب الموت فى الدقيقة الخامسة والثلاثين .. والأستاذ فيه الكثير من ذلك .. والعبقرية مرتبطة فى كل التاريخ بالشذوذ والجنون . فليس من العباقرة واحد لم تكن نهايته جنونية . أما سبب ذلك فهو أن الرجل العبقرى يحمل على رأسه جهازا أقوى وأضخم من أن يحتمله جسمه أو يحتمله الناس .. فهذا الجهاز القوى يحطم تكوينه الجسمى ، ويحرق أعصابه ، ويقصف عمره .. والشعراء الذين نظموا شعرهم دون العشرين ، ثم توقفوا عن نظم الشعر عشرات السنين حتى ماتوا ، هم عبقريات احترقت فى سن مبكرة .. وكثير من الشعراء الرومانسيين أصابهم ذلك .. بل إن أمير الشعراء الألمان هيلدرلين عاش ثمانين عاما نصفها فى مستشفى الأمراض العقلية .. وبسبب هذه القدرات الخارقة عند العباقرة كان التوافق الفكرى والاجتماعى صعبا عليهم .. فرفضوا الناس أو هجروهم أو لعنوهم .. أو تحطموا هم أنفسهم .. وكان تحطمهم نوعا من فض النزاع ، بالقضاء على أحد الطرفين .. ولم يكن ذلك حلا سعيدا . إنما هو الحل التعيس الذى ارتضاه العبقرى لنفسه .. ولا نهاية لهذا النوع من العباقرة .. وليس معنى ذلك أننى أنتظر الأستاذ حتى يصاب بالجنون ، فأهتف بعبقريته العظيمة .. ولكننى لا أتوقع للأستاذ مثل هذه النهاية . فليست فى حياة الأستاذ « تحديات كبرى » .. فلا هو تحدى كل الناس .. ولا كل الناس تحدوه .. إنما الأستاذ قد أنفق تحدياته فى السخرية من الناس . وصارت هذه السخرية جناية على الأستاذ .. فالناس عندما يقرأون شخصا ساخرا ينسون المعنى وينتظرون النكتة التى تضحكهم .. ومعنى ذلك أن يصبح الكاتب الساخر ، موضع سخرية الناس .. وهذا ما أصاب الأستاذ ، فقد انشغل الناس عن أعماله الأدبية والإسلامية والنقدية الرائعة ، واتجهوا إلى مقالاته السياسية التى يشتم فيها كل الناس .. وكأن الذى يشغل الناس هو : ما الذى سوف يقوله العقاد غدا فى شتيمة زعماء الوفد أو الشيوعيين .. وكانت هذه هى أكبر جناية على الأستاذ .. وغلطة الأستاذ أنه استسلم لرغبات الناس . فالناس أرادوه « شتاما » فكان مثلما أراد الناس .. وبذلك أصبح الأستاذ « تسلية » سياسية .. فتسلى الناس به وتسلوا عن أعماله العظيمة أيضا .. وبسبب إضحاك الناس لم تكن له تحديات كبرى .. لأن الذى يتحدى الناس لا يضحكهم . إنما يوجعهم .. يوقظهم .. يهزهم .. يهدم عليهم معابدهم .. وأوثانهم .. ثم لا يكون مثل شمشون ، ينهدم عليه المعبد أيضا .. إنما الأستاذ ، مع الأسف ، كان مثل شمشون

الحديث .. أضحك الناس عليه ، ولم يهدم المعبد على أحد ، إنما هدم جانبًا على نفسه .. وراح الناس يضحكون .. ولذلك فأنا أرى أن الأستاذ مفكر عظيم وشاعر عظيم وناقد أعظم وساخر متواضع . وأنه لم يقتل أحدا ، ولم يسل دم أحد .. ولو فعل ذلك لكان ثوريا . ولكن الانتحار الذى حاوله الأستاذ مرة ثم عدل عنه ، قد أرجأه إلى ما بعد ذلك .. فالسخرية العقادية هى التى حالت بين أن يكون عظيما وأن يكون عظيما جدا .. وفى التاريخ أمثلة على ذلك .. برنارد شو وأوسكار وايلد ومارك توين ورابليه وسويفت وهينه .. كل هؤلاء من العظماء الساخرين .. ولكن هذه السخرية قد بددت قدرا كبيرا من رصيدهم عند الناس . فالناس لا ينظرون إلى أعمالهم الجليلة ، إنما فقط إلى النكتة .. إلى القفشة وراء أفكارهم البديعة .. وتوفيق الحكيم ذلك الفنان الكبير قد عانى هو الآخر من ذلك . فالناس يتوقعونه غريبا شاذا .. فإذا كتب فإنهم ينتظرون نكتة .. وقد ساعدهم توفيق الحكيم على ذلك ، فأمسك العصا والبيريه ونكش شعره وأمسك العصا وسحب وراءه حمارًا .. أى أن الحكيم ارتضى ما ارتضاه الناس . واستسلم لرغبات الناس . فقد أضحكهم . وعليه أن يمضى فى ذلك . فلما عدل الحكيم عن الإضحاك والسخرية ، انصرف عنه الناس .. ولذلك اختار أن يكون عند الطلب .. أى حسب الطلب .. أى أن الناس حبسوه فى إطار من الضحك .. وانصرف الناس عن أعماله المسرحية والقصصية الساخرة ومقالاته النقدية الذكية . والفاعل هو توفيق الحكيم وهو الضحية أيضا .. ولأن الناس لم يتعودوا من مصطفى صادق الرافعى أن يكون مضحكا ، فإذا جاءت النكتة اندهشوا لها وأسعدهم ذلك .. مع أن الكثير جدا مما كتبه مصطفى صادق الرافعى له طعم النكتة وشكلها .. وكذلك إبراهيم المازنى وبيرم التونسى وحافظ إبراهيم والمويلحى وعبدالحميد الديب وعبدالعزيز البشرى .

– وأنت ؟.

– أنا لا أشغل نفسى كثيرا بالتسمية التى تختارونها للأستاذ . . واحد يقول فيلسوف ، وواحد يقول فيلسوف إلا قليلا . . وواحد يقول عبقرى بغير جنون . . وواحد يقول مجنون بغير عبقرية . . أنا لا تهمنى كل هذه التسميات . . تماما كما ننظر إلى وردة جميلة . لا تهمنى التسمية التى يطلقها عليها علماء النبات . . واذا رأيت طفلا جميلا لا أسأل عن اسمه . . ولا عن دينه . . ولا إن كان وحيد أبويه . . ثم أرى المرأة الجميلة وأنزلق بعينى على جسدها وأتوقف وأتعمق وأتوارى وأعود إليها من جديد . . ولا أستوقفها ولا أعرف من هى . . إنها جميلة وهذا يكفينى جدا . . ونحن ننظر إلى القمر ولا نحسب المسافة التى بيننا وبينه ، ولا نقول لأنفسنا إن ضوء القمر ليس الا انعكاس أشعة الشمس عليه . . فليس هذا نوره ، إنما هو نور غيره . . ولا نقول إن القمر له وجهان . . وجه مضىء ووجه مظلم . . إن القمر جميل . وهذا يكفى . وأنا لا أقول إنه جميل إلا بعد أن ملأ نفسى متعة . ومن

الممكن أن يستشعر الإنسان الجمال دون أن ينطق بكلمة واحدة . فهو جميل بلا تعبير ، والعقاد هو العقاد . الأديب الشاعر الناقد المؤرخ الفيلسوف الوطنى السياسى الأعزب العصامى المعذب . . إنه العقاد . وهو لا يشبه الفيلسوف نيتشه ولا الشاعر المتنبى ولا الكاتب كارليل ولا الناقد سان بيف . . إنه هو العقاد . له صفات من نوع خاص . لأنه مختلف عن الناس . وأنا أقرأ العقاد لأنى تحدثت إليه ، وتحدثت إليه لأننى أقرؤه . فأنا أجد متعتى بالقرب منه . أى أنه مصدر راحتى . فأنا أستريح إلى تفكيره وأعجب بشخصيته . وأستمتع بالحديث إليه . . فهو يضيف جديدا إلى معلوماتى وإحساساتى واجتهاداتى . وهو يفعل ما لا يفعله أحد من كل الأدباء . فهو أديبى المفضل . وهو أحسن وأروع من عرفت من الأدباء والمفكرين . وأنا أقيس على ذلك كل حياتى . مثلا : أنا أحب أمى . وأمى ليست أجمل الأمهات ولا أذكاهن ولا أرقهن . ولكنها أجمل وأرق من عرفت . وهذا يقنعنى ويريحنى . ولا أشغل نفسى كثيرا إن كانت هناك أمهات أحسن وجها أو أكبر قلبا . إنما هذه أمى أحبها وهى عندى أحسن الناس . ونحن نجلس إلى الطعام ويعجبنا شكله وطعمه . ولا نسأل من الذى اشترى ولا من الذى طها . ولا من الذى أعد المائدة . المهم عندى أن الذى أجده هو شىء جميل . ولأنه جميل فهو مريح . ولأنه مريح فإننى أسعى إليه . وهذا السعى يضاعف متعتى . . ولا يهمنى ما يقوله الناس ، ولا يهمنى إلا ما أحس به أنا وحدى . . فأنا المقياس لكل ما فى دنياى وفى حياتى وفى عقلى وفى قلبى . لقد أعجبتنى أبيات للأستاذ قد بعث بها إلى « سعاد » وتمنى لسعاد أن تعيش لعباسها — أى لعباس العقاد ، يقول :

أحبك فى السنة الآتية	كحبيك فى السنة الماضية
ويكبر شوقى بطول المدى	كما تكبر الدوحة النامية
« سعاد » وياحسن هذا الند	اء إذا ما وجدتك لى صاغية
نسيت التواريخ إلا التى	تعوذ بذكرك لى راوية
فأنت الزمان وأنت المكا	ن ، وأنت غنى النفس ياغانية
ولست أعد حساب السنين	بالشمس طالعة خافية
ولكن بوجهك لى مقبلا	ونظرتك الحلوة الساجية
فيوم الرضا عالم حافل	من الحب والذكرة الباقية
ويوم النوى عالم مظلم	تضل الشموس به هاوية
دعى الناس يحيون أيامهم	ويلهون بالضجة الخاوية
فعيدى بقربك لا ينقضى	وأعيادهم كلها فانية
إذا انتظروا العالم لم أنتظر	سوى لمحة منك لى كافية

فهاتى سرورك لى صافيا وجودى بأعيادك الغالية
ودمت « لعباسك » المرتضى ومتعت بالحسن والعافية

فأنا مثل الأستاذ تماما فى الحب . . هى وحدها التى يهمنى حبها .. قربها . عذابها . أما الآخرون فلا يهموننى كثيرا . وكذلك الأستاذ هو الذى يهمنى . أما الآخرون من الأدباء وأحجامهم وأبعادهم وقربهم وبعدهم وأسماؤهم وأوزانهم فلا تهمنى . . هو فقط . وأنا أراه أعظم من عرفت ومن أحببت .

– وأنت ؟

– أنا أرى أن الرجل العظيم هو صاحب الألم العظيم .. فقد يتعذب الإنسان بوفاة أمه ، أو يفقد ولده أو باحتلال بلده أو بضياع كل القيم فى عصره .. وبسبب هذا الألم العظيم وتخلصا منه ، يمكننا أن نحسب عظمته . وليس المهم هنا حجم الألم .. فنقول إن الذى يتألم لبلده أعظم من الذى يتألم لولده . فن الممكن أن يكون العذاب من أجل الولد أعظم وأعمق من العذاب من أجل البلد .. وما قالته الخنساء فى رثاء أخيها ، وما قاله المتنبى فى رثاء أمه ، وما قاله عزيز أباظة وعبد الرحمن صدقى فى رثاء زوجته . أعظم وأروع من الذى قيل فى حادث سقوط طائرة بمن فيها من مئات الركاب من الرجال والنساء والأطفال .. وعند العقاد أنواع كثيرة من العذاب يبدو صغيرا ولكنه عميق .. فالعقاد الجبار يحزن لعصفور ولكلب ، وطبيعى أن يتوجع لطفل .. وقد نقول إن المرأة تبكى أسرع وأكثر من الرجل . ولكن كما يقول العقاد ، إن شعر الرثاء عند الرجال أعمق وأعظم .. فعلى الرغم من أن البكاء من أهم صفات المرأة ، بل أسهل قدراتها ، فإن أعظم شعر الرثاء قد نظمه الرجال .. وطبيعى أن تبكى المرأة ، ولكن بكاء الرجال غريب وعجيب .. وقد يبكى الرجل لأنه أب لعشرين طفلا ، ولأنه فقدهم جميعا ، ولكن رجلا يبكى ولم يعرف الأبوة فيكون لبكائه معنى أكبر وأعذب – وقد يبكى الجندى فى المعركة ، ولكن بكاء روميل ثعلب الصحراء عندما انطلقت رصاصة فأصابت كلبه شىء غريب . ولكنه كقائد عظيم يجب أن يكون كقائد احتمالا من جنوده ، وأن يكون قدوة رفيعة لهم على مواجهة ويلات الحرب . فهو يحبس دموعه أمام جنوده ، ولكن بكاءه على حيوان صغير حزن شخصى . وحزن فريد أيضًا .. فإذا اتجهنا إلى عذاب العقاد فى الحب ، كان العقاد شاعرا رقيقا . وإذا قرأنا ما كتبه العقاد عن فلسفة الحب ، كان العقاد قاضيا عادلا . نحن نقول إنه عادل ، والمرأة تقول إنه ظالم . وإذا حاولنا أن نجد شيئا مما قاله العقاد عن أمه مثلا ، وهى أول امرأة فى حياته ، لم نجد إلا إعجابا بقوة شخصيتها . وكان أقاربها يسمونها « المشدة » أى الشديدة . ولما ماتت أم الأستاذ العقاد ، لم ينشر نعيها فى الصحف . وقال فى ذلك الوقت إنه لا يريد أن يرهق الناس بالتعزية والسير فى الجنازة . ولا يريد أن يعرف الصديق من العدو . . إنه لا يريد أن يمتحن الناس . . أو لعله لا يقبل فيها العزاء . . لأن وفاتها خسارة شخصية . . وحزنها شخصى . . وكما أنها عاشت له ، فقد ماتت له

أيضا . ولكن العالم الكبير فرويد يقول لنا إن الذين يحبون أمهاتهم يجدون صعوبة فى حب امرأة أخرى . . ويجدون الجنس حرامًا أو عيبًا . . لأن العلاقة بينهم وبين أمهاتهم لم تكن جنسا . . ولذلك فهم يحتقرون العلاقات الجنسية . . ويحتقرون المرأة . . وإذا صح هذا الكلام فإن العقاد هو صاحب الاحتقار العظيم للمرأة . . ولكن العقاد الشاعر الذى يتذوق الجمال ، كان يحب المرأة . . فهو يحبها فنيا ، ويحتقرها أخلاقيا . . ومن هذا العذاب الهائل فى علاقته بالمرأة تولد لدى العقاد أعظم آلامه . . فهو العاشق وهو الكاره أيضا . . وهو الذى أحب النساء اللاتى لا يمكن أن يتزوجهن . . أحب المتزوجة . . وأحب الخادمة . . وأحب الخائنة . . وأحب الجاهلة . . وتحدث عن ذلك . . وكان حديثه تشويها لصورته عند الناس . . إذ كيف يكون هذا المفكر الإسلامى العظيم عاشقا غير إسلامى . . كأنه أراد أن يقطع على نفسه الجسور إلى المرأة التى يمكن أن تكون زوجته . . وكأنه أراد أن يقول : من هذه المرأة التى ترق إلى مستوى زوجة للعقاد ؟ . . إن الفيلسوف الألمانى نيتشه عندما تقدم إلى نساء كثيرات فرفضنه قال محدثا الله : ولماذا لا تخلقنى قادرا على إشباع نفسى جنسيا ، فلا احتاج إلى امرأة . . وكان غاندى يحلم كل ليلة أنه فى حضن امرأة وأن نهاية الحلم سعيدة . . وقد تصور غاندى أنه يستطيع أن يعيش كذلك مدى الحياة . . لولا أنه خشى أن يمشى الناس وراءه فلا يتزوجوا . . وتنهدم العلاقات العائلية فى بلاده . . فبدلا من أن يتحد الهنود ضد الإنجليز ، يتحدون ضد الزواج . . ضد البناء . . ولو استعرضنا كل أدباء العالم العظماء لوجدنا أن أعظم ويلاتهم كانت المرأة . . حب المرأة أو هجرها أو خيانتها أو غباوتها . . بل حتى العسكريون والزعماء والعلماء . . وهى سلسلة طويلة جدا . . وإذا كانت التوراة قد عرضت كل أنواع العذاب فى سفر أيوب ، فإن الأدب الحديث قد عرض لنا كل صور العذاب فى حياة كاتب قصص الأطفال الدنمركى هانس أندرسن . إنه طويل نحيف ، كوم من العظام قبيح الوجه وليس فيه أثر لشارب أو لحية . . اكتشف أن لديه موهبة على الغناء النسائى . . وسمعه الناس ونزعوا بنطلونه لكى يعرفوا إن كان رجلا أو امرأة . ولم يفلح أندرسن فى أن يؤكد لأحد أنه رجل . وقد أحس بذكاء مبكر أنه قبيح الوجه فقير . ولذلك فسوف يعيش وحيدا بعيدا عن النساء . والنساء معذورات فى ذلك . فلا مال ولا جمال ولا رجولة تجذبهن إليه . . ويوم ارتدى ملابس الشحاذين واتجه إلى عاصمة بلاده يبحث عن عمل ، لم يجد . ولكن موهبته كانت وراء هذه الملامح القبيحة . فأسرف فى استخدام كلمات الجمال والحب . وكان محروما من كل ذلك . . وكان إذا مرض هرب إلى غرفة فى أحد الفنادق وترك بابها مفتوحا وكتب إلى جوار سريره هذه العبارة : لست ميتا ولكن أبدو كذلك ! فن عذاب الحرمان والعزلة ، بسبب قبح الوجه ونقص الرجولة والفقر ، كانت عبقريته الأدبية . . والأديب الفرنسى بلزاك « امبراطور القصة » . كما يسمى نفسه . كان يعانى عذابا واحدا : ضعف الإرادة . . أمام القهوة وأمام النساء . .

وقد مات بلزاك بسبب إسرافه فى شرب القهوة . . إنه كان يضع جردلا من القهوة إلى جواره وهو يكتب وقد ارتدى ملابس الرهبان . . وفى نفس الوقت كانت لقاءاته الغرامية أثناء التأليف . . فكان يتنقل بين السرير والمكتب . . وفى آخر مرة سقط وهو يتجه إلى السرير ، وكان يتمنى لو أمسك سوطا وراح يضرب نفسه بسبب هذا الضعف وحيرته بين الذى ينشط عقله وبين الذى يهدم أعصابه . . ولذلك كان يقول إن هناك أكثر من بلزاك فى هذا الثوب : بلزاك المجنون بالقهوة ، وبلزاك المجنون بالمرأة ، وبلزاك ضحية الاثنين ، وكان شعار بلزاك هو : أنه أسهل أن تكون عاشقا من أن تكون زوجا . . لأنه أسهل أن تقول نكتة فيضحك لها الناس مرة كل يوم من أن تظل تردد النكتة الواحدة لشخص واحد كل يوم .

ومع ذلك فهذا الأديب بلزاك أهون عذابا من المغامر والمستشرق الإنجليزى سير ريتشارد برتون الذى ترجم « ألف ليلة وليلة » .. وكان قنصلا لبريطانيا فى دمشق وتردد على كل بيوت الدعارة فى الهند وفرنسا وإيطاليا وبريطانيا . كان يتكلم عشرين لغة .. ولم يكتف بذلك بل إنه ملأ بيته بالقرود ليعرف لغتها .. ثم اختار من بينها قردة ألبسها الحلى والفساتين وقال إنها زوجته .. هذا الرجل الذى كان موسوعة فى الجنس والسفالة كان عاجزا جنسيا . وكان يكوى نفسه بالنار كلما رأى رجلا وامرأة .. أو كلما رأى ذكرا وأنثى من الحيوانات والطيور .. وكان يقول : أنا الذى علمت أوروبا كلها كيف تحب ، أجدنى عاجزا عن كل شىء .. وقد حاول أن يكتشف ما الذى يرضيه جنسيا ، فارتمى بين النساء والرجال والحيوانات .. ولكنه لم يجد متعة .. حتى أصبح العذاب هو المتعة .. فاتجه إلى كل الكتب الجنسية فى كل اللغات التى يعرفها ثم ترجمها .. وفى إحدى المرات حاول أن يحرقها وأن يحترق معها ، ولكنه أنقذ فى آخر لحظة .. أنقذته إحدى الغانيات الهنديات .. ولا أظن أننى قرأت عن عذاب أقسى من هذا العذاب ..

والشاعر الألمانى جيته أحب سيدة أنجبت ثمانية أطفال وكتب لها ١٥٠٠ خطاب . . وكان يرى أن هذا الحرمان ضرورة للفنان . . وأن الفنان إذا لم يجد العذاب ، فإنه يحفر بأظفاره بحثا عنه . . وأن الإنسان هو إبليس نفسه . . فهو الذى يخرج نفسه من الجنة . . ولم نعرف فى الجنة أديبا أو شاعرا أو حتى من يعرف القراءة والكتابة . . إنما كل ما أبدع الإنسان كان خارج أسوار الجنة . . على الأرض . . أى فى جهنم التى صنعها الإنسان لنفسه . . وغير هؤلاء كثيرون جدا فى كل الآداب وعند كل الشعوب . . فإذا كان لكل نهر منبع ومصب . . فكذلك العظماء يجب أن تعود إلى ينابيعهم البعيدة فى السحاب فوق الجبال وفى الوديان مرورا بالمستنقعات والجنادل والشلالات . . فهذه الينابيع هى الألم الكبير . . واعتقد أن ألم الاستاذ هو المرأة — أراد ذلك أو لم يرده ، أظهر ذلك أو أخفاه . وأنا أرى أن الأستاذ ذلك المفكر الإسلامى ، هو المعذب بين الدين وبين المرأة العاشقة أو الصديقة

أو الزوجة . وأنا أستطيع أن أحذف كل ماكتبه الأستاذ فى العبقريات وأكتفى بما كتبه ، أو تفادى أن يكتبه ، عن المرأة والحرية . وأرى أنه بهذا وحده يكون إنسانا عظيما ! . وإذا كنتم ما تزالون حائرين فى تعريف العبقرية فأنا عندى حادثة تاريخية مشهورة وفيها تعريف للعبقرية على لسان واحد عبقرى . يقال إن أديب فرنسا فيكتور هيجو كان يتمشى مع أحد أحفاده . . وفجأة ترك حفيده واتجه إلى فتاة تغسل ملابسها عند شاطئ نهر السين . . فهجم عليها وعانقها وقبلها والفتاة تقاومه . . ثم عاد إلى حفيده الذى أذهله ما رآه من جده العظيم ، فقال له : لهذا السبب يسموننا عباقرة ! . .

* * *

كنا قد جلسنا فى صالون الأستاذ الذى تمدد مريضا فى الغرفة المجاورة . وقيل لنا إنه لن يلقانا إلا بعد أن يخرج الطبيب . وقيل لعدد من تلامذة الأستاذ إنه يأسف لعجزه عن لقائهم . ولكننا دخلنا الصالون وجلسنا . وأقفلنا علينا الباب . وفى غياب الأستاذ تحدثنا عنه . ورحنا نراه وفى نفس الوقت نرى أنفسنا على ضوئه وبمقاييسه وضدها أيضا . .

وعلى الرغم من هذه الخلافات الشديدة التى بيننا ، فقد كنا أصدقاء وحريصين على ذلك . فهناك شىء واحد يجمعنا هو إعجابنا العظيم بالأستاذ . وشىء آخر هو أننا نريد أن نعرف . وشىء ثالث هو أن كبرى متع الحياة : العلم والمزيد من العلم .

وكنت قد اكتشفت « نظرية » جديدة . . وكنت سعيدا بهذا الاكتشاف . وحاولت أن أنقل معانيها إليهم . وحاولت أن أفلسف المعانى الذى اهتديت إليها . . ولكن لأنها جديدة ، ولأننى لم أفكر فيها بدرجة كافية ، فهى تبعث على القلق . . على قلق أيضا . .

فقد ذهبت إلى ترزى . وفى غرفة صغيرة من الدكان توجد ستارة . ووراء الستارة يقف الزبون يقيس البنطلون . والجاكتة . ووراءه وعلى جانبيه توجد مرايا ليتمكن من رؤية البنطلون والجاكتة من جميع الجهات ، ولا يوجد زبون لا يفعل ذلك فى كل مرة يذهب إلى الترزى . انتهى الحادث الذى يتكرر ملايين المرات فى أى بلد . . .

أما الاكتشاف فهو أننى لاحظت أننى لم اكن أعرف من ملامح وجهى إلا الذى أراه فى المرآة كل يوم وأنا أحلق لحيتى . ولم أر الجانب الأيمن أو الأيسر من وجهى ولم أر مؤخرة رأسى .

ولم أر رأسى وهو يتحرك يمينا وشمالا . . لقد لاحظت أن هناك وجوها مختلفة لى . . وجوها مختلفة لكل إنسان . ولكن الإنسان قد اعتاد على وجه واحد . . أما بقية هذه الوجوه فهو لا يراها عادة .

فأنا إذا نظرت إلى نفسى من عدة مرايا وزوايا رأيت ملامح لم أرها قط ولم أعرفها . . وهذا ما يبدو لى أنا وحدى .

فكيف أبدو أمام الآخرين ؟ . .

كيف أبدو متحدثا وساكنا وآكلا وضاحكا ؟ . . كيف أبدو لمن يحبنى ، ولمن يكرهنى ، وللزميل والرئيس والخادم ولـلأم والأخت والصديقة ؟ . .

إننى فى المرآة عندما أتجه إليها ، أجدنى فى مرآة أخرى مبتعدًا عنها . . وعندما أدير ظهرى هنا أبدو وقد اقتربت بوجهى هناك . . كل ذلك أمام شخص واحد هو أنا . . فكيف أكون أمام الآخرين ؟ .

ثم إذا كانت هذه المرايا مكبرة فكيف يبدو رأسى ووجهى وجسمى وعيناى وأنفى ؟ . وإذا كانت مرايا مقعرة فكيف أبدو منحنيا منكسرا ؟.. وإذا كانت المرايا ملونة ؟ .. وإذا كانت المرايا مكسرة ؟ .. وإذا كانت مغطاة بالتراب ؟ .

وقد وضعت يدى إلى جانب المرآة ، فوجدت أن لون يدى فى المرآة مختلف عن اللون الذى أراه . . فإذا أضفت إلى ذلك أن نظرى ضعيف . كان معنى ذلك أننى لا أرى اللون الصحيح ليدى ، سواء فى المرآة أو من غير مرآة . . وإذا وضعت يدى تحت الميكروسكوب فإنها تبدو مثل هضبة لها جبال ووديان . . وهذه التضاريس لا أراها بالعين المجردة .

بل أكثر من ذلك لو أننى وضعت يدى هذه بين عشرين يدا أخرى . . وحاولت أن أتعرف عليها بيدى الأخرى ، فإننى لا أستطيع . . ومع ذلك فهذه يدى التى لا تفارقنى . . لا تفارقنى ومع ذلك لا أعرفها ولا أستطيع أن أميزها من عشرات الأيدى . . بل يندر أن أنظر إليها وأقلبها وأعرف حجمها وخطوطها وصفاتها . .

والمعنى : أننا لا نعرف من أنفسنا إلا قليلا جدا . . ثم لا نعرف ما يقوله الآخرون عنا . . ولا ما يعرفه الآخرون عنا . . فكما أننا لا نرى كل يوم فى المرآة إلا جانبا واحدا من الوجه . هو مقدمة الوجه ، أما بقية الزوايا فلا نعرفها ، فكذلك أجسامنا ونفوسنا وأفكارنا ورأى الناس فينا . . ونحن عندما ننظر إلى بعضنا البعض فلا نرى إلا قليلا من ملامح الوجه والجسم . أى ذلك الذى اعتدنا عليه . . ولو تباعدنا شهرا أو عاما والتقينا لرأينا أشياء أخرى لم نكن نعرفها . . ولو اختلفنا وتعادينا فإننا لا نذكر إلا عيوب الجسم والنفس والعقل . . وهى جميعا نعرفها ، ولكننا نتركها فى أعماقنا . . فإذا كان الحب أعمى فلأنه لا يرى إلا المزايا ، واذا كانت الكراهية عمياء فلأنها لا ترى إلا العيوب . .

هذه هى النظرية . وقدمتها للمناقشة عندما جاء من يعلن أن الأستاذ يريدنا فى غرفة نومه . وهى الغرفة المجاورة للصالون . ولم يكن الأستاذ ممددا . بل كان جالسا وقد تغطى بملاءة بيضاء . أما السرير فليس كبيرا . وعلى الأرض تناثرت الأحذية . وأدهشنى ذلك . ولم أعرف إن كان الذى أدهشنى هو كثرة العدد . واختلاف الألوان والأحجام . أو لأنه وضعها فى غرفته بدلا من أن يضعها أمامها ..

وكان لون الأستاذ شاحبا قليلا . أو إننى توهمت ذلك . ولكن الأستاذ كان فى غاية الحيوية . وكان صفاء بشرته خليطا من الراحة والاستسلام للمرض . . وبجوار سرير الأستاذ كانت زجاجات وعلب

العقاقير. وأكواب الليمون. ولم يشأ أحد أن يسأل الأستاذ عن مرضه. إنما هو الذى قال : اختلفت مع الطبيب الذى يرى أن المصران الغليظ ضحية الإرهاق واضطراب الأعصاب. وأنا أرى أن الإرهاق واضطراب الأعصاب هما بسبب المصران الغليظ . . فالأصل عندى هو المصران الذى إذا انتفخ فهو يضايقنى عند النوم. ويضايقني عند الجلوس إلى المكتب فأجدنى غير قادر على القراءة أو الكتابة. وهذا يضايقنى ويرهق أعصابي، وهذا الاضطراب يؤدى إلى اضطراب المعدة وعدم التوازن فى عصارتها، وهذه العصارات تؤدى إلى انتفاخ المصران الغليظ الذى يضايقنى عند التنفس . . والطبيب يرى أن أكف عن القهوة والشاى. وأن أتعاطى المسكنات . وينسى أن الإقلاع عن الشاى والقهوة يضايقنى. وأن المسكنات التى تصيبنى بالتبلد تضايقنى هى الأخرى . . ولكنى أرى أن أتجه فى العلاج إلى المصران مباشرة. فإذا هدأ هدأت أنا أيضا. وإذا عاد إلى حجمه الطبيعى، عادت أعصابى إلى هدوئها . . واقتنع الطبيب . . ولكننا اختلفنا بعد ذلك حول العقاقير التى نعطيها للمصران، ولابد أن تمر بالمعدة وأن تلمس كل المراكز العصبية فيها . . فهل لو أفرغنا الأمعاء مما فيها من طعام، يكون ذلك ضروريا لعلاج المصران ؟ . واختلفنا حول ذلك أيضا : هل أتناول زيت الخروع أو الملح الإنكليزى ؟ . واختلفنا فى ذلك . . ورأى الطبيب أن الصيام ضرورى . . ولكن عيب الصيام أننا نحرم المعدة من السوائل التي تحدث تعادلا كيماويا .. وإلا زادت نسبة الحموضة وأصابنى الإمساك الذى يؤدى إلى التهاب المصران الغليظ . . واختلفنا حول ذلك .. الخ .

وتمنيت أن يجىء أحد من الزوار ويقتحم علينا غرفة نوم الأستاذ وأن يقول له : اسكت . . أعط للأطباء فرصة . . إن الأطباء يخرجون بعد لقائك مرضى . . ومرضهم أنهم اكتشفوا فى حضورك أنهم لا يعلمون عن الجسم الإنسانى إلا قليلا . . وأنك تعرف الكثير الذى لا تستطيع أن تستفيد منه . . اسكت ! . .

وسكت الأستاذ لينهض من السرير ويتجه إلى دورة المياه، وننظر فى ساعاتنا فنجد أنها الثانية . . وأن هذا موعد انصرافنا . . وموعد نومه أيضاً . . وتقدمنى كل الزملاء إلى الباب الخارجى . . إلى السلم. وأنا وراءهم أنظر إليهم كأننى أراهم لأول مرة . . لقد اكتشفت فعلا : أنه ليس بيننا واحد يرتدى بنطلونا « مكويا » أو حذاء لامعا . . ولاحظت أيضا أننا لا نمشى مرفوعى الرأس . . نحن جميعا نميل برءوسنا إلى الأمام . . بعضنا كأنه يقرأ كلاما على الأرض لا نراه . . وبعضنا كأنه يمسح هذا الكلام بعينيه، وبعضنا يمسحه بقدميه . . وبعضنا كأنه يريد أن يلقى بنفسه عليه . . وبعضنا يتساند على الجدران بيديه . . أو يلمس كل سيارة يمر بجوارها .

إنها أشياء غريبة أراها لأول مرة .

وفى نفس الوقت لا أعرف كيف يروننى . لقد انفتحت عيوننا علينا جميعا .

وقد رأيت أن شيئا هاما قد اختفى من نظراتنا : المودة . . والصداقة . . والأخوة والرحمة .
لقد تسلطت عيوننا علينا . . وبدأنا نشعر بالضيق من ذلك . .
انه الفيلسوف الوجودى سارتر الذى قال : إن جهنم هى عيون الآخرين !

مُتصوّف ولكنه لا يدري !

كان موعدنا فى « محل ورد » بشارع سليمان باشا . وقفت أمام المحل أرى الماء ينساب على الزجاج من الداخل . وأرى الزهور والورود قد أفقدها الماء بعض ألوانها .. وأرى قطراته تتساقط بطيئة من أوراقها .. هل هى تبكى .. ولذلك كانت ألوانها شاحبة ؟ .. قلت ذلك لنفسى . ووجدت هذا التعبير قديما قد استهلكه الشعراء . فلم تكن الورود تبكى إنما هى فى غاية الحيوية والنضارة . لقد قطعوها عن أشجارها . ولكن ما تزال تعيش حياة أخرى بعد الموت . بل إن حياتها بعد موتها أعمق وأكثر دلالة . فنحن ننقل هذه الورود إلى لوحاتنا .. إلى صورنا .. وصدورنا .. ونقدمها للعروسين ، ونتقدم بها الجنازات . فهى رمز للحب الذى نتمنى أن يبقى ، وللحب الذى كان .

من قال : إن الله عندما يكون راضيا عن عباده تكون كلماته وردا .. وعندما يغضب عليهم تكون كلماته رعدا ، أو تكون شوكا .. حتى هذا المعنى وجدته قديما باليا . الله يتكلم بكل شىء وفى كل شىء . بالماء والنار والهواء . بالوديان والجبال والورد والشوك . بالجوع والعطش . وبالسعادة والألم . فالكون كله كلمات فى قاموس الله .. تماثيل فى معرضه الأبدى ..

وأحسست « فعلاً » أننى أنا الآخر . أرى الورود من وراء لوح زجاجى تغطى بالماء .. فأنا لا أراها مباشرة ، ولا أحسها مباشرة . إنما أحسها من وراء بعض القوالب اللفظية القديمة .. فأنا عندما نظرت إليها قلت لنفسى : لوكان هنا أرسطو فماذا يقول ؟ .. لوكان هنا ابن المعتز أو شوقى فماذا يحس ؟ . لقد دفعتهم أمامى وانتظرت ما سوف يقولون .. فلماذا لا أدخل وأمد يدى إلى الورود ، وكذلك أمد رموش عينى أيضا ؟ .. لماذا لا أفتح قلبى أنا ، وليس قلب أحد من الناس ؟ ..

ودخلت المحل . كانت درجة الحرارة منخفضة . الماء ينساب فى كل مكان . والأرض قد غرقت . وعلى الرغم من أن عتبة الباب نصف متر .. فإن الاختلاف بين درجة حرارة الشارع وجو الورد كبير .. فقد احتفظوا لجو المحل بالبرودة حتى لا تجف أوراق الورد .. وفى المحل كانت البرودة والعطور والألوان ، حتى الذين يبيعون الورد قد استعاروا بعض ألوانه وهدوئه ورقته .. ولا أعرف ما الذى تقوله الورود ، أو ما الذى نقوله عندما نشترى هذه الورود ؟ .. هل الورد الأحمر : رمز للحياة والحب والأمل ؟ .. هل الأصفر رمز للأسى والحزن والغيرة ؟ .. هل الأزرق رمز للعشق ؟ ..

وماذا يقول الأبيض ؟ .. ثم ما معنى أن نختار « باقة » من كل هذه الورود .. ثم نضعها فى سلة أو ورق شفاف .. ثم نرش عليها مسحوق الذهب أو مسحوق الفضة ؟ .. إننا نختار هذه الألوان وهذه المعانى .. والمناسبة التى نقدم فيها هذه الورود هى وحدها التى تتولى تفسير هذه المفردات الجميلة . فإن كانت زفافا فنحن نتمنى للعروسين دوام الحب بعيدا عن الغيرة والحزن .. وإن كانت جنازة فنحن نؤكد للفقيد أننا سوف نبقى نحبه كما كان ونغار عليه ونحزن لفراقه ..

وجاءت الزميلة التى ذهبت ألتقى بها . وأشار صاحب المحل إلى أن نجلس . وجلسنا متجاورين . ثم أشار علينا أن نتباعد قليلا وأن نجلس وجها لوجه . إنها هى الأخرى مثل أغصان الورد .. فقد تعرت ذراعاها وعنقها وصدرها . فالدنيا حر .. أما ثوبها فهو الذى نسميه عادة بالثوب الوردى . مع أننى لم أجد بين الورود مثل هذه النعومة اللونية .. التى هى مزيج رقيق من الأبيض والأحمر .. فلا هو أبيض ولا هو أحمر . ولا هو وردى .. ووضعت فى صدرها وردة حمراء وفى أذنيها .. ولما وضعت ساقا على ساق ظهرت أصابعها . حتى أصابعها وردية ، مزيج من بشرتها البيضاء ودمها . وأظافرها دموية . حتى حذاؤها كان هو الآخر خيوطا مضفرة من أوراق الورد .. ونظرت إلى سيدة أخرى إلى جوارها ، وقد وضعت ساقا على ساق .. وسيدة ثالثة .. وأدهشنى أن المرأة تهتم كثيرا جدا بقدميها وأصابع قدميها وأظافرها ولون حذائها الذى له علاقة بحقيبة يدها وحزام فستانها – فالذى أراه أمامى يؤكد هذا المعنى . ولم أكن قد عرفت ذلك .

وفجأة ودون تفكير نظرت إلى حذائى . إنه أسود غليظ . ومن المؤكد أنه أكبر من قدمى . فأنا أحب الأحذية الواسعة . والفتيات يرينها غير أنيقة . وقد لاحظت أن المرأة تنظر كثيرا إلى حذاء الرجل وإلى أظافره وإلى أسنانه . بينما الرجل لا يفعل ذلك . ولما نظرت إلى بقية ملابسى ، لم أجد أى انسجام لونى . فالحذاء أسود . والبنطلون بنى فاتح والقميص نصف كم أبيض له خطوط زرقاء . أما المنديل فأمسكه فى يدى لأنه كبير ولأننى إذا وضعته فى جيبى يكون مكورا وهذا يضايقنى . وعندما أبدت إحدى الزميلات ضيقها من المنديل ، لم أعد أضعه فى يدى . فقد فاجأتنى زميلة بقولها : أين وجدت هذا المنديل ؟ .. فقلت : لم أجده . إنما هو منديلى ! .

قالت : فلماذا لا تضعه فى جيبك ؟ ..إن الذى يراه فى يدك يخيل إليه أنك سوف تعيده إلى صاحبه ، أو أنك سوف تلقى به فى الزبالة ! ..

وجاءت باقة الورد ، وسألتنى الزميلة : ما رأيك ؟ هل لو رآها الأستاذ يفرح بها ؟ ..

– الأستاذ ؟

– هل نسيت أن اليوم ٢٨ يونيو .. عيد ميلاده ؟ ..

– صحيح .

ألم تفكر لحظة واحدة لماذا كان موعدنا هنا فى محل الورد ؟ .. لا هو مطعم ولا هو حديقة .. ولا هو مكان للقاء الأصدقاء .. أو الأدباء أو العلماء أو الصعاليك .. بصراحة أنت فى أسوأ حالاتك النفسية .. قلت لك ذلك من وقت طويل ، ولكنك تنكر وتجادل وتغضب .. ليس هذا رأيى وحدى . إنما هو رأى بقية الزملاء .. ألا ترى أن سلوكك هذا غريب حقا ؟ .. فأنت دخلت محلا للورد . وجلست . ولا أعرف إن كان أحد سألك عن شىء . ولا أعرف بماذا أجبت .. ثم إنك جئت قبل الموعد بنصف ساعة .. لابد أن صاحب المحل قد تصور أنك حزين .. وأنك جئت تشترى وردا لتضعه على أحد القبور ! ! ..

اليوم عيد ميلاد عباس محمود إبراهيم مصطفى العقاد . أبوه من أسوان وأمه من الدقهلية .. وأجداده جاءوا من السودان .. وقبل السودان جاءوا من القبائل الكردية شمال العراق ..

وفى يوم مولده انعقد المؤتمر العالمى فى مدينة بروكسل . وقرر إلغاء تجارة الرقيق ، ومنع بيع السلاح والخمور إلى الدول الأفريقية .

ويوم مولده سمع العالم السيمفونية الرابعة للموسيقار الروسى دفورجاك .. والسيمفونية الخامسة للموسيقار الروسى تشايكوفسكى . وأعلن العالم الايطالى اسكياريللى أن هناك قنوات على سطح المريخ تدل على وجود كائنات عاقلة .. وصدر كتاب الفيلسوف الإنجليزى ألكسندر عن « النظام الأخلاق والتقدم » . وصدر كتاب الأديب الإنجليزى توماس هكسلى عن « فلسفة اللاأدرية » وصدر كتاب الفيلسوف الفرنسى برجسون « عن المعطيات المباشرة والضمير » .. وعلق الفنان الهولندى فان جوخ لوحته الشهيرة « مشهد لأشجار السرو » .. وصدر الجزء الأول من « يوميات » أديب فرنسا أندريه جيد .. كل ذلك يوم ولد العقاد سنة ١٨٨٩ فى أسرة فقيرة . ولم يتنبأ له أحد أنه سوف يكون عظيما . ولكن كان لدى الطفل هذا الإحساس بأنه سوف يكون شيئا هاما . ولم يشأ العقاد أن يذكر ذلك فى كتابه .. ولكن اعترف بشىء غريب لأحد الصحفيين الألمان كان قد زاره قبل وفاته بعشرين عاما ..

لقد روى له الأستاذ أنه كان يجلس أمام بيت أحد أصدقائه ليقدم العزاء لأسرته . وفجأة سمع صوتا يقول له : يا عباس .. انهض من هذا المكان فورا ..

وتلفت الأستاذ حوله . فلم يجد أحدا قريبا منه . وبسرعة وجد تفسيرا مقنعا لذلك ، فهو لم ينم بعمق فى الليلة الماضية . ثم إنه كان يشكو من التهاب فى حلقه وأذنيه . ولكن الصوت جاءه بعد ذلك قويا آمرا . فنهض بسرعة . وجلس بمقعده عند مدخل البيت . وفجأة سقطت صفيحة ماء من النافذة . فأصابت أحد المارة . ومات غارقا فى دمه .

وقد نقل الصحفى الألمانى أن الأستاذ قال له : ولكن أنا يا مولانا لست مثل زعيمكم هتلر .. فقد

روى أنه أثناء الحرب العالمية الأولى كان قابعا فى أحد المخابئ ، عندما سمع صوتا يقول له : انهض بسرعة . انهض ! ولم يقاوم هتلر . وأحس كأن هذا أمر عسكرى . وترك مكانه الذى سقطت فيه قنبلة فقتلت عشرة من الجنود والضباط .. ومنذ ذلك الحين وزعيمكم هتلر يعتقد أن هذا هو صوت القدر الذى ادخره لإنقاذ ألمانيا وأوروبا والبشرية . ولذلك لم يكن غريباً أن يقول هتلر لزملائه من الجنود : انتظرونى .. سوف تسمعوننى وترونى كثيرا . إنها مسألة وقت . وكذلك نابليون ! ..

– ما رأيك فى فستانى ؟ ..

طبيعى أن يجىء هذا السؤال مباغتا . فقد استغرقت فى أشياء كثيرة . أو أغرقتنى أشياء كثيرة . فأنا لست فى كامل اليقظة . فإذا كانت اليقظة شمسا فإننى أضع قدما فى الظل وقدما أخرى فى الشمس .. أو إننى أضع كل جسمى فى الظل ، وأطل برأسى فى الشمس أو تحتها .. وإذا كان الاستغراق بحرا فأنا أتنفس تحت الماء . ولو سألت نفسى ، كما أفعل كثيرا : وما الذى يشغلك حقا ؟

لقلت : أشياء كثيرة .

– لا توجد أشياء كثيرة إنما توجد أشياء محددة وكثيرة . أولا هى محددة ، وثانيا هى كثيرة أو قليلة . قل لى ما هى ؟ لا تحاول أن تخدعنى .. أى لا تخدع نفسك . قد تخدع الآخرين كل الوقت أو بعض الوقت .. ولكن كيف تخدع نفسك ؟ وإذا كنت تخدع نفسك ، فمن هو الذى تصارحه وتكون أمينا معه وأمينا عليه ؟

– لا أعرف بالتحديد !

– هذه هى الإجابة الصحيحة . فأنت قد أرجأت الكثير من المشاكل .. أنت لم تفعل مثل بائع الورد .. إنه قطف الورود وقطع الأغصان .. ووضعها فى الدكان ينعشها تمهيدا لبيعها .. ولكنك تركت المشاكل على أشجارها .. متناثرة فى كل مكان .. ورحت تنظر إلى الحقول والمجالات الواسعة . وأدهشك وأذهلك ذلك . ولكنك لو قطفت هذه الورود .. أو هذه المشاكل ووضعتها أمامك وحددتها وصنفتها واحدة واحدة ، لهان الأمر .. وهذه هى المبادئ الأولى فى علم النفس التحليلى .. أو يمكنك أن تقول إن المشاكل كالأسماك ، إذا أخرجتها من الماء ماتت . إذن فلابد أن تخرجها من الماء . وإن كان لى رأى خاص بك أنت بالذات . فأنت تفضل أن تجمع المشاكل وتكدسها أمامك ، حتى تكون حائطا فاصلا بينك وبين الواقع .. والمشكلة الآن : هل أنت تريد أن تضاعف المشاكل لتجد لنفسك عذرا فى العجز عن الحل .. أو أنك أصلا عاجز عن الحل ، ولذلك تكدس المشاكل ؟ .. أو هل أنت لا تريد أن تحدد المشاكل ، لأن تحديدها هو بداية فهمها ، وفهمها هو بداية تحليلها ، وتحليلها هو بداية حلها .. وأنت قررت ألا يوجد حل هناك لأية مشكلة ، وعلى ذلك فلا داعى للاقتراب منها ؟ ..

– أنا لا أعرف بالضبط .

- إذن فأنت لا تعرف . ولا تحاول أن تعرف . وتريد أن تبقى فى حالة عدم معرفة ، أو عدم رغبة فى المعرفة .. وتزعم أن السبب هو أن المشاكل كثيرة وأنها متداخلة . وأنه ليس عندك متسع من الوقت . بل أنت تذهب إلى أبعد من ذلك ، فأنت تريد أن تقنع زملاءك بأن يفعلوا مثلك .. أى بأن يتوقفوا عن الفعل واتخاذ القرار .. وهكذا فبدلا من أن تحل مشاكلك ، فإنك تضاعفها ، وتضاعف مشاكل الآخرين .. ويصبح العجز بدلا من أن يكون أسلوبا شخصيا . أو انعداما لاتخاذ أسلوب ، فإنه يصبح ظاهرة عامة .. ولو كنت تملك إلى جانب العقل سلطة فرض أفكارك على الآخرين لطلبت إلى الناس أن يديروا وجوههم للحائط .. تماما مثل أهل الكهف الذين تحدث عنهم أستاذك أفلاطون .. فقد جلسوا فى كهف وأداروا ظهورهم إلى مدخل الكهف الذى يجىء منه النور .. ثم راحوا يحاولون فهم ما يجرى خارج الكهف بالنظر إلى ظلال الناس على الحائط .. بينما الحل الوحيد هو أن يخرجوا من الكهف إلى النور .. إلى الواقع الذى هو الناس . ومادام هناك نور فسوف يكشف لك الناس . وسوف يكشفك أمام نفسك وأمام الناس ..

– ما رأيك فى فستانى ؟ .

– ....

– الصندل هو الذى أعجبك أكثر ! ..

– سوف أحكى لك شيئا غريبا . وأنا أعرف أنك ستقولين إننى فى عالم آخر أو إننى أقف على الحافة بين العقل والتخريف .. إننى اليوم كنت أقلب فى كتاب عن « المتنبئ » الفرنسى نوسترادموس الذى عاش ومات فى القرن السادس عشر .. وأنت تعرفين أنه كان يحلق فى إناء من الماء ثم يقرأ الغيب ..

– لا أعرف عنه شيئا .. إنما الآن فقط فهمت لماذا اختارت المجلات الأوروبية اسم هذا الرجل عنوانًا للأبواب الخاصة بقراءة الطالع .. لم أكن أعرف أنه إنسان حقيق ..

– وفى إحدى المرات رأى قسيسا يطارد فتاة جميلة .. واستوقفه قائلا : اسمح لى يا سيدى أن أركع أمام قداستك .. ومن الغريب أنه بعد وفاة نوسترادموس أصبح هذا الشاب بابا روما سكستوس الخامس ..

– وما علاقة هذا بصندلى ؟

– انتظرى .. وعندما نظرت إلى صندلك وألوانه وألوانك تذكرت نوسترادموس .. ودون تفكير كدت أقف وأنحنى أمامك قائلا : اسمحى لى سيدتى زوجة رئيس الجمهورية أن أنحنى أمام سعادتك ..

– وهذه هي إحدى نبوءات نوسترادموس المصرى ؟ ! .

– هذا الفرنسي تنبأ بحوادث كل القرون التي جاءت من بعده .. تنبأ بهتلر وأسماه هستر .. وتنبأ بنابليون وفرانكو والحرب بين العرب وإسرائيل ..

– ألا تريد أن تقول رأيك في فستاني أو صندلي ؟ .. ألم أقل لك إنك في حالة غير طبيعية .. وأنت « موحول » في هذه الحالة ، ولا تعرف كيف تخرج منها ؟ . أهذه الحالة هي التي يسميها الوجوديون « الموت السكرى » . أى كما يتساقط الذباب في العسل فلا يستطيع أن يفلت منه فيموت أحلى ميتة .. أهذه أيضا حالتك ؟ .

(ومن الغريب أن أصبحت هذه الزميلة زوجة لأحد رؤساء الوزراء بعد ذلك بسنوات !!) .

وأمام بيت الأستاذ وجدنا أستاذنا في اللغة اللاتينية مسيوباترى وزوجته السويسرية .. وهو يعرف اللغة العربية .. وصعدنا السلالم ببطء شديد ، فقد كانت زوجته السويسرية قد وضعت ساقها في الجبس .. فكانت هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها سلالم بيت الأستاذ . وهي من الرخام الأغبر اللون .. وقد تكسرت وتآكلت ..

وتقدمتني الزميلة ..

– جميل جدا ..

وتلفتت الزميلة وقالت : أخيرا .. ما هو ؟ ! ..

قلت : الفستان والصندل والحزام والوردة والعقد والقرط والعطر وأحمر الشفاه وأحمر الأظافر والخاتم ، ثم هذا القلب على ساقك اليسرى .

– ماذا ؟

ونظرت إلى ساقها ولم يكن الذى رأيته قلبا ، إنما هو آثار المقعد الذى جلست عليه .. ولم يكن له شكل القلب .. إنما رأيته كذلك ..

واستقبلنا الأستاذ ..

– أهلا يا مولانا ..

– إنه أستاذ في اللغة اللاتينية وهذه زوجته .. جاء يراك . فقد سمع عنك الكثير ..

وقال الأستاذ باترى : وقرأت عنكم كثيرا أيضا .

قال الأستاذ : إذن فأنت تعرف اللغة العربية جيدا ..

– لا أدعى ذلك .. ولكن قرأت عنكم باللغة الألمانية .. فقد صدرت عنكم دراسات في مجلة « المستشرقين » ومدى تأثركم بالفلاسفة الألمان . وعن الأسباب الاجتماعية والنفسية التي أدت إلى ذلك ..

-- ولكني أضيق بكثير من الفلاسفة الألمان يامسيو..

-- ورغم ذلك فإنك قد تأثرت بهم إلى حد كبير..

-- أهلا يا مولانا.. أنت تعرف كل الحاضرين.. وهذا هو أستاذ اللغة اللاتينية.. قرأ دراسة عن مدى تأثرى بالفكر الألمانى فى مرحلة متقدمة من شبابى..

-- ولكننى أرى فيك شيئا مختلفا يا أستاذ.. إننى أراك رجلا متصوفا..

-- هاها.. هاها.. أنا؟ أنا أجلس مع هؤلاء الشياطين (يشير إلينا جميعا) وأروى النكت.. وأصارع الساسة وأناطح الفلاسفة وأنظم فى الغزل. وتقول إننى متصوف يا مولانا؟ هاها.. هاها.. إن شئت قلت إننى مؤمن.. وإن شئت قلت إننى أزهد فى زخرف الحياة.. وأرى أن الفكر والحياة من أجل الفكر. إن لم تكن أعظم مراتب الحياة، فهى الهدف الأسمى لها.. إن كان هذا هو المقصود فأنا لا أختلف معك يا مسيو..

-- ولكن يا أستاذ إذا كان الإيمان درجات، فإن الكفر درجات أيضا.. وإذا كان الإقبال على الحياة درجات، فإن الانصراف عنها كذلك.. هذا الذى قلته الآن هو الهدف الأسمى للمتصوفين.. وأنت تعرف أنه ليس من الضرورى أن يكون المتصوف هو من يرتدى الصوف أو الخشن من الملابس.. بل قد يتصوف الإنسان ملحدا.. فقد كان الفيلسوف الإيطالى كروتشه متصوفا.. والفيلسوف الألمانى نيتشه متصوفا.. بل إننى أذهب إلى أن كارل ماركس كان متصوفا.. إن الذين عايشوا ماركس فى لندن أثناء كان يجمع المادة الأولية لكتابه «رأس المال» كانوا يجدون رجلا يدخل المكتبة أول من يدخل، ثم يكون آخر من يتركها، ولم يكن يحمل فى جيبه إلا رغيفا من الخبز وقطعة من الجبن وقطعة من السكر. وقد فعل ذلك سنوات.. وفى نفس الوقت لا أجد القديس أبيلار الذى أحب هلويزة وهرب بها متصوفا.. ولا أجد القس الثائر مارتن لوثر متصوفا، ولا حتى عندما كان يترجم التوراة لأول مرة إلى اللغة الألمانية.. لقد كان يمارس حريات عادية، لا علاقة لها بالدين.. بل تتنافى مع الدين.. وإننى أجد الكاتب الإنجليزى د. هـ. لورانس متصوفا. إنه صاحب الأدب العريان. ولكن ما الذى كان يفعله لورانس؟.. كان يضع أمامه المرأة الجميلة ويقلبها ويصفها.. إنه كالذى يتأمل مخلوقا جميلا: وردة.. قطة.. شجرة.. نجمة.. امرأة.. جبلا.. نهرا.. ولا أجد عمر الخيام متصوفا بينما يراه كثير من النقاد إماما للمتصوفين.. لأن الخيام لم يدع لذّة لم يقبل عليها.. ولكنه مثل كل الطيور ذات الأجنحة الطويلة.. استطاع أن يحلق بعيدا عن الأرض. بعيدا جدا عن الحياة. فبدت له الأشياء كلها صغيرة.. وهى ليست صغيرة عندما كان يمارسها ويرتمى عليها، إنما فقط عندما طار -- فنيا -- بعيدا عنها..

-- ولكننى لا أرى نفسى كذلك يا مسيو.. لأننى لكى أكون متصوفا لابد أن أنصرف نهائيا عن

الدنيا . وأن يكون ذلك لأننى اخترت الآخرة . رفضت الإنسان وارتضيت الله . فالمتصوف هو الذى ملأ عينيه بالله ، وسمعه بالله . وقلبه بالله ولله .. ماذا يقول الشعراء المتصوفون ؟ .. ما هى خمرهم ؟ .. وماذا يحبون ؟ .. قل له يا مولانا ! .

قلت : يقول عمر بن الفارض :

شربنا على ذكر الحبيب مدامة
سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم
صفاء ولا ماء . ولطف ولا هوا
ونور ولا نار . وروح ولا جسم

***

وقلت : ورابعة العدوية تقول :

أحبك حبين : حب الهوى
وحبا لأنك أهل لذاكا
فأما الذى هو حب الهوى
فشغلى بذكرك عمن سواكا
وأما الذى أنت أهل له
فكشفك لى الحجب حتى أراكا
وما الحمد فى ذا ولا ذاك لى
ولكن لك الحمد فى ذا وذاك

وقال الأستاذ باترى : كيف ترى الأيام التى أمضيتها فى كتابة العبقريات ؟ . إنها تشبه الأيام التى أمضاها ماركس فى تأليف « رأس المال » والتى أمضاها الكاتب اليونانى كازانتساكس فى نظم « عوليس » وكذلك الكاتب الأيرلندى بيتس فى تأليف « أوليس » أيضا .. بينما الشاعر هوميروس نفسه الذى نظم الإلياذة والأوديسا لم يكن متصوفا .. ولا كان أبو العلاء المعرى ..

وسكت الأستاذ السويسرى ليقول للأستاذ ولنا أيضاً : إنك يا أستاذ كالذى يخجل من أن يقال إنه أحب .. لأنه يرى الحب نوعا من الضعف .. وهو يراه ضعفا لانشغاله بأحد غير ذاته . أو لأن أحدا قد هزه وأقلقه .. أو أن الحب جعله يتراجع عن موقف سابق كان له .. فأنت كالذى قرر أن يقول للحياة : نعم . وأنت أعلنت ذلك كثيرا .. ولكن الحقيقة أنك لم تقل لها نعم .. إنما أنت أحيانا قلت لها : نعم .. وأحيانا قلت لها : ويل لك .. ولكننى أرى أنك قلت لها : لا .. كثيرا جدا .. فأنت تخجل أن تبدو عاشقا للحياة أو عاشقا لمتع الحياة .. وأنا لا أقطع بذلك فى حضورك . إنما أردد على

مسمعك ومسمع تلامذتك كيف تبدو لنا من بعيد ، وعبر اللغات الأوروبية الأخرى ..

ولم يظهر الاقتناع على وجه الأستاذ .. ولكنه لم يشأ أن يجادل كثيرا ، فقدكان سعيدا بهذه المناقشة التي جاءت إليه من ألمانيا . ووضعته مع كبار الفلاسفة والمتصوفين ..

ونحن نترك بيت الأستاذ سألني الأستاذ باترى عن حادثة نشرها بعض المستشرقين الألمان عن كيف نجا الأستاذ من الموت .. قال : هناك روايتان .. واحدة تقول إن أحد الإخوان المسلمين قد اتصل به تليفونيا ، وعندما ذهب يرد على التليفون واقفا إلى جوار النافذة انطلق الرصاص فلم يصبه . ويقال إنه فى هذه اللحظة سمع زوجته – زوجة الأستاذ – تصرخ فى الداخل ، فترك التليفون . فلما انطلق الرصاص لم يصبه ..

ولم يكن الأستاذ السويسرى يعرف أن العقاد عاش ومات دون أن يتزوج ..

ثم قصة الصفيحة التى رآها أحد الناس تسقط من النافذة ، فسحب الأستاذ بقوة فسقطت على أحد المارة ..

وأكدنا له أن هاتين الحادثتين فيهما بعض الصحة . ولكن الذى لم يقله الأستاذ هو كيف نجا بالضبط من الحادثتين ، ولكن المستشرقين والصحفيين الأجانب هم الذين يجدون تفسيرات لذلك ! ..

وعلى الغداء فى فندق « سمير اميس » سألت الأستاذ باترى : لقد لاحظت أنك ترسم لوحة للأستاذ .. فأين هى هذه اللوحة ؟ .

وضحك الأستاذ باترى وزوجته ، وقال : أنا لا أعرف كيف أرسم . إنما حاولت ذلك لكى أجد مبررا لتأمل الأستاذ وهو يتحدث .. وقد وجدت فى ملامحه تفسيرا شاملا لأفكاره أيضا .. فالأستاذ عصبى ، وكنت أتصوره غير ذلك .. فى عينيه قسوة .. ولكنه شديد القسوة على نفسه . أكثر من قسوته على الناس .. ثم إن الأستاذ عندما يضم شفتيه ويشمخ بأنفه ، فليس هو الرجل الذى يتعالى على الناس . إنما هو الذى أرهقه التفكير والهموم ، ويخشى أن يحنى رأسه لكل ذلك ، فيتدارك رأسه بسرعة ويرفعه إلى أعلى .. ثم لماذا يرفض الأستاذ أن يكون متصوفا ؟ – بمعنى أنه يرتدى الصوف .. إن الأستاذ لم يفكر كثيرا فى نوع القماش الذى صنعت منه البيجاما .. إنه صوف .. وصوف سويسرى من بلدنا .. وأنا أرتدى بيجاما مثلها فى ليالى الشتاء الباردة . وهو يرتديها نهارا فى شهر يونيو .. وكذلك الطاقية التى يضعها على رأسه .. بل إننى أرى أن الهواء فى بيت الأستاذ قد ارتدى هو أيضا الصوف لأنه ساخن جاف مؤلم .. هل هناك تصوف أكثر من ذلك ؟ ! ..

وفى الليل وفوق سطح جمعية الإخوان المسلمين بإمبابة وبعد صلاة العشاء . وكان الهواء منعشا باردا .. تركنا المقاعد الخشبية وجلسنا على الحصير .. وتمددنا .. ثم استرحنا أكثر .. اضطجعنا .. ولم يجد واحد منا رغبة فى أن يقول شيئا . وضقنا بالصمت .

قال أحد : أتكلم أنا ..
– ماذا تنوى أن تقول ؟ .
– أى شيء ! .
– من مثل ماذا ؟ .
– غريب جدا أمركم هذه الليلة .. منذ متى كنا نضع للكلام جدول أعمال .. إننا نتكلم فى أى شيء .. تماما كما نأكل أى شيء ونرتدى أى شيء ، نحلم بأى هدف وننسف أى هدف ، وننسى ونحن نفكر فى الكون من أوله لآخره وترتيبه على هوانا : من نحن ؟.. وأين نحن ؟.. وما هى قدراتنا ؟ .. وإذا كان الكلام هذه الليلة يبدأ بهذه السخافة فاسمحوا لى أن أنسحب لألعب الشطرنج فى المقهى المجاور ..
– ما رأيكم فى الذى قاله الأستاذ السويسرى عن الأستاذ ؟ . هذا كلام جديد .. ومعقول جدا .. والأستاذ كان سعيدا وفى نفس الوقت لم يكن مقتنعا . ولكن سعادته أعظم ولا شك ..
– لو لم يكن هذا الرجل السويسرى قد قال الذى قاله عن الأستاذ وتصرفه ومظاهر القسوة فى عينيه ، لكنت قلت شيئا مماثلا .. وأنا لا أدعى أنى اكتشفت أن الأستاذ متصوف بأى معنى .. أما هذه القسوة فواضحة جدا .. وخاصة فى النقد الأدبى .. أو على الأصح فى موقف الأستاذ من شوقى أمير الشعراء .. لقد تجاوز الأستاذ كل حدود النقد .. بل تجاوز كل حدود الإساءة .. لقد قرأت جريرا والفرزدق .. ولا أظن أن أحدا منهما قد فعل ما فعله الأستاذ العقاد .. وسوف أضرب مثلا واحدا . مسرحية « قمبيز » التى نظمها أمير الشعراء ، لقد اتهم شوقى بكل شيء فى الدنيا .. وكاد يلعن أبوه .. وأعتقد أنه فعل ذلك .. شيء واحد لم يقله العقاد وهو أن شوقى ليس شاعرا عظيما .. إنما وصفه بالجهل وقلة الذوق والنفاق والخيانة الوطنية لمصر .. بل إن العقاد يهاجم شوقى لأنه تحدث عن أحد اللصوص فقال إنه سارق اللؤلؤ أو اللآلئ .. وقد تكون القافية هى التى اضطرته إلى ذلك .. ولكن الأستاذ هاجم شوقى لأن مصر الفرعونية لم تكن قد عرفت اللؤلؤ فى ذلك الوقت .. وأبشع من ذلك أن الأستاذ قد نظم محاكمة لشوقى .. وأتى بشوقى ليحاكمه الملك والكهنة .. وفى هذه المحاكمة الشعرية وصف شوقى بأبشع ما يوصف به إنسان حقير ! ..
وتبدأ المحاكمة بأن يتحدث قمبيز إلى الكاهن سابور :

سابور ! من ذاك القزم
فى جانب من الحرم !
يظهر حينا ويرو
غ روغان المتهم ؟

فيرد الكاهن سابور قائلاً :

مولاى هذا شاعر
فى مصر يغتاب الأمم
أضعف من صاغ مديـ
ـحاً فى القصيد أو شتم
يرعى ذوى البأس ولا
يرعى العهود والذمم
ما قال : لا قط ولا
يصدق إن قال : نعم
لكنه فى صمته
أبله أو فيه بكم
لو ارتقى العرش ارتقى
وهو فى زى الخدم !

ويرد عليه قمبيز متهكما :

ها .. أنت جئت عندنا ؟
يا مرحبا .. أهل الكرم

أما شوقى فيقول :

لبيك مولاى

قمبيز :

... أجل
لبيك أنت يا قزم
يا مسخ ما غرك بى ؟
حسبتنى من الرمم ؟
مسخ أنا تزعمنى ؟
انطق . تكلم يا صنم !

ويرد شوقى :

أنا ؟ !

قبيز :

نم ! ومن إذن ؟

الكاهن :

ألم تلفق قصة

سميتها باسم العلم

فيها تقول ما تقو

ل من هراء وتهم ؟ !

شوقى يتوسل :

حاشاى ! لم أنظم ولا

كان لسانى إن نظم

كلا ! وحق النار والنو

ر وحق هذا الحرم

لكنه « العقاد » سوا

ها ومثله اجترم

ألف « قبيز » وألقا

ها على واعتصم

أحلف كل حلفة

أقسم أحرج القسم !

وبعد ذلك يفكر الملك والكاهن والعقاد فى القضاء على شوقى ، ويختارون له أقسى أنواع العذاب حتى الموت .. ولما أحس الأستاذ أن موقفه من أمير الشعراء غير منطقى ، وأنه أقرب إلى الحقد أو الفكرة المتسلطة عليه خفف الهجوم وراح يطعن فى ثقافة شوقى أو فى عنصره التركى .. لا فى شاعريته ..

– ولكن طه حسين ليس أحسن حالا من الأستاذ .. إنه هو الآخر بالغ القسوة ولكن على طريقته .. لو عدنا إلى قراءة ما كتبه طه حسين وهو فى فيينا تعليقا على كتاب « خطرات نفس » لـ د . منصور فهمى .. لاكتشفنا أن العقاد أكثر رحمة من طه حسين .. لقد اعتقله طه حسين ثم أعدمه .. وانتظره حتى تتلاشى كل ذراته واحدة واحدة ، وبعبارة رقيقة جدا .. اتهمه بالجهل . واتهمه بالأمية ، وأنه مهزلة إنسانية .. فقد كتب د . منصور فهمى فى مقدمة الكتاب أنه ترك تصويب الأخطاء اللغوية والنحوية لواحد من أصدقائه .. وكان لابد أن يعلق طه حسين بأنه لم يكن يعلم أنه

جاهل بالنحو والصرف إلى هذه الدرجة .. وعندما أبدى د . منصور فهمى أنه متأثر بروسو ودوركايم كان ذلك مبررا لأن يشنقه طه حسين مرتين .. فهو يقول لمنصور فهمى إن روسو وفولتير اللذين مهدا للثورة الفرنسية لو قدر لها أن يريا الثورة الفرنسية لأنكرها الاثنان . فما أبشع ما فعلته الثورة الفرنسية بالإنسان .. ثم إنه لم يجد أى أثر لعالم الاجتماع دوركايم فى هذا الكتاب .. وعندما يحاول د . منصور فهمى أن يتواضع فيقول إنه سوف يصدر كتابا آخر عن فيلسوف الاجتماع دوركايم ، عندما ينضج هو فكريا ، يلتقطه طه حسين ويسأله : وكيف يواجه تلامذته وقراءه وهو بعد لم ينضج ؟ وإذا لم يكن نضج فما الذى دفعه إلى الكتابة ؟ وعندما ذهب د . منصور فهمى إلى أثينا قال طه حسين : لو سألنى لطلبت إليه أن يحذف هذا الكلام ، فقد حاول أن يمدح آلهة الفراعنة فطعن آلهة الإغريق .. ثم إنه لا يفهم الحضارة الإغريقية .. ولم يقاوم طه حسين إضحاك القراء على د . منصور فهمى ، فنقل مقالا له عن رأس السنة .. وكيف إن الساعة تقول : تم تم .. تم .. أهلا بالسعادة .. تم أهلا بالصحة .. تم .. أهلا بالأمل .. ويقول طه حسين ليس هذا مألوفا فى اللغة العربية .. ولكن لابد أن تكون له قيمة تاريخية .. فسوف يضحك الناس على الكاتب اليوم وسوف يجددون الضحك عليه غدا .. وأكثر من ذلك أن يعترف طه حسين بأنه لم يجد شيئا يشجعه على أن يقرأ ولو نصف هذا الكتاب .. إن طه حسين قتل د . منصور فهمى ولم يعترف له بشىء .. لقد قتله وكفنه بأوراق كتابه هذا .. وأنا أرى أن طه حسين قاتل لطيف .. والعقاد قاتل عنيف . والفرق بين الاثنين أن العقاد لا يستطيع أن يقتل شوقى فهو أكبر من أن يقتله العقاد .. أما طه حسين فما كان ينبغى له أن يقتل د . منصور فهمى ، فهو أضعف من ذلك كثيرا ..

– أما أنا .. فأجد أشنع الأدباء جميعا : مصطفى الرافعى .. وما جاء فى كتابه « على السفود » من هجوم على الأستاذ إنسانا وكاتبا ومفكراً وسياسيًّا ، أسوأ ما عرفنا فى تاريخ الأدب العربى كله . بل إن هجوم مصطفى صادق الرافعى على الصحافة فى مصر هو أبشع ما جاء فى تاريخ الصحافة أيضا .. فهو يرى أن الصحافة كلها كذب فى كذب . وكتابها منافقون مغرورون .. ويقول إن أنسب اسم لأية صحيفة مصرية هو « الأكاذيب » وبذلك يكون اسمها هو الصدق الوحيد فيها ! وقد تخيل الرافعى أن يكون الجاحظ صحفيا . والجاحظ طويل اللسان . ولكنه وجد فى الصحافة المصرية من هم أطول لسانا وأكثر كذبا وأشد غرورا .. ولعله يقصد العقاد دائما ! .

– نقوم ..

– ماذا ؟ !

– نقوم من هنا .. أليس اليوم موعدنا مع الكلام الفارغ ؟ .

– ...

– هل نسيتم أننا سوف نتعشى فى بيت الدكتور ... فى الهرم ؟ ..

– وهل هو الذى يقول الكلام الفارغ ؟ . . إنه هو الذى يصف كلامنا بأنه فارغ .. ولا يزال التحدى الذى وضعه أمامنا صحيحا ..

– ما هو هذا التحدى ؟ .

– آه .. أنت لم تكن معنا فى المرة السابقة .. التحدى يا سيدى .. هو : أنه لا يقبل أية نظرية أو أية فلسفة إلا إذا ساعدته فى إعطاء حقنة أو تخفيف مغص .. أو إرضاع طفل .. وكل نظرية وأى كتاب لا يضيف جديدا فى هذا المجال فهو كلام فارغ ! .

– ولكننا وضعناه أمام عدد من التحديات . أحد هذه التحديات : كل طبيب لا يستطيع أن يشرح لنا بعبارة قصيرة ما معنى الألم .. هو طبيب ملىء اليد فارغ العقل !

وأمام باب الجمعية وقفنا .. وكما حدث كثيرا تصافحنا فى صمت ومشى كل منا فى طريق ..

وذهبت وحدى إلى بيت الدكتور .. وجدته وحده . البيت هادئ .. الموسيقى تجىء من كل مكان .. تماما كان الصالون مثل دكان الورد .. العطور والألوان والبرودة والماء واللمعان تجىء من كل جانب .. وكان أهدأ وأهنأ .. ونحن نجد فيه أكبر دليل على الراحة التى يولد بها الأغنياء المثقفون .. فهو عنده كل ما يحتاج إليه – وليس من الضرورى أن يعمل ولا أن يقلق على شىء .. فكل ما هو ضرورى وزيادة موجود عنده ، أما الذى يجب أن يفعله فى حياته فهو أن يختار عملا ممتعا . وبذلك يضيف المتعة إلى الاطمئنان ثم يتناول الحياة على مهله .. وهو يفعل ذلك .

قال : أنت جائع ؟

قلت : نعم

قال : تريد شيئا معينا ؟

قلت : أى شىء

قال : هل تأكل لحم الخنزير ؟ ..

قلت : إلا لحم الخنزير !

قال : غريب أمركم يا من تدرسون الفلسفة .. تناقشون كل القضايا .. وتتهجمون على كل مشكلة .. وتتطاولون على السماء والأرض والأنبياء والزعماء والكتب والمعجزات ، دون أن تهتز لكم شعرة .. ثم تقفون أمام الخنزير عاجزين .. أو رافضين ! ..

– هل ذقت لحم الخنزير؟

قلت : أبدا ..

قال : إذن فكيف ترفض ما لا تعرف طعمه ؟ .. إنك ترفض حتى أن تقوم بتجربته .. تجربة

بسيطة وهى أن تضع لحمه على لسانك ، ثم ترفضه .. أو لا ترفضه .. ألا ترى أن هذا شىء عجيب ؟ .. ألا يدل ذلك على عمق الشعور الدينى عند أكثر الناس جرأة على الناس والله والكتب المقدسة ؟ .. لست وحدك الذى رفض لحم الخنزير .. إنما حتى د . عبد الرحمن بدوى ود . لويس عوض .. وقبلكم سلامة موسى .. وأستاذكم العقاد ..

– إذن فهات لى خبزا وجبناً ..

– سأحضر لك ذلك .. ولكنك لم ترد .. لم تناقشنى . ولم تقنعنى .. أنا لا آكل الخنزير .. وليس عندى لحم خنزير .. إنما أنا أداعبك فقط .. وأنا لا أحب لحم الخنزير .. لقد ذقته .. ولم يعجبنى .. فلا هو لحم ولا هو دهن .. ولكنه لحم كريه ودهن فاسد .. ولكن إذا لم أجد مفرًّا من تناوله فسوف أفعل .. فأنا لا أتخذ مواقف عصبية من كل شىء ، كما تفعلون .. فأنا أستطيع أن أحب ما أكره وأن أكره ما أحب .. وأنا أعرف حدودى .. وإذا لم أستطع أن أوقف العاصفة أنحنيت لها .. فما رأيك لو قدمت لك لحم الخنزير مساعدة منى لكى تبقى منطقيا مع نفسك .. فتتذوقه ثم ترفضه بعد ذلك .. ما رأيك ؟ . .

– هل تعلم لماذا جئت إليك وحدى ؟

– لا ..

– لقد كان موعدنا معك الليلة .. موعدنا مع الكلام الفارغ .. الأغانى والنكت .. وتسخيف أفكارنا .. ولكن أجدنى مضطرا لأن أتركك فوراً لكى ألحق بالزملاء ، على المقهى يلعبون الشطرنج .

– هل أغضبتك حكاية لحم الخنزير ؟

– أبدا .. إنما ظننت أننى سوف أريح عقلى من أى شىء .. وقد تعبنا اليوم كثيراً .. ولكن ..

– ولكن ماذا ؟

– ولكن أراك غدا أو بعد غد ..

– انتظر .. والله العظيم عندى لحم خنزير .. قد نسيه صديقنا وليم .. تعال جرب تعال .. تعالوا يا من لا تخافون الله وتخافون الخنازير .. ها ها .. ها ها ..

مَن يَقرأ ومَن يكتب التَّاريخ ؟

على الرغم من أننا سرنا فى الجنازة . وبكينا فى الطريق وعند الوداع ، فإن دموعنا لم تجف . حتى السماء عندما كانت تمطر احترمنا هذه المشاركة – فهى أيضاً تبكى على صديقنا د. حسام أبو الفتوح . يرحمه الله . لم يكن يحب الأستاذ كثيراً . وكان مهذباً فى رفضه لأكثر آراء الأستاذ . وكان يقول : إننى لا أحترم رجلاً لا يرتدى إلا بيجامة واحدة ، مهما كانت أفكاره عظيمة . . إن الطيور تغير ريشها ، والثعبان يغير جلده . . فلا بيجامة الأستاذ مثل ريش الطيور ، ولا هى مثل جلد الثعبان . . وأنا لا أفهم أن يرفض الأستاذ أن يصفه أحد بأنه متصوف ، ثم تكون له بيجامة واحدة من الصوف شتاء وصيفاً . .

وكنا نضحك منه ونقول : نفرض أن أحد أصحاب محلات القمصان والبيجامات يغير كل يوم قيصاً وبنطلوناً وبيجامة ، فهل تفضله على الأستاذ ؟

وكان آخر ما قاله يرحمه الله : أنتم جماعة من المفلسين . . ولكن الله من باب الرحمة بكم أعطاكم أفكاراً فلسفية ، مرة ترتدونها على أنها قيص ، ومرة على أنها بنطلون ، ومرات على أنها بيجامة . . وأنتم سعداء بهذا الوهم العظيم . وأسعدكم جميعًا أستاذكم طبعاً . ومن أجل ذلك أحترمه هو ولا أحترمكم أنتم . . أحترمه هو لأنه صاحب رأى . وأنه حريص على هذا الرأى حرصه على بشرته – أقصد بيجامته . . وأحترمه مرة أخرى لأنه أفلح فى أن يقنع عدداً كبيراً من الشبان برأيه . . وأحترمه مرة ثالثة لأنه إلى جانب ذلك صاحب عقل كبير وصاحب إرادة من حديد . . ولكنى أسحب احترامى لأنه لم يفلح فى أن يجعل نفسه سعيداً . لأننى أعتقد أن عظمة أى مذهب فلسفى أو أخلاقى أو اقتصادى هى بمقدار ما يحققه من أجل سعادة الفرد والمجتمع والدولة أو الإنسانية كلها . . قد يكون صاحب المذهب أقل الناس سعادة . . ولكن السعادة مثل الطعام : أناس يشترونه من السوق . . وأناس يصنعونه فى البيت . . وأناس يطبخون السعادة .. وأناس يأكلونها . . وليس أكثر الناس طهواً للسعادة أسعدهم . فالأم قادرة على العطاء وعلى صنع السعادة لأولادها ، ولكنها ليست أكثر الناس سعادة . . والشجرة الكبيرة تتلقى ضربات الشمس ، بينما يلعب الناس فى ظلها . . وقد لا يلتفتون إلى الشجرة وظلها . . وقد تسمع الشجرة عدم الامتنان لها . . كما يعتاد الأمهات

والآباء والأساتذة والمصلحون والأنبياء . . ولكن عباقرة العطاء لا يستمعون كثيراً لصيحات الكفر أو الجحود ، إنما لا يتوقفون عن إسعاد الناس . . إننى لا أرى فى التفافكم حول الأستاذ امتناناً له . . إنما أرى ذلك استطلاعاً لآفاقه وأعماقه . . وهذا هو الشيء الوحيد الذى يجعلنى أطمئن عليكم . . فأنتم لستم ظل الأستاذ ، ولا أنتم ذيل طويل له يتلوى فى كليات الآداب والحقوق والزراعة والطب والهندسة والأزهر الشريف . . ولذلك أرى أن الأستاذ ليس هو مستقبلكم . . ولن يساعد على تكوين مستقبلكم . . إنما هو يضيء لكم ، وليس هو المصباح الوحيد فى حياتكم . . وإن كان أكبر المصابيح . . ولو أعطانى الله عمراً لأقمت للأستاذ حفلة تكريم كبرى ، أدعوكم – طبعاً – إليها ، وأعلن كفرى به ، وفى نفس الوقت أعلن أننى لا أرى من هم أعظم منه . . إنه أعظم العقول ، ولكنه لا يلغى عقلى ، إن كان إلهاً لأحد منكم ، فلست أرى فيه إلهاً . . لأننى أنشد ما لا ينشد ، وأحب ما لا يحب : إنه يفكر فقط . . وأنا أرى أن التفكير الذى لا يحقق السعادة لى ولغيرى ، ليس إلا لهواً عقلياً ، وعبثاً لفظياً ، وميوعة أخلاقية ، وفوضوية . . منتهى الفوضوية ! . .

يرحمه الله ، كانت آخر كلماته يوم كنا نلتف حول فراشه وهو يوزع علينا ممتلكاته : من الولاعات والأقلام والكتب والصور . .

وكانت آخر ضحكاته قوله لنا : أما الذى لا أستطيع أن أتركه لكم ، فهو شيء لا تعرفونه ، ويبدو أنكم لن تعرفوه : سعادتى . .

وعلى وجهه السعادة والرقة والصفاء ، انتقل إلى حيث لا نعرف . .

وكنا أكثر حزناً عليه من إخوته . . فلم تكن تربطهم صلة قوية . . إنهم من أمهات مختلفات ومن آباء متعددين . . ولكنهم جميعاً طيبون ومثقفون . وكان انحناؤهم للموت أعمق من انحنائهم للذين جاءوا يطيبون خاطرهم ، ويجففون دموعهم عليه . . ولم يمض وقت طويل حتى تساقط الثلاثة الإخوة وراءه . . ولأسباب مختلفة . . أحدهم مات فى أحد المصاعد . . والثانى فى طائرة أمريكية بالقرب من مطار القاهرة . . والثالث فى حادث سيارة . . والذين رأوهم جميعاً يقولون : إن السعادة التى تركها دكتور حسام قد ورثها إخوته . . فقد كانوا سعداء عند موتهم . . ولم يظهر الفزع على وجوههم ، كأنهم أرادوا اللقاء به . وكانت أسرع وسيلة مواصلات إلى العالم الآخر : أن يموتوا جميعاً . . وأصبح بيتهم فى الزمالك قبراً أنيقاً ، وأصبح السفرجى هو سيد هذا القصر ، إلى أن فصلت المحاكم فيمن يجب أن يملك هذا القصر المهجور . .

ولم أعرف ماذا حدث بعد ذلك لبيت ذكرياتنا الجميلة . . كل ما حدث هو أن نقلنا ذكرياتنا من هذا القصر الأنيق إلى غرف مظلمة نحملها على أكتافنا . . إلى رءوسنا . . وبعضنا دفنها فى رأسه . . وبعضنا جعلها مثل حمام الزجل . . يطلقها بعيداً ، ثم يعيدها إلى رأسه . . وبعضنا ادخرها نموذجاً

لما يجب أن يكون عليه الإنسان : غنياً مثقفاً مهذباً سعيداً مستقلا فى طعامه وشرابه وفكره . . ثم يموت محبوباً من كل الناس . .

غير أن واحداً من أصدقائنا فقط هو الذى رأى فى هذه الأسرة نموذجاً لما يجب أن يحاربه حتى الموت : الأغنياء بالوراثة . . الأغنياء بلا سبب إلا أن آباءهم كانوا أغنياء . .

وصديقنا هذا يفضل أن يضع كلمة « لص » بدلاً من كلمة « غنى » . . لأنه لا يوجد أى سبب واحد معقول لأن يكون الإنسان أغنى من الآخرين . . لماذا ؟ لأن الناس ما داموا قد ولدوا متساوين فن أين يجيء هذا الاختلاف فى النهاية ؟.. لقد ولدنا عراة . . ثم اختلفت ملابسنا بعد ذلك . . فلماذا تختلف الملابس فى الكم إلى هذه الدرجة ، فتكون للأستاذ بيجامة واحدة ، ولأحمد عبود باشا ألف واحدة ؟ . . لماذا يجلس الأستاذ ينطح كل الفلاسفة والأنبياء ، ويعود إلى فراشه يحمد الله على أنه أكل وشرب وذهب إلى دورة المياه . . أو لأنه ذهب إلى دورة المياه فاستراح ؟ مع أن هذه الراحة يحققها أى حمار يجر عربة كارو فى شارع السلطان سليم حيث يعيش الأستاذ . . إلخ .

كانت هذه المعانى وغيرها تدور بى وأنا جالس فى سيارة صغيرة أمام بيت الأستاذ . . فقد ذهب صاحب السيارة يشترى سجائر بعد أن فشل فى تحريك السيارة إلى أبعد من بيت الأستاذ . . وظللت أنا أرى دموع السماء تنزل على الزجاج . . وبعضها نزل من سقف السيارة المصنوع من القماش . . وألصقت خدى إلى زجاج السيارة ورحت أبكى على موتاى . . . « فالأسى يبعث الأسى » – كما يقول الشاعر القديم . .

واقترب من السيارة خادم الأستاذ يقول : الآن تستطيع أن تصعد ، فالأستاذ قد جلس فى الصالون . . وهو لا يتوقع أن يجيء أحد . . ولكنه قال لى : إنك أنت الذى سوف تجيء مهما كانت الأمطار والعواصف . . وكانت دعوة عاجلة بضرورة أن أصعد إلى الأستاذ . . وتركت السيارة وبابها مفتوح . وجاء من سرق كل ما فيها من ملابس وحقائب . . وكان ذلك سبب الضيق الذى ظهر على وجه الصديق صاحب السيارة ، عندما تبعنى إلى صالون الأستاذ . . وكنت تصورت أن شيئاً من الذى سمعه عندما دخل الصالون قد ضايقه . . فقد كان الأستاذ يعلق على خبر نشرته الصحف عن أن أحد اللصوص دخل بيتاً وسرق كل ما به ، ثم إنه قد أعاد ترتيب البيت وتنسيق الورود وخرج . .

فقال الأستاذ : شيء عجيب فى طبيعة الإنسان . : فالإنسان حيوان منظم . . أو حيوان ينشد النظام . وهو تماماً كما كتبت أنت منذ أيام يا مولانا . .

وأشار الأستاذ ناحيتى : أنت كنت تقول إن الإنسان مثل العنكبوت يفرز خيوطه التى هى بيته والتى هى المصيدة التى ينصبها لاصطياد فريسته . . فإذا مات تعلق فيها . . فهى إذن البيت والسلاح والمقبرة . . ولا أجد تعبيراً أحسن ولا أفضل من ذلك فى التعبير عن طبيعة الإنسان . . فالإنسان – كما

قلت – يفرز قيوده . . أو يفرز شريعته أو قانونه . . أو حبل المشنقة الذى يتعلق فيه بسبب كل ما أفرزه من أفكار . . وأرى أن هذا التعبير أدق من العبارة التى تقول إن كل إنسان يحمل صليبه . . أى أنه يحمل وسيلة التعذيب التى سوف يموت بها . . فالإنسان لا يحمل صليبه ، إنما الإنسان هو صليبه . . هو مصدر الحيلة والموت لنفسه . . فأنت لست فى حاجة إلى حيثيات حكم لكى تقضى على أحد . . إنه هو حيثيات الحكم . . إنه هو أسباب الإدانة . . ولذلك كانت العبارة الفرنسية الشهيرة صحيحة . . تلك العبارة التى تقول : أعطنى سطراً واحداً لأكثر الناس حرصاً ، وأنا أجد كلمة واحدة يستحق عليها الشنق . . هذا صحيح . .

وأجس صديق صاحب السيارة كأن الأستاذ يقصده ، فقال معترضاً : ولكن اسمح لى يا أستاذ . . أنا لا يمكن أن أكون مسئولاً عن كل شىء . . ولذلك فليس من العدل أن يحاسبنى أحد على ما أقول أو أفعل . . مثلاً : إننى لم أختر لغتى العربية ولا دينى الإسلامى ولا لون بشرتى ولا طبقتى الاجتماعية . . ولا قوتى الجسمية أو ضعفى . . ثم كيف تحاسبنى على أن أكون ردىء التعبير إذا كنت لم أتعلم اللغة العربية ؟.. كيف تحاسبنى على تفاهة تفكيرى ، إذا كنت قد تعلمت الكلام ولم أتعلم التفكير؟.. إننى أختلف معك يا أستاذ . . فأنت تقسو على الإنسان عندما تجعله هكذا ، مثل الوجوديين ، حراً تماماً ، وهو لذلك مسئول تماماً . وما دام مسئولاً تماماً ، فلا عذر له ، ولا اعتذار له أيضاً . . أى أن كل الذى يلقاه هو بالضبط ما يستحقه . وعلى ذلك يجب ألا نقبل له عذراً . ويجب ألا يعتذر إليه أحد من الناس . فالعدل هو ما يلقاه الناس . وأنا أرى أن هذا يتناقض حتى مع فلسفتك أنت يا أستاذ . . هل أنت مسئول يا أستاذ عن إصابتك المزمنة بالمصران الغليظ ؟.. وحتى لو كنت مسئولاً عن ذلك ، فهل من العدل أن يلقى رجل مثلك كل هذا العذاب الجسمى والعناء النفسى ، وأنت سيد الناس فى هذا البلد ؟.. فإذا شاء أحد أن يختار رجلاً يمثل قمة الفكر النبيل ، فلن يجد سواك يا أستاذ . . وإذا أراد غنى عادل أن يكافئ مواطناً مخلصاً محباً لبلده وربه وأهله ، ليعطيه مليوناً من الجنيهات ، فلن يجد من هو أفضل منك يا أستاذ . . فهل نلوم أغنياءنا لأنهم جهلاء ؟.. أو هل نقول : لأنهم جهلاء فهم لا يعرفون قدرك . . ولأنهم لصوص قد سرقوا مقدرات الناس ، فهم يكرهون أى إنسان له قدر غير مسروق من أحد ؟.. إننى اختلفت كثيراً مع زملائى فى هذه النظرية . . هم يرون رأيك ، وأنا لا أرى رأيك يا أستاذ . . وسوف أضرب لك مثلاً بسيطاً وأرتضى فيه حكمك . . وأرى أن حكمك نهائى لا استئناف له . . إننى ورثت عن أمى الحساسية الشديدة . . وأعتقد أننى أشبه الأخ . . . (وأشار ناحيتى) فهو قد ورث أيضاً هذه الحساسية المرضية عن والدته . . فلا يكاد يبدأ الشتاء حتى أصاب بالزكام . وأظل مزكوماً إلى ما بعد الشتاء . . ومن الممكن أن أظل هكذا طول العام . ولا دخل لى فى ذلك . . وأضرب مثلاً واحداً كنتيجة لهذا الزكام . . لقد

أحببت فتاة . واتفقنا على الزواج . وأقنعت أمها وأباها . وكان لابد أن أذهب بنفسي «وأفاتح» والدى العروس . ولم أذهب . وغضبت العروس وتركت مصر وعاشت مع أخيها فى أمريكا . وصدمت بعنف . ودخلت مستشفى الأمراض العقلية . هل تعرف لماذا يا أستاذ ؟.. فى ذلك اليوم انقطع التيار الكهربى . ولم أجد ماء ساخناً أستحم به ، وكنا فى الصيف . وأنا أستحم بالماء الساخن صيفاً وشتاء . وكان استحمامى بالماء البارد سبباً فى العطس والزكام والسعال . ولم أذهب للقاء العروس . ولم أجد أحداً يعتذر عنى . فهل يصدق أحد أن انقطاع التيار كان سبباً فى هدم هذه الأسرة التى كان من الممكن أن تكون سعيدة ؟.. هل السبب هو انقطاع التيار الكهربى ، أو هو حساسيتى الشديدة للبرودة ؟.. فهل أنا مسئول يا أستاذ عن هذه الحساسية المرضية التى ورثتها عن أمى ؟.. إننى أكتفى بهذا المثل . . وهو واحد من ألوف يا أستاذ ، وإننى أرتضى حكمك فى النهاية .

ولم يسترح الأستاذ لهذه القضية التى أثيرت فى مثل هذه الساعة المبكرة . والذى ضايقه أكثر : أنه لم يكن قادراً على متابعتها . فقد كان التليفون يرن كثيراً . ويجىء الخادم فى صمت ينظر إلى الأستاذ بما يدل على أنها مكالمة لا يصح تأجيلها . .

وكان الصديق أسعدنا جميعاً وهو يقول : أمامك الأستاذ فى بيته . . وهو حر يفعل ما يشاء . . ومع ذلك فلا يستطيع أن يكمل عبارة واحدة . . لماذا ؟ لأنه ليس حراً تماماً . وإن كان لاحق له فى هذا الضيق الذى يبدو عليه . . لأنه يستطيع أن يرفع سماعة التليفون . . ولكنه لا يريد . . فهو يريد أن يناقش بصورة متقطعة ، لأنه يريد أن يرد على التليفون . . ولذلك فهو عاجز عن تغيير الموضوع ، وعاجز أيضاً عن أن يقول : لا . . لكل من يطلبه . . ويبدو أن الذين يطلبونه لا قيمة لهم . . والدليل على ذلك ، أنه فى كل مرة يفرغ من المكالمة التليفونية يبدو أكثر قرفاً . . ونحن لا نعرف إن كان القرف من المكالمة ، أو من اضطراره إلى استئناف الحديث معنا . . أنتم أحرار مثله ، اسألوه . . اسألوه . .

وأشار الأستاذ إلى الخادم أن يرفع سماعة التليفون . . وعاد الأستاذ ليقول لنا : إن هناك فارقاً بين ثورة عرابى باشا . . وثورة سعد باشا . . وأنا لن أبعد كثيراً عن الموضوع الذى كنا نتناقش فيه . . فثورة عرابى غضبة شعبية ينقصها النظام . . أو تنقصها «النظرية» التى ترتب خطوطها وخيوطها أيضاً . . والعرب يصفون تركيب حبات العقد فى خيط واحد بأنه «نظم» العقد . . ويقولون «نظم» الشعر . أى الترتيب لشىء وفقا لخطة أو نظرية.. فالثورة العرابية كانت تنقصها الأسباب المعروفة التى تجعل منها ثورة .. لأنه لا ثورة بغير خيط .. أى بغير عمود فقرى .. أى بغير نظرية تنظم الصفوف ، وترسم الطريق .. وكما أن الإنسان ثورى بطبعه ، فهو فلسفى بتكوينه .. أى أنه صاحب غضب وصاحب نظرية لتنظيم مسار الغضب . فالإنسان يفرز الغضب ويخط سير الغضب .. بينما ثورة سعد باشا .. كانت الثورة التى لا ينقصها شىء .. فالزعيم موجود .. والغضب الشعبى موجود .

وأسباب الغضب موجودة .. وكذلك الفلسفة التى تمسك الناس وتطلقهم وتصدهم وتشدهم وتدفعهم بصدور عارية إلى المدافع .. فالحياة قد هانت عليهم مادام الاحتلال موجودا .. احتلال الأرض واستباحة العرض .. أى احتلال كرامة الإنسان .. إن ثوار سعد باشا لم يكونوا يطلبون طعاما ولا مالا ولا جاها .. ولا انخفاضا للأسعار . ولا ارتفاعا فى الأجور .. فقط كانوا يطلبون الكرامة .. مزيدا من الكرامة .. ولم تظهر ثورة مضادة فى ذلك الوقت تساوم الشعب الثائر على نصيبه من الكرامة .. فلم يتساءل أحد : إن كانت الكرامة يجب ألا توزع بالعدل بين أصحاب الجلاليب الزرقاء وأصحاب الياقات البيضاء ؟ لم يتساءل أحد هكذا . . لأن الكرامة للجميع .. وليس من شأن أحد أن يسأل ثائرا : ما الذى يصنعه بكرامته .. وأيام الحملة الفرنسية كان الشيخ عبد الرحمن الجبرتى صاحب رأى ، وإن لم يكن صاحب فلسفة .. فهو قد أعجبه من الفرنسيين الذين يحكمون مصر أن لهم فلسفة .. وأنهم جاءوا ينشرونها بالسلاح ، وتمنى أن نواجه الفرنسيين بفلسفة أخرى .. إن الشيخ عبد الرحمن الجبرتى معجب بالفرنسيين ، ولكنه ليس معجبا بظلمهم .. إنه معجب بأن محاكماتهم للمصريين ، وإن كانت صورية تعسفية ، فإنها محاكمة : أى أنهم يتركون المتهم يبدى رأيه ، ويأتون له بمن يدافع عنه ، لأن أكثر المتهمين لا يحسنون التعبير ، أى لا يحسنون الدفاع عن أنفسهم .. وربما كان من الخير ألا تكون للشيخ الجبرتى فلسفة .. لأن المؤرخ إذا كان فيلسوفا أيضا ، فإنه لا يتحرى الحقيقة .. إنما ينقل منها ما يتفق مع نظريته .. أى أنه لا يصور العالم كما هو ، إنما يصوره كما يجب أن يكون .. ولذلك فإننى أرى أن الشيخ الجبرتى أفضل كثيرا من عبد الرحمن الرافعى ، وأفضل من المؤرخ الأمريكى برستد الذى كتب عن مصر الفرعونية ، وأفضل من المؤرخ اليهودى يوسيفوس .. ولا أحب كثيرا أن أقرأ المؤرخ الألمانى أوزفالد اشبنجلر وخاصة كتابه « انحلال الغرب » . . . لأن اشبنجلر هذا قد وضع لحوادث العالم قواعد وأصولا ، وأرغمها أن تمشى أو ترقص على إيقاع موسيقاه هو .. فهو ليس مؤرخا ، إنما هو أستاذ يعلم التاريخ كيف يرقص ، بدلا من أن يتركه يمشى على طبيعته ..

ثم جاء الخادم ، وقدم ورقة قرأها الأستاذ وقال : قل له يتفضل .. صدفة غريبة .. قل له يتفضل .. إنه السيد عبد الرحمن الرافعى .. إنه توارد خواطر غريب .. لقد ذكرت اسمه بالضبط عندما وقف عند الباب ..

ولم نعرف ما الذى سوف يفعله الأستاذ .. إنه لا يحب كثيرا أن يكون المؤرخ فيلسوفا أو أديبا أو شاعرا أو سياسيا .. لأن المزاج الخاص للمؤرخ سوف يفسد تسجيله للتاريخ . ولكن كيف يتجرد الإنسان تماما من مواهبه أو من مزاجه أو أمراضه أو حبه أو كرهه عندما يكتب أى شىء ، سواء كان ذلك فى التاريخ أو فى الأدب ؟ .

وكان الأستاذ عبد الرحمن الرافعى قصير القامة ممتلئا شديد البياض والحمرة ، هادئ الحركة والصوت ، من أقطاب الحزب الوطنى ، ومن أنصار مصطفى باشا كامل ومحمد بك فريد وغيرهما .. وحاول الأستاذ الرافعى أن يجلس على أول مقعد بالقرب من الباب .. ولكن الأستاذ طلب إليه أن يجلس إلى جواره ، ثم قدمنا إليه جميعا .. وضحك الأستاذ قائلا : ليس منهم واحد يدرس التاريخ .. هاها .. هاها ..

قال الأستاذ عبد الرحمن الرافعى : إننى أفضل أن أقرأ التاريخ وليس أن أكتبه .. ولذلك أتفق معك يا أستاذ فى أن يكون التاريخ من خلال شخص عظيم قد عاش وقاوم وكافح ثم انتصر فى النهاية .. ويكون انتصاره ليس انتصارا لشخص ، إنما هو انتصار لشعب ولجيل .. ولو اتسع وقتى وطال عمرى لكتبت عن كل زعماء مصر واحدا واحدا .. أنت فعلت ذلك يا أستاذ فى سلسلة العبقريات .. فكانت أروع ما عرفت السيرة الإسلامية .. وكتابك عن سعد زغلول هو أروع ما كتب المؤرخون فى مصر الحديثة .. وأنا أختلف معك يا أستاذ فى أشياء كثيرة ، ولكن الصورة التى رسمتها لسعد زغلول رائعة الخطوط والملامح والألوان .. وهو قدوة حسنة .. لمن يكتب أو يفكر أو يحرر بلده ..

وتحدث الرجلان بسرعة فى أشياء لم نفهمها ، وجاءت أسماء عدد من الباشوات . وكان الأستاذ يتوجه بالحديث إليه . . وكان صوته منخفضاً كأنه يهمس فى أذنه على مسمع منا . . ثم استأذن الأستاذ الرافعى ، وتبعه الأستاذ . وظل واقفاً يتحدث إلى الأستاذ الرافعى حتى نزل الدرج تماماً . وعاد .

وقال أحدنا : نعود إلى ما كنا فيه يا أستاذ . .

وكأن شيئاً لم يحدث . وكأن أحداً لم يحضر لزيارته ، عاد الأستاذ يقول : أريد أن أقول إن الإنسان « منظم » منتظم بطبيعته . . حتى اللصوص لهم قواعد وأصول . . بل إنهم يقسمون على المصحف . . ومن الغريب أنهم لا يخونون العهد . . رغم أنهم يدوسون القوانين كلها . . والكتب المقدسة . . وهذا اللص الذى حطم الباب والنوافذ . وحطم قبل ذلك القانون ومبادئ الأخلاق ، عندما اتسع وقته فإنه أعاد تنظيم البيت . . كأنما أراد أن يترك بصماته الأنيقة لآخر مرة . . فإذا عاد أصحاب البيت ، ووجدوا نظاماً أفضل اندهشوا . . وتكون هذه الدهشة استنكاراً لأن يكون الزائر لصاً . . أى أن اللص أراد أن يحظى باحترامهم ولو لحظة واحدة . . ولكى يحظى بهذا الاحترام ، قرر أن يكون منظماً أنيقاً . .

وسكت الأستاذ ليقول : شىء آخر .. فى القرن التاسع عشر ظهر عدد من المتمردين عقليا .. أطلقوا على أنفسهم اسم « الفوضويين » — أى الذين يرفضون النظام . أو على الأصح الذين يرفضون

أن تكون هناك حكومة من أى نوع .. وفى مقدمة هؤلاء الكاتب الفرنسى يوسف برودون . وكان يعتقد أن الحكومة أو التحكم أو الاحتكام هو مصدر الشر فى هذه الدنيا .. فالحكومة معناها : أن يحكمك واحد ، ويتحكم فيك واحد ثان ، ويتجسس عليك ثالث ، ويحاكمك ظلما رابع ، وهذا يزنك وهذا يقيسك . وهذا يوجهك وهذا يشرع لك .. وفى النهاية لاتجد نفسك . وهو صاحب العبارة الشهيرة التى هزت القرن التاسع عشر : الامتلاك سرقة ! ومن الغريب أن هذا الرجل الذى رفض الحكومة . أى رفض النظام والقواعد والأصول والقانون . قد ألف مذهبا فلسفيا .. وعلى الرغم من أنه كان ضد الأحزاب فقد ألف حزبا .. وعلى الرغم من أنه ضد الدستور ، فإن الدستور الفرنسى سنة ١٨٤٨ قد جعله عضوا فى الجمعية التأسيسية .. ولما أصبح عضوا بنص الدستور . قام فأعلن رفضه للدستور .. ولكل الدساتير . . . فهو فى جميع الأحوال يرفض النظرية لكى يشكل نظرية أخرى . ويرفض الأحزاب ويؤسس حزبا . ويقبل الدستور فيكون عضوا ثم يرفضه .. أى أن الإنسان عندما يرفض النظام .. يكون ذلك الرفض منظما ، وعندما يرفض فلسفة تكون هذه فلسفة جديدة .. وهكذا .. فالإنسان لايستطيع أن يهرب من غريزته التاريخية التى كانت سببا فى بقائه حتى اليوم : أنه منظم بغريزته . وقد قرأنا لعلماء السلالات البشرية أبحاثهم فى وادى الأمازون حول بعض القبائل البدائية .. فهذه القبائل تطلب من شيوخها إذا اشتد عليهم المرض أن يبنوا قبورهم .. بنفس الحماسة التى بنى بها الفراعنة أهرامهم .. أو كما تبنى دودة القز قبرها من الحرير .. ولاحظوا أن هؤلاء البدائيين يقضون سنوات طويلة من أعمارهم فى بناء هذه القبور فى نظام أنيق .. فما فائدة النظام لمن سيدفن فيها ؟ .. لا فائدة .. ولكن الذى بنى القبر يجد متعة فى النظر إليه من حين إلى حين .. وهذا يجعلنا نقول إن الإنسان : مهندس بغريزته .. وعندما تحمس فلاسفة القرن الثامن عشر لعلوم الرياضة وصفوا الله بأنه أعظم مهندس .. وهم لم يتجاوزوا الحقيقة .. فمن المستحيل أن يتحقق فى الدنيا شىء دون هندسة .. فالسياسة هندسة اجتماعية .. والطب هندسة جسمية نفسية .. والشعر هندسة موسيقية .. والموسيقى هندسة صوتية .. وجوهر الهندسة : النظام .. ولا تزال الأرقام والمعادلات هى أرقى وأوضح ما اهتدى إليه الإنسان .. ولا يزال الوضوح هو المثل الأعلى والهدف الأسمى لكل أصحاب الأفكار والنظريات .. فإن لم يكن الإنسان مهندسا فهو يحلم بأن يكون كذلك ..

وكأن الأستاذ قد أحس أنه ابتعد كثيرا ، فأراد أن يعيدنا إلى ما يريد أن يقول . ونظر إلينا كأنه يتأكد من أننا على مستوى الوعى ، أو كأنه طيار أراد أن يهبط اضطراريا فطلب إلينا أن نلتزم الهدوء . وأن نربط الحزام ، وأن نمتنع عن التدخين ، وألا يبرح أحد مكانه ، فقال محدثنا الزميل الذى يرفض الكثير من فلسفة الأستاذ ، ويشارك زميلنا الفقيد فى كثير من آرائه : أنت تقول يا مولانا إن الزكام هو الذى منعك من الزواج .. تماما كما أن الدوسنطاريا الأميبية هى المسئولة عن

أوجاعى .. إننى لا أختلف معك يا مولانا إلا فى شيء واحد .. لقد كان فى وسعك أن تذهب إلى خطيبتك مزكوما ، إن أحد شعراء « التروبادور » فى العصور الوسطى الأسبانية ، قد وعد حبيبته بأن يلقاها فى أحد الأيام .. ففاجأه الموت ، ولكنه طلب أن يحملوه إليها ولو مات فى الطريق .. لقد فضل أن يموت صادقا ولو لم يستفد من هذا الصدق شيئا .. ولكن إحساسه بأنه صادق هو القناع الذى غطى بالهدوء والقناعة وجهه .. وكان قناع السعادة تحديا لقناع الموت .. فكأنه ارتضى محبوبته ورفض الموت .. وهو سعيد فى النهاية لأن حبه أقوى من الموت ، وكان فى استطاعتك يا مولانا أن تبعث من يعتذر لها .. أو من يدعوها لزيارتك .. أوكان فى استطاعتك أن تكتب إليها .. ولكنك فضلت أن تحتكم إلى قانون الوراثة ، وأن تلقى باللوم على والدتك .. فأنت – إذن – مسئول عن الذى فعلت .. ولكنك قررت أن تعفى نفسك من المسئولية .. وأن تلقى اللوم على انقطاع الكهرباء .. أو انقطاع الماء ، أو على مرض والدتك .. وأنا أيضا مسئول مثلك .. فأنا لا أفعل ما يريح المصران .. إنى أرهقه بالتعب والسهر والانفعال .. وفى نفس الوقت لا أستطيع أن أغير حياتى كلها ، لأفوز فى النهاية بعقل مكدود ، ومصران مستريح .. بل من المستحيل أن يستريح مصرانى إذا كان عقلى مرهقا .. ولا أقوى على أن أبقى نائما هادئا خامدا خاملا ، لأننى لاأريد من الدنيا سوى راحة المصران الغليظ .. وأنا أستطيع أن أقول بوضوح تام ، وفى غاية التعاسة ، إننى أعمل جاهدا وبصورة منظمة على إشعال النار فى مصرانى الغليظ .. فليست حياتى إلا عذابا منظما .. وهذا العذاب من اختيارى .. ولكى أكون منصفا فإننى أضيف إلى العبارة السابقة : وهذا العذاب من اختيارى إلى حد كبير .. وأقول إلى حد كبير لأن الإنسان يستطيع أن يغير وأن يبدل فى أسلوب حياته .. تماما كالذى ينزل من القطار قبل المحطة .. أى أثناء السير .. أو الذى ينهض فى منتصف الطعام – فليس ركوب القطار قيدا عليك ، وليس الجلوس إلى المائدة قيدا على حريتك فى الطعام والشراب ..

وفجأة ظهر الأستاذ عبد الرحمن الرافعى ،فقد نسى بعض أوراقه إلى جوار المقعد الذى كان يجلس عليه ، وابتهج الأستاذ لرؤيته ، وأصر على أن يبقى ليشارك فى هذا الحوار بيننا . . وحتى لايحرج الأستاذ هذا المؤرخ الكبير قال فى عبارة رقيقة جدا،وهو يعلم جيدا ما الذى يقوله : هل تذكر أن عرابى باشا عندما ذهب إلى جزيرة سيلان دارت مناقشة بينه وبين أصحابه وكان موضوعها : لوكان الذى يعلمنا كافرا بديننا فهل نتلقى منه العلم ؟ .. أو بمعنى آخر يجب أن يعلمنا اللغة الإنجليزية مثلا واحد من ديننا ، وما دام من ديننا فإننا نطمئن إليه ، وما دام من غير ديننا فيجب ألا نطمئن إليه . . ألا تذكر ذلك ؟ ..

واندهش الأستاذ الرافعى ، ونظر إلينا جميعا فى أبوة وقلق ، وقال متوجها إلى الأستاذ دائما : ولكن هذه بداية غير مشجعة من مثل هؤلاء الشبان .. فما دخل الدين أو العنصر أو المذهب فى

التعليم ؟ .. إن هناك علوما لا تتأثر بمزاج المدرس .. مثلا : الرياضيات .. الكيمياء .. الطب .. الفلك .. ما الذى يستطيع المدرس الزنجى أو السويدى أو المسلم أو البوذى أن يفعله إذا قال إن ٢+٢=٤ ؟.. آسف جدا يا أستاذ أن أردد هذا الذى قلته أنت فى إحدى محاضراتك فى الجمعية التاريخية .. أنت الذى قلت إنه لا توجد رياضيات إنجليزية وفلك فرنسى .. ولا توجد كيمياء أمريكية وكيمياء صينية .. فمثل هذه العلوم الرياضية أو الطبيعية لا دخل للإنسان فيها .. وأنا أرى أن الشباب يجب أن يتعلموا وألا ينظروا إلى لون أو جنس من يعلمونهم ذلك .. وأنا مندهش حقا لأننى منذ وقت طويل أسمع هذه النغمة .. وقد أخجلنى أن الثورة على الإنجليز قد جعلت بعض الشبان يحرقون الكتب الإنجليزية .. إننى أفضل أن يحرقوا العلم الإنجليزى .. فهو رمز وإحراقه رمز .. ولكن إحراق الكتب .. رمز لأى شىء ؟ رمز على الجهل .. فنحن فى حربنا مع العدو أو ثورتنا عليه ، فى حاجة إلى العلم .. بل فى حاجة إلى أن نتعلم منه لنقاومه بسلاحه .. تماما كما نسرق الأسلحة من معسكرات الإنجليز ونضربهم بها ..

وحاول الأستاذ أن يقترب أكثر فقال : كان من بين الذى ناقشه هؤلاء الشبان أيضا أن المؤرخ يجب أن يكون موضوعيا .. أى يجب أن يسجل أحداث التاريخ دون أن يتدخل فى مسارها .. تماما كما يسجل عالم الفلك الكواكب والنجوم .. يرصدها فقط ولا يفرض إحساسه أو ذوقه على الناس .. هذه تساؤلات هؤلاء الشبان ..

قال الأستاذ عبد الرحمن الرافعى : ولكن هذا مستحيل .. إن هذا يشبه أن نقول للشاعر لاتكن عاطفيا .. أو نقول للرسام لا تكن حساسا .. أو نقول للمطرب لا تهتز أثناء الغناء .. إن المؤرخ إذا قال لنفسه .. يجب أن أنشد الصدق والعدل فى كل ما أكتب . فهذا رأى وهذا عهد .. وعلى ذلك فهو رجل أخلاق يريد أن يجعل من التاريخ درسا وموعظة وعبرة ، وإلا فما هى فائدة كتابة التاريخ ؟ .. لابد أن تكون هناك فائدة من الكتابة .. الفائدة هى الهدف .. والمتعة هى الهدف الثانى . والمتعة التى يجدها القارئ هى التحية التى يقدمها للمؤرخ . أما الصدق فى التسجيل فهو التحية التى يوجهها المؤرخ للقيم الأخلاقية والوطنية .. وأنا لا أستطيع إلا أن أكون وطنيا أخلاقيا .. وأنا حين أسجل تاريخ مصر ، فأنا أكتب قصة حياة : أمى وأخوالى وأجدادى ، ومستقبل أولادى .. ولابد أن أكون بارا بأمى ، محبا لإخوتى ، رحيما بأولادى .. ولا أستطيع أن أكون محايدا إذا رأيت دم أمى يسيل .. أو إذا رأيت من يتآمر عليها .. قد تكون هذه هى النزاهة العلمية .. ولكن لا أستطيع أن أكون منزها عن الغضب والحب والخوف .. قد لا أفزع إذا رأيت أحدا يذبح خروفا .. ولكن كيف لا أفزع إذا رأيت أحدا يذبح طفلا أو شعبا .. إن هذه النزاهة العلمية ، هى بلادة حسية ، وبلاهة قومية .. فما دمت أنت محبا فأنت مغرض . وما دمت وطنيا فأنت مغرض . ولكن غرضك هنا شريف .. إن

التاريخ يقول لنا إن العالم الفرنسى شامبوليون عندما اكتشف حجر رشيد كان يقبله .. ولو رآه أحد الناس دون أن يعرف من هو ، وما الذى يركع ويسجد أمامه ، لظنه وثنيا يعبد صنما .. إن حماسته العلمية قد جعلت منه عابدا لصنم .. عاشقا لاكتشاف جديد .. وأعتقد أن كل مؤرخ هو عاشق لشىء ما .. وأن هذا العشق الذى يوقظ وجدانه ، ويشعل فكره ، كثيرا ما جعله يفقد عقله أيضا ..

قال أحدنا : نحن سعداء بأن يكون الأستاذ الرافعى بيننا .. فأنا واحد من المعجبين به .. ولكن من الغريب حقا أن هذه الحرارة وهذه الشاعرية لاتظهر فى كتبه ، ولو كان الأمر بيدى لوضعت هذه العبارة الحارة على أغلفة كتبه ليعرف القارئ أى رجل هو ، وأى عاشق لمصر هو .. فنحن نفتقد فى كل الذى يكتبه مثل هذه الشاعرية .. بل إننا نجده يتحدث كثيرا عن أحداث مصر فى العصور الحديثة ، وكأنه قرفان منها .. أى أنه محايد تماما عن المشاعر الإنسانية .. فلا هو راض ولا هو ساخط .. وهو عكس ما يقوله الآن تماما .. وإذا كان هذا الذى قاله الأستاذ الرافعى هو رأيا جديدا ، فنحن سعداء بهذه الثورة على نفسه .. وهذا يدل على أنه شاب يتدفق حيوية .. ومن مظاهر حيويته قدرته على أن يجدد نفسه ، ويجدد ثوبه ، أو يغيره تماما .. فليس من الحيوية ألا يتغير ريش الطائر ، أو ثوب الإنسان ..

قال أحدنا : عندى سؤال لكما معا .. عندى سؤال قد وقف فى حلق منذ قرأت ماكتبه أخيرا د . محمد عوض محمد عن رحلته لليابان .. لقد ذهب د . محمد عوض محمد أستاذ الجغرافيا والأدب ، وأحد الذين نفاهم الإنجليز بسبب ثورة سعد زغلول إلى جزيرة مالطة .. وهو الذى ترجم « فاوست » للشاعر الألمانى جيته .. وترجم أيضا رواية « هرمان ودروتيه » للشاعر جيته أيضا ، ومن اللغة الألمانية التى تعلمها فى المنفى .. كتب أخيرا يقول : لو عرفت مصر النظام فى أى شىء ، لظهرت على وجه الدنيا .. إنهم في أوروبا وأمريكا يقفون طابورا أمام دورات المياه .. لقد رأيت يابانيا يقتل نفسه .. فارتدى أحسن ملابسه .. وظل طوال الليل يجلو سيفه .. ثم حلق شعر رأسه وشاربه .. ورسم خطوطا على الأرض .. هنا يقف .. وهنا يتقدم .. وهنا يتراجع .. ثم رسم دوائر على الأرض .. ليقف داخلها أصدقاؤه ومحبوه .. ورسم دائرة ضيقة لعدوه الوحيد فى هذه الدنيا .. وطلب إليه أن يجىء ليشمت فيه .. ورسم دائرة لأستاذه الذى علمه « الهاراكيرى » . . أى كيف يقتل الإنسان نفسه .. ثم إنه تدرب طويلا على قتله لنفسه .. حرصا منه على أن يكون دقيقا فى قتل نفسه .. يقول د . محمد عوض : إنه ذهب ليتفرج على الرجل .. ورأى شيئا عجيبا .. كان القاتل دقيق الخطوات والحركات ، لدرجة أنه لم يصدق أن الرجل جاد فى قتل نفسه إلا عندما نزف الدم من بطنه .. وغطى وجهه ولم يستطع أن يرى شيئا بعد ذلك .. وفى السيارة يقول د . محمد عوض إنه نظر إلى جاره وكان مبتسما ، فقال جاره ضاحكا : لم يكن دقيقا تماما ، فقد ارتعشت يده فى اللحظة الأخيرة .. ولذلك

لم يصبه السيف فى بطنه عند البقعة الزرقاء التى رسمها . . ومعنى ذلك أن هذا المنتحر اليابانى قد وضع نظاما دقيقا يموت به .. وتدرب عليه .. وعلى الرغم من أن الرجل قد مات ، فإن أحد المتفرجين لم يسترح إلى « عدم الدقة » فى اللحظة الأخيرة .. إننى يا أستاذ .. ويا أستاذ .. أجد أن الذى فعله الرجل اليابانى هو ما يفعله العالم كله .. فالعالم كله قد نظم نفسه فى مذاهب سياسية ودينية . . ثم اخترع أنواعا كثيرة من الأسلحة .. هذه الأسلحة هى خلاصة نظرياته العلمية .. وسهر العلماء ، كما سهر هذا اليابانى ، يغيرون هذه النظريات ويبدلونها ، لكى تكون هناك أسلحة متطورة فى النهاية .. ووقف العلماء يتفرجون على العالم ، كيف يموت بأيدى أبنائه . . وقد أدهشنى جدا أن د . محمد عوض قد اندهش للذى رآه فى اليابان ، مع أن هذا هو ما يفعله العالم كله .. وأرى أن هذه هى البداية الوطنية والأخلاقية لكتابة التاريخ : يجب أن ندين الوحشية العلمية .. يجب أن ندين القتل المنظم للشعوب .. يجب أن ندين الحكومات الكاذبة التى تدعى السلام وهى تعمل للحرب ، والتى تدعى حماية الحياة وهى تخطط للدمار . يجب أن نتهم بالخيانة كل مؤرخ نزيه .. أى كل مؤرخ يقول : إنه يسجل التاريخ للتاريخ ، والحقيقة للحقيقة .. لايوجد شىء اسمه التاريخ للتاريخ .. لأن التاريخ هو سجل لكفاح الشعوب من أجل حياة أفضل .. ولا حياة أفضل إلا إذا زاد نصيب الإنسان من الحرية .. أوكما قال زميلنا المرحوم د . حسام ، إلا إذا زاد نصيب الإنسان من السعادة . وأنا لايكفينى كل مافى الدنيا من احتقار إذا وجدت إنسانا يذبح أمه ثم يحسب بالضبط كم جراما من الدم نزفت .. وبعد كم من الدقائق توقف قلبها .. ثم كم وزنها قبل الموت وبعده .. ثم عدد الذين ساروا فى جنازتها . قد تكون هذه حقائق مطلوبة فى كتب « الطب الشرعى » .. ولكن إذا كان الذى فعل ذلك هو واحدا من أبنائها ، دون أن يهتز قلبه أو يضطرب وجدانه ، أو يستعد للثأر ، فإننى أراه حيوانا حقيرا .. وإذا كان القاتل ابنها ، فإننى لا أعلق كثيرا على ذلك ، وأكتفى بأن أقول إنه مجنون .. أو هو مؤرخ مجنون .. ولذلك يا أستاذ العقاد ويا أستاذ الرافعى ، فإننى لا أفرح كثيرا بأن فى الدنيا نظاما ، وأن هذا النظام يفرزه الإنسان ، وأن هذا هو الفارق الوحيد بين الإنسان والحيوان .. ولكن إذا صح أن هذا هو الفارق الوحيد ، فإننى أرى الإنسان أحط من الحيوان . وأن انحطاطه فى اطراد منتظم ! .

وقال أحدنا متوجها بحديثه إلى الأستاذ الرافعى : أرجو ألا يساء فهم هذا الزميل .. فأنت لا تعرفه يا أستاذ .. إنه ليس فوضويا .. إنما هو رجل متدين شريف نظيف .. وهو يرى أن النظام الوحيد الذى يستحق الاحترام والتضحية من أجله هو دين الله .. لأنه الدين الذى أنزله الله ، ولم يبتدعه الإنسان .. وأن كل الخلافات بين الشعوب الإسلامية ، أو بين الشعوب المسيحية ، ليست بسبب دين الله .. إنما بسبب تدخل الإنسان فى تفسير دين الله .. وليست المذاهب الدينية والسياسية الكثيرة دليلا

على ثراء العقل البشرى .. إنما هى دليل على إفلاس القلب البشرى . ومادامت كل النظم متغيرة فلا بد أن نتمسك بنظام واحد لا يتغير هو : القرآن الكريم .

ونهض الأستاذ الرافعى ، وكأنه استراح إلى هذه النتيجة ، أو كأنه اطمأن على هؤلاء الشبان .. أو على شباب مصر كلها .. والتفت إلينا يقول : ماشاء الله .. إننى أرى الخير فى وجوه تلامذتك يا أستاذ .. ما شاء الله .. السلام عليكم .

وخرج الأستاذان .. ولم يعد الأستاذ فقد اتجه إلى التليفون ..

والتفت بعضنا إلى بعض ، فقلت : لم نقل ماجئنا من أجله ..

قال أحدنا : ولكن الذى قيل اليوم يعتبر نقطة تحول .. لقد ابتعدنا كثيرا جدا عن الأستاذ .

قلت : ولكننى لم أبتعد .. إنه يؤكد المسئولية والحرية والالتزام الوطنى والدينى ، بالمعنى الفلسفى الوجودى الذى أراه تماما .. لولا أن الأستاذ بدأ يراجع نفسه ، وأعتقد أن حديثه إلى الأستاذ الرافعى كان مجاملة على حساب ما نعرفه من رأى الأستاذ فى عبد الرحمن الرافعى والحزب الوطنى ومصطفى كامل وصديقته الآنسة جوليت آدم .. أليس هو الذى وصف خطب مصطفى كامل بأنها مثل خطب أوائل الطلبة أمام مكتب حضرة الناظر ؟ .. أليس هو الذى قال : ما الذى كان يحدث لو أن مصطفى كامل كان فى الخمسين من عمره أو الستين ؟ هل كانت تساعده السيدة جوليت آدم ؟ .. أليس هو الذى قال إن الكاتب الفرنسى باسكال عندما قال : إن أنف كليوبطرة قد غير التاريخ ، كان يقصد بذلك أن أشياء كثيرة تافهة من الممكن أن تغير التاريخ .. وأن الأحداث الكبرى فى التاريخ قد وقع معظمها لأسباب تافهة .. وأن شباب مصطفى كامل أى صغر سنه هو أحد الأسباب التافهة التى غيرت صورة مصر فى أوروبا ؟ .. والسؤال هو : هل الأستاذ مسلم لأنه كتب سلسلة العبقريات ، أو الأستاذ مؤمن ببطولة الفرد تماما كالفلاسفة الألمان ، ولذلك كتب سلسلة العبقريات وغيرها من الشخصيات العظيمة فى التاريخ ؟ .. إن تأليف هذه الكتب دليل على عكس مايقول الأستاذ تماما .. فلأنه مسلم كتبها ، ولأنه يؤمن بالبطولة كتبها .. ومعنى ذلك أنه صاحب رأى وصاحب مزاج قد تحدد تماما . وبعد ذلك أصدر هذه الكتب .. إذن فلا يمكن أن يكون المؤرخ بلا غرض ولا مزاج ولا فلسفة .. ولا أريد أن أظلم الأستاذ .. ربما كان هذا هو رأيه أخيرا .. رأى الشيخوخة وليس رأى الرجولة والشباب .. وإذا كان الأستاذ يرتدى بيجامة واحدة ، فليس هذا رأيه ، إنما هو رأى من يشرف على ترتيب حياته .. ولكن الأستاذ .. يلبس ما يجده . ويأكل ما يجده .. فليس هو الذى يختار الطعام والشراب والملبس أيضا ..

— قال أحدنا : سؤال يا أستاذ ..

وكان الأستاذ قد عاد لتوه من الداخل ..

أجاب الأستاذ : تفضل يا مولانا ..

– سؤال يا أستاذ .. هل أنت مسئول مثلا عن أن تظل هذه السجادة فى الصالون قديمة ممزقة ؟ .. هل أنت مسئول عن أن تكون هذه المقاعد مكسرة ؟ .. هل أنت مسئول عن تقديم القهوة بدون سكر وأن يكون عصير الليمون كثير السكر قليل الليمون ؟ .. وإذا لم تكن مسئولا عن كل ذلك يا أستاذ .. فهل ستصبح مسئولا بعد أن سمعت منى كل هذه الملاحظات ؟ .. قد تكون هذه ملاحظات تافهة ، ولكن لا يمكن أن تكون تافهة إذا كانت لها علاقة بالأستاذ .. ولا يمكن أن تكون تافهة إذا كانت لها علاقة بكل هذه الآراء والنظريات والفلسفات التى أثيرت فى هذه الجلسة اليوم ..

قال أحدنا : يا أخى إن القهوة التى شربتها شديدة الحلاوة ..

وقال آخر : وعصير الليمون شديد الحموضة ..

فعاد الزميل يقول : هل أنت مسئول عن اضطراب السكر وحيرته بين القهوة وعصير الليمون .. أو أن هذه هى الحرية الممنوحة للخادم ؟ .. ولكن ألا تهتم يا أستاذ بما يقوله ضيوفك إذا خرجوا من الصالون وشربوا القهوة مرة بسكر ومرة بدونه . وشربوا عصير الليمون مرة بدون ليمون ومرة بدون سكر ؟ .. أعتقد أنك حريص على صورتك عند الناس ليس كأستاذ ولكن ككاتب وكمفكر .. ألا تخشى أن يذهب الناس فى تفسير هذا الذى يفعله الخادم على أنه مظهر من مظاهر الاضطراب فى هذا البيت ؟ .. فإن كنت تعرف ذلك ، فلابد أن يكون لديك معنى . وإن كنت لاتعرف فلابد أن يكون لذلك معنى .. أما الآن وقد عرفت ، فما هو ردك يا أستاذ ؟

وجاء الخادم وفى يده ورقة .. لم يكد يقرؤها الأستاذ حتى ضحك . وقال : إنه الأستاذ الرافعى يستأذن منى فى أن يلقاكم جميعا ، لأنه أعجب بكم واستراح إلى الحديث معكم .. وقد ترك لكم عنوانه . والموعد الذى ترونه مناسبا ..

قال أحُدنا : اختلفنا يا أستاذ منذ أيام على ما سبق أن قلته لنا وأنت تقارن بين سلوك الإنسان وسلوك الحيوان .. أنت تقول إن القط إذا أكل ثعبانا فليس هذا عملا عدوانيا . وتقول إن الثعبان إذا أكل عصفوراً فليس عملا عدوانيا ، وتقول إن العصفور إذا أكل دودة فليس هذا عملا عدوانيا .. وترى أن هذا هو سلوك طبيعى .. لأنه لاتوجد وسيلة لأن تعيش هذه الحيوانات إلا على بعضها البعض .. ولا توجد لديها أى طرق أخرى للحياة .. على عكس الذى يأكل اللحوم دون أن يذبحها ، إنما يذبحها غيره .. والجزار الذى يذبح الخراف والأبقار ليس رجلا معتديا ولا إنسانا متوحشا .. إنما العدوان هو أن يقتل الإنسان إنسانا آخر .. وأن يقتل الحيوان حيوانا آخر لمجرد القتل ، وليس لأنه فى حاجة إلى طعام .. هذا ما قلته أنت يا أستاذ .. ومعنى ذلك أن الإنسان هو المعتدى ، والحيوان ليس معتديا .. أو أن الإنسان لايعتدى على الحيوان إذا قتله لأنه يريد أن يأكله .. وليس

قتله انتقاما منه .: هذا كلامك يا أستاذ .. ولكنى أختلف معك ومع بعض الزملاء .. وأريد أن تفسر لى ماذا حدث وسوف يحدث فى كل الثورات فى التاريخ .. من الذى يقتل من ؟ .. وفى كل الحروب السياسية والدينية يا أستاذ .. من القاتل ؟ .. ومن القتيل ؟ .. إنه الإنسان ، ومع ذلك فإذا كان القاتل عدوا لنا فهو سفاح ، وإذا كان القاتل مواطنا لنا فهو بطل مغوار .. وكل أبطال أعدائنا سفاحون ، وكل سفاحينا فى الحروب أبطال .. فما هو المقياس يا أستاذ ؟ .. هل ترى الإنسان الجائع حيوانا إذا قتل ليأكل ؟ .. هل ترى الإنسان العريان سفاحا إذا قتل ليلبس ؟ .. إذا كان الحيوان الذى يقتل ليأكل ليس معتديا فكيف يكون الإنسان ، وهو حيوان ، معتديا إذا قتل ليأكل ؟ .. هل ترى الأم التى تقتل أولادها لتعيش . . هل هى معتدية ؟ .. إن الصحف قد نشرت منذ شهور أن اثنين من الألمان ضلا الطريق فى أحد الجبال .. فما كان من أحدهما إلا أن قتل الآخر وأكله .. فهل هو سفاح لأن الظروف قد جعلته حيوانا ، ففعل ما تفعله الحيوانات التى لاتدينها إذا قتلت لكى تعيش ؟ إن مدينة أثينا قد قررت قتل سقراط بيده .. طلبت إليه أن ينتحر إنقاذا للمجتمع من سموم هذا الرجل .. فهل المجتمع مجرم لأنه قتل فيلسوفا ليعيش بغيره ؟ .. إننا فى حيرة يا أستاذ .. وتصبح هذه الحيرة أعظم إذا انتقلنا من السياسة إلى الدين .. إلى الحروب الدينية .. ففى الحروب الدينية تسيل الدماء باسم الله ، وفى سبيل الله ، ومن أجل نصرة كلمة الله .. ويتساقط الشهداء على الجانبين .. فهل هم شهداء أو سفاحون يا أستاذ ؟ هذه هى الحيرة التى وقعنا فيها ولم نسترح فى الأيام الأخيرة . . وحتى لا أكون بعيدا عن موضوع اليوم فإننى أقول : إن التاريخ الإنسانى كالإنسان تماما ، يمشى على نظام ، ووفقا لنظام ، وضحية لنظام .. ألا ترى يا أستاذ فى النهاية أنه لانجاة للإنسان .. وأن الإنسان هو الحيوان الذى حكم على نفسه بالإعدام .. وأنه هو الذى اخترع سلاح القتل ، وفلسفة القتل ، وأنه هو الذى ينقل قتلاه إلى النار والجنة على هواه ؟ .. ثم ألا ترى يا أستاذ أننا نتعذب كثيرا ، وتعذب غيرنا ، لا لسبب إلا لأننا نفكر كثيراً ؟ .. بينما غيرنا أكثر راحة على المقاهى ، وأكثر سعادة فى الأندية . . وإنهم يستمعون الآن إلى برنامج « مايطلبه المستمعون » وأنهم سعداء بذلك .. بينما نحن مثل أهل الكهف . . إن كهفنا بدلا من أن يكون تحت الأرض ، فهو فى الدور الثانى .. فنحن بأفكارنا فوق ، ولكن بمعنوياتنا تحت .. فى الحضيض .. قل لى يا أستاذ ماذا أفعل ؟ .. ماذا نفعل ؟

وكأن الدنيا كلها قد سقطت من السقف على رأس الأستاذ .. وسكت لعله يجد مايقوله ، وقبل أن ينطق الأستاذ قال أحدنا : يا أستاذ إنها مغالطة كبيرة .. فأخونا هذا لايشكو من كل هذه المصائب العقلية .. إنما لديه مشكلة واحدة أصغر من ذلك كثيرا ..

– اسكت .. لاتقل ..

– اسكت .. عيب ..

– اسكت .. إن الموضوع جاد جدا .

– لايصح أن تقال للأستاذ مثل هذه القضايا التافهة ..

– ولكننى سوف أقول .. إنها مشكلة فعلا يا أستاذ .. وليس لديك متسع من الوقت لمناقشة هذه المعضلات العقلية .. إنه يا أستاذ يحب فتاة مسلمة .. أبوه مسيحى وأمه يهودية .. وأمه ترى أنه يهودى . فالشريعة اليهودية ترى أن كل من كانت أمه يهودية فهو يهودى .. وأبوه يرى أنه مسيحى .. وأنه لذلك يجب أن يتزوج مسيحية .. أو يهودية كما فعل هو .. ولكن إذا تزوج مسلمة فلابد أن يسلم .. وسوف تتولد مشاكل كثيرة أضعاف أضعاف عدد أولاده .. وهذه هى المعضلة الدينية والاجتماعية والنفسية التى وقع فيها ، وحاول أن يفرضها على الدنيا كلها .. فيبدو أمامنا كأنه صاحب مذهب فلسفى .. إنه فقط صاحب حيرة فلسفية ، ودوخة عقلية . .

وضحك الأستاذ عاليا ، وكأنه يريد أن يكون ضحكه هذا نهاية للحوار الذى طال ، فقال : الحل بسيط يا مولانا .. تزوجها مرة واحدة على دين الحب . وطلقها ثلاثا على دين الإسلام !

ها ها . . ها ها . .

ولم يكن هذا صوت العقاد ، ولكنه صوت واحد منا ! . .

عَلَيهِ العِوَضُ في الجَمِيع !

استسلمت لرغبة غريبة ، وهى أن أزور أناسا كنت أعرفهم منذ وقت طويل . تركت نفسى أمشى وأدق أبوابا وأسأل أشخاصا . وكلما حاولت أن أفكر فى معنى هذه الرغبة ، رفضت هذه الفكرة الدخيلة أو المتطفلة على إحدى « نزواتى » . وبدأت بالبحث عن السيدة التى قررت أن أكون ابنها وأنا طالب صغير فى المنصورة . ولم أفهم لماذا قررت هذه السيدة مثل هذا القرار الغريب . فقد كان لديها عدد كثير من الأولاد . ولكن لابد أن لديها سببا . وهذا السبب هو أننى « خسارة » فى أهلى ؛ فأنا طالب مجتهد . ومن الممكن أن أكون شيئا . ولكن ظروف الاجتماعية وكثرة الإخوة وقلة المال وانعدام الصحة عند أمى ، من الممكن أن تعطل نموى ، وتسد طريقى إلى مستقبل أحسن – ربما كان هذا رأى هذه السيدة ، ولذلك قررت أن تنقلنى إلى حضانتها . أى تضعنى فى مكانى الصحيح . أو ربما تكون قد « استكثرت » على الله أن يعطينى لهذه الأسرة التى لا تستحقنى ، وأنها هى وحدها أولى بى من أمى وإخوتى – ربما كان هذا رأيها أيضا ، ولم يكن لى اختيار فى تلبية هذه الرغبة . وأن أنتقل من أسرتى فى الدور الأرضى إلى الأسرة المضيفة أو الاسرة « الحاضنة » لطفولتى ، فى الدور الثانى من نفس البيت . وأن آكل أفضل وأنام أهدأ ، وأن أتعود على أن أكون ابنا لهذه الأسرة ، وأن أكون غريبا عن أسرتى . فكنت إذا ذهبت إلى أمى الحقيقية تغضب أمى المفتعلة . . وكنت إذا جلست مع إخوتى ، يغضب الإخوة الجدد . . ولم أعرف فى ذلك الوقت ، ماالذى يمكن أن أفعله . ولم تطل حيرتى ، فعدت إلى أمى وإلى أسرتى وإلى مكانى فى الغرفة الضيقة الرطبة الجدران ، وإلى أن ألف الملابس الثقيلة حول وسطى ، وأضع الطاقية الصوف فوق رأسى صيفا وشتاء . فبيتنا شديد الرطوبة صيفا وشتاء . . وعلى الرغم من أن بيتنا كان صغيرا ضيقا ، فقد كنت أحس أن المسافات بيننا متباعدة جدا . فليس بيننا كلام يقال . وكل واحد منا فى حالة اكتفاء ذاتى . أمى مريضة وتتوجع بصوت منخفض حتى لاتقلقنى وتصرفنى عن المذاكرة . وأنا أتوهم طول الوقت أننى أسمع أمى تصرخ ، فأترك كتبى وأسارع إليها فأجدها نائمة . . أو تتظاهر بذلك . . قررت أن أذهب إلى هذه السيدة . . ووجدتها . وصافحتها وكدت أقبل يدها كما كنت أفعل وأنا صغير . فقد كنت أقبل يد والدى ، وكانت أمى ترفض أن أقبل يدها ، فأهددها بأنها إن لم تفعل ذلك فسوف أقبل قدميها . فكانت توافق على

مضض . ونظرت إلى السيدة التى كانت أمى – أو قررت أن تكون أمى . إذن فهذه هى التى كانت سترعى طفولتى وتهديني إلى رجولتى . وتجعل كل خطواتى سلالم صاعدة إلى مستقبلى ، وتوفر على أسرتى كل أنواع العناء والعذاب . لم أكن أتصور أنها بيضاء اللون . فقد كنت أراها سمراء . لم أكن أتذكر أنها قصيرة القامة وأنها ممتلئة . وأن صوتها يوجع الأذن . ولم أتذكر أنها عندما تصافحنى كانت تضغط على أصابعى . شىء غريب . ثم إن لها عينا واحدة . وإن أكثر أسنانها ذهبية ، وإنها تلدخن بإسراف شديد . وإنها لم تنهض لتحيتى .

ونزلت من بيتها . وتذكرت أنها لم تقدم لى فنجانا من القهوة ولاحتى دعتنى إلى غداء . فهل ضايقها أننى نجحت دون حاجة إليها . أو ضايقها أن أولادها لم يظهروا فى أى مكان ، ولم يوفقوا فى أى عمل ؟ وكل ماتذكرته فى الطريق بعيدا عن بيتها أنها سألتنى عن أمى ، فقلت لها : بخير. وسألتنى : ألا تزال تسعل دما ؟ .. قلت : لا .. إنها فى صحة جيدة . . سألتنى : تحسنت صحتها ؟ . لابد أنك أتيت لها بأحسن أطباء مصر. قلت : نعم . الحمد لله. وفى العام الماضى أدت فريضة الحج وسوف تذهب هذا العام إن شاء الله .. وأنا أداعبها كثيرا وأطلب إليها أن تتزوج ، وأتيت لها بزوج . . ولكنها رفضت وهى تقول : إننى أنا ابنها وزوجها وأبوها وأمها .. وقد بنيت لها مقبرة أنيقة . . الحمد لله .

هل تضايقت السيدة ؟ .. لاأذكر بوضوح . ولكننى لم أكن صادقا فى كل هذا الذى قلت . فأمى تمنت أن تؤدى فريضة الحج ، ولكننى رفضت بسبب حالتها الصحية . وليس صحيحا أننى أتيت لها بزوج ، ولكننى أداعبها فقط .. ولكننى أردت أن أصور لهذه السيدة أن أمى أحسن منها حالا ، وأنها أصح وأسعد . وكان ذلك الحوار نوعا من اللوم غير المباشر ، والضيق المستتر ، والإهانة المتعمدة . والانتقام الذى تأجل سنوات طويلة .

إذن فهذه هى السيدة التى كان يجب أن أعيش لديها . . وفى الحياة فى بيتها كان من المفروض أن تنضج قدراتى ، وأن تنمو مواهبى ، وأن تفرخ أفكارى . . ولم أجد فى نظراتها أو لمساتها حنانا ولاأمومة . إنما كان قرارها هو إهانة لوالدتى . وتعاليا علينا . وتباهيا بين الناس . وحفزا لأولادها على أن يذاكروا مثلى . . وأن يتفوقوا مثلى . . فقد شاءت هذه الأم أن أكون مثل وخز الضمير عند كل أولادها .

وذهبت إلى بيت أختى . وهى سيدة واسعة الثراء والحنان أيضا . وكان والدى يحبها . وأنا أيضا . وكانت تتمنى أن أعيش بين أولادها . ولكن كيف ؟ فهم أسرة واحدة متداخلة أو متعانقة . فهم إذا جاءوا من الخارج قفزوا إلى أحضان بعضهم البعض . . وإذا خرجوا امتدت أيديهم بالسلام وشفاههم بالقبلات . وأبواب الغرف مفتوحة بعضها على بعض . . وكل شىء فى البيت مفتوح :

النوافذ ومعها الضوضاء والأبواب للضيوف . . الراديو وأصوات بوابير الجاز والخادمات يتحدثن من السلالم . . فليس لى مكان فى هذا البيت . فأنا توأم الهدوء والصمت والعزلة والأبواب المغلقة واليقظة المبكرة .. ثم إننى لا أحب أن يسألنى أحد كثيرا عن الذى فى رأسى وفى نفسى . وأنا أحب أن أكون على هامش الناس ، وان كنت أحب أن يكون الناس على هامشى . . لايتدخلون فى حياتى ، وإنما أتفرج على حياتهم . وأن نتلاشى ذهابا وإيابا . وأن تكون العلاقات سطحية تتم دون تفكير منى . لأننى لاأريد أن أبدد طاقتى العقلية فيا لافائدة منه . . وهذا الذى يجرى فى بيت أختى ، رغم صدقه وحرارته ، لايريحنى . . ولذلك فررت من العناق والقبلات والضوضاء والاقتحام العنيف لحياتى العقلية !

وذهبت إلى أحد أقاربى وكان يريد أن يزوجنى ابنته . وحاول أن يقنعنى ، وحاولت ابنته أن تنبهنى إلى ذلك . ولم أكن على هذه الدرجة من الوعى أوالفهم . أو لعل هذه الدعوة جاءت مبكرة جدا . فيوم صارحنى أبوها بذلك ، كنت فى بداية حياتى العملية . . ولم أكن قد حققت شيئا مما أريد .. ولاأدعى أننى كنت أرى مستقبلى بوضوح . أوكنت قد وضعت هدفا لحياتى . لست من هذا الطراز من الناس .. أصحاب الارادة الحديدية ـ والطرق الحديدية المحددة تماما . . فهم يعرفون بالضبط عدد المحطات فى حياتهم . وكم يتوقفون عند هذه أو تلك . . ثم يعرفون بوضوح شديد نهاية الخط الحديدى . . لست واحدا من هؤلاء . فحياتى فيها الكثير من الصدفة والكثير من التعب والقليل من الحظ . ولا أرى نفسى محظوظا ، فالمحظوظ هو الذى يحقق بأقل مجهود مايحققه غيره بأكبر مجهود . والمحظوظ هو الإنسان الذى يخدمه الناس ، أكثر مما يخدم نفسه .. فأنا أصل إلى الهدف بتعب وعرق ودموع ، بينما يصل إليه غيرى على أكتاف الآخرين فى وقت أقصر وبلا تعب . . وذهبت إلى قريبى هذا . وسألته عن ابنته التى كان قد عرضها لكى أتزوجها . وعرفت أنها تزوجت . فسألت عن عنوانها . وذهبت إليها فى بيتها . وكانت مفاجأة لنا نحن الاثنين. رأتنى فاندهشت . ورأيتها فزادت دهشتى . . قالت أنت ازددت نحافة وشحوبا .. وقلت : أنت ازددت سمنة . قالت : من يراك يخيل إليه أنك ماتزال تلميذا . فملابسك وشعرك . . لاأثر للمرأة فيها . . فهل تعيش بعيدا عن والدتك ؟ .. وقلت لها : أنت أقل عناية بملابسك وشعرك ، فهل كل ذلك بسبب الزواج وكثرة الأطفال ؟ .. قالت : لماذا لا تجىء لكى تعرف زوجى ؟ .. إنه مهندس زراعى . وله مزرعة . ويجىء مرتين كل أسبوع . . ولاشك أنه سوف يحب الجلوس إليك ، إنه يعرف قصتنا ولكنى كذبت عليه ، فقلت إنك أنت الذى تقدمت لى ، وأنا اعتذرت لأنك فى مستهل حياتك ولأننا أقارب ، ولأننى أشعر بأنك مثل أخى .. ولم أجد مجاملة رقيقة أقولها ، ولم أعدها بأننى سوف أجىء مرة أخرى ، فهى لاتعرف ما الذى فى رأسى ..

وفجأة سافرت إلى بور سعيد .. أبحث عن أحد أصدقاء والدى . وكانت زوجته قد توفيت . ولم يكن له أبناء . وكان يعمل فى البحر . ولذلك فله أصدقاء فى كثير من السفن . وكان قد عرض على أن أعيش عنده فى إجازة الصيف .. ووافقت . ولم تعارض والدتى . . وأغرانى البحر وحركة السفن أن أعمل فى واحدة منها . وأن أنتقل بين القارات الخمس . ولم يكن من السهل أن أستخرج جواز سفر فى ذلك الوقت . فقررت الهرب . واتفقنا على الخطة . ولم أنم فى تلك الليلة . وعندما وضعت قدمى فى الزورق سحبتها فورا . فقد تذكرت أننى تركت والدتى مريضة . وأنها عندما وافقت على سفرى ، لم تكن مقتنعة بذلك . إنما هى استسلمت لرغبتى القوية . وعدلت عن الهرب . وكانت لهذا الرجل الطيب مزرعة للدواجن وقد ترددت عليها كثيرا . ورغم روائحها الكريهة فقد بهرنى أن أرى الكتاكيت الصغيرة تخرج من البيض .. بهرتنى عملية الخلق هذه . . وكنت أتردد على هذه المزرعة لأراقب خروج الكتاكيت . . وأسمعها وهى تنقر البيضة من الداخل . . ثم تكسر القشرة . . ثم تظل تكسرها وتخرج منها وحدها وتقف إلى جوارها . وتحرك رأسها وجناحها ، وتتهيأ للحياة . كيف ؟ . . إنها غريزة الحياة .. إنها حكمة الله أيضا .

فما هو المعنى ؟ لقد مررت على هذه البيوت جميعا لسبب واحد . فقد اتفقنا نحن الزملاء على أن يكتب كل واحد منا صفحات عن نفسه . من هو ؟ وماذا يريد ؟ وكيف يتصور أنه يستطيع أن يحقق مايريد ؟ .. واتفقنا على أن نصدر كتابا صغيرا نقدمه ونقدم به أنفسنا للناس . وتوهمنا أن هذا الذى نفعله يهم الناس ، أو يهم المشتغلين بالفكر والأدب . فليست حياتنا إلا مثل هذا البيض .. ونحن فى داخله . وقد مررنا بفترة الحضانة الضرورية . وبدأ تكسير البيض من الداخل لكى تخرج أفكارنا إلى الحياة .

وقبل أن أجلس للإجابة عن هذه الأسئلة ذهبت أستعرض البيوت أو البيئات المختلفة التى كانت ستقوم بدور الحضانة لحياتى . والتى كانت ستؤدى إلى أن تخرج أفكارى من البيض ..

وكتبنا جميعا ما استطعنا وماأردنا وماتخيلنا . وتبادلنا هذه الأوراق . ووجدت أن كل واحد منا له ظروف مختلفة . وأن أشكال حضانتنا وفترات الحضانة مختلفة .. تماما كما أن الطيور التى تنام على بيضها تحتاج إلى أساليب متغايرة لكى يفرخ بيضها . فلابد أن تجلس الطيور على بيضها .. فالبيضة فى حاجة إلى درجة حرارة ورطوبة ، وإلى استقرار . وإذا لم يتحقق كل ذلك لم يخرج من البيضة كائن حى .. وبعض الطيور ينام ذكورها على البيض نهارا ، وإناثها ليلا .. وبعض الطيور تخفى بيضها عن أعدائها .. التى تأكل البيض قبل أن يفقس .. أو التى ليست لها أعشاش ، فتضع بيضها فى أعشاش الطيور الأخرى . . وفى الثلاثينات اهتزت الدوائر العلمية عندما خرج العالم النمساوى لورنتس بنظرية جديدة عن فقس البيض عند الاوز . . فقد لاحظ أن الاوزة إذا ابتعدت عنها بيضة ، فإنها تحاول

بمنقارها وعنقها أن تعيدها إلى مكانها . . وهناك بعض الطيور ترفرف بأجنحتها فوق البيض لتخفض درجة حرارته ، وبعض الطيور تخفف ريش صدرها ، وذلك ليلتصق لحمها بالبيض فتكون درجة حرارته أعلى .. وبعض الشعراء كانوا لاينظمون قصائدهم إلا إذا قصوا شعرهم . . وبعضهم كان يتحرك فى بيته ويتقلب فى فراشه وهو ينظم شعره .. والأديب الإنجليزى والترسكوت كان ينام تحت الأشجار .. ثم يصعد الأشجار . . وينزل وينام تحتها ويأتى بالورق وينام فوقه ، تماما كما تنام الطيور فوق البيض . . وشاعرنا البحترى كان يدور حول نفسه . . ويدور حول البيوت فى الليل . . فكان رجال الأمن إذا اعترضوه وسألوه ، قال إننى أطارد نفسى . فيقولون إنه مخمور .. ولم يكن كذلك . إنه فى حالة مطاردة للمعانى التى فى رأسه . . وبعض الطيور تضع بيضها فى أكوام الزبالة ، وتدرك بغريزتها أن التحلل الكيماوى لهذه الزبالة يرفع درجة حرارتها . . أى الحرارة التى تناسب البيض عادة وهى حوالى ٣٩ مئوية .. وفى البلاد البركانية تدفن الطيور بيضها فى الأرض حيث درجة الحرارة عالية .. وأجمل الطيور هى التى تدفن بيضها فى أكوام الزبالة . . كيف يخرج الجمال من هذا العفن ؟ .. كما يخرج التفاح والورد من الأسمدة العضوية . وكما تخرج المعانى الجميلة من أبشع صور العذاب والحرمان . . وكما تخرج النشوة من النبيذ وهو العنب الفاسد ، كما يقول الشاعر أبو نواس . . ويوم زار أحد الأمراء بيت الموسيقار بيتهوفن وجد كل النوتات الموسيقية ملقاة على الأرض . . ووجد بعض هذه النوتات فى سلال المهملات . . وعندما فتح له الموسيقار باب البيت أطار الهواء بعض مؤلفاته الموسيقية .. وقبل أن يعبر الزائر عن ذهوله أدركه بيتهوفن بقوله : بسبب هذه الأرض القذرة ، أجعل موسيقاى فى السماء ! . وكثير من الشعراء والفنانين يتكلمون كثيرا عن أفكارهم ، فهم يصوغونها أثناء الحديث إلى الناس . وتكون ألسنتهم مثل أجنحة النحل الذى يقف عند باب الخلية . . يحرك أجنحته ليقوم بتغيير هواء الخلية وتكييفها . . وكذلك يفعل الفنانون – مثل الشعراء المتنبى وأبى تمام وأبى العلاء وحافظ ابراهيم وبودلير ودانتى .. وهناك شعراء يرفعون درجات حرارة غرفهم حتى يخيل إليك أنهم ينضجون أفكارهم فى النار . . أو أنهم يتعجلون « فقس » هذه الأفكار .. فالأديب فلوبير كان يرتدى كل ملابسه ويضىء كل غرف البيت ، ويشعل الموقد ويشرب النبيذ ويتصبب عرقا ويكتب . . وبعض علماء الطيور قد سجل حادثا غريبا فى إحدى غابات نيوزيلندا .. فقد رأى طائرا ينام على بيضه . . ولما هبت الريح وكانت باردة من الجنوب أصيب هذا الطائر بحالة جنون . فقتل شريكه فى العش .. ثم حمله فوق البيض وجعل دمه يسيل . وكان الدم ساخنا ، فرفع حرارة البيض فى اليوم السابق على خروجه . . أى أن الحرارة التى أخذتها الرياح الباردة قد عوضتها دماء هذه الضحية !

إذن لقد ذهبت أستعرض تلك البيئات التى كان من المفروض أن أعيش بها وأرقد فيها فوق

أفكارى وآمالى وأحلامى وهمومى .. وظللت أتابع مسار حياتى فى كل واحدة منها . ولم أهتد إلى شىء واضح . وفى نفس الوقت راجعت حياتى . . ورحت أقلبها بين يدى ، كما تقوم الطيور بتقليب البيض حتى لايلتصق الجنين بجدار البيضة ..

وتبادلنا جميعا قصص حياتنا كيف بدأت وكيف نرى مستقبلنا معا . وتساءلنا : لو كنا طيوراً أو زواحف فأيها نختار؟ أو أيها أقرب إلى طبيعتنا ؟ .. وأيها يكون الأستاذ ؟

فكان من بيننا : النعام والثعابين والتماسيح والنسور ..

واختار واحد منا أنه لايفضل أن يكون طائرا يبيض .. إنما أن يكون أنثى تحمل وتلد . . وكل الفنانين أقرب إلى إناث الحيوانات منهم إلى الذكور .. واختار واحد أن يكون مثل حيوان الكانجرو يحمل صغاره فى بطنه ، فإذا ولدها عاد فحملها مرة أخرى . . وقالوا : إن الأستاذ أقرب إلى الطيور .. أقرب إلى النسر فى أنه يبيض فى القمم . ولكنه يختلف عن النسر ، فالنسر قليل الذرية ، والأستاذ وافر الكتب .

أما أنا فوجدتني أقرب إلى حيوان اللؤلؤ .. ذلك الحيوان الضعيف الصغير الذى يعيش بين جدارين من الصدف ، ولكي يفرز اللؤلؤ فلا بد أن يكون في أعماق مياه هادئة .. فإذا تسلل أحد الأجسام الغريبة إلى لحمه توجع وراح يبكى دموعه الفضية ليعزل الجسم الغريب عن لحمه ودمه . . فهو نموذج للفنان المنعزل المنطوى على جرحه الذى يعمل ليلا ونهارا وسنوات عديدة يصنع هذه الحبات فى ألم ليخفف ألما آخر أشد .. فلولا هذا الألم ماكان هذا الإبداع الذى هو ألم آخر . . أو هكذا تصورت نفسى أحيانا ..

وكنا سبعة – خمسة من الأطباء الشبان . وكنا قد لاحظنا أن الشحوب الشديد بدأ يزداد صفرة على وجه الأستاذ .

وقد لاحظ واحد من هؤلاء الأطباء أن جانبا من وجه الأستاذ أكثر احمرارا من الجانب الآخر . وأن الأستاذ بدأ يضع ساقا على ساق ، وقلما كان يفعل ذلك . أما التفسير : فهو أن مصرانه الغليظ يوجعه ، وهو يحاول أن يخفف هذا الوجع بأن يميل بجسمه على الجانب الآخر . وفى ذلك اليوم اندهشنا حقا . . كيف « يفقس » الأستاذ أفكاره فى هذا البيت البارد . . فالهواء يكتسحه من كل الجهات ، والأبواب مفتوحة على النوافذ . . وليس فى البيت دفء عائلى . إن الرجل وحده مثل النسور على القمم . أو مثل الرهبان أو مثل آلهة الإغريق . . أو مثل المجرمين الخطرين يضعونهم فى الحبس الانفرادى . . أو مثل العباقرة من العلماء . . تحرسهم الدول وتحميهم . ولا تدرى أن هذه الحراسة الشديدة هى عزل وحبس انفرادى لهم – تماما كما لو كانوا أشد الناس خطورة على أمن الشعوب . . وقلنا إن الأستاذ يشبه طائر البطريق الذى يعيش فى القطب الجنوبى . . فى الجليد . . فهو

يضع بيضه بعيدا عن الماء ، ويظل ينفخ عليه . . ثم يضغط عليه بلحمه الساخن حتى يفقس . .
وقال أحد الأطباء الشبان : لو لم يكن الأستاذ مصابا بالمصران ماكتب شيئا . إن أفكاره تتولد من سخونة المصران . وأعتقد أن الجمل القصيرة التى يكتبها الأستاذ سببها : أنه عندما يكتب يجب أن يتحرك . . يجب أن يرفع رأسه عن الورق . . ولذلك كان من الضرورى أن تكون عباراته قصيرة حتى يخفف الضغط على المصران . وقد قرأت كتابا عن الشاعر الألمانى جيته . فلاحظت أن عباراته كانت طويلة جدا . فلما أصيب بالمصران الغليظ أصبحت قصيرة . لأنه يجب أن يميل على هذا الجانب مرة ، وعلى الجانب الآخر مرة . وفى كل مرة يرفع رأسه عن الورق . ولا يفعل ذلك إلا عند نهاية العبارة . . ولما اشتدت أوجاع المصران طالت عباراته . ولكن لسبب آخر . . هو أنه كان يكتب واقفا . وقد رأيت فى بيته فى فرنكفورت المكتب الملصق بالحائط . وكان عاليا . وكان الشاعر يستند إليه ويكتب واقفا . ثم أخذت العبارة تعتدل طولا وقصرا . عندما راح يملى مقالاته وهو جالس على مقعد وثير . . وكان المفكر الإنجليزى توماس كارليل يكتب وهو نائم على بطنه . . فقد كان يشكو من انزلاق غضروفى . وكان يضع على ظهره أغطية كثيفة . . ولو رجعنا إلى الكتب الأولى للأستاذ لوجدنا عباراتها طويلة . . وهذا يدل على أنه كان ينحنى على مكتبه وقتا طويلا . أى أن مصرانه لم يكن يوجعه إلى هذه الدرجة الخطيرة التى لاحظناها أخيرا . .

وفى صالون الأستاذ كان واضحا أن المناقشة سوف تكون طبية فى الدرجة الأولى . أو علمية جافة . وأننا قد اتفقنا على ذلك ، ولكن نحن لا نضمن عادة كيف سيوجه الأستاذ هذه المناقشة . . وقد استهل الأستاذ حديثه تعليقا على مقال نشر فى إحدى الصحف الدينية عن الحكومة فى الإسلام ، فقال : إن الحكومة الإسلامية على النحو الذى جاء به القرآن الكريم واتفق عليه المسلمون ـ كانت بعيدة عن الحكومات المعيبة التى تستند إلى أسس فاسدة فى حكم الشعوب . . فالأتوقراطية ، أى حكومة الفرد ، ممنوعة فى الإسلام ، لأن القرآن الكريم يأمر النبى بأن يشاورهم فى الأمر . . ويقول « وأمرهم شورى بينهم » . . وإذا كان النبى عليه السلام الذى يتلقى الوحى الإلهى يجب أن يشاور أتباعه والرجوع إليهم فى سياسته ، فلابد أن يكون غيره أولى فى أن يتقيد بالشورى وأن يتجنب حكم الطغيان . . وكذلك الثيوقراطية أى الحكومة التى يدعى فيها الحاكم صفة إلهية ، ممنوعة فى الإسلام ؛ لأن القرآن الكريم يعلم المسلمين أن النبى بشر مثلهم . والإسلام يرفض الكهانة والوساطة بين الإنسان وربه . وكان أبو بكر الصديق يقول عن نفسه : لست خليفة الله ـ إنما خليفة رسول الله . . والإسلام يمنع حكومة الأوليجارشية أى حكومة الأغنياء والنبلاء . لأن مبايعة الخاصة لا تغنى عن مبايعة عامة الناس ـ وليس فى الإسلام أن يسود إنسان على إنسان بسبب ثرائه أو عائلته . والنبى عليه السلام قال : اسمعوا وأطيعوا الحاكم ولو كان عبدا حبشيا رأسه مثل الزبيبة .

ولم نتحمس لهذه البداية التى فرضها علينا الأستاذ فقد تهيأنا لموضوعات أخرى . ونظر بعضنا إلى بعض . . ولكن الأستاذ مضى يقول : ولكن كل ثورة تأتى بحكم جديد . . أو بشكل جديد من الديمقراطية ، فلابد أن تكون هذه الثورة مطلبا لكل الناس . . حتى لو بالغ الناس فى ذلك . . المهم أن يجد كل إنسان أن هذه الثورة سوف تحقق له هو بالذات ما يريد . ولذلك فإنه ينضم إليها شخصيا . ويكفى أن تقرأ ما كتبه عبد الله النديم فى صحيفة « التنكيت والتبكيت » لتجد أحسن صورة وأوضح نموذج لما أقول . . فقد كان الذى كتبه عبد الله النديم تفسيرا لغضب الناس وتشجيعا لهم على « شمولية » الثورة العرابية . فهو يحرك التجار المصريين ضد الأجانب ، والحرفيين المصريين ضد الأجانب الذين يستخدمون أبناء جنسهم فى الأعمال المحترمة ، ويستخدمون المصريين فى كنس الشوارع وجمع الزبالة . . حتى الترزية ثاروا لأن المصريين أخذوا يرتدون البدل الأجنبية ، مما أدى إلى كساد صناعة الجلابيب . . وتعالت صيحات تطالب المصريين بشراء الصناعة المصرية . وبمصر للمصريين . . ومادامت الثورة قد بدأت من أعماق المجتمع ومن أعماق الناس ، فهى ثورة الشعب للشعب . . ولذلك فإن الشكل الذى تختاره أو من الواجب أن تختاره : ديموقراطى . . ومن الممكن أن تؤدى الثورات إلى مذابح دموية . . أى بسبب التطبيق العنيف للأفكار الجديدة ، كما حدث فى ثورتى فرنسا وروسيا وقيام النازية فى ألمانيا . . ولكن الأفكار الثورية قد ولدت عادة قبل الثورة . . أى أن العفونة والفساد الذى يسبقها ، هو الذى يؤدى إلى ولادتها . . فالخلل والفساد والانحلال هى « البيئة » الطبيعية لتفريخ أو حضانة أفكار جديدة . . هذه الأفكار سوف تهدم أول ما تهدم الظروف التى أدت إلى ولادتها . . فإذا كان الفساد هو أم الثورة . فإن الثورات تأكل أمهاتها ، كما تأكل أولادها أيضا . . والثورة تأكل أولادها لأنهم يحاولون أن يعيدوا ظروف الفساد التى سبقت الثورات . .

نظرنا بعضنا إلى بعض ، ورأينا أن هذه هى البداية التى نريدها أو التى يحسن أن نبدأ منها . . فقاطعه أحد الدكاترة الشبان قائلا : اغفر لى يا أستاذ أننى حديث العهد بهذا الصالون . . وفى نفس الوقت لست صاحب فلسفة . . إنما أنا متوسط التفكير . ولذلك فأنا أمثل الأغلبية من الناس الذين لم يسعدهم الحظ بأن يترددوا على هذا الصالون الأدبى . . ثم إننى من أسرة من الأطباء . ولا أطيل عليك ولا أعتدى على الوقت المخصص للزملاء . . سؤال لك يا أستاذ : هل لو كنت قصير القامة ولا تشكو من المصران الغليظ ومن القاهرة ولست من أسوان وأكملت تعليمك ، ومتزوجا ولك أولاد ، فهل كنت ستصبح العقاد الذى نعرفه الآن ؟ انتهى السؤال يا أستاذ . .

وضحك الأستاذ عاليا وقال : يا مولانا أنت رجل متواضع حقا . فأنت تسمى الألف سؤال سؤالا واحدا . ولكن لن أجد صعوبة فى الإجابة . بل إن إجابتى سوف تكون من ثلاث

كلمات : . . . لتغيرت حياتى تماما . . ولا أعرف ما الذى كان يمكن ان يتغير . مثلا لو قلت لو كان نابليون أطول . وأبو العلاء المعرى بصيرا ، وابن الفارض عربيدا ، وأبو نواس متصوفا ، وشوقى مصريا ، وحافظ إبراهيم تركيا . .

وقاطعة أحد الأطباء قائلا : والآنسة مى زيادة مسلمة وزوجة وأما لأولادك العشرة مثلا . .

ولم يشأ أن يعلق الأستاذ على ذلك . ومضى يقول : وطه حسين كان مهندسا . وعبد الرحمن شكرى قبطانا لإحدى سفن صيد الأسماك . وعبد الرحمن صدقى بائعا للأحذية . أوكان تشرشل طبيبا ، وهتلر ظل رساما . . إلى آخر هذه الأسئلة . . ولكن السؤال الأهم هو : إن كانت هناك موهبة . . أوكانت عبقرية ، فهل لهذه الموهبة لكى تظهر شروط حسمية أو نفسية ؟ . . إن الموهبة سوف تتفوق فى أى مجال وفى أى اتجاه . ولو كنت « عقادا » لخيوط الحرير ، كما هو معنى هذا الاسم ، لتفوقت فى هذه الصناعة وأتيت بالجديد . . لا شك فى ذلك . . فالموهبة مثل التيار الكهربى . . يضىء المصباح ، ويحرك المصعد ويدير السيارات والطائرات ويصعق من يلمس أسلاكه . .

وقال أحد الأطباء : ولكن كان من الضرورى أن تصاب بالتهاب المصران الغليظ فى جميع الأحوال . لأن هذه الإصابة قديمة ، وحتى لو لم تكن هناك إصابة فإن التكوين العقلى والنفسى والعصبى سوف يجعلك مصابا بالمصران أو بالإمساك أو بالضغط العالى . . أى لابد أن تكون عصبيا فى جميع الأحوال . . وربما كان اليأس من الطب والأطباء والاكتفاء بتشخيصك أنت لمرضك ، أكبر دليل على عصبيتك . . وعلى ثقتك الزائدة بنفسك . . ثم ظهور هذه البقع على وجهك يا أستاذ . . يؤكد افتقارك إلى الفيتامينات . . وإلى . .

قال الأستاذ : يا مولانا هذه قصة طويلة . . فعندما كنت فى السجن كنت أحسب الزمن بأن أضع يدى على مصرانى . . وكان هذا المصران عجيبا حقا . . إنه ينبض كأنه ساعة تدق . . وكانت تتعالى دقاته كل ٢٤ ساعة . فكنت أحسب الأيام عندما أضع يدى على جنبى . . قد يبدو هذا غريبا أو مضحكا . . ولكن الجسم الإنسانى له ساعة تدق عند كل واحد منا فى مكان . . وهى لا تدق فى القلب أبدا . . لأن القلب له حساب آخر وزمن آخر . . بل إن كل إنسان له زمن خاص به . . بل إن الزمن نفسه له ألف معنى فى اليوم الواحد . . أنت عندما تتفرج على فيلم ممتع ، لا تشعر بالزمن . . وأنت فى إحدى المحاضرات السخيفة ، تجد الزمن ثقيلا كأنه لا يتحرك . والمحبون ينظرون إلى ساعاتهم فيجدون أن العقارب تجرى . . وكنت فى السجن أصف الزمن بأنه ثقيل كالرصاص ، وكثير كالتراب . . وكل السجناء لا يشعرون بالزمن . . ويغالطون أنفسهم عندما يحسبونه .. فتسأل السجين : كم من الزمن بقى لك ؟ . . فيقول لك خمس سنوات . . مع أن الباقى له سبع سنوات .

فهو لا يحسب السنة التى هو فيها ، ولا يحسب السنة التى سوف يخرج فيها . . إنما يحسب الفترة بين هاتين السنتين . . وأنا لا أحسب كم عدد السنوات التى أوجعنى فيها المصران . . بل أكاد أقول إنه ولد معى . . أو لعله ولد قبلى . . تماما كما تولد صفاتى الجسمية قبل ولادتى . . أى تولد فى أبى وأمى وأجدادى . .

قال أحدنا : ولكنك يا أستاذ لم تجب عن السؤال ، وهو ما الذى كان من الممكن أن تكونه لو لم تكن لك هذه الصفات ؟ . .

أجاب الأستاذ : أكون واحدا آخر . . وقد كنت واحدا آخر . . فأنا اشتغلت بالتدريس وبالحكومة . . أى كنت شخصا آخر غير الذى تراه الآن وقد تفرغ للفكر والأدب . . وكثيرون من المشاهير وخاصة فى الدول الديمقراطية قد بدأوا حياتهم بأعمال متواضعة ، ثم اتخذت عبقريتهم مسارا آخر . فالمخترع أديسون كان بائعا للصحف . ثم ظهرت عبقريته فاخترع ٢٥٠ شيئا جديدا ، فى مقدمتها المصباح الكهربى والفونوغراف . . وكثير من رؤساء الدول كانوا موظفين صغارا أو تجارا متواضعين أو عمالا . . ثم قفزت بهم مواهبهم فصاروا أناسا آخرين . .

ونظرنا بعضنا إلى بعض . وتنبه الأستاذ إلى ذلك فقال : لديكم شىء آخر تريدون أن تسألوا عنه . .

قال أحدنا محاولا أن يقترب من الذى اتفقنا عليه : يا أستاذ هل المرض ضرورى لكل شخص عظيم ؟ . . أو هل لابد أن يكون لكل إنسان عظيم ألم أعظم منه . . أو عقبة أكبر منه ؟ . . وقد تعرضنا فى هذا الصالون إلى مثل هذه المعانى . . ولكن هذه المرة أريد أن أسأل : هل كان ضروريا أن يقول كل عظيم عندما ينفرد بنفسه : آه . . من ذراعى أو من ساق أو من عينى أو من بطنى . . كما تفعل أنت يا أستاذ ؟ . . هل ترى أن هذه المعادلة مقبولة عندك : عقل كبير ووجع كبير . . أو على الأصح عقل يحل كل المشاكل إلا مشكلة واحدة ؟ . .

قال الأستاذ ضاحكا : صحيح ما تقول يا مولانا . . فى بعض الأحيان أتمنى لو أمد يدى إلى أحشائى وأخرج هذا المصران الملعون وألق به للكلاب . . أو أدوسه . . ولكن قبل أن أفعل ذلك فإننى أتأمله . . لعلى أعرف كيف يستطيع هذا الشىء الحقير أن ينكد حياتى من أولها لآخرها . . ولكننى فى بعض الأحيان أجد أن المصران أهون كثيرا من زوجة متعبة . . أو من ابن مريض . . أو من ابن ناجح فالح مات فجأة . . أو أصيب فى حادث فعاش بساق واحدة أو عاش بساقين وبلا عقل . . وأنت قد اخترت مدخلا صحيحا للأعماق المظلمة للإنسان نفسه . . ولو حاولت أن تلف حول العظماء لوجدت شيئا عجيبا فى حياة كل واحد منهم . . إننى أحيانا أضحك على أعظم الأباطرة فى العالم : نابليون . . فقد كان مصدرا للعزة والكرامة والتعاسة لملايين الفرنسيين والأوروبيين . . ولكنه كان اتعس الجميع ،

فهو واحد من بين ثلاثة عشر أخا . . ولكنه يحب واحدة من أخواته فقط . وهى أخته بولين . كانت جميلة وكانت على درجة شاذة من الشراهة الجنسية . وكانت تختار ذكورها من حاشية أخيها الإمبراطور . . ضابطا بعد ضابط . وكان الإمبراطور يشعر بالعار والفضيحة ، فكان يختار لها أزواجها . وقد اختارهم جميعا . . يقال ستة ويقال سبعة . . ويقال إن عشاقها كانوا أربعين . . وفى أحد اجتماعات مجلس الوزراء وكان يخطط لمعركة كبرى ، دخلت أخته بولين وعانقها وسألها : ماذا عندك ؟ ما المشكلة الآن ؟ . . لقد تركت زوجك الأول وأعجبك الثانى . . فماذا وجدت فيه من عيوب ؟ . . قالت : إنه على عكس الأول تماما . . ولم يفهم نابليون . . فقد نسى لكثرة مشاغله . . وفوجىء نابليون بأن أخته تقول له بعبارة مكشوفة جدا وبإشارة من أصابع يديها . . إن زوجها الأول كان ضعيفا جنسيا ، أما الثانى فلا جنس له . ونادى نابليون ياوره ، وطلب إليه أن يستدعى أحد كبار الضباط . . وجاء الضابط وخرجت أخت نابليون زوجة له . . ثم بعد أسابيع انفصلت عنه . وكان السبب هو أنه منحل جنسيا . . ثم زوجها أميرا إيطاليا . . ثم تاجر مجوهرات . . ثم اختارت هى أحد الضباط . . هذا الضابط تفرغ للحياة الجنسية معها تماما حتى أصيب الاثنان بالسل الرئوى . . ثم تزوجت فنانا يرسمها عارية . . ثم تزوجت فنانا موسيقيا متواضعا . وعندما ماتت كانت تنظر إلى جسمها الشاحب فى المرآة . . وقد شخص الأطباء مرضها بأنه السرطان . وهى الوحيدة التى سافرت مع أخيها الإمبراطور إلى منفاه فى جزيرة ألبا . . وفى مذكرات نابليون كان يشكو من مرضين . أحدهما استطاع أن يعالجه وهو خيانة الأصدقاء . . أما المرض الثانى فهو أخته هذه . . وقد جاء فى مذكرات الجنرال ناى أحد قادة نابليون : أنه شكا له فى إحدى المعارك أنه تمنى من الله أن يخلق له ذراعا ثالثة . فلما سئل : ولماذا ياجلالة الامبراطور؟ قال : لكى أقطعها .. فلم يفهم الجنرال ناى .. فقال له نابليون : أقصد لو كان الله قد خلق أختى بولين على شكل ذراع ثالثة لقطعتها واسترحت .

وسكت الأستاذ وعلى وجهه بعض الامتنان ليقول : وأحمد الله أنه لم يخلق لى مثل بولين هذه . . وعوضنى عنها بهذا المصران اللعين !

قال أحدنا : أنا يا أستاذ لست طبيبا مثل الزملاء . فأنا الوحيد الذى يدرس الجغرافيا ، وكما أن هناك جغرافيا اقتصادية وسياسية وبشرية وطبيعية ، فهناك أيضا جغرافيا فلسفية . . بمعنى أن الجغرافيا لها دخل فى تكوين الفكر والنظريات . . مثلا . وأرجو أن تصحح لى أفكارى يا أستاذ . أنت تعرف يا أستاذ ، أن كل الحضارات نشأت فى بطون الوديان . . ليس هذا شخصيا ، ولكنها نظرية معروفة . . فالحضارة الفرعونية على ضفاف النيل . والحضارات السامرية والسومرية بين دجلة والفرات ، والحضارة الهندية على ضفاف الكنج والسند ، والحضارة الأوروبية على ضفاف الراين والدانوب والسين . والحضارة الإنجليزية على ضفاف التيمز . . وابن خلدون هو أول من قال فى

الفلسفة العربية إن هناك خلافات بين أبناء المدن وأبناء الريف . . وبين القبائل وبين سكان الموانئ . وإن الظروف الجغرافية لها دخل فى تكوين الطبائع الإنسانية . . ولذلك اختلفت أخلاق أبناء الريف عن أبناء المدن ، وأبناء العرب عن أبناء الفرس . . وهكذا . . وأرى يا أستاذ أنك قد نشأت فى أسوان . وجئت من أسوان تصلح أسوان عن طريق إصلاح مصر كلها والعالم العربى . . وطه حسين جاء من الصعيد ، والأفغانى جاء من أفغانستان ، وعرابى من الشرقية . . وهتلر جاء من قرية نمساوية ليحكم ألمانيا ، ونابليون إيطالى جاء من جزيرة كورسيكا ليحكم فرنسا . . وغير ذلك كثيرون ، والمعنى الذى أريده هو يا أستاذ . . أن أبناء الريف هم أبناء الحد الأدنى من الضروريات . . أى الذين عرفوا القليل من الطعام والشراب . . والذين يرون بوضوح ، والذين يحسبون بهدوء . . والذين لا يخيفهم السجن . . لأن السجن يوفر لهم ما لا توفره القرية . . فنى السجن يوجد الواحد منهم وحده فى غرفة يقف على بابها أحد رجال السلطة ، وهو سجين مثله . لأنهما مربوطان فى سلسلة واحدة . . وإن كان أحدهما هو السجان . . والآخر هو السجين . . ولكن السجان أكثر خوفا من السجين . . وابن الريف يجد فى السجن « العزلة » التى لا يجدها فى الريف ، فنى الريف كل الناس معاً . . يعيشون معاً ويأكلون معاً وعيونهم وآذانهم وأذرعتهم مفتوحة بعضها على بعض . . فلا عزلة لأحد عن أحد . . وفى السجن تتحقق له هذه العزلة التى هى ترف لا يعرفه أبناء الريف ، وإن كان يعرفها أبناء المدن . . وهذا أيضا هو مصدر شجاعتهم وجرأتهم . . والعالم الإغريقى آرشميدس كان يقول : أعطنى مكانًا خارج الأرض وأنا أحرك لك الأرض . . وهذه العبارة قد طبقها الثوار من أبناء الريف . . فالأرض التى يريدون تحريكها هى العاصمة أو هى الدولة كلها ، والمكان الذى خارج الأرض هو القرية التى جاءوا منها أو هو السجن الذى دخلوه . . والذين خارج العاصمة يرونها أوضح من الذين يعيشون فى داخلها . . ولذلك كان أكثر الثوار من خارج العواصم . . ولا أظنك يا أستاذ كنت تستطيع أن تشعل النار فى السياسة والفكر لو أنك من أبناء القاهرة . . إنك شخص موفد فى مهمة ، أو إنك مصلح مكلف برسالة ، فأنت واحد وجد مكاناً خارج الأرض ، فحرك الأرض وقلبها على رأس سكانها من أصحاب الأفكار البالية فى السياسة والجامدة فى الفكر . . وإنه شىء غريب حقاً أن يوليوس قيصر عندما اختلف مع مجلس الشيوخ وهددوا بقتله ، ثم راجعوا أنفسهم فقرروا الاعتذار له . لم يجدوه فى قصره . . ولما سألوا عنه وجدوه قد ذهب إلى كوخ ريفى ورثه عن أبيه . . ووجدوه قد نزع ملابسه وراح يفلح الأرض ، تماما كما كان يفعل تولستوى العظيم ، ولما اقتربوا منه أدهشهم أن الإمبراطور قد اتسخت قدماه ويداه وتمزقت ملابسه . . ولما سمعهم يعتذرون له ، وكان قد أدار ظهره لهم ، واجههم قائلاً : إذن فاغسلوا قدمى وذراعى . . وضعوا التاج على رأسى . . ففعلوا . . ولكن المعنى الذى خرجت به هو شىء آخر . . وهو أن الإمبراطور أراد أن يؤكد

لهم أن الملك والقصر والعرش لا تساوى عنده شيئا . فليس أسهل من أن يتركها إلى الكوخ الذى جاء منه .. والتاريخ يقول لنا إن كل الأباطرة والملوك والثوار الذين لم تكن لهم أكواخ .. قد ثارت شعوبهم عليهم ، وأنزلتهم من عروشهم ، أو علقتهم من خيوطها الذهبية ، والمعنى هو : أن الجغرافيا هى صانعة التاريخ يا أستاذ .. فما رأيك ؟

ولم يظهر الارتياح على وجه الأستاذ ولا الاقتناع فقال : لو أن ما تذهب إليه صحيح يا مولانا ما بقيت فى مصر طوبة واحدة فى موقعها . . فمعظم عمال البناء فى مصر من الصعايدة . . وكذلك معظم تجار الفاكهة وكل عمال الأرصفة فى ميناء الإسكندرية . . وتجار الأقمشة من الشوام ، وتجار الذهب من اليهود - وهم أبعد الناس عن الثورات بل هم ضدها ، فهم يريدون الاستقرار الذى يضاعف أموالهم ويكدس ثرواتهم . . وربما لأنهم أجانب فهم فى سكون أكثر ، وهم يرون أوضح . ثم إنهم جماعات مغلقة ، لا تسمح لأحد أن يدخل بينها ، ولذلك فهم يتحكمون فى الأغلبية سرا . ويكون تماسكهم مثل التآمر على زبائنهم . ولكنه تآمر هادئ . وابن خلدون يا مولانا قد وقع فى هذا الخطأ أيضا . فهو رغم الدقة والاحتياط فى عباراته فإن له أحكاما عامة خاطئة . . فهو يصف شعوبا بالجبن . . وشعوبا بالذكاء وشعوبا بالرذيلة ؟! ويكون السبب هو العنصر أو هو البيئة الجغرافية . ولكن أبناء الريف عندما يذهبون إلى المدينة يرون شيئاً آخر لا يراه أبناء المدن . . إننا أبناء الأقاليم كالذين يهاجرون إلى أمريكا ويرون تمثال الحرية . . ويسعدهم ذلك . . ويقرأون تلك الأبيات المنقوشة عند قاعدته للشاعرة المهاجرة ايما لازاروس : الكلمات تقول للوافدين الجدد : « تعالوا أيها المعذبون المسحوقون المتعطشون لنسيم الحرية ، تعالوا يانفايات الشواطئ المشردين الذين عصفت بهم الرياح . . إننى أرفع لكم مصباحى عند مدخل الباب الذهبى لأرض الحرية » . . أما أهل مدينة نيويورك والمدن الأمريكية الأخرى فلا يرون ولا يسمعون هذا النداء . ولا يجعلونه شعارا أو شعورا . ولذلك كان المهاجرون الجدد أكثر تمسكا بالحرية وحساسية لها وحماية لها . . وليس صحيحا ما يقال من أن الذين يعتدون على حريات البيض هم السود . . فقط لأنهم سود . . الصحيح غير ذلك ، فالسود فقراء . . أكثرهم فقراء ، فهذا العدوان منهم على البيض ، هو عدوان طبقة على طبقة ، وليس حقد جنس على جنس . . فمن السود أثرياء جدا ، ومن البيض ملايين فقراء . . والقادم من الريف يشعر بأنه وحيد وبأنه أقلية وبأن أخطاءه غير مقبولة لأنه بلا عائلة ولا عصبية وبلا جذور فى المدينة ، ولذلك يمكن اقتلاعه . . فهو يحاول منذ اللحظة الأولى ألا يكون واحدا ، وأن تكون جذوره عميقة ، وأن تكون لحياته أسباب ، وأن يكون « ضروريا » وهذا هو الأهم . . وعندك فى أمريكا مثل واحد قوى . . فاليهود والزنوج دخلوا امريكا فى وقت واحد . ويهود أمريكا نصف عدد الزنوج . ولكن اليهود نجحوا فى شىء واحد : أن يجعلوا وجودهم ضروريا للجميع . . بينما لم يفلح

الزنوج فى ذلك . . وهذه هى مشكلة كل صاحب ثورة أو نظرية أو رغبة فى الإصلاح وكل قادم من خارج العاصمة !

وتلفت بعضنا إلى بعض لكى نكتفى بهذا القدر . ولكن واحدا منا قد أحس أن الحوار كله قد انتهى إليه هو . وأن الحديث قد أصبح شيئا مثل كرة القدم . وأن الكرة قد وقعت عند قدميه . وأحس أن المرمى خال تماما . وعليه أن يسدد الكرة إليه . فقال : هذا ما نسميه نحن أيها الأستاذ الكريم « بالمهدى المنتظر » فأنا مصرى من أم إيرانية . . وليس من الضرورى أن يكون المهدى المنتظر من رجال الدين . . إنما من رجال السياسة والأدب والعلم . . فالمهدى المنتظر هو الشخص الذى تهيأت كل الظروف لاستقباله ليصلح أمر الناس وليقودهم إلى سواء السبيل . . وكل العباقرة فى التاريخ هم « الهداة المنتظرون » . . فكما أن المهدى المنتظر يظهر فى أى وقت ، فمن الممكن أن يظهر بأى اسم وبأية صورة وفى أى عدد من الناس . . إن الذى أقوله يا أستاذ يعتبر تجاوزا لحدودى الدينية . . ولكننى متحرر قليلا . . فأنا شيعى اثنا عشرى . .

– ما معنى ذلك ؟

– ماذا تقصد ؟ . . ماذا تقصد ؟ . . إنه رفض يا أستاذ أن يناقشنا فى هذه القضية . وقد حاولنا كثيرا ، واشترط أن يكون ذلك فى حضورك يا أستاذ . . والآن هو الذى استدرج نفسه إلى الحديث عن المذهب الشيعى . . فاطلب منه يا أستاذ أن يشرح لنا ذلك . . قل له يا أستاذ . .

قال زميلنا الإيرانى الأصل : سوف أشرح ذلك لكم وعلى مسمع من الأستاذ فهو يعرف كل شىء . وأرجو يا أستاذ أن تصحح أخطائى . . فأنا مؤمن وإن لم أكن متعمقا فى مذهبى الدينى . . ولكن الذى قلته حالا الآن لا يتفق مع هذا المذهب ، بل يعتبر كفرا وخروجا عليه . . لقد غضبت أمى عندما تحدثت أمامها بهذا الاستخفاف . . واستدعت بعض أقاربى من ايران ليضعوا عقلى فى رأسى . . فالرسول عليه الصلاة والسلام – كما تعلم يا أستاذ – هو الذى غرس بذور التشيع . . أى لأن يتشيع المسلمون لعلى بن أبى طالب عندما قال : ياعلى ، لايحبك إلا مؤمن ، ولا يبغضك إلا منافق ، وحين قال : على مع الحق والحق مع على . والرسول هو الذى أطلق اسم الشيعة على الذين يشايعون ابن عمه عليا . . حين قال : يا ابا الحسن انت وشيعتك فى الجنة . وعند وفاة الرسول عليه السلام بويع أبو بكر بالخلافة ، وامتنع على بن أبى طالب وشيعته . . وعن الرسول عليه السلام أنه قال : إن الخلافة فى قريش . . وأنت تعلم يا أستاذ أن عدد فرق الشيعة اثنتا عشرة فرقة . الفرقة الأولى كانت لعلى بن أبى طالب والثانية لابنه الحسن والثالثة للحسين اخيه وأوصى بها الحسين إلى ولده زين العابدين ، وأوصى هذا إلى ولده محمد الباقر ، وأوصى الباقر إلى ولده جعفر الصادق ، ثم الصادق أوصى إلى ولده موسى الكاظم . وأوصى موسى إلى ولده على الرضا ، وأوصى على الرضا إلى

ولده محمد الجواد ، وأوصى الجواد إلى ولده على الهادى ، والهادى أوصى إلى ولده الحسن العسكرى . ومنه انتقلت الإمامة بالوصية إلى ولده محمد بن الحسن . . وهذا هو المهدى الذى ننتظره والذى اختفى بعد موت ابيه فى ٢٥٦ هجرية . . ولا يزال المهدى المنتظر حيا فى مكان ما . . ولا يزال على صلة ما بالناس . . وهو يظهر فى أثواب مختلفة وفى أماكن مختلفة ولأسباب مختلفة . . ولا أستبعد أن تكون أنت يا أستاذ هذا المهدى المنتظر ! ! .

وضحك الأستاذ وقهقه قائلا : حسبك يا مولانا . . عندك . . قف يا مولانا . . إن كنت تقصد بذلك أن تستعدى علىّ أهل السنة ، فإننى أشكرك على ذلك . . وإن كنت تقصد أن يجعلنى الشيعة خليفة لهم فى بغداد أو طهران فإننى لا أصلح لهذه الخلافة . . ولا أظنك أنت تمشى ورائى . . فانت شيعى وأنا سنى . . وأجدادى كانوا ومايزالون خصوما لأجدادك . . فأنا من الأكراد وهم سنيون متعصبون ضد اجدادك الفرس المتشيعين . . ولكنك يا مولانا تعتبر كافرا بمذهب السنة وبمذهب الشيعة . . فأنت فى حاجة إلى مهدى منتظر خاص بك ينقذك من أهلك ومن أهلى . . هاها . . هاها . . ألا ترى يا مولانا أن الجغرافيا قد افسدت التاريخ . . لقد جاء شيعيا من طهران فعاش بين السنيين فى القاهرة فكفر بالمذهبين معا . . هاها . . هاها . .

وفى السيارة تساءلنا :

– استرحت اليوم ؟ .

– تماما .

– ما الذى أراحك ؟

– كل شىء

– مثل ماذا ؟

– لقد قررت أن أدرس الفلسفة وأن أترك التجارة ومسك الدفاتر .

– أنت عبيط . .

– وهل أنت عبيط ؟

– مؤكد عبيط وألف مرة عبيط .

– أنا أرى عكس ذلك . . أرى أن التفكير متعة ولو لم تكن له أية فائدة عملية . . بل إن التفكير الممتع هو الذى لا فائدة له . . مثلا : ما فائدة اللوحات الفنية ؟ ما فائدة الرسم بجميع مدارسه ؟ . . ما فائدة النحت ؟ . ما فائدة الشعر ؟ . ما فائدة الموسيقى ؟ . إنك لا تأكلها ولا تلبسها ولا تشربها . . ولكنها ممتعة وجميلة وهذا يكفى . . وإذا أردت أن تكسب فاعمل إلى جانبها شيئا آخر . إن الاستاذ

لا يكسب من التفكير بل إنه يخسر من التفكير . . إنه يكسب من الكتابة . . والشاعر لا يكسب من نظم الشعر ، ولكن عندما يطبعه فى ديوان . .

– يا خسارتك . . لقد ظنناك العاقل الوحيد فينا . . ألف رحمة تنزل عليك . . بل لا رحمة تنزل عليك لأنك اخترت الجحيم . . إننى لا اطلب لك الرحمة فأنا أحق بها منك .

– لقد قررت أن أنتحر . .

– تنتحر ؟

– سوف أترك التجارة والبيع والشراء والتعامل مع أناس لا يساوون وزنهم تراباً . . إننى أحترم عقلى عندما أفكر واحتقره عندما أساوم . . والتجارة مساومة من أجل أن تسرق الآخرين فى أدب . .

– إذا كان هذا رأيك النهائى . . فلماذا تركب سيارتك ؟ . . لماذا لا تعود إلى البيت سيرا على قدميك ؟ . .

– أنت تفعل ذلك لأنك بلا سيارة . . وتفعل ذلك لأنك بلا مكتب تجلس إليه وتفكر . . فأنت تفكر على رجليك . . أما أنا فأدخر طاقتى لما هو أهم . .

– عليه العرض ومنه العوض .

– فيمن ؟

– فينا نحن الاثنين . . أو نحن العشرين ؟ ! .

العَقّاد : خيال ؟ حقيقة ؟ إنّه عمل فنّي !

كان الذى حولنا أجمل من الذى فى داخلنا . . كان حولنا ماء البحر الأبيض المتوسط وقد التصقت به صور الشاطئ الإيطالى عند مدينة بورتوفينو . . فالماء لا يتحرك . والقمر قد جعل كل شيء حوالينا : فضة وضبابا . . ثم سحب من الدنيا كل الألوان إلا لونه ، وكل الأصوات إلا الموج ، وكل العطور إلا الياسمين يتدلى من الفندق الصغير . . هل جاء وقت النوم للكون كله ؟ . . هل تحتم علينا جميعا أن نذهب إلى فراشنا ؟ . . إن أصواتا ضاحكة وعربات تتحرك موتوراتها وأغنيات مرتجفة تجيء من كل مكان . . فما يزال أناس ساهرين . . والجو بارد قليلا . .

وأخذت أواجه البرد بأن ألم ملابسى وألصقها بجسمى . . بينما زملائى يفتحون صدورهم . . وعيونهم . . وينزلون من مقاعدهم ويتمددون على الرمل . . وينشرون أذرعهم كأن كل واحد منهم يتمنى أن يسقط القمر بينها يحتويه فتظلم الدنيا كلها . . فقد بات القمر فى حضنه . . وفى هذه المياه غرق الشاعر الإنجليزى شيلى . . كان مخمورا وكان القمر فى السماء . . فشرب من كأسين فى وقت واحد . وعندما مات كان الكون كله ضياء وحريرا ودموعا . ولم يحتج إلى جنازة . فالدنيا كلها لم تمش وراءه . . إنما الدنيا ملأت عينيه ، وذهبت عندما أطبقها . . وفى هذا المكان إلى اليمين جلس الشاعر الإيطالى الحزين ليوباردى وقال : لو كانت هذه المياه كلها دموعا تنزل من عينى على خدى إلى الأبد ! . فإننى حزين على نفسى . . لا أعرف لماذا خلقنى الله . أو إنى أعرف لماذا ولكنى لا أجد حكمة لذلك . أو أعرف الحكمة ولكنها لا تقنعنى . أو إنها تقنعنى ولكنى لم أفلح فى إقناع أحد بأن حياتى على الأرض ضرورة كونية !

وجاء الجرسون يسأل إن كنا نحن الأربعة نريد طعاما ، فلم ينطق أحد . وإن كنا نريد شرابا ، فلم يقل أحد شيئا . وعرف الجرسون بخبرته الطويلة أن هناك عبادا للقمر ، وأنهم فى الليالى القمرية كما فى الصلوات لا ينطقون ، ولكن لا يكاد يغيب القمر ، حتى ينطقوا ويصرخوا ويأكلوا ويشربوا ويناموا ويموتوا فى أماكنهم . . ويدفنوا حيث يموتون كأنهم الأنبياء . هل تأخر القمر قليلا ؟ . . هل توقف على رءوس الأشجار ؟ . . هل هى التى تمسكت به ؟ . . هل رأى القمر حبيبين فى قبلة عذاب طويلة ، فوقف يرى ؟ . . إن التوراة تقول لنا الشمس هى الأخرى توقفت مرة حتى ينتصر جيش على

جيش . . فلماذا لا يتوقف القمر حتى يذوب قلب فى قلب . . أو حتى يذوب قلبان فى قبلة واحدة ، أو يذوب القمر على شفاه أربع ؟ لقد فعلها القمر كثيرا ، ووصفه الشاعر الفرنسى بولد جيرالدى أرق الشعراء وأسعدهم فى التاريخ عندما قال : حديثنا عصير القمر . . شبابنا من عمر القمر !

قلت : أحسن ما أعجبنى من كلام عن القمر ما قاله شاعر بلدنا على محمود طه عندما وصف تمثالا عاريا لفتاة جميلة . . وقد رفعت صدرها البارز ، ووضعت يدها على أحد نهديها ، فقال الشاعر فى نصف بيت لا أعرف نصفه الآخر :

بثديين كأنما ترضعان القمر !

قال « حسن . . . » : إنى أراه دائرة مكتملة فارغة من أى معنى . . إنها ليست إلا تابعا للأرض يدور حولها ، وهى تدور حول الشمس ، والشمس والكواكب التابعة لها تدور كلها حول مجموعة أخرى ، وهذه المجموعة بألوف الملايين من النجوم تدور حول مجموعة . . وهكذا . . فالكون كله يدور حول بعضه البعض . . لحكمة لا يعلمها إلا الله . . فهذا هو الجمال الحقيقى . . جمال الهندسة والدقة المطلقة . . أين الله ؟ لا نعرف . . ولكن هذه صفة من صفاته . . وصورة من معانيه . . وعبارة من قاموسه . . وقاموس فى مكتبته . . فالله ليس خارج الكون . . إنما الكون « فى » الله . . فالله أكبر . . أو أن حكمة الله فى ذرات الكون . . ونحن لا نعرف إلا هذا الكون . . حتى هذا الكون لا نعرفه ، فنحن نقول : هذا الكون . . ولا نعرف معنى هذه العبارة . . إنما نحن رأينا القمر يدور حول الأرض . والأرض وأخواتها تدور حول الشمس . وكل هذه المجموعة تدور حول مجموعة أخرى . . فضربنا هذه المجموعة فى مليون مليون مليون . . وقلنا إن هذا هو الكون . . مع أننا لم نذهب إلى ما وراء المجموعة الشمسية قط . ومن العلماء من يقول إن الكون يتراجع إلى الوراء . . أى أنه يتسع . . ومن يقول إن الكون يتقدم إلى الأمام . . أى أن الكون يتقلص ويتكثف ويتركز . . ومن المضحك حقا أن نستخدم كلمات : إلى الأمام وإلى الوراء . . ويتقدم ويتأخر . . وهى كلمات لا معنى لنا . . لأنه ما هو الأمام وما هو الخلف ؟ . . لابد أن تكون هناك نقطة محددة . . نقول : هذا أمامها وهذا خلفها . . فأين هى هذه النقطة ؟ . .

هل جاء الجرسون وألقى على رءوسنا جميعا دلوا من الماء البارد ؟ هل جاء صاحب الفندق وألقى بنا جميعا فى مياه ميناء بورتوفينو ؟ . . هل جاء المهندس الذى بنى « قصر الأحلام » فهدمه على رءوسنا فجأة ؟ . . إن قصر الأحلام الذى إلى جوارنا ليس إلا قصرا لم يكمله صاحبه . . مات وترك الأبواب والنوافذ والحجرات مفتوحة بعضها على بعض . . وفيها يتوارى العشاق . . ويقولون : إن هذا القصر مثل أحلام العذارى لم تكتمل بعد . فكل عاشق يجىء إلى القصر يتخيل نهايته على هواه . . فهو مشروع قصر . . أى أنه حلم لم يصبح حقيقة . . وأنا صاحب فكرة أن نسند ظهورنا إلى

هذا القصر . . أى أن نضع الأحلام وراء ظهورنا وننظر إلى الدنيا . على صورة غير محددة . .

وكان صوت « حسن . . . » هادئا مثل ضربات الحديد البارد على الحديد الملتهب .. الحديد يرن ونحن نئن . . ولكن هذا رأيه فهو أستاذ الفلك بجامعة القاهرة . . والدنيا أولها أرقام وآخرها أرقام . . وأحب الأرقام إليه الصفر – وهو يرى بسبب نظريات كثيرة عنده أن الصفر رقم . وأن الله – إذا صح هذا التعبير – هو الصفر . . أى هو البداية وهو النهاية . .

وتقلب على الرمل « وليم . . . » وقال : يا أخى أنا قلت لك من عشرين يوما ألا تفتح فك . . إنك تضربنا بالحجارة . . يا أخى افرض أننا مجانين وأنت العاقل الوحيد .. فلا أنت قادر على إقناعنا ، ولا نحن قادرون . . أنت شريك تخالفنا فى كل شىء : أنا أشرب وأنت لا تشرب . . أنا أحب وأنت لا تحب . . أنا كافر وأنت مؤمن . . ولكنى عندما أتكلم فأنا عاشق للدنيا : للمال والمرأة والخمر والعطر والقمر والسجائر والحشيش . . وأرى أن الدنيا أكذوبة جميلة وأننى يجب أن أعيشها . . وأنا الذى أقول « يجب » وقد مشيت فى جنازة أخى الذى انتحر وتمنيت أن أخرجه من التابوت وأضربه بالجزمة لأنه رفض الحياة ، متوهما أن هناك حياة أخرى . . إنه حمار ابن حمار وأخو حمار . . أخوه الذى ليس أنا . . فلنا أخ قسيس . هو الآخر رفض الحياة لأسباب دينية . . وأخى الفقيد رفض الحياة لأسباب عقلية . . وأنا أحاول أن آخذ نصيب الاثنين . . ولكنك عندما تتكلم عن الدنيا فأنت صاحب نبرة كافرة ، مع أنك مؤمن ، وأنا صاحب نبرة مؤمنة مع أننى كافر . . ولولا أننى مرهق حقا لما كفانى رمل هذا الشاطئ كله لكى أضعه فى فك . . لكى أدفنك من داخلك . . أو أدفن علمك وإيمانك معا . . فنحن لسنا فى حاجة إليك . . لا الليلة ولا أى يوم آخر . . فإن كنت جامدا . . ففى الكون أحجار كثيرة . . وإن كنت عاقلا ففى الدنيا عقلاء كثيرون خربوها وماتوا . . وإن كنت مؤمنا فلست إلا واحدا من ملايين المغفلين الذين أفسدوا العلاقات الانسانية بضمائر مستريحة . . ما رأيكم لو أشعلنا نارا ورقصنا حولها . . وذبحنا د . حسن وأكلناه حيا ؟ . . لو فعلنا ذلك فإننا نحيى أعرق التقاليد الوثنية للتخلص من الحكماء . . إنهم فى بعض القبائل الأفريقية يذبحون طبيب القبيلة ويأكلونه . . إيمانا منهم بأن الرجل الذى يعرف مبادئ الصحة ، هو نفسه صحة . . هو فيتامين . . ولذلك يأكلونه ليصحوا جميعا . . وأنا تعجبنى هذه التقاليد لسبب آخر ، هو أن البشرية يجب أن تأكل حكماءها وفلاسفتها وأنبياءها من حين إلى حين . وبذلك يستريح الناس من مثيرى الشغب والقلاقل فى طول التاريخ وعرضه . . وأنا أرى أحسن ما فى التاريخ اليهودى أن أنبياءهم كثيرون ، وأنهم يقتلون أنبياءهم بنفس الحماسة التى تقتل بها إناث العناكب ذكورها . . وتقتل به نساء الأمازون رجالها . . و « شجرة الدر » زوجها . . وكليوبطرة عشاقها . . أما سميراميس فهى أحب الملكات إلى نفسى . . إنها كانت تركب حصانها خارج مدينة بغداد ، وتنتقى أكثر الشبان

جمالا وحيوية . . وتتجمل له فى فراشها ، وتظل إلى جواره وبين ذراعيه حتى يموت . . فإذا مات ارتدت عليه السواد . . ومن مظاهر حزنها على عاشق الليلة الواحدة أن تقتل واحدا من وزرائها . . وهكذا استطاعت سميراميس أن تقضى على الشباب والوزراء بانتظام . . فلنشرب فى صحة سميراميس . . وليحى القمر الذى غاب . .

قال د . حسن : ولكن النجوم لم تغب .. انظر .

– اسكت .. ولا كلمة !

– هل تذكر ماالذى تقوله الأغنية الايطالية .. آه .. إنها تقول :

وجدت قلبى فى بورتوفينو ..

– هناك أغنية أجمل : أضعت قلبى فى هيدلبرج .. إنها أرق الأغنيات الألمانية .. والإنسان لايجد قلبه .. إنما الإنسان يفقده .. فأنت عندما تحب فإنك لاتجد قلبك .. أنت تضيعه .. لاتسيطر عليه .. إنه يفلت منك .. فإذا أفلت منك .. ضاع .. وأضاعك أيضا ..

– بل إن الإنسان عندما يحب فإنه « يجد » قلبه .. أى يجد الذى يعجبه .. الذى يسعده .. فالإنسان قبل الحب ، كأنه بلا قلب .. فإذا أحب فوجئ بأن شيئا يدق فى داخله .. بل شيئا يدقه كله .. فيصبح الجسم كأنه قلب يدق .. بل تصبح الدنيا كأنها قلب يدق .. فالحب يجعلنى أكتشف أن لى قلبا ، وأن للدنيا كلها قلبا .. وأننى والدنيا والذى أحبه قلب واحد . فكأننى لم أكتشف أن لى قلبا . بل أكتشف أن الدنيا كلها تدق لمن عنده قلب .. كأن الدنيا تصفق للمحبين .. ونحن صغاركنا ننظر إلى القمر ويخيل إلينا أن له وجها .. وأن القمر يضحك .. وأنه يبكى .. إن القمر صورة منا .. انعكاس لحالاتنا النفسية .. وكذلك عندما كبرنا ، فنحن نرى القمر صورة من عواطفنا ومخاوفنا وأحزاننا .. ولذلك فليس عاشقا من لم يعرف القمر .. من لم يقل شيئا .. من لم يهزه القمر .. وفى كل اللغات الأوروبية نجد أن المجنون والجنون مأخوذ من كلمة « القمر » .. والقمركما يسحب مياه البحار والأنهار إلى أعلى .. إليه .. فيكون المد الذى يعرفه سكان الشواطئ .. فهو أيضا يسحب قلوبنا ويشدنا من شعورنا ومشاعرنا .. وكأنه هو الآخر عاشق لنا .. كما أننا عاشقون له .. والقمر هو الذى يعطى للحب ذلك الغطاء الرقيق من الألوان والظلال . . تماما مثل كلمات العشاق .. إنها ليست كلمات علمية ولا معادلات هندسية .. إنما مزيج جميل من العطر والسحر والصراحة والخوف والأمل والغيرة ، واللمس والهمس والأشباح والنوم واليقظة أو اليقظة التى كأنها نوم ، والنوم الذى كأنه حلم .. إن المراصد الفلكية الحديثة ترى أن ناطحات السحاب الأمريكية قد انعكست صورها على القمر .. إنها صورة لعصر البناء الشامخ والواقع الحجرى والضوء الباهر .. ولكننى لا أعيش ذلك العصر ولا أحبه ، إننى أمد يدى إلى التاريخ وأعيده إلى ماقبل المراصد العلمية والعدسات .. إلى عصر

الرؤية بالعين المجردة .. بل إلى عصر الكهوف حيث لايرى الناس ، إنما يغمضون عيونهم ليروا ويحلموا ويفزعوا .. إنني أفضل أن أعيش بغرائزى على أن أعيش بعقلى .. أن أعيش مطبق العين ، على أن أتعذب مفتوح العين .. والذى يحب هو الذى يغمض عينيه .. أو إذا فتحها كان سادرا حالما حائرا فى ليل طويل ليس له إلا قمر .. ولا يهمنى إن كان القمر تابعا للشمس أو الأرض .. وإن كان حجرا أو غازا ، حقيقة أو وهما .. إننى عابد لهذا الوهم .. لهذا الوثن .. لهذه الأكذوبة .. ويسعدنى ذلك ! تعرف ماالذى أعناه الآن ؟ ..

قال « رأفت . . . » : أعرف بالضبط ماذا تريد .. تريد أن ندفنك حيا فى الرمال .. فتصرخ قائلا : ليس اليوم .. إنما غدا .. وأنا أعرف لماذا تريد أن يتم ذلك غدا .. فأنت تريد أن تبعث خطابا إلى والدك فى القاهرة وإلى السفير المصرى هنا ، وتقول له : إنك هربت لتكتب هذا الخطاب .. وإننا قررنا قتلك وإنك قاومت .. ولكن لم تستطع فى النهاية .. ثم تترك له عناويننا جميعا والأسباب التى دفعتنا إلى قتلك .. فتقول : أنيس منصور ويسكن فى ٣٨ شارع السلطان حسين بالزمالك .. مشتغل بالفلسفة وشديد القلق ويتمنى لو مات قبل أن يولد .. ومستعد أن يبيع حياته من أجل أن يعرف .. وقد أورثته حياته العائلية الكثير من الآراء السوداء ، وأن الذى يخفيه أكثر ظلاما من الذى يظهره .. وأنه ساعد على قتلى ليعرف كيف تغيب الروح عن الجسد .. وأنه طلب من حانوطى فى مدينة المنصورة أن يدفنه مع أحد أقاربه .. وكان وقتها طفلا صغيرا ، فقد أراد أن يشهد حساب الملكين للموتى .. وكان يمشى فى كل جنازة أملاً فى أن يتسلل إلى القبر .. ولما وجد أن الحانوطى يضع كمية كبيرة من التراب والطوب والحجارة عند باب القبر ، أدرك أنه إذا دخل فلن يخرج ، فعدل عن هذه الفكرة . ولكنه حاول الانتحار تماما كما حاول الفيلسوف الإنجليزى باركلى .. فقد علق الحبل فى رقبته .. ولما وجده موجعا عدل عن ذلك فى آخر لحظة .. وكان أمله عندما قرر الانتحار أن يرى الموت قادما خطوة خطوة .. ورغم أن هذه بعض آرائه ، فإنه لا يقوى على إيذاء نمله .. إنه أضعف من ذلك كثيرًا.. إنه أشد الناس قسوة على نفسه ، وأشدهم رحمة على الآخرين .. وأنا على يقين من أنه الوحيد الذى سوف يحاول إنقاذى فى آخر لحظة .. فإذا لم يفلح فلأنهم أقوى منه .. ولكنه أصدق واحد إذا رثانى ، أو هو إنسان متشائم لأنه يرى أنه حيوان لم يتطور بعد ، فلاتزال له أنياب ومخالب فكرية .. وأنه مايزال يعيش بأنيابه وعذابه ، وهو لذلك يشعر دائمًا أنه ليس محظوظًا . فالفكر شاق والحياة شاقة . ولم يرث شيئا ولن يورث أحدا شيئا .. وإن راحته الوحيدة هى أن يدفنوه حيا وانه يتمنى وفاتك ، لأن هذه هى إحدى أمنياته لنفسه ! .

وسوف تقول وهو يسكن فى شبرا . وهو يدرس الفلسفة ولكنه حائر بين الشيوعية والمسيحية .. فهو مسيحى متعصب . ولكنه ليس متعصبا للدين ، إنما للمسيحيين فقط ، سواء كانوا مؤمنين أو

ملحدين .. وهو فى نفس الوقت شيوعى .. وطبيعى أن يكون الذى ينتسب إلى الأقلية شيوعيا .. لأن الشيوعية مؤامرة على الأغلبية وتحطيم لكل ماتملكه من تاريخ ودين وسلطة فهو شيوعى مسيحى .. أى أقلية الأقلية ؛ ولذلك فمرارته مركزة .. وحقده كثيف .. ورغبته التدميرية هائلة .. ولا يهمه أن أعيش كثيرا أو أموت .. ولكنه يهمه أن تموت الأغلبية واحدا واحدا .. ومن أهم هواياته أن يقرأ صفحات الوفيات . ويعد عدد المسيحيين والمسلمين الذين يموتون كل يوم .. ويحزنه أن المسيحيين يموتون أكثر.. ويرى أن هذا هو « الانقراض » الطائفى .. ويدهشه جدا كيف تتماسك الأقليات وتترابط ويشد بعضها بعضا ، وفى نفس الوقت تموت بهذه الكثرة .. ولا يجد إلا حلا واحدا : الثورة على الأغلبية المسلمة بتحطيمها من داخلها أو من خارجها .. وإلا بأن يعدد المسيحيون الزوجات .. وأن يكون الزواج مبكرا .. وهو يتهم والدك بأنه طبيب ولادة . وإن كل الذين يولدون أحياء على يديه مسلمون . أما الموتى فهم من الأقباط .. وأن والدك قاتل ، لم تتمكن منه العدالة .. وأن خير عقاب لوالدك هو أن تموت أنت بأيدى عدد من المسلمين .. أما هو فلن يتدخل إلا بالشماتة .. فيقلب جثمانك الطاهر فى الرمل ليتأكد أنك قد فارقت الدنيا ، وسوف يكون « وليم .. » أسرعنا إلى الشهادة ضدنا جميعا .. وإلى البراءة من أية تهمة ، وإلى السعادة إذا سار فى جنازتك ، ورأى أباك وأخاك قد انكسرا فى الطريق إلى المقبرة .. ولا يرضيه إلا أن يرى أباك ميتا أيضا .. وأن يكون قاتله هو مدفع الإفطار .. حتى تعلن الحكومة عن إبطال استخدام هذا المدفع الذى يزعجه عند السحور ، فهو يسكن فى منيل الروضة .. وبعد مقتل والدك بمدفع الإفطار سوف تنتشر خرافات بأن المدفع ينطلق من تلقاء نفسه . وبأن العفاريت تخرج من فوهته .. ووليم شاعر فاشل وفيلسوف أكثر فشلا .. ولكنه يجد متعة فى القراءة وفى الكتابة . وهو يعيش على الحافة بين التعلق بالكتابة واحتقار جميع الكتاب المصريين .. أما د . رءوف .. فسوف تقول عنه إنه : يسكن فى إمبابة بالقرب من مسجد سيدى إسماعيل الإمبابى .. وهو يرى فى ذلك إشارة سماوية .. فقد شاء الله سبحانه وتعالى أن يجعله قريبا من المسجد .. حتى لاتفوته صلاة .. بل ليست له حجة يتذرع بها إذا لم يؤد الصلوات فى أوقاتها الخمسة .. ولكنه لن يغفر لى أننى استوليت على الفتاة التى أحبها .. وقد حاولت أن أثبت له أننى لم أكن أعرف أنه يحبها .. ولكنه لم يصدقنى .. ويعيب على أننى أهديتها خاتما وساعة .. وحاولت أن أقول له : إننى فعلت ذلك لأننى أستطيع .. وليس لإقناعها بأن تتركه .. وأننى كنت سأفعل نفس الشىء مع أية فتاة أخرى .. ولو نبهنى هو منذ البداية أنه يحبها لتركتها له .. فأنا لم أحبها إلا بعد وقت طويل .. وكان من الممكن أن أبتعد عنها .. ولكن المشكلة التى واجهتنى هى أنها أحبتنى قبل أن تحبه .. وكان رأيها فيه سيئا . فقد اكتشفت أنه يكره الأطفال . وأن حديثه عن أمه وأبيه ليس عاطفيا . بل ينظر إليهما على أنهما دبرا جريمة مشتركة . وأنه هو ثمرة هذه الجريمة .. فأمه مريضة ماكان

ينبغى لها أن تتزوج ، وأبوه فقير ما كان له أن يتزوج . وأمراض أمه وراثية .. وقد ورثها كلها بنفس الدقة التى ورثتها بها هى عن أمها ، وأمها عن أمها .. وربما كان الشيء الوحيد الذى يجعلنا نلتقى هو تقارينا الفكرى وإعجابنا بالأستاذ العقاد . ولكن من المؤكد أنه صاحب فكرة دفن الناس أحياء .. ليرى الميت من الذى يقتله .. ويرى الميت قبره لحظة بلحظة .. وأهم من ذلك كله : أن يرى الميت كيف تموت القيم الأخلاقية والمثل العليا فى عينيه .. فيتعذب قبل دخوله القبر بلحظات .. بل هو صاحب فكرة أن أشاركهم جميعا فى حفر قبرى بيدى .. لأنه ليس من المعقول أن أقف متفرجا بينما هم يحفرون مكانا لراحتى الأبدية ! .

قلت : كفى . . كفى .. لقد غاب القمر .. وظهرت الشياطين .. أفكارنا مثل الشياطين .. ولم نكن فى حاجة إلى هذا الشاطئ الجميل ، وإلى الرمال الناعمة .. وإلى الأمواج الحالمة .. وإلى السحاب الذى يشبه مناديل تطايرت من جيوب العشاق .. فجاءت دليلا على أنهم لايدرون مايفعله النسيم فى جيوبهم وقلوبهم .. إن الشاعر الإيطالى ليوباردى عندما جاء إلى هذا المكان قال : أسند رأسى إلى القمم ، وأرى وجهى فى القمر ، فأسحب السحاب وأتغطى فى انتظار محبوبتى .. ولو عرف الشاعر أن مجموعة من الوحوش الفلسفية سوف تجيء إلى نفس المكان . وتفكر فى كيف يدفن بعضها بعضا ، لذهب إلى مكان آخر ، ولترك لنا هذه العبارة منقوشة على حجر أسود : خبئوا أنفسكم ، فقد أعدمتم الشمس .. فلم يعد لكم رأى ، لأنه لم تعد لكم رؤية ! هيا بنا ..

— إلى أين ؟

— إلى أى مكان به نور .. لنرى أنفسنا . بعدما رأينا أعماقنا المروعة .. أتمنى أن أراكم واحدا واحدا وبسرعة .. إن لكم أنيابا وأظافر .. وإنكم متعطشون للموت .. لموت الآخرين .. يا أخى أنت تكلمت كأنك بركان يقذف وحلا .. وحلا باردا عفنا .. إن البراكين تقذف الأحجار التى طهرتها النيران .. ولأنها طاهرة رفعتها إلى السماء ، قبل أن تسقط على الأرض .. وقديما نصحنا الفيلسوف نيتشه أن نبنى بيوتنا على سفوح البراكين .. لكى نلمس الفزع والخطر ، وفى نفس الوقت نرى تطهير الأرض كيف يكون .. فالبركان غضبة أرض على مافيها من دنس .. إن البركان هو محاولة لرفع الأرض إلى مستوى السماء .. ورغم أنها محاولة يائسة ، فإن البراكين لم تعرف اليأس .. كذلك ينصحنا الفيلسوف الألمانى نيتشه .. ولو عاش نيتشه ليعرف كيف يقيم اليابانيون بيوتهم الخشبية على سفوح البراكين ، لعدل عن رأيه .. فاليابانيون لم يروا الجمال والجلال والأبهة الطاهرة التى يتحدث عنها نيتشه .. إنما أناس عمليون . عرفوا البراكين حقيقة ، فواجهوها بحقيقة أخرى : صنعوا بيوتا من الخشب يمكن خلعها وتركيبها . فإذا لم يستطيعوا ، كانت خسارتهم تافهة .. ولكنى أفضل عشرة البراكين لأننى أجد صورا غريبة : فنحن نعيش على قشرة رقيقة من الأرض . ونروى هذه القشرة

ونتقاتل عليها .. والذى نبنيه نسميه الحضارة . وهذه الحضارة نرى أنها أعظم ما خلق الإنسان ، وهو أعظم من خلق الله .. وعلى ذلك فنحن أعظم مخلوقات الله – نحن الذين نقول ذلك . ولا يمكن أن يكون ذلك صحيحا ، لأننا لا نعرف كل مخلوقات الله .. فقط مخلوقات الله على هذه الأرض .. وأرضا واحدة من ملايين ملايين الكواكب الأخر التى لا نعرفها .. ثم لو انشطرت الأرض نصفين .. لوجدنا سطحها أخضر على أرض سوداء على قشرة صفراء فوق قشرة حمراء .. فوق محيطات من جهنم السائلة .. هذه الجهنم هى التى تتسرب من فتحات صغيرة هى التى نسميها بالبراكين .. ويقول نيتشه إن معايشة البراكين هى استعداد نفسى مستمر لعل الإنسان يقتنع بأنه إذا اختار أن يموت فسوف يكون ذلك فى أطهر مكان على الأرض : فوهة بركان .. وكذلك فعل أحد فلاسفة الإغريق .. ولما ألقى بنفسه فى البركان أطارت الغازات المندفعة حذاءه .. وقيل إن الأرض قد استردت ما أعطت .. أما الناس فقد استردوا ما أعطوا : حذاء الفيلسوف ! إننىأعتقد أن الذى سمعناه الليلة ليس إلا حذاء الفيلسوف الذى نزل على أعصابنا لاسعا كاويا مفسرا كل أحلامنا وآمالنا فى ليلة جميلة أخيرة على الريفيرا الايطالية .. هيا بنا .. قبل أن أحكى لكم إحدى قصص الديكاميرون لأديب إيطاليا بوكاتشيو . وأقارن بينها وبين ما قاله أبو العلاء المعرى .. الذى قال :

مشيناها خطى كتبت علينا ومن كتبت عليه خطى مشاها
ومن كانت منيته بأرض فليس يموت فى أرض سواها !

قلت : هيا بنا إلى أى مكان آخر قبل أن نعود دون أن ندرى إلى ماكنا فيه .. فأنا أعرف هذا « المزاج الأسود » .. مزاجنا جميعا ، رغم هذه المحاولات اليائسة فى انتشال أنفسنا من الظلام والملل واليأس ، ومحاولة إضحاك أنفسنا على أنفسنا .. هيا .. كفانا محاكمات .. كفانا اتهامات .. إن هذه اللعبة الكاذبة التى اخترناها لدفن واحد منا ، أو اللعب بهذه الفكرة ليس إلا محاولة أخرى لإنهاء هذه المحاكمة اليومية بإدانة أى واحد والحكم عليه . لنرفع الجلسة !

فقال ثلاثة معا : بل الجلسة مستمرة !

فقلت : لماذا ؟

قال واحد : بل لدينا ما نقوله فى قضية هامة .. وليس معقولا أن تثار قضية بهذا الحجم دون مناقشة ..

قال ثان : هذا صحيح . ولابد أن نصل إلى رأى الليلة ..

وقال ثالث : محاضرتك صباح اليوم فى جامعة نابلى عن « الجوانب الفلسفية فى مؤلفات عباس محمود العقاد » أنت ألقيت كلمتك ومشيت دون أن تدرى أين تقع هذه الكلمات بين الأساتذة الايطاليين والمستشرقين .. ورغم محاولاتك المستمرة أن تقرب الأستاذ إليهم فتقارن بين ما يراه العقاد

فى الحرية وما يراه الفيلسوف الايطالى كروتشه .. وبين رأى العقاد فى هتلر ورأى موسولينى فى أستاذه وأستاذ كل الساسة ميكيافيللى .. ولابد أن الايطاليين قد أعجبتهم كثيرا إدانة العقاد للفاشية والنازية والشيوعية والفوضوية والسريالية والوجودية .. ولا أعرف كيف اهتديت إلى تشابه بين آراء العقاد فى المسيح عليه السلام وبين رأى الشاعر الايطالى بابينى فى المسيح .. ولكن القضية أمامنا ما تزال تحتاج إلى مناقشة .. إلى محاكمة .. محاكمتك أنت .. لماذا ؟ لأنك إذا كنت قد « قربت » العقاد إليهم فأنت قد جعلته « غريبًا » عن حقيقته .. فالتقريب والتغريب لهما نفس النتيجة : فنحن أمام شخص آخر !

قلت : إذن فقد جاء دورى لكى تدفنونى فى الرمال حيا ..

– لن ندفنك قبل أن نعرف رأيك .. قبل أن تعترف .. محكمة .. محكمة !

وجاء الجرسون كأنه حاجب المحكمة ليقول : أمامكم نصف ساعة .. وبعدها سوف يغلق المطعم أبوابه .. وإذا أردتم سندوتشات ففى الغرف ..

وصرخ الجميع : إلا السندوتشات .. وإلا أن نأوى إلى الفراش فى العاشرة مساء .. فهذا هو الدفن حيا !

وكان المطعم مظلما إلا من بعض الشموع .. لقد انقطع التيار الكهربائى وأصبح كل شىء بالتقريب .. الرجال أشباح .. والنساء أشباح أيضا .. ولكن فى أفواه الرجال قطع من النار والدخان .. وفى أصابع النساء وآذانهن قطع من النجوم .. والهمس كاللمس .. فالأصوات تلمس الآذان وتلمس القلوب أيضا .. والأكواب تتلامس أيضا .. والأنفاس تتلامس .. إنها ليلة غاب فيها القمر . إننا فى أحد الكهوف الجميلة .. والرجال قد تغطوا إلا من أيديهم وأظافرهم .. والنساء قد تعرين إلا من أيديهن وأظافرهن .. فقد ارتدت النساء الجوانتيات .. وتعرت الصدور والأكتاف .. ونحن أيضا جعلنا نقول : تلك التى فى الركن .. ياقوة الله فى عينيها .. ياحكمة الحياة فى شفتيها .. ياانداء البقاء فى نهديها .. ياطلعة البدر على ساقيها .. ياليل أسود لن يطلع له قمر .. اللهم لاتجعل لهذا الليل نهارا ولاتطلع عليه قمرا ولا شمسا . اللهم إن كانت هذه هى الحياة الآخرة فاجعلها أبدية .. هل تعرفها ؟ .

– أبدا ، لا أعرفها ، إنما هى تضحك للجميع .. إنها كالتى وقفت فى البلكونة ثم ألقت شباكها على كل من يمشى فى الشارع .. إنها تحية عامة .. صدقة عامة .. إهانة عامة . لأنها لا تقصدنى ولا تقصدك ..

– هل ترى جارتنا ؟ لقد خلعت حذاءها .. لا أعرف ما الذى لم تخلعه .. إنها خلعت فستانها وجاءت بقميص النوم .. ولم تكمل تسريحة شعرها .. إنه منكوش .. أو لعلها تريد أن تقول إنها قامت لتوها من النوم ..

– أو تريد النوم . .

– هل المرأة هنا تعرف الحناء ؟ . .

– لا أظن ذلك . .

– إن جارتنا هذه قد حنت كعبيها . . هل هذا معقول ؟ هل ترى ؟ .

– لا أرى .

– إذن فلماذا لا تتوهم . . تتخيل ؟

– ما الذى قاله الشاعر القديم عن « مجرى النور فى نهديها » . . أى هذا الوادى العميق بين النهدين . . ذلك الذى يشع بالنور أو يشع النور . . يا أخى لم يكذب الشعراء . .

– بل إن كذبهم صدق . . بل هم يكذبون ولا يقولون إلا صدقا . . لأن الفن صدق . .

– بل الفن كذب يوهمك بأنه صدق . . كالتماثيل واللوحات : هى انعكاس لحياة . . ولكن يعطيك انطباعا كما لو كانت اللوحة حية أو التمثال حيا . . فالممثل على المسرح ماهو ؟ إن الممثل يعيش قصة على المسرح ليست صحيحة . . ولكن براعة الممثل تقنعك بأن الذى يعرضه أمامك حقيقة . فهو يكذب بصدق . . وحياته على المسرح كذب . . وبكاؤه وموته وزواجه وطلاقه وحبه وكرهه . . كل ذلك كذب . . ولكن براعة الممثل تجعلك تحس أن الذى تراه على المسرح حقيقة . . وأنك تتلصص على الممثلين . . تماما كأنك تنظر إلى غرفة مغلقة من ثقب الباب . . وكل هذا كذب فى كذب . .

– تماما كالذى حولنا . . فليس معقولا أن الناس غارقون فى الحب والهيام إلى هذه الدرجة . . إنهم لايفعلون ذلك كل ليلة . . ولا طول هذه الليلة . . إنما بعض الوقت وبعض الحب . . بعض هذه المشاعر من عندهم ، والباقى من صنع النبيذ . .

– آه . . لو أغرقونى فى بئر من النبيذ . .

– هل تعود إلى الموت مرة أخرى ؟ . .

– أقول لك أغرقونى فقط . . هم يغرقوننى وأنتم تنقذوننى . لماذا يخيفكم الغرق ؟ هل سبب ذلك أنكم تفضلون أن تتركونى أغرق حتى الموت ، دون أن يضطركم الموقف إلى أن تبذلوا جهدا لإنقاذى ؟ . . أهو الكسل أم هو جنون الموت – ناكرو مينيا ؟ . .

قلت : هل هى نهاية وبداية تنتالوس ؟

– أظن لو اخترنا لك إلها أو مثلا أعلى فسوف يكون تنتالوس هذا . . إنه مرضك . . أو جنونك . . أو هو قدرك الذى لاتريد أن تفلت منه . . أو الذى ارتضيته . .

قلت : ليس تماما . . فتنتالوس هو الذى حكمت عليه آلهة الإغريق ، لأسباب ليست واضحة ، بأن يموت عطشان إلى الأبد . . عندما وضعوه فى بحيرة تحت الشمس . . والماء يرتفع حتى شفتيه فإذا

المنى يرتوى منه انحسر الماء إلى قدميه .. وإلى الأبد .. أو أجلسوه عند مدخل كهف وأسقطوا فوق رأسه حجرا يكون له دوى هائل ولكنه يتوقف بالقرب من رأسه .. فيعيش تنتالوس فى خوف أبدى .. وأنا أرى أن هذه هى حياة الإنسان .. أولها وآخرها .. وليس لها علاج .. فقد ولد الإنسان ليتعذب ويموت .. فلا علاج للموت . ولذلك فلا علاج للطريق الذى يؤدى إلى الموت . وهو طريق العذاب .. العذاب بهذه الحقيقة .. حقيقة أننا قد ولدنا لنموت .. أما الولادة فلا نشعر بها .. أما الموت فهو الذى نشعر به .. ويستوى عندنا أو عند الموت أن نشعر أو لا نشعر به .. فهو الحقيقة إذا وضعناه أمام عيوننا ، وهو الحقيقة إذا غبنا عنه .. أو تجاهلناه أو تناسيناه أو تعجلناه .. وإن كنا نوهم أنفسنا بأننا نستطيع أن نعيش بعده .. تماما كما حاول بطل سباق التتابع من الذين يحملون المشاعل عند الإغريق .. لقد مات .. ولكنه اندفع بجسمه إلى الأمام .. فكأنه أراد أن يتحرك بعد الموت ولو خطوة .. أو كأنه تحدى الموت الذى هو توقف للحياة ، فلم يجعله توقفا لطموحه .. وكذلك يفعل كل إنسان .. فهو يريد أن يعيش بعد الموت فى رأى أو فى قصيدة أو لوحة أو تمثال أو نظرية أو فى ولد .. فالمجد ليس إلا الحياة بعد الموت ..

– ألا ترى .. أو ألا نرى جميعا أن تنتالوس معذب المعذبين فى الأرض .. هو نموذج للمفكرين فقط .. أو للفلاسفة فقط أو للشعراء وحدهم ؟ .. أما المصلحون من رجال السياسة أو من رجال الدين فهم يغتالون تنتالوس فى البداية .. وبذلك تنتهى قصة العذاب إلى غير نهاية .. وبعد ذلك تبدأ سلسلة العذاب والراحة منه .. سلسلة الخطأ والصواب .. إن تنتالوس الإغريقى مثل « الكاتب المصرى » الجالس القرفصاء – إنه ماركة مسجلة للفكر والحياة المصرية القديمة .. فهو جالس هادئ ، والدنيا كلها تجيء إليه ليصبح كل كائن حى مجرد كلمة أو اسما أو رقما .. فالدنيا فى الورق بقلمه .. أما تنتالوس الإغريقى فهو يكتب التاريخ بصراحة وإهانة .. ولكنه مثل الكاتب المصرى منظم الصرخات منسق الآهات .. فالكاتب قد استقر على وضع . وتنتالوس قد « استقر » هو الآخر على حركة واحدة مرتبة .. الحجر ينزل ويطلع ويستقر .. تماما كما تعلو الشمس وتهبط .. كما يعلو الماء ويهبط فى مد وجزر .. كلاهما ثابت .. وكلاهما منتظم .. ولكن النموذج الإغريقى أفضل لما فيه من حيوية وحركة ..

– بل النموذج المصرى أحسن .. وهو يتفق مع طبيعة الشعب المصرى الهادئ الساكن .. فى هدوء يعيش .. وفى سكون يموت ..

– بل إننى أرى فى الكاتب المصرى احتراما للكاتب والكتابة .. ولذلك أجلسوا الكاتب فى مكان رفيع .. وجعلوه وحده .. أى أن بقية الناس لايستحقون أن يظهروا معه فى الصورة !

– بل إننى أرى الكاتب المصرى أسوأ مما ترى .. فقد عزلوه ونبذوه .. وتركوه وحده يتوهم أنه

فوق .. والحقيقة أنه ابتعد عن الناس .. فابتعد الناس عنه يبنون الحضارة الفرعونية القائمة على المهندس والكاهن والطبيب والجندى والفلاح .. إنى أرى حول عنق هذا الكاتب الجالس القرفصاء حبلا شنقه به الفراعنة .. لأنه اختار أن يتعالى ، وأن يتفرج على الناس دون أن يكون له دور فى تصوير عذابهم أو رفع العناء عنهم ..

• • •

وأعتقد أننى انشغلت عن هذا الحوار .. وتعمدت ذلك .. وبذلت جهدا هائلا .. فقد أحسست أننى كالذى تقرر إعدامه .. وهذه هى ساعاته الأخيرة فهو يريد أن يمتلىء بالحياة التى سوف يفارقها .. وتخيلت أن واحدا من الأصدقاء قد سألنى : نفسك فى أى شىء ؟ .

وتوهمت أننى قلت له : أنت لاتستطيع أن تحقق لى ما أريد .. فيقول : بل أستطيع .. اطلب أى شىء . فقلت : لا تستطيع . فيرد : بل أستطيع . فأقول له : أريد براءتى بلا محاكمة .. وإذا لم يكن ذلك ممكنا فأريد إعدام القاضى الذى حكم بإعدامى قبل أن أموت أنا .. أو أريد أن أقضى ليلتى مع هذه الحسناء على اليمين .. وكان يقول ضاحكا : لا .. أى شىء إلا أن تطلب البراءة .. لأن الحكم قد صدر .. ولا استئناف له . أنت ميت ميت . فماذا تريد قبل أن تموت ؟ .. قلها ولا تخف .. قلت : لم أعد أخاف .. إن هذا الهدوء الذى أحس به هو إحدى الراحتين .. بل الراحتان معا .. فالراحتان هما : اليأس والموت .. وأنا يائس حتى الموت .. أو ميت يأسا .. فلم يعد لدى ما أطلبه أو ما أرجوه أو ما أتوقعه ..

ووجدت أننى قد فرغت من كل الطعام الذى أمامى .. وتمنيت لو اتسعت المائدة وامتلأت أكثر وأمضيت وقتا أطول يباعد بينى وبين هذه المحاكمة .. فرأسى يوجعنى ، وعقلى مثل كتكوت ينقر بيضة من داخلها .. ليخرج . وإذا خرج فلكى يطير ولا يعود .. أو أن رأسى يكاد يتساقط على صدرى وصدرى على بطنى وبطنى على ساق وساق على الأرض ، وأتكور وأتدحرج فى الظلام إلى تلك المقبرة التى تخيلناها على رمال شاطئ الأحلام ..

وكما هى عادتى السيئة جعلت أدير حوارا فى داخلى .. وأتخيل ماسوف يسألوننى وما سوف أقول .. فما الذى يريدون ؟ .. إنهم سوف يسألوننى عن الأستاذ العقاد الذى تحدثت عنه صباح اليوم .. هل هو هو الأستاذ حقيقة أو هو الأستاذ كما أتصوره .. أو هو الأستاذ بعد تقريبه إلى السامعين ، وتغريبه عن كتبه ؟ .. إن التقريب والتغريب متلازمان .. فأنا إذا ركبت قطارا واتجهت به من القاهرة إلى الإسكندرية فأنت تقترب من الإسكندرية وتسبقه عن القاهرة .. تماما كالمسافة بين الحياة والموت .. فكلما أوغلنا في الحياة اقتربنا من الموت .. ولكن الفارق الوحيد أننا نعرف المسافة بين القاهرة والإسكندرية ، ولا نعرف المسافة بين الحياة والموت .. فأنا – إذن – حاولت تبسيط أفكار

العقاد وإضاءتها إلى الناس . فأنا أزف إليهم تصورى .. تشخيصى .. ما فهمته .. ثم إن حبى له سوف يجعلنى أتستر على عيوبه .. بل أحيانا أمعن فى إخفائها .. وفى تزويقه وتجميله .. هل أكون بذلك مزورا ومزيفا للحقيقة ؟ هل من أجل الصورة الفنية التى أعكس فيها الحقيقة ، أتجنى على الحقيقة ؟ .. هل التزويق تزوير؟ .. هل التجميل تضليل ؟ .. هل التقريب تغريب ؟ ..

هل العقاد الذى أراه ، ليس هو العقاد الذى يراه الآخرون ؟ من المؤكد أنه كذلك ، فالأستاذ عباس محمود العقاد مؤلف الكتب الإسلامية والدواوين الشعرية والمقالات النقدية والدراسات الفلسفية ، ليس هو الذى يراه المشتغلون بالنحو والصرف والشريعة الإسلامية ، وليس الذى يراه خصومه من السعديين والأحرار الدستوريين .. أو حتى من الوفديين أو النازيين والفاشيين ..

قلت لهم : إذن ننتقل إلى المحكمة . لابد أن تنتهى الليلة . وبعدها نستريح . وقد اتفقنا على الصمت ثلاثة أيام .. يذهب كل منا فى طريق على أن نلتقى فى روما فى فندق « كيارى » بالقرب من ميدان البندقية .. وسوف أبدأ أنا بسؤال نفسى وأجيب .

سؤال لنفسى : هل الأستاذ العقاد كما تحدثت عنه اليوم هو عمل تأريخى أو هو عمل فنى ؟ .. هل أنا اعتمدت على الذى قاله الأستاذ فقط ، واكتفيت بالشرح والربط . . أو أن الذى قدمته اليوم هو الاستعانة بنفس المادة التاريخية مع وضعها فى صورة فنية ، فيكون « المضمون » من صنع الأستاذ ويكون « الشكل » من صنعى ؟ .. طبعا لابد أن تكون المادة صحيحة . وإلا كان هذا تزويرا أو تزييفا للتاريخ . أما الصورة وأما الشكل أو الإطار فهو من صنعى . وأجيب على نفسى قائلا : لابد أن يكون دورى كبيرا فى تقديم الأستاذ العقاد .. لأننى اخترت من مؤلفات الأستاذ ما يعجبنى وما يتفق مع ذوقى .. فأنا رجل فلسفة ، ولذلك استهوانى من الأستاذ ماقاله فى الفلسفة . وأنا أقدر من غيرى على معرفة وزنه الفلسفى .. فإذا انصرفت إلى الدراسات الفلسفية للعقاد فقد اخترت أحد الاهتمامات . وانصرفت عن الاهتمامات الأخرى الكثيرة .. فالذى أعرفه ليس كل العقاد .. إنما هو بعض العقاد .. تماما كما أن الذين يدرسون العقاد الشاعر لايعرفون الناقد .. والذين يدرسون العقاد السياسى العنيف ، لا يعرفون الشاعر الرقيق ، والذين يلتفتون إلى غراميات العقاد ، ينسون المفكر الإسلامى .. فهناك دائما رجل أو أكثر من رجل لانعرفه .. والحقيقة أنا لم أختر العقاد ، إنما اخترت نفسى فى العقاد .. فاختيارى صورة منى .. فالعقاد هو تصورى للعقاد ، وهو مزاجى الأدبى والفلسفى .. وإذا كانت التوراة تقول : إن الله خلق الإنسان على صورته ، أى أن الإنسان صورة من صور الله ، أو يشبه الله ، فإن الأساطير الإغريقية تقول : إن الإنسان هو الذى خلق الآلهة على صورته .. فآلهة الإغريق لهم كل صفات البشر..

وأرى عملية الخلق فى الحالتين واحدة . فالمخلوق صورة من خالقه .. وهذا هو الإبداع الفنى ..

ونحن قد اختلفنا الليلة فى وصف القمر .. واختلفنا فى قرار الموت .. ومعنى الموت والحياة . واختلفنا فى معنى « الكاتب المصرى » .. وسوف نختلف فى كل شىء .. صحيح أن هناك قدرا مشتركا بيننا فى فهم العقاد وتذوقه ، ولكن هناك قدرا آخر من رفضه والإعراض عنه .. لقد سمعت من المهندس المصرى الشهير أحمد عبده الشرباصى أنه قابل الأستاذ فى قطار الصعيد سنة ١٩٤٧ . ولم يكن أحدهما يعرف الآخر . ولكن المهندس الشرباصى قد عرف الأستاذ من صوره التى تنشرها الصحف . ولما جلس سأله العقاد ، ماذا تعمل ؟ قال : أنا مفتش للرى .. والتفت إليه الأستاذ يحدثه عن المياه الارتوازية وعن المياه الجوفية .. واعترض على استخدام وزارة الرى لتعبير « تهذيب النيل » وأرسل خطابا إلى عثمان باشا محرم وزير الرى يطلب إليه أن يقول : ترويض النيل .. لماذا ؟ لأن التهذيب يكون للإنسان أما الترويض فيكون للجماد . واقتنع مفتش الرى الشاب بأن الذى سمعه من الأستاذ يدل على اطلاعه الواسع فى نظم الرى .. وأنه عالم جليل فى الرى والزراعة واللغة أيضا .. مع أن الأستاذ لم يكن على صواب فى هذه التفرقة . لأن العرب يقولون إنهم « يهذبون الحنظل » أى يغلونه فى الماء حتى تذهب مرارته .. ويقولون : هذب النخلة أى نزع منها الليف .. ولو قرأ كتب الأستاذ واحد من علماء الفلك لوجده فلكيا جليلا .. وكذلك من يقرأ نظرياته فى التطور .. فنحن دائما أمام واحد من عشرة أو عشرين رجلا اسمهم العقاد .. وأمام وجه من عشرين وجها لرأس واحد هو رأس العقاد ..

– يا أخى أنت بدأت الدفاع عن نفسك .. أنت اخترت الأسئلة ، وأنت اخترت المكان ، وأنت تعلم أننا لسنا فى حالة تسمح لنا بمناقشة .. فهذا شرب عشرا وهذا شرب زجاجة .. وهذا لم يرفع عينيه عن الصدور والسيقان ، وهذا الذى بجوارى مجنون « أكتاف » – فهو يرى أن جمال المرأة فى كتفيها وكعبيها .. وأن الكعب التى تشبه الكتف هى التى تستحق أن تعطى نيشان الجمال .. فليكن موعدنا غدا .. فى نفس المكان من الشاطئ .. وعندما يكون القمر فى مكانه من السماء .. وبذلك يكون هذا الجو الذى يشيع الرقة . هو الذى سوف يشيع الرحمة بك فى استجوابك ومحاكمتك فى التهمة الموجهة إليك ، وهى : أنك تسللت إلى متحف العقاد ، ووضعت تمثالا للعقاد له ملامحك ولا ينقصه إلا أن ينطق .. فإذا نطق فأول مايقول إنه أنت وإنك هو .. أو إنكما معا وجهان لواحد .. هذا الواحد هو أنت وحدك .. أو أنت وهو ..

قلت : حرام عليك .. لقد ظلمت اثنين معا : العقاد وأنا !

صناعتنا .. ليلى وأخواتها

(١)

لم يعد هناك قمر. فكل شيء قمر. كل الوجوه حولنا جميلة. كل الأشجار حولنا من فضة. كل الأمواج أمامنا من حرير. كل الرمال تحت أقدامنا من زئبق. ما معنى هذه الشموع على الموائد ؟ .. إنها إهانة للقمر.. كأنهم توهموا أن الله سوف يطفئ ضوء القمر. فاحتاطوا لذلك .. أوكأنهم أرادوا أن يطفئوا الشموع فى شلالات القمر.. ولماذا هذه الموسيقى ؟ .. هل لأن الهواء قد سكن تماما .. فأتوا بالموسيقى مثل نسمات سحرية .. مثل همسات قدسية .. مثل مناديل حريرية .. مثل فراشات صوتية .. مثل ماسحات للكلام من الأفواه وفى الآذان .. مثل العدل الذى يساوى بين الناس .. مثل الرجمة تشمل الجميع .. مثل المخدرات الرائعة تسبق العمليات الجراحية لكل قلب ..

وكما أنه لم يكن قمر فى تلك الليلة ، فلم يكن هناك قلب أيضا فكل شيء هو القلب .. كلنا فى قلب واحد .. فى قلب الضياء .. فى قلب الصمت . فى قلب النعومة ..

ولم يكن هناك شاطئ فى تلك الليلة .. فكل شيء بحر.. حتى هذه الموائد ليست إلا زوارق ساكنة قد شدت إلينا .. قد أمسكناها بأيدينا .. ولم تكن هناك أيد ولا سيقان ولا حتى آذان ولا عيون. فالأشياء كلها تلمسنا .. والأشياء كلها صور بغير عيون . وهمس بغير آذان .. بل لم يكن هناك « نحن » .. لا أحد هناك .. لا أنا .. ولا .. هم .. ولا .. هن .. إنما الكل واحد.

وكنا نتمايل معا فى وقت واحد .. وكلما حاول أحدنا أن يتكلم اتجهت إليه العيون أن يسكت .. وكلما حاول واحد أن يسكت تحركت ناحيته العيون ليقول شيئا .. إننا لا ندرى ماذا نريد وماذا لا نريد .. إننا لا نريد .. إنما يراد لنا أن نسكت وأن نتكلم .. هل كان أمامنا شراب واختفى فى أحشائنا ؟ .. هل كان طعام هناك وهو الآن فى أعماقنا ؟ .. هل كانت لنا ألسنة ابتلعناها هى أيضا ؟ .. هل انتقلت آذاننا إلى عيوننا .. فأصبحنا نسمع بالعين ونرى بالأذن ؟.

هل خلعت النساء حولنا كل ملابسهن ؟ .. هل التصقت الملابس بالأجساد .. فأصبحت

الفساتين هى البشرة الثانية .. أو أصبحت البشرة هى الفستان الثانى ؟ ..

ولا أتذكر من الذى أنشدنا قائلاً :

يقول أناس لو وصفت لنا الهوى

لعل الذى لم يعرف الحب يعرف

فقلت : لقد ذقت الهوى ثم ذقته

فوالله ما أدرى الهوى كيف يوصف !

– إن هذه الأبيات لشوق !

ولم أتلفت لأعرف من الذى قال أيضا :

سنون تعاد ودهر يعيد

لعمرك ، ما فى الليالى جديد

أضاء لآدم هذا الهلال

فكيف نقول : الهلال الوليد ؟ !

على صفحتيه حديث القرى

وأيام « عاد » ودنيا « ثمود »

يزول ببعض سناه الصفا

ويفنى ببعض سناه الحديد

ومن عجب وهو جد الليالى

يبيد الليالى فيما يبيد !

ولا من الذى أنشدنا أيضا :

لقد لامنى ياهند فى الحب لائم

محب إذا عد الصحاب حبيب

فما هو بالواشى على مذهب الهوى

ولاهو فى شرع الوداد مريب

وصفت له من أنت ، ثم جرى لنا

حديث يهم العاشقين عجيب

وقلت له : صبرا فكل أخى هوى

على يد من يهوى ، غدا سيتوب !

ثم عاد أحدنا يتغنى بشعر للعقاد فقال :

يا حبيبى أنت رى
ليس فى الماء نظيره
يا حبيبى أنت ظل
ليس للروض عبيره

* * *

يا حبيبى أنت بدر
أين نور البدر منه ؟
أين نور زانه الحب
ونور لم يزنه ؟

* * *

أنت عندى كل شىء
كل ما شئت يكون
قل لهذا الليل يبق
ومع الليل السكون

* * *

قل له فهو نجىّ
مرهف السمع إلينا
كيف يعصى لك أمرا
والهوى طوع يدينا ؟.

قلت : لأول مرة أتذكر أبياتا من نظم والدى ولكنها ناقصة .. قال يرحمه الله :

رأى الهلال فحياه بغير فم
أحلى التحيات أحلاها من الكلم

أما بقية القصيدة فلا أذكر منها شيئا .. فهى القصيدة الناقصة .. بل كل شىء ناقص فى هذه الليلة .. كل شىء ينقصه البدر حتى يكون شيئا .. بل نحن أشد الكائنات نقصا .. فقد احتجنا إلى البدر لنسكت .. ولنكف عن الكلام .. أما الشعر فليس إلا صدى للقمر .. وأما الحنين فليس إلا صدى لحنيننا إلى الأرض .. فقد جعل القمر أرضنا قمرا أكبر..

قال « حسن ... » : إننى أتفكك الآن .. أتحلل .. لا أستبعد أن أتساقط تحت هذه المنضدة .. رملا .. أو ماء .. أو هواء .. إننى أذوب .. إننى فقاعة فى كأس الليل .. إننى خدعة شاءها العقل

باختياره .. إننى مخدوع .. إننى خدعت نفسى بنفسى .. فقد تعبت من عقل مثل كلب بوليسى يشمشم فى كل شىء .. ولا يرضى عن شىء .. ولا يشبع من شىء .. إننى أفضل البراءة .. أفضل السذاجة .. أفضل أن أكون الأبله السعيد ، على أن أكون الفيلسوف الشقى .. أفضل أن أذهب على قدمى إلى البحر .. وأمضى .. وأمضى ثم اختنق تحته بعيدا ، فلا فارق بين أن يموت الإنسان جالسا أو طائرا أو قاعدا .. وأن ينتظر الموت أو يستعجله .. فلا حكمة للحياة ولا معنى للموت .. ونحن نعزى أنفسنا ونواسيها ونخدعها مرة أخرى عندما نقول إن بعد الموت حياة ، وإن هذه الحياة أبدية .. إن الأبدية شىء سخيف : ملل إلى غير حدود .. أنتم تذكرون ملحمة قلقامش العراقية القديمة .. لقد طلب قلقامش من الآلهة أن تعطيه الخلود .. ولكنهم نصحوه ألا يحرص على ذلك قائلين : ألا ترى أننا نتثاءب .. وأن الإله منا يبدأ فى فتح فمه عشرات الألوف من السنين .. ثم يتركه مفتوحا عشرات الألوف .. ثم يعود يطبقه فى عشرات الألوف .. وليس ذلك إلا محاولة للتثاؤب .. إن الملل هو الخلود .. والألوهية ملل خالد ، وخلود ممل .. فأعظم ما ينعم به الإنسان هو أنه يموت .. وأنتم ترون أن العقاد ساذج إلى أقصى درجة عندما نظم قصيدة فى محبوبته التى أهدته بلوفرا . وظن أنها كانت تفكر فيه فى كل حركة إبرة .. أو فى كل عقدة خيط .. مع أن المرأة تفعل ذلك بصورة آلية .. ولا شىء يسعدنى إلا أن أتخيل نفسى هذا العقاد السعيد بهذه الهدية ، بهذا « الصديرى » .. والسعيد بهذا الاستنتاج المنطقى الساذج . يقول :

هنا مكان صدارك
هنا هنا فى جوارك

* * *

هنا هنا عند قلبى
يكاد يلمس حبى
وفيه منك دليل
على المودة .. حسبى

* * *

ألم أنل منك فكره
فى كل شكة إبره
وكل عقدة خيط
وكل جرة بكره ؟

* * *

نسجته بيديك
على هدى ناظريك
إذا احتوانى فإنى
مازلت فى أصبعيك !

كنا قد اتفقنا أن يسكن كل واحد منا فى مكان بعيد عن الآخر . حتى لا نضيق بعضنا ببعض . وحتى لا نشعر أننا طابور أو أننا مجموعة .. أو أنها رحلة مدرسية .. فليسكن كل واحد بعيدا . ولنفكر فى موعد محدد . لعل أحدًا يقول شيئا جديدا .

قال أحدنا : إن صاحبة البيت سيدة فى الستين . ولكن ماتزال منها بقايا حلاوة . الوجه مفتوح والعينان عميقتان والشفتان مليئتان . والصدر أرضع ستة من الأولاد . والأصابع غليظة قد جعلها الغسيل والكى والنظافة حبالا من الكتان والأسلاك .. والصوت هو بقايا ناظرة المدرسة القديمة ، فما تزال ترانى واحدا من الأطفال الأشقياء . فهى تدق الباب وتصرخ : انهض ياكسلان .
وفى إحدى المرات قلت لها : إننى هنا كسلان ، ولكن فى بلادى لست كذلك . فقد جئت أستريح . جئت أبحث عن الكسل على الشواطئ الإيطالية .. ولم أفلح فى إقناعها بأن تتركنى جثة على السرير .. وفى يوم قررت أن أترك البيت . ولكن قبلتها الحارة مثل أم لابنها .. وظهور إحدى قريباتها تعد لنا الطعام ، قد جعلنى أنتظر دقاتها لأصحو .. فقد كانت قريبتها هذه جميلة . إيطالية من رأسها حتى خصرها .. ولكنها فرنسية بعد ذلك ! . وهى تقرأ الإنجيل بصوت مرتفع . وأصررت أن أصحبها إلى الكنيسة . وذهبت ونمت أثناء الصلاة . فركلتنى وصحوت . وركلتنى مرة أخرى . ونظرت إلى جانب من الكنيسة . ونظرت إلى حيث نظرت .. فتوقفت عينى عند ماريانا .. أنتم تعرفونها . لقد عادت بعد يومين من السفر إلى الشمال . وسوف تراها الليلة . إن لم تكن أجمل فتاة فى حياتى ، فهى من أجمل الفتيات فى هذه الدنيا .. ولا أعرف من الذى علمها بعض الكلمات العربية « النابية » .. سوف أعرف .. وإن كان لا يهمنى أن أسأل من الذى سبقنى إليها .. فهى من المعالم السياحية لهذه المدينة .. وربما كان مجيئها الليلة ، هو الذى أعطى للقمر معنى جديدا ، طعما جديدا . إننى أتمنى أن ينتهز القمر هذه الفرصة السعيدة ويغيب لتروا قمرا أجمل من هذا القمر .. إنها سوف تغنى الليلة .. وإن شئتم رقصت .. فهى إيطالية أسبانية فرنسية .. إنها خلاصة الحرارة والجمال والرقة والعنف أيضا !

قال « وليم ... » : لأننى عشت طول حياتى فى شبرا ، فأنا أكره الزحام . وأكره النوافذ والأبواب ، وأكره الحواجز والسدود والقيود .. وأكره من يقول : نحن .. وأكره من يقول : أنتم .. ولا أعرف كيف اختار لى القدر أن أسكن فى بيت يطل على سجن المدينة .. لقد رأيت سجن مصر .. وقد زرته كثيرا أحمل الطعام لواحد من إخوتى .. وكنت عندما أزوره وأجد القيود فى الدخول والخروج ، وأجد الوقت الضيق ، وأجدنى محشورا بين الناس ، وأجدنى مضطرا إلى أن أصرخ لكى يسمعنى ، فلا أعرف إن كان هو السجين أو أننى أنا السجين .. وربما كان ارتباطى بأخى ، وإيمانى ببراءته وعجزى عن فعل شىء ، يؤكد إحساسى بأننى سجين .. أو أن من الواجب أن أكون سجينا .. فهو زوج له أولاد . وأنا أعزب .. ولذلك فعذاب أخى أعنف . فليس واحدا .. إنما كثيرون .. وأحسست أيضا أن أخى قد دخل السجن لأنه كان يردد أفكارى أنا .. أقولها همسا وهو يرفع صوته بها .. فكأن البوليس قد حبس الصدى وترك الصوت .. قد أمسك البرىء وترك المجرم .. ولذلك كنت أذهب إلى زيارة أخى بالبيجامة القديمة والقبقاب . وكثيرا ما استوقفنى رجال البوليس ظنا منهم أننى أنا السجين .. وكان أخى ينظر لملابسى ويندهش .. وكنت أجد فى دهشته نوعا من الارتياح .. فقد توهم أخى أننى حرمت على نفسى الملابس النظيفة مادام أخى فى السجن .. وكان يتوهم أن هذه مشاركة ليس لها نظير فى التاريخ .. ولكن الحقيقة أننى كنت ألعب لعبة سخيفة .. أو لعبة هى خليط من النبل والسفالة معا .. ففى كل مرة يتشكك البوليس فيها إذا رآنى ، فإننى أخرج له البطاقة التى تدل على أننى طالب جامعى .. أى أنى لست سجينا إنما أنا حر متعلم .. ونسيت فى ذلك الوقت بسبب هذا العبث ، أن أخى قد ضحى بتعليمه وراح يعمل فى الجيش الإنجليزى لكى ينفق على دراستى الجامعية .. فهو صاحب الفضل فى حريتى ، كما أننى المسئول عن فقدانه لحريته !

ولذلك فأنا أنام فى البلكونة . وصاحب البيت وأولاده يرفضون أن أفعل ذلك .. لأننى أنام شبه عريان . وهذا يجرح مشاعر الناس . مع أن الناس ينزلون إلى الشاطئ عراة . ولكن يبدو أن العراة محترمون على الشاطئ ، مبتذلون فى الشوارع .. فلكل مكان ما يناسبه من زى .. وما يناسبه من الكلام والطعام والنوم .. ولذلك فأنا أنام فى البلكونة طول الليل ، وعند الفجر أرتمى على السرير .. أما السجن الذى أمامى فهو أعجوبة حقا . إن فى السجن مطعما . وهذا المطعم يديره السجين نفسه ، لصالح إدارة السجن .. لقد أقسم السجين ألا يهرب . وظل فى هذا السجن ستة أعوام .. فهو ينظف المطعم ويكنسه ويغسل الأطباق والأكواب . ويبيع للناس . ويأخذ البقشيش . ثم يجىء من يتسلم

الفلوس كل يوم ويعطيه بضائع جديدة .. فإذا جاء الليل أقفل السجين المطعم . وأقفل على نفسه أبواب السجن تطبيقا للقانون .. فهل هو سجين حقا ؟ ! .. إنه سجين كلمة الشرف . ومن الغريب حقا أنه يرتدى الملابس العادية نهارا . فإذا جاء الليل ارتدى ملابس السجن ! . وقد تناولت طعامى عند هذا السجين . وظللت أنظر إليه ، حتى انطبعت كل ملامحه فى عينى ، وتوهمت أنه يشبه أخى . وأننى أيضا المسئول عن دخوله السجن .. ولم يفهم هذا السجين عندما أعطيته البقشيش .. لماذا اعتذرت له .. وظن أننى أعتذر له عن أن البقشيش أقل مما يجب . فقال ضاحكا : بل هذا كثير .. وقلت وراءه : فعلا كثير جدا .. أكثر مما أقوى على احتماله .. ودعوته إلى تناول العشاء معنا هنا . فوعدنى أن يستأذن من الإدارة العامة للسجون . وهو على يقين من أنهم سيوافقون على ذلك !

(٣)

قال « رأفت ... » إننى أسكن فى أحد الأديرة . الطرقات واسعة جدا . والرهبان بملابسهم البنية وصلبانهم الفخمة وصنادلهم .. ينهضون فى ساعة مبكرة . ويدخلون صوامعهم فى ساعة مبكرة أيضا . ويعطوننى مفتاح الدير بصفة خاصة . لقد ادعيت كذبا أننى كاثوليكى .. والحقيقة أن جدتى كانت كذلك قبل أن تتحول إلى الإسلام .. وكذبت عليهم عندما قلت إن أمى قد نذرتنى لله .. وطلبت إلى الله أن يبقى الحياة ، فإن وهبنى الصحة والعافية فسوف تقدمنى قربانا له .. فأكون قسيسا راهبا مدى الحياة .. أصلى لله وأشكره عن نفسى وعن أمى .. وقلت لهم : أعتقد أننى سوف أعود إلى الرهبانية بعد هذه الرحلة .. ولم أناقش مع نفسى سبب هذه الكذبة .. ربما لكى يسمحوا لى أن أعود متأخرا كل ليلة .. فهم يغلقون الأبواب فى التاسعة مساء .. ورأيت الراهبات .. رأيت الصفاء الشاحب على الوجوه .. ولم أفهم ما معنى أن تقرر فتاة حرمان نفسها من أن تكون أنثى أو أما .. من أن تكون لها حياة .. وأن يفعل رجل نفس الشىء .. ووجدت الإجابة السريعة : إنهم ليسوا محرومين من أى شىء .. فهم يفعلون ما يريدون أو ما كان فى استطاعتهم أن يفعلوه لو لم يدخلوا هذه الصوامع .. إذن لقد أراحوا أنفسهم من الحياة الاجتماعية ، وأعباء الأبوة والأمومة ..

ومنذ أيام ذهبت إلى المكتبة ، ووجدت إحدى الراهبات . وقلت لها ضاحكا ، ولا أعرف كيف اكتشفت ذلك : هل تعلمين يا أخت أننى أشبهك تماما .. ولو رآنا أحد فى الطريق لقال إننى أخوك جئت لزيارتك ؟ .. وكانت مفاجأة .. ونظرت إلى .. أو « نظرتنى » – ان صح هذا التعبير .. فقد جاءت نظراتها اقتحاما كاملا لنفسى .. حتى لم أجدنى قادرا على مواجهتها . وقالت : تعرف أن هذا صحيح ؟ .. كيف اكتشفت ذلك ؟ فقلت : لم أكتشف ذلك فأنا أرى نفسى فى المرآة كل يوم

وأعرف ملامحى التى تشبه ملامحك .. وأن جدتى إيطالية كاثوليكية أيضا . فقالت : هل تعرف أن جدتى أيضا كاثوليكية إيطالية عاشت فى الإسكندرية .. وأننى أعرف بعض الكلمات العربية .. وأحاول أن أتعلم لغتكم ! ..

لقد جاءت إلى الدير منذ أربع سنوات فقط . أى جاءت وهى فى الرابعة والعشرين . كانت تعمل عارضة أزياء . ثم انتقلت إلى العمل عارضة لجسمها على الفنانين .. كانت تتعرى تماما . فجسمها جميل . قيل لها ذلك . وقالت إنها تعلمت أن « تنظر » إلى الذين ينظرون إليها . وكانت ترى أنهم يكادون يأكلونها أول الأمر . ثم يعتادون عليها . كما تعتاد هى عليهم . وعرفت بتجربتها الطويلة أنه لا شىء يقتل النهم فى عيون الشبان الذين كانوا يرسمونها ، مثل نظراتها هى لهم .. إن نظراتها كانت تأديبا لهم .. أوكانت رفضا لمطاليبهم الصامتة .. أوكانت تبديدا لشهواتهم .. تماما كما تطلق ضوء السيارة على سيارة أخرى ، فيصيب عيون الآخرين بالضوء الباهر فلا يرون .. أماكيف أصبحت راهبة فلنفس السبب أيضا : فهى لم تشعر أن جسدها الجميل قد أسعد أحدا من الناس . ولم تشعر أنه قد أعطاها الاحترام بين الناس ، ولا ملأ ذراعيها وصدرها وأصابعها وأذنيها وعنقها بالذهب .. فلم يكن جسدها مصدر سعادة وثراء لها .. فكأنه لم يكن . ولذلك فعندما دخلت الدير . تركت جسدها عند الباب ودخلت تطهر نفسها .. أو دخلت « تشوى » روحها على نيران الحرمان وقسوة القيود وبرودة الصومعة .. ولما لم تجدنى مقتنعا بما تقول . عادت فأوضحت لى حياتها أكثر ، فقالت : لقد أحببت . وتمنيت أن أعطى كل ما عندى . وما عندى كثير : قلب كبير وجسم جميل وخلق نبيل وعقل رجل .. ولكن حبيبى اختار واحدة تختلف عنى تماما فى كل شىء .. اختار فتاة تقوم له بدور الكلب والقط والأفعى معا .. فهى تمشى وراءه وتلعق قدميه ، وإذا احست بالدفء لدغته . فيثور عليها ولكنها قادرة على إعادته إليها .. وتلك مواهب لا أجدها عندى .. ولكنى قررت منذ وقت قصير أن أخرج من الدير ؛ فإننى لم أجد نفسى هنا ، وسوف أعود إلى الاسكندرية .. فهناك بعض أقاربى . ولا أعرف ما الذى سوف أجده ، ولا ما الذى سوف أعمله .. ولا كيف يكون الناس .. إننى على يقين من شىء واحد .. أننى سوف أكون حرة . فلا أحد يعرف من أنا ولا من أين جئت ولا لماذا .. ومادمت مجهولة تماما ، فأنا حرة أن أعطى لنفسى أى اسم ، وأن يكون لى أى جسم وأى إثم .. أعرضه أو أخفيه . لولا أنك أنت الوحيد الذى يعرف حقيقتى .. ولست نادمة على ذلك .. فإننى أحتمى فى رجولتك وفى شهامتكم أيها الشرقيون .. فقلت لها : إننى أعرف لك شابا إذا رآك فسوف يحبك . وإذا أحبك فسوف يتزوجك . قالت من ؟ قلت : أنا .. ما رأيك ؟ . قالت : موافقة !

وسوف ترونها الليلة قبل أن يغيب القمر !

قال « صفوت ... » : أعتقد أننى أحسن حالا من الجميع . إنه الحظ . والسعيد فى الحب ليس سعيدا فى المال أو الرجال الذين هم أصدقاؤه أو زملاؤه . ولذلك فأنا سعيد بكم ، لأننى لم أجد مثل هؤلاء الفتيات الساحرات اللاتى تتحدثون عنهن . إنه حظ . سوء حظ على الأصح . ولكن الله يحذف من هنا ، ويضيف إلى هناك . فأنا أسكن عند سيدة مات زوجها فى الحرب الأولى . ومات زوجها الثانى فى الحرب الثانية . ومات زوجها الثالث فى عملية سطو على بنك روما . وزوجها الرابع قد غرق بالقرب من جزيرة صقلية ، وزوجها الخامس ظل يشرب حتى مات .. وأنا أنتهز هذه الجلسة الحزينة لأنقل لكم حوارا دار بيننا ..

أقول لها : كيف تزوجت ؟ ..

تقول : أنا تزوجت ؟ ! .. إنهم هم الذين تزوجونى .. وبنفس الطريقة ، وهذا يدل على أن الرجال مغفلون وحمير .. فأنا أمشى فى الشارع . ولا أكاد أرى رجلا يلمحنى حتى أسرع .. وأفاجأ بأنه يسرع ورائى .. وأنظر ورائى فأجده . فأسرع أكثر . وأنحرف إلى أقرب حارة وأتوقف لأجده أمامى . ويكون بيننا حديث واحد لم يتغير بين كل هؤلاء الأزواج .. ولا أعرف السبب ، فأنا لم أتعلم مثلك .. فأسأل الرجل : لماذا أنت تطاردنى ؟ ويقول : أنت أعجبتنى جدا . فأقول له : كيف وأنت لا تعرفنى .. ولا تعرف من أنا .. ولا تعرف تاريخى .. ولا إن كان فى حياتى رجل آخر ؟ .. ثم إننى فلاحة ريفية لا أفهم فى هذه الحياة الحديثة أى شىء .. كل الذى أعرفه هو أن أطبخ وأغسل وأكنس وآتى بالأطفال .. وكلها صفات لا يرضاها أحد .. ابعد عنى . ويكون رده : بل هذا بالضبط ما أريد . ونتزوج . هل رأيت عبطا أكثر من ذلك عند الرجال ؟ ..

وأسألها : وهل يظل هذا إحساسك مع كل رجل .. أنه مغفل لأنه تزوجك .. وحمار لأنه صدقك .. وخنزير لأنه استمر فى هذه الحياة معك ؟ ..

وتقول : لا .. إننى أحترم زوجى جدا .. وأحترم البيت والأولاد . ولكن لابد أن ألجأ الى حيلة لكى أتزوج ؛ فليس عندى ما يغرى الرجال : لا مال .. ولا حياة اجتماعية .. ولا تجارب ..

فأقول : ولكن لماذا تصفين الرجال بكل هذه الصفات ؟ .. كيف تشتمين من يتزوجك ثم تحترمينه بعد ذلك ؟

فتقول : إنى أرى أن الرجال سذج .. لأنه كيف يثق فى كل كلمة قلتها ؟ .. لماذا لا يشك ؟ .. لماذا لا يحاول أن تكون بيننا صداقة ؟ .. لماذا لا يضحك على ؟ .. لماذا لا يخدعنى أو يحاول

ذلك ؟ .. لماذا لا يعذبنى ؟ .. لماذا لا يدوخنى سيرا وراءه وبحثا عنه .. ثم نتزوج فى النهاية ؟ ..

قلت : ولكن إذا أراحك الرجال من كل ذلك .. فلماذا يكون ذلك عيبا فيهم ؟ ..

تقول : بل الراحة فى هذا العذاب . إننى أكره الرجل الذى لا أرى منه إلا رأسا منحنيا .. وإلا كلمة : نعم .. إننى أحب الرجل الذى يقول لى : لا .. فإذا طلبت منه أن يبدى سببا رفض ذلك .. ومعنى هذا الرفض أننى لا أساوى شيئا .. لا أساويه .. وأنه لا حق لى فى أن أعرف ، إنما الواجب أن أطيع فقط .. إنهم عندنا فى الريف يضربون المرأة بالجزمة ، وهم لذلك أسعد الأزواج . ورغم أن أحذية المدينة أغلى وأمتن ، فإنهم لا يستخدمونها فى ضرب المرأة ، إنما فى ضرب الأسفلت فى الشوارع .. ليس صحيحا أن المرأة رقيقة كما تقولون . إنها عنيفة .. إنها قاسية .. إنها مدمرة .. إنها مصاصة للدماء . إن لى ابنة أخت تعمل راقصة .. لا أعرف كم عدد الرجال الذين داستهم بحذائها .. ولا عدد البيوت التى خربتها .. والناس كلهم يعرفون ذلك .. ومن العجيب حقا أنهم يقبلون عليها .. كما يقبلون على البحر الثائر والبركان الهائج .. يبدو أن الرجل يحب المرأة الخطيرة .. كما أن المرأة تحب الرجل العنيف .. إننا نكره الميوعة ونكره الهدوء .. إننا جميعا وحوش تأكل بعضها البعض .. لم أتعلم ذلك من الكتب ، ولا ابنة أختى .. إنما تعلمنا ذلك من الحياة نفسها .. ولست حزينة على ما حدث فى حياتى .. بل إننى لا أعرف كيف مات أزواجى .. فأنا أسعد من كل الأرامل .. لقد مات أزواجى دون أن أتعذب فى دفنهم أو جنازتهم .. لقد ماتوا بعيدا عنى ، فوفروا على استدعاء القسيس والحانوطى – أى الذى يحنط الجثة ثم يحرقها .. وهذا فضل سوف أشكره لجميع أزواجى .. لقد أراحونى حتى بعد موتهم .. ثم إنهم لم يتركوا أثرا .. فلم أنجب منهم ولدا ولا بنتا ..

وأقول لها : أنت إذن آكلة الأزواج ؟ ..

وتقول : بل هم الذين أكلوا منى حتى ماتوا مسمومين جميعا !

قلت : من يرك يخيل إليه أنك فى الخمسين .

وتقول : فى الخمسين ؟ .. من قال ذلك ؟ .. إننى فى الأربعين ..

وسألتها ضاحكا : هل تتزوجيننى ؟

فأجابت : والله لا مانع عندى . ولكن أخشى أن تموت .. فهذه هى القاعدة التى اختفى بمقتضاها كل أزواجى .. تعرف ما الذى أريد أن أفعله قبل أن أموت ؟ .. أريد أن أعيش فى شمال بلاد الهند ؛ فقد سمعت أن من حق المرأة أن تتزوج عشرة فى وقت واحد .. فإما أن يقتلونى وإما أن أقتلهم .. هاها ..

وقد دعوتها للعشاء معنا ، ولا أستبعد أن تطلب إليكم أن تسافروا معها إلى شمال الهند .. فهى رحلة حياة أو موت .. وقد حدثتها عنكم جميعا . وقد أحزنها أن فى الدنيا أناسا بهذه المواصفات

الغريبة .. وقالت عبارة حكيمة : تعرف أن أكبر غلطة فى هذه الدنيا .. ما هى ؟ أكبر غلطة أننا بنينا الكثير من الكباريهات .. ولم نبن بنفس العدد مستشفيات للأمراض العقلية ، بنفس العدد والحجم والأناقة !

(٥)

– هل قرأت الصحف المصرية ؟

– قلت : لا

– هل تريد ؟

– لا .

– ولماذا ؟

– وما الذى أستطيع أن أفعله لمصر أو لأى أحد وأنا هنا ؟ .. وهل نستطيع أى شىء ونحن هناك ؟ .. فنحن لاهنا ولا هناك .. أو نحن هنا ولا نحب أن نكون هناك !

– ولا أن أحكى قصتى أنا الآخر ؟ ..

– هل عندك شىء جديد ؟ ..

– هل مللت ؟

قلت : كدت .

– إذن ... ؟

– هذه مهمتك .. أن تنعشنا جميعا . فقد كنا أحسن حالا قبل أن نستمع إلى هذه النوادر .. فلم نكن فى حاجة إلى كلام .. فقد امتلأنا .. امتلأت عيوننا وآذاننا وأفواهنا .. وعقولنا وقلوبنا وأجسامنا .. بل إننا ملأنا كل الدنيا حولنا .. إننا مثل فقاقيع على كأس من الشمبانيا تقدمها الأرض للسماء .. إننا أرواح لأناس كانوا هنا ، ثم ذهبوا إلى هناك .. ولاتزال الأرض عزيزة عليهم ، فهم يتشبثون بها لآخر لحظة .. كأنهم يتوهمون أن ترجع السماء فى قرارها ، فتعيد الأرواح إلى أجسادها ..

– يعنى عندك استعداد ؟

– عندى ..

– وأنتم جميعا لديكم استعداد لأن أكون آخر المتحدثين الليلة قبل أن يجىء الضيوف ؟ ..

قلنا : نعم ..

– دون أن يقاطعنى أحد ؟ .

قلنا : موافقون ..

– وإذا فعلتم فسوف أعود إلى زوجتى ..

– زوجتك ؟

– نعم . لقد تزوجت اليوم صباحا . فهى قد درست بالضبط ما درسته ، وهى فتاة مغامرة « مقطوعة » مثلى تماما .. لا أب ولا أم .. وتريد أن تطفش من إيطاليا إلى الأبد ..

– صحيح ؟ .. كيف ؟

– هذه قصة أخرى .. هل أبدأ ؟ ..

قلنا : نعم

قال : تناقشنا طول اليوم فى موضوع غريب : لماذا نجد كل لوحات الملائكة كئيبة ، وكل لوحات الشياطين ضاحكة ؟ .. لماذا يضحك الشيطان ويحزن الملائكة ؟ .. هل الضحك خطيئة .. ولذلك لا يصح أن يضحك الملائكة ؟ .. لقد استطاع رسام واحد أن يجعل للسيد المسيح صورة ضاحكة ، فرفضته الكنيسة .. ونحن لا نجد فى كل اللوحات الفرعونية القديمة ، رسما واحدا يضحك .. حتى الفنان الذى حاول أن يسخر من اخناتون فجعل له جسم المرأة : نهديها وردفيها ونعومة كتفيها ووجهها .. حتى هذه الصورة الكاريكاتورية لم تبعث على الضحك إنما على الدهشة .. وعندما ظهرت لوحة الموناليزا للرسام ليوناردو دافنشى كانت لها ابتسامة . وكأن هذه الابتسامة « جريمة » .. فظلت كل كتب التاريخ تفسر لماذا ابتسمت .. مع أن من الطبيعى أن يبتسم وأن يضحك أى إنسان .. وآخر ما اهتدى إليه الباحثون هو أن الموناليزا كانت سيدة حاملا ، وأن ابتسامتها للمولود الذى سوف يجىء .. وليست ابتسامتها للرسام .. ويقال إن الرسام كان يأتى بالعازفين حول هذه السيدة ليدخلوا البهجة على نفسها وهو يرسمها . فلم يظهر من كل هذه البهجة إلا هذه الابتسامة .. ويؤكد الذين أرخوا لهذه اللوحة ، أنها لم تكن تشبه سيدة بعينها .. إنما هى صورة من صنع الفنان نفسه .. ويقال إن هناك سيدة لها ملامحها . ولكن الفنان أضاف إليها الكثير من أعماقه هو .. فهى لذلك عمل فنى ، وليست صورة فوتوغرافية .. وليس دافنشى وحده الذى فعل ذلك .. إنما كل الشعراء الذين أحبوا : ليلى وعزة وأميمة .. ومى زيادة .. وكليوبطرة ليست بالجمال والروعة التى نجدها عند شكسبير وشوقى وشو .. ولا ليلى كما وصفها المجنون .. ولا حتى جولييت حبيبة روميو .. والفتاة هلويزه التى أحبها القديس ابيلار .. ومنذ سنوات رأيت فى القاهرة « جميلة بوحريد » إحدى بطلات حرب التحرير الجزائرية .. كانت رقيقة لطيفة ضاحكة .. ولكنها تختلف تماما عن الصورة التى رسمها الشعراء وغناها المطربون يصرخون ويهددون بتحطيم الدنيا كلها عندما تجىء كلمة « جميلة » على ألسنتهم .. فعندما جاءت جميلة إلى القاهرة أحسسنا جميعا بالخجل منها .. وتمنينا لو تركت مصر فورا . فوجودها

تكذيب وتسفيه لكل مشاعرنا الوطنية والفنية .. كأننا تحدثنا عن واحدة أخرى .. ثم ظهرت فى القاهرة جميلة بوباشا .. وجميلة بوعزة .. وقيل لنا إن جميلة بوحريد لم تفعل شيئا من كل الذى وصفه الشعراء فى مصر وفى العالم العربى .. إنما التى فعلت كل هذه البطولات : جميلة بوباشا .. وهذه الفتاة ليست جميلة .. فكان ذلك صدمة أخرى .. فجميلة التى تغنينا بها كانت جميلة ، وهى لم تفعل شيئا ، وجميلة التى ليست جميلة هى التى فعلت كل شىء .. إننا أمام أكذوبة تاريخية وأكذوبة فنية .. وسوف تموت جميلة ، وتبقى صورة جميلة معلقة فى تاريخ التحرير فى العالم العربى .. ولقد ثار الاتحاد السوفيتى على الرسام بيكاسو يوم رسم صورة للمسيح ، وجعل فيها شبها بستالين ، وكان يقصد بذلك أن ستالين هو المسيح الجديد ، أو أن المسيح هو ستالين الجديد .. والصورة إهانة للاثنين .. ولكن الرسام تصور ذلك .. ورأى أن هذه اللوحة هى من إبداعه هو .. وأنه هكذا يرى الشيوعية والمسيحية ..

قلت : فهمت ماذا تريد .. أنت إذن ضقت بهذه النوادر والحكايات ، وتريد أن نستأنف الموضوع الذى أجلنا الحديث عنه .. فهمت .. أنا أعود فأكرر أن المحاضرة التى ألقيتها عن الأستاذ العقاد ، لم تكن إلا جزءا من تصورى له .. وقد رسمت له صورة هى مجموعة من الخطوط .. ثم أمسكت أكثر من فرشاة ملونة وملأت هذه الخطوط .. ثم نقلت هذه الصورة إلى الحجر ، وصنعت تمثالا للأستاذ .. وليس هذا بدعا فى التأريخ الفنى أو الفلسفى .. بل إن هذا هو المألوف تماما . فكل قصة حياة هى نوع من الاعتراف . حياتى هى اعترافاتى . بكل ما فيها من عيوب . ومستحيل أن يعترف الإنسان دون أن يكون استعراضيا – وجان جاك روسو عندما كتب فى « اعترافاته » أنه كان إذا رأى الفتيات يخلع أمامهن البنطلون ، فإذا صرخن أحس بمتعة جنسية .. لم يكن روسو فى حاجة إلى ذلك ، فالاعترافات هى نوع من ذلك : أن يتعرى الإنسان ويتعرض ويعبر : وهذه متعته الكبرى . وقد أعجبتنى اليوم صورة نشرتها المجلات الإيطالية لفستان جديد .. الفستان طويل .. ولكن بالفستان فتحات على الصدر ومنتصف البطن وأسفل البطن وعلى الظهر – أى أن هذه الفتحات تكشف ما يخفيه الفستان .. أو أنها تكشف مناطق معينة من الجسم .. وأعتقد أن الفن والفلسفة شىء من ذلك .. فكل إنسان ينظر من خلال فتحة معينة إلى شىء ما .. ومن خلال هذه الفتحة يصف الصدر أو الظهر أو البطن أو الساقين .. وكان من الممكن أن تتعرى المرأة تماما ، ولكن هذه الفتحات هى إبراز وتركيز لشىء ما فى الجسم .. وكذلك أى إنسان : له نظرة .. له مساحة يلتفت إليها أكثر .. وأفلاطون قد صور لنا ذلك عندما تحدث عن أهل الكهف .. فهو يصف معلوماتنا عن هذه الدنيا مثل أناس دخلوا كهفا .. ومن الكهف تدخل أشعة الشمس وترسم ظلالا على الحائط لمن يمشون أمام الكهف . أما الذين فى داخل الكهف فقد أداروا ظهورهم لباب الكهف ، وراحوا يتأملون الظلال

على الحائط .. ومن هذه الظلال يعرفون الدنيا .. وكذلك الأديب الفرنسى هنرى باربيس فى روايته « الجحيم » جعل البطل يثقب فتحة فى جدار غرفته ، لكى يرى ماذا يحدث فى الغرفة المجاورة ..

سؤال : مثلا أنت لم تتحدث عن أن العقاد يدخن .. مع أننا نعلم أنه يدخن أحيانا .. أما سبب ذلك فهو أنك أنت لا تدخن .. وأنت تحدثت عن أحذية العقاد .. وعن لون بيجامته وطاقيته وتفصيلة البيجامة .. وكان ذلك شيئا غريبا فى محاضرة علمية . ولا أظن أنك أنت أو أحدا من أقاربك يعمل فى صناعة القماش أو تفصيل القماش .. ولكن هذا انعكاس لأشياء فى نفسك على صورة العقاد . ثم إنك تتحدث عن العقاد عندما يمشى فتصف ذراعيه وأصابع يديه ، ولا أعرف لماذا ترى اليدين إذا تحركتا أثناء السير شيئا عجيبا ؟ .. وغير ذلك مما يحتاج إلى توضيح ..

قلت : معك حق .. أما أننى أتحدث عن ملابس العقاد .. فربما كان سبب ذلك أننى عندما تخرجت فى الجامعة عملت محررا فى جريدة الأهرام . ومن العجيب أن مهمتى كانت ترجمة الرسائل التى تجىء من باريس . وأكثر هذه الرسائل كانت عن الأزياء .. وكانت الموضة فى الخمسينات هى « النظرة الجديدة » من تصميم كريستيان ديور .. وقد أدت موضوعات الأزياء إلى أن أكون على صلة بعدد كبير من الفتيات والسيدات فى وقت واحد . وقد أثار ذلك خيالى وشغل وقتى وصرفنى عن الاهتمام بموضوعات أخرى كثيرة .. ربما كان الذى قلته هو بقايا هذا الاهتمام .. أو هو تبرير لأهمية الحديث عن ملابس الأستاذ أو أن هناك تشابهاً بين الأزياء والأسلوب .. وأننى كنت أبحث عن « زى أدبى » . وأننى اخترت لنفسى أسلوباً مثل الفساتين المخرقة . . فالكلمات على قدر المعنى .. والكلمات تغطى المعنى وتكشفه .. أو لعلنى أردت أن أقول : إذا كنت أهتم بما تحت الملابس ، فإن الملابس أيضا تهمنى لأنها هى ما يراه الناس .. أما حديثى عن حركة ذراعى الأستاذ ، وأنه لا يضعهما فى جيوب الجاكتة أو البنطلون ، فسبب ذلك أننى فى ذلك الوقت أصبت بمرض جلدى فى يدى .. وظللت سنوات أخفيهما فى الجاكتة أو البنطلون .. بينما لا يفعل غيرى من الناس شيئا من ذلك .. ثم إننى أولا وأخيرا أتحدث عن نفسى وعن جيلى وعن دنيانا ، وأتخذ من العقاد شاهدا علينا وعلى عصرنا .. نخالفه ونوافقه .. وننصرف عنه ، ونعود إليه .. وأنا لا أقرأ كف العقاد ولا فنجانه ولا أضرب له الودع .. ولا أنا « عرافة دلفى » الإغريقية الشهيرة التى كان يذهب الملوك والقادة يسألونها عن مستقبلهم .. وكانت العرافة تتعاطى المخدرات وتغيب عن وعيها ، ثم تقول .. وينهض من يسجل لها كلماتها على الحجارة أو على النحاس أو على الذهب .. وكانت العرافة تقول وكانوا يدفعون لها المال واللؤلؤ .. حتى جاء الامبراطور نيرون فنهب كل ما لديها ، وعندما جاءها قائد فارسى يسألها قبل أن يذهب إلى الحرب .. فقالت له : سوف تحطم امبراطورية .. وأعطاها الإمبراطور الكثير من الذهب والفضة .. وانهزم فى الحرب .. ولكن النبوءة صدقت . فقد حطم امبراطوريته هو .. فأنا

لست هذه العرافة .. إنما أنا أقرأ وأفهم وأناقش وأضع الأبيض والأحمر وأصور وأقدم العقاد الذى عرفته والذى أقمت له تمثالا على قاعدتى العقلية والفنية .. وإذا كنت قد وقعت عند قاعدة التمثال ، فالحقيقة أننى وقعت على كل لمحة من ملامحه .. فهو موجود بوضوح ، وأنا أيضا .. وأنا أحيانا أضع آراءه وأخالفه . وأتعمد ذلك . ليكون ذلك نوعا من الحوار . ويكون الحوار تحريكا للفكر وإنعاشا للتأمل .وقد تجىء هذه التناقضات مؤلمة أحيانا . ولكنها ضرورية .. وفى عالم الحيوان نجد أن الدب يترك اللحم ويلاحق النمل ويملأ فمه به ويترك النمل يلسعه . ويكون لسع النمل نوعا من تنشيط اللسان ويكون فاتحا للشهية ، تماما كما نتناول الشطة والموستاردة فى طعامنا .. ولكن العقاد مثل كل الشخصيات النابهة فى التاريخ له كل صفات أحجار الماس .. فلا توجد فى الطبيعة قطعتان من الماس متشابهتان .. لا وزنا ولا حجما ولا شكلا .. وقطع الماس تختلف فى أربع صفات : الصقل والصفاء واللون والوزن .. ولو أطلقنا شعاع الليزر على أية قطعة من الماس ، لا نعكس منها شكلها الخاص . شخصيتها . بصماتها التى هى مثل بصمات الأصابع ، ليس فى الكون كله اثنتان متشابهتان .. وكذلك الأستاذ مختلف عن كل الشخصيات الماسية .. ويشبه أيضا كل الشخصيات . ولكن ليس الخلاف تماما ، ولا التشابه أيضا .

سؤال آخر : ألا ترى أن الحديث عن شخص تحبه صعب .. تماما كالحديث عن شخص تكرهه ؟ ..

قلت : بل الحديث عن شخص أكرهه أيسر.. فأنت ترفضه فلا تجد ما تقوله .. أما الشخص الذى تحبه فإنك تقبل عليه ، وتنصت إليه ، وتعيش معه وتحاوره ، وتخفى عيوبه ولا تظهر إلا مزاياه .. وعندما تتحدث عن شخص تحبه ، فأنت تتحدث عن نفسك أيضا .. أى عن المحب والمحبوب فى وقت واحد ..

سؤال : ولكن ألا ترى أنك تبالغ كثيرا عندما تتحدث عن الأستاذ بهذه الدرجة من اليقين ؟ .. ألا توجد جوانب خفية عنا ؟ .. هو أخفاها عنا ، أو لم يفصح عنها .. وفى حديثك عن العقاد ما يشير إلى ذلك ..

قلت : إن العقاد الذى أتحدث عنه .. هو واحد من شخصيات كثيرة اسمها العقاد . فأنا تحدثت عن العقاد إلا قليلا .. وهو مثل كل المعابد القديمة له أكثر من مدخل .. ثم إن هناك أبوابا سرية .. أو أبوابا مسروقة أى وهمية . وأكبر دليل على أن العقاد وغيره من كبار المفكرين ، يريدون تضليلنا ، بما كتبوه عن حياتهم الخاصة ..أى اعترافاتهم .. فهذه الاعترافات ليست إلا ادعاء للاعتراف ، وهى فى الحقيقة إخفاء لحقائق كثيرة .. وهم يتعمدون إخفاءها وهم أحياء .. وكما يحدث فى عالم الحيوان فالكاتب والفنان والفيلسوف يقوم بعملية تمويه .. فالحيوانات تخفى نفسها بأن تتشابه مع البيئة التى

تعيش فيها فلا يستطيع أحد أن يميزها .. أى أنها تفعل ذلك هربا من الحيوانات الضارة بها .. أو أنها تفعل ذلك حتى لا تراها الفريسة التى تنقض عليها .. وبعض الطيور تتظاهر بأنها سقطت مكسورة الجناح ، حتى تبعد عنها الحيوانات المفترسة . فإذا اقتربت الحيوانات هربت الطيور .. وبعض الحيوانات والفراشات والنحل تتظاهر بأنها ميتة لا حراك لها ، فتبعد عنها الحيوانات التى تفضل أن تأكلها حية .. والثعالب تتظاهر بأنها ميتة ثم تطلق روائح كريهة .. أى ما يوهم أنها ميتة وجثة تعفنت منذ وقت طويل ! ولا يوجد فنان كبير أو أديب عظيم ليست له سراديب تحت الأرض تنقلنا إليه .. حتى هذه السراديب يجعلها الفنانون خطيرة .. تماما كالسراديب تحت الأهرامات .. أو تحت المدن الكبرى .. ولا يوجد أديب لايطلق بعض السحب الغريبة التى تجعل الناس لاتراه بوضوح ، أو انه يضع بعض النقط السوداء فى لوحة حياته تجعل الناس تفر منه .. وهو بذلك يخفى أشياء كثيرة .. وأنا استبعد أن تكون قصص الحب والجنس والغرام والهيام والمرأة التى جعلت بعض الناس ينظرون إلى الاستاذ على أنه ذئب ، قصصاً حقيقة للمفكر الاسلامى العظيم عباس محمود العقاد .. ولكن رغم براعة الكاتب الكبير ، فإن من السهل الاهتداء إليها .. فهو لا يستطيع إخفاءها تماما .. فالأستاذ قد أوصى بأن كل رسائل مى زيادة لا تنشر بعد وفاته .. وقد أعاد إليها أكثر رسائلها واحتفظ ببعضها .. ولكن رسائل الأستاذ إلى مى زيادة ، التى أعادتها إليه ، تفضح الكثير من هذه العلاقة المعقدة .. وكذلك أبيات بالمئات فى شعر الأستاذ تكشف هذا الذى حرص على إخفاء أشياء كثيرة .. والشاعر العباس بن الأحنف يصف حالته إذا رأى المحبوبة,وأغمض عينيه وتظاهر بأنه لا يراها أو لا يعرفها ، فماذا يقول الناس لو رأوا دموعه ؟.

يقول : هبونى أغض إذا بدت
وأملك طرفى فلا أنظر
فكيف استتارى إذا ما الدموع
نطقن ، فبحن بما أضمر؟ !

وكذلك الأستاذ وغيره من كل المفكرين الكبار .. إنه مثل الشمس ، كلما كان ضوؤها قويا ، كانت ظلال الأشياء أعمق .. إننى أتصور المفكرين الكبار وتجاربهم الشخصية العاطفية أو الحزينة ، مثل مدينة بومبيى هذه التى نراها الآن من بعيد .. إن هذه المدينة تقع عند سفح بركان فيزوف . وفى ٦٣ ميلادية حدثت هزة أرضية عنيفة .. هدمت المدينة .. وفى سنة ٧٩ ثار البركان ، فغطتها الحمم الملتهبة بملاءة كثيفة .. وظلت هذه الأغطية الكثيفة ساترا لما كان يفعله أهل المدينة فى تلك الليلة . وفى سنة ١٧٤٩ اكتشف العلماء هذا الغطاء البركانى .. لقد وجدوا الناس تماثيل حجرية . حياة جامدة ساكنة صادقة . قصصا من الحب والسكر والعشق قد احتفظت بها الأحجار . لقد صنعتها النيران ..

وتسترت عليها الأحجار ، وكشفها الأثريون .. وكل أعماق المفكرين الكبار . وكل تجاربهم ، مهما حاولوا إخفاءها ومهما كان الغطاء كثيفا ، فليس من الصعب اكتشافها .. أو هو من الصعب ولكن ليس من المستحيل .. والشاعر اللاتيني فرجيل يقول : إذا قلت لك ياحبيبتي : نعم ، فأنت تعرفين من الذى لم أقل له نعم .. وإذا اخترتك عروسى هذه الليلة ، فقد رفضت كل نساء المدينة !

سؤال : إذن فهل تتزوج ابنة الفيلسوف الايطالى بندتو كروتشه .. تلك التى جلست إلى جوارك طول الوقت . ولم تتوقفا لحظة عن الكلام ؟ . . أليس هذا حبا ؟

قلت : أتزوجها ؟ ولماذا هى بالذات ؟ ..

– لأن فيها شبها كبيرا بالأستاذ ..

قلت : ملامح الأستاذ لا بأس بها كملامح رجل ، ولكن كملامح سيدة لا أظن أنها تغرى رجلا .. وكذلك ابنة الفيلسوف الايطالى .. تقول إنه حديث حب ؟ فعلا كان حديث حب .. إنها تعشق والدها .. وتراه أعظم وأجمل وأحكم رجل فى العالم .. فمن الذى يتزوج امرأة عاشقة حتى الموت ؟ ! أنت فكرتنى .. لقد كنت نسيت تماما .. لقد دعوتها هى وأختها لتتناولا العشاء معنا الليلة .. وإذا كان قد فاتك شىء مما قرأته عن الفيلسوف كروتشه فسوف تسمع من ابنتيه عجبا .. وإذا كانت لديك بقية من حب للفلسفة ، فسوف تكرهها الليلة تماما .. وإذا كنت ترى أن حب الابنة لأبيها صفة عظيمة ، فسوف تجد الليلة أن أكبر جريمة أن يكون للإنسان ابنة واحدة .. فما بالك إذا كانت له ابنتان توأمان تحبان رجلا واحدا ، ويكون معهما إذا أكلتا ، ويكون ثالثهما إذا نامتا .. ولأنهما متدينتان فلن تتزوجا ، وإلا كان ذلك زواجا من رجلين فى وقت واحد !

(٦)

ولم أجد ما أفعله أفضل من أن أسوى أمتعتى .. وأرتب حقيبتى .

وسارعت إلى غرفتى . ثم أغلقت الباب ومددت يدى إلى حقيبتى . وفتحتها ووضعتها على السرير . وفجأة وجدتنى أضحك بصوت مرتفع . فلم يكن هناك ما أضعه فى الحقيبة .. إنه القليل من الملابس والكثير من الورق .. وقد استغرق ذلك دقيقة ..

وبنفس السرعة وضعت الحقيبة على أرض الغرفة وعدت لألحق بالزملاء فى انتظار الضيوف ، لقد توهمت أن لى أشياء كثيرة لابد من وضعها فى الحقيبة . ولكن الكثير الذى توهمته ليس خارجى ، إنه فى داخلى . ووجدت أن من الأفضل أن أطبق شفتى ، كما أطبقت حقيبتى ، حتى لا ينساب من فى شىء مما فى رأسى .. فقد قلت كثيرا . وجاء دورى لكى أكون مستمعا . وأنا أجد متعة كبرى فى

أن أستمع . وقد تعلمت حسن الاستماع من القراءة . فالقراءة ليست إلا استماعا لإنسان آخر .. وإذا كان هذا الآخر كاتبا أو فنانا ، أصبح الاستماع نشوة ..

ولو سئلت : ما الذى تتمنى أن تشربه دون أن تفيق ؟ .. لقلت : عصير الكتب .. خلاصة الفكر .. مسحوق الفلسفة !

وفى تلك الليلة التى امتلأت بكل شىء وبكل المعانى وكل هذا العدد من الأصدقاء والضيوف . لم أجد أروع من النظر إلى القمر . . فلم أكد أعطيه عينى حتى خطفها . . وخطفنى !

الأستاذ .. مريضاً !

اكتشفت – مع الأسف – أن أحكامى على الناس ليست دقيقة ، وأننى أعتمد على مقاييس خاطئة ، وأننى لو كتبت أسماء أصدقائى فى ورقة وأسماء أعدائى فى ورقة أخرى ، لكان من الواجب أن أجرى حركة تنقلات شاملة . وسوف أجد أن ورقة منهما خالية من الأسماء تماما . وأحزننى ذلك على نفسى . إذ كيف ، رغم كل الذى قرأت والذى تعلمت والذى ناقشت والذى توهمت ، لاأعرف ماهو الفرق بين العدو والصديق؟ ! . .

مثلا : اعتقدت أن د . شوقى . . . شخص بغيض ، وأنه يقطر سما . وأنه يكفى أن يدخل أى مكان ليشعر الإنسان أنه قد سحب الأوكسجين من الهواء . . فليس لنا إلا أن نختنق ، وأن نعومته ليست إلا السيف أو الثعبان . . ولم أناقش هذه المعانى كثيرا . لقد اكتفيت بأن هذا هو العدو . ولذلك يجب أن أتفاداه . ولم أفكر لحظة واحدة أن « العداوة » هى نوع من التحدى لأى إنسان ، لأن معناها : هذا الشخص ليس معى ولا إلى جوارى فكيف أجعله صديقا ؟ بل إن الصداقة أيضا نوع من التحدى . . فالصديق ليس صديقا دائما ، لافى كل الظروف ، ولافى كل وقت . . والتحدى هو : لماذا لاأحرص عليه وقتا أطول ؟

يبدو أننى فى ذلك الوقت كنت أكتفى بمثل هذه الكلمات : صديق . . عدو . . لاهو صديق ولاهو عدو . .

وأمس التقينا فى فندق « ٢٠ سبتمبر » بشارع ٢٠ سبتمبر بمدينة جنوة . . إنها الصدفة . كان د . شوقى أسبق إلى عناق . وأدهشنى ذلك . وكانت الدهشة والفرحة على وجهه . وأخجلنى هذا الشعور . وأخجلنى أكثر أننى قابلته ببرود شديد . هذا البرود هو المعنى الذى ادخرته له فى « بنك الأصدقاء والأعداء » . ولم أحاول أن أكون أكثر مرونة وأن أجارى وأساير وأتوافق مع الموقف الجديد . ثم ماهو الذى جعلنى أراه عدوا ؟ ماذا فعل؟ لا شىء ! ماذا قال؟ لا شىء . لماذا أنا أضيق به ؟ لم أجد عندى سببا معقولا . ولاحتى سببا . إنه قصير القامة . ممتلئ . كبير الرأس . له عينان ضيقتان لامعتان . وليس مندفعا إذا تكلم . بل إنه كثير الإنصات يفكر طويلا قبل أن يقول شيئا . كان زميلى فى المنصورة

الثانوية . رجل علمي ومن أسرة غنية . ولذلك فهو شديد الاعتداد بنفسه . ولا يشارك فى كثير من المناقشات التي كان يحضرها . والسبب فى ذلك بسيط : نحن نتناقش فى الأدب والفلسفة ، وهو لا يهتم بكل ذلك . ونحن قلقون . وهو مستقر . ونحن حائرون ، وهو قد اهتدى إلى إطار لأفكاره ومستقبل حياته . إنه مختلف عنا . فلماذا يكون العيب فيه وليس فينا ؟ .

قال لى د . شوقى ... : والله العظيم أنا تذكرتك اليوم . شىء عجيب حقا . وتذكرت عبارة لك قلتها ونحن نمشى فى جنازة صديقنا عبد الرءوف . . هل تذكر عبد الرءوف جميعى .. الذى غرق فى النيل ؟ . لقد قلت ونحن فى الجنازة : لماذا لايكون النعش على شكل زورق ؟ .. وإذا كان الذى مات طيارا ، فلماذا لايكون النعش على شكل طائرة ؟ .. وإذا كان الميت عالما فلماذا لايكون النعش على شكل كتاب أو على شكل قلم ؟ .. وسألتك ونحن فى الجنازة : وما قيمة كل ذلك للميت ؟ وكان من رأيك : أنه لاقيمة لذلك . . ولكن حتى لايشعر الأحياء بالملل .. وحتى يكون الحزن على الميت عملا فنيا .. أى حتى نبكى بفن ، ونمشى فى الجنازة ونرى عملا فنيا . . أظن أنك قلت شيئا كهذا . . عندى اقتراح .. لماذا لانذهب إلى مقابر جنوة ؟ .. إنها أعظم عمل فنى لأهل هذه المدينة . . ومن أهم معالم ميناء جنوة أن يذهب الناس إلى المقابر ويسمونها هنا « كامبوسانتو » لا لكى يبكوا على الموتى ، ولكن لكى يروا ماالذى فعله أهل الموتى .. إن قبورهم تماثيل فنية . . أروع وأجمل ماعرف الإنسان فى أوروبا كلها ..

وفى الطريق إلى المقابر قال لى د . شوقى إن السبب الحقيقى فى زيارة هذه المقابر أن زوجته كانت إيطالية ، وأنها توفيت عندما كانت تضع مولودها الأول .. وأنه لايعرف كيف ينقل رفاتها من مدينة سانتا مارجريتا المجاورة ، إلى جنوة . . وأنه اتفق مع النحات المصرى المعروف جمال السجينى . . أن يجعل قبرها قصة لحياتها . فقد كانت زوجته هى الأخرى تصنع التماثيل. ولا شىء يسعدها أكثر من أن يكون قبرها عملا فنيا ..

وبقدر ما كان متحف الشمع لمدام تيسو بلندن قبيحا ، وجدنا هذه المقابر تحفة مهارية أو تحفة من أروع أعمال الحفر والنحت . . فكل قبر هو قصة حياة صاحبه .. فالطبيب مايزال يجرى عملياته الجراحية فى الحجر أو فى الحديد .. والطيار قد سقط بطائرته . واختفى الطيار ولكن جناح طائرته مايزال مغروسا فى الأرض . . والموسيقار قد تبدد صداه من الحياة ، ولكن ماتزال قيثارته تسمح للهواء أن يدخل من ناحية ويخرج من الناحية الأخرى ، ليكون له همس أبدى .. وكذلك التاجر والطالب والزوجة والأم والعروس . . ومن أروع المقابر التى وقفنا أمامها طويلا نضحك .. مقبرة صاحب بار قد أوصى بأن يكون قبره صورة للبار ، وطلب من كل رواد البار أن يسمحوا له بأن

يحتفظ برءوسهم منقوشة على الحجر . فأقاموا له بارا بكل زجاجاته وضحكاته وكل رواده . . أما هو فقد جلس فى الناحية الأخرى من الشارع هادئا واعيا يقرأ فى إحدى الصحف . فقد كان الفقيد لايشرب الخمر . . ولم يكن يسرف إلا فى الشيء الذى عجل بوفاته : الجنس والحب والزواج الكثير !

لقد أفلح الموتى فى مدينة جنوة أن يجعلوا مقابرهم تضج بالحياة والأحياء . واستطاعوا أن يحولوا الدموع إلى حزن . ويحولوا الحزن إلى رثاء . والرثاء إلى إعجاب . . وأحيانا إلى سعادة . فقد استطاع الإنسان أن يتغلب على الموت . وأن يعيش بعد القبر فى أجمل وأخلد صورة !

وسألت د . شوق : إننى لاأذكر هذه الكلمات التى قلتها أثناء الجنازة ، ولكن لابد أننى كنت أشعر بالملل . فقد سرنا فى ست جنازات فى شهرين . . فقد غرق أحد الزوارق فى النيل . . ثم سقط أتوبيس فى البحر الصغير . . ومات زملاء وأصدقاء . . ولابد أننى وجدت أن الحزن على الموتى لايجدى . . وأن الجنازات مملة . . وأنه لا شيء يقضى على الملل إلا الفن ، ولا شيء يطيل عمر الإنسان إلا الفن . .

وسألنى : هل مات لك إنسان عزيز عليك جدا ؟

قلت : خالتى . . ثم أبى ، وكان حزنى على أبى عظيما .

سألنى : ماذا فعلت ؟

قلت : لا شيء .

قال : كيف ؟

قلت : لاأعرف ماالذى يمكن أن يفعله الأحياء لأعز الموتى . إننى حزين عليه . وأذكره وأبكى . وهل يستطيع أحد أن يفعل غير ذلك ؟ . .

قال : وهذا الذى كنت تقوله عن تخليد الموتى . . والذى رأيناه فى المقابر هنا ؟ . .

قلت : فكرت فى شيء من مثل هذا . ولكنى عدلت . فلا شيء ينفع الموتى . إن الموتى لايريدون إلا مايريده المحكوم عليه بالإعدام : أن تطول حياتهم يوما . فهل أستطيع ذلك ، أو استطاع أحد ؟ ! إذن فلا معنى ولافائدة من البكاء على الموتى . . وحتى إذا بكينا فإننا نبكى على أنفسنا . . نبكى على الحرمان . . على الحرمان من الحب أو من الصداقة . . تماما كما يفعل الإنسان الذى فقد ذراعا . . فإنه بذراعه الأخرى يلمس مكان ذراعه التى ضاعت . . ثم ينظر إلى الناس الذين لم يفقدوا شيئا . . ثم يتذكر عيون الناس التى تنظر إلى ذراعه المقطوعة ثم يحاولون أن يخفوا نظراتهم . . هكذا كنت أحس فى بعض الأحيان ، وأظن أننى أصبحت أكبر من الحزن الساذج أو الحساسية لأننى فقدت شيئا . . فأنا لم أفقد إلا مافقده الناس قبلى وماسوف يفقدونه بعدى . . وأحيانا أفلحت فى ذلك . . وأحيانا أخرى لم أفلح . . ولكن حزنى على خالتى كان مختلفا عن حزنى على أبى . فقد كانت أجمل من رأيت وأرق

وأكثر حنانا . كانت أمي تعذبنى كثيرا . ولاألومها . فقد كنت عبثا نفسيا عليها . كانت ظروفها أليمة . كنت مشاغبا . ولما كبرت وجدت لها ألف عذر . . ولكن استفدت من قسوة الأم محبة خالتى هذه . ولم تكن قد رزقت بأولاد بعد .. وكانت جميلة الوجه والصوت . وكنت أجد نفسى كل يوم فى فراشها نائما . . . فقد هربت من أمى ولجأت إليها . وكان حزنى عليها أننى فقدت الأم الحنون . . أو أكثر الأمهات حنانا ورحمة ..

قال د . رءوف ... : لقد مات أخى من عشر سنوات .. لاتوقف حزنى عليه ولا دمعى . وقد مات كثيرون . ولكن لم يعد فى قلبى مكان لأحد . والله لو مت أنا شخصيا وشاء الله أن أمشى فى جنازة نفسى ، فلن أحزن ولن أبكى على فقدى لنفسى .. ليس مثل الأخ الذى كان صديقا وأبا .. إننى تخيلت كيف تكون مقبرته لو دفن هنا فى جنوة . . إن أحسن تمثال أصنعه لأخى هذا هو أن أجعل النحل يمتص العسل من شفتيه .. فقد كان أخى حلو الكلام .. حلو الابتسامة .. كل شىء فيه جميل .. يرحمه الله ، فهو أحق الناس بالرحمة بعد أن طال مرضه ، وهو أحق الناس بالجنة ، فقد أنزل جنة الله من السماء إلى الأرض ، فعاش كثير من الناس فى حدائقه وفى متاجره كأنهم يملكون كل شىء .. تماما مثله .. وكانوا سعداء به وكان هو سعيدا بهم .. والله العظيم كان فى نيته أن يوصى بكل أملاكه إلى الفقراء من الفلاحين .. لقد سمعتها منه .. ولكن الموت قد خطفه . . أو خطف القلم من يده قبل أن يوقع بإمضائه ..

لقد تغيرت صورة د . شوقى تماما ، ليس قصيرا كما تصورته . إنه يقرب من طولى . ثم إنه ليس أسمر اللون . إنه قمحى اللون . وقد لاحظت ذلك عندما تجاورت يدى ويده وهو يقدم لى شيئا أقرؤه أن يده أكثر بياضا . . وأن أصابعه ملفوفة ناعمة . . وأن أظافره نظيفة طويلة لامعة . . تماما مثل أسنانه ومثل عينيه .. وهو أول إنسان رأيته فى حياتى يضع ساعة ذهبية بسلسلة ذهبية فى جيب الصديرى . . وربما كان هذا هو السبب فى أنه يرتدى الصديرى صيفا وشتاء . وعرفت أن هذه هى ساعة المرحوم أخيه ..

وفى الليل أحسست بشىء من الارتياح . فقد أضفت د . رءوف إلى الأصدقاء . وفى كل مرة أفكر فيه أضحك من نفسى . فقد تصورته عدوا دون حيثيات صحيحة . ولابد أن الأصدقاء مثل الأعداء ، لم أحسن اختيارهم ، أو لم أعدل فى الحكم عليهم . ولكن لماذا ؟ هل لأننى إنسان شديد الحساسية . وهذه الحساسية تجعل الإنسان يتأثر بسرعة . فالأشياء الصغيرة والكبيرة لها نفس النتائج ؟ هل لأننا فى ذلك الوقت كنا عاطفيين أى متطرفين ؟ . . هل لأننا فى تلك الأيام لم يتسع وقتنا لنفكر فى كل شىء ؟.. إننى أعتقد أن وقتنا لن يتسع لشىء . لقد كان الأستاذ يشكو من ضيق الوقت . مع أنه كان متفرغا للفكر . ولكن الأستاذ لم يكن يوزع وقته بالعدل بين الأكل والنوم والعمل والرياضة .

وأعتقد أن أعظم أخطاء الأستاذ هو أنه كان يضيق بالطعام ويضيق بدورة المياه . ولو أعطى الأستاذ وقتا لطعامه ولدورة المياه ، لعاش أصح وأطول . وقد وصف الأطباء وفاة الموسيقار العظيم بيتهوفن بأنه نسى أن يتردد على دورة المياه . وقد سخر بيتهوفن من نفسه قائلا : لقد سمعت أمى تقول : من الضرورى أن تذهب .. ولكن لم أسمعها تقول إن هذه ضرورة يومية ..

فقد كانت تمضى الشهور وبيتهوفن لايستحم ولايذهب لدورة المياه .. وكان عذر بيتهوفن أيضا : ضيق الوقت ..

هل لأننا فى تلك السن الصغيرة كنا نجد أسهل وسيلة لفهم الناس والتمييز بينهم أن نضعهم تحت عنوانين : الأصدقاء والأعداء ؟ .. مع أن هناك فروقا كثيرة بين الأصدقاء والأعداء .. كالفروق بين اللونين الأبيض والأسود .. هناك ألوف الدرجات فى اللون الواحد .. ثم عشرات الألوف من الفوارق إذا مزجنا الألوان بعضها ببعض .. إن تقسيم الناس إلى صديق وعدو ، ليس إلا مظهرا من مظاهر الخطأ فى فهم الناس . تماما كما تقول : هذا معى .. وهذا ضدى .. ومن بين هذه الأخطاء أن نقول : هذا ميت وهذا حى .. فما أكثر الأموات الذين هم أحياء فى قلوبنا وذكرياتنا وخيالنا .. وما أكثر الأحياء الذين لاحياة لهم .. فهذا أنا قد مات أبى وماتت خالتى ، ولكنهما مايزالان فى غاية الحيوية والقوة .. وهذا رءوف قد مات أخوه ولم يمت .. بل إنه لايريده أن يموت . ويرى أن موته إهمال شديد له . وأن الحفاوة الدائمة به هى إحياء لذكراه والحديث عن مآثره .. وأخوه هذا هو الذى أمات العداوة بيننا وجعلنا أصدقاء حتى الموت .

حتى موت رءوف بعد ذلك . وكنت أكثر الناس بكاء فى جنازته لأسباب أدهشت الناس . ولكن الذى لم يعرفه الناس كيف إن الصداقة على الكبر ، مثل التعلم فى الصغر : نقش على حجر يبقى عميقا أنيقا مثل هذه المقابر فى جنوة !

ذهبت وحدى إلى هذه المقابر . وبدلا من أن أدخلها تفرجت عليها من أحد التلال المجاورة . وكان على التل مطعم صغير . صاحب المطعم هو نفسه عازف المندولين ، فهو يعزف تحية لك .. ثم يعرض خدماته عليك .. ونظرت إلى اسم المطعم ، فلم أجد له اسما . إنما وجدت عبارة للشاعر الايطالى دانتى الليجيرى . أما العبارة فهى : ليس الموت إلا امتدادا للحياة ، ولكن فى أماكن أخرى !

وقبل هذه العبارة جاءت عبارة أخرى تقول : وقد جلس الشاعر دانتى الليجيرى فى هذا المكان عندما هجرته صديقته بياتريتشه يوم صارحته بأنها متزوجة !

ولم تقل هذه العبارة حقيقة ماحدث . فالشاعر العظيم قد طلب إليها أن تظل صديقته بعد الزواج . ولكن الفتاة رفضت أن تخون زوجها . ولكن الشاعر طلب أن يراها بعد ذلك ليقول لها : إنك لم ترفضى مبدأ الخيانة . إنما رفضت الخيانة معى أنا .. وقبلت أن تكونى عشيقة لابن العمدة !

وهزت بياتريتشه رأسها بأن هذا صحيح .. ولم يكن الشاعر العظيم قد أصبح عظيما بعد . ولكن حتى لو أصبح عظيما فإن هذه السيدة بياتريتشه لاتجده كذلك . إن ابن العمدة أكثر مرحا ومالا وجمالا . وليس هكذا حزينا سادرا مهموما مغموما ، مثل الشاعر دانتى ، كلما رآها راح يتأمل يديها وقدميها .. والذين رأوا صورة بياتريتشه بعد ذلك قد اكتشفوا أن أقبح مافيها : يداها وقدماها . وكانت هى تعلم ذلك . وكان تأمل الشاعر لأقبح مافيها يضايقها . وكانت ترى أن الشاعر قليل الذوق . مع أن الشاعر لم يكن يرى فيها عيبا واحدا . وكان يصف أصابعها الممتلئة المستديرة بقوله : لقد ملأ الله عينيها بالحياة . وملأ أصابعها بالدم . ولو أمر الله الحياة بأن تتفجر لكانت أصابعها ينابيع السحر والجمال .

ومن بعيد رأيت زورقا به نعش وجلس إلى جواره قسيس .. ومن ورائه زورق به المشيعون . فقد جاءوا بأحد الموتى من الشاطئ البعيد ، لينقلوه إلى هذه المقبرة التى هى أقرب إلى منصه إطلاق الأرواح إلى العالم الآخر ..

وابتسمت وأسعدنى أن أتذكر أن د . رءوف . أصبح صديقا . أوكان الصديق الغائب ، ووعدت نفسى أن أراجع كشوف الأعداء .. فليس قليلا أن نكسب صديقا كل يوم ، أو نستعيد صديقا .. وكثير جدا أن نخسر صديقا كل عام !

وكنا قد اتفقنا أن نسافر إلى مدينة تارانتو فى جنوب إيطاليا .. زملائى اختاروا البحر .. وأنا اخترت القطار .. هل هناك سبب ؟ لاسبب إلا أننى أردت أن أكون وحدى . وأن أكون وسط أناس لاأعرفهم . هل سبب ذلك أن أحد الايطاليين قد وصف لهجتى الايطالية بأنها أقرب إلى لهجة أهل الجنوب .. مع أننى لم أذهب إلى الجنوب الايطالى ؟ .. هل لأن ملامحى أقرب إلى ملامح أهل الجنوب الذين هم خليط من الايطاليين والعرب واليونانيين والفرنسيين ؟ .. هل لأننى سعيد عندما يصارحنى بعض الايطاليين بأنهم يدهشون كيف أتكلم هذه اللهجة الايطالية « الصعيدية » وأنا لم أذهب إلى الجنوب ؟ .. ربما .

ذهبت إلى محطة القطار . وأمامى على الرصيف أناس يصرخون ويحركون أيديهم ويتشاجرون . ثم يتخبطون بعضهم فى بعض . ويدوسون الأقدام . ويلقون بالسجائر على الرصيف ، وكذلك بالورق وبقايا الفاكهة وزجاجات النبيذ الفارغة . ويتلقفون الأطفال من النوافذ .. ولم أتعجل أن أركب القطار .. فالرحلة طويلة جدا .. عشرون ساعة .. وربما أكثر .. وعندما بدأ القطار يتحرك تقدمت إلى أقرب عربة وركبت .. ونظرت إلى الرصيف فوجدت أننى نسيت حقيبتى .. وكأننى أتفرج على حقيبة شخص آخر غريب . لم أهتز . ولم أتحرك . ولم أفكر ماالذى يمكن أن أفعله ، وظللت أنظر إليها حتى اختفت تماما .. ورحت أتنقل بين العربات أبحث لى عن مكان .. زحام فى كل شىء ..

الأجساد متلاصقة والأصوات متشابكة .. والضحك والصراخ . . كأنها مولد . . أوكأنها سوق للفاكهة أو الحيوانات ..

أما أروع ما أحسست به فقد وجدت أن ألوف الناس أبعدونى عن نفسى . . لم أعد أجد نفسى .. لم أعد أسمع مايقال فى داخلى . . لم أعد هناك ، إنما كل الناس هناك إلا أنا ؟ ! . الله .. ماأروع أن تغيب عن نفسك . . ما أسعد أن يكون الإنسان ولايكون .. لم تكن ضوضاء . . ولم تكن زحمة روائح . . إنما كانت نشوة غريبة .. لقد أحسست أحيانا كأننى أركب بحرا بالمقلوب . . فالأمواج واقفة . . الأمواج بالطول . . كل هؤلاء الناس أمواج من كل لون وصوت .. وأذكر أننى أسندت ظهرى إلى أحد الأبواب ونمت واقفا .. منتهى الراحة والسعادة فى بحر النسيان ..

القطار توقف عند محطات كثيرة ، ونزل أناس وصعد أناس .. إن القطار هو الدنيا .. هذا يولد وهذا يموت .. هذا يصعد وهذا ينزل ، والقطار لايتوقف . ومن يركب ساعات ومن يركب دقائق . والمسافر مسافة طويلة لايجد مقعدا ، والمسافر لدقائق يجد مقعدا . . والطفل ينام والعجوز تقف . . وهذا وحده مثلى .. وهذا مع أسرته . . دنيا على عجلات من حديد .. دنيا يجرها قطار ينفث النار والدخان . . وأناس ينظرون إلى أمام القطار فيرون المستقبل القريب .. وأناس ينظرون إلى المحطات التى يقترب منها . . وأناس ينظرون إلى ما وراء القطار إلى الماضى .. إلى الذى كان ولن يعود .. وعناق الوداع وقبلات اللقاء . . دنيا . . وأجمل دمعتين رأيتهما على خدى عروس يودعها عريسها الجندى فى إحدى قطع الأسطول ، ورأيت أما ترفع عنقودا من العنب تحية إلى الذين فارقوها . . وبعد أن تحرك القطار ألقت بالعنب على الرصيف فانفرط قطرات من الدموع تحت أحذية غليظة .. ويختنق القطار ..

ووجدت بابا مفتوحا فدخلت . وجلست بالقرب من النافذة . كان الركاب نائمين . وتوقف القطار .. ودخلت سيدة . ونظرت بسرعة . ثم ألقت بطفل صغير نائم على حجرى ، ولابد أنها ذهبت إلى المطعم أو إلى دورة المياه ، ولم أعرف ماالذى أفعله . لقد حملت الطفل الملفوف الرأس والجسم ، وظللت هكذا ساكنا لاأتحرك . فهى سيدة ريفية . فنحن هنا فى أعماق الريف الايطالى الفقير . صعيد إيطاليا . . وبعد لحظات عادت السيدة وأشارت أن أتبعها . وسرت . وكانت السيدة عصبية ، ولم أتبين ملامح وجهها بوضوح . وسرت وراءها إلى عربة أخرى . ووقفت أمام صالون مكتوب عليه : طبيب .

سألها الطبيب : هذا زوجك ؟

فقالت : لاأعرفه .

وكان الطبيب يرتدى البالطو الأبيض ويبدو أنه نام طويلا . وصحا يشرب النبيذ . وأمامه جلست فتاة جميلة يبدو أنها هى الأخرى قد نامت وصحت وغسلت وجهها وسوت شعرها وصبغت شفتيها .

وتستعد للنزول . ولما بدت الدهشة على وجه الطبيب ، قالت السيدة : وجدته جالسا فألقيت إليه بالطفل ، وجئت أبحث عنك . إن زوجى ينتظرنى عند المحطة القادمة وهذه هى المرة الأولى التى يرى فيها ابنه .

قال الطبيب : كم عمره ؟

قالت : سبعة شهور .

وطلب منى الطبيب أن أضع الطفل . ووضعت الطفل النائم . وكشف الطبيب عن وجهه الجميل . وصرخت الفتاة الجالسة أمامه . وصرخت الأم .. لقد كان الطفل ميتا ! ولا أعرف كم من الوقت مضى قبل أن يتوقف القطار وتنزل هذه الأم الشجاعة وتصارح زوجها بهذه المصيبة . ولم أستطع أن أرى الأم . ولم أفلح فى أن أمحو صورة الطفل من عينى وقتا طويلا . . وفجأة قفزت إلى ذاكرتى صورة طفل آخر . . فعندما كنت طفلا صغيرا ذهبت مع والدتى لأن إحدى قريباتها سوف تلد .. وتسللت تحت السرير ، وكانت الغرفة قد امتلأت بكل سيدات الأسرة . . وفوق السرير كانت الأم التى سوف تلد تصرخ وتتقلب وتتوجع . . وكنت أحس أن السرير سوف يقع فوق رأسى .. وسوف يفتضح أمرى .. وأنا أعرف النتيجة مقدما .. ستضربنى أمى وتحبسنى فى إحدى الغرف أو تربطنى بالحبال وتضربنى .. ثم تبكى هى الأخرى .. لاحزنا على ماأصابنى ، ولكن حزنا على حظها من هذه الدنيا .. فلا راحة فى بيت أهلها ، ولا راحة مع أولادها . . وأخذت أبكى تحت السرير من الخوف .. وتأثرا لهذه السيدة التى تبكى .. وفجأة سكن كل شىء . . ونزلت السيدة من فوق السرير .. ورأيتها تجلس عارية تماما على كرسى خشبى . . يشبه الكرسى الذى يضع عليه أبناء الريف الزير ، وهذا الكرسى له فتحة مستديرة .. هذه الفتحة قد جلست عليها السيدة التى سوف تلد . . ومن هذه الفتحة وجدت الداية تسحب مولودا . . ليست له ملامح .. إنما هو قطعة من اللحم الأحمر الغارق فى الدم أو فى اللبن . لم أتبين ذلك بوضوح .. وفجأة تغيرت الأصوات فى الغرفة .. وترددت كلمات : حمدا لله على السلامة .. اسم الله ولد .. اسم الله . . الخالق الناطق أبوه .. ألف نهار أبيض . . وفجأة تعالت الصرخات بعنف . . وانفتح الباب .. ودخل وخرج كل من فى الغرفة ومن فى البيت .. ومشيت من تحت السرير إلى الشارع .. إلى أحد الحقول المجاورة . وأعود مع غروب الشمس لأعرف أن الطفل قد ولد ميتا !

وفى مدينة تارانتو اهتديت إلى الفندق الذى نزل فيه الأصدقاء ، وحمدت الله أننى لم أضع جواز السفر والفلوس فى الحقيبة كما هى عادتى . ودخلت غرفتى وألقيت نفسى على السرير .. وصحوت لأجد كل الزملاء حولى . . ووجدت طبيبا يقول ضاحكا : لم أعرف كلمة واحدة من كل الذى تقول . . زملاؤك هم الذين يعرفون .

لقد كان نومى مروعا . فقد عرفت منهم أننى أصبت بالحمى . . وأننى اعتصرت نفسى عرقا . وأننى رحت أصرخ وأنا نائم . . حتى جاء الأصدقاء . وأتوا لى بطبيب . . وكانت نصيحة الطبيب أن أنام أكثر . . وقد حاولوا أن يجدوا حقيبتى فلم يهتدوا إليها . فقد قرر الطبيب ضرورة أن أرتدى ملابس جافة .

قال أحدهم : ماذا أصابك ؟

– لا أعرف .

قال ثان : لقد ذكرت عددا من أسماء الموتى . .

قال ثالث : والأحياء أيضاً . . فأنت تعجلت وفاة الأستاذ ، فرحت تبكى وتقول : خسارة . . الرجل مات . . خسارة . . مات ونحن فى الخارج . . هذه الرحلة الملعونة . ولن أذكر لك بقية الأسماء التى توهمت أن أصحابها قد ماتوا . . أعوذ بالله . .

وانزعجت . فلم أتصور أن حالتى كانت هكذا سيئة . . ولابد أن يكون سبب ذلك كله أننى منذ التقيت بدكتور رءوف ونحن لا نتحدث إلا عن الموتى والمقابر ، وإلا عن تفاهة هذه الحياة ، وسخف التمسك بها . . مع أننا لم نأخذ من هذه الحياة شيئاً بعد . فكل الذى فعلناه ، إن كنا قد فعلنا ، هو الاستعداد لهذه الرحلة . . رحلة الحياة . فنحن قد حصلنا على تذاكر السفر . . ووقفنا فى المحطة وجاء القطار وركبنا ولم نجد لنا مكانا بعد . . فما نزال واقفين على السلم أو إلى جوار الباب . .

وأزعجنى أن يكون الأستاذ قد مات حقا . . لعله القلق عليه . . أو هو الخوف العام على أعزائنا . . أو هو سفرى المفاجئ وأمى مريضة . . وعجزى عن معرفة حالها . . وكل ما اهتديت إليه هو أننى اتفقت مع صديقى الفنان كمال الملاخ أن يطمئن أمى على حالتى يوما بيوم . . وأن يكتب لها أى عدد من الخطابات ويلقى بها فى صندوق البريد يحدثها عن صحتى . . وأهم شىء هو أننى لا أنام إلا وقد تغطيت باللحاف والبطانية وأغلقت النوافذ والأبواب . . خوفا من الزكام . . أما ما الذى أتناوله من الطعام وما الذى أفعله فإننى أترك لخياله أن يفعل ما يشاء . .

ولكن هذه إذن المرة الثانية التى حلمت فيها بأن الأستاذ قد مات . . وأننا لم نتمكن من السير فى جنازته إلا دقائق قليلة ، لأن النعش قد طار وسبقنا إلى أسوان . . فأصحو من النوم منزعجا للوفاة والجنازة وطيران النعش . .

ومن تارانتو اتصلت بالصديق صلاح يوسف كامل مستشارنا الثقافى . وسألته عن أهم أحداث مصر . . فقال كلاما عاما . . فسألته عن الذين ماتوا والذين ولدوا . .

ولم أجرؤ أن أسأله إن كان أحد من المشاهير قد مات . وكان رده لا أحد .

قلت : من الفنانين ؟

– لا أحد . .
– من المطربين ؟
– لا أحد . .
– من الأدباء من الشعراء من العظماء . . طه حسين مثلا ؟
– يا أخى لا أحد . . من الذى تريده أن يموت ؟ . .
– لا أريد أحدا أن يموت . . ولكن هل أنت متأكد ؟ . .
– أمامى جريدة الأهرام التى صدرت أمس . . وأمامى صفحة الوفيات . . لا يوجد أحد ذو شأن قد مات . .

قلت ضاحكاً : كمال الملاخ ؟ !
– لم يمت . . وإذا مات فسوف يبقى فى تابوت فرعونى ألوف السنين . . هل استرحت ؟ !
– شكرا ! استرحت !

والحقيقة أننى لم أسترح . فقد أفزعنى الطبيب الايطالى على نفسى . هل حقيقة كل هذه الأمراض التى توقع أنها سوف تصيبنى ؟ هل هو فقط يريدنى أن أهتم بصحتى ؟ لا أعرف . ولكن كلما ذهبت إلى فراشى وأغمضت عينى تخيلت صورتى عارى الصدر والبطن وأصدقائى حولى ينظرون . . وكلما استعدت صورة ملابسى الثقيلة وقد مزقها الطبيب لكى أتمكن من التنفس ، وكلما تصورت كيف إن بعض الأصدقاء راحوا يدلكون ساقى وذراعى ورأسى وأنفى وأذنى . . وكيف إنهم أتوا بالماء البارد يلقونه على وجهى وجسمى . . وكيف إن بعضهم راح يخزنى بالإبر فى ركبتى وفى قدمى . وكيف إنهم كانوا يقاومون الموت فى كل مكان من جسمى ، شعرت بالضيق والعار . . فقد مزقونى دون مقاومة منى . . وكيف إن الطبيب أكد لهم أننى فلاح من جنوب إيطاليا ، وأكبر دليل على ذلك أننى وضعت فلوسى فى جوربى ، وأننى رغم حرارة الجنوب قد وضعت صحيفة كاملة تحت قميصى خوفا من برودة الليل مع اندفاع القطار . . وسألهم إن كانت صورة الطفل الصغير التى وجدوها فى جيبى هى لابنى ، فقالوا : ولكنه ليس متزوجا .

وكانت صورة الطفل الذى مات فى القطار . . لقد سقطت من حقيبة أمه ، فأخذتها واحتفظت بها . . واسترحت إلى تشخيص الطبيب بأن حالتى كانت انهياراً عصبيا . ولما اعتدلت فى جلستى ورويت للطبيب ما حدث . استراح الطبيب إلى سلامة تشخيصه . واستراح الأصدقاء أيضاً .

لقد مضى وقت طويل لم نر الأستاذ ، وعندما وصلنا إلى الإسكندرية على ظهر الباخرة اسبيريا تأكدنا من أن أحداً عزيزاً علينا لم يمت . . ولكن عرفنا أن الأستاذ مريض . واتصلت به تليفونيا :
سلامتك يا أستاذ .

قال فى صوت خافت حاول أن يجعله مرحاً أو ساخراً : والله يامولانا . . هذه المرة لقد جاءت « الوقعة » شديدة . . فإذا كنت فى كل مرة أسقط من السرير إلى الأرض . . فإننى هذه المرة أسقط من السطوح إلى الارض . . ولم تعد الصحة تسمح يامولانا . . فليس فى كل مرة تسلم الجرة . . والجرة هذه المرة قد تهشمت قبل ذلك كثيراً . . فلم يبق إلا القليل . . ولكن الحمد لله . . لقد جاءنى الطبيب وتحسنت حالتى . . اليوم أحسن . . وأنت كيف حالك ؟ وأين كنت يامولانا ؟

– كنت فى المنصورة يا أستاذ . . كانت أمى مريضة . .

– وكيف حالها الآن يامولانا ؟ . . من أى شىء تشكو ؟

– وأنت من أى شىء تشكو يا أستاذ ؟ . .

قال : إنه نفس الداء يامولانا . . هذا المصران الملعون . . إنه عندما يتشنج تتشنج حياتى كلها . . كأنه سلك شائك ملتهب . إنه يلسعنى فى كل مكان . . ويعطلنى عن الحركة والتفكير . . والله يامولانا . . ما لهذا المصران ضرورة . . إن نصفه لا نحتاج إليه . . ولابد أن الطب عندما يتقدم سوف يقطع نصف هذا المصران . . تماما كما يفعل الأمريكان فيخلعون أسنانهم ويضعون طاقما صناعياً . . تفاديا لأوجاع التسوس وعفونة ما بين الأسنان وخطورتها على الصحة وعلى العينين . .

– نراك غدا يا أستاذ . .

وفى اليوم التالى ذهبنا جميعا إلى الأستاذ . واتفقنا ألا نذكر له أننا كنا فى الخارج . فهو يضيق أحياناً بذلك ، فلم تتح للأستاذ فرص كثيرة أن يسافر . ثم إنه لا يجدها ميزة كبرى للذين سافروا على الذين لم يسافروا . فالعبرة عنده بالنتيجة . ما الذى استفاده من سافر ، ولم يستفده الذى لم يسافر ؟ فهو مثل طه حسين لم يريا الدنيا . سافر طه حسين إلى أوروبا . فسمع ولم ير . . والأستاذ لم يسافر فكأنه هو الآخر ، لا رأى ولا سمع . . ولم يفلح أحد أن يربط بيننا وبين أوروبا كما فعل الرجلان . . ربطنا العقاد بالحضارة الأنجلوساكسونية ، وطه حسين ربطنا بالحضارة اللاتينية . . وكان الرجلان أعظم جسور النهضة المصرية الحديثة . .

ثم إننا لا نحب أن نسجل على أنفسنا أننا تغيبنا كل هذه الفترة دون أن نتابع أخبار الأستاذ . . أو حتى دون أن نشعر غريزيا بأنه مريض . . ربما كنت وحدى الذى أحس بهذا المرض أو تنبأ بوقوعه . . تماماً كما توقعت وفاة أبى . .

وجاء الخادم يقول لنا : بل الأستاذ ينتظركم فى غرفته . .

وتسابقنا . وصافحت الأستاذ ، وضغطت بيدى الاثنتين على يده . . وكدت أعانقه . ولكنى لم أستطع . واصطدمت ببعض الآنية أمام السرير . وجلست على أقرب المقاعد إليه . وجلس الزملاء إلى جوارى وورائى . .

كان الأستاذ مريضا حقا . فالوجه شاحب . والصوت خافت . وفى العينين انكسار ، ولكن فى حركة العينين وفى لمعانهما نوع من التحدى للمرض . وعلى الرغم من أن الطبيب قد نصحه بأن ينام أكثر الوقت ، فإنه قد اعتدل فى جلسته . ووضع المخدات وراء ظهره وأمال الطاقية إلى الأمام . واعتدل رأسه الكبير فوق كتفيه . وكانت يده اليمنى هى التى ظهرت من تحت اللحاف ، أما يده اليسرى فقد استقرت على الجانب الأيسر من البطن فوق المصران . وعندما كان يتحدث عن الطب والأطباء كان يردد ما نعرفه : إنهم يامولانا لا يعالجون المرضى . . إنهم يعالجون المرض . خطأ يامولانا . إن المرض واحد . . وأعراضه ربما واحدة . ولكن كل مريض بشكل مختلف ولون وجسم ونفس وعقل وقلب . ولذلك فأنا أضيق بالأطباء الذين يسمعوننى أصف أوجاعى ، ثم لا يكلفون أنفسهم مشقة أن يمدوا أيديهم إلى جسمى وإلى طعامى وإلى العقاقير التى جربتها قبل ذلك . . إنهم جماعة من العميان يداوون من لا يعرفون ومن لا يرون . . وقد غضب منى بعض الأطباء عندما قلت لهم : سوف أحدثكم بالتليفون . . لم يفهموا مكان السخرية فى هذا الذى أقول . . إننى أريد أن أقول لهم . . اذهبوا إلى بيوتكم وافتحوا مراجعكم واقرأوا باب « المصران الغليظ » وقارنوا بين الذى أقول وبين الذى تعلمتم . . هذا يامولانا ليس طبا . . إنما هم طلبة قد ذاكروا دروسهم واكتفوا بهذا القدر . . ولذلك فهم ليسوا فى حاجة إلى زيارة المريض . . إننى أعرف الطبيب العبقرى على إبراهيم . كان جراحا . . وكان يكفيه أن يرى العضو المريض ليبتره . . ولكن على إبراهيم لم يكن يفعل ذلك . . كان يجلس إلى المريض ويخفف عنه . . وعن أسرته . . وفى إحدى المرات قال لى أحد المرضى : إن على إبراهيم جلس إلى جواره وراح يشرح له ما سوف يفعله حتى نسى المريض أنه هو المريض . . وخيل إليه أن المريض هو على إبراهيم . . إلى هذه الدرجة كانت عبقريته فى الاقتراب من المريض حتى يكاد يكون هو والمريض إنساناً واحداً . .

وفى مرة أخرى أتيت بسبعة من الزملاء من كلية الطب . . ورأوا الاستاذ لأول مرة ، وقدمتهم له على أنهم من كليات مختلفة . . وعندما لاحظ الأستاذ أن واحدا منهم ، دون وعى منه ، قد امتدت يده يقرأ الزجاجات إلى جواره سأله الأستاذ : أنت طبيب يامولانا ؟

فأجابه : نعم يا أستاذ . . ولكنى لم أتخرج بعد . .

سأله الأستاذ : وتهتم بالأدب والفلسفة ؟

قال : نعم .

وظهرت البهجة على وجه الأستاذ قائلاً : إذن فهنيئا لمرضاك يامولانا .

– شكرا يا أستاذ . .

وخرجنا من هذه الزيارة نتساءل : أهو المصران الغليظ حقا ؟

لم يتفق الأطباء الشبان على أنه المصران . وإن كانوا قد قالوا : لابد أنه المصران مادام هذا العدد الكبير من الأطباء قد شخصوا له ذلك . .

قال أحد الأطباء : ياأخى أنت غلطان . لماذا لم تقدمنى على أننى طبيب لكى أكشف عليه ؟ . . . إنه رجل لطيف . . ولكن شحوب وجهه وشحوب البياض فى عينيه . . وشحوب أظافره ، يؤكد أنه ليس مصابا بالمصران الغليظ فقط . . أو أنه بسبب المصران أو الجهاز الهضمى كله ، قد أصيب بأشياء أخرى لا أعرفها . . ولا أستبعد أن يكون عنده شىء ما فى القلب . .

وقاطعه طبيب آخر : القلب ؟ إن له قلبا سليما . . ألم تره وهو يضحك ؟ ! . . إن الدم يرتفع إلى وجهه كأنه طفل .. فهل لوكان قلبه مريضاً أو ضعيفاً ، يدفع الدم بهذه الفزارة إلى وجهه ؟ لابد أن الأطباء قد نصحوه بنظام معين فى الطعام . . ولابد أن هذا الطعام المسلوق أو انعدام الطعام مع الإرهاق وقلة الحركة وعصبيته قد جعلته هكذا كما ترى . . إنه عصبى جدا . . لقد رأيت يده ترتعش . . يده التى تحت اللحاف . . يده اليسرى . . من يدرى ؟ ربما أصيب الأستاذ بمرض باركنسون أى المرض الرعاش وهو لذلك يخفى يده تحت اللحاف . .

قال طبيب رابع : لم يصب بهذا المرض . . والدليل على ذلك أن يده اليمنى لا ترتعش . . إننى رأيته عندما أخرج يده اليسرى وراح يصفق للخادم . . لم ترتعش لا اليمنى ولا اليسرى . .

– أنا رأيت رعشة فى اليدين . . ولكن بسرعة أخفى ذلك .

– ولكن يده التى نراها لا ترتعش ، وهذا المرض الرعاش يصيب اليدين معا . .

– لقد لمحت إحدى الروشتات . . الشىء العجيب الذى لم أجده هو أن أحدا من الأطباء لم يكتب للأستاذ حبوبا ملينة . . كيف يصاب إنسان بالمصران الغليظ . . من تشنج المصران ، ثم يبقى مدة طويلة فى البيت . ولا يصاب بالإمساك ؟ . . لابد أن يصاب بالإمساك فكيف لا يكتب له الأطباء أن يتعاطى حبوباً ملينة ؟ !

– ربما عنده الكثير منها .

– ولكن لابد من إعطائه حبوبا أخرى غير التى يتناولها . .

– شىء عجيب ألا يتناول أى نوع من الملينات .

– ربما كان عنده إسهال حاد . .

– مستحيل ، فالإمساك هو أهم أعراض المصران المتشنج ! !

وفى زيارة ثالثة لم يكن لدينا أى استعداد لأن نستمع إلى الأستاذ يتحدث فى أى شىء آخر . . إننا نريد أن نعرف من أى شىء يشكو ؟ . . ومتى تخف آلامه ؟ . . وما الذى قاله الأطباء ؟ ومتى ينهض من فراشه ؟ . . ولكن الأستاذ اختار موضوعا غريبا تماما . مفاجئا . هل كان الموضوع

مفاجأة ، أو أن هناك مقدمات له ؟ لم أستطع أن أعرف بوضوح ، فقد سرحت كثيراً وأنا أجلس إلى الأستاذ . . وانشغلت عنه بالحزن عليه إذا مات . . وانشغلت بتحليل هذه العلاقة التى تربطنا به . . وأحسست بأننى فقدته فعلا . وندمت فى حضوره على أننى وأننا لم نعطه وقتاً كافياً ، فليس فى دنيانا أحد فى مثل حجم ووزن وعمق وطول وعرض الأستاذ . . وعندما كنت أنظر إليه فى الفراش ، أرى الفراش كبيراً كأنه حمام سباحة ، والأستاذ ليس إلا رأسا طافيا على سطحه . . أما حركة المرور فى الشارع التى تعكس أشعة الشمس على زجاج النافذة وعلى وجه الأستاذ فليست إلا مثل كرابيج الرعد والبرق تنهال على رأس الأستاذ . . تماما كذلك البطل الأسطورى الإغريقى داياناس الذى حكمت عليه الآلهة بأن تضربه بسياط البرق إلى الأبد – إنه عذاب المفكرين والفنانين . . أن تكون رءوسهم فى السماء ، وأن يكون عذابهم هناك . . فإذا سقطوا كان لهم دوى . . كما ارتفعوا فى النور وإلى النور ، فإنهم يتساقطون فى النور . . وتكون مشانقهم حبالا من الضوء القاتل : حبالا من البرق والرعد !

وأحيانا أرى سرير الأستاذ كأنه زورق صغير من الورق . . والأستاذ تمثال رمسيس الثانى وقد استقر بمعجزة على هذه النكتة المصنوعة من الورق . . فهو أكبر من الزورق وأكبر من الماء . . وهو ضد قوانين الطفو .. مصنوع من الرخام ومع ذلك يطفو على الماء . . فليس إنساناً عاديا تنطبق عليه القوانين العادية للناس . . فهو خارق لقوانين الطبيعة . .

وفجأة وجدت الأستاذ يقول : والله يامولانا لو أعطانا الله الصحة لكتبت تفسيراً حديثاً للقرآن الكريم . .

وفجأة سمعت الأستاذ يقول : يا ألله . . ياللطيف . .

إنه يقول : ياألله . .

وهو يقول : يا لطيف . .

الرجل قد ضعف تماما . ولم يخف ذلك عن أحد . إنه يطلب الشفاء من الله . ويطلب منه اللطف . أدهشنى ذلك كأننى لم أسمع هاتين الكلمتين من قبل . . ولكن أن يقولهما الأستاذ وبهذا الانكسار فهذا حدث جليل . .

آمنت بالله ورحمة الله وتمنيت لطف الله بواحد من أعز الناس علينا . .

وأوجعنى مرضه المفاجئ كثيراً . . شفاه الله !

المــريضُ .. أسْــتاذاً !

عرفت نوعا غريبا من الملل والميكانيكية .. فقد كان هناك سؤال واحد يجب أن أجيب عنه . وضايقنى ذلك . وحاولت أن أجعل الإجابة واحدة ولكن بعبارات مختلفة . وكانت إجابتى ميكانيكية . فلا يكاد أحد يسألنى : كيف حال الأستاذ الآن ؟ .. حتى تتغير ملامح وجهى . وأحاول أن أعدل بين الحزن عليه واليأس من شفائه . أى أننى أحاول أن أكون حزينا بحساب ، ويائسا بقدر . وأن يختلط كل ذلك بالعلم ببواطن الأمور . أما أننى عليم ببواطن أمور الأستاذ فصحيح . وأما أننى أحاول العدل المستحيل بين مرضه الشديد الذى لن يؤدى إلى موته القريب . فكان أمرا شاقا ..

سألنى د . طه حسين ، فقلت : والله يا دكتور إنه مريض جدا ..

ويسألنى : هل لابد أن يلزم الفراش طويلا ؟

– نعم . هذا ما لابد منه . ولكنه يرفض أوامر الأطباء ..

ويضحك د . طه حسين قائلا : وهل كان يقبل أوامر أحد؟ .. ولكنى سمعت أنه يشكو أول ما يشكو عند كل صباح من أوجاع فى الجانب الأوسط من البطن .. وليس من الجانب الأيسر كما يقول هو ..

قلت : إن الوجع يمتد من الجانب الأيسر إلى الأيمن ، مارًّا بوسط البطن ..

سألنى : ولكن هل يستبقى الطعام فى معدته ، أو أنه يعيده فور تناوله ؟ .

قلت : أحيانا يفعل ذلك ..

قال : وهل يصاب بعرق كثير؟

قلت : نعم ..

قال : وهل يكون ذلك كلما بذل مجهودا ، أو دون أن يفعل ذلك ؟

قلت : دون أن يفعل ذلك .

قال : وهل يضع يده على قلبه ؟ .. وهل ترتفع ضربات قلبه وتنخفض .. وكذلك درجة حرارته ؟ ..

قلت : يحدث كل ذلك يا دكتور ..

قال : إذن كان الله فى عونه ! ..

ويبدو أن د . طه حسين كانت لديه معلومات أخرى غير التى يعرفها الأستاذ عن نفسه ، أو غير التى يقولها الأطباء ولا يصدقها ولا يصدقهم ..

سألنى الأستاذ توفيق الحكيم قلت : إنه المرض الذى لازمه طوال حياته : المصران الغليظ ..

قال الحكيم : ولكنه يتناول الطعام المسلوق .. إنه الوحيد بيننا . إننى أخبط فى الطعام .. وطه حسين أيضا .. ولكنه الوحيد بيننا الذى تنبه إلى أن الطعام المسلوق هو الطعام الصحى .. إذن فلابد أن يكون الإرهاق . إنه يعمل كثيرا .. أو إنه عصبى .. والعقاد عصبى رغم هذه الواجهة الصارمة التى يطالعنا بها .. وهذا الانضباط النفسى .. إنه يحقق هذا الانضباط بضغط شديد على أعصابه .. إنه « ليس على راحته » فى معظم الأحيان .. ومادام الإنسان هكذا عصبيا ، فلابد أن يكون لذلك أثر على أعصابه وعلى مصرانه وعلى معدته .. والغريب أنه يعرف ذلك .. فكيف يعرف ذلك ثم لا يتحكم فى نفسه ؟ .. أليس معنى ذلك أن الإنسان من الممكن أن يتحكم فى كل شىء وكل أحد .. إلا نفسه ؟ .. إننى عندما أرى العقاد يمشى . يخيل إلى أنه يدق نفسه فى الأرض دقًا .. بينما الإنسان يمشى عادة يقاوم جاذبية الأرض .. فهو يمشى كما تطير العصافير ، أوكما ينساب الماء فى الجدول .. بأقل مجهود ممكن .. وإنك لترى المرأة تمشى على كعب مدبب .. ويخيل إليك أنها سوف تقع يمينا أو شمالا أو تتكفىء إلى الأمام .. ولكن التوازن والخفة يعطيانك انطباعا كأنها تطير .. أوكأن الأرض تحملها لتوفر عليها أن تحمل هى نفسها .. إلا العقاد .. فهو يقتلع جسمه من الأرض ثم يغرسه بقوة .. هذه القوة هى المجهود العقلى والعصبى الذى يبذله فى كل شىء ..

والأستاذ الحكيم أقرب فى تشخيصه لمرض الأستاذ إلى مايقوله الأستاذ عن نفسه .

وسألنى الحكيم : إن كنت أرى الأستاذ كثيرا .

فقلت : نعم .

قال : سلم عليه وقل له يشد حيله .. إنه قد تغلب على صعوبات كثيرة فى حياته بقوة إرادته .. ولابد أن يتغلب على هذه المحنة العابرة ..

قال لى الأستاذ : إن الذى قاله لك طه حسين يدل على أن لديه معلومات جيدة عن المرض .. ولكن المرض الذى يتصوره طه حسين ليس هو مرضى .. إنه قد استمع طويلا إلى رأى الأطباء .. وأنا أعتقد أن طه حسين قد سأل عددا كبيرا من الأطباء ليعرف نوع مرضى ، لعله يستطيع أن يتى نفسه منه . إنه يخاف من العدوى .. ولذلك اختار لى مرضا لا ينتقل بالعدوى إليه .. إنه يريد أن يقول إننى مريض بالقلب .. إن طه حسين قد عرف شيئا وغابت عنه أشياء .. لأن أعراض أمراض القلب ليست هى التى أشكو منها .. إننى أعرف مرضى جيدا .. لقد صاحبنى وصاحبته طويلا .. وعاندنى

وعاندته .. إن الأطباء منعوني من الأطعمة الحريفة والشديدة الملوحة . ولكني خالفتهم . وأكلت الفسيخ والشطة ، أريد أن أعرف مدى احتمالي لهذا الوجع .. واكتشفت أن الذى يوجعني ليس المعدة . فقد كان الأطباء يتصورون ذلك . وكنت أقطع بأن الذى عندى هو المصران اللعين .. ولا شيء سواه . فصدقت بينما أخطأ الأطباء .. كما أخطأ طه حسين أيضا ..

قلت : والله يا أستاذ إن زملائى الشبان طلبة الطب لا يرون رأيك ..

قال : يا مولانا وكيف يرون رأيي .. إنهم صغار .. إنهم ما يزالون طلبة .. إن مرضى لم يرد فى كتبهم . إنه مرحلة متطورة معقدة لأزمات وتشنجات المصران الغليظ .. ولابد أن تكون له مضاعفات لا أعرفها .. وربما عرفتها هذه الأيام حين أمتنع عن تعاطى كل هذه العقاقير التى جربتها ، والتى يتوهم الأطباء أنها جديدة مبتكرة ! ..

قلت : الأستاذ الحكيم لا يستبعد أن يكون إرهاقا عقليا وعصبيا ..

قال : إن الذى يقوله أخونا توفيق ليس تشخيصا لمرضى ، إنه تشخيص لصحتى . فأنا فى حالة عمل وفكر مستمرين ، فكيف لا أكون مرهقا عقليا وعصبيا وعضليا ؟ .. إن أخانا توفيق الحكيم يرى بأصابعه .. فهو يمد يده إلى وجهى وإلى جسمى فيجدنى لا أكف عن الحركة ، فيقول : إننى ما أزال حيا .. فهل هذا تشخيص يا مولانا ؟ ! .

قلت : بل إنه يرى أن الإرهاق الشديد ، واستخدامك للعقل فى كل شيء حتى فى الأعمال التى يؤديها الإنسان بلا تفكير ، يرهقك .. فهو يقول إن الذى يراك تمشى يخيل إليه أنك تمشى بمجهود عقلى وعضلى .. وطبيعى بعد ذلك أن تتعب جميعا .. أن يتعب جسمك وعقلك .. ويكون أثر ذلك واضحا على معدتك ومصرانك الغليظ ..

فقال : يامولاى لو كانت صناعتى مثل صناعة أخينا توفيق لهان أمر الدنيا .. ما الذى يفعله الحكيم ؟ إنه يصنع التريكو .. كلمة من هنا وكلمة من هناك .. ويضحك على القارئ ، وانتهى كل شيء .. إنه لا يتعب ولا يتعذب يا مولانا ..

قال أحد الزملاء : ولكن وراء هذا التريكو عملا عقليا .. ولكنه حريص على عدم إبداء هذا المجهود الهائل الذى يبذله ، تماما مثل دودة القز .. أو مثل النحلة .. أو حتى مثل الزهور التى تتفتح على مهل ، ولكن وراء تفتح الزهور عمليات كيميائية وطبيعية وحكمة إلهية لا تبدو للعين .. ولكنها موجودة هناك .. إن الحكيم مثل الأجهزة التى تعمل دون أن يكون لها صوت ، مثل الساعات التى ليس لها صوت .. وليس مثل وابور الطحين أو قطار السكة الحديد .. إنه مثل الهواء الذى يتحرك ولكن لا نراه .. مثل الضوء الذى ينطلق ولكن لا نسمعه ..

قال الأستاذ : من أنت يا مولانا ؟ ..

قلت : إنه د . عبد الرحمن الصاوى ، تخرج فى السوربون ، وتخصص فى القانون الدولى ، ويكتب الشعر والقصة ، وكانت أول دراسة له باللغة الفرنسية عن كتابك يا أستاذ « هذه الشجرة » ثم عن كتابك « فاطمة الزهراء » .. وهو من أشد الناس إعجابا بك ..

قال : يا مولانا كأنك جئت تعلم العقاد كيف يكون العمل المرهق عقليا والمرهق عضليا والمرهق عصبيا .. يا مولانا إننى أتلقى أعمالا أدبية لشبان فى مثل سنك . تجىء إلينا فى المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون .. اذهب واسأل السيد يوسف السباعى ، فستجد إلى جوار مكتبه أكواما من الكتب والدواوين .. وسوف تجد على بعض الدواوين تعليقات لى .. من بينها : « هذا مجهود عضلى » . أى أن صاحب الديوان راح ينقل الكلمات ، الواحدة إلى جانب الأخرى ، ثم يذهب إلى البقال يزنها بيتا بيتا ، ثم يزن الورق أيضا .. إنه ليس شاعرا إنما هو شيّال كلام موزون .. وسوف تجد تعليقات أخرى تقول « هذا مجهود عصبى » . فصاحب الديوان لا يكف عن البكاء والتأوه .. ويمسح عينيه .. ثم يربط حزاما على بطنه ويتقلب على الأرض ويتصبب عرقا .. هذا الذى يفعله ليس إلا تسجيلا لحالة من حالات الولادة .. أو لنوع من الحمى .. وهناك تعليقات تقول « هذا مجهود عقلى » . أى أن صاحب الديوان قد فكر كثيرا . وكان الشعر نتيجة لهذا التفكير ، ثم نسى أن يجعل لأفكاره وزنا أو موسيقى .. فهو صاحب فكر وليس صاحب ذوق .. ولكن الذى يفعله أخونا توفيق الحكيم هو نوع من خفة اليد .. فهو رجل عنده بكرة كبيرة من الخيط ، وهو يقطِّع الخيوط إلى جمل قصيرة .. ثم يربطها بعضها فى بعض .. وأحيانا تدخل الإبرة فى عينيك وأحيانا فى بطنك فتضحك .. والذى يضحكك أمران : أنه هو الذى دغدغك ، وأنه قد ضحك عليك فى النهاية ..

قال د . عبد الرحمن : الفن كله يا أستاذ هو أن أحدا يفلح فى أن يضحك على أحد .. ما المسرح وما الموسيقى وما الشعر .. وما الرسم ؟ .. إننا أمام شخص بارع فى ضحكه علينا .. فى إيهامنا أن الذى نراه ونسمعه حقيقة .. مع أنه وهم عظيم جميل .. وأنت يا أستاذ عندما حاولت أن تؤكد لنا أن قصة « سارة » حقيقة واقعة ، لم يكن ذلك عملا فنيا .. إنما هى اعترافات .. ولا أحد يطلب منك أن تقول الحقيقة يا أستاذ .. اكذب ماشئت ، ولكن براعتك فى أن توحى إلينا أن الذى تقوله له أساس من الواقع .. ولذلك فأنا أميل إلى رأى أخينا أنيس منصور فى تصوره لحكاية الآنسة مى .. أنها من صنع الأدباء والشعراء ، وأنها مثل أكذوبة ليلى وبثينة وعزة وجولييت .. إن مى زيادة عمل فنى وليست قصة حقيقية .. وإنها هكذا أجمل .. وإن قصة سارة حقيقة ، وليست عملا فنيا .. إن قصة سارة ليست إلا هامشا متواضعا جدا لكتابك « هذه الشجرة » .. وأنا أضع الحكيم بين كبار الفنانين فى الأدب المصرى الحديث .. وقد تناقشت فى ذلك مع الأخ أنيس منصور ، ولم نختلف فى شىء .. وإن كان من رأيه أن الحكيم لا يجب أن يقال عنه إنه مفكر أو إنه فيلسوف .. إنه يخجل من ذلك ..

إنما يجب أن يوصف بأنه رائد القصة والرواية والمسرحية .. إنه « آدم » الأدب الحديث .. ثم يترك آدم الفكر والفلسفة والنقد لك وحدك متفردا .. أو يشاركك طه حسين فى بعض ذلك ..

لابد أن صرخة الأستاذ بعد ذلك سببها أنه ضاق بهذا الحوار.. فوضع يده على الجانب الأيسر من بطنه .. ثم على صدره ثم نام على جانبه وأدار ظهره لنا .. وكتم آهة .. ونظرنا بعضنا إلى بعض عندما وجدناه يسحب الغطاء ، وخرجنا .

ويقول بعضنا إنه سمعه .. يستأنف الحوار.. أوكانت لديه هذه الرغبة ..

وقابلت ابن أخيه وسكرتيره الأستاذ عامر العقاد ، وقال بلهجته الصعيدية : جرى إيه ؟ .. أنتم ضايقتم الأستاذ .. إنه ما يزال يتحدث كما لوكنتم فى غرفة النوم معه ..

قلت : لا .. إننا كنا نتحدث معه كما هى العادة . ولكنه يتألم بشدة . من الذى زاره أمس ؟ .

قال : عدد كبير من الأطباء ..

قلت : والتشخيص ؟ ..

قال : اختلفوا معه .. هو يقول المصران الغليظ .. وهم يقولون اضطرابات فى الجهاز الهضمى .. وآخرون يقولون : القلب .. ويرون أن الراحة الطويلة ضرورية ، ولكنه يرفض ذلك ..

وتقدم من الباب الخارجى رجل يقول : أنا د . موسى إبراهيم جبيلى .. صاحب العيادة على ناصية الشارع .. أنتم بعثتم فى طلبى .. هل أستطيع أن أرى سعادة البيه ؟ .. هل هو نائم ؟ .

فقيل له : تفضل ..

ووقفنا إلى جوار الباب . ودار الحديث ، الذى نعرفه ، هكذا :

الأستاذ : من أنت يا دكتور ؟ .

قال : أنا جارك يا سعادة البيه .

قال الأستاذ : أنا أريحك .. أنا جربت كل هذه العقاقير.. وأنا دائم الشكوى من المصران الغليظ .. وأنا أتعاطى الحبوب الملينة منذ ثلاثين عاما . لم أتوقف يوما واحدا .. فأنا أساعد معدتى على الهضم ، وأمعائى على الامتصاص .. وأحرك الطعام فى أمعائى بالقوة .. ولو تركت بطنى دون مساعدة ، لتوقف الطعام ومخلفات الطعام فى بطنى .. وربما أدى ذلك إلى وفاتى .. وذلك بأن تتعفن أحشائى ، فلا أملك إلا أن أضيق بنفسى فأنتحر .. وكل الذى فعلته من ثلاثين عاما هو أننى تفاديت أن يصبح بطنى قبرا للعقاد .. وإن كان كل إنسان ليس إلا قبرا متحركا .. ولا يوجد عقار للمعدة أو الأمعاء لم أجربه .. ولكن فى الشهور الأخيرة استعصت الأمعاء على العلاج .. ولم أعد قادرا على احتمالها .. هذا كل ما هناك يا مولانا ..

ووقفنا ننتظر ما الذى يقوله الطبيب .. ولم يقل شيئا ، وراح يقيس له الضغط والنبض ، ويجلسه

ويقيمه ويضغط على بطنه ويدق ظهره .. وأخيرا قال له: هناك شيء يا سعادة البيه فى القلب .. وليس فى المعدة ولا المصران .. ولابد من تحليل الدم ورسم الأشعة ..

قال الأستاذ : شكرا يا دكتور .. يا ولد يا عامر ..

ودخل الأستاذ عامر العقاد . وسمعنا الأستاذ يقول : من الذى أتى بهذا الطبيب اليهودى ؟.. ألم تجد غيره ؟ ..

وكان الطبيب قد خرج ، ثم عاد الطبيب ليقول لنا : لابد من إعطائه حقنة نوفالجين .. لابد لكى تهدأ أعصابه ..

ودخلنا للأستاذ ، فقال : لا .. بل حقنة مورفين .. أريد أن أغيب عن الوعى .. إن عقلى يوجعنى .. إننى أريد أن أستريح من كل شىء .. هاتوا الدكتور .. يا دكتور أعطنى حقنة مورفين .. نعم مورفين قلت لك ..

قال الدكتور : يا سعادة البيه لا أستطيع ذلك خوفا على قلبك ..

قال الأستاذ : لا تخف على قلبى .. إن القلب الذى لا يتحمل العقاد ، فإن العقاد لا يتحمله أيضا .. إذا توقف القلب بسبب هذه الحقنة ، فإنه قلب لا يساوى أن أعيش به .. أعطنى ..

قال الطبيب : لا أستطيع يا بيه ..

قال الأستاذ : هذا قلبى وأنا حر .. هل تريد أن أكتب لك طلبا .. هل تريد أن أسجل على نفسى أننى المسئول عن الذى سوف يحدث .. أنا مستعد .. ألا يكفى هؤلاء الشهود ؟ ..

قال الطبيب : آسف يا سعادة البيه .

قال الأستاذ : إذن فأعطنى حقنة نوفالجين .

وأعطاه الطبيب حقنة نوفالجين .. وبعدها نام الأستاذ ..

ذهبت إلى د . عبد القادر حاتم وزير الثقافة والإرشاد . وهو رجل لطيف رقيق مجامل . وسألنى : طبعا كنت عند الأستاذ العقاد : كيف حاله الآن ؟ .. سمعت أنه مريض .. وفى نيتى أن أزوره عندما تتحسن صحته .. وقد علم الرئيس جمال عبد الناصر بمرضه ، وسألنى عنه أكثر من مرة .. كيف حاله الآن ؟ .

قلت : مريض يا دكتور .. وكان من رأيه أن يفسر القرآن الكريم تفسيرا جديدا . وأن نسجل له ذلك . وطلب أن نختار البداية التى تعجبنا . فاقترحنا عليه أن يبدأ تفسير القرآن من سورة الرحمن .. ثم سورة « هود » التى قال عنها الرسول عليه السلام : شيبتنى هود وأخواتها .. وشرح لنا لماذا قال الرسول ذلك ..

قال د . حاتم : فكرة عظيمة جدا ، وأنا موافق فورًا .

قلت : ولكن حالته الصحية لا تسمح الآن . . تماما كحالته المالية . .
قال د . حاتم : إذن ندفع له مقدما . . وهذا سهل . .

* * *

سألنى مصطفى أمين : إن كان الأستاذ قادرا على الكتابة . .
فقلت : لن يستطيع ، وأنا أقترح أن تبعث له بخطاب يكون وثيقة تاريخية . . تدفع له مقدما لما سوف يكتبه .
ووافق مصطفى أمين . وحملت الخطاب إلى الأستاذ . ولكنه رفض أن يتقاضى مقدما . قائلا : مادمت لم أكتب ، فهذا الذى تريدونه : صدقة أو شفقة أو إحسان . . أرفض مع الشكر . .
وفى ذلك اليوم زاره إبراهيم باشا عبد الهادى ، وجلس عند طرف السرير . وعندما خرج ترك عند قدميه مجلة ، وفى المجلة مبلغ من المال . . فلما حرك الأستاذ قدميه سقطت المجلة والفلوس . . ونادى الأستاذ : ياعامر . . ياعامر . . اذهب وراء معالى الباشا وأعطه هذه الفلوس واشكره . .
وفى المساء جاء د . محمد عطية . . طبيب القلب المعروف والذى يعالج إبراهيم عبد الهادى باشا ، وهو من أقاربه أيضاً . .
وكان من رأيه أن الأستاذ ليس مصابا بالمصران الغليظ فقط إنما هو مصاب فى القلب . . ف الشريان التاجى . . لاشك فى ذلك . .
ونادى الأستاذ العقاد صديقه د . ياسين عليان . الطبيب المشهور ، وهو من أسوان . وكان تشخيص د . عليان : القلب والشريان التاجى . .
وأتيت له بالجراح العالمى جمال بحيرى . . ولم أشأ أن أخبر الأستاذ أنه جراح . وإنما هو طبيب كبير أريد أن يسمع ما يقوله الأستاذ . وما قاله الأطباء الآخرون . وأن يقنعنا نحن تلامذة الأستاذ بحالته الصحية . .

* * *

وجلسنا فى مواجهة الأستاذ . وحكى الأستاذ قصته بالتفصيل . وكيف بدأت أوجاع المصران ، وكيف عالجها ، وكيف تمرد عليها . . ثم أشار إلى كل العقاقير . وخرج د . بحيرى ، وسألته : هل صحيح مايقوله الأستاذ ؟ قال : مائة فى المائة . . ولا أظن طبيبا متخصصا يعرف أفضل من ذلك . .
قلت : والعلاج ؟ . .
قال : لابد أن يقتنع الأستاذ بأن هناك معلومات أخرى فى الطب غير التى لديه . . وأن إحساسه من الممكن أن يكون صحيحا . . ولكن هناك احتمالات كثيرة لأمراض أخرى . . القلب مثلا . . لا أستبعد ذلك . . ولكن المشكلة هنا ليست مشكلة المرض . إنما هى مشكلة المريض الذى يرفض

المرض والطب والأطباء . . إنها مشكلة نفسية . . ومطلوب طبيب قادر على أن يتغلب على عقل هذا المريض غير العادى . .

وسألنى الأستاذ : من هذا ؟ .

قلت : إنه جراح عالمى . .

قال : إنه جراح تجميل . .

قلت : ولكنه أستاذ كبير . . وقد جئنا به يا أستاذ لأنه متفوق فى الجراحة وفى الأمراض الباطنة وفى القلب . . ولم يختلف فى تشخيصه عن بقية الأطباء . . إن الذى تشكو منه يا أستاذ هو القلب . . قلبك يا أستاذ . .

قال الأستاذ : يامولانا . . هل تظن أننى أريد الحياة ؟ . . إننى لا أريدها . . إن الحياة التى لا تريد العقاد ، فإن العقاد لا يريدها . . بل إننى أنبذ الحياة قبل أن تنبذنى . .

سألنى الأستاذ على أمين : ولم يفلح أحد فى إقناع العقاد بأنه مريض بالقلب ؟ .

قلت : لا أحد . .

قال : ولا حتى كل التلامذة الذين يحبونه ؟

قلت : لا أحد . .

قال : ولا الأطباء ؟ . .

قلت : لا أحد . .

قال : أريد أن أذهب إليه وأقول له ، قد تكون أعظم الأدباء فى الدنيا ، ولكن أعظم الجهلاء فى الطب . . وبنفسك أيضاً . ويجب أن تتواضع أمام الذين يعلمون أكثر منك ، ثم لا يريدون إلا حياتك . .

قلت : اطلبه فى التليفون . .

قال : فكرة .

وطلب الأستاذ فى التليفون وقال : أنا على أمين أريد أن أكلم الأستاذ العقاد فى موضوع هام جدا . . لا يستطيع ؟ . ولكن هذا ضرورى . . إن التليفون لا يصل إلى السرير ؟ .

وانتهت المكالمة ، وقال الأستاذ على أمين : تصور أن تليفون العقاد لا يصل إلى سريره . . لقد نسى أن يتعلم كيف يتكلم وهو نائم .. أى كيف يأتى بكل الناس إلى فراشه .. لا بد أن يذهب إليهم . . أن يذهب إلى أصواتهم . . فإذا جاءه الناس ، وكانوا أطباء ، رفضهم كأنه لا يريدهم فى غرفته . . أو فى فراشه . . إنه رجل مجنون ! . .

وكانت هذه أول مرة أسمع فيها من يصف الأستاذ بهذه الكلمة وتضايقت جدا . . ولكن عندما

تذكرت أن على أمين يطلقها على أى حد لأى سبب ، استرحت إلى أنه لا يقصد ذلك . . ثم تذكرت أن على أمين هو أحد كبار الرافضين للمرض فهو يتساقط على مكتبه .ويجيء إلى « أخبار اليوم » حافيا لأن قدميه لا تقويان على ضغط الحذاء . . فهو أشهر مرضى النقرس . . ويسخر من نفسه ومن الملوك عندما يقول : إنه مرض الملوك .

ولكنه أحد ملوك الصحافة الحديثة . . فهذا هو المرض المناسب للشخص المناسب فى المكان المناسب . .

* * *

وذهبت إلى د . طه حسين ، وقلت : ألا توجد وسيلة لنقل الأستاذ إلى المستشفى ؟ . .

قال : لقد رفض ياسيدى . .

قلت : ألا توجد وسيلة ليلازمه أحد الأطباء . . أو أكثر من طبيب ليلا ونهارا ؟

قال : لقد رفض ياسيدى كل ذلك . . رفض الطبيب المقيم والطبيب الزائر . . ورفض أن يتزوج أيضاً من عشر سنوات ، لقد عرضنا عليه أن نزوجه سيدة عظيمة الاحترام والجمال ومن أشد الناس إعجابا به . . وزارته فى بيته . . وزارها . . وأسعدنى ماكان بينهما . . وفجأة أحست السيدة أنه طردها من حياته . . فقد أخطأت فى الحديث معه . فهى ابنة طبيب كبير . . وطلبت إليه أن يذهب إلى والدها ليكشف عليه . . فقد أحست أن لونه باهت وأن بياض عينيه ليس صافيا وأن بعض أظافره تآكلت قليلا . . وهى مؤمنة به إيمانا مطلقا . . ثم إنها عرضت عليه أن ينتقل إلى القصر الذى تعيش فيه بعد الزواج مباشرة . . وطلبت إليه أن يذهب إلى عزبتها شهرا قبل الزواج . . لا يفعل شيئاً إلا أن ينام ويستريح ولا يقرأ ولا يكتب . . ومن المؤكد أنها سيدة طيبة القلب حسنة النية . . ولكن العقاد ضاق بكل ذلك ، وتوهم أن الذى تفعله هذه السيدة هو نوع من تربية العجول قبل ذبحها . . وأنها لم تزد فى نظرتها إليه عن نظرة جزار يريد « تسمين » الذبيحة . . وأنها تريد أن تتأكد من سلامته الجسمية قبل أن تتزوجه . . وحاولت أن أقنعه ولم أفلح . . وهذه القصة أرويها لأول مرة . . ولا يعرفها إلا قليلون . . وأنا أرويها لك وأستحلفك على كتمانها . . لقد رفض كل شيء يا سيدى . .

قلت : ولماذا لا نكرهه على ذلك ؟ .

قال : ومن الذى يفعل ذلك ؟

قلت : أنت . .

قال : أنا مستعد أن أفعل ذلك . . ولكن من الذى يضمن لى أن العقاد لا يسيء الظن بى ؟ .

قلت : إذن نختار أعز أصدقائه . .

قال : ولكن أعز أصدقائه يتهيبونه ، ولو قال لهم : إنه مصاب بالزكام لعطسوا جميعا احتراما

له . . ولو قال إنه مصاب بالمغص . لتأوهوا جميعا نيابة عنه . .

قلت : إذن نذهب إلى فلانة . .

قال : فلانة ذهبت إليه أول أمس . . وسمعت نحيبها فى التليفون . .

قلت : إذن ؟ .

قال : لا شىء . . إن العقاد رجل عادل . . إنه لا يفرق بين نفسه وغيره . . وهو قاس مع الآخرين قسوته مع نفسه . . فأنت تطلب من العقاد شيئاً صعبا حين تسأله عن الرحمة والمرونة . . إنه لا يعرفها ! . .

ذهبت إلى د . عبد القادر حاتم ليقول لى : إننى استفسرت عن صحته ، بالنيابة عن الرئيس جمال عبد الناصر . فجاء من يقول لى إنه فى صحة جيدة . وإنه كان جالسا فى سريره . ولكن الذى ذهب إلى الأستاذ عباس العقاد قد أفزعته الغرفة التى ينام فيها . . إنها لا تليق مطلقا برجل عظيم مثله . . إنه قد نسى أن يكون له سرير ، وأن يكون للسرير غطاء . . لقد نسى أن يعيش أبسط أنواع الحياة . . إنه – إذن – من ذلك الطراز من المفكرين الذين لا يكسبون من التأليف ، إنهم يخسرون لكى يؤلفوا . . إنهم ينفقون الكثير جدا من المال والوقت والراحة . لكى يحصلوا على القليل جدا من المال . . إنه – إذن – واحد من رهبان الفكر . ولكن الناس لا يعرفون . . لقد عاد مندوب الرئيس حزينا على حالة الأستاذ العقاد . .

وعندما زرت الأستاذ قلت له مداعبًا : مادامت صحتك اليوم أحسن ، ولله الحمد ، فلماذا لا ننتهز هذه الفرصة ونسجل لك حديثا فى التليفزيون ؟ . .

قال : أتحدث عن ماذا ياMولانا ؟ . .

قلت : أنا أسألك فى أى شىء . .

قال : موافق . .

قلت : أسألك عن تفسيرك للقرآن . .

قال : وعن هموم الشباب . . عن مشاكلهم يامولانا . . إن فيكم شيئًا يعجبنى وأشياء أخرى لا تعجبنى . .

قلت : أعرف الذى لا يعجبك يا أستاذ . .

قال : ما هو؟

قلت : لا يعجبك أننا فى حالة قلق دائم . . وأننا لم نحدد وجهتنا مبكرا . . نحن معذورون يا أستاذ . . فعلومنا كثيرة ومخاوفنا أكثر . . والوقت ضيق . . والصدور أكثر ضيقا . . إذ كيف نفكر فى الله والكون والحياة بعد الموت ، ونحن لم نعرف لنا هدفا ولا طريقا ولا مثلا أعلى ، ولم ننل نصيبنا

من هذه الحياة الدنيا ؟ . . كيف نغمض عيوننا عن الواقع ونفتحها على المجهول ؟ . . أو كيف أتخيل نفسي فى سنة ١٩٨٤ بينما أنا ما أزال أتخبط فى سنة ١٩٦٤ ؟ . . كيف أرانى ؟ . . وكيف يساعدنى هذا الإغراق فى الخيال على النهوض من الواقع ؟ .

قال : بل هذا هو الذى يعجبنى يامولانا . . فأنا أكره الذى يضع أصبعه على الطريق من أول نظرة . . وأكره الذى ينزل عند أول محطة يتوقف عندها القطار . . وأكره المحامى لأن أباه كذلك . وأكره الطبيب لأن أباه كذلك . . ولكن الذى لا يعجبنى يامولانا أنكم تتعجلون الوصول إلى النهاية . . إن الوصول إلى النهاية هو نهاية . . تماماً كأشياء أخرى كثيرة . . فأنت تحب الفتاة وتشتاق إليها وتتعذب وهى أيضاً . وتحلم بها وتنظم فيها شعرا ثم تكون فى أحضانك . فإذا حدث ذلك انتهت اللوعة والشوق ، ولم يعد هناك مبرر للشعر . . إن كل النابغين فى الشعر والموسيقى هم الذين أحبوا ولم يفوزوا ، هم الذين تعذبوا فى الطريق . . وبعضهم كان يرفض النهاية . . لأنه يفضل الفن والعذاب ، على اللذة والصمت . .

قلت : ولكننا هكذا يا أستاذ . . فنحن لا نتعجل النهاية . . إننا نتلمس إليها طرقا كثيرة ومذاهب شتى . .

قال : ربما انطبق عليك وحدك . . ولكنى لا أرى زملاءك كذلك . . ولهذا فأنا أتوقع لك العناء فى حياتك الفكرية . . أتوقع لك أن تصل بمشقة . أو تتقلب على المشقة وفيها ثم لا تصل إلى الكثير جدا مما تريد . .

قلت : اتفقنا يا أستاذ أن يكون هذا حديثك إلى الشباب . .

* * *

وذهبت إلى الأستاذ حسن حلمى مدير التليفزيون . ونقلت إليه موافقة د . عبد القادر حاتم . وانتقلت الكاميرات إلى بيت الأستاذ . ودخلت إلى غرفة الأستاذ . ولم أكن أعرف ما الذى سوف يفعله المخرج . . لقد كان لابد من إدخال المصابيح القوية ، وتعديل أوضاع المقاعد والأحذية . . وفتح النوافذ ، وأن يغير الأستاذ ملابسه ، فهى لا تبدو واضحة إذا ما قورنت بألوان الجدران الباهتة . .

ورفض الأستاذ أن يتعرض لهذه الإضاءة القوية والحرارة المرتفعة . . وفضل أن يكون حديثه إذاعيا . . وانسحبت الكاميرات . ولم يقل الأستاذ شيئاً . وشعرنا بخيبة الأمل .

وقال لى إبراهيم باشا عبد الهادى : لو فعلتم ذلك لقضيتم على الرجل . إنه مريض حقا . وهو يقاوم المرض . . بل هو يعانده . . وينازله كأنه خصم سياسى . .

* * *

ذهبنا إلى د . ياسين عليان فى عيادته ، قال : ليس من السهل علاجه .. إنه لا يريد . إنه لا يريد أن يقتنع بما نقوله له . . وربما كان لا يريد أن يقتنع بالعلاج . . لعله أراد الموت . . ولا أستبعد شيئًا من ذلك على رجل عنيد كالأستاذ العقاد ، ثم إنه حاول الانتحار قبل ذلك . . وأنا من أسوان مثله . . وأعرف بعض ظروفه العائلية . . إنه يضيق بأشياء كثيرة . . وأعرف أن أحدا لا يقوى على الحديث معه . . ولذلك يتركونه وحده . . ولا أستبعد أن تكون هذه الوحدة قد بلغت أقسى وأقصى درجاتها . . الله أعلم . .

قلت : أهى النهاية ؟ .

قال : الله أعلم . .

قلت : أهى النهاية اليوم أو غدا ؟ . .

قال : الله أعلم . . فنى الطب معجزات . . ومن الممكن أن يعيش سنوات ، ومن الممكن أن يموت بعد لحظات . . ولكننا أمام مريض من نوع خاص . . لقد سمعته ينادى بعض الأسماء وهو فى شبه غيبوبة . . ولا أجرؤ أن أقول لكم هذه الأسماء . . فالمريض أمانة فى عنق الطبيب . . وهو أمين على أسراره . . ولكنى أجد فى هذا تطورا جديدا لحالته المرضية . . فهو قد أصيب بالإغماء مرتين . . وهو لا يدرى تماما . . وقد حاولت أن أوقظه فى إحدى المرات ، فلم يطاوعنى . . ولما أخبرته بذلك أنكر تماما . .

قلت : إن الأديب الفرنسى بلزاك فى لحظاته الأخيرة من سنة ١٨٥٠ كان ينادى طبيبا فى إحدى رواياته واسمه بلاشون . . ويطلب إليه أن يجىء لعلاجه . . والعالم الكبير داروين عندما التف حوله جميع أفراد أسرته يوم ١٩ أبريل سنة ١٨٨٢ كان يضحك قائلاً : هاتوا لى خنفساء . . ولم يكن الرجل يضحك ، أو يحاول أن يخفف عن أفراد أسرته . . إنما كان جادا ، فقد أخذته الغيبوبة بعيدا عنهم ، وعادت به إلى رحلاته فى أمريكا الجنوبية عندما كان يجمع الحشرات والنباتات . . وكذلك الأديب توماس هاردى ، وهو من أحب المفكرين لدى الأستاذ ، عندما جاءته النهاية فى أوائل سنة ١٩٢٨ طلب إلى زوجته أن تقرأ له رباعيات الخيام . فقرأت له البيت الذى ترجمه شاعرنا أحمد رامى :

فما أطال النوم عمرا ولا
قصر فى الأعمار طول السهر

وطلب إليها أن تكرره . . ثم قال لزوجته إذن فاطلبى «ولف» ليسمعه فقد عاش فى أرق دائم وجاء دوره لكى ينام وأنام . . ولم يكن «ولف» هذا إلا كلبه الذى توفى قبل أيام . . وقد سمعت أن الأستاذ سأل عن «مى» . . فلما أدرك الأستاذ أن هذا السؤال جاء على غير وعى منه قال : إنما أريد

أن أقول لوكانت مى هنا فما الذى كانت تقوله ؟ . . ولكن شيئًا من ذلك قد حدث للأديب الأمريكى أو . هنرى . والذى ترجم له الأستاذ مجموعة من قصصه . وكانت هذه الترجمة نوعًا من التحدى . وكنت أنا المقصود بهذا التحدى . فقد شاءت مؤسسة فرانكلين أن تترجم للأدباء الأمريكان . . وكلفنى الأستاذ جلال العروسى مدير هذه المؤسسة أن أطلب إلى الأستاذ ترجمة بعض هذه القصص . وقلت له : ولماذا لا تختار له أن يترجم شيئًا من الأدب الإنجليزى ؟ فعلم الأستاذ بذلك ، وأحس الأستاذ أن هناك من يشك فى قدرته على الترجمة من الأدب الأمريكى ، فأصر على ذلك . وكانت ترجمة رائعة لهذا الأديب الذى ظل طول عمره يختار لنفسه أسماء مختلفة . ويروى عن نفسه قصصاً كاذبة ، حتى لا يعرف أحد حقيقته . . أو حتى لا تعرف ابنته بالذات أن أباها كان قاتلاً وأنه دخل السجن . . ولما حانت لحظة الوفاة سنة ١٩١٠ قال : أين ابنتى اليزابث ؟ . . أريد أن أقبلها ! وكان كاذباً إلى ما قبل الوفاة بلحظات فلم تكن له ابنة بهذا الاسم ! . إنه أراد أن يوهم أسرته بأن هذا هو السر الوحيد الذى أراد أن يتستر عليه مدى الحياة . . ثم قال نفس العبارة التى قالها الشاعر الألمانى جيته وهو يموت : أضيئوا الأنوار ، لا أريد أن يعود الظلام . . والفيلسوف السياسى الكبير كارل ماركس نقلوه إلى أحد المستشفيات فى لندن لينام فى غرفة تجاور غرفة زوجته المريضة . . ولم يعرف الناس من هى هلينا التى كان يناديها . . ولكننا عرفنا ذلك بعد وفاته ، فقد أحب خادمته هلينا التى أنجبت له ابنًا غير شرعى دفن معه فى نفس المقبرة . .

ولكن د . ياسين عليان كان يقول لنا وقد التففنا تسعة حوله : لا أستطيع أن أذهب إلى أبعد مما تعلمته فى الطب . . والباقى الذى لا أعرفه على الله . . فهو وحده القادر على كل شىء ! . .

* * *

وفى صباح اليوم التالى بعث الأستاذ يطلبنى على وجه السرعة . وذهبت فى حالة من الفزع . فقد خشيت أن تكون هذه هى النهاية . وسألت : إن كان الأستاذ هو الذى يريدنى أو أحد غيره ؟ . . ولماذا ؟ هل حالته ساءت ؟ فقيل لى : اليوم أحسن . ولكنه عندما صحا من النوم طلب أن يراك .

وذهبت ووجدت الأستاذ جالساً على المقعد إلى جوار السرير . قلت : الحمد لله على سلامتك يا أستاذ . . أنت اليوم أحسن كثيراً . الحمد لله . . لم يبق إلا وقت قصير لتعاود المشى فى شوارع مصر الجديدة . .

سألنى وصوته نحيل هامس يخرج من حلقه بصعوبة : يا مولانا . . ماذا قلت لطه حسين عن حالتى الصحية ؟ . .

قلت : لم أقل له كثيراً . . بل هو يعلم حالتك الصحية جيداً .

قال : وهل هو مريض أيضاً ؟ . .

قلت : نعم . .

قال : ما الذى يشكو منه ؟

قلت : لا يقول بوضوح . . إنما هو مرهق . . وقد نصحه الأطباء ألا يبرح الفراش .

قال : هل زرته فى غرفة النوم ؟..

قلت : نعم .

قال : ومن الذين يزورونه ؟..

قلت : كثيرون لا أعرفهم . . انهم من أساتذة الجامعات والوزراء وبعض السفراء الأجانب . .

قال : وتطول الزيارة ؟ . .

قلت : دقائق ويخرجون . .

قال : ولكن ما الذى يشكو منه ؟..

قلت : لا أعرف . .

قال : سمعت أنه يشكو من القلب . . ومن شىء فى الشريان التاجى ، ولكنه لا يريد أن يصدق ذلك . . فحياة طه حسين هادئة منتظمة مستقرة ، ولا يجد نفسه مضطراً إلى السعى والحركة . . ولا أظن أنه يشكو من القلب . . ربما يشكو من الجلطة . . فشحوب طه حسين وعجزه عن الحركة واضطراره إلى النوم ، يدل على أن دورته الدموية ليست مضبوطة . . وإذا أصيب طه حسين بشىء فسوف يكون فى العقل وليس فى القلب . . وقد عرفت أسماء العقاقير التى يتعاطاها ، إنها جميعاً تعمل على تنشيط الدورة الدموية وعلى سيولة الدم . .

قلت : ولكن ما الذى قاله لك طه حسين يا أستاذ ؟..

قال : إنك قد زرته أخيراً ، وقلت له إننى أرفض كل نصائح الأطباء . .

قلت : هذا ما قلته يا أستاذ . .

قال : إن الرئيس جمال عبد الناصر قد بعث بمن يرانى مرتين . . ولكن لا أفهم لماذا يبعث الرئيس بمن يسأل عن صحتى . . ولا حتى كيف عرف ذلك . . شىء عجيب . .

ولم أجد ذلك عجيبا : فليس أسهل من أن يعرف الرئيس عبد الناصر وغيره أن الأستاذ مريض . . وليس غريباً أن يبعث بمن يسأل عنه . . أو يتكفل أحد بذلك دون أن يدرى . . ولكن الأستاذ أدهشه ذلك ..

وخرجت لأجد د. ياسين عليان يصر على ضرورة أن يأخذ الأستاذ حقنة شرجية . . وصرخ قائلاً : إذا لم يفعل ذلك فسوف يصاب بتسمم ويموت . . لابد أن يقال له ذلك . . إذا لم تسمعوا كلامى فلماذا أتيتم بى إلى هنا ؟ . . أنا أدخل وأقول له . . هذا أمر عجيب . .

ودخل الطبيب قائلا : يا أستاذ لابد من حقنة شرجية . . لابد !.

ووافق الأستاذ ، ورفض أن يكون معه فى الغرفة أحد . رفض أن يدخل ابن أخيه عامر العقاد . أو أى أحد . .

وأغلق الباب على الأستاذ ، ولم نسمع بوضوح ما يقوله من لعنات وصيحات . . وبعد لحظات من الصمت الطويل ، فتح الطبيب الباب لنجد الأستاذ قد تمدد على الفراش ، وأسرع الطبيب يمسك يده . . ووضعها إلى جواره . . وطلب إلى الخادم تنظيف الغرفة وترتيبها ، ووضع لحاف على جسم الأستاذ حتى يهدأ بعض الوقت . .

* * *

واتصلت بى تليفونيًا السيدة « م . . » تقول : هل من الممكن أن أراه ؟ . . هل يعترضنى أقاربه ؟ ما هو أنسب وقت ؟ هل أخبره . . فقد لا يحب أن أراه وهو فى هذه الصورة ؟ . لقد اشتريت له بعض البيجامات وأحب أن أبعث بها قبل أن أراه . . إننى أتمنى أن أراه وقد ارتداها . . وقد اشتريت له مصحفاً ذهبياً أريد أن أراه معلقاً فى رقبته أو حتى إلى جواره . . وعندى بعض الصور التذكارية . . أريده أن يوقع على بعضها بقلمه . . ومعى مصور أريد أن يلتقط لنا صورة معاً . . من يدرى ربما كانت آخر صورة . .

ثم راحت تبكى طويلاً . .

ولم أعرف كيف أنقل هذه الرغبة للأستاذ . فهو لا يحب أن يعرف أحد هذه العلاقة . . أو أن هذه العلاقة ما تزال قوية حية . . ولكنى تشجعت . ربما أسعده ذلك . . ربما أسعدها ذلك . .

قلت : يا أستاذ . . إن السيدة « م . . » تريد أن تراك . . وإنها لا تكف عن البكاء ليلاً ونهاراً . وإذا منعها أحد فسوف تدخل بالقوة . . إنها لم تعد تطيق أن تكون أخبارك عندها مجرد شائعات . . وسوف تجىء اليوم . .

أما هذا النور على وجه الأستاذ فقد كان السعادة نفسها . ثم بسرعة نظر إلى ملابسه وإلى الفراش حوله ، قلت : لقد بعثت إليك ببيجامات لها نفس الألوان التى تحبها . . هى تحبها وأنت تحبها . . وقبل أن تصل الليلة ستكون هذه الملابس عندك . .

قال سعيداً : ولكن يا مولانا . . إنها اختارت أسوأ الأوقات . . إننى لا أقوى حتى على مصافحتها . .

وفى المساء سبقتها إلى بيت الأستاذ ، وقابلنى ابن أخيه عامر العقاد ، وسألنى : ماذا جرى ؟..

قلت : ماذا ؟ قال : إن الأستاذ طلب إلينا تنظيف هذه الغرفة . . ثم إنه ارتدى البيجامة التى بعثت بها ، ولبس الطاقية الجديدة . . وأصر على أن يكون الورد الذى بعثت به متفرقاً فى كل مكان .

وأمر بإخراج كل الأحذية من الغرفة . . وطلب شراء أكواب وفناجين جديدة . . وزجاجة كولونيا قد أفرغها كلها فى يديه وعلى أرض الغرفة . . ثم شراء جاتوه . . ربما كان هذا أول جاتوه أراه فى هذا البيت من عشر سنوات .

قلت : إنها سوف تحضر حالاً . .

قال : آه . . هذا هو سبب الانقلاب العظيم . . يا أخى إن الرجل لا يزال له قلب شاب . . إنه تناول الدواء كاملاً ، وشرب الشاى . . وشرب القهوة . . وقرأ الصحف . . وضحك اليوم كثيراً على رجل قتل زوجته لأنها تركته وتزوجت رجلا آخر ، وقال : إنه رجل حمار . . بدلا من أن يشكر الرجل الذى خلصه من زوجته فإنه يقتلها . . وقال : يا عامر . . نصيحة : أحسن مقلب لرجل يخطف منك زوجتك ، أن تتركه يفعل ذلك . . وضحك كما لم يضحك منذ سبعة شهور . .

وجاءت السيدة « م . . . » وانسحبنا من غرفة الأستاذ . . وكانت تضحك بصوت مرتفع وتقول له : سلامتك . . أنت كالحصان . . لقد أفزعونا عليك . أنت كويس جداً . . الحمد لله . . وضحك الأستاذ لأول مرة . . ويبدو أنه كان يروى لها نكتة . . فكانت ضحكتها عالية مدوية . . وضحكنا . وحمدنا الله . . وهنأنا أنفسنا على أننا لم نكن نعرف هذا الدواء – فالذى أحدثته هذه السيدة فى جلسة واحدة ، فشل فيه الأطباء ثلاثة وعشرين يوماً . . !

وبعد أن خرجت السيدة « م . . » عاد الهدوء والسكون والهبوط الشديد إلى الأستاذ . لقد استنفدت كل ما لديه من طاقة . وطلب الأستاذ إلينا أن نتركه وحده ، ثم اعتدل فى فراشه ، وقال آمراً متوعداً : يا عامر . . يا عامر لا تدعنى وحدى . . لا تنم فى الشقة الأخرى . . أريدك على مقربة منى هنا . . فقد تكون هذه هى الراحة الأبدية !..

وغلبتنا دموعنا . . وخرجنا !..

ودخلت إلى الأستاذ أقول له : يا أستاذ سوف نبقى جميعاً إلى جوارك . .

ابتسم الأستاذ قائلاً : يا تلامذة سقراط . . ما الذى ينفع فى هذه الرحلة ؟ . . لا شىء يا مولانا .. عد إلى بيتك . . أصبح على خير . .

قلت : يا أستاذ هل يضايقك أن نبقى هنا ؟.. أرجوك أن توافق على ذلك .

فاعتدل الأستاذ فى جلسته بصعوبة شديدة . وكأنما فاته أن يسألنى عن شىء شغله بعض الوقت .

قال : قل لى يا مولانا كيف عرف الرجل عبد الناصر أننى مريض ؟ . . وهل يعنيه أن يعيش كاتب أو يموت ؟ . . إننى لا أنسى أن هذا الرجل قد فصلك من عملك . . ولا أفهم لماذا ؟ قرأت مقالك الذى كان سبباً مباشراً فى غضبه . . وإن رجلاً يغضب مما يقوله كاتب شاب لدليل على أنه يضيق بأى رأى وبأى إنسان . . وأنه يكن عظيم الاحتقار لكل رأى وصاحب رأى . . ولا أظنه قرأ لى شيئاً

أو أرضاه رأيى فى الثورة وفى بعض زملائه . . ولابد أن يكون قد بلغه الذى قلته عنه وعن إهانته لمصر كلها يوم انطلق عليه الرصاص . . لابد أنهم نقلوا إليه هذا الذى قلته . . آه . . آه . .

ووضع يده على جنبه . . وحاولت أن أقترب منه . . أو أن أطلب إليه أن يكف عن الكلام . . وأن يهدأ بعض الوقت . . ولكن الألم قد اشتد عليه وأسكته رغم كل محاولاته أن يمضى فى الحديث . .

قلت : أصبح على خير يا أستاذ .

فقال ضاحكاً ، أو مفتعلاً ذلك : أن أصبح هذا جائز . . أما أن أصبح على خير فليس جائزاً . . بل قد يكون الخير ألا أصبح يا مولانا . .

وفى الشارع جاءت أصداء نفس الأغنية الحزينة لصديقى عبد الحليم حافظ : راح . . راح . . نفس الأغنية التى استمعت إليها يوم صدر قرار الرئيس جمال عبد الناصر بفصلى من العمل نهائياً . . فى ذلك اليوم أحسست أن كل شىء راح . . راح إلى غير رجعة . . ولا أعرف كيف يعود الذى راح ، ولا كيف يروح الذى سوف يجىء . . ولا أعرف حتى معنى راح ويروح وجاء ويجىء . . لقد توقف الزمن كله . . مات كل شىء حولى . . ولم أكن مهيأً لمثل هذا الموقف . . أو انعدام الموقف . . فقد وجدت نفسى فى الشارع . . كل الدنيا أصبحت شارعاً يتحرك ويمضى وله هدف إلا أنا . . فقد ضاع الهدف وراح الطريق ، وكأن هناك «بالوعة» كبرى قد تسرب منها كل شىء . . كل المعانى . . كل العلاقات . . كل الناس . . كل الأفكار . . ولم يبق إلا أن أسقط فيها وأختفى . . كأننى كنت أتغطى بالسحاب ، وانقشع . . لا أعرف بالضبط ما الذى أصابنى وحدى . كل شىء راح . .

ولا أعرف إن كان صحيحاً أننى أسمع عبد الحليم حافظ يغنى : سواح . . فى البلاد سواح . . وهى الأغنية التى أحبها وأراها تعبيراً عن حالى . . عن أحسن حالاتى . . فأنا سائح سواح فى البلاد وفى الأفكار وبين الناس والقضايا وبين السماء والأرض والدنيا والآخرة والجنة والنار والأستاذ وكل الفلاسفة والأدباء ورجال الدين ورجال السياسة . . أما الآن فلم أعد سواحاً ، إنما أصبحت منبوذاً . . ضائعاً . لقيطاً . . بلا أب ولا أم . . بلا بوصلة . . بلا وجهة . . فلا شمس لنهارى ، ولا قمر لليلى . . ولا قاموس لكلماتى ، ولا معنى لمفرداتى . . ولا فاصل بين أنفى وفمى وعينى ، فكلها تبكى على هذا الرجل الذى تمدد كأنه أحد أبطال الإغريق . . ولم تكن قضيته هى : الله والكون والقيامة والبعث والجمال والفضيلة . . إنما كانت قضيته أصغر من ذلك كثيراً : أنبوبة من اللحم تورمت وانتفخت فى الجانب الأيسر من بطنه . . إنها مثل طوق من المطاط منفوخ . . ليس طوق النجاة . . إنما هو طوق تحت الجلد يريد أن يهبط بالأستاذ فيغرقه فى بحار من العرق والدمع والألم . . راح . . أو أن الرجل سوف يروح وأنا معه وأحلامى وآمالى . . وعلامات الطريق . . وخطوط الطول والعرض . . وسحر

الذهب . . وسعر الفائدة . . وعلامات الترمومتر . . وكل شيء له وزن وطول وعرض وأول وآخر . . فقد كان الأستاذ هذه العلامات كلها . . وفجأة كل شيء سوف يروح . . يروح إلى حيث لا يعود . .

وفى الشارع لم أعد أسمع صوتاً ولا أرى لوناً . . ولم أعرف إن كان الشارع بالطول أو بالعرض . . إن كنت أمشي عليه أو أزحف فوقه . . أو أتسلقه . . أو أنه قد ارتفع فوق رأسي وأنا قد تعلقت منه . .

وإذا كانت الدنيا كلها ترقص وتظهر وترقص وتختفى أمام عينى . . فلأن دموع عينى لم يعد بينها وبين العين فارق . . فهى تذوب بعضها فى بعض . . فدموعى هى عيناى وقد ذابتا . . وعيناى هما دموعى تتحفزان للسقوط على الأرض .

أما مصابيح الشوارع فكنت أراها دموعا سقطت من السماء فوق أعمدة من الحديد .. وأما الألوان الحمراء فهى جروح الليل .. أما الألوان البنفسجية فكأنها الأعصاب عارية ، وأما الشوارع المظلمة فهى أحشاء كائن أسطورى تمدد على الأرض وأنا أمشي فى داخله ، وهذا الشارع الذى كنا نرى أعلامه مرفوعة كل يوم جمعة ونعتقد أن الأعلام مرفوعة تحية لنا تلامذة العقاد ، فقد بدا كئيبا مخنوق النوم مكتوم الهواء ، فكأن مرض الأستاذ قد أصاب كل شيء حوله وحولنا ..

وكنت أتصور أنه بعد وفاة أبى ، لا حزن على أحد .. ولكن مرض الأستاذ أعاد مرض والدى ووفاته كل يوم ، فكل يوم يصحو أبى ثم يموت ، يصحو فى قلبى ويموت فى عقلى أو يصحو فى عقلى وأدفنه فى قلبى .. فلم أعد أمشي فى جنازة أبى ، إنما أنا الجنازة والنعش والمشيعون ، فلا حول ولا قوة إلا بالله .. فنحن من هذا التراب ونحن إليه راجعون ، ولم أجد تفسيرا لصعوبة أن أبتلع ريقى إلا أن كل شيء فى فمى هو : تراب .. له طعم التراب وملمس التراب ورائحة التراب .

وأفزعنى أن أتصور طول الوقت أن الأستاذ قد مات .. وأن الذى نراه ليس إلا وهما .. فالرجل مات وانتهى ..

وفى الليل سألنى كامل الشناوى مداعبا :

هل اشتد عليه المرض ؟

قلت : نعم ..

قال : إننى أتخيل العقاد إذا جاء الملائكة يحاسبونه فإنه سوف يشخط فيهم قائلا : من هؤلاء الذين جاءوا يحاسبون العقاد ؟ .. بل أنا الذى أحاسبكم .. تعال يا ولد أنت وهو ، على أى أساس يدخل الناس الجنة والنار .. ثم كيف أدخلها مع شوقى وطه حسين وعبد الرحمن الرافعى هاها .. هاها ..

ولكن كامل الشناوى مضى يقول : والله فكرة أن نتخيل ما الذى سوف يقوله كبار الأدباء

للملائكة ، وراح يروى لنا كيف يكون الحوار بين الملائكة وبين طه حسين والحكيم وسلامة موسى ومصطفى النحاس باشا وسعد زغلول باشا وأم كلثوم ومحمد عبد الوهاب وغيرهم .

ولابد أن تخيل الشاعر الساخر كامل الشناوى كان مضحكا حقا .. فقد كان كل الزملاء سعداء ولكن لم أتزحزح عن موقفى .. فقد كان موقفى أمام غرفة الأستاذ .. ولا أعرف كيف كنت أمشى فى الشارع ولا أدرى كيف كنت أصل إلى شىء كل يوم .. إلى هلوسة عقلية إلى محاولة جنونية لإنقاذ الرجل من الموت .. بالإبقاء عليه بعض الوقت على أنه مريض يصعب علاجه فيبقى حيًّا على نحو ما .. لقد أحسسنا بأننا فى حاجة شديدة إلى الأستاذ لكى نستوضح معنى هذا اللغز الذى فرضه علينا .. أما الفيلسوف سقراط فقد كان أوضح . ولذلك كان أرحم بتلامذته .. إنه قرر أن ينتحر وأن يموت بيده ، وأن يضرب لذلك مثلا عاليا للاستشهاد من أجل الرأى الذى يؤمن به . والأستاذ هو كذلك .. فهو يرى رأيا يخالفه فيه الأطباء .. وهو يفضل أن يموت ضحية لرأيه . على أن يعيش وفقًا لما يراه الأطباء ..

ثمّ انتحرت « إبنة » العقّاد !

ضبطت نفسى متلبسا بإحساس غريب . فقد لاحظت أننى لاأريد أن أرى الأستاذ .. ولارغبة عندى فى الذهاب إليه . واندهشت لهذا الشعور العجيب . ولكن المعنى الذى اهتديت إليه هو أننى أحسست أن الأستاذ قد انتهى . . إن لم يكن قد مات فهو قريب من الموت . وليست له حاجة بأحد من الناس . ثم إن الناس سواء تكاثروا حوله أو قل عددهم فإنهم لايستطيعون له شيئا . بل إنه الآن لم يعد فى حاجة إلى طعام أو شراب أو حتى هواء .. إنه أصبح غائبا . فهو لايدرى من الذى جاء ومن الذى خرج . ولم تعد تجدى كل الكلمات الحلوة التى تقال له .. فلماذا نذهب إلى الأستاذ الذى لم يعد هناك ؟ !

ولم أجد لهذا المعنى سببا واضحا !

هل سببه حقيقة أن الرجل قد غاب ، وأننا أيضا غائبون . . أو أنها حالة من اليأس عندنا نحن . وما دمنا فى حالة يأس فكل شىء سواء : الذهاب أو عدم الذهاب .. والطب والحب . . أو أن لدينا إحساسا بأن الاستاذ قد ضاق بنا وبكل شىء..؟ وهذا طبيعى . . فهو يمضى الوقت كله يضع يده على صدره ويكاد يضغط عليه يسحقه . . وأحيانا يضع يديه على رأسه ويضغطه كأنه يريد أن يخرج عقله من رأسه ويلق به من النافذة ..

لقد قالها لى عندما زرته ليلا : مافائدة هذا يامولانا ؟ .. إن هذا العقل لم يحقق لى الراحة التى ينعم بها بائع البطيخ الذى يوجع رءوسنا فى هذا الشارع . . لقد زارنى منذ أيام صديقنا « حسان ... » .. وهو كما تعلم إنسان طيب ، ولكن الله أنعم عليه بالغباء .. إن الغباء نعمة يامولانا .. يكفى أن الرجل الغبى ليس مصابا بمرض الحساسية الوجدانية أو العقلية أو الاجتماعية ليكون أسعد الناس . وسألنى عن مرضى ، فقلت له : العقل ! فسألنى : إن كان عقلى قد اختل أخيرا ؟ فقلت : بل اختل قديما ، فسألنى : وكيف تكون لك كل هذه الكتب وأنت مختل العقل يأستاذ ؟ .. فبالله ماالذى يمكن أن يقال له وهو رجل أستاذ جامعى . . ويقولون إنه متفوق فى التدريس ؟ .. قلت له : أعلمك أبياتا من الشعر تحفظها . . وتعطيها لتلامذتك يحفظونها أيضا . سألنى : ماهى ؟ قلت له :

يحسبه الجاهل مالم يعلما شيخا على كرسيه معمما
لو أنه أبان أو تكلما لكان إياه ، ولكن أعجما

وسألني عن الشاعر صاحب هذه الأبيات ، فقلت : الشاعر اسمه ثعلب .. والشيخ المعمم اسمه حسان ، والمناسبة هي : الذكاء الخارق . . والعبرة : هي أنني أغنى لو كان الله قد أعطاني عقلك ، وأصابك بعقلي ! !

وقلت للأستاذ : ولكنك غير جاد يا أستاذ ..

قال : والله يامولانا جاد تماما .. فأنا قد رأيت الجهل والغباوة كيف لايصاب صاحبهما بالمصران الغليظ وجلطة الدم .. إننا لم نسمع عن حمار مات بالشريان التاجي . . ولكن سمعنا عن ألوف المفكرين والفلاسفة والأدباء والشعراء الرومانسيين الذين نزفوا دما حتى الموت ..

ثم سكت الأستاذ ، ونظر إلى علب الأدوية وبقايا الحقن .. وكومة الروشتات ، ثم مط شفتيه قرفا .. وحاول أن يجلس فلم يتمكن . وتقدمت أساعده . ولكنه أشار بأن أجلس فى مكانى ، ولاداعى لأن أرهق نفسى فى مساعدة من لاأمل فيه .. وقال ضاحكا : يامولانا . . حاولت أمس أن أصفى حسابى مع الحياة كلها ، فساءلت نفسى : والآن مامعنى هذه الدنيا ؟ .. وانتهيت إلى أنه : ليس لها معنى واضح . وتساءلت : وهل لهذه الدنيا حكمة ؟ وأجبت : حكمة ما .. وتساءلت : لو وقفت لقمة فى حلقى ولم أجد كوبا من الماء أو أحدا يساعدنى على أن أذهب إلى دورة المياه ، فهل هذه الكتب الموجودة فى بيتى تساعدنى على ذلك ؟ طبعا لايوجد كتاب يساعدنى على شىء . . فالكتاب لكى يساعدك لابد أن تكون أنت قادرا على أن تذهب إلى الكتاب ، على أن تفتحه وأن تفهمه .. وبغير ذلك فلا فائدة من الكتب .. إذن فلا فائدة من هذه الكتب ، والله لافائدة يامولانا .. لافائدة !

قلت : ياأستاذ . . هل أحاسبك بمقاييسك أنت ؟ ..

قال : كيف ؟

قلت : ياأستاذ . . ماكان من الممكن أن تكون هذه حالتك العقلية لو لم تكن حالتك النفسية والصحية سيئة إلى هذه الدرجة .. أين هذا الذى تقوله الآن مما جاء فى كتابك « الله » ، وأنت تعلو وتعلو ، وتمسك بالقلم ، وتنظم الوجود كله طالعا نازلا . . كأنك إله وأمامك المادة الأولية للكون .. ثم تنظم وتهندس وتعترض على الكون عند الإغريق والرومان والأديان . . ثم تشق طريقك بين الملائكة والشياطين ، وتدخل النار كما تدخل الجنة سليما معافى ؟ .. لم تكن مريضا فى ذلك الوقت .. إنما كنت الصحة والقوة والجبروت .. لقد أردت أن تعرف حدودك العقلية . . ماتقدر عليه وما لاتقدر ، فألفت سلسلة العبقريات .. ثم إبليس ، والمسيح ، والله .. إنها الصحة ياأستاذ ..

قال : يامولانا . . كأنك تريد أن توجعنى وتضاعف حزنى على نفسى . .

قلت : العفو يأستاذ . . إنما أردت أن أذكرك بنفسك . . إننى لم أضف جديدا إلى ماتعلم . . فقط ألقى الضوء على صورتك التى توارت وراء النوافذ المغلقة والبطاطين والعقاقير . .

وسكت الأستاذ ، وقلت له : أتركك لتنام يأستاذ . .

قال : شكرا . . اسمع يامولانا . .

ورجعت وأسعدنى أن تكون لدى الأستاذ حيوية جديدة ليقول شيئا . أو ليجد السعادة فى أن يقول أو يضحك . قال : هل تعرف هذا المدرس الذى حدثتك عنه ؟ . . إنه شاعر متواضع جدا . . ولكنه فاز فى مسابقة وزارة المعارف فى الأغانى المدرسية . . ولما علمت الوزارة أننى سوف أبعث بأنشودة وطنية سارعوا فأعطوها له . . وفى ذلك نظمت أنشودة أسخر فيها من الوزارة . . هاها . . هاها !

قلت : الله

قال : ماذا ؟

قلت : أنت تضحك يأستاذ . . لم نسمعك منذ وقت طويل . .

قال : ضحكنا كثيرا يامولانا . . فلم يبق عندنا مانضحك منه أو نضحك عليه . . إننا أضحوكة الأطباء يامولانا . . هاها . . هاها . . أما الأنشودة التى كتبتها عن الوزارة وضدها فتقول :

إلى الوراء إلى الوراء
إلى الوراء إلى الوراء
إلى الوراء كل يو
م فى الصباح والمساء

* * *

إلى كرومر الحنون
ومكمهون ولبسون
وسمبسون وكل جون
إلى الوراء بالقلوب
إلى الوراء بالعيون
إلى الوراء إلى الوراء
إلى الوراء إلى الوراء

* * *

وفى ركاب المستشار
يمشى الكبار والصغار
والزارعون والتجار
والشاخصون فى انتظار
على اليمين واليسار
إلى الوراء إلى الوراء
إلى الوراء إلى الوراء

* * *

أما العلوم والفنون
ماكان منها أو يكون
فهم عليها مشرفون
ونحن من خلف الركا
ب راكعون راجعون
إلى الوراء إلى الوراء
إلى الوراء إلى الوراء

* * *

لهم إذا شاءوا العطاء
ومالنا منهم جزاء
إن يطلبوا منا الرداء
نعط الطعام والشرا
ب والكساء والغطاء
إلى الوراء إلى الوراء
إلى الوراء إلى الوراء

* * *

إلى الوراء لا الأمام
الى الوراء باحترام
على الدوام وفى الختام
وكل يوم بانتظام

وكل عام والسلام
إلى الوراء إلى الوراء
إلى الوراء إلى الوراء

هاها .. هاها .. ومن يومها يامولانا وكل شيء إلى الوراء . . حتى أنا أصبحت أمشي إلى الوراء .. إنني أتراجع عن الدنيا . . أتراجع حتى تبدو لى صغيرة ضئيلة حقيرة . . أما أنني الذى أتراجع أو هي التى تنسحب .. فسيان . . فالمسافة تكبر والأشياء تصغر . . وسوف يظل إحساسي بهذه الدنيا هكذا مادمت أشعر ومادمت أفكر . . ولكن الراحة الكبرى هي عندما لايكون حس ولاعقل . . وفى ذلك قلت يامولانا :

إذا الموت لم يقطع عن النفس حسها
فكل ابن أنثى فى الحياة : ممثل
على مسرح الدنيا يموت كأنه
على مسرح التمثيل بالموت يهزل !

وأنا الآن يامولانا على مسرح الموت وأسخر من الموت . . أو أمثل هذا الدور . لأنه لاحيلة لنا فى حياتنا أو فى موتنا . . وأقصى مانستطيع هو أن نمضى فى التمثيل . . نمثل أننا أحياء . . ونمثل أننا نسخر من الحياة ومن الموت .. هاها . . هاها ..

ثم اعتدل فجأة فى جلسته ، واستخدم كل طاقته فى أن يقول : تعرف يامولانا .. أتمنى لو كان صدرى يتسع لكل الهواء . . لكى أخرجه مرة واحدة وأنا أقول : هاها . . هاها .. فلم أعد أملك إلا الضحك . . إلا السخرية من هذه الرحلة الطويلة بلا هدف . . هاها . . هاها ..

ثم مال الأستاذ إلى الناحية الأخرى من الفراش وسحب الغطاء .. وانسحبت . ولما حاولت أن أغلق الباب الذى أطلق صوتا قبيحا كأنه إنسان يبكى قد انحاش صوته وجف حلقه ، أشار الأستاذ بيده .. فتركت الباب مفتوحا ، وسألنى الأستاذ عامر العقاد قائلا : ماذا يقول لك ؟

قلت : أنت تعرف . . فعقله لم يتوقف عن التفكير . . وهو لايستطيع أن يوقف عقله . . ولذلك فعقله يلعن عقله ، ويلعن هذا الحظ الأسود الذى جعله عاقلا تعيسا ، وغيره أغبياء سعداء ..

قال عامر العقاد : هل تعرف ماذا قال لى صباح اليوم ؟ . . قال : ياعامر . . اقرأ صفحة « الوفيات » فى الأهرام . . واعرف لى كم عدد الذكور والإناث ، فقلت : ماتت امرأة واحدة . . فضحك قائلا : واحدة . . إن هذا كثير .. منذ أسبوعين قرأت الوفيات فلم أجد إلا رجالا .. ثم طلب منى أن أعرف نوعيات الذين ماتوا . . فلم أفهم ، فعاد يقول لى : كم عدد المهندسين ؟ وكم عدد الأطباء ؟ وكم عدد الفلاحين ؟ وكم عدد التجار ؟ .. وظللت ساعة أقلب فى صفحة الوفيات . .

وقرأت الأسماء . . وبسرعة قال لى : هذا طبيعى . . كل الذين ماتوا من الذين يشتغلون بالأعمال النظرية من المدرسين والموظفين .. فهم أقصر الناس عمرا .. أما الذين يعملون بأيديهم ويتنقلون فى الحقول والمصانع فهم أطول الناس عمرا .. وسألنى عن عدد الذين ماتوا على أثر حادث . . فلم أهتد إلى ذلك . . ولكنه قال : إنه من أربعين سنة مات ثلاثة فى حادث سيارة .. الأول مات من الخوف والثانى مات بعد يومين من الحادث حزنا على الذى مات .. أما الثالث وكان السائق فقد مات بعد عشرين يوما . . فالناس أقلهم يموتون بالحوادث ، وأكثرهم يموتون بالخوف . . أى بالعقل .. وطلب منى أن أذكره بهذه الملاحظات ليعاود التفكير فيها ودراستها فيما بعد . . وطلب منى أن آتى بورقة وقلم وأكتب أمامه هذا المعنى وأن أقرأه . . ففعلت ولم يعجبه الذى كتبت . وقال : معذور أخونا طه حسين .. كيف يملى كل هذه الصفحات ؟ .. إن الشاعر أبا العلاء المعرى قد أملى بعض الأبيات وهو مريض . فلما طلب أن يسمعها مرة أخرى . لم يجدها مضبوطة ، فقال : إذا كانت هذه حالتى فالموت أفضل ... وأنت متى تعود ؟

قلت : ليلا أو غدا .. سوف أطلبك فى التليفون ..

* * *

وأمام محل البن البرازيلى بشارع سليمان باشا التقيت بعدد من الزملاء .. سألنى أحدهم : أظن . . أنها مسألة أيام ؟

قلت : الله أعلم ..

قال آخر : بل ساعات . . لأننى قابلت د . محمد عطية فى منزل إبراهيم باشا عبد الهادى بالمعادى ، فأكد أن حالة الأستاذ خطيرة . . وأنه عندما زار الأستاذ فى المرة الأخيرة طلب إليه الأستاذ أن يكتب له بحثا مفصلا عن تطور أو تدهور حالته الجسمية . .

وخرج د . محمد عطية ولم يعد ..

قال د . عبد العزيز الأهوانى وكان عائدا من أسبانيا : أمس كنت أزور أحد الشيعة فى سيدنا الحسين ، فقال إنه زار الأستاذ . ولكنه لم يستطع أن يدخل بيته ، فقد شم رائحة بخور قوية جدا ، كالتى يشمها الشيعة عند دخولهم مسجد كربلاء . . إنها رائحة أهل البيت .. وإن الذى كتبه العقاد عن على وبنيه وفاطمة الزهراء كفيل بأن يدخله الجنة مع الأئمة . . وإن الرجل عندما اطمأن على الأستاذ اكتفى بهذا القدر ، وعاد إلى بيته يحمد الله على هذه النعمة الضافية الزاخرة التى حظى بها واحد من أعظم المفكرين الإسلاميين فى كل العصور . . إننى لاأعرف إن كان هذا البخور حقيقة أو خرافة . . ولكن من المؤكد أن العقاد كان رجلا عظيما ومفكرا عبقريا . . إننى أختلف معه فى كثير من قضاياه النقدية والجمالية ، ولكن لاخلاف على عظمته فى كل الميادين التى تعرض لها .. ولاأعرف

أنه تعرض لقضية واحدة لم يكن قد درسها دراسة تجعله يتفوق على أكثر المتخصصين . . فالعقاد أصدر كتابا عن « خيمنيز » الأديب الاسبانى الفائز بجائزة نوبل فى الأدب ١٩٥٦ والعقاد لايعرف كلمة أسبانية واحدة . . ولكن الذى كتبه عن أدب الأسبان ، وعن أدب الأسبان فى المهجر ، ثم تعريفه بعدد من الفلاسفة الأسبان المعاصرين ، يؤكد قدرته الفذة على فهم أعماق النفوس بمنتهى السرعة .. فأنا رجل تخصص فى الأدب الأسبانى القديم والمعاصر ، وأنحنى إجلالا لهذا الرجل الفريد من نوعه . . أريد أن أراه قبل أن يموت . . مارأيك ؟

قلت : نذهب معا غدا . . ولكنه مريض جدا .. وقد يرفض أن يراك . .

قال : إذن .. أراه من بعيد دون أن يرانى ..

وتفرقنا على غير العادة .. ومضى كل واحد فى طريق . . وبعد دقائق وجدنا أنفسنا نمشى أمام نقابة الصحفيين .. ونتجه إلى مسجد الشبان المسلمين فى شارع رمسيس .. ومن الغريب أنه نفس الطريق الذى سارت فيه جنازة الأستاذ . وتوقفنا ولم نعارض واحدا منا عندما قال : اركبوا سيارتى ، فعندى فكرة جنونية . . ولكن ليست هذه هى الفكرة الوحيدة . . اركبوا ..

ولم يعترض أحد . وكانت سيارته صغيرة ضيقة . طويلة صفراء ، خانقة كأنها نعش . . أوكأنها قبر يجرى على عجل . . فقال أحدنا : أعوذ بالله . . إن الركوب فى سيارتك هو انتحار حقيق ..

قلت : سيارتك أقرب إلى ضريح الشاعر الإيطالى دانتى .. إن الضريح بلا نوافذ .. والزحام فيه شديد .. والرائحة كريهة .. إن هذا الضريح يذكر الزائر الذى وصفه فى ملحمة « الكوميديا المقدسة » بالجحيم ..

ولم يرد صاحب السيارة . واتجهنا إلى قلب المدينة . . وكانت الشوارع ضيقة خانقة .. وكان الضوء مشنوقًا يتدلى من المصابيح . . وكان الهواء ميتا . . هل كان ذلك كله حقيقة ، أو أنه الضيق الذى يحبس أنفاسنا ، ويضغط على عقولنا ، ويسحق قلوبنا ، هو الذى يجعلنا نحس بأن الدنيا كلها كذلك ؟ . .

وقيل لنا : انزلوا ..

فنزلنا . ووقفنا أمام بيت ، ووجدنا الباب مفتوحا ، فقيل لنا : ادخلوا . . تفضلوا ..

ودخلنا . وكانت للشقة أضواء خافتة .. كأن أحدا ليس بها .. أوكأن أحدا مريضا فى داخلها .. وأشار صاحب السيارة إلى غرفة مظلمة تماما ، وقال لنا : ادخلوا . . إنها جلسة تحضير أرواح . . ادخلوا . . لاصوت . . المقاعد بجوار الحائط . . إننا فى بيت سيادة المستشار عبد الجليل راضى .. أحد علماء الروح فى مصر.. وجلسة الليلة غير عادية .. تفضلوا . . اجلسوا ..

ولم يكن قد هيأنا لذلك . . ولكن الحزن الذى أمسكنا جميعا . . واللون الأسود والظلام والشعور

بالعالم الآخر واقترابه . . وغياب الأستاذ اليوم بعض الوقت ، وغيابه نهائيا غدا . . كل ذلك جعل أقرب شيء إلينا هو هذه الفكرة الذكية التى خطرت على بال صديقنا الأستاذ محمد نصر مراقب الصحافة المدرسية والمحرر فى « أخبار اليوم » واصطدمت يدى بجارى فاعتذرت له . فقال : لاتتكلم هنا . .

قلت : الله . . كامل بك ؟

قال : نعم . .

وكان كامل الشناوى قد سبقنا إلى هذه الجلسة !

وفى الظلام الخافت أحسست بوجع فى عينى وفى رأسى وضيق شديد .. وحاولت أن أخرج ولكن وجدت جارى ، الذى على يمينى والذى على يسارى ، قد أمسك يدى بقوة غير عادية .. ووسط الغرفة كان الوسيط يقول بصوت أجش وبلهجة عربية بدوية عراقية : نعم ..

وصوت آخر يقول له : من الذى شرفنا بالحضور هذه الليلة ؟ ..

يقول الوسيط : الحمد لله .. أنا عبد الله .

ويسأله المستشار عبد الجليل راضى قائلا : من عبد الله ؟ .. كلنا عباد الله ..

يقول الوسيط : عبد الله بن أحمد بن على بن حسن البغدادى من البصرة .. جئت الليلة فى مهمة خاصة .. فقد عرفنا أن بعض الحاضرين قلقون على شيخهم .. ولكن شيخهم فى جنات النعيم .. إن صفحة واحدة من واحد من كتبه تدخله الجنة مع الأبرار ..

سأله عبد الجليل راضى: إننى لا أعرف كل الحاضرين . . وقد جاءنا ضيوف فى الظلام .. ولا أعرفهم ..

قال الوسيط : ولكننا نعرفهم . . وشيخهم لن يطول مقامه فى هذه الدنيا .. إنه الآن فى حوار طويل مع الملائكة ، ومع عدد من الصوفية وأهل البيت .. إنه يضحك الآن ويشرق وجهه . . لاخوف عليه ..

وسأل عبد الجليل راضى : هل أحد من السادة الضيوف يريد أن يسأل زائرنا شيئا ؟ .. إذا أراد أحد فليتفضل ..

فهمس كامل الشناوى : اسأله أنت .. اسأله أنت .. قل له . . إننى فى حالة غريبة . . لاأنا خائف . . ولاأنا قادر على أن أترك هذا المكان .. ولاأشعر كيف يخرج هذا الكلام من فمى .. اسأله .

قلت : شكرا . . أريد أن أعرف إن كان الاستاذ العقاد مريضا بالقلب أو بالمصران ؟ ..

قال الوسيط : لم يعد مريضا .. لقد شفى تماما . . وهو الشفاء الأخير.

قلت : شفى تماما ؟ مامعنى ذلك ؟

قال : أنت رجل درست الفلسفة .. وفكرت طويلا فى ذلك .. وكنت تقرأ كتاب الإمام الغزالى منذ أيام ، ووضعت خطا تحت عبارة تقول : إن الشفاء اثنان . . واحد بالعقاقير والثانى بالموت ..

قلت : هذا صحيح ..

سألنى كامل الشناوى : صحيح ماذا ؟ صحيح أنك كنت تقرأ ووضعت خطا تحت هذه العبارة ؟

قلت : نعم .

قال : أريد أن أخرج .. أريد أن أترك هذا المكان .. فجسمى كله ينتفض .. ولكن لاأشعر بيدى .. ولاأعرف أين هما . . متى تخرج ؟ ..

قال الوسيط : السلام عليكم ورحمة الله ..

وأضيئت الأنوار . ورأينا الوسيط ، ورأينا الأستاذ عبد الجليل راضى .. ولم يكن يعرف شيئا عن هذه الزيارة المفاجئة . ولاعرف أن الأستاذ مريض .. ولم نطق صبرا على الجلوس . فاتجهنا نحو الباب وخرجنا . وبعد أن ابتعدنا عن البيت تذكرنا أننا لم نشكر الرجل ، أو حتى نعتذر له عن الزيارة بلا إذن .. ووعدنا بأن نفعل ذلك فيما بعد ..

* * *

وفى وقت واحد قلنا : ماهو المعنى ؟ ماالذى حدث ؟ أهى النهاية المؤكدة ؟ لو كان الأستاذ سليما لنقلنا إليه هذا الذى حدث ثم انتظرنا رأيه .. ولكن سوف يمضى إلى هناك ، دون أن نعرف منه شيئا .. ودون أن نجد وسيلة للاتصال به .. إلى غير عودة وإلى غير اتصال . . وبلا معنى وبلا حكمة !

وناديت سيارة تاكسى . وتوقف التاكسى . ودون أن أصافح زملائى قلت للسائق : مصر الجديدة من فضلك .

ولاأظن أننى عرفت كيف أفكر فى شىء . ولاعرفت كيف أمحو ماتبقى من صوت الوسيط فى أذنى . ولاحتى شكله ، وكان شاحبا غارقا فى العرق . . ولاشكل المصباح الذى كأنه ينتحر ينزف دما هادئا فى أحد أركان الغرفة . . ولاكيف كان منظر الأستاذ عبد الجليل راضى الذى يشبه طبيبا خرج من غرفة العمليات . . كان مرهقا ولكنه كان مستريحا ، فقد نجحت العملية وعاش المريض ..

ووقفت أمام بيت الأستاذ ١٣ شارع السلطان سليم بمصر الجديدة .. فوجدت ضوءا خافتا . وصعدت السلالم . ووجدت الباب مفتوحا . . ولقينى الأستاذ عامر العقاد . وسألته : كيف حاله ؟

قال : ياأخى . . الليلة فى أحسن حالاته . . شىء غريب حدث الليلة .

قلت : لقد ضحك الأستاذ بصوت مرتفع ولم يكن معه أحد ؟ ..

قال : الله ! كيف عرفت ذلك ؟ هذا ماحدث بالضبط . . ولما سمعته اتجهت إلى الغرفة ولم أجد أحدا معه .. وكان وجهه مشرقا .. كيف عرفت ذلك ؟ !

قلت : كنا فى جلسة تحضير أرواح وقالت لنا الروح ذلك !
ولم يدر كلام كثير بيننا . ونزلت .
ووجدت سيارة تقترب . ونزل منها يوسف السباعى . قلت : مفاجأة .. إلى أين ؟
قال : ياأخى كنت نائما ورأيت والدى فى المنام .. ومن النادر أن أراه . . وعاتبنى أننى لم أزر الأستاذ العقاد . . وفهمت من والدى أنه يريدنى أن أزوره فورا .. شىء غريب جدا . . هل مات ؟

قلت : ليس بعد ..
قال : لكن لابد أن تكون وفاته قريبة جدا .. هل من الممكن أن أراه الآن ؟ ..
قلت : إنه نائم ، وقد اتجه بوجهه إلى الناحية الأخرى . . وتغطى
قال : هل هو نائم . . أو أنه فى غيبوبة ؟ .. إذا كان سيموت الليلة فلا يمكن أن يكون نائما .
قلت : لاأعرف إن كان سيموت الليلة ..
قال : ولكن مارأيك أنت ؟
قلت : تعال نحاول .
ولكنه لم يجد الشجاعة فى الصعود إلى بيت الأستاذ ، وقال : إنه يعرف أننى أعتبره مثل والدى .. بل أجد فيه الكثير من صفات والدى .. وأنا لاأقوى على أن أرى والدى يموت مرة أخرى . . لاداعى . . ولاأظن أننى سوف أنام الليلة ..

* * *

وفى الساعة الثانية صباحا . . نهض الأستاذ من فراشه . . وذهب حافيا إلى دورة المياه . وهى أول مرة يجد نفسه قادرا على النهوض دون مساعدة . وأن يقف دون أن يتساند على الجدران . وأن يذهب إلى دورة المياه . وأضاء النور . ثم ذهب إلى مكتبه ، وأتى بالمصحف ووضعه على المخدة . ثم جلس الأستاذ على المقعد المجاور إلى السرير . وحاول أن ينادى أحدا . ولكنه لم يستطع أولم يرد ذلك .. وتمددت ساقاه تحت السرير . ووضع يده على جانبه الأيسر ومال بكل جسمه إلى اليسار . وارتطمت يده ببعض الزجاجات فسقطت . فسمع أهله وأبناء أخيه ذلك ، فسارعوا إلى غرفة الأستاذ . واقتربوا منه . ولم يجرؤ أحد أن يلمسه . وتقدم الأستاذ عامر العقاد . ولأول مرة فى حياته يلمس الأستاذ ويمسك يده . فوجد القلب يدق ببطء شديد .

وأسرع إلى التليفون . فطلب منه د . عليان أن يعطيه كورامين ..
وكانت المرة الأولى فى حياة أحد من أقارب الأستاذ أن يقترب منه أكثر ، وأن يلمس ذراعه أو عنقه أو رأسه ويقدم له دواء وهو يرتجف . فهو يخشى، إن صحا الأستاذ أن يغضب .

وجاء د . عليان بعد دقائق . وتقدم إلى الأستاذ . ومد يده يجس نبضه . وخرج يبكى : البقاء لله . مات الأستاذ ! .

ولا أحد يعرف بالدقة ما الذى حدث بعد ذلك . من الذى حمل الأستاذ إلى الفراش . من الذى وضع الغطاء عليه . من الذى أطبق عينيه . من الذى أعاد تسوية الزجاجات وعلب الدواء .. من الذى أخفى الأحذية كلها تحت السرير . من ألذى أتى بالورود فى هذه الساعة المبكرة من الصباح . من الذى أمر بفتح النوافذ والأبواب . ولا من أين جاءته هذه الابتسامة الهادئة . . إن الأستاذ يسكن البيت رقم ١٣ شارع السلطان سليم ، فجاءت وفاته يوم ١٣ مارس سنة ١٩٦٤ فى الساعة الثانية صباحا و١٣ دقيقة . . كما أن الذين زاروه حتى طلوع الشمس كان عددهم ١٣ . . ولا أحد يعرف حتى الآن من الذى قال لهم : إن الأستاذ قد غاب . .

وعلى السلالم تعثرت سيدة قد ارتدت الملابس السوداء وتبكى وتلطم خديها . وتمسح وجهها فى عتبات السلالم . . وتدق الباب الذى أغلق وتقول : لابد أن أراه . . انتهت الدنيا . . لا دنيا بعده . . لا حياة ولا موت . . ياخسارة . يارحمتك يارب . . أين هو . . أراه . .

وفتحوا الباب للسيدة « فوزية » . . وأدخلوها عليه . . وراحت تتمرغ فى الأرض ، وتخرج الأحذية من تحت السرير . وتضعها على رأسها . وتقول : ياليتك . . مشيت العمر كله على دماغى . . ياليتنى رأيتك أكثر . . ليس فى الدنيا أكرم منك . . ولا أطيب منك . . إذا احتجت إليك ليلا أو نهاراً . . يا أطيب الناس . . يا أرحم الناس . . من الذى يعالجنى فى إنجلترا مرة أخرى ؟ . . ياليت ساقى قد انقطعت . . ياليت عمرى كان الله قد أخذه وأعطاه لك . . مافائدة العمر بعدك . . ألف رحمة . . الجنة لك ياعباس . . ياعظيم . . يا سيد الناس . .

وأخرجوها وهى تقاوم . . وأنزلوها السلالم . وأغلقوا الباب . .

ولا أحد يقوى على أن يدخل غرفة الأستاذ ولا أن يراه ، ولا أن يكشف الغطاء عنه . . ولكن العيون تبكى والحناجر تتمزق ، والأيدى تدق الجدران ، والأقدام تدب على الأرض . والرءوس تتخبط فى الأبواب . .

وبدأ تلامذة العقاد يتوافدون : جاء صديقه الشاعر طاهر الجبلاوى . . وصديقه الأديب خليفة التونسى . . والفنان صلاح طاهر والأديب جلال العشرى والأستاذ عبد الفتاح الديدى وعدد كبير من تلامذته . .

* * *

وفجأة تعالت الأصوات والصرخات ، لقد عادت السيدة فوزية ومعها ابنتها «بدرية..» فى السابعة عشرة من عمرها ، ودخلت بدرية وألقت بنفسها عليه . وراحت تبكى . . وتصرخ فى حالة

جنونية . . وانكفأت على الأرض تلعق التراب تحت قدميه . . ثم تلعق أحذيته واحدا واحدا . . ثم تكشف عن قدميه وتقبلها وتصرخ : أين أنت يابابا . . أين ذهبت . . أنت لم تقل إنك سوف تموت . . حرام عليك . . لماذا لم تقل حتى أموت معك . . لا حياة بعدك . .

ثم هجمت على الزجاجات التى كان يتعاطاها ، وراحت تصبها فى حلقها . . وراحت تبتلع كل الحبوب . . ومزقت ملابسها وشعرها . . وألقت بحذائها من النافذة . . ونزعت من الشماعة بيجامة الأستاذ ، وراحت تلف نفسها فيها . . ثم أمسكت حذاء له ووضعته فى قدميها . . واندفعت من الباب إلى السلم تتدحرج عليه . وينزف الدم من رأسها . . ثم تختفى . .

وتظهر السيدة فوزية مرة أخرى . وتسأل الأستاذ عامر العقاد : هل ترك الأستاذ وصية ؟ .

– لا وصية

– هل ترك لنا مالا ؟

– ولماذا يترك لكم مالا ؟

– أنا زوجته

– هل معك عقد زواج ؟

– عند المحامى . .

– إذن فهات العقد . . امشى .. اخرجى يابنت الـ ...

وكانت السيدة فوزية قد وضعت صبغة زرقاء وسوداء على جانبى الوجه . . وكانت تمسك منديلا أسود . . وحاولت أن تتشبث بالأبواب وبالجدران . . وأن تجلس أمام باب الشقة ولكن الكثير من الأيدى قد دفعت بها إلى خارج الشقة .

ولما رأى البواب أن الجميع يدفعونها إلى خارج الشقة وبعيدا عن البيت ، أمسكها من يدها وأوقف لها أحد التاكسيات .

قالت له : هل يرضيك هذا ؟

– . . .

– أنت تعرف كم كان الرجل طيبا . وتعرف أننا نجىء إليه كل يوم ثلاثاء . . وتعرف كميات الحلوى والفاكهة التى يشتريها لبدرية . .

– ياست هانم ليس وقته الآن . . والله أنا لا أفهم . . على كل حال هذا المبلغ قد بعث به الأستاذ إليك . . ولم أجد وقتا لكى أحضر إليك . .

– كم المبلغ ؟ ..

– خمسون جنيها . .

– طول عمره رحيم . . طول عمره طيب . . يا ألف خسارة . . عليك العوض ومنك العوض يارب !

* * *

ودق جرس التليفون ، وكانت السيدة فوزية هي التى تتحدث . قالت : بدرية انتحرت . . . بلعت زجاجة حبوب منومة . . وماتت فى دار الشفاء . .

ونزلت سماعة التليفون ، ولم يهتم أحد كثيرا بما حدث لبدرية . . وكان الأستاذ يسمى بدرية « الكتكوتة » ، وكانت تزوره مرة أو مرتين كل أسبوع . . ويحرص الأستاذ ألا يكون أحد فى البيت . وكان يشترى لها الملابس والهدايا والكتب والحلوى . . وكان يبعث لها كل ما يستطيع . وفى عيد ميلادها طلب الأستاذ من عامر العقاد أن يذهب ويشترى لها مصحفا ذهبيا . وقال لعامر العقاد : ادفع أى مبلغ . . المهم أن يكون المصحف قيما .

وتصادف أن كان ذلك يوم الأحد . . وكانت المحلات مغلقة . . وكان لابد من إحضار هذا المصحف . فذهب عامر العقاد إلى أحد أصحاب المحلات فى بيته . وعرض عليه صعوبة موقفه . فذهب صاحب المحل وفتحه وأعطاه مصحفا ذهبيا ثمنه ٧٥ جنيها ، ومعه الوصل . ولما عاد سأله الأستاذ : ألم يكن هناك مصحف أكبر من ذلك ؟ . . فقال عامر : أكبر ما فى المحل . . واليوم الأحد . وكل المحلات مغلقة . ولكنى أرغمت أحد التجار على أن يفتح المحل إكراما لك يا أستاذ . .

ولكن الأستاذ لم يكن سعيدا بهذا المصحف الصغير . فقد كان يريده كبيرا . والحقيقة أن هناك مصاحف أكبر من ذلك . ولكن عامر العقاد يعرف الحالة المالية للأستاذ ، فلم يكن يملك فى بيته فى ذلك الوقت سوى ١٢٠ جنيها . .

واحتفظ الأستاذ إلى آخر لحظة بشيئين فى بيته : أسطوانة مسجل عليها حوار بين الأستاذ وبين طفلة صغيرة . . تقول له : يابابا . . وهو صوت بدرية هذه . و « البلوفر » الذى أهدته إليه الفنانة الرقيقة مديحة يسرى ردا على ديوان من الشعر قد أهداه لها . . وظل هذا البلوفر فى دولابه الخاص الذى يضع فيه أوراقه ، ومن بين هذه الأوراق رسائل مى زيادة إليه ، ورسائله إليها . . وكشف بأسماء الأصدقاء الفقراء الذين يساعدهم كل شهر . . وخطابات مجهولة من معجبات . . وخطابات بعث بها أيضاً إلى مجهولات . . وقطعة قماش سوداء من الكعبة . . وقطعة قماش ذهبية من مسجد كربلاء بعث بها أئمة الشيعة فى العراق . أما مخلفات الأستاذ فهى : ١٩ بدلة و ٢٠ حذاء و ٤٠ قميصا و١١ طاقية و٤٠ تلفيحة ، و٢٠ روبا و ٢٠٠ كرافته . . و٩٣ كتابا من تأليفه . وألوف الكتب والقواميس والمعاجم ودوائر المعارف . .

* * *

وتأخر القطار الذى ينقل جثمان الأستاذ إلى أسوان ثمانى ساعات..

وكانت بدرية ماتزال فى المشرحة..

واتصلنا بوزير الصحة د. نور الدين طراف نرجوه ألا يقوم أحد بتشريح جثة الفتاة إكراما للأستاذ، وسترا لهذه الفتاة المسكينة. ووافق د. نور الدين طراف.

وعندما دفن الأستاذ فى أسوان دفنت بدرية فى القاهرة.

ولم يكن أحد من أهل أسوان يعرف أن هذه الفتاة قد انتحرت. ولكن شخصا غريبا كان فى مطار أسوان. وجد المطرب محرم فؤاد يمسك صحيفة «أخبار اليوم» ولم يكد يرى صورة بدرية فى صفحتها الأولى حتى سقط على الأرض.. وراح يزحف حتى استقر تماما إلى جوار الحائط. ومات..

ولما فتشوا جيوبه لم يجدوا ورقة تدل على اسمه.. ولم يهتد إلى معرفته أحد.. فأضاف غموضا جديدا إلى لغز بدرية وأمها فوزية..

وكانت السيدة «فوزية» قد وكلت عنها. د. على الرجال المحامى ليدافع عن حقوقها.

وبعد شهور من الوفاة لم تثبت أن لها حقوقا، فتنزلت عن كل دعاواها. فلا زواج، لأنها متزوجة، ولا عقدًا عرفيا، ولا شيء يثبت بنوة الطفلة للأستاذ!

وسألنى يوسف السباعى: هل الأستاذ قد أوصى بشىء قبل موته؟ فقلت: لا أعرف. ولما سألت أسرة الأستاذ العقاد. قالوا: لم يوص بشىء.

سألنى طه حسين: كيف كانت الوفاة؟

قلت: هادئة.

وسألنى إبراهيم باشا عبد الهادى: لقد وعدنى بأن يترك لى خطابا يوصى فيه ببعض كتبه لأحد من الناس؟

قلت: لا أعرف، ولا أظن وقته قد اتسع لذلك.. كما أن يده كانت ترتجف. ولما حاول أن يكتب ووجد القلم يهتز فى يده، قال: إذن لقد مات العقاد.. إن هذا القلم لم يهتز قط فى يدى. وقد عشت من أجل أن يبقى ثابتا.. فإذا كان القلم يهتز فمعنى ذلك أننى جميعا أهتز. الآن فقط عرفت أننى ميت..

ولم يشأ أن يكتب حرفا واحدًا بعد ذلك!

قال لى كمال الملاخ: إننى حزين على وفاة هذا الرجل العظيم.. وآسف لهذه المناقشة الحادة التى دارت بينى وبينه قبل أن يموت..

فقد طلب منه المخرج عاطف سالم أن يتوسط لدى الأستاذ لكى يخرج له رواية «سارة»، والتى

المخرج والمؤلف فى مكتبة الأنجلو . ووافق الأستاذ ، ولكن لم يجرؤ عاطف سالم أن يعرف منه الأجر الذى يريده . . وطلب إلى كمال الملاخ أن يعرف ذلك من الأستاذ . وكلمه الملاخ فى التليفون ، قال : المخرج يريد أن يعرف كم تتقاضى عن روايتك . .

قال الأستاذ : ما يتقاضاه طه حسين لا أكثر ولا أقل . . ولكن لعلك تعرف أن روايتى ليست بها أحداث . . إنها تحليلية ، ولا أعرف كيف يمكن إخراجها ، ولا من التى تؤدى هذا الدور ؟ . .

قال الملاخ : أرشح مديحة يسرى . . فهى أقدر من أية واحدة أخرى ، ثم اننى سوف أدخل بعض التعديلات على الرواية . .

رد الأستاذ : ما هذا الذى تقول ؟ . . إننى لا أحب أن أتعامل مع مثلك من الجامعيين الأجلاف . . هل تعرف من الذى تكلمه ؟ . . أنت تكلم العقاد . .

– وأنت تكلم الملاخ . . إذا كنت أنت العقاد . . فأنا الملاخ . .

قال الأستاذ : ومن تكون أنت ياهذا ؟ . . العقاد هو الأهرام . . وأنت تتسول أمام الأهرام . . إن اقصى ما تستطيعه هو أن تشير بإصبعك إلى الأهرام ، فإذا فعلت ذلك فأنت تستحق أعلى جائزة أدبية . . فقط لأنك أشرت إلى الأهرام . . هذه حدودك أنت وغيرك . .

ولم يعرف كمال الملاخ السبب الحقيقى لثورة الأستاذ ، وتضايق من هذه اللهجة البركانية للأستاذ ، وقال له : يا أستاذ عقاد . . أنت الأهرام هذا صحيح . . ونحن ظلال إلى جوارك . . بل إذا كنا جامعيين فلأننا تخرجنا فى جامعة الجامعات التى اسمها عباس العقاد . . فكيف تغضب من تلامذة تلامذتك ؟ . . كيف تنكر عليهم أن يتمسكوا بكبريائهم التى تعلموها منك ؟ !

وعندما هدأ الأستاذ لهذه العبارات . التى أسعدته ، وعندما اعتذر له كمال الملاخ عن سوء الفهم ، شكره الأستاذ على ذلك . واعتذر له . .

سألتنى أم كلثوم : يا أخى أنت دماغك ناشف كالعقاد تماما . . أنا قلت لك هات لى قصيدة من قصائده أغنيها له . . لعلى أساهم بذلك فى سعادته بعض الوقت . . وقد أسمعنى كامل الشناوى بعض قصائد العقاد فوجدتها جميلة جدا . . وسمعتها من صالح جودت ، وسمعتها من الشاعر السورى عمر أبو ريشة . . وتمنيت أن أغنى له . . ولكنك ذهبت ولم تقل شيئا حتى مات الرجل .

قلت : لقد عرضت عليه الفكرة فقال ضاحكا : هل تعرف يامولانا ما الذى قاله برناردشو عندما منحوه جائزة نوبل ؟ إنه رفضها لأنها تشبه طوق النجاة الذى ألقى للغريق عندما بلغ الشاطئ ! ! وهذه الفكرة شىء من ذلك . . إننى لم أعد أقدر على مجرد الانتظار . . إن انتظار ظهور هذه الأغنية أكبر من احتمالى . اشكرها يامولانا . .

قالت لى أم كلثوم : أنا أعرف أن له أغنية واحدة للمطربة نادرة . . واحدة فقط . . والله

حرام . . إن الشعراء أشرار . . إننى لا أعرف العقاد . . ولكن الرجل فيه كبرياء وعظمة . . وأنا أحب عظمة الرجال وكبرياء الفنانين . .

سألنى الأستاذ على أمين : هل تشرف على إصدار عدد خاص من أخبار اليوم عن الأستاذ العقاد . . حياته وأعماله وأثره فى الفكر الإسلامى والمصرى ؟ . .

قلت : أنا لا أستطيع . فأنا حالتى النفسية سيئة جدا . . لقد أحسست أن أبى مات مرة أخرى . . وعندما مات جردنى من كل قواى . . كأنه يريد أن يسحبنى معه . . أوكأنه يريد ألا يترك أثرا فى نفسى حتى لا أذكره . . إيمانا منه بأنه لا فائدة من ذكرى أى إنسان مات . . مادام قد مات ، فقد ماتت معه كل الدنيا . . فالدنيا للأحياء فقط .

قال على أمين : كأنك لم تتعلم من العقاد شيئاً . . لقد مرت به كوارث عديدة ، ولكنه استطاع أن يدوسها ، وأن يقف وحده يصارع عصره كله . .

قلت : ولكن لا أعرف كم استغرق العقاد من وقت لكى يواجه ويصارع ويغالب . . ربما أستطيع ذلك بعد حين . . أما الآن فلا أستطيع ، فليس العقاد هو الذى مات ، ولكن فى داخلى شيئا مات مع العقاد أو مات من أجله . . لا أعرف ما هو . . لقد كان العقاد أكبر وأعظم وأعمق من عرفت . . فليس موته شيئا هيناً . . صحيح أن كتبه فيها الكثير . . ولكن العقاد نفسه كان تجديدا مستمرا لكل كتبه . . وإضافة يومية لحياتنا . . إنه العائد اليومى لما أودعنا فى بنوكه من آمال وأحلام وأفكار ترضيه أو تغضبه . .

* * *

وفى التليفون من السعودية سألنى الشاعر الأمير عبد الله الفيصل : إن كان يمكن عمل شىء لأسرته ، أو إحياء ذكراه القادمة . .

قلت : لا أعرف . .

قال : ألم يوص بشىء نستطيع أن نقوم به نيابة عنه واحتراما لوصيته ؟

قلت : إنه لم يترك وصية بشىء لأحد . .

* * *

ومن باريس اتصلت بى الأميرة المصرية السابقة « هـ . . . » وبلغة فرنسية لم أتبينها بوضوح : هل أولاده فى حاجة إلى مساعدة من أى نوع ؟

قلت : ليس له أولاد . .

سألت : ولا زوجة ؟ . .

قلت : ولا زوجة . .

قالت : ولكن الصحف الفرنسية نشرت صورة زوجته وابنته التى انتحرت . .

قلت : ليست زوجته . ولسنا على يقين إن كانت هذه ابنته . . ولو كانت فلا يوجد دليل على ذلك . .

سألت : من سيبنى مقبرته ؟ . . إننى على استعداد لأفعل ذلك على حسابى . . وسوف أبعث إليك برسالة مع المستشرق الفرنسى جاك بيرك . .

وأدهشنى أنها عرفت تليفونى . . ولكن تذكرت أنى لقيتها أكثر من مرة عندما كنت أعمل سكرتيرا لتحرير مجلة « الشهر » التى كان يرأس تحريرها الأستاذ أحمد الصاوى محمد وتصدرها « الأميرة » لطفية العبد . . وأننى لقيتها فى قصر الأميرة شويكار . . وترجمت إلى العربية قصيدة لها بالفرنسية وأخرى بالايطالية . . وأذكر أنها أعجبت ببعض الذى كتبه الأستاذ عن المرأة . . أعجبها أنه قاس على المرأة وعلى الرجل أيضاً . . ولما نقلت إلى الأستاذ ذلك قال : ما الذى تفهمه يامولانا ؟ . . إنها امرأة جميلة تحب قسوة الرجل عليها وتحب قسوته على الرجل أيضاً ، إنها تحب القسوة عموما . . فبالله كيف تحترم عقلية كهذه ؟ . . إن الذى يحترم هذه الأميرة يراها ولا يسمعها . . إنها لم تفهم الذى أقصده يامولانا . . ولكنها وجدت رجلا يمسك السيف ويطيح برءوس جميع خلق الله ، فأعجبها هذا « السفاح » الأدبى . . مع أننى لست سفاحا ، إنما أنا أرفض الظلم . . وأرفض الأفكار الثابتة الجامدة . . وأحاول أن آتى بجديد . . لم تفهم سموها ذلك !

ولكن لم أجد صوتا حزينا وقلبا صادقا مثل هذه الأميرة التى لم تقرأ إلا بضع صفحات للأستاذ فكان عطفها عليه أضعاف الذين حفظوا كتبه كلها ، ولم تهتز عيونهم بكاء عليه . .

* * *

وفى جنازة الأستاذ مشيت إلى جوار الشاعر كامل الشناوى ، وقال : هل لو طار النعش بالعقاد الآن إلى أسوان يكون العقاد معجزة القرن العشرين ؟

قلت : لن يطير النعش طبعا . .

قال : نفرض

قلت : لا أفرض . .

قال : يا أخى سوف أفرض أن النعش طار فماذا .. يحدث ؟ . . أنا أقول لك .. سوف يطالب به الشيعة فى العراق . . وسوف يرفضه أهل السنة فى مصر . وجمال عبدالناصر سوف يضمه فى السجن ، فالعقاد لم يقل كلمة طيبة عن ثورة يوليو . . أما طه حسين فسوف يضيف فصلا جديدا إلى كتابه الذى لم يتم عن « الفتنة الكبرى » . . أما توفيق الحكيم فسوف يعتبر أن طيران نعش العقاد هو أكبر إهانة للعقاد نفسه . . لأن العقاد رجل عقل ومنطق ولا يؤمن بهذه الخرافات ، وربما قال الحكيم : إن عقل

العقاد عندما ترك جسده ، أحس الجسم بانه تحرر من العقاد ، فطار على هواه . . اما انا فسوف ابحث عن سبب طيران النعش . . ولن يكون إلا سببا واحدا ، هو أنه فضل أن يدفن بغير جنازة ، على أن يمشى فى جنازته هذا العدد القليل من الناس الذين لا هم محبون ولا هم مثقفون . . إن العقاد هو أحق الناس بما قاله أحمد شوقى فى نعى مصطفى كامل :

المشرقان عليك ينتحبان
قاصيهما فى مأتم والدانى

وربما كان العقاد أحق الناس بهذين البيتين من نفس القصيدة :

دقات قلب المرء قائلة له :
إن الحياة دقائق وثوانى
لو أن للذكر الحكيم بقية
لم تأت بعد ، رثيت فى القرآن

ولم تطاوعنى نفسى أن أفلسف هذا الموقف الحزين أو فى السخرية منه ومن أنفسنا . .

* * *

أما الذى أصابنى بعد وفاة العقاد فلا أعرف بالضبط ماذا حدث لى . ولكن زوجتى تقول إننى كنت أبكى ليلا ونهارا . وكنت أمضى اليوم فى الفراش جالسا لا أرى ولا أسمع . . كأننى أنا الآخر أتهيأ للموت . . وكنت أجلس على المقعد كما أجلس فى طائرة : مشدود الحزام ، ممسكا بجانبى المقعد خوفا من السقوط . . أو فزعا من أن أكون مربوطا بحبل لا يرى . أوله فى القاهرة وآخره فى أسوان . .

وتسألنى زوجتى : ولكن لم ألاحظ أنك تذكره كثيرا ؟

وكنت أقول لها : إنه ليس غائبا أتحدث عنه . . إنه هنا . . فى عقلى . . فى وجدانى . . إننى لست فى حاجة إلى أن أرفع صوتى لكى يسمعنى . . ولا أن أذهب إليه لكى أجرى حواراً معه . . إنه الجانب الأكبر من تكوينى العقلى والأدبى والتاريخى . .

وكانت تسألنى : أهو أخطر عندك من والدك ؟ . .

وكنت أقول لها : بل هو والدى مرة أخرى . عندما مات أبى كان العقاد إحياء عظيما له . . ولما مات العقاد فقد مات أبى مرتين . . وكان موته إحياء للحزن على أبى وعلى كل أبوة . . وكل مثل عليا . .

وكانت تقول محاولة أن تخفف عنى مصابى فى العقاد ، وذلك بالحديث عنه وعن أبى وعن الصبر وعن الاحتمال فلم نكن تزوجنا إلا منذ أيام : ولكنى عندما زرت معك د . طه حسين كنت سعيدا

جدا . . . وكنت تثنى عليه كما لو كنت تتحدث عن العقاد ، بل أكثر . . فكيف ذلك ؟ . .

وكنت أقول لها : إن طه حسين عظيم . . ولكن عظمته من نوع آخر . إنه الأستاذ البعيد . . والعقاد هو الأستاذ القريب . . ومن المؤكد أن جيلنا أسعد حالا من أجيال قبلنا وبعدنا ، فقد عرفنا العقاد وطه حسين والحكيم وأم كلثوم وعبد الوهاب والسنباطى وإبراهيم مدكور وعبد الرحمن بدوى وصلاح طاهر وعبد الرحمن صدقى وعلى أدهم ولطفى السيد وهيكل باشا وأحمد حسن الزيات وعزيز أباظة وأحمد أمين ومصطفى عبد الرازق وغيرهم . .

وعرفت من زوجتى فيما بعد أننى كنت أصحو من النوم فزعا . وأجلس مرتجفًا . وأن ذلك حدث لى أكثر من مرة قبل وفاة الأستاذ وكثيرا بعد وفاته . . وأنه حدث مرة واحدة أن نزلت من البيت فى أحد أيام الجمعة ، واتجهت إلى مصر الجديدة مسرعا إلى بيت الأستاذ . وقبل أن أدق الباب بيدى ، تنبهت إلى أن الأستاذ قد مات منذ ثلاثة شهور !

ولم أعد أقرأ صفحات « الوفيات » فقد مات أبى ومات الأستاذ العقاد . . وبعد ذلك بدأ يتساقط العباقرة الذين ولدوا معه فى نفس العام : نهرو وشارلى شابلن والفيلسوف مارتن هيدجر والفيلسوف جبريل مارسيل والمؤرخ ارنولد توينبى والمؤرخ عبد الرحمن الرافعى . . وطه حسين . . والأديب محمود أبو رية . . ثم ناظر مدرسة نابلى الإعدادية كارلو أورفيزى الذى نزلت فى بيته سنة ١٩٦٣ والذى قرأ كفى وقال لى : فى مثل هذا اليوم من العام القادم يموت لك شخص عزيز عظيم . .

وصدقت نبوءة الرجل الذى سرت فى جنازته هو أيضاً . . وكانت له ملامح الأستاذ : الطول والعرض والكبرياء والفلسفة والإيمان والفشل فى الحب . . والفقر !

وَتَنَبَّأَ العَقَّاد بنِهَايَتهِ!

لم تتغير الدنيا. إنما أنا الذى تغيرت. فأنا أمشى فى الشارع لا أريد أن أرى ولا أن أسمع. ولا أحب أن أنظر فى وجوه الناس. كأننى قررت أن أعطل حواسى كلها. فلم يعد هناك شىء أو أحد يستحق الاهتمام. كأننى مثل راديو نزعت بطارياته. فأصبح بعد ذلك صندوقا من الخشب أو من البلاستيك. ثم إن عندى شعورا بالرفض – فأنا أرفض الناس. وأستكثر عليهم أن يعيشوا. كأنه مفروض أن يموت العالم كله ولا يموت الأستاذ العقاد. أو يموت نصف العالم ويموت الباقى فداء له.

فإذا كان العقاد شجرة شاهقة فهم أعشاب، ملايين الأعشاب. ويوم مات أبى قررت ألا أمشى فى جنازته. وكنت متفلسفا صغيرا عنيفا شاردا ثائرا. وكنت أقول إن أبى الذى عرفته لم يمت. أما أبى الذى يعرفه إخوتى والناس فقد مات، ولذلك فهم يمشون فى جنازته ويتلقون فيه العزاء. أما كيف استطاع أبى أن يظل حيا وقتا طويلا.. فإننى لا أعرف الأسباب النفسية أو البيولوجية التى جعلته يعيش.. إن له «حضورًا روحيًا» غريبًا عجيبًا.. إننى أراه كثيرا شبحا أمامى.. أراه كأنه ظل. وأحس بوجوده كأنه يلمسنى. فإذا رأيته أو تخيلت ذلك فلابد أن مصيبة أو كارثة سوف تقع. وكأنه جاء يحذرنى من ذلك. أو جاء يهيئنى لكى أتقبل الكارثة بهدوء!.

وقد سألت أساتذتى فى علم النفس عن معنى ذلك. ولكن أحدا لم يدلنى على شىء. أو قالوا أشياء كثيرة ولكنها لم تقنعنى.. ولكى أكون أوضح فإننى أروى لك ما يحدث عادة. فأنا جالس الآن أكتب. وفجأة أرى وجه أبى على الورق أمامى. يبدو لحظة أو لحظتين بصورة تجعلنى أتوقف عن الكتابة.. أو إذا كنت جالسا أو فى سيارة أو بين الناس فإننى أراه وجها أو ظلالا لوجه.. وأراه من بعيد يقترب.

فما الذى يحدث بعد ذلك؟ لابد أن تقع مشاجرة. أو خناقة أو يصيبنى سوء لابد. وقد بدا ذلك واضحا بعد وفاة أبى بعام واحد. ولكن بعد وفاة الأستاذ أصبحت أرى ذلك كثيرا وبشكل بدأ يزعجنى.

وقررت فى أحد الأيام ألا أستسلم لهذا الشىء الغريب. فجلست أرصد هذه الظاهرة النفسية وأحللها بمنتهى الدقة الموضوعية العلمية المجردة من كل عاطفة..

وأمسكت ورقة وقلما ، وانتظرت زيارة هذا الطيف أو هذا الشبح أو السحاب الشفاف الذى يتخذ معالم وجه أبى – يرحمه الله – وانتظرته أن يجىء ..

ودق جرس التليفون ، ولم أكد أرفع السماعة حتى رأيت هذا الوجه : مستديرًا أبيض اللون أخضر العينين له طربوش ومنظار ويرتدى البدلة والصديرى وله سلسلة ذهبية تعلقت فيها الساعة فى داخل الصديرى . وكان المتكلم الأستاذ فريد شحاتة سكرتير د . طه حسين . قال : إن الدكتور يبحث عنك منذ يومين . أين أنت ؟ . إنه يريد أن يراك .

وسألته : ألا تعرف ما الذى يريده ؟ .

قال : لا أعرف . إنه يريد أن يتحدث إليك ..

قلت : غدا سوف أجىء ! ..

ولم يكن من عادتى إذا طلبنى د . طه حسين أن أتساءل ماذا يريد . يكفى أنه أراد . إنه طه حسين . وهو يريدنى . وهذه سعادة كبرى . ولقاؤه متعة عظمى . يكفى أن أتحدث إليه .. ولكنى هذه المرة لم أجد ذلك ضروريا . ولا يهمنى كثيرا أن أراه أو يسمعنى . فما الذى عساه يريد . هل هو مجرد حب الاستطلاع . فيسألنى : ماذا قال الناس عن وفاة الأستاذ ؟ .. ومن الذى سار فى جنازته ؟ .. ومن الذى لم يسر؟ .. وماذا قال قبل موته ؟ ..

وطلبنى الأستاذ فريد شحاتة فقال : إننى أتحدث إليك والدكتور إلى جوارى .. إنه يريد أن يكلمك .

قال طه حسين : أين أنت يا سيدى ؟ .. إننى أبحث عنك منذ يومين . ففى أى البلاد كنت ؟ .

قلت : آسف يا دكتور . إن أحدا لم يخبرنى بذلك .

قال طه حسين : إذن فمتى أراك ؟ .. تعال الآن .

قلت : حاضر يا دكتور ..

ولاحظت أننى أتحدث إليه بلهجة فاترة . حاضر يا دكتور ..

لا أظن أننى قلتها قبل ذلك .. ولكن شيئا ما قد اختفى من نفسى أو من حديثى أو من فكرى .. حاضر يا دكتور .. كأننى تمورجى وهو طبيب .. كأننى واحد من أهل مريض ثم جاء طبيب يطلب ماء ساخنا .. أو أن أغلى له الحقنة .. أو أشترى الدواء الذى وصفه للمريض .. حاضر يا دكتور ..

ووجدتنى أمام الفيلا التى يسكنها د . طه حسين فى الهرم . الفيلا اسمها « رامتان » . ولا أعرف كيف وصلت إلى هذا المكان . فلم أشعر بوجود شارع الهرم ولا الشارع المتفرع منه . وقبل ذلك كنت أضع كل علامات الطريق فى عينى طولا وعرضا ولونا . كان الطريق إلى طه حسين شريطا من الصورة والصوت والعطر . وكان للطريق مذاق التاريخ . فكنت أرى زيارتى له علامة من علامات القضاء

والقدر . إنها ليست زيارة ، إنها شيء جليل ونقطة تحول . ولكن هذه المرة وجدتنى أمام باب « رامتان » . وانفتح باب لم أعرف لونه ، ولم أسمع صوته . وامتدت يد سوداء تشير إلى غرفة بالقرب من الباب . ودخلت .. ووجدت د . طه حسين ضاحكا كعادته يقول : أهلا يا أستاذ أنيس . أين كنت ؟ إننى أعرف مدى حزنك وعمق مأساتك ، ولكنى لم أكن أعرف أن الرجل عميق فى نفسك . وأنه مصاب فلسفى . لقد ظننت أول الأمر أن عبد الرحمن بدوى هو أستاذك . ولكن قرأت أن لك تحفظات على فكره . وأنا أشاركك هذا الرأى . وقرأت أن لك تحفظات على الأستاذ العقاد . ولكن إعجابك به أكبر . ورأيت وفاءك له نموذجيا . فليس بين الشباب كثيرون يعرفون الوفاء لأحد .. لأب أو أم أو أستاذ أو زعيم .. أهذه هى المرة الأولى التى تزورنى هنا ؟ .

قلت : نعم هذه هى المرة الأولى التى أجيء فيها إليك فى هذه الفيلا .

قال : أعجبتك ؟ .

قلت : جميلة .

قال : وما الذى أعجبك فيها ؟ .

قلت : أنك فيها ..

قال : (بالفرنسية) مرسى .. مرسى . إن سوزان زوجتى يسعدها أن تسمع منك ذلك ..

ثم قال : أتدرى ما معنى رامتان ؟ .. رامتان ومفردها رامة .. وهى مكان فى البادية . ومنها جاء أخونا الشاعر أحمد رامى .. أو أن أهله قد جاءوا من البادية السعودية .. والشاعر القديم يقول ..

وكان طه حسين يحب أن يلقى الشعر القديم العجيب الغريب . ويجد فى ذلك لذة كبرى . لأنه يحب الشعر . ولأن صوته جميل . ولأن الذين يسمعونه يطلبون إليه ذلك .. ولأنه يختار شعرا يندر أن يحفظه أحد .

قال طه حسين :

تسألنى برامتين « سلجما »

يا مى لو سألت شيئا أمما

جاء به الكرى أو تجشما

وقال طه حسين : وفى رواية أخرى :

تسألنى برامتين « سلجما »

لو أنها تطلب شيئا أمما

جاء به الكرى أو تجشما !

وسكت طه حسين ، ثم ضحك لأنه على يقين من أننى لم أفهم شيئا من هذه الأبيات . وكان يجد

فى ذلك متعة أخرى . ولم ينتظر حتى أسأله عن المعنى . ولم يكن فى نيتى أن أفعل ذلك . فقال : يا أستاذ أنيس أفسر لك هذه الطلاسم العربية القديمة .. فالعرب تضرب المثل فتقول : تسألنى برامتين سلجما .. أى أنك تسأل عن نبات السلجم هذا فى منطقة جرداء .. أى أنك تطلب شيئا صعبا أو مستحيلا .. ثم يقول لمحبوبته مى : ياليتك طلبت شيئا سهلا ..

قلت : منتهى التواضع يا دكتور .

قال : كيف ؟

قلت : أن تسمى بيتك رامة أو حتى رامتين ، فإن بيتا يعيش فيه طه حسين لهو الوادى والغابة والواحة والينبوع والكعبة يحج إليها الناس من كل مكان .. تماما كما نسمى الجنة الخضراء بالصحراء الجرداء ، أوكما نسمى النهر بالسراب .. أو نسمى الشمس بالبقعة السوداء ..

وأدهشنى من نفسى أننى أقول له كل ذلك ، ولكن أرضانى أننى اكتشفت أننى لا أقصده إنما أقصد الأستاذ العقاد الذى لم يكن له بيت . وكان متواضعا رغم عظمته وثرائه العقلى وطوفانه الوجدانى ..

قال : يا أستاذ أنيس .. لم تقل لى كلاما واضحا فى التليفون حين سألتك عن كيف كانت وفاة الأستاذ العقاد – يرحمه الله – سمعت كلاما كثيرا من الأطباء وغيرهم . ولكن لابد أنك تعرف الحقيقة .. مسكين . لقد تعذب فى وفاته ولم يسعد فى حياته .. وعاش غريبا ومات أكثر غربة وغرابة .. كان غريبا عن عصره لأنه كان يرى ما لا يرى الناس ، ويسمع ما لا يسمعون . ولكن كان يعيب على الناس أنها لا تدرك ما يدركه .. مع أنه من المنطقى جدا أن يحدث ذلك .. فهو أطول قامة وأطول باعا ، وأقوى بصرا وأعمق بصيرة .. إن الناس يرون بعيونهم المجردة وهو قد اتخذ منظارا مقربا .. ورغم واقعية الأستاذ العقاد ، فإنه فى ذلك كان مثاليا .. فهو لم يغفر للناس عجزهم عن ملاحقته ، إنما أراد لهم أن يكونوا مثله . فقد نسى العقاد نفسه .. نسى أنه واقعى ، أو أن العقاد لم ينس واقعيته . إنما ضاق بواقعية الناس . وما واقعية الناس إلا عجزهم . وما مثالية العقاد إلا رغبته القوية فى أن يرفع إليه الناس ، فإذا لم يطاوعوه لعنهم وضاق بهم .. مع أن الأستاذ العقاد أقدر الناس على فهم الناس . فكيف غاب عنه عجز الناس وقلة حيلتهم ؟ .. ولذلك فالمستشرقون الذين يضعون العقاد فى صف المثاليين المتطرفين ، لم يخطئوا كثيرا . والعقاد هو الذى ربط بين المثالية والتشاؤم . وكان العقاد هذين الطرازين معا : مثاليًا ومتشائمًا ! فالمثالى هو الذى لا يرضيه الواقع ويتمنى أن يكون أفضل . ولذلك فالمثاليون متشائمون لأنهم لا يجدون ما يريدون . ويجدون صعوبة شديدة فى تحقيق ما يريدون . وهم يريدون تحقيق ذلك بين الناس . والناس لا يطاوعونهم ، فيزداد غضب المثاليين من الناس . ولذلك فهم متشائمون .. وربما كان هذا موقف العقاد من الأطباء أيضا . إنهم لم يطاوعوه فى

تشخيصه لمرضه . فضاق بهم . ورفض دواءهم . واختار دواءه .. وموته أيضا ! ..

(لم أجد عندى شهية للفلسفة . ولم أجدنى قادرا على مجاملة طه حسين فى المضى فى هذه المناقشة . ولم أحب أن أتهجم على جسد العقاد فأشرحه ببرودة طه حسين . فلم يمت العقاد بعد . إنه هو الآخر ما يزال فى أعماق ، وما يزال فى عينى وفى أذنى ، وما يزال دمه عالقا بثوبى . كأنه مات قتيلا . كأنه واحد من أئمة الشيعة ، قتلوه .. صلبوه .. ووجدت فى موته تعاسة لى وسوء حظ . فما أسعد الناس الذين لا يعرفون العظماء . ما أسعد الناس الذين لا يملكون الملايين ثم لا يفقدونها فجأة . ما أسعد الناس الذين لم يركبوا طائرة ثم لا يسقطون منها بلا مظلة .. ما أسعد الذين ولدوا بلا عينين . وما أشقى الذين كانت لهم عيون انطفأت بلا سبب . فانطفأت بهجة الدنيا، وماتت فى عيونهم الحياة ..)

ثم قلت : والله يا دكتور إن هناك أسبابا أخرى قد أدت إلى الوفاة .. وهى أسباب تافهة . وليس من الضرورى أن يموت العظيم بسبب عظيم .. قد ينزلق على قشرة موز فيموت .. قد يقف الماء فى حلقه ويموت .. كما وقفت الشمبانيا فى حلق الخديو إسماعيل .. وكذلك الأستاذ . فقد ذهب إلى أسوان . وعاد غاضبا وأقسم ألا يعود . وأقسم كل عضو فى جسمه وكل خلية فى عقله أن تبر بهذا القسم . فامتنعت كلها عن العمل فجأة . ولم يعد .. هذا كل ما حدث يا دكتور ! .

سألنى طه حسين : وهذا ما سمعته أيضا . ولكن لماذا غضب العقاد ؟

قلت : لقد بعث إلى أهله فى أسوان بقماش ليجعلوا منه ستائر لنوافذ البيت الذى بناه . وفوجئ بأنهم جعلوا الستائر أقصر مما يجب .. وأن بعض القماش قد استخدم فى أغراض أخرى .. وكان قد بعث بتعلياته الخاصة بتركيب هذه الستائر وكيف ومتى وأين . وكانت غضبة الموت ..

قال : ألا ترى أن العقاد كان عصبيا ؟ .

قلت : أرى ذلك .

قال : جاءنى المستشرق الفرنسى لوى ماسينيون . وكان قد ذهب إلى العقاد يهديه كتابه عن « عذاب الحلاج » .. أنت تعرف الكتاب ودرسته .. وقد استمعت إلى حديث لك فى الراديو عنه فأعجبنى .. وأعجبنى أنك قلت : إن كل إنسان عرف الحلاج قد تعذب به وله إلا هذا المؤلف الفرنسى .. فهو طبيب أو وكيل نيابة أو سفاح .. صدقت ، فالمستشرق ماسينيون له هذه الصفات .. وعذره أن الباحث يجب أن يكون قاضيا أو طبيبا جراحا لا يهتز أثناء عمله ولا يشارك أهل الفقيد فى حزنهم عليه .. فماذا وجد عند العقاد ؟ .. قال ماسينيون : إن العقاد نظر إليه بامتعاض شديد وقال : ولكنك يا سيدى لم تفهم الحلاج .. إنك جعلته مسيحيا ، ثم تحدثت عن المسيح ولم تتحدث عن هذا الصوفى المسلم العظيم .. كأنك قمت بتهريب الحلاج إلى فرنسا ، ثم أعطيته الجنسية الفرنسية وغيرت ملابسه واسمه ودينه أيضا .. وأرى أنك ارتكبت جريمة تستحق عليها العقاب .. فقال له ماسينيون :

إذا كانت النية الطيبة جريمة ، فإننى أعترف لك بهذه الجريمة .. فقال له العقاد : إننى أقبل هذا التفسير ، وأرى أن تضعه على الغلاف الخارجى للكتاب فتقول : عذاب الحلاج جريمة ارتكبها ماسينيون .. فإذا فعلت فستكون أول مجرم يدافع عنه العقاد لإيمانه ببراءته التاريخية ! ! هاها.. هاها !

ثم سكت طه حسين ليقول : ألا ترى يا أستاذ أنيس أن العقاد كان قاسيًا فى غضبته الشديدة ؟ .. ثم إن كتاب ماسينيون ليس كما وصفه العقاد . ولا أعرف بأية لغة قرأه .. إنه مكتوب بالفرنسية ولم يظهر فى أية لغة أخرى .. ربما ظهرت بعض مقالات عن هذا الكتاب .. واحدة ممتعة كتبها عبد الرحمن بدوى .. وواحدة كتبها المستشرق الألمانى جرينباوم . ومقالة ثالثة كتبها على ما أظن الأب قنواتى وهو صديقك من رهبان الدير الدومنيكى .. إذن لقد كان العقاد عصبيا منذ وقت طويل جدا .. ولم يكن العقاد يقبل الدعابة حين تقول له : يا عباس لو أنك تزوجت .. فيقول : يكون ماذا ؟ فأقول له : تكون أهدأ نفسيا .. وكان العقاد يضحك قائلا : يا دكتور طه إننى على دين آلهة الإغريق الذين أنت سعيد بالكتابة عنهم .. هل كانوا متزوجين ؟ هاها .. هاها ..

وتضايقت من طه حسين . وعرفت لماذا ظهرت صورة والدى أمام عينى عندما مددت يدى إلى التليفون !

وفى ذلك الوقت عرفت الأحلام المفزعة .. فكنت أرى العقاد يحاكم فى جهنم .. وأراه يفتح مدرسة فى الجنة .. وفى إحدى الليالى تخيلت أننى مع أبى العلاء فى الجنة التى وصفها فى « رسالة الغفران » . ومع الشاعر الإيطالى دانتى الليجرى فى « الجحيم » . وانتقلت من الجحيم إلى « المطهر » استعدادا لأن أدخل مع الأستاذ إلى « الفردوس » بنفس الترتيب الذى وصفه لنا الشاعر الايطالى الذى لعله اقتبس الفكرة من شاعرنا أبى العلاء المعرى . وقبل أن ندخل الجنة وضعوا السلاسل فى أيدينا . ووقفت مع الأستاذ فى قفص واحد . أما الذى يحاكمنا معا فهو طه حسين . وقد سمعته يطلب لنا أقصى العقوبة .

وصحوت من النوم . ووجدت أن هذا يخفى كراهيتى لطه حسين . ولكن لم أجد سببا معقولا لأن أكره طه حسين . ولا أظن أننى كنت أتمنى أن يموت ليعيش العقاد . فإن لم يكن هذا الحلم معناه الكراهية ، فهو دليل على الضيق والحزن والظلم الشديد ..

وبعد أيام طلبنى د . طه حسين .

قلت له : عندى رسالة إليك من د . عبد القادر حاتم وزير الإعلام . فهو يرجو أن نسجل معك برنامجا تليفزيونيا أجمع لك فيه عددا من الأدباء . يناقشونك . وكلهم تلامذتك ..

ذهبت إلى طه حسين وشرحت فكرتى . وذكرت له بعض الأدباء . فوافق ، وقبل أن أتركه سألنى : وكم يدفع التليفزيون أجرا عن هذا اللقاء ؟ .

قلت : كما تريد يا دكتور ..

قال : ليس أقل من العقاد .

قلت : لك ما تريد يا دكتور ..

أى أنه يريد أن يتقاضى مائتى جنيه . ثم عاد يقول لى بسرعة : وأن أتقاضى هذا المبلغ قبل التسجيل ..

قلت : حاضر يا أستاذ ..

ولم أكن أعرف أن هناك مشكلة إدارية ، فلم يحدث قط أن أحدا تقاضى أجرا قبل تسجيل البرنامج أو إذاعته . وقابلت د . عبد القادر حاتم ، ووافق على أن يذهب المرحوم حسن حلمى مدير التليفزيون بنفسه ويدفع له المبلغ . وذهبنا إلى بيت طه حسين . ووقفت سيارة التليفزيون تسد الشارع ، وأدخلونى على طه حسين فى غرفة صغيرة فى الطابق الثانى من الفيلا . وكان قد ارتدى ملابسه . ولكنه كان عاجزا عن الحركة تماما . وكان لابد من أن نحمله على مقعد وأن تنزل به السلم . وسألنى إن كنت قد أحضرت الفلوس . فقلت : نعم .

فجاءت زوجته السيدة سوزان وأخذت المبلغ وراحت تعده أمامنا .. فوجدته ناقصا . وأخجلنى ذلك . ونظرت إلى السيد حسن حلمى ، ولم يعرف الرجل ماذا يفعل . فعادت السيدة سوزان تعد العشرين ورقة واحدة واحدة . وكان المبلغ صحيحا .

وقالت بالفرنسية : مضبوط .

وأخرج طه حسين « خاتما » من جيبه . وأعطاه لسكرتيره فريد شحاتة ، ليوقع بالاستلام .

وتركت طه حسين لأرى زملائى ، ولأعرف متى يبدأ تصوير هذه الجلسة العائلية التاريخية . ولم أجدهم . فأشار الخادم إلى أنهم فى الحديقة . فلم توافق السيدة سوزان على دخولهم الصالون الذى تغطى بالسجاجيد العجمية الجميلة . وكان العشب فى الحديقة مبللا . ولم نعرف كيف ندخل . ولا كيف نستأذن حرم طه حسين . ولكن سمعتها تصرخ وتلعن الأدباء الذين سيفسدون الصالون الجميل . ولكنها انصرفت لحسن الحظ ، لتشهد حفلاً في السفارة الفرنسية ، وطلبت أنا من مخرج البرنامج أن يوقف سيارة التليفزيون بعرض الشارع ، فإذا جاءت زوجة طه حسين فليحاول تعويقها أو تعطيلها أو منعها من الدخول .. فهى لا تقوى على أن ترى الأدباء وقد اتسخت أحذيتهم بطين الحديقة قد جاءوا ينظفونها فى السجاجيد .

وقد ضم البرنامج عشرة من الأدباء والمفكرين . ولما لاحظ طه حسين أن عددهم كبير سألنى : يا أستاذ أنيس كم يبلغ هؤلاء ؟ ..

فقد اتفق معى على ألا يزيد عدد الأدباء على خمسة .. فلم أرد عليه ..

ولما سمع طه حسين حركة وضوضاء حوله قال فى البرنامج : يا أستاذ أنيس لا تعنفوا بالبيت ! وأوفوا بالعهد يا أستاذ أنيس !

ولم يفهم الذين شاهدوا البرنامج أو حتى شاركوا فيه ما هذا العهد الذى لم أف به – لقد وعدته أن أدفع له مائتى جنيه إذا كان المشتركون خمسة ، وأدفع ضعف هذا المبلغ إذا كانوا عشرة ..

ومن المؤكد أننا أفسدنا نظام البيت وترتيبه . ثم نقلنا طين الحديقة إلى كل مكان فى الصالون . فقد كان إلى جانب الأدباء عمال التليفزيون الذين ينقلون الكاميرات ويضبطون العدسات ويشدون الأسلاك ويعلقون المصابيح ..

وفى هذا البرنامج هاجم طه حسين الأستاذ العقاد . وقال وادعى بأنه لم يفهم كتاب « عبقرية عمر » وفى نفس الوقت لا يوافق العقاد على استخدام المنهج النفسى فى تحليل الشخصيات الأدبية كما فعل العقاد فى شخصية « أبى نواس » . وقال إن حفيده يدرس « عبقرية عمر » ولم يفهمها .. ثم ضحك ساخرا من الكتاب ومن المؤلف أيضا !

ولم أطق صبرا على ذلك . وضاق ألوف الناس . وأرسلوا للصحف مقالات يهاجمون فيها طه حسين الذى لم يجرؤ أن ينتقد العقاد حيا ، فانتقده ميتا . ونشرت فى الصحف صورًا لرسائل بعث بها طه حسين يبدى إعجابه الشديد بكتاب « عبقرية عمر » وحملت أنا على طه حسين بعنف فى عدد من المقالات .. وقررت بعد هذه المقالات الغاضبة أن ألقاه . وذهبت إليه فقال : لم أكن أعرف أنك تحب العقاد إلى هذه الدرجة .

فقلت : ولم أكن أعرف أنك تمقت العقاد إلى هذه الدرجة . إن الموت لم يحسم ما بينكما من خلاف ..

قال طه حسين : ولكن العقاد قد ألقى محاضرة عن شوقى ثم هاجمه أخيرا . ولما سألته أنت عن ذلك قال : ولكن شوقى لم يمت . فالعقاد لم يمت . ولذلك فأنا أنتقده . لأن هناك من يستطيع أن يناقشنى أو يستأنف الحكم فى قضية العقاد ..

قلت : ولكن الذى لا يعجبك من العقاد الآن هو الذى أعجبك قبل ذلك ..

قال : لقد قلت قبل ذلك إننى لم أفهم « عبقرية عمر » .. ووجدت حفيدى عاجزا عن فهمه .. وكذلك عشرات الألوف من طلبة المدارس الثانوية .. وأنا على استعداد لأن أعطى جائزة لمن يفهم هذا الكتاب هاها .. هاها ..

ولا أعرف كيف انتهى الحديث هذه المرة .

وذهبت إلى طه حسين دون موعد سابق وقلت : جئت لأعرف أوجه الخلاف بينك وبين العقاد . إنها قضية العصر الأدبية ..

وقال طه حسين كلاما كثيرا . لم يعلق فى ذهنى منه إلا هذه العبارة : لقد حصلت على ست دكتوراهات . والعقاد لم يحصل على واحدة !

وتضايقت جدا ، ولم أجد ما أقوله . وأخيرا قلت : المتنبى والبحترى وأبو تمام وشوقى وشكسبير وجيته وهيجو وكل الأنبياء لم يحصلوا لا على الدكتوراه ولا الابتدائية ! بل إن هوميروس وأبا العلاء والأعشى وميلتون وبابينى لا يقرأون ولا يكتبون ! .

فهم جميعًا من العميان !!

وقد تضايق من ذلك كثيرا جدا !!

وخرجت . ووقفت أمام البيت ووجدت ألوانه بيضاء كأنها ألوان كفن . ووجدت الطريق إلى البيت منحدرا مليئا بالمطبات كأنه طريق إلى مقبرة .

ووجدت الشارع يرتفع كلما ابتعدت عن بيت طه حسين . إذن فبيته هو نهاية الانحدار فى هذا الشارع الصغير . ولم يكن البيت هو الذى انحط فقط عند نهاية المنحدر ، بل طه حسين أيضاً !

ووجدتنى أشترك فى ندوات كثيرة وأحيانا فى جلسات عائلية . ويكون الموضوع : العقاد . ويكون دورى أن أحكى عنه وأروى نوادره ، لأن الجلسة ليست أدبية . وأحسست أننى جعلت من العقاد جحا جديدا سليط اللسان . ولم أعد أستسلم لرغبات الناس فى أن أتحدث عن العقاد كلما رأونى . وامتنعت عن ندوات التليفزيون والإذاعة فى كل مناسبة لها علاقة بالعقاد . فقد أحسست كأننى « قارئ » وأننى مطلوب لاحياء ذكرى العقاد . وانزعجت من أن تكون هذه كل صفاتى : أننى عرفت العقاد وعشت معه وأحببته واختلفت معه .. فكأننى أعيش على هامشه ومطلوب منى أن آخذ من عمرى وأضيف إلى عمره . وتوقفت تماما عن الحديث عنه أو الكتابة .

وقد جاء ذلك القرار فجأة . ففى يوم كنت مدعوا إلى العشاء فى بيت الموسيقار محمد عبد الوهاب ، وكان الضيوف أم كلثوم وعبد الحليم حافظ وفاتن حمامة وشادية وكمال الطويل وكامل الشناوى ونجاة الصغيرة وكمال الملاخ وليلى فوزى . وفجأة وقف كامل الشناوى يقول : والآن سوف تسمعون عجبا . سوف تسمعون ما لم يعرفه أحد عن عملاق الفكر والأدب المرحوم عباس العقاد ..

ثم أشار كامل الشناوى ناحيتى ، وتعالى التصفيق . ودارت الدنيا فى عينى ، واختلطت الكئوس بالمصابيح بالدموع بالخجل بالحزن بالحرج . ووجدتنى فى سيارتى عائدا إلى البيت . ولم أتكلم عن الأستاذ العقاد فى أية مناسبة أدبية أو اجتماعية ، فلا الرجل تسلية ولا أنا مونولوجست .

ولابد أنه الضيق بطه حسين هو الذى جعلنى فيما بعد أكتب مقالا فى « الأخبار » بعنوان : أطال الله عمر الفقيد .. وقد انزعج طه حسين من هذا المقال . فقد أشيع أن طه حسين مريض . وأن الأطباء يعالجونه ، وأن الأمل فى شفائه قليل . فاتصل بى سكرتير التحرير يطلب منى معلومات عاجلة

عن طه حسين . ودار الحوار بيننا هكذا :

– هل هو مؤمن ؟

– لا .. ملحد .

– كيف تفسر تأليفه لكتاب على هامش السيرة ؟ ..

– إن عددا كبيرا من المستشرقين اليهود والمسيحيين فعلوا ذلك ..

– ما الذى يبقى لطه حسين من كل كتبه ؟ ..

– كتاب الأيام .

– أيهما أعظم : العقاد أو طه حسين ؟ ..

– ما يكتبه العقاد فى صفحة ، يكتبه طه حسين فى ألف صفحة . وما يقرؤه العقاد فى يوم ، يقرؤه طه حسين فى سنة .. والناس يعجبون بالعقاد ولكن يشفقون على طه حسين .. والعقاد سياسى لم يستفد من السياسة شيئا . وطه حسين ليس سياسيا ، ولكنه استفاد من السياسة .. الخ .

وقرأ طه حسين المقال وتشاءم من أن يتعجل أحد موته .

وتذكرت أن طه حسين فى هذه الندوة التليفزيونية قد وصفنى بأننى أكبر وأحسن قارئ فى مصر ..

وأنه كتب لى مقدمة كتابى « حول العالم فى ٢٠٠ يوم » . وأنه تنبأ لى بأن أكون شيئا عظيما فى أى مجال أختاره .

وذهبت لطه حسين معتذراً أقول له : أعماني الإعجاب والحزن عن الاعتراف بفضلك .. فاعذرني !

فقال : بل أعجبنى أنك غضبت . فأنا أحب الشباب الغاضب . وأكره من يمسك القلم ولا يحمله سيفا يدافع به عن قضيته .. إننى أكره الهمس فى الأدب . وأكره الخوف فى النقد . وأكره الفوضويين الذين لا يؤمنون بالأشخاص والمبادئ . وكنت أتمنى لو كان لى من تلامذتى من يدافع عنى كما تفعل عن العقاد حيا وميتا . وهو الرجل الذى لم ينفع أحدا . فلم تكن له سلطة . وهو لا يجامل أحدا .. حتى أكثر الناس حبا له . ولذلك أراك منزها . وهذا يضاعف إعجابى بك ..

* * *

وشاءت الصدفة أن نلتقى نحن الزملاء القدامى . والصدفة هى وفاة الأستاذ . وكان لقاؤنا فى بيت السيدة « سلوى ... » ابنة مؤرخ عراقى كبير . فقد أوفدها أبوها لهذه المناسبة . وقد عرفناها فى مؤتمرات الأدباء فى سوريا والكويت والعراق .. لقد تغيرنا جميعا . كبرنا . وتنوعت هموم الحياة . كل واحد منا ذهب فى طريق .. وعلى وجوهنا وفى عيوننا وفى أصابعنا وأقدامنا آثار الطريق .. من لم يكن له منظار أصبح له واحد غليظ ، ومن كان نحيفًا أصبح له كرش .. ومن كان سليما أصبح مريضا . ومن كان

مرحا أفرغ ما فى نفسه من الضحك والفكاهة .. حتى إن واحدا منا قد حضر ومعه اثنان من الأطفال . ولم يتوقف لحظة واحدة فى تفسير ذلك . فقال : مصيبة .. لقد ماتت أمها فى حادث سيارة ! .

أما السيدة سلوى ... فكانت ترتدى ملابس سوداء ، وعرفنا أن ذلك حداد على العقاد ، وأن هذا هو إحساسها وليست تعاليم والدها . وقالت : لماذا لا تصدرون كتابا عن العقاد فورا ؟ .. عندى الفلوس . وعندى الناشر . وملايين القراء ينتظرون ذلك . وإنهم يعرفونه جيدا . وفى استطاعة أى واحد منكم أن يسجل رأيه وإحساسه فى جانب من جوانب الرجل العظيم .

ولم نكن قد تهيأنا لذلك . أنا قلت : ليس عندى ما أقوله .

قالت : كيف ؟

قلت : إننى أحتاج إلى بعض الوقت لكى أفكر وأتأمل . وأعود فأقلب فى كتبه . ثم أضعه فى مكانه من نفسى وفى مكانه من جيلنا ومن جيله هو أيضا . ثم إننى مشغول بما سوف أكتبه لنفسى وعن نفسى .. وإذا جاء يوم وكتبت عن العقاد فسوف أكتب عن نفسى أمام العقاد أو مع العقاد .. أو العقاد كما أتصوره أى العقاد من تأليفى .. أى أننى سوف أجعله عملا فنيا .. وكما يختلف الفنانون فى تصوير الشىء الواحد ، فسوف أكون كذلك .

قالت : هذا بالضبط ما أريد .. فأنتم من مدارس مختلفة .. وليكتب كل واحد ما يريد وعلى النحو الذى يريد . حتى لا تضيع هذه الفرصة ..

قلت : لا أظن أن هذه هى الطريقة النموذجية .. فالذى تمكن كتابته الآن هو عمل صحفى .. وتعليق خاطف ، لأن القارئ يريد أن يعرف بسرعة . وبعد ذلك يتجه إلى شىء آخر .. ولكن ما يجب أن نفعله هو أن نتأنى ونفكر ، وأن نتعمق وأن نضيف جديدا إلى العقاد نفسه .. لأننا سوف نقدمه على طريقتنا وليس على طريقته ..

قال د . وليم مرقص : ولكنى كتبت عن العقاد مسرحية .. أجريت حوارا بينه وبين عدد من الأدباء ..

قلت : كما فعل المؤرخ الإنجليزى ماكولى عندما أجرى حوارا بين فلاسفة السياسة فى عصره .

قال : تماما .. ولم أكملها . ويمكن نشرها ناقصة . وفى ذلك إشارة إلى أن العقاد مات قبل الأوان ..

قلت : هو مات قبل الأوان ولكنك لم تمت .. أكملها .. أو أكملها أنا .. أو نتبارى جميعا فى إكمالها .. كل واحد يضع لها نهاية .. وان كنت أفضل أن تتولاها أنت .

قال د . عبد الغفار فريد ، وهو كيميائى : أنا أكتب عن النظرة العلمية فى فلسفة العقاد ..

قال د . أحمد عبد السلام شوقى : وأنا أكتب عن النظرية الجمالية عند العقاد .

قال د . أمين رمزى الأستاذ بجامعة دمشق : وأنا أكتب عن الغزل فى شعر العقاد ..

قالت سلوى : وأنا أكتب عن الحب في حياة العقاد . وقد تلقى والدى من الأستاذ العقاد عددًا من الخطابات الجميلة . وفى هذه الخطابات شرح جديد لقصة سارة .. وتوضيح لم ينشر لحقيقة الآنسة مى زيادة .. وقد بعث العقاد بقصيدة من أربعين بيتا تصف جمال مى زيادة .. وهى لم تنشر فى كل دواوين العقاد .. ثم إن الشاعر السورى عمر أبو ريشة لديه تسع رسائل من العقاد ، وأربع قصائد ، واحدة منها عن غرامه بفتاة إنجليزية استأذنته فى ترجمة كتابه « فى بيتى » .. وكان الكتاب قد ترجم إلى اللغة الإنجليزية . لا أعرف من الذى ترجمه ..

قلت : د . زكى نجيب محمود ..

وافترقنا . ولم نلتق بعد ذلك ، حتى هذا اللقاء لم يكن لقاء حارا . فلم نعد شبانا . ولم يعد الذى يجمعنا شيئا واحدا . وقد أحسسنا أننا خسرنا كثيرا . وفاتنا أن نطلب من الأستاذ أن نلتقى به مرتين كل أسبوع بدلا من المرة الواحدة كل يوم جمعة .

* * *

مات الأستاذ العقاد وترك مجموعة من القضايا كان يحلم بأن يجد لها حلا . لم يحل مشكلة التذوق الجمالى !

لم يحل مشكلة الاجتهاد فى تفسير القرآن ! إن تلميذه سيد قطب قد فسر القرآن الكريم كله . وكانت للعقاد اعتراضات كثيرة . ووعد بأن يفسره أعمق . ولم يفعل !

ولم يقنعنى العقاد مرة واحدة بأن الفلسفة الوجودية خاطئة . إنه كان ضد الحرية الفردية ، ويخاف أن تؤدى إلى الفوضى والانحراف ..

وكنت أقول له : أنا أضع السم أمامى الآن ، وأعرف أنه مميت . ومع ذلك أريد أن أبتلعه لأننى أريد أن أموت . فأنا حر تماما . وأعرف جيدا ماذا أريد . فما دخلك أنت ؟ .

وكان العقاد يقول : هذه قضيتى . يجب أن أعرف لماذا تبدد حريتك .. لماذا أنت متشائم .. لماذا أنت عابث بحياتك .. لماذا لا تضيف جديدا إلى ميراث الإنسانية .. لماذا لا تكون نموذجا لغيرك من الناس .. إن الذى ينتحر هو الذى يرى أن حياته تافهة .. هو الذى يرى أن الله قد أعطاه مقلبا . قد وعده بشىء لم يجده .. ولكن الله لم يعد أحدا بشىء . أنت الذى تعمل وأنت الذى تحقق لنفسك وبنفسك ما تريد .

وكنت أقول له بغضب : بل أنت وجودى إلى أبعد درجة يا أستاذ .. إن الوجودية لم تقل أكثر من الذى قلت !

فيقول : يا مولانا هل فى كل مرة أقول كلاما معقولا تصفه بأنه وجودى .. ثم فى كل مرة ترتكب أنت حماقة تقول إنها وجودية ، وتريدنى أن أؤيدك فى ذلك ؟ يجب أن ترسو على بر .. اختر لك مذهبا أعارضك فيه .. أو أؤيدك عليه !

كنت أقول له : إننى أفضل الفاكهة على الشجرة وأنت تفضل عصيرها فى زجاجة !

ولم يفسر لنا أحد ما معنى أن عددا من الأدباء العالميين قد ماتوا معه فى نفس العام : سومرست موم (٨٠ عاما) شين أوكيسى (٨٤ عاما) برندان بيهان (٤١ عاما) ومكتشف البنسلين ايان فلمنج (٥٦ عاما) ..

أما سومرست موم فقد كان سببا فى قطيعة طويلة بينى وبين الأستاذ . فقد جاء موم إلى القاهرة . ونزل فى فندق سمير اميس وذهبت إليه . وكان نصف مشلول . ولم أكن أعرف ذلك . وحاولت سكرتيرته أن تنبهنى إلى أنه لا يحسن التعبير. أنه يتهته ويتأتئ مثل الشاعرين أحمد شوقى وإبراهيم ناجى وموسى عليه السلام .

سألته : إن كان قد قرأ العقاد ؟

قال : لا .

– ولا طه حسين الذى ترجمت كتبه إلى لغات كثيرة ؟

– لا ..

– ولا مسرحيات توفيق الحكيم ولا مؤلفات محمود تيمور .. وكلاهما قد ترجم إلى عشرات اللغات ؟

– لا ..

– فماذا قرأت باللغة العربية ؟

– ترجمة لكتاب « ألف ليلة وليلة » ..

وغضب الأستاذ العقاد وكتب مقالا هاجمنى فيه وهاجم جهل سومرست موم ، وقال : لو أن أحدا نظر إلى الشمس فقال أين هى .. ألا نقول إنه أعمى ؟ .. ثم تساءل الأستاذ : ولماذا استدرجت أنا سومرست موم إلى هذا السؤال ؟ .. هل لأقول للناس إنه جاهل أو لأقول للناس إن مؤلفاتنا لا تستحق أن يقرأها كاتب كبير؟ !

ولم يكن الدافع شيئا من ذلك . إنما هو حديث طويل . وكان من الضرورى أن أعرف ما الذى يعرفه عن أدبائنا أو عن أدبنا . فوجدت الرجل لا يعرف لا أدبنا ولا واحدا من أدبائنا .. فلسنا ضروريين إلى هذه الدرجة التى نتصورها !

. وسألت سومرست موم سؤالا آخر : لقد قرأت فى إحدى المجلات هذا الأسبوع أنك كنت تعمل فى المخابرات البريطانية أثناء الحرب العالمية الأولى .. فكيف يعمل كاتب عظيم مثلك فى المخابرات ؟ !

هل البلاهة التى ظهرت على وجه الرجل هى رأيه فى صاحب السؤال . أو أن المشاعر المتضاربة التى فى داخله لم يفلح فى أن ينقلها إلى وجهه ، أوكانت هذه البلاهة نوعا من الإرهاق .. أو القرف أو الاستخفاف ؟ . . لا أعرف . ولكنى وجدته يتأتئ ويثأثئ ويقول : افرض يا ولدى أن بلدا أصيب بالكوليرا مثل مصر ، وأرادت بريطانيا أن تبعث أحدا ينقل إليها صورة لما حدث ، فهل تبعث محاميا أو ضابطا ؟ .. لابد أن تبعث طبيبا .. وافرض يا ولدى أن زلزالا وقع فى مصر فانهدمت بيوت ومؤسسات ، وأرادت بريطانيا أن تعرف حقيقة الذى جرى .. فهل تبعث محاميا أو مهندسا زراعيا ؟ .. لابد أن تبعث أحد علماء الجيولوجيا .. وفى الحرب العالمية الأولى ، أرادت بريطانيا أن تعرف صدى الحرب فى الرأى العام العالمى ، فأرسلت مفكرا وأديبا .. ألا ترى أن هذا طبيعى ؟

ولما نقلت للأستاذ هذا الحديث بينى وبين سومرست موم ، ضحك العقاد وقال : لا مؤاخذة يا آنسات ..

فقد كان فى صالونه عدد من طالبات الجامعة وبعض المدرسات والشاعرة روحية القلينى ، قال : لا مؤاخذة .. إن السيد أنيس هو الذى أرغمنى على هذا الكلام .. يا مولانا لقد كذب عليك سومرست موم .. موم مثل أندريه جيد مثل الوجودى جان جينيه مثل جوستاف فلوبير الذى عاش فى مصر وتنقل بين القاهرة والفيوم واستقر نهائيا فى مدينة قنا ، وتغنى بجمال قنا .. تصور كاتبا فرنسيا كبيرا جاء من باريس يعجب بمدينة قنا فى نهاية القرن التاسع عشر .. لماذا يا مولانا ؟ .. إنهم جميعا يفتشون عن الشبان الفحول .. إنهم شواذ جنسيا .. ضحك عليك هذا الرجل موم .. هاها .. هاها ..

* * *

ودون تفكير واضح ذهبت مع السيدة « سلوى ... » إلى بيت العقاد ١٣ شارع السلطان سليم بمصر الجديدة .. ولكنى ما رأيت الطريق إلى البيت . ولا ملأت عينى بشىء . فقد عافت عيناى وأذناى ونفسى وعقلى كل شىء . إنها رحلة إلى فراغ فى فراغ .. وأحسست أن حواسى الخمس تشبه يدا مفتوحة الأصابع لا يعلق بها شىء .. وأحسست أن رأسى يشبه ذلك الحجر الدائر الذى « يسنون » عليه السكاكين .. إنه يطرد كل ما يلمسه .. أما الباب الخارجى لبيت الأستاذ فقد وجدته ضيقاً جدا . حتى خيل إلى أن أدخله بجانب من الجسم . مع أنه لم يكن كذلك من قبل .. وكنا نقارن بينه وبين أبواب قصر عابدين . وكنا نصف أبواب القصر الملكى بأنها سجون من ذهب .. وأن نوافذه توابيت معلقة .. وأن المصابيح الفخمة هى دماء الشعب وقد تحولت بعد تفاعلات غريبة إلى مصابيح

تضىء الطريق إلى هدم القصر على رأس صاحبه .. أما الباب الداخلى فلم يكن مفتوحا .. أو كان نصف مغلق .. أما السلالم فقد اختفى لونها تماما .. فلا هى بيضاء ولا هى من الطين .. ولا هى تتسع لأقدامنا .. إن السلالم مثل أسنان متآكلة . والدرابزين قلق فى موضعه .. ثم شقة العقاد فى الدور الثانى .. وكنا نتصور أنها فى الثالث أو فى الخامس .. ثم وجدت باب الشقة مغلقا . وعندما دفعنا الباب بأيدينا التصقت به أيدينا .. إنهم قد دهنوه باللون البنى الأحمر أخيرا .. ربما كانت هذه إشارة إلى أن البيت فى حاجة إلى تجميل بعد أن اختفى منه الرواء والبهاء والجمال والجلال .. وحتى هذه الألوان التى تلتصق بالأيدى كأنها تشدها لأن أحدا لا يريد أن يدخل أو لا يحب ذلك .. أو أن الناس قد انفضوا .. ولو لم تلتصق الأبواب والنوافذ ما توقف أحد لحظة .. أو أن الأبواب تحاول أن تترك أثرا أى أثر .. ودخلنا وكان البيت ضيقا جدا .. والمسافة بين الباب والصالون لا تزيد على خطوتين . وكنا نحسبها طريقا طويلا .. ومائدة الطعام صغيرة جدا.. وغرفة النوم ملاصقة للصالون .. وهى ضيقة أيضا .. وكل شىء بلا أى شىء .. كل شىء خال تماما من المعنى .. كل شىء مسطح بلا أبعاد .. بلا أعماق .. كأن السقف قد انطبق على الأرض يوم مات الأستاذ . فلم يعد لشىء أى ارتفاع عن الأرض .. السرير أرض .. والمقاعد أرض .. والأحذية قاش على الأرض .. والسقف أرض .. والهواء له رائحة الأرض .. والمكتبة صغيرة والكتب فيها قليلة .. ومكتب الأستاذ فى جانب من الغرفة صغير ومقعده صغير .. والنافذة كأنها « طاقة » .. مع أن الأستاذ كان يصفها بأن لها مزايا فلكية فالشمس تدخلها بحساب والهواء أيضا .. ودورة المياه التى شهدت ويلات الأستاذ ونهايته هى زنزانة جليدية .. والمطبخ الذى يطهو المسلوق للأستاذ كأنه غرفة لنفايات كل شىء .. لقد مات كل معنى فى كل شىء .. وكنا إذا وجدنا مسمارا على الأرض نحاول أن نجعل له معنى ..لأن مسمارًا على أرض شقة العقاد لابد أن يكون له معنى خاص .. أو دلالة خاصة .. فكل شىء بالعقل . وكل عقل يحار أمام عقل العقاد .. ولكن وجدنا كل شىء أصبح نظيفا منظما مغسولا – نعم .. كل شىء مغسول من المعنى والعمق والقيمة . لأن الذى كان القيمة والمعنى ، لم يعد هناك ..

ووجدنا أنفسنا نجلس فى صالون الأستاذ .. إنه أصغر كثيرا جدا مما كنا نراه .. كيف كان الأستاذ يأتى بالدنيا إلى هذا الصالون يقلبها ويعدلها ويلقى بها من النافذة ؟ ! .

كيف كان هذا الصالون الصغير يتسع لكل ذلك ؟ !

كيف كانت تقام هنا محكمة التاريخ .. وكيف كان العقاد هو القاضى والمستشارين . وكنا نحن المحلفين ؟

كيف يطرد الملوك والزعماء وأنصاف الآلهة من جلسته هذه . ثم يغلق الباب فى وجوههم دون أن يهتز ؟ ! ..

وكيف كنا نرى كل ذلك بوضوح ؟ ! .. حتى اعتدنا على أن يجىء التاريخ خادما يستأذن . فيأذن لأبطال التاريخ : سياسيًا بعد فيلسوف بعد عالم بعد كافر بعد عاشق بعد شوقى وطه حسين والرافعى ومحمد مندور ولويس عوض وعبد الرحمن بدوى والكواكبى والجبرتى والشيخ محمد عبده والأفغانى ومحمد عبد الوهاب وسيد درويش وشكسبير وجيته وأبى نواس والعبقريات الإسلامية والنكت السياسية والنكت العارية ..

قالت لى السيدة سلوى : هل تعرف أن الأستاذ قد تنبأ بوفاته ؟ ..

قلت : سمعت من يقول ذلك .

قالت : عندى الدليل ..

وأعطتنى خطابا بعث به الأستاذ إلى والدها يقول فيه : إن نجوت بعد مائة يوم فسوف أعيش طويلا .. ولكن لا أظن ذلك !

وجعلنا نحسبها على أصابعنا . لقد أرسل الأستاذ هذا الخطاب إلى والدها يوم الكريسماس من سنة ١٩٦٣ !

وفجأة انفتحت شهيتى إلى الكلام كأننى محام أترافع فى قضية .. وفجأة أحسست أننى شخصيا متهم فى قضية أخرى فاندفعت أقول لها :

عندما مات أبى ، لم أجد ما أقوله .. لم أكتب . لم أتلق العزاء .. ولا عاتبت أحدًا لأنه لم يمد لى يدًا يطلب السلوان لى والجنة لوالدى .. فقد كان من الضرورى أن أشعر بأن والدى قد غاب .. قد بعد عنى .. كان يجب أن أناديه فإذا لم يرد أدركت أنه ليس هناك .. وإذا عاودت النداء أيقنت أننى وأنه لسنا هناك .. فبيننا مسافات فى المكان والزمان .. ولم أكن فى حاجة إلى معجزة لكى أشعر بذلك .. فقد اقتربت منه وفتح عينيه وقال كلمة ، ولما لم أجد ابتسامته الرقيقة أيقنت أنه مات ، فقد كان الابتسام مثل النقط فوق وتحت الحروف ، فهو إذا قال ثلاث كلمات ابتسم خمس مرات . . وكان لا بد أن أقنع عقلى وقلبى ، وأن أعيد ترتيب حياتى كلها قبل أن أشيع فى وجودى كله أنه قد مات . . ولذلك احتجت بعض الوقت لكى أرى أوضح وأسمع أعمق وأفكر أبعد لكى أسترجع الذى كان ، فأجعله كأنه ما يزال حيًا أمامى . .

قالت سلوى : أنت تذكر أمير الشعراء . مات أبوه كما تعرف سنة ١٨٩٧ . ولم يتمكن شوقى من أن ينظم بيتًا واحدًا . . وسخر النقاد منه وقالوا : إنه أسرع شاعر ينظم فى أى مناسبة وعندما يموت أى إنسان ، فلما جاءته المناسبة الكبرى ،لم يجد ما يقوله . .

قلت كأننى أجد له عذرًا أو أرفض الاستمرار فى عجز شوقى وعجزى أيضًا : وماذا يهم الناس ؟ . . إنهم فقط يريدون أن يتفرجوا . . أن يتمتعوا بعذاب الشاعر عندما يفقد أباه . . يريدون

أن يروا كيف يتلوى ويتوجع ويحترق على موسيقى الفن الرفيع . .

قالت سلوى : هل تذكر أبيات شوقى فى رثاء أبيه ؟ . . أنا أذكر بعضها . .

وشعرت بشىء من الارتياح لأنها سوف تلقى شعرا ، فصوتها مليء ولها بحة أنثوية ، ثم إنها تخطف نهايات الكلمات فى رعشة راقصة مدربة – إن سلوى حفيدة سمير اميس الملكة العراقية الراقصة . . فهى تتراجع وتهتز وتتقدم ثم تغمض عينيها وتسوى شعرها أو تتركه ينزل طويلاً أسود على وجهها ، ثم تعيده إلى الوراء لكى يقود حركة عصيان فى عينيها وشفتيها وعنقها وصدرها . . إنها جميلة – قلت ذلك لنفسى . واستنكرت وأنا فى زحام الأسى والحزن أن أضبط نفسى متلبسًا بهذا الإحساس لسلوى العراقية .

واختارت سلوى وضعًا يناسب الشعر الذى سوف تشدو به .. أو تتغنى به .. أو تتباكى به .. أو تتحدى به .. لا أعرف كيف تلقيه وكم مرة تنظر ناحيتى وكم مرة لا تفعل ذلك ..

وسوف أعود أنا لا أعرف متى ، لكى أضبط أوتارى وأعزف .

قالت سلوى : يقول شوقى :

سألونى لم .. لم أرث أبى ؟	ورثاء الأب دين أى دين
أيها اللوام ما أظلمكم !	أين لى العقل الذى يسعف أين ؟
يا أبى ، ما أنت فى ذا أول	كل نفس للمنايا فرض عين
أنا من مات ومن مات أنا	لقى الموت كلانا مرتين
نحن كنا مهجةً فى بدن	ثم صرنا مهجة فى بدنين
ثم عدنا مهجة فى بدن	ثم نلقى جثة فى كفنين
انظر الكون وقل فى وصفه :	كل هذا أصله من أبوين
فإذا قيل : ما أصلها ؟	قل : هما الرحمة فى مرحمتين
فقدا الجنة فى ايجادنا	ونعمنا منهما فى جنتين
وقف الله بنا حيث هما	وأمات الرسل إلا الوالدين
طالما قمنا إلى مائدة	كانت الكسرة فيها كسرتين
وشربنا من إناء واحد	وغسلنا بعد ذا فيه اليدين
وتمشينا يدى فى يده	من رآنا قال عنا : أخوين
نظر الدهر إلينا نظرة	سوت الشر فكانت نظرتين
ياأبى والموت كأس مُرة	لاتذوق النفس منها مرتين
أشربت الموت فيها جرعة	أم شربت الموت فيها جرعتين

أنت قد علمتنى ترك الأسى كل زين منتهاه الموت : شين
وإذا متُّ وأودعتُ الثرى أنلقى حفرة أم حفرتين ؟!

* * *

ثم قلت : إن الفنان الايطالى ميكل انجلو كان يصف إبداعه الفنى فى صنع التماثيل بأنه لايصنع شيئًا وإنما هو يكشف الغطاء عن التمثال مدفونًا فى الحجر . فلابد أن نجد الحجر لنعثر فى داخله على تمثال العقاد .. هذا الحجر هو كل الظروف النفسية والأدبية والتاريخية وقد تجمعت أمامنا بوضوح . وبعدها ننشب القلم والفرشاة والإزميل حتى نستخرج الأستاذ من خارجنا وفى داخلنا .. نكشف عنه الغطاء .. لأنه هناك .

وجعلنا نتحدث عن أناس كثيرين تنبأوا بوفاتهم . روت هى قصصا عن أقارب لها قد فعلوا ذلك ..

قلت : لا أعرف شخصيا أحدا كذلك .. ولكن فى التاريخ حوادث مماثلة .. فالفتاة جان دارك التى حبسها الإنجليز لأنها ثارت على احتلالهم لفرنسا ، عندما سألها القسيس عن موعد خروجها من السجن ، قالت بعد ثلاثة شهور تماما . وفعلا أخرجوها يوم ٣٠ مايو سنة ١٤٣١ ليصلبوها ويحرقوها .. والرئيس الأمريكى لنكولن رأى فى نومه وهو يتمشى فى البيت الأبيض جثة ملقاة فى إحدى الغرف وسمع بكاء وعويلا . وسأل أحد الحراس : من الذى مات ؟ فقال : لقد اغتالوا الرئيس لنكولن .. ونهض لنكولن من نومه فى حالة من الفزع . وفى نفس اليوم اغتيل لنكولن فى أحد المسارح .. والأديب الأمريكى مارك توين أيضا .. لقد ولد يوم اكتشف الفلكى الشهير هيلى سنة ١٨٣٥ أن فى السماء مذنبا طويلا يراه سكان الأرض بوضوح .. وقال توين إذا عاد هذا المذنب إلى الظهور فى سنة ١٩٣٠ فسوف أموت .. وعندما ظهر المذنب فى أبريل سنة ١٩٣٠ مات مارك توين .. والموسيقار النمساوى ارنولد شينبرج كان على عكس الأستاذ يتشاءم من رقم ١٣ .. وقد ولد يوم ١٣ سبتمبر وقال لزوجته إما أن أعيش ٦٧ عاما أو ٧٦ عاما لأن ٦ + ٧ = ١٣ . وعندما بلغ السادسة والسبعين من عمره لزم الفراش فى يوم ١٣ يوليو وكان يوم جمعة . فأحس أن كل شىء قد تجمع فى هذا اليوم .. السنة رقم ٧٦ من حياته واليوم ١٣ ثم يوم جمعة .. وعندما دخلت زوجته لتراه فى الفراش ولتؤكد له سخف أفكاره رفع يده إليها ومات .. وكان ذلك قبل منتصف الليل بثلاث عشرة دقيقة.. أما عالم الأرواح الشهير إدجار كيسى فهو الذى تنبأ بالطريقة التى سوف يموت بها واليوم والساعة .. قال إنه سوف يموت فى رأس سنة ١٩٤٥ وسوف يموت غرقا . ولم يمت غرقا إنما امتلأت رئتاه بالماء ومات مختنقا .. وأذكر أن الشاعر عبد الرحمن صدقى قال لى إنه سأل الأستاذ مرة إن كان من الممكن أن يعيش مائة عام .. فأجابه ضاحكا وقال : مائة .. قليل جدا . استطيع أن أعيش مائة

ألف .. ضعفي في جليد القطب الشمالي .

ولكن الأستاذ قال مرة لصديقه المايسترو محمد حسن الشجاعي إنه لا يتوقع أن يعيش طويلاً .. لأنه لا شيء يقصف العمر مثل الأعصاب المتوترة .

وعلى الرغم من أن الأستاذ كان منطقياً وكان يحسب كل شيء بالعقل ، فإن العقل والمنطق كان يكلفه ضبط أعصاب مستمراً .. والضبط إرهاق . والإرهاق يجعله عصبياً . والعصبية تصيبه بالإمساك ، والإمساك يجعله عصبيًا أكثر .. وقد عانى الأستاذ من الإمساك مدى الحياة .

* * *

وجاء عصير الليمون كما كان يجيء .. في أكواب أكبر . وجاءت القهوة في فناجين أحسن . وتركنا الليمون كما جاء ، والقهوة كما وضعت – دليلا على أن أحدا لم يكن في الصالون ..

* * *

ولا أظن أنني أحسست أنني ذهبت .

ولا أنني جلست ، فقد ذهبت شبحا وخرجت شبحا .

ذهبت غائبا ،

ورجعت أكثر غيابا ..

وأحسست كأنني .

خرجت من الشقة .

وفي خطوة واحدة .

وجدتني في الشارع .

فقد اقتربت الأرض من السقف ..

اقتربت وضاقت .

واختفت .

وانتهت أيضا !!

القاهرة ٦ أكتوبر سنة ١٩٨١

المحتويات

صفحة

هذا الكتاب

- ليس هذا عملاً أدبياً فلسفياً تاريخياً دينياً شخصياً فقط ، وإنما هو جيل .. عصر .. دنيا الأديب الكبير أنيس منصور الحائز على جائزة الدولة التشجيعية سنة ١٩٦٣ وجائزة الدولة التقديرية سنة ١٩٨٢ .. وفي هذه الدنيا كل ملامح الجيل ، وعذاب العصر ، وحيوية التاريخ ، وروعة الفلسفة ، وحرارة الدين .. ثم هذا الضياع الذي عاشه أنيس منصور هو وجيله من الشبان .. وكان الأستاذ عباس العقاد هو العملاق والمثل الأعلى .. الهدف والطريق .. البداية والنهاية ، أو كان البداية وكان قبل النهاية فقد التقى به وسمعه وبكى عليه .. وتحيرت قدماه بين كل عباقرة العصر الأحياء والأموات ..
- ففي صالون العقاد احتشدت كل العقول والأذواق والضمائر وكل الحديد والنار والقلق والعذاب والأبهة والكبرياء وكل المعارك بين المبادئ والقيم ..
- ولكن كاتبنا الكبير أنيس منصور ، الذي أصدر سبعين كتاباً ، خرج سالماً غانماً وفي يده ، هذا الذي بين يديك : كتاب من أروع الكتب التي صدرت في الخمسين عاماً الماضية في عالمنا العربي .. إنه صالون العقاد بقلم أنيس منصور ، أو صالون أنيس منصور على ضوء العقاد .. أو هو العقاد من اختراع أنيس منصور ..
- أياً اخترت من هذه المعاني ، فإن متعتك مضمونة .. وهي متعة لا نهاية لجمالها وعمقها مع كتاب العام وكل عام !

